

تأليف: ك. سنوك هورخرونيه
نقله إلى العربية: د. علي عودة الشيوخ
أعاد صياغته وعلق عليه: د. محمد محمود السرياني
د. معراج نواب مرزا

صفحات من تاريخ مكة المكرمة

المجلد الأول



تأليف: ك. سنوك هورخرونيه
نقله إلى العربية: د. علي عودة الشيوخ
أعاد صياغته وعلق عليه: د. محمد محمود السرياني
د. معراج نواب مرزا

صفحات من تاريخ مكة المكرمة

المجلد الأول

«الطبعة الثانية»
«الطبعة الأولى للكتاب نشرتها دارة الملك عبدالعزيز
عام ١٤١٩هـ (١٩٩٩م) بمناسبة الاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية»

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هورخرونيه، ك. سنوك
صفحات من تاريخ مكة المكرمة / ك. سنوك هورخرونيه، علي عودة
الشيوخ ـ ط ٢ ـ مكّة المكرّمة، ١٤٣٢هـ.
٣٢٨ ص، ٢٠ X ٢٧ سم
ردمك: ٧ ـ ١ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٤ ـ ٢ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج ١)

١ ـ مكة المكرمة ـ تاريخ ٢ ـ مكة المكرمة ـ أحوال اجتماعية
٣ ـ مكة المكرمة ـ وصف ورحلات أ ـ الشيوخ، علي عودة (مترجم)
ب ـ العنوان
ديوي ٩٥٣,١٢١ ١٤٣١/٤٥٣٨

رقم الإيداع: ١٤٣١/٤٥٣٨
ردمك: ٧ ـ ١ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٤ ـ ٢ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج ١)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

إن الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فإن الإسلام هو من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الأمة الإسلامية، وكفى بها نعمة.. وإن استحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها.

لذلك فإن الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بدأ مشروعه الحضاري الإسلامي في بناء دولة قوية الأركان وضعت نصب عينيها منهج الحياة الكامل كما ورد في الكتاب الكريم والسنة النبوية.. حيث إن هذا المنهج هو الذي يحفظ سيادتها وعزها وكرامتها.. وكان من أسس هذه الدولة المباركة نشر الأمن، وحفظ حقوق الرعية، وتحقيق العدالة الاجتماعية، لذا كان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام، بسبب مواقفها العادلة والثابتة.

وسار على نهجه ـ رحمه الله ـ أبناؤه البررة الملوك سعود وفيصل وخالد وفهد ـ رحمهم الله ـ وخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز - حفظه الله - وعبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، بنوا الدولة والوطن، ونقلوه من حال إلى حال.. علمياً وثقافياً وحضارياً وعمرانياً واقتصادياً.. وشجعوا كل جهد علمي ودراسة تهم بلادهم التي تفخر بوجود الحرمين الشريفين على أرضها.. فكيف إذا كانت هذه الدراسة تهتم بمكة المكرمة وتاريخها.

ويأتي هذا الكتاب الذي نقدم له (صفحات من تاريخ مكة المكرمة) للمستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورخرونيه، المترجم إلى اللغة العربية.. والذي يقوم بطباعته ونشره مركز تاريخ مكة المكرمة في طبعته الثانية ضمن الجهود المباركة في رصد تاريخ مكة المكرمة.

وتنبع أهمية الكتاب من أنه يعد تسجيلاً دقيقاً لزيارة المؤلف (سنوك) لمكة المكرمة سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م).. وتوثيق تاريخي لمهبط الوحي ومنبع الرسالات وقبلة المسلمين.. هذا

فضلاً عن بحث الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة واستعراض للعادات والتقاليد والتعليم والإعلام بالإضافة إلى دراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية. ويتضمن الكتاب صوراً وخرائط مختارة لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة، والصناعات التقليدية في تلك الفترة.

ويقدم مركز تاريخ مكة المكرمة هذه الطبعة الثانية للكتاب والباحثين والمهتمين ليطلعوا أولاً على دراسة تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية لأقدس بقعة في العالم الإسلامي، وثانياً ليطلعوا على أنموذج من أساليب الغربيين حينما يكتبون عن العالم الإسلامي.

ويبقى الكتاب ذا أهمية علمية وثقافية لأنها تمس جزءاً مهماً من المملكة العربية السعودية خاصة والعالم الإسلامي عامة. آملين أن يحقق الله به النفع والفائدة.

مركز تاريخ مكة المكرمة

تقديم الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله،
أما بعد،

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها. ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه، فجعل الإسلام نبراسًا له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار.

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس إلى أكثر من مائتين واثنين وستين عامًا، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ والشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله ـ عز وجل ـ وبسنة رسوله ﷺ. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم.

وجاءت عهود بنيه من بعده: سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وخالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز يحفظه الله امتدادًا لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ/ ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بتوفيق الله تعالى وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيمانًا وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية.

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد التي قامت فيها الدعوة والدولة معًا لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه.

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأبناؤه من بعده؛ عرفانًا بفضلهم ووفاء لحقهم؛ وإيضاحًا لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله ـ عز وجل ـ على هذه البلاد وأهلها من تقدم علمي، ومن نهضة زاهرة. وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة «**مكتبة الدارة المئوية**» التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة.

في الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه، وأن يوزعنا شكرها، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سلمان بن عبدالعزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

محتويات المجلد الأول

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. لقد مضى أكثر من عشر سنوات على الطبعة الكاملة لترجمة كتاب «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» للمستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورخرونيه إلى اللغة العربية، ويسعدنا الآن أن نقدم لهذه الطبعة، وخلال هذا العقد من الزمن اتضحت بعض النقاط التي تلقي مزيدا من الضوء على زيارة سنوك هورخرونيه إلى مكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) وعلاقته بالسيد عبدالغفار بن عبدالرحمن البغدادي، حيث صدرت العديد من الدراسات:

١ ـ «البعثة الهولندية في الجزيرة العربية من ١٣٠٠ ـ ١٣٧٠هـ: لمحة تصويرية. وبه دراسة للأستاذة ديري أوستدام عن سنوك[١]

٢ ـ «الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة»[٢] وبه دراسة مكثفة عن سنوك وصوره الفوتوغرافية وعلاقته بالطبيب المكي السيد عبدالغفار.

٣ ـ مقالة في مجلة الفيصل بعنوان «علاقة المستشرق كريستين سنوك هورخرونيه بالملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله»[٣].

٤ ـ أصدر البروفسور ويتيكام رئيس قسم الدراسات الاستشراقية السابق في جامعة لايدن كتابا باللغة الهولندية نشر فيه «يوميات جدة» لسنوك وكذلك ترجمة هولندية للجزء الثاني من كتابه مكة، وكتب مقدمة ضافية عن سنوك، كما أعاد نشر كامل صور (الألبومين) وصور أخرى من مجموعة سنوك[٤].

---

(١) ليوون ـ كارل فان وآخرون، ١٩٩٩م (١٤١٩هـ) المعهد الملكي الهولندي للدراسات الهولندية المدارية، أمستردام، هولندا.

(٢) مرزا، معراج وعبدالله شاووش، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤٢٣هـ (٢٠٠٤م) الرياض.

(٣) طاشكندي، عباس، مجلة الفيصل العدد ٣٥٧، ١٤٢٧هـ.

(4) Witkam, Jan Just, Christiaan Snouck Hurgronje, Mekka, 2007, Amsterdam.

ولقد استفدنا كثيرا من هذه المراجع ونستطيع أن نستخلص معلومات موثقة عن سنوك وعن السيد عبدالغفارالطبيب المكي، والعلاقة التي ربطت بينهما.

أولا: الدكتور كريستيان سنوك هورخرونيه «عبدالغفار»

مستشرق هولندي ولد في جمادى الآخرة ١٢٧٤هـ (٨/ ٢/ ١٨٥٧م)، وقد التحق بجامعة ليدن بهولندا لدراسة اللاهوت عام ١٢٩١هـ (١٨٧٤م)، ثم كرس نفسه بعد ذلك لدراسة اللغات والآداب السامية، وكان موضوع رسالته للدكتوراه عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، هو «الحج عند المسلمين وأهمية الدين الإسلامي». ثم عمل سنوك مع المستشرق الألماني الشهير «نولدكه»، وعين بعد ذلك محاضراً في الدراسات الإسلامية في كلية تسمى «كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية» وهي إحدى كليات جامعة ليدن أيضاً، وأصبح متقناً للعربية الفصحى.

في عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م)، حصل على إجازة دراسية من جامعته للسفر إلى الحجاز، فوصل إلى جدة غرة ذي القعدة عام ١٣٠١هـ (٢٤/ ٨/ ١٨٨٤م)، وسكن في دار القنصلية الهولندية بجدة لمدة أربعة أشهر ونصف تقريباً، ثم انتقل في منتصف ربيع الأول ١٣٠٢هـ، (١/ ١/ ١٨٨٥م) للإقامة في بيت «أبي بكر رادين»، وهو حجازي من أصل جاوي، وكان سنوك يتردد دائماً إلى القنصلية الهولندية حيث أقام معملاً للتصوير الفوتوغرافي، وأصبح مشهوراً به بين سكان جدة.

ويروي الشيخ محمد بن حسين بن عمر نصيف (١٣٠٢ ـ ١٣٩١ / ١٨٨٥ ـ ١٩٧١م) عالم جدة المشهور رحمه الله[1] أن جده الشيخ عمر قد أرسله ـ وهو في الشهر السادس من عمره ـ إلى سنوك لالتقاط صورة فوتوغرافية له، وقد ظهرت هذه الصورة، فعلاً في (ألبوم) سنوك الأول، إطار رقم (٥٠). وكذلك نجد في (ألبومه) الأول عدداً كبيراً من الصور لأعيان مكة المكرمة وجدة وبعض العامة وعدداً من صور حجاج جنوب شرق آسيا، لكن معظمها لم يعرفه سنوك، مكتفياً بعبارة خادم مع طفل سيده، أو مطوف لحجاج الملايو، أو دلال، أو من أعيان مكة المكرمة... وهكذا بدون أي توضيح.

لقد أصبح سنوك معروفاً في جدة بصفته الحقيقية: أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة

---

(١) عبدالقدوس الأنصاري: تاريخ مدينة جدة، صفحة ٤٩٥.

ليدن، وأصبح موضع تكريم، حتى إن قاضي جدة الشيخ إسماعيل آغا ذهب بنفسه إلى مسكن سنوك يوم الجمعة ٢٩ من ربيع الأول ١٣٠٢هـ (١٦ من يناير ١٨٨٥م)، لتسجيل إشهار إسلام سنوك بحضور الشهود، وتسمى باسم عبدالغفار. ولا نعرف على وجه القطع إن كان سنوك قد أظهر إسلامه قبل ذلك. وفي اليوم الثاني كرر القاضي الزيارة ومعه الآن وفد من قبل الوالي لتهنئة سنوك بالإسلام، وإبلاغه أن الوالي عثمان نوري باشا ـ الموجود في جدة حينئذ ـ يرحب بزيارة سنوك له، فقام سنوك بزيارة الوالي غرة ربيع الآخر ١٣٠٢ هـ، (١٨ من يناير ١٨٨٥م)، فأستقبله الوالي بالترحاب وأبلغه بإمكانية سفره إلى مكة المكرمة. وبعد ثلاثة أيام أخرى قام الوالي عثمان باشا بنفسه بزيارة «عبدالغفار» في مسكنه بمنزل «أبي بكر رادين»، ثم ذهبا سويا إلى حديقة القنصلية الهولندية لالتقاط صورة فوتوغرافية تذكارية للوالي. وقد ظهرت هذه الصورة في (الألبوم) الأول الذي نشره سنوك، برقم ٨.

وبعد شهر من ذلك غادر سنوك جدة، ووصل إلى مكة المكرمة يوم الأحد ٧ من جمادى الأولى ١٣٠٢هـ (٢٢ من فبراير ١٨٨٥م). وفي مكة المكرمة، صار سنوك يختلف إلى حلقات العلماء المكيين وغيرهم، ووطد علاقته بعلية القوم، وارتاد المجالس الخاصة، كما اختلط بعامة الناس، وجلس في المقاهي العامة. كل ذلك لاستكمال دراسته للإسلام والمجتمع المكي خاصة.

وبعد أن أمضى نحو ١٧٠ يوماً بمكة المكرمة جاء أمر من إسطنبول بإبعاده، فأبلغه قائم مقام الوالي العثماني بضرورة مغادرته مكة المكرمة فوراً، وأعطاه بضع ساعات لجمع بعض أغراضه. كان ذلك في أوائل ذي القعدة ١٣٠٢هـ (منتصف أغسطس ١٨٨٥م تقريباً)، وكان الوالي عثمان باشا لا يزال في الطائف. وقد عرف سنوك فيما بعد أن أمر إبعاده قد جاء على إثر مقالة نشرتها إحدى صحف إسطنبول تورد قصة كانت قد نشرتها صحيفة «الزمان» الفرنسية في الخامس من يوليو ١٨٨٥م (بداية شوال ١٣٠٣هـ) حول حجر تيماء[1]، وضلوع سنوك في محاولة سرقته. ويتضح من أوراق سنوك أنه تلقى من القنصل الهولندي بجدة رسالة في الثالث من أغسطس تحذره من أن اسمه ورد ضمن مقالة إسطنبول. لكن سنوك ينفي التهمة بشدة عن نفسه.

بعد خروج سنوك المفاجئ من مكة المكرمة قضى نحو ثلاثة أسابيع في دار القنصلية

---

(١) حجر تيماء هو لوح حجري عليه نقوش آرامية نادرة، ويوجد اليوم بمتحف اللوفر بباريس.

الهولندية، بانتظار أمتعته وأوراقه التي لم يستطع جمعها كلها بنفسه، وغادر جدة على إحدى السفن في أواخر ذي القعدة ١٣٠٢هـ، (أوائل سبتمبر ١٨٨٥م)، أي بعد أن أمضى عاماً كاملا وبضعة أيام بين مكة المكرمة وجدة. وقد ترك سنوك في مكة المكرمة وجدة الكثير من الأصدقاء الذين كان يراسلهم بعد ذلك ليوافوه بإجابات لاستفساراته عن بعض الأمور التي لم يستطع مشاهدتها بنفسه، والتقاط صور لها، ونخص بالذكر علاقته مع الطبيب (والفوتوغرافي) المكي السيد عبدالغفار، التي سنحاول استجلاءها فيما بعد.

وبعد سنوات ثلاث، نشر سنوك باللغة الألمانية كتابه «مكة» حيث صدر الجزء الأول عام ١٨٨٨م ثم صدر الجزء الثاني وبرفقته (الألبوم) الأول للصور عام ١٨٨٩م، ويتحدث الجزء الأول عن مكة المكرمة وحكامها، والثاني عن الحياة اليومية والعادات والسكان والتعليم بمكة المكرمة، وبعد صدور الجزء الثاني بقليل تسلم سنوك مظروفا به صور مهمة من صديقه طبيب مكة (السيد عبدالغفار) وقام بنشرها في (الألبوم) الثاني في العام نفسه ١٨٨٩م.

وفي عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) قام القنصل البريطاني بجدة ج.هـ. موناهان بترجمة الجزء الثاني إلى الإنجليزية تحت إشراف المؤلف نفسه. وفي عام ١٩٨١م نشر ف. ألن وكارني جيفن دراسة[١]، كشف فيها أن سنوك تعمد كشط توقيع المصور الأصلي لمعظم الصور التي نشرها في (الألبومين)، وكان التوقيع على الصور بالنص الآتي: «فوتوغرافيت السيد عبدالغفار طبيب بمكة المكرمة».

وفي عام ١٩٨٦م، قام أنجلو بيشي بإعادة إصدار (ألبومي) الصور بعنوان «مكة منذ مائة عام» في مجلد واحد باللغة الإنجليزية، مع مقدمة عن سنوك، وجاء فيها[٢] «أن أغلب صور (الألبوم) الثاني عليها كتابة باللغة العربية، وأنها تعرضت لرتوش دقيقة لمحوها مما يوحي أن سنوك لم يتلَقَّ من صديقه الصور السلبية الأصلية (النيجاتيف) ومعنى ذلك أن الطبيب المكي، هو الذي حمض صوره وطبعها في مكة المكرمة قبل أن يرسلها إلى هولندا».

وفي عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) أصدرنا ترجمة عربية من الترجمة الإنجليزية للجزء الثاني.

وفي عام ١٤١٩هـ (١٩٩٩م) قمنا بإصدار الطبعة الأولى لجزأي هذا الكتاب باللغة العربية.

ومن حسن الحظ أن السيدة ديري أوستدام التي شاركت بكتابة الفصل الخاص بسنوك في

---

(1) Peters, F.E. Mecca, p.xiii.

(2) Pesce, Angelo: Makkah a hundred years ago, 1986, p17.

الكتاب التذكاري الذي أصدره المعهد الهولندي للدراسات المدارية بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية بعنوان «البعثة الهولندية في الجزيرة العربية سنة ١٣٠٠ ـ ١٣٧٠هـ: لمحات تصويرية»، قد ألقت المزيد من الأضواء على سنوك وصوره (الفوتوغرافية)، فقد ذكرت[١] مايلي: «كانت جميع الصور التي نشرها في (الألبوم) الثاني والعديد من الصور الأخرى من تصوير السيد عبدالغفار الطبيب المكي.» ومنه يتضح أيضًا أن صورتي المطبعة ودار الحكومة التي ظهرت في (ألبومي) سنوك هما من تصوير السيد عبدالغفار.

وقد نص سنوك صراحة في مقدمة الجزء الأول على أن الصور (الفوتوغرافية) المنشورة،باستثناء صورتين التقطهما صادق بك، هي[٢]: «صور التقطتها بنفسي، أو من قبل أحد العرب الذي علمته كيفية التقاط الصور».

ولربما نسلم بزعم سنوك أنه هو الذي درب السيد عبدالغفار على التصوير، وربما أراد سنوك أن لا يلتقط بنفسه صوراً لمكة المكرمة حتى لا يثير شكوك المكيين، خاصة أنهم يعرفون أصله الهولندي، وأنه أتى لدراسة الإسلام، فقام بتدريب السيد عبدالغفار لالتقاط الصور العامة للحرم والمشاعر دونما شك من أحد، وعلى أي حال فإن لسنوك أسبقية النشر، لكنه تعمد عدم ذكر اسم المصور الذي وصفه مرة بأحد العرب ومرة طبيب مكة.

وبعد اطلاعنا على كثير من الصور المحفوظة في مكتبة جامعة إسطنبول عن الحرمين، اتضح أنها تضم معظم الصور التي التقطها السيد عبدالغفار الطبيب المكي الموجودة في (ألبومي) سنوك تحمل توقيعه صراحة، كما أن هناك مجموعة لصور السيد عبدالغفار هذا في الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، ومجموعة في معهد الدراسات الشرقية بليدن بهولندا، وكلها تحمل توقيعه الصريح. وبعد دراسة جميع الصور التي نشرها سنوك اتضح لنا ما يلي:

١ ـ أن سنوك هو الذي التقط الصور الشخصية لكثير من أعيان مكة المكرمة وجدة وكثير من حجاج جنوب شرق آسيا، في مقر القنصلية الهولندية بجدة، وهذا الأمر تؤيده شواهد منها

---

(١) ديري أوستدام «تجميع الجزيرة العربية: كريستيان سنوك هرخرونيه»، ص ١٧ ـ ٢٥، في كتاب «البعثة الهولندية في الجزيرة العربية سنة ١٣٠٠ ـ ١٣٧٠ هـ: لمحات تصويرية، إصدار المعهد الملكي الهولندي للدراسات المدارية، ١٤١٩ هـ. أمستردام.

(٢) ك. سنوك هورخرونيه: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ج١، صفحة ١٩.

أن خلفية هذه الصور الشخصية متشابهة، فالجدار والنوافذ والمزروعات، والستارة التي تظهر داخل غرفة مفروشة بالسجاد ترجح أنها التقطت في فناء القنصلية الهولندية بجدة أو داخل أحد حجراتها.

٢ ـ يبقى بعد ذلك ثلاث صور في (ألبومي) سنوك لم نجد ما يقابلها في مجاميع صور السيد عبدالغفار التي اطلعنا عليها في المتاحف. ومن حسن الحظ ظهور كتاب ويتيكام سابق الذكر رئيس قسم الدراسات الاستشراقية السابق في جامعة ليدن الذي أعاد نشر الصور التي ظهرت في (ألبومي) سنوك عام ١٨٨٨ و١٨٨٩م وأضاف عددا من الصور التي لم تنشر من قبل، وحاول توضيح أي الصور قد التقطها السيد عبدالغفار الطبيب المكي، وساعدنا ذلك على تحقيق صور ثلاثة كانت موضع تساؤل:

أ ـ الرسم المحفور لحفل استقبال المحمل عند مدخل المسعى أمام باب علي رقم (١٨)، (رقم ٦٢ في كتاب ويتيكام)، وهي محفورة من أصل (فوتوغرافي). وقد نشر محمد صادق هذه الصورة (فوتوغرافيا) في كتابه «دليل الحج» ص ٩٥، المنشور عام ١٣١٣هـ، وعليه توقيع (Sadag Sc Geneve). لكن ويتيكام في كتابه أوضح أن الصورة قد التقطها السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن البغدادي عام ١٨٨٦م.

ب ـ صورة الشريف عون الرفيق رقم (٢٢)، (رقم ٢١ في كتاب ويتيكام)، ولم يشر سنوك، في كتابه إلى قيامه بتصوير الشريف عون، بل نجد أن محمد صادق قد نص صراحة في كتابه «كوكب الحج» الذي يصف رحلته إلى مكة المكرمة حج عام ١٣٠٢هـ، عند وصفه لأحداث يوم الاثنين ١٩ من ذي الحجة (٢٨ من سبتمبر ١٨٨٥م)، على ما يأتي[١]: «وكان سعادة الشريف قد دعاني إلى الغداء ولم يكن معنا ثالث. وسمح لي برسم صورته بالفوتوغرافيا بملابس التشريف»، مما يجعلنا نقطع يقيناً بأن الصورة من تصوير محمد صادق وليست للسيد عبدالغفار.

ج ـ مخفر الصفا رقم (١٩) الذي بناه الوالي عثمان نوري عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م) (رقم ٦٥ في كتاب ويتيكام)، وهو رسم محفور، عن أصل (فوتوغرافي). وقد أوضح ويتيكام في كتابه أن السيد عبدالغفار هو الذي التقط الصورة عام ١٨٨٦م.

---

(١) محمد صادق كوكب الحج، صفحة ٢٧.

والخلاصة تؤكد بما لا يترك مجالا للشك، أن سنوك قد تعمد كشط توقيع السيد عبدالغفار من الصور كما أنه لم يوضح اسم السيد عبدالغفار بل اكتفى بوصفه «أحد العرب» أو «الطبيب المكي» مما يثير الحيرة من فعله ذلك.

وهنا قصة أخرى عن سنوك، فقد جرى احتفال في جامعة ليدن عام ١٩٩٧م لفتح وصية سنوك وبعض أوراقه الخاصة، وقد أسعدني الحظ بالمشاركة في هذا الاحتفال وتعرفت على حفيد سنوك من زوجته الإندونيسية «ستي سجيدة» واسمه يوسف، ومازالت المراسلات بيننا متصلة معه. كما تعرفت على زوج ابنته كريستينا التي أنجبها سنوك من زوجته التالية الهولندية التي تزوجها بعد مغادرته لإندونيسيا نهائيا وعودته إلى ليدن ليحتل كرسي الدراسات الإسلامية.

ثانيا: السيد عبدالغفار الطبيب المكي:

هو عبدالغفار بن عبدالرحمن بن عبدالغفار البغدادي: وهو أول مصور أنشأ معملا للتصوير بمكة المكرمة ومارس التصوير من عام ١٣٠٢ إلى نحو عام ١٣١٨هـ (١٨٨٥ ـ ١٩٠٠م)، ويؤكد ذلك ما ذكره محمد صادق في كتابه «دليل الحج»، الصادر عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) ص ٦٩ يصف رحلته الثالثة عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، إلى مكة المكرمة حيث قام بزيارة الطبيب عبدالغفار وقال: إنه يشتغل بالطب و(الفوتوغرافيا)، ولم يوضح متى بدأ ممارسة التصوير (الفوتوغرافي). وأضاف محمد صادق أن عبدالغفار المذكور حضر معه بعد ذلك إلى مصر وتعلم صناعة الأسنان من الدكتور فولر الشهير. والملاحظ أن محمد صادق قد وصف رحلته لحج عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، في كتابه «كوكب الحج» ولم يشر فيها إلى هذه الزيارة، وانتظر حتى صدور كتابه الأخير «دليل الحج» عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) ليتحدث عن هذه الواقعة، و لم يبين لنا محمد صادق أسباب هذه الزيارة التي قام بها لهذا الطبيب (الفوتوغرافي) عصر الثلاثاء السادس من شهر ذي الحجة ١٣٠٢هـ (١٥ سبتمبر ١٨٨٥م)، في اليوم التالي لوصوله، رغم انشغاله بمهمته الرسمية «أمانة الصرة».

والواقع أن أسرة السيد عبدالغفار معروفة بمكة المكرمة، وأحد أبناء أحفاده هو سعادة الدكتور هاشم بن حسن بن حسين عبدالغفار وكيل وزارة الصحة الأسبق في المملكة العربية السعودية. وقد تفضل بإعطائنا الكثير من الوثائق والمعلومات المفيدة نذكرها فيما يأتي:

أ ـ وثيقة صادرة من قاضي مكة المكرمة بتاريخ ٧ من ذي القعدة عام ١٣٠٠هـ (٩ سبتمبر ١٨٨٣م) بتنصيب السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن البغدادي طبيباً للمحكمة الشرعية.

ب ـ وثيقة تؤكد أن السيد عبدالغفار قد تعلم صناعة طب الأسنان لدى الدكتور فولر «Waller».

جـ ـ صورة خطاب صادر من السيد عبدالغفار عام ١٣٠٥هـ (٨٧/١٨٨٨م) إلى «الأخ العزيز عبدالغفار أفندي»، أي «المستشرق سنوك»، وفيها يعرب السيد عن شكره لتلقيه آلة تستخدم لفحص العيون أرسلها له سنوك، وتوضح الرسالة أن السيد عبدالغفار بعث له صورتين (فوتوغرافيتين) للمسجد الحرام التقطتا والحرم خالٍ من الناس ضحى يوم جمعة، إحداهما التقطت من سطح باب السلام رقم (٥)، (وهي التي ظهرت حفراً برقم ٢ في (الألبوم) الأول لسنوك، (رقم ٦١ لدى ويتيكام)، والصورة الثانية التقطت من سطح الحميدية قرب باب الوداع، وأرسل مع الصورتين بعض الهدايا (انظر صورة رقم ١١٢).

د ـ هناك وثيقة أخرى صادرة بتوقيع شريف مكة عون الرفيق، بتاريخ ٢٠ شعبان ١٣١١هـ (١٦ فبراير ١٨٩٤م) بمنح السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن بغدادي الطوافة.

هـ ـ وثيقة تصور دائرة فلكية صنعت من طبقتين متحدتي المركز لمعرفة أوائل الشهور العربية في أي سنة كانت، وهي من عمل السيد عبدالغفار، ولا نعرف تاريخها، لكنها تؤكد اتساع معارف السيد عبدالغفار وحذقه لعلم الفلك إلى جانب المهن المتعددة وطب الأسنان وطب العيون والتصوير (الفوتوغرافي).

والحقيقة أن من النادر توافر كل هذه المهارات مجتمعة في شخص واحد، وقد أوضح لنا سعادة الدكتور هاشم عبدالغفار أن جده الثاني ـ بعد تعلمه طب الأسنان ـ قد تخلى عن كثير من مهنه السابقة المتعددة وركز عمله على طب الأسنان، وكانت عيادته بحي أجياد شرق التكية المصرية، في عمارة عائلة عبدالغفار نفسها، ومدخل العيادة من زقاق يسمى باسم العائلة «زقاق عبدالغفار»، وقد توارثت الأسرة طب الأسنان، فكان للسيد عبدالغفار أربعة أبناء هم: حسين وعباس وحسن ومحمد، وأن حسين ولد نحو عام ١٢٨٠هـ وإن كانت حفيظة نفوسه تضع عام الولادة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م)، وقد أنجب حسين هذا من الذكور أربعة أبناء هم: هاشم ومحمد وسليمان وحسن، وهذا الأخير هو والد سعادة الدكتور هاشم بن حسن عبدالغفار. وقد مارس جده حسين بن عبدالغفار طب العيون إلى جانب طب الأسنان، وقد توفى بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٣٨٣هـ (١٩ أغسطس ١٩٦٣م)، وقد ناهز المائة عام، وتوفى أبناؤه الأربعة قبله،

لذا فقد تولى ـ أي حسين ـ تربية حفيده هاشم المذكور ووجهه إلى استكمال تعليمه العالي في مصر والولايات المتحدة الأمريكية في تخصص طب الأسنان.

وبالنسبة للصور الشخصية التي نشرها سنوك، ومن ضمنها صورة «طبيب من مكة ونجله»، فقد أكد لنا الدكتور هاشم أن صورة الطبيب هي لجده الثاني عبدالغفار، وصورة الابن هي لجده حسين بن عبدالغفار المذكور آنفاً، وزودنا بصورتين أخريين لهما إحداهما لعبدالغفار في أواخر حياته، والأخرى لحسين بن عبدالغفار عندما كان في سن الثمانين تقريباً. ومن جهة ثانية أكد لنا د.هاشم أن السيد عبدالغفار كان في زيارة لدى الشريف لتطبيب أسنانه في عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وأن الشريف منحه صكاً ليصبح مطوفاً، غير أن عبدالغفار لم يزاول المهنة فعلياً حتى آخر حياته بسبب انشغاله التام بمهنته طب الأسنان طوال أيام العام، مما لا يترك له فرصه التفرغ لخدمة الحجاج. لكن أبناءه هم الذين مارسوا الطوافة من بعده.

وقد أكد لنا سعادة الدكتور هاشم كيف أن جده حسيناً، كان يحتفظ بصناديق عديدة تحوي العكوس (النيجاتيف) الأصلية الزجاجية للصور التي التقطها عبدالغفار، وأوضح طريقة اعتنائه بها وتوصيته لحفيده بالمحافظة عليها، غير أن وفاة جده حسين، وسفره ـ أي الدكتور هاشم ـ إلى الولايات المتحدة لإكمال تعليمه العالي، وقيام مشروع توسعة الحرم المكي الشريف، واضطرار بقية أفراد العائلة للانتقال من دار إلى أخرى، قد أدى إلى فقد تلك الصناديق.

لقد عمر السيد عبدالغفار إلى حوالي عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م)، ومن المؤكد أنه التقط الكثير من الصور، فقد وجدنا في أرشيف السلطان عبدالحميد صورتين للطائف بتوقيعه، كما نشر بدر الحاج[١] صورة أخرى للطائف نسبها للسيد عبدالغفار، وصورة للمسجد الحرام وما يحيط به[٢] مأخوذة من أعلى جبل أبي قبيس وعليها آثار توقيع السيد عبدالغفار، وكلتاهما من مجموعة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، ثم نشر بدر الحاج[٣] رسماً بانورامياً (شاملاً) يظهر المنطقة من القشاشية إلى أجياد عن صور للسيد عبدالغفار

---

(١) بدر الحاج، مرجع سابق، ط١، صفحة ١٥٨

(٢) المرجع السابق، ط١ صفحة ٥٤ و٥٥.

(٣) المرجع السابق، ط٢، صفحة ٤٦ و٤٧.

من مجموعة فؤاد دباس، وفي أسفل الرسم من الجانب الأيمن، توقيع الراسم، إضافة إلى صورتين نشرهما بيترز[1] في كتابه «مكة» برقم ١١ و١٢ ونسبهما للسيد عبدالغفار.

و ذكر بيترز[2] أيضا أنه اكتشفت في ليدن عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) مجموعة تضم نحو ١٠٠ صورة شخصية لمكيين، وقد رجح أنها من تصوير السيد عبدالغفار. ونحن لا نشك أن السيد عبدالغفار خلال عقدين من الزمن مارس فيهما التصوير قد التقط الكثير جداً من الصور التي تنتظر كشف النقاب عنها.

ثالثاً: علاقة كريستيان سنوك هورخرونيه بالملك فيصل بن عبدالعزيز:

لقد مكث هورخرونيه في مكة قرابة نصف سنة غير أن صلاته لم تنقطع مع عاصمة الإسلام الروحية بعد مغادرته لها. وقد ذكر سنوك في تقاريره أنه اعتمد على قنصل هولندا في جدة ونائبه من بعده في تتبع التطورات المستمرة في الحجاز عموماً وفي مكة على وجه الخصوص. كما أنه اعتمد على أحد النبلاء الجاوى الذي كان يقطن مكة ويعرف باسم رادن أبو بكر. وكان هذا قد زوده بكل التفاصيل المتعلقة باحتفالات مكة المكرمة الاجتماعية كما زوده بتراجم كثير من علماء المدينة المقدسة. وقد كانت صلاته قوية مع الشيخ محمد نصيف الذي كان يزوده يما يصدر من كتب في الحجاز. ونجد رسالة موجهة من الشيخ نصيف إلى سنوك قبل وفاة الأخير بعامين سنة ١٩٣٤م مما يدل على أن صلاته لم تنقطع مع علماء الحجاز وأدبائها (انظر الملحق رقم ٧).

وبعد قيام الملك عبدالعزيز آل سعود ببسط سيطرته على الحجاز برزت علاقة سياسة وثيقة بين سنوك وبين نائب الملك في الحجاز (الملك فيصل يرحمه الله). ففي الزيارة الأولى التي قام بها نائب الملك إلى الدول الأوربية عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) كانت هولندا من ضمن الأقطار التي تمت زيارتها في إطار تثبيت العلاقات السياسية بين الدولة الجديدة في الحجاز والأقطار الأوربية. وقد وصل سموه إلى هولندا في ١٢ اكتوبر عام ١٩٢٦م وبقي فيها حتى التاسع عشر من الشهر نفسه. وقد تضمن برنامج نائب الملك في الحجاز زيارات لمقر وزارة الخارجية الهولندية والبرلمان الهولندي ولقاء ملكة هولندا وزيارة عدد من المنشآت الاقتصادية والصناعية. وقد التقى سموه بسنوك هورخرونيه في رحاب جامعة

---

(1) Peters, F.E.: Mecca, Photo No. 11 & 12.

(2) Peters, F.E.: The Hajj, p. x.

ليدن وجرى بينهما لقاء مطول حيث اتيحت للرجلين فرصة جيدة للتعارف المعمق انعكس على الود والتقدير والاحترام بينهما. وفي مساء اليوم نفسه كتب سنوك مقالاً باللغة الألمانية في الطبعة المسائية لصحيفة Rotterdamsche Courant Nieuwe بعنوان «الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود» ومما جاء في هذا المقال تعريف بدور سموه بوصفه نائباً لجلالة الملك في الحجاز ومشرفاً في مكة المكرمة على الأجهزة الحكومية كافة ومكلفاً من قبل جلالة الملك بإدارة الشؤون الخارجية.وقد تعرضت المقالة لدور آل سعود في المنطقة بقيادة الملك عبدالعزيز يرحمه الله. وقد تضمنت المقالة الأحداث التاريخية التي حصلت بمكة منذ عهد العثمانين والأشراف حتى دخول الملك عبدالعزيز إليها. وقد تناول سنوك الإصلاحات التي أحدثها آل سعود في أمور الحج وتأمين طرقه التي كانت تتعرض للسلب والنهب في غالب الأحيان. وقد كان لذلك وقع حسن على نفس الأمير. وقد رافق سنوك سمو الأمير في كثير من جولاته وأخذت العديد من الصور التذكارية لهذه المناسبة ظهر في أغلبها سنوك مرافقاً لسموه في هذه الجولات والزيارات. (انظر الملحق رقم ٧).

زيارة سمو الأمير فيصل الأولى عام ١٩٢٦م لم تفتح آفاق التعاون بين البلدين فحسب وإنما فتحت آفاقاً للتواصل بين الفيصل وسنوك. ومن مظاهر ذلك التواصل حرص سمو الأمير على تزويد سنوك بالمطبوعات الرسمية الحكومية. وقد كلف سموه فؤاد بك حمزه (ارسال المجلدات الكاملة لصحيفة أم القرى (الجريدة الرسمية للمملكة العربية السعودية).. وهذه الجريدة كانت تعتبر في ذلك الوقت أهم مصدر للمعلومات اعتمده الملك عبدالعزيز وكانت تعد لسان حال الدولة الوحيد. (انظر الملحق رقم ٧).

في اواخر عام ١٣٥٠هـ قام سمو الأمير فيصل بزيارات لعواصم العديد من الدول الأوربية في إطار تمتين العلاقات وزيادة روابط التعاون مع هذه الدول. وكان من بين هذه الدول دولة هولندا التي تقرر أن تكون خلال الفترة من ١٦ ـ ٢٠ مايو عام ١٩٣٢م وقبل يوم واحد من موعد الزيارة كتب سنوك هورخرونيه مقالاً موسعاً في صحيفة «تلغراف» الهولندية الواسعة الانتشار بتاريخ ١٥/ ٥/ ١٩٣٢م في طبعة الأحد الواسعة الإنتشار مقالاً بعنوان Het Bezoek Van Emier Faisal

بدأ المقال بإشارة إلى موعد وصول الأمير إلى امستردام ثم تناول الأحداث التاريخية التي أدت إلى قيام المملكة العربية السعودية وتناول الدعوة السلفية كحركة اصلاح شاملة ثم تناول

في جزء كبير من المقالة شخصية الأمير فيصل الفذة كقائد سياسي وحاكم لمكة ونائب لجلالة الملك في الحجاز. وقد ختم المقال بالترحيب الحار بسمو الأمير في هولندا وانهى المقالة بعبارة أهلاً وسهلاً ومرحباً.

في اليوم الثاني لزيارة سمو الأمير توجه إلى مقر وزارة الخارجية الهولندية للقاء عدد من المسؤولين كان من بينهم سنوك هورخرونيه. وهناك جرى أكثر من حديث بين الرجلين عمق في معرفة كلاً منهما بالآخر. وخلال هذه اللقاءات اعجب كل واحد منهما بشخصية الآخر اذ لم يخف سنوك إعجابه بشخصية الأمير الشاب وحصافته وقدراته ونبوغه. وعبر الرجل عن ذلك كتابة في مقالاته أو شفاهة على أسماع الحاضرين في اللقاءات. كما لم يخف الأمير الجليل إعجابه بشخصية سنوك الفذه وعلمه الفريد وإحاطته الواسعة ليس بتاريخ مكة المكرمة فحسب وإنما بخبراته الواسعة في شؤون العرب والمسلمين معتبراً إياه واحداً من أكبر أصدقاء العرب.

بقي الود قائماً بين الرجلين وحينما وافت المنية كرستيان سنوك هورخرونيه عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) بعث سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز نائب الملك في الحجاز آنذاك برسالة تعزية في ٢١ يوليو ١٩٣٦م حملت توقيع الأمير إلى زوجة الراحل وابنته تنم عن مقدار الصداقة بين الرجلين ومما جاء في هذه الرسالة قول الأمير «إن وفاة السيد كريستيان لا تفقده شيئاً من طيب الذكر وخالد الأثر الذي تحلى به في حياته ولكنها تفقد أصدقاءه عالماً جليلاً وعضداً قوياً وأن العرب الذين يعتبرونه من أكبر أصدقائهم لجدير بهم أن يشعروا مع الألم بفقدانه. (انظر الملحق رقم ٧).

وفي الختام أتوجه بالشكر والتقدير إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز. ومعالي الدكتور فهد بن عبدالله السماري الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز وسعادة الأستاذ عبدالرحمن بن محمد السدحان المدير العام لإدارة البحوث والنشر في الدارة لدعمهم وجهودهم المشكورة على نشر هذه الطبعة في حلتها الجديدة والله الموفق.

د. معراج نواب مرزا

في العزيزية مكة المكرمة

بتاريخ ١٠/٥/١٤٣١هـ/ ٢٤/٤/٢٠١٠م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد:

فقد وفقنا الله تعالى إلى ترجمة هذا الكتاب إلى لغتنا الحبيبة ـ لغة الضاد ـ وقد لاقى الجزء الثاني حين صدوره عام ١٤١١هـ، عن نادي مكة الثقافي الأدبي استحساناً وقبولاً من جمهور القراء. وها نحن الآن نقدم الجزء الأول من هذا الكتاب، ذلك الجزء الذي يحوي التاريخ السياسي للبلد الأمين منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري وقد وضع المؤلف هذا الجزء توطئة للجزء الثاني الذي بحث فيه الأوضاع الاجتماعية للمدينة المقدسة خلال الفترة التي وُجد فيها بمكة المكرمة.

ولقد وفقنا الله (عز وجل) إلى إخراج الكتاب بجزأيه، تعميماً للفائدة، وإننا لنعتذر لجمهور القراء عن التأخير في الإيفاء بالوعد الذي قطعناه بإخراج الجزء الأول في أقرب فرصة ممكنة، فقد حال دون إخراجه في وقت أبكر من هذا ظروف وملابسات أفضت إلى هذا التأخير.

لقد لاقت الطبعة الأولى استحساناً وقبولاً مميزاً عبرت عنه الرسائل التي وردتنا بهذا الخصوص. كما أظهرته المقالات العديدة التي نُشرت حوله في الصحف والمجلات. ومن الجدير بالذكر أننا أدرجنا معظم ما وردنا من ملحوظات في ثنايا هذه الطبعة مشيرين إلى أسماء وتعليقات من تفضلوا بإرسالها في حواشي هذه الطبعة بالرغم من مخالفة بعضها لوجهات نظرنا حرصاً منا على الأمانة العلمية.

وقد نشرت جريدة الندوة بتاريخ ١٤١٢/٢/٢٩هـ مقالاً بقلم الأستاذ تميم الحكيم عن هذا الكتاب حيث قال:

«صفحات من تاريخ مكة: كتاب عام ١٤١١هـ، لماذا؟».

أرجو أن أكون منصفاً، إذا قلت إن كتاب (صفحات من تاريخ مكة) للمستشرق ك. سنوك هورخرونيه، الذي أصدره (نادي مكة الثقافي الأدبي) في العام الماضي، هو أفضل ما أصدرته الأندية الأدبية عام ١٤١١هـ، إن لم يكن أفضل كتاب ظهر على الساحة الثقافية السعودية في هذه الفترة...

وإذا كنت راغباً في إثبات صحة مقولتي، فعليّ أن أقدم لهذا الحكم بعض المبررات، وأبين ما دفعني إليه من المسوغات.. ومنها:

أولاً: يتناول الكتاب حقبة من تاريخ مكة المكرمة، مهبط الوحي، ومنبع الرسالات، وقبلة المسلمين.

ثانياً: يبحث الكتاب في الحياة الاجتماعية لأهل مكة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري.. ومما يستعرضه العادات والتقاليد، والأنظمة الأسرية، والتدريس والإعلام، وديموغرافية المجتمع، ومثل هذه الكتب تستهوي الجميع، فيقبل عليها الخاصة ويتقبلها العامة.. خاصة إذا كتبت بأسلوب مبسط بعيد عن التعقيدات وخال من الاصطلاحات..

ثالثاً: الكتاب يعرض ما كتبه المستشرق هورخرونيه عن مجتمع مكة المكرمة، خلال إقامته فيها، بسلبه وإيجابه.. في محاولة موضوعية من المترجم والناشر، لكشف غث ما كتب من سمينه، وكشف النافع وإظهاره، والرد على المغرض الحاقد وإبعاده.

رابعاً: الكتاب مزود بخرائط وصور مختارة لمكة المكرمة والمشاعر، وللصناعات التقليدية بأم القرى في تلك الفترة، مع فهارس للأعلام والمواقع والأمكنة والمصطلحات المكية.

خامساً: مما يدل على أهمية هذا الكتاب احتفاء الإعلام السعودي به، فقد ورد ذكره في أكثر من برنامج إذاعي، كما كتبت عنه مختلف الصحف والمجلات السعودية.. ومنها (الشرق الأوسط) التي أوردت ذكره في الصفحة الأولى منها، واستعرضته في نصف صفحة داخلية.

سادساً: لم يقتصر الاهتمام بالكتاب على داخل المملكة، بل تعداه إلى الوطن العربي، حيث كتبت عنه بعض المجلات العربية، ومنها (الثقافة) الدمشقية.. وتلقى النادي رغبات عدد من العلماء والأدباء في الوطن العربي لاقتناء الكتاب.

سابعاً: كتب عن هذا الإصدار، وعلق عليه وحلله مجموعة من الكتاب المعروفين، والأساتذة الجامعيين، والنقاد الأكاديميين.

ثامناً: رغم أن معالي الدكتور راشد الراجح، رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي، أهدى هذا الكتاب لعدد كبير من أصحاب السمو الملكي الأمراء، والمعالي الوزراء، والسادة المفكرين والعلماء، والإعلاميين والأدباء، وإلى جهات رسمية وخاصة في مختلف مدن المملكة والأرجاء.. إلا أن الطلبات التي انهالت على النادي لاقتناء (الصفحات) لم يسبق للنادي أن تلقى مثلها في بقية الإصدارات.

تاسعاً: يعتبر هذا الكتاب أكثر إصدارات نادي مكة الثقافي مبيعاً، بعد كتاب تاريخ مكة للأديب الراحل أحمد السباعي.

عاشراً: الكتاب يجسد أحد أهداف الأندية الأدبية في ضرورة تأريخ إصدارات الأندية للمناطق التي تقع فيها.

تلك هي أهم الأسباب، التي جعلتني أرشح هذا الكتاب، لكي يكون له على غيره السبق والغلاب.. فهل أنا محق أم جانبت الصواب؟

لا نملك نحن الجواب عن سؤال الأستاذ تميم الحكيم أنه محق في ترشيح الكتاب لكي يكون له على غيره قصب السبق فهذا الحكم هو للقراء وللنقاد. غير أننا نذكر بعض من كتب من النقاد والكتاب والأساتذة الجامعيين حول هذا الكتاب، فقد كتب علّامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر في سلسلة من المقالات نشرت في مجلة البلد الأمين والمجلة العربية حول هذا الكتاب، وقد أورد العديد من الملحوظات حول بعض الأمور، وقد أدرجنا جميع ملحوظاته ـ حفظه الله ـ في مواضعها من الكتاب وخاصة ما يتعلق بإسلام المؤلف وقصة سرقة نقش تيماء وارتباط المؤلف بها. أما الملحوظات الأخرى فقد أوردناها في حواشي الكتاب مذيلة باسم الشيخ الجاسر. وكذلك فعلنا مع جميع من وصلت إلينا منهم ملحوظات. ومن الجدير بالذكر أننا نعتز بالإطراء الذي ذكره الشيخ بهذا الكتاب حين قال في معرض تعليقاته في المجلة العربية:

«ولقد قرأت هذا الجزء فاتضح لي أنه من أمتع ما قرأته مما نشرته نوادينا الأدبية من المؤلفات، إن لم يكن أمتعها، وهو يجلو صورة واضحة للمدينة الكريمة في ذلك العصر، بصرف النظر عما قد يبدو من ملحوظات مؤلفه وأفكاره التي لا تتفق مع أفكار كل قارئ

عربي مسلم، ولكنه مع ذلك حاول ما استطاع إبراز ما شاهد أو سمع كما اتضح له، ومن هنا برزت جوانب الإمتاع فيه، ولعل من أظهرها: أن القارئ يسترسل في القراءة دون أن يحس بضجر أو ملل، فهو يعرض مشاهد يتلذذ المرء بمعرفة الكثير عنها، يضاف إلى هذا أن أسلوب المعرّبين الكريمين على جانب من السهولة والوضوح. ولا ينبغي تجاهل ما لهما من تعليقات قيمة استدركا فيها على بعض ما وقع فيه المؤلف من أخطاء. وقد سبق الحديث مستوفى عن عملهما من جميع جوانبه، وإذن فيستحسن عرض هذا الجزء».

وقد ذكر الشيخ الجاسر في مجلة البلد الأمين التي يصدرها نادي مكة الثقافي الأدبي ما يلي:

«هذا العمل لا ينكر فضله، ولا يغمط قدر القائمين به سوى جاهل بما نحن بأشد الحاجة إليه بما يقال عنّا، وما توصف به بلادنا، وبما ينطبع في أذهان الآخرين وأفكارهم عن مختلف أحوالنا، إنْ حقاً أو باطلاً، لنتخذ الموقف الملائم له على هُدى وبصيرة من أمرنا ولا يذهب بنا سوء الظن، أو الغرور، بأن كل ذلك مما لا نحتاج إليه، وأنه جميعه سيئ، فما دمنا لا نزال عالة على الغربيين بجميع ما تقوم عليه من أسس حياتنا الحاضرة، فما المانع في أن نجد فيما يعرضون لمعالجته من أحوالنا بآرائهم، وبطريقتهم في المعالجة ما يجمل بنا أن نستفيد به، وأن نسير عليه حين نتصدى للدراسة والبحث، مما نستزيد به علماً ومعرفة لنصل إلى حقائق الأمور، فيما لا يؤثر في أفكارنا بما لا يتفق مع معتقداتنا.

إن المعربيْن الفاضلين قدّما لجميع الباحثين في الأحوال العامة لبلدة (أم القرى) من اجتماعية واقتصادية وثقافية وتاريخية وغيرها خلال الفترة التي تصدى المؤلف للكتابة عنها، ولغير الباحثين من القراء ممن لا يحسن لغة الكتاب، مصدراً حافلاً بالمعلومات التي لا توجد في المؤلفات الأخرى، تفصيلاً وشمولاً وعمق دراسة، بأسلوب واضح جذّاب، يستهوي القارئ ويحبب إليه الاسترسال في القراءة، ولم يكتفيا ـ وفقهم الله ـ بتقديم النص على علاته، بل أضافا ـ في الهوامش ـ ما قد يزيده إيضاحاً، أو يُقوّم معوجّه، أو يصحح خطأه، أو يلفت النظر للوقوف عنده، لملاحظة ما بحسب إدراك القارئ غير متأثر بالنص!». ولقد ذكر الكتاب الأديب المكي محمد عبدالله مليباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاويته (ومضات) التي كان يكتبها في جريدة الندوة فقال: «قد كان نقل هذا الكتاب إلى العربية عملاً له أثره الساطع في ثقافتنا السعودية خاصة، وفي ثقافتنا التاريخية العربية عامة،

فللمترجمين والمراجع ورئيس نادي مكة الثقافي شكري المتطلع دائماً إلى المزيد من أمثال هذه الأعمال الأدبية المفيدة».

ومما وصلنا من ملحوظات قيمة من الدكتور حسن مختار من كلية التربية بجامعة أم القرى حيث نشر مقالاً بجريدة عكاظ بتاريخ ٢١ شوال ١٤١١هـ، تحت عنوان تاريخ مكة بين الهوى والموضوعية، اقترح فيه «أنه لما كان هذا الكتاب يشمل وصفاً دقيقاً للكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري سواء العادات والتقاليد أو الأنظمة الاجتماعية والتدريسية والإعلام وديموغرافية المجتمع المكي بطريقة تجعلني أقول بأن الكتاب عبارة عن دراسة إثنوغرافية وليس كتاباً في التاريخ؛ لأن المؤلف لم يذكر شيئاً عن أحداث ووقائع وما يمكن أن نطلق عليه تاريخاً، بل وصف ما رآه وما سمعه في جوانب الحياة العامة والخاصة بطريقة إثنوغرافية للمجتمع المكي في تلك الفترة»، ومع احترامنا لوجهة نظر الكاتب إلا أن كل ما دوّنه هورخرونيه في هذا المجال يعد مادة تاريخية تنوع أسماؤها بين التاريخ السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الإثنوغرافي، وقصر الأمر على الجانب الإثنوغرافي يجعل الموضوع في حدوده الضيقة ولا سيما أن الكاتب قد ختم مقالته بالاعتراف بأن موضوعات هذا الكتاب هي أشمل من الإثنوغرافيا حيث قال: «وفي النهاية أقدر للمترجمين جهودهما في إنجاز هذا العمل الثقافي والمشاركة في تأصيل الفكر الاجتماعي الثقافي للبلد الحرام في حقبة تاريخية مضت، وما ذكرته من ملحوظات لا يقلل من قيمة الكتاب لمن يهتم بالدراسات التاريخية والاجتماعية».

لقد كتب الدكتور أحمد مصطفى الريس في جريدة المدينة المنورة خلال شهر شوال وذي القعدة في عام ١٤١١هـ عدداً من الحلقات تحت عنوان «رحلة في عمق كتاب»، استعرض فيها محتويات الكتاب مع تعليقات وافية تشيد بهذا الجهد وتدعم بعض الشبهات، وكان مما قاله الكاتب: (وكلما تعمق إبحارنا في تلك الصفحات المطوية من تاريخ مكة في القرن الثالث عشر الهجري.. نزداد تصميماً على إكمال الرحلة في عمق ذلك الكتاب.. الذي خرج إلى «التداول» وهو يضم بين جنباته في بعض السطور «دسا» غير خفي على المجتمع الإسلامي مارسه المؤلف (ك. سنوك هورخرونيه) الهولندي كلما غلبته النزعة الاستشراقية.. مما يدفعنا إلى تنقيح ما سجّله من رصد تناوله بمنظوره الاستشراقي البحت.. وتنقية تلك الصفحات من

بعض «الدس» الذي لم يكن له وجود في المجتمع الإسلامي من قريب أو بعيد بالصورة التي أراد بها ذلك المستشرق عرض بعض جوانب من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة في تلك الحقبة التاريخية..).

وقد شاركت جريدة الشرق الأوسط في مجال التعليق على الكتاب، فقد عرض الأستاذ حاتم صادق ـ بتاريخ ١٤١١/١٢/٢٩هـ، تحت عنوان «كتاب مهم للمستشرق الهولندي هورخرونيه يصدره نادي مكة الأدبي» ـ موضوعات الكتاب مفصلاً مع بعض التعليقات حولها، وكان مما قاله: «إن الجزء الثاني من كتاب صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري من كتب التاريخ المهمة التي تتحدث عن فترة محددة من تاريخ مكة المكرمة وتتمثل أهميته في جانبين هما: شخصية المؤلف، ومضمون الكتاب».

وكذلك وصلتنا مناولة من الدكتور عبدالله بن صالح شاووش، وهو أحد المهتمين بالدراسات المكية والأستاذ بجامعة أم القرى، ملحوظات وتفسيرات دقيقة ومهمة جداً تنم عن مراجعة واعية للكتاب، فقد تم الأخذ بها في الأغلب والأعم، فله منا الشكر والتقدير.

وبعد: فهذه مختارات مما كتب ونشر حول هذا الكتاب نسوقها لإبراز الأهمية والنجاح الذي لاقاه الكتاب من قبل قطاع عريض من المفكرين والقراء. وإننا لنعتز ونرحب بالآراء التي تردنا حول أي من موضوعات الكتاب؛ لأن هدفنا هو إبراز الحقيقة بصورة موضوعية. سائلين المولى ـ عزّ وجل ـ أن يهبنا السداد والرشاد، وأن يجعل ذلك في ميزان عملنا.

ولا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير لدارة الملك عبدالعزيز، ولسعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري، الأمين العام، على نشر هذه الطبعة وتقديم كافة أنواع الدعم لإخراجها بالصورة المناسبة. وليس هذا بغريب على مؤسسة علمية مثل دارة الملك عبدالعزيز التي من أهدافها خدمة تاريخ الجزيرة العربية وتراثها وذلك بإشراف مباشر وتوجيه كريم من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، رئيس مجلس إدارة الدارة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل...

د. محمد محمود السرياني **د. معراج نواب مرزا**

توطئة

إن ثقافة الأمة هي مجموع الجوانب الفكرية والروحية والسلوكية والأخلاقية لها، ومدنيتها هي مجموع الجوانب المادية لها، والحضارة هي جَمَاع الثقافة والمدنية معاً، والنتاج الحضاري يكون عادة حصيلة امتزاج الجانب المادي بالجانب الثقافي، والحضارة هي من أنفس ما للأمة من تراث في جماع علومها وآدابها وفنونها.

لقد كان للعرب والمستعربين؛ الذين دخلوا في الإسلام ثقافات ومدنيات، ومن ثَمَّ كان لهم حضارات، ولما مد الإسلام فتوحاته من مكة المكرمة إلى الشرق والغرب استقر في بعض بلدانها وجاور بعضها الآخر، ودخل فيه أبناء البلاد المفتوحة، وشملت سماحته من بقي على دينه من هؤلاء، واتخذ هؤلاء وأولئك العربية لغة القرآن الكريم أداة لثقافتهم وحضارتهم حلت محل اللغات الأخرى، فاستوعبت العربية تراث الإسلام، وأصبحت لغة الثقافة والحضارة، وشاركت بالحضارة الإنسانية متأثرة ومبدعة ومؤثرة.

لقد كانت الحضارة الإسلامية في مركز متانة وقوة منبعهما العقيدة الإسلامية الراسخة، والتعاليم الروحية الخالصة، وقد منحت هذه القوة الذاتية الحضارة الإسلامية مرونة فكرية، فاتصلت بالحضارات الأخرى ونقلت عنها جميعاً، ويمكن القول إن المسلمين تفاعلوا مع ثقافات أمم كثيرة كالإغريق والرومان والفرس والهنود والصينيين وغيرهم من الأمم، وهكذا نرى الحضارة الإسلامية أخذت وأعطت، ووافقت على أشياء ورفضت أشياء أخرى، ولم تندفع في حركة تقليد أعمى للأفكار الواردة إليها من الحضارات الأخرى.

ولنا في قول بعض المفكرين دليل على الدور الذي أدّته الحضارة الإسلامية. يقول المفكران لافيس ورامبو: «إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العلم، لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب المتأخرة في إفريقية وآسيا وأوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان،

ومن مجموع هذه المواد المختلفة التي جمعت فتمازجت تمازجاً متجانساً، أبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم، وهي ذات وحدة خاصة وصفات قائمة»[١].

لم تستمر هذه الإشراقة الحضارية طويلاً فقد أخذت عوامل التحلل تتسلل إلى كيان الأمة الإسلامية، وتعظم وتنتشر وتقوى شيئاً فشيئاً، حتى مزقت هذا الكيان وقضت عليه، إذ دبّت الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه. وسادت الخلافات الدينية والمذهبية، وانصرف الناس عن الدين بصفته عقيدة وشريعة إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وأهمل كتاب الله وسنة رسوله، واقتصر الأمر على التعصب للآراء والولع بالجدال والمناظرات، ثم مال المسلمون إلى الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات، وكان حصاد ذلك كله إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات في فلسفات نظرية وعلوم خيالية[٢].

وتوالت الضربات على الدولة الإسلامية، فانحدر المغول والتتار وقضوا على النفوذ السياسي، وقذفت أوروبا الشرق المسلم في آسيا وإفريقية بكتائبها في تسع حملات صليبية، واطمأنت الدولة الإسلامية تحت لواء العثمانيين إلى سلطانها واستنامت له وغفلت عن كل ما يدور حولها، ولكن أوروبا التي اتصلت بأضواء الإسلام غرباً بالأندلس وشرقاً بالحملات الصليبية لم تضع الفرصة ولم تغفل عن الاستفادة من هذه الدروس، فأخذت تتقوى وتوحد صفوفها وتفكر وتتعلم وتجوب البلاد وتكشف الأقطار، حتى كان كشف أمريكا عملاً من أعمال إسبانيا، وكشف طريق الهند عملاً من أعمال البرتغال، وتوالت فيها صيحات الإصلاح ونبغ بها كثير من المصلحين، وأقبلت على العلم الكوني والمعرفة المنتجة المثمرة، وقامت فيها دول قوية، أرادت التوسع واكتساب المزيد من الأرض خارج حدودها، وقد جندت لذلك العمل، الكثير من الوسائل والأمور، كان من بينها ما عرف باسم الاستشراق.

والاستشراق مصطلح في غاية الغموض والإبهام؛ لأن الشرق هو اصطلاح ابتدعته أوروبا لكل أرض تقع وراء حدودها شرقاً إلى اليابان، بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر القرون

---

(١) د. علي السكري ـ العرب وعلوم الأرض ـ منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٧٣ ص٧٨.

(٢) الإمام حسن البنا ـ رسالة بين الأمس واليوم ـ المؤسسة الإسلامية للطباعة والنشر ـ بيروت، ط٢، ١٩٨١ ص٩٦ ـ ٩٩ «بتصرف».

ليقتصر في مفهومه العام على الشرق الأوسط وما في هذا الشرق من أديان (عدا النصرانية؛ لأنّ الفكر الأوروبي لا يحب ربطها بالشرق) وثقافات أو حضارات مختلفة.

والباحث في أي فرع من فروع المعرفة التي تتعلق بقريب أو بعيد بهذا الشرق يسمى (مستشرق). ودلالة المصطلح عند العرب أو عند المسلمين لا تخرج عن مفهوم «دراسة الإسلام ديناً وما يتبعه من لغات أهله وتواريخهم ومظاهر حياتهم»[1].

لقد تناول المستشرقون تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة، ولم يقفوا منه عند هذا، بل عمدوا إلى دراسته وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه، واقفين عليه مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم وأغراضهم وأهدافهم الظاهرة منها والباطنة، مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات، حتى بلغوا فيه مبلغاً عظيماً[2].

هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، أو التغاضي عنها، غير أن الدوافع وراء هذا العمل الضخم بحاجة إلى وقفة تأمل وروية، لقد كان للقوم دوافع عديدة تخدم مصالحهم، لقد كانت دوائر الاستشراق لها صلاتها القوية مع وزارات الخارجية وشؤون المستعمرات في الدول الأوروبية؛ بهدف تسهيل مهمة المستعمر في البلاد المستعمرة، وكان لها صلات قوية بحركات التنصير في العالم الإسلامي، ولا يكون ذلك إلا بدراسة ماضي الأمم وتاريخها، لمحاولة الوصول إليها من أقرب الطرق وضربها في المكان الموجع لها.

وفي الجانب الآخر كان من بين هؤلاء من يدرس الاستشراق لمعرفة تطور فروع المعرفة ـ باعتبار ما كتبه المسلمون يمثل قمتها في العصور الوسطى ـ حتى يتسنى لهم ربط ماضي العلم بحاضره، والانطلاق به نحو المستقبل المشرق الذي أوصلوه إليه.

ولسنا نريد هنا أن نبين المثالب والمحاسن؛ لأن ذلك ليس في مقدورنا في مثل هذه العجالة، التي كان القصد منها إبراز الحقيقة الآتية:

أن هناك جهداً بذله المستشرقون بغض النظر عن دوافعه، فإنْ نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية، مع أن نشره لا يتضمن الموافقة

---

(١) قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض ١٤٠٣هـ، ص١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م، ص٧ ـ ٨.

عليه والرضا عنه جميعه، إن تراثنا جزء من الحضارة الإنسانية التي هي ملك لنا كما هي ملك لغيرنا، ولهذا لا نستطيع أن نمنع أحداً أن يكتب في هذا التراث أو عنه، كما أننا لا نستطيع أن نضع لهؤلاء الخطوط العريضة التي نرتئيها لأنفسنا عند بحثنا في تراثنا، فهم لهم منطلقات تفكيرية مختلفة تماماً عن منطلقاتنا، والخطورة تكمن في تبنينا لهذه المنطلقات «خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب».

لقد آن لنا أن ندرس ما كتبه هؤلاء دراسة علمية موضوعية، لإظهار النافع المفيد وإبرازه، وكشف الزائف الحاقد وإبعاده، ولا يتحقق ذلك إلا بأمرين اثنين: أن نرد على ما كتبوه بلغاتهم لتبيان وجهة نظرنا فيما كتبوه، أو أن ننقل ما كتبوه إلى لغتنا مع إظهار الغث والسمين فيه، وإنه لمن المفيد أحياناً أن يتعرف المرء على نفسه، من خلال النظر عبر عيون الآخرين، في سبيل مزيد من الرؤية الواضحة، تلك التي تفترضها مسلمات البحث العلمي، فيما يطلق عليه بصورة أو أخرى عبارة الموضوعية، بمعنى وضع الذات كموضوع خارج الذات ومعاملتها كذلك، إذ غني عن البيان مدى خطورة سلوك النعامة السمينة حين تخفي رأسها في الرمل.

لقد اخترنا أن ننقل بعض نتائج التفكير الاستشراقي إلى لغتنا العربية، من خلال ما كتبه أحد كبار المستشرقين، عن مركز الإسلام الروحي، مكة المكرمة، **أما المستشرق فهو الدكتور كريستيان سنوك هورخرونيه**[1]**، وأما الكتاب فهو مكة.**

وسنعالج فيما يلي حياة المؤلف وآثاره، ثم نتبعه بدراسة عن الكتاب، على هيئة مقدمة تعريفية بحقيقته وأهميته وإظهار غثه وسمينه وكشف النافع وإظهاره، والرد على المغرض الحاقد وإبعاده، مدركين أن الكمال لله وحده، مستلهمين العون والسداد منه، سائلين الله السداد والرشاد في القول والعمل.

والله من وراء القصد.

د. معراج نواب مرزا　　　د. محمد محمود السرياني

مكة المكرمة ـ العزيزية ١٤١٨هـ

---

(١) هناك اختلاف كبير في رسم الاسم الأخير للدكتور سنوك بالعربية، فقد ورد في المراجع المختلفة بصور شتى منها: هرجرونيه، وهربرونجه، وهرغرونيه، وقد أثبت صاحب الأعلام الرسم هرخرونيه؛ لأنه سمع الهولنديين ينطقونه بهذه الصورة، وقد اعتمدنا الصورة التي أثبتها الدكتور قاسم السامرائي وهو هورخرونيه؛ لأنه كما يبدو يعرف الهولندية وعاش في ليدن وله صلة قوية بتلاميذ هورخرونيه.

المؤلف وآثاره وآراؤه الاستشراقية

١ ـ حياته:

ولد الدكتور كرستيان سنوك هورخرونيه (عبدالغفار) في شمال برابانت Brabant في هولندا في ٨ فبراير عام ١٨٥٧م، وقد تعلم في بردا Breda، ثم التحق بجامعة ليدن لدراسة اللاهوت عام ١٨٧٤م، وبعد عام ١٨٧٨م كرّس نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، ولقد كان موضوع رسالته للدكتوراه في عام ١٨٨٠م (الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي)، وفي عام ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م انتقل إلى ستراتسبرج حيث عمل تحت إشراف الألماني نولدكه. وفي السنة التي تلتها عين محاضراً في الدراسات الإسلامية في كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية التابعة لجامعة ليدن، وفي عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ حصل على إجازة دراسية للسفر إلى الجزيرة العربية، ليتعرف من خلالها على حياة المسلمين، وحقيقة الدين الإسلامي، وقد تحقق له ذلك، فقد تمكن من الوصول إلى مدينة جدة فمكث بها مدة ثم دخل إلى مكة المكرمة، تحت اسم مستعار، حيث سمى نفسه (عبدالغفار)، وقد بقي في مكة حتى أغسطس عام ١٨٨٥م على النحو الذي سنفصله لاحقاً[١].

لقد أكمل هورخرونيه خلال إقامته بمكة كتابه عن مكة في جزأين، الجزء الأول: لتاريخها. والثاني: وصف فيه حياة أهلها الاجتماعية وصفاً دقيقاً. ومن أعماله في مكة أنه جمع عدداً كبيراً من الأمثال العربية والكلمات الدارجة ونشرها مع ترجمتها وتفسيرها،

---

(١) عبداللطيف بن دهيش: دراسة موجزة لبعض مؤلفات هرغروني عن تاريخ الجزيرة العربية ـ العرب: العدد (١١، ١٢) السنة (١١) ١٣٩٧هـ، ص٩٤٢ ـ ٩٤٨ وانظر أيضاً: Ralli A., «Christians at Mecca» William Hienemann, London, 1909, pp. 223 - 243.

وبحث لغوي على هيئة مقدمة لها، كما استطاع أن يدرك مدى تأثير مكة المكرمة بوصفها مركزاً للإسلام في العالم الإسلامي، وتطورات المسائل الدينية والعادات وتداخل هذه في تلك. وبهذه الميزات فاق هورخرونيه جميع زوار مكة من الغربيين ممن كتبوا عنها[١].

وبعد خروجه من مكة ذاعت شهرته، وخاصة بعد صدور كتابه المذكور عام ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م (١٣٠٥هـ) فقد عرضت عليه جامعة كمبردج كرسي أستاذ اللغة العربية خلفاً للأستاذ روبرتسن سمث، غير أنه رفض ذلك. وكذلك رفض ما عرض عليه من هذا القبيل في ألمانيا وليدن. مفضلاً أن يمضي في دراساته الإسلامية في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا. إذ عين في عام ١٨٨٩م مستشاراً للشؤون الشرقية والإسلامية هناك[٢]، فانتقل إلى جاوة، وأقام فيها سبع عشرة سنة، لم يخرج في أثنائها إلى أي جهة أخرى. وكانت أكثر إقامته في مقاطعة آتشي. وألف عنها كتاباً كبيراً، لم يترك فيه صغيرة ولا كبيرة عن هذه البلاد إلا وذكرها، وقد تعرف في جاوة بكثير من العرب الحضارم، وأخذ منهم معلومات مستفيضة عن حضرموت كانت أساساً لإحدى دراساته في هذا المجال[٣].

وبعد إحالة دي غوية إلى التقاعد في عام ١٩٠٦م عين أستاذاً للدراسات العربية في جامعة ليدن، وقد بقي في هذا المنصب حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٢٧م، حيث خلفه البروفسور فينسينك مؤلف «فهرس الأحاديث النبوية»[٤]، وفي أثناء عمله في ليدن قام برحلة إلى تركيا، جدد بها ذكريات رحلته الأولى إلى الشرق، وقد تتبع الدعوة السلفية في الجزيرة العربية باهتمام، وكان يعدها حركة سياسية تحاول الجمع بين المبادئ الإسلامية الخالصة وضروريات العصر. وكان يعد الشيخ محمد عبده مصلحاً مصرياً، ويجب الاطلاع على آرائه وغيره من الكتاب الاجتماعيين، الذين كانوا يعملون لرفع مستوى المسلمين الثقافي والعلمي[٥].

لقد أسهم هورخرونيه في جعل الدراسات الإسلامية تستقل عن اللغة والتاريخ، وقد عد

---

(١) دروز: جامعة ليدن والدراسات العربية: ملخص بحث نشره المؤلف في مجلة Islamic Review بلندن وترجمه عن الإنجليزية السيد أحمد علي (انظر مجلة الحج: العدد ١٢ السنة ١٣٧١هـ ص٣٤ ـ ٤٠).

(٢) الرسالة: العدد ١٥٨ السنة الرابعة، ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ) ص١١٦٠.

(٣) دروز: مرجع سابق ص٣٩ ـ ٤٠.

(٤) عبداللطيف بن دهيش: مرجع سابق ص٩٤٣.

(٥) دروز: مرجع سابق ص٤٠.

عميد العربية من المستشرقين بعد جولدزيهر. وفي طليعة رواد الدراسات عن الفقه الإسلامي والأصول والحديث والتفسير في أوروبا[١]، وقد وافته المنية في الرابع من يوليه عام ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ) عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاماً[٢].

٢ ـ مؤلفاته:

لقد كتب هورخرونيه العديد من الكتب من أهمها:

أ ـ الحج إلى مكة ـ وقد كتبه بالهولندية وهو الأطروحة التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة ليدن[٣].

ب ـ مكة Mekka وقد كتبه باللغة الألمانية في مجلدين كبيرين طبعا في مدينة لاهاي بين عامي ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م[٤].

ج ـ مقالات وأبحاث لسنوك هورخرونيه: Verspreiae Geschriften Ven c. Snouk-Horgronje.

وقد صدرت هذه المجموعة في ستة مجلدات طبعت في مدينتي بون وليدن، في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧م. تحمل عناوين «الإسلام وتاريخه» و«الشريعة الإسلامية» و«بلاد العرب وتركيا» و«الإسلام في المهاجر الهولندية» و«اللغة والأدب» و«ملحوظات في الكتب» ذكر فيه بعض المخطوطات وتواريخ كتابتها و«فهارس الأجزاء السابقة كلها»[٥].

وأحد مجلدات هذا الكتاب يحتوي على دراسة الأمثال والحكم الحجازية، وقد جمعها هورخرونيه خلال إقامته في الحجاز، وأضاف إليها إضافات عديدة، ويعتبر هذا الكتاب دراسة جيدة للأمثال واللهجات في منطقة الحجاز عامة وفي مكة خاصة. وقد طبع هذا الكتاب في ليدن عام ١٩٢٥م[٦] تحت اسم: Mekkenische Sprich Worter Un F Bedensurten.

---

(١) عبداللطيف بن دهيش: مرجع سابق، ص٩٤٣.

(٢) الرسالة: مرجع سابق ص١١٥٩.

(٣) نجيب العقيقي: «المستشرقون» الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ص٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٤) عبداللطيف بن دهيش، دراسة موجزة لبعض مؤلفات هروغرنيه عن تاريخ الجزيرة العربية ـ العرب العدد ١١، ١٢ لسنة ١١ ص٩٤٢ ـ ٩٤٨.

(٥) الأعلام: ج٦ ص١٧٦ (الطبعة الثالثة).

(٦) عبداللطيف بن دهيش: مرجع سابق ص٩٤٨.

د ـ مختارات من كتابات سنوك هورخرونيه ـ كتبت باللغتين الإنجليزية والفرنسية أصدرها كل من بوسكويت وشخت (ليدن ١٩٥٧م)[١].

وكذلك مقترحات سنوك هورخرونيه الرسمية من ١٨٨٩ ـ ١٩٣٦م نشرها جوبه وادربانزن (ليدن ١٩٥٧م)[٢].

هـ ـ كتب العديد من المقالات في دوريات الاستشراق الآتية:

١ ـ مجلة تاريخ الأديان نشر فيها الأبحاث الآتية: محمد (١٨٩٣م)، والقانون الإسلامي (١٨٩٨م)، والجزيرة العربية والهند (١٩٠٨م).

٢ ـ مجلة العالم الإسلامي نشر فيها: طابع الإسلام (١٩١١م)، وهولندا ومسلموها (١٩١١م)، وانتشار الإسلام ولا سيما في الهند الشرقية (١٩١١م)، وإبراهيم في القرآن (١٩١٢م)، ودار الإسلام والمشكلة العنصرية (١٩٢٢م).

٣ ـ مجلة الإسلام نشر فيها: الاستشراق في هولندا (١٩١٣م).

٤ ـ المجلة الإفريقية نشر فيها سياسة النبي محمد الدينية (١٩١٥م).

٥ ـ مجلة المعهد الشرقي نشر فيها: إلى حضرموت (١٩١٢م).

٦ ـ نشر مقالاً عن عزلة الحجاز في حفل تكريم براون (١٩٢٢م).

٧ ـ أربع محاضرات عن الإسلام ألقاها في الولايات المتحدة من سنة (١٩١٢ ـ ١٩١٦م) منشورة في نيويورك (١٩١٦م)[٣].

٣ ـ رحلته إلى بلاد الحجاز:

لقد أراد هورخرونيه بعد حصوله على شهادة الدكتوراه من جامعة ليدن السفر إلى الجزيرة العربية ليتعرف من خلالها على حياة المسلمين وحقيقة الدين الإسلامي. ولقد كان هدفه دراسة أثر الإسلام في الحياة السياسية والاجتماعية في مجتمع لم يعرف الأوروبيون عنه الشيء الكثير. ولقد دعاه إلى ذلك قصر نظر المستشرقين الأوروبيين الذين يعتمدون في معارفهم

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤٤.

(٢) المستشرقون: مرجع سابق، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

على ما ينقلونه من الكتب، وهذا الأمر هو الذي دعاه إلى السفر والإقامة في مركز الإسلام الروحي.

لقد كان هورخرونيه يتقن العربية قبل ذهابه إلى الشرق. وبالرغم من ذلك فقد أمضى خمسة أشهر في جدة يتعلم اللهجة المحلية. وكان في تلك الفترة يسكن في مبنى القنصلية الهولندية بجدة. وفي مساء يوم الحادي والعشرين من فبراير عام ١٨٨٥م (٦/ ٥/ ١٣٠٢هـ) غادر جدة على أربعة جمال متوجّهاً إلى مكة بصحبة أحد رجال الجاوي. وقد دخل مكة في الثاني والعشرين من شهر شباط. وقد أعلن أن هدفه دراسة القرآن الكريم وليس من الواضح كما يقول رالي كيفية دخوله إلى مكة. فهل قدّم نفسه للوسط المكي على أنه أوروبي اعتنق الإسلام؟[١]، أو أنه أخفى حقيقة كونه أوروبياً واعتبر نفسه من طلاب العلم الجاوي؟

ويلقي الدكتور قاسم السامرائي[٢] الضوء على ذلك، ويروي حادثة يشم منها أن ترتيبات زيارته إلى مكة قد أعدّ لها مسبقاً، إذ يقول: «لما عقد مؤتمر المستشرقين في ليدن سنة ١٨٨٣م حضره أمين المدني الحلواني وأحضر معه مجموعة نفيسة من المخطوطات فباعها في برل، واشترت جامعة برنستون بأمريكا قسماً منها، والقسم الآخر اشترته جامعة ليدن. وفي المؤتمر تعرف عليه سنوك هورخرونيه. ولما نشر أمين المدني انطباعاته عن المؤتمر، سارع سنوك فترجمها عن جريدة البرهان القاهرية. ويظهر أن أمين بن حسن الحلواني المدني سافر إلى الهند بعد انتهاء المؤتمر، حيث عمل هناك على طبع كتاب (القرب في محبة العرب) لعبدالرحيم العراقي (شهر صفر ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م). وقد وصف نفسه بـ (المدرس باالروضة المطهرة)، وبعد انتهاء المؤتمر الاستشراقي بسنة، سافر سنوك هورخرونيه بصحبة القنصل الهولندي (كروات) (Kruyt) إلى جدة. والسؤال الذي يبرز: هل من علاقة بين تعرف سنوك هورخرونيه على أمين المدني ورحلة سنوك هورخرونيه إلى جدة، ومن ثم إظهاره الإسلام ودخوله إلى مكة المكرمة؟

---

(١) رالي: مرجع سابق، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) الاستشراق: مرجع سابق، ص١١١ ـ ١١٢.

إن أكثر المراسلات الشخصية الخاصة بعلاقاته ما تزال مقفلة أمام الباحثين بموجب وصية ابنته حتى عام ١٩٩٤م[١]؛ لذا فإن الإجابة عن هذا السؤال تبقى معلقة لغيرنا. ومع هذا فمن المحتمل جداً أن أمين المدني قد أبان الطريق لسنوك هورخرونيه لدخول مكة المكرمة، والثابت تاريخياً أن سنوك هورخرونيه أظهر الإسلام على رؤوس الأشهاد والملأ احتيالاً، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ومن ثم في إندونيسيا طول حياته ا.هـ».

مكث سنوك ستة أشهر ونصف في مكة المكرمة. فقد دخلها في ٢٢ فبراير ١٨٨٥م، وبقي بها حتى أغسطس من العام نفسه. وقد تسمى باسم عبدالغفار، وصار يختلف إلى مجالس العلماء وشيوخ التعليم، فوطد علاقاته بالكثير من علماء مكة وبالكثير من علماء جاوة وسومطرة وآتشي ممن كان يعيش في مكة، ويصف هورخرونيه مقامه في مكة حيث يقول: «لقد أقمت علاقات ومعارف مع علية القوم من أفراد المجتمع المكي، ولقد سمعت بأذني ما يتعلمه سكان المدينة العالمية وما يعلمونه لطلابهم، وكيف يتحدثون في أمور السياسة وأمور الفكر والثقافة. لقد درست النظم المثالية والحياة الواقعية، كما درست أصول العقيدة الإسلامية والصراع من أجل البقاء، درست ذلك كله وخبرته وتعلمته في المسجد، والديوان، والمقهى ومن واقع الحياة اليومية»[٢].

لقد ارتبط خروج سنوك هورخرونيه من مكة بقصة مشهورة لدى المستشرقين تلك هي قصة نقش تيماء أو حجر تيماء Teima Stone التي يرويها رالي[٣] في كتابه المذكور سابقاً عام ١٩٠٩م، حيث يقول: «في عام ١٨٧٨م اتفقت وزارة المعارف العمومية بفرنسا مع عالم في منطقة الألزاس، يدعى شارل هوبر (Huber) ليقدم تقريراً عن منطقة نجد. وفي العام التالي وصل هوبر إلى تيماء. ولقد شاهد أثناء تجواله حجراً أثرياً مكتوباً عليه بعض النقوش والكتابات، ولقد ذكر دوتي السائح الإنجليزي أنه سمع عن هذا الحجر، ولكنه لم يتمكن من رؤيته، ولقد كان هذا الحجر موجوداً ضمن سياج يحيط بأحد الآبار القديمة، وقد تراءى لهوبر أن الحجر ذو قيمة أثرية مهمة جداً».

---

(١) قد فتحت هذه الوصية في عام ١٩٩٧م، أما ما يخص مراسلاته الشخصية ومذكراته اليومية فقد تكونت لجنة من جامعة ليدن، لنشر هذه الرسائل والمذكرات برئاسة البروفسور ويتيكام WITKAM تحت اسم مشروع الحجاز Hijaz Project.

(٢) رالي: مرجع سابق ص٣٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٧ ـ ٣٤٣.

عاد هوبر في عام ١٨٨٣م إلى تيماء بصحبة مستشرق ألماني من شتراسبورغ، يدعى جوليوس يوتنج Julius Euting في محاولة للحصول على الحجر، وقد تبين أن الحجر يقدم معطيات جديدة عن وجود دين قديم خاص في منطقة تيماء، ويشاهد على الحجر صورة أحد الآلهة، يقف أمام أحد الكهنة، وقد أخذ العالمان ملحوظات عن الحجر، ثم قاما بإرساله إلى حائل بواسطة بعض أصحابهما وافترق العالمان، فقصد يوتنج القدس، أما هوبر فقد عاد إلى حائل ثم غادرها إلى جدة، عاد بعدها ثانية إلى حائل، وفي الطريق اغتيل من قبل الأدلاء الذين كانوا بصحبته.

ويبدو من ذهاب هوبر وعودته إلى حائل، أنه كان قلقاً على مصير الحجر، وربما أوجس خيفة من يوتنج بهذا الخصوص، وكان هوبر قد أرسل صورة الحجر وملحوظاته حولها إلى المستشرق رينان في باريس، أما يوتنج فقد أرسل ملحوظاته هو الآخر إلى المستشرق نولدكه في برلين. ضمنها رسالة قال فيها إنه هو الذي اكتشف الحجر، وإنه سوف يقوم بإرساله إلى ألمانيا.

إثر موت هوبر كُلّف القنصل الفرنسي بجدة، واسمه فيلكس دي لوستالوت (Felix de Lostalot) من قبل حكومته، بالمطالبة بإعدام قاتلي هوبر، وإحضار الحجر، فكتب القنصل الفرنسي رسالة إلى والي الحجاز بهذا الخصوص. ولما كان هوبر قد قام برحلته رغم معارضة السلطات التركية، فقد أثار ذلك ضجة كبيرة لدى الحكومة التركية الأمر الذي دعا القنصل الفرنسي للاعتذار عن تصرفه السابق، غير أنه عمد إلى الحيلة لإحضار حجر (نقش) تيماء، وقد قدم أحد الجزائريين المنفيين في بلاد الحجاز واسمه سي عزيز خدماته للقنصل الفرنسي، واعداً بإحضار الحجر، وممتلكات هوبر الشخصية، وقد طلب مبلغ ٥٠٠٠ فرنك مقابل ذلك، زاعماً أن هناك شخصاً آخر قد دفع ضعف هذا المبلغ ليحضر له الحجر، وربما ذكر أن هورخرونيه هو ذلك الشخص؛ لأن هورخرونيه كان في تلك الأثناء موجوداً بجدة، وعلى الرغم من أن هورخرونيه ينفي علاقته بذلك إلا أنه يعترف بأنه أرسل خطاباً إلى استاذه يوتنج مؤكداً له أن حجر تيماء يمكن أن يصل سالماً إلى جدة.

لقد اعتقد دي لوستالوت أن هورخرونيه يحاول إرسال الحجر إلى ألمانيا، فما كان من هورخرونيه إلا أن أرسل رسالة إلى القنصل الفرنسي مؤكداً أنه لا ينوي الحصول على الحجر، وليس لديه أي نية في إرساله إلى ألمانيا.

لقد قام سي عزيز بالمهمة، فأعاد الممتلكات الخاصة بهوبر إلى القنصلية الفرنسية، فقد كانت حاجات هوبر بما فيها الحجر مودعة أمانة عند ابن رشيد أمير حائل، وقد تسلمها سي عزيز باعتباره مندوباً عن القنصلية الفرنسية، فنقلت إلى جدة ومنها إلى باريس حيث وجد حجر تيماء طريقه إلى متحف «اللوفر».

لقد كانت قصة الحجر سبباً في إبعاد سنوك (عبدالغفار) عن المدينة المقدسة، فقد ظهرت في ٥ يوليه مقالة في جريدة الزمان الفرنسية (Le Temps) تناولت مقتل هوبر، كما تناولت محاولة سرقة الحجر من قبل هورخرونيه، وقد زود لوستالوت الجريدة بهذه الأخبار، وقد نقلت الخبر جريدة إسطنبول العثمانية، وفيها ظهر أن هناك هولندياً تحت اسم عبدالغفار، يحاول الحصول على نقوش أثرية، وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بإبعاد سنوك هورخرونيه دون أن تخبر واليها بالسبب؛ لأن الوالي لم يعرف بأمر الجريدة إلا من رسالة أرسلها سنوك نفسه إلى الوالي العثماني، ويؤكد القنصل الهولندي في جدة برسالة كتبها بتاريخ ٣ أغسطس ١٨٨٥م إلى سنوك مخبراً إياه أن جريدة إسطنبول قد أعادت نشر تقرير الجريدة الفرنسية، وأن اسمك قد ظهر فيها[١].

لقد علّق الشيخ حمد الجاسر على هذه الرواية بقوله[٢]: «تختلف هذه الرواية عما أورده (هوبر) في مذكراته التي نشرت بعد وفاته[٣] من جوانب كثيرة، وعما ذكره (فيلبي)[٤] عنه في كتابه (أرض مدين) مما يوضح تلفيقها، بل اختلاقها بتلك الصورة، ومن أوجه الاختلاف:

١ ـ أن (هوبر) أوضح أن الحجر وجد في حائط قصر، مما اضطره لإرضاء صاحبه، بعد إرضاء أمير تيماء عبدالعزيز بن رمان، بما بذل من نقود، وليس الحجر في سياج بئر، وقد سمى (فيلبي) ذلك القصر بأنه (بيت الطليحان).

٢ ـ أن الحجر لثقله البالغ (١٥٠ كيلاً) وللحفاظ على ما يحويه من كتابة وصور استلزم استئجار أربع من الإبل لنقله من (تيماء) إلى (العلا)، حيث (محطة سكة الحديد)، التي نقل بها

---

(١) قاسم السامرائي: مرجع سابق، ص١١٧.

(٢) مجلة البلد الأمين: مجلة نادي مكة الثقافي الأدبي، العدد الأول رجب ١٤١٥هـ. ص٧ ـ ١٦.

(٣) نشرت هذه المذكرات في (باريس في 1883 - 1884) (Journal d'un voyage en Arabia) Puble par la societe Asiatique et la societe de Geographie sous les auspices du Ministere de L'eintruction Publique. Paris 189.

(4) The Land of Midian.

إلى (دمشق) فـ (باريس) حين العثور عليه بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٨٨٤م[١]، ولم ينقل إلى (حائل).

٣ ـ ليس نقل ذلك الحجر بالأمر السهل لثقله، حتى يقدر عليه ذلك الجزائري من (حائل) إلى (جدة)، ولم تكن مخلفات (هوبر) الأخرى لدى ابن رشيد ليسلمها للجزائري مع الحجر، وإنما كان (هوبر) بعد عثوره على الحجر، أودع في (جدة) جميع تسجيلاته قبل رحلته الأخيرة للعودة إلى (تيماء)، كما ذكر (فيلبي)[٢].

٤ ـ كان (هوبر) بعد أن توسطت (فرنسا) لدى الحكومة التركية لتسعى لدى الأمير محمد بن رشيد للسماح له بزيارة بلاده، فتم ذلك، قابل الأمير في (حائل) وأهدى له سيوفاً وأسلحة وغيرها، وأرسل معه مرافقين لزيارة ما يرغب زيارته من البلاد التي تحت نفوذه، وكان من هؤلاء شخص يدعى حمود بن مجراد، وما زال أهل (حائل) يذكرون (السيوف الهوبرية)، فكان مما زار بلدة (تيماء)، وتمكن من نقل الحجر الذي عثر عليه إلى باريس، ثم عاد مرة أخرى إلى حائل، لاستكمال تنقيبه عن الآثار، وحدثني الأستاذ فهد المارك أن الأمير محمد بن رشيد أوعز إلى رجل من قومه يدعى (ابن شميلان) من قرية (الحليفة) من شيوخ بني رشيد، حين أوجس في نفسه أن تصرفات (هوبر) لها غايات سيئة، فأمر (ابن شميلان) إذا بلغ بلدة (العلا) خارج حدود بلاد ابن رشيد، منهياً رحلته، أن يقتله، وأن يحرق كل أوراقه، وما معه، ما عدا الأشياء التي يحتاج إليها من متاع وزاد ولباس فهي لابن شميلان نفسه، فنفذ أمر سيده، ولم يقف سوء ظن ابن رشيد بتصرف (هوبر) إلى هذا الحد، بل أرسل أناساً يتتبعون المواضع الأثرية التي صورها، فيزيلون كتاباتها وصورها، توهماً أنها من فعل (هوبر). إذ ظن مرافقوه، وهم يرونه يحاول نقلها أنه يقوم بكتابتها.

---

(١) تعليق على تعليق الشيخ حمد الجاسر، في هذا التاريخ لم يكن خط سكة الحديد قد أنشئ بعد، لهذا وجب التنويه.

(٢) ونص كلامه: وقد جمع (هوبر) كمية من النقوش قبل مصرعه بشهر واحد على يد مرافقه العربي، ولكنه لحسن الحظ كان قادراً على إيداع جميع تسجيلاته في (جدة) وذلك قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ليزور الجزء الشهير من تيماء. انتهى.
ولمعرفة جميع ما يتعلق بآثار تيماء وخاصة ما كتب فوق هذا الحجر يحسن الرجوع إلى كتاب «في شمال غرب الجزيرة» ص٣٥٠ وما بعدها تأليف حمد الجاسر.

وما أراني بحاجة إلى الاسترسال في الكلام على جوانب التلفيق لمحاولة إيجاد صلة بين قصة (هوبر) وبإخراج (هورخرونيه) من (مكة) مما يكاد يجزم من أدرك ما يتصف به من براعة في التكتم في أموره، وأنه لما أحس بانكشاف أمره في دعواه الإسلام، قبل أن يحقق ما يطمح إليه من غايات، حاول إبراز ذلك بما لا يؤثر في مستقبله، بالربط بينه وبين صلته بـ (هوبر) فحور قصته، وسعى لنشرها في الصحيفتين على ذلك النحو.

وذكر الجاسر أن الزركلي في الأعلام أورد سبباً آخر ونصه: أنه دخل مكة متسمياً بـ (عبدالغفار)، ومكث بها في (سوق الليل) خمسة أشهر، واضطر إلى مغادرتها فجأة قبل حلول موسم الحج لانكشاف أمره، ولكلمات تفوه بها وكيل قنصل فرنسا في (جدة) في بعض المجالس، ورحل إلى بلاد جاوة فأقام بها ١٧ سنة.

أما الدكتور قاسم السامرائي فنص كلامه: «وحاول القنصل الفرنسي في (جدة) الحصول على ما خلفه (هوبر) من متاع ونقوش وجدها، وهنا بدأ الصراع على المسلوب بين (فرنسا) و (هولندا)، فدار شك الفرنسيين حول (هورخرونيه) من أن له يداً في قتل (هوبر) للحصول على نقوشه، وظهر هذا الاتهام في جريدة (الزمان) الفرنسية على النحو الذي ورد في السابق ا.هـ.

وأياً كان السبب فقد استدعي هورخرونيه من قبل القائم مقام العثماني؛ لأن الوالي العثماني كان موجوداً في الطائف، وطلب إليه مغادرة مكة حالاً. وقد أعطي بضع ساعات ليحمل أمتعته وأرسل مخفوراً بجنديين من الأتراك إلى جدة، غادرها بعد ذلك إلى هولندا.

٤ ـ إسلامه:

لقد أفاض الباحث المحقق الدكتور قاسم السامرائي في هذا الموضوع[١]، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها، ولا سيما أنه على علم بلغة هذا المستشرق، ولبث في ليدن فترة من الزمن، وزامل بعض المهتمين بشؤون الاستشراق بهولندا، وسنذكر في هذا الصدد طرفاً مما ذكره الأستاذ الفاضل بهذا الخصوص: «يتحاشى الكثير ممن كتب عن سنوك هورخرونيه الاعتراف بأنه استطاع الولوج إلى مكة المكرمة؛ لأنه أعلن إسلامه رسمياً، وقد حاول بعض منهم أن يسبغ عليه ثوب البطولات والجرأة النادرة في قدرته على التوغل إلى معقل الإسلام الحصين.

---

(١) قاسم السامرائي: مرجع سابق ١١٧.

ويؤخذ مما كتبه سنوك نفسه في مقال نشره في إحدى الجرائد الألمانية الصادرة في ١٦/ ١١/ ١٨٨٥م وفي مقال آخر نشر في روتردام في ١٦ و ٢٧/ ١١/ ١٨٨٥م أن سنوك دخل مكة ليس متنكراً، بل دخل عالماً مسلماً هولندياً، جاء لتلقي العلم وتأدية الحج»[١].

إن ما عمله سنوك أثناء وجوده في جدة، يدل دلالة واضحة على اعتناقه الإسلام ـ ظاهراً على الأقل ـ وينفي السامرائي مزاعم أحد المستشرقين، الذي ذكر أن الطريق إلى مكة فتحت لسنوك نتيجة العلاقات التي كانت تربط القنصل الهولندي ووكيل النقل البحري الهولندي مع المطوفين، وقد استغلها القنصل في دعوة بعض علماء مكة للحضور إلى جدة، لأن متعلماً هولندياً شاباً درس الإسلام يود مقابلتهم، وقد حدث اللقاء بالفعل. وفي هذا اللقاء جرى الحديث حول بعض الموضوعات الدينية. وقد أعطي المجال لسنوك ليتحدث عن نفسه وكتبه. وبعد أن تعرفوا على وجهة نظره في الإسلام أعلن الزوار المكيون: أننا نشعر بأنك واحد منا. وبهذا أصبح الطريق له مفتوحاً إلى مكة.

ويورد الدكتور السامرائي بعض المذكرات التي كتبها سنوك بخط يده، وهي موجودة في مكتبة جامعة ليدن، بدفتر مذكرات هورخرونيه:

ـ في يوم ٦ يناير ١٨٨٥م حضر الوالي من مكة إلى جدة، وحل في بيت وحدنة (من أثرياء جدة).

ـ زارني إسماعيل آغا، قاضي جدة، في بيت رادن أبو بكر، حيث كنت أقيم منذ ١ يناير ١٨٨٥م حتى ١٦ يناير، وكان بصحبته رجلان من جانب الوالي.

ـ وفي اليوم التالي ١٧ يناير جاء القاضي مع ترجمان الوالي مع آخرين لتحية سنوك هورخرونيه نيابة عن الوالي وليقولوا له: إن الباشا سوف يتشرف بزيارة سنوك هورخرونيه للوالي.

ـ وفي يوم الأحد ١٨ يناير (١ ربيع الآخر ١٣٠٢هـ) زار سنوك الوالي، وكان لطيفاً جداً معي، وقد دعاني لأعدّ نفسي ضيفاً عليه، إن أردت السفر إلى مكة.

---

(١) الاستشراق، ص١١٤ ـ ١٣٧.

- وفي ٢١ يناير جاء الباشا إلى داري (دار رادن أبو بكر) لإعادة زيارتي وبعدها ذهبنا إلى حديقة القنصلية لأخذ الصور.

ومن هذه المعلومات التي سجلها سنوك هورخرونيه نفسه، يظهر بوضوح أن عملية إشهار إسلامه الرسمية على يد القاضي وبشهادة شاهدين جاءت بعد أن سمع القاضي رغبة سنوك في اعتناق الإسلام من فيه، وبحضور شاهدين عدلين لهما صفة رسمية أيضاً، فشهدا على ما سمعا وبلّغا الوالي. وفي اليوم التالي مباشرة جاء القاضي مع ترجمان الوالي وآخرين للتهنئة بإسلامه نيابة عن الوالي وليقولوا له: إن الوالي يتشرف بزيارة سنوك هورخرونيه المسلم طبعاً؛ لأن هذا الإجلال الذي أغدقه الوالي على سنوك لم يكن لأنه أعجب بعلم سنوك هورخرونيه، بل لأنه أشهر إسلامه.

أما رادن أبو بكر (وهو نبيل إندونيسي)، الذي أقام سنوك هورخرونيه في بيته، بعد انتقاله من القنصلية الهولندية، فقد استمر على الاتصال بسنوك سنين طويلة، ولا بد أنه شاهد عملية اعتناق سنوك هورخرونيه الرسمية للإسلام في داره. وإلا فمن غير المقبول عقلاً ومنطقاً أن يدعوه في رسائله: إلى الأخ في الله الشيخ المحترم الأمجد.. عبدالغفار، ومن غير المقبول عقلاً أن يكتب له سعادة الأديب الحميد الشيخ محبنا ومولانا عبدالغفار سهل له مطالبه وبلغه مناه في الدارين، دون أن تكون عنده القناعة بأنه أشهر إسلامه. وأخيراً من غير المنطقي أن يدعو الباشا سنوك لزيارة مكة وهو على غير دين الإسلام فهذا محرم شرعاً، ولم تأت دعوة الوالي لزيارة مكة إلا بعد أن سمع شهادة قاضي جدة وشهادة رجاله على إسلام سنوك هورخرونيه.

والشيء الذي يسترعي الانتباه أن سنوك لم يعلن ارتداده عن الإسلام بعد خروجه من مكة، وقد استمر بادعاء الإسلام أثناء وجوده في إندونيسيا، ولمدة سبعة عشر عاماً، وقد تزوج امرأة مسلمة في إندونيسيا، أنجبت منه عدداً من الأولاد، الأمر الذي جعل بعضهم لا يميل إلى ردته عن الإسلام بعد خروجه من مكة.

غير أن السامرائي ينفي ذلك قائلاً: «الثابت تاريخياً أن سنوك هورخرونيه أظهر الإسلام على رؤوس الملأ والشهود احتيالاً، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ومن ثم في إندونيسيا طيلة حياته. وقد أخبرني ثقة إندونيسيا أن سنوك هورخرونيه خدع أحد الأمراء بإسلامه وتزوج ابنته وله منها أولاد، أكبرهم يشغل منصباً كبيراً في الشرطة في إندونيسيا، وقد

تأكدت من هذه المعلومات حين قابلت حفيد سنوك شخصياً بصحبة زميلي المستشرق شوردفان لونكزفيلد في ليدن. ومما لا شك فيه أن سنوك هورخرونيه كان بارعاً في تمثيل الدور على زوجته وأولاده كبراعته في تمثيل الدور على كثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم. اهـ».

ويشارك السامرائي في هذا الرأي علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، الذي تعرض للحديث بالتفصيل عن سنوك هورخرونيه في أمرين مهمّين هما: إسلامه، وإخراجه قسراً من مكة. كما عقّب على بعض موضوعات الكتاب بعد صدور الطبعة الأولى من الجزء الثاني منه عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) فقال حفظه الله[1]:

«لن أتعرض للحديث عن (سنوك هورخرونيه) إلا من ناحيتين: إسلامه، وإخراجه قسراً من (مكة)، فالأستاذان الفاضلان محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، اللذان قاما بنقل كتابه إلى اللغة العربية، وتولى (نادي مكة الثقافي الأدبي) نشره ـ عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) ـ بطباعة أنيقة واضحة الحروف وجيدة الورق حسنة الترتيب، مزدانة بالصور الجميلة لبعض معالم هذا البلد الكريم زمن تأليف الكتاب، في (٥٦٤) من الصفحات ـ قد أوفيا المؤلف حقه فيما تحدثا به من ترجمته في نحو ثلاثين صفحة من المقدمة، وإن كانا ـ وفقهما الله ـ توقفا حيال موقفه من الإسلام، حتى يتضح ما في أوراقه التي لم يسمح بنشرها، ولم يتم الاطلاع على ما فيها بعد، مع إيرادهما رأي الدكتور قاسم السامرائي في هذا الأمر في كتابه «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» (بأن اعتناقه الإسلام كان ظاهراً على الأقل). ولا أعتقد أن الأخوين الكريمين يريان أي غضاضة في إبداء ملحوظات يسيرة حول ما قرأت فيما كتبا في مقدمته الضافية، مع الاعتراف لهما بالفضل إزاء هذا العمل الجليل، واطلاعهما على مصادر عن حياة المؤلف قد لا يتسنى لكثيرين الاطلاع عليها، ولا سيما من يجهل اللغة الإنجليزية، ومن كان محدود المعرفة بما كتب حول المستشرقين. ومع أنني حرصت على نقل كتاب (مكة) فدفعته لمن قام بتعريبه لأنشره ولم أبادر بذلك حتى أثق بصحة الترجمة، ولكن حدث ما حال بيني وبين ما أردت. وكان مما قرأت عن المؤلف البحث الذي كتبه الدكتور عبداللطيف ابن

---

(١) مجلة البلد الأمين العدد الأول رجب ١٤١٥هـ ص٧ ـ ١٦. وكذلك مجموعة مقالات نشرت في المجلة العربية تحت عنوان «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» في الأعداد جمادى الآخرة ـ ذي الحجة عام ١٤١٦هـ، وما بعدها.

عبدالله بن دهيش ونشرته مجلة (العرب)، وما كتبه الدكتور السامرائي حوله إلا أنني كنت متأثراً قبل ذلك بما كان يكرره أستاذنا الشيخ محمد بن عبدالرزاق حمزة رَحِمَهُ اللَّهُ على طلابه في المعهد في مكة، وأنا أحدهم، عام ١٣٥٢هـ عن حيل الرحالين من الغربيين للتوغل في البلاد العربية، ومقدرتهم في تلك الحيل بطرق مختلفة، بحيث تنطلي على كثير من الناس، ويمثل لأولئك بصاحبنا الذي استطاع أن يخدع علماء البلد الأمين ووجهاءه وأكثر المسلمين في بلاد (جاوة) وغيرهم ـ بالتظاهر بدعوى الإسلام فترة من الزمن، استمرت حتى بعد موته، بل خدع بذلك أقرب الناس إليه كزوجته، وقبلها أبوها أحد أمراء الجاوى، فقد كان بارعاً في تمثيل هذا الدور من الخداع والتضليل.

ومهما كنا حسني الظن حيال ادعائه الإسلام ـ بالدرجة التي تجعلنا نتطلع إلى ما تحتويه أوراقه ـ فإننا لن نستطيع أن نوفق بين هذا وما اتضح من أفعاله وما انكشف، مما اعترف به هو، وأوضحه مترجموه من بني جلدته وألصق الناس به، من اتصافه بصفات تنافي ما ادعى من صدق إسلامه، كعرافته وممارسته للتبشير واشتغاله في التجسس طيلة سبعة عشر عاماً في بلاد (الجاوة) مستشاراً للشؤون الدينية في وزارة المستعمرات الهولندية وتحريضه على استعمال الشدة إلى درجة القتل للمتمسكين بدينهم من علماء المسلمين ومحاولة خداع السذج منهم بتظاهره بالإسلام، حتى كان يضفي عليه بعضهم لقب (مفتي بتافيا) و (شيخ الإسلام) مما لا يتسع المقام لتفصيله. اهـ».

في عام ١٩٩٧م تم الكشف عن الوثائق والرسائل الخاصة بسنوك هورخرونيه في ليدن، وعقد مؤتمر علمي عن سنوك بهذه المناسبة بتاريخ ١٤ نوفمبر عام ١٩٩٧م (١٤/ ٧/ ١٤١٨هـ) وكان ممن حضر هذا المؤتمر معالي الشيخ أحمد زكي يماني، والدكتور معراج مرزا، كما حضره من إندونيسية هاري بن يوسف حفيد سنوك (المسلم) من زوجته الإندونيسية ستي سجيدة. وكان من الذين اطلعوا على الرسائل الخاصة بجده، (سنوك هورخرونيه). وقد أكد أن من ضمن الرسائل التي فتحت رسالة يعلن فيها الرجل أنه مسلم. وقد رأت اللجنة المكلفة بالإشراف على فتح الوصية من جامعة ليدن إخفاء هذه الرسالة وعدم إظهارها؛ لأن ذلك سيكون مخيباً لآمال الكثيرين من عشاق هذا المستشرق الكبير، كما سيكون له مردود سلبي على جامعة ليدن نفسها، التي اعتبرت من أوائل معاهد الاستشراق في أوروبا.

هذه الشهادة تضع حداً لموضوع إسلام الرجل، وأنه كان يخفي إسلامه على الأقل على

أبناء جلدته ولا يسعه إلا أن يفعل ذلك، فهو ممثل لحكومته ورجل استخبارات وعالم في معهد تبشيري يناهض الإسلام؛ ولهذا فهو يظهر غير ما يبطن. ومن الجدير بالذكر أن حفيد سنوك يبرر ذلك بقوله: إن سنوك كان فيما يبدو يفرق بين المصلحة الوطنية التي يرى أن التصدي لما يضر بها أمر واجب، وبين اعتناق الدين باعتباره أمراً شخصياً خاصاً بالفرد، وهذا هو المفهوم الأوروبي للتدين، وفي ضوء ذلك، لا يرى بأساً من محاربة كل من يتصدى للإساءة للمصالح القومية الهولندية أو يسيء إلى سمعة هولندا في جزر الهند الشرقية. ولعل ذلك يفسر نظريته في الترابط الثقافي بين أمم الشرق وأمم الغرب، حيث يرى أن الاتحاد في الدين ليس شرطاً في اتحاد الوطنية. فقد تتعايش الأديان المختلفة في المكان الواحد.

وأخيراً إن رجلاً بحث في الكثير من جوانب الدين الإسلامي، لا بد أن لامست بعض جوانبه حياة هذا الرجل، فاستجاب لنداء هذا الدين، غير أن الظروف المحيطة به لم تمكنه من الالتزام الكامل بالإسلام. ولئن كان أكثر المستشرقين في السابق قد عكفوا على اعتناق الإسلام ليصلوا إلى أهدافهم الخاصة فإن البعض منهم قد رأى بثاقب فكره أن هذا الدين جدير بالاعتناق، وليس أدل على ذلك أن فيلبي الذي عاش لفترة طويلة في ربوع الجزيرة العربية كان ينظر إليه كغيره من المستشرقين باعتباره ممثلاً معتمداً لبلده وأنه كان يتظاهر بزي المسلمين ويظهر اعتناقه للإسلام خدمة لمصالح بريطانيا، وكان هذا الاعتقاد لدى العرب والإنجليز على السواء. غير أن أسرته فوجئت بأنه يخبر ابنه أنه مسلم ويوصي بدفن جثمانه في مقابر المسلمين، ويروي الابن مظهر امتعاضه من تصرف أبيه ووصيته هذه التي لم يسمعها إلا قبيل الوفاة.

وبعد، فإن سنوك وإن كان قد أفضى إلى ربه، فسيبقى أمر إسلامه مشكلة تثير الجدل بين الباحثين بين مؤيد ومعارض.

٥ ـ هورخرونيه في الميزان:

إذا أردنا الحكم على هورخرونيه، لا بد أن ننظر للوسط العلمي الذي عاش في رحابه، كما ننظر إلى معطيات الفترة التاريخية التي عاش فيها، والإنسان ابن عصره كما أنه ابن بيئته.

لقد عاش هورخرونيه بصفته تلميذاً ومدرّساً في جامعة ليدن، وهي أولى جامعات أوروبا وأكثرها أهمية وعراقة، وقد بدأ الاستشراق الهولندي منها، وتبعتها بقية الجامعات التي أنشئت فيما بعد. ولقد نشر الأستاذ دروز أستاذ اللغات الإندونيسية في هذه الجامعة، مقالاً في مجلة (Islamic Review) بلندن حدد فيه مهام هذه الجامعة فيما يخص الدراسات الشرقية بثلاث نقاط هي:

ـ أنها كانت ترمي إلى نشر المسيحية، ولذلك اهتمت بترجمة الإنجيل والتعاليم النصرانية إلى العربية، ليسهل استعمالها من قبل البعثات التبشيرية في البلاد العربية.

ـ كانت لهولندا مع معظم الدول الإسلامية مصالح اقتصادية وعلاقات بحرية وسياسية. وكانت هولندا تستعين بمستشرقي جامعة ليدن في كل ما يحتاج إلى الترجمة من العربية وإليها، الأمر الذي أدى إلى زيادة الاهتمام باللغة العربية ودراساتها.

ـ صلة هولندا بمستعمراتها في إندونيسية، ومعظم سكان هذه المستعمرات مسلمون، وكان عملاء الشركة الشرقية الهولندية ينقلون كل ما يجدون من المخطوطات الإسلامية في هذه المستعمرات إلى جامعة ليدن[١].

ومن هنا نجد أن مرامي جامعة ليدن تنحصر بالدافع التبشيري والدافع الاستعماري والدافع العلمي الصرف. ولقد أشار بعض الباحثين إلى أن سنوك هورخرونيه قد جمع في دراساته الاستشراقية بين هذه الدوافع الثلاثة[٢]. وسنلقي الضوء على هذا الدوافع الثلاثة من خلال شخصية هورخرونيه نفسه.

٥/ ١ ـ الدافع التبشيري:

تشير سجلات البلدية المحفوظة في دار الوثائق بمدينة ليدن أن هورخرونيه كان (بلا دين)، حيث كتب بجانب حقل الدين في هذا السجل (بلا دين)[٣]. ولعل ذلك يظهر لنا أنه لم يتحمس للتبشير كثيراً في المناطق الإسلامية. فقد كان يرى أن سياسة الترابط الثقافي بين هولندا ومستعمراتها هي أنجح من سياسة التبشير في هذا المجال. وهذه السياسة يمكن بواسطتها دمج المستعمرات مع الوطن الأم بروابط ثقافية وحضارية مشتركة بالرغم

---

(١) أحمد علي: جامعة ليدن والدراسات العربية، مجلة الحج، ع١٢ س٥، ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) مكة المكرمة.
(٢) قاسم السامرائي: مرجع سابق، ص١٠٨.
(٣) المصدر السابق: ١٣٤.

من اختلاف الديانات؛ لذلك نراه يحذر الحكومة الهولندية من خطر الانقياد إلى جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية المسلمين الدينية.

وقد اعترف هورخرونيه بأن حزباً هولندياً ممالئاً لجمعيات التبشير يحث الحكومة على أن تحمل مسلمي الجاوى على النصرانية قسراً، فبيّن الخطر العظيم من ممالاة جمعيات التبشير على مساعيها هذه في تنصير المسلمين، وطعن في مزاعم النواب في الندوة الهولندية كون إسلام أكثر أهل الجاوى لا يزال اسمياً، فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون. قال: «إن هذا القول هو في منتهى الحماقة، وإنه يجب على كل وطني هولندي يهمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتاً، ويحذر الحكومة من سوء عواقبه. وهو ينبه إلى كون الضغط يورث الانفجار. وأن حكومة هولندا كما أنها متهمة عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين؟ فهي متهمة لدى المسلمين باضطهاد الإسلام، فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك. ا.هـ»[١].

ومن رأي هورخرونيه أن الحكومة الهولندية تخطئ إذا أقامت عقبات في طريق الحج، لا سيما أن مسلمي الجاوى هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الإسلام. وأن تصعيب الحج عليهم لا يجلب لهولندا غير إثارة الخواطر وقلق الأفكار. وهو يرد على بعض النواب الهولنديين الذين يسترسلون إلى الخيالات من أمر الحج، ويظنون أنفسهم قد أحسنوا صنعاً في حمل الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله. يقول: إن على الحكومة الهولندية أن تسلك سبيلاً وسطاً فلا تحث على فريضة إسلامية ولا تنهى عنها، وقد أحسنت صنعاً في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة، فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل أحداً عليها بالقوة ولا تمنعها بالقوة[٢].

غير أننا يجب أن نسارع إلى القول بأن هورخرونيه نفسه يحذر الحكومة الهولندية من خطر آخر، ألا وهو انتشار الإسلام بين صفوف الوثنيين بإندونيسيا بواسطة الموظفين المحليين المسلمين، الذين يعملون في الإدارة الهولندية في تلك المناطق. ويرى أن مصلحة هولندا وأوروبا كلها تقضي بترجيح بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا مسلمين.

---

(١) شكيب أرسلان: عدو عاقل لكنه شديد الخطر (سنوك هورخرونيه)، مجلة الفتح، العدد ٢٤٣، السنة الخامسة ١٣٤٩، ص١ ـ ٣.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، المجلد الأول، الطبعة الثالثة، دار الفكر ١٩٧١م، ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

والسبب في ذلك كما يقول أمير البيان العربي (شكيب أرسلان): إن الإسلام لا يجتمع مع الذل في قلب واحد. وإن الشريعة قد ضمنت لمعتنقها كل شروط الحرية والاستقلال؛ فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبي والميل إلى الإسلام في قلب واحد؛ لأن المستعمرين يعلمون ما وراء الأكمة، ولذلك أهم شيء تناصبه الدولة المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الإسلامية والأخذ بعزائم الإسلام.

إن رأي هورخرونيه الذي ينصح فيه الحكومة الهولندية بإعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم هو من خوفهم الثورة والانقضاض ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الأمر، فالاعتدال هنا بعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين، ويبدو أن مبدأ هورخرونيه يفيد بأن مقاومة الإسلام في الأمور السياسية علنية لا مراء فيها، وأما الأمور الدينية فهي خفية بحيث لا تدعو إلى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض.

٥/ ٢ ـ الدافع الاستعماري:

إن العصر الذي عاش فيه سنوك هورخرونيه كان عصر الحمّى: حمّى التوسع الاستعماري، وحمّى التبشير في حماية السلطة المستعمرة، وحمّى الاكتشاف والريادة، وذلك باكتشاف أي مجهول عند الأوروبيين للفوز بالشهرة كالنقوش الكتابية والآثار وغيرها[١].

ولم يكن سنوك استثناء من القاعدة، فقد شارك في أحداث عصره، وأسهم فيها بنصيب كبير. لقد استخدم علمه وثقافته في سبيل مصلحة بلده. ومن مصلحة بلده كان الاستعمار والسيطرة وضم الأراضي فيما وراء البحار إلى الوطن الأم، ولقد قضى سبعة عشر عاماً في إندونيسيا يعمل مستشاراً في وزارة المستعمرات الهولندية في المسائل الإسلامية والعربية، وكان يقوم بالعديد من المهمات، من أبرزها: وضع الخطط والتوصيات اللازمة للقضاء على الحركات المناهضة لهولندا بإندونيسيا، كما ظهر من رسالة كتبها سنوك إلى أحد الجنرالات الهولنديين، والتي ذكر فيها طريقة دخوله إلى إقليم آتشي وسبب هذا الدخول[٢]، وكذلك توصياته السرية التي أوصى بها الحكومة الهولندية باتباع سياسة العنف

(١) السامرائي: مرجع سابق، ص١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) السامرائي: المصدر نفسه، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

والإفناء للعلماء الذي يديرون الثورة ويشعلونها في آتشى «إن العدو الحقيقي والنشط هم العلماء المغامرون، الذين نظموا العصابات القوية، وبالرغم من قلة عددهم الذي يتجدد من بين مستويات السكان المختلفة، فإنه يمكن أن يضاف إليهم قسم من السكان والرؤساء. ولا يمكن أن تكون هناك فائدة في المفاوضة مع هذا الحزب العدائي؛ لأن عقيدتهم (؟!!) ومصلحتهم الشخصية تفرض عليهم ألا يخضعوا إلا باستعمال العنف ضدهم»[١].

إن هذا الجانب من توصيات سنوك يمثل الجانب الاستعماري، الذي كان جزءًا من مهمته الرسمية، أثناء إقامته الدائمة في أرخبيل الملايو الهولندي، أما الجانب الآخر فيتمثل بنظريته في العلاقة بين المستعمرات والوطن الأم، تلك العلاقة التي أوحت له بنظريته المشهورة في هذا السبيل وهي «نظرية الترابط الثقافي»، وهي سياسة استعمارية ترمي إلى صهر المستعمرات في بوتقة الدولة المستعمرة بحيث تكون جزءًا منها.

والظاهر أن السياسة الاستعمارية كانت تسير على نظام واحد، وإن تعددت الدول المستعمرة، إذ نجد تشابهاً تاماً في الطريقة التي اتبعها الإنجليز والفرنسيون مع ما رسمه سنوك من تصدير الثقافة الأوروبية إلى المستعمرات الأوروبية فيما وراء البحار.

ويقول سنوك إن سلامة المستعمرات الهولندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافية الهولندية في مسلمي تلك الجزائر (جزائر الهند الشرقية) إلى أن يصيروا في هذا الباب كالهولنديين أنفسهم، فيكون هولنديون في الشرق، كما يكون هولنديون في الغرب. ولا يرى ذلك مستحيلاً، ولا يجد الاتحاد في الدين شرطاً في اتحاد الوطنية، بل يقول: إنه كما لم يمنع اختلاف الهولنديين البروتستانت مع الهولنديين الكاثوليك، والهولنديين اليهود مع الملاحدة الهولنديين أن يكونوا جميعاً أمة هولندية. فلا يمنع اختلافهم في الدين مع مسلمي الجاوى وسومطرة أن يكون هؤلاء في يوم من الأيام وطنيين هولنديين، وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولندية التي تتغلب في نفوسهم على أثر الدين[٢].

إن الترابط الثقافي في نظر سنوك أقوى من روابط الهيمنة بالقوة وأقوى على ربط المستعمرات بالوطن الأم. ولو قدر لهذه السياسة أن تنجح لرأينا إندونيسيا ترفض

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، مرجع سابق ٢٤٣.

الاستقلال كما ترفضه الآن مستعمرات هولندا في سورينام وجزائر الأنتيل. والسبب واضح وهو أن إندونيسيا لم تكن خالية من الأصول الثقافية التي وفرها الإسلام، كخلو مستعمرات هولندا في أمريكا الجنوبية، ولذلك لم تنجح سياسة سنوك في إندونيسيا[١].

ولم يكن سنوك متحمساً للتبشير بصفتها أداة سيطرة، بقدر ما كان متحمساً لتصدير المثل الأوروبية، التي تعمل على المدى البعيد في إضعاف الوازع الديني وحصره في المساجد. وكأنه يعلم أن مهاجمة المسلمين من جهة العقيدة أمر عقيم لا يأتي بأدنى فائدة ولا يعود على هولندا إلا بالضرر، ولا يألو جهداً في تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب، مستبدلاً إياه بسلاح قوي هو صبغ الأمة الإندونيسية بالصبغة الهولندية من طريق العلم والتربية[٢]. وانتشار المدارس على النمط الأوروبي هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق حلمه في الترابط الثقافي.

لذلك لا يألو هورخرونيه جهداً في أن يقطع كل صلة تربط البلاد الإندونيسية بالعالم الإسلامي. فنراه دائماً ينبه جهاراً وبدون أدنى محاباة إلى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الإسلامية؛ لأنه يقول إن الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها في السياسة بل هي رئاسة سياسية، من أراد الاعتصام بها من المسلمين، فإنها لا تمكنه من طاعة حكومة مسيحية، ونجده في موضع آخر يتأسف من كون مسلمي تلك الجزائر مقلدين في ديانتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمي مصر وحضرموت وجزيرة العرب، عاكفين على مطالعة التآليف التي تحرر في البلاد العربية، وأنه إلى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قوية تناهض هذه النزعة الدينية العربية.

يظهر من هنا اتفاق الأوروبيين على بث روح القومية بين أمم الإسلام أملاً بكسر عصا الجامعة الإسلامية. وهو يرى أن خطر القومية أخف من خطر تلك الجامعة، لذلك هو يرى أن لا هوادة مع المسلمين الجاويين، فيما لو أرادوا أن يتضامنوا في السياسة مع سائر مسلمي المعمورة، ومن توصياته منع قناصل تركيا، الذين يمثلون وكلاء دولة الخلافة، من أي مداخلة مع الأهالي. وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك في الإعانات لسكة حديد الحجاز، وعدم إباحة أي إعانات أخرى لجرحى العساكر العثمانية، ولأرامل جنود

---

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٢) قاسم السامرائي: مرجع سابق ١٣١.

الأتراك وأيتامهم، ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة، وعلى مراقبة التعليم الديني، حتى لا يقع فيه شيء من الدعوة إلى اتحاد الإسلام ـ وكأنه يريد للإسلام أن ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة، وذكر نواقض الوضوء مثلاً ـ ويطلب حذف باب الجهاد. وبالاختصار فهو ـ مع ما اتصف به من الاعتدال ـ يريد أن يمحو أثر كل تضامن إسلامي مع المسلمين التابعين لهولندا، وأن ينسخ من التعليم الإسلامي كل ما فيه رائحة الدفاع عن الأمة، وفي هاتين النقطتين لا يرعى في الملام خليلاً»[1].

إن آراء سنوك السابقة، والتي اعتمدت بوصفها سياسة لهولندا في الشرق، تبين الوجه الاستعماري الذي يمثله الفكر الاستشراقي، والذي كان يحرص دائماً على الاستيثاق من المستعمرات، وذلك بقطع كل صلة تربطها بغير الوطن الأم، تحقيقاً لمبدأ وجود امتداد حضاري للدول المستعمرة في مستعمراتها فيما وراء البحار.

٥/ ٣ ـ الدافع العلمي:

لقد ذكرنا سابقاً أن المستشرقين تناولوا تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة. وعمدوا إلى درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه، وقد وقفوا عليه مواهبهم ومناهجهم مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف، حتى بلغوا فيه شأواً بعيداً.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هذا كله؟ ونجد الجواب عند سنوك هورخرونيه حيث يقول: «لقد احتفظت الشريعة بتأثير واسع المدى على حياة المسلمين الفكرية، لذلك كانت ولم تزل أيضاً موضوعاً مهماً للدراسة، لا لمجرد الأسباب المتعلقة بتاريخ الشريعة والحضارة والدين، ولكن لأغراض عملية. وكلما ازدادت صلات أوروبا الودية مع الشرق الإسلامي، وازداد معها وقوع الأقطار الإسلامية تحت سيطرة أوروبا، أصبح الأمر مهماً لنا ـ نحن الأوروبيين ـ أن نكون على معرفة بالحياة الفكرية ومفاهيم الإسلام وشريعته الدينية». ويعلق أحد الباحثين على ذلك قائلاً: «إن معرفة الشرق تزيد أو تحقق أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السيادة الأوروبية أن تمتد على آسيا»[2].

---

(١) شكيب أرسلان: المصدر السابق ص٣٤٣.

(٢) قاسم السامرائي: مرجع سابق ص١١٠ ـ ١١١.

بهذا المنظار الذي به ينظر الأوروبيون لدراساتهم الاستشراقية يجب أن ننظر. فدراساتهم كلها ـ أو جلها ـ هي لأغراض عملية، منها: الاستعمار والسيطرة، ومنها التنصير، ومنها الترابط الثقافي، وغير ذلك.

غير أن هذه الأغراض العملية قد أفرزت إنتاجاً علمياً كبيراً، ولئن كان من بين المستشرقين من بلغ به الهوس التبشيري حد السفه مثل كريمر (الدافع التبشيري والاستعماري)، كان بينهم من بلغ ذروة التفاني في نشر النصوص العربية مثل دي غويه (الدافع العلمي). وبين هذا وذاك تقع الكثرة الكاثرة من المستشرقين. ومن هذه الكثرة يبرز سنوك هورخرونيه بوصفه أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وإندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين. وقد عده عميد العربية بعد جولد زيهر وفي طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوروبا. وبالرغم من مسحة الغلو في هذا القول فإن أثر هذا العالم على الاستشراق الهولندي كان شاملاً وعميقاً حتى يومنا هذا. وعمق هذا الأثر وشموله يتجلى في مكانته بين المستشرقين الهولنديين اليوم وطموحهم العميق في تقليده ومحاكاته[١].

إن معظم من كتب عن هورخرونيه من المستشرقين كال له المديح وغرف له الثناء، فهذا دريفس يقول: «إن دراسته الرائدة للشريعة الإسلامية، وما يعنيه الإسلام في حياة أتباعه، جعلته واحداً من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث»، ويقول فرانك شرودر: «لقد صار خبيراً بالشريعة الإسلامية: الموضوع الذي لم يدرس إلا هواية إذا درس إطلاقاً. وقد أخذ على عاتقه مهمة تصحيح الآراء الخاطئة»[٢]، ويقول عنه شكيب أرسلان: «هذا الرجل معدود في أوروبا من فحول المستشرقين، وفي هولندا هو المستشرق الأكبر والنقريس الأخبر بأمور المسلمين. وقد سمعت عن هذا الرجل كثيراً ولم يقسم لي الاجتماع معه»[٣]. ويصفه نجيب العقيقي بأنه «أسهم في جعل الدراسات الإسلامية تستقل عن اللغة العربية والتاريخ، لتنبهه إلى غلبة الطابع الديني على الحضارة الشرقية»[٤].

---

(١) قاسم السامرائي: مرجع سابق ص١٠٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مجلة الفتح، مرجع سابق ص١.

(٤) المستشرقون: ص٦٦٦.

لقد وصف دروز سنوك هورخرونيه ـ وهو أحد العلماء البارزين في جامعة ليدن ـ بقوله: «إذا شاء المرء أن يعرف هورخرونيه عليه أن يقرأ عن عمله وإنتاجه، إذ إن إنتاجه وحياته أمران متلازمان تلازماً تاماً، لقد كان من ملحوظات هورخرونيه الدقيقة على الحركات الفكرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في عموم أوروبا والشرق، أنها في أوروبا كانت بعيدة عن الروح الدينية، وأن روح الشرق وحضارته لم تقم إلا على الدين، وأن الغربيين سادت فيهم معلومات خاطئة عن الإسلام وحقيقته، وبناء عليه بذل هورخرونيه جهوداً متواصلة لدراسة الإسلام، وفهم حقيقته بتوسع، وفهم تطوراته على مرور القرون، وتمكن بعد نجاحه في مجهوداته من الرد على كثير من الغربيين الذين كتبوا عن الإسلام»[١].

إن الناظر فيما كتبه سنوك من مؤلفات ومقالات يرى أنه كان خصب الإنتاج، كتب في كافة المعارف الإسلامية والعربية بلا استثناء، ولقد مكنته حياته في الشرق أن يكون أكثر دقة في الكثير من أحكامه، ويعالج الموضوعات بعمق وروية، وقد ساعده على ذلك معرفته الضليعة باللغة العربية وبعض اللغات الإندونيسية، ولقد عقب في كثير من أبحاثه على آراء المستشرقين وانتقدها. فعلى سبيل المثال رد على مزاعم سبرنغر من أن ما كان يصيب الرسول الكريم في أثناء نزول الوحي إنما كان نوبات هستيرية، وكذلك رد على مزاعم غريم الذي يقول إن مبادئ محمد اشتراكية لا دينية، وإنما جعل لها صفة دينية لأجل تمكينها، ومما قاله سنوك: إن مدار نبوة محمد ﷺ هو البعث واليوم الآخر[٢].

وقد انتقد بمرارة أولئك الرحالة الأوروبيين الذين يقيمون في الشرق أياماً معدودة ويصدرون أحكاماً سطحية وساذجة، لا تعتمد على المشاهدة، وإنما على ما هو موجود في بطون كتب المستشرقين ممن سبقهم، وبهذا تتوالى الأخطاء باستمرار في كتب هؤلاء، ولعل سنوك أول من أظهر للغرب حقيقة الرق في الإسلام.

فقد وجد في عصر كانت بريطانيا والدول الأوروبية تشن حملة لتحرير الرقيق، وقد أظهر لهؤلاء أن الرقيق في الشرق يعامل معاملة الأب والأم والأخ والأخت، ولو أن مفهوم الرق

---

(١) أحمد علي: مجلة الحج ـ مرجع سابق ص٣٩.

(٢) انظر تفصيل تلك الردود في كتاب حاضر العالم الإسلامي تحت عنوان: البعثة المحمدية ج١ ص٣٤ وما بعدها.

الغربي كما هو عليه الأمر عند المسلمين لما احتاجت أوروبا إلى كل هذا العناء بهذه الخطوة التي خطتها[1].

إن هذه الأمور التي بدا فيها صاحبنا موضوعياً منصفاً منافحاً، يقابلها أمور أخرى بدا فيها متحاملاً ومتجنياً وغير منصف، مما حدا ببعض المؤلفين إلى القول عنه: «عدو عاقل لكنه شديد الخطر»[2].

لقد رأينا طرفاً مما وصف به العلماء في آتشي، وكذلك نظرته الخاصة بما يجب أن يكون عليه الدين الإسلامي، مقصوراً على العبادات فقط، مجرداً من الجهاد والتطبيق، معزولاً عن واقع المسلمين العملي، ومن اتهاماته الخطيرة قوله: «إن الشريعة الإسلامية المستندة على القرآن والسنة موجودة في الكتب النظرية، أما عملياً فإنها لا تصلح لإقامة نظام سياسي يقوم عليهما».

هذا هو سنوك هورخرونيه كما يصفه الأصدقاء والخصوم، نضعه بين يدي قارئنا، قبل أن نبسط القول في كتابه عن مكة.

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر الفصل الأول من الجزء الثاني.

(٢) الفتح: مرجع سابق ص١.

كتاب مكة

أولاً ــ محتويات الكتاب:

إن الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب مكة، وقد كتبه باللغة الألمانية في مجلدين كبيرين، وقد طبع في مدينة لاهاي بين عامي ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م.

ويشمل **المجلد الأول** دراسة مفصلة لتاريخ مكة المكرمة وحكامها، وقد قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام:

١ ـ **الموقع الجغرافي لمكة المكرمة**: وفيه استعرض المؤلف موقع مكة الجغرافي وتضاريسها وأوضاعها الطبوغرافية.

٢ ـ **مكة في العهد الإسلامي الأول**: وقد بحث فيه المؤلف انتشار الإسلام، وحكومة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والنظم الإسلامية الجديدة للنواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية ونشأة العلوم الإسلامية.

٣ ـ **تسلسل لأهم الأحداث التاريخية بمكة**: منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي (السادس إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري).

٤ ـ **مكة خلال القرن التاسع عشر الميلادي (١٧٨٨ ـ ١٨٨٧م) الثالث عشر الهجري**، ويحوي هذا المجلد خمسة ملاحق، أربعة منها باللغة العربية مع ترجمتها بالألمانية، والخامس باللغة الألمانية، كما يحوي خريطتين: إحداهما طبوغرافية أخذها عن بيركهارت وأضاف إليها بعض التصحيحات، والثانية خريطة للمسجد الحرام في تلك الفترة.

أما **المجلد الثاني** فقد قسّمه المؤلف إلى أربعة أقسام أيضاً، وهي:

١ ـ **الحياة اليومية في مكة**: وتشمل الإدارة وحياة السكان وما يزاولونه من أعمال تجارية وحرف متنوعة، أو ما يقدمونه لخدمة الحجاج. ويسهب في دراسة الأمور المتعلقة بالحج كالطوافة وأعمال الزمازمة والخدمات التي تقدمها المدينة المقدسة لزوارها وغير ذلك.

٢ ـ **الحياة العائلية وبناء الأسرة**: ويشمل ذلك مراسيم الزواج من خطبة ومهر، ومراسيم التسمية والختان، ويتطرق إلى الأعياد والاحتفالات الدينية والاجتماعية وغيرها.

٣ ـ **الناحية العلمية**: ويبسط القول هنا عن الكتاتيب وطرق التدريس في الحرم، وموضوعات الدراسة، والمدارس الفكرية في العالم الإسلامي والمذاهب المختلفة، ويبين خصائص التعليم في المؤسسة التعليمية الكبرى، ألا وهي المسجد الحرام، حيث يتحدث عن نظام التدريس ومركز شيخ العلماء والإعانات المخصصة للمدرسين من الدولة.

٤ ـ **السكان في مكة**: وفي هذا الفصل يتحدث الكاتب عن سكان المدينة المقدسة، ويخص بالذكر منهم السكان القادمين من جزر الهند الشرقية الهولندية (إندونيسيا حالياً) حيث يتحدث عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأثر هؤلاء في الوطن الأم، والعلاقات المتبادلة بين مكة وتلك الديار.

لقد ألحق سنوك هورخرونيه مع المجلدين الكبيرين أطلساً فريداً، وضع فيه الكثير من الصور، التي تظهر نواحي شتى من مظاهر حياة المدينة المقدسة في الفترة التي وجد بها بمكة، ويحوي الأطلس أربعين لوحة تتضمن صوراً لأشخاص مختلفين، يمثلون قطاعات الشعب المكي وسكانه ابتداء من الأشراف والسادة، ومروراً بسكان الجاوة والإفريقيين والهنود والبدو وسكان وسط آسيا وانتهاء بالمتسولين، كما يحوي عدداً من اللوحات تمثل مناظر عامة لمدينة مكة المكرمة والحرم المكي، وبعض المباني المهمة، وفي نهاية الأطلس هناك أربع لوحات تحوي رسوماً بالألوان الطبيعية لبعض الأدوات والحاجيات المستعملة في مكة، مثل: الأواني الفخارية (الشربة، الدورق)، والزنابيل، والشيشة، وأنواع الحلي المختلفة، وغيرها.

ويذكر سنوك أنه أخذ معظم هذه الصور من خلال جهاز تصوير (كاميرا) كانت معه، وقد استعان في التقاط بعض الصور بأحد المكيين صديقه الطبيب، المدعو عبدالغفار، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه في الجزء الأول، ولكنه لم يشر إلى اسمه صراحة، ولكن الأوراق والرسائل التي وجدت بحوزة المؤلف وسمح بالاطلاع عليها، أبرزت الجهد الكبير الذي قام به الطبيب المكي في التقاط هذه الصور، دون أن يحظى بكلمة شكر بسيطة من المؤلف.

لقد تعهدت إحدى دور النشر بطباعة هذا الأطلس وتحملت تكاليف نشره بشرط أن تنشر ما تريد من هذه الصور، في صدر صفحات جريدتها، وقد كان ذلك، وظهر الأطلس جزءًا متمماً للمجلدين المذكورين.

لقد كتب سنوك هورخرونيه كتابه عن مكة باللغة الألمانية كما أسلفنا، على الرغم من أن لغته الأم هي اللغة الهولندية، وقد برر ذلك بقوله: «إن الكثيرين من أبناء وطني سيتساءلون موجهين لي اللوم بدرجات متفاوتة، عن السبب الذي جعلني أصدر هذا الكتاب باللغة الألمانية، ولقد أعرب بعض هؤلاء عن تحفظاته فعلاً، ويجب أن أقول بادئ ذي بدء إنني لم أرتكب مثل هذا الانتحار الأدبي، من أجل التسلية الذاتية، لأنني أعرف جيداً بأن المرء الذي يكتب بلغة أجنبية بالقدرة والكفاءة نفسها التي يكتب بها بلغته الأم، إذا أراد أن يكتب باللغتين معاً، فإنه يكتب بصورة سيئة.. ومن ثم كان عليّ أن اختار لغة واحدة فقط، وكان اختياري للألمانية؛ لأن الإنسان يكتب كي يكون مقروءًا من قطاعات كبيرة من الناس، وإنه لمن الغباوة بمكان أن نطلب من أولئك المعنيين بالعلم، أن يتعلموا لغة كل أمة، لقد كتب آباؤنا باللغة اللاتينية، ليقرأ لهم قطاع أكبر من الناس، وقد عملت ما عمله الأجداد لذات الغرض»[١].

لقد جاء الكتاب بجزأيه سفراً كبيراً، يلقي الضوء على تاريخ مكة المكرمة وعلى أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية خلال الفترة التي عاشها المؤلف، ومن الجدير بالذكر أن هناك نقطة كانت تشغل بالنا أثناء ترجمة الكتاب.

فقد عاش المؤلف نصف سنة في مكة، غير أننا نجده يصف الحياة اليومية والاجتماعية في مكة خلال اثني عشر شهراً، متتبعاً جميع ما يحدث في المدينة المقدسة يوماً بيوم، فمن أين حصل على المعلومات للفترة التي لم يكن موجوداً بها؟ الأمر الذي يؤكد أنه اعتمد في كتابه على السماع دون المشاهدة خلال هذه الفترة، وقد برر ذلك في مقدمة كتابه، بأنه اعتمد على كروات قنصل هولندا في جدة ونائبه Van Derchus من بعده، في تتبع التطورات المستمرة في الحجاز عموماً، وفي مكة على وجه الخصوص، غير أن نائب القنصل مهما أوتي من سعة المعرفة، لا يستطيع تزويد الكاتب بتفصيلات دقيقة وتواريخ محددة لكافة المناسبات المكية ولا سيما أن مكة محظور دخولها على أمثال هؤلاء.

---

(١) مقدمة المؤلف.

وقد كشف النقاب الدكتور قاسم السامرائي[1] عن حقيقة من زود سنوك بهذه المعلومات الدقيقة فقال: «ولعل أعجب ما في علاقة رادن أبو بكر بسنوك هورخرونيه أنه زوده بكل تفاصيل المعلومات عن احتفالات مكة المكرمة من زواج وأفراح وتراجم علمائها فأدخلها سنوك في كتابه عن مكة موحياً للقارئ أنه شاهدها بنفسه، وسجلها من غير أن يعترف بجميل هذا الرجل عليه بكلمة واحدة، وهذه المعلومات موجودة بخط رادن أبو بكر باللغة العربية، ومحفوظة مع مخطوط كتاب سنوك هورخرونيه عن مكة، مع رسالة من رادن يصف فيها سنوك بـ «الأخ في الله» ا.هـ».

لقد أثار كتاب مكة اهتماماً كبيراً في دوائر الاستشراق في العالم الغربي، فكتب في تقريظه الكثير من علماء الاستشراق، باعتباره الكتاب الوحيد، الذي اعتمد فيه المؤلف على السماع المباشر من أفواه الناس، وعلى المشاهدة الحية، فلم يكن الكتاب كغيره من كتب الرحالة؛ الذين وجدوا في مكة لبضعة أيام خلال موسم الحج فدونوا ملحوظات عابرة وسطحية، اعتمدوا في أكثرها على ما هو موجود في بطون الكتب فجاءت هشة ينقصها العمق.

يقول رالي: إن باديا وبوركهارت وبيرتون وهورخرونيه هم القمم الأربعة الذين عرفوا مكة، وكتبوا عنها للعالم الغربي، ويأتي على رأس هؤلاء هورخرونيه في أبحاثه الاجتماعية عن سكان المدينة المقدسة[2].

ولقد كتبت مجلة الرسالة إثر وفاة سنوك هورخرونيه، «توفي في ليدن المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه يوم السبت ٤ يوليو ١٩٣٦م في الحادية والثمانين من عمره، وقد ولد في ٨ فبراير ١٨٥٧م وبعد ما أتم دراسته العالية رحل إلى بلاد العرب، وكانت رحلته إليها متأخرة عن رحلة السير ريتشرد بيرتون المشهورة نحو ثلاثين سنة، فتمم بالمعلومات التي جمعها معلومات بيرتون ومباحثه.

ولقد أصدر في سنة ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م كتابه (مكة) في مجلدين، وقد جاء وصفه لمدينة الكعبة مؤيداً لدقة وصف بوركهارت، أما وصفه للمجتمع العربي في مكة، فكان دقيقاً ومسهباً، وصف الأسواق والعبيد والأماكن المقدسة وحراسها والبيوت والأعياد والولائم

---

(١) الاستشراق: ص١٣٠.

(٢) رالي: مرجع سابق ص٢٢٣.

والفضائل والنقائص، وكان بحثه في حياة المدن ببلاد العرب مدققاً، ولكن يقال إنه كان يعوزه شيء من العطف، مكنت بالجريف ودوتي من الامتياز والتفوق فيما كتباه عن حياة الجزيرة»[١].

وإزاء الشهرة التي ذاع صيتها لهذا المؤلف القيم، قام قنصل بريطانيا في جدة المستر هـ. موناهان Monahan بترجمة الجزء الثاني من الكتاب والمتعلق بالحياة الاجتماعية للمدينة المقدسة إلى اللغة الإنجليزية، وظهر بعنوان (مكة في نهاية القرن التاسع عشر)، وقد طبعت الترجمة لأول مرة في عام ١٩٣١م (١٣٥٠هـ) في مدينة ليدن، ولقد نالت الترجمة شهرة واسعة في أوائل القرن العشرين بين قراء الإنجليزية، مماثلة للشهرة التي نالها الكتاب بالألمانية عند صدوره، واعتمد عليها أكثر من كتب عن تاريخ مكة في العصر الحديث.

ولقد ذيل المترجم النسخة الإنجليزية بفهرس كامل للأعلام والأماكن المشهورة التي وردت في الطبعة الإنجليزية، وهذا كان من مجهودات المترجم نفسه، كما أضيف إلى الكتاب مجموعة منتقاة من الصور الفوتوغرافية واللوحات، اختارها المترجم من الأطلس السابق ذكره، لبعض مباني مكة والمسجد الحرام وأعيان مكة، وبعض مظاهر حياة السكان اليومية بالإضافة إلى صور الحجاج وغيرهم.

ثانياً ـ قصة تعريب هذا الكتاب:

لقد عرفت هذا الكتاب عام ١٩٦٨م (١٣٨٨هـ) فقد كنت يومها أحضر دورة تدريبية في مركز تطوير التعليم لما وراء البحار (cedo) بلندن، وقد دعي أحد مدرسي مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، التابعة لجامعة لندن، ليلقي محاضرة عن التعليم وتطوره ومشكلاته في دول العالم النامية (المتخلفة)، وبعد انتهاء المحاضرة وعلى مائدة الشاي، تصادف وجودي بجانب المحاضر، وعلى الطريقة الإنجليزية في التعارف، بدأ الحديث عن الطقس، ثم تطور، وسألني عن بلدي وعملي وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث في أمور كثيرة ومتنوعة.

ولقد سألني: هل استمعت إلى تلفاز الـ BBC ليلة أمس، فقد كان فيه فيلماً وثائقياً عن دول النفط، وكنت قد شاهدت الفيلم، وكان فيه مغالطات كثيرة، فقلت له: أتعتقد أنه وثائقي؟ فأدرك معنى كلامي، وقال: هي وجهة النظر الغربية عن العالم غير الغربي،

---

(١) الرسالة: العدد ١٥٨ السنة الرابعة، ١٣٥٥هـ (١٩٣٦) ص١١٥٩ ـ ١١٦٠.

فقلت له: ألا يمكن أن تكون هي وجهة النظر الغربية عن العالم العربي والإسلامي فقط، فكثير من أمور الدول غير العربية، تعرض من خلال وسائل الإعلام، بصورة أفضل مما يعرض به العرب والمسلمون، ولما كان الجو ليس جو نقاش، أدرك كل منا ضرورة تغيير مسار الحديث، فقلت له مجاملاً: لقد كانت المحاضرة ممتازة، وقد أفدت منها كثيراً، وبادرني بالسؤال، لقد تعرضت المحاضرة إلى العديد من الموضوعات، فأيها الذي أعجبك؟ فقلت له: لقد استعرضت تطور التعليم في دول العالم الثالث من وجهة نظر تاريخية، تمثل ما كان عليه التعليم في العالم الإسلامي، قال: لقد أصبت، ولقد اعتمدت في ذلك على ما كتبه المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه، وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع بها بذكر هذا الاسم، وطلبت منه أن يدون لي اسم المرجع ومؤلفه، وقد استطعت الحصول على الكتاب بواسطة زميل لنا في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، فتصفحته سريعاً، فوجدت فيه الممتع والمفيد، غير أني لم أقرأه كاملاً، فقد كنت مشغولاً بأمر العودة إلى الوطن.

وشاءت الظروف أن أصبح نزيل مكة المكرمة، وتابعت ما قيل وما كتب من بحوث في مؤتمر مصادر تاريخ الجزيرة، الذي عقد في الرياض، في الفترة الواقعة بين ٥ ـ ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ، وكان من جملة البحوث التي عرضت في المؤتمر المذكور البحث القيم الذي كتبه الدكتور عبداللطيف بن دهيش عن مؤلفات سنوك هورخرونيه عن تاريخ الجزيرة العربية، فأعاد إلى ذاكرتي موضوع كتابه عن مكة، وقد بحثت عنه في مكتبة جامعة أم القرى فلم أوفق في الحصول عليه، وسافرت في نهاية العام إلى الولايات المتحدة لقضاء شهر في جامعة متشغن/آن آربر بصفتي أستاذاً زائراً، وقد كانت مكتبة الجامعة تحوي نفائس عديدة من الكتب العربية، وقد وقع في يدي كتاب مكة في نهاية القرن التاسع عشر بالإنجليزية، فقرأته قراءة دقيقة، فوجدت فيه الكثير الممتع والنافع، فجال بذهني ما اقترحه الدكتور ابن دهيش من أمر نقله إلى العربية، وكان مما قاله الدكتور ابن دهيش أن كتاب سنوك هورخرونيه هذا هو دراسة تاريخية اجتماعية وثقافية لمكة المكرمة، كما أن ما كتبه من الناحية الثقافية في مكة يعتبر فريداً من نوعه، حيث أظهر أن المسجد الحرام كان يُعدُّ جامعة، يفد إليها المسلمون من كل حدب وصوب، لتعلم الدين الإسلامي واللغة العربية، على أيدي علماء أفاضل، كان لهم الفضل في المحافظة على مكانة مكة المكرمة، بوصفها

مركز إشعاع تشع منه مختلف الدراسات الإسلامية والعربية إلى كافة أنحاء المعمورة، كما أنه على الرغم من أن كثيراً من الكتب التي كتبها عدد من الكتاب المستشرقين وغيرهم قد ترجم بعضها إلى اللغة العربية، وخاصة خلال السنوات العشرين الماضية، مما مكن كثير من الكتاب من الاستفادة منها، حيث إن كتاب سنوك هورخرونيه عن تاريخ مكة بالذات، قد ترجم الجزء الثاني منه إلى اللغة الإنجليزية، وحبذا لو ترجم في المستقبل القريب إلى اللغة العربية؛ لأن هذه الترجمة سوف تعطي دراسة مفيدة لتاريخ المنطقة في تلك الفترة، وبخاصة ما يتعلق منها بالناحية الثقافية في مكة المكرمة.

على أنه يجب أن نضع بالاعتبار أننا عندما ندرس هذا الكتاب، فإنه لا يخلو من الدس على الإسلام وعدم فهمه الصحيح والعميق، ويجب أيضاً أن نكون حذرين في قبول كل ما يسجله لنا من معلومات عن منطقة الحجاز، إن هذا لا يمنع من دراسة الكتاب واعتباره من المصادر التي كتبت عن هذه المنطقة، ومحاولة تصحيح ما لا يتفق مع الحقيقة أو ما سجل من غير فهم؛ لأنّ رسالة ندوة تاريخ الجزيرة العربية رسالة عظيمة تهدف إلى تقديم دراسة سليمة وصحيحة عن تاريخ الجزيرة العربية بصفتها موطناً للعروبة ومنبعاً لرسالة الإسلام الخالدة[1].

وقد صادف في تلك الأثناء حضور أخي وزميلي الأستاذ معراج مرزا من أمريكا لقضاء الإجازة، وكان يومها مبتعثاً للدراسات العليا، وكنت أعرف الأخ معراج وحبه لجميع ما يتعلق بمكة من تراث ومخطوطات وصور وخرائط وشرائح، فمكتبته عامرة بذلك كله، فعرضت عليه فكرة ترجمة الكتاب فتحمس للموضوع، وكنت قد أحضرت معي صورة من النسخة الإنجليزية، وبدأنا على الفور في نقل القسم الأول من الكتاب، غير أن عودة الأخ معراج إلى بلاد العم سام، جعلتنا نقتسم العمل بحيث يترجم جزءًا وأترجم أنا الجزء الباقي، وقد أنهيت الجزء المخصص بي في صيف عام ١٤٠٢هـ. وحالت ظروف أخينا دون إكمال الترجمة الأولية في أمريكا، وما إن عاد حتى شمر عن ساعد الجد ونقل الجزء الخاص به، وقد أصبحنا نلتقي سوياً لإعادة الصياغة النهائية للموضوع بحيث خرج الكتاب بأسلوب واحد وبفكر اثنين معاً وجهودهما.

وقد اتصلنا بأخينا الدكتور علي عودة شيوخ، وكان قد أقام في ألمانيا مدة خمسة عشر عاماً لطلب العلم والعمل، وعرضنا عليه أمر ترجمة الجزء الأول من الكتاب المتعلق بالتاريخ

(١) العرب: مرجع سابق ص٩٤٧ ـ ٩٤٨.

السياسي لمكة المكرمة، فرحب بالفكرة وعكف على نقل الكتاب إلى العربية من اللغة الألمانية.

وفي هذه الأثناء علم الشيخ إبراهيم فودة رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي آنذاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما كنا نعمل فسارع بأخذ الجزء الثاني من الكتاب، واستصدر أمراً بطباعته في نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي، ولم يكن العمل في الجزء الأول قد انتهى، فقد كان بحاجة إلى إعادة صياغته وتحقيق بعض موضوعاته.

أما الآن وقد تسنى لنا إكمال الجزء الأول، فقد بادرنا إلى جمع الجزأين معاً، وإظهارهما معاً في مجلد واحد، يؤرخ للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المدينة المقدسة.

ثالثاً ـ منهجنا في تعريب هذا الكتاب:

٣/ ١ ـ يتألف هذا الكتاب من مجموعة دراسات تتعلق بالمدينة المقدسة كما أسلفنا، ففي المجلد الأول ألقى الضوء بصورة مكثفة على تاريخ المدينة المقدسة، من خلال استعراض موجز لتاريخ الإسلام، بحيث ربط المؤلف تاريخ مكة بأوضاع العالم الإسلامي بأسره (الفصل الثاني والثالث)، وجعل ذلك توطئة لدراسة تاريخ مكة بشكل خاص، وتاريخ الجزيرة بشكل عام خلال القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر الهجري.

لقد كان الجزء الأول عبارة عن مقدمة للجزء الثاني، الذي ناقش فيه بإسهاب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية لسكان بلد الله الحرام، ولما كان المؤلف معروفاً بدراساته العميقة لأحوال العالم الإسلامي، نراه يعطي القارئ الكثير من التفصيلات، التي لا تخص مكة وحدها، بل تخص جميع بقاع العالم الإسلامي. ونجد هذا الاتجاه بارزاً في جميع فصول الجزء الأول، وكذلك في الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثاني، فعلى سبيل المثال ناقش في الفصل الثاني من الجزء الأول (مكة في عصر الخلفاء) موضوع نشوء الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد الديلم، كما تحدث بإسهاب عن نشوء وانتشار وتوسع حركة القرامطة في العالم الإسلامي، وتحدث بكثير من التفصيل عن ثورات العلويين ضد الدولة العباسية، وعن مجريات الأمور في عاصمة الخلافة بغداد وحواضر العالم الإسلامي الأخرى، زد على ذلك أنه مع حديثه عن مجريات الأمور في مكة لا ينسى ذكر حوادث المدينة المنورة واليمن وبقاع الجزيرة الأخرى.

أما في الفصل الثالث من الجزء الثاني فنراه يتحدث عن تطور العلوم والمعارف عند المسلمين، منذ بداية الإسلام حتى العصر الحاضر، معرجاً على المدارس الفكرية المختلفة والاتجاهات المذهبية التي تطورت خلال تاريخ الإسلام، سواء ما كان منها في مكة أو مختلف بقاع العالم الإسلامي، حتى إننا لنجد أن باب التعليم تضيع فيه حقائق الحركة العلمية في مكة بين ثنايا الاستطرادات الكثيرة في هذا الباب.

أما في الفصل الرابع، فالمؤلف يفيض في شرح كثير من التفصيلات عن السكان في جزر الهند الشرقية، حتى لكأنك تشعر وكأنه يتحدث عن إندونيسيا وما حولها أكثر مما يتحدث عن مسلمي هذه الديار الموجودين في مكة.

لقد اقتضانا ذلك الخروج عن النسق الذي جاءت به المعلومات في الأصل في بعض الأحيان فقد اضطررنا إلى تقديم بعض الفقرات أو تأخيرها ليتسق النص، مع المحافظة على مضمون النص ومعناه.

٣/ ٢ ـ إن مشكلة الترجمة تكمن في التأرجح بين الأمانة في نقل الكلمات، والرغبة في اتساقها في جمل لها معنى، لا يخرج عن النص أو يهمل القصد، وقد كان هدفنا أن نتقيد بنقل المعنى المراد، دون أن نبتعد كثيراً عن عبارات المؤلف وتفاسيره، غير أنه في بعض المواضع يظهر جلياً أن في النقل الحرفي تصلباً يقصي المعنى عن الذهن، والحقيقة عن الإدراك، الأمر الذي كان لا بد معه من إعادة صياغة بعض الفقرات، فرضتها ضرورة أمانة نقل المعاني. ويجب أن نسارع إلى القول بأن هذا كان في مواضع قليلة ومحدودة في الكتاب.

٣/ ٣ ـ لقد راعينا في الترجمة أن نرجع بالنصوص المقتبسة من المؤلفات العربية إلى لسانها الأصيل بقدر الإمكان، وأن نرجع بالاصطلاحات العربية إلى أصولها الجارية في المصطلح المكي، وقد ساعدنا على ذلك أن المؤلف كان يذكرها بلفظها العربي مكتوباً بالحروف اللاتينية، وقد تحرينا تحقيق أسماء الأعلام والمعالم، وجرينا على إثبات ما رأينا لزومه من إيضاحات أو نصوص في حواشي الصفحات التي هي من إضافاتنا وتعليقاتنا، أما تعليقات المؤلف في الحواشي فقد أشير إليها في نهايتها بكلمة (المؤلف).

وكان عمدتنا في الحواشي، الكتب المؤلفة في موضوعات الكتاب نفسها، وخاصة المؤلفات التي تبحث في تاريخ البلد الحرام، فضلاً عن كتب التراجم والبلدان، وكتب التاريخ الإسلامي، وقد أشير إلى أسمائها ومؤلفيها في مظانها من البحث.

٣/ ٤ ـ إن هذا الكتاب ـ كما سبقت الإشارة ـ هو مجموعة من أبحاث، قام المؤلف بكتابتها عن المدينة المقدسة، ولا تخلو هذه الأبحاث من نظرة خاصة، وتلك الخصوصية تكاد تسم المنطق الغربي في محاولاته لتفهم الوقائع الحضارية في العالم الإسلامي.

إن هذه النظرة الخاصة، هي إحدى التعبيرات عن فهم الغرب لهذه المنطقة من العالم، أو عدم الفهم، الذي قد يصل في بعض الأحيان إلى حد قلب الحقائق، برغم كل ادعاءات الموضوعية والمنهجية العلمية، إن الذي بين أيدينا وجهة تفكير عالم أوروبي كبير، وهي وإن خالفت بعض آرائنا فهي قمينة بأن تقرأ بعناية فائقة. فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والإهمال، إذ ليس من حقنا أن ننتظر من باحث غير مسلم أن يتبنى كل معتقداتنا.

وغني عن البيان أن حقنا في تبيان صحة أو زيف ما يكتب عنا فرض علينا محاورة الكاتب حول بعض القضايا، فالكاتب يكتب عنا، وله الحق فيما يكتب، ولنا الحق فيما نقبل وفيما نرفض مما يكتب. وقد أبقينا على ما لا نوافق المؤلف عليه في المتن، واستدركنا عليه في الحاشية، التي يمكن للقارئ أن يلحظها في ذيل صفحات الكتاب.

وهنا يجب أن نؤكد أن تلك الاستدراكات هي آراء شخصية، وليست إلا مجرد الإشارة لتبين اختلافنا مع وجهة نظره، وبلغت هذه الاستدراكات حداً من الإيجاز جعلنا نكتفي في بعضها بوضع إشارتي تعجب واستفهام؟! فقط في نهاية عبارة المؤلف.

٣/ ٥ ـ من الجدير بالذكر أننا التزمنا بالصلاة والسلام على الرسول الكريم حيثما ورد اسمه، وكذلك الترضي عن الخلفاء الراشدين، وأضفنا صفتي المكرمة والمنورة للمدينتين المقدستين مكة والمدينة في معظم مواطن ورودهما، كما وضعنا تعبير الدعوة السلفية بديلاً للحركة الوهابية.

ونود أن نستميح القارئ العربي عذراً أننا حذفنا بعض الجمل والعبارات التي لا تليق بمكانة المدينة المقدسة، أو التي لا تتفق مع الذوق العربي، أو التي تمس خصوصيات بعض الأسر المكية، وهي على العموم مواطن قليلة.

٣/ ٦ ـ لقد وضع المؤلف جميع التواريخ بحسب التقويم الميلادي، ونحن بدورنا أضفنا التقويم الهجري حيثما ورد التقويم الميلادي، ويجب أن نشير إلى أن بعض السنوات الميلادية تقع أحداثها ضمن سنتين من السنوات الماضية أو العكس، ولما كنا في بعض الأحيان لا

نستطيع تحديد الشهر الذي وقعت به، فربما يكون هناك زيادة أو نقص، مقداره سنة واحدة في التاريخ الهجري المثبت، وعلى العموم فقد وقع ذلك في مواطن قليلة، لأننا كنا باستمرار نرجع إلى المصادر العربية للتحقق من تاريخ وقوع الحوادث.

٣/ ٧ ـ لقد أطلق المؤلف على كتابه حينما وضعه اسم **(مكة)** كعنوان رئيس للكتاب، وقد آثرنا أن يكون العنوان بلغة الضاد **(صفحات من تاريخ مكة المكرمة)**، وكما ذكرنا سابقاً فقد ناقش الجزء الأول منه الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمدينة المقدسة منذ البعثة النبوية الشريفة وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، أما الجزء الثاني فقد ناقش الأوضاع الاجتماعية في المدينة المقدسة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

وحين ترجم الجزء الثاني إلى الإنجليزية كان عنوانه (مكة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي)، وعندما ظهرت الطبعة العربية الأولى للجزء الثاني، حملت اسم «**صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري**»، وقد دعانا إلى هذه التسمية كون الفترة التي تحدث عنها المؤلف، ووصف دقائق أحداثها وتفصيلاتها، كانت تمثل ما كانت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية في مكة، في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، لذا آثرنا أن نربط هذه الوقائع والأحداث بتاريخ حدوثها، لقد كتب هورخرونيه كتابه في السنتين الأوليين من القرن الرابع عشر الهجري، غير أن ما كتبه كان يمثل طراز الحياة ونسقها في القرن السابق، وهو القرن الثالث عشر الهجري، ومن الجدير بالذكر أن قسماً كبيراً من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية التي تطرق إليها المؤلف أصبحت الآن طي النسيان، إن ما بقي قد تغير هو الآخر، وأصابه تعديل كبير ليتلاءم ومقتضيات العصر، وإذا أردنا أن نعرف كيف كنا؟ وإلى أين وصلنا؟ وأين نحن الآن؟ نفتح هذه الصفحات للنظر فيها، فالتاريخ للعبرة والخبرة، وأظن لو أننا قلبنا هذه الصفحات المطوية، لحمدنا الله على ما آلت إليه أمورنا، وما نحن فيه من موفور النعمة، وسلامة العقيدة، والسير في الطريق الصحيح.

ويعد هذا هو كتاب مكة لـ (هورخرونيه) بما له وما عليه، نضعه أمام القارئ العربي، وهي تجربة لعالم غربي سبر الحياة في المشرق، فقد كانت له اهتمامات علمية في الموضوعات الإسلامية، وخبرات عملية واسعة في الشرق الإسلامي، سواء في مكة المكرمة أو جزر الهند الشرقية، وكان له هدف سياسي بجانب هدفه العلمي الذي برع فيه.. ألا وهو خدمة

بلده هولندا وتقديم المشورة لها في السبل التي تمكنها من البقاء أطول فترة ممكنة في بلاد الإسلام، وهي تجربة لا شك أنها فريدة، غير أن وجهة نظر المؤلف في الأحداث وجهة خاصة، وربما لا تتفق مع وجهات نظر الآخرين، ونحن ندعو المؤرخين والباحثين، وسكان مكة المكرمة ممن عرفوا طرفاً من هذه الأحداث أن يدلوا بدلوهم في مناقشة آراء الباحث وأفكاره؛ لأن ذلك سيساعد على تبيان الأحداث الحقيقية وتأصيلها.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ. د. محمد محمود السرياني   د. معراج نواب مرزا

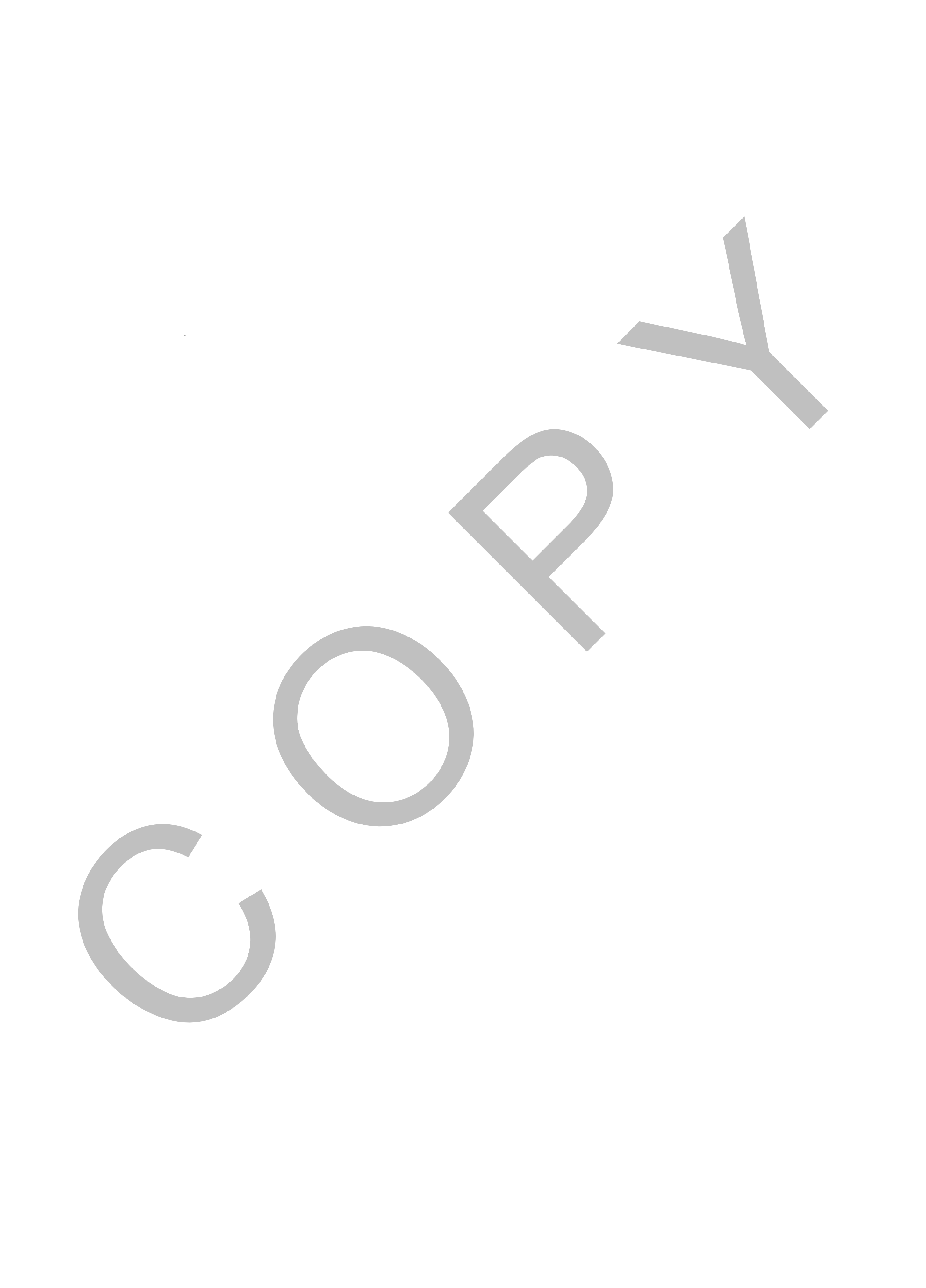
مكة المكرمة ـ العزيزية

غرة رمضان ١٤١٨هـ

صفحات من تاريخ مكّة المكرّمة

المجلد الأول

دراسة للأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة
من البعثة النّبويّة الشريفة
وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري



مقدمة المؤلف

إن تدوين نتاج رحلتي، التي استمرت عاماً كاملاً لمدينتي جدة ومكة (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥)م[١] قد واجه تأخيراً غير مرغوب فيه. وقد كانت الأسباب وراء هذا التأخير مردها إلى إبعادي المفاجئ عن المدينة المقدسة، وشعوري بضرورة وضع صورة شاملة لتاريخ المدينة المقدسة، قبل أن أضع ملحوظاتي حول حياة المكيين اليومية، في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وبالرغم من أن البحث بدأ نسبياً تحت ظروف جيدة نتيجة جلب جميع ما جمعته من وثائق، دون أن يمسها أي تلف، إلا أن مثل هذا العمل، إذا أريد له ألا يكون سطحياً، فإنه يتطلب الوقت الكثير.

إن تعرفي على مصادر تاريخ المدينة المقدسة، والتي تحوي معلومات عن مجريات الأحداث خلال القرنين الماضيين، قد جعلت معالجة تلك الحقبة، التي لا يعرف عنها الأوروبيون إلا القليل، أمراً مرغوباً فيه[٢].

أما بالنسبة للفترات التاريخية السابقة، فإننا نملك في اللغات الأوروبية، لمحات تاريخية، تبرز القوى الرئيسة للحياة السياسية في منطقة مكة، وبذا نتمكن من استخدام الماضي لفهم الحاضر. وفي العديد من المكتبات الأوروبية، يوجد مخطوطات لأشهر المراجع عن تاريخ مكة. وبعض هذه المخطوطات، يعالج بالدرجة الأولى، تاريخ

(١) يوجد تقرير موجز عن رحلتي في جريدة Munchener Allgemenine Zeiturg بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٨٥م وبعض النتائج في Verhandlungen der Gesellschaft Fur Eedkunde su Berlin, Bd. xiv,s. 138 ff (المؤلف).

(٢) المؤلف A. Zehme في كتابه البلاد العربية والعرب منذ عام (arabien und die Araber) الصادر في مدينة Halle عام ١٨٧٥م قد عالج بمهارة أهم كتب الرحالة الأوروبيين، وعلى أيّ حال فالكتاب الذي يحوي الجديد عن الظروف السياسية في الحجاز هو كتاب Burck hardt المعنون بـ Travels in Arabia 1: 405 FF، ومع كل ذلك فقد بقيت المنابع الرئيسة مقفلة أمام هذا البحاثة الفذ، ودليلنا على ذلك قوله لا يوجد فرد في هذا البلد (مكة) يفكر بأن يضع على الورق حوادث زمانه (مجلد رقم (١) صفحة ٤١١ ـ ٤١٢) مع العلم بأنه حتى هذه الأيام (١٨٨٥) لم يكن ينقص تلك المدينة المقدسة مؤرخون (المؤلف).

المقدسات والمؤسسات الخيرية، وبعضها الآخر يضيف إلى ذلك سيرة حياة مشاهير المكيين، أو يضيف معلومات عن تاريخ الإدارة هناك. ومن المعلوم أن كتَّاب التاريخ المتأخرين في الشرق الإسلامي يقتبسون معلومات أسلافهم، ويدونون إضافة إلى ذلك، ما مارسوه أو رأوه من أحداث.

إن مثل هذه المصادر يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة للمعرفة الأوروبية وذلك عن طريق نشر النصوص الدقيقة، التي تمكن الباحثين في التاريخ من غير المستشرقين، أن ينهلوا منها، لذا وجب أن تكون هذه التراجم موثوقاً بها وغير مختصرة. إن البروفسور وستنفيلد F. Wustenfeld في كتابه «أخبار مكة المشرّفة» والمكون من أربعة أجزاء Die Chroniken der stadt mekka (Cm) والصادر في مدينة جوتنجن Gottingen عام ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م، قد وضع تحت تصرفنا، بعض المصادر الرئيسة في نصها الأصلي بالعربية، والتي تقودنا حتى عام (١٠٠٠) للهجرة[١]. وقد وضع المؤلف في الجزء الرابع من هذا الكتاب لمحات عابرة عن محتوى تلك التواريخ باللغة الألمانية لفائدة القراء من غير المستشرقين. وقد نشر العلامة نفسه قبل فترة وجيزة باللغة الألمانية مخطوطات تعالج بعض حقائق التاريخ المكي في القرن الحادي عشر الهجري[٢]. هذه المراجع الضخمة وما شابهها، هي في

---

(١) لقد جمع البروفسور وستنفيلد في الكتاب المعنون «أخبار مكة المشرفة» مقتطفات ومختارات من خمسة مصادر تاريخية تحدثت عن المدينة المقدسة هي:

١ ـ أخبار مكة شرّفها الله وما جاء فيها من الآثار لأبي الوليد الأزرقي (المتوفى عام ٢٥٠هـ).

٢ ـ تاريخ مكة للإمام أبي إسحاق الفاكهي (المتوفى عام ٢٨٠هـ).

٣ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للشيخ تقي الدين الفاسي (المتوفى عام ٨٣٢هـ).

٤ ـ الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف للشيخ جمال الدين ابن ظهيرة القرشي المتوفى عام ٩٨٦هـ.

٥ ـ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للشيخ قطب الدين النهروالي (المتوفى عام ٩٩٠هـ).

وقد ظهر كتاب وستنفيلد في أربعة أجزاء، شمل الجزء الأول مقتطفات من كتاب الأزرقي، وحوى الجزء الثاني مقتطفات من كتب الفاكهي والفاسي وابن ظهيرة، أما الجزء الثالث فهو مقتطفات من كتاب النهروالي. وخصص المؤلف الجزء الرابع الذي كتبه بالألمانية لاستعراض لمحات موجزة عما حوته هذه المصادر التاريخية، لفائدة القراء من غير المستشرقين، كما ورد في المتن، وقد اعتمد سنوك على هذا الكتاب اعتماداً كبيراً. ورجع إليه في معظم كتاباته في الجزء الأول. وقد حرصنا على الرجوع إلى هذا الكتاب لإثبات ما نقله منه، وذلك مراعاة للدقة العلمية في الموضوع وجارٍ الآن ترجمته من قبلنا.

(٢) أشراف مكة في القرن الحادي عشر الهجري أو السابع عشر الميلادي الصادر في Gottengen عام ١٨٨٥م.

الواقع مادة مهمّة، تساعدنا في فهم التطورات التاريخية لمكة المكرمة، وهي مفيدة فقط عند دراستها بتمحيص وتدقيق، ومقارنتها بوثائق أخرى في أماكن أخرى، وربما يحالفني الحظ في أن أضع أمام زملائي تلك النصوص العربية التي أحضرتها معي مطبوعة، أو أنشر على الأقل تلك الأجزاء المتعلقة بتاريخ مكة الحديث، والتي تحتوي فعلاً على مواضيع جديدة أو غير منشورة حتى الآن.

لم يكن الهدف من هذا الكتاب، نشر جميع التفاصيل الخاصة بتلك المراجع، حتى ولو كانت مهمة. والهدف الذي نريده هو إعطاء القارئ لمحة عن الحياة العامة للمدينة المقدسة منذ فجر الإسلام وحتى أيامنا هذه (١٨٨٥م).

أما نشر التفاصيل الكاملة عن تلك الرحلة، التي أكملت بعد صبر طويل، فهو هدف بعيد يحول دون تحقيقه كثرة المراجع المتوفرة، وجهد المؤلف المحدود، في استيفاء مثل هذه الدراسات. فأهمية مكة، التي ولد فيها الإسلام لكونها مركزاً روحيّاً، وهدف الحج للمسلمين عبر الأزمان، تجعل من المستحيل على المرء قراءة الآلاف العديدة من الإنتاج الأدبي العربي، الذي سطّر حول هذه المدينة، وتجعل المرء يلجأ إلى ما لجأت إليه من الاكتفاء بالنظرة العامة، دون الدخول في التفاصيل، مع إضافة أشياء كثيرة تتناسب مع تشخيصنا للأمور، وخاصة مما تحويه كتب التاريخ والسير ووصف الرحلات، وآمل ألّا أكون أغفلت أشياء أساساً حول الموضوع، كما آمل أن يحصل القارئ على صورة متكاملة وحقيقية عن ذلك المجتمع، خاصة وأنه قد سمح لي أن أقيم بين المكيين ما يزيد على ستة أشهر، وأن أعيش معهم بصفتي فرداً منهم، وأن أكون في موضع، يسهل معه، جمع الكثير من التقارير عن الماضي، مما مكنني من الكتابة بصورة أفضل من الكتابة من خلال غرفة الدراسة.

عليّ أن أعترف منذ البداية، بأن كتابي هذا لم يكتب لأولئك الذين يجدون في مراجع Wustenfeld[(١)] المنقحة التقارير الوافية عن الفيضانات التي تجتاح المدينة المقدسة، أو عن المعلومات الخاصة بترميم الكعبة وإصلاحها، وهي أمور ذات أهمية عامة، تجتذب المرء أكثر مما تجتذبه الأبحاث التي تعالج شخصيات الحكام القاطنين في هذه المدينة المقدسة.

سيلحظ المرء من خلال الفصل الأول من هذا الكتاب، أن إصلاح الكعبة مستمر، طالما

(1) E (Berhard) N (estle) in litterarischen centralblatt, 11 september, 1886, 1314, sp.

أن السيول تجتاحها كلّ سنتين أو ثلاث بصورة مستمرة، وتسبب، بغض النظر عن بعض الاختلافات، الأثر التدميري نفسه الذي يصاحب هذه السيول، كذلك نجد في تاريخ حكام المدينة المقدسة خلال القرن الثالث عشر، أن الكثير من الظواهر تعيد نفسها أحياناً، ولذا فإننا لتجنب التكرار ألمحنا إلى التفاصيل أكثر مما وصفناها، وإنني أرى أنّ في هذه الحقبة من الزمن، قطعة من تاريخ البشرية، تستحق التدوين، والمؤلف لديه اعتقاد جازم بأن الناس أهم له بكثير من سيول جارفة تتكون في تلك البقعة من الأرض.

إن الكثير من المصادر التي استعملتها لا يحتاج إلى ذكر خاص؛ لأن الإشارة إليها في الحواشي، ستكون كافية للزملاء المتخصصين، وخاصة تاريخ الطبري وابن الأثير. وقد استعنت بكتب (دي غوية) و (وستنفيلد) وأشرت إليها حين الاقتباس منها باسم المؤلف، غير أن هناك ثلاثة كتب معطاءة بالنسبة لتصويرنا للأحداث، وتستحق أن نصفها وصفاً موجزاً.

إن كتابين منهما يعتبران من طراز الكتب التاريخية، التي نشرها ويستنفيلد، وقد تمت مناقشتها في كتابي لسيرة عميد جامعة مكة المتوفى عام ١٨٨٦م[1].

وأحد هذين الكتابين هو «منائح الكرم بأخبار مكة والحرم» الذي تم تأليفه حسب ما تقوله المقدمة عام ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م) من قبل السنجاري، الذي ينتسب إلى عائلة سكنت مكة المكرمة، منذ زمن طويل. وهو نفسه، ومن قبله والده وجده، كانوا أصدقاء لحكام المدينة المقدسة، وقد شاركوا جميعاً في الحياة السياسية، وكانوا ينظمون القصائد المطولة لإلقائها في مناسبات تولي هؤلاء الأمراء، ونرى الكثير من هذه القصائد يرويها المؤلف نفسه، ووجود مثل هذه القصائد الكثيرة، يعطي الانطباع أنه في الوقت الذي كان يجري فيه الصراع الحاد بين الإخوة على السلطة، كان الشاعر يعمل جاهداً لنظم قصيدة يحيي فيها المنتصر منهما، حينما تجري مراسيم مقاليد تسلمه الحكم، ويخبرنا السنجاري ـ إضافة إلى ما ذكر ـ عن أشياء أكثر أهمية مما سبق ذكره، ويشير المؤلف، إلى أنه اعتمد مصادر غير منشورة للفترة القديمة، في حين أنه كان على اطلاع واسع في أمور القرن الذي عاش فيه، حيث كتب معلومات وافية عمن ذكرهم، وربما لم يكمل المؤلف كتابه؛ لأن النسخة التي بحوزتي، تحتوي على ملحوظات تستمر حتى عام ١١٢٤هـ (١٧١٢م)، ثم تنقطع بدون نهاية فعلية، والكاتب يميل إلى الاختصار علماً بأن الجزء الأساس من الكتاب مكتوب

---

(1) Bijdragen van het koninkl. jk Nederlandsch-indisch instituut 11: 344 ff., Vorguglich 370 ff.

بأسلوب جيد، إلا أن الصفحات الأخيرة من الكتاب تحوي كتابات باللغة العامية[1]. ومن المحتمل أنه لم يكن لدى المؤلف العجوز، الوقت الكافي لتدوين الحوادث، في سنينه الأخيرة، فقد ترك إنجازه غير مكتمل، كما فعل أيضاً تلميذه أحمد دحلان، وإنني أمتلك نسخة رديئة من ذلك الكتاب، الذي كان من ممتلكات العميد المذكور أعلاه، وهي لا تصلح للإصدار، ولكنها قدمت خدمات جليلة لإخراج هذا الكتاب[2].

أما كتاب التاريخ الآخر فهو كتاب «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام» لمؤلفه السيد أحمد بن زيني دحلان. وفي مقالتي المذكورة سابقاً ذكرت مقتطفات منه في النصوص في اللغة الهولندية، وهذا الكتاب فيما يخص الحقبة القديمة لا يحتوي على أكثر من مقتطفات من السنجاري، وأكثر من نصف هذا الكتاب يعالج القرنين الماضيين. وبعض نصوصه مأخوذة عن أفضل المصادر، بينما بعضها الآخر كان نتيجة تجارب هذا العجوز الذي نيف على الثمانين عاماً. لقد أخذ الدحلان معلومات عن النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي من كتاب ذكره باسم مؤلفه وهو تاريخ الرضي[3] الذي يظهر أنه كان شاهد عيان. وهذه المعلومات تختلف عما جاء في كتاب السنجاري. ومن الجدير بالذكر أن (خلاصة الكلام) يقترن بعد فترة وجيزة بتاريخ شخص يدعى عبدالله

---

(١) على سبيل المثال يوجد في ص٤٤٥ من نسختي: (الباشا حق جده) وهذا ليس من كلام المؤلف، ويبدو من المحتمل أن بعض مخطوطات هذا الكتاب قد كتبت بريشة ابن عم المؤلف، ومن الجدير بالذكر أن أحمد دحلان قد اقتبس من هذا الكتاب (المؤلف).

(٢) هذا الكتاب يعرف بمنائح الكرم في أخبار مكة والحرم وأحياناً يسمى منائح الكرم في أخبار البيت وولاة الحرم لمؤلفه علي بن تاج الدين بن تقي الدين بن يحيى السنجاري المكي الحنفي، وهو شاعر وأديب ومؤرخ مكي توفي عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م. ويتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء، ولا يزال مخطوطاً وتوجد نسخة كاملة منه في مكتبة الحرم المكي وقد عهد إلى طالبتين من جامعة أم القرى بتحقيق جزأين منهما الثاني والثالث وتولى أحد أساتذة قسم التاريخ تحقيق الجزء الأول وسيخرج الكتاب إلى النور كأحد إصدارات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى. صدر هذا الكتاب مطبوعاً عام ١٤١٩هـ.

(٣) يعرف تاريخ الرضي باسم «تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسنية» وهو تاريخ لأشراف مكة من عهد قتادة إلى القرن الثاني عشر الهجري. وهو مخطوط موجود بخزانة يعقوب سركيس المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد. أما المؤلف فهو رضي الدين بن محمد بن حيدر الموسوي العاملي المكي المتوفى ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م. وهو شيعي ولد بمكة ونشأ بها، وهو أديب وعالم لا يُعرف تاريخ ولادته (انظر محمد الحبيب الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٤ ص٤٠٠.

عبدالشكور الذي كتب عن النصف الثاني للقرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر[١]، ولكون هذا المؤلف شاهد عيان للحركة الوهابية (الدعوة السلفية) فإنه جدير بالاعتبار. ولا يوجد لكتاب عبدالشكور هذا، إلا عدد قليل من النسخ في مكة، وإنني لآمل أن يحالفني الحظ قريباً في الحصول على نسخة من هذا الكتاب.

أما الفترة التي تبدأ بإعادة فتح الحجاز، من قبل محمد علي، لم يحتج الشيخ المسن إلا لتدوين ذكرياته وتجاربه الخاصة. وقد كتب ملحوظاته حتى عام ١٨٨٤م ومنذ ذلك الحين، فقد كرس وقته، للمشكلات السياسية في بلده، وإنه لحظ نادر أنني تمكنت من الحصول على نسخة من هذه المخطوطة[٢]. هناك معلومات مهمة عن العائلات العلوية التي وصلت إلى الحكم في غرب الجزيرة العربية، مذكورة في كتاب يبحث في أصول هؤلاء. وقد تتبعت كتاباً عن أنساب العلويين بقصد التعرف عن قرب على الأخيرين منهم. وبناء على طلبي وضع السيد الدكتور Pertsch تحت تصرفي النسخة الوحيدة المعروفة في أوروبا رقم ١٧٥٣ من (كتالوج) مكتبة غوتا الأميرية[٣]. وللأسف فإن هذه المخطوطة المسماة (عمدة الطالب) والتي توفي مؤلفها عام ٨٢٨هـ في كرمان، موجودة في حالة سيئة، حيث إن ناسخاً جاهلاً قد جهزها، بموجب نسخة مجلدة تجليداً خاطئاً، بحيث يتطلب إنشاء الملحقات منها بحثاً طويلاً. وبعد أن اقتبست بعض الملحوظات المهمة من هذه النسخة تمكنت في مدينة Lacknau لكناو في الهند من الحصول على نسخة جيدة، مطبوعة بالطريقة الحجرية، لهذا الكتاب، الذي يحتوي على مصادر قيمة عن تاريخ العلويين وأحزابهم، وخاصة الفرع الحسني ومواطنهم في غرب الجزيرة العربية.

---

(١) عبدالله الشكور بن محمد الهندي المكي الحنفي توفي عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٠م. ولد بمكة وتوفي بها وله تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة، وقد عرض فيه وجهة نظر الأشراف والعثمانيين من ظهور الدولة السعودية الأولى، في أسلوب يعتمد المزايدات السياسية والأخطاء اللغوية، والسجع المتكلف، يتناول تراجم السياسيين وأهل العلم، والكتاب لا يزال مخطوطاً. وتوجد منه ثلاث نسخ بمكتبة الحرم المكي الشريف. وقد نشر الشيخ حمد الجاسر مقتطفات من الكتاب المذكور في مجلة العرب س (١٠) ص (٨٠١/٨٦٨). وانظر أيضاً محمد الحبيب الهيلة ص٤١٣.

(٢) إن ذكر الصفحات في الحاشية لهذا الكتاب ليس له أي أهمية طالما أن الكتاب لم ينشر لكنني مستعد لإرسال المخطوطة لأولئك المختصين الذين لديهم اهتمام خاص بها (المؤلف). ومن الجدير بالذكر أن كتاب (خلاصة الكلام) طبع بعد مغادرة المؤلف مكة المكرمة في عام ١٣٠٥هـ بمصر.

(3) BRILL, CATALLIGUE PERIIDIQUE NO. 7,585.

وهناك مجموعة من الصور التي لن يستغربها ذوو الاختصاص، وستقابل بالترحاب من قبل جمهور القراء. وقد أخذت جميعها في مكة، وباستثناء الصورة رقم (١)[١]، والصورة رقم (٣) الموجودة في الأطلس المرفق، قد طبعت إما عن صور التقطتها بنفسي أو من قبل أحد العرب الذي علمته كيفية التقاط الصور[٢].

وهناك أربع لوحات ملونة تخص الجزء الثاني من هذا الكتاب سوف تنشر مع وصف مختصر في دار المحفوظات العالمية لوصف السلالات البشرية.

Internatialen Archiv Fur Ethnographi للناشر السيد J. D. E Schmelts ولأن هذه الصورة الملونة مكلفة بالنسبة لـ (Koniklijk Instituut) فإن السيد (trap) P. W. m. الناشر المشهور لدار المحفوظات قد عرض على المعهد تجهيز تلك اللوحات بدون مقابل إذا عرضت اللوحات نفسها في جريدته أولاً.

---

(١) صورة رقم (١) ورقم (٣) أخذت من قبل صادق بك (باشا)، وقد أضفت على الصورة الأولى بعض الإضافات في الجزء الأمامي منها (المؤلف).

(٢) لقد كتب الدكتور حسن مختار من جامعة أم القرى إثر صدور الجزء الثاني من هذا الكتاب عام ١٤١١هـ تعليقاً في جريدة عكاظ عدد ٩٠٥٢ تاريخ ٢١ شوال ١٤١١هـ ما يلي:
فمن الملحوظات التي وجدتها ما ذكره المؤلف عن بعض الشخصيات المكية وتنكره لبعضها الآخر، منهم السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن بن عبدالغفار الطبيب المكي المشهور، حيث أشار المترجم بأن سنوك لم يعترف بجهود الطبيب المكي في بعض ما جمعه من صور وأدوات عن مكة، وما يجدر ذكره هنا أن المؤلف سنوك لم يكن الوحيد الذي تنكر لوجود السيد عبدالغفار على الرغم من تناول العديد من المؤلفات لجهود الطبيب، حيث لا تزال أعماله وشهرته معروضة في متحف مجلس الوزراء بتركيا، ومتحف جامعة ليدن بهولندا، التي زودت أكاديمية الملك فهد بالعديد من هذه الأعمال، وأود أن أشير أن الأستاذ أحمد السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه تاريخ مكة من الذين تناسوا السيد عبدالغفار وابنه السيد حسين عندما كتب عن أشهر العائلات في مكة المكرمة ولم يذكر شيئاً عن هذه الأسرة التي يقول عنها السيد محمد حسن فقي بأن عبدالغفار من أسرة جليلة مشهورة يعود نسبها إلى الرسول الأعظم ﷺ، وما زلت أتذكر أن الأستاذ أحمد السباعي كان يعتاد ارتياد مجلس والدي كل ليلة في مكة بالشامية ـ يرحمهما الله جميعاً ـ حين نبهه والدي عندما أهداه نسخة من الطبعة الأولى من الكتاب بأنه لم يذكر شيئاً عن السيد عبدالغفار، وكان السيد حسين عبدالغفار حاضراً ذلك المجلس. فأجاب الأستاذ السباعي بأنه سوف يضيف هذه المعلومات في الطبعة الجديدة التالية، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. ويشارك الأستاذ محمد علي مغربي مؤلف كتاب «أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة» هذا التناسي مما دفعني أن أتصل بصفة شخصية بالسيد الدكتور هاشم عبدالغفار وكيل وزارة الصحة الأسبق واستشاري طب الأسنان بالرياض وحفيد هذه الأسرة الكريمة، حيث اهتم بالموضوع وزودني بالعديد من الكتب والمراجع التي تتحدث عن الطب في مكة، وتشير إلى جهود هذه الأسرة في مجال الطب وخدمة المجتمع المكي منذ مئات السنين.

إن النتيجة الرئيسة لرحلتي لم تكن إنتاج هذا الكتاب فحسب، بل كان لإقامتي في المركز الروحي لعالم الإسلام أثره المستمر في دراساتي المستقبلية عن الإسلام. لقد كان الدافع لرغبتي في العيش لبعض الوقت في العالم الإسلامي، هو ذلك الشعور الحيوي بالحاجة للعيش كلياً ولو لبعض الوقت في هذه البلاد؛ لأنه بالنسبة لأي مستشرق في أوروبا يدرس اللغات ستكون تصوراته عن الحياة الفكرية والاجتماعية للشرقيين مملوءة بالفجوات ما دام سيستخدم الكتب فقط كشاهد عيان لتلك البلاد، ومما يشرح الصدر بأن المهتمين في موضوع الاستشراق ـ كما هو الحال في باريس وبرلين ـ قد بدؤوا يؤسسون مدارس للاستشراق بمساعدة معلمين شرقيين لسد الفجوات في هذا المضمار.

ومن الجدير بالذكر أنه لا شيء يحل محل التأمل الذاتي، مع إدراك أن تأثيره المستمر مشروط بدراسة جادة للمصادر. وأن إقامة سنة في الشرق بحد ذاتها غير كافية لجعل الفرد قادراً على إصدار الأحكام حول تلك الظروف. ولقد استطعت في ذلك البلد (مكة) الذي قلما يزوره الأوروبيون، أن أجمع الوثائق في أكثر من اتجاه. ولكنَّ هدفي بقي دائماً منصباً على مراقبة حياة الإسلام. ولقد استعملت كل شيء كعامل مساعد لتحقيق هذا الهدف. ولذلك فإن تقييم مشاهداتي سيتم تدريجاً ما بقي الإسلام موضوع بحثي الرئيس. وإنني إذ أذكر ذلك لأعترف بالجميل لأولئك الذين ساعدوني على القيام بتلك الرحلة. وإن عرفاني لهؤلاء سيستمر حتى بعد إتمام هذا الكتاب. وإنه لولا الدعم المادي السخي من معهد Koninklijk Nederlandsch-indisch Instituut خاصة وأنه تحمل تكاليف هذه الطبعة، بالإضافة إلى تكاليف نشراتي اللغوية السابقة، لكان تنفيذ خطتي قد أصبح صعباً للغاية، كذلك فإن كلاً من:

1- Hollandsche Maatschappy der wetenschappen in Haarlem.
2- Utrechtsch Genootschap voor kunsten en wetenschappen.

قد سهلتا أيضاً مهمتي في المشرق، وذلك بتقديمهما الدعم المادي. وكذلك فإن بلدية Leiden قد منحتني الإجازة لهذا الخصوص، وكان استغلالها سيكون صعباً لولا أنَّ البروفسور P. a. van derdith قد تعهد بأنْ يتحمل مسؤولياتي بصفتي معلماً في المدرسة الهندية أثناء فترة غيابي. وقد كان هذا الصديق يعرض عليّ خدماته حتى قبل أن أفكر في حل مشكلة انقطاعي عن المدرسة. وقد شجعني ذلك على المضي قدماً في خطتي بالسفر إلى ديار الإسلام.

إن السادة j. A. kruyt قنصل هولندا العام في Pinang حالياً (١٨٨٨م) وفي جدة حتى بداية عام ١٨٨٥م و (P. N. van der chijs) قنصل السويد ونائب قنصل هولندا في جدة، قد أسهما إسهاماً عظيماً في نجاح مهمتي، بحيث إن أسماءهم يجب أن توضع على صفحة عنوان هذا الكتاب بدلاً من المقدمة، فلولاهما لربما لم تحقق الرحلة هدفها. وإن أصدقائي في الوطن الأم لا يستطيعون أن يعملوا لي شيئاً في الجزيرة العربية. وكل من يعرف الظروف المحلية ـ ولو معرفة بسيطة ـ يدرك تماماً كم هي العقبات التي يجب أن يتغلب عليها الباحث هناك حتى يقف هادئاً أمام موضوع دراسته، ويقول: الآن يبدأ عملي.

ومنذ البداية لم ألق تشجيعاً ومساعدة، من أي جهة، بقدر ما لقيت من السيد Kruyt، الذي كان في إجازته في هولندا، عندما قررت البدء في الرحلة. ولقد كان من حسن حظي أن أشارك السيد Kruyt الرحلة إلى جدة. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل استمرت مساعدته خلال نصف العام الذي تلا حتى تم نقله إلى بينانج Pinang، وقد وجدت منه إضافة إلى كرم الضيافة غير المحدود استعداده الدائم للمساعدة وبأي شكل. وقد حذا حذو السيد Kruyt السيد Van der chijs بهذا الخصوص، وقد حل محله في تقديم العون، وكان يقوم أثناء وجودي في المدينة المقدسة بحلقة الوصل بيني وبين العالم الخارجي، وعندما تم إبعادي المفاجئ كان المذكور الملجأ الذي قصدته.

وبعد عودتي إلى الوطن كان عليّ أن أستفيد من طيبة صديقي في تتبع التطورات المستمرة لتاريخ الحجاز. وعليّ أن أعترف أنه بدون ظرافة السيد Van der chijs لم أكن لأستطيع أن أحصل على أغراضي الخاصة عند خروجي من مكة، حيث كان الخروج مفاجئاً بالنسبة لي. وقد جعل هذا الرجل من شؤوني شؤونه، فإنه منذ ثلاثة أعوام لم يخيب لي رجاء عنده، ولم يترك لي سؤالاً دون جواب. ولا شك أن له معرفة في أحوال الناس هنالك، وهو يعرف أكثر من غيره أن ما يقدمه لي سيكون له فوائد جمة.

إن كثيراً من أبناء بلدي سيتساءلون بلهجة فيها نوع من التوبيخ عن السبب الذي جعلني أصدر كتابي هذا بلغة أجنبية (اللغة الألمانية). وبعضهم قد أعرب فعلاً عن تحفظاته في هذا الصدد. وعلي أن أقول منذ البداية، إنني لم أرتكب هذا الانتحار الأدبي من أجل التسلية الذاتية، لأنني أعرف جيداً بأن المرء الذي يستطيع أن يكتب بلغة أجنبية، بالقدرة نفسها التي يكتب بها بلغته الأم، فإنه يكتب اللغتين بصورة سيئة. وعلي أن أقول إنني لا أشعر

بأيّ التزامات نحو أولئك المنتقدين المفرطين في الوطنية. خاصة وأن الأكثرية من القراء هم من أولئك النفر الذين سيتحولون دون شك بعد نظرتهم الأولى إلى العنوان باللغة الهولندية إلى جدول أعمالهم اليومي.

إن الإنسان يكتب لكي يكون مقروءًا. وإنه لمن الغباء أن نطلب من أولئك المعنيين بالعلم أن يتعلموا لغة كل أمة حيث إن تخصصهم يجد عدداً قليلاً من الممثلين له. لقد كتب آباؤنا باللغة اللاتينية، أما نحن فنستعمل وسائل اتصال حديثة. والطريقتان لهما الهدف نفسه.

إن استعمال اللغة اللاتينية قد أثبت مع مرور الزمن، عدم قدرتها على التعبير عن الأشياء الحديثة، بالرغم من محاسنها غير الملحوظة، وهي أن المخالفات النحوية والقاعدية لا تلحظ إلا من قبل القليل من الأفراد، أما في اللغات الحديثة فإن على المرء أن يتصرف بحذر ليتفادى الأخطاء اللغوية. ولقد كانت طيبة أستاذي المحبوب السيد البروفسور نولدكه Noldeke في مدينة شتراسبورج Strassburg قد ساعدتني في التغلب على تلك المشكلة، فقد أخضع مسودة كتابي هذا إلى إعادة في الأسلوب، وبعد ذلك قرأها من أجل التصحيح.

ولما كان هذا الكتاب يعطي لمحة عن التطورات التاريخية، فقد فضلت أن أسهل الرجوع إليه، عن طريق إعطاء محتوى مفصل للكتاب، بدلاً من استعمال الفهارس، وقد استعملت التقويم الأوروبي، أما في الجداول الأصلية فقد تركت المعلومات حول مدة الحكم على حالها بالطريقة الإسلامية.

سنوك هورخرونيه

ليدن

مايو ـ ١٨٨٨م ـ رمضان ١٣٠٥هـ

الفصل الأول
مدينة مكّة المكرّمة

الموقع

تقع مكة المكرمة في وادٍ ضيق قاحل، وصفه القرآن الكريم ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٧]. وقد دخل هذا الوادي سجل التاريخ العالمي عن طريق الرسول الكريم محمد ﷺ[١].

حظي هذا الوادي بوصف دقيق في كتب الرحلات العربية منذ ما يزيد على ألف عام، وقد سهل هذا للرحالة الأوربيين، الذين دخلوا متنكرين إلى مكة المكرمة، مهمة كتابة الوصف الطبوغرافي للمدينة المقدسة، ولولا ذلك لما تسنى لبوركهارت المشهور[٢] أن يرسم عام ١٨١٤م مخططاً لهذه المدينة.

---

(١) مكة المكرمة مدينة الإسلام الأولى تقع على بعد ٨٠ كم من ميناء جدة على خط طول ٣٩ درجة و ٤٩ دقيقة و٢٥ ثانية شرقاً ودائرة عرض ٢١ درجة و٢٥ دقيقة و٣٠ ثانية شمالاً. ويزيد عدد سكانها على المليون نسمة. وقد قامت المدينة في الأصل على وادي إبراهيم حول الكعبة المشرفة ثم انتشرت على سفوح الجبال والشعاب المطلة عليه.
وقد عرفت منذ أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم عليه السلام، إلا أن هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يمكن اعتبارها البداية الجلية لتاريخ مكة المكرمة. كانت مركزاً مهمّاً لتجارة القوافل منذ ما قبل الإسلام، كما كانت الكعبة البيت الذي رفع قواعده إبراهيم للتوحيد مهداً للأوثان في زمن الجاهلية، ولد بها الرسول ﷺ ومن بطاحها انتشر الإسلام. ومنذ ذلك الوقت فهي قبلة المسلمين الأولى، حيث تحوي المسجد الحرام الذي يضم الكعبة المشرفة والحجر الأسود ومقام إبراهيم وبئر زمزم، وبجانبها المشاعر المقدسة (منى، مزدلفة، عرفات). ويقصدها في كل عام ما يزيد على مليوني نسمة من مختلف بقاع العالم الإسلامي لأداء فريضة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام.

(٢) يوهن لودفيك بوركهارت ١١٩٩ ـ ١٢٣٢هـ (١٧٨٤ ـ ١٨١٧م) ويسميه الإنجليز «جون لويس»: مستشرق سويسري رحالة. ولد في لوزان، ودرس في ليبسيك وغوتنجن في ألمانيا. وزار إنجلترا سنة ١٨٠٦م ودرَّس في لندن وكمبردج. وتجنس بالجنسية الإنجليزية. ورحل إلى حلب (بسورية)، فتعلم العربية، وقرأ القرآن، وتفقه بالدين =

إن مخطط بوركهارت لا يزال يعتبر حتى الآن (١٨٨٥م/١٣٠٣هـ) دليلاً دقيقاً للقارئ الأوربي المغلقة أمامه أبواب المراجع العربية. وقد تبنيته في كتابي هذا بعد إجراء بعض التصحيحات عليه[١]. (انظر شكل رقم ١).

التصوير الفوتوغرافي

في السنوات الأخيرة دخل التصوير الفوتوغرافي، حيث ساعد على توضيح بعض المعالم المهمة في المدينة المقدسة، وخاصة معالم المسجد الحرام. إذ أخذ ضابط تركي[٢] قبل ثمان سنوات ١٨٨٠م (١٢٩٨هـ)، بعض الصور الفوتوغرافية لمعالم المدينة. وقد قمت أنا بأخذ عدد من الصور بواسطة آلة تصوير كانت لدي. وقد ساعدت هذه الصور في إخراج كثير من الأشكال

= الإسلامي. وزار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمالي السودان، ثم مضى إلى الحجاز مسلماً أو متظاهراً بالإسلام وتسمى بإبراهيم بن عبدالله، فأدى مناسك الحج وقضى بمكة ثلاثة شهور، ثم عاد إلى القاهرة سنة ١٨١٥م، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في يونيه ١٨١٦م، وكان يعتزم السفر إلى فزان، ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة، موصياً بمجموعة مخطوطاته إلى جامعة كمبردج. وكتاباته كلها تدور حول رحلاته. كرحلته للشام والأراضي المقدسة، و«رحلة لجزيرة العرب» و«معلومات عن البدو والوهابيين» و«رحلة للجزيرة مع مذكرات عن حياة البدو». وقد تولت الجمعية الإفريقية بإنجلترة نشرها. وله بالعربية «أمثال عربية ـ ط» مع ترجمتها إلى الإنجليزية. (الأعلام، ج٨، ص٢٦٤).

(١) إن الشكل رقم (١) يمثل التصحيح الذي أجراه سنوك هورخرونيه عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) على الخريطة التي رسمها بوركهارت في عام ١٨١٤م (١٢٣٠هـ)، والتي تعتبر أول خريطة لمكة المكرمة، وكان قد أخذ أبعادها بالخطوة، وهي من أفضل الخرائط للمدينة المقدسة حتى عام ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ). وقد استعملها كل من سنوك، ومعظم من جاء بعده، وكتب عن المدينة المقدسة من الرحالة والمستشرقين.

(٢) هذا الضابط هو محمد باشا صادق، وكان من ضباط الأركان في الحكومة العثمانية، وقد ألف كتاب «دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج»، والكتاب مطبوع بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣١٣هـ. وقد عمل في مكة بصفته مهندساً للحرم الشريف، ويبدو أنه وفد إلى مكة بطلب من عثمان نوري باشا والي الحجاز، وقد أسهم في عدد من الإصلاحات في المسجد الحرام، حيث أمر بهدم قبة السقاية وقبة الساعات، كما زحزح مكان المقام الحنبلي، وأصلح محراب المقام الحنفي، وذلك لأن هذه المباني كانت تعيق حركة المصلين. (مغربي، ١٤١٠هـ، ص١٢١).

الموجودة في الأطلس المرفق مع كتابي هذا. وقد نوهت إلى ذلك في محاضرتي التي ألقيتها في برلين عام ١٨٨٧م[١].

مداخل مكة وأسوارها

هناك ثلاثة مداخل للمدينة المقدسة، الأول من الشمال، والثاني من الشمال الغربي، والثالث من الجنوب. ولقد كانت مكة المكرمة في القرن التاسع الهجري محاطة بالأسوار المزودة بالبوابات، غير أن هذه الأسوار كانت كثيراً ما تتداعى نتيجة للصراعات الداخلية في المدينة، ثم يعاد بناؤها من جديد[٢].

وممن اهتم بإعادة بناء هذه الأسوار الشريف أبو نمي (٩٤٧ ـ ٩٧٤هـ)، الذي قام بتحصين المدينة وإعادة بناء أسوارها. وفي بداية القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) كان دور هذه الأسوار مهماً، غير أنها قد فقدت أهميتها في نهاية هذا القرن. وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) لم يكن ليوجد من هذه الأسوار سوى بقاياها المهدمة.

إن وجود البندقية والمدفع كبديل للقوس والرمح والحربة، قد جعل من وجود الأسوار، وإغلاق الأبواب، أمرا لا ضرورة له، بيد أن هناك ثلاثة[٣] حصون على الجبال المحيطة بمكة، تحميها ضد أي هجوم قد تتعرض له.

---

(١) انظر:

Verhand Lungen der Geselschaft Fur Erdkunde Zu Berlin, Band xiv, no 3, 5, 143 ft.

(٢) كانت مكة المكرمة في قديم الزمان مسورة، بجهة المعلاة، وكان بها جدار عريض من طرف جبل عبدالله بن عمر إلى الجبل المقابل له، وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد... وكان في جهة الشبيكة أيضاً سور ما بين جبلين متقاربين، بينهما الطريق السالك إلى خارج مكة، وكان ذلك السور فيه بابان بعقدين... وكان سور في جهة المسفلة في درب اليمن (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٣ وانظر أيضاً الجزء الثاني ص٢٧٢ ـ ٢٧٣، ٢٣٠، ٢٩٨، ٣٠٩) والباب الذي في السور الشمالي يعرف بباب المعلاة، أما الثاني في جهة الشمال الغربي فيعرف بباب الشبيكة، ولا تزال المنطقة هنا تعرف بحارة الباب، أما الباب الثالث فهو في أسفل مكة من الجهة الجنوبية، ويعرف بباب المسفلة.

(٣) هذه الحصون هي القلعة التي على جبل خليفة بأجياد، مقابل المسجد الحرام من الجهة الجنوبية، أمام باب الملك عبدالعزيز الحالي، وقد بناها الشريف سرور عام ١١٩٦هـ، والقلعة التي على جبل هندي وكانت بالقرب من مكان مدرسة عرفات المتوسطة الحالية ثم أزيلت، وقد بناها الشريف غالب بن مساعد عام ١٢٢١هـ، والثالثة هي قلعة جبل لعلع (قلعة فلفل) وهي بالقرارة، وقد بناها الشريف غالب بن مساعد عام ١٢١٥هـ.

المسجد الحرام

يقع المسجد الحرام وسط أعرض منطقة في الوادي[١]. ومكان هذا المسجد لا يجوز تغييره، وهو غير قابل للتوسعة ولا يحتاج إليها[٢] .ولقد قامت حول هذا المكان الحياة منذ زمن بعيد. وتتوسط الكعبة المشرفة المسجد الحرام (طولها ١٢متراً، وعرضها ١٠ أمتار، وارتفاعها ١٥ متراً) وهي مبنية بحجارة غير مصقولة، أخذت من جبال مكة المكرمة[٣]. وفي الزاوية الشرقية يوجد الحجر الأسود. أما في الجهة الجنوبية فيوجد الركن اليماني، على ارتفاع خمسة أقدام. ويستطيع الفرد اثناء الطواف حول الكعبة أن يلمسهما باليد، أو أن يقبل أكثرها قدسية، وهو الحجر الأسود.

الكعبة المشرفة

في بداية حياة الرسول محمد ﷺ كان يعتبر هذا المكان المقدس بناءً قديماً، ولايعرف الكثير عن نشأته، غير أن الرواية التي كشف النقاب عنها

---

(١) يعرف الوادي بوادي إبراهيم.

(٢) في زمن المؤلف كانت معظم مساكن مكة تقع بجوار الحرم المكي الشريف وتحيط به إحاطة السوار بالمعصم، ولم يكن هناك إمكانية لتوسعة المسجد إلا بهدم معظم هذه المباني التي تشكل قلب المدينة المقدسة. أما في عصرنا الحاضر فقد جرت توسعات متعاقبة للحرم المكي الشريف، منها توسعة الملك عبدالعزيز رحمه الله في عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م. وكذلك التوسعة الثانية في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله التي بدأت عام ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م. وقد أصبح الحرم بعد هذه التوسعة يستوعب أكثر من مليون مصلٍّ، كما عملت ساحات إضافية حول جهات الحرم المختلفة لزيادة الاستيعاب. وفي عام ١٤٣١هـ شرع العمل في وضع قواعد وأساسات توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز للمسجد الحرام من الجهة الشمالية وعمل ساحات إضافية.

(٣) نشر مركز أبحاث الحج مخططاً تفصيلياً لأبعاد الكعبة المشرفة، وجاء في هذا المخطط، أن ذرع الكعبة هو على النحو التالي:

١ ـ الضلع الممتد من الحجر الأسود إلى الركن اليماني يبلغ طوله ١٠م و ١٨سم.

٢ ـ والضلع المقابل له المطل على الحطيم الذي فيه الميزاب يعادل ٩م و ٩٠سم.

٣ ـ أما الضلع الممتد من الحجر الأسود مروراً بباب الكعبة وانتهاءً بالركن العراقي، فيبلغ طوله ١١م و ٦٨سم.

٤ ـ ويبلغ طول الضلع المقابل له، الممتد بين الركن اليماني والركن الشامي ١٢ متراً و٤سم وهذه القياسات لا تشمل الشاذروان.

أما ارتفاع الكعبة فيبلغ ١٣ متراً من مستوى المطاف (جامعة أم القرى، مركز أبحاث الحج، دراسة الحركة بالمطاف، محرم ١٤٠٨هـ، ص٥٩).

لأول مرة، من قبل الرسول محمد ﷺ، يوم عقد العزم على أن يعيد هذا البيت (الذي كان مقراً للأوثان) إلى حظيرة الإسلام، أظهرت أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا هذا المكان[1].

بناء الكعبة في عهد ابن الزبير

اختلف المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ في القرن الأول الهجري حول الشكل العام الذي يجب أن تكون عليه الكعبة. إذ أراد الأمويون إبقاء شكل الكعبة على ما كانت عليه، في حين كانت المعارضة بقيادة عبدالله ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قد عارضت ذلك، معتمدة على أحاديث نبوية. وحسب رأي ابن الزبير كان يجب بناء بابين للكعبة بدلاً من باب واحد، أحدهما في الشمال الشرقي، والآخر في الجنوب الغربي، على مستوى سطح الأرض. لا كتلك الأبواب المرتفعة التي يصعد إليها المرء بواسطة درج. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من رأيه أن يضاف جزء من حجر إسماعيل إلى بناء الكعبة.

وفي عام ٦٨٤م (٦٥هـ) عندما أصبحت مكة عاصمة الخلافة المعارضة، تحت قيادة عبدالله بن الزبير، نفذ خطته فيما يجب أن تكون عليه الكعبة، حيث أعاد بناءها على قواعد إبراهيم. غير أن هذا البناء قد أحرق أثناء محاصرة مكة بواسطة القائد الأموي الحجاج بن يوسف، الذي قضى على ابن الزبير، وأعطى الكعبة عام ٧٠٣م شكلها الذي كانت عليه في السابق[2].

---

(١) إن تاريخ الكعبة كان معروفاً بكل تفاصيله لدى عرب الجاهلية. والرواية التي كانت تقول إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا الكعبة المشرفة لم يأت بها النبي محمد ﷺ، بل وردت في القرآن الكريم، وكانت معروفة لدى العرب آنذاك. ولو كانت الرواية القرآنية على خلاف ما يعهده العرب، لاستنكرها هؤلاء. وهذا مما يدل على أن العرب كانت لهم سابق معرفة بتأسيس البيت على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على خلاف ما يقوله المؤلف.

(٢) يبدو أن تاريخ ٧٠٣م ليس صحيحاً؛ لأن الحجاج أمر بهدم إضافات ابن الزبير بعد وفاته مباشرة، ومن المعروف أن ابن الزبير قتل في ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، ويذكر الذهبي أن إعادة بناء الكعبة كان عام ٧٣هـ، أما ابن الأثير فقد جعله ٧٤هـ، وهذا التاريخ يوافق ٦٩٢ ـ ٦٩٣م (انظر إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام ص١٥٩).

ومنذ ذلك التاريخ فقد عُدّ الحِجْر تابعاً للكعبة. غير أنه ليس جزءًا من بنائها. ولم يتجرأ أحد من الأمراء أن يهدم الكعبة لإعادة بنائها من جديد، بل اقتصر العمل فيها على التحسينات الضرورية[1].

إصلاح الكعبة المشرفة وترميمها

وفي عام ١٦١١م (١٠١٩هـ) وضعت تقوية لجدران الكعبة، عبارة عن حزام من النحاس المذهب لمنع انهيار الجدران. أما في عام ١٦٣٠م (١٠٣٩هـ) فقد انهارت بعض جدران الكعبة نتيجة مياه السيول[2]، فأعيد بناء الكعبة كلياً مع مراعاة استعمال أقل عدد ممكن من الحجارة الجديدة، ومنذ

---

(١) حول تاريخ بناء الكعبة في العصر الإسلامي انظر الطبري ج٢ ص٥٣٨، ٥٩٧، وكذلك انظر تاريخ الكعبة المعظمة ـ عمارتها وكسوتها وسدانتها ـ لحسين عبدالله باسلامة ١٤٠٢هـ، وكذلك إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام لمحمد صالح الشيبي تحقيق إسماعيل أحمد حافظ، ١٤٠٥هـ.

(٢) تعرضت الكعبة للسيول وبخاصة جداراها الشرقي والغربي قبل سيل ١٠٣٩هـ، الذي أدى إلى عمارة مراد الرابع، وذلك أنه في أول القرن الحادي عشر الهجري تشقق الجدار الشامي، وزاد تشققه اتساعاً على إثر سيل دخل المسجد سنة ١٠١٩هـ، وقد دخلت المياه إلى جوف الكعبة نفاذاً من سطحها، وتصدع بذلك جدار الحِجْر، وكذا الجداران الشرقي والغربي، فقرر السلطان أحمد هدم البيت، وأن يجعل بدل حجارته المتصدعة حجارة، ملبساً واحداً منها بالذهب والآخر بالفضة، فمنعه علماء الحرم، وأشاروا بنطاق يلم ما تصدع، فصنع نطاقاً من نحاس أصفر مغلفاً بالذهب، تكلف ٨٠ ألف دينار، وركب سنة ١٠٢١هـ.
أما سيل ١٠٣٩هـ الذي نحن بصدد الحديث عنه، حدث يوم الأربعاء ١٩ شعبان من ذلك العام، ودخل السيل المسجد من جهة باب الزيادة، حيث بلغ ارتفاعه أطواق قناديل المطاف. وعلا الكعبة بارتفاع ذراعين عن قفل بابها (بذراع العمل)، ومات بسببه نحو ألف فرد، أكثرهم من الأطفال، الذين يقرؤون القرآن مع فقهائهم، ورغم تعلق أكثرهم بالأماكن المرتفعة وسلالم الحرم إلا أن الماء وصل إليهم وأغرقهم.
وفي آخر نهار اليوم التالي من دخول السيل انهار الجدار الشامي، ومن بعده جزء من الجدار الشرقي، ولم يبق منه سوى حده الشامي وعليه قوام الباب، وبعض من وجهي الجدار الغربي، وجزء من السقف فيما يتصل بالجدار الشامي، وكذلك سقطت درجة السطح. فأمر الشريف برفع الميزاب والمعاليق، وتم التحفظ عليها. كما تم تسوير ما حول الكعبة بجذوع النخيل لاقتراب موسم الحج.
أرسل شريف مكة إلى والي مصر من قبل السلطنة العثمانية «محمد علي الألباني» بخبر السيل الذي داهم مكة والكعبة، فكلف الوالي «رضوان آغا» في سرعة مباشرة الإصلاح، دون انتظار تعليمات الباب العالي. فتوجه إلى مكة وباشر الإصلاح بعد الأخذ بمشورة العلماء وفتاويهم. (إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، ص١٦٣ ـ ١٦٤).

ذلك التاريخ بقيت الكعبة على ما هي عليه، إذ تعد واحدة من أبرز المعالم الأثرية المحفوظة بعناية في الجزيرة العربية[١].

---

(١) في العهد السعودي الزاهر جرت عدة إصلاحات وترميمات على الكعبة المشرفة منها:
أ ـ في عهد الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ جرى تغيير باب الكعبة المشرفة، وذلك في عام ١٣٦٣هـ.
ب ـ في عهد الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ صدر أمر ملكي في آخر المحرم ١٣٧٧هـ يقضي بعمارة سقفي الكعبة المطهرة وتجديدها وترميمها وإصلاحها وخلاصة الأمر ما يلي:
١ ـ نقض السقف الأعلى للكعبة المشرفة بتاتاً وتجديد عمارته.
٢ ـ تجديد السقف الأدنى لقدم أخشابه وتآكلها.
٣ ـ عمل قاعدة (ميدة) ـ بكسر الميم ـ بين السقفين تحيط بجميع جدرانها.
٤ ـ ترميم الجدران الأصلية ترميماً جيداً.
٥ ـ إصلاح الرخام المحيط بجدران الكعبة من باطنها.
٦ ـ ترميم الدرج الذي في باطن الكعبة المؤدي إلى سطحها وإصلاحه.
٧ ـ يجب مراعاة عدم بروز أي شيء من التعمير والإصلاح عن الكعبة المشرفة وجدرانها وأطرافها.
٨ ـ عدم تذهيب أو تفضيض أو تمويه سقف الكعبة المطهرة.
٩ ـ جميع الترميم والتعمير يكون بالمواد البلدية (المحلية).
١٠ ـ جميع ما يصرف على الكعبة المشرفة يكون من الكسب الحلال الطيب.
وقد تم تنفيذ الأمر السامي المذكور خلال الفترة من ٢١/٦/١٣٧٧هـ إلى ١١/٨/١٣٧٧هـ حيث قام الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ بوضع آخر حجر من الرخام في جدار الكعبة المشرفة من الداخل. وهو الحجر الذي نقش فيه اسمه وتاريخ هذه العمارة.
جـ ـ في عهد الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ جرى تغيير عضادتي (الحلق) باب الكعبة المشرفة ١٣٩١هـ.
د ـ في عهد الملك خالد رَحِمَهُ اللَّهُ تم تغيير باب الكعبة المشرفة القديم ببابها الحالي وذلك في عام ١٣٩٩هـ.
هـ ـ بناءً على توجيهات الملك فهد بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ عام ١٤١٦هـ تم ترميم شامل لجدار الكعبة المشرفة من الخارج حيث تم تشذيب الحجارة وتسويتها وإزالة النتوءات منها، إضافة إلى تعبئة بعض الفراغات التي فيها، وتمت إزالة المادة اللاحمة (النورة) من بين الحجارة الخارجية، ووضع بدلها مادة إسمنتية خاصة قوية، وكحلت على هيئة خطوط بارزة بيضاء رأسية وأفقية.
و ـ وفي عهد الملك فهد بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ عام ١٤١٧هـ جرى التجديد الشامل للكعبة المشرفة، شمل سقفي الكعبة والأعمدة الثلاثة، وحوائط الكعبة من الداخل، والأرضيات ورخام السطح والحوائط والسلم الداخلي، والشاذروان، وجدار حجر سيدنا إسماعيل، وميزاب الكعبة المشرفة. =

لقد كان تجميل الكعبة وتزيينها وزخرفتها أمراً جديراً بالإطراء، ومنذ العهد الجاهلي كانت الهدايا تمنح إلى الكعبة، حيث تعلق بداخلها، ومع قدوم الإسلام خَفَّت هذه العادة. وكان بنو شيبة سدنة الكعبة في الجاهلية والإسلام، يظهرون للناس أن الاستفادة من هذه الهدايا من قبل الناس، أكثر أهمية من بقائها بداخل الكعبة. ومع هذا فقد استمر الإهداء ولم ينقطع. وقد حدث في التاريخ الإسلامي أن تجرأ بعض العصاة على سرقة كنوز الكعبة. كما قام بعض الأمراء بسك النقود من هذه المحفوظات في أوقات الأزمات. ولم تنقطع عادة إهداء المصابيح التي تعلق في الكعبة حتى عهد قريب. ولقد كان حكام العالم الإسلامي الذين يبسطون سيطرتهم الاسمية على الحجاز، يقومون بالتجديدات الضرورية، كتجديد بلاط الأرضية، أو تغيير الأبواب، ونحو ذلك. وغالباً ما كان يغطى الباب إضافة إلى الميزاب بصفائح الذهب والفضة، علماً بأن هذه الصفائح الذهبية كانت تتعرض أحياناً إلى السرقة.

هدايا الكعبة

لقد بقيت كسوة الكعبة مستمرة منذ الجاهلية، فقد كسا الخلفاء الأولون الكعبة بأقمشة مصرية فاخرة بدل الأقمشة اليمانية، كما كسيت الكعبة بأقمشة حريرية حمراء وصفراء وخضراء أو بيضاء طوال العهود الإسلامية المختلفة. وكان الأمراء وحكام العالم الإسلامي يتنافسون على هذا الشرف الكبير[1].

كسوة الكعبة

وفي بداية القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) كان الخليفة يرسل ثلاث كسوات في كل عام، غير أنه في عصر ضعف الخلافة العباسية، لم تكن الكسوة تصل بانتظام، وفي عهد سلاطين المماليك الشراكسة الذين

= وقد بدأ العمل في ١١/ ١/ ١٤١٧هـ، وانتهى فجر يوم الأربعاء ٢/ ٧/ ١٤١٧هـ. وقد تشرف خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد آنذاك صباح يوم الثلاثاء ٧/ ٨/ ١٤١٧هـ بغسيل الكعبة المشرفة وتعطيرها إيذاناً بانتهاء جميع أعمال التجديد والترميم في الكعبة المشرفة، وجرى توثيق أعمال الترميم الشامل بالتفصيل في كتاب مخطوط من قبل أ. د. عبدالوهاب أبو سليمان، وأ. د. عباس طاشكندي، أ. د. محمد إبراهيم أحمد علي ود. معراج نواب مرزا.

(١) انظر أخبار مكة المشرفة ج١ ص٣١، ٦٠، ١٠٤، ١٤٠ ـ ١٤٦، ١٧٣. وكذلك ج٢ ص٥٤، ٢٥١، ج٣ ص٦٧، ٩٩، ١٧٣، ٢١٢، ٢٢١.

حكموا مصر حتى عام ١٥١٦م (٩٢٢هـ) كانت ترسل كسوة جديدة حينما يتسلم أحد السلاطين مقاليد السلطة في البلاد. ومنذ أن حل العثمانيون في السلطة أصبحت الكسوة تأتي سنوياً من مصر، وهي عبارة عن ثوب من القماش الأسود المقصب، مع حزام منسوج من خيوط الذهب، على ارتفاع ثلثي الارتفاع الكلي. وكانت التكاليف تسدد من ريع أراضٍ موقوفة في وادي النيل لهذا الغرض[١].

---

(١) استمر قدوم كسوة الكعبة المشرفة من مصر سنوياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى في عام ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م، حيث دخلت الحكومة العثمانية في تحالف مع ألمانيا ضد إنجلترا وحلفائها، وخشيت الحكومة العثمانية ألا ترد الكسوة من مصر؛ لأن إنجلترا كان لها وجود كبير في مصر آنذاك. فعملت كسوة خاصة وأرسلتها بالسكة الحديدية براً من إسطنبول إلى المدينة المنورة. غير أن الحكومة المصرية لم تمنع إرسال الكسوة المعتادة واستمرت في إرسالها حتى عام ١٣٤١هـ. فبقيت تلك الكسوة العثمانية بالمدينة المنورة. وفي عام ١٣٤١هـ وقع خلاف بين الحكومة المصرية والشريف حسين ملك الحجاز آنذاك، عقب إعلانه الثورة على الحكومة العثمانية، حيث منع الشريف حسين البعثة الطبية المرافقة للمحمل من دخول مكة المكرمة، فرجع المحمل من جدة وذلك في أواخر شهر ذي القعدة، من عام ١٣٤١هـ، فلما رأى ذلك الشريف أحضر الكسوة التي كانت موجودة بالمدينة عن طريق رابغ، ومنها إلى جدة، وكسيت بها الكعبة المشرفة سنة ١٣٤١هـ.
وفي عام ١٣٤٢هـ احتاط الشريف حسين للأمر، فعمل كسوة في العراق من قبيل الاحتياط، غير أن الكسوة جاءت كالعادة من مصر، فبقيت تلك الكسوة الاحتياطية محفوظة، فلما دخل الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ مكة، امتنعت الحكومة المصرية من إرسال الكسوة، فكساها الملك عبدالعزيز بالكسوة الاحتياطية التي صنعت في العراق. ولما استتب الأمر للملك عبدالعزيز في الحجاز أرسلت الكسوة من مصر في عام ١٣٤٤هـ. غير أنه صاحب تلك الكسوة وقوع بعض الأحداث من حرس المحمل في موسم حج ذلك العام.
وفي عام ١٣٤٥هـ امتنعت الحكومة المصرية من إرسال الكسوة فصدرت تعليمات الملك عبد العزيز رحمه الله بعمل كسوة سريعة محلية في ذلك العام. وأصدر أوامره إلى وزير المالية لإنشاء دار خاصة لعمل كسوة الكعبة في مكة المكرمة. وفي نهاية شهر ذي القعدة ١٣٤٦هـ تم عمل الكسوة الشريفة في مكة المكرمة على شكل الكسوة التي كانت تأتي من مصر. واستمرت الكسوة تصنع في مكة المكرمة حتى عام ١٣٥٧هـ. وفي تلك الأثناء رغبت الحكومة المصرية في إرسال الكسوة مرة ثانية، ولا سيما أن هناك أوقافاً خاصة في مصر ينفق منها على كسوة الكعبة. فاستجابت الحكومة السعودية لذلك الطلب، واستمر الحال حتى عام ١٣٨٢هـ، حين أعيد العمل في المصنع الموجود في مكة مرة ثانية، ومنذ ذلك التاريخ تصنع الكسوة في مصنع خاص بها في مكة المكرمة.

أما الكسوة القديمة فتؤول إلى سدنة الكعبة بني شيبة الذين يتاجرون بها، فيبيعون بعضها، ويهدون بعضها الآخر، لقاء أعطيات وفيرة(١).

بئر زمزم

لقد كان وجود بئر زمزم بجوار الكعبة الحافز الأول لاستيطان القبائل حول البيت الحرام منذ زمن قديم. وإذا كان تركيب ماء زمزم القديم هو نفسه تركيب ماء زمزم اليوم، فمن الممكن أن تأثيره المسهل قد جعل منه مقدساً(٢). ومنذ زمن الرسول ﷺ تؤكد الروايات بأن طعم ماء زمزم كما هو عليه الآن.

وقد وردت روايات تاريخية تتحدث أن ماء زمزم ماء عسر، وطعمه غير مستساغ(٣)، ولدينا روايات تاريخية حول التغير المستمر في الطعم(٤)، وهذا ما أثبتته التحاليل التي قام بها الدكتور P.van Romburgh لعينات أخذت في أوقات مختلفة. ويبين التركيب الكيميائي عدم تجانس سببه غير معروف حتى الآن. لقد كان يعتقد البعض ـ قديماً وحديثاً ـ بأن ماء زمزم يجري، وأن

---

(١) في الوقت الراهن تقدم الحكومة السعودية مبلغاً سنوياً لسدنة الكعبة من بني شيبة، ولم يعد آل الشيبي يتاجرون بالثوب القديم، على النحو الوارد في النص. بل إن الدولة تتسلم الثوب القديم وتتصرف به كهدايا للزوار وكبار الضيوف.

(٢) لا ترتبط قدسية ماء زمزم بتأثيره المسهل. فانه بالرغم من أن ماء زمزم ملين للمعدة، نظراً لوجود عناصر المغنسيوم والعناصر المعدنية الأخرى فيه. فإن قدسية الماء جاءت من قول الرسول ﷺ «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم». وكذلك «زمزم طعام طعم وشفاء سقم»، «وزمزم لما شرب له». لمزيد من التفصيل (انظر يحيى حمزة كوشك: زمزم طعام طعم وشفاء سقم، منشورات دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٣هـ).

(٣) كانت آبار مكة جميعها في العصر الجاهلي شديدة الملوحة. بما في ذلك بئر زمزم، ولذلك كان سكان مكة يلقون الزبيب والتمر في أحواض الماء، كي يخفف من غلظ الماء (ملوحتها). وتروي كتب التاريخ أن عبدالمطلب في موسم الحج كان يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم، ويسقيه الحاج حتى يكسر غلظ ماء زمزم. وكانت إذ ذاك غليظة جداً (أخبار مكة المشرفة ج١/ ٧٠ و ٢٨٩).

(٤) جاء في كتاب أخبار مكة المشرفة ج١ ص٢٩٣ وما بعدها: أن محمداً الخزاعي ذكر في سنة (٢٨١هـ) أنه أصاب مكة أمطار كثيرة، فسال واديها بأسيال عظام في سنة (٢٧٩هـ)، فكثر ماء زمزم وارتفع حتى كان قارب رأسها [رأس البئر] فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبعة أذرع أو نحوها، وما رأيتها قط كذلك. وعذبت جداً حتى كان ماؤها أعذب من مياه مكة التي يشربها أهلها. وكنت أنا وكثير من أهل مكة نختار الشرب منها لعذوبته وأنا رأيناه أعذب من مياه العيون ولم أسمع أحداً من المشايخ يذكر أنه رآها بهذه العذوبة، ثم غلظت بعد ذلك في سنة ٢٨٣هـ وما بعدها.

البئر تحصل على مواردها من الماء من عدة ينابيع، وهذه القضية غير معروفة حتى هذه الآونة ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)[١].

إن الروايات السخيفة التي يتبادلها الأوربيون عن زمزم قد دحضتها في محاضرتي في برلين التي أشرت اليها سابقاً، وفي اعتقادي أن هذا الماء ذو طعم لذيذ وفيه شفاء.

السقاية

لقد كانت السقاية في آل العباس. وقد أقر لهم الرسول ﷺ بهذا الامتياز وهذا الشرف. ومركزهم في هذا أشبه بمركز بني شيبة. ومنذ أن أصبحت الخلافة العباسية بأيديهم شغلتهم عن السقاية، التي تضاءلت تدريجياً، حتى أصبحت خدمة بئر زمزم كأي مصلحة أخرى من مصالح المسجد الحرام.

الزمازمة

إن الزمازمة في مكة لهم نقابة خاصة. وهم يطلبون أجراً على عملهم، أو استعمال أوانيهم الخاصة. غير أن الدخول إلى البئر واستعمال الماء مسموح به لكل فرد مجاناً. وطوال إقامتي في مكة لم يكن بئر زمزم يزود كل سكان مكة بالماء. ولايوجد في مكة سوى عدد قليل من الآبار المحفورة التي تحوي ماءً صالحاً للشرب[٢]. ومنذ القديم كان الموسرون يحضرون حاجتهم من الماء من خارج المدينة[٣].

تزويد مكة بالمياه

وسنقف قليلاً لنستعرض الجهود المبذولة على مر السنين لتزويد مكة بالماء اللازم للشرب[٤]. ففي زمن معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ ـ ٦٨٠م)

---

(١) إن التغير في التركيب الكيميائي لماء زمزم مردّه إلى المصادر الطبيعية التي تزود البئر بالماء، حيث تتأثر هذه المصادر بمواسم الأمطار والجفاف. ويسير هذا الماء عبر الشقوق والصدوع الأرضية، وما تحويه هذه الصخور من مواد كيميائية ومعدنية متنوعة. وقد ثبت من الدراسات التي أجريت في عام ١٤٠٠هـ أن مصادر البئر تأتي من جهة أبي قبيس كما تأتي من جهة الحجر الأسود، وقد تم تصويرها وتوثيقها من قبل المهندس يحيى كوشك، وقد ذكر ذلك في كتابه عن زمزم المذكور آنفاً.

(٢) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٣٦ وما بعدها.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٦٩ ـ ٧٠، ج٣ ص٤٦.

(٤) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٤٢، ج٢ ص٣٣، ٥٢، ١١٩، ٣١٤، ج٣ ١٢٩، ١٩٨، ٢٢٤، ٣٣٥، ٣٩٢.

(٤١ ـ ٦٠هـ) استفاد كثير من سكان مكة المكرمة من المياه التي استنبطها وجرها لسقاية مزارعه في ظاهر مكة[١]. فقد جعل جزءًا من هذه المياه سبيلاً من أجل الاستعمال العام. وفي عام ٧١٠م (٩٣هـ) تمكن خالد القسري أمير مكة من قبل الأمويين من سحب الماء العذب بواسطة أنابيب من الرصاص من منطقة منى على بعد ساعتين شرقي المسجد. ويرى بعضهم أنه أراد أن يخفف من مكانة بئر زمزم في نفوس الناس. ومن هنا فقد كان تدمير هذا المرفق من أول الأعمال التي قام بها العباسيون بعد أن استولوا على مقاليد الخلافة عام ٧٥٠م (١٣٢هـ)[٢]. ومع مرور الزمن لم تعد المياه التي استنبطها معاوية تكفي نتيجة ما اعترى القنوات من الإهمال. وقد قام هارون الرشيد ببعض الاصلاحات، حيث جمع كافة مجاري المياه في مجرى رئيس واحد، ومع هذا فقد كان هناك شح في الماء[٣]. وقد

---

(١) عندما تولى معاوية رضي الله عنه الخلافة، اهتم بأمر توفير المياه في مكة وأمر واليه على مكة بحفر الآبار وإجراء عين الأرين إلى مكة. ويعتبر هذا العمل أول عمل من نوعه لإمداد المساكن المجاورة للحرم بالمياه، حتى لا يجد الحجاج وسكان مكة صعوبة في الحصول عليها. (انظر الفاكهي ج٤ ص١٢١ وما بعدها، والأزرقي ج٢ ص٢٢٧ وما بعدها، والفاسي ج١ ص٥٥٢، وإبراهيم رفعت ج١ ص٢١٠).

(٢) في خلافة سليمان بن عبدالملك كتب الخليفة إلى خالد بن عبدالله القسري عامله على مكة بإجراء عين له من (الثقبة) يخرج ماؤها بين زمزم والمقام، فأجرى خالد القسري هذه العين من الثقبة في قنوات من الرصاص مدها حتى أظهرها من فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام، ثم تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص، يخرج من بركة عملها في السوق عند باب الصفا، ويبدو أن إجراء ماء هذه العين وإظهارها بين زمزم والمقام أمر سياسي يستهدف صرف أهل مكة عن شرب ماء زمزم، إذ إنه عندما أفضت الخلافة إلى العباسيين هدم داود بن علي تلك الفوارة بوصفه أول عمل بعد قدومه مكة، وكسر الفسقية وصرف العين إلى البركة المذكورة. (انظر الفاكهي ج٣ ص١٤٩ وما بعدها، الأزرقي ج٢ ص١٠٧. ابن فهد ج٢ ص١٢٣).

(٣) انقطع الماء في أواخر دولة بني أمية، وأصاب الناس شدة، حتى رجعوا إلى الشرب من الآبار، فصاروا يجلبون الماء إلى مكة من خارجها، واستمر الحال كذلك في أوائل دولة بني العباس، حتى وفق الله أمير المؤمنين هارون الرشيد، فأمر بإجراء عيون من تلك العيون التي كان معاوية قد أجراها فأصلحت وصرفت في عين واحدة يقال لها (الرشا) تسكب في الماجلين اللذين أحدهما لأمير المؤمنين الرشيد في المعلى، ثم تسكب في =

عين زبيدة

تولت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد عام ٨١٠م (١٩٥هـ) مهمة تزويد سكان مكة وجموع الحجيج بالماء اللازم لذلك. فقد أمرت وبتكاليف باهظة ببناء مورد مائي دائم سحبته من جهة الشرق، حيث توجد منطقة غنية بالماء ترتفع شرقي مكة باتجاه الطائف. ثم اشترت عين حنين الغنية نسبياً بالماء، والتي كانت تروي حقول القمح في المنطقة، ووصلت تمديداتها المائية، وربطت قنواتها المعطاءة بالماء، بالمجرى الرئيس الذي عرف باسم عين زبيدة. وكذلك أمرت بحفر قنوات في الجبال المحيطة من أجل الاستفادة من مياه الأمطار، التي تعتبر نادرة في تلك البلاد، ولكنها غزيرة جداً.

وهكذا أصبحت عين حنين وعين زبيدة وعين المشاش وعيون وادي نعمان، التي تبعد عدة أميال شرقي عرفات، تجري بواسطة الأقنية على طول سهل عرفات الواسع، حيث تملأ عدة خزانات فيه لسقيا الحجيج، ثم تواصل الأقنية جريانها حتى وادي منى، حيث تنتهي في بئر زبيدة، حيث يتزود الحجاج منها أيام التشريق الثلاثة(١). وفي عام ٨٢٦م (٢١١هـ) زاد

= البركة عند المسجد الحرام فتوسع الناس بعد ذلك بعض السعة، (الفاكهي ج٣ ص١٥٢ الأزرقي ج٢ ص٢٣١ ابن فهد ج٢ ص٢٤٨ إبراهيم رفعت ج١ ص٢١٠).

(١) وفي عام ١٩٣هـ الذي حجت فيه السيدة زبيدة نقصت المياه في المشاعر، وأصاب الحجاج عطش شديد، وبيعت راوية الماء بعشرة دراهم أو أكثر. وحينما أخبرت السيدة زبيدة بما عاناه الحجاج من العطش الشديد والمشقة العظيمة والجهد في الحصول على الماء في المشاعر المقدسة أمرت بإجراء عين وادي «النعمان» إلى جبل الرحمة بعرفة، وهي عين منبعها في ذيل جبل كرا، وتنحدر المياه من ذيل هذا الجبل في قناة إلى موضع يقال له «الأوجر» بوادي النعمان، ثم يجري منه الماء إلى موضع بين جبلين شاهقين في علو أرض عرفات، ثم أُجري الماء في قنوات إلى عرفات، ثم أديرت القنوات في سفح جبل الرحمة، وجعلت منها طرق إلى البرك والأحواض التي عملت بأرض عرفات فتمتلئ ماءً يشرب منه الحجاج يوم عرفة، ثم سيرت القناة من عرفة نحو الشمال، وعلى بعد ١٣٧٨ متراً عمل بازان (بئر) اسمه«فقير الذئب الأعلى»، ثم سيرت قناة وعلى بعد ٤٠٥ أمتار من البازان الأول عمل بازان ثان اسمه «فقير الذئب الثاني» ثم تنعطف القناه نحو الغرب داخلة في وادي المغمس، وتنتهي إلى «حوض البقر الأول» على بعد ١٤٢٠ متراً من البازان الثاني، وأقيمت على القناة فيما بين عرفة وحوض البقر هذا خمس وعشرون خرزة لأجل سقاية الحجاج عند صعودهم ونزولهم، ثم تسير القناة في باطن الجبل إلى موضع يقال له «الخاصرة» ثم ترجع منه يميناً إلى بازان المعترضة، وبعد ذلك تسير القناة في سفح =

المأمون من راحة المكيين في الحصول على الماء، فقد مدد القناة التي كانت تقف في الجهة العليا الشمالية الشرقية من مكة، إلى المنطقة السفلى من مكة، وبذلك وصلت المياه إلى مختلف أجزاء المدينة[(١)].

شح المياه في مكة

بالرغم من الخدمات الجليلة التي قدمتها السيدة زبيدة، إلا أن ذلك لم يكن كافياً، حيث نرى أن كل مؤرخ مكي يتحدث عن نقص الماء في أيامه، لفترات تستمر عشرات السنين. والسبب في ذلك إهمال أعمال الصيانة المستمرة للأقنية. وكان المكيون يكتفون أثناء أداء فريضة الحج بالشكوى للأمراء والأثرياء القادمين للحج بضرورة إصلاح مرافق المياه. غير أن أحداً من المكيين لم يرغب في دفع أي تكاليف إضافية، أو القيام بأي إشراف منظم، أو عمل أي إصلاح سريع، للأضرار التي تنجم عن انسداد القنوات، والتي تكون في بدايتها سهلة وقابلة للإصلاح.

ولقد كان مؤرخو مكة يسهبون في المديح والثناء على الهبات والأعطيات التي كانت تتكرر من الأمراء والوزراء، بهدف

= المأزمين على يسار القادم من عرفات، ثم تسير إلى مزدلفة، وتتجه منها في وادي النار، وفيه عند رأس جبل على يسار الذاهب إلى مكة بازان يقال له «دقم الوبر» ومنه يكون المجرى متعلقاً في الجبل إلى «المفجر» خلف منى، ثم يتوجه المجرى منحدراً خلف جبل منى إلى فتحات موازية لمدرج منى، بجانبها مسجد وحوض لسقيا الدواب يسمى «حوض البقر الثاني». ومنه تسير القناة تحت الأرض إلى بئر عظيمة طويت بأحجار كبيرة جداً تسمى «بئر زبيدة» إليها تنتهي القناة. [وهذه البئر أو الخزان عرف فيما بعد باسم محبس الجن].
انتهى عمل السيدة زبيدة عند هذه البئر، ولم تصل مياه وادي النعمان إلى مكة، لصعوبة حفر القناة في هذه المنطقة الجبلية من هذه البئر إلى مكة، وصارت عين وادي النعمان خاصة بعرفة ومزدلفة ومنى في ذلك الزمن، يشرب منها الحجاج وأهالي مكة بمختلف طبقاتهم وأجناسهم، بواسطة نقل الماء في قرب على ظهور الدواب، وصارت عين حنين خاصة بمكة لسقاية أهلها وحجاج بيت الله الحرام. (أونال وزميله: دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة من وجهة نظر الحجاج عام ١٤٠٨هـ، مركز أبحاث الحج، ١٤١٣هـ مكة).

(١) وفي سنة ٢١٠هـ كتب أمير مكة إلى الخليفة المأمون يشكو نقص الماء، ويستأذن الخليفة في بناء بعض البرك، في مختلف مناطق المدينة، كي يتمكن جميع السكان من الحصول على الماء من المواقع القريبة منهم، فأذن الخليفة ببناء خمس برك في مواضع مختلفة من مكة (انظر الفاكهي ج٣ ص١٥٥، والفاسي ج٥ ص٢٨، وابن فهد ج٢ ص٢٨٤).

إجراء التحسينات لمرافق المياه. وكان هذا يشجع أمراء آخرين على حذو المنهاج نفسه في التبرع والعطاء. غير أن سادة مكة وامراءها كانوا يحاولون دائماً، وكلما سنحت لهم الفرصة، أن يأخذوا لأنفسهم الكثير من هذه الأعطيات، التي تخصص لصيانة القنوات المائية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

إيصال عين زبيده إلى مكة

إن جزءًا كبيراً من شبكة المياه داخل المدينة وجنوبها حتى بركة ماجن (ماجل) تسمى «عين بازان» على اسم موظف اسمه بازان، كان قد ارسله أحد أمراء المغول في العراق عام ١٣٢٦م (٧٢٧هـ) لإعادة إصلاح خط المياه المدمر[١]. وفي عام ١٥٦٢م (٩٦٩هـ)، وعندما زارت زوجة السلطان العثماني سليمان مكة المكرمة، أمرت بإصلاح الخط المهمل على حسابها الخاص. وقد ضاع عام كامل من العمل والنقود دون جدوى؛ لأن أحداً لم يكن يعرف بأن الخط المذكور أعلاه لا يصل إلا من عرفات إلى مقربة من منى، أي أنه يختلف عن الخط الذي يزود المدينة بالمياه. وبعد عام تم اكتشاف ذلك، وكان لابد من وصل عين عرفات مع الخط الآخر وهو خط زبيدة، وهذا يستدعي حفر قناة عمقها خمسون ياردة في أقسى الصخور. وعن طريق نار الخشب الضخمة، التي أكلت كل الأخشاب الموجودة في المنطقة، لينت الطبقة العليا للصخر قبل حفرها[٢]. وفي عام ١٥٧٢م

---

(١) نظراً لشح المياه في مكة المكرمة في الفترة التي سبقت عام ٧٢٦هـ فقد كان الماء يحمل إلى مكة من وادي مر (وادي فاطمة)، وقد علل الفاسي سبب ذلك بقلة الأمطار المتساقطة على مكة لسنين متتالية، ونتيجة لذلك فقد عمل أحد كبار شيوخ العجم المقيمين في مكة على الاتصال بالأمير جوبان، نائب السلطنة بالعراقين، وحثه على إيصال الماء إلى مكة المكرمة، فأصدر الأمير أمراً بإجراء ماء عين حنين وكان قد تعطل جريانها إلى مكة على يد أحد الصناع الذي أرسله الأمير جوبان، ويدعى بازان، الذي عمل على إجراء الماء وإيصاله بين الصفا والمروة، وكان ذلك في عام ٧٢٦هـ. وقد استغرق العمل أربعة أشهر، وقد كثر النفع بهذه العين، واستخدم أهل مكة الفائض منها في الزراعة (الفاسي ج١ ص٣٤٧، ابن فهد ج٣ ص١٨١ ـ ١٨٢).

(٢) حصل جفاف في معظم العيون التي تزود مكة المكرمة بالماء. وبعد أن قامت لجنة بتفحص هذه العيون ومصادرها، رفعت توصية إلى الباب العالي بإسطنبول، بضرورة توفير مزيد من الماء إلى مكة المكرمة، عن طريق صيانة شبكة القنوات التي تصل إلى مكة من عرفات. =

(٩٧٩هـ) انتهى العمل بعد أن صرفت أموال وجهود كبيرة، نتيجة الطريقة العقيمة المتبعة. غير أنه منذ ذلك الوقت أصبحت الأمور تسير بصورة أفضل مما كانت عليه في السابق.

لقد كان مجرى (دبل) عين زبيدة عرضة للكوارث الطبيعية المتكررة، التي غالباً ما تنجم عن السيول المدمرة. إضافة إلى ذلك، كان المجرى يتعرض للتخريب المتعمد بأيد بشرية، وذلك في الصراعات السياسية التي كانت تحدث في المنطقة، وأحدثها كان عام ١٨٠٥م (١٢٢٠هـ).

جهود عثمان باشا في توفير المياه

لقد كان لجهود الحاكم العام عثمان باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٦م) (١٢٣٨ ـ ١٣٠٤هـ) أثر واضح في إزالة آثار الوضع السيئ لمرافق المياه، فقد كان يأمر باستمرار بجمع الهبات الطوعية والقسرية، من الزوار وسكان مكة الأصليين، لصيانة مشاريع المياه في المدينة. ومع أن هذه المبالغ لم تكن تصرف بكاملها على المشاريع المائية، إلا أن هذا هو الحل الوحيد الذي يمكن عمله، في بلد لاتوجد فيه ضرائب ولاتدفع فيه أجور الموظفين أحياناً. وقد

= وقدروا لذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهباً. فوافق الباب العالي على ذلك، غير أن السلطانة فاطمة خانم، كريمة السلطان سليمان، عرضت أن يكون ذلك الإصلاح والترميم على نفقتها، تأسياً بزبيدة التي كان لها الفضل الأول في إيصال الماء إلى مكة. وبدأ العمل في ترميم وإصلاح وصيانة دبول وأقنية عين زبيدة عام ٩٦٩هـ. ولما فرغوا من كافة أعمال الصيانة اكتشفوا أن عين زبيدة القادمة من عرفات، ليست موصولة بعين حنين القادمة من أعالي وادي عرنة، وأن وصلها يستلزم حفر قناة بطول ألفي ذراع، بذراع البنائين، على ما يرويه القطبي في الأعلام (ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، وهذه القناة المقترحة لا بد أن تكون منخفضة بعمق ٥٠ ذراعاً تحت الأرض. ومن الجدير بالذكر أن هذه المنطقة صخرية شديدة الصلابة. مما استلزم إيقاد النار على الصخور لتليينها قبل حفرها. وقد قدر القطبي أن مقدار ما يوقد يومياً على الصخور بمائة حمل من الحطب الجزل، توقد على مساحة طولها ٧ x ٥ أذرع، لحفر ما مقداره قيراطان، من أربعة وعشرين قيراطاً من طول الذراع. وقد استلزم ذلك كما قال القطبي (عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب). وقد أتت هذه العملية على كل الحطب الموجود في المناطق المحيطة بمكة، واستمر العمل بتلك الطريقة المضنية عشر سنوات حتى عام ٩٧٩هـ، فوصلت عين عرفات بعين حنين، ووصل الماء إلى مكة المكرمة بعد أن أنشئت قنوات جديدة، أوصلت المياه إلى مختلف أحياء مكة المكرمة (انظر أونال وزميله: دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة من وجهة نظر الحجاج عام ١٤٠٨هـ بحث تاريخي ميداني، مركز أبحاث الحج ١٤١٣هـ، مكة).

ساعد ذلك على جعل مرافق المياه في عرفات ومكة صالحة لاستعمال الحجاج وسكان مكة الأصليين. إن خزانات المياه (بازانات) متوفرة حالياً ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) في مكة، ولايحتاج الفرد المكي لدفع أي ثمن مقابل هذه الخدمات المهمة للحياة. وقد بنى الوالي المذكور مرفقاً للمياه اسمه «الوزيرية» لمدينة جدة، حيث يشرب الناس هناك من آبار لجمع مياه الأمطار. ومن المؤمل به، أن يولي خلفه بعض الاهتمام لهذا العمل، الذي جعل اسم زبيدة في مكة حياً على مدى الدهور والأزمان.

بناية زمزم يعلوها مقام الشافعي

لنعد الآن إلى ساحة المسجد، وبالذات إلى بناية زمزم. هذه البناية اقيمت منذ البداية في العصر الإسلامي، لحفظ معدات النضح من جهة، وتسهيل العمل على خدمة البئر من جهة أخرى. وقد كان الطابق العلوي منذ زمن طويل أشبه بمكتب الرئيس أو كبير المؤذنين، الذي ينادي للصلاة خمس مرات يومياً. ويؤدي صلاة الجمعة في هذا المكان الموظفون الأتراك ذوو المراتب العالية، حيث يكونون قريبين من الكعبة، إضافة إلى أن المكان يحميهم من حر الشمس في صحن المسجد.

وهناك سلّمان جميلان مجهزان (بعجلات)، يوضع كل واحد منهما أمام باب الكعبة، (انظر صورة رقم (٥) رقم ٤، ٥)، وذلك عند فتحها للجمهور. هذان السلمان هما هدية من أمير هندي وصلا حديثاً. وقد حلا محل آخرين عفا عليهما الزمن. ومن الجدير بالذكر أن باب الكعبة مرتفع عن الأرض، ويقتضي وجود سُلَّم للصعود إليه منذ القدم.

مقام إبراهيم

وبالقرب من بناية زمزم (مقام الشافعي) هناك مقام إبراهيم[(١)]، الذي ترجعه الروايات التاريخية إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الأب الذي ينتسب إليه

---

(١) مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أثناء بناء الكعبة. والمقام آية من آيات الله حول البيت، ذلك أن أثر قدم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ظاهرة في الحجر، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران، الآية: ٩٧]. ويقع المقام في الجهة الشمالية الشرقية للكعبة، وقد تعرض إلى السيول في عصور مضت (البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية ١٤٠٣هـ ص٢٨٦).

العرب[1]. وقد كان المقام مقدساً حتى في أيام الجاهلية. وهناك روايات تاريخية كثيرة حول موضع هذا المقام في المسجد. فهناك روايات تدل على أن هذا الحجر احتفظ به مرة في داخل الكعبة، ومرة أخرى بجوارها، بالقرب من باب الكعبة، غير أن أرجح الآراء أنه بقي في مكانه الذي هو فيه الآن ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) داخل المقصورة التي تحيط به. حيث تعلوها قبة عمرها حوالي (٧٠٠) عام. وهذه المقصورة نصفها الأمامي محاط بشبك كثيف من الجهات الأربعة، يحيط بالمقام، المغطى بستارة من القماش. أما النصف الخلفي من المقصورة فهو مفتوح، ويستعمله الإمام أثناء أداء الصلاة (صورة رقم (٥) رقم ٦) وعندما استحدثت المقامات في المسجد الحرام، أصبح هذا المكان مخصص لإمام الشافعية[2].

المنبر

إن استعمال المنبر بالنسبة للخطيب يعتبر من الترف المجلوب، الذي أدخله الأمويون لأول مرة[3]. وقد أهدى الأمراء الذين تلوهم منابر أفضل. والمنبر الحالي (صورة رقم (٥) رقم ٧) قد تبرع به السلطان سليمان عام ١٥٤٩م (٩٥٦هـ)[4].

باب بني شيبة

أما الباب الصغير المفتوح (باب بني شيبة) (صورة رقم (٥) رقم ١) فيظهر حدود مساحة المسجد في عهد الرسول ﷺ، حيث يقال إن الحرم آنذاك كان يمتد من الكعبة على جميع الجهات بالبعد نفسه[5]. والمسجد في عهد

---

(١) العرب الباقية على ما يرويه النسّابون العرب ـ فرعان هما: العرب العاربة والعرب المستعربة. والعرب المستعربة هم الذين ينتسبون إلى عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

(٢) لقد أزيلت المقصورة التي كانت تحوي مقام إبراهيم، وكذلك القبة التي كانت تعلوه، وذلك أثناء التوسعة السعودية الأولى للمسجد، بتاريخ ١٢ رجب ١٣٨٧هـ. وقد استبدلت المقصورة بقبة من زجاج بلوري سميك، يرى المقام من خلالها، ثم أحيطت القبة بشبك حديدي مطلي بالذهب. وقد ساعد ذلك على توسيع المطاف أكثر من ذي قبل.

(٣) لقد استعمل الرسول ﷺ المنبر في المدينة المنورة. ولذا لم يكن المنبر من الأمور التي استحدثها الأمويون، بل كان موجوداً إبان عهد الرسول ﷺ وأصحابه الكرام.

(٤) أزيل هذا المنبر ووضع في قبو المسجد الحرام أثناء مشروع توسعة المطاف عام ١٣٩٩هـ. ولقد تحطمت أجزاؤه وفقد أثناء أحداث الحرم عام ١٤٠٠ هـ.

(٥) باب بني شيبة كان على هيئة عقد، يرتكز على عمودين مربعين، خلف مقام إبراهيم عليه السلام، وقد أزيل أثناء مشروع توسعة المطاف.

الرسول ﷺ، لم يكن سوى الساحة التي تحيط بالكعبة. وجدران المسجد لم تكن سوى البيوت المجاورة، وأبوابه هي الممرات الموجودة بين هذا المجمع السكني.

توسعات المسجد الحرام

وفي عهد الخليفتين الراشدين عمر[1] وعثمان[2] رضي الله عنهما، كان لا بد من توسيع مساحة المسجد، الذي أصبح مكاناً عالمياً مقدساً. فقد اشتريت البيوت المجاورة وأدخلت في التوسعة، وأصبح للحرم منذ ذلك الحين سور

---

(١) في عام ١٧هـ، حينما قدم إلى مكة، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على إثر سماعه بسيل أم نهشل، وقد شاهد أمير المؤمنين بنفسه رضي الله عنه ضيق المسجد الحرام بالمصلين، وما يعانونه لكثرتهم وضيق مساحته، فأمر عمر بن الخطاب بشراء الدور المجاورة حول المسجد وهدمها وضم مساحتها إلى المسجد الحرام، ولكن هذه المساحة لم تكن تكفي، لذا فقد احتاجت التوسعة في الحرم المكي إلى زيادة عدد آخر من الدور المحيطة به، فحاول عمر بن الخطاب مع أصحاب هذه الدور لشرائها وضمها للتوسعة، إلا أن هؤلاء أبوا وتمنعوا عن ذلك، فقال لهم أمير المؤمنين رضي الله عنه: «أنتم نزلتم بفناء الكعبة وبنيتم به دوراً، ولا تملكون فضاء الكعبة. وما نزلت الكعبة في سوحكم وفنائكم» ثم قومت تلك الدور ووضع أمير المؤمنين ثمنها في خزانة الكعبة، وبذلك أصبح الحرم أكثر سعة واستيعاباً لأعداد أكبر من المصلين والحجاج، وهذه أول توسعة في التاريخ للمسجد الحرام. وقد بلغت مساحته بعد التوسعة ٣٦١٣ متراً بزيادة ١٤٨٧ متراً مربعاً، وبنسبة زائدة تساوي ٧٠٪ (حامد عباس: قصة التوسعة الكبرى، مجموعة ابن لادن، ١٤١٦ ص١٩٢).

(٢) في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، تمت زيادة للمسجد الحرام، وهي الزيادة الثانية، وتمت بعد تسع سنوات من الزيادة الأولى، وهو ما يدل على زيادة عدد السكان في مكة المكرمة، وزيادة عدد المسلمين، وظهر من ذلك ضيق المسجد الحرام على المصلين والطائفين، فاشترى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الدور المجاورة للمسجد الحرام لإدخالها فيه، إلا أن بعض أصحابها امتنعوا كما فعل من قبلهم، ولكنه تصرف معهم بحزم مثل ما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فهدم الدور وأدخلها في المسجد الحرام.
وقد اتخذ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه للمسجد الحرام أروقة، فكانت هذه من أولياته، وكان من قبل متسعاً فسيحاً مثل الحصوة، وليس له رواق، ولا سقف يظل المصلين. وقد أضاف عثمان بن عفان بهذه الزيادة (٨٦٩) متراً مربعاً لتصبح سعة المسجد الحرام بعدها (٤٤٨٢) متراً مربعاً بنسبة زيادة تقدر بـ ٢٤٪، وقد حدثت هذه الزيادة سنة (٢٦هـ ـ ٦٤٦م). (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٢).

خاص به. وأثناء حكم ابن الزبير تم إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، كما تمت توسعة أخرى للمسجد، وعمل سقفاً (رواقاً) للمنطقة التي تمت توسعتها، لتوفير الظل في المسجد الحرام. ومن لم يكن معتاداً على حر مكة الشديد، لا يستطيع أن يزور المسجد حين ترتفع الشمس.

ولقد مارس الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك الذي اشتهر ببناء المساجد في عصره[١] هوايته، عن طريق تجميل المسجد الحرام وتوسيعه[٢].

توسعة الخليفة المهدي

ومن بين الخلفاء العباسيين، فإن المنصور[٣] هو الذي بدأ العمل بالإصلاح والتوسعة، غير أن هناك توسعتين، على درجة كبيرة من الأهمية، تمتا بأمر من المهدي[٤] عامي ٧٧٧م (١٦٠هـ) و ٧٨١م (١٦٤هـ). فقد أضيف جزء من

---

(١) قام الوليد ببناء المسجد الأموي بدمشق وقبة الصخرة في القدس الشريف والمسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة.

(٢) زاد الوليد بن عبدالملك بن مروان (٢٨٠٥) أمتار مربعة في سعة المسجد الحرام، بنسبة زيادة ٣٨٪، لتصبح سعته الإجمالية (١٠٢٧٠) متراً مربعاً، ومع هذه الزيادة نقض الوليد عمل أبيه عبدالملك، وعمّره عمارة متينة محكمة، وهو أول من أتى بالأساطين الرخام من مصر والشام، وسقفه بالخشب الساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وجعل لجدران المسجد الحرام وزرة في أسفلها، ثم كسا أرضية الحرم المكي بالرخام الأحمر والأخضر والأبيض. ومن أعمال الوليد بن عبدالملك بن مروان الشرفات التي جعلها تتوج جدران المسجد الحرام، كما جعل في وجوه النوافذ من أعلاها الفسيفساء. وقد تمت هذه الزيادة والعمارة سنة (٩١هـ ـ ٧٠٩م). (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٣)

(٣) كانت الزيادة التي أضافها أبو جعفر المنصور تصل إلى ٥١٪ من المساحة الإجمالية لمساحة المسجد الحرام، وقدرها (٥٢٢١م٢) لتصبح المساحة الكلية (١٥٤٩١) متراً مربعاً، وكانت زيادته من الجهة الشمالية، وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب العمرة، وعمل منارة في الركن الغربي من الجانب الشمالي، واتصل عمله في أعلى المسجد بزيادة الوليد بن عبدالملك بن مروان، وأنشأ أبو جعفر رواقاً واحداً بأساطين رخام دائراً على صحن المسجد (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٣)

(٤) زيادة المهدي العباسي: وهي زيادة كبيرة تقارب مساحة المسجد الحرام، قد زاد فيه (١٢٥١٢) متراً مربعاً، أي ما نسبته ٨١٪ من مساحة الحرم المكي الشريف، فأصبحت المساحة الكلية (٢٨٠٠٣) أمتار مربعة، وقد أنفق عليها بسعة على مقياس ذلك العصر، وقد تمت التوسعة على مرحلتين: الأولى (١٦٠هـ ـ ٧٧٦م)، والثانية عام (١٦٤هـ ـ ٧٨٠م)، وشملت المرحلة الأولى من توسعة المهدي توسعة المسجد الحرام من أعلاه، وتمت الاستعانة بأساطين من =

مجرى الوادي (وادي إبراهيم)، وكذلك جزء من المنطقة القريبة من المسعى إلى المسجد. وتوسع المسعى في المكان الذي نتج عن هدم البيوت في الجهة المقابلة.كذلك فإن المهدي قد زاد في الجهتين الشمالية والغربية من المسجد. وأحاط صحن المسجد بأروقة تقوم على أعمدة من رخام جلبت مخصصةً من سورية ومن مصر في المقام الأول. وقد غطيت هذه الأروقة بسقف جميل من خشب التيك.

وهناك توسعتان أقل حجماً أعطتا للمسجد مساحته الحالية والبالغة اثنين ونصف هكتار. ففي عام ٨٩٤م (٢٨١هـ) أدخل الخليفة المعتضد[١] دار الندوة وضمها إلى المسجد الحرام. ويقال إن هذا المبنى كان يبدأ من مقام الحنفية (صورة رقم (٥) رقم ٨) ويمتد نحو الشمال. وفي عام ٩١٨م (٣٠٦هـ) وسع الخليفة المقتدر[٢] المسجد من الجهة الغربية.

= رخام جلبت من الشام، وأضاف خمسة أبواب.
أما المرحلة الثانية فقد حدثت بعد دراسات استمرت ثلاث سنوات، لمعالجة تحويل مجرى سيل وادي إبراهيم لتربيع المسجد الحرام، وبدأت التوسعة الثانية عام ١٦٤هـ، وتوفي الخليفة العباسي قبل أن تكتمل، فأكملها خليفته ابنه موسى الهادي عام (١٦٩هـ ـ ١٧٠هـ) وقد كانت توسعة المهدي وعمارته أعظم العمارات حتى تاريخه، فقد ضمت العمارة (٤٨٤) عموداً رخامياً، موزعة على جهات المسجد الأربع، وارتفاع كل عمود (٤,٨) أمتار، وسمك محيطه (١,٤٤) متراً، وارتفاع جدار المسجد كان (٩,٦) أمتار. (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٤).

(١) زيادة الخليفة المعتضد: في عام (٢٨١هـ ـ ٨٩٤م) تمت توسعتان، تعتبران زيادتين خارجتين عن تربيع المسجد الحرام، إحداهما في الجهة الشمالية وهي دار «الندوة» حيث هدمت، وجعلت مسجداً، وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب، وأصبحت رواقاً من أروقة المسجد الحرام، وأقيمت فيها الأعمدة، وسقفت بخشب الساج، وجعل السقف مسامتاً لسقف المسجد الحرام، كما جعل لها اثنا عشر باباً من الداخل، وثلاثة أبواب من الخارج، واستغرقت هذه الزيادة ثلاث سنوات. وتمت في سنة (٢٨٤هـ)، وهي الزيادة السابعة للحرم (حامد عباس: مرجع سابق، ص١٩٤).

(٢) زيادة الخليفة المقتدر: في عصر الخليفة العباسي المقتدر، وبالتحديد عام (٣٠٦هـ) حدثت زيادة ثامنة في الحرم المكي، وهي التي يطلق عليها زيادة باب إبراهيم، وشملت دارين للسيدة زبيدة، فأدخلت مساحتهما في المسجد الحرام، وجُعل لها باب كبير هو باب إبراهيم، وقد استمر العمل في هذه الزيادة ما بين عامي ٣٠٦ ـ ٣٠٧هـ (٩١٨ ـ ٩١٩م). =

ومنذ ذلك الوقت أدخلت الكثير من التجديدات التي جعلت من المسجد مثار إعجاب الحجاج والزوار من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

منائر الحرم

لقد أقيمت المنارات التي أصبح المؤذنون ينادون بالأذان منها، بعد أن كان الأذان من على سطح المسجد. وقد زاد عدد هذه المآذن تدريجياً حتى بلغ عددها سبعاً[١]. وتحيط بصحن المسجد أعمدة نحاسية صغيرة، والتي أقيمت منذ مدة، وهي موصولة بقضبان معدنية تحمل المصابيح، لإنارة المطاف أمام من يريد الطواف في المساء والليل[٢].

المقامات الأربعة

يعدّ بناء المقامات الأربعة من أهم التغييرات التي أضيفت إلى المسجد منذ آخر توسعة له. وهذه المقامات تمثل المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة. ومع أن الشرع يلزم الشخص الذي يتبع مذهباً ما بالصلاة مع الجماعة، إذا كان خلف إمام ليس على مذهبه، ومع هذا فقد وجدت هذه المقامات. وفي الأصل

= وبهذه الزيادة انتهى دور العباسيين في توسعة المسجد الحرام، وإن كانت توسعة المهدي تعتبر درة في جباههم، فقد ظلت هذه التوسعة إلى أن بدأ العمل في التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٧٥م. (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٥).

(١) يبدو أن أول من أحدث منارة في المسجد الحرام كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، فقد أنشأ منارة بباب العمرة، وكان ذلك في عمارة أبي جعفر للحرم المكي، وليست هناك مواصفات لهذه المنارة، أو ارتفاعها، ثم أنشأ الخليفة محمد المهدي ثلاث منائر، إحداها على باب السلام، والثانية على باب علي، والثالثة على باب الوداع، ثم أنشأ المعتضد العباسي منارة خامسة في زيادة دار الندوة، بين باب الزيادة وباب القطبي، ثم أنشأ الملك الأشرف قايتباي منارة سادسة، بين باب النبي وباب السلام، ثم أنشأ السلطان سليمان منارة سابعة بين مدارسه الأربعة، وقد جددت هذه المنائر خلال فترات مختلفة إلى ما قبل العهد السعودي (باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٤٠ ـ ٢٤١). وفي التوسعة السعودية الأولى التي بدأ العمل بها عام ١٣٧٥هـ تم هدم جميع المنائر القديمة واستبدلت بسبع منائر عالية بارتفاع ٩٠ متر تقريباً. بنيت على الطراز الحديث، لتتلاءم مع العمارة السعودية الجديدة. وهي على النحو التالي: منارة على باب الصفا، ومنارتان على باب الفتح، ومنارتان على باب العمرة، ومنارتان على باب الملك عبدالعزيز. وفي التوسعة السعودية الثانية التي بدأ العمل بها عام ١٤٠٩هـ، تمت إضافة منارتين على باب الملك فهد، لتصبح في مجموعها تسع منائر.

(٢) يوجد بين كل عمودين من هذه الأعمدة النحاسية سبعة مصابيح زيت زجاجية معلقة (انظر صورة ٥).

كان المكان الوحيد للامام هو خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولما كان معظم سكان مكة ينتمون إلى المذهب الشافعي، الذي كان ينتسب إليه الخلفاء العباسيون، فإن هذا المكان لم يشغل إلا من قبل الأئمة الشافعية، ولا يزال حتى الآن ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) هو مكان إمام الشافعية. ولا نستغرب وجود بعض الروايات التي تشير إلى أن أتباع المذهب الزيدي قد أقاموا صلاتهم في الحرم وحدهم، ولو أنه لا توجد دلائل على وجود مقام للزيدية داخل الحرم[١]. ومن الجدير بالذكر أن هذه الطائفة من الشيعة لها آراؤها الخاصة بالتشريع ـ ولا نستغرب وجود ذلك ـ فقد كان معظم الأشراف العلويين في غرب الجزيرة العربية، قد بلغوا قمة مجدهم في الأماكن المقدسة في تلك الفترة التي اعتنقوا فيها المذهب الزيدي.

تعاظم نفوذ الوافدين إلى مكة من مختلف بقاع العالم الإسلامي مع مرور الزمن. ولم يقتصر هذا النفوذ على الحجاج القادمين من هذه الدول فحسب، بل إن كل دولة أصبح لها جالية مستوطنة ومقيمة في مكة من المجاورين لبيت الله الحرام. وقد كان هناك نوع من التنافس بين هذه الجاليات، يذكيه الصراع الدائم بين حكام العالم الإسلامي حول السيادة على الأماكن المقدسة[٢]. ومن هنا فقد كان كل واحد من هؤلاء الحكام يريد أن يضمن لنفسه ولرعاياه المكان اللائق في المدينة المقدسة. وقد وصلت الأمور إلى الحد الذي لم يرد فيه أي حاكم أن يرى مذهب بلاده، غير ممثل رسمياً في هذا المكان العالمي. ولعل ذلك هو السبب الذي أدى إلى ظهور المقامات الأربعة.

---

(١) وصف ابن جبير في رحلته الموسومة باسمه، المقامات الأربعة، وصلاة الأئمة الأربعة فيها، ومعهم إمام الزيدية الذي كان أشراف البلدة على مذهبهم. وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل» إثر قول المؤذن «حي على الفلاح» ولا يجمعون مع الناس، إنما يصلون الظهر أربعاً، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتهم. (ابن جبير ١٣٨٤هـ، ص٧٨).

(٢) وجود المذاهب الفقهية الأربعة في مكة المكرمة أمر طبيعي وذلك لاختلاف سكان مكة في مذاهبهم. أما قضية الصراع بين حكام العالم الإسلامي، فهذا من مبالغات المؤلف التي لا يمكن قبولها من حيث القول بوجود صراع دائم بين حكام العالم الإسلامي حول السيادة على الأماكن المقدسة، وتاريخ مكة المكرمة مدوّن لدى الباحثين.

إن تاريخ إنشاء هذه المقامات غير محدد، غير أنه ربما كان ذلك في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي[1] (السادس الهجري).

لقد غضب العلماء من هذه التجديدات غير الشرعية، خاصة أن هذه الإضافات، قد أدت إلى فوضى عارمة اثناء التطبيق. فإذا بدأ الأئمة الأربعة الصلاة في الوقت نفسه، وقعت الجماعة في الشكوك عن طريق اختلاط الأصوات[2]. ولو أراد المرء أن يتخلص من هذا الوضع السيئ لكل الفرائض الخمس اليومية، عن طريق ترتيب دوري لكل من هذه المذاهب الأربعة، لاضطر إلى التخلي عن مذهبين في تأدية صلاة المغرب لضيق الوقت، ناهيك عن اختلاف أئمة المذاهب الأربعة في تحديد ميعاد

---

(١) ذكر حسين عبدالله باسلامة في كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام (ص٢٢٤) عن الملابسات التي أحاطت بإنشاء المقامات الأربعة داخل الحرم المكي الشريف. وقد استنتج أن التاريخ التقريبي لبناء هذه المقامات كان فيما بين القرن الرابع الهجري والخامس. وقد استند في رأيه إلى أن المؤرخ الأندلسي ابن عبد ربه، حينما وصف المسجد الحرام، في كتابه العقد الفريد، لم يأت على ذكر المقامات الأربعة، وقد توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨هـ، فدل ذلك على عدم وجودها في عصره. وقد ذكر ابن جبير في رحلته عام ٥٧٨هـ المقامات الأربعة ووصفها، فدل ذلك على أنها أحدثت قبل ذلك التاريخ، وقد استنتج باسلامة أن حدوثها كان في القرن الرابع أو الخامس.

(٢) وصف ابن بطوطة ما يحدث من تشويش أثناء أداء الصلوات من خلال أئمة المذاهب الأربعة، فقال: (فمن عاداتهم (يعني أهل مكة) أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية فإذا صلى صلى بعده إمام المالكية ومعه إمام الحنابلة في وقت واحد، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلي بطائفة، ويدخل الناس من ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي) وقد ذكر الناس أن بعض فقهاء المالكية أفتوا بمنع الصلاة بأئمة متعددة، وجماعات مرتبة بحرم الله، وقالوا بعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة. وتوالت الفتاوى في عدم جواز ذلك، لا سيما وأنه من مظاهر الاختلاف والفرقة، وقد نهى الإسلام عن تفريق الجماعات في الصلوات، الذي يبدو وكأنه يمثل أهل أديان مختلفة، وشرائع غير مؤتلفة، وقد وفق الله الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود طيب الله ثراه إلى إبطال تعدد الجماعات في المسجد الحرام والمسجد النبوي، وجمع المصلين على إمام واحد في الصلوات الخمس والتراويح، وذلك من ابتداء توليته على الحجاز سنة ١٣٤٣هـ، ولا يزال الحال إلى يومنا هذا (باسلامة مرجع سابق ١٤٠٠هـ، ص٢٢٤ ـ ٢٣٣).

الصلوات الأربعة الأخرى. وحتى هذه الأيام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) لا يزال هذا الترتيب محيراً للسلطات، ويخضع إلى تبديل مستمر. ويؤدي المالكيون والحنابلة دوراً أقل أهمية؛ نظراً لأهميتهم السياسية المحدودة في المدينة المقدسة. لكن الأحناف الذين ينتسب إليهم الأمراء الشراكسة في مصر، والسلاطين العثمانيون في إسطنبول ينظرون بنوع من الحسد إلى مقام الشافعية، مذهب أهل مكة الرسمي، الذي بقي خلف مقام إبراهيم. ففي عام ١٤٠٠م (٨٠٢هـ) عندما التهم حريق كبير معظم المسجد، أمر سلطان مصر ببناء مقام الحنفية بصورة أجمل من المقامات الأخرى، لكنه بعد ستة أعوام من ذلك التاريخ، اضطر إلى تغيير المقام ثانية بواحد أكثر بساطة من الأول[١]. وبعد فتح الجزيرة العربية ومصر من قبل الأتراك العثمانيين، بنى أول ممثل لسلطان إسطنبول في مكة عام ١٥١٧م (٩٢٤هـ) قبة مزركشة بدلاً من المقام الحنفي القديم، غير أنه اضطر إلى سحب هذا التغيير الجديد عندما أقدم السلطان سليمان عام ١٥٤٠م (٩٤٧هـ) على إعادة بناء المسجد بكامله. وبالرغم من كل ذلك، فقد كان هناك اهتمام أكبر بالمقام الحنفي، يفوق الاهتمام بالمقامات الأخرى[٢].

---

(١) في عام ٨٠٢هـ وفي عهد الشراكسة، حدث حريق في المسجد الحرام، فندب الشراكسة أمير الحج المصري لإصلاح ما تهدم من المسجد، ومن ضمنها تشييد المقام الحنفي، على أربع أساطين من حجارة، يعلوها سقف مدهون مزخرف، وقد أنكر ذلك جماعة من العلماء، وأفتوا بتعزير من أجاز بناءه، وذلك لشغله حيزاً كبيراً من المسجد، ولتمييزه عن بقية مقامات الأئمة في المسجد الحرام. (السباعي ١٣٩٩هـ، ص٣٢٣).

(٢) اهتم العثمانيون بالمقام الحنفي أكثر من غيره من المقامات، ففي عام ٩٢٣هـ حينما دخلت الحجاز في سلطة الدولة العثمانية، قام أمير المحمل الرومي في تمييز المقام الحنفي أكثر مما ميزه الشراكسة، فهدمه في ٩٢٤هـ وجعله قبة كبيرة شامخة، وزاد في طوله وعرضه، وأراد إيصاله بالمطاف، فعارضه بعضهم. ويبدو أن بعض علماء الحرم ساءهم ذلك فسعوا لدى السلطان في هدم المقام، وصدر أمر السلطان في ٩٤٩هـ بهدم القبة المذكورة، وإعادة بنائها بأقل سعة مما كانت عليه، وأسندت العمارة إلى نائب جدة، فبنى المقام من طابقين، وقد ظل على حاله حتى هدم مع المقامات الأخرى في التوسعة السعودية الأولى. (السباعي ١٣٩٩هـ، ص٤٧٥).

وكما يظهر في (صورة رقم (٥) رقم ٨) فإن البناء المكون من طابقين، إضافة إلى الحجم الكبير، ما زالا يميزان مقام المذهب الحنفي عن غيره من المقامات الأخرى. لقد اختفت الزيدية عن المسرح السياسي منذ حكم الأتراك. ومنذ عدة سنوات فإن المقام الحنبلي، قد أزيح عدة خطوات من مكانه لضرورات تنسيقية[١]. وكذلك وللغرض نفسه، أزيلت قبتان كانتا موجودتين في الجهة الشرقية من زمزم، من قبل الوالي عثمان نوري باشا[٢] نفسه.

أبواب المسجد الحرام

لقد اهتم حكام المسلمين وأثرياؤهم بكافة أمور المسجد الحرام، ومنها الأبواب الخاصة بالمسجد. فالأبواب في الجهتين الجنوبية والشرقية، المؤدية إلى الشارع، تحمل زخارف ونقوش وكتابات لآيات قرآنية جميلة ورائعة، ولا تقل روعة عن الزخارف الموجودة على الأبواب الأخرى للمسجد، التي تؤدي عبر ممرات طويلة وضيقة إلى الأحياء الداخلية من المدينة[٣]. أما

المطاف

المطاف فقد تم تبليطه بحجارة المرمر، وكذلك القسم المبني من المسجد

---

(١) يروي الحضراوي أنه في عهد الشريف عون الرفيق، قام والي الحجاز عثمان نوري باشا، بإزالة مقام الحنبلي؛ لأن موقعه كان منحرفاً وقريباً من زمزم، وأعاد بناءه على الصورة التي كان عليها، قبل أن يزال مع المقامات الأخرى في التوسعة السعودية الأولى، وكان ذلك بمعرفة المهندس صادق باشا. (مغربي ١٤١٠هـ، ص١٢١)

(٢) يروي حسين عبدالله باسلامة أنه كان بداخل المسجد الحرام قبتان، خلف بئر زمزم، إحداهما سقاية العباس رضي الله عنه، والأخرى لحفظ الأشياء الموقوفة على المسجد الحرام. وقد أنشئتا في عهد الخليفة المهدي العباسي، ثم عمرتا في عهود لاحقة. وقد ذكرهما الرحالة المسلمون مثل ابن عبد ربه وابن جبير وابن بطوطة. وقد بقيتا حتى عام ١٣٠٠هـ، حينما أزيلتا بأمر من عثمان نوري باشا والي الحجاز، وبتوصية من مهندس الحرم، الضابط أركان حرب صادق باشا. انظر (باسلامة ١٤٠٠هـ، ص١٩٣ ـ ١٩٨، وكذلك مغربي ١٤١٠هـ، ص١٢١)

(٣) اختلف عدد أبواب المسجد الحرام مع مرور الزمن؛ نظراً للتوسعات المتعاقبة، التي تمت في الحرم المكي الشريف. ويروي المؤرخون أنه كان للمسجد الحرام في عهد المهدي (١٩) باباً، واستقر عدد الأبواب في العمارة العثمانية على (٢٦) باباً. أما الآن فعدد أبواب المسجد الحرام هي (٤٥) باباً. منها أربعة أبواب رئيسة (باب الملك عبدالعزيز، باب الفتح، وباب العمرة، وباب الملك فهد) تعلو كل منها منارتان تبرزان المداخل الرئيسة بشكل يوحي بعظمة المكان.

(الرواق)[1]. أما الصحن فقد ترك على شكل مساحات واسعة (حصوات) تغطيها الحصباء، وتفصلها عن بعضها الممرات الطويلة، التي تصل المطاف بالأبواب الرئيسة للمسجد. وقد تم نشر العديد من المصابيح الزجاجية في المطاف، والحصوات، وفوق المقامات الأربعة، وبقية الأجزاء الخلفية من المسجد. (انظر صورة رقم ٥).

العمارة العثمانية

لقد أخذ المسجد شكله الحالي عندما أمر السلطان سليم الثاني، فيما بين عامي ١٥٧٢ ـ ١٥٧٧م (٩٧٩ ـ ٩٨٥هـ) بإعادة بناء المسجد وتوسعته. وقد حدثت في هذه التوسعة تحسينات وإضافات ضرورية في كل أجزاء المبنى. فقد استعيض عن السقف المصنوع من خشب التيك، المتآكل بمرور الزمن، بالقباب الصغيرة، المبيضة بالكلس كما زينت الواجهات الأربع الداخلية، المطلة على الصحن، بزخارف جميلة منسقة[2].

---

(١) تم تبليط المطاف بحجارة المرمر في عهد السلطان محمد خان. وذلك خلال الفترة من ١٠٠٣ ـ ١٠٠٥هـ، وكان قبل ذلك مرصوفاً بالحجارة، وقد أخذت هذه الحجارة ورصفت بها الممرات الموصلة إلى الأبواب الرئيسة. (السنجاري: أحداث عام ١٠٠٣هـ). ومن الجدير بالذكر أنه كان يحيط بالمطاف دائرة أخرى من الصحن، مفروشة بالحجارة المنحوتة، وهذه الدائرة تضم المقامات الأربعة. ويروي القطبي في الإعلام أنها رصفت في عهد السلطان سليمان بن سليم على يد المعمار سنان باشا. (باسلامة ١٤٠٠هـ، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠) وقد ذكر باسلامة أن أروقة المسجد الحرام كانت مفروشة (بالطبطاب) حتى عهد السلطان عبدالحميد خان الأول، ابن السلطان أحمد خان الثالث العثماني، الذي أمر المعمار محمد أفندي بفرش أروقة المسجد الحرام بالحجارة المنحوتة فرشاً محكماً. وبقي على ما كان عليه إلى التوسعة السعودية الأولى (المرجع السابق: ص٢٧٢)

(٢) في الحقيقة لم تتم أي توسعة للمسجد الحرام في عهد السلطان سليم العثماني، بل إنها كانت عمارة شاملة، تشابه ما فعله الخليفة المهدي العباسي. إذ مضت على زيادة المهدي وعمارته (٨١٠) سنوات دون أن يلحقها ضرر، غير ترميمات محدودة، إلى عام (٩٧٩) حيث حصلت بعض التصدعات، وميول في وجه الرواق ناحية صحن المسجد الحرام، بشكل ظاهر لم ينفع معه أي علاج، وهذا أدى بالسلطان سليم إلى المبادرة إلى بناء الحرم الشريف جميعه بغاية الإتقان والإحكام، واختير أحمد بك كتخدا للإشراف على هذه العمارة، التي حلت فيها القباب محل السقف الخشبي، وأنشئت نتيجة لذلك العديد من الأعمدة الرخامية، واستخدمت الأعمدة التي تبقت من عمارة المهدي، وأعمدة أخرى من الحجر الشميسي، وقد أصبح عدد الأعمدة بعد هذه العمارة (٥٨٩) عموداً، موزعة على جميع جهات المسجد، والعقود (٨٨١) عقداً. وضم المسجد (١٥٢) قبة موزعة على جهات المسجد =

الانطباع العام

وهكذا ظهر بناء المسجد الحرام حول الكعبة ـ ذلك المكان الذي عرف منذ عهد النبي محمد ﷺ باسم بيت الله ـ الذي أصبح يأوي إليه القادمون من مختلف بقاع العالم الإسلامي الفقيرة. إن هذا المكان المقدس، الذي أصبح رمزاً للإسلام المتحضر، لا يشدك ولا ينفرك، غير أنه يؤثر فيك تأثيراً فريداً من نوعه. وبالضبط فإن وحدة الحرم، تسهل على الزائر الورع، أن يتأمل الأسرار في الصورة العامة. أما الباحث في التفصيلات فإن الحرم يذكره بنواح عديدة من تاريخ الأديان. فهناك الأعمدة (الأسطوانات) المجلوبة من مصر والشام ـ من المعابد اليونانية والرومانية[1] ـ تقوم عليها القباب التركية. وهناك الآيات القرآنية المأخوذة من دين التوحيد، والمكتوبة بالخط اليدوي على الجدران الداخلية للمسجد. وهناك البيت العتيق، الذي بقي على حاله منذ أيام الجاهلية. كما أن هناك المقامات الأربعة، التي تظهر الصراع الحاد بين المذاهب المختلفة. وهناك ضيوف الرحمن القادمون من كل البلاد الواقعة بين المغرب والصين. إن هذه التفصيلات قد تمازجت تمازجاً بديعاً، وكأنها خطت بريشة فنان، وقد نمت نمواً تدريجياً ابتداء من ظهور الإسلام.

المدارس حول المسجد الحرام

أضلاع أروقة المسجد الحرام الذي تتوسطه الكعبة غير متساوية، كما أن زواياه الأربعة ليست قوائم. أما أرضية المسجد فتهبط من الشرق والشمال والجنوب باتجاه الوسط، والميل العام هو من الشرق إلى الغرب، بصورة تدريجية وغير منتظمة.

= الأربع، و (٢٣٢) طاجناً بجوار القباب، وعدد الأبواب (٢٦) باباً، وبلغت مساحة المسجد الحرام في العمارة العثمانية التي تمت في سنة (٩٨٤هـ) (٢٨٠٠٣) أمتار مربعة، وبذلك تقل عن مساحة المسجد الحرام بعد عمارة المهدي العباسي، وقد بدأت هذه العمارة في عهد السلطان سليم، وأتمها خليفته السلطان مراد.

(١) ليس هناك دليل على أن الأسطوانات الرخامية، التي جلبت إلى المسجد الحرام من مصر والشام، في عهد الوليد بن عبدالملك الأموي والمهدي العباسي، كانت من المعابد اليونانية والرومانية، وربما تكون قد نحتت وجهزت خصيصاً لأغراض بناء المسجد الحرام، ومن المعلوم أن هناك أسطوانات مشابهة لهذه الأسطوانات، موجودة في المسجد الأقصى والجامع الأموي وقد شيدا في عهد الوليد.

في الشمال الغربي والجنوب الغربي من المسجد تقوم مجموعة من المدارس. والمدرسة هي بناء مجهز لسكن المعلمين والدارسين للعلم الشرعي. ومعظم هذه المدارس قامت على أيدي متبرعين أتقياء قاموا بتأسيسها، وكان الإنفاق عليها يتم في العادة عن طريق عائدات أوقاف غير منقولة، يرصد ريعها لدفع رواتب القائمين عليها من طلبة ومدرسين. وفي كثير من الأحيان يتدخل الحاكم بالقوة لسحب هذه الأوقاف من أيدي المشرفين (النظار) عليها، نتيجة لعدم إخلاصهم، غير أنه يتم تحويلها عن الهدف الذي وضعت من أجله. وهكذا وبمرور الزمن يتم التبرع بالبناية نفسها من قبل عدد من الأتقياء لأغراض مشابهة، وكل مرة بنفقات باهظة يطلبها الوسطاء والمشرفون على العملية. ومن الطريف أنه بعد وصولي إلى مكة نصحني العديد من الأشخاص أن أستأجر إحدى المدارس المتوفرة كلياً أو جزئياً. فقد سبق لأحد الوزراء أن سكن في مدرسة جميلة جداً. وهناك مدرسة أخرى استعملت كمكاتب لإدارة مياه عين زبيدة. وهذا هو المصير نفسه الذي تؤول إليه الكثير من الأوقاف الموزعة في مختلف أرجاء المدينة[١].

إن التاريخ يذكرنا بسلسلة هائلة من الإصلاحات التي تمت في المسجد الحرام، والمدينة المقدسة بشكل عام، وذلك في كل عصر من عصور الإسلام. وكان بعض هذه الإصلاحات يأتي بعد الكوارث الطبيعية، كالحريق الذي تحدثنا عنه آنفاً، أو نتيجة العبث ومحاولة السطو على مقتنيات المسجد من الذهب والفضة، أو نتيجة إهمال السلطات لأمر الترميم والصيانة، وهناك سبب آخر مهم جداً ألا وهو السيل. لقد حبى الله مكة المكرمة بالجبال الجرداء والرمل والحر الشديد الذي لا يطاق، ويضاف إلى كل ذلك أخطار السيول. فهناك العديد من السيول التي تتكون في شرق المدينة المقدسة، إثر سقوط الأمطار، التي تجري باتجاه ساحل البحر الأحمر غرباً[٢].

---

(١) لمعرفة المزيد عن المدارس التي أنشئت حول الحرم المكي الشريف، في مختلف العصور (انظر ناجي معروف، مدارس مكة المكرمة، بغداد ١٩٦٦م).

(٢) انظر اخبار مكة المشرفة ج١ ص١١٦، ٢٧٦، ٣٤٢ الطبري ج٢ ١٠٣٩، ١٠٤٠، سالنامة الحجاز ١٣٠٣هـ ص٣٢٩. وأضيف هنا أرقام السنوات التي حدثت فيها الفيضانات =

السيول

فوادي مكة الضيق (وادي إبراهيم) المنحدر من جهة الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، يكوّن منطقة تجميع لماء المطر حول المسجد، ينجم عنها سيل كبير، يحمل معه كل شيء يجده في طريقه. ولذا يجب أن يبقى الناس بعيدين عن السيل لتفادي أخطاره المتكررة. وأفضل السبل للتخفيف من خطر السيول، بناء السدود، لتحويل مجرى السيل إلى مكان آخر، وهذا ما عمله سكان الجاهلية. أما في العصر الإسلامي فقد كانت حماية المسجد الحرام ـ وكذلك المسعى (شكل رقم ١) ـ من أخطار السيول، هدفاً يسعى المسلمون إلى تحقيقه عبر كافة العصور. إن نظرة على مخطط المدينة تظهر أن المكانين (المسعى والحرم) يقعان في منتصف الطريق، التي يسلكها السيل من الجهة العليا للمدينة (المعلى)، إلى الجهة السفلى (المسفلة)، وهما معرضان بالدرجة الأولى إلى قوة جريان الماء المدمرة، إضافة إلى ما يخلفه السيل بعد انحساره من الطين والغرين.

السدود

تحويل مجرى السيل

لقد بنى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سداً كبيراً من الحجارة الكبيرة والتراب، إثر سيل داهم مكة أثناء سني حكمه[1]. ويعتقد بعضهم أن ارتفاع هذا السد، هو في حدود ارتفاع منطقة المدعى الحالية (شكل (١) رقم ٢٢) وبذلك حول مسار الماء في الجهة العليا من المدينة إلى اليمين وإلى اليسار، ووجد الماء طريقه إلى أسفل المدينة بواسطة

= المشهورة، التي تم تعدادها حتى الآن في كتب لم تنشر بعد ١٠١٩هـ، ١٠٢٤هـ، ١٠٣٣هـ، ١٠٣٩هـ، ١٠٥٥هـ، ١٠٧٣هـ، ١٠٩١هـ، ١١٥٣هـ، ١٢٠٨هـ، ١٢٧٨هـ وكذلك ما كتبه صاحب منائح الكرم بأخبار مكة والحرم، وكذلك أحمد دحلان في أمراء البلد الحرام (المؤلف).

(١) يعرف هذا السيل بسيل «أم نهشل» لأنها ماتت فيه. وقد جرف السيل مقام إبراهيم إلى أسفل مكة، فلما علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك قدم إلى مكة في رمضان ١٧هـ، وحقق عن الموضع الذي اقتلع منه مقام إبراهيم، حتى تأكد له فأعاده إليه. ثم عالج موضوع السيل بأن أمر بردم أرض المدعى، لتعلو عن مستوى السيل، ليجري في مسيله بوادي إبراهيم. وهو ردم بني جمح، وقد كبس بالتراب والصخر العظام، فكان الركبان والمشاة يصعدون في الطريق المردوم حتى يشرفون في نهايته على الكعبة، لذلك سميت المنطقة بالمدعى. (السباعي ١٣٩٩هـ، ص٨٤).

شارعين رئيسين على جانبي المسجد. وفي عام ٧٠٠م (٨٠هـ) وإثر سيل آخر داهم المدينة، ظهر أن الترتيبات التي أقيمت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، غير كافية؛ لذا كلف الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مهندساً معمارياً مسيحياً بالقيام بإجراء الإصلاحات الضرورية، وإقامة المنشآت اللازمة لتحويل الماء عن المسجد الحرام[١]. ومن الجدير بالذكر أن الأمويين أرسلوا بنائين من النصارى لبناء المسجد في مكة. وأن المنع الصارم لغير المسلمين من دخول المدينة المقدسة قد بدأ في عصر العباسيين.

يسجل المؤرخون المكيون سلسلة طويلة من تلك الفيضانات الناجمة عن السيول، التي ينجم عنها خراب الكثير من المساكن، إضافة إلى غرق الناس والدواب، ويبقى الماء في المسجد لعدة أيام[٢]. ويعاني المسجد الحرام والبيوت الأثرية من السيول أكثر مما تعانيه المباني السكنية، نتيجة لما يخلفه الماء من طمي وطين، يستقر في صحن المسجد الذي يصبح وكأنه حوض ضخم وعميق يتوسط المدينة بأسرها.

إزالة الإرسابات

ان بيت النبي ﷺ، وحانوت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ (كلا الاثنين في زقاق الحجر (شكل (١) رقم ٢٥) وكذلك مكان مولد الرسول ﷺ، ومكان مولد علي رضي الله عنه، الاثنان في شعب بني هاشم (شكل (١) رقم ٢٠) وأماكن أخرى يقوم الناس بزيارتها، جميعها تبدو الآن (١٨٨٥م، ١٣٠٣هـ) وكأنها تقع تحت سطح الأرض. وسبب ذلك أن أرض

---

(١) ذكر الأزرقي أنه حدث في عام ٨٠هـ، في خلافة عبدالملك بن مروان، سيل عظيم، سمي بسيل الجحاف، وقد صبح الناس يوم التروية، ودخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة، وهدم الدور والشوارع على الوادي، وقتل خلق كثير، فكتب عبدالملك إلى عامله على مكة بإصلاح ما تهدم، وتحصين دور الناس المطلة على الحرم. وعمل ردماً يقال له ردم الحزامية، لمنع الماء من دخول الحرم. ومن الجدير بالذكر أن الأزرقي قد ذكر أن عبدالملك بعث رجلاً نصرانياً مهندساً لإجراء هذه الترميمات (الأزرقي ج٢ ص١٦٨).

(٢) ومن الجدير بالذكر أن مؤرخي مكة المكرمة جميعهم كالأزرقي والفاكهي والفاسي والغازي ذكروا الكثير من هذه السيول وأضرارها وقد ذكر الشيخ محمد طاهر الكردي في مؤلفه التاريخ القويم لمكة وبلد الله الكريم حتى عام ١٣٨٤هـ. وبعد هذا التاريخ جاء سيل ١٣٨٧هـ، ثم تلاه سيل الربوع في ٤/١١/١٣٨٨هـ، وكذلك سيل عام ١٣٩٩هـ.

المدينة المقدسة ترتفع تدريجياً، نتيجة الطين الذي يحمله السيل، بالرغم من أن الناس يقومون بتنظيف هذه الرواسب باستمرار. من الجدير بالذكر أن الصفا والمروة كانتا تلتين مرتفعتين، لكنهما الآن لا ترتفعان إلا قليلاً عن مستوى الشارع. وبالرغم من أنه يتم رفع قواعد البناء لأي مبانٍ جديدة، فقد تم الحفاظ على ارتفاع الأماكن المقدسة على ماهي عليه، بحيث تبدو ارتفاعاتها أخفض من أي مكان آخر. ومن هنا أصبح من الضروري، وابتداء من آخر توسعة للمسجد أن تبنى الدرجات الحجرية في مداخل الأبواب، لمنع ماء السيل من الدخول إلى المسجد، ففي كل بوابة يوجد عدة درجات، ترتفع تدريجياً إلى أعلى، ثم تنخفض تدريجياً درجات أخرى مشابهة، يمكن النزول منها إلى رواق المسجد.

ومن الجدير بالذكر أن رواق المسجد مرتفع هو الآخر، ارتفاعاً ملحوظاً عن الصحن، الذي تتوسطه الكعبة، والتي بدورها تقع في أخفض نقطة من هذا الصحن. ومادامت هذه الأدراج في مداخل الأبواب، فإنها تحمي المبنى من دخول الماء. ولابد من إجراء تعميقات حول المسجد كل عدة سنوات، لإزالة الأتربة المترسبة، لتسهيل عملية مرور الماء بسهولة على جوانب المسجد، وعدم الدخول إلى داخله[١].

لقد كان الإحساس بالخطر الداهم من هذه السيول ينغص المسؤولين وحكام البلاد في الأحوال العادية. وعندما يرتفع الماء حوالي المتر داخل المسجد، لابد من الانتظار قليلاً حتى ينخفض مستوى الماء، بعدها يقوم المسؤولون بشحذ الهمم واستنهاضها بادئين بأنفسهم بالإسهام في تنظيفه.

---

(١) ذكر القطبي أن الأرض خارج المسجد الحرام من الجانب الجنوبي، الذي يجري فيه السيل تعلو باستمرار؛ ولذا لا بد من وجود هذه الدرجات التي تقف عائقاً دون دخول الماء، غير أنه بمرور الزمن وكثرة الرواسب يعلو سطح الأرض، فيغطي هذه الدرجات، مما يسهل دخول ماء السيل إلى الحرم؛ ولذا لا بد من تعميق مجرى السيل كل عشر سنوات مرة تقريباً. (انظر القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ١٤٠٣هـ، ص١٢٨).

أقنية لتصريف السيول

لقد أمر السلطان مراد الثالث عام ١٥٧٦م (٩٨٣هـ)، إثر وقوع سيل مدمر، بتحويل مياه السيول القادمة من الجهة الشمالية الغربية إلى الجهة الغربية من المسجد، بواسطة قنوات تحت سطح الأرض[١]. كما قام بتوسيع مجرى الوادي، عن طريق هدم كل البيوت في الجهة الجنوبية الشرقية، وكذلك فقد أمر بتعميق مجرى الوادي في محلة المسفلة (شكل (١) رقم ٥). ومنذ ذلك الوقت تحسنت الظروف كثيراً عما كانت عليه. غير أن سجل الكوارث التي تحدثها السيول المتعاقبة يلازم سكان المدينة بصورة لا ينساها المكيون. فإذا هطلت الأمطار الغزيرة على المدينة المقدسة، تجري هذه المياه في معظمها نحو الغرب. غير أن المناطق المنخفضة من المدينة، وعلى رأسها المسجد الحرام، سرعان ما تغمر بالماء. فعلى سبيل المثال في عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)، كنت مرة في المسجد الحرام، حين بدأ نزول المطر، وبعد أقل من ربع ساعة، كان ارتفاع الماء حول الكعبة يزيد على القدمين، الأمر الذي يجعل هذا العطاء الإلهي الذي يجلب الخير والبركة، الذي ينتظره سكان الجزيرة العربية بفارغ الصبر، ينقلب أحياناً إلى كارثة تحل بالمدينة المقدسة.

الأسواق

تعتبر الصفا والمروة من شعائر الحج. وهما تلتان تقعان في بداية ونهاية أعرض شوارع المدينة المقدسة، وهو ما يعرف باسم المسعى (شارع المسعى). ويشكل القسم العلوي منه سوقاً مهمة ـ وفي الحقيقة فإن معظم شوارع المدينة الرئيسة هي أسواق ـ وعلى المقاعد الحجرية المبنية (الدكاك: جمع دكة) أمام المنازل، يعرض الباعة بضاعتهم. والسوق المتفرع من المسعى (سويقه) (شكل (١) رقم ٨) يشمل في كلتا جهتيه صفوفاً من

---

(١) ذكر السنجاري في أحداث عام ٩٨٣هـ، أن سيلاً عظيماً دخل الحرم، وملأ المطاف، وبلغ حد القفل لباب الكعبة، وتعطلت الجماعة سبعة أوقات، إلى أن تم تنظيفه من الطين، فبادر ناظر الحرم الشريف القاضي حسين المالكي والمعمار أحمد بيك في قطع مسيل وادي إبراهيم من الجانب الجنوبي، إلى أن ظهرت عشر درجات كانت مدفونة، فصار السيل إذا أتى انحدر بسهولة إلى المسفلة. وكذلك قطع من جهة باب الزيادة، من الجانب الشمالي، وجعل للسيل سرداباً من باب الزيادة إلى باب إبراهيم فأنصان المسجد.

المباني المجهزة على أساس أنها محلات تجارية (دكاكين)[1].

الأماكن التذكارية

إن إجلال وتعظيم بعض الأماكن التذكارية مثل البيوت التي ولد فيها الرسول ﷺ، وبعض الصحابة الكرام، أو البيوت التي سكنوا فيها، قد انتشرت منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام[2]. وقد استعملت هذه الأماكن كمراكز لحفظ أشياء مهمة مثل الحجر الأسود والحجر الأخضر الذي في الحِجْر تحت الميزاب. وحسب الأساطير المتأخرة فإن محمداً ﷺ أو علياً كرم الله وجهه قد استلم الحجر الأسود عند ولادته. وفي الحقيقة فإن معظم الحجارة، التي تنال شرف التقديس، لها المصدر نفسه الذي أخذت منه أحجار الكعبة ومقام إبراهيم. وفي زقاق الحجر الضيق (شكل (١) رقم ٢٥) يوجد حجران أسودان، مثبت كل واحد منهما على جهة من الشارع، ويقال إن أحدهما قد حيَّى محمداً ﷺ، بينما يلحظ في الثاني تجويفاً، يحفظ آثار

---

(١) هذا السوق كان يعرف باسم سويقة، وهو سوق قديم ذكره الأزرقي في أخبار مكة، وكان يقع ما بين المروة وقاعة الشفا، ويحوي دكاكين ومعارض لبيع الأقمشة، وقد أزيل في مشروع توسعة المسجد الحرام ١٣٧٥هـ (الغامدي وزملاؤه، مكة المكرمة في شذرات الذهب، مطبوعات نادي مكة، ١٤٠٥هـ، ص١١٢).

(٢) بدأ اهتمام حكام المسلمين الأوائل بالبيوتات الأثرية التي كانت للرسول ﷺ وصحابته الكرام. فقد روى الأزرقي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد اشترى منزل السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهو البيت الذي كان يسكنه الرسول ﷺ حتى الهجرة، فجعله مسجداً يصلى فيه. وقد عرف هذا البيت عند أهل مكة بمولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها. وروى الأزرقي كذلك أن الدار التي ولد فيها الرسول ﷺ، قد أخذها عقيل بن ابي طالب حين هاجر الرسول ﷺ، فلم تزل بيده حتى باعها ولده إلى محمد بن يوسف، أخي الحجاج ابن يوسف الثقفي، فأدخلها في داره. وحين حجت الخيزران، أم الخليفتين موسى الهادي وهارون الرشيد، اشترت دار ابن أبي يوسف، وأخرجت منها البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ وجعلته مسجداً (الأزرقي: ١٣٩٨هـ ج٢ ص١٩٨ ـ ١٩٩).
وقد وجد العديد من البيوتات الأخرى، مثل دار سيدنا حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، ودار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وغيرها، وأصبحت هذه الدور مزارات تقام عندها حلقات الذكر والموالد، وكثير من الأمور البدعية، ومظاهر التقديس، التي تأباها الشريعة الإسلامية وقد انتهت جميع هذه المظاهر مع بداية العهد السعودي لمكة.

كوع محمد ﷺ. وهذه الحجارة كلها تحترم وتعظم بالقدر نفسه[١].

إن زيارات الأضرحة والقبور المقدسة، سواء الموجود منها في مقبرة المعلاة شمال مكة، أو في المناطق المجاورة، أمر مألوف منذ القدم. والتقديس الزائف للموتى، قد زاد ازدياداً واضحاً مع مرور الزمن. ففي السابق كان الناس يزورون القبور الحقيقية لبعض الصحابة، مثل قبر عبدالله ابن الزبير، أو قبر عبدالله بن عمر، غير أنه في الفترة الحالية أصبح من المعروف أين دفنت خديجة زوج الرسول ﷺ[٢]، وأين دفنت آمنة أمه[٣]. ومنذ بداية الحكم التركي أصبحت القباب المقامة على الضريحين المزعومين، من أكثر مقدسات المعلى قيمة. أما القباب المقامة على قبور الأولياء والصوفيين والأشراف سواء في مقبرة المعلى أو مقبرة الشبيكة أو على جوانب الشوارع والطرقات فهي أكثر من أن تحصى[٤].

أما الجبال المقدسة القديمة مثل جبل أبي قبيس في الحدود الشرقية للمدينة، أو غار حراء في جبل النور في الشمال الغربي، أو غار ثور جنوب مكة، وكذلك عدد كبير من المرتفعات والكهوف المنتشرة على طول الطرق

---

(١) لم نجد فيما اطلعنا عليه من مراجع ما يكشف حقيقة ما ذكره المؤلف وربما تكون من الأمور البدعية التي انتشرت في مكة في تلك الفترة.

(٢) يوجد في مقبرة المعلى مكان يعرف بقبر السيدة خديجة رضي الله عنها. ويروي الجاسر أن هذا القبر كان مجهولاً، حتى كان منتصف القرن الثامن (٧٤٠هـ)، فرأى أحد الأولياء رؤيا بأن هذا الموضع هو قبر خديجة، ووصل الخبر إلى والي مكة، فعمل إشارة ثم عمل قبة فوق المقام، وقد أصبحت تعرف بقبر السيدة خديجة، وقد أزيلت القبة، وكذلك مظاهر التقديس لها، حينما دخل الملك عبد العزيز رحمه الله الحجاز. (الجاسر: الآثار في مكة المكرمة، محاضرة منشورة في إصدار اللجنة الثقافية العامة بجامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ، ص١٢٧).

(٣) الثابت تاريخياً أن آمنة أم الرسول ﷺ قد توفيت بالأبواء، وليس بمكة، وسيرد تفصيل ذلك في موضعه بالجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٤) لقد أزيلت جميع هذه القباب من على كافة القبور الموجودة في المعلى وفي غيرها من أحياء مكة المكرمة بعد دخول الملك عبدالعزيز الحجاز.

المؤدية إلى المشاعر المقدسة في منى وعرفات، فقد أضيف إليها أساطير مختلفة، تشجع على زيارة هذه الأماكن والصلاة فيها والتبرك بموجوداتها[1].

المباني المرموقة والشوارع الرئيسة

إن القادم من المشاعر المقدسة (منى وعرفات) إلى مكة يلحظ في حي المعابدة، وهو حي البدو الشمالي (شكل (١) رقم ٤١) بيتاً يمكن أن نطلق عليه في تلك المنطقة قصراً، وهذا القصر كان يقطنه الشريف الكبير عبدالمطلب، والذي أقصي من منصبه في الآونة الأخيرة. وإذا تجاوزنا القصر، تبدو لنا مقبرة المعلاة، والتي يمر الطريق منها متجهاً إلى أسفل، حيث الشارع الرئيس. وهناك بنى عمر بن الخطاب سداً أو ردماً في منطقة المدعى (شكل (١) رقم ٢٢). وإذا انحرف المرء إلى يمينه فإن الطريق توصله إلى حي القرارة (شكل (١) رقم ٩) حيث بنى الشريف الجديد المعين وأقرباؤه بيوتاً حكومية للسكن. أما قصور الشريف الكبير الذي يحكم مكة وأخوه المتوفى (شكل (١) رقم ١٨، ١٩) فتقع على جانب الشارع الرئيس، الذي يجري السيل في وسطه، ويدعى شارع الغزة. والسيل يجرى عبر حي الغزة، وسوق الليل ـ حيث كان منزلي فيه بالقشاشية ـ وهما يحويان صفوفاً من البيوت الأنيقة من كلا الجانبين. وعلى الزواية حيث ينتهي هذا الشارع بالمسعى (شكل (١) رقم ٢٤) يقع مقر الوالي العثماني عثمان باشا (١٨٨٢ ـ ١٨٨٦م) (١٢٩٩ ـ ١٣٠٣هـ) حيث يقطن ويزاول عمله هناك[2]. (شكل (١) رقم ٣٢).

---

(١) لقد أورد المؤلف ذكر العديد من المزارات والجبال بصورة تفصيلية بالجزء الثاني من هذا الكتاب لذا سنرجئ الحديث عنها والتعليق عليها إلى الفصول اللاحقة.

(٢) عثمان نوري باشا: عين قومنداناً للعساكر (قائد عسكري) ليساعد والي الحجاز أحمد عزت باشا، ثم ما لبث أن عين والياً على الحجاز، خلفاً لأحمد عزت باشا بتاريخ ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م. وقد قام هذا الوالي بإصلاحات عديدة منها إزالة بعض العوائق من صحن المسجد الحرام، وبناء قسم للشرطة في الصفا، وكذلك إنشاء دار الحكومة التي سميت بالحميدية، وأدخل المطبعة والتلغراف إلى مكة، وأنشأ مستشفى بمنى. إضافة إلى مورد مائي عند مسجد الخيف (انظر مغربي ١٤١٠هـ، ص١٢١ ـ ١٣٠ نقلاً عن تاج تواريخ البشر لأحمد الحضراوي (مخطوط).

تتكون الأحياء الداخلية من المدينة، من عدد من الأزقة شبه المظلمة، والمنتشرة بصورة غير منظمة. أما الشوارع العريضة، ذات البيوت المكونة من ثلاثة طوابق أو أكثر، فتعطي الانطباع العصري عن المدينة المقدسة، ويبدو أن البيوت تحتوي على طوابق أكثر مما يظهر، وذلك لأن أسطح المنازل التي تستعمل كمكان للنوم في أيام الصيف الحارة (الخارجة)، محاطة من جميع جهاتها بجدران صغيرة من الطوب المشوي.

مظهر مكة العام

إن منظر المدينة العام، وكذلك منظر مسجدها الحرام، يعطيان الزائر انطباعاً لمزيج نادر من الحضارات المتمايزة، فهناك أكواخ البدو البائسة، وهناك مساكن الزنوج (التكارنة) الشبيهة بخلايا النحل، وهناك المساكن الحكومية التي يشاهدها المرء في معظم المدن الإسلامية. وفي الوقت الحالي نشاهد المباني الحديثة والأنيقة، ومنها المبنى الحكومي الذي بناه عثمان باشا، والمسمى باسم السلطان (الحميدية، شكل (١) رقم ٣١) والذي يشاهد المرء من جهته الأمامية مؤخرة المسجد الحرام (الجزء العلوي من صورة رقم ٥). وفي الخلف تقوم القلعة الكبيرة [قلعة أجياد] التي تم إصلاحها من قبل الباشا. وهناك مبنى الشرطة القديم[1] (شكل (١) رقم ٤٣) الذي بناه الباشا مقابل بيته بالقرب من الصفا. وهناك القلعة الجديدة على جبل هندي[2]. وهناك الشارعان اللذان يمتدان باتجاه الجنوب والغرب من المسجد، وهما المدعى والغزة، ويكملهما سوق الليل والقشاشية، وهذه الأماكن جميعها متميزة في مبانيها، وفيما عدا ذلك فيظهر النمط المتشابه في

---

(١) يعرف أهل مكة هذا المكان باسم القرة قول (كركون الصفا).

(٢) يعرف جبل هندي باسم قعيقعان وهو أحد أخشبي مكة. وعرف بذلك لسكنى الهنود بجواره. وقعيقعان جبل ضخم، مشرف على المسجد الحرام، وكان في أعلى هذا الجبل قلعة، تعرف باسم قلعة جبل هندي. وقد أزيلت مؤخراً، وقام مكانها مدرسة عرفات المتوسطة، وبجوارها محطة إرسال إذاعة نداء الإسلام. وقد أزيلت المدرسة والمحطة وكل ما يحيط بها من عمران في حي الشامية ضمن مشروع توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز للمسجد الحرام من الجهة الشمالية عام ١٤٢٩هـ.

مختلف أحياء المدينة الأخرى[١].

لقد وهب الله هذه المدينة، وحرمها المحيط بها من جميع جهاتها، الأمن المطلق والسلام الأبدي. ومن المفروض أن تراعى هذه الحرمة بالنسبة للناس والدواب والنبات. وحرمة البيت أمر متعارف عليه منذ الجاهلية، وقد أكد الرسول ﷺ هذه الحرمة في الإسلام بعد فتح مكة[٢].

غير أنه من المؤسف حقّاً أن هذه الحرمة لم تراعَ في كثير من عهود التاريخ، الأمر الذي برز معه الخلاف على أشده بين الفرقاء، وظهرت معه المنازعات والخصومات، وهذا ما سوف نلقي عليه الضوء من خلال تطور الحياة السياسية في المدينة المقدسة.

---

(١) الطريق المتجهة من المعلى إلى المسجد الحرام تتفرع عند مسجد الراية إلى فرعين: أحدهما يسير عبر الجودرية والمدعى إلى المسعى، ومن ثم يواصل سيره عبر سويقة، التي دخلت في التوسعة الغربية للحرم، إلى الشبيكة فحارة الباب. أما الطريق الثاني فيتجه نحو المسجد الحرام، ويمر عبر الغزة وسوق الليل والقشاشية، ثم يصل إلى الصفا، ويتجه نحو أجياد فالمسفلة. وعلى طول هذين الشارعين تقوم العمارات العالية التي يسكنها علية القوم في مكة.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح، فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله عز وجل إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا يُنَفّر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم قال: إلا الإذخر (متفق عليه) (محب الدين الطبري، القرى لقاصد أم القرى، ١٣٩٠هـ ط٢ ص٦٣٥).

الفصل الثّاني

مكّة المكرّمة في عصر الخلفاء من نشوء دولة الأشراف حتى عام ١٢٠٠م (٥٩٧هـ)

مكة في عهد الرسول الكريم

فتح محمد ﷺ مدينة آبائه بعد سبع سنين من الجهاد المستمر. ولقد كانت قريش أول أمرها مقتنعة بقوة الدين الجديد، أكثر من اقتناعها بصدق الرسالة والنبوة. وقد سهل النبي ﷺ لأهل مكة الانتقال إلى حظيرة الإسلام، عن طريق إعطائهم المزيد من الامتيازات. وقد أصبح هؤلاء مسلمين حقاً، بعد أن رأوا أن طريق العظمة الوحيد، هو طريق الإسلام الذي سلكوه. وقد أصبحت مكة مركزاً مهماً من مراكز الإسلام فيما بعد، بإبقاء الإسلام لشعيرة الحج، وكذلك بقيت مركزاً مرموقاً للتجارة. وقد عين الرسول الكريم ﷺ قبل رحيله إلى المدينة المنورة حاكماً في مكة[١] ينتمي إلى إحدى العائلات المرموقة[٢]. وكان قد أسلم حديثاً.

ولمّا توفي الرسول ﷺ، واستخلف المسلمون أبا بكر الصديق، هم بعض أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، فخافهم الوالي فتوارى عن الأنظار. ولما تراجع الناس عما هموا به، عاد الوالي إلى ممارسة صلاحياته[٣].

---

(١) ولي أمر مكة بعد الفتح عتاب بن أسيد. وكان قد أسلم يوم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

(٢) كان عتاب من أفاضل بني أمية ينتهي نسبه إلى قصي بن كلاب.

(٣) جاء في كتاب الكامل لابن الأثير أنه لما سمع أهل مكة بموته (الرسول ﷺ) هم أكثرهم بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل ابن عمرو على باب الكعبة، وصاح بهم فاجتمعوا إليه، فخطبهم ووعظهم ونهاهم عن الردة. فتراجع الناس عما هموا به وظهر عتاب بن أسيد (ابن الأثير ج٢ ص٣٢٤).

مكة في عهد الراشدين

وفي عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول (٦٣٢ ـ ٦٥٦م) (١١ ـ ٣٦هـ) كانت إدارة مكة في أيدي نفر من أبنائها[١] وهم في الغالب من زعماء قريش. ولم يكن لشخص والي مكة خلال هذه الفترة إلا أهمية نسبية. ويبدو ذلك واضحاً من أن المؤرخين مختلفون في ترتيب حكم هؤلاء ومدتهم، الذين ولوا أمر مكة إبان هذه الفترة. وهناك استثناءان يستحقان الذكر: أحدهما أن أحد ولاة عمر بن الخطاب[٢] رضي الله عنه استخلف على مكة أحد مواليه، حينما سافر لمقابلة الخليفة رضي الله عنه عمر ببلدة عسفان. فقال عمر للوالي: من استخلفت على مكة من بعدك؟ فقال: استخلفت عليهم رجلاً من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: إن الله عز وجل يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين. أما الثاني فهو تعيين أحد الحضارمة أميراً على مكة في خلافة عثمان[٣]. وفي هذا دلالة على أن حضرموت كانت ترسل بالمهاجرين إلى مكة، منذ عصر ماقبل الإسلام. وأنهم منذ ذلك الوقت كانوا يعتبرون مواطنين. وأن الوثائق التاريخية القديمة تثبت أهمية هذا الشعب وأثره في المدينة المقدسة.

كان يلي شؤون الحج في الجاهلية أحد القرشيين، الذي يتولى قيادة جموع الحجيج، أثناء تنقلها بين المشاعر المقدسة، ويحافظ على الأمن والنظام، اثناء حلها وترحالها بين مناطق النسك المختلفة. ولما جاء الإسلام، كان يأتي مكة في كل عام من مقر الخلافة (في البداية كان من المدينة) وفد كبير من الحجاج، يرأسه الخليفة أو من ينيبه عنه. أما القيادة أثناء الحج فكانت تعطى له أو لحاكم مكة. وقد حفلت كتب التاريخ بذكر

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٣٨٠ ـ ٣٨١، ج٢ ص١٧ ـ ٣٦ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ١٥٨ ـ ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٢) هذا الوالي يدعى نافع بن عبدالحارث ولي مكة لعمر بن الخطاب. وكان قد استخلف عبد الرحمن بن ابزي مولى بني خزاعة.

(٣) هذا الوالي هو عبدالله بن عامر الحضرمي كان عامل مكة سنة خمس وثلاثين من الهجرة. (انظر الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص١٦٥ وكذلك ابن الأثير ج٣ ص١٨٦ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٤٠، ٤٦١، ٤٨٦).

أسماء الأشخاص، الذين حظوا بشرف إمارة الحج، وسوف نورد بعض أسماء هؤلاء ممن لهم أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ هذه المدينة المقدسة.

لقد شكل اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بداية حقبة جديدة في تاريخ المدينتين المقدستين ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ. فقد برز زعماء مكة (الأرستقراطيون) في الجاهلية، ألا وهم الأمويون، الذين كانوا أقل شأناً من غيرهم في أوائل الدولة الإسلامية. لقد وجد هؤلاء، من خلال ذكائهم وشجاعتهم، الفرصة سانحة لكسب الزعامة، التي عجزوا عن الوصول إليها عن طريق سابقتهم في الاسلام، ولا سيما قد توسعت من خلال الفتوحات رقعة الدولة الإسلامية من منطقة صغيرة محدودة إلى إمبراطورية عظمى ممتدة الأطراف.

لقد كان اغتيال عثمان بن عفان رضي الله عنه قريبهم، والذي تم ربما بمساعدة من علي بن أبي طالب[١] كرم الله وجهه قد أزال كافة التحفظات لدى الأمويين. فقد رفعوا رؤوسهم وبدؤوا يتحدثون عن السلطة علناً في الحجاز، أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته، فلم يحالفه الحظ منذ توليه الخلافة. فقد خرج عليه الأمويون، كما وجد نفسه أمام معارضة من بعض الصحابة، وزاد الأمور سوءًا أن انفصل عنه بعد وقت قصير الخوارج الأشداء. لقد كانت اليد الأولى التي صافحته بالبيعة شلاًّء[٢]. وهكذا فقد كانت محاولاته ومحاولات أحفاده العديدة للاستمرار بالسلطة غير مثمرة.

لقد كان على علي بن أبي طالب أن يسافر بعد تسلمه مقاليد الحكم إلى العراق لقتال الخصوم؛ وهكذا انتقل مركز الثقل السياسي من المدينة المنورة إلى

---

(١) إن هذا القول عارٍ عن الصِّحَّة، لأن علياً كرّم الله وجهه أرسل ولديه الحسن والحسين ليقوما مع مجموعة من الصحابة بحراسة بيت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ غير أن الخليفة عثمان أصرّ على الجميع بالذهاب إلى بيوتهم، وأقسم عليهم بذلك، فما كان منهم إلا أن استجابوا لطلبه على مضض. وقد قال سيدنا علي كرم الله وجهه مرةً حينما سئل عن هذا الموقف «فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به» (انظر ابن الأثير ج٣ ص ١٧٤).

(٢) ابن الأثير، ج٣ ص١٩١.

خارج الجزيرة العربية. وقد أصاب أحد أصدقائه حينما قال له: لاتغادر المدينة؛ لأنه إن غادرتها فلن يأتي أمير للمؤمنين إلى هنا مرة أخرى[١]. لكن علياً لم يستطع أن يتصرف خلاف ذلك. وقد أمضى علي ـ رضي الله عنه ـ سنواته الخمس وحتى اغتياله عام ٦٦١م (٤٠هـ) في محاولة التغلب على الخصوم، وتثبيت أركان الدولة، دون أن يحرز نجاحاً كبيراً في هذا السبيل. وفي خلال هذه الفترة أبعدت الحروب التي دارت بين المسلمين انفسهم معظم سكان مكة الأقوياء عن موطنهم إلى مناطق القتال، ولم يبق في المدينة المقدسة سوى الذين اعتزلوا الفتنة وباعوا الدنيا، أو أولئك الذين خلدت أنفسهم إلى الدعة والراحة. والفريق الثاني كان لا يمانع في مبايعة هذا أو ذاك من الفرقاء المتنازعين. لقد ولّى علي قبل خروجه أحد أبناء عمه ـ من بيت العباس ـ أميراً على مكة. وكان قد عين أحد الأنصار أميراً عليها في السابق[٢]. وأثناء النزاع بين علي ومعاوية كان كل فريق يرسل وفداً للحج. وكان لكل وفد أميره الخاص. وعندما وصل الوفدان عام ٦٦٠م (٣٩هـ)؛ وعلى رأس كل منهما أمير، أعطى الطرفان إمارة الحج لشخص ثالث محايد اثناء فترة الحج[٣].

مكة في عهد الأمويين

لقد دان المسلمون في النهاية إلى سلطة الأمويين، الذين برزوا بصفتهم سادة أذكياء عالميا، كمابرزت دمشق بصفتها عاصمة جديدة للدولة الإسلامية.

وخلال التسعة عشر عاماً التي قضاها معاوية في الحكم ـ ذلك السياسي البارع، المتدفق بالحيوية ـ انضم معظم الصحابة مع انصار علي بن أبي طالب إلى صفوف المعارضة. غير أن أحداً لم يجرؤ على الظهور. فقد كان الخليفة الجديد يروض المعارضين بالتهديد حين لاتنجح الهبات والوعود في

---

(١) ابن الأثير، ج٣ ص٢٢٢.

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة أن علياً ولى أبا قتادة الأنصاري على مكة وهو فارس رسول الله ﷺ الحارث بن ربعي، وقيل النعمان بن ربعي، وقيل غير ذلك، ثم قثم بن العباس ابن عبدالمطلب، ابن عم رسول الله ﷺ بعد عزل أبي قتادة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٦٣ ـ ١٦٤ و ٢٣٤).

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٣٤ وابن الأثير ج٣ ص٣٧٨.

ذلك. لقد استطاع أن يضمن ولاء الحسن أكبر أبناء علي بن أبي طالب. أما الابن الثاني وهو الحسين فقد وضع السيف أمامه ليضمن مبايعته ليزيد. أما ولاته على مكة فقد كان معظمهم من الأمويين وبعضهم الآخر من القرشيين الموالين له[١]. والمؤرخون لا يذكرون من ولاة مكة إلا القليل، على عكس ولاة المدينة، الذين حظوا باهتمام أكبر، من قبل المؤرخين المسلمين.

لقد بقيت المدينة المنورة عاصمة الجزيرة العربية، بعد أن كانت خلال نصف القرن الماضي، عاصمة للدولة الإسلامية برمتها. والمدينة بحكم موقعها، أقرب إلى العاصمة الجديدة، وتحتاج القافلة بين مكة والمدينة إلى عشرة أيام، بينما يحتاج القارب السريع[٢] إلى أربعة أو خمسة أيام فقط. لذلك كانت الأوامر والتعليمات تصل إلى مكة عن طريق المدينة. فقد كانت مكة تتبع إدارياً المدينة، كما تتبع الطائف مكة، التي تبعد عنها يومين أو ثلاثة باتجاه الشرق. وفي بعض الأحيان كان الحجاز بأسره، ومناطق اليمامة، تدار من قبل أمير يقيم في المدينة، وله ممثلون في المناطق الأخرى. وعندما عين معاوية أحد أقاربه أميراً على الطائف، قال الناس إنه يتعلم الحروف الهجائية، وعندما أضيفت إلى سلطته مكة المكرمة قيل إنه بدأ يقرأ القرآن، وعندما أسند إليه أمر المدينة المنورة قيل بأنه قد حفظ القرآن كله[٣].

قوى المعارضة

لقد انتظرت القوى المعارضة للأمويين الفرصة المناسبة للخروج عليهم. وكانت معظم هذه القوى موجودة في المدينتين المقدستين، إضافة إلى

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٤١، ٤٢، ٦٤.

(٢) المقصود بالقارب السريع هنا الرحلة البحرية من ميناء الجار إلى جدة حيث كانت الرحلة بينهما تستغرق ما بين أربعة إلى خمسة أيام.

(٣) قال الطبري: وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً، جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو في أبي جاد (أي في أول الأمر، أبجد هوّز)، فإذا ولاه مكة قيل فيه: هو في القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق (الطبري ج٢ ص١٦٧).

الأقاليم الأخرى. وبوفاة معاوية، بدا وكأن الفرصة قد واتت هؤلاء، فقد رفض عبدالله ابن الزبير، والحسين بن علي البيعة ليزيد، وخرجا من المدينة إلى مكة لتنظيم صفوف المعارضة. واتجه الحسين بن علي وربما بنصيحة من ابن الزبير إلى العراق، حيث يكثر أنصاره ومؤيدوه، بالرغم من الشكوك في ولائهم له. وفي معركة غير متكافئة، وبعد أن خذله مؤيدوه، قتل مع عشرين من أهل بيته بالقرب من تاف (كربلاء)[١]. وهكذا قضي على الرغبة الكامنة في نفوس أبناء علي في الوصول إلى الخلافة. وقد كان هؤلاء يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم. فكانوا ضحية الطموح الذي لم يتحقق.

خلافة ابن الزبير

لقد زاد موت الحسين من تعصب الشيعة العلويين، غير أنه لم يزد في فعالية الحركة الشيعية. أما زعيم المعارضة في مكة عبدالله بن الزبير، فقد كثر أتباعه خارج الجزيرة العربية، مما ساعده على المطالبة بالخلافة لنفسه. ولم يستطع ولاة يزيد أن يمارسوا حكمهم سوى عام ونصف تقريباً، حيث طردوا من الأماكن المقدسة عام ٦٨٢م (٦٢هـ). ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ٦٩٢م (٧٣هـ)، فقد أطلق مؤرخو مكة لقب الخليفة على ابن الزبير، معتبرين مكة المكرمة هي عاصمة الخلافة الإسلامية[٢]. غير أنه في عام ٦٨٣م (٦٣هـ) تغلب جنود يزيد في معركة حامية الوطيس، وأعادوا المدينة المنورة لسلطتهم. وكاد هذا يقع في مكة موطن ابن الزبير. غير أن موت يزيد أدى إلى سحب القوات الغازية، وعودتها إلى العاصمة دمشق. لقد أعاقت الخلافات التي نشبت بين الأمويين لتولي السلطة، وكذلك الحركات المناوئة للخلافة الأموية في العراق، القضاء على حركة ابن الزبير، حيث بقيت مكة المكرمة مركزاً سياسياً، وأصبحت المدينة المنورة تابعة لها، وتدار من هناك طوال تلك الفترة.

غير أنه في عام ٦٩٢م (٧٧هـ) قدم الوالي الأموي، ذو القبضة الحديدية، الحجاج بن يوسف الثقفي بجيش لقن فيه سكان الحرمين درساً قاسياً، مظهراً

---

(١) الطبري، ج٢ ص٢٧٥.

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٨.

لهم أن عدم طاعة الأمويين خطيئة تستحق الموت. ورغم قدسية مكة فقد هوجمت بالنار والسيف. وقتل ابن الزبير (سيدنا ابن الزبير حسب التعبير المكي)،وبموته انتهت حركة التمرد ضد الأمويين. ويمكن القول إن مؤيدي ابن الزبير كانوا أقرب إلى الدين من خصومهم. وإنهم يمثلون من بقي من الصحابة، الذين لم يستطيعوا أن يرضوا بالوضع الجديد القائم منذ عهد الأمويين. ولقد أصبح هؤلاء فيما بعد أبطال عقيدة الشعب. وقد شهدت هذه الفترة اضطراباً سياسياً على مستوى الدولة بأسرها، ويكفي أن نذكر أن قافلة الحج في مكة المكرمة كانت تحت أربع رايات متنازعة. راية ابن الزبير الذي يمثل الخلافة المكية، وثلاث رايات أخرى إحداها تمثل الخلافة الأموية، وثانية تمثل الشيعة، وأخرى تمثل الخوارج، وقد تم اتفاق الفئات الأربع على أن يقود كل فريق جماعته ويحمل رايته الخاصة به أثناء فترة الحج[١].

الحركة العلمية

لقد انصرف سكان الحرمين الشريفين في العصور التي تلت إلى المجال الفكري. ذلك المجال الذي تربوا فيه أيام الصحابة، والذي لا يستطيع رجال السلطة منازعتهم فيه. ولقد ترك الأمويون معرفة القرآن والحديث وتطور التشريع لهؤلاء، واكتفوا بالسلطة الدنيوية، فقامت في المدينة المنورة أقدم مدرسة لدراسة التشريع، وبقي اسم الحرمين الشريفين مناراً لدراسة أمور العقيدة. وكثرت المدارس الفكرية، كما كثرت وجهات النظر المختلفة حول القضايا المطروحة. وأصبح هؤلاء العلماء يقدمون المثل الأعلى لغيرهم في الحرمين الشريفين، الأمر الذي ساعد على نوع من عدم الرضا على السلطة. فوجد عدد لابأس به من الموالين للحركات المطالبة بالوصول إلى الحكم، والتي كانت تنتظر الفرصة المواتية لذلك. وقد كان الحكام يعرفون هذه التوجهات لدى قطاع كبير من سكان الحرمين، غير أنهم لم يقوموا بالقضاء على ذلك، مادام لم يكن هناك أخطار تهددهم، لابل كان الحكام يهتمون بشؤون الحرمين، ولايناصبون أهلها العداء، لأنهم لو فعلوا ذلك أصبحوا

---

(١) الطبري ج٢ ص٧٨٢ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٣٥.

غير محبوبين في مختلف أوساط العالم الإسلامي. وترينا قصة سعيد ابن المسيب مع الوليد بن عبدالملك، أثناء وجوده في المدينة، في موسم حج عام ٧١٠م (٩١هـ) مقدار الاحترام والتقدير لأهل الحرمين الشريفين[١].

ولاة مكة والمدينة

بعد عودة السيادة الأموية إلى الحجاز أصبحت المدينة المنورة عاصمة الجزيرة العربية، بعد أن كانت العاصمة مكة المكرمة أيام ابن الزبير؛ لذا من الطبيعي أن نجد أن المؤرخين يهتمون بذكر ولاة المدينة حسب السنين، غير أن مثل هذه المعلومات لم تكن كاملة بالنسبة لمكة[٢]. فقد كان يرد اسم ولاة مكة، إذا عين الوالي على المدينة، ثم أضيفت إليه مكة أو الطائف، أو إذا عين أمير المدينة من ينوب عنه في تلك المدن. ومن استعراض قائمة أسماء الولاة نجد أن معظمهم من الأمويين، أو من العاملين المخلصين لبني أمية. لقد أخذ بعض هؤلاء الولاة السكان بالشدة والحزم، وحتى عندما نزل

---

(١) ذكر الطبري في أخبار سنة ٩١هـ، أن الوليد بن عبدالملك حج في هذه السنة، فمر بالمدينة المنورة في طريقه إلى مكة. فلما دخل المدينة غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه. فأخرج الناس منه، فما ترك فيه أحد، وبقي سعيد بن المسيب في مصلاه ما يجترئ أحد من الحراس أن يخرجه، فقيل له لو قمت قال: والله لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. قيل: فلو سلمت على أمير المؤمنين قال: والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبدالعزيز: فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد، رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة، فقال من ذلك الجالس ـ أهو الشيخ سعيد بن المسيب ـ فجعل عمر يقول: نعم يا أمير المؤمنين. ومن حاله ومن حاله... ولو علم بمكانك، لقام فسلم عليك، وهو ضعيف البصر. قال الوليد: قد علمت حاله، ونحن نأتيه فنسلم عليه. فدار في المسجد حتى وقف على القبر، ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟ فوالله ماتحرك سعيد ولا قام، فقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ قال الوليد: بخير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقلت: أجل يا أمير المؤمنين (الطبري، ج٢، ص١٢٣٢).

(٢) يذكر الطبري ويتابعه ابن الأثير أسماء الولاة في المدينتين المقدستين. ومن خلال مقارنة المصدرين التاريخيين نجد بعض الاختلافات في الترتيب الزمني. وقد ذكر الفاسي جميع هؤلاء الولاة. وسوف لن نتناول قائمة هؤلاء جميعاً. إذ إنه من السهل الرجوع إليها في المصادر التاريخية السابقة (انظر الطبري ج٢، ص٧٥٤، ٨٧٣، ٩٤٠وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢، ص١٧١، وكذلك ج١، ص٣٩٧، ٤٠٠، و ج٢ ص٣٦، ٤٢، ٤٤، ٨٦) (المؤلف).

الوليد بن عبدالملك (٧٠٥ ـ ٧١٥م) (٨٦ ـ ٩٦هـ) عند رغبات السكان في المدينة، وعين عليهم الأمير العادل عمر بن عبدالعزيز، الذي أخذ رغبات السكان بعين الاعتبار، اضطر الخليفة إلى عزله، واتخاذ إجراءات صارمة ضد عدم الانضباط[١]. لقد كان بعض الولاة مضطرين إلى اتخاذ إجراءات شديدة لحفظ الأمن، على غرار ما فعله خالد القسري أثناء ولايته لمكة. فقد كان صارماً في تعامله مع سكان المدينة المقدسة[٢]. وقد كان هو الشخص الذي حاول استبدال شبكة مياه جرها إلى المسجد الحرام بمياه زمزم.

ما يُعَيَّر به أهل مكة والمدينة

لقد كان سكان المدينتين المقدستين يستغلون أي ضعف من قبل السلطة الحاكمة لمصلحتهم. فقد كانت الثورة والعصيان من اختصاص تلك المدن، التي تغير طابعها تغييراً كلياً، تحت تأثير المجريات التاريخية، عبر القرنين الأولين للإسلام. لقد كان سكان المدينتين المقدستين يوصفون بأنهم: «أناس

---

(١) روى الطبري أن سبب عزل الخليفة لعامله عمر بن عبدالعزيز، أن عمر كتب إلى الخليفة الوليد يخبره بجور الحجاج على أهل العراق، واعتدائه عليهم، وظلمه لهم بغير حق ولا جناية. وقد بلغ ذلك الحجاج فكتب إلى الوليد: إن من قبلي من مرَّاق العراق، وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق، ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر علي لرجلين، فكتب إليه يشير إليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبدالله، فولى خالداً مكة، وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبدالعزيز (الطبري ج٢ ص١٢٥٤).

(٢) يستدل لذلك مما قاله خالد بن عبدالله القسري كما روى ذلك الطبري حيث قال: «يا أيها الناس إنكم بأعظم بلاد الله حرمة، وهي التي اختار الله من البلدان، فوضع بها بيته، ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلاً. أيها الناس فعليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات، فإني والله ما أوتي بأحد، يطعن على إمامه، إلا صلبته في الحرم. إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلموا وأطيعوا، ولا تقولوا كيت وكيت. إنه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاءه. واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم، ويقيمون في بلادكم، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائف عن الجماعة، فإني لا أجد أحداً منهم في منزل أحدكم، إلا هدمت منزله، فانظروا من تنزلون في منازلكم. وعليكم بالجماعة والطاعة، فإن الفرقة هي البلاء العظيم».

وكان خالد القسري يقول: والله لو أعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم، لو نطقت لم تقر بالطاعة، لأخرجتها من الحرم. إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة، زارٍ عليهم. (الطبري ج٢ ص١٢٣١).

مدللون،عاجزون عن القيام بالحروب»[١] «شاربو السويق»[٢] أهل البلاد «التي لا مال فيها ولا رجال، ولا سلاح ولا كراع»[٣]. «أولئك الذين تخلوا عن ابن الزبير في أحرج أوقاته»[٤]. أولئك الذين قال عنهم عبدالملك في عام ٦٩١م (٧١هـ) لعامله في الكوفة: قبح الله رأيك، كيف تبعث أخاك أعرابياً، من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يحيي المزاح؟[٥].

ويقول فيهم احد قادة العلويين، الذي قدم لإخضاع مكة، وقد حذره بعضهم من دخول المدينة «يابن الحائك، أبأهل مكة تخوفني، والله ما أبيت إلا بها أو أموت دونها»[٦]. لقد كانت خطب الولاة، التي ينفسون فيها عن

---

(١) ابن الأثير ج (٥) ص (١٩٧).

(٢) السويق هي شوربة طحين حلوة (المؤلف) وردت هذه العبارة بمناسبة حصار أهل المدينة لبعض أفراد بني سليم، الذين حبسهم القائد (بغا) في المدينة، فحاولوا الهروب من حبسهم، فحاصرهم أهل المدينة. وقد أذن مؤذن أهل المدينة، ليلة حراستهم لبني سليم بليل، ترهيباً لهم بطلوع الفجر، وأنهم قد أصبحوا، فجعل الأعراب يضحكون ويقولون: ياشربة السويق، تعلموننا بالليل ونحن أعلم به منكم (الطبري ج٣ ص١٣٤١).

(٣) روى الطبري أنه لما ظهر محمد [النفس الزكية] لم يأته نافع بن ثابت بن عبدالله بن الزبير، فأرسل محمد إليه، فأتاه وهو في دار مروان فقال: يا أبا عبدالله لم أرك جئتنا قال: ليس في ما تريد، فألح عليه محمد حتى قال: البس السلاح يتأس بك غيرك، فقال أيها الرجل إني والله ما أراك في شيء، خرجت في بلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح، وما أنا بمهلك نفسي معك، ولا معين على دمي، قال: انصرف، فلا شيء فيك بعد هذا (الطبري ج٣ ص٢١٧). وروى الطبري أن أبا جعفر المنصور دعا ابن حنظلة البهراني، وكان أبرص طوالاً، أعلم الناس بالحرب، وقد شهد مع مروان حروبه فقال: يا جعفر، قد ظهر محمد [يعني محمد النفس الزكية] فما عندك ـ قال: وأين ظهر ـ قال: بالمدينة. قال: فاحمد الله، ظهر حيث لامال ولارجال ولا سلاح ولا كراع، ابعث مولى لك تثق به فليسر حتى ينزل بوادي القرى، فيمنعه ميرة الشام، فيموت مكانه جوعاً (الطبري ج٣ ص٢٢٤).

(٤) روى الطبري عن المنذر بن جهم الأسدي قوله: رأيت ابن الزبير، يوم قتل وقد تفرق عنه أصحابه، وخذله من معه خذلانا شديداً، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحواً من عشرة آلاف، وذكر أنه ممن فارقه، وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أماناً (الطبري، ج٢ ص٨٤٥).

(٥) الطبري ج٢ ص٨٢٥، وكذلك ص١٣١٢.

(٦) هذا القول قاله الحسن بن معاوية، وقد أرسله محمد النفس الزكية لاحتلال مكة، فجاءه ابن =

غضبهم، حيال تصرفات سكان الحرمين والتي تحمل التهديد والوعيد لهؤلاء، تظهر صفات الاستعلاء والتمرد، التي يمتاز بها هؤلاء السكان[١].

لم يجد الخوارج في المدينتين المقدستين أذناً صاغية. وعلى العكس من ذلك فقد كانت المدينتان المقدستان بيئة خصبة لنشاطات العلويين السرية. وهنا لابد لنا من أن نشير إلى قصة الشيعة. وكتابة هذه القصة تستلزم إلقاء الأضواء على أسس قوة العلويين في غرب الجزيرة العربية.

ظهور مصطلح الشيعة

كلمة شيعة لا تعني في اللغة غير حزب [٢].. غير أنها استعملت منذ وقت مبكر وصفاً لحزب العلويين. وقد ظهر أمر الشيعة بعد اعتزال الصحابة للفتنة، وكذلك بعد الانتصارات الحاسمة على الخوارج، بحيث أصبح هؤلاء هم الحزب الوحيد، الذي يجد تمثيلاً له في كل مكان. وقد تزعم هؤلاء، المعارضة السرية والعلنية، في مختلف مناطق العالم الإسلامي، التي انتشروا فيها انتشاراً واسعاً.

لقد كان السبب الرئيس لعدم رضا علي بن أبي طالب، عن أبي بكر

= جريج فقال له: أيها الرجل، إنك والله ما أنت بواصل إلى مكة، وقد اجتمع أهلها مع السري (والي مكة يومئذ)، أتراك قاهراً قريشاً، وغاصبها على دارها؟ قال: «يابن الحائك، أبأهل مكة تخوفني، والله ما أبيت إلا بها أو أموت دونها» (الطبري ج٣ ص٢٢٠).

(١) من هذه الخطب خطبة خالد بن عبدالله القسري في أهل مكة، وقد ورد ذكرها فيما سبق ضمن هذا الكتاب وانظر الطبري ج٢ ص١٢٣١). ومن الخطب التي تحمل هذا المعنى وتجسده، خطبة عثمان بن حيان المريّ والي المدينة، وفيها يقول: «أيها الناس، إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه. وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً، أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق..». أيها الناس إنا والله مارأينا شعاراً قط مثل الأمن، ولا رأينا حلساً قط شراً من الخوف، فالزموا الطاعة، وإن عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف. والله ما أنتم بأصحاب قتال، فكونوا من أحلاس بيوتكم، وعضوا على النواجذ. فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم، إنكم في فضول كلام غيره ألزم لكم، فدعوا عيب الولاة، فإن الأمر إنما ينقص شيئاً شيئاً، حتى تكون الفتنة وإن الفتنة من البلاء. والفتن تذهب بالدين والمال والولد (الطبري ج٢ ص١٢٥٩).

(٢) كلمة شيعة استعملت بمعنى حزب في مواطن كثيرة منها: شيعة النبي ﷺ (ابن هشام ص٣٢٣) شيعة عثمان (الطبري ج٢ ص١١٢، شيعة الأمويين (الطبري ج٢ ص٧٨٣) شيعة العباسيين (ابن الأثير ج٥ ص٢٧٦) وهناك أمثلة لا حصر لها تشهد على استمرارية استعمال كلمة شيعة بصورة عامة حتى بعد نزول القرآن (المؤلف).

الصديق، هو أن أبا بكر لم يقبل أن يعطي علياً أراضي واحة فدك، مما حدا به لتأسيس حزب خاص به[١].

وقد كانت ممتلكات فدك مما كثر فيه الأخذ والرد. فقد كانت مرة تؤول لأملاك الدولة، وأخرى تعود إلى العلويين، بالرغم من أن إنتاجها من المزروعات قد تدنى كثيراً، وأصبحت قيمتها قليلة، مقارنة مع الأراضي الأخرى، التي امتلكها الأحفاد خارج الجزيرة العربية. غير أن الأهمية المعنوية لحيازتها من قبل العلويين كانت النقطة الأهم في هذا الموضوع. فقد كان ينظر إليها على أنها أجمل لقمة على مائدة المسلمين جميعاً. وقد حظي بعض الخلفاء باحترام العلويين وتقديرهم، حينما كانوا يأمرون بعودة هذه الأرض إلى أحفاد علي بن أبي طالب.

الأمر المهم لدى هؤلاء العلويين، هو أنهم طلاَّب حق في الخلافة، وكانوا يسعون جاهدين في الوصول إلى السلطة[٢]. وقد زاد الاقتناع بهذه المطالبة، حينما لم يملأ لهم الخلفاء وأصحاب النفوذ الأيدي بما فيه الكفاية. وقد كان هؤلاء الخلفاء، هم الذين يمتلكون الصرة والسيف، حسب المفهوم الشرفي، فهذه الأمور من حق الأمراء وحدهم.

وقف العلويون في معظم أقطار العالم الإسلامي مع صفوف المعارضة.

---

(١) هذا محض افتراء لأن علياً كرم الله وجهه، لم يؤسس مثل هذا الحزب، لا في عهد أبي بكر، ولا في عهد عمر، ولا في حياة عثمان رضي الله عنهم جميعاً، وقد بدأ يظهر مسمى شيعة علي، عندما هم بمغادرة المدينة إلى الكوفة، فخرج مع نفر من أبناء بيته، ومن شيعته، أي أتباعه وحزبه على المعنى السابق.

(٢) حول هذا الموضوع انظر أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٣١، وكذلك اليعقوبي ج٢ ص١٤٢ و٣٦٦، وكذلك الطبري ج٣ص٢٠٩، ٤٣٠، ٤٣٣، ٥١٤، ٦١٧. ففيها تفصيلات كثيرة عن هذا الموضوع، انظر أيضاً النزاع الشعري بين ابن المعتز والعلويين، فقد نادى هذا الشاعرالعباسي العلويين بقوله:

دعوا الأُسدَ تفرس ثم اشبعوا ... بما تفضل الأسد في غابها
قتلنا أمية في دارها ... وكنا أحق بأسلابها
ولما أبى اللّه أن تملكوا ... نهضنا إليها وقمنا بها

(انظر أخبار مكة المشرفة ج ٣ ص١٥٤ ـ ١٥٦) المؤلف.

وكانوا يمنون، غير الراضين عن الحكم، بحياة أفضل، إذا ساعدوهم في الوصول إلى السلطة. وهكذا فقد تلون برنامج العلويين بألوان مختلفة، واتخذ أشكالاً وصوراً متعدّدة متباينة، تشبه ماهو موجود من تباين في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. ومن هنا فقد اعتمدوا على عناصر وطنية قديمة، وعلى عادات وعقائد رفضها الإسلام.

العلويون في صفوف المعارضة

لا يمكن القول بأن للشيعة عقيدة دينية خاصة، أو حتى مبدأ سياسي معين، وحتى مفهوم الإمامة، لم يكونوا يجاهرون به إلا في البلدان، التي لها أرضية، تساعد على قيام مثل هذا المبدأ. لقد اقتتلت الفئات المختلفة من هؤلاء فيما بينها، بسبب بعد فئة من الأخرى. وقد كانت المصالح المتضاربة من أهم أسباب الانقسام. وبمرور الزمن وجدت فروع في الشيعة، طورت لنفسها مبادئ خاصة، وتشريعاً خاصاً، وتقاليد خاصة بها. وقامت فروع أخرى تحت مظلة حماية فارسية[١]. وهناك آخرون من هؤلاء سنيون كلياً، لم يتكلموا فقط إلا في الحصول على الخلافة. وفي داخل هذه الأقسام نجد تاريخاً كثير الحركة والتغير، بحيث يمكننا القول إنه لم يبق من أصلهم سوى الاسم. ويدلنا على ذلك أن الزيدية مثلاً كانوا في الأصل، ذوي مبادئ مخالفة للرافضة. غير أنه في القرن الثاني عشر، كان زيدية الجزيرة العربية، يطلق عليهم الرافضة؛ لأنهم وقفوا في ذلك الوقت ضد أهل السنة. ومن الجدير بالذكر أنه لا يمكن إعطاء وصف مجمل بالنسبة لتاريخ وأعمال الشيعة، بل لا بد من حصر هذا التاريخ في بلد محدد، وخلال فترة زمنية محددة ومعلومة، ليكون الوصف أكثر دقة بهذا الخصوص.

انقسام الشيعة

في غرب الجزيرة العربية، كانت أول ملكية للأرض، من قبل العلويين، هي أراضي فدك، وكذلك بعض الأراضي التي منحها الرسول ﷺ لعلي كرم

أراضي فدك

---

(١) لقد عملت المطاردات، التي تعرض لها زعماء العلويين، من قبل السلطات الحاكمة، بصورة غير مباشرة، على التجاء هؤلاء إلى العناصر الأجنبية. فمنذ عام ٦٧٢م كان أحد الحسنيين يعيش في كنف أحد أمراء السند الكفرة (الطبري ج٣ص٣٦٤) وقد هرب الكثير من العلويين إلى بلاد الديلم، التي كان يضرب المثل في عدم إيمان سكانها (المؤلف).

الله وجهه. وقد ذكرنا آنفاً أن الخليفة الأول قد أضاف هذه الأملاك إلى بيت المال، ولم يمنحها علياً. ولما صار الأمر إلى علي، لم يترك الفرصة تذهب دون أن يستفيد منها، في زيادة ممتلكات أهل بيته من العلويين[١]. وأثناء حكم بني أمية أغدق بعض خلفائهم الأموال والهدايا على أبناء وأحفاد الحسن والحسين، مما حدا بعلي بن الحسين في عام ٦٨٣م (٦٤هـ) أن يحمي الأمويين بعد طردهم من المدينة[٢].

كانت مختلف فروع العائلة العلوية، وكذلك أحفاد جعفر بن أبي طالب، أخي علي، من ملاك الإقطاعات الواسعة في البلاد المقدسة. وقد كثر هؤلاء وزادت أعدادهم فكان ذلك مدعاة لهجرتهم إلى أمصار العالم الإسلامي المختلفة. وقد استفاد هؤلاء من الشعور بعدم الرضا لدى سكان هذه الأمصار، ونجحوا في الحصول على مناصرة الأغلبية العظمى منهم. ولقد كان مركزهم الاجتماعي بصفتهم ملاك أراضٍ واقطاعات، قد مكنهم من التأثير في بعض أوساط المجتمع. ولاشك أن صلة قرابتهم مع رسول الله ﷺ، قد زادت من احترام الناس لهم. غير أن الانشقاق والتناحر وربما تبني بعض العادات السيئة[٣] مثل شرب الخمر قد أثر في شعبيتهم في

---

(١) هذا الكلام غير صحيح لأن ملكية فدك أعيدت إلى ورثة رسول الله ﷺ في عهد عمر بن الخطاب قبل تولي علي الخلافة بزمن طويل.

(٢) ذكر الطبري أن يزيد أوصى قائد جيشه الذي وجهه إلى المدينة فقال: ادع القوم ثلاثاً فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم..... وانظر علي بن الحسين، فاكفف عنه، واستوصى به خيراً، وأدنِ مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه، وقد أتاني كتابه... وكان علي بن الحسين، لما خرج بنو أمية نحو الشام، آوى إليه ثقل مروان بن الحكم وامرأته عائشة بنت عثمان ابن عفان (انظر الطبري ج٢ ص٤٠٩).

(٣) زعم المؤلف أن من بين هذه العادات السيئة شرب الخمر، وقد استدل لذلك بحادثتين: أولاهما أن عبدالرحمن بن الضحاك، والي المدينة ليزيد بن عبدالملك، قد شدد على الهاشميين في المدينة، وبدا له أن يتزوج فاطمة بنت الحسين، وكانت أرملة الحسن بن الحسن بن علي، ولم تكن صغيرة في السن، فابنها عبدالله بن الحسن قد بلغ سن الشباب، فاعتذرت فاطمة، فأرسل يهددها، بأنه سيجلد ابنها عبدالله بتهمة شرب الخمر، إن لم توافق على الزواج منه، فبلغ الغيظ مبلغه في نفسها، فأعلمت الخليفة بذلك، فعزل ابن الضحاك =

المحيط العربي. وقد كانت هذه الأسباب ربما اجتذبت القلوب لهم في بلدان أخرى غير المحيط العربي. لقد كان في المحيط العربي جميع الفرق والأحزاب السياسية، لكن محبة آل البيت كانت موجودة عند الأغلبية من الناس من أصحاب هذه الفرق المختلفة.

تقدير آل البيت

وقد زاد هذا التقدير بمرور الزمن. وإن شتمهم على المنابر، والذي ابتدعه الأمويون، والذي ألغي عام ٧١٧م (٩٩هـ)، لم يكن بالإمكان إعادته بعد عشر سنوات عام ٧٢٧م (١٠٩هـ). فعلي بن الحسين أصبح عظيم الشأن بالمدينة المنورة. وقد تم عزل الوالي الأموي الذي عامل المرأة العلوية معاملة سيئة[1]. وفي عام ٧٤٠م (١٢٣هـ) عندما قتل زيد، حفيد علي الثائر في العراق، لم يكن بالإمكان عرض رأسه في المدينة؛ لأن له أتباعاً كثيرين في غرب الجزيرة العربية.

لقد كانت المنطقة المحيطة بالمدينة، وخاصة المنطقة الواقعة إلى الغرب، بؤرة التأثير العلوي في الجزيرة العربية. فكان لهم منطقة ينبع[2]، والأراضي

= عن المدينة، وأغرمه أربعين ألف دينار، وأمر بتعذيبه جزاءً على ما فعل. (التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج١ ص٤٢٠ ـ ٤٤١).

أما الحادثة الثانية فقد رواها الطبري بوصفها سبباً من أسباب خروج الحسين بن علي ابن الحسن بفخ، فذكر أن أمير المدينة أخذ ثلاثة أشخاص من بينهم أحد أحفاد الحسن ابن علي، على شراب لهم، فأمر بهم، فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبالاً، وطيف بهم في المدينة. فذهب الحسين بن علي وكلم الأمير وقال له: ليس هذا عليهم، وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم؛ لأن أهل العراق لا يرون به بأساً، فلم تطوف بهم؟ فبعث إليهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة (الطبري ج٢ ص٥٥٢).

إن هاتين الحادثتين ليستا دليلاً ينهض على استباحة العلويين لشرب الخمر. فالحادثة الأولى كانت المكيدة فيها واضحة، وهي تهديد لتحقيق مآرب الوالي. أما الحادثة الثانية فأرجح الآراء أن الشراب لم يكن خمراً؛ لأن الخمر لا يستباح في العراق ولا في غيره، ولا سيما أن الذي تشفع بهم كان من أشد الهاشميين ورعاً، وهو الذي أطلق عليه شهيد فخ.

(١) الطبري ج٢ ص١٤٤٩.

(٢) ينبع: وادٍ كثير القرى والعيون والسكان، يقع غرب المدينة المنورة. ومن أهم مناطقة المعمورة الآن بلدتا ينبع البحر وينبع النخل. وإذا ذكر ينبع في كتب المتقدمين إنما يراد به الوادي لا المدينة. وكان الوادي من أملاك علي بن أبي طالب رضي الله عنه، اشتراه بثلاثين ألفاً، من عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة، ثم آلت إلى أحفاد علي بن أبي طالب (البكري ج١ ص٦٥٦).

الواقعة مابين ينبع والمدينة، وبعض الأراضي في المنطقة المجاورة لقبائل جهينة، بالقرب من جبال رضوى[١]. وكان لهم مركز آخر في سويقة[٢]، إضافة إلى بعض المواقع الأخرى. وكان الخصام يدب أحياناً بين الفرعين الحسني والحسيني، وحتى بين الحسنين أنفسهم، حول إدارة هذه الأملاك، وتوزيع منتوجاتها[٣]. مماكان يدخل السرور على نفوس أعدائهم.

دور الحسنيين في تاريخ الحرمين

لقد كان تأثير أبناء الحسن أكبر من تأثير أبناء الحسين، فقد أدى الحسنيون دوراً عظيماً في تاريخ الحرمين. ولذا سوف نخصهم بالعناية والاهتمام. وسيكون اهتمامنا باثنين من أبناء الحسن هما: الحسن المثنى وزيد[٤]. والحسن المثنى هو سيد سويقة، وهو الذي سنوليه مزيداً من الاهتمام؛ لأن أحفاد زيد قد انضموا منذ البداية إلى الخلفاء الأمويين والعباسيين، ضد أقاربهم، بحيث كان ينظر إليهم من قبل آل الحسن المثنى على أنهم عيون وجواسيس للسلطة[٥].

نشر الحسنيون الإسلام خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) بين سكان الديلم. وبمساعدة هؤلاء كوّنوا في طبرستان سلالة علوية[٦] غير أنهم لم يحرزوا النجاح نفسه في الحرمين الشريفين[٧].

لقد تفرق أحفاد الحسن المثنى في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ووصلوا إلى إفريقية وخراسان، لكن الأغلبية العظمى وخاصة أحفاد عبدالله

---

(١) رضوى: جبل شاهق قرب ينبع، كان يسكنه آل الحسن بن علي بن أبي طالب (البلادي ج ٤ ص٥٤).

(٢) سويقة: موضع قرب المدينة المنورة، كان يسكنه آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد خرج منها أحد العلويين ثائراً على المتوكل الخليفة العباسي، فأنفذ إليه جيشاً ضخماً فظفر به وبجماعة من أهله وقتل بعضهم وأحرق سويقة. وهي من منازل بني الحسن. وكانت من جملة صدقات علي بن أبي طالب رضي الله عنه (البلادي ج٤ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٣) عمدة الطالب ص٧٧ ـ ٧٨ و٨٢.

(٤) المصدر السابق ص٤٥.

(٥) المصدر نفسه ص٤٩.

(٦) الطبري ص١٥٨٥ و٢١٤٧.

(٧) عمدة الطالب ص٥٢، ٥٥، ٦٠، ٦٦، ٦٩، ٧٠.

الصالح (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٩) حفيد الحسن الثاني، قد انتشروا في مختلف مناطق الجزيرة العربية، مؤلفين آلاف الأسر العلوية[١].

إن أصالة انتساب هؤلاء إلى الفرع العلوي غير متنازع عليها. غير أنه بالرغم من العناية الفائقة في تدوين الأنساب منذ القدم[٢] إلا أنه حصلت بعض الحالات التي تسترعي الانتباه[٣]. فهناك مزاعم خاطئة في الانتساب إلى العلويين، كانت تساوي الأدعياء مع الأصلاء. ولكنه بقدر ماهو سهل أن تجد مثل هذه المزاعم طريقها في البلاد البعيدة والمدن الكبيرة، بقدر ماهو صعب، وحتى شبه مستحيل، أن يتم ذلك داخل الجزيرة العربية[٤].

العلويون كانوا معروفين في مناطقهم من قبل الناس جميعاً. وكان العلويون يعرفون أقاربهم في الجزيرة العربية. وكان من مصلحتهم أن ينظروا بالريبة والشك في أمور مثل هذه. فهم يتميزون عن بقية الناس، حيث إنهم لا يعطون بناتهم للزواج إلا لمن هو من سلالتهم. وفوق هذا كانت لهم ملابسهم الخاصة، وحتى أسلحتهم الخاصة، إلى غير ذلك مما يميزهم عن غيرهم. وعند العرب لاتجد الأنساب دقيقة فحسب، بل إن مربي الخيول، يهتمون كثيراً بأنساب خيلهم، مما يجعل الخطأ في الأنساب أمراً نادر الحدوث.

بنو أخيضر

لقد هاجر بعض أفخاذ آل الحسن وهم بنو أخيضر (انظر ملحق رقم (٦)

---

(١) المصدر نفسه ص٩٠ ـ ١٠٩.

(٢) ذكر الطبري مقدار الاهتمام الذي كان يوليه الناس للأنساب، أن المنصور أرسل جيشاً للقضاء على عبدالله بن محمد الأشتر العلوي، الذي كان يعيش في السند، ولما ظفر به قائد جيش المنصور أرسل ابنه الصغير مع أمه، وكانت أم ولد، إلى المنصور. فما كان من المنصور إلا أن كتب إلى واليه بالمدينة يخبره بصحة نسب الغلام، وبعث به إليه، وأمره أن يجمع آل أبي طالب وأن يقرأ عليهم كتابه بصحة نسب الغلام ويسلمه إلى أقربائه. (الطبري ج٣ص٣٦٤).

(٣) يذكر علماء الأنساب أمثال هذه الحالات عند حديثهم عن ذلك. كذلك كانوا يذكرون بعض الحالات التي يتم فيها تحديد الأنساب عن طريق القيافة (انظر عمدة الطالب ص٨٦) (المؤلف).

(٤) عمدة الطالب ص١١٤.

شجرة النسب الأولى رقم١٥، ٢٠، ٢١) إلى اليمامة، ووصلوا إلى مرتبة السيادة، والسلطة هناك. غير أنهم بمرور الزمن فقدوا هذه السيادة إلا أنهم حافظوا على أصلهم الرفيع، دون أن يمتزجوا بالعناصر الأخرى، غير أن شجرة نسبهم غير معروفة لهم، وهم يدعون بني يوسف. وهذا ما أوجد بعض الشكوك حول نسبهم، غير أن ذلك الشك هو أقل بكثير من الشكوك التي تعتري نسب بعض العائلات العلوية المعروفة في المدن الرئيسة[١].

لقد كانت أرض الآباء في الجزيرة العربية لاتعطي الأبناء بما فيه الكفاية. لذا جرَّب الأبناء حظهم بطرق مختلفة، فقد اشتهر بعض هؤلاء بصفتهم فقهاء وشعراء وقضاة وأمراء. لكن الأغلبية من أشراف الجزيرة عاشوا، كبقية أبناء البلاد في الفقر المدقع، إما قرويين أو بدواً، محتفظين بفخر نسبهم الرفيع، الذي كان معروفاً ومعترفاً به من قبل الجميع في كل مكان[٢]. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل شغل بعضهم مهنة قطع الطريق. ومن بعض هؤلاء ظهرت أكثر العائلات شهرة.

من الغريب أن نجد أن هذا النسب الرفيع، الذي يعتمد كلية على الدين، يلقى اعترافاً عاماً بين البدو المعروفين بالبساطة والحذر. حتى إننا لنجد أن أكبر شيوخ البدو، كان يقف أمام أفقر الأشراف، ويقبل يديه، ويعطيه أفضل ما يملك.

البدو أصحاب ورع طبيعي

إن الاعتقاد السائد حول عدم تدين البدو، وعدم تقواهم، هو تعميم خاطئ. ويرجع سببه إلى أوهام سكان المدن الذين لا يتصورون ورعاً كورعهم، وهؤلاء لا يدركون بأن البدو الذين لا يهتم أحد بتربيتهم، قد تلاءموا مع الإسلام بطريقتهم الخاصة. وبالرغم من هذا الوهم الخاطئ، الذي يجعل البدوي في عين ساكن المدينة إنساناً غير مؤمن، إلا أن لدينا منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، شهادات لا شك فيها أن هؤلاء البدو لديهم ورع طبيعي، يعبر عن نفسه بصورة مخالفة للنواحي الشرعية المعروفة[٣].

---

(١) عمدة الطالب، ص٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٦، ٩٨، ١٠٠.

(٣) ابن جبير: ١١٠ ـ ١١٢.

لقد كانت قبائل السرو في اليمن، تزود مكة المكرمة بجزء من احتياجاتها من الحبوب والعسل وغيرها[١]. وهؤلاء لا يعرفون إلا القليل عن الإسلام. وبعضهم لا يعرف قراءة الفاتحة. ولكن أمر احترام هؤلاء للدين أمر مشهود به (يسمي بعضهم ذلك تديناً، وبعضهم يسميه إيماناً بالخرافات، أو بعض من كليهما). ويحدثنا التاريخ أن الأزدية في معركة الجمل، كانوا يشمون بعر جمل أمهم عائشة وكأنه المسك[٢]. وكانت قبائل طيء من أخلص أعوان علي بن أبي طالب[٣]، ومن بعده ابنه الحسين ابن علي[٤]. ومن أراد أن يجد العون من البدو فإن عليه أن يدعي التدين، أو يدعي أنه من العلويين[٥]. ومن الجدير بالذكر أن بيركهارت تحدث مفصلاً عن أهمية العقيد (رئيس الفرقة)، كما تحدث بإسهاب عن تقديس هؤلاء البدو للأولياء[٦].

الأمويون يستعينون بالعلويين في أمور الحج

إن أبناء علي رضي الله عنه وأحفاده، كانوا يلقون المناصرة والتأييد، خلال فترة الحكم الأموي، وإن مناصرتهم كانت تزداد قوة مع الزمن. وكان هؤلاء يحظون بالتقدير والاحترام حتى من خصومهم. وليس أدل على ذلك من أن عامل مكة الأموي، قد استعان بعبدالله حفيد الحسن الثاني في حج عام ٧٤٧م (١٢٩هـ) للتفاوض مع أبي حمزة الخارجي، حينما حاول احتلال مكة في ذلك العام. وقد تم له ذلك دون حرب[٧].

أما في المدينة المنورة فقد كان الأمر مختلفاً. إذ دخلها أبو حمزة فاتحاً، بعد أن قتل ٧٠٠ رجل من شاربي السويق. ولكن الأمر لم يستتب لأبي حمزة، فقضت عليه قوات مروان، ولم يترك الخارجي أثراً يذكر في الحرمين الشريفين[٨].

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١٠، ٣١١، ٣١٨، ج٣ ص١٢.
(٢) ابن الأثير، ج٣، ص ٢٠٣.
(٣) ابن الأثير ج٣ ص١٨٢ ـ ١٨٣.
(٤) الطبري ج٢ ص٣٠٤.
(٥) الطبري ج٣ ص٢٢١٨ و٢٢١٩ و٢٢٢٥.
(٦) بوركهارت ج١ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ وكذلك ٢٩٧.
(٧) ابن الأثير ج٥ ص٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٨) ابن الأثير ج٥ ص٣٨٨ ـ ٣٩٠.

العباسيون يحرمون العلويين من الوصول إلى السلطة

إن إسقاط حكم الأمويين، اقتضى توحيد فروع كثيرة من المعارضة، التي كان يتزعمها آل البيت. وقد نظم هؤلاء حملة ناجحة لهذا الغرض. ووعدوا بتحقيق جميع الأماني، إذا تسلم مقاليد الحكم واحد من آل البيت. ومن الطبيعي أن مكة المكرمة كانت موطناً لبعض زعماء هذه الحركة المناوئة، وكانت تعقد فيها اللقاءات لوضع الخطط اللازمة للثورة ضد الدولة القائمة[١]. وكان يحضر هذه اللقاءات العباسيون والعلويون معاً. وبالرغم من مكانة العلويين العالية، فقد أجبروا على إخلاء الساحة للعباسيين الأكثر ذكاءً. ولم يكن تفضيل الناس لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه، لكونه صهراً للرسول الكريم ﷺ، ولا لكون أبنائه هم أحفاد الرسول ﷺ كافياً أمام قوة العباسيين، وحنكتهم السياسية، التي أوصلتهم إلى السلطة. فبعد الانتصارات التي أحرزها المطالبون بالخلافة على الدولة الأموية عام ٧٥٠م (١٣٢هـ)، أخذ العباسيون الغنيمة لأنفسهم، وتركوا الفتات لأبناء عمومتهم العلويين. وعندما عرف آخر الخلفاء الأمويين، قائد العباسيين في المعركة الفاصلة قال: «والله لوددت أن علي بن أبي طالب يقاتلني مكانه، إن علياً وولده لاحظ لهم في هذا الأمر»[٢].

لقد كان ولاة مكة في العهد العباسي الأول من أفراد البيت العباسي نفسه، أما بعد ذلك فقد كانوا من الأشخاص المقربين[٣]. وفي خلال هذه الفترة بقيت المدينة المنورة المركز الرئيس من الناحية السياسية. أما مكة فقد كان يضم إليها في العادة الطائف، وكان يعين لها حاكم خاص، يتولى في العادة إمارة الحج في كل عام.

إن عدم رضا العلويين بالأوضاع الجديدة، قد انتشر خبره في كل مكان. ولم تستطع سيوف العباسيين منع هؤلاء من القيام بالقلاقل والثورات في طول البلاد وعرضها.

---

(١) الطبري ج٣ ص١٤٣ وابن الأثير ج٥.

(٢) الطبري ج٣ ص٢٠٤.

(٣) لقد عدد الفاسي حكام مكة خلال هذه الفترة. وقد قمت بمقارنة معلومات الطبري وابن الأثير، وسأشير إليها عندما تستدعي الحاجة ذلك (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٨١ ومابعدها) (المؤلف).

ثورات الهاشميين ضد العباسيين

في عام ٧٦٢م (١٤٤هـ)، وفي أثناء حكم أبي جعفر المنصور، كان يستوطن المدينة عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب مع ولديه محمد وإبراهيم. وكان عبدالله زعيم الحسنيين في منطقة المدينة. وكان المنصور قد أرسل له الهدايا، وطلب منه ومن ولديه البيعة له، بعد وفاة السفاح عبدالله. وتغيب أبناؤه عن البيعة كما تغيبوا عن أخذ الأعطيات المقررة لهم، مما أوجد الريبة لدى المنصور في ولاء الأخوين، ولا سيما إذا عرفنا أن المنصور نفسه، كان قد بايع سراً أحد هؤلاء الإخوة[1]، وهو محمد الملقب بالنفس الزكية (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٥). لذا رأى الخليفة ألا يتهاون في شأن محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٦).

ثورة النفس الزكية

اعتقد الأخوان أن الوقت قد حان لاستئناف نشاطهما ضد الخلافة العباسية في كل من العراق والجزيرة العربية. فقد توارى محمد عن الأنظار. أما إبراهيم فقد فرَّ إلى الكوفة. وما أن سمع الخليفة بخبرهما، حتى شدد المراقبة عليهما، وأمر بتتبعهما، حتى أن محمداً لم يكن ليشعر بالأمان بين القبائل الموالية له في جبال رضوى[2]. ولا شك أن البحث الواسع النطاق قد أجبر الأخوين على الظهور وإعلان الثورة. وقد استسلمت المدينة لمحمد (النفس الزكية) ثم تبعتها مكة المكرمة. أما إبراهيم فلم يحقق ما حققه أخوه[3]. لقد لقي محمد المصير المحتوم الذي يلاقيه في العادة المطالبون بالحكم.

كان العباسيون أكثر حرصاً من الأمويين في مراقبة العلويين. فقد رأى المنصور وخلفاؤه من بعده، أن الحرمين الشريفين، منطقة ليس من اليسير التحكم بها. وان خط البريد الذي تم بناؤه عام ٧٨٣م (١٦٦هـ) من قبل الخليفة المهدي عبر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ثم اليمن، كان الهدف من إنشائه في الدرجة الأولى، تسهيل أمور الولاة في هذه المناطق البعيدة

موقعة فخ

---

(١) الطبري ج٣ ص١٤٣.

(٢) الطبري ج٣ ص١٦١، ١٦٨.

(٣) الطبري ج٣ ص٣١٢.

عن مركز الخلافة[1]. لكن ذلك لم يمنع بعد ثلاث سنوات أحد الحسينيين من منطقة المدينة وهو الحسين بن علي[2] (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم١١) من ينبع، أن يحتل الأماكن المقدسة بالقوة، وسواء أكان السبب هو عدم الرضا عن تخفيض أعطيات العلويين، أم التشدد في عقوبة أحد أقاربه المتهم بشرب الخمر، فإنه أعلن الثورة داخل المدينة، ثم تركها إلى مكة مع أتباعه. ويقال إنه أساء كثيراً في المدينة، عندما جعل ساحات الحرم وجنباته، مسارح للقتال بينه وبين العباسيين. وفي مكة لقيه أمير الحج العباسي، والتحم معه في معركة حامية الوطيس، في مكان يبعد عن مكة نصف ساعة[3] يسمى (فخ). وقد سقط في هذه المعركة الحسين وكثير من أتباعه[4]. وقد عرف فيما بعد باسم شهيد فخ، وهو المكان الذي قتل ودفن فيه مع أصحابه[5]. ولايزال هذا المكان يحظى بعناية خاصة لدى المكيين، ويسمى في الوقت الحاضر الشهداء. ويذهب أهل مكة في فصل الصيف لقضاء اوقاتهم في هذا المكان، دون أن يعرفوا سبب هذه التسمية، التي تقتصر معرفتها على المثقفين فقط[6].

ويقال إن النبي ﷺ مرَّ بفخ فقال: «هنا سيقتل واحد من أهل بيتي مع

---

(١) الطبري ج٣ ص٥١٧.

(٢) هو الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن علي بن ابي طالب. (الطبري ج٣ ص٥٥١)

(٣) هذا المكان الآن هو أحد أحياء مكة العامرة بالسكان، ولا يزال يعرف بالشهداء إلى يومنا هذا. أما اسم فخ فغير معروف الآن عند العامة.

(٤) قتل في هذه المعركة مع الحسين أكثر من مائة من أصحابه، في نهاية عام ١٦٩هـ، وكانت هذه الوقعة من الشدة، بحيث قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ (المسعودي، مروج الذهب ج٢، ص٢٥٧).

(٥) الطبري ج٣ ص٥٥١، ابن الأثير ج٦ ص٩٠، أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٣٥، ٥٠١ ـ ٥٠٢. وكذلك ج٢ ص١٨٥، ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٦) شريف مكة الحالي (١٨٨٥م) لا يعرف سبب تسمية المكان بالشهداء. ويعتقد معظم المكيين أن عبدالله بن عمر مدفون هناك. ويقال إنه عندما أحضر رأس الثائر أمام الخليفة في بغداد استشاط غضباً (الطبري ج٣ ص ٥٦٨). وكان يزيد بن معاوية قد أبدى سخطاً مماثلاً عندما أرسل إليه رأس الحسين. (الطبري ج٢ ص٣٥٨) (المؤلف).

أتباعه، وسوف تحضر لهم الأكفان والعطور من السماء، وأما أرواحهم فسوف تسبق أجسادهم إلى الجنة»[١].

لم يشارك أهل مكة في قتال فخ. ولعل هبات الخلفاء العباسيين وأعطياتهم الوفيرة، لأهل الحرمين الشريفين، كان لها أثر في هذا السلوك[٢]. هذه الظروف مع تلك التي ألمحنا إليها سابقاً جعلت من أكثرية سكان مكة مجتمعاً قليل الثقافة، كثير الغرور، يعتقد أنه محق بالعيش على حساب المسلمين الأكثر ثراءً. وعلى السلطة أن تحقق له كل شيء، مقابل تلك الطاعة التي لا يلتزم بأدائها دائماً.

وبانتصار الجيش العباسي في فخ، استقام الأمر لخلفاء بني العباس. وفي عهد الرشيد كان للثروات التي أنفقها في قوافل الحج التسعة التي قام بها، أثر في زيادة عدد الوافدين إلى مكة، مما أثر في التركيب السكاني للمدينة المقدسة[٣]. ومن الأمور الملفتة للنظر أن الرشيد قد ولّى من جملة ما ولى

---

(١) فخ: وادي يبعد ٥٥٠٠م عن مكة المكرمة، وهذه الرواية التي ذكرها المؤلف لا أساس لها، والرواية لدى أهل السنة في (دلائل النبوة) أنّ رسول الله ﷺ حدّث فقال: «رأيت في منامي فلاً بذباب سيفي (الفل هو الكسر الصغير) ورأيت بقراً يذبح. قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال: يقتل رجل من أهل بيتي، ويقتل ناس من أصحابي» فكان الأمر كما حدث حيث قتل حمزة بن عبدالمطلب شهيداً ومعه سبعون من الصحابة في غزوة أحد.

(٢) نذكر على سبيل المثال لا الحصر أعطيات المهدي الخليفة العباسي في الحرمين الشريفين. فقد جاء في أخبار مكة المشرفة أن المهدي قسم في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة، وهي ثلاثون ألف ألف درهم، وصل بها معه من العراق، وثلاثمائة ألف دينار، وصلت إليه من مصر ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن، ومائة ألف ثوب. وفرق جميع ذلك على أهل الحرمين (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٩٩). وفي عهد الرشيد، الذي استمرت خلافته قرابة ربع قرن، نعمت المدينتان المقدستان بأعطياته الكثيرة. فقد كان يحج عاماً ويغزو عاماً. وكان في كل مرة يفرق أعطيات كثيرة على أهلها جميعاً (الطبري ج٣ ص٦١٠) وفي عام ١٨٦هـ زار الرشيد المدينة المنورة، مع ولديه الأمين والمأمون، فوزع كل منهم عطاءً خاصاً على أهل المدينة، فكان لكل رجل في المدينة ثلاث أعطيات (الطبري ج٣ ص٦٥٢).

(٣) لقد أثرت الثورات المتكررة للعلويين في مكة على اضمحلال سكان مكة القرشيين ولم يبق بها في الأعم الأغلب سوى الحسنيين وقد أثر الحج بصورة جلية في التركيب السكاني لمكة المكرمة فاستوطنها خليط من الناس معظمهم موالي من أصل حبشي وصومالي (زيلعي) تم تحريرهم (المؤلف).

من أمراء لمكة أحد العبيد البربر[١] الذي تم تحريره حديثاً.

ارتباط سكان الحرمين بالحج

وفي هذه الأثناء طغت الوظيفة الدينية، على جميع أنشطة سكان الحرمين الشريفين، فقد ارتبط وجودهما بالحج إلى الأبد. ويمكن ملاحظة الأهمية الدينية للمدينتين العربيتين القديمتين من خلال المساجلة الأدبية التي حدثت في أثناء حكم الأمين (٨٠٩ ـ ٨١٣م) (١٩٣ ـ ١٩٨هـ) فقد كانت إمارة المدينتين المقدستين معقودة لأحد الأمراء العباسيين، الذي أقام في مكة، وأرسل ابنه ممثلاً له في المدينة المنورة[٢]. فكتب بعض أهل المدينة، إلى الأمير يطلب انتقاله إلى المدينة ويحسن له اتخاذها عاصمة لإمارته، في قصيدة طويلة، فرد عليه رجل من مكة بقصيدة مثلها يمتدح فيها مكة، ويفضل اتخاذها عاصمة. وعلم رجل من جدة، بأمر القصيدتين فأنشأ قصيدة يرد فيها على المتفاخرين ويحكم فيما بينهما[٣].

لقد سر المأمون سروراً بالغاً، عندما علم أن أول بيعة له قد جاءت من الأماكن المقدسة[٤].

---

(١) يبدو مما ذكره السباعي في تعداد ولاة العباسيين في عهد الرشيد أن اسم ذلك الوالي هو عماد البربري (السباعي ص١٤١).

(٢) هذا الوالي هو الأمير العباسي داود بن عيسى الذي أقام في مكة، وأرسل ابنه سليمان إلى المدينة المنورة.

(٣) ذكرت القصة مطولة في بعض كتب الأدب، ولم نستحسن نقلها، لأنها فيما يبدو مخترعة، أراد أصحابها المفاخرة بين المدينتين. ويتجلى أثر الصنعة في سياقها، ولسنا في حاجة إلى إعلان المفاخرة بين بلدين تجمعهما كل عناصر الاتحاد في الحياة دون استثناء (السباعي ١٤٠٤هـ، ص١٤٢).

(٤) سبب البيعة هو أن الأمين طلب إلى أمير مكة داود بن عيسى، أن يمزق العهد الذي أودعه الرشيد في الكعبة، بصفته ميثاقاً بولاية العهد للأمين، ثم المأمون. وكان الرشيد قد علقه في الكعبة، وطلب إلى أهلها أن يحافظوا على تنفيذ مافيه، وأن يكونوا أعواناً على من يخالفه، ولما أمر الأمين بطلب أخذ العهد، غضب داود لهذا النكث، ونادى في أهل مكة وحجاجها الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس خطب فيهم، وأبان لهم غاية الأمين، من نكث العهد. فوافقوا على خلعه، فقال اشهدوا بأني خلعته، فبايعوني للمأمون فبايعوه. فلما علم المأمون بذلك سر سروراً كثيراً. ولما انتصرت جيوشه على الأمين، أمّر داود على مكة والمدينة فظل فيها حتى أواخر سنة ١٩٩هـ (انظر شفاء الغرام للفاسي ج٢،ص١٨٢، وكذلك السباعي ص١٤٢ والطبري ج٣ ص٨٦٢)

مكة والمدينة تخرجان على حكم المأمون

وفي اثناء حكم المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) حدثت بعض القلاقل من قبل العلويين، وخاصة في الحجاز واليمن. فقد خرج أحد[١] قادة الجيوش في العراق، على طاعة الخليفة المأمون، وأخذ يدعو للعلويين. وبعد أن أحرز نجاحاً ضد قوات الخليفة، أرسل عام ٨١٥م (١٩٩هـ) أحد أبناء الحسن[٢] إلى المدينة المنورة، كما أرسل احد أبناء الحسين المدعو حسين الأفطس إلى مكة المكرمة، وذلك لاحتلالهما وإخراج العباسيين منهما. لقد استسلمت المدينة المنورة دون قتال، كما أن الأمير العباسي في مكة انسحب منها مؤثراً عدم القتال[٣]. وفي هذه الأثناء سقطت اليمن أيضاً، على يد إبراهيم بن موسى أخي علي الرضا[٤] الذي كان المأمون في فترة

---

(١) هذا القائد هو المغامر ابو السرايا، واسمه السري بن منصور الشيباني، كان في أول حياته فقيراً يكري الحمير، والتحق ببعض قطاع الطرق، وصار زعيم عصابة، ثم التحق بالقائد يزيد بن مزيد الشيباني، واشتغل معه ببعض الفتوحات، وصار من قادته المشهورين. وعندما اشتعلت الفتنة بين الأمين والمأمون، التحق مع رجاله بجيش المأمون. وانضم إلى القائد المشهور هرثمة بن أعين، ولقب بالأمير. وعندما قتل الأمين انقض هرثمة على أرزاقه وأرزاق أصحابه. فغضب أبو السرايا، وتقدم فاحتل بعض المناطق، وقويت شوكته. وقد لقي في الرقة محمد بن إبراهيم العلوي، الملقب بابن طباطبا، وكان أعلن الثورة على العباسيين، وطالب بالخلافة لنفسه، فبايعه أبو السرايا، وصار قائداً لجيوشه، وتوجه إلى الكوفة واستولى عليها، وسير الجيوش إلى البصرة وبغداد والمدائن وواسط. وما لبث أن مات ابن طباطبا، ويقال إن ابا السرايا سمه، فنصب أبو السرايا أحد الفتيان الطالبيين في الخلافة، وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وصار يسير الأمور باسمه. وأرسل الأمراء إلى الأمصار، ليخلع منها الخلافة العباسية، ويقيم خلافة هاشمية. وفي ربيع الأول من عام مائتين، انتهت ثورة أبي السرايا في العراق، إذ هزمت جيوشه، وقتل وأرسل العباسيون عدداً من القادة، تولوا إخراج عماله من الأقطار التي غلبت عليها (بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج٢ ص٨٩ ـ ٩٢).

(٢) يدعى محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن علي بن ابي طالب.

(٣) لما علم داود بن عيسى أمير مكة العباسي بوصول جيش حسين الأفطس الذي عسكر في النوارية قام بإخلاء مكة، وقال إني لا أستحل القتال في مكة، فدخلها الأفطس مساء يوم التروية (السباعي، ١٤٠٤، ص١٤٣ ـ وكذلك الطبري ج٣ ص٩٨١، وأخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٣٨)..

(٤) أسماء الحسينيين الذين لهم صلة هنا نجدهم في شجرة النسب الآتية: =

تشيعه، قد عينه خليفة له. لقد عاث حسين الأفطس وأتباعه فساداً، لدرجة أنه لقب بالسفاح، فقد أخذ كل ما في جوف الكعبة من نفائس. وكان أصحابه يأخذون أموال الناس بحجة أنها ودائع لبني العباس. وفي هذه الأثناء قتل سيده أبو السرايا في العراق، فبايع بالخلافة أحد شيوخ آل أبي طالب، وهو محمد بن جعفر الملقب بالديباج، ومارس باسمه الكثير من أعمال السلب والنهب. ويرى الكتاب العلويون أن محمد بن جعفر غير مذنب بذلك، لكن هذا الزعم تدحضه أشياء كثيرة، منها أن المأمون حينما أرسل جيشاً لقتاله هرب إلى جبال رضوى، وبدأ يعمل هناك للاستيلاء على المدينة، غير أنه فشل في ذلك. وفي عام ٨١٦م (٢٠١هـ) اضطر إلى الاعتذار من المأمون الذي عفا عنه وضمن سلامته[١].

=

علي + فاطمة
⇓
الحسين
⇓
علي
⇓

علي		محمد
⇓		⇓
حسن		جعفر الصادق
⇓	⇓	⇓
حسين الأفطس	محمد الديباج	موسى
		⇓
	إبراهيم	علي الرضا

(١) جاء في شفاء الغرام للفاسي حول أعمال حسين الأفطس ما يلي: كان الحسين حين بلغ [وادي سرف] تخوف من دخول مكة، حتى بلغه خلوها من بني العباس، فدخلها في عشرة أنفس. فطافوا بالبيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة، فوقفوا ليلاً، ثم رجعوا إلى مزدلفة، فصلى حسين بالناس الصبح، وأقام بمنى أيام الحج، ثم صار إلى مكة. فلما كان =

ثم ما لبث أن هاجم مكة سنة ٨١٨م (٢٠٢هـ) علوي جديد من اليمن هو إبراهيم[١]، شقيق علي الرضا، الذي ولاه المأمون ولاية العهد، فاحتل مكة، وأوقع بأنصار العباسيين فيها، ثم مالبث العباسيون أن أجلوه. فاضطر أن يعود إلى اليمن[٢] بعد أن خسر السيادة على مكة. وقد استعان والي مكـة على حربه ببعض كنوز الكعبة، التي أخذها لنقص الموارد لديه[٣].

وباستثناء أعمال السلب والنهب، التي كانت تتعرض لها المدينة المقدسة من جراء هذا الصراع، وكذلك استحلال الأموال والكنوز الموجودة في داخل الكعبة، لا نجد أثراً بارزاً، سوى أن المأمون قد عهد بإمارة مكة المكرمة إلى اثنين من العلويين، مما يدل على قوة نفوذ العلويين من جهة، كما يدل على ميل

= مستهل المحرم، سنة مائتين نزع الحسين كسوة الكعبة. وكساها الكسوة التي أنفذها معه ابو السرايا. وكانت كسوتين من قز رقيق: إحداهما صفراء، والأخرى بيضاء. وأخذ ما في خزانة الكعبة، فقسمه مع كسوتها على أصحابه. وهرب الناس من مكة؛ لأن أصحاب الحسين كانوا يأخذون أموال الناس بحجة أنها ودائع لبني العباس، ولما بلغه قتل أبي السرايا، رأى أن الناس قد تغيروا عليه، لقبح سيرته وسيرة أصحابه. فأتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر [الملقب بالديباج لجمال وجهه] وسألوه في المبايعة له بالخلافة، فكره محمد ذلك،. فاستعانوا عليه بابنه علي، ولم يزالوا به حتى بايعوه بالخلافة، في ربيع الأول سنة مائتين، وجمعوا الناس على بيعته طوعاً وكرهاً، وسموه أمير المؤمنين، وليس له من الأمر شيء. وابنه علي وحسين الأفطس وجماعتهم على أقبح سيرة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٨٧ ـ ١٨٩). واتصل الخبر بالمأمون، فانتدب لهم جيشاً، قاتلهم عند بئر ميمون، ثم أجلاهم عن مكة، في جمادى الآخرة سنة ٢٠٠، وفرّ محمد الديباج إلى منازل جهينة شمال ينبع، فجمع منها جيشاً، أراد أن يهاجم به المدينة، فلم يظفر بذلك. فقدم إلى مكة يطلب الأمان. وضمن له أمير مكة ذلك ثم سار إلى العراق، حتى بلغ المأمون بمرو، فعفا عنه، وبقي قليلاً ثم مات فجأة بجرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل في لحده، وقال هذه رحم قطعت من سنين، وكان موته في شعبان سنة ثلاث ومائتين (أخبار مكة المشرفة ١٨٩ ـ ١٩٠، ٢٣٩ وانظر أيضاً السباعي ١٤٣ ـ ١٤٤).

(١) إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو ابن موسى الكاظم شقيق محمد الديباج.

(٢) ينقل تقي الدين الفاسي عن العتيقي أن إبراهيم الكاظم كان والياً على مكة من قبل المأمون، وبذلك ينفي عنه فكرة الثورة، ويقول إنه حج بالناس سنة ٢٠٢، وهو أمير مكة للمأمون (انظر السباعي ١٤٠٣ ص١٤٥).

(٣) أخبار مكة المشرفة ج١ ص١٥٨.

الخليفة لهم وثقته بهم، وأنه لا يرى بأساً في توليتهم مكة[1].

في فترة الستين عاماً التي أعقبت وفاة المأمون، سارت الدولة العباسية في طريقها نحو الضعف والتفسخ. لقد اعتمد الخلفاء في أول أمرهم على زيادة العناصر التركية من الموالي[2]. لكن هؤلاء فيما بعد هم الذين تولوا السلطة، وأداروا مركز الخلافة، ولم يتركوا لرؤسائهم سوى الاسم. وقد استمر هذا الوضع حتى بداية القرن العاشر. وقد نجم عن ذلك أن فقد المركز سيطرته على الأقاليم، الأمر الذي نجم عنه لامركزية في الحكم. وفي الوقت نفسه تطورت الأقاليم الكبرى في الدولة إلى ممالك مستقلة. وفي ظل هذه الظروف نشط العلويون بصورة أكثر من ذي قبل[3]، كما أصبحت طرق المواصلات غير آمنة، وتزايدت أسعار السلع، وعم الغلاء والجوع. وقد حصلت مكة ـ مع غيرها من المدن ـ على نصيب وافر من ذلك كله.

إمارة الحج لبعض العناصر التركية

وفي هذه الأثناء ولي مكة العديد من الأمراء العباسيين، الذين كانوا يقومون بإمارة الحج أيضاً. غير أن هؤلاء لم يكونوا من الأقوياء. وقد كانوا يحكمون بأسماء آخرين، يتقلدون مناصب ولاة وإقطاعيين، ظهروا بصفتهم مسؤولين أعلى منهم. وترينا أحداث السنوات ٨٤٧ و٨٣٦ و٨٧٠م (٢٣٣، ٢٢٢، ٢٥٧هـ) أنه لم يبق لهؤلاء من الإمارة سوى اللقب[4].

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩١ ـ ١٩٢، وكذلك الطبري ج٢ ص١٠٣٩.

(٢) كان المعتصم هو أول خليفة عربي اعتمد على الأتراك، واعتنى باقتنائهم، وبذل الأموال في شرائهم من سمرقند وفرغانة والنواحي الأخرى وألبسهم الديباج، ومناطق الذهب، ثم أسند إليهم مناصب الدولة، وولاهم بعض النواحي، وآثرهم على الفرس، الذين كان يؤثرهم أسلافه من العباسيين، كما آثرهم على العرب، الذين كان يؤثرهم الأمويون (السباعي ص١٤٦).

(٣) يذكر السباعي العديد من الثورات التي قام بها العلويون في مكة. منها ثورة إسماعيل ابن يوسف، الذي يرتفع نسبه إلى الحسين، وكانت عام ٢٥١هـ، وقد لاقى الناس من هذه الثورة عنتاً كبيراً، ليس في مكة وحدها، بل في المدينة وجدة (السباعي ص١٦٤) وثورة أخرى بقيادة علوي آخر، اسمه محمد بن أحمد، وقامت في العراق، ثم امتدت إلى مكة، وكانت تعرف بثورة الزنج (السباعي،١٦٦) وهناك ثورة أخرى قام بها العلويون عام ٣٠١هـ، بقيادة محمد بن سليمان (السباعي: ص١٦٧ ـ ١٦٨).

(٤) الطبري ج٣ ص١٣٧٩ و١٨٤١ ـ ١٨٤٢ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩٦.

لقد حظي قادة الجيش الأتراك بالاهتمام الخاص. فعندما حج أشناس[١] عام ٨٤١م (٢٢٦هـ)، وكذلك عندما حج إيتاخ عام ٨٤٩م (٢٣٤هـ)، فوض الخليفة إليهما، ولاية كل بلد يدخلانها، حتى ينتهيا إلى مكة، ثم يعودا منها. وبهذا دخلت مكة في ولايتهما[٢]. ولنا أن نتصور أن مصير الدولة الإسلامية قد وضع بأيدي هؤلاء القادة، عندما نرى أن الخليفة يمنح لقب السلطان إلى أحد هؤلاء القادة المدعو أشناس[٣]. وقد عانت مكة مذاقاً أولياً للبؤس، الذي بدأ يظهر في جنباتها، نتيجة عدم وجود سلطة مركزية قوية في هذه المدينة العالمية.

ظهر منذ عام ٨٦٩م (٢٥٥هـ) مغامر مرعب، بثوب علوي مزيف، عاث فساداً في شرق الجزيرة العربية والعراق، عن طريق عصاباته المكونة من العبيد السود[٤]. ولقد استطاع من خلال ممثليه الحصول على السيادة الفعلية

---

(١) أشناس وإيتاخ وكذلك وصيف والأفشين هم من أشهر الأتراك الذين استعان بهم المعتصم (السباعي ص١٤٦) (المحقق).

(٢) كانت هذه الولاية فخرية، حيث يدعى باسمه على المنابر، ولكنه في العادة ينيب عنه من يقوم بأعبائها (السباعي ص١٤٥).

(٣) يقول صاحب كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: إن الخليفة الواثق بالله، الذي ولي الخلافة بعد المعتصم، استخلف تركيا اسمه أشناس، ولقبه بالسلطان، وهو أول خليفة استخلف سلطاناً، وألبسه وشاحين مجوهرين، وتاجاً مجوهراً (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٢٧).

(٤) هذا الثائر علوي، يدعى علي بن محمد بن أحمد، خرج في البصرة وجمع حوله العديد من الزنج، الذين كانوا يعملون في جنوبي العراق، وقد استطاع هذا الثائر أن يحتل أماكن عديدة في العراق وشرق الجزيرة العربية، وقد عاث فيها فساداً. وقد اتصل بمكة فاحتلها، وولى أمرها محمد بن عيسى المخزومي، ثم ما لبث الخليفة العباسي أن أجلى علي بن أحمد عن مكة، بقيادة محمد بن أبي الساج، وأعادها إلى حكم العباسيين. وقد قاست مكة في هذه الفتنة ضيقاً شديداً، فبلغت قيمة الأوقيتين من الخبز درهماً (انظر تفصيلات هذا الخبر في الطبري ج٣ ص١٧٤٢ وكذلك انظر السباعي، ١٤٠٥هـ، ص١٦٦).

وللسباعي تعليق على هذا الثائر العلوي فهو يقول: قيل إن صاحب الزنج دعي لا علاقة له بالعلوية. وقد تكون الشائعة دعاية عباسية. فقد قام الرجل ضدهم، وكانت له صولة في بعض نواحي العراق والبصرة والبحرين والأحساء. جمع العبيد إليه، وأعلن تحريرهم، وقيل إنه جهر بعقيدة الخوارج. ولا أستبعد ذلك ففيها ما يساعد على طبيعة الخروج على السادة والملاك. وقد ساعده الحظ فتجمهر العبيد حوله، وخاضوا تحت قيادته من عام =

لمكة المكرمة مرتين (٨٧٩، ٨٨٢م) (٢٦٥، ٢٦٦هـ).. ولم يكن القائد الذي طرده في المرتين الخادم المطيع للخلافة العباسية دائماً[(١)].

وقد حاول ابن طولون صاحب مصر الاستيلاء على مكة، غير أنه فشل بعد أن مني جيشه بهزيمة ساحقة، وكان ذلك في حدود ٨٨٣م (٢٦٩هـ).

تعدد الرايات في المشاعر المقدسة

لقد انتهى الوقت الذي كان فيه علم الخلافة، هو العلم الوحيد، الذي يلتف الناس حوله في سهل عرفات. فقد تعددت الرايات للأمراء المتنافسين على السلطة في أرجاء الخلافة، ومن النادر أن تسلم مكة المكرمة من الصراع الدامي بين اصحاب هذه الرايات. وقد كان أهل مكة في بعض الأحيان يشاركون في هذه الصراعات الدامية. وإن مشاركتهم لم تكن دون مقابل[(٢)]. وأحياناً تنشب الخلافات بين أهل مكة أنفسهم، مما يؤثر في أعمال الحج ذاتها[(٣)]. وبعد قرن من الزمان أصبحت أسباب الصراع تنحصر في الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة.

لقد جلبت الصراعات السياسية سنوات من الجوع لهذا البلد الفقير، القليل الموارد في الأصل (على سبيل المثال انظر حوادث سنة ٨٧٤م و٨٨٠م) (٢٦٠

= ٢٥٥هـ إلى عام ٢٧٠هـ عشرات الوقائع التي ظفروا فيها، ولكن الخليفة الموفق انتدب نفسه لقتالهم. حتى قضى عليهم (انظر السباعي ١٤٥٢ ـ ١٦٦ وما بعدها).

(١) هذا القائد العباسي هو محمد بن أبي الساج (انظر الطبري ج٣ ص١٩٣٧، ١٩٤٢ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠١).

(٢) قال ابن جرير في أخبار سنة تسع وستين ومائتين، وفي ذي الحجة كانت وقعة بين قائدين، وجههما أحمد بن طولون في٤٧٠ فارساً و٢٠٠٠ راجل، فوافيا مكة لليلتين بقيتا من ذي القعدة، فأعطوا الجزارين والحناطين دينارين دينارين، والرؤساء سبعة. فقاتلهم هارون بن محمد عامل مكة، ومعه جعفر بن الما عمرون، فقتل من أصحاب ابن طولون نحو ٢٠٠ رجل، وانهزم الباقون في الجبال، وأخذت دوابهم وأموالهم، وأمّن جعفر المصريين والحناطين والجزارين (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩٨ ـ ١٩٩).

(٣) من هذه الفتن ماحصل في سنة اثنتين وستين ومائتين، فقد خاف الناس أن يبطل الحج، وسبب ذلك أن في هذه السنة وقع بين الجزارين والحناطين بمكة قتال يوم التروية، فخاف الناس أن يبطل الحج، ثم تحاجزوا حتى يحج الناس، وقتل منهم تسعة عشر رجلاً (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٠).

انعدام الأمن

و ٢٦٦هـ)[١]. وقد ساعد على ذلك سيطرة البداوة، وتعرضها المستمر لقوافل الحجيج، الأمر الذي اقتضى تعيين بعض المسؤولين، مهمتهم الرئيسة الحفاظ على أمن الطرق المؤدية إلى مكة. وكان هذا المنصب مرتبطاً مع ولاية المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية. يضاف إلى كل ذلك ثورات العلويين، وما يتبعها من السلب والنهب والقتل، لابل كان بعضهم يمتهن قطع الطرق. فعلى سبيل المثال، في أثناء حكم الخليفة المتوكل (٨٤٣ ـ ٨٦١م) (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ)[٢] كان أحد الحسنيين من عائلة الحسن الثاني، واسمه محمد، ويلقب بالشاعر، قد مارس مهنة منع قوافل الحج من المرور إلى مكة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ١٦) وتحضرنا عنه القصة الآتية: ففي إحدى حملات السلب، التي كان يمارسها على قوافل الحج، استغاثت به إحدى نساء بغداد الحاجات مع القافلة، وطلبت منه الرحمة، وذكرته بجده الرسول ﷺ وأجداده المشهورين، فرق لها قلبه، وأثارت فيه العطف لدرجة أنه أهداها كل ما سلبه، وعاد إلى بيته دون غنائم. وبعد فترة من الزمن دخل محمد سجن المتوكل نتيجة أفعاله السيئة، فما كان من السيدة المذكورة، إلا أن زارته في سجنه، وقامت بالتوسط له لدى الخليفة، ونقلت منه إلى المتوكل قصيدة مدح، ألفها اللص الشاعر، كانت سبباً في العفو عنه[٣].

لقد نشط العلويون في مناطق مختلفة، من ديار الإسلام. ففي بغداد كان لهم دور بارز في انتخاب الخليفة الذي خلف المتوكل بعد موته. وقد كافأهم

---

(١) ذكر الفاسي في شفاء الغرام نقلاً عن صاحب الكامل، أنه في سنة إحدى وخمسين ومائتين بلغ الخبز بمكة ثلاث أواق بدرهم، واللحم رطل باربعة دراهم، وشربة ماء بثلاثة دراهم. وفي سنة ستين ومائتين، اشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام، فهاجر من أهل مكة الكثير (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١٠ وما بعدها تحت باب ذكر شيء من أخبار الغلاء والرخص والوباء بمكة المشرفة).

) من الثابت أن خلافة المتوكل كانت من (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) وهذا التاريخ يوافق ٨٤٦ ـ ٨٦١ وليس ٨٤٣م كما ورد في النص لدى المؤلف.

انظر تفصيلات هذه القصة الطريفة في مخطوطة عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص٩٣ ـ ٩٥ رقم ٤٩٩ في مكتبة مكة المكرمة.

الخليفة الجديد بإصدار مرسوم بتعيين أحد الولاة العلويين في المدينة، وأمره بمعاملة العلويين في المدينة معاملة حسنة[١]. وفي طبرستان قامت سلالة حسنية بمساعدة أهل الديلم. وكان أهل الديلم قد اعتنقوا الإسلام عن طريق العلويين[٢].

ثورات علوية

وفي مكة قام إسماعيل بن يوسف (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٢٠)، وهو أيضاً من احفاد الحسن الثاني، بهجوم على مكة عام ٨٦٥م (٢٥١هـ). وطرد الوالي العباسي ونهب بيته وبيوت كل أنصار الخلافة، وسلب ما وصلت إليه يده من نفائس الكعبة، ومبلغاً كبيراً من المال، وصل لتوه من بغداد، لإصلاح مجاري المياه في مكة، ثم اتجه إلى المدينة، فقام بعمل مماثل لما قام به في مكة وعاد إلى مكة، عدة مرات، وزار جدة ليسلب التجار وأصحاب السفن ممتلكاتهم. وفي النهاية قام بشعائر الحج مع جماعته دون غيرهم؛ لأنه لم يجرؤ أحد على القيام بشعائر الحج مع وجوده. ومات إسماعيل بالجدري عام ٨٦٦م (٢٥٢هـ)[٣]. وما لبث أن أكمل المشوار أخوه محمد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٢١)، غير أنه طرد من قبل جيش الخليفة، فانسحب إلى اليمامة، حيث استوطن مع نفر من أصحابه هناك. ولقد وجد الخليفة العباسي نفسه مضطراً لتصفية العديد من أقرباء إسماعيل. ففي عام ٨٦٩م (٢٥٥هـ) أمر بالقبض على عمه موسى الثاني (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى

---

(١) الخليفة الجديد هو المنتصر العباسي. وقد شارك آل أبي هاشم في انتخابه، كخليفة جديد، بعد موت المتوكل. وقد ذكر الطبري أن المنتصر لما ولي الخلافة، كان أول شيء أحدث من الأمور عزل صالح عن المدينة، وتولية علي بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد إياها. وقد ذكر عن علي بن الحسين أنه قال: دخلت عليه أودعه فقال لي: ياعلي، إ أوجهك إلى لحمي ودمي ـ وقد مدَّ جلد ساعده ـ وقال: إلى هذا وجهتك. فانظر ك تكون للقوم، وكيف تعاملهم. يعني آل أبي طالب، فقلت: أرجو أن أمتثل رأي المؤمنين ـ أيده الله ـ فيهم، إن شاء الله؛ فقال: إذاً تسعد بذلك عندي (الطبري ج٣ ص٩٩

(٢) الطبري ج٣ ص١٥٢٣ ـ ١٥٣٣).

(٣) انظر تفصيلات هذا الخبر وما قام به إسماعيل بن يوسف في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص و٢٣٧، والطبري ج٣ ص١٦٤٥).

رقم ١٣) في سويقة، ونقله إلى بغداد. وعندما حاول البدو التدخل لإنقاذه أثناء نقله، دس مرافقه له السم فمات، لكن البدو استطاعوا الإفراج عن ولده محمد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ١٨) الذي يعتبر جد كل أشراف مكة المكرمة تقريباً. وقد تحولت مكة بعد فترة وجيزة مسرحاً للقتال الضاري بين الحسنيين والحسينيين والجعفريين حول السيادة. ومن البدهي أن يكون الارتباط قوياً، بين صراعات أبناء العمومة، والفوضى الضاربة أطنابها، في مختلف نواحي دولة الخلافة العباسية. وقد أضيف إلى هذه الفوضى المستشرية عامل آخر جديد، ألا وهو ظهور طائفة القرامطة.

حركة القرامطة

بالرغم من أن كثيراً من أمور القرامطة الداخلية غامضة لدينا؛ لأن ماكتب عنهم كان من خلال الخصوم، فإنه من المؤكد أن الحركة القرمطية، بدأت بصفتها حركة علوية مزيفة، استغلت الميول الشيعية لتحقيق أهدافها. وقد استطاعت هذه الحركة من خلال الدعاية المنظمة على المستويين الداخلي والخارجي، وكذلك من خلال المظهر الديني الذي تبنته، إلى تحقيق الكثير من أهدافها. وسوف نستعرض ما كان يريده زعماء الحركة. فقد كان هؤلاء لا يريدون البناء، بل كانوا يريدون الهدم. لقد كان الهدف الأول لهؤلاء في كل الأمكنة التي ظهروا فيها سواء في العراق أو فارس أو سورية أو جنوب وجنوب شرق الجزيرة العربية (اليمن والبحرين) هو تحطيم الخلافة العباسية، التي كانوا يعتبرونها الركيزة السياسية للدين، الذي يحاربونه، ويحاولون القضاء عليه. لقد حقق هؤلاء نجاحات بارزة في فترة وجيزة. وعندما أسسوا دولتهم القوية في البحرين، رأوا أن من الأهمية بمكان توجيه ضربة حساسة للحكم العباسي المتهلهل في مكة المكرمة. فقد اعتقد هؤلاء أنهم إذا استطاعوا نقل الحجر الأسود، فإن الإسلام سيعاني من جراح أليمة، قد لا يشفى منها. ولتحقيق هذا التوقع الخاطئ، قاموا بإغلاق طريق الحج إلى مكة المكرمة وذلك عام ٩١٦م (٣٠٤هـ). ومن المعلوم أن طريق الحج كان يتعرض للأخطار، منذ فترة طويلة، قبل هذا التاريخ. فقد اعتاد البدو على إغلاق الطرق المؤدية إلى الحرمين، بحيث يصبح الحج أمراً مستحيلاً، في ظل هذه الظروف.

سجل التاريخ القرمطي في الحجاز فترة سبعين سنة من الفوضى العارمة، وخاصة في الميدان الاقتصادي. لقد ظهرت بدايات الحركات القرمطية حوالي عام ٨٩١م (٢٧٨هـ) غير أن آثارها السيئة تجلت بوضوح بعد عام ٩٦٠م. وفي هذه الأثناء كان حكام المدينة المقدسة يقبعون في بيوتهم لا يستطيعون عمل أي شيء، تجاه نداءات الاستغاثة المتكررة، التي يطلقها عامة السكان، للقضاء على الفوضى العارمة في المنطقة.

عندما زاد نشاط القرامطة في اليمن، كلف الخليفة في بغداد عام ٩٠٦م (٢٩٤هـ) عامله في مكة (كان مملوكاً ثم أعتق ثم تولى مكة منذ عام ٨٩٤م (٢٨١هـ))[1] بأن يرسل حملة إلى اليمن للقضاء على الأعداء. ولما توفي خلفه بعد موته عام ٩١٠م (٢٩٨هـ) ابن ملاحظ، الذي لقب بسلطان مكة؛ لأنه لم يكن هناك ممثل للسلطان أثناء تلك القلاقل. وهكذا بقي الوضع حتى دخل القرامطة، فاشتهر أمر قائد الخليفة التركي مؤنس، الذي قاتل القرامطة، وأصبح والياً على مكة عام ٩١٢م (٣٠٠هـ)، وكانت ولايته عقداً، ولم تكن مباشرة (أي ينيب عنه من يحكم المدينة). ونعلم بطريق الصدفة أن القاضي محمد بن موسى في عام ٩٠٨م (٢٩٦هـ) الذي كان يتولى الإشراف على إصلاحات المسجد الحرام، هو الذي كان يدير أمور المدينة الفعلية[2].

---

(١) الشخص المذكور أعلاه يدعى عج بن حاج (الطبري ج٣ص٢٢٠٤، ٢٢٨١، وكذلك أخبار مكة المشرفة ج١ ص ٣٤٢، ج٢ ص٢٠٢ ـ ٢٠٤، ج٣ ص١٤٤) (المؤلف).

(٢) هذ الفترة مجهولة في مكة حيث لم يعرف عن ولاتها إلا النزر اليسير، كما أن ترتيب الولاة غير متفق عليه في المصادر التاريخية، يقول السباعي في هذا الصدد: ومر عهد المعتضد والمكتفي والمقتدر إلى أن كان عام ٣١٧هـ في عهد القاهر، في فترة شبه مجهولة؛ لأن مؤرخي مكة يذكرون أن ولاة مكة في هذا العهد، لم يعرف منهم سوى عج بن حاج، ومؤنس الخادم، وابن ملاحظ، وابن مخلب، دون أن يذكروا ترتيبهم، وسني ولايتهم، والمعروف أن عج من موالي الأتراك المقربين في البلاط العباسي، وكذلك مؤنس الخادم، وقد كان من قواد المكتفي، وعرفه التاريخ لثورته المشهورة على الخليفة المقتدر، وكانت ولايته عقداً، ولم تكن مباشرة؛ لأنه من رجال البلاط في بغداد، الذين لا يستطيعون البعد إلى ولايات قاصية. أما ابن ملاحظ فيقول ابن ظهيره في الجامع اللطيف: إن الهمذاني ذكر في ترجمته أنه كان سلطاناً في مكة «كذا» من غير أن يذكر تاريخاً، أما ابن مخلب ويسميه بعضهم ابن =

ولايعرف المؤرخون على سبيل اليقين اسم الوالي الذي كان يشغل هذا المنصب، عندما قتل ١٥٠٠ من القرامطة أثناء أداء فريضة الحج عام ٩٣٠م (٣١٧هـ)، آلافاً من سكان مكة المكرمة وحجاجها، ثم قاموا بتدنيس الأماكن المقدسة، واقتلعوا الحجر الأسود من جدار الكعبة وأخذوه معهم.

لقد كان اعتقاد العامة أن مكة قادرة بعون الله أن تصد المعتدين. أما المثقفون فقد برروا هذا الغزو، بقولهم إن بضع مئات من الكفار، لا يمكن مقاومتهم من قبل الآلاف، مادامت مشيئة الله بحاجة لهم كأداة. وهؤلاء وأولئك قد قعدوا جميعاً عن الأخذ بالأسباب المؤدية إلى النصر. فلو لم يتقاعس أهل مكة في أداء واجبهم في الحماية، ولو أرسل الخليفة رجالاً إلى مكة بدلاً من المال، لربما كانت النتائج مختلفة تماماً عما آلت إليه.

إن فكرة احتلال مكة لم تكن واردة في حسابات القرامطة، فهم لم يكونوا يريدون الإصلاح هنا، بل كانوا يريدون التدمير. إن مكة المكرمة ليست الهدف الأساس، بل الهدف هو الخليفة ودينه. أما ماذا سيحدث للمدينة فلا يهمهم ذلك كثيراً. لقد كانوا يعتقدون انهم أحرزوا نجاحاً كبيراً بسلبهم الحجر الأسود؛ لأن ذلك سيبطل الحج إلى مكة. لكنهم وجدوا أنفسهم مخدوعين، فقد بقيت الكعبة، كما كانت سابقاً هدفاً للحجاج، بالرغم من فقدان الأمن، على الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة. ومنذ عام ٩٣٩م (٣٢٨هـ) سمح القرامطة لقوافل الحجاج أن تمر في الأراضي التي يسيطرون عليها، مقابل مبالغ كبيرة من المال يأخذونها لأنفسهم. وفي عام ٩٥٠م (٣٣٩هـ) أعادوا الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة المشرفة[1].

= محارب، ويرجح تقي الدين الفاسي اسمه الأول، فمن المؤكد أنه كان في ولاية مكة إلى سنة ٣١٧هـ، حيث أجلاه القرامطة عنها، ويذكره الفاسي في حوادث القرامطة بمكة، ويشير إلى أنه خرج لقتالهم في جماعة من أشراف مكة (السباعي ص١٦٨) (المحقق).

(١) لما يئست القرامطة عن تحويل الحجاج في حجهم إلى هجر، ردوا الحجر الأسود إلى محله، وورد سنبر بن الحسن القرمطي إلى مكة في يوم النحر، يوم الثلاثاء، عاشر من ذي الحجة، سنة ٣٣٩هـ ومعه الحجر الأسود. فلما صار بفناء الكعبة حضر معه أمير مكة يومئذ، (وهو ظناً) أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبدالعزيز العباسي، فأظهر سفطاً أخرج منه الحجر الأسود وعليه =

تنافس أمراء المسلمين على السيادة لحماية مكة

إذا نظرنا إلى الحجاز، في ظل انقسام الخلافة الإسلامية إلى دويلات عدة، نجده من الوجهة السياسية يمثل منطقة بدون سادة. أما من الوجهة الاقتصادية فهو قاحل مجدب. ونظراً لبعده فقد كان مهملاً ولايلقى عناية كاملة. وفي أيامنا هذه (١٨٨٥م) فإن تلك البلاد باستثناء الحرمين الشريفين، وبعض البقاع الساحلية، ما زالت على حالها كما كانت في الماضي. ولم يكن المؤرخون ليهتموا بذكر الحوادث التاريخية في الإمارات الصغيرة المتعددة، والتي كانت تقوم في بقاع الجزيرة العربية النائية[١]. والتي تعيش حياتها القصيرة في صراع مستمر وتبدل دائم. غير أن الأمر مختلف بالنسبة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة. فقد كانت بعض حقوق السيادة لأمراء الإسلام على هاتين المدينتين لها أهميتها الخاصة. ولاسيما الدعاء في خطبة صلاة الجمعة، هذا الدعاء أصبح في كل بلاد الإسلام، رمزاً لطاعة الشعب لولي الأمر. وكان لهذا الدعاء على منابر الحرمين تأثير بالغ خاصة في أيام الحج، حيث تجتمع وفود العالم الإسلامي المختلفة على ساحة عرفات لأداء هذا النسك. لقد كانت الظروف السياسية تلقي بظلالها أثناء موسم الحج. فعلى سبيل المثال الحاكم الذي يتولى ممثله قيادة الحج يكون في أعين الوفود المختلفة هو أمير المؤمنين. لقد كان الخلاف حول المركز الأول يؤدي إلى صراعات دامية بين ممثلي العالم الإسلامي، الذين قدموا لاداء شعائر الحج. فمن لم يستطع إثبات نفسه هنا، فقد ثقة سكان جميع المناطق الإسلامية

= ضباب من فضة، في طوله وعرضه تضبط شقوقاً قد حدثت فيه بعد قلعة وأحضر معه جصاً يشده به، فوضع حسن بن المرزوق البنّاء الحجر في مكانه الذي قلع منه، وقيل بل وضعه سنبر بيده، وقال: أخذناه بقدرة الله، وأعدناه بمشيئة الله. وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمر. ونظر الناس إلى الحجر فقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى. وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام (أخبار مكة المشرفة، ج٣ ص١٦٦).

(١) هناك إمارات صغيرة لم يلق المؤرخون لها بالاً. وتجد في كتب التاريخ إشارات متفرقة لمثل هذه الإمارات، منها على سبيل المثال إمارة علوية قامت في اليمامة في القرن الثالث الهجري وكان أمراؤها من العلويين، ونجد في كتاب عمدة الطالب الكثير من الإشارات لوجود أمراء من العلويين، ظهروا في بعض مناطق الحجاز أو اليمن أو الأراضي الداخلية لشبه الجزيرة العربية (المؤلف).

القادمين إلى هذه الديار. إن قمة الشرف هي أن يسمى الزعيم بحامي الحرمين. وقد كان هذا الأمر يثير مشكلات كثيرة بين الدول المستقلة، التي نشأت بعد ضعف الخلافة المركزية. فالأمراء المتنافسون كانوا جميعاً حريصين على نيل شرف هذا اللقب، سواء منهم الذين يدينون بالولاء والطاعة لعاصمة الخلافة، أو أولئك الخارجون على سلطتها، المعادون لوجودها واستمرارها.

إن الذي يرجح كفة الميزان لهذا الأمير أو ذاك، هو قوة الفصائل من الجيش، التي يرسلها الأمراء مع قوافل الحج لحمايتها. وكذلك مقدار الهدايا والأعطيات التي ترسل إلى العاصمتين المقدستين. فالولاء بالعطاء. فالذي يدفع أكثر من غيره، والذي تستطيع قواته الوصول إلى مكة أولاً، هو الذي ينال الرضا، ويقام له الدعاء. ويمكن القول باختصار إن الزعيم الذي يعد بالأمل الكبير، وتكون لديه القدرة على تنفيذ التهديد عند اللزوم، هو الذي ينال بركات المدينة المقدسة، ودعاء خطبائها على المنابر. وإذا تساوى أكثر من واحد من زعماء العالم الإسلامي بهذا الخصوص، فإن سادة مكة يعمدون إلى حل وسط، لا يشعر معه أي طرف من الأطراف بأنه خذل أو خسر.

هذه الصراعات وهذا التنافس الشديد على ولاء الأماكن المقدسة، بدا واضحاً خلال الفترة التي تحدثنا عنها سابقاً (٨٩١ ـ ٩٦١م) (٢٧٨ ـ ٣٥٠هـ). وقد كان هذا قبل انهيار الخلافة الكامل، الذي يحدده المشرقيون بعام ٩٣٦م (٣٢٥هـ).

أهمية مصر بالنسبة للحجاز

بدأت تظهر أهمية مصر بالنسبة للحجاز منذ عهد الطولونيين. غير أن سيطرة القرامطة على مناطق الجزيرة العربية، أوجد هدوءًا نسبياً في علاقات الحجاز مع دول الخلافة، سواء في مصر أو في العراق. إلا أن التنافس بين قادة قوافل الحج في مصر والعراق كان يشتد لدرجة الاقتتال في مواسم الحج. فقد كان القادمون من العراق يمثلون سلاطين البويهيين، الذين حموا الخلفاء العباسيين وسيطروا عليهم. أما القادمون من مصر فكانوا يمثلون سلطة الأخشيديين، الذين تولوا حكم مصر، والذين لا يريدون الإقرار بسلطة آل بويه، التي تشكل حاجزاً مانعاً بينهم وبين الخليفة. وكان يكسب هؤلاء

حيناً، وأولئك حيناً آخر، على أرض عرفات والمشاعر المقدسة. وفي بعض الحالات كان عليهم أن يتقاسموا السيادة من خلال القتال، كما حدث في عام ٩٧٠م (٣٥٩هـ)[١]. وعلى العموم لقد كان لمصر اليد العليا بعد ذلك حتى أن العراق قد تعطل قدوم الحج منه لعدة سنوات. فقد برزت قوة مصر وتأثيرها في الحجاز. غير أنها لم تكن تحت الزعامة الإخشيدية، كما كانت في السابق. فقد تسلم مقاليد الحكم فيها منذ عام ٩٦٩م (٣٥٨هـ) سلالة قوية استلمت السلطة في وادي النيل.

قيام دولة الفاطميين

منذ عام ٩٠٩م (٢٩٦هـ) ظهر في غرب إفريقية نواة دولة، مؤسسها عبيد الله، الذي كان يرأس طائفة شيعية، يعدّ القرامطة جزءًا منها، وهو من أحفاد علي وفاطمة. ولهذا السبب سميت هذه السلالة بالفاطميين. وقد تمكن أحفاده من توسيع رقعة دولتهم في غرب إفريقية، ثم زحفوا نحو مصر في عام ٩٦٩م (٣٥٨هـ). ونقل المعز لدين الله الفاطمي مقر حكومته إليها. وبدأت علاقة هؤلاء تتراخى تدريجياً مع القرامطة. وبمجرد أن وصل هؤلاء إلى السلطة، رفضوا التضامن والتعاون مع الأحزاب والفئات الأخرى. لقد حاول هؤلاء أن يدعموا مركزهم في الحرمين الشريفين منذ وقت مبكر ٩١٨م (٣٠٦هـ) وقبيل احتلالهم لمصر بفترة طويلة، غير أن سكان الحجاز لم يكونوا يثقون بقوتهم آنذاك، فانصرفوا عن طاعتهم. أما الآن وقد أعلنوا قيام خليفة علوي

(١) في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة أو في التي قبلها، كان بين الحجاج العراقيين والمصريين قتال بسبب الخطبة بمكة، على ماذكر العتيقي، لأنه قال: وحج بالناس سنة ٣٤٠ أو ٣٤١هـ أحمد بن الفضل بن عبدالملك من مكة. وعارضه أهل مصر مع عمر بن الحسن ابن عبدالعزيز وصحت الصلاة لأحمد بن الفضل. وكان أمير الحاج من بغداد عمر بن يحيى العلوي، ووقع بين عمر بن يحيى العلوي، وأبي الحسين محمد بن عبدالله العلوي، وكان حاجاً، والمصريين، قتال عظيم. وخطب أحمد بن الفضل بن عبدالملك على صنادق لسرقة المصريين المنبر بعرفة، وأقام الحج عمر بن الحسن بن عبدالعزيز بأجمه بالأتراك المصريين وأقام لهم الحج (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٣) وقد استمر الاقتتال على أرض عرفات لسنوات طويلة بعد ذلك بين الخلافة في بغداد والقرامطة والعبيديين في مصر. (انظر تفصيلات ذلك في المصدر السابق وكذلك ابن الأثير في حوادث السنوات من (٣٤٠ ـ ٣٦٣هـ).

الفاطميون يدعى لهم في الحرم

مضاد للخليفة العباسي وأمرائه من البويهيين، فقد أصبحوا جديرين بالمطالبة بشرف الخطبة في الحرمين الشريفين. وفي عام ٩٦٩م (٣٥٨هـ) يقول المؤرخون بأنهم حصلوا مقابل أعطيات كثيرة على مركز السيادة الأول. فقد تم استثناء الخلفاء العباسيين من الخطبة. وأصبح يدعى لهم على منابر الحرمين الشريفين[١]. وعندما تأخر المكيون والمدنيون عام ٩٧٦م (٣٦٥هـ) عن مبايعة الخليفة الفاطمي الجديد، قرر الفاطميون وقف الإمدادات من مصر، وأرسلوا حملة لحصار المدينة المنورة[٢]. لقد كتب أحد الجغرافيين المسلمين يقول: إن الحجاز يعتمد على مصر اعتماداً كبيراً، خاصة فيما يتعلق بالمواد الغذائية. (المقدسي ص ١٠٤) ومع مرور الزمن زاد اعتماد الحجاز على مصر، حتى إننا لنجد الارتباط الوثيق بين حصول المجاعة في مكة، وانحباس الفيضان في نهر النيل[٣].

---

(١) ذكر الفاسي أنه في سنة ٣٥٨هـ خطب للمعز بن تميم بعد ابن المنصور العبيدي صاحب مصر بمكة والمدينة واليمن. وبطلت الخطبة لبني العباس. وفرق فيها قائد حج من مصر أموالاً عظيمة في الحرمين (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٥).

(٢) جاء في كتاب التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج٢ ص١٣٧: وفي عام ٣٦٥هـ توفي المعز لدين الله الفاطمي، وخلفه ابنه العزيز، فأوقف أمير المدينة الخطبة لهم، وأعادها للعباسيين. وأنزل الرايات البيضاء، ورفع الرايات السوداء. وكذلك فعل أمير مكة الحسني. ولايذكر المؤرخون سبباً لهذا التحول المفاجئ. ويرى عبدالباسط بدر أن سبب التحول هو بذل المال والهدايا لأمراء مكة والمدينة.
غضب العزيز، وأرسل جيشاً لاستعادة مكة والمدينة، ووصل الجيش إلى مشارف المدينة أواخر عام ٣٦٧هـ، فأرسل أميرها لقائد الجيش يطلب المفاوضة والصلح. فطلب القائد إعلان الولاء للفاطميين وإعادة الرايات البيضاء والخطبة للفاطميين وحدهم على المنبر. مكث الجيش عدة أيام في المدينة ثم خرج منها إلى مكة (بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج٢ ص١٣٧ ـ ١٣٨) وذكر الفاسي في أخبار سنة ٣٦٥هـ أن العزيز أرسل جيشاً في هذه السنة، فحصروا مكة، وضيقوا على أهلها (أخبار مكة ج٢ ص٣٤٦).

(٣) ذكر الفاسي في حوادث سنة ٤٧٧هـ أنه كان بمكة غلاء شديد، بلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذر وجوده، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك، فأرسل الله عليهم من الجراد ما ملأ الأرض،فتعوض الناس به، ثم عاد الحجاج، فسهل الأمر على أهل مكة. وكان سبب هذا الغلاء، عدم زيادة النيل بمصر على العادة، فلم يحمل منها الطعام إلى مكة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١٠).

نخلص إلى القول إنه خلال السبعين سنة الماضية التي تجولنا خلالها، وأحياناً تخطيناها، كانت سلطة الأشراف في بداية التكوين. فقد كان هؤلاء السادة كثيراً مايتعرضون لضغوط ومآزق من حماتهم أمراء العالم الإسلامي. ولقد كان للهبات ثم التهديدات التي يتعرض لها هؤلاء أثرها القوي في بلد فقير قليل الموارد. وكانت السلطات المحلية في مكة، تقرر مساندة طرف، دون طرف حسبما تمليه مصلحتها الشخصية. ولعل في هذه الظروف مايخدم نيّات السيادة العلوية، التي لاحظنا بروزها وتطورها في الحجاز منذ سنوات طويلة.

العلويون في بلاد الديلم

لقد ابتسم الحظ للعلويين خلال هذه الفترة. فقد قوي نفوذهم في بلاد الديلم. وقد ترك ذلك أثراً قوياً في نفس الخليفة منذ عام ٨٩٧م (٢٨٤هـ). وعندما أرسل هؤلاء الأموال الكثيرة لتوزع على أقاربهم في بلاد الخليفة، رأى الخليفة أن يتحرك ضدهم، لكنه توقف عن ذلك ٨٩٥م (٢٨٢هـ) نتيجة رؤيا، رأى فيها عليَ بن أبي طالب يأمره فيها بالتوقف[1]. لقد كان هذا الحلم مشابهاً لحلم آخر رآه الخليفة القادر بعد مائة عام، عندما

---

(١) روى الطبري في أخبار مكة سنة ٢٨٢ أن محمد بن زيد العلوي من طبرستان، وجه محمد بن ورد العطار، باثنين وثلاثين ألف دينار، ليفرقها على أهله ببغداد والكوفة ومكة والمدينة. فسعي به فأحضر دار بدر. وأعلم بدر المعتضد بذلك. واستطلع رأيه وما يأمر به. فقال المعتضد لبدر: يابدر ألا تذكر أني حدثتك أن الناصر دعاني، فقال لي: اعلم أن هذا الأمر سيصير إليك، فانظر كيف تكون مع آل علي بن أبي طالب ثم قال: رأيت في النوم كأني خارج من بغداد، أريد ناحية النهروان في جيشي، وقد تشوف الناس إليّ، إذ مررت برجل واقف على تل يصلي، لا يلتفت إليّ، فعجبت منه ومن قلة اكتراثه بعسكري، مع تشوف الناس إلى العسكر. فأقبلت إليه حتى وقفت بين يديه، فلما فرغ من صلاته قال لي: أقبل فأقبلت إليه فقال: أتعرفني ـ قلت لا، قال: أنا علي بن أبي طالب، خذ هذه المسحاة فاضرب بها الأرض، فأخذتها فضربت بها ضربات. فقال لي: إنه سيلي من ولدك هذا الأمر بقدر ماضربت بها، فأوصهم بولدي خيراً. قال بدر: فقلت بلى يا أمير المؤمنين: قد ذكرت. قال فأطلق المال، وأطلق الرجل، وتقدم إليه أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجه مايوجه به إليه ظاهراً، وأن يفرق لمحمد بن ورد مايفرقه ظاهراً، وتقدم بمعونة محمد على مانريد من ذلك (الطبري ج٣ص٢١٤٧). والرواية حول هذه الرؤيا تبقى رواية تحتمل الخطأ أو الصواب. والله أعلم.

عزل أهل الديلم سلفه عن العرش، حيث ظهر إليه علي ابن أبي طالب في المنام، وقال له: هذه السيادة ستسرك، وإن عمرك سيطول، وإنني أوصيك بمعاملة أحفادي وشيعتي بالحسنى: «وقد نفّذ الخليفة يومها هذا الأمر بكل دقة».

البويهيون يستولون على السلطة في بغداد

منذ عام ٩٤٥م (٣٣٤هـ) تبوأت العائلة البويهية الديلمية مقاليد السلطة المطلقة في عاصمة الخلافة بغداد[١]. وقد ترك البويهيون الخلفاء العباسيين في قصورهم ليمثلوا صورة العظمة والسيادة القديمة لدولة الخلافة. غير أن هؤلاء هم الذين كانوا يعينون الخلفاء أو يعزلونهم حسب رغباتهم ومصالحهم. وقد برهن هؤلاء عن طريق الكثير من الترتيبات التي اتخذوها، أنهم كبقية أبناء بلادهم شيعيون متحمسون[٢]. وتحت هذه المظلة ظهر للعيان أثر العلويين بوضوح في عاصمة الخلافة ومناطقها المختلفة. وفي بغداد أظهر الشيعة، بعد فترة وجيزة، شعارات التحدي، ونتج عن ذلك قتال في الشوارع، كان يتكرر بانتظام طيلة قرن ونصف القرن[٣].

لقد احتاج السلاجقة إلى وقت طويل، قبل أن يخففوا تأثير السيادة العلوية، وأن يهدئوا من آثار الحزب العلوي المدلل. وفي هذه الظروف ازداد التأثير العلوي ليشمل اختيار الخليفة[٤]. وقد تم على سبيل المثال خلال الفترة التي سبقت سيادة البويهيين عام ٩٣٥م (٣٢٤هـ) وبنجاح كبير استخدام خدمات العلويين كأمراء للحج، لأن في ذلك ضمان لحياة الحجاج، ولا سيما أن أمراء مكة ينتمون للعائلة نفسها[٥].

ولا شك أن اتفاقية عام ٩٢٩م (٣١٧هـ)، التي تم بموجبها فتح القرامطة لطريق الحاج، مقابل منح محددة، تمت عن طريق توسط العلويين. وفي أثناء حكم البويهيين كان زعماء العلويين في العراق يعينون أمراء للحج بانتظام. وكان

---

(١) ابن الأثير ج٨ ص٦٠، ٦١، ٧٨، ٤١١، ٤٢٤، ٤٤٣.

(٢) ابن الأثير ج٨ ص٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٣.

(٣) ابن الأثير ج٩ ص١١٩، ١٢٦، ١٤٦ ـ ١٤٧، ٢١٦ ـ ٢١٧، ١٤٨.

(٤) ابن الأثير ج٨ ص٢٧٥، ٣٠٨.

(٥) ابن الأثير ج٨ ص٢٣٢.

هؤلاء هم الذين يدافعون عن قضايا البويهين في مكة أمام الإخشيدين والفاطميين. وقد استعان البويهيون في حروبهم للبدو، الذين كانوا يغيرون على قوافل الحج، ببعض القبائل ذات الميول الشيعية[١]، مثل قبائل (بني مزيد)[٢] إحدى فروع قبائل الأزد.

لقد مضى البويهيون بعيداً في تنصيب زعماء العلويين بالوظائف المهمة لبعض الخلفاء[٣]، وربما نسي البويهيون أن هؤلاء ربما يستخدمون نفوذهم لصالح الفاطميين[٤] (خصومهم). وتظهر لنا الحقيقة جلية من أنه في عام ١٠٥٨م (٤٥٠هـ) كان عامة الشعب في العراق، ميالين لمبايعة الخليفة المضاد في مصر[٥]. ولقد كان العلويون دائماً وعند إحساسهم بضعف السلطة المركزية يتمتعون بتأييد عامة الشعب[٦].

الأشـــــراف والـــســـادة

لقد برزت أهمية آل علي في فترة الاضطرابات التي عاشتها الخلافة الإسلامية. فقد أصبحوا يلقبون من قبل المؤرخين بالأشراف، وهذا لقب لرؤساء العائلات العربية العريقة، التي تختار منها القبيلة في العادة زعيمها، أو يختار سكان المدن منها حكامها وأمراءها[٧]. وهذه العائلات لم يبق لها أي نفوذ. لقد انتقلت هذه الألقاب إلى أشراف العلويين، الذين برزوا إلى الوجود عن طريق الإسلام. وكذلك برز لقب سيد الذي أصبح أيضاً لقباً علوياً، ويحمل هذا اللقب معنى شريف نفسه. وأحياناً يحمل معنى مختلفاً، وكل اختلاف في التعبيرين، محدود بزمان معين ومكان معين[٨].

---

(١) ابن الأثير ج٩ ص٢٠٩، ٣٩٦، ج١٠، ص٣٠٦.
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص١٦٧، ١٧٢.
(٣) ابن الأثير ج٩ ص١٢٩، ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٤) ابن الأثير ج٩ ص١٥٦ ـ ١٥٧، ١٦٦، ٤٠٦.
(٥) ابن الأثير ج٩ ص٤٤١.
(٦) ابن الأثير ج٨ ص٤٣٧.
(٧) الطبري ج٢ ص٨٠، ٥٤١، ج٣ ص٦٣٥.
(٨) هذه الأيام (زمن المؤلف ١٨٨٥م) الحسنيون فقط الذين ساد أجدادهم في مكة، هم الذين يلقبون بالأشراف. وكبير الأشراف يلقب بالسيد. ويخاطب من قبل الشعب «سيدنا». وفيما =

ليس لدينا معلومات مفصلة عن الأسباب أو الاستعدادات التي اتخذت من أجل وصول الأشراف إلى حكم مكة، واستقلالهم بإمارتها. هناك حوادث بسيطة يمكن اعتبارها مقدمات، منها أن أحد الحسنيين واسمه محمد ابن سليمان طالب في عام ٩١٤م (٣٠١هـ) بالخلافة أثناء موسم الحج[١]. ومنها أن علوياً آخر، استولى على السلطة في المدينة عام ٩٤١م (٣٢٩هـ)، فخاف الناس زيارة المدينة، نظراً لشدته[٢]. ومنها أيضاً ثورة محمد بن موسى الثاني (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ١٨) ضد الخليفة المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٥م). وقد أطلق البدو سراح محمد بن موسى هذا عندما أراد أن يأخذه أحد موظفي الخليفة مع أبيه إلى بغداد على نحو ماذكرنا سابقاً. وفيما عدا هذه الحوادث المتفرقة هناك صمت مطبق عن أخبار الأشراف، وأخبار الحجاز بشكل عام، حتى منتصف القرن الرابع الهجري (٩٦١م) (٣٥٠هـ)، حيث نجدهم فجأة حكاماً لمكة. ولاشك أن هذا كان مثار استغراب المؤرخين. غير أن السكان المعاصرين لتلك الفترة، كان استغرابهم قليلاً؛ لأن دهاء الحسنيين في غرب الجزيرة العربية كان معروفاً لديهم.

إن فتح مكة من قبل جعفر (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم

= عدا ذلك، فإن كلمة سيد تطلق على الحسينيين فقط، رغم أنه معروف بأن سادة اليمن، كانوا حسنيين. وفي مصر وسورية وغيرها يسمى الناس كل أحفاد محمد ﷺ أشرافاً، وكذلك كان الأمر في جزيرة العرب. أما في الهند فإن كلمتي سيد وشريف تختلف عنها في الحجاز(المؤلف).

ذكر السباعي في معرض حديثه عن آثار الفاطميين في مكة: واعتقد أن من أوليات الفاطميين في مكة تلقيب حكام مكة من الحسينيين بلقب الأشراف، وتلقيب بني عمومتهم بالسادة، ولم تكن هذه الألقاب معروفة من قبل ثورة جعفر في عهد الفاطميين (السباعي ١٤٠٤: ٢١٧).

(١) ذكر السباعي أن محمد بن سليمان من أبناء العلويين، استغل فرصة انشغال العباسيين بالفتنة، فثار بمكة واستقل بإمارتها في عام ٣٠١هـ، وخطب لنفسه في موسم الحج، ولم يذكر السباعي مدة بقاء هذا الحاكم، ولعلها كانت قصيرة، ولا تستحق عناية المؤرخين، كما أنها كانت آخر ثورة للعلويين، إلا إذا اعتبرنا ثورة الأشراف في القرن الرابع الهجري استئنافاً جديداً (انظر السباعي، ١٤٠٤هـ، ص١٦٧ ـ ١٦٨).

(٢) ابن الأثير ج٨ ص٣٣٤هـ.

جعفر يستولي على مكة

٢٨)، حفيد محمد بن موسى الثاني، قد بدأ وكأنه أقل من حدث كبير، حتى أن المؤرخين لم يذكروا التاريخ الذي وقع فيه. وكأن لسان حال المؤرخين يقول إن التجارب قد أظهرت بأن أعمام المذكور، قاموا باحتلال المدينة عدة مرات، على مر السنين السابقة. وقد بدا وكأن المغامرين من الأشراف، بدؤوا يتطلعون إلى احتلال المناطق الأخرى، الأكثر فقراً، بعد أن عجزوا عن احتلال المدينة الغنية. غير أن مايمنع هؤلاء كان خوفهم من جيوش الخلافة. أما في أيام الفوضى هذه، التي سادت هذه الديار، فقد زالت رهبة الخلافة من نفوس هؤلاء، ولم يعد هؤلاء مكترثين بعدم الرضا الذي يبديه الخليفة عنهم. وربما كان الفاطميون، في مصر هم الذين شجعوا جعفر على احتلال مكة، لكي يحصلوا على وسيط مريح، للاستئثار بحقوق السيادة على بلاد الحرمين. وقد قام الفاطميون[١] قبل هذا التاريخ بتسوية نزاع نشب بين الحسنيين والحسينيين والجعفريين، الأمر الذي مهد لهم الطريق إلى مكة.

هناك خلاف كبير حول التاريخ الذي تولى فيه جعفر إمرة مكة. فبعض الروايات تشير إلى أنه ملكها مابين عامي ٩٥١ (٣٤٠هـ) و ٩٦١ (٣٥٠هـ)[٢]. أما الرواية الأخرى فتحدد أعواماً ثلاثة هي ٩٦٦ (٣٥٦هـ)، ٩٦٧ (٣٥٧هـ)، ٩٦٨ (٣٥٨هـ)[٣]. وقد استمر في حكمه مدة عشرين سنة

(١) ذكر السباعي أنه قبل تولي جعفر أمر مكة، كان هناك علاقة خاصة بين المعز لدين الله الفاطمي ـ قبل أن يحتل مصر ـ وكان يومها في المغرب، مع أشراف مكة. فقد أرسل رجالاً من طرفه لتسوية بعض الخلافات التي بلغه أنها ناشئة في مكة بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب. وقد عقد هؤلاء بين الفريقين صلحاً في المسجد الحرام. وأدوا في الوقت نفسه دية القتلى من بني الحسن، مما حملوا من أموال المعز، وذلك في سنة ٣٤٨هـ (انظر السباعي ١٤٠٤هـ ص١٩٣).

(٢) هذه الرواية موجودة في مخطوط عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب صفحة ١١٢، وفيها يقول المؤلف: «والأمير أبو محمد جعفر، أول من ملك مكة من بني موسى الجون، وهو مبدأ تمكن الأشراف من حكومتها. وكان ذلك بعد الأربعين والثلاثمائة». وهذا التاريخ موافق ٩٥١ ميلادية.

(٣) هذه الرواية موجودة في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ وتعتمد على نهاية دولة =

تنتهي بموته أو حوالي عام ٩٨٠م (٣٧٠هـ)[١]. ويذكر المؤرخون من أعماله، أثناء فترة حكمه، أنه قتل القائد التركي، الذي كان يمثل الفاطميين في مكة. وأنه حارب وقتل الكثير من البدو العصاة المحيطين بالمدينة المقدسة، حتى أعلنوا ولاءهم له. ثم أرسل ابنه إلى الخليفة الفاطمي بمصر، ليثأر منه بالقائد الذي قتل، غير أن الحقيقة هي أنه أرسله لتقديم الاعتذارات، التي وجدت استقبالاً حسناً لدى الخليفة الفاطمي، الذي عفا عنه وأطلق سراحه[٢]. وهكذا نرى الشريف الأول لمكة، يدشن حكمه بالقتال، الذي أصبح أمراً أكثر أهمية مع مرور الزمن.

عيسى يشارك أباه في الحكم

وفي أثناء حكمه، وحكم ابنه عيسى (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٣١) الذي استمر لغاية ٩٩٤م (٣٨٤هـ)، ثبتت سيادة الفاطميين في مكة. غير أنه في عام ٩٧٦م (٣٦٦هـ) أرسل العزيز ابن المعز العبيدي جيشاً حاصر به مكة، وضيق على أهلها كثيراً، حينما لم يخطبوا للعزيز بعد موت أبيه. ومن هنا نرى أن الثقل السياسي قد تحول إلى المدينة المقدسة، خلال فترة الاضطرابات والانقسامات التي حلت بالخلافة، والتي نتج عنها استقلال الحجاز النسبي، ومحاولة كسب تأييده، لأي من دويلات الخلافة.

وعلى أثر وفاة عيسى، تولى الإمارة أخوه وخليفته أبو الفتوح (٩٩٤ ـ

= الإخشيد، وتولي الفاطميين أمر مصر، لأن تولي جعفر، كما يراه المؤرخون، لم يتم إلا بعد موت كافور الإخشيدي. وهناك خلاف حول تاريخ وفاة كافور، ولذلك جاء الاضطراب في الروايات التاريخية. وعلى العموم فالسنوات الميلادية في المتن تقابل السنوات ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨ من الهجرة النبوية الشريفة.

(١) هذا التاريخ موجود على حاشية الصفحة ١١٢، من مخطوط عمدة الطالب المذكور آنفاً بالصورة التالية: (وكانت وفاته سنة سبعين وثلاثمائة) وهذا التاريخ يعادل ٩٨٠م الواردة في المتن.

(٢) جاء في مخطوطة عمدة الطالب ص١١٢: والأمير أبو محمد جعفر، أول من ملك مكة من بني موسى الجون، وهو مبدأ تمكن الأشراف من حكومتها، وكان ذلك بعد الأربعين والثلاثمائة. وكان حاكم مكة (انكجوار) التركي، من قبل المعز لدين الله الفاطمي، فقتله الأمير جعفر، وقتل من الطلحية والهذيلية والشكرية خلقاً كثيراً، واستوت له تلك النواحي، وبقيت في يده نيفاً وعشرين سنة. وكان له عدة أولاد منهم عبدالله القود، أرسله أبوه إلى مصر بعد أن قتل (انكجوار) فعفا عنه.

مرسوم الحاكم بانتقاص الصحابة

١٠٣٩م) (٣٨٤ ـ ٤٣٠هـ). وقد تزامن حكمه مع حكم العبيدي، الحاكم بأمر الله الفاطمي، الخليفة شبه المجنون. وقد اختلف ابو الفتوح مع الحاكم؛ لأن الأخير أرسل إليه سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وأمره أن يأمر الخطيب بقراءته على المنبر. فشق ذلك على أبي الفتوح، الذي أعلن عصيانه وقام بتنصيب نفسه خليفة[١]، وبايعه شعب الحجاز. وقد عمل ابن أحد

---

(١) يروي ابن فهد في إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٦ ـ ٤٢٧ في أخبار سنة (٣٩٠هـ) قصة الخلاف بين الحاكم وأبي الفتوح وفيها يقول: أشار بعض الزنادقة على الحاكم العبيدي، صاحب مصر، بنبش قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما وحملهم إلى مصر. وزين له ذلك. فدخل ذلك عقل الحاكم، فأرسل إلى أبي الفتوح أمير مكة يأمره بذلك. فسار أبو الفتوح إلى المدينة، وأزال عنها إمرة بني الحسين، لما بلغه عنهم في القدح في نسب العبيديين. وجلس أبو الفتوح في المسجد، وحضر إليه جماعة من أهلها، لأنه كان بلغهم ماقدم بسببه. وكان حضر معهم قارئ يعرف بالركباني. فقرأ بين يدي أبي الفتوح في المجلس ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [التوبة، الآيات: ١٢ ـ ١٣]، قال: فماج الناس، وكادوا أن يقتلوا أبا الفتوح، ومن معه من الجند. فلما رأى أبو الفتوح ما الناس عليه قال: الله أحق أن يخشى، والله لا أتعرض لشيء من ذلك. ودع الحاكم يفعل فيَّ ما أراد. ثم استولى عليه ضيق الصدر، وتقسيم الفكر، كيف أجاب؟! فما غابت الشمس في بقية ذلك اليوم، حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرض تزلزل منها، حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيل بسروجها، كما تدحرج الكرة على وجه الأرض. وهلك خلق كثير من الناس. وانفرج هم أبي الفتوح وذهب روعه من الحاكم، لما أرسل الله تلك الرياح، التي شاع ذكرها في الآفاق، لتكون له حجة عند الحاكم من الامتناع في نبش القبور الكريمة، ثم عاد أبو الفتوح إلى مكة، وعاد بنو الحسين إلى المدينة. وفي أخبار سنة ٣٩٥هـ ص٤٣١ يروي ابن فهد أن الحاكم أرسل إلى صاحب مكة أبي الفتوح سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وجرّح به بعض أزواج النبي ﷺ فأرسل به الأمير إلى القاضي الموسوي ـ وأظنه إبراهيم بن إسماعيل وهو يومئذ قاضي مكة وما والاها وأمره بقراءته على الناس. فلما فشا ذلك عند الناس من المجاورين والقاطنين بمكة المنتجعين وغيرهم من قبائل العرب المجاورة ـ هذيل ورواحة ـ زحفوا إلى المسجد غضباً لله تعالى ولنبيه ﷺ ولصحابته رضوان الله عليهم. فلما بلغ ذلك القاضي أخّر الخروج وتباطأ، فطال انتظار الناس له حتى قال قائل: لقد صعد المنبر. فرماه الناس بالحجارة ورصفوا إليه، فلم يجدوا عليه أحدا. وتكسر المنبر فصار رميماً، وكان يوماً عظيماً ومشهداً مهيباً ولم يقدر بعد ذلك أحد أن يعلن بذلك المذهب.

=

الوزراء[1] ـ وقد قتل الحاكم أباه، والتجأ إلى قبائل طيِّئ في سورية ـ على تشجيع أبي الفتوح وإغرائه بانتزاع الخلافة لنفسه، وإعلان الثورة ضد الفاطميين.

أبو الفتوح يطالب بالخلافة لنفسه

ذهب أبو الفتوح بعد أن بايعه شعب الحجاز حوالي عام ١٠١١م (٤٠١هـ) بسيف يقال إنه سيف علي، وعصا النبوة، إلى قبائل طيِّئ في سورية، ليأخذ لنفسه البيعة، التي مهد له فيها الخارج على سلطان الحاكم. وقد قابله زعماء البدو بالرضا والسرور. غير أن الخليفة الجديد قد لحظ بسرعة، أن هدايا النقود، التي أرسلها الحاكم إلى هؤلاء، قد أعطت تأثيراً أفضل وأقوى من آثاره المقدسة. وهكذا أسرع بالعودة إلى مكة في العام التالي، حيث وجد أن أخاه[2] أو أحد أقاربه، ويدعى أبا الطيب داوُد من بني عمه السليمانيين، وبتشجيع من الحاكم نفسه، قد اغتنم الفرصة ليحل محله في الإمارة. وقد أقنعه ذلك بضرورة أن يتصالح مع الحاكم، وأن يتخلى عن كل الخطط بعيدة المدى للحصول على الخلافة.

حوالي عام ١٠٢٣م (٤١٣هـ)[3] أوجدت جريمة ارتكبها أحد المصريين،

= ولعل هذه الأحداث قد شجعت أبا الفتوح على إعلان التمرد والعصيان والمطالبة لنفسه بالخلافة. والله أعلم.

(١) هذا الشخص هو أبو القاسم المغربي، الذي قتل الحاكم أباه وأخاه. فهرب إلى آل الجراح الطائي بالرملة، ولزم حسان بن مفرج بن الجراح الطائي، فأجاره ومنع الطلب عنه. وقد أوقع أبو القاسم بين آل الجراح والحاكم حيث أغراهم بقتل المقدم، الذي أرسله الحاكم إلى الرملة، ثم أقنعهم بضرورة مبايعة أبي الفتوح، أمير مكة بالخلافة، فأمر حسان الوزير أبا القاسم بالتوجه إلى أبي الفتوح في مكة. وحرضه على طلب الخلافة، وسهل عليه الأمر، وضمن له الوفاء. فشكا أبو الفتوح إلى أبي القاسم قلة المال، فأشار عليه بأخذ ما في خزانة الكعبة من مال، وماعليها من أطواق الذهب والفضة، وضربه دراهم ودنانير ففعل، ودعا إلى نفسه، وخطب لنفسه بالخلافة، وتلقب بالراشد بالله، وأظهر ذلك، وبايعه أهل الحرمين (ابن فهد، اتحاف الورى ج٢ ص٤٣٧ ـ ٤٣٨).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة نقلاً عن النويري، أن الذي خرج بمكة، هو أخ أبي الفتوح، وليس ابن عمه (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠٩).

(٣) يرى الذهبي وابن الجوزي أن الحادثة وقعت عام ٤١٣هـ بينما ابن الأثير يثبتها في حوادث عام ٤١٤هـ (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٨: وكذلك ابن الأثير حوادث ٤١٤هـ).

محاولة الاعتداء على الحجر الأسود

غضباً شديداً في مكة، فقد اندفع رجل إلى الحجر الأسود بدبوس محاولاً كسره، وهو يصيح إلى متى يعبد هذا الحجر؟ وقد تصدى له أحد أبناء مكة فقتله، وقد كان ذلك سبباً في إلحاح الناس على المصريين بالسلب والنهب[١].

لقد مرت أيام ابي الفتوح وابنه محمد شكر (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٣٥) الذي حكم فيما بين سنتي (١٠٣٩ ـ ١٠٦١م) (٤٣٠ ـ ٤٥٣هـ)[٢] بهدوء، لم يعكر صفوه سوى بعض سنوات الجوع التي مرت على المدينة المقدسة[٣]. وكان أبو الفتوح وولده شكر يتمتعان بمواهب شاعرية رقيقة[٤]. ويروى عن أبي الفتوح وعن أخته بعض الحكايات الهزلية التي

---

(١) جاء في إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٤٤٨ وفي حوادث عام ٤١٣هـ في يوم الجمعة يوم النفر الأول ـ ولم يكن رجع الناس بعد من منى ـ: عمد بعض الملاحدة من المصريين، الذين استغواهم الحاكم العبيدي، وأفسد ديانتهم، وكان أحمر اللون، أشقر الشعر، تام القامة، جسيماً طويلاً، وبإحدى يديه سيف مسلول، وبالأخرى دبوس، بعدما فرغ الإمام من الصلاة، فقصد الحجر الأسود كأنه يستلمه، فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متوالية بالدبوس... وقال إلى متى يعبدالحجر الأسود ـ ولا محمد ولاعلي يمنعني عما أفعله، فإني أريد اليوم أهدم هذا البيت وأرفعه. فاتقاه أكثر الناس الحاضرين وخافوه وتراجعوا عنه وكاد أن يفلت ـ وكان على باب المسجد عشرة من الفرسان على أن ينصروه ـ فاحتسب رجل من أهل اليمن ـ أو من أهل مكة أو غيرهما ـ وثار به فوجأه بخنجر. واحتوشه الناس فقتلوه، ثم تكاثروا عليه فقطعوه وحرقوه بالنار. وقتل جماعة ممن اتهم بمصاحبته ومعاونته على ذلك المنكر، وأحرقوهم بالنار، وكان الظاهر منهم أكثر من عشرين، غير ما اختفى منهم. فثارت الفتن، وألح الناس في ذلك على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب، وعلى غيرهم في طريق منى إلى البلد ثم ركب أبو الفتوح أمير مكة فأطفأ الفتنة، وردهم عن المصريين.

(٢) ذكر صاحب كتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص١١٥ أن وفاة الأمير تاج المعالي شكر، كانت سنة ٤٦٤هـ، ولعل ذلك خطأ، والصحيح أنه توفي سنة ٤٥٣هـ. وقد ذكر ذلك النجم ابن فهد في إتحاف الورى في أحداث عام ٤٥٣هـ (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٦).

(٣) لعل أهم هذه السنوات هي سنة ٤٤٧هـ، في عهد ولاية شكر، كما ذكر ابن فهد، في إتحاف الورى ص٤٦٤.

(٤) ذكر محقق كتاب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام شيئاً يسيراً من شعر شكر. (انظر عبدالعزيز بن فهد الهاشمي القرشي: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٩٨).

تعبر عن القوة الجسدية، التي لا يمكن تصديقها، سواء بالنسبة للأمير أو للأميرة[١].

الصراع حول السلطة

لقد أدت وفاة الأمير شكر إلى قيام صراع بين الحسنيين؛ لأن شكراً هذا لم يخلف أبناء[٢]. ويسمى المؤرخون المكيون فخذ قبيلة الحسنيين، الذي انتهى بموت شكر، باسم الموسويين، نسبة لجدهم الأول الملقب موسى الثاني (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ١٣) بالرغم من أن هذا الاسم يمكن إطلاقه على طبقتين من طبقات الأشراف الثلاثة التالية.

لم تكن للموسويين أهداف سياسية طموحة، باستثناء المحاولة غير الذكية التي قام بها أبو الفتوح، لإعلان نفسه خليفة للمسلمين. ولم يكن باستطاعتهم عمل أكثر مما عملوه في مكة، غير أنهم قاموا بإخضاع القبائل البدوية وتأديبها في المناطق المجاورة. أما رعاياهم المكيون، فإنهم لم يشغلوا بالهم بهذا الأمر، ولم يهتموا حتى بتأمين طرق الحج، التي يأتي دخلهم منها. أما الأتاوات التي كانت تدفعها قوافل الحج منذ عام ٩٣٩م (٣٢٧هـ) إلى القرامطة[٣]، فقد

عدم تأمين طرق الحج

---

(١) جاء في كتاب أمراء البلد الحرام لمؤلفه أحمد زيني دحلان ص٢٩ ـ ٣٠: وكان فيه [أبو الفتوح] من الشجاعة والنجدة والقوة مالا مزيد عليه. يحكى أن أخته أرسلت إليه بدراهم ليأخذ لها حنطة، فأنف من ذلك، فأخذ الدراهم وفركها بيده حتى محا رسمها، وأذهب نقشها، وردها إليها مع حنطة أرسلها لها. وقال لحامل الدراهم: إن هذه الدراهم زيوف لا تصلح. فبلغ أخته ذلك. وكانت مثله في القوة. فأخذت كفاً من الحنطة وفركتها حتى صيرتها دقيقاً، ثم أرسلت به إليه وقالت: إن هذه الحنطة لا تصلح.

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠٩ ـ ٢١٠: ذكر ابن حزم في الجمهرة ما يقتضي أن عقبهم (أبو الفتوح وشكر) قد انقرض. وأن مكة وليها بعد شكر، عبد كان له؛ لأنه قال: وقد انقرض عقب جعفر المذكور؛ لأن أبا الفتوح لم يكن له ولد إلا شكر، ومات شكر، ولم يولد له قط. وصار أمر مكة إلى عبد كان له. وذكر صاحب المرآة عن محمد ابن هلال الصالحي، ما يقتضي إن لشكر نسلاً، وهو يخالف ما ذكره ابن حزم. ويبدو أن ما ذكره المؤلف في المتن هو الصحيح من أن شكراً لم ينجب أبناء ذكوراً، ولكن يبدو أنه أنجب على الأقل ابنة واحدة؛ لأن صاحب المرآة ذكر أن أبا جعفر محمد بن أبي هاشم الحسني أمير مكة، كان صهر شكر على ابنته (انظر كذلك غاية المرام في أخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٩٩).

(٣) جاء في إتحاف الورى: كان الحج قد بطل في سنة (٣١٧) إلى هذه السنة (٣٢٧هـ). =

تحولت بعد أن ضعف هؤلاء، إلى البدو الذين تمر طرق القوافل عبر مناطقهم[١]. ومنذ عام ٩٨٦م (٣٧٦هـ) سار أكثر بدو آسيا الوسطى، على المنوال نفسه، حيث لم يسمحوا لأي حاج بالمرور دون دفع الرسوم[٢]. ومع ذلك لم يكن نهب الحجاج وسلبهم أمراً نادراً.

فقد تختلق الأسباب الواهية لسلب الحجاج ونهبهم، فعلى سبيل المثال، ادعى أحد شيوخ البدو، بأن المال الذي دفع إليه في العام الماضي كان عملة مزورة[٣]. وقد لا يكون هناك أي سبب للنهب[٤] .فقد كان البدو الذين يصطحبهم الحجاج لحمايتهم، هم الذين يقومون بسلبهم كل مايملكون[٥]. وهكذا كان الحجاج أحياناً لا يستطيعون تأدية فريضة الحج، وخاصة من العراق مقر الخلافة[٦]، وقد حدث ذلك لسنوات عديدة. وقد كانت بعض الأقطار كخراسان أكثر جرأة وحماساً في إرسال بعض الحجاج، الذين

= فكاتب أبو علي عمر بن يحيى العلوي الفاطمي في العراق أبا طاهر القرمطي أن يخلي سبيل الحاج على مكس يأخذه. وهي أول سنة مكس الحاج فيها، ولم يعهد ذلك في الإسلام (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٣٨٧).

(١) جاء في إتحاف الورى بأخبار أم القرى في حوادث سنة ٣٨٠هـ: واعترض الحاج الأصيفر محمد بن حنين بن حماد، ودفع القرمطي عن طريق مكة. وطلب من الحاج ماكان يأخذه القرمطي، فاستنظره أحمد بن محمد بن عبيد الله العلوي (أمير الحج بالنيابة) إلى حين عود الحاج من مكة، فانصرف وعاد، فنزل الثعلبية إلى أن وافى الحاج فاستوفى منهم المال، وزال أمر القرامطة. (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٤٢١). وانظر ابن الأثير ج٩ ص١٠٢.

(٢) ابن الاثير ج٩ ص٢٢٩، ٢٩٢.

(٣) ذكر صاحب إتحاف الورى أنه في عام ٣٨٤هـ خرج الحاج العراقي فاعترضهم الأصيفر الأعرابي، وصدهم عن الطريق، ومنعهم من الجواز وحاربهم. وقال إن الدنانير التي أرسلها السلطان عام أول، كانت دراهم مطلية، وأريد العوض. وقال لاأفرج عن الطريق إلا بعد أخذ رسم سنتين. وطالت المخاطبة والمراسلة إلى أن ضاق الوقت على الحجاج، ولم يكن لهم به طاقة فغادروا، ولم يحج في هذه السنة أهل الشام واليمن، وإنما حج أهل مصر والمغرب خاصة (انظر ابن فهد، إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٣).

(٤) ابن الأثير ج٩ ص١٢٩، ١٤٥.

(٥) ابن الاثير ج٩ ص٢٩٤.

(٦) ابن الأثير ج٩ ص٣٠٢، وأخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٥.

يتبعون كل الوسائل الممكنة، التي توصلهم إلى هدفهم المقدس[1]. كل هذه الظروف والملابسات التي تتعلق بأمور السفر لم يتغير مضمونها، وإن تغير شكلها واستمرت حتى وقتنا هذا (وقت وجود المؤلف في مكة عام ١٨٨٥م) (١٣٠٣هـ).

وبعد موت شكر، فإن العائلة التي ينتمي إليها أبو الطيب المذكور آنفاً، قد بدأت تظهر على مسرح الأحداث في مكة، عن طريق القوة. وقد عرفت هذه الأسرة بأسماء أجداد أقدم، من مثل الفاتكيين (بني فاتك) والسليمانيين أيضاً، إلا أنها اشتهرت باسم (بنو أبي الطيب الحسنيون).

الأمير الصليحي في مكة

وقد تزامنت هذه الأحداث مع وصول الأمير المتدين الصليحي إلى السلطة في اليمن. وفي عام ١٠٦٣م (٤٥٥هـ) قدم إلى مكة بوفد كبير لأداء فريضة الحج[2]. وأعاد إلى المدينة النظام والأمن، ووضع حدوداً ضيقة لعشوائية وتسلط الأشراف، ورد بني شيبة عن قبيح أفعالهم، فتنفس أهل مكة الصعداء. وقد امتدحه المؤرخون المكيون كثيراً. أما بالنسبة للأشراف فقد بدا هذا الرجل كعدو مشترك للجميع. وبعد بضعة أسابيع جهزوا أنفسهم جميعاً لقتاله، وقالوا له اجعل منا أميراً تختاره، أما أنت فيجب عليك أن تغادر المدينة. وبهذه الكلمات يمكن إيجاز أحوال المدينة المقدسة خلال

---

(١) ابن الاثير ج٩ ص٢٢٩، ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) ذكر صاحب إتحاف الورى في أحداث سنة (٤٥٥هـ) في سادس ذي الحجة، دخل علي ابن محمد بن علي الصليحي صاحب اليمن مكة وملكها. وفعل فيها أفعالاً حسنة، واستعمل الجميل مع أهلها، وأظهر العدل والإحسان، ومنع المفسدين، وطابت به قلوب الناس، وأمن الحج أمناً لم يعهد مثله، لإقامته السياسة والهيبة، حتى كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة، وتقدم بجلب الأقوات، فرخصت الأسعار. ورفع جور من تقدم. وظهرت منه أفعال جميلة، وانتشرت له الألسنة بالشكر، وكثرت له الأدعية، وكان متواضعاً، إذا جاز على جمع سلم عليه بيده. وكسا البيت ثياباً بيضاء حريراً صيفاً، ورد بني شيبة عن قبيح أفعالهم، ورد إلى البيت من الحلي ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون أخذوه، لما ملكوا بعد شكر؛ لأنهم حملوه إلى اليمن، فابتاعه الصليحي منهم ـ وكانوا قد عرَّوا البيت والميزاب ـ (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ وانظر أيضاً أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٠).

هذه الفترة من تاريخها، فهي دائماً لقمة سائغة للأقوى، أو هي ملك لأحد أبناء الأشراف الذي يختاره ويفضله أحد السلاطين الأقوياء من خارج الجزيرة العربية.

لقد انسحب الأمير المتدين، بعد أن عين سيداً لمكة[1] من أحد أبناء الهواشم، الذين يختلفون عن فرع الموسويين، الذين تكلمنا عنهم سابقاً، وقلنا إنهم ينتسبون إلى جدهم المدعو أبو هاشم (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٢٧). ومن الطبعي أن تصبح الأمور بعد سفر الصليحي صعبة بالنسبة للأمير الجديد محمد بن أبي هاشم (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٤٠) الذي كان عليه أن يثبت وجوده أمام السليمانيين المعزولين. ومحمد بن أبي هاشم ينتمي إلى أسرة عظيمة، فقد كان والده (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٣٨) وجده (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٣٤) يحملون لقب الأمراء. وهناك من لا يستبعد أن أبا هاشم قد مارس صلاحيات الحكم، في أثناء فترة الاضطرابات، التي تلت موت الأمير شكر، قبيل تنصيبه من قبل الصليحي.

الشريف أبو هاشم

وفي المقابل كان السليمانيون أيضاً سادة أقوياء، ولم يسلِّموا بسيادة الأمير الجديد، إلا بعد قتال مرير كسب خلاله ولبعض الوقت السيادة بطلهم المدعو حمزة بن أبي وهاس (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٣٦). ومن خلال هذا التغيير المستمر في الزعامة، يتضح لنا تباين المعلومات،

---

(١) جاء في إتحاف الورى أنه في محرم سنة ٤٥٦هـ بعث الأشراف الحسنيون إلى علي بن محمد الصليحي ـ وكانوا قد هربوا من مكة لما دخلها الصليحي ـ أن أخرج من بلادنا، ورتب منا من تختاره. فرتب أبا هاشم محمد بن جعفر الحسني، وكان صهر شكر بن أبي الفتوح على ابنته، وأمّره على الجماعة، وأصلح بين العشائر واستخدم له العساكر وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً ورجع إلى اليمن.
وقيل إن الصليحي رحل إلى اليمن متخوفاً من الأشراف العلويين؛ لأنهم تجمعوا، فكان أن وقع الوباء بأصحابه فمات منهم ٧٠٠رجل. ولم يبق من أصحابه إلا نفر يسير، فأقام بمكة ـ نائباً له ـ أبا هاشم المذكور، ثم سار إلى اليمن. (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٩).

حول بدء حكم أبي هاشم، ومدة سيادة حمزة[١]. والمهم أن أبا هاشم (١٠٦٣ ـ ١٠٩٤م) (٤٥٦ ـ ٤٨٧هـ) قد حكم في السنوات الأولى من الصراع المرير ضد السليمانيين.

لقد اتبع الفرع الحاكم الجديد، الأسس القديمة في استغلال حقوق السيادة لصالحه. ففي ذلك الوقت كانت السلطة في بغداد بأيدي السلاجقة، بعد أن كانت بأيدي البويهيين في البداية. وقد عرف الشريف أبو هاشم بأن السلطان في بغداد يهمه الاعتراف بسلطانه في الأراضي المقدسة؛ لذا فقد أمر في عام ١٠٧٠م (٤٦٢هـ) بأن يدعى في صلاة الجمعة للخليفة العباسي، ثم السلطان السلجوقي بدلاً من الدعاء للفاطميين. وقد حصل بالمقابل على مبلغ هائل من النقود والأعطيات[٢]. ومن الجدير بالذكر أن المذهب الذي كان مسيطراً في مصر، هو المذهب الشيعي، الذي تبناه الفاطميون. إن تغير التبعية في مكة من مصر إلى العراق يجب أن يتبعه تغيير ذو نتائج عقائدية. وقد تجلى ذلك في تغيير نص الأذان إلى الصلاة. فلما اعترفت مكة ببغداد بصفتها عاصمة سياسية سمع من مآذن الحرم «حي على الفلاح» بدلاً من النص الشيعي «حي على خير العمل». هذا الاختلاف كان منذ القدم كلمة

---

(١) ذكر صاحب كتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب أن حمزة قد حكم سبع سنوات، وهو في حرب من الهواشم، وهذه المعلومة تصبح صحيحة، إذا صحح المرء الخطأ الذي ذكره صاحب كتاب العمدة بالنسبة لوفاة شكر من سنة (٤٦٤هـ) إلى سنة (٤٥٣هـ)، والواردة في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١١. وبعد عام ٤٦٠هـ كان أبو هاشم بالتأكيد حاكماً لمكة، لذلك في خلال السنوات السبع السابقة كان المؤرخون يدونون تارة حمزة، وتارة أخرى أبو هاشم كحاكم فعلي لمكة. (انظر عمدة الطالب ص١٠٥، وذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١١).

(٢) جاء في إتحاف الورى أنه في سنة ٤٦٢هـ قطع أمير مكة محمد بن جعفر، المعروف بابن أبي هاشم الحسني، خطبة المستنصر العبيدي صاحب مصر. وأعاد الخطبة العباسية بعد قطعها في الحجاز ـ نحو مائة سنة. وخطب للخليفة القائم بأمر الله، ثم للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان السلجوقي، ثم ترك الأذان بحي على خير العمل، وأرسل رسولاً ومعه ولده إلى السلطان يخبره بذلك، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعا نفيسة، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار (ابن فهد، إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٢ ـ ٤٧٣). وانظر أيضاً (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٣، وابن الأثير ج١٠ ص٤١).

التمييز بين طائفتي السنة والشيعة. ومع أن مثل هذا التغيير لم يكن يقلق بال المكيين كثيراً، إلا أنه كان مهما بالنسبة للشريف نفسه. إذ يرتبط به دخل الأمير ومركزه. فقد عمد الشريف إلى هذا التغيير لانقطاع الإمدادات وتوقفها من مصر.

غير أن الشريف أعاد الخطبة ثانية للفاطميين، وذلك في عام ١٠٧٥م (٤٦٧هـ)[١]، بعد موت الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي. وفي العام التالي ١٠٧٦م (٤٦٨هـ) رجع يخطب إلى بغداد، بفضل الهدايا الكثيرة[٢]. وهكذا كانت المسرحية تتكرر في فصلين كلما سنحت الفرصة لذلك.

هذا التذبذب في الولاء أغضب سلاطين بغداد. فمنذ عام ١٠٩١م (٤٨٤هـ) أرسل هؤلاء عصابات تركمانية إلى مكة، للانتقام من الإهانات التي كانوا قد تعرضوا لها في السابق. ويقال إن أبا هاشم قد أبلى بلاء حسناً ضد هؤلاء المتوحشين. وقد زاد هذا الأمر من بؤس وشقاء أهل مكة، الذين عانوا من هؤلاء، كما عانوا من تصرفات الشريف نفسه.

---

(١) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٤٦٧هـ: في هذه السنة لم يصل من الخليفة العباسي، ما كان يصل لأمير مكة محمد بن أبي هاشم، فقطع أمير مكة خطبة المقتدي العباسي. وصادف مع ذلك أن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر قوي أمره، فتراجع الناس إلى مصر، ورخصت الأسعار، واتفقت وفاة السلطان والخليفة. وأرسل صاحب مصر إلى صاحب مكة رسالة وهدية جليلة وتحفاً، وطلب منه أن يعيد له الخطبة بمكة، وقال له إن إيمانك وعهودك كانت للخليفة القائم، وللسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا. واجتمع إلى أمير مكة أصحابه وخوفوه وقالوا: إنما سلمنا هذا الأمر إلى بني العباس لما عدمنا المعونة من مصر. ولما رجعت إلينا المعونة فإنا لانبتغي بابن عمنا بدلاً. فأجابهم الأمير على كره منه، وخطب للمستنصر بمكة، وقطع خطبة المقتدي بأمر الله. وكانت الخطبة العباسية بمكة أربع سنين وخمسة أشهر (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٧) وانظر أيضاً (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧٣).

(٢) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٤٦٨هـ: في ذي الحجة، قطع أمير مكة محمد بن أبي هاشم خطبة المستنصر، وخطب للمقتدي ابن القائم الخليفة العباسي، والسبب هذه المرة طمع الأمير أبي هاشم بالزواج من أخت السلطان جلال الدولة ملكشاه، ثم تيقنه أن الخزينة الفاطمية، ليست فيها المال الذي كان يطمع فيه. فقطع الخطبة عنهم وأعادها للأنسباء الجدد (ابن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص٤٧٨).

لقد أضيف إلى مآسي الحجاج، الذي كانوا يسافرون عبر بغداد، مآسي حجاج آخرين قادمين من سورية ومصر. فلم يعد سلاطين المسلمين يملكون المال الكافي اللازم دفعه سنوياً للبدو، الذين أصبحوا يعتقدون أن دفع أتاوات المرور، هو خدمة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها[١]. وزاد في الأمر سوءًا أن أمراء الحج، الذين يختارون من الأشراف العلويين، والذين كانت منزلتهم الاجتماعية، تقف في كثير من الأحيان، حائلاً دون كثير من السلب والنهب لقوافل الحجاج، قد قل الاعتماد عليهم كثيراً في أيام السلاجقة، وأصبح أمراء الحج منذ عام ١٠٧٦م (٤٦٨هـ)[٢] غير علويين، بل رجال حرب أتراك، وحتى إن بعضهم كان من الخصيان[٣] ذوي النفوذ في الدولة.

تغيّر أمراء الحج

ومنذ بدأ هذا التجديد في إمارة الحج، فقد زادت عجرفة الشريف، وازداد كبرياؤه. وفي أثناء أداء فريضة الحج عام ١٠٧٦م (٤٦٨هـ)[٤] خفف عن نفسه بأن سمح لعبيده، الذين يشكلون نواة قوة الحرب عند الأشراف، وكما هي الحال عند بقية أمراء العرب، أن يتشاجروا مع الحجاج القادمين من العراق وأن يضربوهم. لكن قائد بعثة الحج دافع عن أبناء بلده بنجاح بالغ.

لقد غضب أبوهاشم غضباً شديداً، حين أرسل سلاطين بغداد القوات التركمانية إلى مكة، الأمر الذي حدا به أن يأمر بنهب الحجاج[٥] في طريق

---

(١) ابن الأثير ج١٠ ص١١١، ١٤٦ ـ ١٤٧ ج١١ ص١٩، ٣٦٠.

(٢) جاء في إتحاف الورى في حوادث سنة ٤٦٨هـ: كان أمير الحاج أبا منصور خطلغ بن كنتكين المعروف بالطويل، وهو أول تركي تأمر على الحج (ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٤٧٨ وانظر أيضاً ابن الأثير ج١٠ ص١٠٨ ٣٩٣٢).

(٣) حدث ذلك في عام ١١١٩م (٥١٢هـ)، ابن الأثير ج١٠ ص٣٨٢، ج١١ ص٦٨.

(٤) أخبار مكة المكرمة ج٢ ص٢٥٤ وابن الأثير ج١٠ ص١٠٨، ٣١٣.

(٥) جاء في إتحاف الورى في حوادث سنة ٤٨٦هـ: في هذه السنة انقطع الحج من العراق. وحج الناس من دمشق. فلما قضوا حجهم وعادوا سائرين، سيّر إليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكراً لينهبوهم، فلحقوهم بالقرب من مكة، فنهبوا كثيراً من أموالهم وجمالهم، فعادوا إليها مستغيثين به وأخبروه، وسألوه أن يعيد إليهم ما أخذ منهم، وشكوا إليه بعد ديارهم، فلم يغثهم، مما فيه كبير جدوى، وأعاد بعض ما أخذمنهم، فلما أيسوا منه ساروا من مكة عائدين على أقبح صفة، فلما بعدوا عنها، ظهر لهم جموع من العرب من عدة جهات، =

عودتهم، وذلك عام ١٠٩٤م (٤٨٦هـ). ومن الطبعي فقد أرسلت الخلافة العباسية قوات من بغداد لتأديب الشريف. غير أنه قبل وصول هذه القوات كان أبو هاشم قد توفي، وترك لابنه قاسم (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٤١) مهمة إخراج الأتراك من حول عنقه، عن طريق الكفاح المستمر. ولما كانت السيادة الاسمية في مثل هذه الأحوال ستؤول إلى الفاطميين، نظراً لعداء بغداد، فقد اقتصر أمراء الحج من بغداد في السنوات التالية على عرض عسكري مثير في مكة. وهكذا ساد السلام المحمي بالسلاح في المدينة المقدسة.

وفي عام ١١٢١م (٥١٥هـ) تسبب أحد الفقهاء العلويين[١] من بغداد في عصيان ضد حكومة قاسم المتسلطة بمكة، لكن الشريف تمكن من أن يطرد عدوه إلى جهات البحرين.

الشريف فليته

ويقال إن ابنه (فليتة) الذي خلفه عام ١١٢٤م (٥١٧هـ)، كان أكثر عدلاً من أبيه، غير أن هذا ليس له مدلول كبير. ويمتدحه الناس؛ لأنه قام بإلغاء بعض الضرائب غير المباشرة (المكوس)[٢]. وهذا النوع من الضريبة التي كانت تفرض على البضائع والمواد الغذائية أو تؤخذ رسوماً من الحجاج كانت مكروهة لدى عامة المسلمين؛ لأنه ليس لها سند من التشريع، بالرغم من أن هذه الضريبة أقل خطراً من الاقتطاعات المالية، التي كانت تؤخذ عنوة من

= فصانعوهم على مال، أخذوه من الحاج،بعد أن قتل منهم جماعة وافدة، وهلك كثير بالضعف والانقطاع، وعاد السالم منهم على أقبح صورة في حالة عجيبة (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٨٦ ـ ٤٨٧هـ. وانظر أيضاً ابن الأثير ج١٠ ص١٥٣).

(١) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٥١٥هـ: وفيها ظهر بمكة إنسان علوي، من فقهاء النظامية ببغداد. وأمر بالمعروف فكثر جمعه، ونازع أمير مكة قاسم بن أبي هاشم، فقوي أمره وعزم على أن يخطب لنفسه، فعاد ابن أبي هاشم، وظفر به، ونفاه إلى البحرين (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٩٧ وانظر أيضاً ابن الأثير ج١٠ ص٤٢٠).

(٢) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٥١٧: وفي هذه السنة، وقيل في التي بعدها، توفي أمير مكة أبو محمد قاسم ابن أبي هاشم، وولي بعده ابنه فليتة، وقيل أبو فليتة، فأحسن السياسة، وأسقط المكوس وأحسن إلى الناس، وسار بسيرة حسنة (انظر ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٩٨ ـ ٤٩٩ وابن الأثير ج١٠ ص٤٣٥).

الأغنياء، تحت طائلة التهديد والعقوبة. إن هذه الضرائب كانت موجودة في مكة، منذ أن كان الخلفاء يتولون حكمها مباشرة. ولم يرغب الأشراف في أثناء حكمهم فيما بعد، إغلاق هذا المصدر المهم من مصادر الدخل في مكة.

ليس من الضروري بالنسبة لهدفنا أن نتتبع التفاصيل الدقيقة لبقية أمراء الهواشم، الذين تربعوا على عرش السلطنة حتى عام ١٢٠٠م (٥٩٧هـ)[١]، وفي بعض المراجع حتى عام (١٢٠١م (٥٩٨هـ) أو ١٢٠٢م) (٥٩٩هـ). غير أن هؤلاء كما يصفهم أحد الكتاب الذين عاصروهم[٢] كانوا يعتبرون «بلاد الله المقدسة» هي ميراثهم، وأن تأجيرها للحجاج من حقهم. وقد استعمل هؤلاء جميعاً حد السيف ضد إخوانهم وأعمامهم وأبناء إخوانهم وأخواتهم، من أجل بقاء السيادة لأشخاصهم.

كان أمراء الحج الأتراك يواجهون مهمات صعبة أثناء مرافقتهم لقوافل الحجيج القادمة إلى مكة، ففي عام ١١٤٥م (٥٣٩هـ) نهبت عصابات الشريف، الحجاج القادمين من بغداد داخل المسجد الحرام[٣]، الأمر الذي أوقع الرعب في قلوب أمراء الحج الضعاف، بحيث أحجم هؤلاء عن القيام بالمهمة مرة ثانية. وحتى مع وجود أمراء الحج، ذوي القوة والمهابة، لم

---

(١) ذكر صاحب كتاب أمراء البلد الحرام ص٣٥ نقلا عن الفاسي: كان [داود] يتداول هو وأخوه مكثر إمارة مكة، ثم انفرد بها نحو عشر سنين آخرها سنة سبع وتسعين وخمسمائة على الخلاف في انقضاء دولة مكثر، وهو آخر أمراء مكة المعروفين بالهواشم. غير أن الرأي الآخر هل هي ولايته أو ولاية أخيه داود على الشك. والصحيح أنها ولاية مكثر بن عيسى. وقد ذكر محقق كتاب أمراء البلد الحرام، في الحاشية تعليقاً على هذه الرواية، أن العبارة لا تتفق مع رواية الفاسي، الذي يذكر أن الخلاف هو على سنة انقضاء دولة مكثر. راجع (شفاء الغرام، ج٢ ص١٩٨) ولكنه يتفق مع ابن ظهيرة (انظر الجامع اللطيف ص٣٠٩). ومن الجدير بالذكر أن سنة ٥٩٧هـ تعادل سنة ١٢٠٠م.

(٢) هذا الكاتب هو الرحالة ابن جبير (انظر رحلة ابن جبير ص٥٤).

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٥: ومنها أنه في سنة ٥٣٩هـ نهبت أصحاب هاشم ابن أبي فليتة أمير مكة الحجاج، وهم في المسجد الحرام يطوفون ويصلون، ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة، وذلك لوحشة بين أمير مكة وأمير الحج.

يترك خدم الشريف وأعوانه، أي فرصة لسلب ونهب ضيوف الرحمن[١]. وفي عام١١٦١م (٥٥٥هـ) هرب كبير الأشراف من مكة، عندما اقتربت قافلة الحج منها، وذلك نتيجة للأعمال الشائنة التي ارتكبها في مكة سابقاً[٢].

وفي خضم النزاعات تدخلت هذيل لتضيف فصلاً آخر من فصول الفتنة. فقد أغارت على مكة ونهبتها، وأصاب الناس تعب شديد من جراء ذلك.

التنافس بين مصر والعراق

ولمزيد من الحماية والأمن، سواء ضد السيادة في بغداد أو مصر، أو لحماية أنفسهم من أخطار الثائرين عليهم من أبناء العمومة والأقارب، قام شريف مكة ببناء قلعة على جبل أبي قبيس. ومن الطبيعي أن هذه القلعة كانت عرضة للدمار والتخريب بين الحين والآخر[٣]. ولعلها كانت أحد

---

(١) (انظر ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٥٢٥ وابن الأثير ج١١ ص١٨٩ ـ ١٩٠).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٣: دامت ولاية قاسم بن هاشم بعد أبيه إلى سنة ستٍ وخمسين وخمسمائة، لأنه فارق مكة متخوفاً من أمير الحج العراقي، وقت الموسم في هذه السنة؛ لإساءة السيرة فيها. وذكر السباعي نبذة عن ظلم القاسم حيث قال: في عام ٥٥٥هـ علم القاسم أنَّ الحج العراقي برئاسة أمير أرغش استعد لقتاله، فلما آنس اقترابه ترك مكة هارباً. ومن ثم كانت الفتنة بين أهل مكة والحج العراقي بمنى. وقتل جماعة من أهل مكة، ولحق الباقون بأهلهم، فجمعوهم وأعادوا الكرة بهم، فسلبوا نحو ألف جمل من الحاج. فنادى أمير الحج العراقي في جنده ووقع القتال، فقتل جماعة من الفريقين، وشاع النهب، ورأى أمير الحج العراقي أن يغادر منى، لا إلى مكة لإتمام نسكه، ولا إلى الزاهر حيث تقوم منازله، بل إلى متجه الطريق الذي يعود به إلى بلاده، دون أن يكمل حجه، وقد عاد كثير من الحاج، ولم يستطيعوا إكمال حجهم خوف الفتن. والظاهر أن المدافعين من عبيد صاحب مكة قطعوا طريق الحاج العراقي بين منى ومكة، فاضطر أكثرهم للفرار، دون أن يتموا مناسكهم. لقد كانت أعمال القاسم في مكة شديدة الوطأة. وكان يعامل الأهالي والمجاورين معاملة قاسية، ويصادر كثيراً من أموالهم (انظر السباعي ١٤٠٤ ص٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٣) قال السباعي: ماكاد يتولى مكثر بن عيسى، في عام ٥٧١هـ، حتى شعر بحاجة إلى تثبيت مركزه، ليتحاشى استبداد بغداد به، كما فعلت بأخيه بالأمس. فعمد إلى شراء الأسلحة، وتجنيد بعض الرجال، وبنى على أبي قبيس قلعة، لتكون له حصناً، إذا فكر أمير الحج العراقي في مناوشته أو عزله. وعلمت بغداد بتحصيناته واعتبرت ذلك منه تحدياً فكلفت أمير الحج طاشتكين بأن يجلي مكثراً عن مكة، وأن يهدم حصنه. وبعد انتهاء موسم الحج نادى المنادي بالهجوم على مكة، فكانت واقعة شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ونهبت أموال الحجاج والأهالي. ولجأ مكثر إلى حصنه، الذي بناه على جبل أبي قبيس، فحصروه به ثلاثة أيام، =

الأسباب التي أدت إلى عزل شريف مكة آنذاك[1]. وإلى حدوث فتنة عظيمة بين الحجاج وسكان مكة. وإلى إلغاء أمارة مكة وضمها إلى أمير المدينة، وذلك بناء على أوامر الخليفة العباسي، إلا أن أمير المدينة وجد نفسه عاجزاً عن إدارة الأمور والقيام بأعباء مكة. فأعاد أمير الحج العراقي داود ابن عيسى المغضوب عليه سابقاً إلى الإمارة، وهو أخو الأمير القديم مكثر، ثم مالبث أن عاد مكثر نفسه إلى السلطة ثانية. وفي جميع الأحوال كان يلقى هؤلاء السادة الدعم والتأييد من رعاع السكان في مكة، باعتبار أن سلطة هؤلاء سلطة مقدسة.

وبالرغم من أن ممثل بغداد للحج، كان يعتبر باستمرار الرجل السياسي العالي المقام، كان هناك نفوذ آخر فرضه العلويون إبان حكمهم لمصر، فقد مارسوا سلطة حماة الحرمين لبعض الوقت. ولم يفت حكام اليمن أن ينالوا هذا الشرف لبعض الوقت أيضاً. والواقع أن مكة كان ينقصها إمدادات الحبوب التي تفد من جنوب الجزيرة العربية ومن مصر. وكانت المجاعات[2] في القرن الثاني عشر الميلادي، تنشأ لا محالة، كلما انقطعت إمدادات قوافل الحبوب التابعة لقبائل السرو، نتيجة القحط أو عدم توفر الأمن، أو لعدم رغبة الأمراء في اليمن بإرسال هذه المحاصيل. واستمر الحال حتى القرن السادس عشر، بحيث بقيت الصورة القديمة على ما هي عليه. ويشعر حكام مكة بميل نحو مصر واليمن، لوجود الحكم الشيعي في كليهما. وقد حملهما ذلك على ممالأة الحكام في كلا القطرين.

= وفي اليوم الرابع، سلم أمير مكة الحصن لأمير الحج فهدمه بعد ذلك (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٢٢).

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٧: «كان الخليفة قد أمر أمير الحج بعزل مكثر ابن عيسى، وإقامة أخيه داود مقامه. وسبب ذلك أن كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس».

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١١: «بلغ الحب فيها [مكة] صاعاً بدينار وصاعاً إلا ربعاً، وأكل الناس الدم والجلود والعظم ومات أكثر الناس، فلما أن كان الثاني والعشرون من جمادى الآخرة وجه الخليفة المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين بالصدقات لأهل مكة والمجاورين، وفرج عنهم فرج الله عنه».

ابن جبير في مكة

ويقرر ابن جبير الذي زار مكة عام ١١٨٣م (٥٧٨هـ) و ١١٨٥م (٥٨١هـ)[١] أن أشراف الحجاز هم زيدية. وهذا يعني أنهم اعتنقوا الاتجاه الديني السياسي للشيعة، والذي يسمى باسم الزيدية، نسبة إلى الإمام زيد[٢] حفيد الحسين بن علي رضي الله عنه. ومن الجدير بالذكر، أن كلمة الزيدية لم تستخدم دائماً في مدلولها نفسه. فالزيدية تعني الانتماء إلى العلويين والمتبعين فقهاً خاصاً بهم، يختلف عن بقية المذاهب الأخرى (الفقه الزيدي). وهناك خلاف بين أهل السنة أنفسهم حول الزيدية، إذ بينما نرى أن أحد مؤرخي السنة المشهورين يتغنى بمدح علماء الزيدية، نرى الرحالة المغربي ابن جبير يصف الزيدية بالرافضية[٣] والمتذمرين. وهكذا حكم الرحالة المغربي على أشراف مكة حكماً في غير صالحهم، حينما وصفهم بالروافض، وذكر بعض الاختلافات التي نشأت بخصوص تحديد أيام الأعياد بين الأشراف الكبار، والسلطات غير الشيعية. وتحت حماية الشيعة التي كانت مفروضة من اليمن أو من مصر، أصبحت ادعاءات الأشراف في الحكم مضمونة على الوجه الأكمل. ولم يكن هؤلاء الحماة يشترطون

---

(١) قال ابن جبير في رحلته إلى مكة عام ٥٧٨هـ في معرض وصفه لصلاة الأئمة: وهم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية. وأشراف هذه البلدة على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل» (رحلة ابن جبير ص٧٣).
ويرى السباعي أن مذهب الشيعة بدأ يمد ظله في مكة بتأثير الفاطميين من جهة، وبأمر الأشراف الذين كان بعضهم يميل إلى التشيع من جهة أخرى، ودليله على ذلك إضافة «حي على خير العمل» إلى الأذان في منابر المسجد الحرام. وهو تقليد شيعي، كان يعمل به الفاطميون وبعض حكام مكة (السباعي ١٤٠٤، ص٢١٦).

(٢) ابن الأثير ج١٠ ص٤٦٥، يرى أن كتب الزيدية في الفقه تقترب من فقه الإمام أبي حنيفة (المؤلف).

(٣) الزيديون هم أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم). وهم يقولون بإمامة أولاد علي، ويجوزون إمامة المفضول على الأفضل للمصلحة العامة. وكانت الشيعة ترفض هذا المبدأ، فسميت كل طوائف الشيعة روافض إلا الزيدية. وأهم مواطن الزيدية اليوم في اليمن. وكان أول من دعا فيها إلى مذهب الزيدية هو السيد يحيى بن القاسم المرسي، جاء إلى اليمن في عام ٣٨٠هـ، وأقام في صعدة وملك مابينها وصنعاء، بعد وقائع عظيمة حاربه فيها عمال العباسيين (انظر السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٤٩).

للحكم في مكة مذهباً بعينه. غير أنه من المؤكد أن سادة مكة في الحياة العملية، كانوا يغيرون اتجاهاتهم السياسية بسرعة الريح، وهم أكثر سطحية في اعتقاداتهم الدينية، حيث لم يكونوا على مستوى عال من الثقافة والعلم، كما أن تشريعاتهم كانت عشوائية.

لقد ترأس الاحتفال بموسم الحج في عام ١١٦٠م (٥٥٦هـ)[١] في مكة رجل ذو مركز مرموق، كان المستقبل يهيء له الكثير. ذلك الشخص هو عم صلاح الدين الأيوبي، الذي تم على يديه (١١٦٩ ـ ١١٧٢م) (٥٦٥ ـ ٥٦٨هـ) أخذ مصر من الفاطميين. إن تأسيس الدولة الأيوبية التي أصبحت مشهورة في أوروبا، عن طريق صلاح الدين، قد تم في أواخر أيام الهواشم في مكة.

مكة تحت حكم صلاح الدين

وبعد أن ثبّت صلاح الدين، قدميه في مصر كان عليه أن يقرر الاعتراف بواحدة من خلافتي الظل آنذاك، وهما الدولة الفاطمية في مصر، أو الخلافة العباسية في العراق.

أما الدولة الفاطمية فكانت تحت قبضته، والانضواء تحت علمها يجعله يدخل في حركة تنافس مع عدد من الأمراء الآسيويين الذين كان لهم نفوذ كبير في الخلافة العباسية، زد على ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تعتبر دولة منشقة على الخلافة في بغداد. وقد آثر صلاح الدين العمل مع العباسيين بعد تردد[٢]. غير أنه احتاط للأمر، فأرسل أخاه إلى اليمن، ليقوم بفتحها، وذلك في عام ١١٧٤م (٥٧٠هـ)؛ لتكون ملاذاً له في حالة عدم نجاحه في تأسيس إمارة مستقلة في مصر[٣].

إن القوات الأيوبية الذاهبة إلى جنوب الجزيرة العربية عن طريق مكة، قد أدخلت الرعب إلى قلب الشريف مكثر، غير أن الأيوبيين لم يكن في نيتهم القضاء على الأشراف، أو الدخول معهم في صدام مسلح.

---

(١) ذكر صاحب إتحاف الورى أنه في عام ٥٥٦هـ حج السلطان نور الدين محمود بن زنكي الشهير صاحب دمشق وغيرها.. (إتحاف الورى ج٢ ص٥٢٤).

(٢) ابن الأثير ج٢٢ ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٣) ابن الأثير ج١١ ص٢٦٠، وابن جبير ص١٤٥، وابن الأثير ج١٢، ص٨٥، ١١٣.

لقد أصبح المركز المرموق أثناء فترة الحج من نصيب الأيوبيين، حيث أصبح يدعى لصلاح الدين على منابر الحرمين، بعد الخليفة العباسي، وشريف مكة. وقد تميزت فترة الأيوبيين بإزالة المظالم وإلغاء المكوس. ومن الجدير بالذكر أنه باستثناء الضرائب غير المباشرة، فإن مصادر دخل الأشراف كانت تأتي من أتاوات تجمع من أغنياء مكة[١]، ومن الأموال العائدة من الغزوات، وضريبة الرأس[٢] التي كانت تفرض على الحجاج، الذين لم يكونوا تحت حماية أحد الحكام المهابين في مكة.

المكوس في مكة

وباستثناء الحجاج القادمين من اليمن، فإن كل الحجاج القادمين من المغرب الأقصى (الأندلس، المغرب، الجزائر) كانوا مجبرين على دفع الضريبة لأداء فريضة الحج، ومن يرفض من هؤلاء دفع المبالغ المطلوبة لموظفي الشريف، في أي من موانئ البحر الأحمر، كان يعاقب عقاباً عسيراً. ويتحدث الناس عن بعض الحالات التي كان يعاقب فيها الممتنعون بأقسى العقوبات البشعة[٣]. لقد أزال صلاح الدين ضريبة الرأس، وذلك بعد أن

---

(١) ابن جبير ص١٦٤، ١٦٧، ١٨١.

(٢) ابن جبير ص٥٢، ٧٥، أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٩.

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ شيء عن ضريبة الرأس والمكوس. فقد ورد في أخبار سنة ٥٧٢هـ، أن المكس قد أسقط عن الحجاج إلى مكة في البحر عن طريق عيذاب، على ماذكر أبو شامة في ذيل الروضتين؛ لأنه قال في أخبار هذه السنة كان الموسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرؤوس، مما ينسب إلى القرابين والمكوس. ومن دخل منهم ولم يفعل ذلك، حبس حتى يفوته الوقوف بعرفه، ولو كان فقيراً لا يملك شيئاً. فرأى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إسقاط ذلك، ويعوض عنه أمير مكة، فقرر معه أن يحمل إليه في كل عام مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جدة، ووقف على ذلك وقوفاً، خلد بها إلى قيام الساعة معروفاً. فانبسطت لذلك النفوس، وزاد السرور، وزال البؤس، وصار يرسل أيضاً للمجاورين بالحرمين من الفقراء والشرفاء. ومدحه على ذلك ابن جبير بقصيدة أولها:

رفعت مغرم مكس الحجاز ... بإنعامك الشامل الغامر

وذكر ابن جبير في أخبار رحلته شيئاً من أخبار هذا المكس، فقال إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية ونصف، فإن عجز عن ذلك عوقب بأليم العذاب، من تعليقه بالأنثيين وغير ذلك. وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب، فمن لم يؤدها ووصل إلى جدة ولم تعلم على اسمه علامة =

تكفل لحكام مكة بالتعويض عنها بدفع مبلغ كبير من النقود، وشحن كمية كبيرة من القمح أرسلت إلى الحجاز من مصر. غير أنه إذا لم تصل الشحنة في أوقاتها المحددة، فقد كان الشريف لا يسمح للحجاج بالسفر من جدة إلى مكة، قبل أن يتحملوا مسؤوليتهم في التضامن على دفع المبلغ.

قدم إلى مكة أخو السلطان صلاح الدين[١] عام ١١٨٦م (٥٨١هـ). وقد منع الأذان بـ«حي على خير العمل». وصك نقوداً باسم صلاح الدين، وقتل جماعة من عبيد مكة، حملة الرماح التابعين لشريف مكة، والذين اعتادوا على النهب وسفك الدماء، وانسحب الشريف إلى قلعته العالية. وكان حرس الشريف الكبير أثناء الاحتفالات الرسمية من هؤلاء البغاة[٢] ويروي ابن جبير أنه في كل شهر كان الشريف يدخل البيت الحرام، محاطاً بحملة الرماح هؤلاء. ويقوم بالطواف سبعاً حول البيت، بينما يقوم أحد المؤذنين الشبان بالأذان للصلاة، من الطابق العلوي لبناية زمزم، رافعاً صوته بالدعاء للأمير (ابن جبير ص٧٤ ـ ٧٥). ويستغرب ابن جبير لمثل هذه الظروف السيئة في البلاد المقدسة، ويرى أن السيف، هو الحل الوحيد، لمثل هذه الأمراض في غرب الجزيرة العربية[٣].

= الأداء، عذب لها أصناف العذاب. وكانت هذه البلية في مدة دولة العبيدين، وجعلوها معلوماً لأمير مكة، وأزالها الله على يد السلطان صلاح الدين، وعوض أمير مكة عن ذلك ألفي دينار وألف أردب قمح، وإقطاعات بصعيد مصر وجهة اليمن.

ويبدو أن قيمة مايعطى لأمير مكة كان يختلف بين سنة وأخرى؛ لأن المبلغ الذي حدده أبو شامة، يختلف عن المبلغ الذي قرره ابن جبير.

(١) هو الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب صاحب اليمن (انظر ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٥٥٣).

(٢) من المعلوم أنه بجانب حرس الشريف، كان هناك جند وحراس لأقارب الشريف. والدليل هو المعارك التي كان هؤلاء الأقارب يخوضونها ضد الشريف نفسه (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٣) (المؤلف).

(٣) بجانب هذه الصورة للظلم الذي يقع من بعض الأشراف، ذكر ابن جبير صورة أخرى لأشراف الحجاز، فقد ورد في معرض حديثه عن جدَّة «وأكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشراف علويون» حسنيون وحسينيون وجعفريون، رضي الله عن سلفهم الكريم، وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً، فيستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن، =

صليبي يحاول احتلال المدينة المنورة

وهناك حادثتان يجب أن تذكرا في هذا المقام أولاهما: حادثة الأمير الصليبي، الذي كان يتولى شؤون إمارة الكرك، فقد اجتهد لجعل طرق القوافل المسلمة منطقة غير آمنة. وقد استطاع أن ينقل السفن المفككة، بمساعدة البدو، براً إلى البحر الأحمر عام ١١٨٢م (٥٧٨هـ)، وأبحر بهذه السفن عبر البحر الأحمر جنوباً، للسيطرة على مدنه. فما كان من صلاح الدين الأيوبي إلا أن طلب من أخيه القضاء على هذا الإفرنجي الصليبي. وتم القضاء على حملته، وأسر العديد من رجاله، واقتيد بعضهم إلى مكة، كي ينحروا في منى مع الجمال والأغنام في موسم الحج[١].

= من إكراء جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه، أو حطب يحتطبونه، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن، فسبحان المقدر لما يشاء. ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة، ولم يرتض لهم الدنيا. جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً (ابن جبير ص٥٣).

(١) قامت إمارة الكرك الصليبية، تحت قيادة أرناط، بنشاط حربي مكثف ضد المسلمين. وبالرغم من العهود المبرمة بين صلاح الدين والصليبيين، إلا أن أرناط لم يتقيد بالمعاهدات، ولا بالكلمة الشريفة فكان يتصدى للقوافل التجارية أو قوافل الحجاج، وينهب منها مايشاء. استغل أرناط سفر صلاح الدين الأيوبي إلى مصر، فجمع جموعه واندفع في رجب عام ٥٧٧هـ،١١٨١م وراء قافلة تجارية كانت تسير من دمشق إلى مكة. وتمكن من الظفر بها عند تيماء، ونهبها وأسر من تمكن من أسره. ولم يكتف بذلك بل سار إلى المدينة المنورة، وكان يقصد الاستيلاء على المسجد النبوي. قام نائب صلاح الدين في دمشق، بغزو إمارة الكرك، وأخذ يدمر كل مافي طريقه، ولما علم أرناط بالخبر أسرع بالعودة إلى الكرك، يحمل معه الغنائم والأسرى الإسلامية.

في العام التالي ٥٧٨هـ،١١٨٢م أعد أرناط مراكب مفصلة من أخشاب غابات الكرك، وعهد بها إلى الصناع في الكرك وعسقلان، وجرب قسماً منها في البحر الميت، ثم نقلها على ظهور الجمال إلى خليج العقبة، فقام الصناع بتركيبها وإعدادها وشحنها بالرجال والسلاح، وأبحر بها ففتح أيلة (العقبة)، وسار في البحر نحو الجنوب. ومنعاً لأي تدخل من جانب القوات البرية القادمة من مصر والشام، سير قوة تسير بحذاء الساحل إلى تبوك، وهكذا كانت الحملة تجمع بين الصفتين البرية والبحرية. وكانت أهداف أرناط دينية واقتصادية. فقد كان يهدف إلى هدم الكعبة، ومسجد الرسول، ونقل جثمان الرسول ﷺ إلى الكرك، كماكان يهدف في الجانب الاقتصادي إلى السيطرة على تجارة البحر الأحمر.

أثارت هذه الاعتداءات مشاعر الغضب في نفوس المسلمين، وأصدر صلاح الدين أمراً لأخيه =

أما الحادثة الثانية: فقد تم سلب أحد الشعراء الدمشقيين الذي كان كثير الترحال. وقد أخذ اللصوص جميع مامعه حتى قميصه، وذلك على الطريق بين المدينة ومكة. وكان السالبون من الأشراف الحسنيين، من عائلة داود بن موسى الثاني (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ١٧) المرموقة والكثيرة العدد. وهؤلاء من أقرباء الشريف الكبير في مكة. لقد كان داود الجد الأول شيخاً عظيماً، غير أن أحفاده لم يحالفهم الحظ في الاستيلاء على المدينة، فاستقروا في وادي الصفراء. ومارس بعضهم مهنة السلب. لقد عبر الشاعر المسلوب عن غضبه بأبيات شعرية، كان المقصود منها حث

= العادل بمصر للتصدي إلى أرناط، فعهد العادل إلى قائده حسام الدين لؤلؤ، الذي أعد أسطولاً في الإسكندرية، نقله براً إلى العقبة، وأعاد تركيبه وجهزه بالجند، ووجه لؤلؤ ضربته الأولى إلى الصليبين في قلعة فرعون في خليج العقبة، فشتت شملهم وأحرق سفنهم، وقتل عدداً كبيراً منهم. أما من هرب منهم إلى البر فقد أدركهم العربان، ولم ينج منهم أحد. ثم واصل سيره جنوباً فتعقبهم في البحر، وكانوا قد بلغوا رابغ، وهناك وجدوا تجاراً فأسروا بعضهم، وأشاعوا الذعر في شواطئ الحجاز. ثم توجهوا نحو الشمال كي يتمموا خطتهم بالاستيلاء على المدينة المنورة. فتركوا مراكبهم بساحل الحوراء، المواجه للمدينة، يحرسها عدد من جنودهم، وسار أرناط برّاً يصحبة ثلاثمائة مقاتل، يساعدهم بعض الأعراب من أهالي تلك الجهات. وساروا إلى مسافة قريبة من المدينة، حتى أصبحوا على مسيرة يوم منها، وقد أنهكتهم حرارة الصيف الشديدة. وقد أدرك حسام الدين لؤلؤ الأسطول الصليبي بالحوراء فانقض عليه وأحرقه جميعاً، بعد أن اشتبك مع من تولى حراسته من القوة الصليبية، فمزق جمعهم، وأطلق الأسرى من التجار، وردّ إليهم ما أخذ منهم، ثم نزل إلى البر، وسار خلف أرناط. وعلم أرناط أنه لاسبيل إلى العودة إلى الحوراء، فلجأ بعض جنوده إلى المرتفعات، ولكن حسام الدين لؤلؤ طاردهم وقتل وأسر معظمهم. أما أرناط فقد اتجه هارباً نحو الشمال، واستطاع النجاة ومعه بعض أتباعه، حيث التقى بقواته عند تبوك، وعاد إلى الكرك، خاسراً فاشلاً. واقتاد لؤلؤ إلى أسطوله (١٧٠) أسيراً، فأرسل اثنين منهم إلى مكة كي يقتلا أمام المسلمين في منى في موسم الحج، وليكونا عبرة لغيرهم. أما الباقون فقد ساقهم إلى عيذاب ثم قوص فالقاهرة، حيث وزع هؤلاء الأسرى على سائر أنحاء مصر كي يقتلوا فيها. وقد شاهد ابن جبير عدداً منهم في الإسكندرية، عند قدومه إليها في عام ٥٧٨هـ،١١٨٣م. انظر (غوانمه، يوسف حسن درويش، إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان ١٩٨٢م، ص ١٢٣ ـ ١٣٦ بتصرف وإيجاز).

أخي صلاح الدين، لتأديب الأشراف، بدلاً من احتلال الساحل الذي احتله الإفرنج، وطلب إليه قتال هؤلاء الذين ألغوا القوانين الربانية، مذكراً إياه بأن هؤلاء المرتدين، الذين هم من أبناء فاطمة، لو عاشوا أيام الأمويين، لحاربوا ضد الحسن رضي الله عنه.

ويحدثنا الشاعر أنه بعد الانتهاء من القصيدة نام قلقاً، وبدت له السيدة فاطمة الزهراء بالمنام، ولم ترد على سلامه، وانحرفت عنه. وسألت عن سبب غضبه. وفي الوقت نفسه عبرت بأبيات شعرية عن انزعاجها حول شتم أبنائها المساكين، وأخبرته بأنهم ليسوا شيعيين، بل هم غير محظوظين، جارت عليهم الأقدار. وطلبت إليه أن يحترم هؤلاء إكراماً لمحمد ﷺ، وأن ما يلاقيه من هؤلاء من سوء التصرف، سوف يثيبه الله عليه في الآخرة، بحسنات كثيرة. ولما استيقظ الشاعر من نومه، بادر إلى نظم قصيدة أخرى، يطلب فيها العفو والصفح عما قاله آنفاً. ومن جملة ما ورد في القصيدة: لو أنه طعن بسيف أحد هؤلاء أو رمحه، فسيرى هذا عملاً جميلاً، يستحق المدح والتقدير.

احترام الناس للأشراف

هذه الحادثة تبرز بعض الجوانب المهمة. وهي أن الاحترام الذي يكسبه الناس لهؤلاء الأشراف، ليس مرده إلى معارف خاصة لهؤلاء في الدين، ولا إلى سمو الفكر الذي يتمتعون به، بل إن المرء ليمجد فيهم النبي الذي إليه ينتسبون، فيحبهم لحبه ويقدرهم لتقديره لرسول الهدى ﷺ.

ضعف سلطة الخلافة في مكة

ويجب أن نسارع إلى القول بأن الإجراءات غير الحاسمة والحازمة، التي كان يبديها حكام المسلمين في مصر والعراق والشام ضد الحالة السيئة لحكم الأشراف، ليس مردها إلى الاحترام الذي تحدثنا عنه سابقاً، ولا بسبب ما لهذه الإمارة من مكانة في تاريخ الإسلام، بل إن قوى السلاطين كانت مشغولة في أمور أخرى ذات أهمية خاصة غير تثبيت كيان النظام المكي المكلف والمضني. وحتى صلاح الدين العظيم نفسه، لم يستطع إلا القيام ببعض التحسينات، وليس الإصلاحات. والإصلاح الجذري أمر شبه مستحيل في بلد يبدو في طبيعته

مغلقاً، ويعاني من مشكلات ذات طبيعة خاصة، قانعاً بأن يدعى له على منابر الحرمين في صلاة الجمعة وأثناء الحج.

لقد كان المرء يتصور أنه بعد أن حلت السلطنة العباسية محل الخلافة المنشقة في مصر، أن تختفي الغيرة القديمة والتنافس، بين أمراء الحج القادمين من البلاد الإسلامية. إلا أن الأمر لا يعدو العودة إلى مبايعة الخليفة العباسي الضعيف، وكذلك العودة إلى المذهب الرسمي السني للخلافة العباسية. فقد عزل القضاة الشيعة من مكة، وأبدلوا بقضاة ينتمون إلى المذهب الشافعي، وهو المذهب الرسمي عند العباسيين. أما أمر التنافس والشحناء بين امراء الحج، فقد بقي قائماً على ماهو عليه في السابق. فقد رفض أمير الحج الشامي والذي ظهر في عام ١١٨٧م (٥٨٣هـ) بصفته ممثلاً لصلاح الدين الأيوبي، يحمل إشارة السمو الأميرية، وتقرع أمامه الطبول الأميرية، في جميع المحطات التي ينزل بها، الانصياع وتلقي الأوامر من أمير الحج العراقي الذي كان يمثل الخلافة العباسية في بغداد متخلياً عن الوحدة السياسية والفكرية لبلاد الإسلام. وقد أدى ذلك إلى الاقتتال، الذي راح ضحيته الكثير من رجال الطرفين[١]، وخاصة من رجال الركب الشامي.

نهاية الهواشم

لقد عاش آخر أمراء الهواشم بدون هموم من حروب أخوية مستمرة. حتى أن المرء ليعجب كيف أنه لم يقم أحد من أقاربهم الآخرين، في غرب الجزيرة، بمحاولة الاستيلاء على السلطة، مستفيداً من الشقاق بين الإخوة. وقد واتت الفرصة أحد فروع الأشراف للقيام بهذه المهمة. ذلك الفرع هو الفخذ الرابع (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٢٢) والذي يستوطن منطقة

---

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة أنه في سنة ٥٨٣هـ، كانت بعرفة فتنة بين الحجاج العراقيين والشاميين، استظهر فيها العراقيون على الشاميين، وقتل من الشاميين جماعة، ونهبت أموالهم، وسبيت نساؤهم، إلا أنهن رددن عليهم. وجرح ابن المقدم، أمير الركب الشامي، جراحات أفضت به إلى الموت في يوم النحر. وسبب هذه الفتنة أنه لم يسهل بطاشتكين أمير الركب العراقي ماقصده ابن المقدم من الدفع من عرفات، فنهاه عن ذلك، فلم يقبل ابن المقدم، فاقتضى الحال إلى قتال الفريقين، فكان ماجرى. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠).

وصول قتادة للسلطة

ينبع مقر أبناء الحسن الثاني. لقد وقف قتادة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٤٣ وشجرة النسب الثانية رقم ١) على رأس هذا الفخذ في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي (أوائل القرن السابع الهجري). وقد تمكن من الاستيلاء على جميع المناطق التي تقع جنوب ينبع، والواقعة باتجاه مكة. وكان يرنو إلى احتلال مكة. غير أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة. والمصادر التي بين أيدينا لا تسمح لنا أن نقرر متى نفذ خطته هذه أفي عام ١٢٠١ أم ١٢٠٢ أم ١٢٠٣م[١]، وكذلك لا تسمح لنا أن نتبين من هو الذي أطيح به عن العرش من قبل الشريف قتادة، أهو مكثر أم منصور[٢]؟ كما أن هناك روايتين حول احتلال قتادة لمكة.

الرواية الأولى تقول إن ابن قتادة حنظلة، قد أخذ مكة، وجهزّ كل شيء لدخول والده. أما الرواية الأخرى فتقول بأن قتادة[٣] قد استغل ببراعة وقت العمرة الرجبية في (٢٧) رجب ليحتل المدينة المفرغة من السكان. في ذلك اليوم يحتفل أهل مكة بذكرى الإسراء والمعراج، بالإضافة إلى ذكرى بناء الكعبة من قبل عبدالله بن الزبير. ولقد اعتاد المكيون في السابع والعشرين

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة: ثم وليها [مكة] بعد مكثر أبو عزيز قتادة بن إدريس في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وقيل إن ولايته لمكة في سنة ثمان وتسعين، وقيل في سنة تسع وتسعين (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٤) والسنوات الهجرية هذه تقابل السنوات الميلادية التي ذكرها المؤلف، الذي لم تسعفه المراجع في تحديد بداية حكم الشريف قتادة.

(٢) لعل الاسم ليس منصوراً بل داود بن عيسى أخو مكثر الذي كان يتبادل مع أخيه مكثر الحكم (انظر السباعي: ١٤٠٤هـ، ص٢٤٤).

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة: إن صاحب ينبع السيد قتادة بن إدريس، لما علم من أمراء مكة يومئذ، وهم طائفة أخرى من بني حسن، يقال لهم الهواشم، الانهماك على اللهو واللذات وكثرة الظلم من عبيدهم على الناس، واستيلاء الغرور عليهم، ونفرة القلوب عنهم، وعدم توجههم إلى أحوال البلد، ارتقب الشريف قتادة اليوم السابع والعشرين من رجب، واغتنم الفرصة لاشتغال أهل مكة بهذه العمرة، وخروجهم بتجملاتهم إلى التنعيم، فهجم بعبيده وذويه ودخل مكة من أعلاها، ومنع ولاتها السابقين من الدخول إليها. وكانت مكة يومئذ مسورة، وولاتها من بني حسن الهواشم، (آخرهم الشريف مكثر بن عيسى ففر بمن معه إلى جهات اليمن، وتمكن السيد قتادة من البلاد وذلك في سنة ٥٩٩هـ (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٨٣).

من رجب أن يقوموا بعمرة، وبينما كان المكيون يلبسون ملابس الإحرام، دخل قتادة المدينة، وأنهى حكم الهواشم، وبظهوره بدأت فترة جديدة من حياة مكة، استمرت إلى الفترة الحاضرة (١٨٨٥م)[١].



(١) استمر حكم الأشراف، أبناء قتادة، وهم الطبقة الرابعة من الأشراف، نحو ستة قرون ونصف، إلى أن أجلاهم السعوديون عنها (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٢٤).

الفصل الثّالث

مكّة المكرّمة خلال الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي ١٢٠٠ - ١٧٨٨م (٥٩٧ - ١٢٠٢هـ)

الشريف قتادة وسياسته

يمتاز الشريف قتادة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الأولى رقم ٤٣ وشجرة النسب الثانية رقم ١) عمن سلفه ـ وربما عن الكثيرين ممن جاؤوا بعده ـ بأنه كان سياسياً بارعاً. فقد كانت كل أفعاله موجهة لإنشاء إمارة مستقلة في الحجاز. وقد استعمل قتادة كافة السبل، بما فيها الشدة والقمع، للوصول إلى هذه الغاية. غير أنه لم يستطع أن يحقق أمنيته؛ نظراً للظروف الصعبة التي كان يمر بها الحجاز آنذاك. فقد كان الحجاز منقسماً إلى أحزاب عديدة، تفوق عدد القرى والمدن المنتشرة في ربوعه. وبجانب ذلك هناك اللقاء السنوي للقوى الإسلامية العظمى في أثناء موسم الحج. وكانت هذه القوى تنظر بعين الريبة لتنامي الحياة السياسية في الحجاز.

لم يكن قتادة صغير السن عندما ولي أمر العاصمة المقدسة. وقد قام بعد احتلال مكة بإعادة بناء الأسوار المهدمة، وأخضع قبائل ثقيف في الطائف وما حولها[١]. وواصل القتال الذي بدأ سابقاً ضد الحسينيين في المدينة المنورة[٢]. وأقام حصناً في ينبع، وترك فيه حامية عسكرية بقيادة أحد

---

(١) ذكر السنجاري أن الشريف قتادة خرج لحرب ثقيف في سنة ٦١٣هـ، فتحصنوا، منه وعجز عنهم، فأمنهم، فلما أقبلوا عليه قتل منهم جماعة واستولى على الطائف. واستخلف على بلادهم نواباً وقواهم بعبيده ورجاله. فلما طال بهم التعب غرروا بأصحابه، وذلك أنهم لما أيسوا من النجدة، دفنوا سيوفهم في وادي الناثب، وأوهموا أنهم أتاهم كتاب يريدون قراءته. فلما اختلوا بأصحاب قتادة قتلوهم. وفي هذه الواقعة فقد كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه لأهل الطائف، عندما نهب جيش قتادة البلاد (انظر السنجاري حوادث سنة ٦١٣، وكذلك ابن فهد في غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٥٨٨).

(٢) ابن الأثير ج١٢ ص١٣٤، وكذلك مكة المشرف ج٢ ص٢١٤.

أبنائه. واهتم اهتماماً خاصاً ببناء جيش كبير من الأحرار والعبيد[١]. بينما ترك تسيير الأمور العادية في الحكم إلى وزير من أتباعه. وقد كانت حدود منطقته تمتد من ينبع والمدينة شمالاً، حتى حلي جنوباً[٢].

أما سياسة قتادة الخارجية فقد كانت مملوءة بالألغاز. ولعل ذلك يبدو واضحاً من خلال حادثتين مهمّتين: الأولى تمثلت بإثارة غضب سلطان الأيوبيين من خلال الوقاحة التي أبداها تجاه ابن الخليفة العادل الأيوبي، الذي سأله أثناء قدومه لتأدية فريضة الحج عام ١٢١٥م (٦١١هـ)، أين يمكنه أن يستريح في مكة؟ فأشار إلى الشارع[٣]. وبالرغم من ضعف الأيوبيين في هذه الأثناء، فقد قام العادل الأيوبي بمساعدة شريف المدينة المنورة ضد قتادة. والحادثة الثانية ربما كانت أسوأ من الأولى، وتمثلت في إفساد العلاقة مع الخليفة في بغداد في أثناء موسم حج عام ١٢١٢م (٦٠٨هـ)[٤]. فقد قام أحد الحجاج الساسانيين، الذي كان بين الحجاج العراقيين، بقتل أحد الأشراف بوادي منى. وكان هذا الشريف كثير الشبه بالشريف قتادة. وقد اعتقد الشريف قتادة أن القاتل قد أرسل من قبل الخليفة، وأنه كان قاصداً قتله، لذلك أصدر قراره إلى الأشراف والعبيد بالهجوم على معسكر الحجاج العراقيين، وقتل العديد منهم، وسلب أموال من تبقى منهم. وبالرغم من وجود أحد إخوان العادل من سورية في موسم الحج، إلا أن

---

(١) ابن الأثير ج١٢ ص٢١٦.

(٢) ابن الأثير ج١٢ ص٢٦١، وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٤.

(٣) في سنة ٦١١هـ حج الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب، وتصدق في الحرمين بمال عظيم. وحمل المنقطعين. ولما وصل إلى مكة تلقاه قتادة، وحضر في خدمته، فقال له المعظم أين ننزل. فقال قتادة هناك، وأشار بصوطه إلى الأبطح. فاستكبر ذلك منه المعظم؛ لأن صاحب المدينة أنزل المعظم بداره في المدينة، وسلم إليه مفاتيح المدينة المنورة. وبالغ في خدمته (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٣).

(٤) (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٠، ابن الأثير ج١٢ ص١٩٥، منائح الكرم، حوادث سنة ٦٠٨هـ).

أحداً لم يستطع أن يحد من غضب الشريف. ولم يتمكن الحجاج من إكمال فريضة الحج، إلا بعد أن دفعوا مبلغاً كبيراً من المال، قبل الإسراع بالعودة إلى ديارهم.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: أكان شك الشريف قتادة له أسبابه ومبرراته ـ أم أنه كان يبحث عن مبرر للنزاع ـ وعلى أي حال فقد عاد الشريف إلى رشده، وأدرك خطأه، فما كان منه إلا أن أرسل ابنه مع عدد من رجاله، يرتدون الأكفان إلى الخليفة، وذلك للتكفير عن خطيئته. وقد عرف جيداً أن الخليفة لن يسفك دماء هؤلاء بصورة لافائدة منها. فقد أعاد الخليفة الناصر الوفد حاملاً الهدايا. ومقدماً الدعوة للشريف لزيارة الخليفة. غير أن جواب قتادة كان بالرفض، مسجلاً ذلك في قصيدة يفضل فيها الحياة في بلده الفقير، على السفر إلى البلاد الأجنبية. ومما قاله في القصيدة:

بلادي وإن جارت علي عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
ولي كف ضرغام إذا ما بسطتها بها أشتري يوم الوغى وأبيع
وما أنا إلا المسك في أرض غيركم أضوع وأمّا عندكم فأضيع[١]

وفي رواية أخرى عن هذه الحادثة، أن الشريف قتادة سافر إلى بغداد، ولما رأى أنه كان بصحبة الوفد الذي أرسل لاستقباله أسد مقيد، أسرع بالعودة وهو يقول: لن أذهب إلى بلد تقيد فيها الأسود[٢].

ميول الشريف قتادة نحو الزيدية

لماذا كل هذا التحدي المتهور؟ الجواب على حل هذا اللغز ربما كان فيما قاله أحد المؤرخين من اليمن، وهو أن قتادة قد اهتم بالعائلة الزيدية، بزعامة

---

(١) منائح الكرم حوادث سنة ٦٠٩هـ وقد أورد الفاسي هذه الأبيات كلها ماعدا البيت الأول، ولكن بلفظ مختلف. انظر العقد الثمين ج٧ ص٥٠ ـ ٥١، وكذلك أمراء البلد الحرام ص٣٧.

(٢) جاء في كتاب أمراء البلد الحرام أن الخليفة الناصر العباسي طلب الشريف قتادة يأتيه ببغداد، فسار متوجهاً إليه، إلى أن وصل النجف. فبلغ الخليفة وصوله، فأخرج للقائه العلماء والأعيان وكبراء الدولة. وكان مما أخرجوه معهم أسد في سلسلة، فلما رآه الشريف قتادة تطير وقال: مالي ولأرض تذل فيها الأسود، والله لا دخلتها. ورجع من النجف، ولم يدخل العراق، فلما بلغ ذلك الناصر كتب إليه يعاتبه. فكتب إليه الشريف قتادة جواباً يتضمن الشعر السابق (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٣٧).

المنصور الحسني، والتي صعد نجمها في ذلك الوقت في جنوب الجزيرة العربية. ومن المعروف أن الزيدية كانوا يمارسون زعامة ناجحة في اليمن منذ عدة قرون. ففي عام ١١٩٧م (٥٩٤هـ) أسس أحد الأئمة من الفرع الحسني الدولة الزيدية، وأرسل مبعوثين للدعوة وطلب المساعدة إلى أبعد البلدان[١]. لقد دافع قتادة عن مصالح الإمام الزيدي. ومن المحتمل أنه اعتقد في وقت من الأوقات بأن الإمامة الجديدة في صنعاء قد أحرزت مركزاً على المسرح العالمي بجانب مصر والعراق. فمن الطبيعي ألا يرى سيداً أحب إلى نفسه من هذا الأمير الذي تربطه به صلة قرابة مقرونة بتشابه كبير بين حال بلديهما (الحجاز واليمن). غير أن التجارب قد علمته بعد ذلك شيئاً أفضل، وهو أنه كمعظم أقاربه زيدي، وصديق حميم للإمام، ولكن دون أن يتبنى أفكاره أو يقود معاركه. ويبدو حذر الشريف قتادة من القوى الخارجية واضحاً في وصيته لأقاربه التي ورد فيها: «يا بني الزهراء عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية، والاجتماع في بطحائها، واعتمدوا بعد اليوم أن تعاملوا هؤلاء القوم بالشر يرهبوكم من طريق الدنيا والآخرة ولا يرعوكم بالأموال والعُدد، فإن الله قد عصمكم وعصم أرضكم بانقطاعها، فإنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس»[٢].

وبعد إعلان احتلال اليمن بواسطة حفيد العادل عام ١٢١٦م (٦١٣هـ) أصبح يدعى للأيوبيين في مصر والشام وجنوب الجزيرة العربية[٣] على منابر الحرمين، بجانب الدعاء للخليفة، ثم لشريف مكة. وفي هذه الأثناء أصبح وصول قافلة الحج العراقية محفوفاً بالمخاطر، ولهذا لم ينتظم وصول هذه القافلة إلى الديار المقدسة إلا نادراً.

---

(١) يبالغ الكتاب اليمنيون في بعض الأحيان بأهمية تاريخ بلادهم السياسي على المسرح الخارجي. لدي مخطوطة عن تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري تحتوي على ملحق من اثنتين من العديد من رسائل الإمام المؤيد: إحداهما أرسلها إلى الشاه الفارسي عباس، والثانية أرسلها إلى الأشراف في مكة. وفي كلتا الرسالتين يطلب الإمام مساعدته ضد الأتراك. ويستطيع المرء أن يتصور أنه لم يقم أحد من هؤلاء بمد يد العون للإمام (المؤلف).

(٢) منائح الكرم حوادث سنة ٦٠٩هـ.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٣.

لقد وضع شريف مكة خططاً طموحة ـ وهو في السبعين من عمره ـ للاستيلاء على كامل الحجاز، الذي يصعب الوصول إليه. فقد جهز حملة كبيرة للاستيلاء على المدينة المنورة، غير أن المرض اضطره إلى التخلي عن الاشتراك في هذه المهمة، والعودة إلى مكة، وإسناد القيادة لابنه وأحد إخوانه. وقد نما إلى علم الشريف حسن، بأن أباه يخطط لتعيين أخيه بدلاً منه. ولكي يحول حسن دون ذلك، فقد قتل عمه المعني. ولما علم أن أباه يريد قتله بأخيه، اتجه مسرعاً إلى مكة، ليضع نهاية غير سعيدة لحياة أبيه[١]. ثم أجهز على أخيه الذي كان يعمل قائداً لحامية ينبع. أما بقية المرشحين لهذا المنصب فقد أبعدوا أنفسهم، عن مثل هذا المصير، عن طريق الهرب. وبذلك أصبح الحسن بن قتادة[٢] (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٢) أمير بيت الله الحرام.

أبناء قتادة وأحفاده

في موسم الحج التالي عام ١٢٢١م أو ١٢٢٢م (٦١٨ أو ٦١٩هـ) قتل الشريف حسن أمير الحج العراقي، الذي ظن أنه يساعد أخاه راجحاً في الوصول إلى السلطة. وفي هذه الأثناء هم أتباع الشريف حسن بنهب قافلة الحج العراقي، غير أنه أصدر أوامره بمنع هؤلاء، وقد جلب حامل الأوامر بمنع النهب عمامة الشريف لكي يصدقه الناس.

لقد وضع مسعود الأيوبي[٣] ـ الذي أعاد فتح اليمن باسم والده، (الملك الكامل الأيوبي) الحاكم في مصر ـ نهاية لحكم الحسن بن قتادة.

---

(١) سيّر قتادة جيشاً إلى المدينة على رأسه أخوه وابنه حسن، فلما كان الجيش بوادي الفرع اجتمع أخو قتادة برؤساء الجيش وأخبرهم بأن قتادة مريض، وطلب إليهم أن يعاهدوه على الإمارة، فلما بلغ ذلك حسن بن قتادة دخل على عمه فقتله، فلما اتصلت الأخبار بقتادة عزم على قتل ابنه حسن قوداً في أخيه. فعلم حسن بذلك فعاد إلى مكة، ودخل بيت أبيه سرّاً وهو مريض، فقضى عليه خنقاً، ثم أذاع موته، ونادى بنفسه أميراً على البلاد، وذلك سنة ٦١٧هـ. (انظر السباعي ص٢٣٠، نقلاً عن مخطوط إفادة الأنام) وفي العقد الثمين ج٧ ص٦٠، قال الفاسي: «ورأيت مايقتضي أن حسن بن قتادة قتل أباه بالسم والله أعلم أي ذلك كان».

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٥، ابن الأثير ج١٢ ص٢٦٨ ـ ٢٦٩و ٣٠٣، ومنائح الكرم حوادث سنة ٦١٧هـ).

(٣) لم يكن راجح بن قتادة أقل من أخيه الحسن عناداً وجرأة. فقد استطاع أن يتصل بالملك =

والأمير مسعود هذا كما يؤكد المؤرخون متهور وطائش. وقد رفض إعطاء الأشراف أي مشاركة في السلطة العليا، وبدلاً من ذلك عين قائد جيشه حاكماً لمكة.

التنافس بين مصر واليمن على الحرمين

ولما استقل نور الدين[1] بحكم اليمن عام ١٢٣٢م (٦٣٠هـ) ارتبط مع أبناء قتادة مرة أخرى؛ لأنه احتاج إلى مركز أمامي متقدم، ضد هيمنة السلطة في مصر، والتي أصبح الأيوبيون فيها لعبة بأيدي المماليك الأتراك. وبذلك

= المسعود الأيوبي، ويستثيره ضد أخيه الحسن في مكة، وأن يزين له احتلالها وضمها إلى نفوذ الأيوبيين في مصر واليمن. فمضى المسعود على رأس جيش إلى مكة مصطحباً معه راجح بن قتادة، وانتهى إليها في ٤ ربيع الأول سنة ٦١٩ أو ٦٢٠هـ وبادرها بالهجوم المفاجئ. وقد رأى الحسن بن قتادة أنه لاقبل له في الدفاع عن المدينة، فتركها ليحتلها جيش المسعود.

لقد نهب عسكر المسعود بيوت مكة، وجردوا المدنيين من ثيابهم وأموالهم. ورئي الملك المسعود يصيد فوق قبة زمزم، ويرمي حمام مكة «بالبندقية»، كما رئي غلمانه في المسعى، يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم، ويقولون خففوا في سعيكم، فإن السلطان نائم سكران، وكان الدم يجري من سيقان الناس في الطريق، بجوار دائرة السلطنة بالمسعى. وظل المسعود في مكة إلى مابعد فراغه من الحج، ثم توجه إلى اليمن، بعد أن أناب أحد قواده «عمر بن علي بن رسول» وأبقى لحراسته ٣٠٠ فارس وولى راجحاً بعض الأعمال المتصلة بالبادية، وحال دونه والإمارة التي كان يطلبها.

والغريب أن الأمير المهزوم الحسن بن قتادة صاحب مكة، لم يمسه في هذا العدوان شيء، فقد نجا بنفسه إلى أطراف البادية، دون أن يناله أذى، وترك المظلومين في مكة يعانون من عذاب ما اقترف ويلاً وثبوراً. وقد حاول العودة إلى مكة، بعد خروج المسعود إلى اليمن، فاستنفر القبائل في ينبع، وسار بهم في جيش حتى انتهى إلى الحديبية (الشميسي) فخرج إليه ابن رسول، نائب المسعود فهزمه، فولى فراراً متوجهاً إلى بغداد، حيث مات بها، ودفن في مشهد الكاظمي (انظر منائح الكرم: حوادث سنة ٦١٩هـ وكذلك السباعي: ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة أنه في سنة ٦٢٧هـ خطب بمكة للملك المنصور نور الدين صاحب اليمن، وهي أول سنة خطب له فيها. وكان يخطب له في المدة التي تكون في ولاية عسكره. وفي سنة ٦٣١هـ حج الملك المنصور نور الدين، صاحب اليمن، على النجب حجاً هنيئاً، ورجا أن يصله بمكة تقليد من الخليفة المستنصر العباسي وخلعه؛ لأنه كان سأل ذلك من المستنصر. وأهدى إليه هدية، فوعده المستنصر بإرسال ذلك إليه إلى عرفة، فلم يصله ذلك في سنة حجه، ووصله في التي بعدها.

أصبح الحجاز ساحة قتال بين سلطان مصر وسلطان اليمن. وانتهت الفترة القصيرة من الهدوء التي كانت تحكم فيها المدينة المنورة من دمشق، ومكة المكرمة من اليمن. وكلاهما تابع للأسرة الأيوبية، وذلك بمجرد أن تحول الجزء الشمالي والجنوبي (مصر والشام واليمن) لدولة صلاح الدين إلى إمارات مستقلة[1]. بينما كان الشريف الحسيني في المدينة المنورة يرتبط بالسيادة المصرية، ويعمل على تأمين مصالحها، كانت القوتان (مصر واليمن) تحرضان المرشحين الحسنيين ضد بعضهم. وكان نجاح اليمن أكثر من نجاح مصر، بسبب قرب مكة من تلك الدولة من جهة؛ ولأن حاكم اليمن قد تولى حكم مكة فترة من الوقت، وقام في عام ١٢٤٠م (٦٣٩هـ) بإلغاء الضرائب غير المباشرة فيها[2]، بينما أعادها قائد جيشه بعد ذلك بفترة قصيرة. وخلال هذه الفترة التي ساد فيها الصراع، لم تكن لأبناء قتادة وأحفاده ـ الذين يتقاتلون على الزعامة ـ إلا أهمية قليلة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٤، ٧، ٨، ٩). وليس أدل على ذلك من أن شريف مكة، كان يقيم فترات طويلة في وادٍ خارج مكة[3]. غير أن ذلك لم يلغ سلطتهم نهائياً. ففي عام ١٢٥٥م (٦٥٣ هـ) أرسل أمير اليمن قوات إلى مكة، غير أنها لم تتمكن من إلغاء سلطة الأشراف نهائياً.

تمزق الخلافة العباسية

حصلت في العقود التالية تغييرات كثيرة الأهمية على مستوى العالم الإسلامي. ففي عام ١٢٥٨م (٦٥٨هـ) دخل المغول معاقل الخلافة العباسية في بغداد، التي انكمشت إلى مدينة صغيرة، بعد أن كانت عاصمة الإسلام. وتوقفت قافلة الحج العراقي، التي كانت تمثل الأثر السياسي الوحيد الذي يربط الحجاز بعاصمة الخلافة العباسية. وفي هذه الأثناء قام السلطان

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٦ و٣١٢.

(٢) في سنة ٦٣٩هـ أرسل صاحب مصر عسكراً إلى مكة، فلما بلغ هذا صاحب اليمن، تجهز وخرج إلى مكة بجيش كبير، فهرب المصريون، وأحرقوا دار السلطنة بمكة، فدخل السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول مكة وصام رمضان بها، وأبطل المكوس والجبايات (انظر أمراء البلد الحرام ص٤١)، وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٨.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٧، وأمراء البلد الحرام ص٣٥.

المملوكي بيبرس بافتتاح حقبة جديدة مشرقة للبلاد المصرية. وأصبح بيبرس أعظم سلاطين المسلمين، وتم الاعتراف به في الحرمين الشريفين. ولكي يضمن المزيد من النفوذ، قام بمبايعة أحد العباسيين، الذي لجأ إليه من بغداد، خليفة للمسلمين في مصر.

ظهور المماليك في مصر

لقد تم الاعتراف بالسلطان بيبرس في الحرمين الشريفين، وكان يدعى له على منابرها. غير أن أمراء اليمن استطاعوا عن طريق النقود والكسوة، التي كانوا يرسلونها إلى الكعبة، أن يضمنوا الدعاء لهم أيضاً على هذه المنابر، ولكن في المرتبة الثانية بعد السلطان المصري. وبالرغم من أن اليد الطولى في الحجاز هي لمماليك مصر، إلا أن اليمن كانت عن طريق قواتها تذكي الحروب الأخوية بين الأشراف بالاتجاه الذي تريده[١].

الشريف أبو نمي

ترك المماليك إدارة المدينة المقدسة كليا إلى الأشراف. واستطاع أحد أحفاد قتادة، المدعو محمد أبو نمي، أن يوحّد صفوف أبناء عشيرته، ويمكنهم من استلام زمام السلطة، لمدة نصف قرن تقريباً (١٢٥٤ ـ ١٣٠١م) (٦٥٣ ـ ٧٠١هـ). وكان محمد هذا ـ كقتادة ـ رجلاً قوياً يوصف بالشجاعة النادرة. وقد كانت أمه عبدة حبشية. ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المحظيات، كن محبوبات جداً منذ زمن بعيد، سواء عند الأشراف أو المكيين عموماً.

«يحكى أنه كان في بعض حروبه، فلحقته أمه في هودج ودعته، فلما جاء قالت له: يا بني إنك تقف اليوم موقفاً إن ظفرت منه بعدوك، قال الناس ظفر ابن رسول الله ﷺ. وإن هربت قال الناس هرب ابن الأمة السوداء، فانظر لنفسك، فإنه لا موت قبل فراغ العمر، فشكر لها ذلك وقال: جزاك الله خيراً، فلقد أصبت وأبلغت، ثم ردها، وقاتل قتالاً ما سمع بمثله حتى ظفر»[٢]. ومن خلال هذه الشجاعة، والتربية الحسنة، استطاع محمد أبو نمي الاحتفاظ بالقيادة بين الأشراف، الذين يتفاخرون عليه بنسب علوي حقيقي.

---

(١) انظر أمراء البلد الحرام ص٤٣.

(٢) انظر أمراء البلد الحرام ص٤٢.

دخل الشريف أبو نمي في صراع مع عمه إدريس (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٥) الذي كان قد تقاسم معه السلطة. وقد حاول جاهداً أن يتجنب الدخول في صراع مع ابن عمه غانم (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٩) الذي حاول قتاله بمساعدة الحسينيين في المدينة. وقد خرج أبو نمي في النهاية منتصراً. أما موقف السلطة في مصر، فكان يميل إلى الحلول التوفيقية، ويتجلى ذلك من خلال الموقف الذي تبناه السلطان بيبرس أثناء حجه عام ١٢٦٩م (٦٦٩هـ)[1]، فقد كان الصراع آنذاك مريراً بين أبي نمي وعمه إدريس، فما كان من السلطان إلا أن أجبر الاثنين على التفاهم على السيادة المشتركة بينهما. وحتى يضمن عدم استمرار هذا الصراع بعد عودته، أبقى فصيلاً من الجيش المصري في مكة. غير أن هذا لم يحل دون استئناف القتال، الذي ظفر فيه في النهاية محمد أبو نمي، الذي تمكن من قتل عمه وإنهاء سلطته. وقام أبو نمي بإعطاء السادة في مصر درساً قاسياً، حيث أوعز لأفراد البدو، الذين تمر قافلة الحج المصري من أراضيهم، بنهب القافلة عدة مرات، مما سبب إزعاجاً للسلطة في مصر، فقررت إرسال قوة عسكرية لتضييق الخناق حول عنق الشريف، غير أن الشريف لجأ إلى الاعتذار وإرسال الهدايا إلى مصر، وهكذا توقف الأمر عند مستوى التهديد فقط.

أبناء أبي نمي

لقد حاول شريف مكة أن يضمن السيادة لأحفاده بعد أن ضمنها لنفسه. وقد كان السؤال الذي يراوده دائماً في أواخر أيامه هو: من سيخلفه في الإمارة؟ وقد حاول جاهداً أن ينقل السلطة إلى كل من رميثة وحميضة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ١٣ و١٤)، وأن يسلمهما مقاليد الأمور قبل وفاته بفترة قصيرة ١٣٠١م (٧٠١هـ). ويرجع الفضل له في تثبيت أصول السيادة لأبنائه، وفي تحديد العلاقة بين شريف مكة من جهة، وأقاربه ومواطنيه وسادته من جهة أخرى، وكذلك في إيجاد الأشكال والصور التي يتم التعبير من خلالها عن هذه العلاقة. ومن هذه الصور، التي تعود إلى

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧١ ـ ٢٧٣.

أعراف قديمة، يتجدد على مر الأزمان القتال والتحالفات والتحكيم في النزاعات التي تنشب بين أعضاء هذه العائلة النبيلة.

إمارة المدينة العالمية المقدسة، كان عليها أن تطور نفسها في بعض الأمور، بطريقة تختلف عن باقي إمارات الجزيرة العربية، بالرغم من أن الرؤساء في هذه الإمارة إمّا من الإقطاعين أو من رؤساء القبائل، وهو أمر معهود منذ وقت طويل. ولهذا فإن أصول الحكم في المدينة المقدسة، قد أعيد بناؤها من جديد، وفق هذه الأصول القديمة، ولم توجد بناء على قواعد جديدة. أما بعض القواعد المتعلقة بأصول الحياة العامة، فقد تكونت في وقت متأخر، على مراحل متتالية.

وبمناسبة وفاة أبي نمي، لعله من المفيد أن نذكر بعض العادات التي كانت توجد في المجتمع المكي، وهي أن بعض الأشراف المرموقين وذويهم، كانت تحمل نعوشهم بعد الوفاة، ويطاف بها حول الكعبة سبعة أشواط. وكذلك تبنى فوق قبورهم القباب. وقد كان أبو نمي أحد الأشخاص الذين طاف الناس بنعشه، وبنوا له قبة فوق قبره، في مقبرة المعلاة بمكة المكرمة[١]. ويبدو لي أن ماجاء في المصادر المصرية، من أن المحمل المصري وغيره من المحامل القادمة من البلاد الأخرى، قد توقفت أثناء عهد أبي نمي في الحجاز، خلال حكم الظاهر بيبرس، أمر مشكوك فيه[٢].

المحمل

والمحمل هو الاسم الفعلي لكل تلك الحاملة التي يسافر فيها المرء على الجمل. وتبدو بأشكال مختلفة بحسب تجهيزها. وبعض العامة يطلقون عليها اسم شقدف أو هودج أو ساحلة. وهذه التعبيرات هي من اللغة الدارجة التي تستعمل في هذا المقام. لقد استعملت كلمة محمل منذ عدة قرون لترمز إلى الصناديق المزركشة بالحلي، والتي تحوي كسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية، التي يرسلها خلفاء المسلمين سنوياً في أثناء موسم الحج. وهذه العادة قديمة في مكة، كان يقوم بها الحكام المسلمون، كرمز لنيل الشرف

(١) أمراء البلد الحرام ص٤٤.

(2) Lane, Vol 2: 161.

بحصولهم على زمام السلطة في المدينة المقدسة. وقد اعتاد هؤلاء أن يرفعوا علم الخلافة على جبل عرفات أثناء الوقوف بها. غير أن تعدد السلاطين، وتقسيم مملكة الإسلام، قد أدى إلى تكاثر هذه الأعلام. وقد وردت إشارات تاريخية إلى أن نزاعات وخصومات كثيرة، كانت تقع بين أمراء العالم الإسلامي، حول نصب هذه الأعلام، ومن تكون له مرتبة الشرف الأولى في رفعها[١].

لقد قام السلطان بيبرس عام ١٢٧٢م (٦٧١هـ) أو عام ١٢٧٧م (٦٧٦هـ) بإرسال محمل إلى مكة المكرمة[٢]. ومن المحتمل أن الذي حمله على ذلك حج إحدى أميرات مصر أثناء هذه الفترة. وفي عام ١٣٢١م (٧٢٠هـ) وصل محمل رائع من العراق، بعد انقطاع طويل، إثر حروب التتار في المنطقة[٣]. ولم يتمكن المصريون من العودة إلى إرسال المحمل إلا في عام

---

(١) في سنة ٦١٩هـ حج من اليمن صاحبها الملك المسعود وبدا منه ماهو غير محمود، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح، ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل (حاكم مصر) وعلمه، وقال لأصحابه إن اطلع البغاددة (أهل بغداد) علم الخليفة فاكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل إلى غروب الشمس. فأرسل ابن أبي فراس أباه وكان شيخاً كبيراً إلى المسعود وأخبروه بما يجب من طاعة الخليفة. فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل الغروب وقيل لم يأذن. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٥).

(٢) بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، لم يبق للحجاج العراقيين تقدم في أمر الحج، كما كان لهم ذلك في زمن الخلفاء العباسيين؛ لأن التتار بعد إزالتهم للخلافة العباسية من بغداد، لم تكن لهم ولاية على الحرمين، وصار التقدم في إقامة الحج ومشاعره لأمير الحاج المصري، لكون السلطان بالديار المصرية، نافذ الأمر بالحرمين الشريفين، ويقوم بمصالحهما من كسوة البيت الحرام وغير ذلك. وأول من قام بذلك بعد الخلفاء العباسيين من ملوك مصر الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي. وقام بذلك بعده ملوك مصر. إلا أن كسوة الكعبة صارت تعمل من غلة قرية ظاهر القاهرة، وقفها الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون، صاحب مصر، على كسوة الكعبة في كل سنة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٣) في سنة ٧٢٠هـ على ماقال البرزالي، حضر الموقف عالم كثير من جميع الأقاليم والبلاد. قال الشيخ رضي الدين الطبري، إمام المقام، من عمري أحج، ولم أر مثل هذه الوقفة. قال وفيها حضر الركب العراقي في تجمل كبير، ومعهم محمل عليه ذهب كثير وفيه لؤلؤ وجوهر، قوم بمائة تومان ذهب، وحسبنا ذلك بـ ٢٥٠,٠٠٠ دينار من الذهب المصري. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧٧ ـ ٢٧٨).

١٤٧٢م (٨٧٧هـ)، حيث استأثروا منذ تِلْك الفترة في إرسال المحمل إلى الديار المقدسة[١].

وفي عام ١٣٨٠م (٧٨١هـ) قدم محمل مع أمير اليمن. وأراد بعض الأمراء المصريين التقليل من شأنه، غير أن أمير مكة منعهم من ذلك[٢]. وعلى كل حال لم تكن هذه هي المرة الأولى، التي يفد فيها إلى الديار المقدسة محامل من اليمن، فقد سبق ذلك محامل كثيرة[٣].

إن وجود هذه المحامل وتعددها، يحمل المرء على الافتراض، أنه ربما تكون هناك علاقة بين المحمل، والعادة العربية التي يتكرر وقوعها كثيراً، وهي عادة أخذ المقدسات القابلة للحمل في الرحلات والغزوات. وعلى أيّ حال فقد كانت شهرة المحمل واسعة حتى على المستوى الشعبي .فقد اعتاد الناس في أحياء جدة، أن يضعوا محملاً حتى في الأعياد الشعبية. فكل حي له يوم خاص، ينظم فيه محملاً يفوق كل المحامل في الأحياء الأخرى المعايدة. ومهما يكن من أمر فإن المحمل مؤشر يرمز إلى سلطة حامي مكة والمدافع عنها والذين ينافسونه في هذا السبيل.

ومنذ عهد أبي نمي تأصلت عادة خدمة المحمل من قبل الأشراف لهذا الهيكل الرمزي. فقد كانوا يرتحلون لمقابلته، حيث يتسلمون من أمراء الحج الذين يرافقون المحمل، لباس الشرف (الخلعة) الذي يشهد لهم على

---

(١) منائح الكرم: حوادث سنة ٨٧٧هـ.

(٢) في سنة ٧٨١هـ حج محمل لصاحب اليمن. وأراد بعض الأمراء المصريين توهين حرمة هذا المحمل، فلم يمكنهم من ذلك صاحب مكة الشريف أحمد بن عجلان. وكان أمير الحاج مع هذا المحمل ابن السنبلي. وليس هذا المحمل أول محمل حج من اليمن، فقد رأيت مايدل على أن في السنة التي ولي فيها الملك المؤيد السلطة ببلاد اليمن حج له محمل إلى مكة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٧).

(٣) هناك إشارات في أخبار سنة ٦١٩هـ وأخبار سنة ٧٤٢هـ تدل على وجود حكام من اليمن في الديار المقدسة لأداء فريضة الحج. غير أن المصادر التاريخية لاتشير بوضوح إلى اصطحاب هؤلاء محامل حج معهم (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٥ و٢٨١).

رضا حامي الديار المقدسة عنهم. وقد كان أمراء الحج في بعض الأحيان، يطلبون من الأشراف الضعاف، إبداء الاحترام والتقدير بصورة مهينة. وربما استعملت مثل هذه الأمور لإنهاء سلطة من لا يرضون عنه من هؤلاء. ويمكن القول إن المحامل قد استعملت لعدة قرون بمنزلة بارومتر لقياس الجو السياسي في مكة.

لم يستطع محمد بن إدريس (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ١٠) ابن المنافس السابق لأبي نمي، أن يحول دون أن تكون الولاية لأبناء أبي نمي وحدهم (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم١٣، ١٤، ١٥، ١٦)

تدخل سلاطين مصر في الحجاز

غير أن هؤلاء الأبناء، قد دخلوا في صراعات متعددة ضد بعضهم. وقاتل بعضهم بعضاً مرات عديدة، من أجل الاستئثار بالسلطة. وقد استمر هذا الأمر قرابة نصف قرن من ١٣٠١ ـ ١٣٤٦م (٧٠١ ـ ٧٤٦) هـ. وقد ساعد على هذا الصراع تدخل سلاطين مصر المماليك، وذلك بدعم أحد الأطراف تارة، ثم الميل إلى منافسه من الطرف الآخر تارة أخرى. وقد كان المماليك يلجؤون إلى حجز المعارضين في مصر، حتى إذا ساءت الأحوال أعيد المحجوزون إلى السلطة في مكة، وأرسل الأمراء القدامى إلى الاحتجاز في مصر. ومن الغريب أن زمام السلطة كان يتولاها الأخوان معاً، بينما يدير الأخوان الآخران الصراع ضدهما. وما أن يستقر الأمر للأخوين[1]، حتى يثور أحدهما على الآخر أيضاً، لينفرد بالسلطة دون أخيه.

الشريف حميضة يلتجئ إلى العراق

في عام ١٣١٥م (٧١٥هـ) هرب حميضة (أحد أبناء أبي نمي) من المعتقل المصري وتوجه إلى العراق، التي نشأ فيها، نتيجة إيجاد المغول دولة إسلامية مغولية. وقد وعد حميضة أميرها خدابندة[2] بالدعاء له على

---

(١) لقد أسهب السباعي في وصف هذه النزاعات بين أبناء أبي نمي تحت عنوان «أولاد أبي نمي يتنازعون الإمارة» وقد فصل هذه النزاعات بين الإخوة الأربعة الكبار وهم رميثة وحميضة وأبو الغيث وعطيفة (انظر السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٦٢ ـ ٢٧٢).

(٢) لقد ورد اضطراب وخلط كثير في كتابة اسم خدابندة فقد ورد بلفظ خربندا في تاريخ الشيخ ابن فهد، كما نقله صاحب كتاب أخبار مكة المشرفة (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٥٣) وأورد السباعي اللفظ نفسه. ويقول محقق كتاب السباعي في حاشية ص٢٦٨: إنه «ملك التتار في =

منابر الحرمين، إذا ساعده في الانتصار على أخيه. ولقد أخذ خدابندة الأمر على محمل الجد، غير أن موته المفاجئ أجهض المحاولة في مهدها. وفي أثناء حكم ابنه أبي سعيد ظهر المحمل العراقي في الحرمين الشريفين، معيداً إلى الأذهان بعض الأبهة، التي كان يتميز بها المحمل العراقي قديماً. وقد أجرى الأمير أبو سعيد إصلاحات في شبكة مياه المدينة المقدسة[1].

= العراق» وذكر سبب التسمية وقال إن من عادة التتار أن يتفاءلوا بأول حيوان يدخل وقت ولادة المولود، فكان الداخل حماراً ويسمونه «خر»: فسموه خربندا. وقد ورد بصيغة خدابند في الأصل المطبوع لكتاب أمراء البلد الحرام. غير أن محقق الكتاب اختار صيغة خدابنده استناداً إلى ضبط اللفظ من قبل مؤلف كتاب «الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية». وقد رجحنا نحن ذلك، ولا سيما أن لفظ خدابندة تعني باللغة الفارسية والأردية عبدالله. (انظر أمراء البلد الحرام ص٤٥).

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة في حوادث سنة ٧٢٦ هـ ج٢ ص٥٣ ما يلي:
عمر بازان رسول الأمير جوبان بن تلك بن تداون نائب السلطنة بالعراقين عن السلطان أبي سعيد بن خربندة، ملك التتر عين عرفة، وكان الناس في جهد عظيم بسبب قلة الماء بمكة، فإن الراوية كانت تباع بها في الموسم بعشرة دراهم مسعودية، وفي غير الموسم من ستة دراهم إلى سبعة، فقصد الأمير جوبان عمل خير بمكة، فدله بعض الناس على عين كانت تجري في القديم ثم تعطلت. فندب لذلك بعض ثقاته وأعطاه خمسين ألف دينار، وجهزه في الموسم سنة خمس وعشرين، فلما قضى حجه تأخر بمكة، واشتهر أمره بها، فأعلم بعين في عرفة. فنادى بمكة: من أراد العمل في العين فله ثلاثة دراهم في كل يوم. فهرع إليه العمال، وخرج بهم إلى العمل فلم يشق على أحد منهم ولا استحثه، وإنما كانوا يعملون باختيارهم؛ فأتاه جمع كثير من العرب، وعمل حتى النساء، إلى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة، في ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة، وكانت مدة العمل أربعة أشهر، وكثر النفع بهذه العين وعم وعظم، وصرفه أهل مكة إلى مزارع الخضر. وكان جملة ما صرف عليها في هذه العمارة مائة وخمسين ألف درهم. فلما فرغ بازان من عمارة العين قدم إلى مصر، واجتمع بالسلطان، وعرفه خبر العين؛ فشق عليه ذلك، وقال له على لسان النائب: من أذن لك في هذا؟ ولا شاورتني؟ فقال للنائب: عرف السلطان أن جوبان، فعل ما فعل من الخير، وبقي الأمر للسلطان، إن شاء يخرب أو يعمر، فهذا شيء قد فعله من فعله وخرج عنه، والأمر إليكم. فلما بلغ قوله للسلطان سكت. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٥٣).

غير أن ذلك لم يكن له أهمية سياسية كبيرة؛ لأن الشريف حميضة قتل بخنجر أحد عملاء السلطنة المصرية[1]. وبالرغم من أن إخوة حميضة لم يكونوا راضين عن التجائه إلى العراق، إلا أن علاقات هؤلاء مع مصر كانت فاترة. وقد طلب المماليك في مصر إلغاء الضرائب والمكوس، التي يفرضها الشريف على الحجاج وأهل مكة، وتعهدوا لهم في مقابل ذلك بشحنة كبيرة من القمح، تأتي سنوياً من مصر العليا.

غير أن حكام مكة لم يلتزموا بذلك، بل أبقوا المكوس مفروضاً. وطلبوا مساعدة المماليك لإنهاء صراعاتهم مع بعضهم بعضاً. ودخلوا في نزاعات مع أمراء الحج. وقاموا بمحاربتهم حتى في شوارع مكة. وقد قتل في إحدى هذه المعارك عام ١٣٣٠م (٧٣٠ هـ) الأمير المصري وابنه. فلما بلغ السلطان الناصر ذلك غضب، ونوى أن يبعث إلى مكة جيشاً يستأصل الأشراف جميعهم، فقيض الله له قاضي القضاة جلال الدين القزويني، فوعظه وعظاً بليغاً وصرفه عن نيته[2]. وعلى أثر ذلك توثقت علاقة الأشراف بأمراء اليمن، فدعوا لهم على المنبر، وسمحوا للمؤذن بالأذان على الطريقة الزيدية. وصادف أن حج صاحب اليمن، وقام الأشراف بخدمته كما قاموا بحمايته من أن يتعرض له المصريون بسوء. وكان المصريون قد عزموا على منعه من ذلك. ولم يصدهم سوى حماية الأشراف له. وقد رام أن يكسو الكعبة ويستبدل ببابها باباً آخر من عنده، فلم يمكنه الأشراف من ذلك؛ لأن مثل تلك الهبات لاتنفع الأشراف مادياً، فوق أنها ستثير حساسية السادة في مصر[3].

علاقة الأشراف بأمراء اليمن

---

(١) يرى صاحب كتاب أمراء البلد الحرام (ص٤٦) وينقل ذلك عنه السباعي أن المماليك في مصر أعانوا عطيفة على قتال أخيه حميضة. وقد استطاع عطيفة أن يستعيد مكة بعد أن قتل حميضة في سنة ٧١٨هـ. ويذكر الغازي في إفادة الأنام أن حميضة قتل بيد أحد المماليك الأتراك في سنة ٧٢٠هـ (انظر السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٦٦)، وبموت حميضة انقطع الدعاء للتتار وعاد نفوذ المماليك ثانية (المحقق).

(٢) أمراء البلد الحرام ص٤٧.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨١ ـ ٢٨٣.

لقد نجح رميثة وعلى توالي السنين بالإبقاء على السيادة لنفسه، والتفوق على إخوانه، بحيث استأثر أخيراً بالسيادة المطلقة في حكم مكة. غير أن الصراع على السلطة لم يلبث أن تجدد بين أبناء رميثة أنفسهم، قبل أن يتوفى أبوهم بسنة واحدة. فقد سافر عجلان بن رميثة إلى مصر يطلب الإمارة، وقد حاول أمير مصر في هذه المرة أن يقسم الشيء الرئيس للخلاف العائلي، وهو دخل مكة بين عجلان وإخوانه الثلاثة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١) بحيث يحصل عجلان على نصف ذلك، بينما يحصل الإخوة الثلاثة مجتمعين على النصف الثاني، وقد كان هذا التنظيم هو تثبيت العادة القائمة والمتعارف عليها آنذاك، وهي أن يقوم رئيس العائلة الحاكمة بشراء النية الحسنة لأقاربه أصحاب النفوذ، عن طريق إشباع رغباتهم. وقد تأصل ذلك بحيث أصبح حق الأشراف الكبار في الحصول على حصة معينة من المال عرفاً قائماً يجب العمل به، غير أن مثل هذا العرف لم يساعد على استتباب الأمن، بل قد أضيف إلى نقاط الخلاف السابقة، فيما يخص الدخل الشخصي لشريف مكة، وكذلك الدخول التي تخضع للتقسيم. ولما كانت هذه الدخول غير محددة كلياً، فإنها تفضي إلى النزاع دائماً. فإذا طلب أحد الأشراف دخلاً كبيراً يثير عليه السخط وعدم الرضا، وبذلك يقدم العون لمنافسيه في إثارة المشكلات ضده. وهكذا فقد بقي هذا الأمر على تتابع تاريخ مكة أمراً مثيراً للجدل بين الإخوة والأقارب من جهة، وشريف مكة من جهة أخرى.

الشريف عجلان

تقسيم المداخيل بين الأشراف

بعد ثلاث سنوات خرج الإخوة الثلاثة لعجلان من مكة غير راضين عن أخيهم. ولم يتمكن سوى واحد منهم فيما بعد أن يواجهه بشجاعة ونجاح. ورغم ذلك يمكن اعتبار السنوات من ١٣٤٦ إلى ١٣٧٥م (٧٤٧ ـ ٧٧٧ هـ) هي فترة حكم عجلان، شاركه خلالها أخوه ثقبة في مرتبة ثانية لبعض الوقت. وفي خلال هذه الفترة وفي عام ١٣٥٩م (٧٦٠ هـ) خلع سلطان مصر الأخوين معاً، بسبب الصراع الدائم بينهما، وعين مكانهما شريفين آخرين، كان أحدهما موجوداً في مصر، والآخر هارباً في اليمن (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٢٠، ٢٢).

الشريف ثقبة

غير أن الفتنة[١] التي وقعت بين عسكر مصر، الذي قدم للدفاع عن الأمراء الجدد، والأشراف، كان ضحيتها العديد من القتلى والأسرى[٢]. فلما بلغ صاحب مصر هذه الفتنة أمر بتجهيز عسكر للحجاز، وأمرهم باستئصال الأشراف، وقال لا حاجة لنا بهم. غير أن سلطان مصر الملك الناصر عزل، وتولى بعده الملك المنصور، الذي كان له رأي آخر، فأطلق السيد عجلان وولاه مكة، وأشرك معه أخاه ثقبة الذي توفي بعد فترة وجيزة. فانفرد عجلان بالحكم. وحاول الحفاظ على السلطة، بأن عين ابنه أحمد في عام ١٣٦١م (٧٦٢هـ) شريكاً، وأعطاه ربع الدخل راتباً له، وبذلك نقل سلطة الحكم تدريجياً لولده. وهذه الطريقة هي التي سار عليها الكثير من الأشراف، في وقت متأخر، لملاءمتها لمنع إحداث أيّ قلاقل حول من يتولى السلطة. وفي عام ١٣٧٢م (٧٧٤هـ) وبعد أن شبع من الدنيا، غادر الشريف عجلان مكة، ليقضي السنوات الأخيرة من عمره في الريف. ولم يطلب أكثر من ذكر اسمه في الخطبة. ومات عجلان دون أن تراوده الأفكار بالصراع، الذي يمكن أن يدور بين أبنائه حول تولي السلطة؛ لأنه حسم هذا الموضوع في حياته وقبل موته.

الشريف أحمد

ربما كان بعض المكيين محقاً في اعتبار أن بعض الأشراف كانوا من بين المصائب التي حلت بالوادي غير ذي الزرع. فسنين الجوع الكثيرة في مكة، والتي كان يتبعها أحياناً الأمراض والأوبئة، كان من بين أسبابها القحط وقلة المطر في الديار المصرية. أما الأسباب الباقية فكانت [بحسب التعبير المكي] من صنع سادتنا الأشراف. فالضرائب القاسية[٣]، التي كانوا يبيعونها،

النكبات التي تحل بسكان مكة

---

(١) سبب هذه الفتنة كما يرويه السباعي، هو أن عسكرياً من الترك سكن بيتاً، عند باب الصفا، فطالبه بالأجرة صاحبه وكان من الأشراف فرفض دفعها. ولابد أنه أبدى شيئاً من العنجهية التي يبديها المحتلون في العادة. فثار النزاع واشتد، فضرب التركي الشريف، فاشتد غضب الشريف فقتله، فاجتمع الأتراك للثأر، واجتمع الأشراف للدفاع، فكانت الواقعة (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٧٩).

(٢) لقد قام الأشراف ببيع الأسرى من المماليك الأتراك عبيداً في سوق ينبع (المؤلف).

(٣) يورد الفاسي بيان المكوس التي كانت مقررة في ذلك العهد، على أساس النقد المسعودي في اليمن. وقد جاء فيه أن المقرر على حمل الجمل من الحنطة هو مدان بكيل مكة، والمقرر على =

من حين لآخر، إلى الأمراء المصريين، مقابل أعطيات سنوية كثيرة، لا يستعمل منها أي درهم للمنفعة العامة. وبالرغم من أن إلغاء الضرائب كان بأمر من الجهات العليا، ويتم توثيق أوامر الإلغاء هذه عن طريق وثائق محفورة على أعمدة المسجد الحرام[1] إلا أن [سادتنا] لا يعبؤون بهذه الأوامر ولا يقومون بتنفيذها.

وبالرغم من أن التبعية السياسية لمصر، قد ازداد تبلورها، إلا أن الشريف عجلان أمر لعدة سنوات ١٣٥٩ ـ ١٣٦٩م (٧٦٠ ـ ٧٧٠ هـ) بأن يدعى لسلطان المغول في بغداد، على منابر الحرمين، مقابل هدايا وأعطيات مهمة تلقاها منه. وعندما لم تتواصل الأعطيات أمر بقطع الدعاء له على المنبر[2].

الشريف عنان

بدأت سلطة أبناء عجلان ـ كما ذكر سابقاً ـ في أثناء حياة أبيهم ١٣٦١م (٧٦٢ هـ) واستمرت بعد موته واحداً وخمسين عاماً (١٣٧٥ ـ ١٤٢٦م) (٧٧٧ ـ ٨٢٩ هـ) (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية، رقم ٢٣ ـ ٣١). لقد حكم أحمد مدة (١١) عاماً دون مشكلات، وقد اختار ابنه الأصغر محمداً، ولياً لعهده، متبعاً طريقة والده. غير أن الاضطهاد الذي أوقعه ببعض أبناء عمومته قد ألب عليه الكثير منهم. وبمجرد وفاته كان حزب المضطهدين يفكر بوسيلة للانتقام. ولقد وجد هذا الحزب ممثله الرئيس في شخص ابن أخ

= حمل البصل، هو ثلاثة دنانير مسعودية، وهو مقرر فادح، ثم يذكر المقرر على السمن والعسل والخضروات وهو مايوازي ٢٠٪ من أثمانها. أما التمر فمقررة على السلة الواحدة دينار مسعودي، ثم يعلق الفاسي على هذا فيقول إن الناس كانوا يقاسون شدة من ذلك، وقد بلغه أن بعضهم استورد شاة فلم تساو المقدار عليها، ومنه نعلم أن هذه المقررات كانت فادحة بنسبة أثمانها في زمانها. وإذا استطعنا أن نعذر أصحاب الأمر يومها في فرض المكوس لتغطية النفقات الضرورية فإننا لانستطيع أن نعذرهم في تقرير النسب المرهقة (انظر السباعي، ١٤٠٤هـ ص٢٨٠ ـ ٢٨١).

(١) ذكر السيد دحلان في أحداث سنة ٧٦٦هـ أن السلطان أسقط المكس المأخوذ بمكة، وعوض عنه صاحب مكة مائة وستين ألف درهم من بيت المال، وألف أردب قمح. وقرر ذلك في ديوان السلطان شعبان صاحب مصر، ونقر ذلك في دعائم المسجد الحرام. وذلك باقٍ إلى الآن من جهة باب الصفا وباب الزيادة وباب الباسطية (دحلان: أمراء البلد الحرام ص٥٠).

(٢) (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٦).

عجلان [عنان] (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٢٥) الذي هرب إلى مصر، نتيجة شدة وطأة أحمد عليه. وقد استصدر أمر تعيينه من مصر، وحضر في معية أمير الحج المصري، وقد تخلص من منافسه محمد عن طريق الاغتيال في أثناء الاحتفال بمراسيم قدوم المحمل[١].

غير أن الأمور أبت أن تستقر؛ لأن الخصوم أثاروها حرباً شعواء ضده، فاضطرب الأمن، وشجع البدو على هجمات السلب والنهب. ونازع عنان في السلطة أولاد عجلان وخاصة علي ومحمد. وفي هذه الأثناء، وفي غمرة هذه الفوضى، لمع اسم جديد في مكة هو حسن بن عجلان (١٣٩٦ ـ ١٤٢٦م) (٧٩٨ ـ ٨٢٩هـ) الذي كان من أشد إخوته حزماً واعتزازاً بنفسه. ولعله لم يكن من أبناء عجلان مثله، في قوة الشكيمة والقدرة على التعامل مع أقاربه، واللباقة والدبلوماسية في التعامل مع السادة والسلاطين في مصر. ولقد كان لوجوده في مصر أثر في تعيينه في منصبه. فقد عين أميراً على الحجاز كاملاً، وعرف كيف يبسط نفوذه بين الحسينيين، الذين كانوا لا يزالون يمارسون صلاحيات الحكم في المدينة المنورة[٢].

الشريف حسن

بذل حسن بن عجلان مجهودات كبيرة لزيادة قوة جيشه، بحيث يتمكن من إشهار الرمح أمام المتآمرين من أقاربه المقيمين في مصر. وعندما وصله تقرير عن عزله (١٤١٠ و١٤١٥م) (٨١٣ و٨١٨هـ) أعد هذا الجيش

---

(١) يذكر السباعي روايات عدة حول مقتل الشريف محمد، ويحاول أن يربط بين الاغتيال والعداوات السابقة بين أبيه وخصومه من أبناء عمومته فيقول: ولا يكلفنا الدحلان عناء هذا الربط؛ لأنه لا يلبث أن يذكر لنا على أثر مقتل محمد أن الذي قتله أمير الحج المصري ثم يقول: وقيل قتل في سوق منى بسكين مسمومة، وقيل إنه مات في احتفال المحمل، ثم يسرد عبارته بالشكل الذي يتراءى فيه ارتباط الحوادث فيقول: وذلك أنه كان في جيش أبيه جماعة من أقاربه الأشراف. فلما توفي أبوه سأله سلطان مصر أن يطلقهم فأبى ثم كحلهم،وهو يريد أنه سمل عيونهم بمسامير محمأة، فأضمر السلطان ولاية عنان بن مغامس «غريم أبيه» الذي فر من سجنه، وهكذا سيره مع أمير الحج المصري، وأمره بأن لا يظهر أمره إلا بعد أن تجرى مراسيم استقبال المحمل في مكة، بحضور أميرها محمد. فلما حضر محمد الاحتفال انطلق مقذوف ناري أصاب الأمير، فأرداه قتيلاً، ونادى على الإثر عنان بن مغامس بنفسه أميراً (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٨٧).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٢٨، ج٣ ص٢٠٠.

للمقاومة الفعلية، لكنه آثر التريث، وأرسل مبعوثاً إلى مصر لتوضيح سوء التفاهم الحاصل، ولم ينس أن يحمل هذا المبعوث الهدايا الضرورية. وهكذا فإن أمر إلغاء العزل وإعادة التعيين لم يطل، حيث أصبح سيد البلاد مرة أخرى. وحينئذٍ بادر إلى قتال المعارضين باسم السلطان، وقضى على شوكتهم قضاء مبرماً[1].

لم يكن أمراء المماليك الذين تعامل معهم حسن بن عجلان هم المماليك الأتراك، بل كانوا من المماليك الشراكسة. فمنذ عام ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) احتل المماليك الشراكسة دفة الحكم، الذي أداروه منذ زمن طويل. فقد تحول هؤلاء من جنود عبيد إلى سادة لأسيادهم. وقد كانت هذه السلالة تجدد قوتها باستمرار، عن طريق دفعات جديدة، تصل إليها من الوطن الأم. وقد بقي هؤلاء حتى استولى العثمانيون على مصر بعد ١٣٤ عاماً. فما كان من الشريف حسن بن عجلان إلا أن انتظم في خدمة السادة الجدد في الديار المصرية.

لقد وقف الشريف حسن بقوة أمام توهين حرمة المحمل اليمني من قبل بعض الأمراء المصريين، ولم تكن هذه هي المرة الأولى، التي يأتي فيها محمل من اليمن، كما لم تكن هي المرة الأولى التي يحاول فيها سلاطين مصر التقليل من شأن هذا المحمل، الذي لم يكن لأهله مطامع خاصة بالحصول على نفوذ معين في المناطق المقدسة[2].

تفيد التقارير أنه خلال عامي ١٣٢٦م[3] و١٣٨٤م (٧٢٧ و٧٨٥هـ) كان عدد الزوار من الزنوج التكرونيين ومن المغاربة كبيراً، الأمر الذي كان أسهم في زيادة دخول أرباب السلطة. وفي هذه الأثناء كانت الهند تمثل

---

(١) عرف حسن بن عجلان باستعمال الحزم ضد الفوضويين من أقاربه وأبناء عمومته، فقد أعد حملة تأديبية قاسية، صبّحهم بها في مكان بوادي فاطمة، يقال له الزبارة، وقد نجحت الحملة نجاحاً راح ضحيته نحو أربعين شخصاً من الأشراف وانتهى بالهدوء والاستقرار (السباعي، ١٤٠٤هـ، ص٢٩١).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) إن السنة التي حج فيها عدد كبير من التكرونيين لم تكن هذه السنة وهي ١٣٢٦م التي ذكرها =

منجم الذهب الحقيقي للمكيين، حيث كان كثير من حجاجها من الأثرياء والموسرين، ومن الأمراء الأتقياء، الذين كانوا يوزعون الهبات الكثيرة، ويقيمون المؤسسات الخيرية، ليكسبوا دعاء المكيين، الذي يعتقدون أنه يجلب لهم البركة. وتروي لنا كتب التاريخ خبر شحنة لها أهميتها أرسلها أمير البنغال، في عهد الشريف حسن، تعطينا لمحة حول الطريقة التي تدار بها مثل هذه الهبات. لقد تسلم الشريف حسن الهدايا المخصصة له، وأخذ حسب العادة المتبعة ثلث المخصصات المقررة لسلطان مكة. أما البيوت والأرض المطلوبة لإنشاء مدرسة ورباط خيري للفقراء، فقد قدمها الشريف من أملاكه، نظير مبالغ كبيرة من المال. كما استغل الأمير مبلغاً كبيراً من المال، كان قد أرسل لتحسين شبكة المياه في المدينة. أما السفينة الهندية التي كانت محملة بالهدايا للمدينة المنورة، والتي جنحت بالقرب من ميناء جدة، فقد أخذ الشريف لنفسه ربع محتواها. وبما أن أمير المدينة الحسيني، لم يكن مذعناً بالكلية لشريف مكة، فقد طالب بهذه الحصة لنفسه[1].

هدايا الهنود

كانت أهم مصادر الدخل لأشراف مكة، باستثناء الرسوم التي يدفعها الحجاج، الذين لا حامي لهم، ومن بينهم قسم كبير من حجاج الشرق الأقصى، وحجاج شرق الجزيرة العربية (القطيف والأحساء) بالإضافة إلى حجاج اليمن، إضافة إلى ربع محتويات السفن الغارقة[2] وثلث الهدايا المقدمة للمكيين. وكذلك الضرائب غير المباشرة، التي كانت تلغى كلياً أو جزئياً[3]، وكانت تقدر بعشر البضائع المستوردة، غير أن الواقع الفعلي كان

مصادر دخل الأشراف

= المؤلف، بل كانت سنة ٧٢٤هـ التي توافق ١٣٢٤م (انظر أمراء البلد الحرام ص٤٧ و ٥١، وكذلك منائح الكرم حوادث سنة ٧٢٤هـ).

(١) أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٩٨ ـ ٢٠١.

(٢) كانت العادة إذا جنحت إحدى السفن وتولى رجال الشريف إنقاذها يحصلون على ربع محتوياتها، نظير عملهم.

(٣) الشيء المميز أن قرارات السلاطين المماليك في مصر، التي كانت تمنع أخذ المكوس، قد استثنت من القرارات المذكورة آنفاً، الضرائب المفروضة على البضائع المستوردة، القادمة من العراق والهند (المؤلف).

أكثر من ذلك، إذ لم يكن العشر يحسب بدقة، خاصة في حمولة السفن الهندية، التي ترسو في ميناء جدة. وقد أدت الابتزازات المالية التي تعرض لها الناس عام ١٣٩٥م (٧٩٨ هـ) إلى تجنب أصحاب السفن الرسو في ميناء جدة.

تنبه حماة الحرمين في مصر إلى أهمية الرسوم الجمركية على السفن، فقد آلت هذه الرسوم في عام ١٤٥٢م (٨٥٧هـ) إلى الحاكم المصري[١]. وكان سلاطين مصر لا يعطون كبير الأشراف في مكة إلا جزءًا يسيراً (مرة النصف، وأحياناً الثلث، وقد تصل إلى الربع). وكان هذا التقدير يخضع في كثير من الأحيان إلى الأعراف السائدة[٢]. وقد أدى تقسيم هذه العائدات الجمركية، منذ عام ١٤٢٥م (٨٢٨هـ)، إلى بداية مراقبة منتظمة لإدارة الأشراف. ففي الأوقات التي ترسو فيها السفن الهندية، كان يقيم في جدة موظف للجمارك تابع للسلطان. وحتى قبل ذلك التاريخ وفي عام ١٤١٦م (٨١٨هـ) كلف سلاطين الشراكسة في مصر، زعيم الأتراك في مكة، بتوزيع الهبات المرسلة إلى المدينة المقدسة من مصر[٣]. ومن هنا يبدو لنا ضعف اعتماد السلاطين على الأشراف، رغم أن هؤلاء كانوا يحملون لقب نائب السلطنة[٤].

ذكرنا سابقاً عن هدايا الأمراء والعظماء، الذين كانوا يؤدون فريضة الحج، أو يرسلون بهداياهم، لتوزع على سكان الحرمين الشريفين[٥]. وحينما

---

(١) منائح الكرم: حوادث سنة ٨٥٧هـ.

(٢) ذكر الدحلان أنه في سنة ٨٣٢هـ وصلت المراسيم من صاحب مصر، بأن ثلث ما يتحصل من عشور المراكب الهندية يكون لأمير مكة، والثلثان لصاحب مصر. ثم في سنة ٨٤٠هـ جاءت المراسيم بأن نصف عشور جدة من المراكب الهندية تكون لأمير مكة، (أمراء البلد الحرام ص٦٢).

(٣) جاء في إتحاف الورى أنه في عام ٨١٨هـ أرسل المؤيد صاحب مصر صدقة ذهب لتفرق في المسجد الحرام، فتولى تفريقها الأمير تغري برمش التركماني (إتحاف الورى ج٣ ص٥٢٩).

(٤) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٢٧.

(٥) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨١، وكذلك ج٣ ص٢٠٤، ٢١٨).

أصبحت السيادة في الحجاز لأمراء السلطة في مصر، كان مفهوماً ضمناً أن الأمراء المصريين، يقدمون الهدايا إلى منطقة نفوذهم. وبالمقابل كان هناك سلاطين آخرون، مثل الأتراك العثمانيين على سبيل المثال يرسلون بهداياهم أيضاً إلى الحرمين الشريفين، طلباً للبركة، حتى قبل فتحهم للقسطنطينية. أما إذا قدم بعض هؤلاء لأداء فريضة الحج، فإن المرء ينتظر منهم سيلاً من الذهب.

لقد وضع أبناء الشريف حسن أيديهم على المؤسسات الخيرية الدينية في المدينة المقدسة. وكانت العادة أن تلفق التهم للأغنياء من العامة، ويوصفون بأنهم معادون للنظام، ويساقون إلى السجن، ولايتم إخلاء طرفهم إلا بفدية كبيرة[١].

فرض الضرائب على المشاريع العامة

وكان هناك عرف يقضي بفرض الضرائب على المشاريع العامة. فكل من أراد إدخال إصلاحات في الأماكن المقدسة، ولو على حسابه الخاص، لابد له في البداية من موافقة السلطان، وكانت مجانية بلا مقابل. وبعد ذلك عليه أن يشتري موافقة الشريف، وهذا يتطلب مبلغاً من المال، قد يساوي المبلغ المخصص لإجراء العمل المطلوب. فمن أراد أن يغطي باب الكعبة أو ميزابها بالذهب، فعليه أن يدفع مبلغاً من النقود قد يعادل قيمة الذهب المستعمل. حتى أن الكتابة بتخليد مثل هذا العمل، لم يكن يسمح بها للقائم بالإصلاح، بل يسجل باسم الأمير الحاكم. وكان سادة مكة في العادة يحتفظون لأنفسهم بحق تحديد الأسعار لمتطلبات الحياة الأولى، وكان هذا يضمن لهم مكاسب كبيرة في حين كان ضرره على الناس ليس يسيراً. وإذا مات غريب في مكة، وليس له وارث شرعي، كان وريثه الشريف، غير أن سلاطين مصر أمروا فيما بعد بتسليم عائدات مثل هذه الأموال إلى خزينتهم. وهناك وسائل أخرى مفادها، أنه إذا مات أحد الأغنياء، تقام الدعاوى ضده، بأنه لم يؤد ما عليه من زكاة. فيكون ذلك وسيلة للاستيلاء على الأموال غير المزكاة. وقد كان على البدو الذين

---

(١) ابن جبير ص٥٤.

يدخلون في طاعة الشريف، أن يدفعوا بعض الضرائب للإمارة. أما القبائل المستقلة فقد كانت تعتبر ثائرة على النظام، وهي هدف للغزوات والحروب.

موظفو الأشراف وجيشهم

عين الأشراف لإدارة الأمور المالية الخاصة أناساً غرباء، متمرسين بكل حيل الإدارة الشرقية. أما الموظفون العاديون فكانوا من الأشراف أو رؤساء القبائل أو الغرباء، وكان معظم هؤلاء من الجيش التابع لأمير مكة. وكانت نواة هذا الجيش تتكون من العبيد والمحررين. وكانت هذه العصابة، تدعى من قبل الأجانب، كما كانت تدعى أيام ابن جبير «لصوص مكة». كان الاسم الرسمي للجيش «حملة الرماح»، غير أنهم كانوا يعرفون بعبيد السلطان أو القواد[١]، وكلا الاسمين لهما الدلالة نفسها. لكن الاسم الأخير (القواد) كان يميز المحررين غالباً، وخاصة أولئك الذين يعهد إليهم بوظيفة أو كتيبة، وهؤلاء بدورهم يملكون عبيداً يقومون بتدريبهم بمنزلة جنود لديهم[٢]. وكان هؤلاء العبيد ينتظمون في نقابة خاصة بهم، معادية للجنود الأجانب الآخرين.

وبالرغم من أن هؤلاء هم ملك خاص لسادتهم، إلا أن هؤلاء السادة كثيراً ما يفقدون السيطرة عليهم، خاصة عند الغضب. لقد كان الشريف دائماً يحاول زيادة عدد أفراد جيشه من هؤلاء العبيد. وكان أقارب الأمير المشهورون، لديهم أعداد أخرى من هؤلاء، يقاومون بواسطتها الحاكم في بعض الأحيان. أما المحررون فكانوا ينضمون عند حدوث الصراعات إلى فريق ما، حسب ما تمليه عليهم الرغبة. أما تحزب البدو في الحجاز، فكان يعتمد على العلاقات التقليدية، إضافة إلى كمية المكافأة المعروضة.

لقد كانت الحاجة ماسة إلى وجود جيش نظامي، تحت تصرف الشريف، لا يخضع لظروف المصادفة المشار إليها آنفاً. ومن المؤكد أنه بعد فترة حكم الشريف حسن (ربما قبل ذلك بقليل) قد تكوّن جيش من الجنود الفعليين

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨١، ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) كان هؤلاء يعرفون باسم العمره (أخبار مكة المشرفة ص٢٩٦) (المؤلف).

(العساكر)، ومعظم هؤلاء من عرب جنوب الجزيرة العربية[١]. وبعد ذلك أدخلت عناصر أخرى غير عربية[٢]. وكان هؤلاء يقاتلون في معارك الأمير، وإذا هزموا في الحرب فإنهم يذهبون إلى المنتصر[٣]. وكان هؤلاء يتخذون موقف الحياد في أثناء الحرب بين الأشراف.

وكما هو الحال في البلدان الإسلامية الأخرى، فقد كانت الطبول تقرع يومياً أمام بيت الشريف عدة مرات. وعند تغيير الحاكم فإن الفرق الموسيقية تذهب مع الجنود إلى السيد الجديد. وحينما يقوم الشريف بغزوة ناجحة، يرسل البشير إلى مكة ليعلمهم بالخبر. وكان هذا البشير يخبر أعيان الأشراف الواحد تلو الأخر، وكان هؤلاء يهدونه الهدايا والخلع، ويقومون برفع الأعلام على بيوتهم احتفاء بهذا النصر[٤].

طريقة حياة الأشراف

إن طريقة حياة الأشراف كانت أبسط من حياة الأمراء العرب الكبار. وحتى في أيامنا هذه (١٨٨٥م) فإن موظف الدولة التركي، ينظر باستغراب وتعجب، كيف يقترب أحقر البدو وأدناهم إلى الشريف الكبير، ويتلمس ركبته ويده وربما ذقنه، ويحدثه بتفاصيل كثيرة، عن أوجه النزاع غير المهمة، وأحياناً يخالفه ويقاطعه في الحديث. إن التركي ينسى في أثناء ذلك بأن هذه العلاقة الوثيقة، هي التي تزيد من نفوذ الأشراف، وتساهم في تدعيم وجودهم، وأنهم عنصر لا يمكن الاستغناء عنه.

يتميز الأشراف عن المواطنين العاديين في اللباس والتسلح منذ القدم، وهم يلبسون ثياباً خارجية ذات أكمام واسعة[٥]، وفي أثناء الاحتفال بالمناسبات

---

(١) يسميهم أحمد دحلان بالعساكر اليمنية وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «الجبالية» (المؤلف).

(٢) ذكر أحمد دحلان أن جيش غالب حوالي عام ١٧٩٠م يتكون من ٤٠٠ من اليمنيين، ٤٠٠ من بدو اليوافع، و٤٠٠ من الحضرميين، و٤٠٠ من المغاربة، و٤٠٠ من الأفغان (المؤلف).

(٣) يصفهم أحمد دحلان بأنهم «خدمة كل متول» (المؤلف).

(٤) (أحمد دحلان، ص٥٩).

(٥) جاء في كتاب الإعلام للقطبي: «أن الخليفة المستعين كان متجملاً في ملبسه، وهو أول من أحدث الأكمام العراض، فجعل عرض الكم ثلاثة أشبار، وهو الآن من شعار ساداتنا أشراف مكة بني حسن أعزهم الله». (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٣٢).

الرسمية كان الشريف ومساعده يرتديان حلة الشرف، التي كانت تخلع عليهما من قبل السلطان. وحتى في هذه الأيام فإن إهداء ثوب خارجي هو تكريم للمهدى إليه.

ومن المعروف أن هذه الهبات هي رمز لرضا السلطة. وتحدث في الغالب في أثناء تعيين أو تثبيت الموظفين المرموقين. وقد اعتاد الأشراف على ذلك منذ زمن طويل، حيث ترسل لهم ثياب الإجلال مع قوافل الحج. وكان المصريون يرسلون سنوياً بصحبة المحمل المرسوم (العهد) بالولاية، ومعه ثوب الشرف (الخلعة). وإذا حدث تغير في الحكم، قبل موسم الحج أو بعده، فإن بعثة خاصة كانت تقوم بإحضار مرسوم التعيين، واللباس الأميري للحاكم الجديد. وفي هذه الحالة وأمثالها تزدان المدينة، وتضاء ليلاً، لمدة ثلاثة أو سبعة أيام. وسواء رضي السكان بالوضع الجديد أم لا، فإن عليهم التعبير عن سرورهم بهذه المناسبة، التي يكون الاحتفال بها بناء على أوامر عليا[١].

في الأيام الأولى لصدور مراسيم التعيين، يرتدي الشريف الخلعة السنية، ويركب مع وجهاء مكة إلى المسجد الحرام، حيث تقرأ مراسيم التعيين بالقرب من الكعبة. ويقوم الشريف بدوره بتوزيع ثياب الاجلال على الأفراد ذوي المقام العالي من الحاضرين. وفي النهاية يطوف حول الكعبة، حيث ينتظره على بابها المفتوح سادن الكعبة من آل الشيبي، بينما يقوم الريس فوق بناية زمزم بالدعاء لنجاح الشريف[٢]. وعادة ما تحدث مثل هذه المراسيم حين عودة الشريف من رحلة خارجية طويلة. وهنا يتوجب على الأمير أن يبقى خارج المدينة ليقوم بأداء العمرة في أثناء الليل، وفي صباح اليوم التالي، يدخل إلى المدينة بالملابس الرسمية.

وهناك بجانب اللباس الخارجي العمامة، التي تحدد في الغالب الشخصية الرمزية لصاحب النفوذ. وقد مر بنا كيف أن الشريف أرسل عمامته مع أحد مساعديه، كإشارة إلى إصدار أوامره بعدم التعرض لقافلة الحج العراقي.

---

(١) أحمد دحلان، ص٥٦.

(٢) أحمد دحلان ص٦١.

وكيف أن الشريف في عام ١٢٥٦م (٦٥٣هـ) قد قام بالاعتذار عن خشونة معاملته لأمير الحج، عن طريق وضع عمامته في عنقه[١]، فما كان من أمير الحج إلا أن قبل عذره وخلع عليه وزاده على ما جرت به العادة من الرسم.

تنافس ثلاثة من أبناء الشريف حسن في أثناء حياته، على ثوب الإجلال الثاني، إضافة إلى المخصصات المالية التابعة له، وفوق ذلك التطلع إلى تسلم الحكم. وحسب رغبات الشريف حسن، فقد اعترف السلطان بابنه بركات، بصفته حاكماً مساعداً لأبيه. وقد بقي بركات في منصبه هذا عشرين عاماً. وبعد وفاة والده في مصر استدعاه السلطان عام ١٤٢٦م (٨٢٩هـ)، حيث حصل على إمرة مكة. وقد استطاع أن يثبت نفسه ضد مؤامرات إخوانه. وقد استمرت ولايته حتى نهاية حياته في عام ١٤٥٥م (٨٥٩هـ)، تخللها فترات من الانقطاع، فاز بإمارة مكة خلالها بعض إخوانه[٢].

الشريف بركات

لقد تعامل الشريف بركات، مع السادة في مصر بحذر شديد، كحذر الأفعى. وقد حذا في هذا الشأن حذو والده، ومع هذا الحذر واللين الذي كان يبديه الشريف تجاه سلاطين المماليك، لم يستطع أن يمنع في عام ١٤٣٨م (٨٤٢هـ) أحد سلاطين الشراكسة من وضع الأساس لتشريع جديد، أصبح شوكة في أعين الأشراف فيما بعد. فقد أرسلت إلى مكة حامية مكونة من خمسين خيالاً تركياً، تحت قيادة أمير يحمل لقب ناظر الحرمين الشريفين. وكانت مهمتها كما يدل الاسم الإشراف على شؤون الحرم[٣]. ولعله من المناسب أن نذكر أن هذا المنصب الذي أسند إلى الأمير سودون، يشبه إلى حد بعيد الوظيفة التي كان يشغلها الأوروبيون المقيمون باعتبارهم وسطاء في البلاط الهندي. وفي السنوات التالية تقلد هذا

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٩.

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٣٢ و٣٤١، وانظر أيضاً شجرة النسب الثانية ٣٥ ـ ٣٨.

(٣) التفت الظاهر جقمق ـ اول ما ولي السلطنة ـ إلى مكة المشرفة، وأرسل خلعا ومراسيم للسيد بركات بن حسن بن عجلان لولاية مكة، وأرسل إليه سودون المحمدي، ليكون أميراً على خمسين فارساً من الترك، مقيماً بمكة، وولاه نظر الحرمين الشريفين. (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢١٦).

المنصب عدد من الموظفين الأتراك. وكان هذا المنصب مرتبطاً تارة بإمارة الأتراك في مكة، وتارة أخرى مع رئيس تركي آخر. ومن الجدير بالذكر أنه قبل هذا التاريخ أرسلت قوات عسكرية إلى مكة لأهداف خاصة(١). وكان قائد هذه القوات يتصرف باستقلالية تامة عن شريف مكة. ومن جانب آخر أدى تقسيم المكوس في جدة إلى تدخل أجنبي مباشر، بحيث أصبح الممثل الدائم في جدة يتمتع بصلاحيات واسعة. ودليلنا على ذلك أن الشريف بركات طلب عام ١٤٥٥م (٨٥٩هـ) وقبل وفاته بقليل، توسط والي جدة لدى السلطنة بمصر، لاختيار ولده محمد خليفة له بعد موته. ويبدو أن سلاطين مصر أصبحوا يدركون أن إمارة الأشراف في مكة هي عقبة لا يستطيعون إزالتها، ولذلك فهم يسعون جاهدين للتقليل من أهميتها. ولقد أدت العواصف التي لحقت بالحياة السياسية في الدولة الإسلامية إلى التأخير في تطوير هذه الإمارة لتقوم بواجبها خير قيام.

خطر القبائل على طريق الحج

كان البدو من حرب يقطنون بين المدينة ومكة. ومنذ عام ١٤١٣م (٨١٦هـ)(٢) ـ حينما طردوا من قبل بني لام من مناطقهم الشمالية نحو الجنوب ـ أصبح هؤلاء يشكلون مصدر خطر كبير على الحجاج. وقد أرسل بركات تحذيراً إلى أمراء مصر، يوجه اهتمامهم فيه، نحو معالجة سلب هؤلاء الأعراب لحجاج بيت الله الحرام. وفي ضوء عدم الإدارة الحازمة

---

(١) ذكر الفاسي أنه في جمادى الآخرة أو رجب سنة ٧٦٠هـ أسقط المكس المأخوذ في المأكولات بمكة من الحب والتمر والغنم والسمن وغير ذلك، وارتفع من مكة الجور والظلم، وانتشر العدل والأمان، وذلك بسبب أن الملك الناصر حسن، صاحب مصر، جهز إلى مكة عسكراً لإصلاح أمرها وللإقامة بها، مع ولاة إمرة مكة، وهما الشريفان محمد بن عطيفة ابن أبي نمي وسند بن رميثة بن أبي نمي، ودام هذا مدة مقام هذا العسكر بمكة، وذلك آخر سنة ٧٦١هـ (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٤).

(٢) ذكر صاحب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام في حوادث سنة ٨٣٩ في ليلة الثالث عشر من رجب بعث السيد بركات بعثاً لمحاربة بشر من بطون حرب، وإحدى قبائل مذحج، ومنازلهم حول عسفان نزلوها من سنة ٨١٦هـ، وقد أخرجهم بنو لام من أعمال المدينة المنورة، فكثر عبثهم وأخذهم السابلة من المارة إلى مكة بالميرة (انظر عبدالعزيز بن فهد القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج٢ ص٤١٠)، وانظر منائح الكرم حوادث عام ٨٣٩هـ.

للسلطات المصرية والتركية استفحل خطر هذه القبائل، التي تعيش على السلب والنهب، وممارسة هذه الأعمال حتى يومنا هذا ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)[١].

بركات يرفض تقبيل خف جمل المحمل

لقد كان من التقاليد المتبعة، التي ساعد على وجودها شراء الأشراف لرضا السادة الحماة، أن يقوم هؤلاء بتجديد البيعة سنوياً، عن طريق تقبيل خف حمل المحمل الأميري، وقد كان ذلك صعباً على الشريف بركات ذي الأدب الرفيع، والذي كان من بين أصدقائه العالم الشافعي المشهور أحمد بن حجر. وقد سعى بركات لاستصدار مرسوم يتضمن إلغاء هذه العادة السيئة[٢]. وقد تبعه ابنه محمد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٣٩) في ذلك. وكان محمد هذا من أسعد الأشراف حظاً، حيث إنه حكم خلال الفترة ما بين (١٤٥٥ ـ ١٤٩٧م) (٨٥٩ ـ ٩٠٣هـ) دون أن يعارضه أحد من إخوانه أو أبناء عمومته. فقد سارت الإمارة خلال هذه الفترة بخط مستقيم (أي من الأب إلى الابن). ولم تواجه هذا الشريف صعوبات ذات أهمية مع السلطنة بمصر. ولقد كان رجلاً نشيطاً، قام بنفسه بحملة ضد قبائل زبيد[٣] في مناطق السواحل الغربية، أخضعهم فيها لطاعته وسلطانه. وقد أخذ بنصيحة سلفه الشريف قتادة عندما دعاه السلطان عام ١٤٧٢م (٨٧٧هـ) إلى زيارته في مصر. فقد أرسل عوضاً عنه ابنه بركات وقاضي مكة. وقد استقبلا بحفاوة كبيرة في أثناء تلك الزيارة.

الشريف محمد

لقد عزز عمره الطويل مركزه، ومركز أحفاده من بعده، حيث لم يستطع أي فرع جانبي من العائلة أن ينافس أبناء بركات السيادة. ولقد توافقت أيامه في

---

(١) من ملحوظة للأصطخري ص٢٢، وكذلك في المقامة الثانية والثلاثين للحريري والتي ألمح لي عنها البروفسور نولدكه يتضح أنه في القرن الرابع والقرن الخامس الهجريين كانت قبائل حرب توجد بين مكة والمدينة. وعلى كل حال فإن انعدام الأمن منذ عام ١٤١٣م يرجع سببه إلى انتقال بدو حرب الشماليين نحو الجنوب (المؤلف).

(٢) منائح الكرم حوادث سنة ٨٤٣هـ.

(٣) قبائل زبيد كانت تقيم بين خليص ورابغ (انظر منائح الكرم بأخبار مكة والحرم ص١٥٠) (المؤلف). وذكر صاحب أمراء البلد الحرام أنه في سنة ٨٧٣م غزا مولانا الشريف محمد ابن بركات قبيلة زبيد بين خليص ورابغ وقتل شيخهم روميا وأخاه مالكاً ونحو سبعين رجلاً، وغنم نحو ثلاثين ألفاً من المواشي (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٦٥).

مآثر السلطان قايتباي في مكة والمدينة

حكم مكة مع أيام حكومة السلطان الشركسي قايتباي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م) (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ) في مصر. ولقد كان لموهبة قايتباي في الحكم أثر بارز في الأقطار التي كانت تدين له بالولاء. ومن الطبيعي أن يقوم السلطان قايتباي بإلغاء الضرائب غير المباشرة[١]. التي كانت تستوفى في مكة. غير أنه خلّد ذكره في مكة من خلال العديد من الأبنية والمنشآت التي أقامها في المدينة المقدسة. وفي عام ١٤٨٠م (٨٨٤هـ) قدم بنفسه إلى الحج، وكانت فرصة ليرى فيها الأبنية الجليلة التي بنيت بأمره في مدينة الإسلام الأولى. فقد أمر ببناء منارة (مئذنة) ذات طراز خاص، ومدرسة ملاصقة للمسجد الحرام من جهة باب السلام، ومسجد في وادي منى. ولاتزال هذه الأبنية تعرف باسم مؤسسها قايتباي إلى الآن (١٨٨٥م)[٢].

لقد اتسمت زيارة السلطان قايتباي إلى مكة بأهمية كبيرة، بحيث اعتبرت ظاهرة العصر في حياة المكيين. فكل كلمة وكل خطوة من خطوات السلطان قد دونت في السجلات التاريخية لمكة. ولم يغفل المؤرخون المكيون ذكر سقوط عمامة السلطان عن رأسه حين دخوله المسجد الحرام، في إشارة ضمنية، إلى أنه لم يدخل إلى مكة بملابس الإحرام. ولم يقم أحد من العلماء بتوجيه انتباهه إلى ذلك[٣].

---

(١) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام أنه في سنة ٨٧٢هـ تولى سلطنة مصر الملك الأشرف قايتباي، وأرسل مراسيم تقتضي رفع المكوس بمكة. وأمر أن ينقر ذلك على أسطوانة بالمسجد الحرام بباب السلام (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٦٤).

(٢) يعد السلطان قايتباي من أكثر سلاطين المماليك اهتماماً بشؤون الحرمين الشريفين، وليس أدل على ذلك من الإصلاحات والترميمات العديدة التي أجريت في المسجد الحرام خلال عهده. فضلاً عن إعادة بناء مسجد الخيف بمنى، ومسجد نمرة بعرفات. وتشييده مدرسة إلى جوار المسجد الحرام في سنة ٨٨٢هـ، (١٤٧٧ ـ ١٤٧٨م) وإصلاحه عين عرفة في عام ٨٧٥هـ و (١٤٧٠م) (انظر ابن فهد، إتحاف الورى حوادث السنين ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٩، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٥هـ).

(٣) ذكر السنجاري في حوادث سنة ٨٨٤هـ أن السلطان قايتباي دخل مكة ليلاً. وكان قاضي مكة هو الملقن له بالأدعية، إلى أن دخل من باب السلام. فدخل بحصانه فعثر، فطاحت عمامته، فتقدم رمضان المهتار فناوله إياها، وكان ذلك تأديباً من الله سبحانه وتعالى، له حيث لم يدخل مكة محرماً (منائح الكرم حوادث سنة ٨٨٤هـ).

الشريف بركات الثاني

بعد وفاة محمد بن بركات تولى ابنه الشريف بركات الثاني (١٤٩٧ ـ ١٥٢٥م) (٩٠٣ ـ ٩٣١هـ) (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٤٢) الذي تمتع بالجدارة والكفاءة نفسها التي تمتع بها والده، في تنفيذ السياسة التي وضعها جده حسن بن عجلان. ولقد كان لإقامته في مصر أيام شبابه، ثم اشتغاله مع والده في تصريف شؤون الحكم، يضاف إلى ذلك شجاعته المشهورة، أكبر الأثر في تطوير قدرته الإدارية. غير أنه كان ينقصه الدعم من سلاطين مصر. هذا الدعم الذي يكسبه الاحترام والتأييد. ذلك أنه منذ موت السلطان قايتباي، تولى زمام السلطة في مصر حكومة مكونة من عدد من الأشخاص، الأمر الذي مهد الطريق لوقوع العديد من المؤامرات والدسائس. فقد ثار عليه اثنان من إخوانه (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٤٠، ٤١) الأمر الذي لم يسمح له بالراحة والاطمئنان خلال السنين الأولى من حكمه[١]. لقد وقف الأتراك، وكل الجاليات الأجنبية في مكة إلى جانبه وأيدته ضد منافسيه. أما وجهاء مكة بما فيهم قاضي القضاة[٢] فقد ساعدوا منافسيه ضده. وقد حشد هؤلاء لمساعدة قبائل زبيد، وكذلك السادة الحسينيين في ينبع، ضد الشريف بركات. وقد أغروا أحد القادة القادمين من مصر، فقام باعتقال الشريف بركات وإرساله أسيراً إلى مصر. غير أنه تمكن من الهرب من معتقله، وعاد ليستعين ببدو عتيبة وبني لام الذين دخل بهم مكة فاتحاً. وقد عانى سكان مكة ومجاوروها من أضرار السلب والنهب التي قام بها هؤلاء. لقد نجح الشريف بركات عن طريق الهدايا[٣]،

---

(١) هؤلاء هم الشريف هزاع بن محمد بن بركات، والشريف أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني.

(٢) هو القاضي أبو السعود بن ظهيرة. وقد قبض عليه الشريف بركات فيما بعد وأخذ أمواله وقتله تغريقاً في البحر عند القنفذة. (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٦٨ ـ ٦٩).

(٣) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام في سنة ٩١٥هـ بعث مولانا الشريف إلى السلطان بهدية من جملتها عشرون عبداً حبشياً، وعشرون ألف دينار ذهباً، وعشرون فرسا. وأرسل [السلطان] إلى مولانا الشريف بخلعة وهدية سنية وخاطبه بخطاب بليغ، وفوض إليه جميع أمور الأقطار الحجازية حتى ينبع وغيرها، وحصل بمكة فرح عظيم (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٢).

ثم عن طريق القوة، في تحريك السلطات القائمة في مصر نحو الاعتراف بسلطانه على المدينة المقدسة. وقد تفرغ بعد ذلك لقتال قبائل زبيد التي كانت موالية لأخويه، وألحق بها هزائم كبيرة ودانت له بالطاعة. وقد عهد الشريف بركات لأحد إخوانه وأحد أبنائه في مساعدته في تصريف شؤون الحكم (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٤٣، ٤٥). غير أن هذين قد توفيا قبل موته، الأمر الذي ساعد على انتقال المنصب الرفيع إلى ابنه الصغير المحبوب محمد أبي نمي (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٤٦).

لقد دعا آخر سلاطين الشركس شريف مكة الكبير إلى زيارته في عام ١٥١٢م (٩١٨هـ). وكالعادة قام الشريف بركات بإرسال ابنه، وولي عهده أبي نمي، الذي كان عمره لا يزيد آنذاك على ثماني سنوات. وقد سر السلطان بزيارة الطفل. وزاد سروره بالانطباع الحسن الذي أخذه السلطان عنه حينما قال كلمة عفوية، بدت للسلطان وكأنها نبوءة بالانتصار على الخصوم الجدد من العثمانيين[١].

وفي السنوات الهادئة من حكم المدينة المقدسة، كان الشريف بركات يتبادل الرسائل الشفوية المنمقة مع السلطان الشركسي في مصر[٢]. وهذه

---

(١) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام أنه في شهر ربيع الأول سنة ٩١٨هـ أرسل السلطان الغوري يطلب من الشريف بركات أن يحضر عنده. فأرسل يعتذر إليه، وأرسل أبو نمي ابنه إلى مصر، ومعه القضاة والقواد. وتوجهوا إلى مصر. فلما دخلوا قابلهم السلطان الغوري بالإعزاز والإكرام، وأجلس السيد أبا نمي على حجره وقبل يده. وفرح به غاية الفرح، وكان السلطان الغوري يتجهز للخروج إلى قتال، فسأل السيد أبا نمي: ماسورتك ـ فقال (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فاستبشر الغوري بذلك ثم جعله شريكاً لوالده في أمر جدة ومكة وينبع وسائر الأقطار الحجازية. وكتب له توقيعاً شريفاً بذلك، وأعاده إلى والده. (انظر أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٢ ومنائح الكرم حوادث سنة ٩١٨هـ).

(٢) أرسل الشريف بركات بقصيدة يمدح فيها الأشرف قانصوه الغوري عدد أبياتها ٨٧ بيتاً ومطلعها:

لي في زماني ما يعطي وما يدع   وقد شكرت فلا بأس ولا طمع

وقد رد الأشرف قانصوه الغوري بقصيدة على نفس الوزن والقافية، وعدد أبياتها ٤٤ بيتاً ومطلعها:

الرسائل هي رسائل مدح تنم عن الوفاء والإخلاص الذي لا يخلو من المداهنة من الطرفين.

البرتغاليون والعثمانيون

في هذه الأيام كانت هجمات البرتغاليين على بلاد الهند قد اشتد أوارها، وامتدت إلى البحر الأحمر. وأصبحت تشكل هاجساً مقلقاً لدولة المماليك في مصر. فأرسل السلطان المملوكي إلى جدة أميراً شديد الوطأة[(١)] مع عدد من السفن تجوب شواطئ البحرالأحمر. وتقدم الوالي فقضى قضاء مبرماً على أمراء اليمن آنذاك. كما قام خلال عام ١٥١١م (٩١٦هـ) ببناء سور حول مدينة جدة لحمايتها من البرتغاليين[(٢)]. ويقال إنه فعل ذلك، لأن الميناء كان يعاني من غزوات البدو. وربما أراد بالوقت نفسه أن يقاوم المتسللين الأوربيين إلى موانئ البحر الأحمر[(٣)].

بناء سور جدَّة

الحمد للَّه فينا الحكم مجتمع ... وليس فينا لمخلوق يرى طمع

ويقال إن قصيدة قانصوة الغوري كانت من نظم قاضي القضاة بالديار المصرية سري الدين عبدالبر بن الشحنة الحنفي (انظر عبدالعزيز بن فهد القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج٣ ص٢٦٢ ـ ٢٨٠).

(١) هذا الأمير هو حسين الكردي، وكان أول حاكم خاص أو والي لجدة، عينه الحماة في مصر (المؤلف) (انظر أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٤٤).

(٢) كان هناك سور أقدم مقام حول جدة ذكره ناصر خسرو قبل هذا التاريخ في أثناء رحلته المدونة باسم سفرنامه (انظر سفرنامه رحلة ناصر خسرو القبادياني ترجمة أحمد خالد البدلي وتقديمه ص١٣٥).

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة: ومن آثاره [السلطان الغوري] بناء سور جدة، فإنها كانت غير مسورة، وكانت العربان في أيام الفتنة، تهجم على جدة وتنهبها. ونهبت جدة مراراً في الفتن التي وقعت بأرض الحجاز بعد وفاة الشريف محمد بن بركات. وجرت أحوال يطول تفسيرها، فأرسل السلطان الغوري أحد أمرائه المقدمين، وهو الأمير حسين الكردي، وجهز معه عسكراً من الترك والمغاربة في نحو خمسين غراباً (قوارب خاصة) لدفع ضرر الفرتقال (البرتغال) في بحر الهند، وكان بداية ظهورهم. وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك في جدة، وجعلها له إقطاعاً. فلما أتى جدة سورها وبنى أبراجها وأحكمها. وهدم كثيراً من بيوت الناس، مما يقارب موضع السور لوضع الأساس. وأخذ حجارتها، وبنى السور في شدة وبأس. واستخدم عامة الناس في حمل الحجر والطين، حتى التجار المغتربين، وساير المتسببين، وضيق على البنائين، بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجيء، فلما جاء أمر أن يبنى عليه.. إلى غير ذلك من الظلم الشديد، والجور العنيد، وبنى السور جميعه في دون عام، من شدته وغشمه وإقدامه وظلمه (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٤٤ ـ ٢٤٦، وانظر أيضاً السباعي ص٣١٦).

فتح مصر من قبل العثمانيين

لقد كان على المماليك أن يواجهوا خطر الأتراك القادم من الشمال، أكثر مما فعلوا لمواجهة الأخطار القادمة من الجنوب. فقد استولى الأتراك على مصر في عام ١٥١٦م (٩٢٢هـ) على يد السلطان سليم العثماني. وكان السلطان الجديد قد أعد جيشاً لاحتلال مكة. غير أن أحد قضاة مكة الذي كان سجيناً في مصر[١]، وتم إطلاق سراحه بعد دخول سليم الأول إلى القاهرة، قد أقنع السلطان، أنه لا حاجة لإرسال قوات لإخضاع الحجاز؛ لأنه يعتقد أن أميرها لا يعارض في تحسين علاقته بالعثمانيين. وأنه سيقوم بالبيعة للنظام الجديد.

وهكذا كانت يد الصبي، التي بايعت السلطان المملوكي قبل أربع سنوات، هي التي بايعت في المكان نفسه باسم شريف مكة سلاطين العثمان. وقد حمى الشريف الكبير الشاعر نفسه من جيش العثمانيين عن طريق تحويل قصائد المديح إلى عنوان السيد الجديد فاتح مصر العثماني.

كان العثمانيون يظهرون دائماً في أثناء فتوحاتهم أنهم يدافعون عن الإسلام ضد الكفر، وضد الانشقاق عن العقيدة. وكان العلماء والعامة ينظرون إلى شجاعة الجنود العثمانيين على أنها جهاد في سبيل الله[٢]. وقد برز العثمانيون بصفتهم خصوماً ألداء، ضد العائلة الفارسية التي برزت آنذاك[٣]،

---

(١) جاء في أمراء البلد الحرام: كان بالديار المصرية القاضي صلاح الدين [محمد] ابن أبي السعود ابن ظهيرة معتقلاً، بها صادره الغوري يطلب منه عشرة آلاف دينار فعجز، فأمر بحمله إلى مصر واعتقله، فأطلقه السلطان سليم، لما دخل مصر، فلما بلغ القاضي تجهيز الجيش اجتمع لوزير مولانا السلطان سليم وعرفه عظمة صاحب مكة ومنزلته من الشرف، وأنه من خدم مولانا السلطان، وأن الرأي إرسال مكتوب إليه، ولا تبدو منه مخالفة أبداً، ولا يحتاج إلى تجهيز جيش. فاستقر الحال على إرسال توقيع شريف لمولانا الشريف بركات، وإبقاء الشريف أبي نمي على شركة أبيه نظير توقيع السلطان الغوري، وكتب القاضي صلاح الدين لمولانا الشريف يعرفه بما وقع، ويسأل إرسال ابنه الشريف محمد أبي نمي إلى الحضرة السلطانية تتشرف باللقاء، ويكون دليلاً على الرضا والقبول، فقبل الشريف ذلك، فلما وصل إليه الأمر السلطاني أرسل ابنه أبا نمي. (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٣).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٩.

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة (ج٣ ص٢٧٧) وفي معرض وصف غزوات السلطان سليم للدولة =

والتي تحمل فكراً شيعياً. ولقد كان من أسباب احتلال مصر، العلاقة السرية بين المماليك الشراكسة في مصر، والدولة الشيعية المنشقة، بحيث يمكن القول إن فتح مصر كان له مظهر ديني. ذلك المظهر الذي كان العثمانيون حريصين على إبرازه.

ولقد كان من الممكن أن يصور العثمانيون أشراف مكة بأنهم طغاة كبار، وأن لديهم ميولاً شيعية، كتلك التي استخدموها ضد سلطان المماليك، بالرغم من أن هؤلاء الأشراف الآن هم على المذهب الشافعي. إلا أن خضوع الحجاز بدون استعمال القوة جعل العثمانيين ـ لدوافع سياسية ـ يظهرون شيئاً من الليونة، وعدم الصرامة في الإدارة. وعدم إظهار فتح الحجاز على أنه عمل جهادي يميز الفتوحات العثمانية.

الشريف أبو نمي ابن بركات

لقد تغيرت بعض الظروف في الحجاز نتيجة تغيير السيادة الجديدة. لقد هدأت المنازعات الداخلية بين صفوف الأشراف أنفسهم. وكانت حالة الهدوء، هنا شبيهة بفترة الهدوء، التي سادت في عهد السلطان قايتباي. فقد تولى أبو نمي السلطة الفعلية بعد وفاة والده عام ١٥٢٥م (٩٣١هـ)، واستمر في حكمه بدون عقبات تذكر حتى عام ١٥٦٦م (٩٧٤هـ)، حيث ترك لابنه وولي عهده الشريف حسن، تصريف شؤون الإمارة كافة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٤٦). وقد حكم هذا الأخير حتى عام ١٦٠١م (١٠١٠هـ) دون أن يثور عليه أو ينازعه أحد من أقاربه أو أبناء عمومته. هذا القرن من الهدنة في الديار المقدسة، لم يكن يعزى إلى العمل التنظيمي للعثمانيين، بل يعود إلى الأثر الترهيبي للأسلحة العثمانية المنتصرة في كل مكان. فصائل الجيش التي مرت عبر مكة في طريقها إلى اليمن،

= الصفوية في فارس، أن قوافل الميرة والعليق والمؤن التي أعدها السلطان؛ لأن تتبعه في غزوه لفارس، قد تخلفت عنه: فسأل عن السبب فقيل له إن سبب ذلك أن سلطان مصر قانصوه الغوري. فإنه كان بينه وبين شاه إسماعيل محبة ومودة ومراسلات، بحيث إن السلطان قانصوه الغوري يتهم بالرفض في عقيدته بسبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم خان أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنه، صمم على قتل السلطان الغوري أولاً، وبعد الاستيلاء عليه وعلى بلاده يتوجه إلى قتال شاه إسماعيل ثانياً.

وحولت المسجد الحرام غير مبالية إلى ثكنة عسكرية، ثم التقارير التي تصف قسوة المعاناة وشدتها التي ألحقها الجيش الفاتح بأتباع الأئمة الزيدية في اليمن، حققت أثراً ترهيبياً استمر طويلاً. ولقد كان للسياسة الحكيمة التي اتبعها شريف مكة آنذاك أكبر الأثر في حمايته وحماية المدينة المقدسة من هذه الهجمات.

لقد سمح العثمانيون لأبي نمي، ومن بعده ابنه حسن أن يكونا واليين تابعين للسلطان، ضمن الحدود المرسومة، وعليهما أن يثبتا جدارتهما في السيادة والسلطة.

وقد امتدت سيادتهم من خيبر وينبع والمدينة حتى حلي والأراضي المرتفعة داخل الجزيرة العربية. وقد اعتبر أبو نمي متجاوزاً لحدود دولته عندما أخذ عام ١٥٤٧م (٩٤٤هـ) ميناء جيزان الجنوبي، دون أن يأخذ إذناً بذلك. لذلك رفض الوالي في اليمن الموظفين التابعين للشريف وأبلغه أن سيادته تنتهي عند حلي فقط[١].

لقد استحسن السلطان العثماني العمل الذي قام به الشريف أبو نمي عام ١٥٤١م (٩٤٨هـ) بتتبع السفن البرتغالية التي وصلت إلى ميناء جدة[٢].

---

(١) ذكر صاحب كتاب أمراء البلد الحرام أنه في سنة ٩٤٤هـ، توجه الشريف أبو نمي لأخذ جازان، وصاحبها إذ ذاك عامر بن عزير، فأخذها الشريف، وفر صاحبها، فأقام بها الشريف قائداً من جهته يضبطها، ورجع ظافراً منصوراً، واستمرت تحت حكمه إلى سنة ٩٤٥هـ، فلما مر بها سليمان باشا راجعاً من اليمن. أخرج منها قائد الشريف، وأقام بها نائباً من جهته، وأضافها إلى ما افتتحه من اليمن (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٧٥ ـ ٧٦).

(٢) ذكر السباعي في تاريخ مكة (ص٣٤٧) وكذلك أحمد دحلان في كتاب أمراء البلد الحرام (ص٧٦)، أنه في عام ٩٤٨هـ كانت هجمات البرتغال على شواطئ العرب التي ذكرناها في عهد الشراكسة لا تزال تستأنف شدتها. وقد استطاعوا أن يتصلوا بجدة التي سوّرها حسين الكردي في عهد الشراكسة. وأن ينزلوا في مرسى كان معروفاً بأبي الدوائر بالقرب من جدة، وكانوا في ٨٥ مركباً مشحوناً بالرجال والسلاح، فتحمس أبو نمي للقائهم، ونادى مناديه في أسواق مكة، وبين القبائل بالجهاد العام. فتطوع الأهلون، كما تطوعت البادية، فأعطاهم من السلاح ما يكفيهم، وخرجوا بجيش جرار إلى جدة، حيث قابلوا العدو المغير، وصدوه بقوة السلاح عن مينائهم، وكان أبو نمي في الصفوف الأولى للمدافعين. وقد رئي لابساً درعه شاكي السلاح يتقدم المجاهدين.

وقد أنعم عليه بنصف عائدات الميناء. وكان سلف أبي نمي قد حصلوا من السلطات المصرية على نصف هذه العائدات في السابق. وحينما أصبح هذا المصدر لا يدر دخلاً كبيراً منذ عام ١٦٠٣م (١٠١٢هـ) قام السلطان بتعويضه عن طريق عائدات تنقل من الأراضي السلطانية.

وقعت محاولة جادة لقتل الشريف أبي نمي، ولكن أكانت هذه المحاولة نتيجة مهمة سرية، ـ أم نتيجة غضب شخصي[١] من الباشا الذي قاد قافلة الحج في عام ١٥٥١م (٩٥٨هـ)؟

الافتراض الأول له ما يبرره، ذلك لأن السلطان قد أرسل بعثة لتقصي الحقائق وتهدئة الأمور، وقامت بلوم الباشا على فعلته. لكنه بالرغم من كل تلك المخالفات عين حاكماً على اليمن، بعد فترة وجيزة من محاولة القتل هذه، مما يلقي ظلالاً من الشك على الحادثة، ويدعم الرأي القائل بأن محاولة التخلص من الشريف قد أسند تنفيذها إلى أمير الحج.

إن أمير جدة التركي والموظفين الأتراك المرسلين إلى مكة للقيام بمهمات خاصة بالإضافة إلى أمراء الحج، هم أشخاص غير مرغوب فيهم، ويمثلون ظواهر غير محببة للنفس العربية. ولقد زادت العلاقة غير الحميمة سوءًا أيام الأتراك أكثر من غيرهم من السلاطين السابقين. فالأتراك والعرب يختلف كل واحد منهم عن الآخر اختلافاً واضحاً، ولا يتفهم الواحد منهم طبائع الآخر[٢]. زد على ذلك أن الأمراء لم يحاولوا إظهار الجانب اللطيف

---

(١) ذكر الدحلان صاحب كتاب أمراء البلد الحرام (ص٧٧) والسباعي صاحب كتاب تاريخ مكة (ص٣٤٧) أن تركيّاً من ولاة اليمن اسمه محمود باشا أوفد من قبل الخليفة إلى أبي نمي يحمل بعض الهدايا. فلما قابله لم يخرج ممنوناً من نوع المقابلة. فأسر ذلك في نفسه حتى ولاه الأتراك إمارة الحج عام ٩٥٨هـ، فاغتنم الفرصة، وتحرش بعسكر أبي نمي، ونادى بسقوطه في أيام الموسم، فصارت الفتنة بين قواته وعسكر أبي نمي في أيام منى، واغتنم غوغاء البادية الفرصة فأوقعوا في الحجاج، وبات الناس في أمر مريج، وتعطل الكثير من أداء مناسكهم. وقد أدرك أبو نمي سوء العاقبة، إذا ترك الغوغاء يوقعون بالحجاج. فركب بنفسه لملاقاتهم. وقد أثخن فيهم الجراح، كما هزم عسكر محمود باشا، فانطلقوا مبعدين عن مكة. ولما عاد محمود باشا إلى تركيا، كتب الخليفة يعتذر عما حدث، ويخبر أبا نمي أن محمود باشا لقي عقابه لديه.

(٢) تحامل المؤلف واضح من حيث وصف العلاقة بين العرب والأتراك بشكل غير مقبول.

لديهم، الأمر الذي كان يزيد من حدة الموقف في بعض الأحيان بين الجانبين العربي والتركي.

تعدد المحامل إلى مكة

لقد أصبح المحمل العثماني رمزاً لسيادة العثمانيين على المدينة المقدسة. فمنذ عام ١٥١٧م (٩٢١هـ) أضافوا إلى المحملين التقليديين القادمين من سورية ومصر، محملاً ثالثاً جديداً، كان يفد من عاصمتهم الأوربية. لكن هذا التقليد الجديد ألغي بعد فترة وجيزة. وقد طلب بالمقابل والي اليمن عام ١٥٥٦م (٩٦٣هـ)[١] بأن تسمح له الدولة العلية بتجهيز محمل ثالث، على غرار المحمل السوري والمصري. ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ)[٢] بدأ الأشراف بالاحتفال سنوياً بالرمز الثالث للقوة التركية. ولو أنه يتميز بأنه أكثر تواضعاً من نظيريه الأخرين. إن مثل هذا الطلب لأحد حكام الولايات العثمانية، يبين مبدأ الأنوية لدى حكام الأقاليم، ويظهر الاستقلال المصيري للأجزاء المنفردة للإمبراطورية العثمانية. وبالرغم من تعدد المحامل المتوجهة إلى مكة، لم تفقد مصر أهميتها بالنسبة إلى الحجاز. والأمر ببساطة يعود إلى أن مكة لم يكن بها أحد ممثلي السلطان. لذا فإن كل طلب أو خبر مهم للشريف، كان يصل للسلطان عن طريق القاهرة. وفي الظروف العادية كانت نصائح والي مصر وتوجيهاته بخصوص القضايا العربية تؤخذ بعين الاعتبار. وكلما فقدت الحكومة المركزية جزءًا من سلطتها مع مرور الزمن، زاد الارتباط القديم بين الحجاز ووادي النيل.

لقد كانت أكثر النتائج المفرحة بالنسبة للمكيين من خلال الأوضاع السياسية الجديدة قيام المؤسسات الخيرية التي بنيت من قبل العثمانيين

---

(١) ذكر أحمد دحلان أنه في سنة ٩٦٣هـ عرض الوزير مصطفى باشا المتولي لليمن، على مولانا السلطان، أن يحدث محملاً يجيء من اليمن. فأذن له، فوصل المحمل، وبرز مولانا الشريف للقائه ولبس الخلعة. ودخل الشريف مكة ومعه المحمل والأمير، وأنزلوا المحمل بالمعلاة، واستمر مجيء هذا المحمل إلى سنة ١٠٤٩هـ، ثم انقطع لما حدث من الفتن (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٩).

(٢) يبدو أن هذه السنة ١٦٣٠م ليست السنة التي انتهى فيها قدوم المحمل من اليمن. فاستناداً إلى رواية دحلان السابقة أن المحمل انقطع عام ١٠٤٩هـ، وعلى هذا تكون السنة هي ١٦٣٩م.

الفخورين دائماً بخدمة الأماكن المقدسة. ومن المعروف أن هناك شحنات سنوية من القمح إضافة إلى الكثير من الإعانات المالية النقدية تصل سنوياً من مصر إلى بلاد الحرمين. وقد مر بنا كيف أن السلطان قايتباي قد نظم هذه الجرايات وزادها زيادة ملحوظة. ومن المعلوم أن الأشراف كانوا يحصلون سنوياً على مبالغ نقدية، بعضها يرسل لهم هدية، وبعضها الآخر تعويضاً عن الضرائب الملغاة. وقد كانت هناك أوقاف كثيرة من الأراضي الخصبة يعود ريعها إلى سكان الحرمين، الذين أصبح كل بيت فيهم تصله جراية قمح سنوية[1]، كما أن الكثيرين من هؤلاء كانوا يحصلون بالإضافة إلى القمح على هدية نقدية سنوية. وهناك أيضاً أوقاف في مصر للمؤسسات الخيرية المقامة في مكة تحمل إليها، حتى إن بعض هذه الأوقاف كان يخصص للبدو، الذين يقيمون على طول طرق الحج مخافة أن يتعرضوا لقوافل الحجيج بالسلب والنهب. والمشكلة المزمنة في هذه الأوقاف، أنه بعد فترة وجيزة من الزمن تطورت إدارة الوقف نفسها بحيث لاتسمح بصرف درهم واحد من أجل الهدف الذي أنشئ الوقف من أجله.

إن سلاطين آل عثمان ـ وحتى قبل فتح مصر ـ كانوا يرسلون أعطياتهم وهداياهم لأهل الحرمين بصورة متواصلة[2]. فلما آلت الحجاز إلى

---

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة: ووقف (السلطان قايتباي) قرى كثيرة بمصر، تحمل غلاتها إلى جيران رسول الله ﷺ، فيفرق عليهم لكل شخص مايكفيه من الحب بطول السنة، فكان حصة كل نفر سبعة أرادب في العام، سوّى في ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد. وذلك الخير جار إلى الآن. وزاد عليه سلاطيين آل عثمان أكثر مما وقفه السلطان قايتباي لمكة والمدينة (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٢٩). وهناك تفاصيل كثيرة عن الصدقات التي كان يرسلها آل عثمان إلى الحرمين الشريفين (لمزيد من التفاصيل انظر أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٨٤ وكذلك ص٣٣١، ص٣٨٨ وص٤١٥).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة في معرض حديثه عن السلطان مراد خان: «عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبا، وللشرفاء السادات من خزينته في كل عام مثل ذلك (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٥٦). كما جاء في أخبار السلطان بايزيد: وكان يحب أهل الحرمين الشريفين، ويحسن إليهم إحساناً كثيراً، ورتب لهم الصرة في كل عام، وكان يجهز إلى فقراء الحرمين الشريفين في كل سنة أربعة عشر =

سلطانهم، قاموا بإصلاح المؤسسات الخيرية القديمة وأضافوا مؤسسات أخرى جديدة. وكان من أهم واجبات أمير الحج هو التقسيم الصحيح للصرة، وكذلك توزيع الصدقات، وجرايات القمح، التي كانت ترد إلى الحرمين من مصر، والتي كانت تشكل المصدر الأول للحياة في المدينتين المقدستين.

لقد ذكرنا طرفاً عن المباني الضخمة التي أمر ببنائها سلاطين إسطنبول في القرن السادس عشر الميلادي في مكة. فعلاوة على بناء المسجد الحرام، والمؤسسات العلمية الأخرى، فقد اعتنى العثمانيون عناية خاصة ببعض الأماكن، مثل قبر خديجة (أم المؤمنين)، والمكان الذي ولد فيه الرسول ﷺ[1]. وقد تركت إعادة بناء المقام الحنفي، ووضع قبة كبيرة عليه، أثراً ليس حميداً في نفوس المكيين، الأمر الذي دعا إلى إزالته بعد سنوات قلائل[2].

سيادة المذهب الحنفي

لقد كان الأتراك يعتنقون المذهب الحنفي. ورغم المساواة الكاملة بين المذاهب، فقد حصل هؤلاء على حقوق الأفضلية لمذهبهم، مع العلم بأن الدوائر العليا في الدولة كانت حريصة جداً، على الأخذ بمبدأ التوازن بين المذاهب. وعلى أيّ حال فقد كان سكان الجزيرة العربية ينظرون إلى تطلع الأتراك لسيادة المذهب الحنفي بعدم ارتياح[3]. ونظراً للطبيعة العالمية للمدينة المقدسة، فقد كان في مكة أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة. ولما كانت نواة الشعب منذ العصر العباسي تدين

= ألف دينار ذهباً، يصرف نصفها على فقراء مكة، ونصفها على فقراء المدينة». (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٦١).

(١) منائح الكرم: حوادث سنة ٩٣٥ و ٩٥٠هـ.

(٢) قال السباعي: فكر أمير المحمل الرومي في تمييز المقام الحنفي أكثر مما ميزه الشراكسة، فهدمه في عام ٩٢٤هـ، وجعله قبة كبيرة شامخة، تقوم على أربع بتر (قوائم)، وزاد في طوله وعرضه. ويبدو أن بعض علماء مكة ساءهم أن تحتل قبة المقام الفخمة، وقوائمه العريضة، جانباً واسعاً في المسجد، فسعوا لهدمه حتى صدر أمر السلطان في عام ٩٤٩هـ بهدم القبة المذكورة، فنفذ الأمر نائب جدة، ومباشر العمائر السلطانية، وأعاد بناءه على أربع قوائم لطيفة (انظر السباعي تاريخ مكة ص٤٧٥).

(٣) لم يدلل المؤلف على (نظرة سكان الجزيرة العربية إلى المذهب الحنفي بعدم الارتياح)... وقضية اهتمام الدولة بمذهبها الرسمي، أمر طبيعي.

بالمذهب الشافعي، فإن القاضي الشافعي هو الذي يتقلد المرتبة العليا، وخاصة منذ أن تخلي الأشراف عن اتجاهاتهم الشيعية، وأصبح يعرف باسم قاضي مكة أو قاضي القضاة. ولقد كان تعيين القاضي يتم من خلال السلطات العليا في الدولة، من خلال تنسيب شريف مكة؛ لأن معظم أصحاب هذا المنصب كانوا مولودين في مكة؛ ولذا كان يعتبر هذا المنصب مكياً. وقد استمر هذا المنصب، لمدة ثلاثة قرون، حيث كان يتولى القضاء خلالها قضاة ينتمون إلى عائلة مكية واحدة[(١)].

ومن أجل مزيد من السيطرة أخذ العثمانيون يرسلون إلى مكة سنوياً قاضياً للقضاة من إسطنبول[(٢)]. ولم يرق هذا العمل للطبقة الحاكمة في مكة فحسب، بل كرهته العامة أيضاً؛ لأن القضاة الأتراك كان ينظر إليهم على أنهم أجانب، زد على ذلك أن هذا المنصب كغيره من المناصب يكون تحت المزاد العلني سنوياً. وكان على المكيين الذين يمثلون أمام المحكمة أن يدفعوا الثمن مع الفوائد المترتبة عليه. وبالرغم من تدخل الشريف أبي نمي لدى الباب العالي عام ١٥٣٩م (٩٤٥هـ) لإلغائه، إلا أنه لم يفلح في ذلك[(٣)]. ومن الجدير بالذكر أنه حتى مع وجود القاضي الحنفي، فقد بقيت الأهمية الأولى لأتباع المذهب الشافعي. إلا أن القضاء الرسمي أصبح في مكة، كما هو متبع في كافة الأقطار العثمانية، من أنه يلتزم أحكام المذهب الحنفي[(٤)].

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ الصفحات XVII).

(٢) ذكر السباعي أن أهل مكة كانوا يتولون القضاء فيها قبل هذا العهد [العهد العثماني] وظل الأمر كذلك بعض الوقت في العهد العثماني. ولكن الأتراك ما لبثوا أن شعروا أنهم العنصر الحاكم، فشرعوا يندبون القضاة منهم، ابتداء من عام ٩٤٣هـ، وظل الأمر على ذلك حتى استقل الحسين بالحجاز، وكانت أحكام القضاة مرتبطة بمشيخة الإسلام في الآستانة، فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية، ويرأس الحفلات التي ينصب بها أمراء مكة وبعقد المراسيم الخاصة بذلك ويتولى تقديم الخلع السلطانية إلى الأمير (أحمد السباعي: تاريخ مكة ص٥٩١) وانظر أيضاً (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٣٤٤). ومن الجدير بالذكر أن عائلة ابن ظهيرة هي التي كان يختار منها القضاة المكيون في الغالب (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص XVII).

(٣) منائح الكرم: حوادث سنة ٩٤٥.

(٤) أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٤١٦، ومنائح الكرم حوادث سنة ٩٩٥هـ.

مزايا الشريف حسن

لقد ساد السلام العائلي بين الأشراف في أثناء حكم أبي نمي وولده حسن. فلم نسمع بتلك الخلافات والنزاعات التي كانت تحصل في السابق أو حتى فيما بعد. وقد أعطى ذلك فرصة القيام ببعض الحملات للقضاء على الفتن الداخلية، كما ساعد على ملء الفراغ في الاتصال الجماعي في المدينة المقدسة. فقد ساعد الاستقرار النسبي على ازدهار شعر البلاط أكثر من ذي قبل. فبالرغم من أن الحجاز والبلاد العربية الأخرى كانت تحوي دائماً وفي كل الأوقات العديد من شعراء البلاط، الذين يمدحون النجوم الصاعدة، ويحصلون مقابل ذلك على الأعطيات المجزية، إلا أننا نرى نشاطاً ملموساً في حركة الشعر إبان هذه الفترة. وإذا تجاوزنا بعض الأغراض الشعرية التي كانت تميل إلى الحصول على الأعطيات، والتي تغلب عليها الألفاظ المنمقة، التي تبرز حالة الاستجداء الواضح، يمكننا القول إن علوم اللغة والأدب في المدينة المقدسة، قد وجدت عناية خاصة خلال هذه الفترة، تستحق الثناء والتقدير. فقد كان لبناء الشريف حسن قصراً عرف باسم دار السعادة[١] أثر ملموس في ظهور العديد من القصائد. وقد أغرى ذلك أخا الشريف، على بناء دار مماثلة، نالت بعض قصائد المديح الأخرى. وقد ساعد ذلك على بروز قصائد الجدل[٢]. ويُروى عن الشريف حسن إصدار بعض الأحكام الهزلية في بعض الدعاوى المرفوعة إليه للنظر فيها[٣].

---

(١) دار السعادة تقع تقريباً، في المكان الذي يوجد فيه الآن التكية المصرية (المؤلف). ويذكر السباعي مكان دار السعادة فيقول: كانت أمام باب أم هانئ وباب أجياد. وقد دخلت في توسعة الحرم الجديدة (١٣٧٥هـ) في جنوبه الغربي. كما ذكر أن موقع دار الهناء، التي بناها أخوه ثقبة، كانت بجوار دار السعادة من جهة الجنوب. وقد ظلت دار السعادة سكناً لذوي زيد، كما سكن دار الهناء ذوو بركات، وهما فرعان من أولاد أبي نمي (السباعي، تاريخ مكة ص٣٤٩).

(٢) ذكر الدحلان مطالع بعض القصائد التي قيلت في مدح الدارين وبسط الكلام في ذلك صاحب منائح الكرم (انظر أمراء البلد الحرام ص٨٠ ـ ٨٢، ومنائح الكرم حوادث سنة ٩٦٤هـ).

(٣) لعل المؤلف يشير في ذلك إلى الحادثة التي تخاصم فيها شامي ومصري في جمل، فأمر الشريف حسن بذبح الجمل، ونظر فرأى مخه معقوداً، فحكم به للشامي، وأمر بتغريم المصري. وقال: إن الشاميين يعلفون جمالهم (الكرسنة) وهي تعقد المخ، أما المصريون =

ويعزى إلى الشريف حسن أيضاً إدخال تجديدات أدبية على الأساليب المتبعة في المراسلات الحكومية[١].

يقول أحد الكتاب[٢] إنه بموت حسن عام ١٦٠١م (١٠١٠هـ) انتهت سلسلة الأشراف الأقوياء، وقد تزامن ذلك مع موت السلطان مراد الثالث، الذي رحل قبل ذلك بقليل، منهياً سلاطين آل عثمان الأقوياء الجيدين. وتوافق كذلك مع عزل مولاي أحمد آخر سلاطين المغرب النشيطين الذي عزل بعد ذلك بقليل[٣]. وإذا كان لهذه العبارة من معنى فإنها تدل على أنه منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي أصبحت الحكومة التركية أقل مقدرة على حكم إدارة الأقطار التي احتلها بسرعة فائقة. كما أن الحجاز أصبح مسرحاً للنزاعات والصراعات القديمة التي اتخذت قوة جديدة. وكان ينقص الأتراك، وهم السادة الحماة، الوسيلة الناجعة للقضاء على هذه الصراعات. والسنوات الثلاثون التي تلت (١٦٠١ ـ ١٦٣١م) (١٠١٠ ـ ١٠٤١هـ)

استئناف الصراع الأخوي

= فإنهم يعلفونها الفول، وهو يعقد الشحم (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٨٣، وكذلك السباعي، تاريخ مكة ص٣٤٩ ـ ٣٥٠).

(١) ذكر السباعي أن حسن بن أبي نمي، هو أول من كتب في التوقيعات: «يجري على الوجه الشرعي والقانون المحرر المرعي» وتبعه على ذلك من جاء بعده من أمراء مكة، وكان يكتب على الإنهاءات: «يجاب على سؤاله زاد الله في نواله». وكان يمهر على الحجة والإنهاء بختمه، ويكتب على التقارير اسمه فقط، من غير أن يمهر عليها (السباعي، تاريخ مكة ص٣٤٩).

(٢) هذا الكاتب هو الشهاب الخفاجي وهو أحمد بن محمد بن نصر، شهاب الدين الخفاجي المصري، قاضي القضاة. وصاحب تصانيف في الأدب واللغة. نسبته إلى قبيلة خفاجة. ولد ونشأ في مصر وزار تركيا واتصل بالسلطان مراد فولاه قضاء سلانيك ثم قضاء مصر. له كتاب ريحانة الألباء توفي عام ١٠٦٩هـ،١٦٥٩م (انظر حاشية ص٨٨ ـ من كتاب أمراء البلد الحرام وكذلك الأعلام للزركلي ج١ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨).

(٣) وقد قال الشهاب الخفاجي في كتابه الريحانة آخر ترجمة الشريف حسن بن أبي نمي كما أورد ذلك صاحب أمراء البلد الحرام وقد كان انتهاء صعود الشرف بالحجاز بالشريف حسن، وفي المغرب بمولاي أحمد، وفي الروم بالسلطان مراد، ونحن الآن لاندري ما يريد وما يراد. فقد ذهب سليمان، وانحلت الشياطين، ووقف الرجاء على جرف هار بين قوم مجانين فالجواد دون الحمار المصري، وأبو جهل يعظ الحسن البصري. (أمراء البلد الحرام ص٨٨).

أوضحت أن أبناء وأحفاد الشريف حسن[١] وقفوا بسيوف مسلولة للمحافظة على السلطة، وقد كثر الصراع بينهم، على نيل شرف الحكم. غير أنه يمكننا القول إن الفروع المتعددة التي تنتمي إلى أبي نمي، قد بقيت لها السيادة على الفروع الأخرى المتصارعة، التي تصل في بعض الأحيان بالقوة إلى مركز السلطة. وقد يتحول الأمر إلى حرب في الشوارع، كما حدث في الفتنة التي وقعت بين القواد والجبالية التي راح ضحيتها العديد من الجبالية[٢].

الصراع الخفي بين الأتراك وحكام مكة

هناك الكثير من الحوادث التي يستشف منها الصراع الخفي بين الأتراك وحكام مكة. فقد تجرأ رعاع مكة عام ١٦٢٣م (١٠٣٣هـ) على ضرب أحد الحكام الأتراك بالحجارة في أثناء وجوده في المسجد الحرام وهو في طريقه إلى اليمن عبر مكة[٣]. وقد قتل المفتي التركي عام ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) بأمر من الشريف الكبير آنذاك[٤]. وإلى الباشا التركي قنصوه يعزى قتل شريف مكة بتهمة الخيانة[٥]. وفي عام ١٦٢٨م (١٠٣٧هـ) ساعد أحد ولاة الأتراك في اليمن ـ الذي غرقت سفينته قرب جدة ـ المعارضة ضد الشريف الكبير،

---

(١) انظر شجرة النسب الثالثة الأرقام ٥، ٦، ٨، ١٠، ١١، ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٢ (المؤلف). لقد حكم خلال هذه الفترة من ١٦٠١ ـ ١٦٣١م الموافق ١٠١٠ ـ ١٠٤١هـ العديد من الأشراف، إما منفردين أو بالاشتراك مع أبنائهم أو إخوانهم. وقد تميز حكم جميع هؤلاء بالصراعات المريرة، للوصول إلى السلطة. كما تميزوا بقصر فترات الحكم التي تولاها كل منهم (انظر الدحلان، ص٨٨ ـ ١٠٢).

(٢) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٢٠هـ.

(٣) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٣٣هـ.

(٤) المفتي هو الشيخ عبد الرحمن المرشدي مفتى السلطنة العثمانية بمكة. قد قتله في السجن الشريف أحمد؛ لأنه كان مقرباً من الشريف السابق محسن. وقد ذكر الدحلان مجموعة من الأسباب التي تعلل بها الشريف أحمد لقتل الشيخ المرشدي. (انظر أمراء البلد الحرام ص٩٧) ويبدو أن الحادثة قد وقعت في أحداث عام ١٠٣٧هـ لا أحداث عام ١٠٤٩هـ كما يذكره المؤلف. (انظر منائح الكرم حوادث سنة ١٠٣٧هـ)

(٥) احتال قنصوه باشا، وهو في طريقه إلى اليمن، على الشريف أحمد وأوقع به وقتله، وكان مأموراً من السلطات التركية، أن ينظر في أمر مكة، ويولي فيها من يختار. وقد كان قنصوه يحقد على الشريف أحمد، ويفضل شريكه في الحكم الشريف مسعود. فلما قتل الشريف أحمد تولى أمر مكة الشريف مسعود (انظر أمراء البلد الحرام ص٩٨ ـ ٩٩).

متهماً إياه بعدم تقديم المساعدة الكافية له[١]. وكذلك بعد صدور الأوامر بنقل الخطبة يوم العيد من مفتي الشافعية إلى مفتي الأحناف عام ١٦٢٦م (١٠٣٥هـ)، والتي كان مبعثها شخصياً، من قبل الوالي التركي[٢] والتي فسرها الشافعيون بأنها تمت تحت حماية الأشراف. ويستشف ذلك من المهاترات الشعرية التي قيلت بهذا الخصوص[٣].

إن هذه الحوادث وأمثالها هي حوادث فردية، مبعثها غضب شخصي، وهي مبنية في الغالب على آراء واجتهادات شخصية بحتة، غير أن آثارها السلبية تكون في العادة كبيرة جداً.

لقد أصبح الشيعة في اليمن تحت قيادة الأئمة الزيدية قوة محاربة ضد الأتراك، كما أصبح بلاط الأئمة الزيدية في صنعاء، ملاذاً لكثيرين من أقاربهم الأشراف المكيين الملاحقين. وكان هؤلاء يجدون الحماية، وربما المساعدة المباشرة في العودة إلى النفوذ والسلطنة. وفي هذا السياق يمكن فهم قول نيبور بأن الأشراف عام ١٦٦٣م (١٠٧٤هـ) هم سُنِّيون، لكنه كان يظن بأنهم ذوو اتجاه زيدي، ولديهم الاستعداد بقبول أي اتجاه يكون ركيزة لسيادتهم[٤].

---

(١) ذكر الدحلان أنه في سنة ١٠٣٧هـ ورد من السلطنة العلية أحمد باشا متولياً على اليمن. فأصيبت سفينته بالعطب قبالة ساحل جدة. ونجا هو ونحو ٣٠٠ من عسكره. وقد طلب المذكور من أتباع الشريف في جدة المساعدة لإخراج ما يحويه حطام السفينة. فعينوا له أقواماً غاصوا نحو ١٥ يوماً، ولم يخرجوا شيئاً. مما حمل الباشا على الاعتقاد أن هذا أمر مدبر من الشريف. فما كان منه إلا أن شنق حاكم الشريف بجدة المسمى بالقائد راجح، واستمال الشريف أحمد إلى جانبه، وأغراه بعزل الشريف محسن شريف مكة وتوليته مكانه، وهكذا تنحى الشريف محسن، وتسلم السلطة الشريف أحمد (انظر تفصيلات ذلك في أمراء البلد الحرام ص٩٥ ـ ٩٦).

(٢) ذكر البخاري في حوادث سنة ١٠٣٣هـ صورة لوفاة الإمام عبدالقادر الطبري الذي توفي متأثراً من منع ولده من ممارسة خطبة العيد، ومن الجدير بالذكر أن الدحلان ذكر هذه الحادثة سنة ١٠٣٥هـ (الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٩٥).

(٣) انظر القصائد التي قيلت في رثاء القاضي المذكور في منائح الكرم، حوادث سنة ١٠٣٣هـ.

(4) (Beschrijving Van Arabie, S 349).

الصراع حول المداخيل

عاد الحسنيون مرة أخرى إلى الاقتتال حول عائدات الإمارة، ومن الجدير بالذكر أنه في أوقات السلم ـ وحيث يكون هناك مراقبة فعّالة من السادة الحماة ـ لم يكن تقسيم المدخول يسبّب أيّ مشكلات تذكر. فقد كان الشريف الحاكم يعطي أقرب العائلات بالنسبة إليه بقدر ما يحتاجون، حتى لا يبدي هؤلاء تذمراً أمام السلطات العليا، أما النصيب الأكبر فيكون من نصيب الابن الذي من المقرّر أن يخلفه في السلطة. وإذا ما شعر سادة الحكم في مكة بأنّ ضغط الحماة قد خفّ عنهم، فإن شروط التقسيم بين الإخوة وأبناء العم تراعى بالقدر الذي يحقّق السلام، ولا يدعو إلى نزاع بين أبناء العمومة. إن اختلاف وجهات النظر حول محتوى هذه العقود أو الاتفاقات غير المكتوبة، أو حول شروط تنفيذها، كان يلغي حالة السلم، ويدعو إلى حمل السلاح.

العائلات المرموقة التي تنتمي إلى أبي نمي (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم١) كانت تحصل منذ ضعف العثمانيين على ثلاثة أرباع الدخل في الإمارة[١]. أما الشريف الكبير فكان له ولرفاقه الربع الباقي، مع الاحتفاظ بالالتزام بتحمل نفقات الجيش والأمور الأخرى. إن شروط هذه القسمة البسيطة التي تم الاعتراف بها نظرياً من جميع الأطراف، تختلف عن الممارسات الفعلية، التي كانت ماتؤدي في الغالب، إلى تعقيدات خاصة كثيرة. فمركز العائلات يختلف من جيل إلى جيل، مما ينعكس على حصة هذه العائلات في المداخيل. كما أن عشوائية الموظفين الأتراك في جدة، كانت تقرر مطالب الأشراف الآخرين غير الراضين بحصصهم. فقد كان الموظف التركي يعطى جزءًا من الجمارك على الحساب، أو أنه يمنح صلاحيات لبعض الأشراف بالحصول على نصيبهم من الدخل بأنفسهم من القوافل التجارية بين جدة ومكة[٢]. والسجل الذي وضعه بعض الأشراف

---

(١) انظر منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨٥، وذكر الدحلان أنه في سنة ١٠٨٥هـ ورد مرسوم من السلطنة مضمونه قسمة مدخول مكة أربعة أقسام: الربع الأول لمولانا الشريف، والثلاثة أرباع للسادة الأشراف على السوية (أمراء البلد الحرام ص١٣١).

(٢) في هذه الأيام (١٨٨٥م) يعطى البدو الذين ينهبون قوافل الحجاج وصولات يؤكدون فيها =

العرف يحدد تقسيم المداخيل

الأقوياء مثل الشريف مسعود (١٧٣٤ ـ ١٧٥٢م) (١١٤٥ ـ ١١٦٥هـ) للمداخيل وكيفية تقسيمها، قد أبطل مفعولها وألغيت بعد موته. وفي عام ١٧٠٤م (١١١٦هـ) جرت محاولة لوضع حد للصراع بين الشريف الكبير وبني عمومته عن طريق القضاء. لكن المحاولة لم تنجح، وأمراء الغزو لم يقبلوا بشريعة الله حكماً، ولم يرضوا بأن يسود التشريع القانوني في مثل هذه الأمور[١]، فقد ادعى الشريف الكبير أن كل ما أخذه أقاربه من المداخيل كان هدية منه عن طيب خاطر. ولم يكن سببها سوى الالتزام الخلقي بصلة الرحم. أما الطرف الخصم والحزب الآخر فقد كان يعتبر بأن ما أخذه هو حق مشروع يعود إلى العرف المعترف به منذ أيام قتادة. والنتيجة التي انتهى إليها التحكيم، هي افتراق الأطراف عن بعضها، بعد شتائم عنيفة متبادلة بين الطرفين، ثم اعترافهم فيما بعد بالخجل، حيث إنه كان من المفروض ألا يعلنوا عن صراعاتهم أمام أنظار المجتمع المكي.

لعله من المناسب أن نقوم بوصف أكثر تفصيلاً للقوانين العائلية لنسب الأشراف في غرب الجزيرة العربية ولا سيما أن المصادر الموجودة لدينا في العهد العثماني هي أكثر توافراً بهذا الخصوص.

تصرف الأشراف مع سكان مكة

إن ما عرفناه حتى الآن هو ظل حياة الأشراف فقط. هذا الظل المتمثل في علاقاتهم مع العالم الخارجي، والتي يبدو منها أنهم يعرضون خدماتهم دائماً إلى السيد الحامي. غير أنه من المؤكد أن جل الأشراف امتازوا بالفضائل التي يقدرها العرب دائماً في الأمير، مثل الكرم، ورعاية الضيف، ونفاذ البصيرة العملي، والإخلاص للحلفاء، وحسن العدالة التي لا يمس قرارها المصالح الشخصية. معظم هؤلاء كانوا يفضلون موت الأبطال على حياة الذل والهوان، حسب وجهة نظرهم. والكثير من هؤلاء امتاز ـ علاوة على الشجاعة ـ بالموهبة الأدبية وسرعة البديهة في أثناء النقاش. كل حَسَني

= استلامهم للنقود وذلك من أجل أن تتمكن الحكومة من خصم هذه المبالغ من المخصصات السنوية المقررة لهم (المؤلف).

(١) السنجاري، منائح الكرم: حوادث عام ١١١٦هـ.

مرموق كان له في مكة وبين قبائل البدو حلقة خاصة من الأتباع الذين يعتمدون على حمايته. وإن حق اللجوء السياسي من قبل زعماء العائلات قد أعطي ودون قيود لكل من طلبه حتى ولو كان غريباً. وإن الشريف الكبير نفسه لم يكن ليجرؤ بمعارضة هذا الحق[1]. وبغض النظر عن هذه العادات العربية، والعلاقات الشخصية، فقد كان معظم سكان مكة مضافاً إليهم الحجاج هدفاً للابتزاز والنهب من قبل هؤلاء، أما البدو الذين كانوا يدخلون المدينة المقدسة بين الحين والآخر، لمعاونة فريق ضد الفريق الآخر، فكانوا أشبه بالذئاب، التي تنقض على فريستها من الغزلان البرية، التي تمثل سكان المدينة المقدسة. وليس هذا بمستغرب في مجتمع لا يزال يعيش حياة العصور الوسطى. فعندنا [في أوروبة] وبعد سنوات طويلة من سيادة مبادئ المساواة، نجد أن التطبيق الفعلي للعدالة يقتصر على أناس متساوين في الثقافة، وما دون ذلك فهو هدف للابتزاز.

فـروع الحسنيين وعلاقاتهم

لقد انقسم الحسنيون المكيون بسبب اختلاف المصالح إلى مجموعات لا حصر لها. وكل مجموعة من هؤلاء تنضوي تحت مسمى عائلة واحدة. وكل عائلة قيادية تدين بأهميتها إلى عدد أفرادها من جهة، وإلى نشاط أعضائها من جهة أخرى. وحتى القرن الرابع عشر الميلادي نصادف تعبيراً زاد استعماله تدريجياً وبمرور الزمن، ذلك هو «ذوي فلان»[2]، حيث ترمز كلمة فلان إلى اسم أحد الأجداد المرموقين. وإن اختيار الاسم الذي تنسب إليه العائلة هو عادة تاريخية، ليس لها مبرر منطقي في أكثر الحالات. فذوو رميثة (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ١٣) يطلق عليهم اسم العائلات المعادية لذوي حسن (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثانية رقم ٣١)، بالرغم من أن حسن نفسه، هو أحد أحفاد رميثة، وهو ينتسب إليهم. وبعض العائلات التي تنتسب إلى حسن نفسه، تدعى ذوي حسن.

---

(١) في عام ١٦٧٩م (١٠٩٠هـ) هرب رجل من سواكن كان قد تشاجر مع تركي فقتله. فما كان منه إلا أن التجأ إلى بيت أحد الأشراف، الذي قام بحمايته، وساعده في الخروج من مكة. (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام.(المؤلف).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٢٤.

ومن هؤلاء العائلات التي هاجرت إلى اليمن، وأصبح لها مركز ونفوذ كبير، في حين أن بعض ذوي حسن، من أبناء عمومة هؤلاء، لا يحملون اللقب نفسه. ومع هذا يمكن القول إن كل (الذوي) على اختلاف أسمائهم والذين اشتهروا منذ حكم حسن في الحجاز، ينتسبون إلى الفرع نفسه الذي ينتمي إليه (ذوو حسن) أيضاً. ويستخدم المكيون صيغة الجمع أحياناً بدل كلمة (ذوي) فيقال بانتظام الشنابرة، والمناعمة، والعبادلة، وهذا يعني أحفاد شمبر، وأحفاد عبدالمنعم، وعبدالله.

يقف في المقدمة بعد الشريف الكبير إخوته وأبناء عمه، وهؤلاء قليلو العدد، غير أنهم يمتلكون المال اللازم لشراء العبيد، الذين يعملون كقوة خاصة بهم، وعن طريق هؤلاء الإخوة وأبناء العم يستطيع البعيدون الحصول على بعض المكاسب. ويلي الإخوة وأبناء العمومة زعماء العائلات القديمة والكثيرة العدد حسب مقياس زعمائهم. وهؤلاء مدينون لمراكز أسلافهم القدماء بالحصول على الإقطاعات الكبيرة من الأراضي، التي يسكن في بعضها ذوو الأمير نفسه، وبعضها الآخر يقطن فيه سكان القرى، والبدو الذين يقفون من الأمير موقف السيِّد لهم والحامي لمصالحهم. ولهذا تسمى المنطقة (ببلاد الأمير). وهذه المناطق تمتد من مكة إلى جميع الجهات، أحياناً يسمع المرء عن أمير سافر إلى وادي بيشة من أجل تنظيم أموره الخاصة، وأحياناً يخرج أحد زعماء العائلات المكية غير مسرور من الشريف الكبير، حيث يغادر إلى الركاني في وادي مر (وادي فاطمة). الذي يعرف بالوادي، وتقع فيه أملاك كثير من الأشراف. وأحياناً تكون وجهة السير إلى المناطق الشرقية الخصبة في الطائف.

العائلات المختلفة لا تسمح لشريف مكة بالتدخل المباشر في شؤونها. ومن غير المألوف أن يقوم الشريف نفسه بمثل هذا التدخل. إنه رئيس رؤساء العائلات. وفي كل فترات التاريخ كان يوجد بعض الأشراف الذين لا يريدون أن تكون لهم علاقة مباشرة مع (سيدنا) في مكة. غير أن القسم الأكبر من هؤلاء هم على اتصال مباشر معه. خاصة زعماء العائلات المرموقة، الذين يستوطنون مكة، ويحصلون على جزء من العائدات المكية؛

لذا لزم وجودهم في المدينة المقدسة، ولو لأغراض المراقبة فقط. فإذا ما علمنا أنه في حالة وفاة الشريف الكبير، فإنّ اتخاذ القرار حول خليفته يكون بأيدي رؤساء العائلات ـ طالما لا توجد قوة أجنبية تتدخل بقوة ـ أدركنا مدى أهمية وجود أمثال هؤلاء في عاصمة الحجاز الأولى. وفي حالة حدوث الخلاف فإن زعماء هذه العائلات يصبحون قادة أحزاب، ينضوي تحت لوائها سكان مكة القادرون على حمل السلاح (الحضارمة، اليمنيون، وغيرهم..)، وكذلك قطاعات من البدو الذين يستعان بهم على فض النزاعات، عن طريق إرسال المبعوثين إليهم. إن أي سبب ولو كان بسيطاً يمكن أن يؤدي إلى قتال في الشوارع. وفي أغلب الأحيان وقبل وقوع الشغب يأمر الشريف مثيري الشغب من أقاربه بمغادرة البلاد خلال فترة معينة. أما المهزومون وغير الراضين عن الأوضاع العامة فيخرجون من المدينة طوعاً. ومثل هذا الانسحاب الطوعي[1] من المدينة يشبه إعلان الحرب على السلطة القائمة في مكة. وأول الإجراءات التي يقوم بها الأمير المغادر في العادة، هي أن يجعل من طرق القوافل، التي تمر عبر منطقته، منطقة غير آمنة، الأمر الذي يفرض التوسط لإنهاء النزاع أو حسمه بطريقة من الطرق. وهكذا نجد أن كل اختلال في الارتباطات العائلية يعد بداية لحرب بين هذه العائلات.

الأشراف الأقوياء فقط هم الذين كانوا يبحثون عن الأعداء في خارج المدينة، ويخضعونهم لسيطرتها، ويستعملون سكان مكة لهذا الغرض، الذين يقومون به مسرورين لقطع دابر الفتنة. أما الأشراف الضعفاء فكانوا ينتظرون هجوم هؤلاء البدو الذين إذا مابدت لهم الأمور بأنها غير مريحة تخلوا عن القتال وهربوا. وقد كان الأشراف يستعينون بهؤلاء في كثير من الأحيان لقضاء مآربهم السياسية المختلفة.

وفي الحروب كان يسقط في بعض الأحيان أغلى الرجال وأشهرهم. رغم أن عدد القتلى لا يكون كبيراً بحسب مقاييسنا. وبشكل عام فإن العرب عموماً يتخلون عن مثل هذا القتال بمجرد سقوط عدد من القتلى المرموقين. وإذا كانت

---

(١) مثل هذا الإبعاد الطوعي يسمى جلاء. والمنفيون يسمون بالأشراف الجلوية (المؤلف).

الغلبة لصالح الحاكم، فإن المغلوب يطلب مهلة[1] لتنظيم أمور الانسحاب. وفي الغالب يعطى هذه المهلة، بالرغم من أنها تستعمل للتحضير لاستئناف القتال من جديد. ولتفادي سوء استخدام هذا الحق، كان المنتصر يشترط لإعطاء هذه المهلة بأن يضمن له انسحاب الخصم أحد الأشراف، الذين يتمتعون بنفوذ قوي. لكن مخالفة مثل هذه الاتفاقيات القسرية، لم يكن ليعدّ بالذنب الكبير. ولهذا السبب كان يعطى للأمير المغلوب مهلة قصيرة لا تسمح له بتجميع سريع لوسائل قوته لإعادة الكرّة من جديد.

الحروب في مكة ليست استئصالية، ولا تغير من حقوق الأفراد القاطنين فيها، فالأشراف المغلوبون، والذين يجب عليهم مغادرة المدينة، وزعماء العائلات المرموقون، والذين بتآمرهم أجبروا الحاكم على طردهم من منطقة نفوذه. والأشراف المعادون الذين كانوا يهاجمون المدينة من الخارج، ويعودون مهزومين، كل أولئك لديهم أملاك منقولة وغير منقولة في العاصمة المقدسة. ولهم أقارب وأتباع، ولهم مؤيدون، ومع ذلك لا ينالهم الأذى إلا نادراً، ولولا هذه الأعراف، التي لها قدسية واحترام، لكان بقاء أمثال هؤلاء سيعرضهم للتضحية بأنفسهم، أمام عشوائية المنتصر. وبحسب هذه التقاليد والأعراف يلجأ المغلوب إلى زعماء الأشراف المرموقين، حتى لو كانوا أعداءً، طالما أنهم لم يشتركوا في القتال، ويدخلون في حمايتهم. ومثل هذا الطلب لا يمكن إلا أن يلبى. ومنذ اللحظة التي يطلب فيها الشخص حماية شخص آخر، يعدّ الطالب للحماية بناءً على العرف العربي، في وجه الشخص الآخر، الأمر الذي يعني أن أي أذى يلحق به كأنما يلحق بالحامي. وعلى الحامي أن يهتم بأن يراعي مكفوله الوفاء بشرط المهلة الممنوحة. وبموجب هذه الحماية يضمن الدخيل سلامة جميع ممتلكاته في مكة، وكذلك حياة جميع أقاربه وذويه وأتباعه وأمنهم. ومثل هذه العادات متأصلة في حياة الأشراف، بحيث إن الشخص الموثوق به يختار أيضاً بالاتفاق مع رئيس الحزب المنتصر.

---

(١) مهلة أو ذمة (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ٢٤٨).

إن المتتبع لتاريخ المنازعات بين الأشراف يلحظ أن هناك مئات الحالات التي كانت تجعل أحد الأشراف المنتصرين في وضع يمكنه معه القضاء مبرماً على خصمه الرئيس، أو أن يرمي به في السجن. غير أن الاعتقاد الجازم بأن مثل هذه الجريمة هي بداية النهاية لكل العائلة، كان يمنع من حصول ذلك. إن الأمثلة كثيرة عن القتال الذي يودي بحياة الأخ أو الأب في عائلة قتادة. وبالرغم من ذلك فإن المرء ليلحظ أنه مع وجود القتال المستمر لعدة قرون بين الإخوة والأقارب، فقد حافظ الأشراف على تجنب سفك الدماء (وكانت دماء أنفسهم) إلا بالقدر الذي تستوجبه الظروف. أما السجن فلم يستعمل ضد زعماء العائلات إلا في حالات استثنائية.

لقد كانت الثروات المحفوظة في بيت الشريف المندحر مصانة، ولايجوز أن يمسها أحد، وكذلك فإن حياة رجاله وأتباعه الذين كانوا يشهرون السيوف قبل فترة وجيزة ضد المنتصر هي في أمان، بالرغم من أن المنتصر يعلم علم اليقين بأن خروج المندحر نحو الشمال أو الجنوب أو الشرق إنما هو بداية لتجميع جديد للقوات الحربية. وأن الرفاق في المدينة المقدسة ينتظرون قدومه على أمل وقوع الهجوم الجديد.

المرة الوحيدة التي أخذت فيها بالقوة مفاتيح القصر التابع للأمير المهزوم من الشخص الذي يحميه، كانت من قِبَل أحد الموظفين الأتراك الأقوياء ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ). ولم تستطع يومها رغبات الأشراف الحيلولة دون ذلك[١].

في عام ١٧٠٥م[٢] أراد أحد الأشراف الناقمين على أشكال الحروب المتكررة، أن يتخلى عن الالتزام بحماية حياة خصومه وأملاكهم في مكة، ممن دخلوا في حماية أحد أقاربه، فأرسل منادياً في الأسواق على عادة أهل مكة في تبليغ القرارات المهمة، التي كانت تصل إلى مسامع الشعب، عن طريق التصريح بها وقراءتها من قِبَل المنادي في الأسواق والأماكن العامة.

---

(١) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨٣هـ.

(٢) انظر هذه الحادثة في أخبار عام ١١١٧هـ في منائح الكرم بأخبار مكة والحرم.

وكان المنادي يقول في شوارع مكة وطرقاتها «على أرحام ذوي شنبر وذوي جازان وذوي بركات وذوي ثقبة ورجاجيلهم ألا يبيت أحد منهم بمكة هذه الليلة، ومن بات بها فهو مصلوب وبيته منهوب». وقد أسرع كبار الأشراف الذين غضبوا لمثل هذا القرار إلى الشريف الكبير ولاموه على مثل هذا التصريح قائلين: هذا لا يكون فإنه يتأتى منه سالفة بيننا. إن كل مَنْ خرج من البلد تنهب طوارفه ويقتل. وهذا أمر لا يمكن الوفاق عليه، لكونه مضراً بالعالم، فرجع المنادي عند العصر ينادي بخلاف النداء الأول، وأن النداء مرجوع عنه وعليهم الأمان.

إن الاحترام والتقدير، الذي يكنه العرب والأجانب للأشراف المرموقين، كان أحد أسباب حماية هذا الفرع من كل صراع مدمر. فلسان حال العامة يقول: لئن قاتل سادتنا الأشراف بعضهم بعضاً فهذا قدرهم. ومع ذلك فالمرء يحبهم بسبب نسبهم الزكي. لقد كان الرأي العام، ضد أولئك الذين يهدرون مثل هذا الدم الزكي، بسبب الحروب المتكررة. لقد جرت العادة أن يشترك المنتصر في تشييع جنازة خصمه[1]. وأن قبور بعض الأشراف كانت تزار من قِبَل كل الحسنيين. وكان لا يسمح بالاعتداء على هذه القبور، كما يحصل في بقاع أخرى من العالم، لا بل وصل الأمر عند هؤلاء إلى أن الذي يلتجئ إلى قبرٍ ما، فهو عرفاً دخيل عند أبناء صاحب هذا القبر وأحفاده تجب حمايته. وهكذا صانت القوانين العائلية ـ التي كان يجري تطبيقها بصرامة، أكثر من تطبيق المبادئ الشرعية ـ حياة أحفاد النبي ﷺ الذي تنكب الكثير منهم طريق دعوته.

الشريف عبد الله ابن حسن وولده محمد

في نهاية فترة الثلاثين سنة التي تحدثنا عنها، لم يجد الأشراف عام ١٦٣١م (١٠٤٠هـ) وسيلة لمنع الاقتتال حول السلطة، سوى تعيين أحد رؤساء العائلات، الذي يحظى باحترام الجميع، ذلك هو الشريف عبدالله بن حسن. وقد كان سيداً جليلاً، وهو إذ ذاك أكبر آل أبي نمي، وكان ممتنعاً عن الولاية (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥) فألزموه بذلك

---

(١) أحمد دحلان ص١٨٥.

حقناً للدماء، ومازالوا به حتى رضي. غير أنه بعد برهة وجيزة قلد أمر مكة لولده الشريف محمد بن عبدالله، وأشرك معه الشريف زيد بن محسن حفيد الممثلين الأقوياء لفرع العائلة في الجنوب. (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٢٨). ولم يكن هناك أي معارضة لترتيبات الشريف عبدالله إلا من جهة واحدة. هذه الجهة هي أحفاد بركات أخي حسن(شجرة النسب الثالثة رقم ٤) الذين طالبوا بزيادة نصيبهم من الدخل، ولم يذعنوا للأمر إلا بعد أن حصلوا على ثلث الدخل المقرر.

العبادلة وذوو زيد وذوو بركات، هي العائلات الثلاث التي حول تنافسها، يدور التاريخ المستمر لمكة، حتى عام ١٦٩٤م (١١٠٦هـ). لقد اشترك ذوو مسعود وذوو عبدالمطلب (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم٦،٩) مع هؤلاء لفترة وجيزة، غير أنه لم يكن لهم دور كبير، وكانوا دائماً منافسين من الدرجة الثانية. في البداية ساعد الحظ ذوي زيد (١٦٣١ ـ ١٦٧٢م) (١٠٤٠ ـ ١٠٨٣هـ)، ففي عام ١٦٣٢م (١٠٤١هـ) عندما تركت بعض القوات التركية المتمردة قائدها في اليمن، وأثناء مرورها من مكة، وهي في طريقها إلى الشمال، استعملت من قِبَل شريفين طموحين، للإطاحة بحكومة الشريف زيد ومحمد في مكة. وقد دارت معركة بين هؤلاء الأتراك وأمراء مكة، فقد خلالها محمد حياته، بينما خرج زيد من مكة، بعد أن دخلها الأتراك، واستولى عليها المغامرون الجدد من الأشراف. وبالرغم من أن السلطنة بمصر أرسلت قوات لمساعدة الشريف زيد، إلا أن هذه القوات لم تستطع سوى إعادة المدينة المقدسة فقط[1].

---

(١) ذكر الدحلان في حوادث عام ١٠٤١هـ أنه في أواخر هذه السنة كانت وقعة الجلالية، وملخصها أن عسكراً من اليمن خرجوا عن طاعة قانصوه باشا. وجاء الخبر أنهم لما وصلوا القنفذة اجتمع بهم السيد نامي بن عبدالمطلب بن أبي نمي. واستمالهم على أخذ مكة، فأرسلوا مكاتيب لمولانا الشريف محمد ومولانا الشريف زيد يطلبون الإذن في دخول مكة، ثم يتوجهون إلى مصر فرجع إليهم الجواب بعدم الإذن في دخول مكة، ثم جاء الخبر بأن الاتراك وصلوا السعدية، فخرج مولانا الشريف محمد ومولانا الشريف زيد ومعهم العساكر إلى قوز المكاسة أسفل مكة. وقتل في هذه الوقعة مولانا الشريف محمد وجماعة من الأشراف. وتوجه من نجا من الأشراف إلى جهة وادي مر الظهران.. ثم بعد =

الشريف زيد

الشريف زيد (١٦٣١ ـ ١٦٦٦م) (١٠٤٠ ـ ١٠٧٧هـ) كان ذا جسم قوي من أمثال قتادة، ولد في الجنوب بوادي بيشة، وأمضى معظم شبابه هناك. فقد كان أبوه يعيش في منفاه الاختياري بتلك المنطقة. وهكذا أصبح وطنه الأول أرضاً يصعب الوصول إليها. كان زيد يرى أن الرقابة الأجنبية، هي عشب ضار، لا بد من استئصاله. غير أن نظرة جده حسن الذي أصبح دبلوماسياً في مصر، والذي كان يعرف كيفية التعامل على الطريقة التركية، قد افتقدها الحفيد. لقد رجا الحاكم المصري بأن يرفع نصيبه من جمارك جدة، كما طلب المساعدة العسكرية ضد المتمردين المذكورين أعلاه. غير أن هذا الود لم يستمر طويلاً. فبعد أن أعطى الأتراك مشيخة الحرم لوالي جدة عام ١٦٤٦م (١٠٥٦هـ)[١]. وبدأ هذا الوالي بالتدخل في شؤون مكة، محاولاً أن يجتذب الكثير من الصلاحيات لنفسه، كره الشريف ذلك، فعين نائباً عنه على المدينة المقدسة، وخرج منها بعد أن كلف أحد البدو بالقضاء على والي جدة وشيخ الحرم الجديد. لقد بدا كره الشريف زيد واضحاً للأتراك، عندما حج أحد المخصيين التابعين للسلطان عام ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ). لقد منح السلطان مراد هذا الطواشي، الذي كان أثيراً عنده، أعلى الصلاحيات،

= تمام الواقعة دخل الأتراك مكة، ودخل معهم الشريف نامي بن عبدالمطلب، فنودي له بالبلد، وأشركوا معه السيد عبدالعزيز بن إدريس بن حسين في ربع مكة [محصولاً] لكن لم يشركوه في الدعاء على المنبر. (أمراء البلد الحرام ص١٠١ ـ ١٠٢)، وقد عاث الشريف نامي والجنود الأتراك في مكة وجدة فساداً كبيراً، من حيث القتل والسلب والنهب. وقد أرسل الشريف زيد إلى مصر يطلب المساعدة على نحو ما ذكر في المتن. وصلت هذه القوات إلى ينبع، ثم تقدمت إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة، وفر الشريف نامي إلى تربة، وانحدر الشريف عبدالعزيز بن إدريس إلى ينبع. وقد توجه الشريف زيد بصحبة القوات التركية إلى تربة، لمحاصرة القوات هناك وقد استطاعوا التغلب على الخصوم، وأسر الشريف نامي وأخوه واقتيدوا إلى مكة حيث تم شنقهم بمحلة المدعى بمكة. (أمراء البلد الحرام ص١٠٣ ـ ١٠٤).

(١) ذكر دحلان أنه في سنة ١٠٥٦هـ وردت مشيخة الحرم لصنجق جدة مصطفى بيك.. وقد استفحل أمره وشرع بالتطرق للأحكام بمكة، فنفرت نفس مولانا الشريف في مكة، وأقام بها نائباً عنه، وتوغل نحو الشرق، وكان قد أوصى رجلاً يقال له أحمد الجعفري بقتل مصطفى بيك، وأمره أن يقتله مهما أمكن (أمراء البلد الحرام ص١٠٦ ـ ١٠٧).

على كل البلاد التي كان عليه أن يمر منها. وقد نما إلى علم الشريف زيد أن حاكم مصر آنذاك، قد قابل العبد باحترام غير عادي. فكره الشريف ذلك [وأخذته الأنفة الأريحية والهمة العلية] لكن موت السلطان مراد المفاجئ، سلب ذلك العبد صلاحياته، فلما وصل آغا الحريم إلى قرب مكة، لاقاه الشريف، وسلّم عليه سلاماً عادياً.

وفي العام نفسه أصبح هذا الطواشي متولياً على مشيخة المدينة المنورة. وقد حضر إلى الطائف للتنزّه، وللقاء زميله متولي مشيخة مكة المكرمة، الذي قتل هناك على يد أحد الأعراب، بتدبير من الشريف زيد على نحو ماذكرنا سابقاً. ولم تمض برهة حتى قام الشريف زيد بزيارة المدينة المنورة عام ١٦٤٩م (١٠٥٩هـ). وأثناء مكثه فيها، قتل القاضي التركي المذكور آنفاً، مما يحمل على الاعتقاد بضلوع الشريف بهذا العمل.

كان الشريف مغاضباً لحاكم جدة التركي. فقد كان الأخير على اتصال وثيق مع أحد أقارب الشريف زيد، الذي حاول الإطاحة به في وقت سابق[١]، إلا أن الشريف زيد انتصر على حاكم جدة ومن معه، مما حمل السلطة العثمانية على عزله وإبعاده. غير أنه ما لبث أن عاد ثانية أميراً للحج في عام ١٦٥١م (١٠٦١هـ). وكان لا بد من لقائه من قِبَل الشريف؛ لأنه بصحبة المحمل الشريف، وفي هذه المرة لم تتم التحية المتبعة وهي المناكبة والمعانقة، فقد تقدم الشريف وصافحه بيده كنوع من الحذر الشديد والخوف من الغدر. ومنذ تلك السنة تركت المناكبة وحلّ محلها المصافحة، كنوع من المجاملة الباردة، التي أصبحت عادة بعد ذلك[٢].

---

(١) يدعى حاكم صنجق جدة غيطاس بيك الذي عين خلفاً لمصطفى بيك الذي اغتيل في الطائف بتدبير من الشريف زيد. وكان غيطاس على علاقة بالشريف عبدالعزيز بن إدريس الذي كان شريكاً للشريف نامي، أثناء توليه مكة، وطرده للشريف زيد. (انظر أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص١٠٨).

(٢) في عام ١٤٨٠ (٨٨٤هـ) عندما حضر السلطان قايتباي لأداء فريضة الحج كانت التحية بينه وبين الشريف الذي حضر لملاقاته بواسطة المصافحة باليدين وهما راكبان على الخيل (المؤلف).

الـمـيـل الـمـعـادي للأتراك في مـكـة

لقد كان لأهل مكة أسباب مقنعة للاتحاد مع الأشراف ضد الوجود التركي في مكة: جنود سكارى أشبه بالوحوش، كل سنة قاض جديد لا يعرف شيئاً عن ظروف الناس وأحوالهم، تفضيل دائم للأجانب غير العرب، تقديم المذهب الحنفي على المذهب الشافعي السائد في مكة. ولعل الوالي التركي كان على حق عندما لحظ السخرية المتعمدة للكتيبة التركية، حين قرأ الإمام في أثناء الصلاة سورتين من سور القرآن، تظهر إحداهما مفاسد قوم ثمود، والثانية تذكّر بعقاب أصحاب الفيل، الذين حاولوا غزو المدينة المقدسة[١]. معرضاً بظلم الأتراك واستبدادهم، وما سينالهم من العذاب بعد ذلك.

التطور التاريخي لظروف المدينة المقدسة، قد تم تفسيره من قِبَل المكيين، بأن السلطة لخليفة المسلمين في إسطنبول تمارس من خلال الأشراف. وبحسب هذا التنظيم المقدس، فإن تعيين قائد أجنبي للجيش نائباً فعلياً ودائماً للسلطنة، يبدو على الأقل من وجهة نظرية غير مشروع، وغير محبّب للنفوس. وقد أدى هذا التصور إلى الضرر بالأعراف المكية. ومع هذا فقد كان على كل الأشراف أن يأخذوا السياسة التركية بعين الاعتبار.

صـراع الـفـرس مـع الأتـراك العثمانيين

أدرك العثمانيون بلباقة كيف يحولون صراعهم مع الفرس إلى صراع ديني. فالمنطقة المقدسة يجب ألا تبقى مفتوحة مدة أطول، لأعداء سلاطين العثمانيين الموروثين. ولقد أصبح الاختلاف إبّان هذه الفترة بين السُّنة والشيعة أكثر حدة، مما كان عليه في السابق. وكان هذا في الدوائر المكية ذات النفوذ في السابق يعدّ أمراً حسناً، وذلك بأن يلقى العلم والفقه الشيعي الاحترام المطلوب، وأن تنسب الانتفاضات الشيعية، إلى أشخاص ذوي دماء زكية من العلويين، وإلى أتباعهم من الرعاع المتحمسين. ولم يقتصر الأمر في السابق على النزاعات القائمة بين السُّنة والشيعة، بل وصل

---

(١) هاتان السورتان هما الفجر والفيل.

كل ما قاله المؤلف في هذه الفقرة لم يدلل عليها، وإنما هي تأويلات من عنده.

أثره إلى الصراع بين أتباع المذاهب الأربعة، الذي كان يؤدي أحياناً إلى حدوث قتال في الشوارع، وإلى تصرفات حاقدة للمتطرفين من هؤلاء وأولئك. ولقد كان من الأمور المرغوب فيها لدى العامة أن يوجد أمير غير منحاز لطرف من هذه الأطراف. وكان ينظر إلى أمثال هؤلاء الأمراء بوصفهم مثالاً حسناً وقدوة صالحة[١].

فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي زادت العناصر الشيعية في عالم الإسلام السياسي[٢]. أما الاختلافات بين أتباع المذاهب الأربعة المختلفة فقد اختفت، وقُطع دابرها إلى الأبد، وكان الأتراك ينظرون إلى الشيعة على أنهم روافض. وكان الفرس يدَّعون بعد خضوع المدينة المقدسة للأتراك، أن هناك بعض المعاملات السيئة التي تقع على رعاياهم. وأن الأتراك يستعملون ذلك لمآرب خاصة بهم. فعلى سبيل المثال عام ١٥٨٨م (٩٩٦هـ) وجد مفتاح الكعبة المسروق عند أحد الفرس، فاستعمل ذلك كبش فداء لمزيد من أعمال العنف ضد هؤلاء[٣]. وفي عام ١٦٣٨م (١٠٤٧هـ) حينما احتل السلطان مراد بغداد من الفرس، جاء الأمر للشريف زيد بطرد كل أولئك التابعين لهؤلاء من مكة، ومنعهم من تأدية فريضة الحج[٤]. فما كان من الشريف إلا أن قام بتنفيذ الأمر، رغم أنه أسف

---

(١) ابن الأثير ج١١ ص٢٦٠، ٢٦٦.

(٢) كان ذلك بسبب ظهور الدولة الصفوية في إيران التي ثبتت المذهب الشيعي هناك منذ إنشائها.

(٣) ذكر الدحلان أنه في سنة ٩٩٦هـ فقد مفتاح الكعبة، وذلك أن الشيخ عبدالواحد الشيبي فتح الكعبة في رمضان على جري العادة، فسرق من حجره المفتاح، وهو مصفح بالذهب، فوقعت الضجة، وأغلقت أبواب الحرم، وفتش الناس، فلم يظفروا به، ثم وجده سنان باشا باليمن مع رجل أعجمي فأخذه وقرره، وكبس داره، فوجد عنده غير المفتاح كثيراً من المسروقات، التي أقر بها، فقطع رأسه. وأرسل المفتاح للشيخ عبدالواحد الشيبي (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٨٢). وانظر الواقعة نفسها في أخبار عام ٩٩٦هـ في منائح الكرم.

(٤) ذكر الدحلان أنه في سنة ١٠٤٧هـ ورد أمر سلطاني مضمونه أن العجم لا يحجون البيت، ولايزورون مسجد النبي ﷺ. ثم بعد النزول (من عرفة) نادى منادي الشريف على الموجود منهم في ذلك العام أن يخرجوا إلى السفر سابع عشر من ذي الحجة، ولا =

لإخراج هؤلاء بدون شك. لقد كان الأشراف يخشون شك الأتراك في ولائهم، ولهذا كانوا حريصين على إبعاد هذا الشك من رؤوس السادة الحماة. وإذا عرفنا انتساب هؤلاء وماضيهم الزيدي والاتصال الحميم الذي لا يمكن تجنبه مع الأئمة في اليمن، أدركنا خوف هؤلاء من إظهار التسامح مع الفرس. وقد اشترك عامة الشعب المكي في التعصب ضد الفرس، لأسباب بعيدة عن العقيدة والسياسة، فقد كانت الأموال الفارسية تساهم أقل من غيرها في رخاء المدينة المقدسة. وفي الخفاء سُرّ نفر كبير من أبناء المدينة المقدسة؛ لأن الأشراف قد أظهروا من التسامح للفرس بقدر ما تسمح به الرقابة التركية.

لقد كانت أقلّ المخالفات التي تصدر عن أحد هؤلاء العجم ـ حتى ولو كانت مزورة ـ تشكل دافعاً قوياً لنهب هؤلاء وسلبهم. وقد كان الجنود الأتراك يشتركون في ذلك بكل حماس. وقد دفع أحد الفرس حياته، حينما ادعى أنه المهدي المنتظر[1] فكان جزاءه القتل. وفي حادثة أخرى أصبح الناس فإذا بالكعبة المشرفة ملطخة، فاتهم الفرس بذلك، ونال الكثير منهم عقاباً على صنيعٍ ربما لم يفعلوه. فقد عدّ بعض أهل مكة أن المسببين للتدنيس، هم الذين قاموا بالسلب والنهب[2]. وبالرغم من الأخطار التي كان يتعرض لها

= يحجون بعد عامهم هذا. ودار عليهم العسكر وأخرجوهم من بين الحجاج، فخرجوا على أشنع حال (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص١٠٥، وانظر أيضاً حوادث عام ١٠٤٧هـ في منائح الكرم بأخبار مكة والحرم).

(١) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨١هـ.

(٢) جاء في كتاب أمراء البلد الحرام في ثاني شوال من سنة ١٠٨٨هـ أصبح الناس فإذا الكعبة الشريفة ملطخة بما يشبه العذرة، من جميع جوانبها.. فاتهم الناس بهذا الفعل الشيعة. واشتدت حمية الأتراك المحاربين والحجاج، فأخذوا من الحرم خمسة أنفس من العجم، بعد شروق الشمس ووقعوا فيهم بالضرب والرجم بالحجارة حتى أخرجوهم إلى باب السلام، وبعضهم إلى باب الزيادة وقتلوهم شدخاً بالحجارة أو ضرباً بالسيوف وألقوهم على بعض. ولم يطالب فيهم أحد. قال العصامي في تاريخه: ولقد رأيت ذلك الشيء بعيني يعني ما تلوثت الكعبة به وتأملته، فإذا هو ليس بالقاذورات، وإنما هو من أنواع الخضروات، عجن بعدس خمج، وأدهان معفنات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر في تلك الليلة. ولم يعلم الفاعل، وغلب على بعض الظنون أن =

هؤلاء العجم، كان يأتي كل عام أعداد منهم لأداء فريضة الحج. وفي ضوء الاتهامات المتبادلة بين الترك والفرس كان العرب هم المستفيدون من ذلك. فقد كانت معرفة هؤلاء الجيدة في الطرق التي توصل هؤلاء العجم إلى مكة فرصة لقبض مبالغ طائلة من المال من أجل الحماية.

وبالرغم من الحظر المفروض على قدوم هؤلاء الأعاجم، فقد كان الأشراف يستقبلون الأثرياء من هؤلاء بكل حفاوة وتكريم، بالقدر والوسائل التي لا تثير حساسية الحماة الأتراك. وفي عام ١٧٠٠م (١١١١هـ) اتهم الأتراك الأشراف بأنهم سمحوا لضيوفهم من العجم أن يستعملوا المسجد وكأنه نزلهم الخاص[١]، وكذلك في عام ١٧٠١م (١١١٢هـ) رأى الأتراك أن خطبة العيد كانت لها دلالات شيعية، ممّا عدّوه إهانة لهم[٢]. وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ، ثارت فتنة أخرى ضد العجم سلبت فيها أموالهم، وأخرجوا من المدينة المقدسة قسراً[٣]. وفي عام ١٧٤٤م

= ذلك جعل عمداً ووسيلة إلى قتل أولئك والله أعلم بالسرائر، وهو يتولى البواطن والظواهر (الدحلان، أمراء البلد الحرام، ص١٣٢).

(١) ذكر السنجاري في منائح الكرم في حوادث سنة ١١١١هـ أنه في هذه السنة ورد من العجم طائفة كبيرة، ولاذوا بالسادة الأشراف، وبذلوا لهم الأموال، فمكنوهم من المسجد، وأنزلوا رؤساءهم في أحسن الدور، وفسحوا لهم في الأمور، بحيث اتخذوا المسجد نادياً يسمرون فيه ويأتيهم فيه الطعام والشرب وأباريق الوضوء والطشوت والفرش، ولايقدر أحد ينكر شيئاً من ذلك، لتقدم أمر من بعض الأشراف لشيخ الحرم والفراشين بعدم التعرض لهم، وأنهم في وجهه، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم(منائح الكرم حوادث سنة ١١١١هـ).

(٢) ذكر السنجاري في حوادث سنة ١١١٢هـ أنه وقعت بدعة شيعية في خطبة العيد، وهو الخطيب الزجاجي، فإنه لما ذكر سيدنا علياً في مقام الترضي أعقبه بذكر ابنيه الحسن والحسين، ثم أتى بذكر الستة الباقين من العشرة رضي الله عنهم. فأنكرت الأروام، وأهل الدين، ورأوا ذلك أشنع بدعة، (منائح الكرم حوادث سنة ١١١٢هـ). والمقصود بذلك أن الخطيب جعل الحسن والحسين مع العشرة المبشرين بالجنة، ولو ذكر العشرة على نسق واحد دون ذكر الحسن والحسين رضي الله عنهما لكان ذلك هو الصواب.

(٣) جاء في أمراء البلد الحرام أنه في سنة ١١٤٤هـ ثارت العوام بالمسجد الحرام على طائفة من العجم كانوا مجاورين بمكة؛ لأن الحج فاتهم سنة ثلاث وأربعين فأقاموا بمكة ليحجوا سنة أربع وأربعين، وكانوا جمعاً غفيراً، وصاروا يترددون على المسجد الحرام للعبادة والطواف، =

(١١٥٧هـ) أرسل الملك الفارسي القوي نادرشاه بعثة إلى مكة، من أجل السماح بإنشاء مقام خامس للطائفة الجعفرية الفارسية. وقد استقبل الشريف هذه البعثة باحترام. إلا أنه لم يجرؤ على تنفيذ الأوامر الفارسية؛ لأنها تلقى معارضة في إسطنبول. فما كان من الشريف إلا أن عرض الأمر على السلطان العثماني، ثم أعقبه بإرسال المبعوث، إلى عاصمة الخلافة، بناء على طلب الباب العالي لذلك[١].

= فزعم بعض العامة أنهم وضعوا نجاسة بالكعبة المعظمة، فثارت فتنة بسبب ذلك لمساعدة العساكر المصرية للعامة. ومشت العامة إلى قاضي الشرع، فهرب من المحكمة والتجأ بحسين آغا، كبير العساكر الإنكشارية، وسار معه إلى أبي بكر باشا صاحب جدة، وكان قد جاء إلى مكة في تلك الأيام. ثم ذهبت العامة إلى مفتي بلد الله الحرام، وأخرجوه من بيته، وأخرجوا أيضاً غيره من العلماء ذوي الهيئات، واحتجوا عند الوزير أبي بكر باشا لقصد نصب الدعوى، والحال أن الخصم غير موجود بل غير معلوم، فراجعهم حضرة المفتي بذلك، فأجابوه بكلام غليظ، وأفعال غير مستحسنة، وتغلبوا على الوزير، حتى أخذوا منه أمراً بإخراج العجم من مكة، ونهب بيوتهم، وأخذوا من القاضي مثله، ومشوا في أزقة مكة، بالمنادي، بأن من جلس بمكة المعظمة من العجم، فهو منهوب مقتول، ونهبوا شيئاً من بيوتهم، ومنعهم عنه وعن غيره بعض السادة الأشراف... قال الرضي: وإنما كل هذا التعصب من أراذل الناس والأتراك، وإلا فأهل مكة الحقيقيون لم يكونوا راضين بذلك. (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٣١ ـ ٢٣٢).

(١) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام في حوادث سنة ١١٥٧هـ ونقل ذلك عن تاريخ الرضي فقال: أرسل نادر شاه كتاباً لمولانا الشريف مسعود صاحب مكة يقول فيه: إنه حصل الوفاق والاتفاق بيننا وبين الدولة العثمانية على إظهار المذهب الجعفري، وأن يصلي إمام خامس في جميع الأوقات في كل الجهات يصلي الصلوات الخمس بلا معارضة، وأن يدعو لنا على المنابر والمقام، كما يدعو للدولة العلية في جميع ممالك الإسلام. فواصلكم إمام مذهبنا السيد نصر الله، فدعوه يصلي بالناس صلاة خامسة بالمسجد الحرام. وجعل في كتابه شيئاً من التهديد والترهيب. فحصل لمولانا الشريف كرب عظيم من هذا الأمر وكذا أهالي مكة حتى أزعج سكان أم القرى ما طلبه من إظهار مذهب الرافضة، مع أن جميع ماذكره من الاتفاق زور وبهتان على دولة آل عثمان أدامها الله تعالى. فاستحسن مولانا الشريف أن يرسل صورة الكتاب للدولة العلية، ويستمهل الرسول مدة الذهاب والإياب، وأن يعامل الرسول بالملاطفة والإكرام. ولم يرض الوزير أبو بكر باشا صاحب جدة بهذا الرأي بل قال لا بد من قتل هذا الرسول، فأبى مولانا الشريف أن يسلم الرسول للقتل، وقال لا بد أولاً من إنهاء الأمر إلى الباب العالي، فأغلظ عليه أبو بكر باشا وتعصب، واتهم الشريف أنه اعتقد هذا المذهب فخشي الشريف أن يرميه عند =

صراع الأتراك مع الزيدية

لم يكن غضب الأتراك على الزيدية في اليمن بأقل من غضبهم على الجعفريين الأعاجم. ومن المعلوم أن هناك صلات قوية تربط المدينة المقدسة باليمن، أولاها القرب الجغرافي بين المكانين، ثم صلات القربى بين حكام اليمن والأشراف، والتجارة القائمة بين البلدين، إضافة إلى تشابه المجتمعين في العادات والتقاليد. هذه العوامل مجتمعة أدت إلى وجود علاقات مأمولة بين اليمن ومكة. ومع كل هذه الاعتبارات كان الأشراف يتخوفون دائماً من الانضمام العلني إلى إمامة صنعاء، لتجنب غضب الأتراك عليهم. وقد وجدوا أنفسهم في عام ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) مضطرين لإرجاع الحجاج الزيديين القادمين لأداء فريضة الحج[١]. وكذلك فإن الزيديين المقيمين في مكة قد تحولوا إلى المذهب الحنفي. غير أن هذا مشكوك بجديته وصحته؛ نظراً لما صَاحَب هذا التحول من تعذيب جسدي لهؤلاء المتحولين[٢]. ومع كل الحذر الذي كان يبديه الأشراف تجاه أئمة اليمن، إلا أنهم كانوا يحاولون الإبقاء على الصلات الودية ما أمكنهم ذلك، فقد لاقى الأمراء الزيديون، الذين كان عليهم مغادرة اليمن نتيجة الصراعات العائلية، كل مودة وترحيب من أشراف مكة في عام ١٦٨٩م[٣]. وهذا الترحيب والاستقبال الودّي كان يقابله ترحاب مماثل لبعض الأشراف الملتجئين عند الحسنيين في الجنوب. ولم تستطع الاعتراضات التركية أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص.

= الدولة بهذا الاعتقاد، فأمر لدفع التهمة أن يجهروا على المنبر والمقام بلعن الرافضة وأهل البدع اللئام، فزال من خواطرهم ذلك الاتهام، فجاء الأمر من الدولة العليا بتكذيب ما افتراه شاه العجم، وطلبوا ذلك الرسول وهو السيد نصر الله ليحضر إلى الباب العالي، فتوجه بصحبة أمير الحج الشامي أسعد باشا في ذلك العام (انظر أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٢٤١).

(١) انظر تفصيل ذلك في الدحلان: أمراء البلد الحرام ص١٢٢.

(٢) منائح الكرم، حوادث سنة ١٠٨٣ هـ.

(٣) ذكر السنجاري وصفاً مفصلاً لمظاهر الاستقبال والتكريم، الذي حظي به هؤلاء الأمراء، من قبل الأشراف في الطائف، ومن قبل الشريف الكبير في مكة. (انظر منائح الكرم حوادث سنة ١١٠٠هـ).

لقد استطاع الشريف زيد عن طريق الغزوات المتكررة التي شنها على العصاة، وكذلك عن طريق الرحلات التي كان يقوم بها لمختلف المناطق، أن يجعل اسم شريف مكة مهاباً أكثر من ذي قبل. ومن ناحية أخرى عرف كيف يرضي رؤساء العائلات المنافسة، وخاصة العبادلة، بحيث إن جميع هؤلاء الرؤساء قد تركوا له المرتبة الأولى بلا منازع. لقد كان ذوو زيد يتمتعون بخصائص جدهم، فقد كان هؤلاء يتصرفون مع السلطة العثمانية كصبي عنيد أمام وصي صارم، لكنه غير حذر.

لقد كان التأديب دائماً في انتظار هؤلاء، لكنهم كانوا على قناعة تامة أن تطبيق مثل هذا التأديب يعتمد على الصدفة، مما يجعل الانصياع والطاعة أمراً لاداعي له دائماً.

ولاية الشريف سعد الأولى

خلف الشريف سعد بن زيد أباه بعد موته (١٦٦٦ ـ ١٦٧٢م) (١٠٧٧ ـ ١٠٨٣هـ) (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٤)، وكان عليه أثناء فترة حكمه القصيرة أن يقاتل حمود بن عبدالله. وكذلك يدخل في خصام مع أحد إخوانه. ولم يكن لينعم بالهدوء من قِبَل أقاربه، إلا بعد أن أخذ جميع مطالبهم بعين الاعتبار. ولقد دخل الشريف سعد في خصومة مع والي جدة، على عدم استيفاء الشريف لحصته من المكوس المترتبة على البضائع المستوردة في جدة [المعلوم]، وجرياً على سنة أبيه، فقد أمر مرتزقته بقتل السنجق أثناء فترة الحج عام ١٦٧١م[١]. غير أن المحاولة فشلت؛ ولأن الباشا لم يجد مساعدة اتجه نحو الشمال[٢]، ووثّق علاقاته مع فخذ آخر للعائلة؛ ليمنح أحد أفرادها لقب شريف مكة. فما كان من الشريف سعد إلا أن وجّه الدعوة إلى أقاربه هناك، وإلى خصمه السابق حمود للتعاون ضد الأتراك، «الذي يعنينا يعنيك»، وكان الأشراف دائماً يأخذون ذلك بعين الاعتبار. ولا تتضّح لهم أهمية ذلك إلا في لحظات الشدة. وقد

---

(١) بعضهم يقدّر أن حادث الاغتيال حصل عام ١٦٧٢م، فقد ذكر الدحلان وقوع الحادثة في ختام سنة ألف وإحدى وثمانين، وقيل اثنين وثمانين وألف. وهذا التاريخ يقابل ١٦٧١م أو ١٦٧٢م.

(٢) اتجه الباشا نحو المدينة المنورة، حيث قام بإقناع السيد أحمد الحارث بتولية شرافة مكة. (أمراء البلد الحرام ص١١٨).

ساعدت الوحدة هذه على إحراز النصر. أما باشا جدة فقد أقيل من منصبه، ومات فجأة في طريق العودة إلى وطنه.

إن إنهاء هذه الفترة من سلطة ذوي زيد، كان من عمل أحد سكان مكة الأذكياء والمثقفين، وهو العلامة محمد بن سليمان المغربي، الذي عاش في مكة، وذهب إلى إسطنبول. واستطاع أن يقنع الوزير الأكبر في إسطنبول بمنحه صلاحيات واسعة للقضاء على كل الظروف السيئة بمكة، وذلك بالوسائل الحسنة، ولسنا نعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك أهو الطموح الشخصي؟ أم عداوته للشريف سعد؟ أم حماسه لإصلاح الأوضاع المتردية في مكة المكرمة؟ أم مزيج من ذلك كله؟ ولقد رافقت الشيخ فصائل الجيش من سورية ومصر أثناء حج عام ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) وكلف العسكر بأن يتصرفوا طبقاً لأوامره.

الشيخ المغربي في مكة

لقد فشلت كل محاولات الإغراء بالشريف سعد للوقوع في قبضة أمراء العسكر، وقد أدرك الشريف سعد الهدف من إرسال هذه القوات؛ ولذلك اكتفى مع أخيه محمد بمغادرة مكة. أما المغربي فكان عليه لتحقيق أهدافه أن يستخدم أحد الأشراف الآخرين، الذي يدين بوجوده في السلطة للشيخ المغربي، وبذلك يستطيع أن يسيّره كما يشاء. ولقد أوصى الشيخ باختيار أحد الأشراف من ذوي بركات (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤) الذين لم يحكموا حتى ذلك الوقت. وكل ما حصلت عليه

عودة ذوي بركات

العائلة هو العائدات والمداخيل فقط. لقد كان الشريف الجديد بركات بن محمد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٠) ثم ابنه وخليفته من بعده سعيد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٨) قد تقلدوا المنصب الرفيع (١٦٧٢ ـ ١٦٨٤م) (١٠٨٣ ـ ١٠٩٥هـ) بصفتهم

أعمال الشيخ المغربي

مساعدين عند الضرورة، وكانت شخصيات هؤلاء تظهر في الظل، مقابل المندوب السامي غير العادي، وهو الشيخ المغربي. الكتاب المكيون كان غيظهم شديداً على هذا الدخيل، لكنهم يعطوننا عن طريق أخبارهم الموضوعية، صورة حسنة عن نشاط الشيخ يصفته إدارياً فذاً.

لقد تخطت إصلاحاته الأعراف الموضوعة دون تحفظ. كما أوصلت تنظيماته الجديدة المنافع المادية إلى المكّيين الفقراء، والمجاورين الضعفاء، أكثر من (الأرستقراطيين) والأغنياء، من سكان المدينة المقدسة، لقد نظمت إدارة الأوقاف من قِبَل الشيخ دون أدنى اعتبار لمطالب المالكين آنذاك، وقد ألغى الضرائب غير المباشرة، كما ألغى رسوم المهن التي أثرت كثيراً في متطلبات الحياة. كما حاول منع حصول الشريف الكبير من أخذ ربع كمية القمح المرسلة سنوياً إلى مكة؛ لأنه خصص له بدلاً منها مبلغاً معيناً من النقود، يرسل إليه بانتظام. وقد منع مواكب الاحتفالات بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف. وألغى الاحتفالات الترفيهية التي كانت تقام في ذكرى موت أحد الأولياء المدفون بالشبيكة؛ بسبب ما تسببه من ضروب الفسق، وانتهاك المحرمات. لقد تصرف الشيخ المغربي بحزم ضد هذه الأعمال السيئة، وكان بعضها يشكل جزءًا من عادات سكان المدينة المقدسة، بصورة لم يأخذ فيها اعتباراً لأحد، مما جلب عليه غيظ معظم المكيين. غير أن أحداً لم يجرؤ عل معارضته علنياً، أو على إظهار العداوة له، وذلك بسبب الدعم الذي ارتكز عليه في إسطنبول من جهة، وبسبب أوامره النافذة على القوة العسكرية التي رافقته أثناء وصوله. غير أنه بعد موت الوزير الكبير في إسطنبول ١٦٧٥م (١٠٨٦هـ) ضعفت هيبة الشيخ، واضمحل سلطانه، وبعد عامين من ذلك اضطر إلى الهجرة إلى المدينة المنورة قسراً. وفي عام ١٦٨٠م (١٠٩١هـ) سمح له بالعودة إلى مكة، ليعيش فيها رجلاً عاديّاً. وقد واتته الفرصة أن يرى كيف أن كل التجديدات التي أحدثها في المدينة المقدسة قد ألغيت تماماً، وبانتهاء الشيخ ضعفت سيادة ذوي بركات وأخذت بالتدهور. وإليه يعود الفضل في بقاء هذه العائلة حتى عام ١٧٧٠م (١١٨٤هـ) منافساً قوياً لذوي زيد؛ لأنه في عرف العرب عندما يطالب شخص ما بالعرش ـ وهذا الشخص ينتمي إلى فخذ سبق أن كان العرش عنده ـ فإن لذلك وزناً كبيراً، فهو يطالب بحق مشروع. وعلى العموم فلم يكن الشريف سعيد الرجل المناسب الذي يدافع عن تركة والده المضطربة أمام ذوي زيد الأقوياء.

منذ البداية كان قد اشترط على ذوي بركات، بأن تحصل بقية العائلات الحاكمة على ثلاثة أرباع المداخيل. وفي أثناء نفوذ الشيخ المغربي، رضي الجميع بالأمر الواقع، بما فيهم زعيم العبادلة، الذي رضخ للأمر الواقع بعد بعض التردد.

ذوو زيد في إسطنبول

أبناء الشريف زيد المعزولون حاولوا تحريض بعض القبائل للقيام بأعمال عدوانية ضد الشريف بركات. وحين لم تثمر هذه الأعمال في وصولهما إلى السلطة سافرا إلى إسطنبول، وهناك قدم لهما السلطان العثماني الهدايا الكثيرة، وعينهما في مناصب إدارية هناك. غير أنهما كانا دائماً يتطلعان إلى العودة إلى وطنهما. ويستدل من الأوامر المتكررة من إسطنبول، بدفع مبالغ مالية إلى أقاربهما من النساء في مكة، على أن لهما حظوة عند السلطان، وأن كلمتهما مسموعة لديه[١]. وفي هذه الأثناء سافر زعماء عائلات آخرون إلى إسطنبول للشكوى بسبب تأخير دفع حصصهم المقررة لهم. وقد أدى الخلاف بين العائلات، حول تقسيم المدخول، إلى الفوضى الكاملة. فكل رئيس عائلة أخذ ما اعتقد أنه حقه، بدون توسط كبير الأشراف، مما أحدث الانقسام والفرقة. وقد زادت الأوضاع سوءًا في البلد الحرام نتيجة الصراعات التي كان يقوم بها عبيد هؤلاء السادة، سواءً فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين خصومهم من عبيد العائلات الأخرى، مما أزال الأمن والاستقرار في بلد الله الحرام. أما ذوو مسعود (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٦) فقد وقفوا على رأس المعارضة، التي ازدادت إلى الحد الذي وجد الشريف الكبير نفسه مضطراً لطلب المساعدة العسكرية من إسطنبول[٢]. غير أن

---

(١) أورد الدحلان في أخبار عام ١٠٨٨هـ ورود مرسوم من الوزير الأعظم بأن يطلق مولانا الشريف بركات على المصونة الشريفة عمرة بنت الشريف زيد، ألفاً ومائتي شريفي أحمر من المال، الذي جعلته السلطنة للسادة الأشراف، وكذلك يطلق عليها من الحب الوارد بأسماء الأشراف ستمائة أردب. فأطلق عليها مولانا الشريف الدراهم، وتوقف في أمر الحب، وقال يكفيها النصف. فامتنعت من أخذ النصف. ثم جاء مرسوم آخر في سنة ١٠٨٩هـ لصاحب جدة، أن يدفع للشريفة عمرة المذكورة ستمائة أردب لخادمها سليم آغا من الحب الوارد في السنة المذكورة. (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص١٣٣).

(٢) ذكر الدحلان أن الشريف سعيد بن بركات عرض للدولة خراب الحجاز، وطلب عسكراً =

السلطان بدل أن يرسل هذه القوات، وافق على اقتراح الشريف أحمد ابن زيد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٥) المتضمن الالتماس بإرساله عام ١٦٨٤م (١٠٩٥هـ) شريفاً لمكة لفرض النظام والأمن فيها.

الهدايا مثار النزاع

من بين المداخيل المهمة في مكة قديماً وحديثاً هدايا الأمراء الهنود. وقد كانت هذه الهدايا مثاراً للنزاع فيما بين السادة. لقد كانت بعض أموال الهند تجمع من خلال رسائل ودية يرسلها مبعوثون من قبل سادة مكة[١]. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان بعض أفراد بني شيبة يذهبون إلى بلد الذهب لأغراض مماثلة، وذلك كلما ازداد دائنوهم بالإلحاح عليهم لتسديد الديون المترتبة عليهم.

المغولي الكبير (أورانجزيب)[٢] الذي كان معاصراً لبركات، كان قد حدّد مبلغاً من المال يقوم نائبه في سوارت بإرساله إلى مكة سنوياً. ويذكر نيبور في تقاريره أن هذا المصدر قد بقي حتى منتصف القرن الثامن عشر، حين تدخل الإنجليز لقطعه، ومنعه من الوصول إلى مكة.

في عهد الشريف سعيد أمضت بعثة أرسلها أبوه مدة أربع سنوات ١٦٨٣م (١٠٩٤هـ) في انتظار طويل غير مجدٍ لمقابلة سلطان المغول (أورانجزيب)، وبناءً على نصيحة أصدقاء أعزاء توجه الوفد إلى أتشيه في جزر الهند الشرقية، التي تبرعت حاكمتها المؤمنة السنية بالهدايا الثمينة

= لإصلاحه، وكان هو وعمه عمرو ينتظران الجواب. غير أن السلطان قرر تعيين الشريف أحمد بن زيد، ووجهه إلى مكة، فلما علم الشريف سعيد بالخبر، أرسل إلى الشريف مساعد ابن الشريف سعد بن زيد وقال له: ياسيد مساعد، لم أرسل إليك في هذا الوقت إلا قصدي أودعك أهلي، فإن عمك الشريف أحمد تولى مكة، وأنت تقوم مقامه حتى يصل. وخرج الشريف سعيد إلى الوادي (وادي فاطمة) وأقام به حتى سافر الحج المصري، فذهب معه إلى مصر وتوفي فيها (أمراء البلد الحرام ص١٤٤ ـ ١٤٥).

(١) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٩٤هـ.

(٢) هو محيي الدين محمد أورانجزيب عالمكير (١٠٦٨ ـ ١١١٨هـ) أشهر سلاطين المسلمين في الهند اشتهر بالتدين والتقوى والورع والشجاعة، (لمزيد من المعلومات انظر جمال الدين الشيال تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، الطبعة الأولى دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص١٥١ ـ ١٦٦).

والذهب الكثير. وقد أدى تقسيم الهدية القيمة إلى مشاحنات قوية بين الإخوة[1].

أهمية ذوي زيد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٤، ٤٦) الذين كانت إمارة مكة تحت حكمهم خلال الفترة ما بين (١٦٨٤ ـ ١٧٠٤م) (١٠٩٥ ـ ١١١٧هـ) مع بعض الانقطاع، تتركز بصورة جلية، في الشريف سعد بن زيد. أما أخوه أحمد الذي أرسل إلى مكة من إسطنبول، لم يعش سوى أقل من أربع سنوات كاملة. وقد قام إخوته وأبناء عمومته بمحاولات ضده، غير أنها لم تكن ناجحة. وقد تضامنوا مع أخيه سعد من أجل مصالحهم. أما ابنه سعيد فقد كان طوال حياة أبيه نائباً له ومنفذاً لأوامره.

ولاية الشريف سعد الثانية

عندما عاد سعد من منفاه الاختياري ١٦٩٢م (١١٠٤هـ) كان يضع على رأسه طربوشاً تركيّاً. وقد قام بتغييره بعد فترة وجيزة بآخر عربي. وكان هذا نهاية لكل التغييرات التي حدثت لسعد أثناء وجوده في تركيا. وقد كان أسلوبه شبيهاً بأسلوب أبيه. فقد بقي حتى ساعة موته يفضل مقاتلة أقاربه ثم الأتراك على الهدوء المريح. كان هناك شيء واحد فقط هو الذي تعلمه في أثناء وجوده في الشمال، ألا وهو أن رغبة السلطان وأوامره، ما هي إلا قرارات قابلة للتغيير في كل لحظة، تصاغ في وسط كله صراع ومكائد. وهذا

---

(١) ذكر الدحلان في حوادث سنة ١٠٩٤هـ «ومن الحوادث في دولة سينا الشريف سعيد أن والده سيدنا الشريف بركات كان أرسل هدية إلى سلطان الهند، فأقام الحامل للهدية هناك أربع سنين لعدم قبول السلطان عليه والتفاته إليه، فدخل بما معه من الهدية إلى بندر آشي وكان بيد امرأة فأهدى إليها ما معه من الهدية وأفهمها أنه مرسل من الشريف بركات صاحب مكة، ففرحت بذلك فرحاً عظيماً ووقع لها موقعاً، وأمرته بالإقامة لتهييء له هدية لمرسله. فاتفق أن حرقت كنيسة هناك فانسبل ما فيها من الذهب إلى أن صار له صورة، فأمرت بحمله في هدية سيدنا الشريف، وجعلت أيضاً معها صدقة لمكة. فجاء حامل الهدية والصدقة مكة بعد ولاية سيدنا الشريف سعيد، ومن جملتها هذا الذهب ومقداره على ما قيل ثلاثة قناطير من الذهب، وربما يصفو خالصاً على النصف وكافور ثلاثة أرطال، وعود وزباد، وخمسة قناديل ذهب للكعبة، ومنجرتان وشمعدانات، وللمدينة المنورة أيضاً قناديل وشمعدانات. فلما وصلت الهدية في شعبان سنة أربع وتسعين وألف، وقع بين السادة الأشراف أصحاب الأرباع نزاع؛ لأن الأشراف يريدون أن يأخذوا ثلاثة أرباع تلك الهدية، والشريف سعيد لا يريد إعطاءهم =

يتيح المجال للخارجين على السلطة لعدم تصديق الأوامر غير السارة التي كانت تعطى لهم باسم السلطان. وقد اتبع ذوو زيد هذه السياسة حتى هذه الأيام (١٨٨٥م). إن كل مندوب سامٍ أو أمير للحج، يحمل لهم رسالة العزل، كانوا يؤكدون له طاعتهم للسلطان، ويضيفون إلى ذلك في البداية أن كل فرمان عزل هو مزور، وأنه حصل عن طريق الدس والتحريض. وإذا جاء الأمر من باشا مصر كانوا يقولون: «نحن مطيعون للأمر السلطاني. فإن كان ليس بأمر سلطاني، فحكم الباشا على مصر وصعيدها، يعزل ويولّي فيه مَنْ يشاء، وما دون مكة إلا السيف»[١]:

هذا الفخر والاعتزاز لم يمنع خلال الفترة ١٦٨٨ ـ ١٦٩٠م (١٠٩٩ ـ ١١٠١هـ)، دخول ذوي مسعود، وبمساعدة باشا مصر إلى مكة، ليأخذوا منكسر المعلوم الذي منع عنهم، وكان ذلك بقيادة زعيمهم أحمد بن غالب (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤٢). ومن الجدير بالذكر أن سلطة أحمد هذا كانت قوية فقط لأغراض المعارضة، وعندما طلب الشريف أحمد المساعدة ضد ذوي زيد. وكان مدركاً بأنه لا يستطيع البقاء بدون مساعدة الباشا أجابه الباشا: «يا شريف نحن هنا للمحافظة على مكة، ولمقاومة العدو الخارجي، الذي سنقاتله حتى الموت. أما الأشراف فهم أبناء عمك، ونحن لا نريد أن نتدخل في صراعاتكم». وقد كان الحكام مضطرين إلى الصيد في الماء العكر، لأن القوات التركية لم ترسل للسيطرة على الوضع إلا في الحالات النادرة. حيث كان في كثير من الأحيان للأتراك ضلع في الخلافات المكية. وهكذا عمل في عام ١٦٩٥م (١١٠٧هـ) أحد حكام جدة على عزل عدوه القديم سعد، وعيّن رئيس ذوي عبدالمطلب (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٧)[٢] الأقل مرتبة، وذلك في

= ثلاثة أرباع. فأوجب أن تحمل في بيت السيد محمد الحارث إلى أن يتفقوا وينقضي رمضان، فبقيت عنده. ثم اتفقوا على أن يأخذ أصحاب الأرباع النصف مما ورد باسم الهدية، وتفرّق الصدقة على الفقراء. فأخذوا الهدية، وفرّقوا الصدقة. (انظر الدحلان، مرجع سابق ص١٤١ ـ ١٤٢).

(١) هذه كلمات الشريف سعيد بن سعد حين ورده كتاب حاكم مصر بعزله وتولية الشريف أحمد ابن غالب (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص١٤٩، ومنائح الكرم في أخبار سنة ١٠٩٩هـ).

(٢) هذا الشريف هو عبدالله بن هاشم الذي دامت ولايته أربعة أشهر فقط.

محاولة من أجل القضاء على ذوي زيد، غير أنه بعد أربعة أشهر فقط، تم طرده من قبل الشريف سعد، حيث غادر مكة إلى إسطنبول مع مساعده غير المحظوظ[١]، الذي حاول في السابق طلب المساعدة من الأئمة الزيدية لنيل شرف الإمارة[٢]. ويروى عنه أنه كان شاعراً مجيداً. كما يروى عنه أيضاً أنه في أثناء فترة حكمه قام بسك بعض النقود من ذهب الكعبة[٣]. وفي إسطنبول توفي الاثنان هناك بعد فترة وجيزة[٤].

محاولة الشريف تعيين ابنه حاكماً لسنجق جدة

كان على ذوي زيد أن يتعاملوا بصورة رئيسة مع العبادلة وذوي بركات، وكانت هاتان العائلتان قد شكلتا معارضة مستمرة. وقد كان ذوو بركات يلقون تشجيعاً من ممثل السلطان في جدة. ولما مات حامل الأوسمة في جدة عام ١٦٩٨م (١١٠٩هـ)، حاول الشريف سعد بذكاء ساذج، أن يثبت للسلطان، بأن تعيين ابنه سعيد حاكماً لسنجق جدة، سيكون أفضل، وسيساعد ذلك في حفظ أمن الحج. وكان الجواب طبعاً أن الباب العالي يفضل أن يختار ممثليه. وهذا يدل دلالة أكيدة على أن هؤلاء كانوا يعطون صلاحيات واسعة، عن طريق تعليمات سرية، تصدر لهم عن الباب العالي مباشرة.

---

(١) هذا الشريف هو أحمد بن غالب.

(٢) انظر تفصيلات ذلك في منائح الكرم أخبار سنة ١١٠١هـ و١١٠٢هـ.

(٣) انظر تفصيلات ذلك في منائح الكرم في حوادث عام ١١٠١هـ. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها كنوز الكعبة. فقد جاء بأخبار مكة المشرفة في حوادث عام ٢٥١هـ أن عامل مكة، قد قلع ما على عضادتي باب الكعبة من ذهب، وضربه دنانير واستعان بها على حرب العلوي، الذي خرج عليه يومئذٍ (أخبار مكة المشرفة ج١ ص٣٤٣ وج٣ ص١٤٥) وفي عام ٣١٨هـ قلع عامل مكة مقدار الربع من الذهب، الذي كان مصفحاً على باب الكعبة، ومن أسفله، وما على أنف الباب الشريف من الذهب، وضربه دنانير واستعان به على دفع تلك النفقة. ومن الجدير بالذكر أن مكة كانت في بعض الأوقات تتخذ مكاناً لسك العملة والنقود. فقد قام أخو صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨١هـ بسك دراهم ودنانير في مكة باسم أخيه صلاح الدين. وفي عام ٧٨٧هـ ضربت السكة بمكة باسم حجاز الحسني. وفي نهاية القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) كان الحديث يدور حول مسكوكات في مكة. وذكر نيبور في عام ١٧٦٢م، أن هناك مسكوكات أجنبية كثيرة في الحجاز (المؤلف).

(٤) ذكر الدحلان أن وفاة الاثنين كانت في إسطنبول عام ١١١٣هـ.

محاربة الشريف سعد للبدو

لقد أثبت الشريف سعد عن طريق الغزوات التي كان يشنها على البدو المجاورين، وكذلك عن طريق الانتصارات التي حققها على أبناء عمومته، أنه مثال الشجاعة المعروفة عند عشيرته. لقد كان الشريف سعد، بعد كل فتنة تؤدي إلى طرده من شرافة مكة، يقوم بتجميع أعداد كبيرة من البدو الموالين له، الذين كانوا يقدّمون خدماتهم ومساعداتهم مقابل السماح لهم بالسطو والسلب. وفي كل مرة يتعرض الشريف سعد بها للحصار، كان ينادي رعاع مكة، من خلال قرع الطبول بالشوارع، لقتال الأتراك وأصدقاء الأتراك، إلى أن فقد الشعب الممتحن الصبر، فزادت القلاقل، وكثرت المشاحنات بين أفراد البيت الحاكم، مما اضطر والي جدة أن يكتب للشريف الذي يكنّ كلّ عداوة للأتراك: إذا كنتم لاتستطيعون القضاء على الأشراف الذين يهاجمونكم ويناصبونكم العداء، فأخرجوا من البلاد، فقد نعيّن لها مَنْ يقوم بحفظها. فردوا له الجواب: ليس عندنا إلا السيف أو يرضون بالحيف[(١)].

وقوف باشا جدّة ضد الشريف سعد ومحاولة عزله

لقد وقف باشا جدة موقف المعارضة من قِبَل السلطات الدينية في مكة، التي كانت تنادي بضرورة تثبيت الشريف سعد ومساعدته، وبذل كل ما لديه من صلاحيات لتعيين الشريف الذي يراه مناسباً. أما الشريف الجديد المختار، فهو رئيس ذوي بركات الشريف عبدالكريم[(٢)]. (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤٩). وقد كان عليه بالرغم من تعيينه رسميّاً أن يستعمل السيف من أجل تثبيت حكمه، أمام خطر الشريف سعد، الذي لم يتخل قط عن الحرب، مستعيناً بما يستطيع تسخيره من البدو لخدمته، ولم يثنه عن عزمه أنه جرح جرحاً مميتاً في إحدى غزواته لنيل المدينة المقدسة.

تولي الشريف عبد الكريم

---

(١) انظر معنى الكتاب الذي أرسله والي جدة إلى الشريف سعيد ووالده سعد (الدحلان، أمراء البلد الحرام ص١٧٥).

(٢) في الواقع قام باشا جدة بمساعدة الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد وتنصيبه، الذي استمرت ولايته تسعة أيام فقط، وهي عدد حروف اسمه كما يقال، ثم تنازل بعدها للشريف عبدالكريم بن محمد (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٧٩ ـ ١٨٠).

وقبل دخوله الأخير لمكة، أصابت الشريف نوبة ضعف، فقد رأى أنه قد انقطع أمله في الحكم. فبينما هو كذلك إذ بشّره أحد الرمالين[١] بدخول مكة، وقد أيقظ في نفسه الشجاعة التي كادت أن تضعف[٢]، فتوجه إلى مكة مع جموع من البدو، الذين استطاع من خلالهم أن يبسط سلطانه على المدينة المقدسة[٣].

الأشراف يستخدمون كاشفي الأسرار والمعتقدات الخرافية

وعلى ذكر الرمالين أو كاشفي الأسرار في الحجاز فقد كانوا يقرؤون التنبؤات بواسطة الرمل أو الودع أو أشياء أخرى. وقد حظي السحرة والرمالون عند الأشراف ـ رغم تحريم الإسلام[٤] لذلك ـ بسمعة عالية. لقد تم التنبؤ للطاغية أحمد بن عبدالمطلب عام ١٦٢٨م (١٠٣٨هـ) بولاية مكة من قِبَل شيخه الذي أدخله في الصوفية[٥]. وقد حصل الشريف سعد من أحد المشعوذين على رؤيا غامضة، فسّرت بأنها محنة ستقع في مكة، وذلك قبل وقت قليل من مهاجمة محمد بن سليمان المغربي ـ الذي تدعمه قوات مصرية وسورية ـ للشريف عام ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ)[٦].

---

(١) السحرة والمنجمون الذين يتعاطون السحر والشعوذة وخداع الناس.

(٢) انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٨٤.

(٣) جاء في أمراء البلد الحرام وصف دخول الشريف سعد مع أهل البادية إلى مكة قوله: تغلبت البادية التي مع الشريف سعد على النهب من كل جهة، فنهبت البيوت، وأخذوا ماوجدوا من نقود وقوت، وما عزّ وهان من متاع وأثاث، وروعوا الذكور والإناث. فكم من رجل نزعت من فوقه ثيابه، وكم من حرة شريفة هتكت، وكاسية سلبت، وحامل أسقطت. فمازالوا ينهبون، الرفيع والوضيع، ويسومونهم الضرب والتقطيع، حتى دخل الليل، فمن الناس مَنْ مات فجأة، ومنهم مَنْ مرض، ومنهم مَنْ اختل (الدحلان، أمراء البلد الحرام ص١٨٥).

(٤) جاء في الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». وذكر السحر منها.

(٥) جاء في أمراء البلد الحرام: كان الشريف أحمد بن عبدالمطلب ذا أدب وفضل، نبيهاً نجيباً جيد الذكاء، حسن الصورة، عظيم الهيبة، أخذ طريق الصوفية عن العارف بالله أحمد الشناوي، وهو الذي بشره بولاية مكة. ولما دخل واستولى عليها صادر كثيراً من الناس، وأخذ أموالهم ولم يرحم أحداً. وكان له إخوان وجلساء قبل الولاية فعجل لهم الأذية، فحبس من حبس، وقتل من قتل، فنفرت الناس، وجلت عن مكة، وخالفت القبائل، وتقطعت الطرق... (الدحلان،أمراء البلد الحرام، ص٩٩). فحاكم هذه خصاله، لا عجب أن يلجأ إلى السحرة والمشعوذين، وإلى اتباع طريق المنحرفين من الصوفية.

(٦) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص١٢١، وانظر منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨٢هـ.

وكذلك بشر الشريف بركات عن طريق أحد السادة بأنَّ نجم حظه قد صعد[1]. كما حسب أحد المنجمين الدجالين للشريف زيد، متى حملته أمه ونتج عن ذلك الحساب، بأن نموه في بطن أمه قد استمر أحد عشر شهراً. وفي عام ١٧٣٤م (١١٤٦هـ) قتل أخو الشريف الكبير مسعود (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥٣) أحد السحرة المغاربة، لاعتقاده بأن السحر الذي عمله ذلك المشعوذ المغربي، قد جعل ابن أخيه محمد قادراً على مقاتلته، وحتى ينتهي مفعول السحر قام جميع خدم الشريف بالتبول على جثة الساحر[2].

لقد ذكر نيبور[3] أنه في أثناء إقامته في جدة عام ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) طلب إليه الشريف مساعد أن يتنبأ له بواسطة النجوم، فيما إذا كان أخوه الثائر ضده، يتمكن من أن ينتصر في ثورته. وفي هذه الأيام (١٨٨٥م) يتنبأ الأشراف في أثناء جلساتهم الخاصة فيمن سيكون ولياً للعهد، من بين الإخوة المعنيين، بالرغم من أن ذلك يعدّ من قِبَل الأكثرية نوعاً من المزاح. بالرغم من أنه في هذه الأمور يصعب التمييز بين الجدّ والهزل.

وعوداً على بدء فلم يعط ذوو بركات رغم علاقتهم الحسنة مع العثمانيين أي فرصة للهدوء. وإن إدارتهم التي دامت سبع سنوات (١٧٠٤ ـ ١٧١١م) (١١١٦ ـ ١١٢٣هـ) (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة) انقطعت عام ١٧٠٥م (١١١٧هـ) من قبل الشريف سعيد. لقد انتظر ذوو زيد دون انقطاع مع أحلافهم من البدو، كل لحظة ضعف من خصومهم. وفي هذه الأثناء أصبح وضع الأشراف في الحكم أكثر صعوبة، نظراً إلى غير المركزية المتزايدة، التي منحت لأقطار الإمبراطورية العثمانية، مما أدى إلى إحياء التنافس بين سورية ومصر من جديد. ومنذ عام ١٧٠٧م (١١١٨هـ) تنازع أميرا الحج لسورية ومصر من جديد حول المرتبة الأولى لمحمل كل

---

(١) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص ١٢٥.

(٢) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) Reisebeschreibung ج١ ص٢٧٥.

منهما، وحقهما في السير أمام الآخرين من سكان مكة[1]. وكان من نتائج هذا النزاع أن المصريين والإنكشارية القاطنين في مكة قد انحازوا إلى ذوي زيد، بينما باشا جدة وقادة السوريين قد تحزبوا إلى جانب ذوي بركات. وقد تجرأ عبيد الأشراف على الوقوف بكاملهم ضد الجنود الأتراك بسبب أقل إهانةٍ توجّه إلى أحد منهم[2]. أما الأشراف أنفسهم فكانوا حريصين جداً على عدم السماح بأي تدخل أجنبي. فعندما أيّد أمير الحج السوري حق أمير الأحساء بأداء فريضة الحج مع أبناء بلده دون أن يدفع الضريبة المقررة[3]، أجاب الأشراف بأنهم معتادون على تنظيم علاقاتهم مع البلاد غير التركية، بحسب مقاييسهم الخاصة، وبقي الأمر عند هذا الحد الذي ارتآه الأشراف. وفي عام ١٧١٠م (١١٢٢هـ) اتفقت معظم عائلات الأشراف بزعامة العبادلة على الانضمام إلى صفوف المعارضة، وتقدموا واحتلوا ميناء القنفذة وسلبوه[4]. وهنا انحاز أيضا باشا سورية ضد ذوي بركات. وفي عام ١٧١١م (١١٢٣هـ) عيّن حفيد زيد من جديد شريفاً أكبر لمكة. فعاد شيخ آل بركات إلى أملاكه الخاصة في وادي مر الظهران، بعد أن التجأ فيه إلى صفوف خصومه. وبمرور سنوات القرن الثامن عشر الميلادي (١٢هـ) اكتسبت سلطة ذوي زيد في مكة أرضاً صلبة. وأن كل من عرف التاريخ القديم لشرافة مكة، كان محقاً أن يتنبأ باستمرارية الزعامة لهذه العائلة على رأس الإمارة، مع استثناء الفروع الجانبية.

الشريف يحيى

وخلال الفترة من عام ١٧١٨ إلى ١٧٢٠م (١١٣٠ ـ ١١٣٢هـ) كان هذا المنصب الرفيع في يدي واحد من ذوي بركات، يحيى بن بركات (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٩). وقد كان هذا الرجل عام ١٦٨٤م (١٠٩٦هـ) بعد الإبعاد الأول لعائلته قد سافر إلى إسطنبول. ومنذ

---

(١) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص٢٠٤ ـ ٢٠٥، ومنائح الكرم حوادث عام ١١١٨هـ.

(٢) منائح الكرم حوادث سنة (١١٢٠هـ).

(٣) منائح الكرم حوادث سنة (١١٢٢هـ).

(٤) أمراء البلد الحرام ص٢٠٨.

عام ١٦٩١م (١١٠٣هـ) عمل في خدمة السلطان، لمرافقة قوافل الحج السورية، لحمايتها في أثناء عبورها مناطق القبائل الموجودة في شمال غرب الجزيرة. وقد عاد الشريف يحيى أثناء حكم ذوي بركات للمرة الثانية.

أما ابنا الشريف سعيد، الاثنان اللذان توليا السلطة بعده، الواحد تلو الآخر، لم يستطيعا التعايش مع أبناء عمومتهما للأسباب نفسها التي تذكر دائماً. ومن جهة أخرى لم يستمع الأخوان إلى نصائح الزعيم الحقيقي لذوي زيد الشريف عبدالمحسن (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤٤) ابن عم والدهما سعيد. فقد كان عبدالمحسن ذا رأي مسموع لدى الأشراف. وقد كان له تأثير ملموس في الأشراف، لم يكن له مثيل منذ عهد الشريف قتادة. وقد كان من السهل عليه الحصول على المنصب الكبير دون صعوبة تذكر، غير أنه فضّل أن يترك مسؤولية كبير الأشراف لغيره. وقد نصح أقاربه جميعاً بعدم السعي إلى الإمارة. وكان يدرك أن كل تعيين هو بداية للعزل، الذي سيعقبه دون شك عقوبة الطرد من مكة. ولقد كان لاتّباع هذه النظرية أثر كبير في بقاء حكومة يحيى بن بركات واستمرارها. وبعد موت الشريف عبدالمحسن عام ١٧١٨م (١١٣١هـ) الذي آثر أن يدير أملاكه وينصرف عن طلب السلطة لنفسه، تبين أن أخاه مباركاً (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤٥) كان له رأي مخالف، الأمر الذي فرض على الشريف يحيى أن يخلي المجال لغيره. وبالرغم من أن الشريف يحيى قد حصل من الباب العالي على قوات مساعدة، كما سمح له بتصفية الحسابات نهائياً مع ذوي زيد، لكنه لم يستطع الصمود في مكة بأعوان كلهم، ودون استثناء، من العناصر التركية غير العربية. لقد كانت محاولة الشريف يحيى التنازل عن السلطة لابنه بركات عام ١٧٢٣م (١١٣٥هـ) (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤٨) إضافة إلى تقليل حصص الأشراف من المعلوم، ووضع حسابات جديدة لهم قد أدت إلى وقوف الأشراف جميعاً ضده، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انسحاب الأب مع ابنه من الحجاز وذهابهم إلى سورية. ولم تكن الحركة التي نظمها ذوو بركات عام ١٧٦٠م (١١٧٣هـ) تحت قيادة ابن أخي بركات المذكور أعلاه، بأوفر حظاً من سابقاتها. فعلى مدى عامين كاملين لم تستطع الهجمات التي شنها باشا مصر

آنذاك[1] ـ وكان مستقلاً عن الباب العالي ـ أن تفعل شيئاً في مساعدة آل بركات، ضد خصومهم من آل زيد، الذين كانوا يحظون بدعم أمير الحج الشامي آنذاك. وإن الفترة التي واكبت موت الشريف مساعد الشجاع، قد ضمنت لرئيس آل بركات الشريف عبدالله (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة، رقم٥٧) مدة رئاسة قصيرة، لا تزيد عن أربعة أشهر. وما أن انسحب المحاربون المصريون من مكة، حتى هب ذوو زيد مرة ثانية، وطردوا وإلى الأبد، ذوي بركات عن المسرح السياسي، الذي لولا جهود الشيخ محمد بن سليمان المغربي، لم يكونوا ليصلوا إليه أبداً.

ذوو زيد يعودون إلى السلطة

إن نظرة على شجرة النسب الثالثة تعطينا حقيقة مهمة، بأنه بعد موت الشريف عبدالمحسن ذي النفوذ الكبير (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٤٤)؛ الذي اعتزل الحياة السياسية، فإن أبناء سعيد قد تولوا السلطة التي أصبحت تحت إمرتهم. فأبناء مسعود وأحفادهما (١٧٣٢ ـ ١٧٣٣) (١١٤٥هـ) و(١٧٣٤ ـ ١٧٥٢م) (١١٤٦ ـ ١١٦٥هـ) ومساعد (١٧٥٢ ـ ١٧٧٠م) (١١٦٥ ـ ١١٨٤هـ) هم الذين كان لهم المركز الأول. (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٩). وقد حكم الاثنان بعد وفاة أخيهما عبدالله (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥١). وشهد محمد بن عبدالله نفوذ أعمامه وقوتهم (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥٩) مدة طويلة من الزمن، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه. وأثناء ذلك كان أبناء الأخ الأصغر سناً من الأخوين السابقين (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٦٠،٦١،٦٢) قد كبروا ونمت سواعدهم، وكوّنوا جيلاً جديداً لم يحتج سوى بضع سنين بعد موت الشريف مساعد، ليعلنوا لعمهم أحمد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥٦) بأن وقت تسلمهم السلطة قد حان، وأن دورهم قد بدأ.

---

(١) صاحب مصر في تلك الفترة هو علي بك الكبير. فقد تغلب على الدولة العلية، وخرج عن طاعتها وصار الحل والعقد بيده. وقد أمر علي بك الكبير أمير الحج المصري محمد بك أبو الذهب بمساعدة الشريف عبدالله بن حسين للوصول إلى كرسي شرافة مكة (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٤٨).

في هذا القرن يتضح مركز ذوي زيد القوي. بحيث اقتصرت المعارضة الرئيسة لأمراء مكة على أبناء العائلة نفسها. فعلى سبيل المثال في عام ١٧٣٤م (١١٤٦هـ) حاول رئيس العبادلة المرموق الشريف محسن[١] (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٢) الاستيلاء على السلطة بمساعدة أمير الحج السوري. أما المعارضة من أبناء ذوي زيد أو أبناء بركات، فقد اقتصرت على الغزو والسلب في الشوارع، أو الغيرة من الاستقلالية التي كان يتمتع بها الشريف الأكبر، والتي لم يتم التخلي عنها نهائياً. وهكذا في عام ١٧٣٢م (١١٤٥هـ) أثار الأشراف ضجة كبرى؛ لأن الأمير أمر بتطويق أحد أقاربه، الذي لم يطع الأوامر بالانسحاب والخروج من مكة. ثم تكررت النقمة ثانية في العام نفسه بسبب انتهاك حق الحماية لأحد العبادلة، الذي لم يرق له تسليم أحد عبيده، بالرغم من أن العبد قد قتل أحد علماء الحنابلة[٢].

وفي عام ١٧٦٠م (١١٧٤هـ) وجه الشريف أحمد، أخو الشريف الكبير مساعد اللوم لأخيه؛ لأن الحماية المعطاة من أحمد لأحد العبيد التابعين لوزير الشريف مساعد، لم تراعَ حقوقها ولم يلتفت لها[٣]. والشاهد أن الساخطين على الشريف وغير الراضين عنه إذا أرادوا محاولة إسقاط الحاكم، فقد كانوا دائماً يلتفون حول واحدٍ من عائلة ذوي زيد.

أما وضع باشا جدة فقد هبط في هذا القرن هبوطاً شديداً لدرجة أن المرء ليسأل: أكان هذا المنصب قد استمر بصورة دائمة أم لا؟ ومن النادر جداً أن تتدخل الحكومة التركية في مجريات الأحداث. وربما يكون من الأنسب القول إن التدخل يتم من خلال أمير الحج الشامي وأمير الحج المصري بصفة دائمة. ولمّا كانت أوقات هذه القوات موسمية، وغير مستمرة، فقد كانت تنقص إجراءاتها الاستمرارية، ومراعاة الظروف السائدة، إضافة إلى السرعة في تنفيذ القرارات، مما يمكن معه القول إن القوات الضرورية،

---

(١) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٣٩.

(٢) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٣٣.

(٣) انظر تفصيلات القصة في أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٤٧ ـ ٢٤٨، وكذلك منائح الكرم حوادث سنة ١١٧٤هـ.

لتنفيذ أوامر السلطنة، لم تكن متوافرة دائماً. والدليل على ذلك أنه عندما زادت حدّة الخلافات بين الشريف مسعود وحاكم جدة؛ بسبب تقسيم عائدات الجمارك عام ١٧٤٨م (١١٦١هـ) خرج الشريف مسعود مع جيشه واحتل الميناء، وأجبر الباشا على الهرب عبر البحر. ولم يكن رد فعل الباب العالي سوى إرسال والٍ آخر أكثر مرونة في تعامله مع الأمير الغاضب[١].

علاقة مكة مع أئمة صنعاء

وفي هذه الأثناء مارس أئمة اليمن تأثيراً ملموساً في أحداث المدينة المقدسة، فعلى سبيل المثال وجد أحد الأشراف[٢]، الذي كان يمثل المعارضة ضد الشريف مساعد وأبنائه عام ١٧٥٨م (١١٧٢هـ) الحماية والأمن والملاذ عند إمام صنعاء[٣]. وفي عام ١٧٧٦م تكرر الحادث مع الشريف نفسه، الذي طلب الحماية مرة أخرى عام ١٧٧٦م (١١٩٠هـ) عند عامل الإمام اليمني في اللحية. وفي المرة الأولى حصل له الإمام من الشريف الكبير على الصفح والعودة إلى مكة. أما في المرة الثانية فقد أمر إمام صنعاء بتسليم الثائر إلى الشريف سرور، الذي أخبره أن إيواء هذا الثائر يورث العداوة بين الفريقين[٤]. وفي مرة ثالثة أدى ارتفاع رسوم الواردات في مكة إلى أن يعطي إمام اليمن أوامره عام ١٧٧١م (١١٨٥هـ) بمنع التجار التابعين له من حمل البن والسفر به إلى الحجاز. فما كان من الشريف الكبير إلا أن أرسل مبعوثاً، لتهدئة الأقارب في الجنوب، والسماح بإعادة إرسال البن[٥].

إن مثل هذه العلاقات بين مكة وصنعاء، لم تكن لتثير شك السادة الأتراك؛ لأن اليمن كانت بعيدة عن أفق الباب العالي. وإذا لم يكن للأمور طابع سياسي، فالأتراك لا يرون غضاضة في تعامل الشريف الكبير مع سادة صنعاء. أما إذا كان ذلك سيؤدي إلى آثار سياسية، كبعثة نادر شاه السابقة

(١) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢) هذا الشريف هو السيد عبدالله الفعر (انظر الدحلان مرجع سابق ص٢٤٦).

(٣) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٤٦.

(٤) الدحلان: مرجع سابق ص٢٦٢.

(٥) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٥٦.

إلى مكة، فإن الأمر يحسب له ألف حساب. وفي هذه الحالة لا بد من اتخاذ الحيطة الشديدة والحذر من هؤلاء الأشراف.

الشريفان سرور وغالب

الأبناء الذين خلفوا مساعد بعد انقطاع قصير عن طريق آل بركات وعن طريق أحمد أخي مساعد هما: سرور (١٧٧٣ ـ ١٧٨٨م) (١١٨٦ ـ ١٢٠٢هـ)، وغالب (١٧٨٨ ـ ١٨١٣م) (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨هـ). وعندما مات سرور، تنازل عبدالمعين الضعيف عن حقه إلى الشريف غالب (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٦٠، ٦١، ٦٢). وقد كان كلا الشريفين سرور وغالب يعكسان خصائص ذوي زيد وطبائعهم. فقد كان على الشريف سرور أن يقاتل باستمرار ضد الأشراف المتحدين تحت إمرة عمه أحمد. وقد تمكن في النهاية من التغلب على عمه وأَسْره عام ١٧٧٩م (١١٩٣هـ)[(١)]. وقد حاك بعض الأشراف العبادلة وآخرون مؤامرة للقضاء على الشريف سرور واغتياله، غير أن الخطة فشلت وعوقب الجناة عقاباً شديداً[(٢)]. وفي خضم هذه المنازعات تشجع الكثير من القبائل البدوية (هذيل، شيبان، وبالدرجة الأولى حرب) على القيام بأعمال تمرد وعصيان وسلب، فتصدى لهم الشريف سرور وقمع شرورهم. و منذ عام ١٧٤٢م (١١٥٥هـ) كان على سادة مكة حماية ممتلكاتهم الجنوبية من أقاربهم المعادين ذوي حسن، الذين يبعدون مسافة خمسة أيام إلى الجنوب من مكة. والذين برزوا في هذه الأثناء قوة كبيرة يحسب حسابها[(٣)].

لقد تغلب الشريف سرور على كل هذه الصعوبات وخرج منها منتصراً. وقد ذاع صيته حتى وصل إلى أقصى بلدان الإسلام الغربية. ففي عام ١٧٧٩م (١١٩٣هـ) أرسل إليه أمير المغرب في أثناء الحج هدايا كثيرة

---

(١) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٦٦.

(٢) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٦٦.

(٣) ذكر الدحلان أنه في سنة ١١٥٥هـ بعث مولانا الشريف سعود عساكر وفرساناً لقتال ذوي حسن المقيمين بالشاقتين بطريق اليمن، وهم ينسبون إلى الحسن بن عجلان بن رميثة (أمراء البلد الحرام ص٢٤٠).

مصحوبة بابنته التي أحضرها أخواها وقدماها زوجًا للشريف الكبير[1]. وقد أدت هذه الصلة في أعوام ١٧٨٣م (١١٩٧هـ)، ١٧٨٧م (١٢٠١هـ) إلى إرسال هدايا ذهبية قيمة من مولاي محمد أمير المغرب إلى مكة المكرمة[2].

وقبل وفاة الشريف سرور بقليل أقام احتفالات بهيجة بمناسبة ختان أبنائه وأبناء بعض الأشراف الآخرين، وقد اشترك في هذه الاحتفالات كل سكان المدينة المقدسة. ولم يمض سوى وقت قصير حتى وافته المنية بعد عشرة أيام. ولم يكن يدور بخلد أحد أن الشريف سرور ستوافيه المنية بهذه السرعة وبهذا العمر القصير. كما لم يكن يفكر أحد من سكان مكة بأن هناك أحداثاً أخرى ستحدث وتُنْهي حكم ذوي زيد.

---

(١) الدحلان: مرجع سابق ص٢٦٨.

(٢) ذكر الدحلان أنه في سنة ١١٩٧هـ جاءت صدقة من سلطان المغرب للسادة الأشراف والعلماء وخدمة البيت الحرام وكذا لأهل المدينة. وكانت هذه الصدقة ذهباً مطبوعاً، مقدار كل واحد وزن ريال الفضة مكتوباً عليها (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (التوبة آية ٣٤). (أمراء البلد الحرام ص٢٧٣).
كما وردت في عام ١٢٠١هـ صدقة أخرى لأهل مكة من سلطان المغرب، وكذلك صدقات أخرى من الهند (الدحلان، مرجع سابق، ص٢٧٧).

الفصل الرّابع

مكّة المكرّمة من القرن التاسع عشر الميلادي[١]

١٧٨٨ - ١٨٨٧م (١٢٠٣ - ١٣٠٥هـ)

في شهر مايو عام ١٧٧٠م صفر (١١٨٤هـ) ظهر في الأفق شهاب كبير عدّه المكيون مؤشراً لوقوع حوادث جسيمة، وذلك استناداً إلى حالة مشابهة وقعت في مكة قبل عدة قرون.

فقد ترك الفاسي مؤرخ مكة قصيدة تشير إلى أنّ أموراً جديدة ستحدث بعد ثلاثين سنة من ظهور هذا النجم. ومما جاء في هذه القصيدة:

إذا لاح نجم من المشرقين   كثير الشعاع طويل الذنب

إذا ما بدا فاحسبوا بعده ثلاثين   عاماً ترون العجب[٢].

ظهور الدعوة السلفية

لقد ظهر على أرض شرق الجزيرة العربية مصلح للإسلام[٣] كسب إلى

---

(١) من الملاحظ أن المؤلف لم يشر في هذا الفصل إلى المراجع التي استعملها إلا نادراً. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من معلومات هذا الفصل قد استقاها إما مشافهة من سكان مكة، أو من المراجع الأوروبية التي كتبت عن هذه الفترة وخاصة نيبور، ودوتي، وبوركهارت، وبيرتون وغيرهم ممن شاهدوا هذه الحوادث. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن كثيراً من المعلومات المدوّنة هنا يمكن الاطلاع عليها من خلال كتاب أمراء البلد الحرام الذي كان مؤلفه صديقاً للكاتب.

(٢) انظر الدحلان: مرجع سابق ص٢٥٠.

(٣) هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي: زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب. ولد ونشأ في العيينة (في نجد) ورحل مرتين إلى الحجاز، فمكث في المدينة مرة قرأ بها على بعض أعلامها. وزار البصرة والأحساء. وعاد إلى نجد، فسكن «حريملاء» وكان أبوه قاضيها. ثم انتقل إلى العيينة، ناهجاً منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام. ثم قصد الدرعية (بنجد) =

جانبه أمراء[1] الدرعية، الذين ساندوه في دعوته، ثم تدريجياً آمنت بدعوته كل مراكز الجزيرة العربية.

موقف الأشراف من الدعوة السلفية

لقد كان هذا المصلح ينوي أن يعيد الحياة للإسلام بكل مالديه من قوة، ليس في الجزيرة وحدها، بل في كل مكان يستطيع الوصول إليه. وعلى مستوى مكة، فقد قدم إليها في أيام الشريف مسعود، ثلاثون عالماً وهابياً (سلفياً)[2] للدعوة إلى التوحيد الخالص، بين أصحاب العلم في مكة.

= سنة ١١٥٧هـ فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام، وقبل دعوته وآزره كما آزره من بعده ابنه عبدالعزيز ثم سعود بن عبدالعزيز، وقاتلوا من خالفه. وكانت دعوته التي جهر بها سنة ١١٤٣هـ الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله. تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، وعرف مَنْ اتبعه وشد أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد «إخوان مَنْ أطاع الله»، وسماهم خصومهم بالوهابيين (نسبة إليه)، وشاعت التسمية الأخيرة عند الأوروبيين فدخلت معجماتهم الحديثة، وأخطأ بعضهم فجعلها «مذهباً» جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومه. وكانت وفاته بالدرعية عام ١٢٠٦هـ، وله مصنفات أكثرها رسائل مطبوعة منها «كتاب التوحيد»، ورسالة «كشف الشبهات، وغيرها. (انظر الأعلام، ج٦ ص٢٥٧).

(١) هو الإمام محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، أول من لقب بالإمامة من آل سعود، في نجد. كان مقامه بالدرعية. وولي الإمارة بعد وفاة أبيه بسنتين ـ أو بأربع سنين ـ سنة ١١٣٩هـ، وحسنت سيرته وقويت شوكته. وكان يساعده أخوه «ثنيان»، وانفرد بعد وفاته بالحكم، وفي أيامه (١١٥٧هـ) وفد على الدرعية الشيخ محمد بن عبدالوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية، فتعاهدا على أن يكون محمد بن سعود «حارساً للدين وناصراً للسنة»، وأن يستمر ابن عبدالوهاب على الجهر بدعوته. واتسعت الإمارة فشملت أكثر نجد، ولم يبق خارجاً عن حكمه منها غير الرياض والأحساء والقصيم. وكان شجاعاً حازماً. توفي بالدرعية عام ١١٧٩هـ. (انظر الأعلام، ج٦، ص١٣٨).

(٢) وفي دراسة ابن عثيمين لهذا الموضوع يذكر:
تختلف المصادر حول الطريقة التي وصلت بها أخبار الدعوة الإصلاحية النجدية إلى الحجاز. فالمؤرخ المكي، أحمد دحلان، يقول: إن الوهابيين ـ يعني قادة الدعوة ـ أرسلوا ثلاثين عالماً إلى مكة المكرمة في عهد الشريف مسعود بن سعيد (١١٤٦ ـ ١١٦٥هـ). وحين باحثهم علماء هذه المدينة، الذين كانوا قد سمعوا بظهور ابن عبدالوهاب، تحققوا جهلهم. وقعدوا أمام قاضي الشرع وأقام الدليل عليهم فكفرهم وحبسهم. ثم منعهم أشراف الحجاز بعد ذلك الحج. وما ذكر الدحلان، يحتاج إلى مناقشة. فعدد العلماء الذين قال إنهم أوفدوا من المستبعد أن يكون حقيقياً؛ لأن الدعوة كانت حينذاك في بدايتها، لا داعي لإكثار العدد إلى =

وكذلك طلب الاعتراف بالحق الشرعي لهؤلاء وأتباعهم، في أداء فريضة الحج، دون إعاقة. ولقد لقي هذا الوفد معاملة غير لائقة، بحسب مايرويه مؤرخو مكة في هذا الصدد. لقد كان هؤلاء السلفيون يعيدون الكرة كلما تسلم حاكم جديد السلطة في مكة دونما إحراز نجاح كبير. واستناداً إلى التقارير الخاصة بهذا الموضوع، لم يعر المكيون هؤلاء اهتماماً كبيراً. فقد عرض الشريف سرور على هؤلاء أداء فريضة الحج مقابل دفع أموال طائلة، أكثر مما كان يدفعه الآخرون، الأمر الذي حدا بهم إلى رفض هذا العرض بفخر. وكرّر النجديون عرضهم بالسماح لهم بأداء فريضة الحج كلما تسلم الحكم في مكة شريف جديد، غير أن النتيجة دائماً تكون

= هذا الحد على أي حال. ولو أرسل وفد من هذا النوع ـ مهما كان عدد أفراده ـ لما ترك ذكره ابن غنام الذي كان يحرص كل الحرص على تدوين ماله علاقة بالأمور الدينية من حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته.

أما المؤرخ التركي، سليمان عزى، فيذكر في حوادث سنة ١١٦٣هـ أن شريف مكة أخبر السلطنة العثمانية بظهور الشيخ ابن عبدالوهاب في نجد، وأنه سمع أن العلماء في جهته بدؤوا يتّبعونه، وأنه استشار علماء مكة بشأنه، فأشاروا عليه أن يحاول إقناعه بالعدول عن رأيه. فإنْ رفض ذلك فيجب قتاله. وعندما لم يردّ ابن عبدالوهاب على رسالة الشريف قبض ستين رجلاً من جماعته في موسم الحج، ونكل بهم. ثم نفاهم إلى بلادهم.

وواضح من رواية عزى أن معلومات شريف مكة عن دعوة الشيخ محمد مبنية على السماع. وفي رواية دحلان، أيضاً ما يؤيد ذلك. وهذا ينطبق مع ما هو موجود في تاريخ ابن غنام عن الدور الذي قام به بعض العلماء النجديين المعارضين لدعوة الشيخ من تشويه لحقيقتها في الحجاز. ولذلك فإنه من المرجح أن تلك الدعوة قد وصلت إلى الأشراف، أول الأمر، مشوهة عن طريق خصومها في نجد.

ورواية عزى تفيد، أيضاً، أن الذين سجنهم شريف مكة لم يكونوا وفداً من العلماء. وهذا ما تؤيده رواية ابن بشر من أن ذلك الشريف سجن حاج نجد سنة ١١٦٢هـ. وهذا المؤرخ النجدي يقصد، بطبيعة الحال، أن المسجونين كانوا من أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ومن المحتمل أنه كان من بين أولئك الأتباع من دفعهم حماسهم للدعوة إلى الجهر بمبادئها في موسم الحج.

ولعلهم كانوا غير مؤهلين من الناحية العلمية لإزالة الصورة القاتمة التي سبق أن بثها في الحجاز معارضو الدعوة من النجديين. فلم يكن غريباً إذًا أن يتخذ الشريف حيالهم ما اتخذه من إجراءات ظالمة. (انظر عبدالله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١. ص١٢٣ ـ ١٢٥).

بالرفض. وفي أثناء حكم الشريف غالب تعدى ذلك إلى قتال هؤلاء. فقد أرسلوا يستأذنونه بالحج فأبى؛ لأنه كان ينظر إليهم نظرة المرتاب، ثم ما لبث أن جهز لهم جيشاً، فحدث الصدام المسلح بين الفريقين[1].

لقد وقفت مكة موقفاً سلبياً من هذه الحركة الإصلاحية. بالرغم من أن بعض مؤرخي مكة كتبوا مؤلفات مفصلة عن هذه الحركة. وهذه المؤلفات تروي سيرة محمد بن عبدالوهاب، وكيف أنه تمتع بأفضل تعليم في المدينة المنورة، وكيف أن أساتذته رأوا فيه عقلية فذة وصريحة؛ لأنه لم يسلّم ببعض الأراء التي أتى بها بعض علماء المسلمين، خلال القرون الثمانية الماضية. ولقد كان المكيون يستغربون قناعة محمد بن سعود بالآراء التي ينادي بها محمد بن عبدالوهاب، والتي تحض على نشر الإسلام الصحيح في الجزيرة العربية أولاً، ثم في بقية البلدان التي تدين بالإسلام ثانياً. ومنذ عام ١٧٤٠م (١١٥٣هـ) بدأت الحركة تحرز نجاحاً كبيراً في وسط الجزيرة العربية. لن نتطرق إلى هذه الحركة الإصلاحية إلا بالقدر الذي أثّرت به في الحجاز عامة، وعلى مكة المكرمة بصورة خاصة.

خصائص الدعوة السلفية

لقد كانت السمة التي تميز بها محمد بن عبدالوهاب كونه عالماً تثقف بالعلوم الإسلامية، وفهم مقاصدها وأسرارها، واستطاع بجدارة تامة أن يبرز

---

(١) كان من الطبيعي أن يهتم الأشراف بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد. ثم قيام الدولة السعودية على أساسها. وما أن قويت شوكة السعوديين حتى منعهم أشراف الحجاز من أداء فريضة الحج، وقد كان ذلك في عهد الشريف مسعود. وهذا الموقف العدائي قد سار عليه خليفته أخوه مساعد الذي حدث في آخر عهده انفراجٌ مهّد الطريق لوصول السعوديين إلى الحج، ولمّا تولى بعده أحمد بن سعيد تحسنت العلاقات نوعاً ما، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً فقد أبعد هذا الشريف وخلفه ابن أخيه سرور بن مساعد، الذي قضى على محاولة التفاهم بين الأشراف والسعوديين. فعادت العلاقة إلى سابق سوئها، ولم يسمح لأتباع الدرعية بالحج إلا في سنة ١١٩٧هـ بعد أن تودد قادتها إلى شريف مكة، وأهدوه هدايا ثمينة، على ما يرويه ابن غنام في تاريخه. على أن السماح لهم بالحج لم يكن إلا لسنة واحدة فقط.

وحين توفي الشريف سرور سنة ١٢٠٢هـ خلفه في الحكم أخوه غالب، الذي لم يكتف بمنع الحج فقط، بل قام بأعمال عسكرية عديدة ضد خصومه في نجد. (العثيمين، ج١ ص١٢٥ ـ ١٢٨).

الإسلام بالصورة الصافية النقية، كما جاء به الرسول ﷺ. هذه الصورة لم تكن واضحة لكثير من علماء عصره، الذين تركوا منابع الإسلام الأولى وهي القرآن الكريم والأحاديث النبوية، واعتمدوا على اجتهادات المتأخرين. وأكثر هذه الآراء والاجتهادات لم تكن زمن الرسول، وإنما جاءت نتيجة التطورات المستمرة لمختلف المذاهب عبر مختلف القرون، مما حال بين المسلم ومنابع التشريع الأولى، الأمر الذي أصبح معه كثير من المسلمين يهتمون بالقيمة الترتيلية للقرآن الكريم والسنة النبوية، دون البحث عن المعاني المستفادة منهما، تاركين ذلك إلى المؤلفات التي تخص علم الفقه وعلم الشريعة، التي تبحث في ذلك من خلال المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة.

لقد كانت فكرة ابن عبدالوهاب أن يربط الناس بمنابع التشريع الأولى، ويتخطى الفجوة التي تشغل الناس في عصره وتبعدهم عن الإسلام الصحيح. ولقد كان المحيط الذي نشأ فيه محمد بن عبدالوهاب في وسط الجزيرة محيطاً مناسباً، إذ لا يوجد محيط آخر مشابه، لم يتغير إلا قليلاً، كما لا يوجد مكان أحسن من ذلك المكان، الذي تقترب فيه اللغة والعادات من تلك التي كانت في الأصل عند ظهور الإسلام.

لقد أدرك محمد بن عبدالوهاب الاختلاف بين الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ، والإسلام الذي يمارسه الناس في عصره. كان هذا الاختلاف يتمثل في نقطتين:

أولاهما: الرخاء وما ينتج عنه من مغريات تؤدي إلى التناقض التام بين تصورات الحياة الموجودة في القرآن، وتصورات الناس القائمة. فإذا دخلت بدعة من البدع ـ ولتكن وسيلة تسلية مثلاً ـ فإن العلماء يقفون منها موقف المعارضة، ولكن عندما يستفحل الداء، فإن العلماء يبدؤون بالتسليم للأمر الواقع. فعلى سبيل المثال حرّم العلماء التبغ منذ البداية بعدّه وسيلة تسلية سيئة، لكنهم فيما بعد تساهلوا في ذلك، وأفتى بعضهم بالسماح به.

لقد كانت المبادئ التي يدعو لها محمد بن عبدالوهاب لاتقرّ مثل تلك الفتاوى التي ظهرت باسم الدين، ففتاوى الشيخ تطالب بتحريم التبغ وغيره من وسائل الترف الأخرى مثل الموسيقا، واستعمال الحرير، والذهب والفضة في الملابس والحلي للرجال، وغيرها من العادات المنتشرة في الأقطار الإسلامية.

النقطة الثانية التي أثارت الغيرة الدينية لدى هذا المصلح هي الخطر الذي تسلّل إلى عقيدة التوحيد، وذلك عن طريق تقديس الأولياء. لقد كانت الاستعانة والاستغاثة بالأولياء خاصة عند كثير من الجهلة الجسر الذي يعبر منه هؤلاء إلى الشرك، أو عبادة أكثر من إله. ولقد كان تساهل بعض العلماء في قبول ذلك من أهم أسباب زيادة هذه المنكرات وانتشارها.

إن رسل الله وأولياءه لا يستطيعون بعد موتهم أن ينفعوا أو يضروا، فهذا أمر لله وحده. وزيارات المقامات والأضرحة هي من عمل الشيطان، وقد كانت المدينة المنورة تدنس من خلال تقديس قبر النبي ﷺ وقبور أصحابه الكرام. ولذا فإن تنقية الإسلام تستلزم القضاء على مثل هذه العادات الشركية، والتخلص من تلك المواضع والمواقع التي تساعد على انتشار الشرك.

ارتباط الدعوة بآل سعود

لقد التزم الشيخ محمد بن عبدالوهاب بالدعوة إلى الإصلاح وجعله هدف دعوته، وكان رائده الإخلاص في القول والعمل. وقد سخّر لذلك لسانه وقلمه، بجانب قوة ابن سعود وسيفه الذي تبنى هذه الحركة الإصلاحية ودعمها. لقد كانت مدرسة الإمام أحمد بن حنبل هي التي رفع لواءها الشيخ، وجعلها أساساً فكرياً للإصلاح. وربما تكون هذه المدرسة أكثر المدارس بساطة وقرباً من قلوب السكان، الذين يعيش معظمهم في جهل مطبق، مماثل للجهل الذي كان سائداً في عهد الرسول ﷺ. غير أن هؤلاء السكان لم يكونوا أقل انفتاحاً من ذي قبل، أمام تأثير دين بسيط ميّسر، يثبت كل يوم، وعن طريق الوسائل المادية، أنه يعمل بصفته قوة مؤثرة وحافزة.

لقد كانت العدالة البسيطة المصحوبة بالقوة عند أمراء آل سعود ـ حماة الدعوة السلفية ـ وأيضاً النجاح الباهر الذي أحرزوه، والغنائم الوفيرة التي كانت توزّع على الأتباع، قد أثارت الميل إليهم في مواقع معينة، والخوف

منهم في مواقع أخرى. وفي غضون سنوات قلائل نمت الدولة السعودية لتصبح القوة الرئيسة في جزيرة العرب.

موقف مكة والمدينة من الحركة الإصلاحية

لقد قدّر العالم فرصة قليلة لنجاح الدعوة السلفية. وربما كان تقدير سكان المدينتين المقدستين لنجاح هذه الحركة أقل من غيرهم؛ لأن ما كانت الدعوة الإصلاحية تقوم عليه، وتطالب بإلغائه، كان من بين متطلبات الحياة عند سكان المدينتين المقدستين. فالقبور والأضرحة والبيوت المقدسة كانت تجلب الأموال والفوائد للأدلاء والسدنة. والرسول ﷺ الذي كان يُتغنّى باسمه في كل عيد بأغاني المديح، تعدّ زيارة قبره في المدينة من أكبر الحظوظ. إن كل هذه الأمور تبدو على عكس ما يراه زعماء الإصلاح الجدد، الذين كانوا يرون أن معظم الجاليات الإسلامية في مكة والجنود وكذلك العوام تنتاب حياتهم الكثير من البدع. وأن بعض العلماء هنا يتساهل في قبول مثل هذه الأمور البدعية. وفي المقابل كان المكيون ينظرون بتعجب، كيف تجرأ على قول كل ذلك ابن أحد الفلاحين العاديين من داخل الجزيرة العربية، حيث تعدّ القراءة والكتابة أقصى مايستطيع الوصول إليه أحد هؤلاء.

يوجد في الجزيرة العربية العديد من الإمارات الصغيرة. وقد كان لدى حكام مكة الكثير من الإمكانات التي تؤهلهم لترتيب العلاقة مع هذه الإمارات. غير أن هؤلاء لم يفكروا ولو لمرة واحدة بإنشاء ترابط سياسي، يضم شعث هذه الإمارات المتفرقة. وكل ما كان يقوم هؤلاء بعمله، هو إرسال الحملات المتكررة لمعاقبة المذنبين، وكسر شوكتهم، والعودة بالغنائم منهم. وهكذا كان حال الحكام في مكة، يشبه إلى حدٍ ما حال السلطان في إسطنبول فهو صاحب أعلى مقام رفيع للإسلام يتعاملون معه، ويقدمون له الولاء والأعطيات، غير أنهم يقومون بترتيب أمورهم الداخلية بعيداً عن سلطته.

إن وجود قوة أخرى في الجزيرة العربية، تعمل على وحدة بعض أجزائها، كان كافياً لإثارة التنافس بين هذه القوة وحكام مكة، الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي، أو الرغبة، لتحقيق مثل هذه الوحدة. فكيف إذا اقترنت

بدء الصراع بين الشريف غالب والدعوة السلفية

هذه القوة بفكرة دينية لا تقبل أي تحديد لمجال نفوذها. ومع هذا فقد أهمل الشريف غالب ـ وعن غباء ـ الأهمية السياسية لهذه الحركة. وقد قابل ذوو زيد مبعوثي الحركة إليهم بغير ترحاب. أما سرور فقد كان همه زيادة عائدات الحج لنفسه عن طريق فرض رسوم إضافية على هؤلاء، إن أرادوا أداء فريضة الحج إلى مكة، غير مدرك بأن هؤلاء سيرفضون هذا العرض، وأن هذا سيزيد من استفزاز هؤلاء وحملهم على القيام بأعمال معادية. ولا سيما أن فكرة الانتشار والتوسع بالقوة كانت لدى هذه الحركة الإصلاحية، تأسياً بما فعله الرسول ﷺ، حينما نشر الإسلام في حظيرة الجزيرة العربية وخارجها[1]. والفارق الوحيد أن الحركة الإصلاحية كانت تقتصر على البيئة العربية في الجزيرة، حيث لم يفكر ابن سعود وأتباعه بخطط لفتح العالم الخارجي. أما سياسة هؤلاء تجاه المدن المقدسة، فكانت سياسة اللين، وعدم المساس بها، على غرار ما فعله الرسول ﷺ.

في هذه الأثناء كانت الحركة الإصلاحية، وسيادة أمراء الدرعية، تتوسع في جميع الاتجاهات، وفي مناطق كثيرة عدّها ذوو زيد من المناطق التابعة لهم والتي تدين لهم بالسيادة. وهكذا كان على الشريف غالب أن يثبت سيادته ويقوّي سلطته قبل أن يتفرغ لمنازلة أمراء الدرعية المنافسين الجدد لحكمه.

الشريف غالب يقضي على المعارضين لحكمه

لقد كانت الخطوة الأولى التي قام بها الشريف غالب عام ١٧٨٨م (١٢٠٣هـ) هي القضاء على إخوانه المعارضين له، الذين حرّضوا قبائل هذيل وثقيف المختلفة ضده. وفي عام ١٧٩٠م (١٢٠٤هـ) تغلب على أحد الأشراف الطموحين، الذي حاول أن يقود حركة ضده لمصلحة أبناء أخيه سرور غير البالغين لسن الرشد. وما أن تم القضاء على هذه الحركة، حتى قام ذوو حسن في الجنوب، وهددوا سلطة الشريف غالب، مما جعل القيام بحملة تأديبية للقضاء على هؤلاء أمراً ضرورياً.

---

(١) إن الرسول ﷺ لم يقاتل إلا دفاعاً عن النفس، أو مَنْ ناصبه العداء، أو مَنْ منعه من نشر الإسلام.

غـــزوات الـشـريـف غـــالـــب

تفرغ الشريف غالب بعد ذلك لخصومه الجدد. وقد أمضى الأمير الشجاع ستة عشر عاماً في حروب مع الدولة الفتية، بلغ خلالها عدد غزواته ستاً وخمسين حملة، لم يترك خلالها وسيلة لاسترداد أي منطقة إلا استعملها، غير أن الهجوم المضاد كان عنيفاً لا يكل، يقويه المبدأ الديني الذي يؤمن به الخصوم. ذلك المبدأ الذي واجهه المكيون بتحفظ ليّن. وقد تجاهل المكيون معنى هذه الحركة الإصلاحية حتى أصبح الوقت متأخراً جداً لتوجيهها أو السيطرة عليها. وزاد من نجاحها أن الأمير عبدالعزيز وابنه سعود كانا ليّنين في معاملة المكيين، فقد تركا بعد النصر الكامل كل شيء لا يتعارض مع مذهبهما على ماهو عليه، بحيث بدا للأشراف والمكيين أن القتال الدائر هو لمصالح دنيوية فقط. لقد أظهر الأشراف فيما بعد عن طريق الممارسة العملية بأنه ليس المذهب السلفي هو الذي استفز مقاومتهم. كما أظهر بعض العلماء المكيين إعجابهم بشخصية الإمام محمد بن عبدالوهاب، الذي استطاع أن يجعل من البدو الأميين مثالاً يحتذى في النظام والهدوء. لقد برز وبصورة جلية أنَّ دافع البقاء في السلطة هو المحرك الوحيد لهذه الحروب. والناس العاديون والعلماء في مكة وذوو زيد ومواطنوهم أدركوا جميعاً بأن مصالحهم الدنيوية المشتركة لا تتفق مع الحركة الإصلاحية الجديدة.

لم يتوقف الشريف غالب منذ عام ١٧٩١م (١٢٠٥هـ) عن إرسال الحملات إلى المناطق التي كانت تتبع اسمياً إمارة مكة. هذه المناطق التي دانت بالولاء لسلطة الدولة السعودية بسهولة، نظراً لإهمال سادتهم القدامى لهم. فقد أرسل غالب قوات نحو الجنوب اجتازت قوات منطقة بيشة، وقوات أخرى نحو الشمال والشمال الشرقي حتى القصيم وما وراء المدينة، وقوات نحو الشرق تجاوزت حدود منطقة الطائف. وقد أمر أخواه عبدالمعين وعبدالعزيز وصهره عثمان المضايفي بالتجول باستمرار في مختلف أرجاء البلاد.

غالب يطلب مـسـاعـدة أمـراء الـحـج

وقد طلب الشريف غالب المساعدة من أمراء الحج الشامي والمصري، غير أنه لم يجد أذناً صاغية. ففي بلاد الشام والعراق كان يخشى من اسم الوهابيين، بحيث إن الضباط الذين يقومون بمرافقة قوافل الحج، لم تكن لديهم أدنى رغبة في الاحتكاك مع هؤلاء. يضاف إلى ذلك أن البعثتين اللتين أرسلهما إلى

إسطنبول عامي ١٧٩٣م (١٢٠٧هـ) و ١٧٩٨م (١٢١٢هـ) لطلب المساعدة والنجدة عادتا خاليتي الوفاض[1]. فقد كانت سياسة التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام السلطة. فبدلاً من إرسال المساعدة المطلوبة، أرسل السلطان في نهاية عام ١٧٩٨م إلى المدن المقدسة نداء يأمر فيه بالاستعداد لمقاومة أي هجوم متوقع من جهة الفرنسيين، الذين احتلوا مصر، وربما يقومون باحتلال مكة والمدينة.

أمام ذلك كله لم يكن أمام شريف مكة سوى الاعتماد على قوته الذاتية، التي يبدو أنها لم تجد نفعاً. لقد كان بإمكانه فقط الاعتماد على السكان القاطنين في المناطق الشاسعة المتاخمة لحدود الدولة السعودية، لو كان باستطاعته حمايتهم من الهجمات التي تشن عليهم. غير أن الحديث عن ولاء هؤلاء لسلطة الحكم في مكة أمر مشكوك فيه؛ لأن حكام مكة لم يكونوا يقدمون لهؤلاء سوى التأديب المؤثر، عقاباً على أدنى مخالفة تصدر عنهم. لهذا لم يكن هناك أدنى ملامة توجه لهؤلاء إذا استجابوا للدعوة السلفية لأول وهلة، بعد الانسحاب السريع لممثلي السلطة الاسمية في مكة. وبجانب ذلك فقد كان تأثير الحركة السلفية مزدوجاً في هؤلاء، فقد جلب لهم الطمأنينة والأمن في ظل دولة قوية، كما جلب لهم الاحترام والتقدير.

إقبال البدو على الدعوة السلفية

ومنذ القدم لم تستطع المدن المقدسة في الحجاز أن تُخْرج هؤلاء البدو من حيّز الجهالة، وتربطهم بالتعاليم الإسلامية عن طريق تعليم هؤلاء وإرشادهم، على عكس مافعلته الحركة الإصلاحية، التي تمكنت وخلال سنوات قليلة من بناء مجتمع سليم العادات والطباع من هؤلاء البدو، الذين يئس سكان المدن من تربيتهم وتعليمهم. وهكذا فلم يتم إصلاح البدو عن

---

(١) ذكر الدحلان أنه في شعبان من عام ١٢٠٧هـ أرسل مولانا الشريف للدولة العلية يخبرهم بظهور أمر الوهابية، وأرسل لذلك السيد محسن بن عبدالبر الحمدوي والسيد حسينا مفتي المالكية، فلم تكترث الدولة لهذا الخبر ولم تلتف إليه.
كما ذكر في حوادث عام ١٢١٢هـ: أرسل مولانا الشريف الشيخ أحمد تركي للدولة العلية يستنجدهم ويطلب منهم الإعانة على دفع الوهابية فلم يجيبوا دعوته، ولم يلتفتوا لذلك ولم يكترثوا به، فما زال قائماً بدفعهم وحده (انظر الدحلان ص٢٨٤ و٢٨٨).

طريق الحركة السلفية فحسب، بل تم تجديد إسلامهم لأول مرة. فقد كانت جهالتهم الشديدة، هي أشبه ما يكون في العودة إلى الكفر والضلالة.

هدنة بين أمراء الدرعية وشريف مكة

لقد وجد الأمير غالب أن دولة أبناء قتادة ينقصها المال والسلاح في مواجهتها لجماعة دينية فتية ومتماسكة؛ لذا قرر بعد حج عام ١٧٩٩م (١٢١٣هـ) أن يعقد مع الأمير عبدالعزيز أمير الدرعية اتفاقية تضمن تحديد الحدود بين القوتين المتحاربتين. وحسب نصوص هذه الاتفاقية اعترف أمير الدرعية بعدم التدخل بشؤون القبائل المحيطة بالأماكن المقدسة، والقبائل القاطنة حول الطائف، وبعض المدن الأخرى، في مقابل السماح له ولأتباعه بالوصول إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج. وهذا الشرط يذكرنا باتفاقية الهدنة بين الرسول ﷺ وقريش (صلح الحديبية) عام ٦٢٨م (٦هـ)، التي كان من أهم بنودها دخول المسلمين مكة لأداء العمرة.

الأمير سعود يؤدي فريضة الحج

في شهر مايو من عام ١٨٠٠م (١٢١٤هـ) غادر الدرعية جمع كبير من الناس بقيادة الأمير سعود لتأدية فريضة الحج. وقد استقبلهم الشريف غالب وقدم لهم كل التسهيلات الممكنة. وأسرع بإصدار أوامره لرجاله لتسهيل مهمة هؤلاء. وقد تبادل الأميران الهدايا الجميلة، وبدا وكأن النزاع قد حل بينهما إلى الأبد، بالرغم من بعض المناوشات بين بعض الجنود من كلا الطرفين على جبل عرفات. لكن هذا الهدوء النسبي الظاهري لم يستمر طويلاً، فقد بدا واضحاً التفوق العسكري لأمراء الدرعية على منافسيهم من أبناء قتادة. ماذا كان بإمكان عبدالعزيز أن يفعله، إذا كانت القبائل المحيطة بإمارة مكة والتي انضوت تحت راية الدعوة السلفية، وأخذت تمارس الدعاية الناجحة لهذه الدعوة بين جيرانها، غير مبالية بالفصل السياسي بين الإمارتين المتنازعتين؟ لقد تسبب ذلك في الكثير من القلاقل، الأمر الذي عدّه أمراء مكة نقضاً للاتفاقية من جانب أمراء الدرعية. وقد صادف خلال عام ١٨٠١م (١٢١٦هـ) أن قامت قبائل تدين بالولاء للدولة السعودية، باحتلال ميناء حلي، الذي كان يشكل الحدود الطبيعية الجنوبية لإمارة مكة المكرمة. فقام الشريف غالب بطردهم منها، كما قام بتأديب سكان حلي أنفسهم بلا رحمة بسبب عدم إخلاصهم، حيث تم بيع أطفالهم عبيداً لأهل

عودة التوتر بين أمراء الدرعية وأشراف الحجاز

مكة، وكأنَّ آباءهم كانوا كفاراً. وفي عام ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) حضر سكان حلي إلى مكة نادمين على فعلتهم متوسلين إلى سادتهم لإرسال حامية عسكرية تصد عنهم الهجمات التي يتعرضون لها. فأمر شريف مكة بإرسال عدد من المحاربين معهم. ولكن هؤلاء طردوا من جديد بعد ثمانية أشهر. وبجانب حلي عانت القنفذة من هجمات قوية ضدها. وبدا واضحاً وجلياً أن بعض قبائل زهران ـ وهم حلفاء قدماء للأشراف ـ عملت على الارتباط السياسي مع زعماء نجد. وهكذا بدا وكأن الجنوب بأسره يدين بالولاء لأمراء آل سعود بالدرعية. وعندما كاتب الشريف غالب نظيره أمير الدرعية حول مثل هذه الحوادث، تخلّى الأخير عن مثل تلك التصرفات المنفصلة لبعض زعماء القبائل. أما فيما يخص دعوة القبائل للتوحيد، فقد رفض أن يكون هناك أي اتفاق بين الطرفين حول التخلي عنها. وإزاء ذلك كله أرسل الشريف غالب وفداً إلى الدرعية يضم أشرافاً مرموقين وأحد شيوخ البدو، إضافة إلى صهره عثمان المضايفي ليقوموا بتجديد الاتفاق بين الطرفين.

عثمان المضايفي يؤيد الدعوة السلفية

كان صهر غالب عثمان المضايفي رجلاً نشيطاً ومثقفاً. وقد انحاز عثمان إلى جانب أمراء الدرعية. ولا بد من وجود أسباب مهمة دفعته إلى الانحياز إلى جانب خصمه. فقد يكون الطموح الشخصي، وربما التذمر من الشريف غالب من الأسباب التي دعته إلى ذلك. غير أن من أهم الأسباب هو ميله إلى الدعوة السلفية. لقد عقد عثمان اتفاقات سرية مع الأمير عبدالعزيز وابنه سعود. وفي طريق عودة الوفد إلى مكة، انفصل عثمان عن زملائه، واحتل مع بعض رجاله مركزاً قوياً قرب الطائف وأصبح من أكثر العاملين نشاطاً في القضاء على قوة غالب[1].

قام عثمان بالتعاون مع أمير بيشة بهجوم على الطائف في فبراير عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ)، وقد أسرع الشريف غالب لمساعدة أميرها أخيه عبدالمعين. غير أن عثمان أجبرهما على التخلي عنها؛ لأنهما علما أن القوة

---

(١) المركز الذي احتله عثمان المضايفي يعرف ببلدة (العبيلاء) بين تربة والطائف (انظر العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية ج١ ص١٣٢).

الرئيسة لعثمان وأمير بيشة هدفها المدن المقدسة وليس الطائف. وهكذا فتحت الطائف وأصبح أميرها عثمان نفسه، الذي أرسل إلى الأمير سعود خبر الانتصار المفرح. فتقدم جيش الأمير سعود حتى وصل على بعد ثلاثة أيام من مكة. وكان ذلك في موسم الحج الذي ضم في ذلك العام الكثير من الحجاج المغاربة، إضافة إلى سلطان مسقط، وكثير من الحجاج الآخرين. وقد قام الشريف غالب بآخر محاولة يائسة حين طلب من أميري المحمل الشامي والمصري تقديم المساعدة، لكنّ الاثنين اكتفيا بتبادل حذر للرسائل مع الأمير سعود، وبذلك سحبا معهما آخر أمل للشريف في الحصول على المساعدة المطلوبة للقضاء على خصومه.

مكة تدخل تحت حكم آل سعود

أمام عدم المبالاة التي أبداها الموظفون التابعون للسلطة العثمانية، في عدم نصرة شريف مكة، قرر هذا الأخير الرضوخ لخصمه، وذلك بأن انسحب إلى آخر حصن لا يمكن احتلاله من قبل الخصوم، ألا وهو مدينة جدة. ففي عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) قرر الشريف الالتجاء إلى جدة. التي كانت تحوي سوراً عالياً تحميه بعض المدافع والجنود. وقد كان هذا كافياً لصد هجمات الخصوم. لقد أدرك الشريف بأن انسحابه من مكة سيتمخض عنه تسليمها. ومن المحتمل أن تكون خطة التسليم قد تم تحديدها من قبل الشريف نفسه. لقد قاد المباحثات الخاصة بمراسيم تسليم المدينة المقدسة الشريف عبدالمعين أخو الشريف غالب، حيث أرسل إلى الأمير سعود وفداً من المكيين المرموقين والعلماء[1]. وقد قدّم هؤلاء الولاء لأمير الدرعية

(١) ذكر الدحلان أن الشريف عبدالمعين أرسل كتاباً إلى الأمير سعود مع القائد حامد بن سليم آغا وطلب منه أماناً لجيران بيت الله الحرام، وأن يكون هو عامله فيها وأن أهل مكة تحت طاعته. كما أرسل أهل مكة رسلاً من أفاضل العلماء وأهل البيت النبوي لأجل صيانة سكان البلد الأمين فتوجه الجميع واجتمعوا بالأمير سعود بوادي السيل وتحدثوا معه وطلبوا منه الأمان لجيران البيت الحرام وأنهم يدخلون في طاعته، فقال لهم إنما جئتكم لتعبدوا الله وحده وتهدموا الأصنام والطواغيت ولا تشركوا بالله الذي يحيي ويميت، فأجابه الشيخ طاهر بقوله: والله ما عبدنا غير الله. فمد لهم يده، قال: عاهدتكم على دين الله ورسوله، توالون من والاه، وتعادون من عاداه. والسمع والطاعة. فعاهدوه على هذا المقال، فعند ذلك كاد أن يطير من السرور والفرح، وقال: أسجد لله شكراً، فقد أولانا =

باسم عبدالمعين نفسه وباسم سكان مكة. لقد كانت الكلمات التى ساقها الوفد تعبيراً عن الولاء والطاعة والإيمان بالدعوة السلفية، وكان هذا الإعلان صريحاً وبدون تحفظ، أدرك معه الأمير سعود بأن الخصوم، قد عادوا إلى حظيرة الإسلام الصحيح.

إزالة مظاهر البدع

في نهاية أبريل من العام نفسه (الثامن من محرم ١٢١٨هـ) دخل الأمير سعود المدينة المقدسة باحتفال بهيج، حيث قدم الشريف عبدالمعين وعلماء المدينة البيعة للأمير الجديد، الذي ألقى خطبة أمام الجماهير المحتشدة. وهكذا كان لسيف الأمير الجديد الفضل الأكبر في العودة إلى منابع الدين الأصيل. وفيما تلا ذلك من أيام كان أهل مكة يمدون يد العون للحاكم الجديد، ليقوم بتحطيم وإزالة كل القباب المقامة على المزارات والقبور، وجمع كافة غلايين التبغ، وكذلك الآلات الموسيقية التي كومت ثم أحرقت. وقد منعت ألفاظ التمجيد البدعية كافة، سواء في الدعاء في أثناء الصلاة أو في أي مناسبة أخرى[1]. وقد كان على سكان المدينة المغرورين بعلمهم، أن يصححوا كثيراً من أمور دينهم، ويتعلموا من هؤلاء القادمين الجدد.

= أرضه عزّاً لنا وفخراً. وأمر كاتبه أن يكتب الأمان: «بسم الله الرحمن الرحيم، من سعود ابن عبدالعزيز إلى كافة أهل مكة والعلماء والأغاوات وقاضي السلطان. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه، إنما ندعوكم لدين الله ورسوله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران، الآية: ٦٣]. فأنتم من وجه الله ووجه أمين المسلمين سعود ابن عبدالعزيز وأميركم عبدالمعين بن مساعد، فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام» (انظر الدحلان، مرجع سابق، ص٣٠٠ ـ ٣٠١).

(١) ومما عمله الأمير سعود بن عبدالعزيز أيضاً أنه قام بإلغاء الضرائب الجائرة. والمناداة بالمواظبة على الصلوات جماعة خلف إمام واحد، ثم كتب رسالة إلى السلطان العثماني سليم الثالث يخبره، بما حدث، ويطلب منه أن يمنع والي دمشق ووالي القاهرة من إرسال المحمل الذي تصحبه الطبول والمزامير (انظر العثيمين، مرجع سابق، ج١، ص١٣٣ ـ ١٣٤).

حصار جدّة

تقدم الأمير سعود لحصار مدينة جدة لمدة أسبوع، تكبد خلاله خسائر فادحة، فعدل عن خطته، وتوجه في طريق عودته إلى وادي مر الظهران، حيث أخضع الأشراف القاطنين هناك، وعين عليهم أميراً من ذوي بركات، وغادر بعدها إلى موطنه، تاركاً حامية صغيرة في مكة المكرمة.

اعتقد الأمير سعود بأن نواة عقيدة التوحيد، التي غرسها سوف تؤتي أكلها في مكة، دونما إجبار خارجي. وقد تبين له فيما بعد أن هذا الاعتقاد كان خاطئاً. ففي يوليه (ربيع الأول) عاد الشريف غالب، وتمكن من دخول مكة المكرمة بسهولة. ثم استأنف القتال منها ضد صهره عثمان وأمير بيشة مرة أخرى. وفي خلال موسم الحج التالي ترك أمير الحج الشامي ١٥٠ جندياً تلبية لطلب الشريف غالب. ومن خلال هذه القوة وبمساندة المدافع التي جلبها من جدة إلى مكة، استطاع الشريف غالب أن يبعد الحصار عن المدينة المقدسة. لا بل تقدم بعد فترة وجيزة لاحتلال ميناء الليث، عن طريق عملية مشتركة في البر والبحر، أعادت الميناء الذي كان منذ القديم تابعاً لإمارة مكة المكرمة. حيث أحرز أحد قواده وهو الشريف راجح من الشنابرة، نجاحاً كبيراً في ذلك، وفي المقابل فقد خسر قبائل حرب في شمال ينبع، لانحيازهم إلى صفوف خصمه. وفي هذه الأثناء قدم الشريف غالب يد العون إلى سفينتين إنجليزيتين رستا في ميناء جدة، ولكنه لم يحصل منهما على مقابل، فقد كانت جدة تحت سيطرته وسلطانه.

محاولة غالب استعادة مكة

ماذا تجدي هذه المكاسب جميعاً، في ظل عدم توافر الأمن السائد في كل مكان؟ إن اضطراب حبل الأمن قد قطع واردات مكة. وأمير الحج الشامي الذي عوّل على نجدته لم يؤمّن قوات جديدة فحسب، بل أمر بعودة القوات القديمة، حيث قام بدفع مبالغ مالية لعثمان المضايفي، أمير الطائف، لقاء حماية عودة هذه القوات. لا بل إن عدداً كبيراً من الأشراف العبادلة وآل بركات والمناعمة وغيرهم قد تركوه وانضموا إلى المعسكر الآخر. وقد وصل الأمر إلى أن أبناء إخوته وأبناء الأمير سرور الغيورين على قوته قد

انفضوا من حوله. وزاد في الأمر سوءًا أنه أمر بقتل بعض قادة قواته من العبيد.

وهكذا أصبحت مكة المكرمة محاطة بجدار من البدو المعادين، الذين لم يكن بالإمكان اختراقهم إلا بصعوبة بالغة. وسبيل الاتصال كان فقط من خلال القوافل الصغيرة التي تذهب إلى جدة، من أجل جلب المواد الغذائية للجياع في المدينة المقدسة. لقد استغل الكثير من المكيين هذه الفرصة للهرب من مكة المكرمة، غير أن الأعداد الكبيرة منهم لم تستقبل بحفاوة في جدة.

حصار مكة

ومنذ أغسطس ١٨٠٥م (شوال ١٢٢٠هـ) صدرت أوامر الأمير سعود بمحاصرة مكة المكرمة رسمياً. وقد قام بالحصار كل من عثمان المضايفي، وأمير بيشة، وشيخ قبائل عسير، وقد برر الأمير سعود هذا الحصار بأن عدم التزام المكيين بالمواثيق قد أعطى الحق لقواته باحتلال مكة المكرمة. وهذه الحالة حصلت عندما نقضت قريش مواثيقها مع المسلمين، في بداية عهد الدولة الإسلامية، الأمر الذي فرض احتلال المدينة بالقوة. وزاد في الأمر سوءًا وجود المجاعة وتفشي مرض الطاعون. وكل من استطاع أن يهرب بجسده المريض من رقابة غالب أنقذ حياته في المعسكر المعادي.

اعتراف الشريف بسيادة الدولة السعودية

وفي فبراير من عام ١٨٠٦م (ذي الحجة ١٢٢٠هـ) فتح الشريف غالب باب المباحثات مع القوة المحاصرة للمدينة. وكان عليه في هذه المرة أن يعترف بسيادة الدولة السعودية، التي أصبحت شرطاً لا مفر منه. غير أن ذلك أفضل له من أن يخسر كرامته. وحسب نصوص الاتفاقية المبدئية، التي تمت الموافقة عليها من قبل الأمير سعود، أعيدت إلى الشريف غالب المناطق التي استولى عليها الأمراء الجدد. غير أن نشر الفكر السلفي والاعتراف بالسيادة لأمراء الدرعية كانا شرطين أساسين لابد من التقيد بهما[١].

---

(١) ولعلَّ من أهم الأسباب التي ساعدت الدولة السعودية الأولى على تحقيق النصر في نزاعها مع الشريف غالب ما يلي:

١ ـ أن أكثر القوات السعودية كانت تقاتل عن عقيدة آمنت بصحتها ونذرت أنفسها لحمايتها ونشرها. =

بعد المعاهدة ذهب الشريف غالب إلى جدة، حيث قام بتقوية الحامية الموجودة في الميناء، كما قام بتحصين ميناء ينبع وميناءي مصوع وسواكن. وربما كان ذلك احتياطاً للأمور الطارئة في المستقبل. ومن خلال وجوده في جدة، دبت الفوضى في مكة المكرمة، حيث حدثت مناوشات في الشوارع بين الأتراك وعبيد الأشراف، مما أوجب سرعة عودته إلى مكة المكرمة.

بدأ أقارب الشريف غالب يتآمرون عليه عند الأمير سعود. فصهره عثمان المضايفي طلب خلعه من السلطة؛ لأنه لا يفهم كيفية المحافظة على النظام. أما ابن أخيه عبدالله بن سرور الذي بقي في إسطنبول أربع سنوات يحاول ـ عبثاً ـ الحصول على لقب شريف مكة الكبير فقد سافر إلى الدرعية. غير أن الأمير سعود لم يلق أذناً صاغية لهذه المؤثرات، لا بل أصدر أوامره بوضع حد لتجاوزات خائب الأمل عثمان المضايفي، حينما قام بشن بعض الغزوات بواسطة البدو في المناطق التي كانت تتبع لسلطة الشريف غالب.

منع المحمل الشامي والمصري

في عام ١٨٠٧م (١٢٢١هـ) صدرت الأوامر بإعادة قوافل الحج الشامي والمصري. وقد كانت هذه القوافل تعاني من السلب والنهب. وقد منع هؤلاء من إحضار المحمل المزركش إلى البلاد المقدسة الأمر الذي عدّه

= ٢ ـ أن الدولة السعودية حينما دخلت مرحلة الصراع المسلَّح مع الشريف غالب كانت قوية. فقد وحَّدت منطقة نجد كلها، ووحَّدت معها المنطقة الشرقية من جزيرة العرب أو كادت توحِّدها، كما انضمت إليها خلال ذلك الصراع منطقة عسير.
وبذلك أصبحت الحجاز ـ باستثناء ساحلها ـ محاطة بمناطق نفوذ سعودية.
٣ ـ أن فئات من القبائل الحجازية انضمت إلى الدولة السعودية، إما لاقتناع زعمائها بمبادئ الدعوة الإصلاحية التي تساندها تلك الدولة، وإما رغبة في مشاركتها غنائم غزواتها الناجحة في أكثر الأحيان، أو خوفاً من التعرض لهجماتها.
٤ ـ تدهور الوضع الاقتصادي للشريف غالب نتيجة الحروب التي كان الإنفاق عليها باهظاً من ناحية، والتي سبَّبت قلة الحجاج في تلك السنوات من ناحية أخرى.
٥ ـ عدم مساعدة الدولة العثمانية للشريف غالب لأنها كانت غير مهتمة بالدولة السعودية في بداية الأمر، ثم أصبحت مشغولة بمشكلاتها الداخلية والخارجية، خاصة الغزو الفرنسي لمصر وما تلاه من تطورات (انظر العثيمين، مرجع سابق ج١ ص١٣٥ ـ ١٣٦).

الأتراك تحدياً لسلطتهم. وقد أدرك الباب العالي أن الأمر يتعلق بسمعة الدولة العلية، إذا لم تتم إعادة الأراضي المقدسة، التي فقدت، بدون أدنى تأخير. وأخيراً حصل القائد الداهية محمد علي باشا، الذي كان منهمكاً بإعادة فتح مصر من أيدي المماليك على الأمر بإخراج المنشقين المعادين للأتراك من البلاد المقدسة بمجرد أن تسمح له الظروف بذلك[(١)].

لقد استغرق القضاء على المماليك حتى عام ١٨١١م (١٢٢٥هـ) حين تفرغ محمد علي لتجهيز قواته للقضاء على الحركة المناوئة للسيادة العثمانية في الحجاز. وهكذا سادت الحركة الإصلاحية مكة لمدة خمسة أعوام كاملة. غير أن تأثير هذه السيادة كان مقتصراً على مظاهر الحياة العامة فقط. لقد باتت الأمور البدعية ممنوعة، بعد أن فقد الكثيرون من سدنة البيوتات المكية، وأماكن الزيارة سلطتهم، وأمر الناس أن يؤدوا الصلاة في المساجد بكل حزم. وقد أعطى هذا فرصة أكبر للإصلاح الداخلي، وقد أسهم ذلك في استيعاب بعض المكيين لبعض التعاليم، التي لم يكونوا يتقيدون بها في السابق.

---

(١) كان من نتائج دخول الحجاز تحت حكم الدولة السعودية الأولى بزعامة سعود بن عبدالعزيز ما يلي:

١ ـ أن مساحتها ازدادت كثيراً، فأصبحت تمتد من الخليج العربي إلى البحر الأحمر.

٢ ـ أن هيبتها ارتفعت في الأقطار الإسلامية، إذ أصبح الحرمان الشريفان في يدها، وهي الدولة المتمسكة بالشريعة إلى أقصى حد، المصمِّمة على منع كل ما من شأنه أن يخالف تعاليم الإسلام.

٣ ـ توقف الحج من بعض الأقطار الإسلامية لعدم رضا زعمائها بالتقيد بما تراه الدولة السعودية من الدين، وعدم إقلاع قادة حجاجها عمَّا هو من البدع، وإصرارهم على أن تصحبهم قوات عسكرية؛ الأمر الذي رأته تلك الدولة مهدداً لسلطتها في الحجاز. وقد أثَّر ذلك في الأوضاع الاقتصادية للبلاد.

٤ ـ إصابة الدولة العثمانية بضربة معنوية هائلة؛ لأن سلاطينها حرصوا دائماً على أن يظهروا بمظهر حرَّاس الحرمين الشريفين وخدَّامهما. وفي ذلك ما فيه من كسب زعامة العالم الإسلامي من الناحية المعنوية. وإذا كان السلاطين العثمانيون قد أدركوا خطر الدولة السعودية على نفوذهم قبل استيلائها على الحجاز، وحاولوا القضاء عليها عن طريق باشا بغداد فعجزوا، فإنهم صمموا بعد ذلك الاستيلاء على مضاعفة الجهود والبحث عمَّن هو في وضع أحسن من وضع ذلك الباشا ليقوم بمحاربتها. وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في حاكم مصر محمد علي باشا. (انظر العثيمين، مرجع سابق، ج١ ص١٣٦ ـ ١٣٧.

غير أن الحروب، التي لم تنقطع بين الطرفين، وما صاحبها من الجوع والمرض وخاصة مرض الطاعون الذي فتك بالناس، وانقطاع الموارد الخارجية عن المدينة المقدسة، أدت إلى تردي الأوضاع في كافة بقاع الجزيرة العربية على وجه العموم، وفي مكة المكرمة على وجه الخصوص. وقد ازداد الأمر سوءًا عندما وصل الخبر إلى المدينة المقدسة بأن سلطان الإسلام قد وجد الوقت الكافي ليتفرغ إلى مواطن الإسلام الأولى.

فشل الحملة الأولى

لقد فشلت الحملة الأولى التي غادرت مصر إلى الجزيرة في سبتمبر عام ١٨١١م (رمضان ١٢٢٦هـ) تحت إمرة طوسون بن محمد علي باشا، وكان على أفرادها الانسحاب سريعاً من وادي الصفراء. وقد أسهم الذهب الكثير، الذي قدمه القائد العثماني كأعطيات للبدو، إسهاماً كبيراً، تعادل في أثرها مفعول الأسلحة المصرية، في إنجاح الحملة الثانية، التي سيرت في بداية عام ١٨١٢م (١٢٢٧هـ). وفي بداية عام ١٨١٣م (محرم ١٢٢٨هـ) أرسلت قوات من ينبع في رحلة بحرية إلى مدينة جدة بهدف قتال آل سعود في مكة. غير أن المدينة المقدسة قد تم احتلالها بسرعة كبيرة[١]. ويبدو أن

---

(١) انطلق طوسون بن محمد علي باشا عام ١٢٢٦هـ بحملته البرية والبحرية إلى ينبع. وكان عدد أفرادها ثمانية آلاف مقاتل. وحين وصلت إلى البلدة الحجازية المشار إليها استولت عليها دون عناء. ثم زحف طوسون من ينبع صوب المدينة المنورة متخذاً إغراء القبائل الموجودة في المنطقة بالهدايا والأموال وسيلة لتمهيد الطريق أمام قواته. واستولى على بدر بسهولة. غير أنه حينما اشتبك مع القوات السعودية الكبيرة بقيادة عبدالله بن سعود في وادي الصفراء تكبَّد هزيمة ساحقة. وفرَّ مع من نجا مع جيشه عائداً إلى ينبع. ومن حسن حظه أن السعوديين لم يتعقبُّوا فلول قواته المنهزمة ويقضوا عليها. وبعد عودة طوسون إلى ينبع انتظر حتى قدمت إليه تعزيزات جديدة من مصر، كما وصلت إليه مبالغ كبيرة لتوزيعها على رجال القبائل. وقد نجح في استمالة بعض رؤساء قبيلتي حرب وجهينة الذين كانوا في الجهات المحيطة بوادي الصفراء. وكانت القوات السعودية قد انسحبت من تلك الجهات بعد انتصارها العظيم على طوسون معتقدة، فيما يبدو، أن الحامية التي تركتها في المدينة المنورة كافية لدرء الخطر عنها. إلا أن طوسون نجح في القضاء على الحامية نتيجة انتشار المرض بين أفرادها فاضطرت إلى الاستسلام في ذي القعدة سنة ١٢٢٧هـ. وكان لاستيلاء طوسون على المدينة المنورة دور كبير في رفع معنويته، وبثِّ الحماس والثقة في نفوس أفراد جيشه، وزيادة المنضمِّين إليه من رجال القبائل، مما فتح الطريق أمامه للتوغل =

علاقة الشريف مع محمد علي باشا

الشريف غالب قد تبادل الرسائل السرية مع محمد علي باشا بهذا الخصوص. ويرى بعض مؤرخي مكة بأن الشريف غالب ـ ونتيجة لما لاقاه من الدولة السعودية الفتية ـ بقي موالياً للأتراك. غير أن هذا الادعاء مبالغ فيه على الأرجح. فقد كان غالب وبقية ذوي زيد لا يثقون قط بالسلطة العثمانية. غير أن الشريف غالباً كان ذكيّاً جداً بإبقاء مثل هذه العلاقة معهم؛ لأنه كان يؤمن بأن الدولة السعودية، قد تستطيع وبمرور الزمن أن تصل من خلال وسائل الحرب العربية التقليدية، إلى مركز الدولة العظمى في المنطقة.

غير أن اعتقاده الجازم بأن الأتراك لن يسمحوا تحت أي ظرف من الظروف أن تؤخذ منهم كل الجزيرة العربية قد شجعه دائماً على استئناف القتال من جديد. ولما كان لا يعرف متى يستفيق الباب العالي من سباته، فقد كيّف نفسه باستمرار مع الأمور التي لا يمكن تجنبها[1].

لقد عرف الأشراف بخبرتهم، ما استنتجه ابن خلدون من دراساته التاريخية، أن منطقة غرب الجزيرة العربية بمواردها المحدودة، والخلافات المستمرة بين أبناء الطبقة الحاكمة فيها، قد جعلتها ذات دور ثانوي محدود. لذا فقد أدرك هؤلاء ضرورة تبعية الحجاز لمصر، والتي أثيرت فعليّاً منذ فتح قناة السويس. ومن هنا يمكن تبرير السرعة المذهلة للارتباط مع محمد علي باشا، دون الحاجة إلى أن تكون هناك صداقة حميمة مع الأتراك.

= في بقية الحجاز. وبالاتفاق السِّري مع الشريف غالب توجه بقواته إلى جدة، ودخلها دون مقاومة. ثم اتجه إلى مكة المكرمة، ودخلها بمساعدة الشريف غالب بعد أن تركتها الحامية السعودية بأمر من عبدالله بن سعود.وكان دخول طوسون لمكة في شهر محرم سنة ١٢٢٨هـ (انظر العثيمين) مرجع سابق، ج١، ص١٣٦، ١٣٧).

(١) يذكر الجبرتي أن الشريف غالباً كان ينافق الطرفين اللذين هما العثماني والوهابي ويداهنهما، أما الوهابي فلخوفه منه وعدم قدرته عليه، فيظهر له الموافقة والامتثال، وأنه معه على العهود التي عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك، ويميل باطناً للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذاهبهم وتعاقد مع الباشا، [محمد علي] أنه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم ومساعدتهم بكليته وجميع همته (انظر محمد أديب غالب، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، دار اليمامة. سنة ١٣٩٥هـ ص١٢٧ ـ ١٢٨).

الذهب والخيانة هما سبب النجاح

ويعترف المؤرخون الذين سروا بانتصارات الباشا، بأن الذهب والتصرفات الخيانية، كانت الأسلحة الرئيسة التي استعملها الباشا، ضد الحركة الوهابية وأتباعها. لقد استسلمت مكة لجيش محمد علي دون قتال تقريباً. أما الطائف فقد تم فتحها بمساعدة من الشريف غالب، حيث قبض على عثمان المضايفي أسيراً، وحمل إلى مصر، ثم أرسل إلى إسطنبول، لينال عقابه بالموت هناك[١]. وفي نهاية عام ١٨١٣م (١٢٢٨هـ) أتى محمد علي باشا، نائب السلطان في مصر إلى مكة، حيث استقبله الشريف غالب بحفاوة بالغة، مشوبة بالحذر الشديد.

لقد كان الانطباع مأساوياً، حين اقتيد زعماء الحركة الإصلاحية أسرى إلى مصر، بعد أن أوهموا أنه لن ينالهم سوء هناك. وقد كان ظهورهم في أسواق القاهرة مثار استغراب الطبقة المثقفة، التي كانت تنظر باحترام إلى الأصل النبيل الذي ينحدر منه هؤلاء، أما الرعاع فقد قابلهم بشيء من عدم التقدير والاحترام. وقد أرسل هؤلاء إلى إسطنبول، التي أمرت بوضع نهاية حزينة لمعاناتهم. لقد عرف الناس في الخارج بقتل هؤلاء، أما ماذا تعني حركتهم الإصلاحية فهذا لم يكن ليعرف عنه أي شيء. لقد كانت تصورات المرء في عاصمة الخلافة مملوءة بالحكايات الخيالية عن أحوال الجزيرة العربية. وكل ما ظهر بعد انتصارات طوسون في عام ١٨١٣م (١٢٢٨هـ) هو أن مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف عرضت أمام الناس على أطباق ذهبية، من خلال مواكب احتفالية كبيرة، تسير عبر شوارع العاصمة إسطنبول.

عزل الشريف غالب

كانت الشكوك العثمانية تدور حول الشريف غالب. هذه الشكوك وصلت إلى الحد الذي اتهم فيه بأنه عضو سري في الحركة السلفية. لذا قرر محمد علي أن يحقق ضربتين بحجر واحد، وأن يغتنم الفرصة لاستبدال رجل مطواع سهل العريكة بالرجل القوي في مكة. ويبدو أن الشريف غالب قد شعر بذلك،

---

(١) يذكر الجبرتي في عجائب الآثار، وكذلك الدحلان من أمراء البلد الحرام: أن الإمام سعود ابن عبدالعزيز عرض دفع فدية كبيرة تقدر بمائة ألف ريال لإطلاق سراح عثمان المضايفي، كما عرض الصلح مع محمد علي، لكن عرضه لم يقبل. (انظر الدحلان ص٣٣٠، وكذلك محمد أديب غالب، ص١٤٩ ـ ١٥٠).

وعلم أن محمد علي يضع له الشراك ليوقعه في الفخ. وكم كان سرور الشريف غالب شديداً حينما أمر محمد علي بإرسال القوات المصرية من جدة إلى الطائف، عبر طرق لا تمر عبر مكة، بحجة أنها لم تجد الماء الكافي في أثناء سيرها. وقد زالت حالة الشك تقريباً بين الطرفين عندما زار محمد علي الكعبة المشرفة، وأقسم له غالب من داخلها، بأنه لن يفعل شيئاً ضده. لكن نائب السلطان فهم هذا الإخلاص بطريقته الخاصة، وخطط مع ابنه طوسون مكيدة يوقع الشريف غالب في شراكها. ويقال إن نزاعاً حصل بين طوسون وأبيه محمد علي، سافر إثره طوسون إلى جدة. وقد رجا طوسون الشريف غالب خطياً، بأن يتوسط له في الصلح مع أبيه. وقد قام غالب بهذه المهمة، ورجا طوسون العودة إلى مكة، بعد أن طيب خاطر أبيه. وعندما عاد طوسون إلى مكة ملبياً دعوة الشريف غالب، أسرع الشريف إلى لقائه واستقباله، إلا أن طوسون أخذ غالباً أسيراً وطلب إليه إحضار أبنائه الأبرياء، وأبلغه بأن السلطان يريد رؤيته، وعليه أن يتوجه إلى القاهرة قبل المثول أمام السلطان بإسطنبول. ويقال إن أحد أتباع الشريف غالب الدهاة والمدعو أحمد تركي، الذي كان الشريف غالب يعتمد عليه كثيراً قد ساعد على خداع سيده، وتسليمه إلى طوسون. وقد تصرف محمد علي بسرعة فائقة إزاء هذا الانقلاب الذي لم يعلن عنه، حتى تم تعيين يحيى بن سرور (١٨١٣ ـ ١٨٢٧م) (١٢٢٨ ـ ١٢٤٢هـ) ابن أخي الشريف غالب مكانه. وكان على الشريف غالب أن يمضي بقية حياته حتى عام ١٨١٦م (١٢٣١هـ) في منفاه في سالونيك، يعيش من تعويض قليل حصل عليه لقاء أملاكه التي تركها في مكة قبل رحيله.

تعيين الشريف يحيى بن سرور

أما الشريف الجديد فلم يكن له أكثر من السيادة الاسمية. لقد أصدر محمد علي أوامره إلى الوالي العثماني الذي عيّنه عند مغادرته للحجاز، بأن يأخذ بنصائح أحمد بن تركي في كل الأمور المهمّة. أما المباحثات التي تتطلب الخبرة مع البدو ومع الأشراف، فعليه ألا يأخذ برأي شريف مكة فيها، بل برأي شريف آخر من الأشراف المناعمة (شمبر بن مبارك)، الذي أسندت له هذه المهمة.

إبراهيم باشا يواصل حملاته ضد الدرعية

استمر نائب السلطان العثماني محمد علي باشا حتى عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) يشرف بنفسه على تثبيت سيادته على البلاد المقدسة، وإخضاع القبائل القوية في غرب الجزيرة العربية لسلطته، بينما كان ولده طوسون يجوب الجزيرة العربية على رأس ألوية مهمة من الجيش في اتجاهات مختلفة. بعد موت طوسون كان على أخيه إبراهيم أن يواصل سير العمليات التي بدأت ضد الدرعية مركز الحركة الإصلاحية في الجزيرة العربية. وقد تمكن في عام ١٨١٨م (١٢٣٤هـ) أن يقلص نفوذ الدولة الفتية إلى إمارة صغيرة، لا تشكل أيّ أخطار سياسية في داخل الجزيرة العربية. غير أن هذه المهمة لم تكن سهلة. فقد أنفق من أجل الجمال التي استعملت لنقل التعزيزات التي أرسلها والده مبلغاً وقدره مائة وثمانون ألف دولار نمساوي (ماري تريسا). وبالرغم من أن نفوذ الدرعية قد انحسر عن المدن المقدسة، غير أن الجزء الأعظم من وسط الجزيرة العربية، قد شهد انتشاراً واسعاً لسيادة المذهب الحنبلي، الذي تبنته الدعوة السلفية. أما في مكة فقد كان أتباعه قلة، وقد أوردت بعض المصادر أن هناك ترحيباً بين سكان الحرمين بانتشار هذا المذهب، غير أن هذه الآراء هي من نسج الخيال، وخاصة في المدينة المنورة، التي كان الرأي العام فيها متعصّباً ضد الحركة الإصلاحية[١].

أعمال محمد علي في مكة

من المعروف أن محمد علي باشا قد فتح مصر والحجاز بتكليف من الباب العالي، لكنه بعد أن أنجز هذه المهمة أدار هذه المناطق، ومن بعده أبناؤه، باستقلال تام عن مركز الخلافة. لقد كان المحملان المصري والشامي يمثلان في الأماكن المقدسة رمزاً للسلطان العثماني. غير أن المكيين كانوا يعرفون أن المحمل المصري يمثل القوة الحقيقية، أما المحمل الشامي فيمثل الظل فقط. ولقد ازداد هذا الشعور عند المكيين، حينما قام محمد علي باشا قبل عودته في أبريل عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) بتنظيم المؤسسات الخيرية في الحرمين الشريفين، والتي كان ينفق عليها من عوائد تأتي من وادي النيل.

---

(١) هذا التعصب مرده إلى أن الدعوة السلفية أزالت معظم المزارات والقباب والأضرحة التي كان بعض الناس يرون فيها مصدر رزق يتكسبون منه، مع علمهم بأن هذا مخالف لقواعد الشريعة الإسلامية.

وهكذا فقد أصبح لسان حال كل مواطن محتاج في مكة يقول: أنا مدين في مأكلي وملبسي لله، ثم لأفندينا محمد علي. وبالرغم من أن المواطنين المكيين كانوا يحصلون سنوياً من الدرعية على كميات من القمح، وكان الخبز والمرق يوزع من قبلهم يومياً على الفقراء والمحتاجين، إلا أن ذلك لم يكن بمستوى مايقدم من قبل مصر. وحتى هذه الأيام (١٨٨٥م) يتذكر فقراء مكة نائب الباب العالي المؤسس الأول لهذه الهبات، التي لا يمكن الاستغناء عنها. وبجانب هذه الهبات قرر محمد علي صرف رواتب منتظمة للعلماء والوجهاء، وبهذا ضمن سكوت الناس عن التجاوزات التي حصلت من قِبَل الباشا. بعد موت المستشار أحمد تركي البارع ١٨٢٠م (١٢٣٥هـ) بقي الشريف يحيى بن سرور مستثنى من الاشتراك في إدارة الأمور. لقد اختار البشوات المعنيون وسيطاً آخر بديلاً عن تركي، وتركوا أمر تصريف شؤون الأشراف والبدو كما كان سابقاً بيد شمبر بن مبارك المذكور آنفاً. غير أن الشريف يحيى لم يسمح لقريبه ـ الذي لم يمارس أجداده منذ تولي الشريف حسن السلطة ـ استغلال محنة ذوي زيد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣). ففي بداية عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) وفي إحدى الأمسيات قام يحيى بطعن شمبر بن مبارك في المسجد الحرام، وتحصن في بيته، غير أن الباشا نصب المدافع باتجاه بيته، فطلب يحيى من الباشا السفر براً إلى مصر لمقابلة نائب السلطان هناك.

قتل الشريف شمبر

لم يذهب يحيى إلى مصر، بل ذهب إلى الشمال حيث قام بتجميع أنصار له من حرب، ليقوم بمواجهة ضد الباشا وأنصاره. لم يستطع أحمد باشا ممثل محمد علي في مكة أن يعين بديلاً ليحيى، وقام بإخبار والي مصر محمد علي باشا الذي أصدر أوامره بتعيين الشريف عبدالمطلب بن غالب، الذي خلف عمه المنفي سابقاً في أغسطس عام ١٨٢٧م (صفر ١٢٤٣هـ). وقام عبدالمطلب بالإجراءات الضرورية لمقاومة الحشود من حرب، بواسطة أنصاره وجيرانه من هذيل.

تعيين الشريف عبد المطلب مؤقتًا

لقد علّمت التجارب في الحجاز محمد علي باشا بأن الأَتراك يحتاجون دائماً إلى وساطة الأشراف للتعامل مع البدو. وبسبب الافتقار إلى النفوذ

الشخصي للأتراك، فإنهم يستطيعون الحصول على السيادة من خلال طريقين فقط: الأول هو التفوق العسكري الواضح، والثاني هو صرف كميات كبيرة من الذهب للترضية. ولما كان الأمر الأول شديد الصعوبة بسبب الظروف الجغرافية، فإن الأمر الثاني هو الوسيلة الملائمة لتحقيق الرغبات؛ لذا رأى محمد علي أن أفضل طريقة للتغلب على أي فرقة من بدو الصحراء، يجب أن يكون من خلال إغراء فرقة أخرى من هؤلاء، بواسطة الذهب الأصفر، ومن خلال قيادة الأشراف الذين يدين لهم هؤلاء بالاحترام والتقدير.

محمد علي يعين الشريف محمد

لقد استعمل محمد علي باشا اللعبة ذاتها مع الأشراف. فبالإضافة إلى ذوي زيد، فإن منافسيهم من العبادلة، الذين هم بالمستوى نفسه، يصلحون لهذه المهمة. لقد اغتنم محمد علي الفرصة ليستبدل بيتاً آخر اختير لهذا الغرض بذوي زيد، ألا وهم العبادلة، الذين كانوا في الظل منذ عام ١٦٦٧م (١٠٧٨هـ). لقد كان العبادلة وذوو زيد يحتلون مرتبة أعلى من ذوي بركات الذين دفعهم الأتراك إلى السلطة، وكذلك كانوا أكثر شهرة من العائلات الأخرى المشهورة، مثل: الشنابرة والمناعمة وغيرهم، مع أنهم لم يطالبوا بالحكم إلا نادراً. وكان ذلك من قبل الشريف محسن (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٣٢) في وقت من الأوقات، إلا أنهم كانوا يشتركون في المشاورات في كل المسائل المهمّة، بما فيها اختيار الشريف نفسه. لقد كان على ذوي زيد شراء رضا هؤلاء العبادلة بثمن غال في كثير من الأحيان؛ لأن غضب هؤلاء كان كافياً لإثارة المشكلات، وتدمير التجارة، وتهديد طرق المواصلات.

كان ممثل العبادلة في أثناء وجود محمد علي في الحجاز الشريف محمد (انظر ملحق رقم (٦) شجرة النسب الثالثة رقم ٥٨) الذي كان في الأربعين من عمره. وقد وقف بشجاعة إلى جانب محمد علي في حروبه، التي خاضها ضد قبائل عسير الصعبة المراس في الجنوب. وقد بقي الشريف محمد أميراً على هذه المنطقة حتى بعد عودة محمد علي إلى مصر. وفي عام ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ) أرسلت الحكومة المصرية قوات نظامية من مصر للمحافظة على النظام في عسير. وبعد انحسار سلطة آل سعود على الحجاز، فقدت المنطقة الجنوبية أهميتها العسكرية، وتركت فيما بعد دون مراقبة.

سافر محمد بن عون (هكذا يدعى لأن جده هو مؤسس العشيرة الجديدة لذوي عون) إلى مصر، وأقام فيها ثلاثة أعوام، تعرف خلالها على فن التعامل مع السادة الحماة الأجانب بدون إثارة المشكلات. هذا الفن الذي نسيه ذوو زيد، فسبب لهم المتاعب، بينما وعيه جيداً حسن عجلان وأبناؤه فاستفادوا منه. لقد كان تصرف محمد بن عون الذكي المعتدل سبباً في وصوله إلى الحكم (١٨٢٧ ـ ١٨٥١م) ـ (١٢٤٣ ـ ١٢٦٧هـ) خلفاً لسلفه عبدالمطلب.

وما أن وصل الخبر إلى الطائف حيث يرابط الباشا العثماني مع الشريف عبدالمطلب لمطاردة الشريف يحيى، حتى قام عبدالمطلب بطرد القوة التركية، وقام بتجهيز جيشه للحرب ضد الجنود المصريين. وكتب إلى ابن أخيه يحيى بأنَّ مصالح الجميع قد توحدت في ظل الظروف الجديدة.

صراع عبد المطلب من أجل البقاء

كسب الشريف محمد بن عون، بعد وصوله إلى جدة من مصر، ولاء كثير من المعارضين لحكمه، من خلال كيس الدراهم المملوء، الذي أعطاه إياه محمد علي قبل عودته. وفي هذه الأثناء قبل الشريف يحيى ومؤيدوه الشروط الحسنة المعروضة عليهم من الشريف الجديد، فانصرفوا عن مناوءته. أما عبدالمطلب فقد اتخذ موقفاً عدائياً. فقد وحّد أقاربه، بعضهم بالإقناع، وبعضهم الآخر بالقوة، وأرسل أخاه عليّاً لتحريض القبائل المعادية للحكومة. وقوّى نفسه بكل الوسائل الممكنة في الطائف. وأرسل العبادلة الموجودين هناك كافة إلى السجن. غير أنه بعد حصار استمر ٢٢ يومًا فرضه الشريف محمد وأعوانه والقوات المصرية على معسكر عبدالمطلب أذعن هذا الأخير، وتقدم إلى معسكر خصمه، بعد أن حصل على الأمان له ولأقاربه. وهناك قوبل بالترحاب. وبالرغم من ذلك فقد هرب في الليل مع أخيه يحيى. وقد تم القبض على يحيى لاحقاً بوشاية قام بها يحيى بن سرور. أما عبدالمطلب فقد بدأ رحلة تائهة في المناطق المجهولة من بقاع الجزيرة العربية المغلقة أمام التأثيرات الأجنبية، حتى سنحت له الفرصة في عام ١٨٣١م (١٢٤٦هـ) بالسفر إلى دمشق مع قافلة الحج الشامي، ثم واصل سيره إلى إسطنبول. ولم يكن عبدالمطلب ليجرؤ على القيام بالرحلة

إلى إسطنبول، لولا أن رأى أن الظروف السياسية في عاصمة الخلافة قد أصبحت مختلفة تماماً عن السابق.

ظهور الكوليرا في مكة

حاول الشريف محمد بن عون في السنوات الأولى لحكمه توسيع منطقة نفوذه إلى الحدود القديمة التي كانت لإمارة مكة سابقاً. وفي منتصف عام ١٨٣١م (١٢٤٦هـ) أصابت الكوليرا سكان مكة المكرمة لأول مرة[1]. وكان من بين ضحاياها أعداد لا حصر لها من الناس، من بينهم الباشا التركي. وقد تولى الأمر نائبه من بعده[2]. وخاض هذا الأخير في نهاية العام نفسه، هو وجنوده معركة غير متكافئة ضد القوات التركية غير النظامية الموجودة في مكة، والتي طالبت بدفعة مالية متبقية. وقد أجبر نائب الباشا على الانسحاب والعودة إلى مصر في نهاية ١٨٣١م (١٢٤٧هـ)؛ ولأن محاولات الشريف محمد بن عون في الإصلاح بين الطرفين لم تؤت ثمارها، فقد ترك الشريف مكة، وذهب إلى الهدا، وانتظر هناك نهاية هذا الصراع، الذي حسم لصالح القوات النظامية، التي بعد أن أحرزت النصر، قامت بنهب بعض المتاجر المكية، قبل أن تعود إلى ثكناتها.

---

(١) ذكر الدحلان أنه في شهر ذي العقدة من عام ١٢٤٦هـ حصل وباء بمكة لأول مرة، لم يعرفه الناس قبل تلك السنة. ثم بعد هذه السنة تكرر مجيئه بمكة مرات. لكنه ما جاء في السنين التي بعد هذه السنة، فإنه كان شديد الكثرة، مات فيه خلق كثير لا يمكن ضبطهم ولا إحصاؤهم. وكان ابتداؤه من شهر شوال من السنة المذكورة. وكان ابتداء وقوعه في التكرور والجَبَرْت، فلم يكترث الناس به، ولم ينزعجوا منه. ثم إنه في النصف من شهر ذي القعدة أصاب كثيراً من أهل مكة ومن الحجاج ومن كل صنف، ولم يزل يتزايد. واشتد أمره في أيام منى حتى صار الموتى مطروحين في الطرقات. ونزل الناس من منى والجمال محملة من الأموات. واشتد أيضاً بمكة بعد النزول من منى، وامتلأت الأسواق والطرقات من الأموات، وعجز الناس عن تجهيزهم ودفنهم. فخرج مولانا الشريف محمد بن عون بنفسه راكباً ومعه بعض أتباعه وصار يمر على بعض الطرقات والأسواق، ويأمر الناس بتجهيز الموتى ودفنهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه من الأكفان. وامتلأت القبور من الأموات فحفروا حفائر كثيرة، وصاروا يضعون في كل حفرة جملة من الأموات، وقاسى الناس من ذلك الوباء هولاً شديداً. واستمر ذلك الوباء إلى عشرين من شهر ذي الحجة، ثم ارتفع شيئاً فشيئاً (أمراء البلد الحرام، ص٣٤٩).

(٢) اسم الباشا التركي هو عابدين بيك وقد عينه محمد علي، أما نائبه فهو خورشيد بيك.

ثورة عسير

في نهاية عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) قدم من مصر أحمد باشا الذي مثل الحكومة في مكة في وقت سابق. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الخلافات بينه وبين شريف مكة محمد بن عون. وفي هذه الأثناء قام أحد الأمراء الجدد في عسير بعدد من الهجمات على بلاد بيشة وزهران وغامد وبعض القبائل الأخرى. وقد خرج شريف مكة لحسم القضية وكان ـ حسب اعتقاده ـ قريباً من تحقيق هدفه بتخويف الأمير الثائر، غير أن نقص الإمدادات التي طلبها عبثاً من أحمد باشا حالت دون تحقيق هذا الهدف. وفي المقابل اتهم الباشا الشريف وحمله مسؤولية الفشل. وهكذا تبادل الفريقان الاتهامات برسائل بعثوها إلى نائب السلطان في مصر محمد علي باشا، الذي نفذ صبره من الطرفين، فأصدر أوامره إليهما بالمثول إلى القاهرة عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ). وقد ترك كل واحد منهما نائباً له في مكة، وسافر ليعرض مسألته أمام ممثل الباب العالي. وبعد نقاش طويل وافق محمد علي على اقتراح أحمد باشا بعودته أولاً إلى الحجاز ليقوم بإخضاع منطقة عسير خلال ثلاثة أشهر، وهكذا كان على الشريف أن يبقى ضد رغبته في القاهرة.

عاد أحمد باشا إلى الحجاز، وجهز قوة خرج بها إلى عسير، مصحوباً بأحد الأشراف الشنابرة، وأحد شيوخ عسير المطرودين. غير أنه لم يحقق إلا نجاحاً محدوداً. واستمر الوضع إلى عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ). وربما كان الأمر سيطول أكثر من ذلك، لولا أن الأمور السياسية قد تغيرت، حيث تم عقد اتفاقية ربط فيها الحجاز مع سورية مرة أخرى تحت إدارة الباب العالي مباشرة. وهكذا أصبح هم محمد علي الوحيد، هو ضمان عودة قواته الموجودة في الحجاز. لذلك قام بإعادة الشريف محمد بن عون إلى وطنه ليقوم بهذه المهمة. وقد تمكن الشريف بكثير من الحنكة واللباقة من سحب القوات التي كانت مشغولة بإخضاع قبائل حرب دون خسائر، وضمها إلى الحامية الموجودة في الجنوب، ثم طلب إليها جميعاً العودة إلى مصر. وهكذا عاد الشريف محمد بن عون إلى سدة الحكم في مكة.

في هذه الأثناء كان الشريف عبدالمطلب، ذو البشرة السمراء، في إسطنبول منذ عشر سنوات يجرّب حظه في الوصول إلى السلطة. وفي هذه الفترة كانت رحى الحرب تدور بين قوات الباب العالي من جهة وقوات نائبه في مصر من جهة أخرى. وقد وعد السلطان العثماني محمود، الشريف عبدالمطلب بالحصول على تركة أجداده، بمجرد أن تنتهي الحرب الدائرة، مع نائب السلطان الثائر في مصر، غير أن الباب العالي لم يف بوعده. وهكذا بقي الشريف محمد بن عون في منصبه بمكة أميراً لمنطقة تتعرض حدودها الجغرافية لتغيرات شبه يومية.

استحداث منصب محافظ مكة

لقد استحدث العثمانيون منصب محافظ مكة، إثر خروج القوات السعودية من الحجاز. وهذا المحافظ هو ممثل لنائب السلطان في مصر (الوالي) في المدينة المقدسة. ويشغل هذا المنصب موظف برتبة باشا. ومنذ ربط الحجاز وبلاد الشام بالباب العالي مباشرة، أرسل العثمانيون حسب تقليد قديم والياً لجدة وشيخاً للحرم. وتتباين صلاحيات هؤلاء تبايناً كبيراً. أما الأوقاف الدينية فلم تكن إدارتها ممكنة إلا من مصر كما كان في السابق.

بالرغم من أن العبادلة سلميون أكثر من ذوي زيد، إلا أن الاتفاق بين شريف مكة ومحافظها كان ضرباً من الخيال في ضوء عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين. في عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) نشب خلاف بين الشريف محمد بن عون ووالي جدة. والسبب المزعوم هو أن بعض الأمراء المعينين من قبل الشريف، قد أخذوا لأنفسهم قسطاً أكبر من أموال الزكاة المفروضة. غير أن سبب هذا الخلاف ربما كان بسبب تحركات عبدالمطلب في إسطنبول لتغيير ميزان القوى لصالح ذوي زيد من قِبَل الباب العالي.

وقد أكد هذه المقولة الالتماس الذي قدمه الباشا في مكة، لإرسال الشريف علي بن غالب شقيق عبدالمطلب بن غالب إلى إسطنبول، الأمر الذي عدّه شريف مكة تحضيراً لأمور جديدة. فما كان من الشريف محمد بن عون إلا أن أخبر صديقه القديم والي مصر محمد علي باشا بالموضوع طالباً منه المساعدة؛ لأن عليّاً هذا لا بد أن يسافر إلى إسطنبول

عبر مصر. لم يخيّب محمد علي باشا ظن صديقه القديم، فقد استقبل علياً بحفاوة بالغة، غير أن ضيفه مرض فجأة ثم مات. وكان ذلك عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ). في أثناء ذلك خرج شريف مكة إلى منطقة المبعوث[١] في شمال الطائف. وفي هذه الأثناء راقبت تحركات الشريف كتيبة من القوات التابعة لوالي جدة، الأمر الذي عدّه الشريف تحدّياً له، غير أن (محمد علي باشا) قد عمل على عزل هذا الحاكم، وتعيين حاكم جديد، تفاهم مع الشريف بصورة أفضل من سابقه.

إعلان الحرب على نجد

في عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) خرج الشريف محمد بن عون بتكليف من الباب العالي لقتال الأمير فيصل بن تركي في الرياض، التي حلت محل الدرعية، عاصمة للدولة السعودية. فقد اكتسب هذا القائد شهرة كبيرة. ولما رأى الأمير فيصل أن لا قبل له بصد الحملة رضي بأن يبعدها عن عاصمة ملكه بدفع مبلغ عشرة آلاف ريال سنوياً. ويبدو أن الدفع قد تم بانتظام حتى وفاة الأمير فيصل عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ)[٢].

---

(١) أحد الأودية في شمال الطائف يقطعه طريق نجد على بعد ٦٠ كلم، وهو مجمع أودية ذات زراعة وفيرة، وتنصرف مياهه إلى سهل ركبة (البلادي، معجم معالم الحجاز ج٨ ص١٥).

(٢) قصة خروج الشريف محمد بن عون لقتال الأمير فيصل بن تركي اختلفت في دوافعها ونتائجها المصادر التاريخية المختلفة. ويبدو أن المؤلف قد ساق رأي الدحلان في أمراء البلد الحرام المذكور في ص٣٥٧، غير أن ابن بشر في عنوان المجد في تاريخ نجد يروي القصة بشكل آخر، ويتابعه على ذلك عبدالله فيلبي في تاريخ نجد. ودون الدخول في التفاصيل فقد ذكر ابن بشر أن سبب خروج محمد بن عون لم يكن بتكليف من الباب العالي كما ذكر المؤلف، وإنما كان بتحريض من بعض سكان القصيم الذين التجأوا إلى مكة نتيجة لخصومة وعداوة بينهم وبين آل سعود. وقد زين هؤلاء للشريف قتال الإمام فيصل بن تركي. فتوجه الشريف إلى القصيم الذين قدموا له الطاعة، وما أن علم بذلك الإمام فيصل حتى استنفر جيوشه، الأمر الذي أدخل الرعب إلى قلب الشريف، فأرسل الشريف رسولاً إلى الإمام فيصل يطلب الصلح، كما يطلب أن يحضر إليه أحد إخوة الإمام فيصل لينفي عنه ظاهر الفشل، فجهز الإمام فيصل أخاه عبدالله وعدداً من الرجال، ومعهم هدية إلى الشريف، وقد استقبل الشريف الوفد وأكرمهم وأخذ هديتهم وبادلهم بهدية من عنده، غير أن أهل الأهواء والمثيرين للفتن أشاروا عليه برد الهدية ليعلم أهل نجد بقوته.
ولما خرج الوفد وبلغوا مأمنهم ردوا الهدية، واستعد الإمام فيصل للقتال. فلما علم الشريف بذلك داخله الفشل فأرسل رسوله ثانية للمصالحة الأبدية، فوافقه الأمير على مطلبه مشترطاً =

وفي الجنوب عقد الشريف محمد بن عون، بعد بعض الاشتباكات العسكرية مع قبائل عسير، معاهدة وضحت معالم الحدود بين المنطقتين. وهذا لاشك يرضي غرور الأتراك الذين كانوا يعدّون تخليهم عن أي منطقة تابعة لهم، ولو كانت لاقيمة لها، أمراً غير مقبول. لقد مهّد الشريف إلى احتلال اليمن، والذي تم بواسطة العثمانيين في وقت متأخر جداً. لقد استطاع الشريف محمد بن عون استرداد الحديدة ومخا وزبيد وبيت الفقيه من أحد الأشراف [الشريف حسين بن علي بن حيدر] الذي أعلن الثورة هناك، ثم عيّن في صنعاء أحد الموالين من أحفاد الأئمة [محمد بن يحيى] بدل الحاكم الفعلي للبلاد. غير أن الإمام الجديد الذي وصل إلى السلطة قد تم اغتياله بعد انسحاب حماته بوقت قصير[١].

تنظيم الأوقاف السلطانية

حدث في أثناء غياب الشريف الطويل خارج مكة، أن الباشا محافظ مكة، حاول إدخال تنظيمات جديدة للأوقاف السلطانية. وقد ألمحنا فيما سبق لوضع الأوقاف الدينية في المدينة المقدسة. معظم البيوت القيمة التي تم شراؤها بقصد الوقف كانت لأهداف إنسانية نبيلة. ثم جرى بعد ذلك نقل الإشراف عليها من يد إلى أخرى، بحيث لم يبق منها إلا اسم الوقف. غير أن هذا الاسم كان كافياً لمنع أي بيع قانوني لمثل هذه العقارات؛ لأن الوقف لا يباع أمد الدهر. ولما كان نقل الملكية ضرورياً في بعض الأحيان، برز إلى الوجود نوع من اتفاقيات الشراء، عرف باسم خاص، هو «الإفراغ» وهو التخلي عن العقار مقابل مبلغ محدد من المال، بحيث يمكن الاستفادة من العقار، دون أن يكون مالكاً له، وهذا من قبيل وضع اليد، بغرض التصرف دون التملك. ومهما كان نقل الملكية لهذه

= على أن يتخلى الشريف علي عن المطالبة بالقصيم أو أي منطقة في قبائل نجد بلا قيد ولا شرط، وأرسل إليه بعض الهدايا ليحقق عليه وقع هذه المطلب وكذلك أرسل له مبلغاً من المال، وربما عاد الشريف فقدّم هذا المبلغ بدوره إلى الأتراك في مكة على عدّه أنه الجزية التي دفعها له الأمير فيصل. (انظر ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ص١١٤ ـ ١١٥، وكذلك فيلبي في تاريخ نجد ص٢٢٣، ٢٢٤).

(١) انظر تفصيلات غزو عسير واليمن واحتلال صنعاء في أمراء البلد الحرام ص٣٥٧ ـ ٣٥٨.

البيوت غير شرعي، فإنه لا يمكن الإنكار بأن من يضع يده على بيت وقف، مقابل سعر مناسب، فإنه يملك الحق فيه بحسب القوانين السارية. وقد أصدر الوالي أمراً بإلغاء هذه الإجراءات. وقد أدرك الناس أن الهدف ليس حماية الأوقاف القديمة، بقدر ماهي خطوة تتيح لبعض المتنفذين التصرف الحر بأموال كبيرة ودخول عالية.

لقد حاول الباشا أن يكسب العلماء إلى جانب إعلانه لبطلان الأوقاف، حتى إنه أقال المفتي الحنفي، الذي أصر على رفض الفكرة. وقد أدى هذا إلى ذهاب بعثة من معارضي الوالي سراً إلى إسطنبول، حيث أصدروا أمراً بعزله عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ)[١].

أما الوالي الجديد الذي خلفه في مكة، فقد حصل على تعهد من الصدر الأعظم رشيد باشا تم بموجبه سحب البساط من تحت أقدام الأشراف العبادلة. فقد تمكن الداهية عبد المطلب أن يجعل من حامل المنصب الرفيع في إسطنبول صديقاً شخصياً حميماً. وقد ساعد الوزير الكبير عميد أسرة ذوي زيد على حساب المصالح التركية الحقيقية. ففي بداية عام ١٨٥١م (١٢٦٨هـ) حضر ابنا محمد بن عون؛ وهما عبدالله وعلي إلى جدة بناء على طلب الوزير، للتباحث حول بعض أمور العمل. غير أن الدعوة كانت حيلة، الهدف منها احتجاز الابنين رهينة، تنهي معارضة الأب للبقاء في السلطة. وقد تم ـ في ذات الوقت ـ إرسال رجل من ذوي زيد من خلال دعوة سلطانية إلى إسطنبول في سفارة خاصة.

عبد المطلب يعود إلى حكم مكة

استفاد الأشراف العبادلة من خبرتهم في التعامل مع الأتراك. فما كان من الشريف محمد بن عون إلا أن تخلى وبدون معارضة، عن الإمارة إلى أمير جديد، هو منصور بن يحيى، الذي عُيّن بصورة مؤقتة نائباً لعبدالمطلب. ومنصور هذا هو ابن الشريف يحيى الذي عُيّن في البداية أميراً على مكة من قِبَل محمد علي باشا.

---

(١) انظر تفصيلات هذا الخبر في أمراء البلد الحرام ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

تصرفات عبد المطلب مع الوالي

وعندما تسلم عبدالمطلب زمام الأمور في مكة (١٨٥١ ـ ١٨٥٦م) (١٢٦٧ ـ ١٢٧٣هـ) أظهرت تصرفاته، أنه لا يحسن تقدير أولئك الأشخاص، الذين كان يتملقهم في إسطنبول كلما لزم الأمر. فما أن وصل إلى مكة حتى توجه إلى بلاد حرب، حيث بنى لنفسه بعض الحصون في هذه المنطقة المحمية من هجمات الحكومة، بقصد اللجوء إليها في حالة وقوع صراع في المستقبل. وقد دخل في خلاف مع الباشا الذي حضر احتفال تنصيبه في السلطة. وتمكن بواسطة نفوذه عند الصدر الأعظم من تغيير الباشا وتعيين باشا آخر. غير أن الصداقة بينهما لم تدم طويلاً أيضاً، فقد انتهت بسرعة. فعندما أطلقت بعض العيارات النارية، التي اخترقت طربوش الباشا، في أثناء وجوده في المثناة بالطائف ـ التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف ـ لم يستطع الباشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمر وقع بتدبير من الشريف نفسه. ومرة أخرى تم تغيير الباشا، والسبب هو شك الشريف بأن الباشا كان يريد اعتقاله. لقد تم إخطار الشريف بواسطة أصدقائه بأن هناك حيلة قد نظمت لإلقاء القبض عليه من قِبَل الوالي في أثناء تمرين على السلاح، كان من المفروض أن يحضره مع الباشا نفسه. لهذا ابتعد الشريف دون أن يلحظه أحد، وتوجه نحو الطائف حيث جهز نفسه لمقاومة الهجمات المتوقعة من الدوائر التركية. وبناء على تقرير سريع من الوالي الذي غادر إلى جدة، قدم في أكتوبر من عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) مبعوث غير عادي من قبل الباب العالي لإعادة تعيين الشريف محمد بن عون الأمير السابق المطرود.

الشريف يرفض قرار العزل

رفض الشريف عبدالمطلب قرار عزله بإصرار. وأكثر من ذلك غضب على أتباع مُنَافِسِه الموجودين في الطائف. فقد زج في السجن بشيخ السادة[(١)] المدعو إسحق بن عقيل، والذي يعدّ من أكثر الأصدقاء المخلصين لشريف مكة

(١) السيد تعني هنا أحد الأحفاد الذين يعودون بنسبهم إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. ويكون السادة في مكة مجموعة خاصة تحت زعامة واحد منهم، لقد كان يتم اختيار زعيم السادة في السابق من قبل المجموعة نفسها، ويصادق على هذا الاختيار من قبل الدوائر الحكومية. أما =

السابق. وبالرغم من أن ابن عقيل قد استقبل عبدالمطلب عند وصوله بقصيدة عصماء، إلا أن ذلك لم يخفف من سوء ظنه به. فقد كان يعتقد أن له يداً طولى في قرارات الباب العالي بتنحيته؛ لذا أمر بعزله من منصب شيخ السادة، ورميه في السجن، حيث توفي بعد يومين من سجنه. وقد ادّعى أصدقاؤه بأن خصيتيه قد مزقتا من الضغط عليهما[1].

منع تجارة الرقيق

قبل أن يتحرك مندوب الباب العالي لتنفيذ الأوامر السلطانية المتعلقة بالعزل والتعيين، حدثت في مكة حادثة كنت قد ذكرتها في مكان آخر. ونقلت في هذا الصدد كلمات أصغر المؤرخين المكيين. فقد وصل إلى جدة أحد الأوامر الذي كان نتاج التدخل الغبي للدبلوماسية الغربية. هذا الأمر يتعلق بوقف تجارة الرقيق. وحسب هذا الفرمان (الأمر) أعطى الوالي أوامره إلى نائبه في مكة، بجمع كل تجار العبيد، وإبلاغهم رغبة السلطان.

لقد قوبل هذا الأمر بعدم الاستحسان. ويستغرب المرء كيف أن هذا الأمر يثير استغراب المكيين بل معارضتهم، الأمر الذي نجم عنه شغب كبير، راح ضحيته عدد من الجنود والموظفين الأتراك. وفي هذه المرة وافق العلماء وعلية القوم على المعارضة التي يبديها الشعب تجاه هذا التصرف[2].

ومن الأشراف الذين حضروا هذه التظاهرة ابن أخي عبدالمطلب ونائبه منصور بن يحيى، وعبدالله بن ناصر بن فواز بن عون، المعيَّن ممثلاً مبدئيّاً للشريف الجديد. وقد فعل الاثنان كل ما أمكنهما لتهدئة الخواطر في مكة، ثم سافرا إلى جدة لإبعاد أيّ شبهة حول اشتراكهما.

غير أن زعيم ذوي زيد المسن [عبدالمطلب] اغتنم الفرصة لتصوير الأتراك بأنهم مخالفون للقوانين السماوية، بينما عدّ نفسه مدافعاً عن المقدسات. وقد

= اليوم (١٨٨٥م) ومنذ ازدياد مركزية السلطة فيتم تعيينه من قبل الشريف والوالي أو من قبل الأقوى منهما. (المؤلف)

(١) انظر تفصيلات الحادث في أمراء البلد الحرام ص٣٦١.

(٢) انظر تفصيلات الحادث في أمراء البلد الحرام ص٣٦٢.

حضر مع بعض الأشراف وشيوخ البدو إلى مكة، لمقابلة قوة العبادلة والأتراك في بلدة بحرة، على طريق جدة. لكن الوسائل المألوفة قد أدت إلى النتيجة المألوفة. فالكثير من البدو انتقلوا إلى جانب الطرف الآخر، الأمر الذي اضطر معه العجوز إلى التخلي عن هذه المعركة غير المتكافئة. في مثل هذه الظروف لا بد أن يذهب أحد العبادلة إلى إسطنبول. أما عبدالمطلب الذي وعد بالسفر براً إلى هناك فقد اتجه إلى الطائف حيث جمع حوله الأنصار والبدو، وقام بطرد القوات التركية من هناك. وخلال الفترة الواقعة بين يناير وأبريل من عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) أرسل ثلاث حملات متتالية إلى مكة المكرمة. وعندما وصل محمد بن عون في أبريل إلى جدة، كانت قوات المحاصرين قد دحرت عن مكة، واستطاع بعدها أن يقوم بهجوم على الطائف نفسها. وهنا دارت المسرحية المماثلة تماماً لتلك التي تم عرضها عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) من قِبَل الممثلين أنفسهم في المكان نفسه. غير أن النتيجة كانت مختلفة تماماً. فالابن الأكبر لغالب لم يترك وسيلة للإقناع أو الإكراه إلا استعملها لجمع شمل جماعته وتقوية صفوفهم. غير أن هؤلاء قد ضيّق عليهم الخصوم الخناق، ففتحوا أبواب المدينة للمنتصر وأخذ سيدهم أسيراً. وحسب الخطط الأولى كان من المقرر أن يرسل الأسير إلى سالونيك، ليقضي فيها بقية حياته منفياً، كما حصل مع والده من قبل. غير أنه مدين لنفوذ صديقه القديم رشيد باشا، الذي سمح له في هذه المرة وفي المرة السابقة أن يعيش بقية حياته في إسطنبول. وقد فتحت له هذه المكرمة اللطيفة الطريق لمؤامرات جديدة يحيكها ويقوم بتنفيذها.

عودة الشريف محمد بن عون

من التجارب التي تعلمها الباب العالي في تعامله مع حكام مكة، أنه من الأفضل دائماً أن تحتفظ الخلافة بالمطالبين بالعرش أو ولاة العرش المرشحين لهذا المنصب في إسطنبول، أو في أي مكان آخر من تركيا. فعلى سبيل المثال: إن ترك أحد زعماء ذوي زيد في الحجاز، في أثناء وجود أحد العبادلة في الحكم معناه إغلاق الباب على ديكي قتال في قفص. كذلك أيضاً فإن ابن الأمير الكبير أو أخاه والمرشح بأن يكون الأمير المستقبلي، قد يثير

المشكلات في مكة عن طريق تسرعه. ومن هذا المنطلق احتفظ الباب العالي في إسطنبول بالابن الأكبر للشريف محمد بن عون المدعو عبدالله، والذي كان نائباً لوالده طيلة الفترة الأولى من حكمه، بينما أعاد ولده الأصغر، المدعو علياً إلى مكة. ونظراً لأن الشريف محمد بن عون كان كبير السن في فترة حكمه الثانية (١٨٥٦ ـ ١٨٥٨) (١٢٧٣ ـ ١٢٧٤هـ) فقد كان ابنه علي وابن أخيه عبدالله بن ناصر هما اللذان يقومان بتدبير شؤون الإمارة فعلياً.

أحداث جدة مع الأجانب

لقد تسلم علي زمام السلطة المؤقتة في مارس عام ١٨٥٨م (شعبان ١٢٧٤هـ) بعد وفاة والده، ريثما يصل أخوه من إسطنبول. وقد أخرت الحوادث المؤسفة التي وقعت في ١٥ يونيه في جدة[١] عودة الشريف

---

(١) وفي عهد وكالة الشريف علي بن محمد بن عبدالمعين حدثت حادثة في جدة عام ١٢٧٤هـ، في السادس من شهر ذي القعدة ملخصها أن تاجراً من تجار جدة يدعى بصالح جوهر، كان له مركب بحري، وكان يرفع عليه علماً إنكليزياً، فأراد أن يستبدل به علماً عثمانياً، وقد استأذن الوالي التركي نامقاً فأذن له، وقد منعه القنصل الإنجليزي عن ذلك فلم يمتنع، فلما رفع العلم العثماني وأنزل العلم الإنجليزي اندفع القنصل الإنكليزي إلى المركب وأنزل العلم العثماني ورد العلم الإنكليزي مكانه، وشاع بين الناس أن القنصل الإنكليزي بعد إنزال العلم العثماني وطئه برجله، وتكلم بكلام غير لائق، فغضب لذلك المسلمون في جدة، وثارت ثائرتهم، وهجموا على دار القنصل الإنكليزي فقتلوه ونهبوا داره، وفعلوا ذلك بكثير من الفرنجة قناصل وغيرهم في جدة، وأرادوا قتل فرج يسر، أحد تجار جدة المشهورين، لكونه مناصراً لقنصل الإنكليز، ومعدوداً من رعاياهم، فاختفى وأرادوا نهب داره، فمنعهم عن ذلك الشيخ عبدالله نصيف وكيل الشريف بجدة. وكان الشريف علي وكيل الإمارة بمكة غائباً بالمدينة، وكان الوالي التركي نامق باشا بمكة، فلما جاءه خبر هذه الفتنة توجه إلى جدة مسرعاً، وسجن مثيري الفتنة والمتهمين بالقتل والنهب، وبهذا سكنت الفتنة، ثم كتب إلى السلطنة بما حدث، وتوجه إلى مكة في حلول موسم الحج، فلما كان اليوم الثالث من أيام التشريق والناس بمنى وصل الخبر من جدة أن مركباً حربياً إنكليزياً على قرب من ميناء جدة يرمي بالقلل المحرقة عليها، وأن أهالي جدة هربوا إلى مكة، فعم الفزع واشتد القلق، فلما انقضى الحج اجتمع نامق باشا بكبار العلماء والأشراف والأعيان وتشاوروا، فأشار إليه المجتمعون باستنفار القبائل من كل النواحي، لقتال أصحاب المركب الحربي، وأشار البعض الآخر بإغراقه، فأبى نامق باشا المشورتين، وأشار بأن تصحبه لجنة منهم إلى جدة، لمقابلة قبطان المركب ومفاوضته في الأمر فوافقوا، وانتهت اللجنة إلى جدة واجتمعت بالقبطان واستطاعت إقناعه بتأجيل الأمر حتى تصدر أوامر السلطنة فرضي الجميع بذلك. =

عبدالله حتى شهر أكتوبر من العام نفسه. لقد ناقشت في إحدى مقالاتي التقارير المعروفة في أوروبة عن قتل المسيحيين في جدة. وقد ذكر أسباب ونتائج هذه الحادثة أحد المؤرخين العرب المعاصرين[1]. لقد كان قصف ميناء جدة بالمدافع غير ضروري؛ لأن الهدف منه كان إرضاء خواطر الدول الأوروبية. وقد حصلت هذه الترضية عن طريق إرسال مجموعة من الأوربيين والأتراك ومعهم صلاحيات غير محدودة للتصرف. وعلى أيّ حال فإن الانطباع الذي أثاره توسع الإفرنج، بالرغم من تعميقه لزيادة الكره لهؤلاء، لم يكن دون فوائد. وعلى ما يبدو فإن السياسة المتبعة هي أن يسبق الإرهاب والتخويف أي خطوة تهدف إلى تطبيق أي إجراء تنظيمي للشعب العربي. لكن ياللخسارة فمسحوق البارود والكحول، واستعمال القوة، إضافة إلى سياسة تحرير الرقيق، التي تتصف إما بالغباء أو النفاق، كل ذلك من مؤشرات الحضارة الأوروبية المنظورة، والله المستعان.

تعيين الشريف عبدالله ابن محمد

تسلم الشريف عبدالله ذو التربية الرفيعة (١٨٥٨ ـ ١٨٧٧م) (١٢٧٥ ـ ١٢٩٤هـ) الحكم بعد أن أخذت العدالة مجراها من المتهم الرئيس فيما يخص المطالب الأوروبية. لقد عاش عبدالله في الجزيرة العربية إبان شبابه. وقد ساعده ذلك على حماية بنيته الفكرية أمام تأثير الفساد التركي. وفي الأمور الرسمية اتصف الحاكم الجديد بالمرونة، وخاصة مع العناصر

= وفي أواخر شهر المحرم عام ١٢٧٥هـ وصلت إلى جدة لجنة مختلطة من الأتراك والإنكليز والفرنسيين تحمل أمراً من السلطان إلى نامق باشا بتفويض اللجنة في تحقيق الحادثة وتنفيذ ما تحكم به، فأظهر تحقيق اللجنة بأن باعث فتنة الحادثة هو الشيخ عبدالله المحتسب، وكبير الحضارم الشيخ سعيد العامودي، وقاضي جدة الشيخ عبدالقادر شيخ، والشيخ عمر باديب، والشيخ سعيد بغلف، وشيخ السادة والسيد عبدالله باهادون فحكمت اللجنة بإعدام المحتسب والعمودي ونفي بقية الأشخاص إلى خارج البلاد، كما جرى الحكم بقتل اثني عشر شخصاً من عامة الناس، أدينوا باشتراكهم في هيجان الفتنة الحادثة. وفي أوائل شهر ربيع الأول عام ١٢٧٥هـ نفذ الإعدام فيمن ذكر على ملأ من الناس، كما نفذ حكم النفي في الباقين. (انظر تفصيلات الحادثة، (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٣٦٧)، وكذلك (عبدالفتاح راوه، أمراء مكة عبر عصور الإسلام ص٣٨٠ ـ ٣٨١).

(١) هذا المؤرخ هو الشيخ أحمد دحلان الذي أخذ عنه المؤلف معظم أخبار هذه الحقبة من التاريخ.

الأجنبية. وهذه الصفة في الغالب تميز العبادلة عن ذوي زيد. بجانب ذلك كان الرجل ذا حصافة عالية تعلمها في إسطنبول.

لقد كانت البلاد المقدسة في أثناء فترة حكم عبدالله التي استمرت عشرين عاماً هادئة تقريباً. غير أن ظهور بعض الحوادث بالقرب منه، أدى إلى وجود انعكاسات مشابهة عنده. ففتح قناة السويس قد اعتبر من قبل سكان غربي الجزيرة العربية كارثة حلت بهم. وقد تذكرهم بالرواية التي تقول بأن هارون الرشيد قد وضع خطته لفتح مثل هذه القناة. غير أنه عدل عن الفكرة أخذاً برأي وزيره الكبير الذي نصحه بأن فتح مثل هذه القناة سوف يسهل على النصارى الدخول إلى الموانئ الإسلامية. وفي الواقع أن هذا الإنجاز له أهميته الكبيرة بالنسبة لهذه البلاد، وذلك لأن العثمانيين الآن قد أصبحوا أكثر سرعة وأكثر فعالية في التدخل في شؤون الحياة السياسية في الحجاز. لقد ظهرت الأهمية السياسية لقناة السويس أكثر وضوحاً وفعالية، ومن الجدير بالذكر أن جدة ربطت قبل عدة سنوات مع بقية أقطار العالم بالتلغراف، ثم بعد ذلك اتصلت بالتلفون مع مكة والطائف.

فتح قناة السويس

أثر دخول البرق والهاتف

وفي ظل عدم وجود الاتصالات سابقاً، كانت قرارات الباب العالي فيما يخص الحلول المطروحة للنزاعات القائمة بين الأشراف، أو القوات المرسلة لفض النزاع بين الطرفين، تستغرق وقتاً طويلاً. وربما تكون الحاجة الماسة لها قد انتهت عند وصولها؛ لذا كان الباب العالي يترك تصريف كثير من الأمور للوالي العثماني. وقد أعطى التغيير المستمر للولاة، بجانب عدم قدرة بعضهم على تصريف الأمور، المجال الكبير لعناد الأشراف وخروجهم على الأوامر السلطانية في السابق. أما اليوم فإن الوالي العثماني على سبيل المثال قد يواجه الشريف بالتهديد، بأنه سوف يبرق إلى الباب العالي طالباً إقالته، موضحاً الأسباب الداعية لذلك.

في أيام الشريف عبدالله ظهرت الأهمية الواضحة للمناطق الساحلية التي بدأت عصراً جديداً، كما أن إعادة احتلال اليمن من قبل الأتراك عام ١٨٧٢م

التطوع لمحاربة الروس

(١٢٨٨هـ)، وقضائهم على نفوذ الأئمة في صنعاء، قد أعاد إلى الأذهان إحياء السلطنة الإسلامية، التي بدأ الناس يدركون قوتها ومسؤولياتها. هذا الإدراك لقوة السلطنة الإسلامية لم تخفف من حدته الحرب التركية ـ الروسية. فالشعب هنا لا يصدق أحداً يتحدث عن النكسات التي تلحق بالجيش العثماني. وقد صلى الناس في مكة لنصرة جيوش الإسلام، كما قاموا بجمع التبرعات لصندوق الحرب (أصحاب الألسن الشريرة قالوا إن المشرفين على جمع التبرعات كثيراً ماوضعوا النقود في جيوبهم بدلاً من وضعها في الصندوق)، وأخيراً سمع الناس هنا بأن السلطان قرر أن يقيم سلاماً مع الثائرين الروس.

يمكن للمرء أن يتصور البساطة في المجتمع المكي، فيما يخص بعض الأمور السياسية الخارجية من خلال مايلي: الشريف عبدالله أراد أن يثبت إخلاصه وارتباطه بعاصمة الخلافة الإسلامية، فأمر بإعطاء الفرصة للتدريب على السلاح في مكة. وقد تم التدريب بمشاركة عدد كبير من الشبان والرجال وحتى الشيوخ الضعفاء. ويبدو أن الحاجة العملية لمثل هذا الجيش الارتجالي، قد أثارت بعض التحفظ لدى رجال الحرب. لكن المرء يسمع في مكة بأن هذا الجيش سيشعر الروس بالخوف، ناهيك عن الانطباع الذي سيثيره تسليح المدينة المقدسة في مختلف أرجاء الدول الأوربية.

المجالس البلدية في مدن الحجاز

في عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) حصلت كل من مكة والمدينة وجدة والطائف على حصتها في المجالس البلدية المكونة من الوجهاء والموظفين، التي وهبتها البيروقراطية التركية إلى رعاياها. لقد كان عمل مجلس الإدارة شبيهاً بأعمال المجلس البلدي، أما مجلس التمييز فواجبه النظر في بعض أمور القضاء، ومجلس التجارة (في جدة فقط) مسؤول عن معالجة بعض الأمور التجارية المهمة.

لقد ازدهرت هذه المؤسسات بالجودة نفسها التي ازدهرت فيها زراعة القمح في الأراضي الصخرية في مكة. غير أن الإدارة التركية قد تعلمت أن

الإنجاز يكون دائماً على الورق. لقد ورد في أحد التقارير السنوية للحجاز[1] ذكر أسماء أعضاء المجالس البلدية. غير أن سكان المدن يعرفون بأن كبار الموظفين وأصحاب النفوذ من السكان المحليين، هم فقط الذين يستطيعون فعل ما يريدون، سواء جلسوا داخل المجلس أو خارجه. والدليل على ذلك أنه حتى هذه الأيام (١٨٨٥م) لا يزال الكثير من المكيين، لا يعلمون شيئاً عن وجود مثل هذه المجالس.

مزايا الشريف عبدالله

خلاصة الأمر فإن الشريف عبدالله كان لديه الوقت الكافي ليؤدي دور السيد الشريف. وبالرغم مما حدثني به بعض رجالات مكة القدماء عن الحيل التي كان يمارسها لزيادة أملاكه، عندما يفصل في المنازعات التي تقوم حول الأوقاف الخيرية، والتي يدّعي فيها كل فريق أن له الحق في ذلك. ولما كان الشريف يعرف مداخل هذه الأمور فقد كانت النتيجة دائماً أن جزءًا من هذه الأملاك المتنازع عليها تذهب في أثناء الشجار إلى يد الشريف. إن أولئك الأشخاص، الذين هزوا رؤوسهم حول سياسة سيدنا، يتفقون جميعاً في الثناء العام على شخصه. هذا الثناء الذي يطري به عليه كل سكان الحجاز، يعود بالدرجة الأولى إلى عدالته وليونته وشجاعته ووجاهته القوية في التعامل مع التابعين له سواءً أكانوا من البدو أم من سكان المدن. لقد كان يخافه كل ذي ضمير سيئ. وقد قبل بحكمه في القضاء طوعاً أبناء الصحراء الذين تصعب السيطرة عليهم.

حملات الشريف ضد قبائل عسير

لقد أجبرته قبائل عسير على القيام بحملات صدها مرات عديدة. وفي عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ) وصلت قوات مصرية بناء على أوامر من السلطان العثماني لتساعد عبدالله في طرد قبائل عسير، إلى ما وراء الحدود القديمة. غير أن والي مصر إسماعيل باشا قد طلب إعادة هذه القوات بعد فترة وجيزة، الأمر الذي اضطر معه عبدالله أن يعقد معاهدة غير مرضية مع الثائرين من عسير. وفي

---

(١) سالنامه الحجاز وكانت تصدر سنوياً على هيئة تقرير سنوي يذكر مجمل إنجازات العام. صدرت عام ١٣٠٣هـ باللغة العربية، وكانت سابقاً تصدر باللغة التركية. وقد رد فيها أسماء أعضاء المجلس البلدي وأسماء مسؤولي الدوائر الحكومية آنذاك.

عام ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ) قام بغزوات أخرى نحو الشرق، ثم في عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) أعاد الكرة ضد قبائل عسير، الذين أظهروا العنف في المناطق الجنوبية وخاصة في موانئ الحديدة ومخا. وفي السنة التالية وصل فصيل من الجيش التركي لإكمال الفتح الذي بدأه عبدالله. وقد تلا هذه الحملة إخضاع اليمن.

توفي الشريف عبدالله في الطائف عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ). وقد قام الشاعر البدوي، والمدعو بديوي، بنظم قصيدة رثاء جميلة. (يوجد لدي نسخة منها)[١]. ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه القصائد تنشد لكل أمير يفارق الحياة. وكل أمير جديد تتم تهنئته بأبيات من الشعر. وقد سمعت من الكثيرين بأن هذه القصيدة لم تكن شكلاً خالياً من المضمون.

تعيين الشريف حسين

وحسب الأعراف المتبعة آلت الإمارة إلى الأخ الأكبر لعبدالله، وهو الشريف حسين، الذي كان يقيم في إسطنبول، وبالرغم مما يدعيه أهل مكة من أن هذا الأمير وأمثاله يمنحون في إسطنبول ألقاباً مختلفة مثل باشا، أو وزير، أو يعينون أعضاء في مجلس الشورى، إلا أنهم في الواقع رهائن تحتفظ بهم السلطة في عاصمة البلاد، وكان على أخيه عون الرفيق أن يحل محله في إسطنبول ليؤدي الغرض نفسه. بعد وصول الشريف حسين (١٨٧٧ ـ ١٨٨٠م) (١٢٩٤ ـ ١٢٩٧هـ) توافد إلى الطائف الكثير من الزوار الأوربيين، الذين زادوا من شكوك الباب العالي بولاء الأمير نحو الخلافة العثمانية. وعلى أيّ حال لم يستمر حكمه طويلاً. فقد وجه إليه أفغاني فقير خنجراً أرداه قتيلاً، أثناء زيارة كان يقوم بها إلى جدة[٢]. ولما كان مثل هذا الحادث لا يمكن أن يكون الثأر هو السبب الحقيقي وراءه، فإن أيدٍ خفية قد استأجرت هذا القاتل العصري لتحقيق أهداف معينة.

اغتيال الشريف حسين

---

(١) انظر القصيدة المرفقة في الملحق، ومن الجدير بالذكر أن تشارلز دوتي في كتابه رحلات في الصحراء العربية سمع الناس يثنون على الشريف حسين غير أنه يضيف أنه لم يكن مثل عبدالله (المؤلف).

(٢) انظر تفصيلات هذه الحادثة في أمراء البلد الحرام ص٣٧٦.

عبد المطلب للمرة الثالثة في مكة

بعد موته مباشرة تم تعيين الشريف الكهل عبدالمطلب للمرة الثالثة، وإرساله إلى مكة من إسطنبول. ومن المعروف أن عبدالمطلب هو من ذوي زيد، وهذا يعني أن العبادلة قد رجعوا خطوة إلى الوراء. إن المثل العربي القائل: «لا شيء يملأ عين المرء إلا تراب القبر» ينطبق على الشريف الكهل. ولقد أظهر تنصيب الشريف الجديد الدوافع الكامنة، لحادث اغتيال الأمير السابق. غير أن جميع الوسائل التي استعملت لم تجد نفعاً في فتح فم القاتل قبل إعدامه.

اتجه عبدالمطلب (١٨٨٠ ـ ١٨٨٢م) (١٢٩٧ ـ ١٢٩٩هـ) في البداية إلى ينبع والمدينة، ثم قدم إلى مكة عن طريق جدة. وقد أعلن الناس ولاءهم للحاكم الجديد. وقد استقبله معظم الناس بحماس منقطع النظير. لقد ساعدت أمور كثيرة على إضفاء مظاهر العظمة لوجه الشريف الأسمر المتجعد في عيون شعبه، منها كبر سنه، ونسبه إلى زيد الذي حكم أبناؤه الحجاز منذ قرنين ونصف، وحكومتاه السابقتان اللتان لا يتذكرهما سوى كبار السن، وأخيراً المحاباة التي كان يتمتع بها في أعين السلاطين العثمانيين، بالرغم من خروجه عليهم باستمرار، كل هذه الأمور جعلت منه شخصاً غير عادي في خيال كثير من الناس.

إساءة الشريف لأهالي مكة

إن مظاهر العظمة السابقة، لم تقلل منها الأعمال السيئة، التي بدأ الشريف فيها حكمه للمرة الثالثة. لقد كان الشريف الكهل، يخاطب الكثير من المرموقين بخشونة في أثناء المقابلات الرسمية. كما كان يعيّر التجار الحضارمة، الذين أصبحوا أغنياء بنسبهم الوضيع. ولا يتوانى عن شتم الآخرين، بسبب معاملتهم الحسنة مع الإفرنج. لقد اعتقل ثلاثة أشخاص من الأشراف المرموقين؛ لأنه كان يشك في ولائهم له. وقد مات اثنان منهم متأثرين بجراحهما. ولم يستطع أحد الأشراف العبادلة ـ الذي بنى بيتاً مقابل أحد قصور عبدالمطلب ـ إلا أن يقوم بهدمه مقابل تعويض بسيط نظير ذلك الهدم.

في مايو عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) سافر بعض نسائه تحت حراسة عسكرية إلى الطائف. وقد أثارت تصرفات الحرس العنيفة سخط قبيلتين من قبائل عتيبة المرابطة على جوانب الطريق. فما كان من الشريف إلا أن جرد حملة على هاتين القبيلتين، استدعى إليها قبائل ثقيف وهذيل وبعض البدو الآخرين، إضافة إلى ثمانين رجلاً من الطائف، ومائة رجل حضرمي من مكة. وكان هذا الحشد لتأديب هؤلاء الذين أهينوا من طرف رجاله وأبدوا بعض التذمر من معاملتهم. وقد طلب هؤلاء وساطة الوالي العثماني. غير أن الشريف لم يقبل هذه الوساطة، وأمضى حملته لتأديبهم. ولقد كان لموقف الشريف من الوالي أثر في إيجاد المؤيدين للوالي من بين الضباط والموظفين الأتراك[١].

حل أعمال الطوافة

لقد اعتبر الشريف عبدالمطلب جميع التصاريح السابقة الممنوحة لأعمال الطوافة لاغية. وقام بإصدار تصاريح جديدة بيعت بمبالغ كبيرة. واستفاد من ذلك أقرباؤه وأصدقاؤه. كما فرض دفع مبالغ كبيرة من المال مقابل إصدار الأحكام من قبل القضاة. وقد اعتبر الناس هذه الأمور أكثر سوءًا من أعمال العنف السابقة؛ لأنها ألحقت الأذى بقطاع كبير من سكان مكة. وخاصة قطاع الأغنياء وموسري الحال. ويرى كثير من سكان مكة أن المسؤولية في أعمال الظلم هذه تعود إلى مساعدي الشريف وليس إلى الشريف نفسه. وفي الحقيقة وقف إلى جانبه اثنان من أسوأ المساعدين، أحدهما سوري، والآخر يمني[٢]، غير أنه لم يكن ليستطيع أحد من هؤلاء أن يقوم بما قام به لولا مباركة الشريف له وإقراره عليه.

التماسات أهل مكة لعزل الشريف

أصبح الوضع تحت قيادة الشريف الكهل أمراً غير قابل للاحتمال. وقد وجدت المعارضة في العبادلة، وعلى رأسهم عبدالله، الذي يقيم في مكة، دعامة قوية. وفي مثل هذه الظروف يلجأ الناس إلى الالتماسات الخطية. غير أن هذه الالتماسات التي أفلحت مع الولاة الضعاف، لم تفلح في عمل أي شيء ضد الشريف الكهل. فتوجه وجهاء مكة بمعروض موقع بأسمائهم إلى

(١) انظر الملحق رقم (٢) حول هذه الحادثة.

(٢) يذكر السباعي (ص٥٤٤) أسماء هؤلاء وهم جمال أفندي من الشام ومحمد جابر من اليمن.

الحكومة في إسطنبول عن طريق بعض الموظفين المرموقين لدى الباب العالي، الذين حضروا إلى البلاد المقدسة. ويوجد لدي نسخة من ذلك المعروض[١]. لقد تضمن هذا التقرير ثبتاً تفصيلياً بجميع الأفعال المرعبة التي ارتكبت، وأظهر حالة اليأس لدى المواطنين، الذين أصبحوا يفضلون حماية القوى الأجنبية لأرواحهم، على استمرار الأوضاع الحالية التي لاتحتمل. وذكر التقرير عدم نجاح كافة التوسلات التي قام بها الولاة العثمانيون لرفع هذا الحيف عن السكان.

خطة عثمان باشا للتخلص من الشريف

لقد اعتبرت إسطنبول أمر التخلص من الشريف، الذي يحمل عقلية القرون الوسطى، أمراً بالغ الصعوبة. ولتنفيذ أمر العزل الذي صدر بحقه، أرسلت الحكومة عزت باشا، الحاكم العجوز، الذي كان يشاطر الشريف عبدالمطلب الحكم قبل عشرين عاماً. وفي الوقت نفسه وصل عثمان نوري باشا على رأس قوات إضافية جديدة، كآمر للحامية العثمانية في الحجاز. وكان وصوله في نوفمبر عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) وبحوزته الأوامر التي تجيز إعادة العبادلة إلى السلطة مرة أخرى. لقد أدرك عثمان باشا أن أفضل طريقة لإنجاز مهمته بتنحية شريف مكة، هي عدم إعطائه الفرصة للهرب نحو الطائف، أو السفر إلى أنصاره في بلاد حرب. لقد حاول عثمان باشا جاهداً ألا يدخل في قتال مع الشريف. وقد خدمت الظروف عثمان باشا في يونيه عام ١٨٨٢م (١٢٩٩هـ) حين عيّن والياً على الحجاز، فأمر بتطويق البيت الريفي للشريف في المثناة شمال الطائف، وقام بنصب المدافع على الجبال المحيطة بالموقع. وكان يقف خلف الجنود الأشراف العبادلة وأنصارهم من البدو. وعند شروق الشمس دخل قادة الجيش إلى القصر، وأطلعوا الشريف الكبير على الوثيقة الرسمية المتعلقة بعزله. وقد أذعن الشريف لأمر العزل بعد أن رأى الاستعدادات العسكرية، والجموع المحتشدة في الخارج. وقد أخذ أسيراً في بادئ الأمر إلى الطائف، غير أنه سمح له فيما بعد أن يعيش تحت الحراسة في أحد بيوته الكبيرة في البياضية بمكة في الطريق إلى منى.

---

(١) انظر الملحق رقم (١).

وقد بقي تحت الإقامة الجبرية إلى أن مات في يناير من عام ١٨٨٦م (ربيع الآخر ١٣٠٣هـ). لم يكن أهل مكة يستغربون لو أن ابن غالب وصل إلى أتباعه ومؤيديه لدخل مكة منتصراً مرة أخرى. غير أن عصر الباخرة والتلغراف والبندقية، التي تعبأ من فتحة المجرى الخلفي، لم تترك له ولا لأمثاله من حكام القرون الوسطى أي فرصة للنجاح.

وفاة الشريف عبد المطلب

لقد مشى في جنازة الشريف عبدالمطلب، عثمان باشا، وكبير الأشراف الجديد، بينما اندفع الناس بأعداد وفيرة خلف جنازة الفقيد. ومن المرجح أن هذا العمل من قبل عثمان باشا كان خوفاً من إثارة الشعور الديني، وتجنباً لإحراج الفقيد ذي الشهرة الفائقة بين قومه. لقد دفنت جثته بجوار قبر خديجة، حيث يدفن في العادة الكثير من أمراء مكة.وهكذا طويت صفحة رجل وجد جده زيد نفسه فيه، واعترف به قتادة وريثاً فكريّاً من بعده.

كان على عثمان باشا الإسراع في تعيين شريف جديد، تفادياً للمشكلات التي ربما سيثيرها ذوو زيد. لذا فقد ادعى أن الشريف عبدالله الموجود في مكة، قد عين من قبل السلطان شريفاً كبيراً. وقد تقبل عبدالله بيعة زعماء البدو وسكان المدن. وحسب رأي الكثيرين من سكان مكة، فقد كان الوالي عثمان باشا يأمل فعلاً بأن يحتفظ صديقه عبدالله بالإمارة، وأن يبقى الأخ الأكبر الشريف عون عند السلطان في إسطنبول. غير أن الباب العالي قرر أن يتولى الرئاسة الشريف عون، وأصبح على عبدالله أن يذهب إلى إسطنبول، ويكتفي بقبول الألقاب المعتادة إضافة إلى العضوية في مجلس الشورى.

تعيين الشريف عون الرفيق

الشريف عون كان لا يزال دون الخمسين من عمره. ويمكن للمرء أن يأخذ فكرة عن مظهره من صورة أخذتها له (انظر ملحق رقم ٧، صورة ٢٢). كان الشريف ميالا لأن يلبس الملابس العربية، بدلا من الملابس الرسمية المرصعة بالأوسمة. فقد كانت مثل هذه الملابس ثقيلة وغير مريحة. كان لباسه العادي بسيطاً: عبارة عن جبة رقيقة سوداء أو ذات لون غامق مع غطاء للرأس يعرف بالصمادة، إضافة إلى الرباط المسمى بالعقال.

سلوك الشريف عون واتجاهاته

إذا وقع نظرك على الشريف في الديوان أو في صالة الاستقبال، ترى رجلاً رقيقاً دمثاً، تبدو عليه أمارات النبل والشهامة. أما في إدارة شؤون بيته وأسرته فيقال بأنه حاد المزاج. ولم يكن الشريف عون ليطمع بالحصول على الشهرة حتى عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ). لقد كان من عادته أن يستقبل عموم الزوار في يوم الجمعة، غير أنه يميل إلى مجالسة عدد محدود ومخصوص من الناس. وكان يكره الحديث في الموضوعات، التي تخص الأمور الإدارية في مثل هذه اللقاءات العامة. ويصعب الوصول إلى مجلسه في بقية أيام الأسبوع، حيث يتعذر ذلك إلا من خلال أصدقائه ومعارفه. وفي أثناء إقامتي في مكة قدم بعض الأشخاص من الطائف لمقابلة الشريف، غير أنهم انتظروا ستة أشهر قبل أن يؤذن لهم بمقابلته.

يتحدث بعض الناس في مكة عن بعض الاتجاهات الدينية الخاصة بالشريف الكبير. ومثل هذه الأحكام تتردد في الغالب عن بعض الأشراف، الذين يعيشون منزوين عن الآخرين. وفي مكة المكرمة لا يوجد من يتهم بالكفر الحقيقي. وبالرغم مما كان يتظاهر به الشريف من عمق التفكير والميل إلى الشك، لكن هذا لم يكن له سوى أهمية قليلة على طريقة تفكيره.

ومن خلال تعاملي الشخصي مع الشريف، تولد لدي انطباع بأنه يفي بالحد الأدنى المطلوب من تعاليم الإسلام. أما ما يشاع عن اعتقاده بالخرافات، فيبدو أن شيئاً منها لديه، وحاله في هذا حال كثير من رجالنا الأوروبيين المعاصرين الذين يعتقدون بالأرواح، ولاتخرج خرافات الشريف عن هذا.

احتكاك الوالي مع الشريف

إن انطواء الشريف وعدم إقبال المواطنين عليه يعزى جزئياً إلى وجود الوالي عثمان باشا في مكة[1] حتى عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ). فقد وضع نفوذ الوالي وقوته العراقيل أمام أمير الحجاز. وقد ألمحنا سابقاً إلى الاحتكاكات التي لا يمكن تجنبها بين الوالي العثماني وشريف مكة. وسبب ذلك يعود

---

(١) أصبح مكان الوالي العثماني في الحجاز، إضافة إلى شيخ الحرم هو مكة المكرمة. ولايخرج الوالي منها إلا في أيام الصيف، حيث يذهب كما يذهب الشريف إلى الطائف للاصطياف. أما جدة فيسير الأمور فيها ممثل يسمى قائمقام. (المؤلف).

إلى طبيعة اقتسام السلطة العليا في الحجاز. وفي الآونة الأخيرة ظهر بعض الانفراج في هذا الشأن، وخاصة بعد الإشراف المباشر الذي فرضه محمد علي، في أثناء توليه تصريف مقدرات الحرمين الشريفين، نائباً عن الباب العالي. فقد أصبحت الإدارة في أهم الموانىء في ذلك الوقت (جدة) تركية خالصة. وفرضت ضريبة الجمارك على الواردات دونما تدخل من الشريف، الذي خصص له راتب سنوي معلوم. أما قيادة الجيش فقد أعطيت للوالي أو لأحد ضباط الأركان، الذي كان يتلقى أوامره من إسطنبول. غير أن تحديد الصلاحيات وتقسيمها بين الوالي والشريف لم يكن أمراً واضحاً للطرفين. ويبدو أنه أكثر تعقيداً من تحديد الصلاحيات بين المندوب السامي البريطاني وأمراء الولايات الهندية، التي ضمت إلى ممتلكات بريطانيا حديثاً.

ففي الهند هناك أمران أساسان أكثر وضوحاً هما: أولاً: اختلاف الدين، الذي يضم حدوداً خاصة للتدخل الأجنبي، لا يمكن للسلطة أن تتعداها. ثانياً: تتم في الهند صياغة الاتفاقيات بين الوالي المهزوم والسلطة البريطانية بصورة دقيقة، كما يتم تثبيتها كتابياً. وإذا نسي الأمير المهزوم محتوى هذه الاتفاقيات، فإنه يوجد دائماً موظفون مساعدون درسوا في أوروبا، لتنشيط ذاكرته بهذا الخصوص. أما في الحجاز فلا يوجد شيء من هذا القبيل. فوحدة الدين تضمن مزيداً من التدخل، والاتفاقيات المكتوبة بين السلطة العليا والأمراء المحليين لاتنفذ بدون تدخل حكومي. كما لا يود أحد أن يرتبط باتفاقيات إلى الأبد. بل يترك الأمر للعرف الذي يعطي للطرفين مجالاً أكبر للتوسع في السلطة. أما مقدار التدريب الذي يتلقاه الولاة الأتراك، فلا نريد أن نخوض فيه. فقد يبدأ أحدهم جنديّاً، ويبدأ الثاني طالباً في علم الشريعة. وثالث يبدأ خادماً لوزير. ويفتقر معظم هؤلاء إلى الرغبة في إيجاد الثوابت التي تضمن الاستقرار. فالمؤامرات التي تحاك في محيط الباب العالي، والتي لا يمكن السيطرة عليها، قد تتسبب في فصل هؤلاء من وظائفهم دون علمهم وتأتي بآخرين يأخذون مجهوداتهم ويتمتعون بها. كل شيء هنا يعتمد على الأشخاص. وهؤلاء يحتلون في الحياة الرسمية المكان الذي تحتله عندنا القوانين والمؤسسات العامة.

إن التعابير الرنانة وكلمات الإطراء التي تتضمنها كتب تعيين الأشراف والولاة تتجنب أي دقة في تحديد المهام، وتحجب الأفكار عن معرفة مدى الصلاحيات. فمثلا قد يدعي أحد الأشراف الأقوياء أن حدود مملكته تمتد من حلي في الجنوب إلى شمال المدينة المنورة وشرقها في الشمال، طالما اعترف البدو وسكان القرى بذلك. وقد يحدد الشريف مركزه وقوته، بحيث يتحتم على السلطان أن يضع الوالي والحامية التركية تحت تصرفه، لتسهيل ممارسته لسلطاته. وربما يشترط بعضهم عدم سماع الوشايات التي تصل إلى إسطنبول أو التي تفيد بأن الشريف لا يقوم بواجباته، حتى لاتضيع الفرصة منه بحيث يتسنى له ملء جعبته.

وفي المقابل إذا كان الوالي حريصاً على المصالح التركية، فعليه أن يدرك حدود السيادة المتعارف عليها لأمراء الإسلام على هذه البلاد. فليس للحكام الأشراف إلا أن يلعبوا دور المساعدين فقط. والدولة لاتعترف لهم بالسيادة إلا على أفراد عشيرتهم، طالما أن هؤلاء لا يفضلون اللجوء إلى الدوائر التركية. وعلى أيّ حال فقد كان الولاة الأتراك يعدون أنفسهم ملزمين بالتشاور مع أمراء الأشراف، عندما تكون المشورة أمراً مرغوباً فيه أو محتاجاً إليها لأسباب إدارية. وفي حالة اضطرارهم قد يتفاوضون مع وسطاء آخرين مباشرة.

من جهة ثالثة، الحامية التركية الموجودة في الحجاز، تحتاج أيضاً قائداً قوياً يدير الأمور بمفرده مستقلاً عن غيره. غير أنه بجانب هذه الحامية هناك البواردية (الحراس التابعون للشريف والمؤلفون من الأحرار والعبيد) والبيشة (الجند من الذين يعرفون باسم منطقة بيشة الجنوبية) الذين يرون أنه لا يتخلى الشريف عن الإشراف المباشر عليهم، مع العلم أن تسليح بقايا هذا الجيش الأميري ورواتبه يأتي من السلطان.

أعمال عثمان نوري في مكة

إن والياً قوياً مثل عثمان باشا لا يستطيع أن يتعايش إلا مع أحد الأشراف اللينين، غير أن عون الرفيق أظهر أنه لم يكن الرجل الذي يكتفي بالنوم في ظل الأتراك. لقد مضت أربعة أعوام قبل أن تتفجر المنازعات المتزايدة بين الوالي والشريف. وبالرغم من أن الباشا أظهر كل الحفاوة الخارجية للشريف، فقد كان

يزوره أسبوعياً، ولم يمنع عنه أي مبلغ من العائدات المالية المطلوبة للإصلاحات التي اقترحها الوالي، والتي وافق عليها الشريف. وقد اعتاد عثمان باشا مثل بقية من سبقوه أن يأخذ جزءًا من كل مبلغ يخرج من يده، ويحتفظ به لنفسه ولأصدقائه. ومما ميزه عن غيره ممن سبقوه أنه قام بالعديد من الإصلاحات. فقد أصلح شبكة المياه التي بنتها السيدة زبيدة، وجعلها قابلة للاستعمال في مكة المكرمة وفي المشاعر المقدسة. كما قام بإنشاء شبكة مياه جديدة لمدينة جدة. وأقام مبنى ضخماً للحكومة في مكة المكرمة، وشرع في تجديد حصنين من حصونها، وأجرى بعض الإصلاحات في المسجد الحرام. كما قام بإصلاح بعض جوانب النظام الإداري السائد في المدينة المقدسة.

في كل البلدان الإسلامية تظهر في دوائر القضاء أمور محيرة حسب مفاهيمنا، وذلك حين يكون القضاة غير قادرين ولا ميالين لتطبيق الشريعة، بما توحيه عليهم ضمائرهم. فمنذ زمن طويل استغل الأمراء والحكام القانون الجنائي لصالحهم. وبالرغم من أن الحكومة العثمانية أدخلت الكتب القانونية الحديثة، إلا أنها لم تتجاوز حدود الورق المكتوب عليه. اللوائح هنا يجب أن تكون مستمدة من التشريع الإلهي. وأي إضافة أو تعديل في نصوص هذه اللوائح غير ممكن. ولا أحد يستطيع أن يعارض القاضي في قضية يطلب فيها أحد الأطراف استئناف الحكم. وحسب التصورات السائدة فإن القاضي هنا هو قاضٍ ديني، اعتاد أن يطبق فقهه فقط، على بعض المسائل المعروفة. وقد يشتكي إليه الناس الظلم الجائر الذي يحيق بهم في بعض الميادين الأخرى. أما القضاة الدنيويون في مكة فهم اثنان، وذلك من منطلق الثنائية الموجود في الحكم في هذه البلاد. وتتأرجح صلاحية كل منهما حسب أهميته الشخصية.

فعلى سبيل المثال إذا ألقى الجنود الأتراك القبض على أحد مسببي القلاقل، أخذ إلى المكتب التركي، بينما إذا ألقى البواردية القبض على آخر صدفة، أحضر إلى الشريف أو القائم مقام التابع له (أحد الأشراف الذي يمثل سيده في الحالات العادية). وهذا يؤخذ إلى سجن الشريف، وذاك

يرسل إلى سجن الوالي. الأحكام الطويلة في السجن يقضيها المكيون في سجن القلعة. أما الدخول إلى هذا السجن فيمكن أن يكون عن طريق الوالي أو عن طريق الشريف، وذلك بناء على الاختيار الذي يقوم به الفرد بالتوجه إلى الشريف، أو الوالي للفصل في القضية. وهناك بعض القواعد المرعية التي يمكن تطبيقها في هذا الصدد. فقد جرى العرف أن ينظر الشريف في المسائل التي يكون فيها أحد الأطراف من الأشراف أو من البدو أو من مواليد مكة، على ألا يكون تركي الأصل. غير أن الظروف الشخصية كثيراً ما تتدخل لتلغي مثل هذه القواعد العرفية لسبب أو لآخر.

هناك حرية من قبل المواطن باختيار محكمة العدل التي يريدها (محكمة الشريف أو محكمة الوالي). غير أن الأشخاص يختارون القاضي، الذي لا يستطيع الطرف الآخر معارضته. وقلما كان ذلك يجدي نفعاً. فعلى سبيل المثال قد يرى المرء أن خصمه يساق إلى السجن، بعد قرار من قبل الشريف عون. غير أن قراراً آخر من قبل الوالي عثمان نوري كان يخرج ذلك السجين من سجنه في اليوم نفسه. وقد رأيت في أثناء إقامتي في مكة الكثير من هذه الحالات، فالتحيز الواضح في اختيار القاضي، هو السمة الغالبة، الأمر الذي كان يزيد من حدة التناقض والصراع بين طرفي السلطة في مكة.

أراد عثمان باشا أن يتدخل في أمر كان الأشراف يعتبرونه من اختصاصهم، ألا وهو إدارة البدو لأمن طرق القوافل. وقد بينا سابقاً أن الأشراف يستطيعون بوسائل قليلة تحقيق نجاح أكبر في هذا المجال من الأتراك. غير أن الوالي إذا امتنع عن المشاركة في العمليات التي خطط لها الشريف، فإن الأمر يصبح صعباً بالنسبة للشريف. وكذلك العكس بالعكس. ومن هنا نرى أن الوالي إذا كان يريد أن يظهر للملأ عدم جدوى أفعال الشريف، فإن الشريف في المقابل يظهر للوالي أنه بدون المساعدة التي يقدمها الشريف لا يكون للوالي حول ولا قوة. ومثل هذه الغيرة العمياء كانت كفيلة بإفشال الإجراءات التي يقوم بها فريق ما من قبل الفريق الآخر. وينتهي الأمر بأن يلوم كل واحد منهما الآخر إمام السلطة العليا بإسطنبول.

لقد أصبحت الطرق بين مكة وجدة، ومكة والليث غير آمنة. بسبب قطاع الطرق واللصوص الذين يعملون تحت حماية قائمقام مكة السابق علي السروري. وفي عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) رفض أحد شيوخ قبيلة حرب المدعو ابن عاصم أن يقوم بحراسة القافلة؛ لأنه لم يحصل على نقوده السنوية المعتادة كاملة؛ لذا أراد عثمان باشا أن يقف ضد هذا وأمثاله، مما أثار مقاومة الشريف، الذي كان يرى زيادة رغبة الباشا في السيادة بمفرده. وهكذا لم تصل القافلة إلى المدينة للزيارة. ثم نفذ عثمان باشا خطته، حيث قام بتأديب الثوار بقوات تركية بحتة، وأعاد فتح الطريق إلى المدينة المنورة، متجاهلاً نصائح الشريف.

لقد أبلغ الطرفان الباب العالي كل بوجهة نظره حول الموضوع السابق. غير أنهما تلقيا الجواب المعتاد، بأن عليهما أن يتحملا بعضهما، ويتعاونا معاً بصورة أفضل.

الشريف عون ينسحب إلى المدينة

إزاء ذلك ذهب الشريف مع كبار الوجهاء من أتباعه إلى المدينة المنورة. وأرسل منها مبعوثاً إلى الباب العالي، يرجوه أن يقيله أو يقيل الوالي، مؤكداً بأنه لن يرجع إلى مكة، طالما عثمان باشا موجود فيها يحيك الدسائس ضده. ومن بين الذين غادروا مكة المكرمة برفقة عون مفتي الشافعية في مكة وشيخ العلماء فيها [أحمد زيني دحلان]. وبالمقابل كان للوالي عثمان باشا أصدقاء من العلماء المرموقين أيضاً.

تشويه سمعة الوالي

حاول أنصار الشريف عون أن يشوهوا سمعة الوالي بين السكان، فقد تم تكبير أخطائه، حتى تلك التي كان الشريف عون شريكاً فيها. ومن بين هذه الأخطاء التي ضخمت وكأنها خطيئة كبرى، محاولة تعيين لجنة في كل حي من أحياء المدينة، من أجل الإشراف على تنظيفها. وفي صباح أحد الأيام ألصق على جدران المسجد منشورات (انظر الملحق) كتب عليها عبارات استفزازية ضد الوالي جاء فيها: أن الدخول إلى الجنة بدون حساب: سيكون من نصيب الذي يستطيع أن يزيل الوالي الملعون من الدنيا. هذا الإنسان الملحد قد تجرأ على القول بأن مكة ليست أفضل من إسطنبول. (انظر الملحق رقم ٤).

نقل عثمان باشا إلى حلب

لم يضع قرار الباب العالي اللوم على أحد من الطرفين، لكنه نقل الوالي إلى حلب، وعين جميل باشا والياً للحجاز. وقبل وصول جميل باشا غادر عثمان نوري (في ديسمبر عام ١٨٨٦م) (ربيع الآخر، ١٣٠٤هـ) إلى مركز عمله الجديد، كما عاد الشريف عون إلى مكة، حيث قام وبسرعة مذهلة بإقصاء أصدقاء الوالي عن وظائفهم وفرض الاستقالة (ماعدا بعض الحالات) على المواطنين الذين يتم تعينهم عن طريق الدوائر الحكومية في إسطنبول، باعتبار أن هؤلاء من أعوان الوالي السابق. وقد أمر بكتابة عبارة «دائرة الإمارة الجليلة والحكومة السنية» على حجر أحمر فوق باب قصره «وهكذا أراد الشريف عون أن يفرض على الوالي الجديد وضعاً لم يكن يستطيع القيام به في ظل وجود الوالي السابق».

تعيين جميل باشا

لقد تصرف جميل باشا بصورة مختلفة كلياً عن سابقه، غير أن حظه من النجاح كان كحظ سلفه. وكان انفتاح جميل باشا على السكان، أقل مما كان عليه عثمان باشا، الذي سمح لجميع الناس الدخول بحرية. وقد تصرف الوالي مع الشريف تصرف الموظف، الذي يود أن يفعل شيئاً لإرضائه، غير أنه لا يريده أن يخطو خطوة تحيد عن الطريق المرسوم. وهذه السياسة لم يكن الشريف عون قادراً على احتمالها ومجاراتها على المدى الطويل.

اضطر الشريف تحت ضغط تهديد الوالي بالكتابة إلى إسطنبول، أن يلغي إعادة تعيين موظفين جدد في المناصب المهمّة، التي أمر بها الشريف عون قبل قدوم الوالي. وقد أثار استغراب الوالي أمر أسر الشريف عبدالله بن زبن الذي عينه عثمان باشا أميراً على وادي فاطمة، الذي احتجزه الشريف عون بواسطة البواردية والبيشة التابعين له. وقد قام الوالي بإطلاق سراحه في اليوم نفسه. وقد أدرك الوالي عدم صدق الشريف بأنه هوجم خلال زيارته للوادي، ولم يقتنع بطلب المساعدة بالقوات والسلاح ضد الشريف عبدالله بن زبن، مشيراً إلى صلاحياته المحدودة في هذا المجال.

إعفاء جميل باشا

لم يعجب الدبلوماسي المتمرس مثل هذا الجو المشحون، المصحوب بحرارة الطقس الشديدة، التي تجعل العمل في هذه المنطقة أمراً بالغ

الصعوبة. وبناء على طلباته المتكررة قام الباب العالي بإعفائه وأرسل بدلاً منه صفوت باشا، الذي كان يشغل المنصب نفسه في الفترة من ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢م (١٢٩٧ ـ ١٢٩٩هـ).

تعيين صفوت باشا

أخذ صفوت باشا الأمر بسهولة قدر الإمكان، فقد كان مبدؤه ترك الناس يعيشون كما يريدون. ولم يمنعه طموحه من أن يؤدي دور الخادم المطيع لأوامر الشريف. وهكذا وجد الشريف عون الفرصة سانحة لإشباع نهمه من السلطة. وفي هذه الأثناء عيّن عثمان باشا والياً على اليمن، بحيث إذا حدثت تعقيدات جديدة في الحجاز، تتطلب حضور رجل قوي، فإن الباب العالي سيعيده إلى مركزه الذي شغله لمدة أربع سنوات متتالية.

موقف أهل مكة من الأشراف والباب العالي

بقي الصراع مستمراً منذ ألف عام تقريباً بين الحكام المحليين، وحماة الديار المقدسة الأجانب. غير أن سكان مكة يقفون في اللحظة الأخيرة إلى جانب الحكام المحليين. ومع هذا لا يجوز أن يتناول أحدُ سلطان الإسلام بسوء. واسم السلطان هنا يلقى الاحترام والتقدير بشكل عام. ويرى الناس أن الفساد مستشرٍ بين ممثلي السلطان الذين يدمر بعضهم بعضاً. المواطن العادي يخشى سيدنا الشريف أكثر مما يخشى أفندينا الوالي؛ لأن سيدنا ينتسب إلى عائلة وطنية كبيرة ويعرف أصول الحياة العامة، وهو يمثل الوسط الطبيعي لمكة القديمة، بينما أفندينا ـ في كل يوم أفندي جديد ـ لا يمكن معرفته إلا من خلال الطربوش، ومن خلال جهله كسلفه باللغة العربية، إضافة إلى تمثيله لرغبات الأتراك بفرض السيادة المركزية.

لسان حال العامة في مكة يقول: سيدنا هو رئيس كل الأشراف، وهو سيد الحجاز، ما لم يعارضه أحد أقربائه أو يثور عليه. وبجانب الأشراف هناك نقابة للسادة الحسنيين الذين يتمتعون على الصعيد الديني باحترام كبير. وهؤلاء السادة لم يطمحوا في الحصول على دور سياسي. كذلك الأمر بالنسبة لبني شيبة الأقل عدداً، وقد بقيت لهم سدانة البيت منذ أيام الرسول ﷺ، التي حصلوا من خلالها على شهرة كبيرة. تأتي بعد ذلك النقابات المختلفة التي يتولى رئاستها أعضاء منتخبون من قبل نقاباتهم. ثم هناك الجاليات

المجاورة، التي وفدت من مختلف بقاع العالم الإسلامي. ولهذه الجاليات زعماؤها الذين يتولون تصريف أمورها، ثم هناك الأحياء المختلفة للمدينة. حيث يشكل كل حي وحدة عضوية تحت زعامة أحد الشيوخ (العمد). وباختصار فإن المدينة مجزأة إلى وحدات أشبه بأمبراطوريات ذات سلطات محدودة. أما إمبراطورية سيدنا فهي إمبراطوية الإمبراطوريات.

لقد كان من السهل على السلطة أن تتعامل مع هذه الفئات المختلفة. فمرة تثير واحداً ضد الآخر، ومرة أخرى تجبر الجميع على الطاعة، عن طريق فرض السيطرة بالقوة، من خلال البدو الذين يسهل استخدامهم لمثل هذه الغايات، وخاصة إذا طلبت السلطة التركية عمل مثل ذلك. وثالثة عن طريق حل النقابات وإعادة تشكيلها بحيث تحقق الغايات المرجوة. وفي كثير من الأحيان لا يحتاج الأمر إلى تدخل السلطة، بل إن أحياء المدينة تسلي نفسها بين حين وآخر عن طريق المشاجرات التقليدية.

إن مثل هذه الطوائف والنقابات والفئات والمؤسسات المختلفة تفقد محتواها قطرة قطرة. ولو كانت الإدارة التركية حازمة لأمكن التخلص، منذ زمن طويل من هذه المؤسسات، التي تعود إلى العصور الوسطى. ومع هذا يشعر المكيون بأن سيادة المفاهيم التركية ستلغي وبمرور الزمن الدور الذي تقوم به هذه المؤسسات، وهذا يجعل مصالح المكيين تتطابق مع مصالح الزعامة المحلية. ولما كانت الزعامة المحلية الممثلة بواسطة الأشراف لها أصولها القديمة، لذا كان يهم الحكومة التركية الاعتماد على السلطات المحلية، إذا أرادت إدخال أي تجديد؛ لأن مثل هذه السلطة قادرة على قمع أي معارضة متوقعة بين صفوف أبنائها.

إنه لمن المؤسف حقاً أن أحداً لم يكن قادراً على ضبط الهدوء والنظام في الأراضي المقدسة منذ تلاشي الدولة العباسية. ولعل السبب في ذلك يعود إلى وجود المشكلات الداخلية للدول الإسلامية، التي تبسط سيطرتها الاسمية على الديار المقدسة، بحيث تفتقر إلى الوقت الكافي اللازم لحل الأمور في المناطق البعيدة. أما اليوم (١٨٨٥م) (١٣٠٣هـ) ومن خلال توفر أجهزة الاتصال

الحديثة، فيبدو أن تنظيم الحجاز بالنسبة لتركيا لا يبدو مشكلة صعبة. غير أن العقبة الأولى في تحقيق ذلك هو الافتقار إلى المال. ومهما قيل في فساد إدارة الأتراك، فإن الدولة ليست مريضة مرضاً مميتاً، ما دامت تظهر أناساً مثل عثمان نوري باشا. ولولا الإفلاس المالي الذي يجبر الموظفين على الحصول على الأموال بالطريقة التي يرونها مناسبة، لكان عثمان باشا مثال الحاكم الناجح الذي يحقق الكثير لشعبه.

الأتراك ممهدون لنقل الحضارة الأوروبية

معظم الأوروبيين يرون أن أَوْرَبَة الإدارة (بجعلها على الطريقة الأوروبية) وكذلك السكان في الدول الشرقية، هو شرط أساس لسعادتهم. وعلينا أن نتذكر أن الأتراك يقومون بهذا التغيير دون وعي. ويعرف العرب ذلك التغيير بصورة أكثر وضوحاً. وإنك لتسمع دائماً أن الناس يصفون الموظف الذي يتدخل في أمر غير مرغوب «لابس بنطلون»، إنهم حقاً كلاب المسيحيين!

لقد أوضح أحد الكتّاب الإنجليز قبل سنوات قليلة ضرورة إشراف إحدى الدول الأوربية العظمى على شؤون غرب الجزيرة العربية. والسبب في ذلك أن مكة المكرمة، المركز الروحي للإسلام، تجعل من كل الدول التي فيها مسلمون تواقة للإشراف على شؤونها، ومن هنا تأتي ضرورة إشراف الدولة الأوربية عليها بادئ ذي بدء. وفي رأيي إن مثل هذا القول يمكن تحقيقه في القرن القادم، بدون اصطدامات عنيفة، وذلك عن طريق توسط تركي في هذا السبيل.

أخيراً يمكن القول من وجهة نظر رومنسية إن التغيير السريع للحياة المكية أمر مأسوف عليه، غير أن هذه الرومنسية يجب أن تفسح المجال في يوم من الأيام لمتطلبات الحياة العملية.





ص.ب: ٢٩٤٥ ـ الرياض ١١٤٦١
المملكة العربية السعودية ـ هاتف ٤٠١١٩٩٩
فاكس ٤٠١٣٥٩٧

P.O.Box: 2945 - Riyadh 11461
K.S.A - Tel: 4011999 Fax: 4013597

البريد الإلكتروني: info@darah.org.sa
موقع الإنترنت: www.darah.org.sa

ص.ب.: ٦٥٣٥ ـ مكة المكرمة (العزيزية)
٢١٩٥٥ المملكة العربية السعودية
هاتف ٠٢٥٥٨٨٨٨٩ ـ فاكس ٠٢٥٢٨٦٣٤١

P.O.Box: 6535 - Makka (Al-Aziziya)
21955 Kingdom of Saudi Arabia
Tel: 025588889 - Fax 025286341

تأليف: ك. سنوك هورخرونيه
نقله إلى العربية وعلق عليه: د. محمد محمود السرياني
د. معراج نواب مرزا



صفحات من تاريخ مكة المكرمة

المجلد الثاني

تأليف: ك. سنوك هورخرونيه
نقله إلى العربية وعلق عليه: د. محمد محمود السرياني
د. معراج نواب مرزا



صفحات من تاريخ مكة المكرمة

المجلد الثاني

«الطبعة الثانية»
«الطبعة الأولى للكتاب نشرتها دارة الملك عبدالعزيز
عام ١٤١٩هـ (١٩٩٩م) بمناسبة الاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية»

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هورخرونيه، ك. سنوك
صفحات من تاريخ مكة المكرمة / ك. سنوك هورخرونيه؛ محمد محمود
السرياني، معراج نواب مرزا ـ ط ٢ ـ مكّة المكرّمة، ١٤٣٢هـ.
٤٧٢ ص؛ ٢٠ X ٢٧ سم
ردمك: ٧ ـ ١ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
١ ـ ٣ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٢)

١ ـ مكة المكرمة ـ تاريخ ٢ ـ مكة المكرمة ـ أحوال اجتماعية
٣ ـ مكة المكرمة ـ وصف ورحلات أ ـ محمد محمود السرياني (مترجم)
ب ـ معراج نواب مرزا (مترجم) ج ـ العنوان
ديوي ٩٥٣,١٢١ ١٤٣١/٤٥٣٨

رقم الإيداع: ١٤٣١/٤٥٣٨
ردمك: ٧ ـ ١ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
١ ـ ٣ ـ ٩٠١٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات المجلد الثاني

الملاحق

صفحات من تاريخ مكّة المكرّمة

المجلد الثاني

دراسة تفصيليّة للأوضاع الاجتماعية
في نهاية القرن الثّالث عشر الهجري

الفصل الأول
الحياة اليوميّة في مكّة المكرّمة

سكان مكة

إن الناظر في شوارع مكة يرى خليطاً متنوعاً من السكان من كل جنس ولون، فهناك الأتراك ذوو البشرة البيضاء، والنوبيون ذوو البشرة السوداء، بالإضافة إلى العديد من الأجناس الأخرى التي تتدرج ألوانها من البياض إلى السمرة. إن هذا الخليط السكاني يحمل الناظر على الاعتقاد بأن مبدأ (رينان) في تشكيل الأمة، والقاضي بتناسق عناصر السكان ووحدة أصولهم، لا يفسر تجمع هذا الخليط السكاني المتعدد الجنسيات الذي تحدوه الرغبة في العيش سوياً.

إن الغالبية العظمى من هؤلاء المكيين، الذين لا يزالون ينتمون إلى أصولهم الأولى قد قدموا إلى هذه الديار لرغبتهم في أن يكونوا بجوار بيت الله الحرام، وهذا لا شك يعطي تأثيراً فريداً لاجتماع هذه العناصر الوافدة.

غير أنه بجانب هذا الهدف الديني هناك منافع دنيوية أخرى يلمسها المرء من خلال صيغ الدعاء التي تقال في العادة بمناسبة أداء فريضة الحج، مثل: «حج مبرور، وذنب مغفور، وتجارة لن تبور» فبجانب جوار بيت الله هناك الأغراض التجارية. وإن كثيراً من الأتراك والمصريين والسوريين والبخاريين وسكان آسيا الوسطى بالإضافة إلى الهنود يشتركون معاً كفئة واحدة في حرفة التجارة، حيث يقدم هؤلاء إلى مدينتهم المتواضعة الكماليات التي تبهر بوجودها جموع الحجاج والمجاورين. وبالإضافة إلى ذلك فإن صناعة الأدوات البسيطة التي لا تستورد جاهزة من الخارج هي في أيدي نفر من الحرفيين الذين يأتون من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

وبجانب هؤلاء التجار والحرفيين يفد إلى المدينة المقدسة العديد من المتسولين الذين يفدون في موسم الحج، حيث يجدون بيئة خصبة لمهنتهم أكثر من بلادهم، ومن الجدير بالذكر أن المتسولين من وسط آسيا يفدون براً بوصفهم دراويش ويلبسون ملابس رثة، وتغطي رؤوسهم قبعات تترية مصنوعة من الصوف. ويحمل الواحد منهم في يده عصا بها بعض القطع الحديدية التي تصدر أصواتاً تصاحب الأناشيد التي يتغنون بها. أما اليد الأخرى فيمدها لطلب الصدقة، أو يحمل بها وعاء خشبياً، أو غلاف جوزة الهند يستعملها كوعاء لهذا الغرض.

وينتمي إلى هذه الطبقة معظم المتسولين الذين يطلق عليهم اسم الشحاذين أو المداحين. إن المدائح التي ينشدها هؤلاء أمام البيوت هي مدائح دينية قصيرة يتردد فيها ذكر الله ثم طلب الإحسان[1]. وفي حالة عدم رغبة صاحب البيت في إعطاء هؤلاء يكون الجواب (الله كريم)، فيغادر المتسول البيت إلى البيت المجاور.

إن المتسولين والفقراء الأجانب الذين قدموا إلى هذه البلاد، والذين لا يفكرون بالعودة إلى بلادهم يحاولون إيجاد فرص عمل مختلفة في أعمال لا يقبل السكان المحليون العمل بها وبأجور منخفضة أيضاً. ويعمل هؤلاء أمام أبواب المساجد، حيث يحتفظون بأحذية المصلين لقاء مبلغ زهيد من المال، أو يعملون في خدمة عدد من الأسر، أو يعملون في العديد من الأعمال الأخرى التي لا يقبل الخدم العمل بها.

الهنود

ومن الجدير بالذكر أن الهنود كانوا يكسبون أرباحاً طائلة من العمل في التجارة التي ينشط بها هؤلاء. وكذلك من إقراض الأموال المتوافرة لديهم التي كانت تصل أرباحها إلى ٥٠٪. والصورة التي يتم بها إقراض المال تتلخص في:

١ ـ كتابة صك بمبلغ كبير من المال إلى أجل مسمى.

(١) كقولهم: من عطانا الله يعطيه.. أو يا حاجي أعطني من زادك عسى الله يوصلك بلادك.

٢ ـ أن يبيع الدائن المدين بعض الحاجات بأسعار عالية جداً على أن يدفع ثمنها في وقت لاحق، ثم يعود فيشتريها منه بثمن بخس، ويعطيه المال دفعة واحدة على أن يتقاضى المبلغ الأول فيما بعد.

لقد عرفت بعض المكيين لهم سندات ديون على بعض أفراد الجاوي تتراوح بين ٥٠,٠٠٠ إلى ٨٠,٠٠٠ دولار نمساوي (ماري تريسا). وهؤلاء ليست مهمتهم إقراض المال بل هي حرفة جانبية. ولقد تأثر الجاوي بالأوضاع السيئة في بلادهم، حتى إن دائنيهم لم يتقاضوا سوى نصف المبلغ المذكور أعلاه.

إن هذه الطرق لابتزاز الأموال عن طريق الإقراض، كانت تعرض بعض هؤلاء الدائنين إلى المحاكمة يومياً. غير أن العديد منهم كان لا يتورع عن مخالفة القوانين الموضوعة لذلك.

الحضارم

إن المنافسين الحقيقيين للهنود في هذه المهنة هم الحضارم. وفي الغالب يأتي هؤلاء إلى مكة خالي الوفاض. ولكن بجد هؤلاء الدائب، وتحملهم المشاق الكثيرة، يرتادون مهنة التجارة أو أي مهنة أخرى تواتيها الظروف. فبعض هؤلاء يبدؤون حياتهم حمالين في جدة، حيث يقومون بنقل البضائع والحاجيات من الميناء إلى المدينة. وبعض هؤلاء يصبح من الأثرياء. أما في مكة فيعمل هؤلاء بادئ ذي بدء عمالاً عند أصحاب المحال التجارية، حيث يتقن هؤلاء المهارة الفنية، ويتعرفون على الأجواء المحلية للبيئة، وينتقلون بعدها إلى العمل بالتجارة لحسابهم الخاص.

فالحدث ابن الأربعة عشر عاماً إذا ما كسب ٢٥ دولاراً من عمله خلال عام، يقوم بإقراض ٢٠ دولاراً إلى بعض المحتاجين، فتدر عليه ربحاً يعادل ١٠٠٪ خلال بضعة شهور.

اليمنيون

ويأتي إلى مكة للأسباب السابقة نفسها أبناء اليمن، ولكنهم أقل أهمية وشهرة من الحضارم، ويأتي من مناطق الحجاز إلى مكة، وخاصة من المنطقة الواقعة بين الطائف ووادي لية بعض البدو الفقراء الذين يعملون بوابين في بيوت مكة، حيث يسكن هؤلاء عند مدخل الدار للقيام بالحراسة.

وهذا النوع من العمل مهم جداً في أوقات الحج، حيث تكون هذه البيوت مملوءة بأمتعة الحجاج. وهؤلاء عندهم أمانة للقيام بهذا النوع من العمل، ولهذا يفضلهم سكان مكة أكثر من غيرهم.

البدو

وفي الجنوب الغربي من المدينة يستوطن البدو من مناطق الحجاز المختلفة. ويعيش الفقراء منهم في أكواخ، بينما يعيش الموسرون في بيوت بسيطة. ويقوم هؤلاء بإيجار جمالهم بين جدة والطائف والمدينة، كما يقومون بجلب الأغنام والحليب والزبد والتمور من مناطقهم المختلفة إلى المدينة المقدسة. ويطلق على هؤلاء في الغالب اسم (المكاريين[1] والمتسببين)، أو (المخرجين). ويستوطن في الجهة الشمالية والجنوبية من المدينة أيضاً مجموعات من هؤلاء البدو، ولكن بأعداد قليلة وفي مناطق بعيدة لا يمكن عدّها جزءاً من المدينة.

الأفارقة

وفي القسم الجنوبي الملاصق للمدينة توجد أكواخ الزنوج وهؤلاء هم من التكارنة الأحرار، والقليل منهم من العبيد الذين تحرروا والتحقوا بهم، ويعمل هؤلاء حمّالين، كما يعملون في تنظيف دورات المياه في الشوارع، وفي أعمال صناعة الفخار، وفي صناعة المكبات والزنابيل والمكانس وغيرها.

إن هذه هي المنافع المادية التي تجلب العديد من المسلمين إلى مكة. ومن بين الجنسيات السابقة هناك العديد من الأفراد الذين يفدون إلى مكة بدوافع دينية وروحية صرفة، حيث تكون لديهم الرغبة في تعلم القرآن الكريم في منابعه الأولى، كما أن لديهم الميل للعيش بجوار مشاهير العلماء الذين يعيشون في المدينة المقدسة، أو لتكفير الذنوب والخطايا، أو للبذل بسخاء على أعمال البر والإحسان، أو لانتظار الأجل المحتوم بقصد الموت في هذه الأماكن الطاهرة.

الجاوي

ونجد العديد من سكان جزر الهند الشرقية والملايو يفدون لهذه الأغراض الأخروية أكثر من المنافع الدنيوية، غير أنهم بعد

---

(١) المكاريين: جمع مكاري، وهو مَنْ يؤجر وسيلة نقل.

برهة من الوقت تصيبهم عدوى الدوافع الدنيوية، وعلى العموم يتصف هؤلاء بقلة عدد المتسولين منهم.

سكان نجد

وعلى الرغم من أنه يسكن المدينة المقدسة العديد من الجنسيات المختلفة، غير أن الملفت للانتباه هو قلة عدد القادمين من وسط الجزيرة العربية إلى هذه المدينة، بقصد السكنى الدائمة. والذين يمكثون من هؤلاء هم التجار فقط، أما الباقي فلا يقصدون المدينة إلا في موسم الحج ولمدة وجيزة.

إن الوافدين إلى مكة من أصول مختلفة يبدؤون في السكن بمناطق خاصة بهم في المدينة المقدسة، ومع أنهم يتعاملون مع الجنسيات المختلفة الأخرى، إلا أن اتصالهم المباشر والغالب مع أبناء جلدتهم. وهذا بطبيعة الحال موجود بين جميع رعايا الدولة العثمانية. وهذا الانفصال في الحياة الاجتماعية، ليس له أي تأثير في النواحي السياسية، فحتى رعايا الدول الأوروبية الكبرى التي لها نفوذ كبير حريصون على عدم إظهار نفوذهم السياسي، حتى لا يهانوا من قبل المواطنين، وبالتالي تقوم السلطة بطردهم.

وفي حالات نادرة يكون هناك اتصال مباشر بين بعض المسؤولين في الدولة، وبعض الشخصيات الأجنبية، وخاصة البريطانية، وفي حالة حدوث مثل هذا الاتصال يعامل هؤلاء معاملة رعايا الدولة. وحتى قبل قدوم هؤلاء يجب أن يتقدموا بطلب حماية السلطان، حتى يتسنى لهم البقاء في هذه البلاد. وحديثاً فرض على جميع الأجانب الذين يريدون تملك أراضٍ في الحجاز أن يحصلوا على التابعية التركية. إن التجنس أمر حاصل، ولكن ليس له صبغة قانونية خارج مكة، ولا تستطيع السلطات الأجنبية التأثير في ذلك.

علاقة السلطة بالسكان

إن التعامل بين السلطات المحلية وأفراد الجنسيات المختلفة يحتاج إلى نوع من الوساطة؛ فالاختلاف في اللغة والعادات كثيراً ما ينجم عنه عدم التفاهم بين هؤلاء والمسؤولين. ولتجنب مزيد من سوء الفهم، يقوم الشيوخ أو المطوفون بدور الوساطة بين المسؤولين وأفراد الجاليات المختلفة.

فالحضارم مثلاً، وهؤلاء لم تخضع بلادهم لنفوذ الدول الكبرى، ولا للدولة العثمانية، لهم مشايخهم الذين يقومون بدور الوساطة بين السلطة المحلية وأفراد جاليتهم. وكذلك الحال في كل حي من أحياء مكة، حيث يكون الشيخ (العمدة) حلقة الاتصال بين أبناء الحي والسلطة المحلية. ودور هؤلاء محصور في النواحي الإدارية. وكذلك الحال مع السليمانيين، وهم الجالية الأفغانية، حيث يتسلم مسؤول (عمدة) من أفراد هذه الجالية زعامة الجالية، وتمثيلها لدى السلطات المحلية في مكة. والحكومة العثمانية تكثر من تحديها لسلطة هؤلاء المسؤولين عندما تجد ذلك ضرورياً، وخاصة لدى الجاليتين الأفغانية والحضرمية.

تأقلم الجاليات

إن مكة هي بلد الجاليات المختلفة من كل جنس ولغة، حيث يشعر هؤلاء جميعاً بأنهم في بلدهم، على الرغم من أنهم غرباء عنها. إن كثيراً من الجاليات المختلفة قد اندمجت مع المجتمع المكي؛ فتطلعات هؤلاء، وعلاقاتهم الوظيفية، بجانب العديد من الأسباب الأخرى، قد قاربت بين هؤلاء والمجتمع المضيف، وبالتدريج وجد هؤلاء مكانهم في المجتمع المكي. ونجد بين الجاليات المختلفة العديد من صور التدرج نحو التأقلم مع المجتمع المكي، على أنه لا يوجد هناك فوارق كبيرة بين هؤلاء وأولئك. فالزواج رابطة رئيسة من صور الاندماج بين هؤلاء، فالرجل الذي يتزوج امرأة تربت في مكة يصبح مكياً، وفي الجيل الثاني أو الثالث تتلاشى صلة الأسرة بأصولها القديمة. إن هذا الخليط السكاني من المواطنين ينصهر تدريجياً في بوتقة المجتمع المحلي، على الرغم من عدم وجود روابط قربى بين أفراده، فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار عامل التزاوج بين هذه الفئات المختلفة، وخاصة الزواج بأكثر من واحدة، أدركنا أن كل حي من أحياء مكة المكرمة يشمل أنواعاً عديدة من الأجناس المختلفة. وحتى في الأسرة الواحدة يمكن أن نجد أخلاطاً عديدة من ألوان البشرة التي تمثّل كافة الألوان البشرية المعروفة. إن عملية انصهار الفئات العرقية المختلفة في البوتقة المحلية عملية مستمرة في مكة، وتتجدد باستمرار، وستظل باقية ما دام هناك عناصر وافدة إلى المجتمع المحلي، ومع كل

ذلك لا نزال نجد هناك بعض العادات والزي واللغة والصفات التي تمثل البيئات التي قدم منها هؤلاء موجودة بين أفراد المجتمع المحلي.

وعلى الرغم من أن المجتمع المكي ينحدر من أصول عدّة، معظمها من خارج الجزيرة، إلا أنه يمثل بكل تأكيد خصائص السكان في غرب الجزيرة العربية، التي تمثل التفاعل الحاصل بين العادات والأخلاق التي قدم بها هؤلاء، مع عادات وأخلاق المجتمع المحلي بفئاته المختلفة، ممثلاً بالأشراف والسادة، وبالعائلات المكية القديمة، بالإضافة إلى القبائل الحجازية، وفروع قبيلة حرب المختلفة، ويضاف إلى ذلك المهاجرون القادمون من جنوب الجزيرة العربية (من الحضارمة واليمنيين) الذين لا يختلفون في عاداتهم وتقاليدهم عن سكان مكة الأصليين. وعلى الرغم من أن المهاجرين بفئاتهم المختلفة يتخلون عن عاداتهم الوطنية بمرور الزمن، إلا أنهم قد أثّروا في المجتمع المحلي بتلك العادات والتقاليد التي قدم بها هؤلاء من الوطن الأم. وعلى الرغم من أن لغة أهل مكة الدارجة هي إحدى الأنماط المحلية في غرب الجزيرة العربية، غير أنها تحوي بعض الألفاظ الأجنبية من لغات شتى، دخلت إلى هذه اللغة من جرّاء قدوم الوافدين إلى هذا البلد المقدس. أما من حيث اللباس فعلى الرغم من أن أهل مكة قد استعاروا كثيراً من الملابس الهندية، إلا أن الزي المكي زي مميز، وقد استفاد كثيراً من اللباس العربي التقليدي. ويتجلى لدى أهل مكة الكرم العربي، غير أن المكيين قد استفادوا كثيراً من الأكلات الشعبية لدى الأمم المختلفة التي تمثل الأصول الأولى التي قدم منها بعضهم. ويلمس المرء لدى المكيين في مواسم الحج كرماً بارزاً. والمكيون بطبيعة حياتهم الاجتماعية كرماء إلى درجة الإسراف.

إن العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين أحياء المدن، قد اتبعت نمط غرب الجزيرة العربية، فقد تنشأ الحزازات بين أحياء المدينة المختلفة لأسباب تافهة؛ إذ قد يؤدي شجار الأطفال مع بعضهم بعضاً إلى نزاع بين حيين، وربما يقوم أحد الأشخاص بطرد الكلاب نحو حي معين، فتكون النتيجة نشوب العداء المستمر. وفي هذه الحالة لا يستطيع شخص من أي

الحيين المرور بالحي الآخر دون أن تنهال عليه الحجارة، أو ربما يضرب بخنجر إذا كان الوقت ليلاً. ويحمل رجالات مكة من الأشراف وبعض السادة الخناجر في أحزمتهم، أما أبناء الأحياء فيحملون سلاحهم تحت ملابسهم. وفي حالة الشجار (الهوشة) يحمل أبناء الأحياء العصي (النبابيت)[١] في أيديهم. إن مسببي الشغب بين الأحياء، وخاصة الذين يعدون أنفسهم شجعاناً (مشاكلة) يحسرون عن رؤوسهم، لتظهر الندب الموجودة على جماجمهم، والتي حصلت لهم من جرّاء الشجار، كناية عن الشجاعة وعدم الخوف. وتحدث هذه الخصومات في الغالب أسفل جبل أبي قبيس (منطقة أجياد). وحتى يمكن التهرب من قبضة رجال الأمن، يبتعد هؤلاء أيام الأعياد، حيث يتجمع أناس كثيرون في أماكن بعيدة نوعاً ما، وخاصة بجوار المقابر. وإذا توفي أحد هؤلاء أو جرح، يتولى أبناء الحي الآخر، الذي تسبب في ذلك، دفع الدية أو التعويضات المستحقة، والتي توزع على جميع أبناء الحي كل بحسب إمكاناته، ولا تقل الدية في الغالب عن ٨٠٠ دولار نمساوي. أما الجروح فتقدر قيمتها طبقاً للأعراف السائدة.

أما الانتقام من الخصوم، فيكون على الشخص الذي يقع تحت قبضة اليد أولاً كائناً من كان، وعلى العموم تبقىٰ دائماً حسابات بين الخصوم يجب تصفيتها بطريقة أو أخرى، وحينما يصاب أحد الأشخاص المشهورين بجرح خطير من جراء هذا الشجار، فإن الشيوخ في الغالب يحاولون عقد جلسة للصلح، وذلك بأن يدعو أحد الطرفين الآخر إلى وليمة، وقبل الوليمة يجتمعان معاً وجهاً لوجه، حيث يتقدم الجاني، ويبدأ بجرح نفسه بسكين، ويستمر في ذلك حتى يصرخ أفراد الفريق الآخر (كفى)، وفي هذه الحالة يحيي أفراد الفريقين بعضهم بعضاً، ثم يتناولون الطعام معاً، حيث يصبح بينهم عيش وملح، ويستمر الوئام بعد الخصام إلى ما شاء الله.

---

(١) النبوت أو (الشون): نوع من العصي الغليظة واسمها العربي (المنسأة).

وهكذا نجد للمكيين حروبهم التي يتقمصون بها خطى سادتهم من جهة، والتقاليد العربية العامة من جهة أخرى، في استعدادهم للخصام في بلد جعله الله حرماً آمناً.

صفات أهل مكة

إن عادات سكان غرب جزيرة العرب هي السائدة في مكة. والسكان بمجموعهم العام، سواء أكانوا من عرب الجزيرة، أم من القادمين إلى مكة، يتأثرون تأثراً بالغاً بالحرفة الرئيسة في مكة، ألا وهي الاستفادة من مواسم الحج كل عام. وتعتمد حياة أهل مكة اعتماداً مباشراً على خدمة ضيوف الرحمن القادمين إلى البلد المقدس، والذين يأخذون انطباعاً خاصاً عن معاملة أهل مكة، فالحاج الورع الذي يتخيل أن كل شيء في حالة مثالية في هذا البلد المقدس، يفاجأ حينما يرى السعي المتواصل إلى مزيد من الربح في هذا الموسم، وهذا في واقع الحال أمر طبيعي؛ لأن مكة ليس لديها مصدر حيوي للدخل سوى هذا المورد، ولذا نجد أن التنافس حول طلب الرزق يزداد كثيراً بدل أن يقل، ويجب أن أؤكد هنا أن الذي يرى أهل مكة خارج موسم الحج، يجدهم عذبي المعشر، مولعين بالمرح، كرماء إلى درجة التبذير، يكرسون جهودهم لحياتهم الاجتماعية. وأن الذي يراقب حياتهم عن كثب يجد بجانب الخشونة والفظاظة التي عند بعضهم، أناساً نبلاء المعشر، كريمي الصفات، أتقياء ذوي ورع وصلاح.

الرقيق

وقبل أن نستطرد في وصف الحياة الاجتماعية في مكة بصورة تفصيلية، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار عنصراً مهماً من عناصر السكان، لا يزال يتوافد إلى المدينة منذ أقدم الأزمنة بأعداد كبيرة. ذلك العنصر الذي أدى دوراً كبيراً طبيعياً وأخلاقياً في التكوين السكاني للمدينة المقدسة، ألا وهو العناصر المهاجرة القادمة من إفريقية أو من القوقاز. وهؤلاء هم الرقيق، الذين كثر الحديث عنهم في الآونة الأخيرة.

الرقيق الشركسي

فالشركس ـ ذكوراً وإناثاً ـ يفدون عبر القسطنطينية، وإن عدد هؤلاء قليل، غير أن أسعارهم عالية جداً. فالعبد الأبيض ثمنه أكثر من غيره، وفي مكة لا يباع هؤلاء في أسواق الرقيق. فالمرأة الشركسية تُشترى للتسري، ولكنها غير مرغوبة من العرب الأقحاح. أما الذكور من هؤلاء فيعملون خدماً في البيوت، وعندما

يكبر هؤلاء الرقيق يعتقهم أسيادهم. وغالباً ما يتعلم هؤلاء النفر، وخاصة عندما يكون أسيادهم يعملون في أعمال حرة، فيكتسب هؤلاء خبرة عملية في هذا المجال، حيث يعملون وسطاء تجاريين لأسيادهم، وأحياناً يقومون بالعمل لصالحهم الخاص. ويسهل على أمثال هؤلاء الحصول على الوظائف لدى الدوائر الحكومية التركية.

الرقيق من إفريقية

ونجد الرقيق من إفريقية يؤدي دوراً كبيراً في المجتمع المكي، بالإضافة إلى أهميته في تجارة الرقيق. ويطلق أهل مكة على هؤلاء اسم النوبيين، وهم الأرقاء ذوو البشرة الفاحمة الشديدة السواد، ويعمل هؤلاء في الأعمال الشاقة كأعمال البناء والحمل. وهناك الأرقاء السود الذين يؤتى بهم من السودان(١)، ويعمل هؤلاء في قطع الحجارة وأعمال البناء أيضاً. ويقوم سادة هؤلاء بإرسالهم للعمل في البناء منذ صغرهم، حتى يتسنى لهم تعلم العربية بطلاقة. وخلال فترة التدريب على هذه المهنة يتأقلمون على شروط الحياة الجديدة. ومن لم يتقن المهنة جيداً من هؤلاء، يبقى عاملاً فقط، حيث يقوم سيده بتأجيره ليعمل مع البنائين، ويقوم المكيون بتعليم هؤلاء الأرقاء الشعائر الأساسية للدين الإسلامي، غير أن بعضهم مهملون ولا يلتزمون بذلك، على الرغم من أنهم متعصبون للإسلام. ويقوم هؤلاء باحتفالاتهم الشعبية ابتداء من بعد ظهر الخميس وحتى صباح الجمعة، حيث يعزفون موسيقاهم الوطنية وأناشيدهم ويرقصون رقصاتهم الشعبية. وكل مجموعة من هؤلاء لها شيخها الخاص الذي يقوم بفضّ النزاعات بينهم، ويصدر العقوبات القضائية على المذنبين منهم، ويجلس بجانبه ضابط يدعى النقيب، حيث يحمل عصا لتوقيع العقوبة على المذنب. إن الأوركسترا الزنجية تتألف من الطنبورة (آلة موسيقية لها ستة خيوط وعليها ريش)،

---

(١) إن مفهوم السودان لا يقتصر على ما يسمى بجمهورية السودان، وإنما كان يطلق على كل مناطق إفريقية المدارية، وكان يطلق على الجزء الشرقي اسم السودان الإنجليزي، أما الجزء الغربي فكان يطلق عليه اسم السودان الفرنسي، والأقطار الحالية التي كان يطلق عليها في السابق اسم السودان تشمل المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر من الشرق والسنغال وموريتانيا في الغرب.

وبعض الطبول. ويحتزم أحد هؤلاء بحزام يتمنطق به، مكون من حوافر الغنم، ويقوم هذا الرجل بالرقص، ويهز نفسه بقوة بالغة، حيث يحدث صوتاً قوياً. ويصطف المجتمعون حلقة دائرية، حيث يغنون ولعدة ساعات ألحاناً رتيبة.

وفي وسط هذا التجمع الدائري يدخل اثنان من المجموعة إلى الرقص، ويحمل كل من هؤلاء عصا طويلة بيده، ويتبارزان كما لو أنهما في معركة. وفي فترات الاستراحة يتناول بعض هؤلاء شراباً يقال له البوزة. إن مثل هذه الاحتفالات تجعل هؤلاء في حالة مرح وسرور زائدين.

وبعد ظهر الجمعة من كل أسبوع يعود هؤلاء إلى عملهم. والذي لا يعد في نظرهم شاقاً، إلا أن الكثير من السكان المحليين لا يستطيعون احتمال أمثال هذا النوع من الجهد العضلي في العراء. إن الطعام اليومي لهؤلاء ليس بالقليل، فالمرء هنا يستطيع أن يحصل على غذائه اليومي بما لا يزيد على أربعة بنسات. إن اللباس والسكن ليس لهما أهمية تذكر في مثل هذه البيئة، حيث يحصل هؤلاء وغيرهم من المواطنين على أكثر مما يحتاجون إليه. وبعد تحرير هؤلاء يعمل معظمهم عمّالاً يوميين وحملة ماء (سقائين) وما إلى ذلك. وفي الغالب يفضل هؤلاء البقاء تحت وصاية سيدهم، وخاصة إذا سمح لهم بالزواج.

والأرقاء السود الأكثر ذكاء ومهارة يعملون خدماً في المنازل وفي المحلات التجارية. والأثرياء في العادة وخاصة التجار يملؤون منازلهم بالرقيق، وأمثال هؤلاء يجدون عيشاً رغيداً في مثل هذه الأجواء. وحتى الرقيق في بيت المواطن العادي لا يجد شظفاً في العيش، لأنهم يعدون من أفراد الأسرة. والموهوبون من هؤلاء ممن يعمل مع سيده في التجارة يصبحون موضع ثقة واعتبار من أسيادهم، بحيث لا تشكل العبودية سوى مظهر شكلي واسمي فقط، والخدم في المنازل غالباً ما يطلق سراحهم عند بلوغهم سن العشرين؛ لأنه ـ في الغالب ـ تقتضي طبيعة عملهم الاتصال اليومي المباشر بنساء وخدم رب الأسرة، ولهذا يحررون بعد سن العشرين. والموسرون من أهل مكة يشعرون أن عليهم أن يحرروا عبيدهم الذين

أخلصوا لهم اعترافاً بالجميل لإخلاصهم وصدق معاملتهم في الأسرة، وذلك كي يتمكن هؤلاء من الزواج وتكوين أسر خاصة بهم.

وبعد إعتاق الرقيق تبقى العلاقة الأسرية كما كانت عليه سابقاً، ولا يوجد أي وظيفة أو مركز لا يكون فيه أي عتق لهؤلاء، فهذا حاصل في كافة المجالات التي يعمل بها الرقيق. وبعد العتق يتنافس هؤلاء مع الأحرار على قدم المساواة، وهؤلاء لا يمثلون الفئة الضعيفة في تنافسهم مع نظائرهم من أبناء المجتمع المحلي، بل يمثلون نسبة كبيرة من الأعضاء البارزين في المجتمع، وكذلك أصحاب العقارات والمؤسسات التجارية، ولا يمثل اللون عقبة كأداء أمام هؤلاء؛ لأن كثيراً من أبناء المجتمع المحلي لهم أبناء بهذا اللون من جواريهم.

سوق الرقيق

ويبدو من غير المعقول وجود سوق للرقيق في مكة. وهو نتيجة للظروف السياسية في المنطقة، ويمثل سوقاً رئيسة يستقبل أحياناً أرقاء من المستعمرات البريطانية، وكذلك من جزر الهند الشرقية الهولندية، والرقيق القادم من المستعمرات الهولندية، يكون في الغالب من المناطق النائية والبدائية في مقاطعات سلبيس أو بورنيو أو من جزيرة نياس، ويرسل هؤلاء إلى مصر. ولقد أخبرني المدرس التركي الذي كان يدرس أبناء الأمراء المصريين أن أقاربه ومعاونيه لديهم العديد من هؤلاء. ولقد شاهدت العديد من الغلمان الأرقاء من بلاد الهند. وكذلك شاهدت أربع هنديات من رعايا الإمبراطورية البريطانية، ولكنني لم أتحقّق من المناطق التي قدم منها هؤلاء النسوة الأرقاء.

إن الروابط التي توجد بين الرقيق من النساء، وأفراد الأسرة المكية قوية جداً، ولذلك سوف أناقش موضوع الرقيق من النساء في الفصل القادم المتعلق بحياة الأسرة. ويجب أن أذكر هنا أن المرأة تقوم بالأعمال المنزلية وأعمال الطبخ والخدمة، وكذلك تكون سرية للرجل. أما الرقيق من الأحباش اللواتي تتمثل فيهن كافة الملامح البشرية من الأصفر الفاتح حتى الأسود الفاحم، فهن مخصصات للتسري في الغالب، ولا يقمن إلا ببعض الأعمال المنزلية البسيطة. والأحباش عموماً يعدون أكثر نقاء، وأكثر ذكاء من

غيرهم من الرقيق الأسود، وكذلك أكثر ثقافة، ولهذا فإنهم يقومون بأعمال الخدمة الشخصية، أو موظفين في الأعمال التجارية. وتحت اسم (الحبوش) يندرج كثير من أبناء المناطق المجاورة لأثيوبيا. والخبراء في هذا المجال هم الذين يعرفون الفروق بين الجنسيات المختلفة. وكذلك جمهور البائعين والمشترين يعرفون أيضاً إلى حد ما خصائص وصفات ما يودون شراءه من الجالا والقوراج، فبعضهم يفضّل الجالا، والآخر يفضّل القوراج عند الشراء.

بيع الرقيق

إن كل أنواع الرقيق الإفريقي كان موجوداً بأعداد كبيرة (١٣٠١هـ ـ ١٣٠٢هـ)، (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) لدى تجار الرقيق (الدلالين). ويباع الرقيق في سوق الرقيق الذي يعرض فيه الأرقاء من الجنسين. وبعض هؤلاء وصل حديثاً، بينما بعضهم الآخر من الموجودين في مكة، والذين استغنى عنهم سادتهم. والسوق هو قاعة كبيرة بجانب المسجد الحرام عند باب دريبة.

إن الذي يدخل سوق الرقيق بتصورات أوروبية وفي ذهنه (Uncle Tom Cabin ـ كابينة العم توم، وهي إشارة إلى الرقيق الذي كان يرسل إلى العالم الجديد ـ سيأخذ انطباعاً سيئاً، وسوف يغادر السوق وهو مشمئز من سوء المنظر. وهذا الانطباع الأولي هو انطباع خاطئ، ومع الأسف فإن معظم المستشرقين الرحالة لم يصوروا لنا إلا انطباعاتهم الأولية، وهذا هو مصدر الخطأ لديهم.

وعلى المقاعد اللاصقة للحائط تجلس البنات والنساء، والنساء البالغات يتحجبن بحجاب خفيف، وأمامهن يقف أو يجلس الذكور المتقدمون في السن، وفي الوسط نجد الصبيان. وبعض الدلالين يقوم بترتيب هؤلاء عكس ذلك. فإذا ما أبدى أحد الجمهور اهتماماً بغلام مثلاً يقصد شراءه، فإن الدلال يطلب إلى الغلام الوقوف، ويطلع المشتري على شعره وساقه وذراعه، ويطلب إلى الصبي أن يظهر له لسانه، ويمتدح مهارته ونوعه.

وإذا كان الزبون جاداً في الشراء، فإنه يتحدث إلى الغلام نفسه: هل تتكلم العربية يا بني؟ قليلاً يا سيدي، ولكنني أفهمها جيداً. وبعد هذه المقدمة يتحدث الغلام عن نفسه وحياته، والدلال لا يتوانى أن يطلع المشتري على ذراع

الغلام الذي يبرز أنه قد حصل على تطعيم ضد الجدري قائلاً: (مجدر خالص). أما بالنسبة للتطعيم ضد الأمراض، فهو معروف في قلب الجزيرة العربية، ومعترف به شرعاً من قبل مفتي الشافعية بمكة، إلا أنه بالنسبة للرقيق لا يستعمل إلا قليلاً.

فإذا شك الراغب في الشراء في صحة الغلام يمكنه أن يرسله إلى الطبيب للفحص لقاء مبلغ يدفعه من جيبه هو. وأحياناً يقوم المشتري بعمل الاستخارة، وهو أن يصلي صلاة الاستخارة ثم ينام وينظر في الصباح ماذا حلم بالأمس، وعلى ضوء ذلك يقرّر الشراء أم لا. أما إذا كان يؤمن بالخرافات فإنه يذهب إلى شيخ مشهور، أو إلى (ضارب الرمل) ويستشيره في ذلك.

وقبل نهاية الصفقة يسأل المشتري الغلام هل تقبل أن تخدمني؟ ومن الجواب يمكن معرفة رضاه أو عدم رضاه. وحتى في حالة النفي يمكن معرفة أن الرفض ناجم عن كرهه لعمله في المستقبل، أو هو مجرد عدم الميل إلى تغير غير معروف العواقب. وعلى كل حال لا يمكن شراء عبد دون رغبته سواء أكان ذكراً أم أنثى. وفي المقابل إذا كان العبد غير راض عن طريقة الحياة التي يعيشها في بيت سيده فإنه لا يتوانى ـ ذكراً كان أم أنثى ـ عن إظهار عدم رغبته في البقاء في هذا البيت، ويطلب إلى سيده بيعه، الأمر الذي يضطر معه سيده إلى إحضار عبده إلى السوق (الدكة)، وفي بعض الحالات تتقدم المرأة، وتعرض نفسها في السوق، دون إذن سيدها، على الرغم من أن ذلك غير قانوني، ولكن المالك لا يجد ضرورة في إجبار إنسان ما على العيش معه دون رغبته.

والذي يبدو غير لائق هو فحص وجس هؤلاء الأرقّاء وكأنهم قطيع من الأغنام، وخاصة حينما تكون الصفقة امرأة صغيرة السن. ومن خلال الاستقصاء لا يشكل هذا الأمر عند هؤلاء الرقيق كرهاً شديداً، فهو يشبه إلى حد ما حالة الضجر الذي يصيب المرأة الأوروبية حينما يقوم الطبيب بفحصها. وهذا واضح جداً في سوق الرقيق، حتى عند الغريب الذي يدخله لأول مرة. فإحدى هؤلاء كانت تحدّث زميلاتها عن الأسئلة

المضحكة التي سألها إياها أحد الراغبين في شرائها، وكيف أن الدلال حاول خداعه، ولكنها أوقفته عند حده، وأظهرت للزبون كذبه وافتراءه. وكانت جميع زميلاتها يضحكن بسرور بالغ. ولا نجد في السوق أو في المنزل أي نوع من البكاء على حالة الاسترقاق هذه. وقد يكون مرد الضيق ـ إن وجد ـ عدم الرغبة في البيت الذي توجد فيه أو عدم الرغبة في الانتقال إلى بيئة جديدة. وإذا حدث أن بكت إحدى الفتيات عند الشراء، فهو من قبيل بكاء الفتيات حينما يرسلن إلى مدرسة داخلية، أو بكاء الشباب حينما يذهبون إلى الخدمة العسكرية. إن بعض الأمثلة تظهر أننا بصفتنا أوروبيين نصل إلى استنتاجات خاطئة إذا لم نأخذ العلاقة الاجتماعية وحدة واحدة وأخذناها جزءًا جزءًا.

فقد يحدث أن يستيقظ أحد الأجانب القادمين إلى جدة، لمدة يوم أو يومين، على أصوات أحد العبيد ملقى على الأرض على ظهره، وقدماه مرفوعتان في الهواء، ويجد بجانبه أحد العرب الذي يضربه بالسوط على قدميه، بينما الغلام يصرخ قائلاً: سأتوب من ذنوبي أنقذوني، يا الله، لا إله إلا الله، يا ناس أنقذوني!.

إن مثل هذه المناظر ليست سارة بالطبع، ولكنها ليست نادرة في مكة أو جدة، وإن مَنْ يراها أول مرة من الأوروبيين يزداد اقتناعاً بانطباعات أنكل توم (Uncle Tom) السيئة عن الرق، وعند عودة هؤلاء إلى بلادهم يتحدثون بهذه على أنها حقائق عن العبودية والرق في هذه البلاد. إن مثل هذا الأجنبي تنقصه الخبرة عن طبيعة السكان هنا؛ لأن العربي على استعداد أن يضرب ابنه بهذه الطريقة، إذا ما ارتكب ولو خطأً صغيراً. فالسائح لم يشاهد منظراً من حياة الرق والعبودية، وإنما شاهد مثالاً لنوع من التربية والعقاب عند العرب، الذي يطبق على العبيد والأولاد أيضاً، وهذا بطبيعة الحال يخالف الأفكار الحديثة في التربية.

وهناك منظر آخر قابلني في مكة، وهو أن أحد رجال مكة المرموقين (كُباريَّة) من عائلة كانت لها الفتوى، كان يزورني، وكان على عادة أهل

مكة أن يصطحب معه أحد عبيده، وقد كنت مندهشاً من أدبه الجم مع خادمه، وكيف أنه كان يسأل خادمه باستمرار، إذا كان يحتاج إلى أي شيء. وكان يطلب إلى خادمي الذي يقف على الباب الجلوس معنا .وعندما أطريت الثناء على هذا الفعل الحسن، أخبرني بالقصة التالية عن نفسه فقال: «حينما كنت صغيراً لم يكن يصاحبني كثيراً سوى خادم لأبي اسمه سليم، وقد كان يعاملني على أنه أبي، وقد كان يعمل كل شيء لإدخال السرور على نفسي، وقد تربيت على يديه، ولكنني كنت أطلب منه المزيد من الخدمات، ومرة كنت في الطابق الثالث، وقد أردت لعبة موجودة في غرفة أخرى بالطابق نفسه، وقد ناديت سليماً كي يحضرها لي، لقد كان في ناحية الدار، وصرخت عليه من النافذة، ولكنه لم يسمعني، فقلت له: أيها النذل سليم ألا تسمعني؟ وفي تلك اللحظة دخل أبي من غير أن أشعر به، وفجأة لطمني على أذني، ورماني على الأرض، وضربني على قدمي ضرباً مبرحاً، علّمني أن أتعامل مع سليم بكل أدب واحترام. وقد طلب إليّ النزول والاعتذار فوراً لسليم، الذي لم يكن يعلم بما حصل. وقد كان لتلك الصفعة على أذني الدرس الذي لقّنني إيّاه أبي أثر كبير في تحديد علاقاتي مع والدي الأصغر سليم، ومع هؤلاء الذين سخرهم الله لخدمتنا». وإن لهذه الحادثة نظائر كثيرة، وعلى العموم فإن الرقيق في العالم الإسلامي لا يختلف كثيراً عن الخدم والعمال في المجتمع الأوروبي. وإن الذي يعرف الظروف المحلية يعرف هذا تماماً، ويعلم كذلك أن إلغاء الرقيق يعني ثورة اجتماعية في الجزيرة العربية. وهناك العديد من الأوروبيين الذين يعرفون جيّداً شؤون الشرق، لا يريدون أن يقولوا ذلك بصراحة، لئلا يتهم هؤلاء بأنهم ضد الاتجاه السائد عموماً، والداعي إلى تحرير الرقيق نهائياً، ذلك الاتجاه المبني على مشاعر إنسانية نبيلة.

ويمكن القول: إن المجتمع الأوروبي يمكن أن يذعن مؤقتاً لاستمرار وجود الرق في المجتمع الإسلامي؛ لأن هذه المؤسسة التي عُدّت شرعية منذ العهود القديمة لا يمكن إلغاؤها بسهولة وبقرار من المجلس الأوروبي،

وحبذا لو اقتصر الأمر على ما في أيدي الناس من رقيق، دون اللجوء إلى الحصول على المزيد عن طريق صيد هؤلاء من مجاهل القارة السوداء.

والآن (١٨٨٨م) فإن في بقاع مختلفة من مناطق القارة الأوروبية حماسة شديدة ضد الرّق، مما يجعل سماع الحقيقة بهدوء واعتدال حول هذا الموضوع أمراً صعب التصور.

ولهذا يجب علينا أن نبتعد عن التلويح دائماً بمناظر صيد الرقيق أو عمليات السطو[(١)] على هؤلاء الأرقّاء التي بولغ فيها كثيراً في الصحف والمجلات، وعدّ ذلك من شرور الإنسانية التي لا جدال فيها. والسؤال الآن هو كيف نساعد في حل المعضلة،وكيف نغيّر من الوضع القائم لصالح هؤلاء بالنظريات المثالية؟ ويمكننا أن نفكر بادئ ذي بدء بالنتائج التي يمكن الحصول عليها من كل الإستراتيجية التي يمكن اتباعها في الوقت الحاضر.

إن أصحاب النظريات هم الذين يبقون عيونهم مفتوحة على الإلغاء الكلي لعملية اصطياد الرقيق والتي تعدّ عادة مستنكرة. فآلاف الأبرياء تتحطم حياتهم بذلك. ومع هذا فإن آلافاً مؤلفة من الدهماء من أوروبا قد أرسلت إلى القارة الإفريقية[(٢)]. وهذا بدلاً من أن يحل المشكلة الإفريقية بطريقة تفيد المواطنين أنفسهم يجعلها أكثر تعقيداً وصعوبة.

فالزنوج لم يدعوا لا الأوروبيين ولا العرب إلى بلادهم، وجميع هؤلاء غرباء لا يحتفى بقدومهم؛ لأن كلاً منهم يثير المشكلات عند هؤلاء. إن كثيراً من القصص التي سمعتها من هؤلاء الرقيق تؤكد أنه لولا مجيء الأوروبيين والعرب لما حصل غزو الرقيق واصطيادهم. ومع كل هذه

---

(١) يلزم التنويه هنا إلى أن «صيد الرقيق وعمليات السطو إلخ..» لا يقرها الإسلام أبداً، فالإسلام ليس فيه طريق للاسترقاق إلا نتيجة للأسر والسبي في الجهاد في سبيل الله. أما هذا الرقيق الذي كانت البلاد الأوروبية تمارسه ـ والذي لا يرى فيه المؤلف بأساً على ما يظهر ـ فلا يقره الإسلام ولا يعترف به.

(٢) يعني المؤلف بالدهماء الأوربيين الذين أرسلوا إلى إفريقية، وهم أولئك المهاجرون والمستوطنون الذين أرسلتهم الدول المستعمرة للعيش والاستيطان في القارة السوداء واستغلال ثرواتها المختلفة التي حرم منها الإفريقيون أنفسهم.

المصائب لا يزال الأوروبيون والعرب يفدون إلى تلك المجتمعات البدائية بقصد شراء الرقيق.

إن العرب والمسلمين عموماً يحاولون نشر الإسلام حيثما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. والنتائج التي حققها هؤلاء لم تستطع إنكارها الإرساليات التبشيرية الإنكليزية. إن القرى المتحضرة في إفريقية هي قرى المسلمين التي يرتدي فيها السكان الملابس ويشتغل أهلها بالزراعة والصناعة، ويخصصون جزءًا من وقتهم للتعليم. إن هذه الأشياء جميعاً تميّز مناطق المسلمين عن مناطق الوثنيين التي ليس للحياة الإنسانية فيها أيّ قيمة. وفي هذا المجال يعتقد العرب أنهم مؤهلون لتقديم مساعداتهم لهذه المجتمعات. إن الدين الإسلامي لا يأمر أتباعه بأن يستولوا على ممتلكات هؤلاء الوثنيين الذين لا يخضعون للنظام الإسلامي وليسوا متحدين في إطار الإسلام.

أثر سياسة تحرير الرقيق

إن الوصول إلى أقرب مركز لبيع الرقيق يستلزم إلزام هؤلاء الأرقّاء بالسير لعدة أيام. إن حركة تحرير الرقيق قد جعلت جلابي الرقيق يتوغلون في الداخل للحصول على بضاعتهم. وهذا يقتضي السير لمسافة ١٢ ساعة على الأقل للوصول إلى الأماكن التي يوجد بها بائعو الرقيق. ولا شك أن مثل هذه المسافات الطويلة جعلت الكثير من هؤلاء الأرقاء الذين لا يستطيعون السير لمسافات طويلة يفقدون حياتهم. وهذا لم يكن في السابق، حيث كان الناس يتعاطون بيع الرقيق بالقرب من الموانئ. وسبب ذلك هو حركة تحرير الرقيق التي لم تقلّل عدد الرقيق، بل وضعت صعوبات إضافية على هؤلاء بالسير لمسافات طويلة. فعلى طول الطريق يعامل هؤلاء على أنهم غنائم يجب الحفاظ عليها. وجلابو الرقيق يحاولون جهدهم الإبقاء على هؤلاء بحالة جيدة. ونجد المعاملة السيئة القاسية نادرة لهؤلاء، ولكن يجب ألّا ننسى أن بعض هؤلاء ضعفاء البنية أو مرضى، وهؤلاء لا بد أن ينالهم العقاب من أجل الإسراع في المسير. ولقد حدثني بعض هؤلاء الرقيق أن الجلابين كانوا يستحثونهم على المسير بطريقة لطيفة، وحيث يكون هناك إمكانية يعطي لهؤلاء بعض الدواب للركوب.

إن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن سرقة هؤلاء البشر مع ما يترتب على ذلك من نتائج مباشرة هو عمل مفزع شرير.

الاستعمار

إن بعض الأشخاص الأوروبيين النشيطين، بالإضافة إلى بعض المفلسين، قد قدموا من مناطق متعددة إلى القارة السوداء بدافع الحصول على المال. إن بعض هؤلاء كانوا يخدمون سياسة الجشع لمراكز القوى الأوروبية. إن الحصول على هذه المطامع لا يمكن تحقيقها إلا على حساب العديد من الضحايا الزنوج، والكثير من سعادة هؤلاء.. ولقد اعتاد الأوروبيون على اعتبار ذلك من الضروريات. إن الأموال التي يحصل عليها الأوروبيون من تجارة الرقيق هذه ليست بالقليلة. فإذا أضفنا إلى ذلك المساوئ التي جلبها لهؤلاء عهد الاستعمار، أدركنا أن المستعمرين هم الذين جعلوا أبناء هؤلاء الرقيق متمردين وثوّاراً ضد الحماية المفروضة عليهم من الخارج. الأمر الذي يقلّل من نفوذ الأوروبيين ويضعف من سلطانهم.

إن الإفريقيين حتى لو كان لديهم القوة والرجال فإنهم لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتحكموا بمقدرات بلادهم التي سلبت منهم. وحتى هم أنفسهم قد تحولوا إلى أقنان، لا يتمكنون من الاندماج مع حضارة مجتمعات أسيادهم، وكل ما يمكن قوله: إنهم حولوا إلى أدوات لخدمة أسيادهم.

التبشير

وفي خضم هذه الأجواء نجد المبشر المسيحي يتبع خطى هذا الحشد من الثقافات المتباينة محاولاً العلاج الروحي. ولكن ما المحاسن التي يقدمها وسط هذا الحشد من المساوئ؟ وحتى حينما يقوم هؤلاء المبشرون بدور الارتياد لمجاهل القارة، فإن الجماهير المسيحية تتبع خطى هؤلاء المبشرين، وتنتقل إلى هذه البقاع، الأمر الذي يجعلهم مقدمة وتهيئة لدخول المستعمر.

إن المسيحيين المخلصين الذين ينظرون إلى بواطن الأمور يخجلون دائماً من رؤية ثقافتنا التي فرضناها ـ نحن الأوروبيين ـ على هؤلاء، والمتمثلة بقبعة

كبيرة وزجاجة (براندي) لإنسان يعيش شبه عار في مجاهل القارة الإفريقية، وفي الجانب الآخر نجد المسلمين من هؤلاء يتصفون بالجد والعمل ويظهرون قوة الإسلام.

أمام هذه الحقائق هل تستطيع أوروبا أن تشير إلى دولة متحضرة واحدة موجودة تحت سيطرتها؟ هل أوروبا تستطيع أن تدعو في كل مكان وقبل أي شيء آخر إلى الصليب بدلاً من عمليات الاسترقاق التي تقوم بها. وعلى الرغم من أن أوروبا تعلم أنها تسير في طريق تسميه طريق التحرير، وهو لا يرضي الأرقّاء أنفسهم، كما أنه يعرض حياة العديد من هؤلاء إلى الخطر الداهم، بسبب وجود المدنية الأوروبية المفروضة عليهم. إن مَنْ ينجو من هؤلاء ويذهب إلى العالم الإسلامي وهو رقيق يعيش حياة سليمة بوصفه عضواً في مجتمع منظم.

إن آلاف الزنوج والأحباش الذين يحملون إلى ديار الإسلام، حينما يتذكرون حياتهم الأولى، يعدون أنفسهم خلقوا من جديد من خلال الاسترقاق. إن كل هؤلاء لا يريدون العودة إلى حياتهم الأولى، ونتيجة لذلك نجد أن أوروبا بكل ما لديها من شرور إنسانية ترسل إرسالياتها إلى إفريقية لتقاوم تجارة الرقيق بعصبية بغيضة.

إن هناك شيئاً ذا فائدة أكبر يجب عمله في إفريقية، وهو أن هؤلاء الإفريقيين حينما يدركون قيمة الحياة فإن عمليات الاسترقاق ستتوقف من ذاتها. إن الأوضاع السيئة تكمن في الأوضاع الداخلية للدول الإفريقية، وليس في عملية الرق ذاتها.

إن خدعة ما يسمى حركة تحرير الرقيق، ليس سببها اهتمام شعبي لغاية شريفة، ولكنه لعبة خطرة مزيفة يقوم بها رجال السياسة الكبار لأغراض ليست إنسانية، وذلك من أجل أن يتخذ العالم المسيحي موقفاً عدائياً خاطئاً ومزيفاً ضد الإسلام.

ويمكننا أن نرى بسهولة مدى التأثير الذي قام به الأفارقة في المجتمع المكي، حينما كان هؤلاء الأفارقة يعيشون مع العرب ويتقمصون حياتهم.

لقد أصبحت المرأة الإفريقية أمًّا للعديد من أهل مكة، كما أن الرجل الإفريقي ساعد مساعدة فعلية في تربية النشء المكي.

الأغوات

إن الإساءة لهؤلاء الزنوج والتي لا تزال تمارس على الرغم من أن الإسلام لا يقرها هي عملية الخصيان، الذين يتولون خدمة نساء الطبقات العليا في المجتمع، أو يتولون عملية حراسة المسجد الحرام، ويطلق على هؤلاء اسم (الأغوات) أو (الطواشات) (مفردها أغا أو طواشي)[١]. إن عدداً قليلاً من هؤلاء في مكة يعملون في البيوت، بينما الغالبية العظمى منهم يعملون في المسجد الحرام. إن هؤلاء يستوردون وهم مخصيون من الخارج، ونجد من بين هؤلاء النوبيين والزنوج والأحباش من ذوي الأجسام القوية، وهم غير لطيفي المعشر.

لقد رأينا أن مصدر دخل أهل مكة هو من أعمال الحج المباشرة وغير المباشرة. ويجب أن نحدّد هنا كيف يعمل هؤلاء على أن تكون عاصمتهم المقدسة مدينة منتجة.

إن المسلم بطبيعة الحال لا يحتاج في أموره الدينية إلى وسيط بينه وبين ربه، لهذا لا نجد أمثال هؤلاء الوسطاء الذين يثرون بهذه الوسيلة، عن طريق فرض الرسوم على استعمال ودخول الأماكن المقدسة.

آل الشيبي

إن مفاتيح الكعبة لدى آل بني شيبة، وهي إحدى العائلات المكية القديمة في المدينة المقدسة[٢]. لقد كان هؤلاء يقومون ببيع كسوة الكعبة القديمة على شكل قطع صغيرة. وحينما تفتح الكعبة في الأيام العادية أو الأيام الاستثنائية، وخاصة عند قدوم أحد الزوار المرموقين، كان أفراد هذه الأسرة يتلقون الأعطيات بهذه المناسبة. وفي مثل هذه المناسبات وغيرها يحصل الأغوات

---

(١) انقرض هؤلاء القوم اليوم بسبب الوفاة، وعدم ورود شباب جدد، ولم يشاهد في المسجد الحرام سوى نفر قليل جداً من هؤلاء.

(٢) ينحدر الشيبيون (سدنة الكعبة) من قريش وهم: بنو قريش بن عثمان بن أبي طلحة ابن عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار بن قصي بن كلاب يجتمعون مع النبي ﷺ في قصي.

أيضاً على بعض الأعطيات، كما أنه تتوافر فرصة لحشد من الناس أن يدخلوا الكعبة، أو أن يقوموا بما يقوم به الزائر المرموق.

ماء زمزم

إن إدارة بئر زمزم كانت ميراثاً لأبناء العباس عم الرسول ﷺ. وحينما أسقط هؤلاء حقهم في المطالبة بها، أحيط فم البئر بجدار سميك، وأصبحت زمزم مفتوحة لكل الناس. وباستطاعة كل فرد أن يصعد من على هذا الجدار، ويدلي دلوه إلى البئر، ويأخذ حاجته من الماء. وعلى العموم نجد الفقراء يتجمعون حول هذا المكان حينما يبدأ سحب الماء من البئر، حيث يقومون بنشل الماء دون أن يطالبوا بأي أجر.

وهناك فئة الزمازمة الذين يتجرون بتوزيع الماء، ويستغلونه في بعض الأحيان. والواقع أن مَنْ يريد أن يستحم بماء زمزم، أو يريد بعض الماء يذهب إلى البئر بنفسه، وهذا يفعله أهل مكة حينما يريدون ملء جرارهم. على العموم فإن موزعي الأشياء المباركة يخدمون المواطنين من أهل المدينة، دون أن يرفعوا من أسعار سلعهم. ويحرص خدم المسجد وحراس الأبواب على أن تكون لهم علاقات طيّبة مع المواطنين من أهل المدينة المقدسة. وبالمقابل فإن المواطنين من أهل المدينة لا ينسون هؤلاء عندما يقومون بإرشاد الحجاج إلى الأشخاص الذين يجب أن توزع عليهم الصدقات بحيث ينال هؤلاء نصيبهم منها.

إن كل الزمازمة في مكة يحتفظون داخل المسجد الحرام بـ:

١ ـ العديد من جرار الشرب الفخارية (الأزيار)، المركزة على قواعد خشبية، ومعها مغاريف معدنية مربوطة بسلاسل.

٢ ـ العديد من جرار التبريد الصغيرة (الدوارق)[١] التي تملأ وتوضع في ظل أركان المسجد.

إن هذه الجرار الكبيرة منها والصغيرة هي ملك للزمازمة. والجرار الكبيرة لا تبرد الماء كثيراً، ويشرب منها في الغالب الفقراء عادة. أما الجرار الصغيرة

---

(١) هذه الدوارق هي جرار فخارية مخروطية القاعدة، لا تستقر على قاعدتها، ولذا جعلوا لها حاملات من الخشب، وقد ألغيت اليوم وحل محلها (حافظات الثلج) مع بداية عام ١٤٠٠هـ.

(الدوارق) فيشرب منها الموسرون في الغالب، حيث يقدم الزمزمي الماء البارد في إناء من النحاس (الطاسة).

وفي العادة يقوم أي فرد من أفراد المجتمع المكي أو من الحجاج بدفع ثمن جرة ما ـ كبيرة أو صغيرة ـ ويطلب إلى الزمزمي توزيعها على عامة الناس (سبيل)، ويُعدُّ ذلك أمراً لا يتولاه إلا الزمزمي فقط. وعلى الرغم من أن هؤلاء يدعون أن ما يقومون به من عمل هو خدمة عامة للجمهور، إلا أن دوافعهم الحقيقية من أجل الربح، تظهر مع عامة الحجاج الذين يشكلون غالبية زبائنهم، وفي العادة يعطي الحاج حين قدومه إلى المدينة المقدسة أحد الزمازمة ما يعادل دولاراً، حيث يقوم الزمزمي بشراء جرة يكتب عليها اسم المحسن ويضعها إلى جراره. ولا ينسى الزمزمي أن يظهر هذه الجرة للمحسن كلما سنحت له الفرصة، ولا يدع فرصة سانحة إلا ويذكره بأعمال البر والإحسان، فعند إعطائه ماء زمزم ليستحم به، يتوقع منه هبة خاصة، ولا ينسى أن يذكر له أن السجاجيد التي يقدمها الزمزمي ليجلس عليها المصلون في المسجد أمر يجدر بالحاج أن ينفق عليه بعض ماله؛ لأن ذلك من أعمال البر. وباختصار يحاول بكل وسيلة إقناع الزائر بدفع مبالغ إضافية على أن ذلك من أعمال البر والإحسان.

وإن من يدفع من المواطنين بسخاء يجد جرته مملوءة أمام بيته كل يوم، وخاصة في شهر رمضان، حيث يجلب الزمزمي الكثير من هذه الجرار إلى البيت؛ ليفطر أهل البيت وجيرانهم على ماء زمزم. وفي نهاية الشهر الكريم لا بد أن يكون الأجر مجزياً، وفي إحدى المرات قدم اثنان من الزمازمة إلى بيتي لإحضار الماء البارد، وقد حدث بينهم خصام على من يقوم بالخدمة انتهى بتكسير جرارهم جميعاً.

إن حفظ الماء في أوانٍ صغيرة من الصفيح أو الزجاج بقصد التصدير يدر ربحاً كبيراً على هؤلاء. وقد نجم عن الاختلاط بالعديد من الأمم أن تعلم هؤلاء الزمازمة العديد من الكلمات من لغات شتى بقصد كسب ثقة زبائنهم.

إن هذه الحرفة هي إحدى الحرف المربحة التي لم تكن تخفى على السلطة العامة. وحتى يستطيع هؤلاء حماية أنفسهم من سلطان الحكومة يحاولون الحصول على رخصة (تقرير) من الشريف لقاء مبلغ من المال.

وخارج المسجد هناك العديد من الأماكن التي لا يدخل المرء إليها إلا بدفع هدية أو مبلغ من المال، منها (دار السيدة خديجة) الدار التي ولدت فيها فاطمة، حيث عاش الرسول ﷺ مع زوجته خديجة في هذه الدار لعدة سنوات. ويوجد حجر مجوف يقبله الناس، اعتقاداً منهم أنه المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة الزهراء، وبالإضافة إلى ذلك هناك دار أبي بكر، ومكان ولادة الرسول الكريم[١]، ومكان ولادة علي بن أبي طالب. وفي هذه البيوت توجد حجارة سوداء وخضراء يقبلها الناس[٢]، ويوجد فوق هذه الحجارة صناديق خشبية مغطاة بسجاد، كالتي توجد في أماكن دفن الموتى، وخاصة في مقبرة المعلاة وقبر السيدة خديجة وآمنة. وبجانب مقبرة المعلا يوجد مسجد الجن، حيث نزلت على الرسول الكريم سورة الجن، وهي السورة (٧٢) من سور القرآن الكريم[٣].

وبالإضافة إلى ذلك هناك العديد من الأماكن التاريخية ولكنها غير مشهورة كالتي ذكرناها سابقاً. والقائمون على هذه الأماكن في العادة يقومون بتلاوة صيغ من الدعاء يرددها الحجاج بعدهم جملة جملة، ثم يقوم الحجاج بتلاوة الفاتحة. وهناك اعتقاد بأن من تزار قبورهم وأضرحتهم يشهدون بالإسلام لزوارهم يوم القيامة[٤].

إن هذه المواقع المقدسة تبقى مفتوحة دائماً للزوار، ونجد فيها بعض الأشخاص الطفيليين، الذين يضايقون الزوار كالشحاذين أو الأدلاء. إن

---

(١) مولد النبي ﷺ في شعب علي، وهو الشعب الذي كان يسكنه بنو هاشم، وقد حوّل إلى مكتبة عامة، سميت مكتبة مكة (انظر عاتق البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية ص٢٩٤).

(٢) إن تقبيل أي حجر غير الحجر الأسود لم يثبت عنه ﷺ ولا عن أصحابه والسلف الصالح فهو إذاً عمل مردود.

(٣) الرأي الراجح أن سورة الجن نزلت على الرسول ﷺ بنخلة (انظر: تفسيري ابن كثير، وظلال القرآن: تفسير سورة الجن).

(٤) هذا من البدع والخرافات التي انتشرت بين الجهلة.

هؤلاء الناس ليست لديهم صفة رسمية، وإنما يفرضون حقوقهم التقليدية بالقوة ضد منافسيهم.

لقد عرفنا سابقاً أن أهل مكة يكسبون عيشهم من وجود الأماكن المقدسة. وعلى الرغم من أن الكثير من الحجاج يدرسون شعائر الحج والعمرة قبل قدومهم لكنهم مع هذا يحتاجون إلى مساعدة الأشخاص المحليين في زيارة المناطق المقدسة.

وحينما يحط الحاج رحاله في الديار المقدسة، ويصل إلى مدينة جدة، فإنه يحتاج إلى دليل ليستأجر له جمالاً لنقله إلى مكة. وإذا كان الحاج لا يتكلم العربية، لا بد له من مترجم عند استئجار بيت له، وشراء بعض ما يحتاج إليه من أمور. وسيجد الحاج صعوبات بالغة جداً لولا وجود هذا النوع من الوسطاء. في الأسابيع الأولى من قدوم الحاج ـ على الأقل ـ لا يستطيع الحاج أن يخطو خطوة واحدة، ولا يقيم أي علاقات مع الآخرين، كما أنه لا يستطيع إنهاء الإجراءات التي تتطلبها السلطة، لولا مساعدة هؤلاء الأدلاء الذين يعرفون باسم المطوفين.

الطوافة

إن أكثر المهن أهمية في مكة هي مهنة الطوافة. وهناك بعض المطوفين الصغار الذين يديرون عملهم من خلال الأسرة والخدم، وفي بعض الحالات يستأجرون معهم بعض المعوزين من الأصدقاء. وهؤلاء في الأعم الأغلب يتعاملون مع زوار من نوعية معينة، تقتصر في الغالب على الأثرياء من الحجاج، والذين يقومون بخدمة هؤلاء هم في الغالب مجموعة من الصبيان والأقرباء والعبيد والمستأجرين الدائمين والمؤقتين. وجميع هؤلاء يعملون تحت اسم شخصية معينة، أو اسم معين، ويتقاضون نصيبهم من الأرباح.

إن كل مطوف يقدم خدماته لشعب من الشعوب أو لمنطقة من المناطق. ويكون المطوف في هذه الحالة يعرف لغة هؤلاء. كما يعرف الكثير من شؤونهم وأحوالهم، وفي هذه الحالة يستطيع تقديم كل مساعدة ممكنة لهم، ويتقاضى على ذلك كل ما يمكنه الحصول عليه من أجر[١].

---

(١) لقد طرأت تحسينات كبيرة في هذا الزمن على الطوافة والمطوفين لا يتسع المكان لشرحها، =

ومن صلاحيات هذا المطوف أن يعرف البواخر القادمة إلى جدة، والتي تحمل الحجاج الذين يتبعونه. وعندما تكون بعض الشخصيات المهمة قادمة على ظهر سفينة ما، يذهب المطوف بنفسه إلى جدة، أو يرسل ابنه ليشرف على عملية الاستقبال. أما الأشخاص العاديون فيقوم الوكيل[١] المقيم في جدة عادة بإنهاء معاملاتهم. وعند إنزال الحجاج من البواخر إلى السنابك الصغيرة لإيصالهم إلى البر، يكون المطوف وصبيانه في انتظارهم في الميناء، حيث يساعدون هؤلاء في حمل أمتعتهم إلى المدينة، كما يقومون بتسهيل إجراءات التفتيش لهم من قبل موظفي الجمارك. ويتعرف هؤلاء المطوفون أيضاً على المدة التي سيقضيها الحجاج في الديار المقدسة، وعلى نوع السكن الذي يريده هؤلاء، وما الأشياء التي يفضلونها في السكن، وقبل كل هذا يتفقون على أجرة السكن أولاً.

وبعد زيارة الحجاج لقبر أمنا حواء، الذي يبلغ طوله بضع ياردات[٢]، يقومون باستئجار الجمال التي تنقلهم إلى مكة، ويكونون عادة في ملابس الإحرام، المكونة من قطعتين من القماش، يلف الرجل بهما جسمه، دون أي لباس تحتهما. وتحتاج الرحلة من جدة إلى مكة يومين. وما إن يصل الحاج إلى مكة حتى يبادر إلى أداء العمرة (الحج الأصغر) التي ليس لها وقت محدد، وإنما يؤديها المسلم في أي وقت. وبعد العمرة يتحلل الحاج من لباس الإحرام. ويؤدي الحاج العمرة بصحبة مطوف يقوم بإرشاده إلى ما يجب عمله في هذه الشعيرة[٣]. وكذلك يقوم المطوف أو الدليل بإرشاد

= غير أنها تحسنت كثيراً في هذه الأيام وخاصة بعد قيام مؤسسات الطوافة الأهلية التي تضم كل منها مجموعة من المطوفين يقومون على خدمة جنسيات معينة.

(١) لكل مطوف من المطوفين وكيل في جدة يقوم بتصريف أمور الحجاج نيابة عن المطوف.

(٢) ليس هناك أي دليل يمكن تصديقه بأن هذا قبر أمنا حواء.

(٣) يذكر الأستاذ السباعي في تاريخ مكة أن صناعة الطوافة ربما ابتدعت في عهد الشراكسة، بحكم جهلهم باللغة العربية، وميلهم إلى الأبهة والبذل، فقد كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم، ويدلهم على مشاعر الحج ويتلو أمامهم أدعيته. وفي الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام: ١٥٨ أن السلطان قايتباي حج في عام ٨٨٤هـ ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره، وأن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية. ولم يذكر المؤرخون مطوفاً قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة. (السباعي: ص٣٣٧).

الحاج إلى من يجب أن يعطي صدقاته، وهؤلاء في الغالب يكونون من أصدقائه الذين يعطونه سهماً منها في النهاية.

وهناك عادة عند العرب عموماً، وهي عادة الوساطة بين شخصين لتوفيقهم لإتمام صفقة أو عمل ما. والوسيط في هذه الحالة يتقاضى شيئاً من المال، ولو لم يتكلم سوى بضع كلمات. والمطوف عموماً يتقاضى شيئاً من هذا القبيل، من أجرة البيت الذي يستأجره للحاج، ومن ثمن طعامه وحاجاته الأخرى. وكذلك من الأموال التي يحضرها الحاج لتوزيعها عن أرواح أقاربه في البلد الحرام، وحتى من أجرة الدابة التي يستأجرها للحاج ليركبها إلى التنعيم أو إلى مقبرة المعلاة.

إن المطوفين ومساعديهم يؤدون دور المضيف اللطيف لحجاجهم، ويجعلون أنفسهم دائماً تحت تصرف هؤلاء، ويدلونهم على الأماكن التي تجب زيارتها، ويحببون ذلك إلى نفوس الحجاج بعبارات مثل: (إن من ينام ليلة هنا تعادل العبادة في موضع آخر).. (إن كل حسنة هنا ستضاعف بسبع حسنات).. (إن نية المرء كعمله إلا في النية السيئة).. (إن ماء زمزم لما شرب له)... إلخ.

إن هؤلاء يعتقدون أن الذي يشك في هذه الأشياء هو أوروبي، قد فقد سن الفهم لجوهر الدين. إن المطوف نفسه قد لا يعتقد ببعض هذه الأشياء، وهمه الأول هو الحصول على المزيد من الحجاج. وقد يتولى هؤلاء إرشاد غير القادمين للحج إلى الأماكن الرئيسة للحياة الاجتماعية في المدينة، وكذلك إلى تلال أبي قبيس التي يطل منها المرء على كافة أرجاء المدينة، وكذلك إلى أحسن المناطق التي تصلح للنزهات (قيلات)[(١)].

إن القصور الحاصل من هؤلاء المطوفين ومساعديهم في غير أوقات الحج، في أمور يصرون عليها بإلحاح في وقت الحج، ليس مرده إلى خلل في عقيدة هؤلاء، بل هو من قبيل الكسل «إنني أطلب المغفرة والعفو

(١) القيلة عند أهل الحجاز هي: قضاء القيلولة في مكان خارج البلد للتنزه.

من الله الكريم، لقد صليت في الحرم كثيراً»، قالها أحد هؤلاء في معرض الدفاع عن صلاته منفرداً، بدل أن يصلي صلاة الجماعة في الحرم.

إن ثقافة وظروف حياة المطوفين تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، فبعض هؤلاء عالو الثقافة، وبعضهم الآخر قليل الثقافة، وخاصة أولئك الذين حصلوا على هذا المنصب من خلال صلتهم ومعارفهم برجال الدولة، فانتقلوا مباشرة ومن خلال الوساطة من مساعدين إلى مطوفين رسميين، ومعظم هؤلاء المساعدين جهلاء بالكامل. ولقد دهش اثنان مني حينما قلت لهما: إن المذاهب الأربعة لم تكن موجودة على عهد الرسول ﷺ. إن هؤلاء يعرفون الشعائر الإسلامية كما يعرف أمين المتحف المواد الموجودة لديه.

إن المطوف يقوم بعمل جميع الترتيبات في الحج، فهو يتولى إحضار الجمال والخيام والحطب، وكافة التدابير اللازمة للرحلة إلى عرفات ذهاباً وإياباً. وكذلك يتولى المطوف ترتيبات إحضار الذبائح إلى منى. وفي كل خطوة من خطوات الحج يقوم مساعدو المطوف وصبيانه بإرشاد الحجاج بلغتهم التي يتكلمونها إلى الأشياء التي يجب عملها خطوة خطوة، ابتداء من أول الحج إلى آخره.

وقبل أو بعد الحج، يذهب الحجاج إلى المدينة للسلام على الرسول ﷺ، وهذه الزيارات ليست من أعمال الحج. وعلى المطوف أيضاً أن يعد الترتيبات لهذه الزيارة، وذلك باستئجار الجمال المزودة بالشقادف[1]. كما يقوم بشراء المفارش والحنابل، التي توضع فوق

---

(١) الشقادف جمع شقدف، والشقدف عبارة عن كرسيين بطول الشخص المتمدد متماثلين لا يستقل أحدهما بالوقوف دون الآخر، بحيث يصلحان للشد والربط على ظهر الجمل. ويعلو كل قسم قبة على شكل نصف دائرة من أعواد الشوحط القابل للثني، بحيث إذا ربط على ظهر الجمل بالحبال شكل القسمان قبة كاملة، يسدل عليها ستر للوقاية من الشمس نهاراً ومن البرد ليلاً... وعلى جانب كل شق من الشقدف أجربة (جمع جراب) يسمونها مخالي (جمع مخلاة) يوضع فيها ما يحتاجه الراكب من مرافق. والشقدف يستعمله اثنان واحد من كل جانب. وفي بعض الأحيان يتوسط بين هذين الراكبين راكب ثالث صغير السن على ظهر الجمل بين الشقين. هذا المكان يسمى: «الوسك». لقد =

الشقادف للحماية من الشمس، وكذلك شراء الأغطية والفرش اللازمة لهذه الرحلة.

ومن هنا نستطيع أن نتعرف على أهمية الطوافة عموماً في المدينة المقدسة، وكيف تعود بالنفع على الحجاج، وعلى أهل المدينة، ممن يعملون بهذه الحرفة على حد سواء.

إن الذي يريد أن يحرز نجاحاً في الطوافة، يحتاج إلى مساعدة العديد من الأشخاص في أوقات المواسم. إن هذا يدر بالنفع عليه من جهة، وذلك بزيادة دخله، كما يدر بالنفع عليهم هم أيضاً؛ لأنهم يتقاضون نصيباً من الربح. ومن الأهمية بمكان إبراز أن حجاج الجاوة لهم ١٨٠ دليلاً أو مطوفاً، يعمل مع كل منهم العديد من الأشخاص. وهناك شيخ المطوفين الذي يتولى الإشراف على هذه المهنة ويحافظ على تقاليدها، كما يساعد الحكومة في تطبيق الأنظمة والتعليمات الخاصة بذلك.

إن الحجاج لا يختلفون في اللغة فقط، بل يختلفون في العادات والتقاليد، وكذلك كل منهم له اهتمامات خاصة بأماكن دون أماكن أخرى في المدينة المقدسة[١]. وهذا بطبيعة الحال يستدعي أن يكون مطوفو الأتراك والمصريين والمغاربة والهنود والجاوة وغيرهم، لهم اهتمامات متباينة في بعض الأحيان، بحسب رغبة الحجاج أنفسهم، لهذا نجد أن مطوفي كل شعب من

= كانت الشقادف تستعمل للتنقل بين جدة ومكة والمدينة والطائف بديلاً للمواصلات الحالية، واستعمال الشقادف قديم نوه به ابن جبير وابن بطوطة (انظر محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص١١٤، وانظر محمد علي مغربي، مرجع سابق ص٢١٠).

(١) من بين الأماكن العديدة التي يفضلها الحجاج الأتراك الحمام الذي يقع في سوق الليل، والذي يعرف «بحمام النبي». والواقع أن هذا الحمام العام كان يمتلكه شخص يعرف بعبد النبي، ومع مرور الزمن اختصرت الكلمة، لتصبح بدلاً من حمام عبد النبي إلى حمام النبي. وكان هؤلاء الأتراك يعتقدون أن الرسول ﷺ قد استحم في هذا المكان. (المؤلف) ولم يعد لهذا الحمام وجود في وقتنا الحاضر. ويعتقد بعضهم أن موقعه حتى عام ١٤٠٧هـ كان مكان شركة الراجحي للصرافة المقابل لموقف السيارات المتعدد الأدوار في محلة القشاشية الذي هدم في توسعة الملك فهد للحرم المكي الشريف وأصبح يشكل الساحات التي تقع أمام المسعى.

الشعوب يكونون نقابة، أو طائفة خاصة بهم. ويطلق في العادة على المطوف اسم (شيخ). فهناك شيخ الأتراك وشيخ المصريين، وأمّا رئيس الطائفة أو النقابة فيطلق عليه شيخ المشايخ.

إن كلمة شيخ لها معانٍ كثيرة، وذلك بحسب استعمالها. إن رئيس القرية أو رئيس العائلة أو رئيس مجموعة من العائلات يطلق عليه اسم شيخ، وكذلك نجد شيخ الحي وشيخ مجموعة من النبلاء، وإن تحدث أحد المريدين عن شيخه، فإنه يعني أستاذه في الطريقة الصوفية، التي هو أحد أفرادها. ويطلق الطالب على مدرسه اسم شيخ، وكذلك يطلق اللفظ نفسه على العالم أيضاً.

إن كلمة شيخ، وهي كلمة عامة للتخاطب، لها معانٍ ودلالات كثيرة، فكما أن رئيس الطائفة هو شيخ على أفراد طائفته، فإن المطوف هو شيخ على حجاجه أيضاً.

إن عمل الطوافة مبني على تقاليد موروثة، ونظرياً يمكن لأي فرد أن يقدم هذه الخدمة إلى الحجاج، لقاء مبلغ من المال، ولكن هناك صعوبات بالغة في أن يقوم شخص ما ويمتهن هذه المهنة؛ لأنه بذلك يعرض نفسه وسمعته للخطر. إن جميع أفراد الطائفة (طائفة المطوفين) يقفون ضده وقفة رجل واحد، على الرغم من وجود بعض الحساسيات بين هؤلاء. إن هذه الحساسيات والضغائن تنسى حينما يتعلق الأمر بمتطفل على المهنة. إن مثل هذا المتطفل لا يجد سوى العداوة والبغضاء، ولا يمكن أن ينصح الحجاج بالتعامل معه. وإن مثل هذه الأمور تحدث بين جميع الطوائف الحرفية (النقابات المهنية)، ولكن لا يوجد في أي منها ما يشبه حرفة الطوافة، التي تمتاز بأعرافها التقليدية الصارمة، والمتبعة بدقة بين أفراد هذه الطائفة، الذين يمثلون أقوى النقابات، وأكثرها عدداً. إن هناك بعض المتطفلين على هذه المهنة، ولكن هؤلاء لا يستحقون الانضمام إلى هذه المؤسسة. ومعظم زبائن هؤلاء من الفقراء المعدمين، أو من البخلاء الشحيحين، الذين لا يدفعون مكافآت مناسبة. ويطلق على هؤلاء اسم (الجرارين مفرد جرار)[1] الذين

---

(١) كلمة (جرار) هي في الأصل شتيمة فلعل المؤلف سمع من ينعت هؤلاء بهذه الكلمة شتماً =

غالباً ما ينتظرون على مداخل المدينة، أو بجوار الحرم، يعرضون خدماتهم على الحجاج القادمين. وعندما يصل بعض الحجاج من منطقة ما عدد حجاجها قليل، وليس لهم شيخ معين، فإن شيخ الطائفة هو الذي يقرر إلحاقهم بأي من المطوفين. غير أن لهؤلاء الحق في أن يرفعوا أمرهم إلى السلطات، إذا لم يكن المطوف مناسباً، وفي هذه الحالة يختارون مطوفاً آخر.

صلاحيات شيخ الطائفة

إن شيخ الطائفة هو الذي يقرر أيضاً قبول أعضاء جدد في المهنة، آخذاً بعين الاعتبار ألا يكون عدد الداخلين كثيراً، بحيث يؤثر ذلك في التنافس بين أفراد الطائفة. وكذلك ينظر في مدى صلاحية الأعضاء الجدد، ومدى حصولهم على كفاءة جيدة في العمل، بالإضافة إلى حسن سلوكهم وأخلاقهم. وهناك أمور أخرى كثيرة تؤخذ بعين الاعتبار في هذا الصدد. إن شيخ الطائفة هو أحد أفراد الحكومة. وغالباً لا يستطيع أن يرفض متقدماً يحظى بتوصية من مسؤول عالٍ في الدولة. إن بعض المتقدمين الجدد يرشحون أنفسهم عن طريق مركزهم المرموق، أو عن طريق الهدايا التي يقدمها هؤلاء إلى شيخ الطائفة. وكذلك تؤدي العلاقات الشخصية بين شيخ الطائفة وبعض الأفراد دوراً بارزاً في هذا الصدد، على الرغم من أن شيخ الطائفة يعلن أنه أب لجميع أفراد نقابته، يحبهم بالتساوي كأبنائه، ويهتم بمصالحهم جميعاً دون استثناء. إن هذا الحب الأبوي مشكوك فيه من قبل الأبناء أنفسهم؛ لأن الشيخ في بعض الأحيان يجبر على تنفيذ بعض الأوامر بالقوة، على حساب هؤلاء، وإلا فقد مركزه. ومن ناحية أخرى فإن الأبناء الذين يدفعون البخشيش ينالون بسهولة كل ما يريدون، وهنا أيضاً تبدو سيطرة الغني على الفقير.

العضوية الجديدة في الطوافة

ولتأكيد قبول العضوية الجديدة للفرد لا بد من عمل وليمة لأفراد الطائفة، يتوم بها العضو الجديد. إن هذه الوليمة تسمى معلمية (من معلم الذي أتقن الشيء)، وأمام جميع الحاضرين يقول العضو الجديد: (إنني أطلب من الشيخ أن يسمح لي بممارسة الحرفة التي وهبها الله سبحانه

= فظنها اسماً لهم، والله أعلم.

وتعالى)، فيطلب منه شيخ الطائفة أن يطيعه، وأن يكون أخاً صالحاً لزملائه في الحرفة. فيتعهد الرجل بذلك، وتقرأ الفاتحة من جميع الحاضرين بنية التوفيق والقبول[1].

وعلى هذا فالمرء الذي يدخل إحدى الحرف يقال عنه: إنه قرأ الفاتحة، أو أن فنجاناً من القهوة قد أعطي له من الشيخ باعتبار أن الشيخ (شيخ الطائفة) شخص يمثل الدولة، ومعين بواسطتها، ويعطى جبة بهذه المناسبة دلالة على تعيينه لهذا المنصب. وبعد ذلك يتناول الشيخ والحاضرون الطعام، أو يشربون القهوة المصحوبة بالحلويات، ويدعون للعضو الجديد بالتوفيق والنجاح.

إن الطاعة التي يتعهد بها العضو تنحصر في حدود المهنة فقط، وحتى في المهنة فهؤلاء ليسوا خارج دائرة قانون القضاء العام. إن كل أعضاء الطائفة يعرفون أن الحكومة تستشير هؤلاء الشيوخ في كل الشؤون التي تخص الطائفة، وعلى هذا فهؤلاء لا يستطيعون تجاهله، أو التغاضي عن سلطاته. والشيخ بدوره يعرف أن يميز بين أولئك المدعومين من قبل السلطة، وأولئك الأشخاص الذين ليس لهم نفوذ في هذا المجال.

إن جميع ما ذكر سابقاً ينطبق على جميع الحرف في مكة، وكذلك المؤسسات المنظمة على مثل هذه الشاكلة، مثل العلماء والسادة. وعلى هذا فلن نطيل البحث في هذه النقابات الحرفية، ولا سيما أن معظم هذه الحرف يتعلق باستئجار البيوت، أو بيع المواد الغذائية أو الملابس أو التحف والكماليات، وكلها متشابهة عموماً في خطوطها العريضة، باستثناء بعض الخصائص الطفيفة، التي تمتاز بها كل نقابة عن غيرها من هذه النقابات.

---

(١) في الأوساط الإسلامية تكون قراءة الفاتحة في نهاية القرارات المهمة. كما أنها تكون خاتمة لكل دعاء من الأدعية، وكذلك تقرأ الفاتحة في جميع المناسبات السارة. وكذلك نجد التجار الذين لا يصلون إلى قرار معين لأسعار بعض السلع يقرؤون الفاتحة بقصد الوصول إلى اتفاق حول مثل هذا القرار (المؤلف).

وبجانب أصحاب المحلات التجارية الذين يجهزون كميات كبيرة من البضائع الخاصة كالمسابح والأمشاط، والتي تنفرد بها المدينة المقدسة، يوجد ـ أيضاً ـ المكاريون الذين يؤمنون عمليات الانتقال من المدينة وإليها، والذين لولاهم لكان من العسير الاتفاق مع البدو لاستعمال جمالهم[1]. ولمّا كان التحلل من الإحرام يقتضي حلق الشعر أو تقصيره، لذا نجد العديد من الحلاقين. ولما كان على الحاج أن يذبح في منى، فوجد العديد من الجزارين لهذه المهمة.

وإنه من المفيد أن يقتصر دور المطوفين على ما هو ضروري لأعمال الحج فقط. ولكن هؤلاء يوسعون دائرة صلاحياتهم كثيراً، بحيث يحيطون الحاج بسياج لا يمكن اختراقه إلا بدفع مبالغ إضافية من المال. وفي هذا المجال الواسع لا يستطيعون منع أشخاص آخرين من منافستهم. وإذا ما وجد المطوف أحد الحجاج الأثرياء الذي يمتلك بضع مئات من الدولارات، ويريد إنفاقها، حذره من المتطفلين الفضوليين. غير أن المطوف نفسه يرسل إلى هذا الثري العديد من الأشخاص بقصد الحصول على بعض هذه الأموال عن طريق الصدقة.

الصداقات النفعية

إنه لمن السهولة بمكان أن يكوِّن الحاج العديد من الصداقات مع بعض أبناء مكة، وخاصة من أولئك الذين يترددون عليه. وبعض هذه الصداقات شريفة، غير أن بعضها الآخر هدفه النصب والاحتيال، من بعض ضعفاء النفوس. إذا ما عرف هؤلاء أن الحاج من أسرة ثرية قدموا له كافة الإغراءات.

هل الحاج بحاجة إلى نقود ولا سيما أن في مكة الكثير من أبواب الإنفاق المختلفة؟.. فإن كان الحاج بحاجة إلى مثل هذا المال يقوم الصديق بإقراضه هذا المال، شريطة أن يوقع على اتفاق، يتعهد بموجبه بدفع ضعف المبلغ المقرر فيما بعد.

---

(١) الشخص الذي يؤمن وسائل النقل يسمى (المقوم)، أي يقوم الجمال، ويأتي بها لحمل الأثقال.

هل الحاج يرغب في الزواج؟ إن أصدقاءه يعرفون بعض البنات الأبكار أو النساء المتواضعات أو الأرامل أو اللواتي ليس لهن أمهات أو أقارب، وما عليه إلا أن يختار ما يريد.

هل الحاج بحاجة إلى شراء جارية؟ إن أصدقاءه أكثر الناس معرفة بالدلالين، الذين يقومون ببيع الجواري.

وقد يقوم هؤلاء بأداء فريضة حج البدل عن أقربائه الموتى، إذا كان الحاج شافعياً، أو عن أقربائه الأحياء إذا كان حنفياً، على أن يأخذ هؤلاء بعض القطع الذهبية نظير ذلك. وعلى العموم فإن هؤلاء الأصدقاء يسحبون كل كلامهم إذا وجدوا أن المطوف قد حجز على الأموال التي أحضرت لهذه الغاية. فهم لا يستطيعون أن يأخذوا هذه الأموال من المطوف نفسه، ولكنهم بالمقابل لا يتركون صديقهم الحاج في مثل هذه البيئة بدون إسداء النصيحة له. إن القارئ يستطيع أن يدرك بسهولة مدى عمق هذه الصداقات التي تعقد وأثرها. إن هناك العديد من الأشخاص يكسبون عيشهم من خدمة الحجاج، دون أن يكونوا مطوفين أو وسطاء أو مساعدين، وإن الجواب الذي يتلقاه المرء عند سؤاله عن مصدر دخل هؤلاء هو: لقد كنت عتالاً أو إسكافياً أو غير ذلك، ثم أصبحت لي علاقات وطيدة مع الهنود أو الأتراك أو الجاوة أو غير هؤلاء، وأعيش الآن من عملي مع هؤلاء الناس في أثناء فترة الحج.

وعلى العموم فإن هناك العديد ممن يعملون في خدمة الحجيج، وهؤلاء يشكلون نقابة كبيرة واسعة الانتشار والنفوذ، تحوي عناصر مختلفة متباينة الثقافة والمركز الاجتماعي في المدينة المقدسة.

وأخيراً يجب أن يذكر مصدر مهم من مصادر الدخل لأهل مكة في موسم الحج، ذلك هو تأجير البيوت السكنية. لا يوجد في مكة فنادق، فالمرء في الشهور الأخيرة من كل عام يقوم بتأجير بيته كاملاً. وقد يؤجر طابقاً أو نصف طابق. وعلينا هنا أن نتحدث قليلاً عن ترتيبات السكن في البلد المقدس في أثناء موسم الحج.

البيت المكي

إن مادة البناء لمعظم بيوت مكة هي الحجارة التي يؤتى بها من مقاطع قريبة من المدينة. إن البيوت الجيدة مبنية من حجر الشميسي، الذي يؤتى به من منطقة الشميسي[١] بقرب حدود الحرم على طريق جدة .أما السقوف، فلها عوارض خشبية، توضع فوقها أوراق سعف النخيل المنسوجة بشكل حصير، يوضع فوقها الرمل[٢]. وإن المعماريين من إسطنبول وسورية الذين يستخدمهم الأشراف والأثرياء من التجار، يستعملون مواداً أخرى أكثر متانة. ويستعملون في الخوارج[٣] وأرضية البيوت وبيوت الدرج (السلم) نوعاً من البلاط الأسمنتي الذي يعرف (بالطبطاب)[٤]. وفي البيوت القديمة التي تشهد إعادة ترميم، فإن السطوح والأرضيات كلها مصنوعة بهذه الطريقة. وإن أدراج السلالم العالية غير المنحوتة قد استبدلت بغيرها مما يسهل الصعود عليه. ولا يوجد هناك نمط معين في البناء، ويصعب القول بوجود خصائص مشتركة لجميع البيوت. إن المعماريين المهرة يعملون وفقاً للرغبات الفردية للأشخاص الذين يقومون بالبناء. والمواطن العادي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ندرة

---

(١) حجر الشميسي ويسميه أهل مكة «قاحوط» وهو أحمر اللون تخالطه صفرة وهو لين في النحت. وهو منسوب إلى قرية الشميسي (الحديبية). وما زال يستخرج من جبالها وله شكل جميل، وبالإضافة إلى صخور الشميسي كانت بيوت مكة في أول القرن الرابع عشر وما قبله تبنى بالحجر الشبيكي وهو أسود اللون، تعتريه نقط بيضاء ضئيلة، وهو حجر صلب للغاية (محمد رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري ص٢١).

(٢) كانت السقوف بعد أن تصف بأعواد شجر الدوم، يعمل لها شبكة من جريد النخل، وتوضع على الأعواد، ويوضع فوقها الحصير، ثم توضع على الحصير كمية من نبات الإذخر، ثم يخلط التراب المبلول بمقدار من النورة، لتتصلب بعد أن تجف، ثم يكبس السطح بالخليط المذكور. وبعد أن وُجد الخشب صار الخشب يوضع بدلاً من الجريد أو الحصير. وأولو السعة يبلطون السقوف بعد ذلك بعملية الطبطاب (انظر محمد عمر رفيع، مصدر سابق ص٢٢).

(٣) الخوارج جمع خارجة وهي الرحبة الموجودة على السطح أمام المبيت.

(٤) كيفية عمل الطبطاب، هو أن يخلط الحصحاص بالنورة والبطحاء، ويفرش ثم يدق بالمطارق ويسمونها «قزم» إلى أن يتماسك، ثم يملس بآلة مخصوصة وتعرف بالملعقة، ويسوى سطحه تسوية معتدلة إذا كان في الغرف، أما إذا كان في السطوح، فيكون مع ميل لجهة الميزاب، لتسرب ما يتجمع من ماء المطر أو في أثناء غسل السطح، وتسمى هذه العملية طبطاب (محمد عمر رفيع، مصدر سابق ص٢٢).

بعض مواد البناء، وأشكال الأرض غير المنظمة وغير مستوية السطح في الغالب. وعلى هذا سيقتصر حديثنا على بعض الغرف والشقق التي لا يمكن أن تكون ممثلة لنمط البناء المكي، حيث يوجد بجانبها أنماط أخرى مختلفة تماماً.

الدهليز

عند الدخول من الباب الخارجي، يدخل المرء إلى (الدهليز) الذي له أرضية من الرمل، وقد تكون مغطاة بالطبطاب. وفي البيوت الصغيرة نجد في الغالب مقعدين من الخشب، كتلك التي توجد في المقاهي. وهنا يستقبل صاحب البيت الضيوف والزائرين الذين لم يرتبوا أمر زيارتهم مسبقاً. ويوجد بجانب الدهليز من الجهتين أو من أحدهما عدد من الغرف الصغيرة التي ترتفع أرضيتها عن أرضية الدهليز نفسه، لتجنب وصول الماء إليها، فيما إذا حدث فيضان ونزل الماء إلى الدهليز. إن هذه الغرف تدعى مقاعد (مفردها مقعد) وتستعمل مكاتب أو غرف استقبال لأقرباء الأسرة ومعارفها، وتستخدم أحياناً أخرى لأغراض النوم، أو تستعمل مع الدهليز مخزناً للبضائع، أو مكاناً لحفظ الأمتعة. وفي بيوت الأثرياء يبدو الدهليز فخماً ومرتباً، والقسم الخلفي منه والذي يصعد إليه بعدة درجات، يكون مفروشاً بالسجاد، وعلى جوانب الحائط توجد المساند والفرش التي تستعمل للجلوس أو الاضطجاع. ويعد وجود هذه المساند المكسوة بالقطيفة، والموضوعة على المقاعد الخشبية (الكراويت) المكسوة أيضاً بالسجاد نوعاً من الموضة الجديدة التي استعملت مؤخراً. إن هذا الديوان يخدم أغراض الاستقبال العادية، كما يستخدم لطعام الرجال حينما يوجد ضيوف أو أصدقاء في البيت.

إن الديوان مع الغرف المجاورة يكفي لاستقبال الضيوف الأعزاء، الذين لا يسمح لهم بالصعود إلى الطوابق العليا من البيت. إن الغرف المجاورة تستخدم لكثير من الأغراض المختلفة. فواحدة يمكن أن تكون مكتبة، وأخرى يمكن أن تستعمل مجلساً يضم حلقة من الأصدقاء الذين يتناقشون في الأعمال التجارية، بعيدين عن الضوضاء التي تنبعث من الدهليز. إن هذا الطابق كغيره من طوابق البيت يحوي (بيت الماء أو كما يطلق عليه

أحياناً اسم بيت الطهارة) والذي يستخدم حماماً أيضاً، ويوجد به عادة زير كبير من الماء لاستعمالات هذا الطابق.

الحمام

وهناك جدار صغير يخفف من المنظر غير المريح لتلك البقعة من المنزل التي يقع المرحاض خلفها، ويتكون المرحاض من مقعد يرتفع حوالي ١٠ سم عن أرضية المكان، وفيه فتحة يجلس فوقها المرء ليقضي حاجته. وعند دخول المرء إلى الحمام، يحضر معه إبريقاً من الماء للاستنجاء، ثم يقوم المرء بالوضوء في الجانب الآخر من الحمام. وعند الاستحمام من الجنابة، يقوم المرء بنضح الماء من الزير بواسطة مغراف يكون في الغالب على الغطاء الخشبي للزير، ثم يغتسل ويتوضأ. ومن هذا الزير أيضاً تملأ الجرار الصغيرة (القلل أو الشراب) المخصصة للشرب. وكذلك حوض الغسيل وأدوات المطبخ. كما يشرب الخدم من هذه (المغاريف) أيضاً. إن أرضية المكان لها ميلان معين يسمح بتسرب الماء وجريانه في الفتحات التي تخترق الجدار إلى الخارج. ويمكننا أن نترك هذا المكان الذي لا يذكر فيه اسم الله، والذي يحوي بالإضافة إلى الصراصير الأرواح الشريرة غير المرئية والتي يحمي المرء نفسه منها عند دخوله الحمام بقراءة الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٩﴾[١] [الصافات، الآية: ٧٩].

وفي بعض الأحيان، في الطابق الأرضي، يوجد بدلاً من الديوان العديد من الغرف المغلقة عند مدخل الدهليز. بعض الأثرياء يبنون في الغالب خزاناً حجرياً (بركة) في مكان هذه الغرف، التي تتسع لمئات من قرب الماء، وذلك للاستعمالات المنزلية. وحينما يكون الجدار الخلفي للبيت غير ملتصق بمساكن أخرى، يكون هناك باب آخر من الجهة المقابلة، يفتح على أرضية الدار المحيطة بالمنزل، والتي تحاط من جميع جهاتها بمنازل صغيرة متصلة بالشارع العام بدخلة ضيقة.

---

(١) لم نجد من المراجع الشرعية ما يؤيد ما ذهب إليه المؤلف حول قراءة هذه الآية الكريمة. بل جاء في الحديث فيما يقال عند دخول الحمام: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث».

وفي الدور الأرضي لا يمكن مشاهدة النساء بدون حجاب إلا عرضاً. والنساء في الغالب يقمن في الطوابق العلوية. فإذا كان المنزل مسكوناً من عائلة واحدة، لا يمكن الدخول بدون سماح من البواب، أو بصحبة أحد أصحاب البيت. وفي هذه المدن العربية العظيمة، فإن معظم المواطنين يشغلون طابقاً واحداً أو نصف طابق من بنايات فيها ثلاثة أو أربعة طوابق. وفي مثل هذا النوع من السكن يمكن للمرء بتحفظ أن يصعد إلى أحد هذه الطوابق ليزور بعض المعارف والأصدقاء. وعند الدخول يجب على المرء أن يتباطأ في السير قائلاً في أثناء سيره: يا ستّار، بصوت مسموع كي تتنبه النسوة في البيت، بحيث تتحجب أو تبتعد عن الطريق. وعندما يقترب الزائر من بيت يود زيارته، يجب أن ينادي على صاحب البيت، وإذا لم يسمع تصفيقاً من النساء، يشعر بعدم وجود صاحب المنزل، يستمر بالمناداة حتى يحضر الرجل.

الطوابق العليا

وعلى الدرج يمر المرء على بعض الأبواب التي تمثل غرف التخزين، أو بعض المطابخ التي تتبع الطابق العلوي. إن عدد وحجم الشقق في كل طابق يختلف كثيراً بين بناية وأخرى. وفي معظم البيوت تتشابه الأدوار في السعة، ولكن كلما صعدنا إلى الأدوار العليا، تتضاءل سعة هذه الأدوار،

الخارجة

وذلك ناجم عن اقتطاع جزء من البيت ليكون شرفة (خارجة)، أو لأن البناء لم يكتمل نتيجة لعدم توفر المال اللازم لذلك. وعلى سبيل المثال في الطابق الثاني، فإن ربع مساحة البناء تستعمل خارجة. إن هذه الخوارج هي أماكن خاصة، لا يمكن الدخول إليها، وذلك لأن معظم أعمال النساء تتم فيها، بل أيضاً تعلق فيها الملابس المغسولة، وتستخدم لجلوس أفراد العائلة بعد الغروب، وكذلك ينام فيها أفراد الأسرة في ليالي الصيف الشديدة الحرارة.

المبيت

ولهذا السبب فإن هذه الشرفات لها جدران خاصة من الطوب لمنع نظرات الغرباء، غير أنها تحوي فراغات بين كل طوبتين، للسماح للهواء بالدخول. وقد يخصص للمتزوجين شرفة خاصة للنوم لهم ولأطفالهم. وحيث يوجد أكثر من عائلة لا بد من تجزئة المكان بستائر أو بعض الحواجز. وهناك أحياناً غرفة صغيرة تبنى في هذا المكان، ويطلق عليها

غرفة مبيت ينام فيها الزوجان[١]. إن الأطفال الصغار والخدم يمكن أن يناموا في أي جزء من هذا المكان. أما الفقراء فينامون على المقاعد في أسفل البيت أمام الباب أو في المقاهي.

وعلى الرغم من أن المكيين لا ينامون في الهواء الطلق في الأيام الباردة، لكن القليل منهم لديه غرف خاصة للنوم. إن مثل هذه الغرفة لا حاجة لها ألبتة؛ فهم يغتسلون في الحمام، وينامون بالملابس نفسها التي يرتدونها، فعندما يضع المرء الجبة والشاية[٢] والتي لا يلبسها المرء في البيت، يمكن للمرء أن ينام في أي مكان من البيت، وغالباً ما ينام المرء في المكان الذي يجد فيه متنفساً من الهواء المتحرك. إن العديد من هؤلاء يضطجعون على الفرش (الطراريح) والمساند والمخدات الموجودة في كل غرفة من غرف البيت. وهناك عادة النوم في أوقات الحرارة الشديدة في الظهيرة، وقد ينام الإنسان في أي وقت يشعر أنه بحاجة إلى مزيد من النوم. وتخصص الليالي اللطيفة الجو إلى السمر والأحاديث والمناسبات الاجتماعية.

المجلس

وأمام البيت وباتجاه الشارع فإن لكل طابق غرفة للجلوس تسمى (المجلس) لها العديد من النوافذ، وتحوي المفارش والمخدات. إن النوافذ الوسطى لها بلكونات[٣] (رواشين) تطل على الشوارع العامة، وكلها مغلقة

---

(١) إن غرفة المبيت تشغل قسماً من السطوح، وتحفظ فيها المفروشات المخصصة للنوم. ومن كان يعتاد تأجير قسم من داره في موسم الحج، يؤجر الطبقات السفلى، ويسكن هو وأسرته في المبيت طوال فترة الحج (محمد عمر رفيع، مصدر سابق ص٢٣).

(٢) الجبة: هي ما يلبس فوق الثياب في العادة وتكون واسعة فضفاضة وأكمامها واسعة كذلك. أما الشاية: فهي عبارة عن جبة مفتوحة إلا أنها تربط بحزام لقفلها من الوسط، وكان المكيون يرتدونها تحت الجبة فإذا ما أضفنا إلى ذلك «العمامة الألفي» كان هذا هو الزي الحجازي لملابس الرجال، وخاصة العلماء والتجار والطبقة المتعلمة (محمد علي مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز ص٨٧ ـ ٩٠).

(٣) إن البلكون يطلق عليه اسم روشن، أما النوافذ التي لها شبابيك خشبية فيطلق عليها اسم طاقة (جمعها طيق أو طيقات)، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على الخزائن الحائطية التي توضع فيها أدوات الصيني والزجاج والأدوات الأخرى (المؤلف).
لقد كانت الرواشين في بيوت مكة القديمة صغيرة نوعاً ما لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص جلوساً، وعلى جانبي الروشن طاقة، وكانت الرواشين والطيق وكذلك الأبواب تجلب من =

بشبابيك خشبية، لها فتحات عرضية، يمكن الرؤية من خلالها (قلابات) لمن في داخل البيت، في حين لا يتمكن الناس من الخارج من رؤية الناس في داخل المنزل. وهناك بعض أقسام الروشن يمكن فتحها وإغلاقها بواسطة سقاطة. وعندما تفتح كامل النافذة تتدلى ستارة مكونة من عيدان نحيفة ذات ألوان زاهية (الكبريتة). إن الأرض أو المقاعد الكراويت الموجودة على طول الجدار تكون مفروشة ومؤثثة، على النحو الذي ذكرناه في الديوان، وتحت السجاد تفرش في الغالب الحصر المصنوعة من سعف النخيل، وذلك لحماية السجاد من التلف.

الصفة

وعند الدخول إلى غرفة الجلوس، على المرء أن يمر من خلال غرفة أخرى مجاورة لغرفة الجلوس وبعرضها نفسه. ويطلق على هذه الغرفة اسم (الصفة)، وهنا يمكن استقبال الضيوف بصورة مؤقتة، إذا كانت غرفة الجلوس مشغولة بالنساء. وفي الدعوات يجلس فيها المباشرون الذين يقومون بخدمة الضيوف. وعلى جوانب غرفة الجلوس والصفة توجد ملحقات تستغل أحياناً لوضع دواليب وأماكن للتخزين، وفي هذه الحالة يطلق عليها اسم (الخزانة)، وقد تستعمل أحياناً أخرى مطابخ. وعندما يفد أحد الزوار إلى المنزل تغادر المرأة غرفة الجلوس إلى الخزانة. وحينما لا يكون هناك ضوء في الخزانة فإن المرأة تمر عبر الباب الخلفي حيث تخرج.

وإذا كان هناك بناية ذات حجم كبير، نجد العديد من غرف الجلوس، والعديد من الغرف الأخرى، ولا يوجد نمط معين لتوزيعها. ويمكن أن

= الهند، وتكون مزخرفة على شكل نقوش وأزهار تعطيها شيئاً من حسن المنظر وجماله. وفي أوائل القرن الرابع عشر تغير شكل البناء، فقد جلبت إلى مكة أنواع من الأخشاب كخشب يسمى: «الفني» تعمل منه الرواشين والطيق والأبواب، وكان يجلب من الملايو، وكذلك نوع آخر من أعواد الأخشاب التي سميت (القندل) وتجلب من سواحل إفريقية الشرقية، وصارت الرواشن والأبواب تصنع محلياً، وقد تأثرت هندسة البيوت بنمط الهندسة التركية، وأصبح الروشن بعد أن كان صغيراً في وسط جدار الغرفة صار يصنع بقدر سعة الحجرة (محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص٢١ ـ ٢٤، ومحمد علي مغربي، مرجع سابق ص٧٨).

نذكر هناك غرفة الجلوس الصغيرة التي تطل على فناء الدار (الحوش) أو على الشارع الخلفي وتسمى المؤخر.

احترام الجار

وحينما يشترك العديد من العائلات في طابق واحد، فإن هذه العائلات تقسم البناء إما بواسطة ستائر أو حواجز خشبية وما إليها. ومن الواجب هنا أن يحترم المرء ويحافظ على منزل شريكه في السكن. ومن العادات الشائعة والحسنة أن الجيران مرتبطون مع بعضهم بروابط قوية، بحيث يساعد بعضهم بعضاً في كل مناسبة، وفي كل حاجة يحتاجها هؤلاء، مثل الحاجة إلى استعمال غرفة معينة، أو استعارة أدوات معينة، وحتى استعارة بعض الملابس. ومن هنا نفهم المثل العربي القائل: (الجار قبل الدار). وإذا كان سلوك أحد الجيران غير سليم، فإنه يحق لبقية الجيران أن يطلبوا إخراجه وإنهاء عقده من صاحب البيت.

حيوانات مؤذية

وهناك جيران من نوع آخر، لا يترددون عن الإيذاء المستمر ولا سبيل إلى الخلاص منهم. وهؤلاء يشملون: القطط، والحمام، والسحالي (الوزغ)، والنمل، وحتى الأفاعي. فالسحالي يمكن قتلها؛ لأن الرسول ﷺ لعنها، في حين الأنواع الأخرى من الحشرات، تتكاثر تحت حماية القانون الذي يمنع قتل هذه الحيوانات كما يمنع قتل الإنسان باستثناء حيوانات الذبح، وبعض الحيوانات الضارة بالصحة، والحيوانات المؤذية. والحمام كان موجوداً في مكة حتى قبل الإسلام. وبالنسبة للقطط فإن الرسول ﷺ كان يحبها. إن كلا النوعين من هذه الحيوانات (القطط والحمام) تتجول بحرية في المدينة المقدسة، ولما كانت الأبواب والنوافذ مفتوحة باستمرار، فإن دخول هذه الحيوانات وخروجها يسبب إزعاجات كثيرة لربة المنزل.

إن الأحياء البعيدة عن قلب المدينة، تكون في العادة مساكنها أقل جودة وصلاحية، من تلك التي تكون قريبة من السوق. وتتكون في الغالب من طابق واحد. وكلما اتجهنا نحو الضواحي، تتضاءل المساكن الجيدة، ويحل محلها الأكواخ التي تسمى (بالعشش).

أما المتسولون ومن لا مسكن لهم، يجدون مكاناً جيداً للنوم في المسجد الحرام، الذي يضم بالإضافة إلى هؤلاء بعض الناس الذين جاؤوا للنوم في المسجد بقصد العبادة (الاعتكاف)، أو لأن هناك بعض المنغصات في البيت. أما الفقراء والبخلاء من الحجاج فينامون في المسجد أيضاً، أما في النهار فيجلسون هم وأمتعتهم في ظل المساكن القريبة من الحرم.

إيجار المساكن

إن الإيجار في مكة يكون في العادة لسنة كاملة، ولو كان الاستئجار في أول السنة أو وسطها أو قبل موسم الحج بشهر واحد. وبالنسبة لصاحب المنزل لا يفرق الأمر كثيراً إذا كان المستأجر مواطناً أو حاجاً. وفي حالة الحاج يكون المبلغ المدفوع أكثر قليلاً. فإذا كان لديه الرغبة في أن يؤجر بيته لأهل مكة، فذلك لأنه يريد أن يريح نفسه عناء البحث عن مستأجرين من الحجاج في نهاية العام، وإذا كان المرء يسكن في بيته، فإنه يحصل على أجر في الثلاثة أشهر الأخيرة من السنة، يعادل الأجر الذي يتقاضاه من أول السنة إلى آخرها، فيما لو أجر بيته في شهر المحرم. وحتى أولئك الذين يعيشون بنصف طابق، يعرفون كيف يجدون متسعاً لبعض الحجاج في البيت، لأن إقامة الحاج غير طويلة، فمعظم هؤلاء الحجاج يقضون أوقاتهم في المسجد وخارج المنزل. إن على أفراد العائلة في الموسم أن يقنعوا بالعيش في جزء من أجزاء البيت.

ولا يهتم المؤجر بنوعية من يستأجر البيت، فلا خوف من تهرب هؤلاء من دفع الأجرة؛ لأن هذا لا يحدث إلا نادراً من بعض الحجاج. وباستثناء المطوف، ليس لأي فرد سلطة على الحاج، سوى صاحب البيت. وصاحب البيت يفضل تأجير بيته إلى أصدقائه وأبناء بلده الأم الذين يفدون عليه. ويختار من بين هؤلاء ذوي الثروة والجاه. ومن جهة أخرى فهو يفضل أن يؤجر بيته لطائفة دون أخرى، فهو يفضل الأتراك لنظافتهم، والجاوة لتواضعهم. والمؤجر يضع سياجاً ثانياً حول الحاج خلف السياج الذي وضعه المطوف، بحيث لا يمكن لشخص ثالث أن يخترقه. غير أن هناك إمكانية للعديد من أولئك الذين يقومون بمساعدة المطوف وغيرهم للاستفادة من أموال الحاج، بما فيهم الأشخاص الرسميون والموظفون الذين لهم نصيب في هذا المجال.

وتجد في أحد البيوت أن ٢٠ شخصاً من أفراد الجاوة يعيشون في غرفة واحدة، ينامون ويطبخون ويأكلون ويشربون فيها. وجميع سكان المنزل لا يبدون تذمراً في أشهر الحج، خاصة لأن هذا هو الطريق إلى جمع مزيد من المال. وحينما يكون مع الحجاج نساء تكون هناك نوع من الاستغلالية لهؤلاء. غير أن صداقات وتبادل زيارات وحتى دعوات تقوم بين هؤلاء وربة المنزل. والعلاقة التي تقوم بين المطوف أو رب المنزل من جهة، والحاج من جهة أخرى، تحددها الأغراض الشخصية لكل منهما، كما يحددها نوع العلاقات التي تربط بين الحاج والمجتمع المكي. تلك العلاقات التي تبني في الغالب من سنوات سابقة قدم فيها الحاج إلى الديار المقدسة.

وقد يقع الحاج في مشكلات عدة بالنسبة للسكن، فقد يستأجر غرفة أو اثنتين ويراهما بادئ ذي بدء مناسبتين وسعرهما رخيص، وما إن يسكنهما حتى يكتشف العيوب الموجودة فيهما، كأن تكونا في بعض أوقات النهار لا تصلحان للسكن، أو يحتاج المرء الساكن فيهما إلى سطح للنوم في الليل، وفي هذه الحالة يقدم صاحب المنزل تسهيلات إضافية إلى المستأجر يتقاضى بدلها ضعف الأجرة المقررة.

ولما كان للمطوف نفوذ كبير على الحاج يمتد ليشمل اختيار المسكن، فإن كل المكيين يحرصون على وجود صلة مع العديد من المطوفين الذين تربطهم صلات كثيرة بالجمهور.

إن التقويم الإسلامي المبني على دورة القمر له دور مهم، ولا نظير لأهميته في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي. أما السنة الشمسية فيذكرها الناس هنا عند تغير درجات الحرارة، وعند نضوج بعض الثمار كالتمر والتين والدراق، وفي الدورات الزراعية فإن المواسم تحدد عن طريق دائرة البروج. إن الفلكي الذي يقوم بعمليات الحساب للتقويم، يطلق عليه اسم (الريّس). ولدراسة واقع العلاقات الاجتماعية في المدينة المقدسة سوف نربطها بشهور السنة القمرية، بحيث نتحدث عن هذه المناسبات الاجتماعية في وقتها المخصص لها.

الحياة الاجتماعية بعد موسم الحج

ففي شهر المحرم، بداية السنة الهجرية، والذي يعقب شهر الحج، نشاهد انخفاضاً ملموساً في النشاط الذي بدأ في موسم الحج، ووصل قمته في شهر ذي الحجة. ومع بداية محرم يبدأ سلم النشاط بالنزول تدريجياً. فكثير من الحجاج قد غادر البلاد المقدسة، وفي كل أسبوع يرسل المطوفون أعداداً كبيرة من هؤلاء إلى ميناء جدة، لترحيلهم إلى بلادهم. ونجد في جدة العديد من الوسطاء والسماسرة الذين كانوا يعملون في موسم الحج في مكة، نجدهم في جدة يعملون لصالح شركات البواخر التي تقل الحجيج إلى بلادهم، ومن يتخلف عن العودة بعد موسم الحج بغرض الدراسة أو السكنى الدائمة في مكة، يستطيع الحصول الآن على مسكن دائم وملائم، ليتكيف مع شروط الحياة الجديدة في البلد المقدس. إن أفراد المجتمع المكي الذين فرض عليهم موسم الحج الابتعاد عن بعضهم من جراء ترك بيوتهم، أو الاشتغال بأعمال الحج، يبدؤون بالعودة إلى حياتهم العادية، ويلتئم شمل الأسر المختلفة، ويبدأ موسم الراحة والاستجمام. إن هذا لا يعني أن جميع أفراد المجتمع المكي يتركون أعمالهم، بل هناك العديد من هؤلاء ليس لديه فرصة للراحة والاستجمام، فالتجار يقومون برحلات مختلفة من أجل الحصول على البضائع، والمطوفون أو وكلاؤهم يذهبون إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي النائية، بقصد الحصول على مزيد من الحجاج للموسم القادم.

أوصاف الأوروبيين

إن آلاف المكيين لم يسافروا طوال حياتهم إلى أبعد من الطائف والمدينة، ولا يحبذون الذهاب إلى جدة مخافة أن يختلطوا بالكفار. لقد تعلم هؤلاء من أمهاتهم ومن النساء اللواتي يحطن بهم منذ الصغر أن الكافر هو إنسان شاذ مخيف. إن ملامحهم الشاحبة تعطي انطباعاً بأنهم مصابون بالجذام، ولا يستطيعون التطلع إلى السماء، وغالباً لا يمشون وهم رافعو رؤوسهم، وعليهم أن يظللوا عيونهم بأطراف قبعاتهم الكبيرة، ويجلس الرجال والنساء معاً دون خجل، ويشربون الخمر، وهم غير نظيفين، ويدخلون المساكن بأحذيتهم الوسخة، ولا يعرفون كيف يطهرون أنفسهم بعد الذهاب إلى الحمام، أو من الجنابة، ولديهم طباع خشنة، ويضحكون بصورة عالية

كالضباع، ويتكلمون بلهجة عنيفة، حتى عندما لا يكونون في حالة سكر، ليس لديهم أي دين. وإن سعادتهم وعظمتهم في هذه الدنيا فقط. وإنهم لا يتألمون عند الموت الذي يصادف في الغالب يوم السبت. غير أن عذابهم في جهنم شديد. وعلى ضوء ذلك لا يجدي اقتناع كثير من المتعلمين بعدم صحة كثير من هذه الأقاويل، أمام تلك المعلومات الموروثة عن غير المسلمين. لذا نجد الأحداث الصغار ينفرون من مقابلة غير المسلم، كما ينفرون من الأشباح. إن عدداً من الأشخاص الذين سافروا في عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) إلى جدة للذهاب إلى المدينة بطريق البحر، قد وصفوا لي مشاعرهم التي تبدو مشاعر عاطفية، كالتي تعتري الأوروبي حينما يرى مجنوناً أو رجلاً مصاباً بوباء. إن ما سمعه هؤلاء من مواطنيهم الذين رحلوا معهم لم يوسع مداركهم قليلاً، بل زاد حيرتهم، وكان معظم ما سمعوه عن هؤلاء الكفار يدور حول نوادر وقصص، تظهر جهلهم في الدين، وعدم اعتقادهم بوجود الخالق الكريم.

وهناك العديد من أهل مكة ممن يشكرون الله ـ تعالى ـ، الذي حماهم من المخاوف، ومن عين الحاسد، وكذلك من الاختلاط بهؤلاء، وإن من قدر له أن يخالط عرضاً بعض غير المسلمين يخفف من غلواء بعض هذه القصص الغريبة، إلا أنه يكتسب نوادر أخرى أكثر مما فقد، وليس من شك في أن الأوروبيين أنفسهم يتحملون بعض اللوم، لأنهم لم يتفهموا طرق حياة المسلمين، وفي الوقت نفسه، إن كل خطوة يخطوها الأوروبيون يطؤون فيها على أقدام هذا الشعب المحافظ على إسلامه.

ويجب أن نشير هنا إلى أن العديد من أهل مكة يبقون في المنزل، بمعنى أنهم لا يمارسون عملاً، حيث يقوم هؤلاء باغتنام مسرات الحياة بعد موسم الحج بالطريق التقليدية، وذلك بالأموال التي تحصلوا عليها من موسم الحج. إن المرح هو طبيعة أهل مكة، على الرغم من أن المكي في موسم الحج لا ينقطع لسانه عن ذكر الأحاديث النبوية، وليس هذا من قبيل النفاق، كما أنه ليس نابعاً من الشعور الداخلي للفرد، بل هو ببساطة ـ من وجهة نظره ـ أداء لواجب مفروض عليه بوصفه مواطناً من أبناء البلد الحرام،

وبوصفه صاحب عمل يقصد من ورائه دخلاً. وهذا يشبه إلى حد كبير حالة رجل ثري، يظهر شعوراً نبيلاً بالعطف على بعض من أصيب بمكروه. فالمكيون يريدون بحماس شديد أن يمتعوا إخوانهم في العقيدة بهذه الشعائر المقدسة التي يفعلها المكيون كل يوم. وبعد أن ينهي المكي هذا العمل السنوي، يبحث عن المسرات المريحة، في جو من الاسترخاء. وهذا متيسر له أولاً في بيته، حيث الفرد المسلم يسر كثيراً لوجوده مع أبنائه وزوجته، وقد يجد المتعة أيضاً في بيوت أصدقائه، حيث المناسبات السارة، وحتى في المآتم التي يحاول المرء ألا تفوته. ففي كل ذلك يجتمع هؤلاء ويتحدثون ويأكلون الطعام في وليمة معاً، وبالإضافة إلى ذلك هناك اللقاءات الاجتماعية، أو الرحلات القصيرة (قيلة) في المدينة وخارجها، التي يقوم بها هؤلاء مع أصحابهم ومعارفهم. وأخيراً هناك الأعياد التي يشارك المكيون فيها العالم الإسلامي فرحة العيد. وأيام الأعياد هذه يفضلها المكيون ويحتفلون بها في مدينتهم، بحيث يبدو هؤلاء خدماً أكثر من كونهم مضيفين.

إن التقويم القمري يتغير تدريجياً بحيث يتغير تاريخ المواسم والفصول كل ٣٣ سنة، بحيث تقع المناسبات التي كانت تحدث في الصيف، تحدث الآن في فصل الشتاء. فإذا صادف أن كان الوقت صيفاً، فإن الموسرين من أهل مكة يذهبون شرقاً إلى مدينة الطائف، التي تبعد مسيرة يومين إلى الشرق، حيث الهواء اللطيف، والمناخ البارد، والحدائق الجميلة المحيطة بها، ويقول المكيون لقد نقل الله هذه الأرض من الشام، ليرضي بها ضيوف الرحمن. أما إذا جاء الحج في مثل هذه الأشهر، فإن المكيين يحرمون الذهاب إلى المصيف. وإذا كان الصيف في رمضان، فإن الذهاب إلى الطائف يحقق فائدة مزدوجة، حيث يصبح العطش ـ وهو المشكلة الكبرى في الصيام ـ أمراً غير ذي بال في جو الطائف الجميل. وإن الذي ليس له بيت في الطائف، يذهب مع أحد أصدقائه، حيث يستخدم التسهيلات التي يقدمها له صديقه.

مظاهر الحياة في المحرم

وفي المحرم تعود الحياة إلى ما كانت عليه قبل أيام الحج. ليس فقط في الحياة العائلية، بل أيضاً في المسجد الحرام، ففي العاشر من المحرم يصادف

يوم عاشوراء، الذي يستحب فيه الصيام لدى كل أفراد المسلمين، وفي هذا اليوم تقام عند الشيعة احتفالات خاصة بمناسبة استشهاد الحسين بن علي[١]. وفي هذا اليوم أيضاً يفتح باب الكعبة[٢]. وفي هذا التاريخ لا تزال مكة مملوءة بالغرباء الذين أدوا فريضة الحج، ويحاولون العودة إلى بلادهم. ونجد المسجد مملوءاً بالطائفين الذين يحاولون أن يطوفوا حول البيت ما أمكنهم ذلك قبل سفرهم إلى بلادهم.

وبالتدريج يقوم الحجاج بالرحيل، وتتناقص حلقة الطائفين حول البيت، ويصبح هناك متسع لأهل مكة للجلوس في أروقة المسجد. وكذلك تعود الدروس في الحرم إلى ما كانت عليه قبل الحج. كما تعود الحلقات الصغيرة التي يكونها الأصحاب والأصدقاء بعد كل صلاة في أماكن معينة من الحرم، يلتقي فيها هؤلاء، حيث يتبادلون الأحاديث المختلفة. وفي شارع المسعى[٣] حيث كان يعج بالمهرولين بين الصفا والمروة أصبح الآن فيه مجال للبيع والشراء بسهولة أكثر من ذي قبل، وكذلك الحال في الأسواق المجاورة مثل سويقة وسوق الليل.

---

(١) في مكة يقوم الشيعة باحتفالات العاشر من المحرم سراً. أما في جدة فمنذ الحرب الروسية التركية فإن الاحتفالات بهذه المناسبة علنية، ويجتمع هؤلاء خلال العشرة أيام الأولى من المحرم في بيت، يمكن لأي شخص دخوله، وفي أكتوبر عام ١٨٨٤م حضرت عاشوراء بكل طقوسه. وقد حضر الحاكم التركي هذا الاحتفال أيضاً في العاشر من المحرم بدعوة من القنصل الإيراني، حيث شرب الشربات، وشارك في البكاء أيضاً (المؤلف). ولما كانت هذه من البدع التي لا أساس لها في العقيدة فقد منعت هذه الاحتفالات منذ بداية العهد السعودي وليس لها من أثر في أي من مدن الحجاز الحالية الآن.

(٢) إن دخول الكعبة ليس جزءًا من أعمال الحج، وليس له أي صبغة دينية ومن الملاحظ أن الحجاج يحاولون جهدهم وبأي طريقة الدخول إلى داخل الكعبة والصلاة فيها مع العلم أن أهل مكة قد يدخلونها مرة واحدة طيلة حياتهم وقد لا يدخلونها أبداً (المؤلف). (أما أن دخول الكعبة ليس من أعمال الحج فصحيح وأما أنه ليس له صبغة دينية فغير مسلم به، فقد ورد عن الرسول ﷺ دخول الكعبة والصلاة فيها).

(٣) كان المسعى في السابق مفصولاً عن المسجد الحرام وكانت دكاكين الباعة تحف به من الجانبين. أما الآن وبعد التوسعة السعودية في الحرم ألحق المسعى بالمسجد، وأزيلت الدكاكين الجانبية منه.

عودة قافلة المدينة

وفي نهاية الشهر أو بداية الشهر المقبل، فإن الهدوء الذي خيم على المدينة خلال تلك الفترة، يشوبه العودة إلى الصخب ثانية، وذلك عند عودة القافلة الثانية من الحجاج من المدينة المنورة. فالحجاج الذين تأخروا في الوصول إلى مكة قبل الحج، وفاتهم الذهاب إلى المدينة في القافلة الأولى، يذهبون مع القافلة الثانية بحماية الجنود العثمانيين، حينما تعلن الحكومة أن الطريق خالية من المخاطر. وفي هذه الفترة تعود الحركة والنشاط إلى المدينة المقدسة، وينشط المطوفون ومساعدوهم في عمل الترتيبات اللازمة لرحيل هؤلاء، وفي هذه الأثناء ينشغل الحجاج بأمرين هما: مزيد من الصلوات والطواف في المسجد الحرام، ومزيد من الشراء للحاجات الضرورية والهدايا اللازمة لهم في سفرهم.

مظاهر الحياة في صفر

وبعد بداية شهر صفر يقوم المكيون بالتحضير والاستعداد لمناسبة شعبية مهمة، هي احتفالات الثاني عشر من صفر، الخاصة بالسيدة ميمونة. والسيدة ميمونة ـ رضي الله عنها ـ هي إحدى أزواج الرسول الكريم، وقبرها يقع في نقطة على الطريق المؤدي من مكة إلى المدينة، على بعد نصف يوم إلى الشمال من مكة، وكان هذا الموقع يطلق عليه تاريخياً اسم (وادي سرف) وأطلق عليه بعد ذلك اسم (النوارية)[1].

إن أهل مكة لا يعرفون بالضبط ما المقصود من هذه المناسبة، والتي ربما تكون الذكرى السنوية لوفاة السيدة ميمونة. ولكن هناك بعض المناسبات الشبيهة بتلك يحتفل بها لعدة أيام، ولا يعقل أن يكون ذلك ذكرى سنوية للوفاة؛ لأن معظم وفيات هؤلاء غير معروفة، ويمكن أن تعزى مثل هذه الأعياد إلى مناسبات شعبية جاهلية للحفاظ على استمرارها[2].

---

(١) يقع أثر قبر السيدة ميمونة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ على يسار الطريق الذاهب إلى المدينة من مكة، قبل مدينة الجموم، على بعد (١٦) كم من الحرم. وكانت المنطقة تعرف تاريخياً باسم وادي سرف. ويطلق أهل مكة على هذه المنطقة اسم (النوارية)؛ لأنهم كانوا يستخرجون منها الحجارة التي تصنع منها (النورة). والنوارية الآن أصبحت من أحياء مكة المكرمة بعد أن خططت ووصلها العمران الحديث.

(٢) لا نوافق المؤلف على رأيه في أن مظاهر الاحتفالات التي كانت تقوم على القبور والأضرحة =

وقبل موعد الاحتفال بذكرى السيدة ميمونة (ستنا ميمونة) بأسبوع، يبدأ الأصحاب والأصدقاء بالتحضير لهذه المناسبة. ومثل هذه اللقاءات تسمى (بشكة)[١]، يتولى أمورها أحد الأشخاص الذي يأخذ مبلغاً من المال من كل أفراد المجموعة، ليحضر الأشياء المطلوبة. والمسؤول عن الرحلة يدعى (قويماً) الذي يستأجر أو يستعير الخيام والفرش والسجاد والجمال وأدوات الطبخ. بينما بقية أعضاء المجموعة يفكرون فقط في ملابسهم، وفي إحضار أدوات الشيشة، بالإضافة إلى تحضير بعض الأطباق الجاهزة التي يحضرونها معهم، إلى جانب اللحم، وبعض الفواكه؛ لأنه لا يوجد أي من هذه الأشياء عند قبر السيدة ميمونة؛ لأن تلك المنطقة غير آهلة بالسكان.

إن من يحضر هذه الاحتفالات من النساء عدد قليل، والرجال في الغالب يلبسون الأزياء التقليدية، حيث تستبدل العمامة بالكوفية والعقال، وفوق الجاكيت تلبس العباءة المصنوعة من وبر الإبل. والعباءة تلبس في العادة من قبل البدو ذوي المقام الرفيع. وكذلك تلبس من قبل بعض أهل مكة من الطبقة الوسطى في الموسم البارد[٢]. وبعد نصب الخيام يزورون ضريح السيدة ميمونة، وهناك اعتقاد أن الضريح موجود في المكان الذي تزوج الرسول الكريم فيه من ميمونة حيث دخل بها في خيمة هناك.

إن زيارة القبور من وجهة نظر إسلامية، لا تتطلب سوى السلام على هؤلاء، وقراءة الفاتحة، وتلاوة بعض الأدعية لهؤلاء بالرحمة والمغفرة، بقصد المغفرة من الله تعالى. غير أن الغالبية العظمى من الزوار يكتفون

= في أنها من أصول جاهلية. فالحقيقة أن هذه المظاهر دخلت إلى مكة في أثناء العهد الفاطمي. فقد كان الفاطميون يحتفلون بأعياد ومناسبات كثيرة تقليداً لتشيعهم لآل البيت.

(١) البشكة: هي الجماعة من القوم تجمع بينهم المودة، ويقترن بها المفهوم الخاص بهم وهو (السمر والقيلات) والاستجمام والنزهات.

(٢) لقد كان ارتداء العقال والعباءة محدوداً في مكة، ولم يكن شائع الاستعمال كالعمامة الألفي والجبة اللتين كانتا لباس الكثرة الكاثرة من الناس. ولكنه كان معروفاً بين الأشراف وأعيان البلد في المناسبات، أما في العهد السعودي فقد عم استعمال العقال والعباءة (المشلح) لدى الجميع.

بقراءة الفاتحة ودعاء قصير ثم يعودون بعد ذلك إلى خيامهم حيث يلهون ويسلّون أنفسهم بطرق عدّة.

إن عدداً قليلاً ممن يحضرون احتفال السيدة ميمونة يمضون وقتهم بالعبادة، وتلاوة الذكر في الليل، أو يستمعون إلى تلاوة المولد، أو قراءة سير بعض الصالحين.

إن الشباب من أهل مكة يأتون هنا لأغراض مختلفة تماماً. فهم يأتون هنا لاستنشاق هواء الصحراء من جهة، ولإرضاء بعض رغباتهم التي يتوقون لتحقيقها من جهة أخرى. فبعد أن يتناول هؤلاء طعامهم المفضل كـ(المبشور)[1] و(السلات)[2] يتجمعون بالقرب من القبر، حيث يسردون القصص والأحاديث، ويغنون الأغاني العاطفية، ويصطحب كل ذلك بالموسيقى، من آلات موسيقية مثل القابوس[3] والقانون. ويمكن أن يكون الأمر مقبولاً إذا اقتصر الأمر على الغناء المثير والتصفيق، لكن الأمر قد يتعدى ذلك إلى الشجار والمشاحنة، ولهذا السبب نجد العديد من رجال الشرطة الأقوياء في هذا الموقع، لحفظ النظام في المنطقة المحيطة بالقبر في أثناء هذا الموسم.

---

(١) المبشور: هو عبارة عن لحم مفروم ولكنه متخير مما يلي: سلسلة الظهر وأعالي الفخوذ، ويقولون عنها: «خرصة» وبعد أن ينظف اللحم من الأعصاب والعروق، يضاف إليه مقدار من شحم البطن، ويفرمونه بسكاكين حادة، ويضعون عليه كمية وافرة من الثوم والفلفل الأسود، ثم يكببونه تكبيباً مدوراً على قدر حبة الليمون (البنزهير) ويرصونه في صينية إلى أن يجف قليلاً، ثم ينظمونه في أسياخ من الحديد مخصوصة. ويجب أن يكون الفحم المعد للشواء دقيق الحجم. أما بقية اللحم والعظام الأخرى فيطبخ مع كمية من الأرز، وبعد وضع الأرز في الأطباق ترص عليه حبات الشواء ويؤكل المبشور مع اللبن الحامض الممزوج بالسمن النقي. (محمد عمر رفيع: مصدر سابق ص٤٩ ـ ٥٠).

(٢) السلات: ويصنع في الغالب من لحم الماعز، حيث يقطع اللحم قطعاً صغيرة وتكون قطعة من الحجر يسميه المكيون «حجر السلات» رهيف قد وضعت على نار قوية أحمت الحجر بحيث أصبح في حرارتها، فتوضع عليه القطع من اللحم وتقلب، وكلما استوت كمية قدمت للأكل أولاً بأول. (المرجع السابق ص٥٤).

(٣) القابوس: هي آلة ذات أربعة أوتار تشبه إلى حد كبير الكمان مع خلاف في أن أوتارها من أمعاء الحيوانات بدلاً من شعر الخيل (المؤلف).

فلا عجب إذن أن نرى العلماء لا يقرون مثل هذه الاجتماعات، ولا يسمحون للصغار والبالغين بحضور مثل هذه التجمعات، إلا إذا كانوا بصحبة أناس أتقياء فوق مستوى الشبهات. وإن الذكرى السنوية للسيدة ميمونة ليست مناسبة محزنة، فعلى الرغم من أنها تعقد على قبر، فإن أبعد شيء يفكر فيه الحضور هو الموت في هذه المناسبة.

ذكرى وفاة عبدالله بن عمر

وعلى الطريق المؤدي إلى قبر السيدة ميمونة، وعلى بعد ساعة وساعة ونصف من مكة تقع مناطق الشهداء[١] والتنعيم[٢]. ويطلق على التنعيم اسم العمرة الآن، فهي المكان الذي يحرم منه أهل مكة بالعمرة. أما موقع الشهداء فقد اكتسب الاسم من ثورة قام بها العلويون في هذا المكان في أسفل فخ عام ٧٨٦م (١٦٩هـ). وقد قدم هؤلاء من ينبع بقيادة الحسين بن علي حيث قتل وأنصاره ودفنوا في هذا المكان، ويبدو أنه قبل حصول هذه الموقعة، وسقوط هؤلاء الشهداء، كان قبر أحد أصحاب الرسول الكريم موجوداً في ذلك المكان. ويذكر أهل مكة أن عبدالله بن عمر عاش شطراً من حياته في الشهداء، واليوم المخصص للاحتفال بالذكرى السنوية لوفاته في الشهداء هو اليوم الرابع عشر من صفر. وإن الذين يعودون من قبر السيدة ميمونة يصلون إلى الشهداء في الوقت المناسب.

إن الهواء والماء في الشهداء صحيان، لذلك نجد أن الكثير من المكيين لهم سكن صيفي في هذا المكان. والموسرون من أهل مكة يجلبون الماء يومياً من الشهداء إلى بيوتهم. وفي مساء الذكرى السنوية (أو في الليلة التي قبلها) يقوم الحارس على القبر، أو قارئ ماهر بتلاوة سيرة حياة الصحابي بأسلوب شيق، معدداً الأعمال المجيدة التي قام بها في حياته، كما يعدد

(١) الشهداء: هي أحد أحياء مكة المكرمة، وكان يعرف في السابق باسم فخ.

(٢) التنعيم: أحد أحياء مكة على الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة. وهو أقرب الحل إلى المسجد الحرام، فهو يقع على بعد ٦كم شمالي المسجد. ويسميه أهل مكة حي العمرة. وبه مسجد عائشة، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أمر عبدالرحمن بن أبي بكر أن يعمر أخته السيدة عائشة رضي الله عنها من التنعيم، وهو ميقات لمن أراد العمرة من المكيين (البلادي: معالم مكة ص٥٠).

المناقب والمزايا التي كان يتحلى بها. والغرض الأساسي لمعظم هؤلاء الزوار هو التسلية واللهو. وتستمر الاحتفالات هنا في الشهداء لمدة أسبوع كامل[١].

التشاؤم في صفر

وفي الأربعاء الأخير من شهر صفر يتشاءم الكثير من الناس ويتغيرون. غير أن سبب ذلك غير واضح تماماً[٢]. والفكرة المنتشرة أن هذا الشهر مملوء بأنواع المكاره التي تحصل عادة في الأربعاء الأخير من هذا الشهر. وإن الذي لا يصاب بسوء في هذا اليوم لا يحصل له مكروه طوال عامه. وفي مثل هذا اليوم يقضي بعض الناس معظم ليلهم ونهارهم في العبادة. إن عامة الناس ليس لديها مثل هذه التصورات عن ذلك اليوم المشؤوم لذا نجد الناس ـ رجالاً ونساء ـ يقومون بالرحلات والحفلات وركوب الخيل إن الحياة العادية في المدينة لا تتأثر بمثل هذه الأيام (أيام التطير والشؤم).

المولد

وفي الثاني عشر من ربيع الأول قبض الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، غير أن هذا التاريخ يحتفل به في مكة على أنه يوم ميلاد للرسول الكريم، وبهذه المناسبة يقوم المدرسون في الحرم بقراءة المولد بدلاً من إعطاء المحاضرات. وفي ظهر يوم الحادي عشر تطلق المدافع إعلاناً لهذه المناسبة. ومع صلاة المغرب التي هي بداية اليوم الثاني عشر من ربيع الأول يبدأ تجمع الناس بأعداد خيالية. والمرأة المكية تأتي إلى المسجد

---

(١) إن الشائع لدى المكيين أن قبر عبدالله بن عمر كان موجوداً في الزاهر، غير أن الأزرقي يذكر أن عبدالله بن عمر مات ودفن في قبور آل عبدالله بن خالد بن أسيد، قال ذلك عند الكلام على ثنية أذاخر التي تشرف على حائط خرمان والمشهور اليوم بالخرمانية، خلف مبنى أمانة العاصمة الحالي، (انظر الأزرقي ج٢ ص٢٨٩)، وقد ذكر الفاسي ما يدل على أن المدفون بحي الزاهر وعلى قبره قبة في زمانه هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب الذي قتل في حربه مع محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس المندوب لقتاله من الخليفة الهادي العباسي، وقد كان القتال يوم التروية سنة ١٦٩هـ. وقد عرف الزاهر منذ ذلك التاريخ بالشهداء (انظر شفاء الغرام ج٢ ص١٧٩، والسباعي ج١ ص١٤٠).

(٢) إن بعض مسلمي الهند يعزون هذا التشاؤم في الأربعاء الأخير من صفر إلى مرض الرسول ﷺ الذي حصل في هذا الشهر (المؤلف).
إن عادة التشاؤم في صفر عادة جاهلية أبطلها الإسلام، وقد قال الرسول ﷺ ناهياً المسلمين عن ذلك بقوله في الحديث: «لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر» (صحيح البخاري باب الطب).

بهذه المناسبة بملابس العيد، في حين نجد في غير هذه المناسبة أن ثلاثة أرباع النساء اللواتي يأتين إلى المسجد هن من عائلات الجاليات الوافدة إلى المدينة المقدسة. والشيء الملفت للانتباه هو الحلى والزينة التي تتحلى بها النساء. والأكثر غرابة هو ملابس الأطفال ذات الألوان العديدة والمطرزة بالذهب والفضة، ويأتي هؤلاء الأطفال مع أمهاتهم إلى المسجد. ويحدث هؤلاء الأطفال في ساحة المسجد الكثير من الصخب، وخاصة في المنطقة المجاورة للنساء. والكثير من الناس يتضايقون من هذا المظهر في أوقات الصلاة. وعلى طول الطريق المؤدي إلى المسجد، نجد المحلات التجارية مملوءة بألعاب الأعياد، كما نجد محلات الحلوى مملوءة بالأصناف العديدة التي هيئت لهذه المناسبة، وأن الأطفال في مكة يدخلون إلى المسجد ومعهم صنوف الحلوى اللذيذة.

وبعد الانتهاء من صلاة المغرب[١] تضاء مصابيح المسجد المضاءة بالزيت، بأعداد كبيرة أكثر من المعتاد. ويبقى الجمهور بعد ذلك قرابة نصف ساعة في حركة دائمة يحيي بعضهم بعضاً. وإن عدداً قليلاً من الجمهور يرى ماذا يحدث في القسم الشمالي الغربي من القاعة ذات الأعمدة بالقرب من باب دريبة، حيث يجلس الإمام على منصة خشبية، دائراً ظهره إلى الكعبة، ومواجهاً الجمهور، ليتلو قصة المولد. وفي مكان الصدارة يجلس شريف مكة والوالي التركي مع حاشيتهما، إلا إذا كانت الظروف السياسية لا تسمح بوجودهما. ويبدأ الإمام بقراءة قصة المولد[٢]. إن السواد الأعظم من جمهور الناس يحرص على الحضور، على الرغم

---

(١) الصلوات كانت تقام في الحرم أربع مرات على المذاهب الأربعة، لكن بهذه المناسبة كانت الصلاة تقام مرتين، الأولى يؤمها إمام الأحناف، والثانية يؤمها إمام الشافعية، ولا مجال لعقد الصلاة على المذهب المالكي أو الحنبلي لضيق الوقت (المؤلف).

(٢) يطلق البعض خطأ على قراءة قصة المولد (خطبة)؛ لأن الخطبة لا تكون إلا أيام الجمع والأعياد وبعض المناسبات. وبالخطأ نفسه أيضاً وقع بوركهارت حينما قال عن الدعاء الذي يتلوه الحجاج في عرفة: إنه خطبة وإنه جزء أساس من شعائر الحج، وهذا بطبيعة الحال ليس صحيحاً سواء من وجهة نظرية أو عملية (المؤلف).

من أنه في مثل هذه المناسبات، من النادر أن يعي المرء شيئاً منها أو يسمعها. ويطلق السكان على هذه المناسبة وهي ١٢ ربيع الأول، بالإضافة إلى ٢٧ رجب اسم الأعياد تشبيهاً لها بأعياد الفطر والأضحى.

وحينما تنتهي قراءة المولد نشاهد هرجاً كبيراً في داخل المسجد، فالكل يريد أن يرى الشريف ورجال الحكومة وكذلك خدم المسجد، الذين يمشون بخطى وئيدة، يحملون القناديل المضيئة عبر أسواق القشاشية وسوق الليل، إلى بناية القبة في الشعب (شعب علي) حيث رأى الرسول الكريم النور لأول مرة. وفي تاريخ المدينة منذ ٣٠٠ سنة كان المولد يحتفل به بطريقة مشابهة لهذه الطريقة. غير أن بعض العلماء كانوا يصرحون بمعارضتهم لهذه الاحتفالات؛ لأن هذا الموكب والحشد الكبير من النساء اللواتي يحضرن، يثير الكثير من الشبهات بدلاً من الفضائل[١].

---

(١) لقد دخلت إلى مكة في أثناء حكم الفاطميين لمصر، وما تلا ذلك من سيطرتهم على الحجاز الكثير من الأعياد الدينية، مثل عيد المولد النبوي، وعيد مولد السيدة فاطمة، ومولد السيدة خديجة، والسيدة آمنة، ومولد علي «رضي الله عنه» وأمثال ذلك كيوم عاشوراء، وآخر أربعاء من صفر، كل هذه الأعياد من المعتقد أنها انتقلت إلى مكة من الفاطميين، الذين كانوا يحتفلون بها تقليداً لتشيعهم لأهل البيت. وما كانت مكة تعرفها قبلهم (السباعي ج١:٢١٦).

لقد تبع إدخال هذه الأعياد أن وجدت قباب ومزارات في مواقع مختلفة من مكة، منها قبة مكان مولد الرسول ﷺ. وقد كان له سادن خاص. وكذلك لسيدنا علي موضع مولد في الشعب نفسه على مقربة من مكان مولد الرسول ﷺ، ولكن لم تكن عليه قبة، بل مبنى على شكل مصلى، وكذلك كانت دار لسيدنا حمزة على شكل مسجد، ودار لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وعليها قبة. كما أن بزقاق الحجر بيت السيدة خديجة رضي الله عنها، وبالطبع فيه مولد السيدة فاطمة، وكان على شكل مسجد. ومن القبور التي عليها قباب في مقبرة المعلا قبر السيدة خديجة والسيدة آمنة وعبدالمطلب وأبو طالب (اثنان من ولاة مكة من الأشراف وليسا جد وعم الرسول ﷺ)، وكذلك قبر الشيخ محمود بجرول وقبر عبدالله بن عمر في الزاهر. وكانت تقام لمعظم هؤلاء حفلات مولد، كما تقام بجانبها حلقات الذكر للمتصوفة، وفي عهد الشريف عون الرفيق هدم بعض هذه القباب. ولما جاء العهد السعودي ودخل الإخوان مكة عام ١٣٤٣هـ، هدم جميع ما تبقى من هذه القباب والمزارات، وأبطلت جميع مظاهر التقديس، لما تجره من مفاسد حيث كان العوام يفعلون عندها من المحاذير التي يأباها الشرع وتأباها العقيدة، زد على ذلك أن الأمور =

وأمام هذا الموكب يسير (الرّيس)، وهو كبير المؤذنين، وفلكي المسجد الحرام، ينشد الأناشيد في مدح الرسول الكريم. وعند الوصول إلى مكان الميلاد، يدخل هذا الحشد إلى مكان المولد، حيث يقرؤون شيئاً من سيرة الرسول الكريم، ثم تقام الصلاة جماعة، ويستغرق كل ذلك قرابة ساعتين بعد الغروب، وخلال الليل تقام حفلات السمر واللقاءات الاجتماعية، والكثير من الناس يذهبون إلى المقاهي، التي يكسب أصحابها كثيراً في تلك الليلة. في حين يقوم المتصوفة بتكوين حلقات يرددون فيها بصورة جماعية قصائد البردة والهمزية وأشعار المديح الأخرى.

وفي بقية هذا الشهر ربيع الأول والشهرين الآخرين ربيع الآخر وجمادى الأولى يزداد الاهتمام بالشؤون العائلية. ففي هذا الفصل من العام، يكثر الإقبال على الزواج، ويبدأ سكان البيت العتيق إعداد العدة لحفلات الزواج البهيجة ـ غنيهم وفقيرهم ـ على السواء، وسنتحدث في الفصل الثاني عن هذه المناسبات.

ذكرى الشيخ محمود

وفي الشهر السادس، وهو جمادى الآخرة، تتطلع البنات والنسوة في مكة إلى مناسبة جديدة. ففي الخامس عشر من هذا الشهر، تبدأ الذكرى السنوية للشيخ محمود بن إبراهيم الأدهم، وهذا مشهور في التراث الديني لسكان جزر الهند الشرقية. فضريح الشيخ محمود المزعوم، والمكون من بناء تعلوه قبة، يقع في نقطة يلتقي فيها القادمون من أعالي مكة وأسافلها في طريقهم إلى جدة[1]. وهذه النقطة تبعد قرابة نصف ساعة من مركز المدينة. والأصدقاء في الغالب يذهبون مع المسافرين إلى جدة ليصلوا إلى هذه البقعة. إن كل من يمر بهذا المكان عليه أن يقف ويقرأ الفاتحة لروح الشيخ. وهذه العادة (قراءة الفاتحة) موجودة في مواضع كثيرة تحوي القبور، ولكنها غير منتظمة، في حين تكون الفاتحة عند زيارة قبر الشيخ محمود من الأمور المهمة. ويمكن عدّ ضريح الشيخ محمود جزءًا من

= السابقة هي من البدع التي لا أساس لها في الشريعة الإسلامية (السباعي ج٢:٥٥٣).

(١) هذه المنطقة تعرف بجرول وهي أحد أحياء مكة الشمالية الغربية.

المدينة، بحيث لا يفصله عنها سوى بعض البيوت الصغيرة والأكواخ، التي يعيش فيها البدو، الذين يستوطنون جرول، ويعملون في نقل البضائع على جمالهم.

لقد رأينا أن مناسبات السيدة ميمونة والشهداء مخصصة للرجال، غير أن ضريح الشيخ محمود مخصص كلية للنساء، وعلى الرغم من أن بعض الرجال يزورون ضريح الشيخ في مساء الليلة التي تسبق الاحتفال بذكراه، إلا أن النهار مخصص لزيارة النساء التي تستمر لمدة ثلاثة أيام، حيث يشاهد المكان يعج بالنساء المكيات.

إن ذهاب المرأة لزيارة الضريح يحتاج إلى موافقة الرجل. غير أن الرجل يعرف مسبقاً المتاعب التي يتجشمها فيما لو رفض ذلك؛ لأنه يعرض زوجته إلى سخرية النساء الأخريات. وبهذه المناسبة فإن الرجل لا بد له من دفع مبالغ من المال لشراء بعض أدوات الزينة، وكذلك لدفع النفقات التي تتطلبها الزيارة لمدة ثلاثة أيام. وعليه أن يذعن لكل هذه المطالب، فالمرأة المكية تعد ذلك حقاً تقليدياً إذ تمضي بعض الوقت في زيارة ضريح الشيخ محمود، التي تعد أولاً وقبل كل شيء نزهة للتسلية والسرور.

ويستفيد البدو والقاطنون في (جرول) من هذه المناسبات، حيث يقومون بتأجير بيوتهم إلى سيدات مكة لقاء أجر معين من المال أو هدية مناسبة. وأثرياء مكة لهم العديد من المصالح مع هؤلاء البدو، حيث يقوم هؤلاء بالعمل لحسابهم في بعض أيام الموسم، وفي هذه الحالة يقوم هؤلاء البدو بدعوة نسوة معارفهم المكيين لقضاء تلك الأيام الثلاثة مع نسائهم، ويحوي البيت في العادة قرابة اثنتي عشرة امرأة. وفي اليوم الأول فإن سيدة البيت تقوم بواجب الضيافة، وفي العادة تتلقى نظير ذلك بعض الهدايا والقهوة والتنباك. أما في الأيام الأخرى فتقوم النساء المدعوات بواجب الضيافة، حيث تقوم هؤلاء النسوة بإحضار الطعام، بالإضافة إلى المفارش والسجاد وأدوات الطبخ، وحتى أدوات الشيشة، وفي حالة الحاجة إلى بعض الأغراض يقوم الخدم في العادة بإحضارها من المدينة.

وتقوم النساء خلال هذا الاحتفال بسماع الأغاني، التي تغنيها بعض

الجواري المحترفات، اللواتي يؤتى بهن لهذا الغرض، ويصاحب الغناء الضرب على الطبلة والنقر على الدف.

إن موضوعات الأغاني في الأعم الأغلب، هي موضوعات متنوعة، محرفة من خلال الموروثات القديمة، حتى إنه من المستحيل أن تفهم معناها، إلا من خلال تأويل واضح بها. وسنتكلم عن ذلك بالتفصيل حينما نتحدث عن الزواج. والنساء يستمتعن حينما ينتقل الغناء من الألحان الشعبية الأقل شهرة إلى الألحان المعبرة عن العواطف، وهي تلك التي يحبها الهواة في مثل هذه المناسبات. وفي مثل هذه الألحان الطبيعية لا نجد الالتزام بالقافية، أما الوزن فلا ينظر إليه أبداً، ويستعاض عنه بما يشبه النثر الذي له قافية. إن المرء يجد في مثل هذه الألحان تلميحات هزلية إلى حوادث حديثة العهد، ومناسبات مثيرة للضحك، ولكن نادراً ما نجد معنى واضحاً. إنه لمن السهل أن يضيف كل واحد تصل إليه هذه الأغاني شيئاً أو يغير شيئاً فيها، بحيث تثير دائماً بعض الشجون لدى السامع. وإن بعض الأغاني مصممة لإثارة العواطف بطريقة لا شعورية.

وعندما زار الوالي التركي جدة عام ١٨٨٥م، قال الجمهور الأغنية التالية فيه وفي حاشيته: «أنا أحب بلاميتا. أعطوني بلاميتا. الوالي عنده قيليطة (مرض بالخصية). اطردوه خارجاً». وبالطريقة نفسها واللحن تغني النساء في حفلات الأعراس: الحنة في الخزانة والعريس على الباب. ارفعي صوت الزغاريد يا أمي.

وفي أغسطس عام ١٨٨٥م (شوال ١٣٠٢هـ) انتشرت في جدة ثم في مكة حمى خبيثة، لكنها مرت بدون حوادث خطيرة، ولكنها مصحوبة بآلام عنيفة في الظهر والأيدي والأرجل. وبالطبع فإن بعض الأغنيات الشعبية قد ظهرت لوصف هذا العدو الخبيث، الذي جثم على صدور الناس الواحد بعد الآخر. وسرعان ما أطلق على هذا المرض اسم محمد البغدادي، وبعد ذلك محمد غندور[١] وقد غنى الناس بأبيات مقفاة أغاني متعددة متنوعة.

لقد قدم محمد الغندور أولا إلى سوق الفخاخرية (الذي يباع فيه الفخار)،

---

(١) غندور تعني الشخص الشديد التأنق في ملبسه أو مظهره أو المنتفخ كبراً وغروراً (المؤلف).

ثم عرج على حارة النورية. وقد قابل امرأة بربرية فقال لها: احضري لي امرأة مراكشية (من مراكش) لتجهز لي موكباً قادرياً (يشبه مواكب أهل الطريقة القادرية) فقالت له: اذهب إلى سورية، إلى أصحاب القلوب المرحة، إن الذي لا يحب محمد الغندور، يذهب إلى أخته نور، التي تصنع له كفناً وتحفر له قبره.

إن المغنيات من الجواري يتناقلن مثل هذه الأغاني وينشرنها أينما ذهبن، فيتناقلها النساء، ثم يتعلمها الأطفال، ويغنونها في الشوارع. وفي خلال احتفالات الشيخ محمود يتناول النساء المرطبات والحلوى بجميع أنواعها والشاي الأخضر والأحمر، ويستعملن الشيشة[1]، ويقضين وقتهن بالأحاديث والسمر في غياب أزواجهن.

وخلال احتفال النساء بذكرى الشيخ محمود هناك احتفال للرجال بمناسبة أخرى هي ذكرىٰ الشيخ المهدلي، الذي يصادف السابع عشر من جمادى الآخرة على مسافة يسيرة من مدخل وادي منى. ويسرد المكيون حكاية هذا الرجل الصالح على النحو الآتي:

ذكرى الشيخ المهدلي

«منذ عدة سنوات، وفي الثالث عشر من شهر ذي الحجة، وحينما كان الحجاج يهمون بمغادرة منى بعد انقضاء أيام التشريق. وبينما كانت القافلة مغادرة منى توقفت فجأة، ولم يستطع إنسان أو حيوان تجاوز نقطة معينة أسفل منى باتجاه الغرب. وبعد الاستفسار المتواصل لم يجدوا سبيلاً لسبب هذا التوقف المفاجئ. لذا أمر شريف مكة بتفتيش المناطق المجاورة. وعلى مقربة من نقطة التوقف، وجدت جثة غير مدفونة. لقد كان هذا الجثمان هو جثة الشيخ المهدلي. وبعد غسيل الجثة والصلاة عليها ثم مواراتها بالتراب، سارت القافلة في طريقها بسلام. وقد أمرت الجهات العليا ببناء قبة فوق الضريح، وأقيمت مؤسسة خيرية بهذه المناسبة أدت إلى إقامة يوم للاحتفال بذكرى الشيخ الراحل، حيث يقوم الناس بتوزيع الطعام بجوار الضريح. والمستفيدون من هذا الطعام في الغالب هم الذين يقومون بتلاوة القصائد

---

(١) المؤلف يعمم استعمال الشيشة على كل نساء مكة المكرمة ولم يقل (بعضهم) حتى يكون كلامه موضوعياً ومنصفاً.

والذكر بهذه المناسبة. أما لماذا أصبحت هذه المناسبة تقام في شهر جمادى الآخرة، فهذا أمر ليس له جواب في الأسطورة، كما أن أهل مكة لا يفكرون كثيراً بمثل هذه الأمور(١).

وبهذه المناسبة يقيم أهل مكة الاحتفالات (البشكات) لمدة يومين أو ثلاثة، حيث يسكنون الخيام بجوار الوادي المقدس (وادي منى)(٢). إن

---

(١) إن الميت لا يستطيع أن يجلب لنفسه ضراً ولا نفعاً فكيف يستطيع أن يوقف ركب القافلة ويمنعه من مغادرة منى. ومثل هذه الأمور الخرافية التي سيطرت على عقول الناس فترة من الزمن مردها إلى الجهل المطبق الذي كان موجوداً، الأمر الذي ساعد على إيجاد البدع والضلالات، وسخر لها دوام البقاء والاستمرار، وجود المزارات والأضرحة، وقد أحسنت السلطة صنعاً في زمننا هذا عندما قضت على جميع مظاهر الشرك وأسبابه.

(٢) لقد علق الشيخ حمد الجاسر على احتفالات الشيخ محمود والمهدلي بقوله:
ولقد مرّ فيما عرض هذا الرحالة من أحوال سكان مكة المكرمة بعض الأمور الغريبة، ولكنني وقفت على حالتين اثنتين منها:
الأولى: ما ذكر من أن اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الآخر تبدأ الذكرى السنوية للشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، ووصف موقع ضريحه، وهو مشهور في أول (محلة جرول)، وقال عن هذه المناسبة: (لقد رأينا أن مناسبات السيدة ميمونة والشهداء مخصصة للرجال، غير أن ضريح الشيخ محمود مخصص كلية للنساء). وذكر أن الزيارة تستمر ثلاثة أيام حيث يشاهد المكان يعج بالنساء المكيات. وذكر أن الذهاب للزيارة بموافقة الرجل الذي يدرك المتاعب التي يتجشمها فيما لو رفض ذلك، إذ يعرض زوجته لسخرية النساء الأخريات، وإذن لا بد له من دفع مبالغ من المال لشراء بعض أدوات الزينة ولدفع نفقات الزيارة مدة ثلاثة أيام، فالمرأة المكية تعد هذا حقاً تقليدياً، إذ تمضي بعض الوقت في زيارة الضريح التي تعدها قبل كل شيء نزهة للتسلية والسرور.
وتحدث عما يستفيد منه قاطنو الحي في (جرول) في هذه المناسبة بتأجير بيوتهم إلى سيدات مكة، وقد يضم البيت الواحد قرابة اثنتي عشرة امرأة، ثم ما يجري في الثلاثة الأيام من أمور لا تتجاوز المألوف سوى الاحتفال بسماع الأغاني من بعض المحترفات من الجواري، مع الضرب على الطبلة، والنقر على الدف.
لا يستطيع القارئ أن يستسيغ صحة ما ذكر (سنوك)، إذ كيف يجيز عاقل من الرجال لامرأته أن تمضي ثلاثة أيام تختلط فيها بكثير من النساء في مظاهر ليست مأمونة من جميع الأحوال، وفي غفلة عن الرقباء والمهتمين بالمحافظة على الأخلاق والعادات الكريمة، وأقل ما يمكن تقبله من هذه الناحية هو القول بأن (سنوك) جسّم الأمر، وبالغ في وصفه، أو أن الذي حدّثه به حاول إبرازه بمظهر من الغرابة ليتلقفه هذا الغربي الجاهل بأحوال ما يتصف به سكان هذا البلد الأمين، من الغيرة الدينية، والحفاظ على الأخلاق الإسلامية والتمسك بجميع الأمور =

الاهتمام البارز في هذه المناسبة، هو المحاولات التي يقوم بها أولاد الأحياء المختلفة بالتحرش فيما بينهم، بعيدين عن قبضة الجنود والشرطة في هذا المكان المهجور. وإذا استثنينا منطقة مشق القمر (أبو قبيس) التي تقوم بها مثل هذه المشاجرات، فإن المكان المفضل لمثل هذه المعارك بين أبناء الأحياء المختلفة هو قبر الشيخ المهدلي. وخلال إقامتي في مكة لم يكن الوقت ملائماً لمحبي هذا النوع من الشجار، لوجود العديد من رجال الشرطة الأشداء، الذين خصصوا لمكافحة هذا النوع من الشغب.

إن أعياد السيدة ميمونة والشهداء والشيخ محمود والشيخ المهدلي هي الأعياد الخاصة لأهل مكة[1]. أما بقية المناسبات فهي كثيرة، ولكن دائرتها

= الشرعية بالنسبة للجنسين، في هذه المدينة المقدسة لدى كل مسلم، والتي تضم عدداً من العلماء في ذلك العهد، ذوي غيرة ونصح، وحفاظ على أمور دينهم، وإظهار بلدتهم بالمظهر الذي يجعلها مثالاً يقتدى به في القداسة وسمو الأخلاق.

وقريب من هذا ما ذكره عن خرافة شيخ يدعى (المهدلي) خلاصتها: (أن الحجاج قبل سنوات في نفرتهم من... بعد انقضاء أيام التشريق توقفت قافلتهم في.... إنسان تجاوز نقطة معينة أسفل منى، فلما أمر شريف مكة بالبحث عن سبب التوقف علم بوجود جثة غير مدفونة، اتضح أنها جثة الشيخ المهدلي، التي غسلت وصلي عليها، ثم دفنت وبُني فوقها قبة، وأقيمت مؤسسة خيرية بهذه المناسبة أدَت إلى إقامة يوم للاحتفال بذكرى ذلك الشيخ، حيث يقوم الناس بتوزيع الطعام بجوار الضريح، ليستفيد منه من يقوم بتلاوة القصائد والذكر بقربه، ويقيم أهل مكة (البشكات) يومين أو ثلاثة حيث يسكنون الخيام في (وادي منى).

ومع أن (سنوك) عدّ هذا من الأعياد الخاصة لأهل مكة، إذ قال: (إن أعياد السيدة ميمونة والشهداء، والشيخ محمود والشيخ المهدلي هي الأعياد الخاصة لأهل مكة، أما بقية المناسبات فهي كثيرة، ولكن دائرتها محدودة بعدد قليل من الناس، وليست ذات طابع عام لكل أهل المدينة) كذا قال.

قد يقال بأنه ليس من المستغرب أن يتخذ من مثل تلك المناسبات إقامة احتفالات يراد بها ترويح النفس والخروج إلى أمكنة عذبَة، وممارسة بعض الأمور المباحة شرعاً، وأنه قد يتخذ من بعض الأوقات التي ذكرها وسيلة للتخلص من الأعمال المملة في كثير من أيام السنة، أما أن ينظر إليها لتتخذ أعياداً ذات قدسية ومكانة في النفوس، فلا شك أن هذا الرحالة إنْ توهم هذا بنى توهمه على جهله بمكانة هذه المدينة الكريمة، وبما يتصف به علماؤها وعقلاء أهلها من صفات فاضلة. (المجلة العربية عدد جمادى الآخرة، ١٤١٦ ص١٠٢ ـ ١٠٣).

(١) علق الشيخ حمد الجاسر على احتفالات السيدة ميمونة والشهداء والشيخ محمود وغيرها من =

محدودة بعدد قليل من الناس، وليست ذات طابع عام لكل أهل المدينة .فعلى سبيل المثال هناك احتفال الولي جوهر (أحد الأتقياء الهنود)، حيث يذهب بعض الناس إلى ضريحه الموجود بالقرب من القلعة بجبل هندي، ويقرؤون القرآن ويتذاكرون في سيرة هذا الرجل الصالح، من بعد المغرب وحتى منتصف الليل، ويقوم المجتمعون هناك بشرب الشاي والقهوة وتناول الحلويات. وهناك ضريح المجنون[١] أو المجذوب الذي يدعى بالمحجوب، في المنطقة المجاورة لباب العمرة، حيث يحتفى به أيضاً بالطريقة نفسها. وهناك العديد من الأضرحة التي كانت في السابق أمكنة يلتقي فيها العديد من أعيان مكة، أما الآن فهي مهجورة، ويكتفى فيها بإضاءة القناديل والشموع في بعض المناسبات. وبجانب ذلك هناك العديد من القباب، التي لا يعرف حتى أهل العلم من يربض تحتها من الموتى. غير أن الناس لا يحرمون هؤلاء الموتى من ثواب قراءة الفاتحة.

ذكرى السيدة خديجة والسيدة آمنة

وهناك مناسبتان يحتفل بهما كل شهر. ففي اليوم الحادي عشر من كل شهر، يتجمع العديد من الناس على ضريح السيدة خديجة، زوج الرسول

= الاحتفالات بقوله:

ويتضح للقارئ من خلال عرض المؤلف لمظاهر تلك الاحتفالات المتعددة أمران:

أولهما: أن أكثر البواعث والحوافز لإقامتها من قبل أناس نفعيين، أرادوا الاستفادة المادية، فتذرعوا بالوسائل الدينية، فانقاد لهم بعض العامة، وقد يكون أكثرهم ممن هو بحاجة إلى أن يروح عن نفسه بأي مظهر من مظاهر الحياة عمّا ألفه واعتاده من نظام حياته اليومية الممل المرهق دون أن تكون هناك بواعث نفسية حقيقية لما وراء هذا.

الأمر الثاني: أن العلماء ومثلهم الشباب يدركون ما تجره تلك الاحتفالات من مفاسد، فيتجه العلماء للتحذير منها، وقد يتخذ منها الشباب وسائل للهو والاسترواح، وممارسة بعض الأعمال الملائمة لحياتهم كالغناء وغيره. (المجلة العربية، جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ).

(١) هو عبدالرحمن المحجوب، ولد بمكناسة في أرض المغرب سنة ١٠٢٣هـ، ورحل إلى بلاد الشام والروم وجاور بمكة، وكان له حظوة عند الأمراء وعامة الناس. أصيب بالفالج في آخر أيامه. كان يحب العلماء، ويحسن إلى الفقراء، توفي سنة ١٠٨٥هـ، ودفن بحارة الشبيكة بزاويته التي اشتراها (انظر الغازي، إفادة الأنام بأخبار بلد الله الحرام (مخطوط ـ ج١ ص٥١٨).

الكريم، الذي يحيط به مصلى له قبة كبيرة في مقبرة المعلاة[١]. أما اليوم الثاني عشر فهو مخصص للسيدة آمنة أم الرسول ﷺ[٢].

إن كلا الضريحين قد أقيم منذ فترة حديثة نسبياً، وعادة الاحتفال بهاتين السيدتين الكريمتين، لا يزيد عمرها على ٣٠٠ سنة فقط. وقبر السيدة خديجة رضي الله عنها أكثر شهرة.

ولا تمر إلا أيام قليلة من العام لا ترى فيها بعض النساء والرجال ينذرون لها بعض النذور بقصد شفاء بعض المرضى أو تحقيق بعض الرغبات، وقد ترى أشخاصاً آخرين يحملون الشموع والبخور إلى قبرها وفاء بنذورهم. وبجانب ضريح السيدة خديجة ضريح السيدة آمنة، والذي يضيء فقط من اللمعان المنعكس من الشمس على ضريح السيدة خديجة، غير أن رواده أقل بكثير من القبر الأول.

وفي كل أسبوع هناك يوم مخصص لقراءة الفاتحة على الأموات، حيث يقوم الناس بزيارة المعلا، وخاصة من لهم موتى في تلك المقبرة، ولقد

---

(١) إن السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ماتت في مكة، وقبرت في مكة. غير أن الجزم أن مكان القبر هو المكان الموجود في مقبرة المعلا أمر غير مؤكد، حيث إن بمكة العديد من المقابر في ذلك العهد. ويقول تقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ: «لا يعرف قبر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ في عهدنا سوى قبر أم المؤمنين ميمونة في سرف». وقد نقل ابن الضياء في كتاب البحر العميق في العمرة والحج إلى بيت الله العتيق عن المرجاني أنه في أول القرن الثامن رأى أحد الأولياء رؤيا، بأن الموضع الموجود في المعلا، هو قبر السيدة خديجة رضي الله عنها. وقد وصل الخبر إلى والي مكة فأمر بإقامة قبة فوق المقام. فالقبر الذي ينسب إلى السيدة خديجة لا يثبت أمام التاريخ، وإنما هي رؤيا الله أعلم بصحتها. والرؤيا لا يعتمد عليها من ناحية الجزم بأن هذا الموضع صحيح (انظر حمد الجاسر: الآثار في مكة المكرمة محاضرة منشورة ضمن أعمال اللجنة الثقافية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٢هـ).

(٢) تعددت الروايات في المكان الذي دفنت فيه السيدة آمنة أم الرسول ﷺ، فيذكر ابن فهد في كتابه إتحاف الورى أنه في السنة السادسة من مولد الرسول ﷺ خرجت آمنة إلى المدينة تزور أخوال عبدالله بن عبدالمطلب، ويقال تزور قبر زوجها عبدالله وعند عودتها إلى مكة أتتها المنية بإحدى قرى الفرع التي تدعى بالأبواء فدفنت هناك ويقال: إنها ماتت بمكة ودفنت في شعب أبي ذئب الخزاعي في الحجون، وقيل في دار رابعة بالمعلاة بثنية أذاخر، غير أن الرأي الراجح هو الأول (انظر ابن فهد) إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج١ ص٩٠).

كانت هذه الاجتماعات تؤدي إلى الكثير من المفاسد، الأمر الذي فرض حظراً على دخول الرجال للمقبرة منذ ظهيرة يوم الخميس وحتى غروب الشمس، بحيث تكون الزيارة في هذا الوقت للنساء فقط[1]، ثم تخرج النساء، ويقوم الرجال بالزيارة بعد ذلك.

إن المسلمين لا يذهبون إلى المقبرة بقصد البكاء، فالنواح في الإسلام ليس مشروعاً. وما يعمله الزائرون هو تنظيف القبر، ووضع بعض الزهور عليه. إن ما يحتاج إليه صاحب القبر هو الدعاء والاستغفار له، فهذه القربات ينال ثوابها الميت. والناس هنا يقومون بتوزيع الطعام على الفقراء في المقبرة، ويقرؤون شيئاً من القرآن. وفي المعلا نجد العديد من قارئي القرآن[2]، الذين يوهبون ثواب ما قرؤوا من القرآن لقاء مبلغ من المال، إلى كل من يذكر اسمه من الأموات. ونجد كذلك بائعي الخبز والمتسولين الذين يسألون الإحسان والصدقة. وإن الذي يريد أن يدعو لأحد الموتى أو أحد الصالحين قد يصطحب معه (فقيهاً) يقرأ له بعض الأدعية هناك.

إن النساء أقل انشغالاً بمثل هذه الأمور، وكذلك الحمالون الذين يحملون كل أصناف الحلوى والفواكه إلى سيداتهم اللواتي قدمن للحديث عما يجول في صدورهن عن الأعمال التي قمن بها خلال الأيام الماضية. وعندما تميل الشمس إلى الغروب، تتوجه هؤلاء النسوة ببطء شديد إلى بوابة الخروج في طريقهن إلى بيوتهن.

وبعد خروج النساء يدخل الرجال عادة إلى المقبرة، ويكون هؤلاء في الغالب هم الذين يحتفلون بالذكرى السنوية لبعض أقاربهم، وفي مثل هذه الذكرى توزع الهدايا الكثيرة والصدقات الجليلة. وقد يدعى بعض

---

(١) من الأمور الغريبة المنافية للشرع عادة زيارة القبور من قبل النساء، والرسول ﷺ يقول فيما يرويه أبو هريرة: «لعن الله زائرات القبور» (انظر صحيح الجامع الصغير للألباني حديث رقم ٤٩٨٥ ص٢٣ من المجلد الخامس). وهذه العادة هي من جملة البدع التي شاعت في تلك الأزمنة غير أنه ولله الحمد قد قُضِيَ عليها نهائياً في هذه الأيام.

(٢) قراءة القرآن عند القبور بدعة غير مشروعة إطلاقاً.

الأشخاص لحضور هذه المناسبة، ويمضي هؤلاء بعض الوقت في الدعاء والعبادة والاستغفار للميت. إن بعض الأشخاص يقومون بزيارة المقابر بعد صلاة الفجر، ومن لم يتمكن من ذلك، فقد يزور بعد الظهيرة.

إن المعلاة في أيام الجمع هي منتزه أهل مكة، فهؤلاء لا يحضرون للحزن بل للبهجة والسرور، ويتفكرون هم أنفسهم بهذه التقاليد المحلية ـ تقاليد زيارة القبور ـ التي بلغت جملة ما جمع منها ٧٠ ألف ليرة ذهبية.

وفي الحادي عشر من كل شهر، يقوم الرجال باحتفال مهيب قرب قبر السيدة خديجة، حيث يتجمع بعض الناس، ويقرأ عليهم أحد السادة قصة المولد النبوي لقاء مبلغ من المال، ثم يتناول هؤلاء الطعام الشهي الذي يجلب إلى المقبرة. وتبقى الاحتفالات دائرة حتى منتصف الليل. وفي هذه المناسبات يجلس بعض الأفراد حول القبر، وتحت القبة، حيث يلمسون ويتشبثون بالأغطية والسجاجيد التي تعلو الضريح، والتي يصعب الوصول إليها ولمسها؛ لأن القبر محاط بقفص حديدي.

وهناك ترتيبات أخرى للأطفال، فالطعام والشراب في متناول اليد للأطفال على طول الطريق. وأمام المقبرة هناك الساحر الذي يعرض مواهبه وحيله، وعلى الرغم من أن رجالات مكة يمنعون أولادهم من رؤية ألعاب الساحر، إلا أن مثل هذه الألعاب محببة للأطفال.

أما الاحتفالات بالسيدة آمنة في اليوم الثاني عشر من هذا الشهر، فتشبه الاحتفال بالسيدة خديجة، إلا أن الناس لا يولون اهتماماً كبيراً بهذا الاحتفال، كالذي يولونه للسيدة خديجة.

لقد وصلنا مع أهل مكة حتى الشهر السابع (وهو شهر رجب) الذي كان حتى في الجاهلية شهراً معظماً، ولا يزال يحتفظ بأهميته بالنسبة لأهل مكة، وهناك يومان في رجب لهما أهمية خاصة.

الطريقة السنوسية

ففي اليوم الثاني عشر يقام اجتماع كبير في المبنى المقام على سفح جبل أبي قبيس. وهذا المبنى يعرف باسم (الزاوية) ولم يكن هذا الاسم معروفاً قبل عدة أجيال. إن هذا التجمع يشمل أفراد الطريقة الصوفية، التي أدّت دوراً دينياً

سياسياً بارزاً في إفريقية، وفي الجزيرة العربية. وهذا الاجتماع الكبير هو الاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة مؤسس هذه الطريقة. وفي مدن غرب الجزيرة العربية يقدر الناس كثيراً هذه الطريقة، وفي مناطق الحجاز المأهولة بقبائل حرب وغيرها من قبائل البادية تؤدي دوراً بارزاً ومهماً؛ لأن هذه الطريقة نجحت في ضم بعض أفراد هذه القبائل إلى صفوف أتباعها. فأبناء الصحراء الذين لا يخضعون لأي سلطة، والمبتعدون كثيراً عن تعاليم الإسلام، قد وجد بينهم من يعتنق هذه المبادئ الصوفية، غير أن البدو عموماً لم يتركوا عاداتهم في السلب، ولم يخرجوا من جهلهم بتعاليم الإسلام.

إن الطريقة السنوسية تساهلت كثيراً في قبول المريدين من هؤلاء البدو، وهذا ساعد على دخول العديد من هؤلاء ـ ولا سيما من قبيلة حرب ـ مريدين في الطريقة الصوفية. ونجد على طول طريق الحج بين مكة والمدينة العديد من الزوايا لهؤلاء المريدين. وهذه الأماكن كثيراً ما تتعرض للهدم والتخريب نتيجة مرور (الإخوان) في أثناء موسم الحج، والذين يقومون بهدمها عمداً.

إن الدور الذي ستقوم به هذه الطريقة الصوفية في تاريخ الإسلام المستقبلي غير واضح الآن ١٨٨٥م. وإنما يكفي أن أذكر أن الاحتفال في ليلة الثاني عشر يكون بالذكر الجماعي وقراءة سيرة الشيخ. وفي الصباح تذبح الخراف، وتطبخ أكوام من الأرز، ويقدم طعام الغداء لجميع الحضور، الذين نالوا البركة في الدنيا والمغفرة في الآخرة.

ذكرى الإسراء والمعراج

منذ القديم واليوم السابع والعشرون من رجب مناسبة لأداء العمرة الرجبية. وفي هذا اليوم حدثت أحداث كثيرة في التاريخ الإسلامي. ففي مثل هذا التاريخ أسري بالرسول الكريم من مكة إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء. وفي هذا التاريخ أيضاً جدد عبدالله بن الزبير بناء الكعبة ووسعها. أما بناء الكعبة فقد هدم من قبل الأمويين، أما الإسراء والمعراج فقد اعتراهما الكثير من الخرافات والأساطير، ولكن الذكرى بقيت لهذا اليوم، الذي أصبح مناسبة لأهل مكة. وعلى العموم فإن هذه المناسبة، التي يعلن عنها بطلقات المدافع بعد ظهر

اليوم السادس والعشرين، تشبه بكل تفصيلاتها احتفالات المولد النبوي. غير أن القراءة في هذه المناسبة لا تكون من سيرة الرسول الكريم بل تكون مركزة على قصة الإسراء والمعراج، التي تحوي حديث الرسول الكريم مع جبريل والأنبياء ومخاطبته ﷺ ربه، كما تحوي معلومات عن بعض المعتقدات الإسلامية واليوم الآخر.

وهناك عادة غريبة يمكن ذكرها عند أهل المدينة المنورة في ذكرى المعراج، وهي أنه بعد إتمام قراءة المعراج في المسجد، وعندما ينهي الخطيب القراءة والدعاء، ينهال عليه البدو ويمزقون جبته إلى قطع صغيرة، وإن سعادة هؤلاء تكمن في الحصول على قطعة من هذه الجبة.

ويعطي أهل المدينة المنورة تفسيراً سطحياً لذلك، وهو أن أحد الخدم في المسجد، والذي يقوم بقراءة المعراج دائماً، ينال نصيباً أوفر مما كان يناله صاحبه، الأمر الذي جعل زميله يغتاظ منه ويحاول الانتقام، لذلك أقنع هذا الرجل عدداً من البدو الذين يحضرون مثل هذه المناسبة، بأن بركات المولد لا تكون إلا لأولئك الذين يأخذون قطعة من جبة الشيخ، وبهذا انتقم الرجل لنفسه من خصمه، وقد بقي هذا التقليد شائعاً فيما بعد. ويمكن محاولة تعليل هذه الظاهرة على ضوء ما قدمه لنا (الهركوندن فلت) من أن بربر الريف[1] يقومون بتمزيق البرنوص (البُرنس) الذي يلبسه السلطان (غطاء الرأس) بجلال ووقار، ويأخذون هذه القطع الصغيرة منه، على أنها تعاويذ وتمائم تدفع الشر. ويمكن أن يلقي هذا التفسير ضوءًا على تصرف البدو في المدينة المنورة.

وعلى الطريق المؤدي من جدة إلى مكة، توجد هناك شجرة يقدسها أهالي المنطقة المجاورة، التي تحوي كل أنواع الخرق الملونة. ومن المعلوم أن عبادة الأشجار وتقديسها عادة جاهلية قديمة في الجزيرة العربية. والسؤال هو: لماذا كل هذه الخرق البالية على هذه الشجرة؟ والجواب عن ذلك يأخذ صوراً عديدة، فبعض الناس يقولون: إن هناك شيخاً مدفوناً تحت هذه الشجرة، وإن

---

(1) Herr. M. Quendenfelt «Berber Zeit Schrit Fur Ethologic», 1888, P.112.

ذلك من قبيل تبجيله. وفي رواية أخرى: إن هذه الشجرة هي شجرة الرضوان التي تمت تحتها بيعة الرضوان سنة ٦٢٨م (ذي القعدة ٦هـ)[1]. وهناك تفسير ثالث هو أن الرسول الكريم قد نشبت عمامته في الشجرة، فتمزق بعضها وعلق في الشجرة، ولهذا فإن الناس يعلقون هذه الخرق كذكرى لما حدث مع الرسول الكريم ﷺ.

المدينة المنورة في نظر المكيين

وتمثل المدينة المنورة في نواحٍ أخرى من حياتها خصائص قديمة لا توجد في مكة، ففي بعض السنوات هاج السكان هيجاناً شديداً؛ لأنه تم حبس امرأة بتهمة القتل حبساً مؤقتاً على ذمة التحقيق من قبل الحكومة التركية، وقد طالب السكان بتسليمها إلى القضاء المحلي، وفي النهاية قرر الباشا أن يستسلم للجمهور الذي تجمع حول بيته، فسلمهم المرأة كما لو لم يكن هناك قانون مكتوب في المدينة. وهناك معارضة شديدة في المدينة للهاتف. وإن كثيراً من أهل المدينة يتضايقون من وجودهم في مكة، لما يرونه من المخالفات والعادات السيئة.

إن قول أهل مكة صحيح من أن أهل المدينة يعيشون فقط للدين ومن أجل الدين، أما أهل جدة فيعيشون من أجل الدنيا، أما في مكة فيعيشون من أجل الدين والدنيا معاً. ومع أن أهل مكة يعترفون بحبهم للدنيا، ولكن إذا ما حصلت هناك مقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة، نجد النتيجة في صالح مدينة الرسول ﷺ. لقد كان هناك نوع من التنافس بين مكة والمدينة أثار صراعاً كبيراً في القرن التاسع للميلاد، غير أن ذلك لم يعد له وجود الآن. ومنذ انفصال الحجاز اسمياً عن الخلافة، فإن المدينة أصبحت تابعة لمكة. ومع أن المكيين يشعرون أن مركز مدينتهم أعلى من مركز المدينة المنورة، إلا أنهم يظهرون تفضيلاً للمدينة على مكة بدون الحط من قدسية مدينتهم.

---

(١) من المستحيل أن تكون الشجرة المذكورة هي شجرة الرضوان؛ لأن الثابت تاريخياً أن هذه الشجرة قد قطعها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)؛ دفعاً لهذه البدع. غير أن الناس لم يتورعوا عن ذلك فيما بعد فاتخذوا لهم شجرة ربما كانت في المنطقة المجاورة للشجرة القديمة.

إن هذا الشعور يمكن تفسيره بالتوقير والتبجيل الذي يظهره أهل مكة لأهل المدينة، الذين لم ينحنوا لمتطلبات العصر. وتمتاز المدينة بأنها بعيدة عن البحر أكثر من مكة. أما موقعها الثقافي فهو بين مكة وداخل الجزيرة. وحب المكيين للمدينة المنورة، يكمن في حبهم لرسول الهدى، الذي ووري جثمانه في ذلك التراب الطاهر قبل ١٣٠٠ سنة. وبدلاً من الدخول في خصام مع أهل المدينة، كما كان يحدث في السابق حول من هي أفضل مكة أم المدينة؟ فإن أهل مكة دائماً يظهرون ميلهم وحبهم للمدينة المنورة. ويقترن ذلك بوجود قبر الرسول الكريم. وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ قد لعن اليهود والنصارى، لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، إلا أن عادة زيارة الأضرحة والقبور انتشرت انتشاراً كبيراً بين صفوف المسلمين، حتى إن قبره ﷺ أصبح هدفاً لهذا النوع من البدع. وباستثناء البقاع التي تقع تحت تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية، فإن البدع والضلالات قد شوهت مفهوم العبادة بتقديس وعبادة الأولياء وأصحاب القبور.

وعندما يتحدث أهل مكة فيما بينهم، ويدور الحديث عن المدينة، تجد الجميع يمتدحون ذلك المكان. فأهل المدينة محظيون بوجود قبر الرسول عندهم، واللحم عندهم ألذ من أي مكان آخر، والسمن والحليب ميسور ومتوفر، وهناك أربعون نوعاً من التمر، يؤتى بها من المناطق المجاورة. إن أخلاقهم دمثة وكرمهم لا يوصف، كما يتناول المكيون في أحاديثهم عن المدينة بعض الخوارق أيضاً، مثل: أن رجلاً من أهل مكة كان يقضي في كل عام بضعة أسابيع في المدينة أورد أنه في مساء كل جمعة وعند غروب الشمس تقف بعض الحمائم على قبة القبر لتحيي الرسول وتطير في الهواء.

وإذا حدث أن قرئ المولد في أحد بيوتات مكة، فإن القارئ يقاطع دائماً بصوت أحد الحضور قائلاً: يا رسول الله يا مدينة[١]. وإذا كان هناك أحد المنشدين لا يسمح له بالمغادرة، حتى يقول قصيدة جميلة في مدح الرسول ﷺ فيها الحنين إلى زيارة المدينة، والسلام على النبي هناك. إن

---

(١) الاستعانة بغير الله شرك أكبر.

قلبي معلق بك يا رسول الله، ولكنني مثقل بالذنوب والمعاصي. وإن مثل هذه القصائد تهز المشاعر وتدمع عيون السامعين.

والمرأة المكية يكتنفها السرور حينما يسمح لها زوجها بأداء فريضة الحج، فالنسوة يعتبرن ذلك فرصة للقاءات الاجتماعية، كالتي تكون عند قبر الشيخ محمود. وتسر المرأة المكية أكثر بالذهاب إلى المدينة للسلام على الرسول، والصلاة في مسجده الكريم، حيث تستجاب الدعوات وتحصل البركات.

وحتى شريف مكة الحالي يعزو نجاحه ضد أنصار الوالي العثماني عثمان باشا إلى استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعواته عند قبر الرسول الكريم.

وبينما تسير القافلة الأخيرة إلى المدينة في رجب تقل بعض المتأخرين من الحجاج الأجانب، وتضم نساء مكة وأولادها الصغار، يقوم شبان مكة في هذا الشهر بركب سريع إلى المدينة المنورة.

إن سكان مكة عندما يقومون بزيارة المدينة خلال شهر رجب يقسمون أنفسهم إلى مجموعات تبعاً إلى أحياء المدينة (حاراتها)، كل مجموعة لها رئيس يقال له: شيخ الركب. والترتيبات لمثل هذه الزيارة تستغرق وقتاً طويلاً، ويعد لها منذ وقت مبكر. والذين لا يملكون الجمال لهذه الرحلة يقومون باستئجارها، أو باستئجار بعض الدواب، وخاصة الحمير. إن هؤلاء المسافرين يلقون الكثير من المتاعب الشديدة، وكل منهم يحاول أن يسبق الآخرين، سواء من مكة إلى المدينة أو بالعكس، وإن من يتخلف أو يتأخر يتعرض لسخرية الآخرين.

وإذا صادف أن كانت العلاقة بين القبائل القاطنة على طول طريق المدينة والحكومة متوترة، فإن الرحلة إلى المدينة تؤجل. أما في الأحوال العادية فالحراسة جيدة على الركب في الطريق، حيث أعداد المسافرين كبيرة، وهؤلاء في الغالب من الرجال الأشداء الذين يتحملون المشاق، وليس معهم إلا الأشياء الضرورية.

وبالإضافة إلى كل ذلك فجميعهم يحملون السلاح. وليس هناك من فائدة للبدو من غزو هؤلاء. وفي خلال أربعة أو خمسة أيام يقطع هؤلاء ما تقطعه القافلة خلال عشرة أيام أو اثني عشر يوماً. وفي المدينة يأتي أصدقاء هؤلاء للسلام عليهم. ويبقى الركب في المدينة بضعة أيام، حيث يقوم أفراد الركب بالسلام على الرسول، وزيارة بعض الأماكن هناك، ثم يواصل هؤلاء السفر إلى مكة، حيث يستقبلون بالبهجة والسرور. وسنناقش في الفصل الثاني كيف يستقبل أهل مكة أفراد الركب والقافلة عند العودة من المدينة إلى مكة.

وفي نهاية هذا الشهر تبدأ مجموعات الحجاج بالوصول. وفي شعبان يزداد عدد الوافدين من الحجاج. إن هؤلاء الحجاج يحرصون على صيام رمضان في مكة المكرمة، ثم الذهاب مع القافلة إلى المدينة قبل الحج. إن الخامس عشر من شعبان[1] هو يوم مهم جداً بالنسبة للعالم الإسلامي. في ليلة الخامس عشر تكتب أعمال الناس للسنة القادمة. وإن الاعتقاد بأن أعمال الناس مكتوبة في اللوح المحفوظ منذ الأزل، لا يمنع الناس من أن يصوموا هذا اليوم ويقضوا ليلته في العبادة والدعاء، بقصد أن يمحو الله بعض خطاياهم. أما بالنسبة للأولاد والنساء فهذا اليوم هو عيد يحتفى به. إن الرجال الصالحين يقضون تلك الأمسية بقراءة القرآن في المسجد، فبعد صلاة العشاء يتجمع الناس في حلقات صغيرة، حيث يقوم أحد الأشخاص بقراءة دعاء النصف من شعبان. إن جميع الحجاج القادمين يحضرون هذه المناسبة دون استثناء. ويقوم مساعدو المطوفين بعمل الأدلاء لهؤلاء الحجاج، ويتلون لهم الدعاء الخاص بهذه المناسبة. وقد شاهدت بنفسي أحد هؤلاء المساعدين الذين يطمحون في يوم من الأيام إلى أن يصلوا إلى مرتبة المطوفين، يقضي أياماً في استظهار وحفظ دعاء النصف من شعبان، كي يتلوه أمام الحجاج الذين يتولى إرشادهم.

إن بعض ما يقال في دعاء النصف من شعبان: يا الله إذا كنت كتبت في كتابك أنني غير سعيد أو فقير فامسح اللهم بعنايتك ذلك عني يا كريم.

---

(١) الاحتفال بليلة النصف من شهر شعبان بدعة دينية لم يرد فيها أثر أو حديث صحيح. وكذلك الأدعية والقراءات التي تتلى في تلك الليلة.

وفي هذه الليلة تضاء أنوار المسجد بصورة أكثر من الأيام العادية، بالإضافة إلى أن القمر يكون في تلك الليلة بدراً. وفي اليوم التالي تفتح الكعبة للجمهور.

رمضان في مكة

وفي النصف الثاني من شعبان يبدأ الحديث عن شهر الصيام رمضان، الذي يكون قاسياً في مدينة مكة الشديدة الحرارة. وهناك نكتة تقال للأطفال في العشرين من شعبان، وهي: أن الشيخ رمضان قد بدأ رحلته مع القافلة القادمة من المدينة، وسيكون في مكة بعد عشرة أيام. وفي كل يوم يقطع الشيخ رمضان مسافة، ويصل إلى مكان يسمى للأطفال، وفي نهاية المطاف يبقى الأمر غير مؤكد، فيما إذا كان سيصل في يوم أو يومين؛ لأن بداية شهر الصوم تعتمد على رؤية الهلال، أو على إكمال شعبان ثلاثين يوماً فيما لو لم ير الهلال.

وقبل بداية رمضان يحاول بعض الأفراد أن ينظف معدته، وذلك بأن يتناول شربة أو مادة مسهلة للمعدة، تحضر من قبل الطبيب بموجب وصفة، يختص بها ويحتفظ بها سرية في العادة، ومع أن العلاجات تباع بالثمن إلا أن الشربة يعطيها الدكتور مجاناً.

إن المدافع تكون على أهبة الاستعداد لتعلن بداية شهر الصوم. وبعد سماع العيارات النارية تصبح الأسواق أكثر حياة، حيث تجد باعة المواد الغذائية يتفننون في صناعة أطباق الحلوى الرمضانية، التي يقبل عليها الصائمون للتحضير لوجبة السحور، لأول يوم من أيام الصيام حيث يبدأ الجوع والعطش.

إن شهر رمضان هو شهر العبادة، فحتى أولئك الذين ليس لديهم الحماس الديني في غير شهر الصوم يجهدون أنفسهم بالعبادة والقربات لينالوا رضى الله تعالى. أما الأتقياء فتزيد عبادتهم وتقربهم إلى الله ـ تعالى ـ بالطاعات وأعمال البر. ويمكن أن نأخذ فكرة واضحة عن الحياة في رمضان، وذلك بوصف الأعمال التي يمكن القيام بها خلال ٢٤ ساعة، وستبدأ قبل غروب الشمس بقليل، حيث يعتبر الغروب حداً فاصلاً بين يومين.

إن صحن المسجد غطي بالأشرعة لتفادي حرارة الشمس، ويترك جزء بسيط فقط مفتوحاً لأشعة الشمس. ومع هذا فإن الممرات الممتدة من الأروقة إلى صحن المسجد تكون شديدة الحرارة، بحيث ترى المرء يرفع قدمه بين الفينة والأخرى، باحثاً عن مكان أقل حرارة يضع قدمه عليه. وترى في صحن المسجد وتحت الأروقة العديد من الوعاظ يجلسون، وحولهم العديد من الرجال، يستمعون إلى محاضراتهم التي تعالج شؤون الصوم المختلفة. أما المحاضرات العادية في الحرم فتتوقف في رمضان؛ لأن المسجد يكون مزدحماً بالناس. وكذلك فإن المدرسين والطلاب لا يستطيعون مواصلة الدروس في مثل هذه الأجواء الحارة.

إن الذي يرى الوعاظ في المسجد في أثناء إلقائهم الدروس في رمضان، يرى طبقة بيضاء على شفاههم وألسنتهم، تنبئ عن صعوبة الموقف في أوقات ما بعد الظهيرة. وكذلك الحال بالنسبة للمستمعين إلى هؤلاء، حيث ترى آثار التعب والإرهاق بادية على وجوههم. الأمر الذي يدل على صعوبة استمرار هذا النوع من الدروس، بدون وجود الماء الذي يطفئ ظمأ هؤلاء. إن كل الغرباء الذين يفدون إلى مكة لقضاء بضعة أيام من رمضان، يمضون وقتهم في التنقل بين الأروقة، ليحصلوا على شيء من الظل.

وقبل المغرب يبدأ الزمازمة بالخروج من الخلاوي، ويقومون بفرش السجاجيد والحصر في الأماكن المخصصة لزبائنهم، فوق الحصى في صحن المسجد، أو بين أروقة الحرم، وقبل مد السجاجيد يضعون الدوارق التي تحوي الماء البارد، بمعدل دورق لكل خمسة أشخاص. وقبل أن يجلس الأشخاص البارزون في أماكنهم المخصصة لهم، توضع بعض الدوارق الخاصة، التي تحوي الماء المحلى أو ماء المطر أو ماء العيون، وذلك حسب ذوق الجالس ورغبته.

ونجد الجماهير المحتشدة من الصائمين تدخل إلى المسجد خلال أبواب الحرم التسعة عشر[١]، وكل واحد من هؤلاء يحمل حقيبة صغيرة، أو سلة

---

(١) بعد التوسعة السعودية الأولى للحرم المكي الشريف أصبح عدد الأبواب (٦٤) باباً. وبعد التوسعة السعودية الثانية، أصبح عدد الأبواب الحالية (٩٥) باباً.

مملوءة بالخبز والتمر والزيتون والتين. والأثرياء من هؤلاء يدخلون إلى المسجد يتبعهم عبيدهم الذين يحملون على رؤوسهم أطباقاً معدنية ثقيلة مملوءة بأنواع الطعام.

إن جميع القادمين إلى المسجد قد أخذوا أماكنهم بانتظار لحظة الإفطار. وذلك حين يصعد (الريس) إلى الطابق العلوي الذي يحيط ببئر زمزم، ويلوح بعلم إلى القلعة التي ينتظر فيها بعض الجنود لإطلاق المدافع إيذاناً بالإفطار. ويسمع المرء الآن من كافة أرجاء المسجد دعاء خاصاً، كما يسمع أصوات شرب الماء من الدوارق الخاصة، وكذلك قرقعة صحون الطعام وما إليها. وفي هذه الأثناء يرتفع الأذان من على المنارات السبع[١] الموجودة في المسجد، يؤدي بعدها الناس صلاة المغرب.

إن هذه الفترة قصيرة، لذلك تحذف المدائح التي تعقب الأذان، وتكون الإقامة مباشرة بعد الأذان، ويصطف الناس للصلاة خلف إمام الأحناف، الذي يتخذ مكانه بجوار المقام.

إن المرء في العادة يصلي خلف إمام مذهبه. غير أن الشريعة الإسلامية لا تمنع من أن يقوم الناس بالصلاة خلف إمام من مذهب آخر، لا بل تمنعهم من أداء الصلاة خلف إمام مذهبهم إذا كان ذلك يؤخر أداءهم للصلاة عن موعدها.

إن تعيين أئمة لكافة المذاهب الأربعة في الحرم، وقيام هؤلاء الأئمة بصلاة الفريضة بالتتابع، ليس مرده إلى فروق بين الأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة في أداء الصلاة، فالصلاة واحدة وجميع هؤلاء يعيشون سوياً في مكة. إن السبب في ذلك مرده إلى أن مكة مدينة مقدسة لجميع المسلمين دون استثناء، وليست ملكاً لأهل مكة، أو لأي أسرة من أسرها، لهذا كان من المستحيل أن يُستثنى أي من هذه المذاهب أن يمارس صلاته

---

(١) أصبح عدد المنائر الآن تسع منائر: اثنتان فوق باب الفتح واثنتان فوق باب العمرة واثنتان فوق باب الملك عبد العزيز واثنتان فوق باب الملك فهد ومنارة واحدة على الصفا.

على قدم المساواة مع غيره من المذاهب. ومع هذا فإن المذهبين الحنفي والشافعي لهما مزايا خاصة لظروف سياسية خاصة.

وبعد أن ينهي إمام الحنفية الصلاة، يتقدم إمام الشافعية ليؤم الناس لصلاة المغرب ثانية، ويصطف خلفه من وصل متأخراً من أصحاب الأعمال، ومن هم على شاكلتهم، ممن لم يتمكنوا من أداء الصلاة مع الجماعة الأولى، وكلما كان عدد الصفوف خلف الإمام كبيراً، كثر عدد المكبرين الذين يرددون خلف الإمام كلمة الله أكبر، كي يسمع جميع المصلين الذين لا يرى غالبيتهم الإمام ولا يستطيعون سماعه.

وبعد أن ينهي إمام الشافعية الصلاة، يقوم شيخ المؤذنين من مقام الأحناف بترديد بعض المدائح لمدة ربع ساعة (وتسمى هذه بالرواتب). وهذه تكون في صلاة المغرب فقط؛ لأن الصلوات الأخرى يكون بعدها بعض القصائد النبوية التي تقال بترنيم خاص بعد إقامة الصلاة[١].

إن الأشخاص الذين لا يؤدون الصلاة باستمرار، تجدهم في هذا الشهر يصلون على الأقل صلاة المغرب في المسجد الحرام. والأشخاص الذين كانوا يصلون الفرائض فقط، تجدهم يصلون النوافل أيضاً، ويطيلون الركوع والسجود في صلواتهم. وبعد الصلاة يذهب الناس إلى بيوتهم، حيث تكون الزوجة والأولاد بانتظار رب الأسرة، لتناول طعام الإفطار سويّاً. إن الطعام الذي يؤخذ في المسجد، هو عبارة عن أكل خفيف، يقصد به مجرد الفطور. إن اللحم هو وجبة الإفطار التي تثير الشهية. وهذا النوع من اللحم يختار بعناية، ويكون في العادة من الأنواع السمينة، ويوضع عليه الليمون أو الخل.

إن الذين يبقون في البيت بعد الإفطار هم الكسالى فقط؛ لأن الكل يذهب إلى العمل أو إلى المسجد لأداء صلاة العشاء، وحتى أولئك الذين يصلون في بيوتهم، يذهبون إلى المسجد في هذا الشهر لأداء صلاة العشاء.

---

(١) لقد أصبحت الصلوات الآن تقام في جماعة واحدة وانتهت مظاهر الفرقة المذهبية التي كانت سائدة آنذاك.

إن المنارات وكل بقعة في المسجد تضاء بالقناديل، وكذلك صحن المسجد توضع به القناديل على ارتفاع ١،٥ متر، وبعد الانتهاء من الصلاة يتجمع الناس جماعات جماعات تتراوح أعدادها بين ١٠ إلى ١٠٠، وأحياناً ١٥٠ شخصاً، بجانب أحد القناديل لصلاة التراويح، ويصطف هؤلاء، ويتقدم أحدهم ليؤم الناس لصلاة التراويح، وهي عشرون ركعة في الغالب. وخلف كل إمام من هؤلاء مكبر يردد كلمة الله أكبر خلف الإمام، لينبه المصلين بمتابعة الإمام بالسجود والركوع، وكذلك يشعر الناس ببداية الصلاة قائلاً: صلاة التراويح أثابنا وأثابكم الله، وبعد كل أربع ركعات يقرأ بعض الأدعية. إن هذه التجمعات تتكون في العادة من الأصدقاء أو من المريدين التابعين لطريقة ما، وكل هؤلاء جاؤوا بدافع الصلاة والعبادة. وهناك بعض التجمعات التقليدية، يكون أعضاؤها من رجالات الشريف الأعظم، ويكون لها إمام خاص بها، يؤتى به كل عام ليقوم بصلاة التراويح، وحتى في بعض الأحيان يقوم الزمزمي بدور إمام التراويح، حيث يصطف خلفه من يجلسون بجواره عادة. إن هذا لا يعني أن هذه التجمعات مغلقة على أشخاص محدودين، بل هي مفتوحة لكل من يريد الالتحاق بالصف. وهناك قاعدة عامة هي أن كل شخص يحاول الإبقاء على مكانه طوال الشهر.

وفي النادر أن تجد أحد الأشخاص لا يصلي التراويح مع أنها ليست شرطاً من شروط رمضان، وهي ليست إجبارية بل هي اختيارية، غير أن الناس يؤدونها وكأنها إجبارية، وإن أئمة التراويح هم أئمة فقط لهذه المناسبة، وحتى حينما يقوم أئمة الحرم بصلاتها، فإنهم يصلونها كغيرهم بدون صفة رسمية.

وتختلف مدة صلاة التراويح بين إمام وآخر داخل المسجد، فبعض الأئمة تكون قراءته قصيرة وسريعة بحيث لا تستغرق الصلاة سوى ١٠ ـ ٢٠ دقيقة، في حين نجد آخرين وخاصة الشبان (١٢ ـ ١٥ عاماً) الذين حفظوا القرآن، وأجادوا حفظه وقراءته، وهم على أبواب حياتهم العملية، يقرؤون كافة

القرآن في خلال الشهر المبارك[1]. وفي مكان آخر نجد فقيهاً مشهوراً يقرأ القرآن بصوت جميل، وينهي قراءته خلال الشهر، إلا أن الوقت المخصص لصلاة التراويح يكون طويلاً أكثر من أولئك، وذلك لتأني الأخير في القراءة، وعدم الإسراع، ومراعاة أحكام التجويد والترتيل.

وبين الفينة والفينة تتكون مجموعات جديدة تقوم بالصلاة، وهؤلاء في العادة ممن لديهم أعمال يمارسونها بعد العشاء، وبعد الفراغ من أعمالهم يأتون إلى المسجد لأداء صلاة التراويح، التي قد تستمر إلى قرابة منتصف الليل، ولهذا نجد المسجد في مثل هذه الليالي مزدحماً بالناس.

وهناك بعض الأشخاص الأتقياء الذين ينامون قليلاً بعد صلاة التراويح، ينهضون بعدها لقراءة القرآن والذكر والعبادات الأخرى، مثل هذه الجهود التي يقوم بها هؤلاء تتم بالممارسة اليومية لهذا النوع من الأعمال التعبدية.

إن المكيين في رمضان ينامون قرابة نصف النهار وربما أكثر، وهذا يساعدهم كثيراً على السهر بعد التراويح. فالليل هنا يحل محل النهار لأداء جميع الأعمال. حيث يستقبل المرء ضيوفه في هذه الليلة، وفي الغد يقوم هو نفسه بزيارة بعض الأصدقاء، وفي الليلة التي بعدها يذهب مع أصدقائه إلى المقهى بجوار المروة. غير أن هناك نفراً قليلاً من أصحاب الأعمال يضطرون إلى العمل نهاراً، ولهذا لا يجدون الفرصة للنوم نهاراً، ولا إلى الحياة الاجتماعية ليلاً.

إن الأتقياء من أهل مكة والكثير من المجاورين والحجاج القادمين، يستغلون الليل بأداء مهمات أخرى، ألا وهي القيام بأداء العمرة المفضلة في

---

(١) من المعروف أنه في صلاة التراويح لا بد من قراءة الفاتحة وبعض آيات من القرآن ويعتمد طول الصلاة وقصرها على الإمام نفسه. وفي عام ١٨٨٥م كان أحد الأئمة الذين يؤمون الناس في التراويح سريعاً جداً، حتى إن المصلين أطلقوا عليه اسم (البابور)، وحينما يقرأ الإمام كامل القرآن، يحتفل المصلون في نهاية الشهر بختم القرآن وتوزع بعض الحلوى بهذه المناسبة. وفي مثل هذه المناسبة تقدم للإمام هدية، عبارة عن جبّة، يقدمها المصلون له. إن مثل هذه الأمور يحتفل بها في الليلة الأخيرة من الشهر المبارك (المؤلف).

رمضان. فعلى الرغم من أن شهر رجب هو الذي يكثر فيه أداء العمرة، كما أن الصيام في بعض أيام رجب مستحب، إلا أن العمرة يكثر أداؤها خلال رمضان. إن قليلاً من الناس، هم الذين يذهبون إلى التنعيم على أرجلهم ليحرموا من هناك، لكن الأغلبية يستأجرون الدواب لهذه الغاية، وإذا لم يكن هؤلاء من سكان مكة، فإنهم يذهبون مع دليل مرسل من قبل مطوفهم ليصحبهم ويرشدهم لأداء العمرة.

أداء العمرة

إن بعضهم يؤدي العمرة خلال الصباح، وبعضهم الآخر يؤديها بعد الظهيرة، غير أن الغالبية العظمى من الناس يؤدون العمرة في الليل. إن الطعام في الطريق إلى التنعيم غير متوفر، تلك الطريق الرملية والحجرية؛ لذا يقوم الأدلاء بإحضار الطعام لحجاجهم، بينما تعاني الدواب كثيراً في هذا الطريق. إن المقاولين والباحثين عن الربح يقومون بشراء الدواب في رمضان، بقصد تأجيرها للراغبين في أداء العمرة، ثم يبيعونها بعد ذلك بثمن زهيد. إن الذين ينالون منافع مادية من أداء العمرة، لا يتوانون أن يشجعوا الحجاج على أدائها، لينالوا نصيبهم من المنفعة المادية. وهناك بعض الأشخاص الذين يقومون بالعمرة يومياً[1]، في حين نجد بعضهم الآخر حينما يرى مشاق العمرة الأولى يكتفي بذلك.

التذكير

وبعد منتصف الليل بنصف ساعة، يعتلي المؤذنون منائر الحرم السبع ليقوموا بالتذكير أو الاستغفار، المكون تارة من الشعر (المدائح النبوية) وأخرى من النثر ولمدة ساعتين. إن الله سيغفر لأمة محمد، ولكن الله حذر المؤمنين، والليل الآن في نهايته، ويجب أن يُستغل ما تبقى منه بذكر الله والعبادة. وإذا استثنينا أولئك الأتقياء الذين يكثرون من العبادة والتهجد والقيام، فإن معظم المكيين حينما يستيقظون على صوت المذكر يقولون بعض الأدعية المعتادة، ويغيرون إلى الجانب الآخر، ويواصلون النوم.

---

(١) إن بعض الناس يؤدون العمرة في الأيام ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩ من رمضان، التي تقع في إحداها ليلة القدر (على الرغم من أن ليلة القدر غير معروفة في أي منها وقد ذكرها الله في رمضان، دون تخصيص لها بيوم ومن المرجح أنها في العشر الأواخر منه) (المؤلف).

التسحير وبالإضافة إلى التذكير هناك التسحير، وهو الدعوة إلى تناول وجبة السحور قبل الإمساك عن الطعام، والتذكير في العادة يبدأ قبل ثلاث ساعات من الفجر. ويعتبر التذكير إيذاناً بالاستعداد للسحور. والسحور أساس ومستحب بالنسبة للصائم، وقد ورد عليه تأكيد في الأحاديث النبوية.

أيها النائمون اصحوا. اذكروا الله الذي سخر الرياح. إن جيش الليل قد انسحب، وجيوش الصباح تشعشع. أسرعوا بالشرب فقد حان موعد الصباح. ويستمر المؤذنون بترديد ذلك، وبعد ساعتين ينهون بالأذان الأول، ويطلق عليه (الأذان الأول)؛ لأن الذي يرغب في أداء الصلاة جماعة لديه متسع من الوقت لمدة ساعة، بحيث يلبس ويأكل شيئاً من الطعام، ثم يذهب إلى المسجد. وبعد نصف ساعة من الأذان الأول، يعلن المؤذنون من على المنائر قرب بدء وقت الفجر، وهذا يسمى «تتفية» وهو الاسم الشعبي لهذا النوع من التحذير، بحيث لا يفاجأ المتسحرون ببدء وقت الإمساك، بحيث يتفلون ما في أفواههم من طعام أو شراب. وقبل التتفية بساعة تجد المسحرين يقرعون طبولهم أمام البيوت بطريقة تقليدية تساعد على إيقاظ الناس. وفي نهاية رمضان يزور هؤلاء المسحرون هذه البيوت، وغالباً ما تكون الزيارة في يوم العيد، لينالوا شيئاً من الهدايا والأعطيات، حيث يعطيهم بعض الناس نقوداً وبعضهم الآخر حبوباً، وبعضهم يعطيهم صدقة الفطر كذلك.

المسحرون

وبعد نصف ساعة من التتفية يعلن المؤذنون النداء للصلاة. يسبقه في العادة (الترحيم) لمدة عشر دقائق. وهذا الترحيم موجود طوال العام. إن بداية هذا الترحيم، وكذلك بداية التذكير، وكذلك الأذان لصلاة الفجر، هي بدايات التوقيت لأهل مكة، ففي الترحيم يسأل الناس الله سبحانه وتعالى الرحمة، والمرء يطلب هذه الرحمة من الله العظيم.

المطاوعة وفي الوقت نفسه يمر خلال الشوارع الرئيسة من المدينة بعض الأشخاص المتطوعين الذين لم يعينهم أحد، ولا يطلبون على ذلك أجراً، ويقفون على كل جانب من جوانب الطريق، ويستعجلون النائمين بقولهم: «الصلاة يا

عباد الله»، ويقولون ذلك بصوت عال، وبعض هؤلاء يتبعونها بأدعية، وصيغ أخرى يراد بها تنبيه النائمين إلى الصلاة. وهناك العديد من الناس في مدن الجزيرة العربية يسمعون النداء، ولكنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا في وقت متأخر، وفي هذه الحالة يستفيد هؤلاء المتأخرون من وجود أربع صلوات متتالية تقام في المسجد على المذاهب الأربعة. وصلاة الفجر الأخيرة تؤدى من قبل إمام المذهب الحنفي، ومن لم يدركها فقد تأخر كثيراً في القدوم إلى المسجد.

الصلاة على المذاهب الأربعة

ونجد في الصلاة الأولى التي يؤديها إمام الشافعية الأتقياء الحريصين على أداء الصلوات في وقتها، وكذلك أصحاب الوظائف المعينة التي تفرض عليهم مظهراً معيناً، وكذلك أصحاب الأعمال التجارية الحريصين على أداء الصلاة مبكرين بغرض الإسراع إلى متاجرهم وأعمالهم.

والأذان للفجر يأتي بعد الترحيم، وقبل شروق الشمس بقرابة ساعة ونصف. والأذان عبارة عن النداء إلى الصلاة بكلمات مخصوصة واردة في الأحاديث دون تبديل أو تغيير، يقولها المؤذن بصوت عال. وهناك فهم خاطئ عند بعض الأوروبيين وهو أن الأذان يجب أن يكون بلحن معين أو نغمة خاصة، وهذا لا أساس له، فالعبرة بلفظ كلمات الأذان بصورة صحيحة ولا عبرة للترنيم الذي يقوم به المؤذن.

وهناك عادة موجودة في مكة، وقلما تحدث، وهي إذا صادف أن كان الجو غائماً وقت الأذان يؤدى الأذان بأنغام مثيرة حتى تنجلي الغيوم وتظهر زرقة السماء. والأذان في مكة كقراءة القرآن يحرص المؤذنون على أدائه بدقة، وهو فن رفيع لا يتأتى للكثيرين.

وبعد الأذان يبدأ الناس بصلاة السنة، وكذلك يصلون ما شاء الله لهم أن يصلوا حتى تقام الصلاة من فوق مقام الحنفية، حيث يتقدم إمام الشافعية باتجاه مقام إبراهيم ليؤم الصلاة الأولى.

وحينما يزدحم المسجد بالحجاج يقف الحنفية والشافعية بجوار الكعبة، حتى يسمح للعديد من الحجاج باستغلال المكان، وفي أيام الجمعة في

الغالب يقرأ الإمام سورة السجدة؛ ليتمكن المصلون من أداء السجود، ثم يواصل الإمام بعدها القراءة، ويتم الركعة الأولى والثانية، منهياً صلاة الفجر.

وبعد أن يؤدي إمام الشافعية الصلاة الأولى، يبادر أولئك الذين يعملون إلى عملهم، حيث الوقت المفضل للبيع والشراء في الصباح الباكر، وخاصةً أصناف اللحوم والحليب والخضروات والخبز وما إليها، إذ ليس من السهل الحصول عليها بعد الظهيرة.

وبعد أن ينهي إمام الشافعية الصلاة، يتقدم إمام الحنابلة، يتلوه إمام المالكية، وفي النهاية يأتي إمام الأحناف، الذي يكون جمهور المصلين خلفه أكثر من جمهور إمام الحنابلة والمالكية، غير أنه في العادة أقل من جمهور إمام الشافعية، وبهذا تنتهي صلاة الفجر. وقبل شروق الشمس يقوم الذين ليس لديهم أعمال خاصة بالطواف حول البيت وتقبيل الحجر الأسود[١]. أما المعارف والأصدقاء فيتجمعون ويتحدثون بعد الصلاة، ثم ينصرفون إلى بيوتهم، حيث لا نرى بعد ساعة في أروقة المسجد سوى العلماء والطلاب والحجاج والأدلاء الذين يرافقونهم والأغوات والزمازمة. والزيارات التي يمكن أن تتم في أي وقت خلال النهار لا يمكن القيام بها خلال رمضان، إلا إذا كانت لسبب ملح للغاية.

العمل في رمضان

إن المحلات التجارية ومحلات الأدوات المنزلية والملابس تفتح في العادة للحجاج فقط، ولا يرتادها من أهل مكة سوى من ينسى أن يحضر حاجته قبل الصيام. ولهذا فإن حركة الأعمال التجارية تصاب بالركود حتى قرابة نهاية الشهر، حيث تعود الحركة والنشاط للأعمال التجارية. فكل الناس يبدؤون بشراء الحنطة، من أجل توزيع صدقة الفطر. وكذلك يبدؤون ـ غنيهم وفقيرهم على السواء ـ بشراء الملابس الجديدة من أجل العيد.

---

(١) إن الطواف هو جزء من الحج والعمرة. ويمكن أن يكون الطواف مستقلاً وهو أمر مستحب، والحجاج في الغالب يقضون طوال وقتهم في الطواف، أما أهل مكة فالأتقياء منهم يطوفون مرتين إلى خمس مرات، أما الأشخاص العاديون فيقتصرون على طواف واحد قبل صلاة الجمعة. (المؤلف).

صحيح أن كثيراً من المكيين لديهم ملابس خاصة، لا تلبس إلا في الأعياد والمواسم فقط، ومع هذا فإن هؤلاء لا بد لهم من شراء بعض الملابس لهذا العام.

إن رجال الحرف المختلفة لا يعملون أيضاً في رمضان، ومن يعمل من هؤلاء هم أبناء مكة الأصليون، الذين اعتادوا على العمل في الحر منذ الصغر، فهؤلاء يقومون ببعض الأعمال الخفيفة خلال هذا الشهر.

أما المتسولون فيكفون عن العمل صباحاً في رمضان، ويمارسون مهنتهم بعد الظهيرة، حيث يحصلون على كميات إضافية من الطعام، حتى من أولئك البخلاء الذين تجود أنفسهم في رمضان؛ لذا يرجع هؤلاء المتسولون بأوعيتهم مملوءة بالطعام. وفي المحلات التجارية المظللة بالأشرعة، يجلس البائعون والتجار الذين ينادون على المارة لإقناعهم بالشراء. إن أصوات هؤلاء في رمضان أقل ارتفاعاً مما في سواه، نتيجة ما يعتريهم من الإعياء بسبب الصوم. أما في المقاهي التي لا تقدم أي شيء خلال أوقات الصوم، لا تجد إلا بعض الأشخاص النائمين على المقاعد الخشبية. أما المتجولون في السوق بغرض الفرجة، والذين يشكلون في العادة جزءًا كبيراً من رواد الأسواق، فلا نجد لهم أثراً. إن كل من يأتي إلى السوق في رمضان يعرف بالضبط ماذا يريد. لذا لا نجد أثراً للصخب والصراخ والنكات التي يلقيها البائعون في غير هذا الشهر الفضيل. وبالمقابل نجد هؤلاء يرددون أهازيج أو عبارات تشيد برمضان وتدعو للصائمين. بارك الله لك أيها الصائم، فإن الجنة هي مأَواك. (الله وليّك يا صايم)، وبعضهم الآخر يضيف بعض العبارات التي يشتم منها رغبة هؤلاء بانقضاء رمضان بسرعة، كي يتمكنوا من ممارسة أعمالهم التجارية بأرباح وفيرة (يا رمضان ليمنحك الله القوة كي تهرول).

إن معظم أبناء مكة الموسرين يحملون معهم ساعات توقيت. وعندما يؤذن المؤذن لصلاة المغرب، يخرج كل منهم ساعته من جيبه، ويضبطها على الساعة الثانية عشرة. أما الغالبية العظمى فليس لديهم تصور لساعات النهار بمعنى

الساعة ٢، ٣، ٤ وهكذا. إن مفهوم الوقت مبني على أساس تقسيم النهار إلى خمسة أوقات هي أوقات الفرائض. أما الليل فينقسم إلى ما سبق وذكرناه من التذكير والترحيم. وهناك تقسيمات أخرى فرعية، فهناك نوبتان موسيقيتان يومياً أمام مقر الشريف الأعظم، وكذلك هناك مواقع الشمس في كبد السماء. أما الحديث عن الدقائق فأمر غير وارد هنا بالتأكيد.

وحينما يحين موعد صلاة الظهر والعصر يرتفع الأذان لكل منهما، يعقبه ولمدة عشرين دقيقة أدعية ومدائح نبوية وتذكير بالأئمة الأربعة، ثم تؤدى الصلوات على المذاهب الأربعة، حيث يبدأ إمام الأحناف ثم الشافعية، ولكن هذا الترتيب ليس شرطاً أساسياً؛ لأنه يخضع لكثير من التغيير والتبديل. وحينما لا يكون هناك حجاج فإن جمهور المصلين في هاتين الفريضتين يكون قليلاً نسبياً. إذ إن بعض المكيين لا يجدون حرجاً في أداء الصلاة في بيوتهم لهاتين الفريضتين. وإذا كان هناك بعض الأشخاص النائمين في الشارع، أو الذين لا يريدون أن يصلوا، فلا تعدم أن تجد من ينبههم إلى ذلك بقوله: «ألا تسمع الأذان يا شيخ؟ إنه وقت الصلاة». ولهذا فإن الناس ينامون في بيوتهم إلى وقت متأخر من النهار، حيث يقومون بعدها لتجهيز أنفسهم للإفطار.

عيد الفطر

وبالحماس نفسه الذي استقبل به المكيون شهر الصوم، ينتظرون رؤية هلال شوال، الذي هو نهاية رمضان؛ إذ يتجمع في المسجد ليلة التاسع والعشرين جمع غفير من الناس، وكل منهم ينظر إلى السماء بهدف رؤية الهلال، الذي يؤذن بانتهاء الصوم، وفي حالة رؤية الهلال يسري الخبر إلى كل بيت في المدينة كسريان النار في الهشيم. وتجد في كل جوانب الشوارع الجمع الغفير من الخدم، الذين ينظفون السجاد (ضربه بالعصا لإخراج الغبار منه)، ويضعون اللمسات الأخيرة في تنظيف البيوت. وفي كل مكان نجد الناس يقومون بتجديد ما تلف من النوافذ. ونجد السوق مملوءاً بالناس الذين يتجولون هنا وهناك لشراء حاجاتهم التي تأخروا في إحضارها حتى آخر لحظة. إن رب الأسرة بهذه المناسبة يقوم بشراء الملابس الجديدة لجميع أفراد عائلته، بما فيهم الخدم، كما يشتري

الحلوى والعطور لزواره، كما يقوم بإبدال بعض حاجات المنزل القديمة بجديدة، كما أنه يذهب إلى الحلاق. وفي محل الحلاقة أو حتى في الشارع العام تجد العديد من الناس الجالسين على مقاعد، وعلى ظهر كل منهم كوبان من أجل الحجامة. إن كل مكي حتى ولو كان مصاباً بفقر الدم عليه أن يقوم بالحجامة مرة في كل عام على الأقل، لإخراج الدم الزائد. ويحب الناس أن يقوموا بهذه المهمة في يوم العيد، حيث يشعرون بالنشوة بعد هذه العملية.

أما في المنزل فإن أعمال الطبخ تكون جارية على قدم وساق، كما تزين بهذه المناسبة غرف الاستقبال، كما تعد غرفة أخرى واسعة بجانبها لطعام الإفطار الذي يبدأ بعد صلاة العيد مباشرة.

ولأداء صلاة العيد يتوجه المصلون إلى المسجد عند شروق الشمس، كي يتمكنوا من الحصول على مكان مناسب لهم، وهناك العديد من المصلين الذين لا يتركون المسجد بعد أداء صلاة الفجر بانتظار صلاة العيد. إن المرء ليعجب كثيراً بمنظر الداخلين إلى المسجد، وهم يرتدون ملابس العيد الزاهية الجميلة. إن الطبقة الوسطى في هذا اليوم تظهر بمظهر مختلف عن الأعياد العادية، حيث يلبس هؤلاء الملابس الجميلة. وبعد نصف ساعة من شروق الشمس، ينادى لصلاة العيد، التي هي عبارة عن ركعتين يعقبها خطبة العيد.

وتختلف صلاة العيد عن صلاة الجمعة، التي تأتي الصلاة فيها بعد الخطبة، الأمر الذي يترتب عليه بقاء جمهور المصلين انتظاراً للصلاة، في حين نرى في صلاة العيد أن الخطبة تأتي بعد الصلاة، حيث تصلى ركعتا العيد أولاً، ثم يعتلي الإمام المنبر، ولما كان الكثير من الناس لا يحرصون على سماع الخطبة، فإنهم يبدؤون بالخروج من المسجد، الأمر الذي ينجم عنه هرج شديد، لا يساعد على سماع الخطبة أو الإصغاء إليها، ولا سيما أنه في الأحوال العادية، وفي غياب مكبرات الصوت لا يسمع الخطبة سوى عشر المصلين، فالمصلون في الصفوف الخلفية يبادرون أولاً بالخروج، ثم يتوالى الناس في الخروج، حتى لا يبقى مع الإمام سوى أعداد قليلة. وهذا

اليوم هو يوم سعادة وسرور، يحاول الناس مقارنة شهر العيد في هذا العام مع الأعوام السالفة، كما يتحدثون فيه عن الملابس الثمينة التي يلبسها هذا الرجل أو ذاك. إن مقارنة الحاضر بالماضي، يقود بعض أبناء مكة إلى أحكام خاطئة عن حاضرهم، إنهم يقولون: «يبدو أن العالم كله يعاني من مجاعة، أو على حافة الانهيار من حيث الثروة والمال، ولهذا فإن الأمور الاقتصادية في مكة ستكون صعبة في هذا العام. أين الهنود الأثرياء الذين كانوا يرمون القطع الذهبية هنا وهناك؟ أين الجاوة المنفقون إلى حد الإسراف، الذين يحضرون ليوزعوا الهدايا والأموال؟ أين الأتراك الذين كانوا يحضرون الجمال المحملة بالتحف والهدايا؟ إن الحجاج اليوم يغنون سويّاً بنغمة واحدة ليس لدينا نقود زائدة للإنفاق. انظر النتائج المترتبة على ذلك والتي تؤدي إلى العوز الدائم لأهل مكة».

إن المهرجين قبل ٢٥ عاماً لم يكونوا يسمحون لأحد بالمرور، حتى يوزع ملء يديه من النقود (خماسي من الفكة)؛ ولكن الآن لا يوجد مثل هذا التقليد؛ لأنه لا يوجد نقود. إن العيد في السابق لم يكن له بهجة إلا مع وجود نوع من الشجار بين أبناء الأحياء المختلفة (الحارات)، ولكن لا يوجد مثل ذلك اليوم، وحتى لا يمكن التفكير في مثل ذلك. والتاجر الذي يبيع الخيوط الذهبية والفضية، وكذلك صفائح الفضة التي تزين بها أثواب النساء متشائم وحزين، ولسان حاله يقول: في السابق كانت مثل هذه الأشياء تباع بالأكوام، والآن وبعد مشادة عنيفة حول السعر بيني وبين الزبون، يأخذ قطعة صغيرة من أردأ الأنواع بدريهمات قليلة.

إن الانطباعات السابقة لها أساس من الصحة، لكن هذا لا يمنع الناس من الاحتفال بالعيد بكل سرور وبهجة، ربما بملابس أقل تكلفة من ذي قبل، وبطريقة أقل تغطرساً واختيالاً، لكنهم مع هذا يأكلون ويشربون ويمرحون كما كان عليه الحال في السابق.

عيد الأضحى

ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى أن هذا العيد يقال له: العيد الصغير، في حين عيد العاشر من ذي الحجة هو العيد الكبير، ولكن نجد أن هذا العيد

في كثير من الأقطار أكثر أهمية من العيد الأكبر، ولا عجب في ذلك فالناس في هذا العيد يحتفلون بنهاية المصاعب خلال شهر رمضان، بينما عيد الأضحى، هو يوم راحة في وادي منى، بعد أداء شعائر الحج. ولكن لغير حجاج بيت الله الحرام المكيين لا يوجد ما يستدعى الاحتفاء والاحتفال بهذا العيد. ومن المعروف أن المسلمين جميعاً في عيد الأضحى، يصلون العيد ويستمعون إلى الخطبة، ويقومون بذبح الضحايا، لهذا يشبه إلى حد كبير ما يفعله الحاج في عرفة ومنى، ولكنه ليس له بهجة العيد التي في منى.

إن العديد من حجاج بيت الله الحرام في هذه المناسبة يجهلون الكثير من الأمور التي يجب عملها في العاشر من ذي الحجة، ففي نهاية ليلة الوقوف بعرفة أو صباح اليوم الثاني وهو العاشر من ذي الحجة، يصل الحجاج من عرفات ومزدلفة إلى منى. وهنا يذهل الحجاج لعدم معرفتهم ماذا عليهم أن يفعلوا. إن المطوفين ومساعديهم وخدمهم يجب أن يفرغوا حمولة الجمال، وينصبوا الخيام، ويحضروا الطعام، ويهيئوا كل ما يلزم لحجاجهم. وبجانب ذلك يقوم هؤلاء بشراء الأغنام من أجل الأضاحي والغذاء، وكذلك يرتبون أمر وجود الحلاق الذي يقوم بالحلق أو التقصير لمن يريد التحلل من إحرامه. وكذلك عليهم أن يرتبوا استئجار دواب للحجاج لنقلهم إلى مكة للطواف والسعي، حيث يعودون بعدها إلى منى ليقضوا فيها ثلاثة أيام، يرجعون بعدها إلى مكة.

إن بعض أهل مكة يحضرون معهم الكثير من الحاجات[1] بقصد بيعها في منى، وكذلك الحلاقون والقصابون لا يجدون متسعاً من الوقت للراحة، فهم في عمل دائم. إن القوانين التي تحدّد أسعار الحاجات يتوقف العمل بها. إن العديد من الحجاج يذهبون لمسجد منى (الخيف) لأداء صلاة العشاء، غير أن الكثير

(١) في مكة أسعار الحاجات الضرورية مثل الخبز واللحم والسمن وما إليها محدودة إجبارياً من قبل الحاكم (المحتسب أو مفتش السوق)، لكن التقاليد السارية خلال موسم الحج ألّا يتقيد أحد بهذه التسعيرة، ويكون السعر خاضعاً للعرض والطلب، وهذا ما يسبب غلاء الحاجات، مما يترك أثراً سيئاً في الناس، غير أنه من جهة أخرى يساعد على الكثير من الربح، وخاصة لبعض المتنفذين. (المؤلف).

منهم يضل طريقه وسط الزحام ووسط الأعداد غير النهائيّة من الخيام، فقد يقضي المرء ساعات طويلة حتى يستطيع العودة إلى مكانه في منى. إن أحداً لا يستطيع أن يرافقهم في ذلك؛ لأنهم كلهم مشغولون بأمورهم الخاصة.

إن المسجد في منى لا يضم في العادة سوى أهل مكة وبعض الأشخاص الرسميين؛ لأن الحجاج لا يعرفون طريقهم إليه، بالإضافة إلى أن الحجاج يؤدون الصلوات في مجموعات صغيرة بجوار خيامهم. إن مدينة مكة في هذه الأثناء تكون شبه خاوية ومهجورة، ولا يوجد فيها البهجة التي تراها في أثناء عيد الفطر. وكذلك الحال في مختلف المدن، حيث يبدو العيد الصغير أكثر أهمية من العيد الكبير. ومع أن العيد الكبير يجلب للمكيين المتعة، ولكن يصاحبها تعب شديد نتيجة لأعمال الحج المختلفة، التي يتوجب عليهم القيام بها من أجل ضيوفهم وحجاجهم.

تبادل الزيارات بالأعياد

ولا يبقى بعد أداء صلاة العيد (المشهد) سوى القيام بالزيارات. إن الرجال الأحدث سناً يقومون بزيارة أقربائهم الأكبر سناً، ثم يزورون جيرانهم وأصدقاءهم وأساتذتهم. وفي العادة يذهب الرجل مع أصدقائه لزيارة أقربائهم ومعارفهم الذين لا يعرفهم هو شخصياً. إن الناس متواضعي الحال يزورون من يعملون عندهم، بقصد الحصول على هدية العيد (العيدية). ويسمع المرء في كل مكان عبارات التهنئة بالعيد: جعلكم الله من العائدين، كل عام وأنتم بخير، من المقبولين إن شاء الله. ويكون الجواب في الغالب: إن شاء الله نحن وأنتم وجميع المسلمين. وفي هذه المناسبة تقدم القهوة إلى الضيوف باستمرار وطوال الوقت، وعلى طبق جميل توضع ثلاثة صحون وعليها اللوز والعناب والحلوى المشكلة، ويقوم الضيوف بتناول ما يريدون منها، ثم يقوم المباشر بتغطية الصحون بقطعة جميلة من القماش، حواشيها مطرزة بخيوط ذهبية. وإذا صادف أن قدم المهنئون في وقت تقديم الطعام فلا يمكن للزائر مغادرة المنزل قبل أن يأكل شيئاً، وإذا تجمع عدد من المهنئين، يسارع رب المنزل إلى إحضار الشاي إليهم. إن مثل هذه الزيارات في العادة تكون قصيرة وسريعة، وعندما يهم الضيوف بمغادرة المكان، يأتي بالمبخرة أو المرش الذي يحوي ماء الورد ليتعطر الضيوف.

وفي بعض الأحيان يقدم المضيف طبقاً عليه لفائف مغموسة بزيت عطري نفاذ، حيث يقوم الضيوف بغمس أصبعهم في هذه اللفائف ومسحها تحت أنوفهم. وفي الغالب يكون تقديم العطر إشارة إلى السماح بالانصراف، وهكذا يتقدم الضيوف بالشكر على كرم الحفاوة، كما يقوم المضيف بشكر هؤلاء على تجشم المتاعب والقدوم إليه.

وفي الشوارع العريضة يلهو الأطفال بما يسمى المراجيح «المدارية»، وبجوار مكان ميلاد علي بن أبي طالب، نجد أبناء حام يلعبون كذلك. أما المرأة فلا تخرج خارج المنزل؛ لأن عليها أن تقوم بتجهيز كل شيء يقدم إلى الضيوف والإشراف عليه. وهناك في الشريعة حث على صيام ستة أيام في شوال، غير أن القليل هم الذين يقومون بهذا الصيام، وهؤلاء هم الرجال الأتقياء، وكذلك بعض النساء اللواتي يقضين ما فاتهن بسبب الحيض، وقد تؤجل هؤلاء النسوة قضاء هذه الأيام إلى رجب.

إن مناسبة عيد الفطر تستمر في مكة إلى اليوم الثاني والثالث، حيث يقوم الرجال بمزيد من الزيارات للمعارف والأصدقاء، وكذلك يرتبون العديد من اللقاءات للسمر والاحتفال بمناسبة العيد. ومن بداية اليوم الرابع وحتى السابع من شهر شوال يأتي دور النساء في الاحتفال. فهؤلاء النسوة كن طوال الفترة السابقة مشغولات جداً بضيوف أزواجهن. أما الآن فغرف الاستقبال تحت تصرفهن، ولا يقتنع هؤلاء كالرجال بالجلوس لبضع دقائق ثم الانصراف، بل يجلسن أوقاتاً طويلة يشربن القهوة والشاي والشراب، ويتحدثن في مختلف المواضيع، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يتعداه إلى الخروج خارج المنزل بقصد النزهة والتسلية، حيث يقمن بما يسمى عند أهل مكة بـ (القيلة).

مظاهر الحياة في شوال

وفي خلال شهر شوال إذا كانت الظروف الأمنية مع البدو تسمح بالذهاب إلى المدينة، فإن القافلة الكبرى تذهب إلى المدينة. وأفراد القافلة هم الحجاج الذين وصلوا مبكرين، يصحبهم أدلاؤهم، والرجال المسنون من أهل مكة، وعائلاتهم، وأولادهم. وباختصار إن كل من لا يستطيع الذهاب في الركب

يسافر مع القافلة. وتستغرق القافلة قرابة شهر ذهاباً وإياباً. وفي العودة يحضر الزائرون لأقاربهم بجانب الدعاء لهم عند الرسول الكريم من الهدايا التي ربما تفوق هدايا الزيارة التي تتم في رجب؛ لأنه يسمح بحمل نصف الأمتعة الزائدة في هذه القافلة. وتتكون الهدايا في الغالب من التمر والدقة (مسحوق يغمس فيه السكان قطع الخبز) والمراوح المصنوعة من سعف النخيل، والتي تباع على جانبي الطريق من قبل النساء البدويات. والزوار إلى المدينة يحرصون على إحضار مكيال القمح (الصاع) المصنوع من الصفيح (التنك) أو الخشب، وهذا يعادل المد الذي كان الرسول ﷺ يستعمله. وفي العادة تجد اسم المالك مكتوباً على ورقة حمراء ملصقة على الصاع، ويستعمل أهل مكة، هذا المكيال الذي يعادل أربعة أخماس اللتر في كيل صدقة الفطر. إن هذه القافلة تقابل في أثناء العودة بالبشر والسرور.

ويوجد في هذه القافلة أحياناً بعض المكيين الذين يذهبون إلى المدينة لقضاء بعض الأعمال التجارية، ويغتنمون هذه الفرصة للزيارة والسلام على الرسول الكريم.

مظاهر الحياة في ذي القعدة

وفي نهاية شهر شوال، وبداية شهر ذي القعدة، تبدأ حمى الكسب عند أهل مكة، حيث يبدأ الحجاج بالوفود بأعداد غفيرة إلى العاصمة المقدسة. إن المنافسة الزائدة تجعل المطوفين يضرعون إلى الله أن يرسل إليهم المزيد من الحجاج الموسرين. وكذلك نجد هؤلاء يختلقون الأقاويل والمكائد لمنافسيهم في المهنة. إن هذا التنافس من أجل العيش بين هؤلاء يسهل الأمر للسلطات الحكومية أن تستولي وتسيطر على الجميع، حيث تسخر الدولة أحد هؤلاء ضد الآخر، حينما تريد إدخال أي تنظيمات تلقى بعض المعارضة من هؤلاء.

وإذا تعثر دفع الضرائب المستحقة لشريف مكة أو للوالي العثماني، فإن هؤلاء يقاسمون المطوفين وأصحاب الحرف المختلفة جزءًا من دخلهم. ويكون ذلك بأن يطلب من الحجاج في جدة التبرع بمبلغ من المال لصيانة أقنية الماء في مكة، أو لإنشاء قناة جديدة في المشاعر. إن المطوف الذي لا

يجبر كل أفراد الحجاج على الدفع، أو الذي يتغاضى عن بعض هؤلاء الذين لا يجدون مالاً يدفعونه يكون نصيبه الطرد من مهنته، وتعيين بديل له قادر على إجبار الناس على الدفع، وكما أن إعطاء رخص ممارسة المهنة (التقرير) لا تمنح إلا لقاء مبلغ من الربح المتحصل. إن كل من يدخل المهنة يحتاج إلى تزكية من قبل شيخ الطائفة، وكذلك من قبل زملائه في الحرفة، إلا أن ذلك لا يكون قانونياً إلا إذا صدّقت السلطات على ذلك. إن مثل هذا الحق القانوني يعطي للشريف السلطة بالتهديد بسحب رخصة المطوف، إلا إذا حمى نفسه بدفع مبلغ من المال. وحتى عهد قريب لم يكن من الممكن لشخص حصل على إجازة ممارسة الحرفة، أن تسحب الرخصة الممنوحة له إلا إذا أساء استعمالها، وفي حالة موته يخلفه أحد أفراد أسرته، الذي يتوجب عليه دفع مبلغ من المال أيضاً للسلطات، ليتمكن من الحصول على حق أبيه. إن أصحاب المؤسسات يتوجب عليهم دفع مبالغ من المال هدية لحاكم المدينة أيام الأعياد، أو حينما يريدون مقابلته لأمر من الأمور. وفي هذه الأيام (١٨٨٥م) يتبع أمير مكة والوالي التركي أساليب ابتزاز متنوعة لأفراد الحرف المختلفة في المدينة.

وعندما يشعر هؤلاء ـ الشريف والوالي ـ أن المطوفين يستغلون طائفة من الحجاج، أو بمعنى آخر يحصلون على أموال طائلة، يستصدرون أمراً بموافقة شيخ المطوفين، يتوجب فيه على هؤلاء المطوفين، تجديد الرخص الممنوحة لهم. إن هذا التجديد يكلف كل فرد من المطوفين مئات الدولارات تقتطع من دخله. وفي هذه الحالة يحصل شيخ المطوفين على بعض الامتيازات الخاصة به، بحيث يقوم بعمل خاص لحسابه، ولكن عليه أن يقتطع مبلغاً من هذا الدخل أيضاً إذا علمت السلطات العليا بهذا النوع من الدخل.

وخلال السنوات القليلة الماضية على سبيل المثال، فإن الرخص الممنوحة لشيوخ الجاوي، قد جددت مرتين، فمرة وجد أنه من الأفضل أن تغير الرخص الممنوحة لكل عناصر الجاوة، وتستبدل برخص خاصة تخص طبقات وفئات معينة من الحجاج، مثل القادمين من (بونتياناك أو القادمين من لامبونج وغير ذلك) يلتزم بها المطوف. وفي السنة التالية وجد أن هذا الترتيب لم يوقف

المطوفين البارعين والمخادعين من الاستئثار بكافة الحجاج، ولهذا حدث هناك ترتيب جديد لتقسيم جزر الهند الشرقية، وكما يقول الماليزيون المقيمون في مكة متفكهين: إن أقطار الملايو وضعت في المزاد. وإذا استثنينا بعض المطوفين ذوي النفوذ، فإن الذي يرسو عليه المزاد، هو الذي يدفع للسلطة أكثر من غيره.

إن أكثرية أفراد المهنة لم يكونوا راضين عن هذا التغيير، وإن عدداً من هؤلاء أبدى تذمره وسخطه، بينما فكر بعضهم في الثورة عليه. وهناك عدد قليل فقط ممن حبذوا هذه الخطوة، وهؤلاء على الرغم من الأسعار العالية المدفوعة لنيل رخص ممارسة هذه الحرفة، وعلى الرغم من كل صور الابتزاز الأخرى، فإن لديهم توقعات بزيادة دخلهم. ولسوء الحظ فقد اكتشفت السلطة أولئك الذين يريدون رفع عرائض إلى الباب العالي بهذا الخصوص عن طريق مخابراتها الخاصة. وإن قادة هؤلاء المعارضين قد اعتقلوا جميعاً. وباعتقال هؤلاء كان من السهل تطبيق القانون الجديد بدون صعوبة، ولمنع المعارضين من القيام بشكوى الشريف وأتباعه في إسطنبول أجبر جميع أبناء المهنة على توقيع عريضة إلى السلطان يشكرونه فيها على تعيين الحاكم الذي قام بإصدار هذا القانون الذي جاء وفقاً لآمالهم ورغباتهم. ولم يقتصر الأمر على الحاكم بل تعداه إلى شيخ الطائفة الذي فرض مبلغاً من المال على جميع أتباعه، نظير ما قام به من جهد في هذا المجال. وهكذا نرى أن ما في جيوب الحجاج قد بيع بثمن عال قبل قدومهم. وهذا يعني أن هؤلاء سيدفعون بالتالي كل ذلك وزيادة.

إن هذه الأمثلة تعطينا فكرة عن حمى الكسب التي تنتاب بعض العاملين في الحج. وكلما زاد عدد القادمين من الحجاج تغيرت ملامح الحياة العادية في مكة، وفي بداية ذي القعدة (الشهر الحادي عشر)، فإن الحاج لا يرى من أهل مكة سوى أناس شديدي الجشع والنهم، في حبهم للمال والغنيمة، في حين لا يعرف هؤلاء الحجاج أن هذا الكفاح المرير من أجل المادة، يستبدل بحياة اجتماعية فياضة بالجمال والحيوية. ويضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحجاج

أيضاً لا يدركون أهمية المسجد الحرام على أنّه جامعة ومعهد علمي رفيع إلا إذا لبثوا فترة طويلة في مكة[1].

ولهذا السبب نجد أن كل المعلومات التي وصلت إلى أوروبا كانت من خلال ملحوظات وانطباعات الحجاج الذين لا يعرفون إلا ظواهر سطحية عن الحياة الحقيقية لأهل مكة، والتي لا يعرفها إلا من عاش مع هؤلاء وعاشرهم ونظر إليهم عن قرب ومن الداخل.

---

(١) علق الشيخ حمد الجاسر على حديث المؤلف عن المطوفين فقال:
وختم هذا الفصل بالحديث عن المطوفين، ولم يفته وصف بعضهم بالجشع، مع مشاركة والي مكة فيما قد يحصل عليه هؤلاء، مشيراً إلى حمى الكسب التي تنتاب بعض العاملين في الحج مضيفاً: (وفي بداية القعدة فإن الحاج لا يرى من أهل مكة سوى أناس شديدي الجشع والنهم، في حبهم للمال والغنيمة، في حين لا يعرف هؤلاء الحجاج أن هذا الكفاح المرير من أجل المادة يستبدل بحياة فياضة بالجمال والحيوية)، وأضاف إلى ذلك: (إن هؤلاء الحجاج أيضاً لا يدركون أهمية المسجد الحرام على أنّه جامعة ومعهد علمي رفيع، إلا إذا لبثوا فترة طويلة في مكة، ولهذا السبب نجد أن كل المعلومات التي وصلت إلى (أوروبا) كانت من خلال ملحوظات وانطباعات الحجاج الذين لا يعرفون إلا ظواهر سطحية عن الحياة الحقيقية لأهل مكة، والتي لا يعرفها إلا من عاش مع هؤلاء، وعاشرهم ونظر إليهم عن قرب وفي الداخل).
وكأن المؤلف بهذا الكلام أراد أن يوجد مبرراً لما وصف به أهل مكة، وما كان محقاً بهذا الوصف، فما كلهم بتلك الصفة، ولو فرض وجود فرد أو طائفة ممن يعنى بشؤون الحجاج ممن يبدو بذاك المظهر الذي وصف، فإن ما يبذله حاج ذلك الزمان بالنسبة لما ينال من خدمة ورعاية يعد ضئيلاً، ثم هو في الوقت نفسه قد أتى إلى هذه البلدة الطاهرة محتسباً للأجر، مؤملاً ما عند الله مترقباً إليه بما استطاع أن يقدمه من عمل صالح، فلماذا يستكثر ما يدفعه في هذا السبيل؟! ولا يفكر فيما سيجنيه من فوائد، ومكاسب، ومنافع عظيمة ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج، الآية: ٢٨] (المجلة العربية عدد جمادى الآخرة، ١٤١٦).

الفصل الثّاني
الحياة العائليّة في مكّة المكرّمة

نظرة أوروبية خاطئة

إن من يرغب في إعطاء القراء الأوربيين صورة عن أوضاع الأسرة عند المسلمين يواجه أخطاء لها جذورها المتأصلة. فالأوروبي يعتقد أنه في الركن الخلفي من البيت المسلم، يوجد سجن يعرف بالحريم، يحوي في العادة أربع نساء وعدداً لا يحصى من الجواري، يقمن بإشباع نزوات سيدهن، وعندما يخرجن من هذا السجن بين الفينة والفينة، لا بد أن يرتدين الحجاب المكثف. وتتأكد هذه المفاهيم والتصورات عند الأوروبيين، من خلال مطالعاتهم لكتب الرحالة، الذين زاروا المناطق الإسلامية. ولما كان هذا الجزء الجوهري من حياة المسلم بعيداً عن متناول مثل هؤلاء الرحالة، كما أن هؤلاء لا يحصلون على معلوماتهم من مصادر دقيقة، فإن النتيجة هي أن الأوروبيين يحملون انطباعاً غريباً، مؤداه أن المسلمين يحتفظون بمثل هذه الأمور بسرية تامة. وما يراه هؤلاء هو مجرد تلك الأشكال المحجبة، على الرغم من أن مثل هذه الأمور المتعارف عليها في ديار الإسلام عموماً ليست من أصول التشريع الإسلامي.

الحريم

إن كلمة الحريم في مكة لا تعني ذلك الجزء من الدار بل تعني النسوة أنفسهن. فعندما يتحدث الرجل عن حريمه، فإنه يعني زوجته وجواريه والنساء الأخريات اللواتي يعشن في منزله. ولا يوجد في العادة في المسكن المكي جزء خاص من المنزل تحجز فيه النساء كما يتصور الأوروبيون، لكن حيث توجد النسوة يكون للزائر قدر بسيط من الحرية في الإذن له بالدخول، وهذا يشبه إلى حد كبير الدخول إلى حجرات النوم من قبل المعارف والأصدقاء بالنسبة إلى الأوروبيين. ولما كان الزائر لا يعرف مكان وجود

النسوة، فعليه أن يتخذ دليلاً من أهل المنزل عند الدخول إليه.

إن أصدقاء الزوج لا يعرفون الكثير عن العلاقات المنزلية لصديقهم. وقد يقومون بزيارته مرات عديدة دون أن يعرفوا ما إذا كان متزوجاً، أو كم عدد الجواري التي لديه، أو من هن النسوة اللواتي يشاركنه السكنىٰ في المنزل.

التزاور الأسري

وفي حالة التجار الأثرياء، والمسؤولين الكبار، فإن عائلات هؤلاء يتزاورون، ويشاهد بعضهم بعضاً، ولكن الجنسين يبقيان منفصلين دون اختلاط. وهناك حالات لا يسمح فيها للزوجة بزيارة بعض الناس، حتى لا تتأثر بالأحاديث الدائرة في مجالس النساء. والمكيون في الغالب لهم بجانب البيت الكبير المخصص للسكنىٰ، والذي يحوي المحل التجاري أو المكتب بعض الغرف الصغيرة أو (الصنادق) التي تجلس فيها النساء، ولهذا فإن الزائر يكون بعيداً تمام البعد عن الاختلاط بالنساء.

وعندما تكون الصداقة قوية بين شخصين مثلاً، فإن ظروفهم العائلية تكون مدار حديث بينهما. وإذا صادف وبحثت مثل هذه الأمور، فإنها تبحث وتناقش بصراحة تامة، وبدون تحفظ إلا في الخصوصيات الخاصة، والتي في العادة يتحفظ الناس في الحديث عنها، وفيما عدا ذلك فإن الحديث عن هذه الأشياء، يشبه إلى حد بعيد حديثنا ـ نحن الأوروبيين ـ عن التبغ أو عن المشروب.

مشاركة المرأة في الحديث

وعند عامة الناس، والطبقة الوسطى بشكل خاص، يجلس الرجل مع ضيفه في غرفة الاستقبال (المجلس)، وتجلس المرأة في الغرفة المجاورة. ويصادف أحياناً أن الباب الذي يفصل بينهما غير مغلق بإحكام، وحتى في حالة إغلاقه هناك فتحات وشقوق في الأبواب، تنجم عن جفاف الخشب نتيجة لشدة حرارة الشمس، يمكن من خلالها الرؤية، وإذا ما عرف الشخص أن ضيفه مهذب وعينه مملوءة (لا ينظر بشهوة إلى محارم غيره)، فإن المرأة قد تشارك في الحديث من خلال مكانها في الغرفة الأخرى، أو من خلال وجود ستارة أو حاجز بينهما، وفي بعض الأحيان يمكن للزوج أن يزيل هذه الحواجز تماماً.

وفي حالة العلاقات الاجتماعية بين الرجال والمحارم، وكذلك في حالة العبيد، فلا حظر على الاختلاط. وهذه الاستثناءات تفشو في مكة على أوسع نطاق حتى تشمل الأقارب مما ليسوا بمحارم، وكذلك الأرقاء المحررين، إذا كان هؤلاء موثوقين ومستقيمين، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأصدقاء الذين تربطهم علاقة وثيقة بالأسرة، يمكنهم في بعض الأحيان أن يختلطوا بامرأة الزوج، ويقدموا للزوجة على أساس آباء أو أبناء أو إخوة. وبالطبع فإن الزوج يفعل ذلك في حالة جزمه التام بعدم وجود صلات سوء في ذلك؛ لأن إزالة مثل هذه الحواجز التي تفصل بين المرأة والرجل الأجنبي قد يسبب علاقة مريبة، الأمر الذي يتسبب في مشكلات بين الزوجين تنتهي عادة بالطلاق. إن السبب الرئيس في هذه التحفظات في العلاقات بين المرأة والرجال الأجانب مرده إلى أن الروابط الزوجية غير وثيقة في الزواج الإسلامي[1]؟! وحينما يكون هناك ثقة بالأجنبي، وعدم

---

(١) لقد جانب المؤلف الصواب حينما ذكر أن الروابط الزوجية في المجتمع الإسلامي غير وثيقة. والذي يستعرض واجبات وحقوق الزوجين في الشرع الإسلامي، يدرك أن مثل هذا الكلام غير صحيح (المترجم). لقد علق محمد عبدالله مليباري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الفقرة في جريدة الندوة في ١٠ رمضان ١٤١١هـ فقال: «الزواج ذاتية تشريعية قاعدتها الحب الأخوي الكبير الذي يجمع كل مسلم في رابطة عقدية وتشريعية. أما الحب الفردي فإن ميزته تكتمل كلما تقدم المجتمع الإسلامي المتآخي، وهو حب يفقد تفرديته تناسبياً بقدر توثق الصلات الأخوية الدينية، وحب الزوج لزوجته أساس لرابطة حب أسرتين أو شعبين أو قبيلتين، وإن كان التخلي عن خليلة عند الغربي أكثر صعوبة، فإن الارتماء إلى أحضان الخليلة، وهجر الزوجة لحرمانية الطلاق في المسيحية أسهل بكثير من التخلي، وحتى احتضان ولد غير شرعي من الخليلة وصمة من وصمات ما يسميه الغربي بالحب، والواقع أنه ليس حباً يشد أزر المجتمع، ويقوي آصرة أفراده بل هو حب يقضي وَطَرَ نزوة نفسية شهوية.. وهو الحب الذي افتقده هورخرونيه في مكة». لقد أخطأ المؤلف في حكمه هذا على الزواج في الإسلام، وسبب ذلك على ما يبدو هو إباحة الطلاق في الإسلام وتحريمه في المسيحية. لكنه لم يوفق في استنتاجه هذا؛ لان الطلاق إن أُبيح في الإسلام، فقد أُبيح للضرورة وعندما يستحيل استمرار الحياة الزوجية. أمّا تحريمه في المسيحية فهو تحريم شكلي إذ يتم الانفصال بين الزوجين، وتنتهي بينهما جميع مظاهر الحياة الزوجية وإن لم يتم الطلاق بصورته الرسمية.

خوف من العلاقات المشبوهة، فإن حجاب المرأة، والحواجز التي تفصل بين الرجال والنساء تخف تماماً، وعندما يتأكد الزوج من عدم إمكانية قيام مثل هذه العلاقات، تزول الحواجز نهائياً، غير أنه ينجم في الغالب عن هذا الانفتاح بعض العلاقات التي ربما تتطور إلى عمل محرم، لا يقره الشرع. وفي مثل هذه الحالة يحرص من يقوم بهذه العلاقات المشبوهة على إخفائها؛ لأنها تعدّ زنى محرماً، وعملاً غير أخلاقي.

أما في الطبقات الفقيرة فإن العلاقات الاجتماعية نفسها تسود بين أفرادها، غير أن هناك حرية أكبر بين الجنسين، حتى إن الحديث ممكن بين الرجال والنساء إذا استدعت الضرورة ذلك.

إن أبناء مكة حينما يستفسرون عن المرأة بقصد الزواج، يعرفون عنها من خلال أقاربها من النساء، أو من خلال الوسيطات (الخاطبة). إن المرأة سواء كانت بكراً، أو مطلقة، أو أرملة، تثقل كاهل من يعولها من أقاربها، إلا إذا كان هؤلاء من الأثرياء، وهناك بعض النساء اللواتي يتزوجن وفي نيتهن عدم استمرارية هذا الزواج. وفي مثل هذه الحالة تحصل المرأة على مهر متفق عليه، بالإضافة إلى السكن المناسب والطعام واللباس. وإذا كان الزوج مقتدراً فيشتري لها خادمة أو صبياً يكون تحت تصرفها. وحتى النساء الغنيات يرغبن دائماً في عقد مثل هذا الزواج، حتى يتخلصن من تأثير استغلال أقاربهن لثرواتهن. ومثل هؤلاء النسوة في العادة يتنازلن عن حقوقهن[1]، ويساعدن الزوج، الذي يقوم بحماية حريتهن، ولا سيما أن لهن الحق في أي وقت في طلب الطلاق، وإنهاء عقد الزوجية، وفي كل هذه الأحوال لا بد من مساعدة الوسطاء في ترتيب أمور مثل هذا النوع من الزواج، الذي يعطي للمرأة الحرية في طلب الطلاق في أي وقت تشاء.

---

(١) التنازل عن الحقوق يكون في الموافقة الشفوية، ولكن لا يمكن إثبات ذلك في إجراءات العقد؛ لأن من صحة شروط العقد أن ينفق الرجل على المرأة، ولا يجوز مخالفته، والشيء المثبت في العقد هو حرية الزوجة في الانفصال متى أرادت (العصمة بيدها)، وعلى هذا فالزوج لا بد أن يكدح حتى يؤمن لنفسه ولزوجته النقود، في حين ليس له الحق في أخذ فلس واحد من أموالها. (المؤلف).

ومن هنا فإن بعض هؤلاء النسوة يتزوجن مرات عدّة، قد تصل إلى عشرات المرات.

إن المتسولات من النساء الكبيرات في السن، وكذلك من المعتوهات لا حرج عليهن في الخروج بدون حجاب، وكذلك اختلاط الأبناء والبنات دون سن الثامنة أو العاشرة أمر متعارف عليه في مكة. والزواج المبني على الحب يكون من خلال اختلاط هؤلاء الصغار. وبعد أن تتحجب الفتاة لا يعدم الشاب الوسائل التي تشعرها أنه لا يزال على حبها، ويقوم بعض الوسطاء بنقل مشاعر الود إليها، ومن ثم في النهاية يحاول إقناع أسرته بالتقدم لها وطلب يدها لتكون زوجة له.

تعدد الزوجات

بعد أن أتينا على موضوع الحريم، دعنا نتحدث قليلاً عن تعدد الزوجات بالنسبة لمكة، وباقي بقاع العالم الإسلامي. إن الزواج بأربع نساء دفعة واحدة أمر نادر، ويقتصر على بعض الأثرياء جداً. وإن التعدد هنا في الغالب موجود في الطبقة العليا من المجتمع. وبجانب بعض الصعوبات التي تحول بين أفراد الطبقة الوسطى والفقيرة وتعدد الزوجات، فإن التكاليف الباهظة المترتبة على ذلك، هي تكاليف عالية لا يستطيعون الالتزام بها. وهكذا فإن الزواج بواحدة فقط هو السائد عموماً. والغريب في المجتمع الإسلامي ليس تعدد الزوجات، وإنما سهولة الطلاق بين الزوجين، وخاصة في مدينة مملوءة بالأجانب مثل مكة. فالرجل يستطيع أن يطلق زوجته دون سبب، وقد يكون السبب هو تقييد حرية الزوج من قبل أسرة الزوجة، أو لعظم النفقات التي وضعها في زواج ثان، أو ربما لما ترتب عليه من نفقة عند تسريحه لزوجة أخرى. وقد يكون السبب هو رغبة الزوجة نفسها في الطلاق. إن عقد العزم على الطلاق عند المسلمين هو أقل صعوبة مما يفعله الأوربي عندما يعزم على التخلي عن خليلته، حينما يشعر أن حياته معها تشبه الحياة الزوجية الدائمة.إن أي ارتباط بين الزواج أو الحب، وبين ديمومة الحياة الزوجية، لا يخطر بأي حال من الأحوال على بال الرجل المسلم[١].

---

(١) إن أساس الزواج في الإسلام هو ديمومة الحياة الزوجية، لا كما يقول المؤلف، من أنه لا =

ترتيب أمور الزواج

وعند الطبقة الراقية من المجتمع المكي، تقوم أسرة الزوج وأسرة الزوجة بترتيب الزواج لأبنائهم في سن مبكرة، من غير أن يكون هناك تعارف مسبق بين الزوجين. ومن النادر أن تكون هناك رغبة من الزوج في الزوجة، وإنما رغبة الأسرتين في المصاهرة. إن مثل هذه الزيجات هي أكثر الزيجات استقراراً ودواماً. غير أن هذا لا يمنع من أن يتزوج الرجل بعد ذلك امرأة أخرى، بجانب زوجته الأولى، أو ابنة عمه التي يمكنها البقاء معه، إلا إذا طلبت الطلاق أو ساءت سمعتها بين الناس، فإن الزوج يقوم بتسريحها. إن الطبقة الفقيرة في مكة لا يكثر الطلاق بين أفرادها أيضاً، وهي من هذه الوجهة ـ ديمومة الزواج ـ تشبه إلى حد كبير زواج الأقارب السابق الذكر. إن الطلاق لذوي الدخل المحدود يضيف مشكلات جديدة إلى المشكلات التي تعاني منها الأسرة حالياً. إن الغالبية العظمى من الرجال يتزوجون ويطلقون أكثر من مرة، من غير أن يجمع بين أكثر من واحدة إلا في القليل النادر.

طلب المرأة للطلاق

إن المرأة تستطيع هي الأخرى أن تطلب إنهاء الحياة الزوجية، فقد تتقدم إلى القاضي بطلب الطلاق، باعتبار أن زوجها يسيء معاملتها، أو أنه لا يستطيع أن يهيِّئ لها مسكناً مناسباً، أو أن يقدم لها ما تحتاج إليه من طعام أو كساء، أو أن الزوج به عته أو جنون. وهناك حالات أخرى تشتري فيها المرأة نفسها منه بمبلغ من المال ليطلق سراحها. غير أن الزوجة إذا أرادت الطلاق، تخلق العديد من المشكلات التي لا يمكن للزوج الخلاص منها إلا بإطلاق سراحها.

بعض الشروط الزوجية

إن الشروط التي يضيفها أحد الزوجين إلى عقد الزواج، والتي يوافق عليها شفوياً الطرف الآخر، ليس لها صفة الديمومة والثبات، ويذعن لها في الغالب أحد الطرفين لفترة مؤقتة. فالزوجة مثلاً تتعهد بالتخلي عن المطالبة ببيت مستقل، كما توافق على السكن مع أقرباء الزوج في بيت

= يوجد ارتباط بين الزواج وبين ديمومة الحياة الزوجية. والدليل على ذلك أن عقد الزواج لا يجوز أن يكون لأجل محدد بل على التأبيد، وحتى إن عدم حب الزوج لزوجته ليس شرطاً موجباً لفك ديمومة الحياة الزوجية. ولنا في قول عمر رضي الله عنه: «أعلى الحب وحده تبنى البيوت؟».

واحد، وتتعهد بأن تقوم بكافة أعمال البيت وأعبائه، غير أن أمثال هذه التعهدات ليس لها صفة قانونية، ومع هذا فإن الرأي العام يرى ضرورة الالتزام بهذه الشروط، ويجيز للطرف الآخر اتباع كافة الوسائل لضمان استمرار هذه التعهدات. إن المرأة لا تعرف من الشروط الأساسية للزواج إلا ما كان محبباً لنفسها، وتخلق الأعذار الكثيرة التي تساعدها على تحقيق ما تريد. فإنْ كانت حالة زوجها المادية موسرة فلماذا لا تصاحبه في أداء فريضة الحج. وإذا كان لا يسمح لها بالحج، فلماذا لا يعطيها الأموال التي سينفقها فيما لو رافقته إلى الحج. ويكون الرجل في نظر المرأة بخيلاً وحتى شريراً، إذا لم يسمح لها بالذهاب سنوياً لزيارة ضريح الشيخ محمود، وزيارة المدينة المنورة، وعلى الزوج أيضاً أن يقبل بين الحين والآخر أن تذهب زوجته لزيارة صديقاتها في إحدى الأمسيات، أو أن تدعوهن إلى بيتها. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأمور هي كمالية، وليست أساسية، إلا أن المرأة المكية تطالب بهذه الأمور على أنّها حق تقليدي من حقوقها، وليس من حق الزوج أن يغضب من تنفيذ ذلك، أو أن يمنعها من ممارسته، حتى لا يفاجأ الزوج بزوجته وهي تتلو عليه الآية: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٩] تلك الآية بجانب سورة الفاتحة، هي كل ما تعرفه المرأة من كتاب الله الكريم.

ومن التقاليد المرعية في مكة، هو حق الزوجة بأن تطلب البقاء في مكة، على الرغم من أن زوجها قد يسافر إلى مناطق أخرى. والمرأة المكية تغتاظ كثيراً إذا أجبرت على مرافقة الزوج خارج مكة. إن هذا المطلب مبني في الغالب على قدسية هذا المكان التي تسبغ التقاليد الموروثة[1] المديح الجم والثناء العطر لكل من يسكنه. غير أن السبب الحقيقي يكمن في اعتقاد المرأة المكية في أنها في مسقط رأسها تتمتع بامتيازات لا تحلم بها في مكان آخر.

---

(١) قدسية مكة المكرمة ليست تقاليد موروثة كما يذكرها المؤلف بل هو ثابت بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص، الآية: ٥٧].

لقد كان من المفروض أن تضاف المرأة إلى قائمة المنتفعين من أعمال الحج، فالمرأة المكية تساعد زوجها في أعمال الحج. وقد تقوم بالعمل لحسابها. إن بعض الحجاج يقضون في مكة بضعة أشهر، بينما بعضهم الآخر يبقى في مكة بضع سنوات، وهؤلاء في العادة يحتاجون إلى الزواج، ولما كان هؤلاء يأتون إلى المدينة المقدسة وجيوبهم مملوءة، فإن الرغبة شديدة في تلبية طلبات هؤلاء في الزواج.

إن العلاقة بين العرض والطلب تتأثر بحجم حشود الغرباء في مكة من أجل الزواج، وكلما كانت المرأة جميلة، كان العائد أكبر. إن الرجل المكي لا يمكن أن يخدع بامرأة مكية، لكن الطلب على هؤلاء النسوة من قبل الغرباء، يمكن المرأة من الحصول على مغانم كثيرة، لا يمكن الحصول عليها بغير هذا السبيل.

الزواج النفعي

إن الأجنبي الذي يفكر في البقاء في مكة، تتدفق عليه عروض الزواج من كل جانب. وكيفما تكون أذواق هؤلاء الغرباء، فإن الوسطاء يمكن أن يوفروا لهم ما يريدون، وحتى لو أصر الخاطب على دفع مهر قليل، فهناك بالتأكيد أرملة متواضعة لا تعير بالاً للمال، وحتى لو أراد الاكتفاء بحفلة للزواج بسيطة تقتصر على بعض الأشخاص فإن له ذلك. وهناك بعض النساء اللواتي لا مانع لديهن من القدوم إلى بيت العريس مباشرة بعد إجراء عقد الزواج. وتقوم بعض هؤلاء النسوة بالتغرير بالزوج بعد بضعة أيام فقط من زواجه. فهؤلاء يبحثن عن نقاط ضعفه ليستفدن منها لأغراضهن الخاصة. وفي خلال نصف عام ينفق الزوج على شراء حاجات الزوجة ومتطلباتها، ما كان يعتقد أنه يكفيه لمدة عامين على الأقل. وحينما تفرغ جيوب الزوج تبدأ الزوجة بالتذمر، وتظهر الجانب السيئ من سلوكها،الأمر الذي يدفع الزوج دون وعي إلى إطلاق سراحها، وإعطائها نفقة لمدة ثلاثة أشهر، تكون في خلالها قد وجدت بمساعدة أصدقائها عريساً جديداً، إذا لم تكن لديها الرغبة في أن تؤخر زواجها بضعة أشهر أخرى. وفي بعض الأحيان لا يسعفها الحظ، فتتورط مع أشخاص لا مال لديهم، فتكون الحصيلة مزيداً من المشكلات.

إن هذه الطريقة الرخيصة في الزواج، تقتصر على نفر محدود، ولا تشكل غالبيته. فهناك الزواج السعيد الذي تحدثنا عنه، والموجود لدى الأغنياء والفقراء على السواء. وما هذا الشذوذ الذي نراه إلا نوعٌ من التسري الرخيص. فالشريعة الإسلامية فيها تقاليد عريقة للزواج، وحقوق للزوج والزوجة، فعلى الزوج المهر والنفقة والمسكن والملبس وما إلى ذلك، وعلى الزوجة أن تسعد زوجها وتمكنه من نفسها وتحفظ ماله وتصون نفسها إلى غير ذلك من الشروط الواجبة عليها، وهذا في الواقع تصور سام، ومفهوم للزواج رفيع. وهذا المفهوم يتوافق مع التقاليد المرعية في الزواج عند أهل مكة. ولمزيد من اللذة والبهجة في العلاقات الزوجية التي يسعى إليها المرء منذ صغره، نجد أن أهل مكة حريصون على استعمال المقويات التي تزيد من نشاطهم الجنسي في أثناء الجماع.

إن كل موجودات المنزل هي ملك للمرأة، تشتريها من الصداق المخصص لها (المهر). وفي حالة الزواج الثاني تحضر المرأة الكثير من حاجات بيتها السابق إلى بيتها الجديد، الأمر الذي يؤدي إلى التساهل في المبلغ المخصص للمهر، والذي تشتري به المرأة مثل هذه الحاجات في العادة. أما المنزل فإنه في العادة ملك للرجل يشتريه أو يستأجره، ولا تعدم المرأة أن تجد الوسيلة المناسبة للخروج منه إلى بيت آخر إذا كان لا يلائمها، الأمر الذي يضطر الزوج إلى استئجار بيت جديد لها على نفقته الخاصة. وفي الصباح يذهب الرجل إلى السوق لشراء المأكولات اللازمة لذلك اليوم، بالإضافة إلى الحاجات الأخرى التي تخزن لفترة طويلة كالأرز والدقيق والسمن وغيره. أما إذا كان لدىٰ صاحب البيت بعض الخدم، فإنه يعهد إليهم بإحضار كافة الحاجات. وعند الموسرين يعهد إلى خادمة خاصة بالعناية بشؤون المطبخ. وإذا لم يكن لديه بعض الخدم، فإن المرأة هي التي تقوم بذلك، وقد يساعدها الرجل في بعض الأمور التي لا تتقنها الزوجة خاصة عند الولائم. وفي بعض الأحيان تبدي المرأة بعض التذمر خاصة وأن الرجل يأكل خارج البيت في معظم الأحيان، ومع أصدقائه في البيت أحياناً أخرى، مما لا يترك للمرأة الكميات اللازمة من الطعام. إن شراء ملابس

المرأة هو الذي يثير الخصام في الغالب بين الزوجين. إن أشكال الملابس تتغير في مكة كما هي الحال في أي مكان آخر. فإذا ما عرفنا أن المرأة لا تقتنع إلا إذا كان لديها العديد من أنواع الملابس المختلفة، التي ترتديها في المناسبات المختلفة ولا يعقل أن تظهر المرأة بلباس واحد دائماً أمام معارفها وصديقاتها، وإذا عرفنا أن الملابس النسائية هنا مطرزة حواشيها بالخيوط الذهبية والفضية، وقد تتعداه إلى حزام ذهبي تشده المرأة على وسطها، وكذلك على غطاء الرأس (المدورة) الغالي الثمن. إن كل ذلك يدخل الرعب إلى قلب الرجل؛ لأن ذلك يحتاج إلى نفقات غالية، يتوجب على الزوج دفعها وتأمينها. وإذا اعترض الزوج على هذه المتطلبات يوصف بالشح والبخل، أو يتهم بأنه ينفق نقوده على امرأة أخرى تزوجها سراً ولم يخبر زوجته عنها. إن غيرتها من المرأة الأخرى، تكمن في أن ذلك يحرمها من الهدايا والملابس والأشياء المادية التي تطلبها،الأمر الذي يحاول الزوج إزاءه أن يخفي زواجه الثاني أطول مدة ممكنة. ولا يوجد هنا في مكة شجار بين الزوجات؛ لأن هؤلاء لا يعشن سويّاً في بيت واحد.إن الشرع يعطي كل زوجة الحق في منزل مستقل، كما أن الزوج نفسه لا يفكر مطلقاً بأن يضع زوجتيه سويّاً في مسكن واحد. وإذا صدف وأن حصل ذلك، فإن المرأة تستطيع أن تشكوه إلى القاضي، الذي يأمره بفتح بيت مستقل لكل منهما. ومن هذا المنطلق فإن مفهوم (الحريم) المنطبع في أذهان الغربيين بحاجة إلى تصحيح.

إن بعض الرجال لا يطلعون نساءهم على الكثير من خصوصياتهم، وبالمقابل فإن بعض النسوة قد لا يطلعن الزوج على ما لديهن من نقود، فقد تخشىٰ الزوجة طمع الزوج في مالها، إن هو عرف أن لديها هذا المال. غير أن الكثير من هؤلاء حينما ترى أن زوجها قد قل ماله، أو أصيب بمكروه، تخرج ما عندها من وفر، وتسلمه إلى زوجها ليتصرف به. ولا تعدم أن تجد من بين الأزواج من يستغل زوجته إلى أقصى حد ممكن، الأمر الذي يفرض على المرأة أن تخفي نقودها تحت الأرض، أو أن تودعها أمانة عند بعض الناس.

وقلما تكون هناك تحفظات من قبل الزوج على تكرار الزيارات التي تقوم بها قريبات الزوجة أو معارفها وصديقاتها. والمرأة تصبح أكثر جرأة كلما تنازل الزوج عن بعض الأمور في سبيل إرضائها. وإن معظم الزيارات التي تقوم بها هؤلاء النسوة تكون بغرض الاستغلال بصورة أخرى! ولهذا نجد أن الزوج والزوجة لا يتحدثان عن الفرح أو الحزن أو الجيد أو الرديء خارج حدود السرير الذي ينامون عليه.

تنشأ الفتيات بين هؤلاء النسوة، والأحاديث التي تسمعها الفتاة منذ حداثة سنها أن رأس مالها في الحياة هو الزواج السعيد، ومن الخير لها أن تهتم به. إن هؤلاء الفتيات لديهن مواهب وقادة يستخدمنها من أجل دوام واستمرارية الحياة الزوجية مع أزواجهن. أما أولئك اللواتي حصلن على نصيب من الثقافة التي غيرت مجرى حياتهن فعددهن قليل، ولا يتأثرن بما تقوله النساء العاديات عن الحياة الزوجية في الغالب. وإن لدى الرجال قناعة تامة أن مثل هؤلاء النسوة عددهن قليل، وأنه فيما عدا المتعة الجسدية للمرأة، فإن كافة خصائصها شيطانية. وإن تعليمها يشبه إلى حد كبير رمي الجواهر أمام الخنازير(١).

فلا عجب إذن في مثل هذه الظروف، وحينما تشعر الزوجة أن زوجها قد أهملها، وأنه يعاملها كقطعة من أثاث البيت أن تتطلع إلى بناء علاقة غير شريفة مع آخرين، وهذا بطبيعة الحال يمكنها من الحصول على ما تريد. إن ما تحصل عليه من الزوج خلال عام، يمكن الحصول عليه من الخليل خلال شهر، مع تقديم الشكر والامتنان لها على هذه العلاقة الودية. أما الشعور بالذنب ويقظة الضمير فأبعد ما يكون عن أمثال هذه المرأة المنحرفة، التي لا تعرف القيم الخلقية، ولا تتقيد بتعاليم الدين.وكل ما تعرفه حقاً أن ذلك حرام وستستغفر الله عن ذلك. إن لسان حال هذه

---

(١) إن النظرة إلى المرأة بأنها ذات خصائص شيطانية، غير موجودة لدى المسلمين. وهي نظرة كان يقول بها بعض رجال الدين النصارى. أما المسلمون فينظرون إلى النساء من منظار أن النساء شقائق الرجال. أما التعليم فأمر حثت عليه الشريعة. وإذا كانت مثل هذه النظرة موجودة لدى بعض الأشخاص، فإنما هي نتيجة الجهل المطبق.

المرأة يقول: إن هناك الكثير من الرجال الذين يقعون في الحرام، وأنا لست سوى امرأة. إن انتهاك حرمة الحياة الزوجية من قبل بعض النسوة في المجتمع المكي، يشبه إلى حد ما تورط الأوربيين في علاقات مشبوهة مع غير نسائهم، علما بأن مثل هذه العلاقات المشبوهة يرفضها المجتمع المكي، ويحكم عليها بقسوة بالغة. وهي على أي حال حالات نادرة. وبجانب متعة الزواج فإن الرجل يكتسب خبرات كثيرة من زوجته، ويتعلم الكثير من مخزون خبرتها. فالمرأة هي طبيبة الأسرة التي تستشار في كافة أنواع الأمراض التي تصيب أفراد الأسرة. والمرأة في الغالب لديها في البيت بعض أنواع الوصفات الطبية المؤلفة من الأعشاب والتوابل، التي يمكن الحصول عليها من محلات العطارين.

الطب في مكة

إن التطبيب والشعوذة والابتزاز متصلة بعضها مع بعض، وكذلك نجد مثل هذه العلاقة بين الأمراض، والأرواح الشريرة وعين الحاسد إلى غير ذلك من أمور. والمرأة في الغالب لها خبرة بمعالجة الأنواع العامة والشائعة من الأمراض.

وللاستشفاء من التوعك العام، هناك وصفة تسمى بالمثلث، تتكون من البنفسج والخميرة وعنصر ثالث. أما الحمى فعلاجها يتكون من نقيع الكزبرة، والعناب البخاري، وسكر بني مصري، ويسمى (المروّق) الذي ينظم الدورة الدموية، أما نزلات البرد فيوصف لها نقيع النعنع، أو أزهار الضرم Dhurm أو الدوش[1]، أما ورم العين، فيمسح بمحلول مكون من ماء الليمون والراتينج البني الغامق المسمى (صبر) مع محلول آخر يستخدم للشرب، مكون من الشب النوبي (المكون من كربونات وبايكربونات النتروم Natrum بالإضافة إلى الملح الخشن والرمل). إن وصفات النساء تماثل تماماً وصفات الأطباء، غير أن وصفات الأطباء تحوي عدداً أكبر من المحتويات، وتموه في العادة من قبل هؤلاء بالالتزام بنوع معين من الغذاء.

---

(١) الدوش: النعناع الحساوي.

=

إن الطب هنا ـ كأي مهنة ـ ينتقل بالوراثة من الأب لابنه، أو من العم لابن أخيه، أو من السيد لغلامه وصانعه. إن الحلاق الذي يمارس في العادة بعض أنواع الحجامة وإخراج الدم الزائد، ويشغل نفسه بأمور الطب يعتبر منتهكاً لحرمة المهنة ومتطفلاً عليها. والناس هنا لا يعدّون ممارسة الطب تحتاج إلى تفرغ كامل. وهناك طبيب مشهور عرفته في مكة، يتعاطى تصليح الساعات والبنادق وتقطير الزيوت العطرية والصياغة (وهي مهنته الرئيسة) وصهر الذهب والفضة وصناعة الحلي الخفيفة. ومع كل هذه الأعمال فإنه متفوق في مهنة الطب على الكثير من أصحاب هذه المهنة[١].

إن هذا الطبيب وغيره من الأطباء، يقومون بجس النبض، وينظرون إلى اللسان والعيون، ويستمعون إلى صوت الأيدي. والطبيب الماهر في نظر هؤلاء من يعرف المرض عن هذا الطريق، وليس عن طريق سؤال المريض بماذا يشعر. وبعد هذه الإجراءات يصرح الطبيب بثقة تامة، وبصورة قطعية، أن بك مرضاً في الجهة الفلانية من جسمك، وهذه الصفة هي ما تميز الطبيب الجيد عن غيره، وتعطي مزيداً من الثقة فيه، من قبل جمهور المراجعين. وفي الحقيقة لم يدرك هؤلاء المراجعون أن الطبيب عرف علتهم من خلال استماعه إلى الحديث الذي دار بين هذا المريض وزميله في أثناء انتظاره لدوره. والطبيب في العادة يخبره كما أخبر زميله أنت معك نوازل (تعبير يقصد به جميع الأمراض الناجمة من البرد)، أو أرياح التي تشمل كل أنواع الأمراض التي تستقر في الدم وتظهر على شكل طفح على الجلد أو احتقان أو أورام وهكذا، أو عندك إمساك (قبض)، أو يوصف له بكلمات مبهمة نوعاً من المرض غير المعروف، في حالة فشله في تحديد نوع المرض الحقيقي، وعند ذلك يوصيه بالحمية (الامتناع عن بعض أنواع الغذاء والالتزام بنوع معين)، وألا يتناول الطعام الحار أو البارد أو ذا الطبيعة الرطبة أو الجافة، أو أن يأكل الخبز بخميرة أو بدون خميرة، وفي النهاية يعطي المريض شربة أو يعطيه وصفة لمستخلص

---

(١) هذا الطبيب هو السيد عبد الغفار الذي ورد ذكره في مقدمة المؤلف وهو الذي استعان به المؤلف لأخذ عدد من الصور.

مكوناته الأساسية موجودة عند العطار. أو يعطي المريض الموسر بعض الأدوية من تركيبه الذي يبقيه سراً، لقاء مبلغ كبير من المال. ويقوم الطبيب أيضاً بعملية الكي الذي يؤثر في شفاء حالات الاحتقان والأورام وفي الجروح السيئة. ويستعمل الكي أيضاً في حالة الكسر بعد شفائه، على الرغم من الأحاديث الواردة التي تظهر استياء الرسول الكريم من عملية الكي[١]. ويستعمل الطبيب أيضاً العلق[٢] في الشفاء، ولكنه يترك للحلاق أمر إخراج الدم الزائد بالحجامة، غير أنه يقوم بعمل الحقنة الشرجية، ولا يعتبر ذلك عملاً مهيناً، لأنه يتقاضى عليه مبلغاً وفيراً.

وبجانب هذه الأنشطة المهنية، فإن صديقنا الطبيب (السيد عبدالغفّار) له خبرة طويلة، أكسبته شهرة واسعة، في مجال طب العيون، فهو يقوم بإجراء عملية لعدسة العين، ويشفي عن طريق الجراحة الانتفاخ في جفون العين، الذي قد ينتهي بالعين إلى العمى إذا لم يعالج في حينه[٣]. وتسرد القصص عن أعاجيبه في شفاء مرضاه، فيدور الحديث مثلاً عمن أعطاه حقنة، ثم منعه عن الطعام ٤٠ يوماً، باستثناء الحليب، بحيث استعاد هذا المريض حيويته ونشاطه. وكيف أنه عالج شخصاً آخر من آلام المعدة باستعمال شراب حار استخلص من النانخا. والمهم أن هذا الرجل المشهور في مكة، ليست لديه أي معرفة لوظائف الجسم، وحتى الدواء الذي يقدمه لا يعرف ما هي تأثيراته. إن نجاحاً واحداً يحققه، من بين ١٠٠ محاولة، كاف لجعل الثقة فيه كبيرة، في حين يترك شفاء ما تبقى من الحالات لله عز وجل.

---

(١) علق الجاسر على استياء الرسول ﷺ من الكي بقوله: ولا أدري من أين أتى المؤلف بهذا مع أنه عليه الصلاة والسلام كوى عدداً من الصحابة منهم أسعد بن زرارة وغيره، كما استعمل الكي بعض مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم (انظر المجلة العربية، عدد جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ).

(٢) العلق: حيوانات بحرية صغيرة يتراوح طولها بين ٥ ـ ١٠ سم، يؤتى بها من مناطق المستنقعات، وتوضع على جسم المريض، في الموضع الذي يحدده الطبيب، فتمسك بفمها الجسم، وتبدأ بامتصاص الدم.

(٣) كان لدى هذا الطبيب آلة كهربائية صغيرة يستخدمها لجميع الأمراض وخاصة لتنشيط بعض الوظائف العضوية، وقد أسهمت هذه الآلة في إضفاء الشهرة على هذا الطبيب (المؤلف).

فإذا قيل: إن الأطباء الأتراك أكثر وعياً من الأطباء المكيين، قيل: إنهم قليلو التدين، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع المكيين، وعلى الرغم من ثقافتهم العلمية فهم لا يعرفون حاجات المناخ المحلي. ومهما يكن هؤلاء فهم لا يقرون الحجامة المعتادة، ويمنعون جنودهم من تعاطيها (إنهم فرنجة، الله يقطعهم).

وعلى الرغم من أن الطبيب المكي يظهر كرهه صراحة للأطباء الأتراك، فإنه لا يتورع أن يتعلم بعض الأشياء منهم عن طريق الحيلة. وفي الحقيقة إن الفرق بين الاثنين هو في الدرجة وليس في المبدأ. فإذا تحدث أحد المرضىٰ للطبيب المكي عن قوة الجن والأرواح الشريرة، أو أحضر له مريضاً مصاباً بالعين، أو من الزار لا ينكر ذلك، بل يشرع في وصف العلاجات الواقية من تلك الأمراض. ولذلك فهو يمثل المحافظ على الخرافات والتقاليد، أمام الحقائق العلمية التي تمثل المعرفة الإنسانية الجريئة. غير أن هذا الرجل يمثل في وسطه الذي يعيش فيه رجل معرفة وعلوم طبيعية. لهذا لا يلجأ الناس إليه في العادة إلا إذا فشلت المرأة في تقديم العلاج اللازم. فالمرأة أكثر خبرة بالطب، وتستطيع أن تعالج كل أنواع الخرافات، باعتقاد أعمق من العلوم السطحية التي يحملها هؤلاء[1].

الخرافات في مكة

إن انتشار الدين الإسلامي في بقاع كثيرة من العالم، ساعد على إيجاد خليط سكاني من أصول متعددة، استوطن مكة المكرمة. ولهذا فإن هذا

---

(١) قال الشيخ حمد الجاسر تعليقاً على احتراف المرأة للطب: أشار المؤلف إلى أن المرأة هي طبيبة الأسرة تستشار في كافة أنواع الأمراض ولديها في البيت بعض أنواع الوصفات الطبية من الأعشاب والتوابل. والواقع أن هذا الأمر يكاد أن يكون شاملاً في كل الأقطار العربية في العهد الماضي، فربّة البيت في الغالب تدَّخر عدداً من الأعشاب والتوابل لاستعمالها في العلاج مثل الصبر والحلتيت، والمرّ والتوتيا والشب والقرمز)، وغيرها. وبعض أنواع المسهلات كـ (العشرق) وغيره، وكثيراً ما تعالج أطفالها وأهل بيتها بما لديها من ذلك. وقد أدركت فترة من الزمن ما كان أهله يعرفون من أنواع العلاج سوى ما هو متوارث عن كبار السن رجالاً ونساء، ومن أشهرها استعمال الكي في أغلب الأمراض، إن لم يكن كلها، ومن أمثالهم: «آخر الطب الكي». (المجلة العربية، عدد رجب، ١٤١٦هـ، ص١٠٠).

المجتمع لديه الكثير من المعتقدات الخرافية، التي تسربت إليه من جميع بقاع العالم. إن مهمة جمع هذه الخرافات والتوفيق بينها يعود إلى المرأة. وإن حب النساء لهذا النوع من العمل، هو الذي يدفعهن للقيام بذلك. إن هذا الميل للخرافات قليلاً ما يقابله معرفة تامة بالعقيدة الدينية.

وفي مكة يعدّ غرب العالم الإسلامي (تونس، الجزائر، المغرب) الموطن الأم لعدد كبير من المعتقدات الخرافية التي تبناها المجتمع المكي. وخاصة إيذاء الخصوم عن طريق جلب الأمراض والمساوئ لهم. إن استعمال السحر والقوى الخفية ضد الأرواح الشريرة، تكتسب شهرة ذائعة الصيت بين سكان أرخبيل جزر الهند الشرقية. والسبب في هذه المهارة عند الجاوة، يعود إلى أن أرضهم تعج بالأشياء الخارقة التي تؤذي البشر، ولهذا فعلى السكان أن يتعلموا حيل الجن ليتقوا خطرهم وشرورهم، يضاف إلى ذلك وجود الخدم من النساء الإفريقيات، وكذلك وجود الهنود. وكل ذلك جعل من المدينة المقدسة عشاً لكثير من المعتقدات الخرافية. ولقد نوهنا أيضاً ببعض بقايا الوثنية الجاهلية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، والتي تشاهد في المزارات والأضرحة وفي عبادة الحجارة المقنعة.

وهناك خرافات أخرى تكونت بمرور الزمن، فنجد قبر أبي لهب يرجم حتى الآن (١٨٨٥م)[1].. وعلى طريق جدة ـ مكة بين جدة وبحرة هناك كومتان من الحجارة[2]، حيث يرمي بعض القادمين على الطريق بعض الحجارة على هذه الأكوام. والأسطورة التي تعلل هذا العمل هي أن أحد صانعي الزلابية في مكة، أكد أنه سيأخذ طبقاً من الزلابية ساخناً إلى جدة، ولكنه نسي أن يقول: «إن شاء الله»، ولما وصل إلى ذلك المكان، وقع ميتاً؛ لأنه لم يتذكر المشيئة الإلهية عند عمله. أما الكوم الآخر فيفسر أيضاً بأسطورة مماثلة، لكن الاتجاه كان من جدة إلى مكة، والذي حمله هذا هو

(١) أبو لهب: هو الجبل الواقع بين ريع أبي لهب وريع الكحل، يشرف على الزاهر غرباً وذي طوى شرقاً يسمى اليوم (جبل أبي لهب)، وتقول العامة: إن قبر أبي لهب قريب من هذا الجبل، ولم يعد معروفاً اليوم.

(٢) هذا المكان غير معروف الآن.

الكنافة وليس الزلابية، ولهذا يطلق الناس على هذين الكومين من الحجارة اسم الزلباني والكنفاني.

إن أهل الخبرة في مكة يعترفون بصراحة أنه ليس كل المعتقدات الخرافية قد جاء بها غير العرب إلى المدينة المقدسة. فالحضارمة على سبيل المثال، وهؤلاء نشؤوا في وسط عربي إسلامي، لديهم بعض المعتقدات الخرافية، التي تتعلق بالمكان الذي يخفون فيه نقودهم، فالناس الذين ليس لديهم خزائن حديدية لحفظ النقود، يحفظون نقودهم تحت الأرض أو في فتحة خاصة مغطاة تحفر في الحائط.

إن الحضرمي المحترف يرى أن فأله الحسن يكمن في أمرين: الأول ألّا يعرف مقدار النقود التي يدخرها بالتدريج، والثاني ألّا يأخذ منها شيئاً، وإنما يوفرها لمشروع تجاري معين. وفي حالة احتياجه لبعض النقود، فإنه يقوم باقتراضها من أصحابه، دون أن يمس ما عنده. وإذا دعت الحاجة الماسة إلى استعمال هذا المال، يتقدم إلى الحائط الذي فيه النقود، وهو يحرق البخور ويرش ماء الورد ويخرجها قائلاً: لا تعتبرها خطيئة يا رب إنها لبضعة أيام فقط ثم تعود. وفي الوقت المحدد يعيد النقود مع مبلغ إضافي (حق القهوة).

التمائم والحجب

إن عالماً مسناً قد غضب من الطبيب المذكور آنفاً؛ لأنه لم يصدق أن الجن هي التي ترمي بعض أنصار الشريف بالحجارة. فلا عجب إذاً أن العامة ينسبون إلى الأرواح الشريرة الأمراض والحوادث غير العادية. والشفاء من ذلك يكون عند العامة عن طريق السحر، الذي لم ينكره الإسلام، وإنما أبطله ومنع تعاطيه. أما عند المثقفين فيذهب هؤلاء إلى بعض المشايخ الذين يتعاطون بعض الوصفات الطبية، بالإضافة إلى كتابة الحجب والتمائم التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم.

وإذا صادف أن خلع المكي قميصه، فإنك ترى خيطاً طويلاً ممتداً من عنقه، يحمل العديد من العزائم والحجب التي تقي كل أنواع الشرور. وهذه يقوم بها أناس متخصصون بهذا النوع من العمل. ويعلق الأطفال على

صدورهم حجباً أيضاً مغطاة بصفائح صغيرة من الفضة. وكذلك تعلق على صدور الأطفال بعض أنواع العملة القديمة، وبعض الأمهات يحاولن أن يحدثن ثلاث ندب على خدود أبنائهن (مشالي)، حماية من العين. وإذا صادف أن لبس المكي خاتماً معدنياً في أصبعه الصغير، فإن ذلك لحمايته من أحد الأمراض.

وإذا صادف أن المرء، على الرغم من كافة الاحتياطات السابقة، أصيب بالمرض، تلجأ المرأة في البيت إلى إحراق المستكة، أو أي نوع من أنواع البخور، بقصد تخويف قوى الظلام. يضاف إلى ذلك أن المرأة تنذر النذور في حالة شفاء المريض. وإذا لم ينفع كل ذلك فيرسل المريض إلى (سيد) متخصص، يقوم بعد التشخيص بكتابة بعض الحروف والكلمات على قطعة من الورق، ثم يأمر بإحراقها، ويوضع الرماد في الماء، ويطلب منه المريض شربه، على بركة الله بالشفاء. وهناك العديد من هذه الوصفات المجربات التي استعملها آباء السيد وأجداده، ووصلت إلى السيد عن طريق الوراثة، ويكون نفع هذه الوصفات أكثر نجاحاً عندما تعطى إلى المريض من يد السيد، بعد أن يقرأ عليها بعض الأدعية والأوراد، وإذا لم يشف المريض يكون الحل الأخير هو إرساله إلى الطبيب[1].

العين

إن الأطفال وحتى سن البلوغ لا بد من تبخيرهم باستمرار. وتحت وسادة الطفل المريض تضع الأم سبعة أقراص من الخبز، ينام عليها الطفل طوال الليل، وفي الصباح ترمي هذه الأقراص إلى الكلب، وتكون حيرة الأم كبيرة جداً إذا لم يشف طفلها بهذه الطريقة التي لا تؤدي إلى نتيجة في كافة الأحوال. عندئذ تعتقد المرأة بأن طفلها قد أصيب بالعين، الأمر الذي أفقد السحر مفعوله. والوصفة الطبية للعين الشريرة هي إحراق الفاسوخ والملح في مبخرة من النحاس، وعلى المريض أن يبخر يديه ووجهه وقدميه

---

(١) إن هذه الأمور الخرافية قد انقرضت تماماً من الوسط المكي، في الوقت الحالي، خاصة بعد انتشار الوعي الثقافي بين جمهور المكيين، فزالت التمائم والحجب، وانتهى عهد مروجي هذه الخرافات التي كانوا يستغلون بها عقول العامة، ممن كانوا يتعاطون السحر والشعوذة، وغير ذلك بقصد الحصول على المال.

ثلاثاً، ويجب أن يمر من فوق المبخرة سبع مرات، حتى يلفه دخان البخور. أما الباقي فعلى الله سبحانه وتعالى. إن المكيين يفقدون الكثير من متع الحياة من خلال الخوف من العين. والبضائع في المحلات التجارية تحمى من العين، عن طريق وضع حذاء قديم، على مدخل المتجر.

ولما كان المرء الذي يصيب بالعين غير معروف من قبل الناس، لهذا يلزم عند حمل أحد الأطفال، أو رؤية شيءٍ جميل، أو عند دخول اجتماع، يشعر أهله بالمرح والسعادة، أن تقول: (ما شاء الله، تبارك الله).

وفي حالات كثيرة ترتبط العين بالحسد. والحاسد كثيراً ما يلجأ إلى السحر، إذا لم تنفع العين بالحصول على غرضها البغيض. إن هذا الرجل يضع السحر تحت بيت شخص ما، ذلك البيت الذي كان يود شراءه لنفسه، اعتقاداً بأن السحر سيتسبب في إحراق البيت وتدميره. وقد يضع علامات سحرية على جدار البيت الذي يسكنه شخص آخر مع زوجته، بقصد زرع العداوة بين الزوجين. ولهذا فإن أهل مكة حينما يشترون الجواري الجميلات، يقومون بتغيير أسمائهن؛ لأن السحر في الغالب يوجه إلى الاسم، وعند تغير الاسم يبطل مفعول مثل هذا السحر. وإن الذي يقوم بشراء بيت جديد، عليه أولاً أن يتخير الوقت المناسب لشرائه، فبعض الأوقات أفضل من بعض، ثم على المشتري قبل الانتقال إلى البيت الجديد أن يقوم بتبخيره كاملاً، وأن يطلب إلى أحد القراء أن يختم القرآن داخل البيت، ومن ثم يقوم بالرحيل إليه والسكنى فيه.

إن تعدد المعتقدات الخرافية المسموحة والممنوعة في مكة، يعني وصف وتجميع كافة الخرافات الموجودة في مختلف ديار الإسلام. والمرأة في الغالب لها قصب السبق في مزج الخرافات الجديدة القادمة من الخارج، مع الخرافات التقليدية الموروثة، الأمر الذي يؤدي إلى المزيد من هذه المعتقدات الخرافية، ويجلب الانتباه إلى شرحها وتفصيلها.

الأرواح الشريرة

إن الأرواح الشريرة، كما هو معروف، توجه سهامها إلى المساس بالمتع المادية، وإلحاق الأذى بأصحابها. ففي مكة مثلاً تحاول هذه الأرواح

منع الحمل عند المرأة. وعلى هذا فالمرأة التي تريد الإنجاب، عليها أن تلبس حزاماً يعطيه إياها سيد خاص، بعد أن يقرأ عليه بعض التعاويذ، ويكتب عليه بعض العبارات الخاصة، ثم يطلب إليها أن تلتزم بمواعيد وأوقات معينة في الجماع، والمحافظة على لبس الحزام إلى أن يحصل الحمل المطلوب. وعندما يأتي المولود تبدأ سلسلة أخرى من الاعتقادات الخرافية الأخرى، فالمولود الجديد تصيبه الأمراض العديدة التي تصيب الأطفال في العادة، وخاصة إذا رأى هؤلاء النور في الفصل المعتدل الحرارة، فعندما يدخل موسم الحر يتعرض هؤلاء إلى الأمراض الخطيرة التي يصعب عليهم احتمالها، بينما الأطفال الذين يولدون وقت السنبلة[1] أقل تعرضاً للأمراض من أولئك الذين ولدوا في الفصل المعتدل. إن أطفال المهاجرين الجدد إلى مكة يتعرضون لأخطار جمة، فقد عرفت سيدة حبشية من الرقيق، التي توفي لها ما بين ٥ ـ ١٠ أطفال. وفي الغالب فإن حليب الأم لا يكفي لتغذية الطفل، الأمر الذي ينجم عنه الكثير من المصائب والأمراض، وبدون معرفة مثل هذه العلاقات بين الغذاء والمرض، تبدأ التساؤلات عن المسبب لكل هذه الشرور؟ إنها بالطبع (أم الصبيان) التي تعرف باسم (القرينة). إن القرينة المزعومة هي التي تتسبب في منع الحمل، وتهاجم الطفل بعد ولادته مباشرة، أو تمنع الحليب في ثدي أمه. وفي العادة يلجأ الناس إلى التعاويذ والسحر؛ لأنه في مثل هذه الحالات، لا ينفع الطب بهذا الخصوص. والوصفة التي ينصح فيها للرضيع الذي يتكرر بكاؤه الناجم عن الجوع في الغالب، هي وصفة مكوناتها الأساسية من بذور الخشخاش (حبة النوم) التي تعطى للطفل من أجل تهدئته.

الزار

وهناك نوع من الأرواح الشريرة التي تسبب المتاعب لكل النساء عموماً ألا وهي (الزار)، والصراع مع الزار يمثل صراع النساء والرجال من حياة المرأة المكية. والزار الحقيقي في لغتنا الدارجة، هو بعض أشكال الجنون،

---

(١) آخر شهر من أشهر السنة الشمسية، ويوافق أواخر أغسطس، ومعظم شهر سبتمبر.

أو بعض النوبات الهستيرية. وإن التي لديها الزار الآن، كان يطلق عليها في الجزيرة العربية في السابق اسم (مجنونة). والمجنون اليوم هو الذي لا علاقة لجنونه بالأرواح الشريرة. ومنذ نعومة أظافر المرأة، وهي تسمع الأحاديث الكثيرة عن الزار. منها أن المرء حين يصاب بالزار يفقد سيطرته على إرادته وجوارحه، ففي بعض الحالات يظهر الزار على شكل إغماءة، يستمر المرء فيها لبعض الوقت فاقداً وعيه، وملقى على الأرض لعدة ساعات. وفي بعض الأحيان يظهر على شكل معاناة من مرض معين، يزول فجأة تاركاً إجهاداً كبيراً ولوناً شاحباً وعيوناً جاحظة. وفي بعض الأحيان يكون المرء المصاب، وكأنه غاضب ومتوحش. إن الأطباء والعارفين من الرجال يستخدمون في علاج هذا المرض الأدوية وبعض التمائم، التي تطرد القوى الشيطانية. أما النساء فيصررن على استدعاء (شيخة الزار) التي تساعدهن في التغلب على هذا النوع من المخاطر.

إن الزار يحدث بين جميع الطوائف التي تستوطن مكة. ومع أنه في الأقطار التي قدم منها هؤلاء، قد يكون للزار اسم آخر، إلا أنهم جميعاً يعطونه هذا الاسم المحلي «الزار»، والكلمة مشتقة من الأثيوبية، ويظهر أن هذا الاعتقاد الخرافي مصدره الرقيق الحبشي. غير أن هناك فوارق محلية موجودة ويجب أخذها بعين الاعتبار فيما يخص الزار. إن هناك على سبيل المثال طرقاً مغربية وسودانية وحبشية وتركية تستعمل في بعض الأحيان لإخراج الزار، ولكن في أغلب الأحوال تكون شيخة الزار هي المسؤولة عن إخراجه، وإن طريقتها هي أنجح الطرق لذلك. إن الشيخة لا تطرح الأسئلة على المريضة نفسها بل على الزار الذي يتلبسها[١]. وفي بعض الأحيان تكون لغة الحديث هي اللغة الدارجة، التي يمكن للسامع أن يفهمها، وفي أغلب الأحوال يكون الحديث بين الزار وشيخته بلغته هو. وعلى العموم فالنتيجة واحدة في كلتا الحالتين. وبعد النداءات المتكررة التي

---

(١) إن الزار لا يعرف فيما إذا كان ذكراً أو أنثى. ولكن الرجال في العادة لا يصابون بالزار، وإنما هو من اختصاص النساء. (المؤلف).

تطلقها شيخة الزار، يعلن الزار نبأ خروجه ورحيله في يوم معين، وبطقوس معينة، كما يشترط لذلك بعض الشروط، فقد يطلب ثوباً جميلاً وجديداً أو حلية ذهبية أو فضية أو ما شابه ذلك. ورغبته هذه تتحقق بإلقاء الأشياء التي طلبها على جسم المريض، وإنه لمن الغريب حقاً أن يكون لمثل هذه الأرواح الشريرة أذواق وحاجات تشبه متطلبات البشر. وفي اليوم المحدد لخروج الزار، تأتي المدعوات من صديقات المريضة، ومعارفها ويشربن القهوة والشاي ويتناولن الطعام. وتحضر هذه المناسبة الشيخة وخادماتها، اللواتي يقمن في العادة بضرب الطبول والغناء، وتحضر الأدوات اللازمة لإجراء العملية.

إنه لمن السهل القول إن إخراج الزار الحقيقي، وحتى وجوده أمر نادر. إن الملابس الأنيقة والحفلات الجميلة هي كل ما تطلبه المرأة المكية، كما أن لديها بعض المؤهلات التي تمكنها من تمثيل دور الزار. إن هذا المرض الكوميدي قد أصبح وباء مستوطناً، وإنه لمن الضروري أن يبعد المرء زوجته عن أن تصاب بهذه العدوى، غير أن الأمور صعبة، فالمرأة تأتي إلى زوجها قائلة: (غداً سأذهب إلى حفلة أخرى)، وفي اليوم التالي تقول (أريد أن أذهب هذا المساء إلى بيت فلانة؛ لأن لديها الزار وستحضر الشيخة لطرده). وفي بعض الأحيان تخبر المرأة زوجها أنها يمكن أن يكون لديها الزار؛ لأنها حضرت العديد من المناسبات التي كان يحتفل بها بطرده، ويمكن أن يكون قد تلبسها هي الأخرى. ولهذا لا يجد الرجل أي فائدة من معارضة زوجته، وعليه دائماً الإذعان لمطالبها. وما الفائدة من المعارضة التي إن أبداها تظاهرت المرأة بالجنون، حتى تحصل على ما تريد، وأحياناً تلجأ إلى ذلك للحصول على الطلاق. وحتى لو قام الرجل بطلاق زوجته فإنه سيتزوج بأخرى لها الخصائص نفسها. إن الزار في الحقيقة أمر ضروري للمرأة يشبه في ضرورته لبعض النساء الذهب الذي تحتاجه لملابسها أو حاجتها الماسة إلى التدخين.

إن الطبيب المذكور آنفاً[١] قد اكتشف عقاراً ناجحاً للزار. لقد رأى الطبيب زوجته الأخيرة تتظاهر بأن لديها الزار، وقد بعثت بطلب الشيخة. وما أن حضرت حتى لقيها الطبيب على الدرج، وأمرها بالعودة فوراً وهددها إن اقتربت ثانية من البيت، أو حضرت لمقابلة زوجته. ثم صعد إلى الزوجة ومعه مجمرة كبيرة مملوءة بالجمر، وغرس فيها قطعة حديدية. وقال لها: إن الجن خلقوا من نار ولا يخرجهم من الجسم إلا النار، وإنه سيقوم برصد المكان، الذي فيه الجن من جسمها، ثم يكويه بالنار، حتى يخرج. وقد استطاع الطبيب بدهائه أن يقنعها بأن الزار في كل مكان من جسمها، وأن عليه أن يقوم بكيها في أماكن عديدة من جسمها، وما أن سمعت المرأة بهذا النوع من العلاج، حتى أعلنت أنها شفيت تماماً وبدون كي، وأن الزار لن يقترب منها إلى الأبد. إن مثل هذه الحادثة قليلة؛ لأن

---

(١) إن طبيبنا المذكور آنفاً جعبته مملوءة بالوسائل التي يستغل بها هذه المعتقدات الخرافية، بقصد جمع أكبر قدر ممكن من المال. فإذا ما صادف أن سرق شيء ما من أحدهم، ولم يعرف السارق فإن الرجل المسروق، يأتي إلى هذا الطبيب ليستخدم قوته الخارقة الموروثة (العزيمة) في اكتشاف الجاني. والعزيمة الموروثة هنا هي مفتاح مثبت على قطعة حديدية ملفوف بها مصحف. إن أطراف المفتاح من الجانبين ترفع بواسطة الطبيب وأحد أبنائه، وذلك بأطراف أصابعهم، حتى إن المصحف يتأرجح، ويتدلى في الهواء، وبعد ذلك يضع مجموعة من الأوراق يكتب في كل منها اسم أحد المشبوهين واحداً بعد الآخر داخل المصحف. ويقرأ الطبيب على كل ورقة تعبيرات معينة، وحالما يبدأ المفتاح بالتحرك، فإن الاسم الموجود في المصحف هو اسم المشبوه. وعلى المسروق أن يملي كافة الأسماء المشبوهة للطبيب، الأمر الذي يعطي للطبيب الفرصة لتكوين فرضيته على الجاني، والمفتاح بالتالي يدور طبقاً لذلك. وبعد بضعة أيام تخيب آمال هؤلاء، حينما يرفعون أمرهم للسلطة لتحصيل حقوقهم من الجاني، الأمر الذي يدعو إلى السخرية منهم، من قبل أفراد الحكومة. وحينئذ يقول الطبيب: إن هذا صحيح؛ لأن هذه التحريات يجب أن تبقى سرية ولا تعمل رسمياً. وفي أحد المرات استطاع الطبيب أن يكتشف أن ابن أخيه المؤذن قد اختلس شيئاً من المال من أمه، وقد اعترف بذلك وأعلن ندمه عليه. والطبيب كذلك يجيد ضرب المندل، ويأتي فيه بنتائج إيجابية، ويحرز نجاحاً كبيراً. (المؤلف).
إن هذه الأمور تظهر مع الأسف مدى الاستغلال لهؤلاء الناس الذين لا يتورعون عن التلاعب بكتاب الله، للحصول على المنافع المادية.

الغالبية العظمى من النساء يتعاطين الزار، ولا يستطيع أزواجهن أن يخطوا مثل هذه الخطوة الجريئة؛ لأن المرأة في مثل هذه الحالة تهرب وتحطم سمعة زوجها.

إن طريقة إخراج الزار هي أيضاً قصة كوميدية. ومن منطلق التوفيق بين المعتقدات المختلفة في طرد الأرواح الشريرة، فإن هناك العديد من التعاويذ والأدعية، مضاف إليها أشياء أخرى جانبية. إن المرأة التي يلبسها الزار، تلبس الملابس التي يشترطها الزار، أما الجواري اللواتي يصحبن شيخة الزار، فإنهن يضربن بالطبول نغمات سحرية خاصة، بينما تقوم سيدتهم (الشيخة) بضرب المريضة ضرباً خفيفاً، بناء على أوامر الزار المتلبس نفسه، يتبع ذلك أنواع من الممارسات الغريبة. فعلى سبيل المثال تذبح شاة ويؤخذ دمها ويلطخ به جبهة المرأة المريضة، وأجزاء أخرى من جسمها. إن كل طريقة من الطرق المتبعة في علاج الزار لها سمات أو خصائص معينة في طرد الأرواح الشريرة. إن المرأة المريضة يجب أن ترقص وتحرك جسمها ذهاباً وإياباً أو تسقط مغشية على الأرض. وبعد برهة من الزمن تعلن الشيخة أن الزار قد خرج منها. وقد لا يحدث ذلك إلا بعد ليلتين أو ثلاث من العلاج المستمر. وهذا يعني مزيداً من الوقت للمدعوات بالبقاء بجانب المريض، وقد تنتقل حمى الرقص الذي تقوم به المريضة إلى المدعوات اللواتي ينهضن لممارسته، الأمر الذي يجمع بين الحقيقة والمهازل. لقد أخبرتني إحدى النساء أن عدداً قليلاً من النساء هن اللواتي ينجون من عدوى الزار، بينما تتندر النسوة في الغالب: ماذا ألم يأتك الزار بعد؟

وليس من النادر أن كل ثروة الشخص المتوسط الحال، وكذلك ضروريات حياته تدفع للتخلص من الزار. وهناك اعتقاد خرافي آخر. ذلك هو أن بعض الدور (مسكونة)[١]، وكذلك الخوف من المخلوقات الخطرة غير المرئية، وما إلى ذلك من خرافات.

---

(١) في حالة الدار المسكونة تسمى الروح الشريرة التي تسكن الدار باسم (الساكن)، ويجب أن نذكر هنا أن المرء إذا لم يطو سجادة الصلاة وتركها، فإن الجن يقومون بالصلاة عليها. =

إن الرجال في الغالب يدركون خلو جعبة هؤلاء النساء من الوسائل الحقيقية لعلاج الأمراض، كما يدركون المساوئ التي تنجم عن مثل هذه الاعتقادات الخرافية المسيطرة، ولكنهم يتساهلون في قبولها.

التدليك

ويجب أن نشير هنا إلى عادة تطبيب أخرى هي (التكبيس) أو المساج. وأن هذا النوع من العلاج الذي انتشر مؤخراً في أوروبا، موجود منذ القدم في الجزيرة العربية، وله نتائج إيجابية ناجحة. وفي المساء تجد المختصّين بفن التدليك، الذين يرجع أغلبهم إلى أصول هندية، يجوبون الشوارع، ويدعون الناس في المقاهي، وينادون على الناس في ردهات بيوتهم، بقصد عملية التدليك (تكبيس). ولأول مرة يبدو التدليك غير مريح، ولكن تدريجياً يشعر المرء معه براحة تامة. وبجانب هؤلاء المدلكين المحترفين نجد أن كل امرأة ـ حرة أو عبدة ـ تجيد هذا الفن. وأن كثيراً من الرجال قد اعتادوا على هذا النوع من الرياضة، حتى إنهم لا يستطيعون النوم بدونه. وفي الكثير من البيوتات تقوم الخادمة بتدليك سيدتها، والسيدة تدلك زوجها. وتتبادل الخادمة مع البنات الصغار التدليك بالتناوب، وإذا كان أحد الرجال يحب إحدى النسوة، ويريد أن يحرك عواطفها، يمكن أن يطرح أمامها مثل هذه العبارة (يا الله أنا مريض، وأريد أن تكبسيني).

إن التدليك لا يستعمل فقط لإعطاء نوع من الاسترخاء للمرء في جو مكة، ولكنه يستخدم أيضاً في علاج آلام الأعضاء، أو على الأقل مسكناً مؤقّتاً للألم. ولقد شاهدت أن هذا النوع من المساج قد خفف، ولعدة ساعات، بعض الآلام الناجمة عن مرض عنيف في الأسنان.

وأخيراً فإن النساء يحاولن دائماً أن يزدن من قوة جاذبيتهن عن طريقين:

= وهناك اعتقاد خرافي أيضاً وهو أن النسوة يحصلن على عظمة صغيرة من عظام الضأن، والتي يشبه شكلها شكل القسم العلوي من الإبهام، وتقوم المرأة بتنظيفها، وتلفها في خرقة، وتحتفظ بها حتى ليلة السبت، ثم تقوم بتلاوة تعويذة مطلعها يا سبت يا سبوتا.. ثم تضعها تحت الوسادة ثم تذهب إلى النوم، على أمل الحصول على بعض الأحلام، التي تبشر بحصول المراد. (المؤلف).

الأول: إضفاء مسحة جمالية على مظهرهن الخارجي.

والثاني: زيادة متعة اللقاء الجنسي في أثناء الجماع.

والطريق الأول يكون من خلال سؤال المختصّات في هذه النواحي الجمالية. أما الثاني فيكون بالاستفادة من تجارب النساء الأخريات في هذا المجال، ولا سيما الدايات.

الإجهاض

إن الإجهاض يتم في المجتمع المكي عند بعض النساء اللواتي لا يردن استمرار الحياة الزوجية، ممن يرتبطن بعقود زواج صورية، أو عند بعض الجواري في البيوت، وذلك حينما يحدث حمل غير متوقع. إن الإجهاض أمر مقبول إذا كان دون الشهر الرابع، ولكنه مرفوض بعد ذلك التاريخ. إن الداية ليس لديها أي صعوبة في إخراج الجنين في أي وقت. والجواري في الغالب يحصلن على الإجهاض عن طريق إلقاء أنفسهن على الأرض عدة مرات. وهناك بعض العمليات التي تقوم بها الداية لإنزال الجنين، تتلخص في وضع الأدوية والعقاقير خلال الرحم، الأمر الذي يؤدي إلى الإجهاض. وتتحرج الدايات من إجراء هذه العملية في مساء الجمعة، حتى لا تتضاعف السيئات. وحينما يتم المقصود، وتتم عملية الإجهاض بنجاح، تذهب المرأة إلى المسجد الحرام، وتوزع بعض الخبز على المتسولين[١] بقصد التكفير عن مثل هذه الخطيئة.

وهناك طلب متزايد على الموانع التي تؤخر الحمل. وهذا الطلب أكثر من الطلب على العقاقير التي تساعد على الحمل. وبعض هذه العقاقير المانعة يستعملها الرجال ويبتاعونها من عند الطبيب. أما النساء فيتعاطين موانعَ تقوم بتحضيرها الدايات، وهؤلاء يقمن بتحضير مثل هذه الموانع بوصفات طبية سرية لا يطلع عليها أحد سوى خادمات هؤلاء النسوة. وهؤلاء لديهن ثقة بمفعول هذه الأدوية، لدرجة أنهن يتعهدهن بإعادة الثمن، إذا لم تؤد الغرض

---

(١) إن المتسولين يوجدون في الحرم، للحصول على الصدقات من الحجاج، أو يأخذون نصيبهم من الخبز، الذي يقوم بتوزيعه المحسنون، وحالما يدخل أحد الخدم ومعه الوعاء الذي يحمل به الخبز، حتى يجد المتسولين من كل جانب. (المؤلف).

المطلوب. وبعض هذه الموانع يستمر مفعوله سنة وسنتين وحتى ثلاث سنوات، وتسمى هذه الوصفة (تصبيرة). أما إعاقة الحمل بصورة قطعية فأمر غير ممكن، واللواتي يحاولن أن يمنعن الحمل نهائياً يعبرن عن مثل هذه الرغبة بقولهن أريد أن أكون (بغلة).

إن المواضيع السابقة قد استقيت معلوماتها من المكيين أنفسهم، الذين يعرفون هذه الأشياء بالتفصيل. ومثل هذه المعلومات لا يتحدث عنها الناس هنا بتحفظ، وإنما يتحدثون عنها بكل صراحة ووضوح، ولهذا نجد أن الأوروبيين لديهم مفهوم خاطئ، هو أنهم يعتقدون أن المسلمين دائماً يجعلون كل ما يتعلق بأمور المرأة سراً غامضاً لا يعرفه أحد. غير أن الأمور على العكس من ذلك تماماً، فأمور الجنس تبحث بين الأصدقاء بدون تحفظ. وقد يتحدث عنها الأب مع أبنائه اليافعين حديثاً يتحفظ الأوروبي أن يخبر به طبيبه الخاص. إن الأمر الذي يتحفظ (المكي) عن الخوض فيه، هو كل حديث يمكن أن يمس زوجته أو عرضه بسوء أو يعرضها للخطر، وفي هذا الموضوع نجد المكي أكثر تحفظاً من الأوروبي بهذا الخصوص.

إن الحدود واضحة بين ما هو مسموح به، وما هو ممنوع، غير أن هذه الحدود أوسع من الحدود المتعارف عليها عند الأوروبيين. إن الانطباع الخاطئ الذي يحمله الرحالة الأوروبيون مرده في الغالب إلى أن المسلمين يعرفون أن الأوروبيين لهم وجهات نظر وعادات وأخلاقيات مختلفة تماماً عنهم، خاصة فيما يتعلق بأمور الزواج، وعلى هذا فهم يتجنبون الحديث في هذه الأشياء معهم، كما هو الحال حينما يلجأ المرء إلى الصمت حينما يكون هناك فريقان من طائفتين مختلفتين، بينهما تباين في الرأي، فيحاول أن يتوقف عن الحديث.

فإذا كان زواج المكي في نظر الغربيين هو عبارة عن تسري، فإن زواج الأوروبيين من جوانب عدّة في نظر المكي هو التسري بعينه. إذا تحدث المكي بصراحة تامة، فإنه يعترف بأن قلبه ليس معلقاً بفتاة مكية، وإنما بإحدى الجواري الرقيقات. ولقد عبّر أحدهم لي عن ذلك صراحة، بينما كانت زوجته في الغرفة المجاورة. وحينما بدأت بالسعال بعصبية، لم يكن

أمامه إلا أن يغير الحديث بقوله، ليس هناك أثمن من المرأة الحرة بنت البلد. إن كل ذلك هو مجرد تصور واعتقاد، وهذا التصور ليس مجهولاً حتى من الزوجة ذاتها.

المرأة الحبشية في الوسط المكي

إن المحاسن الجسمية للمرأة الرقيق، هي محل اعتبار وتقدير وكلما كانت المرأة أكثر سواداً، كانت أكثر جاذبية جنسية، فقد عرفت رجلاً لا يمنعه شيء عن المرأة التي يريد، قد انهمرت دموعه على جارية زنجية باعها منذ مدة؛ لأنه وجد أنها الوحيدة التي تحقق رغباته في كل شيء، وهذا يبين لنا أن هذا المبدأ ينطبق حتى على الرجال ذوي المكانة العالية. إن الولد الزنجي ابن التاجر الهندي، كان ثمرة ميل من هذا التاجر إلى جاريته التي تعمل في المطبخ. وباختصار فإن جميع أهل مكة يثنون ثناء عطراً فيما يتعلق بالأمور الجنسية على بنات حام، غير أن ثقافة هؤلاء المتدنية، وبعض خصائص الرقيق غير المستحبة، تحدّ من هذا الميل بعد فترة من الزمن. والمرأة الزنجية التي تستثير الكوامن العاطفية لسيدها تستفيد من ذلك كثيراً طوال حياتها؛ لأن مجرد حمل هذه المرأة يجعلها حرة بعد موت زوجها. ولكن هذا التسري لا يشبه الزواج.

وعلى الرغم من أن المكي يركض وراء المرأة المكية، أو قد يغرم ويفتتن بجارية، إلا أن حماسه وإعجابه بالمرأة الحبشية[1] يفوق كل ذلك،

---

(١) تنتشر بين الرقيقات من النساء أسطورة (لعنة حام) التي هي أساس العبودية الحاضرة في مختلف صورها. والأسطورة تعتمد على قصة خرافية تشير إلى أن آدم وحواء كانا يمشيان عاريين في الجنة الأمر الذي أثار الضحك لدى بعض الفتيات الحبشيات مما نجم عنه الدعوة على هؤلاء بالاسترقاق وسواد البشرة. (المؤلف). وقد علق الشيخ حمد الجاسر على هذه الرواية فقال: «أما خرافة أسطورة لعنة (حام)، فقد ورد في «التوارة» تعليل آخر، تناقله بعض المؤرخين من المسلمين، فقال الهمداني في «الإكليل»: «وعن محمد بن إسحاق قال: يزعم أهل التوراة أن السواد لم يكن في ولد (حام) إلا عن دعوة دعاها نوح على ابنه (حام)، وذلك أن نوحاً نام فانكشفت عورته فرآها (حام) فلم يغطها، ورآها سام ويافث، فألقيا عليها ثوباً فواريا عورته، فلما هب نوح من نومته علم ما صنع حام وسام ويافث، فقال: ملعون كنعان بن (حام) عبيداً وعباداً يكونون لإخوتهم، ويبارك الله ربّي في سام».

وإذا جارى المكي عواطفه وشعوره، فإنه ميال بطبيعته إلى المرأة الحبشية. إن الحياة العامة تفرض على المرء أن يتزوج ولو مرة واحدة امرأة حرة، والناس من ذوي الدخل المحدود يمكنهم أن يدفعوا بضع دولارات مهراً للزوجة، غير أنهم لا يستطيعون شراء جارية بمائة أو مائتي دولارٍ. وعلى هذا فعلى المرء أن يحضر جارية صغيرة أو يشتري جارية من بيت نظيف. والنساء الكبيرات أو سيدات المنزل لا يمانعن في شراء الرجل العديد من الجواري الصغيرات في السن؛ لأنهن يسهلن لها الأعمال الكثيرة، وسيدة البيت ترسلهن إلى المدرسة ليتعلمن النسيج والغزل وما إلى ذلك وتعاملهن كبناتها. وحينما ينشأ هؤلاء النسوة سويّاً تبدأ الخلافات بينهن، ويتوجب على سيدة المنزل التخلص من بعضهن. إن أفضل وضع للفتاة الحبشية أن تكون محظية عند سيدها، ويتسرى بها. إن هؤلاء الفتيات يفضلن الخدمة في بيوت كبيرة، حيث يجدن العديد من الأصحاب بجانب الحياة الرغيدة. ولكن حظهن سيكون أحسن فيما لو عشن في بيت فيه سيدة متوسطة السن عندها بعض الخدم. وعند الرجل المتوسط الحال، الذي يمكنه الحصول بصعوبة على جارية حبشية، فإن المرأة يجب أن تقوم بدور الزوجة والخادمة سويّاً، وهذا أمر صعب في مثل هذا المناخ. وإذا كان الرجل لديه زوجة ذات غرور، فإن الزوجة تذيق الجارية الأمرين، وخاصة عند غياب الرجل. ولهذا فإن الزوج يستأجر بيتاً آخر يضع فيه سريته، دون أن تعلم بها الزوجة الشرعية. وفي البيوت الكبيرة تكون الزوجة متسامحة مع الخدم، حيث يتوزع هؤلاء العمل فيما بينهم، وبالتالي تتقلص قبضة المرأة على البيت. ومهما كانت المدة التي يتصل بها الرجل مع إحدى جواريه، فإنه من العار عليه أن يبيعها إذا تمكن منها ولو فترة قصيرة.

= ويضيف الهمداني قائلاً: «وهذا غاية التناقض أن يسيء (حام) ويلعن ولده، والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر، الآية: ٧]. ويحسن سام ويافث، فيشكر لسام وحده، وإنما لسواد الناس وبياضهم وسمرتهم علّة، قد ذكرناها في السيرة من هذا الكتاب» انتهى.

وقسم السيرة من كتاب «الإكليل» مفقود، لكن الهمداني علل ذلك في بعض كتبه بتأثير حرارة الشمس في السكان، وأن من كان بقرب خط الاستواء يشتد سواد بشرته، وكل من بعد يخف السواد من لونه. (المجلة العربية، عدد رجب، ١٤١٦ ص١٠١).

إن المرأة الرقيقة التي لا تتربى منذ الصغر في بيت زوجها لا يمكن أن تكون عذراء عند الشراء؛ لأن سيدها أو أحد أقاربه يفض بكارتها بمجرد وصولها بين سن الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة. إن الرجل لا يستطيع أن يعيش مع جارية ليست له، وهذا القانون مطبق بحذافيره، ولا يجوز مخالفته أو التعدي عليه. وعلى هذا فهناك فرق بين جواري الرجل وجواري المرأة. والمرأة في الغالب تشتري الجواري القبيحات الشكل. وهناك استثناء خاص بالجواري اللواتي يتربين في البيوت منذ الصغر، فقد تسمح سيدة المنزل لابنها أو ابن أخيها أو أخيها بأن يعاشر إحدى هؤلاء الجواري على أن يعيدها في الليلة التالية.

إن الأمور الشرعية الواجب اتباعها في التسري لا تطبق في كثير من الأحيان، فالمرء الذي يشتري جارية بقصد التسري عليه أن ينتظر مدة معينة قبل جماعها، ليستبين فيما إذا كانت حاملاً أم لا، لكن ذلك غير مطبق، ونجد من الصعوبة بمكان أن ينتظر المكي مدة يومين أو ثلاثة. وإذا صادف أن اختلف الرجل مع سريته وكانت حاملاً فعليه أن يعتقها، وبالتالي تصبح حرة وتستطيع الزواج بعد ذلك، ومن ينكر أن الحمل ليس منه يكون هدفه الاحتفاظ بحق بيع الجارية مرة أخرى. والغريب أن هؤلاء الجواري لا يحبذن مثل هذه الحرية، ويحاولن التريث في ذلك؛ لأن الزواج قد يعقبه طلاق ومشكلات؛ لذا تبقى في بيت سيدها بوصفها جارية، إلى أن تجد سيداً آخر تستطيع أن تعيش معه، ويقومان بتربية الأطفال سويّاً. وهكذا فإن مثل هؤلاء الجواري يتعاطين موانع الحمل المؤقتة وليست الموانع الدائمة.

وبالنسبة للمرأة الزنجية، فإن الوضع المثالي لها هو أن تعمل عند أهل بيت ذوي سمعة عالية طوال حياتها، حتى تنال العطف حينما تكبر في السن، وقد يتسرى بها صاحب المنزل أحياناً، وفي حالة حملها تستعيد حريتها، ويمكنها أن تتزوج من أحد الأرقّاء المحررين، وبالتالي تتخلص من حياة العبودية.

أما هدف المرأة الحبشية فيكون المحافظة على استمرار العلاقة بينها وبين سيدها، حتى إنها تصبح رفيقة عمره. هذا إذا كانت تربيتها ونشأتها السابقة لم

تؤثر في مواهبها وأخلاقياتها. إن رغباتها ليست كرغبات الزوجة، التي تتعاكس دائماً ورغبات الرجل. كما أنه ليس لديها أفكار استغلالية كالزوجة. إن رغبتها الوحيدة هي أن تجلب الرجل إليها، وتهيئ له أقصى درجات السعادة. إن المرأة الحبشية التي نشأت نشأة قويمة هي امرأة متواضعة، غير متعجرفة، وربة بيت صالحة، وتضع جميع طاقاتها في خدمة سيدها. إن التقدير الذي تناله هؤلاء النسوة من الرجل المكي هو تقدير عال، ولا أدل على ذلك من أن العديد من الحبشيات أنجبن أولاداً يتراوح عددهم بين ٥ ـ ١٢ طفلاً، وأم الولد في العادة هي حرة على الرغم من أنها تستمر كرقيق، إلا أن ذلك الرق اسمي فقط. وإذا نالت المرأة حريتها فإنها تتزوج بشرط أن تعامل مع المرأة المكية الحرة على قدم المساواة. وإذا كانت المرأة المكية تجد عند أقاربها الحماية، فإن المرأة الحبشية (أم الولد) تجد الملاذ والملجأ عند أبنائها.

ومن وجهة نظرية فهؤلاء الأطفال هم على قدم المساواة مع إخوانهم أبناء المرأة المكية الحرة. وفي الحقيقة والواقع أنهم مفضلون أيضاً على أبناء المرأة الحرة. وعلى العموم يمكن القول: إنّ بيوت الأثرياء تحوي كلا النوعين من الأبناء، وهم لا يختلفون في شيء من حيث المظهر أو السلوك.

تسمية المولود

إن القارئ الآن قد كوّن صورة تقريبية للفوارق المتنوعة الموجودة داخل البيت المكي. وقد يكون من الصعب الخوض في تفاصيل أكثر من ذلك، فقد أتينا على الجوانب المهمة في حياة الأسرة، كما تحدثنا عن تنوع واختلاف السكان. إنه من الضروري أن نعرف الآن أنه بقي بين أطراف المجتمع المكي وفئاته المختلفة أناس لم يندمجوا كلية مع هذا المجتمع، وهؤلاء يشكلون انعطافاً واستثناء لا تنطبق معه تفصيلات الحياة التي سردناها آنفاً.

إن المناسبة الأولى المهمة للمولود الجديد هي «التسمية»، وتأتي في اليوم السابع بعد الولادة. إن العادة تقضي بحلق شعر المولود، ثم ذبح شاة أو اثنتين، وهو ما يعرف بالعقيقة. ويمكن أن تكون العقيقة في وقت لاحق. إن المكيين في الغالب يقومون بذبح شاة بمناسبة التسمية دون أن يقرنوا معها العقيقة.

وعندما يقترب اليوم السابع يقوم والد الطفل بإرسال دعوات لأصدقائه، بضرورة القدوم لشرب القهوة، بعد ظهيرة اليوم السابع. وفي غالب الأحيان لا يعرف المدعوون سبب الدعوة. ولذلك فهم في حل من الالتزامات التي تترتب على بعض هذه المناسبات. لكن في بعض الأحيان يذكر للمدعوين أن الدعوة بمناسبة مرور أسبوع (السابع) على المولود. وفي هذه الحالة يسأل المدعو هل هي مناسبة التسمية؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب، لزم المدعو أن يذهب في الليلة التي تسبق اليوم السابع، من أجل المساعدة في ترتيبات الحفل. وفي الغالب تقرع الطبول (الزير) بعد العصر أمام بيت المضيف، وذلك لإعلان مناسبة التسمية، حيث يتجمع الأصدقاء بعد الغروب، وأول ما يقدم للمدعوين القهوة، حيث تدور في أثناء تقديمها أحاديث المجاملة بالتهنئة بالمناسبة السعيدة. بعدها يصعد أحد الشباب من أفراد العائلة إلى مكان النساء لإحضار الطفل الذي يكون ملفوفاً بقطعة من القماش (كوفلة) تتلألأ بالذهب والجواهر، والطفل محمول في سرير صغير جميل، وتحته فرشة صغيرة (طراحة) مغطاة بالستان المطرز على شكل نجوم فضية. وعندما تقوم النسوة بتسليم الوليد للشاب يقمن بالغظرفة التي تصاحب المناسبات السعيدة في العادة، في كل البلاد العربية بلا استثناء، ويقوم الشاب بتسليم الوليد إلى أحد العلماء[1] أو أحد الأقارب المدعوين إلى الاحتفال، حيث يقوم باقتراح الاسم المناسب له، ويذكر اسم الله ثم يؤذن في أذن الوليد اليمنى، بصوت منخفض، الأذان المعتاد للصلاة، وفي أذنه اليسرى الإقامة، وبعدها يقوم العالم بإلقاء كلمة قصيرة يوضح فيها أهمية التسمية التي تعطى للطفل، والتي يتميز بها الناس بعضهم عن بعض، وفي النهاية يصرح بالاسم الذي اختاره للطفل. وفي العادة يقوم الوالدان باختيار الاسم، أما حينما يترك الأمر إلى الشيخ، فإن هذا الأخير يقوم بعمل استخارة قبل التسمية، أو يختار له اسماً شهيراً، وغالباً ما يكون تاريخياً،

---

(١) يفتخر مفتي الشافعية بمكة أحمد زيني دحلان في تاريخه عن مكة أنه عهد إليه بتسمية أحد أبناء شريف مكة. (المؤلف).

ليكون قدوة للطفل في المستقبل. وفي العادة يقول الرجل الذي يعهد إليه بالتسمية: «سميتك كما سماك الله فلاناً»[١]. ثم يقوم بوضع مبلغ من المال بجانب الطفل يتراوح في العادة بين نصف دولار وخمسة دولارات. ويؤكد المكيون أنه في السابق كانت تهدى للأطفال في مثل هذه المناسبة مبالغ كبيرة من المال، حتى إنه كانت تقدم لهم بعض العقارات هديةً بمناسبة التسمية. وينهض المدعوون بعد ذلك حيث يقدم كل منهم هديته للطفل[٢]. ويقوم الخدم بعد ذلك بوضع طبق من الحلوى يتراوح وزنه بين ٠,٥ ـ ١ رطل أمام كل واحد من الحضور، حيث يقوم الأخير بلفه وأخذه معه إلى منزله. والحلوى التي تقدم في التسمية هي الأبنوتة (جمع أبانت)، وهي في العادة أسطوانية الشكل بطول يقارب العشرين سنتيمتر. ويصطف أفراد العائلة عند خروج المدعوين أمام الباب الخارجي لوداع المهنئين. ويكون اصطفافهم في الغالب حسب العمر ودرجة القرابة. إن الضيف حينما يقدم التهاني يقول: «مبروك إن شاء الله»، ويكون الجواب في العادة (ربنا يبارك فيكم، شكر الله مسعاكم) وفي العائلات الكبيرة يتم إحضار المغنيات من النساء، اللواتي يقمن بأغاني الزواج، على مسامع النساء اللواتي يحتفلن بهذه المناسبة.

حفلة التسمية

وفي اليوم التالي يبدأ تحضير الطعام قبل الظهيرة. وفي مثل هذه المناسبات يستأجر طاه (طباخ) يقوم بإحضار القدور وإشعال

---

(١) إن الأسماء التي يعطيها المكيون لأبنائهم هي الأسماء نفسها المتداولة والمعروفة في كل بقاع العالم الإسلامي. ومن الجدير بالذكر أن هناك أسماء تطلق في الغالب على الرقيق مثل: أمان، فرج، يسر، جوهر، ألماس، مرجان، فيروز، عبدالمولى، عبدالخير، خيرالله، سعدالله، مرزوق، وبخيت، وغيرها. أما أسماء الرقيق من النساء فهي في العادة: فضة، ترنجة، عطر، غزلان، بخيتة، بركة، مبروكة، سعيدة، سعدة، وسيلة، سليمة، دام الهنا، جاد الكريم، خدم الله، باهر الزين، خيزران إلخ... (المؤلف).

(٢) هناك عادة ليست شائعة في الوسط المكي، ولكنها تحدث أحياناً، حيث يمرر المولود أمام المدعوين بالتناوب ويقوم كل واحد منهم بقص شعرة أو اثنتين من شعر المولود، بمقص يكون بجوار الطفل على المهد الذي يحمل عليه. (المؤلف).

النيران بالقرب من المنزل. والمكونات الأساسية للطعام هي اللحم والأرز بالاضافة إلى الكثير من البهارات. و(الزربيان) طبق يعمل في هذه الحفلات، ويتكون من الأرز واللحم يطبخان معاً في قدر كبير، ويضاف إليه السمن واللبن وأنواع البهارات المختلفة، أهمها الزعفران. إن الدعوة إلى القهوة في مكة تشبه دعوة الألمان لحضور حفلة الشاي. وتقدم أطباق الطعام الكبيرة التي يخصص كل واحد منها لخمسة أو ستة أشخاص. وقبل تقديم الطعام توضع السفرة المكونة من القماش أمام الضيوف، حيث يوضع عليها الطعام. ثم يقول المباشرون للحضور تفضلوا. ويقوم كل ٤ ـ ٥ أشخاص إلى طبق، ويبدؤون الأكل بعد التسمية. وما بين الساعة الواحدة، وحتى الثالثة يستمر الضيوف بالقدوم؛ لأن الوقت ليس محدداً بالضبط. وفي العادة تمتلئ جميع جنبات المنزل بالضيوف. وبعد تناول الطعام يغادر معظم الحاضرين، ويبقى عدد قليل منهم لتناول الشاي.

إن الوقت الذي تستغرقه المرأة بعد الوضع حتى تطهر يكون أربعين يوماً، وبعد الأربعين تقام حفلة صغيرة (عزيمة)، حيث تدعو المرأة صديقاتها لتناول الطعام الذي يستمر إلى قبل المغرب، ثم تقوم النسوة بالذهاب مع الطفل إلى الحرم، ويكون الطفل في العادة ملفوفاً بقطعة حريرية لامعة مطرزة بالذهب والفضة.

وعند الوصول إلى الحرم، يسلم الطفل إلى أحد الأغوات، الذي يقوم برفع الطفل إلى عتبة باب الكعبة ويقول: (يا الله إنني أقف على بابك وأصلي إليك). وفي هذا إشارة إلى أن الطفل الوليد عند وضعه على الكعبة، ينال حمى الله ووقايته وحفظه. ويبقى الطفل قرابة عشر دقائق على الباب، ثم يسلمه الخادم إلى أمه، بعد أن يتلقى هدية بهذه المناسبة. وبعد الانتهاء من صلاة المغرب، تعود النسوة إلى منزل الأم، ويبقين إلى ما بعد صلاة العشاء.

الـخـتـان

إن الحضارمة حديثي العهد بالعيش في مكة، هم الذين يقومون بعملية الختان[1] (الطهور) للولد حينما يبلغ عمر أربعين يوماً. وفي داخل الجزيرة العربية هناك بعض القبائل تقوم بعملية الختان حينما يصبح الولد يافعاً، وبطريقة مؤلمة وخطرة جداً. وتجلس خطيبة الشاب تراقب شجاعة زوجها المنتظر، الذي إن أبدى تألماً وعدم صبر طلبت الفتاة فسخ الخطوبة. إن المكي يقوم بختان أبنائه فيما بين الثالثة والسابعة، والفقراء المكيون ينتظرون الوقت الذي يقوم فيه أحد الجيران الأثرياء بختان أولاده، حيث يشاركونه المناسبة ذاتها، ويدفعون جزءًا من التكاليف، أما بالنسبة لختان البنات فتكون مناسبتها خاصة، حيث تقوم المرأة بدعوة صديقاتها فقط لحضور تلك الحفلة. أما الرجال فيستقبلون فقط أقرباءهم أو أصدقاءهم الخلّص. وقبل الختان بيوم يؤخذ الطفل في العادة إلى جولة حول المدينة، والضيوف في العادة يدعون إلى حفل الغداء أولاً. وبعد العصر تضرب الطبول عند باب المنزل إيذاناً ببداية الاحتفال، ثم يؤتى ببعض أتباع الطريقة الرفاعية، الذين يقومون بإنشاد الأناشيد الدينية على أنغام الطبلة والطار في طريقهم إلى الاحتفال. ويتبع هذا الموكب الإنشادي الطفل مثقلاً بالملابس المزينة بالذهب والفضة والجوهر، لدرجة أنه من الصعب رؤية وجهه. ويركب الطفل في العادة على حصان تعلوه الزينات. ولما كان الطفل لا يحسن الركوب فإن عدداً من الأشخاص يحيطون به لرفعه وتثبيته على ظهر الحصان، وتوضع تحت أنف الطفل بين الفينة والأخرى قطعة من القماش مغموسة بالعطر، وفي الموكب نجد إحدى جواري الأب الموكلة بتربية الطفل في الغالب، تحمل على رأسها مجمرة كبيرة (منقل) يحرق فيها بين الفينة والأخرى (الفاسوخ) والملح الذي يعطي رائحة غير مرغوبة، كما أن

---

(١) لقد ذكر العديد من الرحالة الأوروبيين عادة الختان هذه بالطريقة البدائية في غرب وجنوب الجزيرة العربية. ولقد علمت أيضاً أن مثل هذه الطريقة متبعة عند قبائل عسير وبعض القبائل في شرق وجنوب الطائف. ولقد ذكر المهندس صادق بك في كتابه «كوكب الحج» بعض القبائل التي تستعمل هذا النوع من الطهور. وعلى الرغم من أن الكتاب فيه بعض السطحية إلا أنه يحوي الكثير من المعلومات القيمة عن جغرافية وسكان الجزيرة العربية. (المؤلف).

الملح يحدث طقطقة مستمرة. والهدف من ذلك طرد الأرواح الشريرة وإبعاد عيون الحاسدين التي تكثر في مثل تلك المناسبة. وخلف الصبي يأتي مجموعة من أصحابه وأصدقائه بملابس جميلة، ولكنها أقل بهاء من ملابس المحتفل به، ويركب هؤلاء الخيول أيضاً. ويسير هذا الموكب عبر شوارع مكة الرئيسة حتى غروب الشمس، حيث يعود الطفل إلى البيت الذي بدأ منه الموكب. وعلى أنغام الموسيقى المكونة من قرع الطبول يعطى الغلام إلى النساء، ثم ينصرف الرجال من هذا الحفل.

وبعد العشاء وحتى قرابة منتصف الليل تبدأ حفلة النساء، حيث تقوم الجواري بالغناء والرقص. وتكون الأغاني في العادة من ذلك النوع الذي يغنى في حفلات الزواج. وفي اليوم التالي، ومع شروق الشمس، يحضر الحلاق (المزين) مصطحباً معه عدة الختان، حيث يقوم بإجراء العملية بسرعة، في حين يكون الطفل ملقى على ظهره، ويحاول بعض الحضور صرف انتباهه عما يدور بإعطائه الحلوى، ويوقف الدم في الغالب بوضع رماد القطن المحروق، ثم يوضع على الجرح الرباط (المرتك). وفي خلال أسبوع يكون الطفل قد شفي نهائياً، وبعد إجراء العملية يتناول الحضور طعام الفطور المكون في ذلك الصباح (الزلابية)[1]، وتنتهي عملية الختان بعد ذلك.

إن النقطة الأولى في التربية الجيدة في الإسلام هي تعليم الطفل قراءة القرآن وتجويده. وفي الفصل القادم سنعالج أهمية هذا الموضوع في الحياة العلمية والدينية.

القراءة في الكتّاب

ويجب أن نذكر هنا أن الأطفال يمضون طوال وقتهم في «الكتّاب» يتعلمون قراءة القرآن وتجويده من قبل المعلم (فقي أو فقيه). والأطفال الذين لا يتمكن آباؤهم من إرسالهم إلى المدرسة يتعلمون عن طريق السماع بعض سور القرآن الكريم القصيرة، والتي يحتاجونها لأداء

---

(١) يذكر الأستاذ محمد عمر رفيع في كتابه مكة في القرن الرابع عشر ص٩٤ أن وجبة الفطور هذه تكون من (العريكة).

الصلوات. وفي الكتاب يقوم الأطفال، تحت إشراف مدرسهم، بكتابة الواجب اليومي بالحبر على لوح خشبي يغسل بعد الاستعمال؛ لتعاد الكتابة عليه ثانية. إن على جميع الطلبة أن يحفظوا بعض السور القصيرة من القرآن غيباً عن ظهر قلب. والطالب المجتهد قد يحفظ القرآن كاملاً غيباً، وفي هذه الحالة يسمى (حافظاً).

إن الآباء الذين لا يودون لأولادهم الاختلاط بغيرهم، يقومون باستئجار فقيه يعلم أبناءهم في بيوتهم، أو قد تتفق بعض العائلات سويّاً على أن يعطي الفقيه درسه لهم مجتمعين. إن البنات يذهبن مع الأولاد إلى الكتاب حتى سن الثامنة، حيث يجلسن في البيت أو يذهبن إلى مدرسة (فقيهة) تقوم بتدريسهن. كما تقوم أيضاً بتدريس غيرهن من الجواري، أو من اليافعات اللواتي لديهن الرغبة في تعلم القرآن الكريم.

وعندما يرسل الأب طفله إلى المدرسة يقدم إلى الفقيه هدية متواضعة (استفتاحة) تتراوح بين ربع دولار ودولارين، ثم يتقاضى المدرس بعد ذلك، وفي كل خميس، مبلغاً آخر يتراوح بين نصف قرش وقرش ونصف. وفي كافة الأعياد والمناسبات يقدم الأب شيئاً من المال إلى المدرس يتناسب وحالته المادية. ويجلس الطلاب في حلقة دائرية حول المدرس، وكل منهم يدندن في قراءة الواجب الذي أسند إليه. والشيخ من خلال استماعه لكافة الأصوات يستطيع أن يصحح للمخطئ، سواء أكان الخطأ في اللفظ أم في التجويد، ويراقب الطلبة باهتمام عصا الشيخ الطويلة التي تصل إلى كل فرد تقريباً.

إن الطفل يجابه دائماً في بداية كل حديث معه بالسؤال التقليدي: إلى أي سورة وصلت؟ إن هذا السؤال قد طرحه السلطان المملوكي (١٥١٢م) على الشريف (أبو نمي)، حينما كان عمره ثماني سنوات، وذلك حين أرسله أبوه بديلًا عنه لمقابلة السلطان. لقد كان جواب الطفل ذكياً حينما قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح، الآية: ١]. وقد أعجب السلطان من ذكاء الطفل، الذي توقع له انتصاراً ساحقاً على خصومه من الأتراك.

وحينما ينهي الطفل نصف القرآن أو قرابة الثلثين (حتى السورة ٣٦ من القرآن) يخبر الفقيه الأب عما حققه طفله. وعندئذ يحدد الأب موعد الدعوة التي ستضم المدرس وكافة الطلاب. وفي اليوم الموعود يأتي الطلبة بملابسهم الجميلة، ويضع كل منهم لوح الدراسة على رأسه. ويكون مع هؤلاء الابن المحتفى به، وهو يحمل أيضاً (لوح الدراسة) ملفوفاً بقطعة من القماش موشاة بالذهب. ويمشي الطلبة على هيئة صفوف طويلة يتوسطهم المحتفى به، ويجوبون شوارع المدينة سوية، ينشدون الأناشيد الدينية، وبعض القصائد في مدح الرسول ﷺ، ويقرؤون بعض آيات القرآن ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾. وحينما يعود هؤلاء إلى بيت زميلهم، يجدون أقرباء الطفل، كما يجدون شيخهم أيضاً، حيث يتناول الجميع طعام الوليمة. ويتقاضى الشيخ مبلغاً من المال يتراوح بين ١ ـ ٣ دولارات. إن هذه الحفلة تسمى (إصرافة)، ويتبعها بعد مدة حفلة أخرى تسمى (إقلابة) تكون حينما ينهي الطفل قراءة القرآن، حيث تكون الوجبة أدسم، وكذلك يحتفى بالشيخ بصورة أكبر. فالموسرون ينقدون الفقيه هدية قد تعدل ٣٠ دولاراً، كما يخلعون عليه بدلة أو جبّة. وغالباً ما تكون هناك تلاوة للقرآن الكريم في المنزل بعد جولة الطلبة وقبل وجبة الطعام.

الـــولائـــم

إن مما تحث عليه الشريعة هو إطعام الطعام، من خلال دعوات الأصدقاء والجيران والفقراء ونحوهم، وهذا ما يعرف في العادة باسم الوليمة، فيشترط للزواج الوليمة. وفي مكة لا يحيد الناس في مناسباتهم عن الخطوط العامة للشريعة. فكثير من المناسبات العائلية التي يحتفى بها عادة يقام بها بوصفها نوعاً من الوليمة المحببة في الشريعة. غير أن هناك بعض الاحتفالات التي تخالف نصوص الشريعة، وتتوافق مع التقاليد العرفية، الموجودة لدى مختلف طوائف مكة، والتي لم يستطع الإسلام أن يحررها من الخرافات الموجودة فيها، أو أن يمنعها نهائياً.

والوليمة إذا كانت خالية من المخالفات الشرعية هي في حد ذاتها قربى وواجب ديني. ويحرص الناس على عمل هذا النوع من الولائم في مناسباتهم الاجتماعية؛ ولهذا فهي أخلاق إسلامية حميدة. وفي مثل هذه

المناسبات يقرأ القرآن كما يتلى المولد وبعض أنواع الذكر. وفي العادة تكمل قراءة المصحف بهذه المناسبة، حيث يتولى المقرئون والحضور قراءة أجزاء معينة تنتهي بختم المصحف، وغالباً ما يتم ذلك في المآتم. وفي بعض الدعوات لا تكمل قراءة المصحف، وإنما يكتفى بقراءة بعض السور، ويكون الاهتمام منصباً على قراءة المولد، حتى ليقال: (إن القوم لديهم اليوم مولد)، بمعنى أن هناك عزيمة بإحدى المناسبات. وقد لا يعرف بعض المدعوين مناسبة الدعوة التي ربما تكون بمناسبة زواج، أو ختان، أو عودة من سفر، وإنما يكون الاسم المشهور للدعوة (أنها مولد). إن بعض الأصدقاء قد يجتمعون أسبوعياً لقراءة القرآن، وينهون احتفالهم بفقرات من المولد. وباختصار فالمولد اسم جامع لكثير من النشاطات، وهو في العادة تبجيل وتعظيم لسيرة الرسول الكريم ﷺ.

إن قصة المولد مطبوعة، ولا تحتوي على سيرة حياة الرسول، وإنما تعتمد على ذكر بعض الحوادث المهمّة. وحتى بعض الحوادث الأسطورية غير الصحيحة التي تسرد عن حياة الرسول الكريم، بصورة تتناوب بين الشعر والنثر، ويتخللها الكثير من الصلوات على الرسول الكريم مثل «اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه». وتبدأ قراءة المولد بقراءة الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب، الآية: ٥٦]. وتقرأ القصة في العادة من قبل الفقيه. وفي المدائح يشاركه الحاضرون. وفي وسط الغرفة التي يقرأ فيها المولد، توجد مبخرة تطلق روائح البخور الشذية باستمرار، وطوال قراءة المولد. ومن المقطوعات الشعرية التي تردد من قبل جمهور الحاضرين، وهم وقوف:

«صلى الله على محمد، ﷺ».

وكذلك نجد بعض الألحان الأخرى مثل:

«مرحباً يا نور عيني مرحبا
مرحباً جد الحسين مرحبا
مرحباً يا مرحبا يا مرحبا».

كما نجد بعض الألحان التي تمجد الخالق الكريم بتلاوة أسمائه الحسنى، يتخللها بعض الصلاة على الرسول ﷺ. ويتوجب لتلاوة أسماء الله الحسنى وجود مسبحة مؤلفة من مائة حبة، وهذا النوع من المسابح يحمله المكيون بأيديهم باستمرار. إن هذه (السبح) تقوم عند أهل مكة مقام العصا عند غيرهم من الشعوب، ويستعملها الشباب للتسلي بها بدل أن تستخدم في التسبيح في أوقات الفراغ.

ومن الأمور التي يجب ذكرها هنا ما يتلى عادة في المولد من التوحيد «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله» مائة مرة. وفي أثناء القراءة يقوم المباشرون بوضع الطعام أمام المدعوين، ثم تُعطى إشارة إلى قارئ المولد الذي ينهي المولد بالدعاء، ثم يتناول المدعوون الطعام.

أما النساء فيحتفلن بمناسبة (الإقلابة) في المساء، حيث تغني المغنيات لهؤلاء الأغاني العادية المتداولة في الأعراس.

اختيار المهنة

وحينما ينهي الطفل تعليمه، يكون الأب قد خطط للمهنة التي سيقوم بها الولد مستقبلاً. وإن اختيار مهنة أخرى غير المهنة التي اختارها أبوه يكون مهانة للأب وتحقيراً له. وفي مثل هذه الحالة يجبر الأب ابنه على قبول المهنة التي يرتئيها أبوه، وهي في الغالب حرفة الوالد نفسها[١].

إن التجار الأثرياء أو علية القوم الذين لهم العديد من الأبناء، يسرون كثيراً إذا أصبح أحد أبنائهم رجل علم. والتاجر يدرب أحد أبنائه أو أكثر ليخلفه في المهنة. لقد زرت مرة أحد التجار من معارفي فقلت له: إن صوت ابنك (وعمره ١٣ سنة) قد أصبح خشناً، فوافقني على ذلك، وعلل هذا بأنه قد زوجه منذ بضعة أيام، ولما سألته عن السبب، قال لقد رتبت هذا الزواج؛ لأنني أريد الطفل أن يبقى معي في المحل، وأخاف أنه في حالة عدم زواجه أن يبني علاقات خارجية تبعده عني؛ لذا اخترت له الزوجة التي أعرفها.

---

(١) هناك مثل مكي شهير «صنعة أبوك لا يغلبوك».

إن الكثير من الناس هنا يفضلون أن يرثهم أبناؤهم في مهنتهم، ويحاول الأب أن يدرب ابنه على سر المهنة منذ نعومة أظافره، وقد يرسله ليساعد بعض الأصدقاء للأسرة؛ كي يتعلم ويتعود على هذه المهنة منذ الصغر. وإذا أبدى الطفل ميلاً للتعلم فإن الأب لا يمنعه من ذلك، ولو أنه يفضل في داخله أن يمارس الابن حرفة أبيه مستقبلاً.

إن التعليم في العادة مكلف. غير أنه يجلب للمتعلم المكانة العالية والاحترام، غير أنه لا يجلب دخلًا عالياً. وعلى الأسرة أن تساعد الابن مالياً عدة سنوات، وربما طوال حياته. إن التعليم في الغالب يجعل المتعلم عاجزاً عن ممارسة أي مهنة يمكن أن يكتسب منها دخلاً كبيراً؛ لأنه لم يتعود على الخشونة التي تستلزمها هذه المهنة. وقد يكون المتعلم كثير الشكوك حول شرعية العمل الذي يقوم به، وأن هذا العمل قد يكون مدخلاً للحرام فيتجنبه. ولهذا نجد هؤلاء ليست لديهم الدخول العالية والأموال الكثيرة التي يحلم بها آباؤهم.

تطلع الشباب نحو الطوافة

إن من يمتهن حرفة التعليم هم قلة. وإن أغلب الآباء يصارعون تطلعات أبنائهم ليصبحوا مطوفين، فمنذ نعومة أظفار الطفل، وهو يرى هؤلاء المطوفين يتمتعون بمنزلة عالية ونفوذ كبير في صفوف المجتمع المكي. وفي كل مكان تراهم يأمرون فيطاعون، وحتى مساعديهم يتمتعون بهذه الشهرة في أشهر الحج. حيث ترى شموخ هؤلاء ومظهرهم المتعالي على مختلف فئات الحجاج الذين يمشون خلفهم، ويستمعون إلى أوامرهم، ويتقيدون بهم في كل حركة يقومون بها.

إن مظهر الخيلاء هذا يستهوي الكثير من اليافعين؛ لأنه يرضي غرورهم من ناحية، كما أن جيوب المطوفين ومساعديهم المملوءة بالنقود، تثير شهية هؤلاء من ناحية أخرى. إن المرء يسمع دائماً بعض هؤلاء الشباب يقول: لو أنني أستطيع جمع نصف قرش من كل حاج في سهل عرفات، لما وجد فقير، ولأصبح الكل أغنياء. ولهذا يفكر هؤلاء الشباب كثيراً في امتهان حرفة الطوافة التي يستطيع المرء من خلالها أن يكسب من المال، خلال أسابيع،

ما لا يستطيع جمعه خلال السنة كلها. وكل ما يحتاجه هو أن يعرف بعض الأدعية وبعض الأمور الخاصة بالحج، وهو أمر يعرفه أهل مكة منذ نعومة أظفارهم.

إن الأب يلقى عنتاً كبيراً في إقناع ابنه بالعدول عن مثل هذه التفكيرات الخيالية. وتجد الأب يقول لابنه: اسأل معظم هؤلاء الذين يقومون بالعمل عند المطوف، كيف يحصلون على لقمة العيش؟ وكيف ينتظر هؤلاء طويلاً ليحصلوا على أجورهم من الحجاج، ولا يتلقون في النهاية سوى بعض الهدايا التي لا قيمة لها. لقد عرفت أنا شخصياً بعض هذه الوقائع. فقد عرفت صبياً مجداً لأحد المطوفين، وقد كان يكدح ليله ونهاره مع الحجاج، عدة أسابيع، وكان أجره في النهاية قميصاً وأربع حبات من البطاطس ودريهمات قليلة. إنه لا يمكن الحصول على الثروة بمجرد تعلم وحفظ أدعية معينة. إن هذه الحرفة تحتاج إلى المثابرة والبراعة وقوّة الاحتمال، مع قدر كبير من الحظ. إن كل هذه التحذيرات التي تصدر عن الأب يقصد بها حث الشاب على أن يمتهن حرفة أبيه، وليس أدل على ذلك من قول الأب لابنه إن حال أولئك الأشخاص الذين لا يمتهنون حرفة الأب أو العم تشبه حالة مساعدي المتسولين، الذين يقومون بالتسول طويلاً، ولا يحصلون إلا على القليل النادر. ويضيف الآباء إلى ذلك أن بعض المطوفين أنفسهم لا يحصلون على المال الوفير، وقد يخسر بعضهم من جيبه سنوياً. وعلى الرغم من هذه المحاولات المتكررة إلا أن بعض الآباء لا ينجحون في إقناع أبنائهم بالعدول عن العمل مع المطوفين لسببين:

الأول: هو أن العمل في هذه المهنة بالنسبة للشاب يرضي غروره وخيلاءه، وهو من هذا المنطلق يشبه إلى حد كبير الشوق الذي يبديه الشباب الأوروبي للعمل في سلك الجندية في إحدى حاميات المدينة.

والثاني: هو حب المغامرة وجاذبيتها في الوصول إلى الحظ السعيد.

الاحتفال بالعودة من المدينة المنورة

إن (السرارة) أكثر بهجة من (الإصرافة) و (الإقلابة). والسرارة تكون في الغالب بعد القدوم من زيارة المدينة، حيث يأتي الأصدقاء والمعارف لتهنئة القادم من المدينة بالعودة السعيدة. ويقوم المرء في العادة بدعوة معارفه

وأصحابه إلى وليمة بهذا الخصوص. وإذا قدم هؤلاء في الأيام الأولى لوصوله، فإنهم عند قدومهم للتهنئة يشربون الشاي والقهوة، وتقدم لهم الحلوى وبعض الهدايا التي جلبها معه من المدينة. والسرارة تعمل مرة واحدة حينما تكون زيارة الرجل أو المرأة إلى المدينة أول مرة. (والسرارة) بالنسبة للرجال هي عبارة عن زيارة للتهنئة، يدعو فيها الزائر معارفه في غضون ثمانية أيام من عودته، ليحتفل بهم، أما النساء والأولاد فيعدّون هذه المناسبة عيد بهجة وسرور.

إن هؤلاء القادمين لا يدخلون مكة وعليهم وعثاء السفر، ولكنهم يخيمون في التنعيم (العمرة)، وينتظرون قدوم أقربائهم الذين يحملون لهم الملابس الجميلة المحلاة بالذهب والفضة[١]، وتسمى ملابس الزيارة. وتهيأ للأولاد الجمال أو الخيول المزينة بعناية. أما النساء والبنات فيحضر لهن في الغالب مهدٌ (تخت) محمولٌ على أعمدة يجره زوج من البغال. وبعد أن يلبس هؤلاء ملابسهم الأنيقة يتوجهون إلى المدينة المقدسة، وسط الاعتقاد السائد بأن القادمين من المدينة يتقدمهم وتسبقهم كل أنواع البركة.

إن بعض الناس يقومون بتقبيل أيادي الأطفال القادمين من المدينة، ويتمسحون بملابسهم من أجل البركة. فهؤلاء تشع من عيونهم النور (نور محمد ﷺ) الذي خلقه الله قبل خلقه العالم، وفي العادة يقول المهنئون للقادمين: إن وجوهكم منورة (تشع بالنور)[٢].

وعند الظهيرة يكون الموكب قد وصل إلى مكة، حيث يشارك في الموكب قارعو الطبول، وبعض الأشخاص الذين يحملون راية (بيرقاً) مصنوعة من

---

(١) إن الأطفال دون البلوغ ليس عليهم واجبات، ولهذا يلبسون الحلل الموشاة بالذهب والفضة. والذهب في الشيء حرام على الرجال، والاحتفالات التي تقام لهؤلاء بهذه المناسبات تشبه إلى حد كبير احتفالات النساء. (المؤلف).

(٢) لا شك أن هذه العادات ليس لها أصل في الدين وقد انتهت بفضل الله في الوقت الحاضر على رغم أنها كانت سائدة في الماضي.
ومسألة أن نور محمد ﷺ خلقه الله قبل خلقه العالم من المعتقد الصوفي فيما سمي (بالحقيقة المحمدية) والذي صاغ هذه العقيدة المنحرفة عن الإسلام الشيخ (ابن عربي) حيث يقول في فتوحاته المكية (١/ ١٥٢) «بدء الخلق الهباء، وأول موجود في الحقيقة المحمدية الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني».

الحرير الهندي، الموشى بالذهب، ثم يبدأ هؤلاء بالطواف في المدينة، إلى أن يصلوا إلى بيت الزائر، حيث يدخل البيت ويتبعه أصحابه، حيث يجدون الطعام قد أعد لهم فيتناولونه وينصرفون.

أما بالنسبة للنساء فالسرارة تبدأ بعد العشاء حتى ساعة متأخرة من الليل، حيث تستمع النسوة إلى أغاني الجواري ويشربن الشاي والقهوة والشربات وربما يدخن الشيشة.

وفي الصباح تتناول العائلة الزلابية على أنها وجبة إفطار، وبعد شروق الشمس يأتي الجيران والمعارف البعيدين لتقديم التهاني. ويحتفل بهؤلاء بأن يقدم لهم الشاي والقهوة والحلوى ثم البخور، ويستمر ذلك إلى قبيل الظهر، حيث يقوم الخدم بتهيئة المكان، وإعداد الطعام للحفلة التي ستجري بعد العصر، تلك الحفلة التي يسبقها قراءة المولد. وإذا كان عدد الحضور كبيراً، فإن المدعوين يوزعون على البيوت المجاورة.

إن بعض مظاهر هذا الاحتفال يخالف الشريعة. إن من يدخل مكة يجب أن يدخلها بسكون ووقار وبملابس الإحرام، ولا يدخل بمثل هذه الخيلاء على قرع الطبول والأناشيد. إنك لتجد أقل الناس مرتبة يدخل البلد الحرام راكباً وكأنه أحد أبناء الأمراء. إن أهل الصلاح من سكان البلدة المقدسة يستاؤون لهذه المناظر، ويهز الواحد منهم كتفه، ويظهر اشمئزازه قائلاً: في وقت الخلفاء الراشدين لم تكن تلك الترهات موجودة. إن الناس لم يكونوا يبنون بيوتهم أعلى من الكعبة، ولم يكن المرء ليدخل مكة إلا بملابس الإحرام. على الرغم من أن هؤلاء يترجلون عن خيولهم أمام بيت الحاكم (شريف مكة).

إن هناك في مكة الكثير من المناسبات العائلية التي يشبه الاحتفال بها الخطوط العريضة لما استعرضناه آنفاً، غير أن الشيء الذي يجلب الانتباه، ويحتاج إلى شيء من التفصيل، هو حفلات الزواج.

حفلات الزواج

يجب أن نلحظ أولاً أن الوصف الذي سنقوم بسرده يقتصر على الزواج الأول.. حينما يتقدم الشاب للزواج من امرأة عذراء (بنت البيت) أول مرة. وأن الرجل الذي له مكانة مرموقة في المجتمع لا يقوم بالأعمال التي هي في العادة لصبي غر حديث السن، كما أن الموضوع سيكون سخيفاً بأن

تكرر العملية بالنسبة إلى المرأة التي تتزوج مرتين أو ثلاثاً. وحينما تكون العروس أرملة أو مطلقة، ويكون العريس كبيراً في السن، فإن الاحتفال بزواجهما يعتمد على الظروف. وفي الغالب يقيم الزوج حفلة لمعارفه وأصدقائه بعد أيام من زواجه، أما المرأة فتدعو النساء إلى بيتها قبل الزواج، وتحتفل بهذه المناسبة قبل الذهاب إلى بيت الزوجية، حيث تقوم المضيفات بالغناء لها كالعادة. أما المرأة التي سبق لها الزواج فإنها تفكر كثيراً في النفقات التي تترتب على ذلك، الأمر الذي يؤدي إلى عدم إقامة مثل هذه الحفلات. إن هناك العديد من الزيجات تتم بدون مراسيم واحتفالات. ففي يوم الخطبة تنقل ملابس المرأة إلى بيت الزوجية، وتقوم المرأة ذاتها بالقدوم إلى بيت زوجها في المساء. وهذه العادة تتبع إذا كان الزواج مؤقتاً. وهذا النوع من الزواج غير جائز شرعاً، وهو ما يعرف بزواج المتعة[١]. إن مذهب الشيعة يجيز هذا النوع من الزواج، الذي يستخدم عندهم للزواج بأكثر من أربع. غير أن الذين يتعاطونه من أهل السنة هنا، هم خارجون عن أحكام الشريعة؛ لأن الزواج عند أهل السنة إذا قيد بزمن فهو باطل. إن الاتفاقات الجانبية التي تصاحب هذا الزواج يكون الالتزام بها أدبياً، فعلى المرء أن يطلقها في أي وقت، أو أن يلتزم بكذا وكذا من الشروط، فالقادم من المدينة مثلاً يمكنه أن يتزوج بهذه الطريقة، وعند ذلك تسأل المرأة كم المدة التي ستبقاها هنا؟ وماذا تفعل بي بعد مغادرتك؟ فإذا كان الجواب على سبيل المثال ثلاثة أشهر فقط فتنظر المرأة في القيمة المطلوبة، عشرة دولارات للمهر، واثنا عشر دولاراً مصاريف معيشة للشهر الواحد، مضافاً إلى ذلك نفقات العدة وهي ثلاثة أشهر. وتشترط المرأة أن يدفع لها المبلغ كاملاً منذ البداية، وهكذا يتم زواج المتعة ـ مع الأسف ـ لبعض أفراد أهل السنة الذين يقولون بأن زواج المتعة هو حرام وزنى وهو عادة مبتدعة.

---

(١) روت كتب السنة نهي النبي ﷺ عن زواج المتعة، فعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية. (انظر صحيح البخاري ـ النكاح ـ ٣١؛ ومسلم ـ النكاح ٢٥، ٣٠).

إن الزواج بالطريقة السابقة أمر نادر الوقوع، وليس مقياساً للزواج الرومانسي الذي يتوق إليه المكي. إن الزوجة التي تخطب للزواج يكون عمرها بين ١٢ ـ ٢٠ سنة، والزوج يكون عمره ١٤ ـ ٢٥ عاماً. وعلى الرغم من حداثة سن الزوج فقد تكون عنده خبرة في المعاشرة الزوجية، فمنذ أن يبلغ الطفل الحلم، يمكن أن يخصص له والده إحدى الجواري التي يتسرى بها. إن الزواج الأول لا يكون مبنياً على الحب، وربما لا يتوافق مع رغبات العريس. والذي يحدث أن يتخذ الولد موقفاً سلبياً على طريقة الزواج التي يرتبها والده، على الرغم من أن الإكراه ليس مستعملاً في العادة، وكذلك البنت من النادر أن تجبر على الزواج، والشيء المتوقع منها في العادة أن تطيع والدها في اختيار العريس لها.

الخطبة

والخطبة هي العرض المبدئي للزواج، وتقوم به إحدى قريبات العريس التي تزور في العادة أهل العروس، بقصد رؤية الفتاة ومراقبة أخلاقها وصفاتها. فإذا كانت الصفات الموجودة في البنت، هي التي يريدها الشاب، أعلنت القريبة عن رغبتها في المصاهرة، بقصد التعرف على وجهة نظر عائلة العروس، وإذا كانت العائلتان على شيء من الود والصداقة، فإنهم يعرفون بطريقة غير مباشرة الكثير من المعلومات عن إمكانية مثل هذا الزواج. ومع هذا فإن زيارة مثل هذه المرأة أمر تفرضه التقاليد المرعية، والقاعدة أن الفتاة المقصودة بالزيارة لا تحضر لاستقبال تلك المرأة، وعلى المرأة أن تطلب إلى الفتاة الحضور والجلوس معها، والمرأة في العادة تستطيع أن تعرف من خلال الزيارة والحديث إذا كان للفتاة وأهلها رغبة في هذا الموضوع أم لا.

وفي النهاية تقول المرأة للبنت: (إن شاء الله سنصبح أقارب)، وتتولى الإجابة في العادة الأم أو السيدة الكبيرة في المنزل، بينما تتظاهر الفتاة بالخجل والإذعان. وبعد أن تنقل المرأة كامل الخبر إلى الأسرة، ترسل الأسرة أحد أفرادها، وغالباً ما يكون متحدثاً لبقاً للذهاب إلى أهل العروس لتأكيد الرغبة في الزواج، والرجل في العادة يقابل بترحاب بالغ. وينتهي الاجتماع بتحديد موعد (الملكة). وبلباقة وكياسة يبحث موضوع المهر وتفصيلاته. وبالنسبة للمبلغ المطلوب ليس هناك الكثير الذي يمكن قوله

المهر

حول ذلك، وفي وسط الأثرياء هناك مبلغ إضافي يدفعه الطرفان للعروسين. وفي العادة يدفع والد العريس أكثر مما تعهد به. وتجد عند بعض الناس أن والد العروس يطلب مبلغاً إضافياً لا من أجل النقود، ولكن ليظهر أنه يهتم بأمرها أكثر من سواه. في حين نجد أشخاصاً آخرين، إذا أتاهم الرجل المناسب خاطباً يرضون به، ولو لم يقدم سوى مبلغٍ ضئيلٍ من المال. وعند الفقراء يحاول هؤلاء طلب مبلغ كبير من المال، بحجة أن هذا المال سيؤول إليها؛ لأنهم سيدفعون منه كافة التجهيزات اللازمة مع الاحتفاظ بمبلغ إضافي للعروس على سبيل الاحتياط لوقت الحاجة. أما المعدمون فيتغاضون عن كل شيء، ويقتنعون بمبلغ ضئيل من المال، إلا إذا أثار جمال البنت أحد الأغنياء، فإن المبلغ سيكون في هذه الحالة كبيراً. وجمال المرأة وسحرها يزيد من مهرها. وفي الإسلام يشترط أن تكافئ الزوجة الزوج في المنزلة الاجتماعية، أما الزوجة فلها الحق أن تطلب زوجاً من منزلتها الاجتماعية أو أعلى.

وعادة ما تكون قراءة الفاتحة هي تأكيد الخطبة. وتستعمل أيضاً من قبل الناس كناية عن أن الفتاة مخطوبة (فلانة قرئت فاتحتها). وقبل الملكة بعدة أيام يرسل العريس أو والده بعض الأقارب الذين يدفعون المهر المتفق عليه إلى والد العروس. إن أحد هؤلاء الأقارب يحمل صينية فضية مغطاة بحوالي خمس ياردات من الشاش، وعليها القطع الذهبية والحلوى والهيل والفل، والجميع مغطى بقطعة من التل حواشيها مطرزة بالذهب. ويستقبل هؤلاء من قبل الرجال والنساء في بيت والد العروس بالترحاب. وفي أثناء قدومهم ترتفع أصوات الزغاريد (غطرفة)[١]. معلنة الفرح بهؤلاء، ثم يتناول القادمون الشاي والقهوة والشربيت (الشراب)، ويأتي المستقبلون ليشكروهم على الهدية التي قدموها (المهر). وبموجب الشريعة فإن هذا المال هو ملك للعروس نفسها، ولكن الأب هو الذي يشرف على وجوه إنفاقه بما يحقق

---

(١) لقد وصف بعض الرحالة «الغطرفة» باسم الولولة، فذلك الأمر ليس صحيحاً، فالغطرفة هي التي تشبه تغريد الطيور، بينما الولولة تكون في المآتم والأحزان. فالغطرفة علامة السرور والمرح، في حين الولولة هي علامة الحزن والبكاء. (المؤلف).

مصلحة البنت. فهو يقوم بشراء اللوازم التي تحتاجها من هذا المال. وإذا كان الأب موسراً فلا شك أنه سيدفع مبلغاً إضافياً من جيبه. أما إذا كان فقيراً فلا يستبعد أن يأخذ بعض الشيء يسد حاجته منه. وقبل مغادرة البيت يطلب أهل العريس إيصالاً بما دفع، ويكون لهم ذلك قبل مغادرتهم.

عقد القران

إن إجراءات عقد النكاح (الملكة) سهلة جداً، هي الإيجاب من العريس أو وليه والقبول من العروس أو وليها، ثم شهادة اثنين على العقد، وهناك أمور أخرى يجب مراعاتها وهي إعلام أكبر عدد ممكن من الناس عن طريق دعوتهم لحضور عقد القران، حيث يقوم أحد الأشخاص بالحديث عن أهمية الزواج لكونه ظاهرة اجتماعية يحث عليها الشرع.

ويتم عقد القران في المسجد، أو في بيت والد العروس، حيث يأتي المعارف والأقارب والأصدقاء من الرجال إلى المسجد، ويصطفون صفوفاً كأنهم يؤدون الصلاة، وفي الصف الأول يكون المسؤول عن توقيع العقد، وغالباً ما يكون شخصاً ينوب عن الولي في إجراء مراسيم العقد، ويسمى هذا (المملك) أو عاقد النكاح، حيث يقوم بإجراءات العقد. وفي القرى يوجد واحد أو اثنان، أما في مكة فلا تخلو أسرة واحدة من أحد هؤلاء، بالإضافة إلى المقرئين والمدرسين في المسجد الحرام وأئمة المساجد، وفي حالة الخلافات الزوجية مستقبلاً يعتمد القاضي في تقرير كثير من الأمور المتعلقة بالزواج على ثقة عاقد النكاح. وإزاء هذه الكثرة حاولت السلطات تحديد عدد هؤلاء ببعض الأشخاص في كل حي، غير أن هذا الإجراء لم ينجح، فقد احتج الأهالي على ذلك بكونه مخالفاً للشرع؛ لأن كل متعلم يمكنه أن يقوم بذلك.

وبعد برهة يأتي العريس مع أصدقائه ويجلس بجانب عاقد النكاح الذي يقوم بتلاوة بعض آيات القرآن والأحاديث النبوية المتعلقة بالزواج، وبعد ذلك يقول عاقد النكاح: هل تقبل الزواج من المرأة التي اخترتها فلانة بنت فلان، حفظها الله من كل سوء، على المهر الذي دفعت؟ فيرد العريس قائلاً: لقد قبلت الزواج بها على الشروط السابقة، ثم يقرأ الحضور الفاتحة التي هي نهاية عقد النكاح.

ومن المعتاد أن تجري مراسيم عقد القران (الملكة) في البيت بعد شروق الشمس بساعتين، ومن النادر أن تجري قبيل الغروب في المسجد. ويقدم في حفلة عقد القران نوعان من الطعام: أحدهما حلو، والآخر حامض، بالإضافة إلى البقسماط (البسكوت). وقبل أن يغادر القوم ينال كل واحد منهم قرابة نصف باوند من الحلاوة السكرية أو الحلوى في طبق مكون من السكر (صحن بمكبته)، وفي طريقهم إلى الباب يودعهم أهل العريس شاكرين لهم حسن الزيارة والحضور.

ومن الشائع أن تجري الملكة في الحرم، وغالباً ما تكون بعد العشاء، حيث يتفق أصحاب الفرح مع المسؤولين في المسجد، وغالباً ما يكون المكان شمال غرب الكعبة وفي داخل الحجر، أو على سطح بناية زمزم (المقام الشافعي) حيث يصلي رجالات الدولة صلاة الظهر والعصر؛ لأن الشمس تكون شديدة الحرارة في صحن المسجد، وهذا المكان يسمح لهم بأداء الصلوات بجوار الكعبة وتحت الظل أيضاً، ويفرش المكان المخصص بالسجاد ويضاء بالسرج[١]. ولتوزيع الحلوى وقراءة الفاتحة هناك ثلاثة أشكال وأجملها هو أن يتلقى كل فرد نصف باوند (رطل) من الحلوى في كيس صغير من القماش الجميل. والشكل الثاني أن يقدم للمهنئ قطعة طويلة من حلوى يقال لها الأبنوتة، أما الشكل الثالث فيقتصر على تقديم المشروبات وهذا الشكل أقلها تكلفة. وهناك طريقتان لشرب الشراب الذي يقدم للضيوف قبيل مغادرتهم: الأولى أن يعطى كأس لأحد الضيوف فيشرب منها قليلاً، ويعطيها للذي يليه، ثم الذي يليه، ويملأ في حالة انتهاء الكأس ثانية، أما الطريقة الثانية فيقدم لكل مهنئ كأساً كاملةً، وعليه أن يشربها جميعها. وعند

(١) هناك نوعان من السرج: التنور والفانوس. والتنور عبارة عن قنديل زجاجي مرفوع على حامل مخصص يضاء بالشمع، أما الفانوس فيضاء بالطريقة نفسها غير أنه يضاء في البيوت والمسجد ويحمل في الطريق. والضوء موجود داخل شكل سداسي من الزجاج أطرافه ملصقة بعضها ببعض بنوع من الصفيح الخفيف وتلتقي هذه الألواح الزجاجية في الأعلى سويّة لتسمح بتكوين مقبض يحمل به الفانوس أو يعلق به. وهنا يستخدم الزيت بدل الشمع، ومنع الأتراك دخول هذه الفوانيس إلى المسجد، للخطر الذي قد ينجم عنها، ولرائحة الزيت الكريهة. (المؤلف).

مغادرة الحضور يقف أهل العريس عند باب الحجر أو على باب زمزم يودعون المهنئين شاكرينهم على الحضور.

وأحياناً تجري حفلة الملكة في البيت بعد العشاء. وفي هذه الحالة يسمع الناس قرع الطبول أمام بوابة مكان الفرح، ويضاء الشارع الذي فيه المنزل بالقناديل أو البرمة (قنديل زيت زجاجي أسطواني الشكل)، ولا يقدم الطعام، وإنما تقتصر الدعوة على القهوة.

وبموجب الشرع يجوز للعريس والعروسة عمل الزواج في أي وقت، ولكن العرف يقتضي عمل إجراءات كثيرة واحتفالات خاصة يساعد بها الأهل والأصدقاء. وقبل الخطبة بأيام يقوم أهل العريس بإحضار وتوفير الكثير من المستلزمات الباهظة التكاليف، التي تحتاجها احتفالات الزواج. إن كثرة النفقات التي تصرف على الطعام والشراب والإضاءة وأجرة المغنيين والموسيقيين وغيرها من النفقات الأخرى تجعل من العسير تجهيز بيت الزوجية بالأثاث اللازم إلا إذا كان العريس غنياً وموسراً. غير أن هناك عادات حسنة تجعل حتى من أولئك الفقراء قادرين على القيام بمثل هذه التكاليف عن طريق المساعدة التي تبذل لهم، فالأشخاص الموسرون الذين لديهم بعض مستلزمات العرس، يعيرونها بدون مقابل لهؤلاء، وحتى لو لم يكونوا يعرفونهم من قبل، وهناك بعض الحاجات التي يمكن استئجارها كالقناديل والمقاعد، وأخيراً فإن بعض المحسنين يتبرعون بالكثير من الحلي والزخارف الخاصة بالأفراح، أو يعيرونها فترة معينة. وهكذا فإن الفتاة الفقيرة إن كانت من عائلة طيبة يحتفى بها وكأنها ملكة زمانها.

تدور الأحاديث بين الفتيات على نحو: لقد كانت خطبة صديقتنا فلانة أمس، وفي هذا المساء سوف نحضر ليلة (الحنا)، وغداً سنعمل لها (الريكة)، وبعد ذلك ستكون (الغمرة)، وسيفرح العروسان (بالدخلة) في الليلة التي تلي الغمرة. وسنحاول شرح هذه الخطوات جميعاً.

تزيين العروس

وفي بعض الأحيان يأتي يوم (الريكة) أولاً، وفي المساء يكون (الحنا)، وعلى هذا تختصر حفلة الزواج يوماً. وتبدأ حفلة النساء في غروب شمس

يوم (الريكة). وفي بعض الحالات يأتي الأقارب وأصدقاء الفتاة بعد ظهر يوم الحنا، حيث يتناولون وجبة الغداء عند العروس، وفي المساء تقوم النساء بتزيين يدي العروس ورجليها بالحناء. وتقوم امرأة متخصصة تدعى (المقينة)[1] بهذا العمل، في حين جميع الصديقات يراقبن ذلك. وبعد جفاف الحنا تقوم المقينة بحف الحواجب قليلاً، ثم تصفيف شعر الرأس إلى ثماني ضفائر، تربط كل واحدة منها بمثبت يسمى (العقص) مصنوع من الصوف الموشى بالحرير. ويوصل بكل ضفيرة خيط حريري تعلق به بعض القطع الذهبية القديمة، والتي تسمى (غوازي ومحموديات)[2]. وهناك نوع من النقود ترغب فيه نساء مكة يسمى (المشخص)، وهو عبارة عن عملة قديمة على أحد وجهيها صورة وجه آدمي، ويبدو أنها من أوائل ما يتداول من العملات في مكة. والموجود اليوم من النوع القديم الذي لا يمكن قراءة الخطوط أو الطغراء الموجودة عليه. وتوجد مثل هذه النقود عند الصيارفة وبائعي الذهب من أجل استعمال النساء فقط. وربما تكون من النقود الإيطالية القديمة من البندقية، وقد شاهدت إحدى هذه القطع التي تعود إلى الدوق اللويز موسينغو الأول (١٥٧٠ ـ ١٥٧٧م)، وعلى أحد وجوه هذه القطعة صورة السيد المسيح، وعلى الوجه الآخر نجد الدوق ينحني أمام القديس مارك. وإنه لمن المؤسف أن تجد أن بعض هذه النقود ترمى على قبر الرسول ﷺ الذي لعن الذين يتخذون أنبياءهم أرباباً من دون الله، كما تجد أيضاً أن نساء المسلمين يبدين شغفا ومحبة عن غير دراية بما تحمله هذه النقود التي تحمل صور السيد المسيح، وأحد مؤلفي الأناجيل الأربعة، وهذا مؤسف حقاً؛ لأن الإسلام يمقت صورة الآدميين، كما يعدّ أن الذين يعبدون السيد المسيح مشركين حقاً.

وخلال وضع الحناء، وتزيين العروس، فإن الحاضرات من النساء يقمن بالغناء على أنغام الطار المصحوب بالتصفيق.

---

(١) المقينة: هي التي تقوم بتزيين العروس وتنسيق الحلي عليها. (المؤلف).

(٢) إن التاريخ المكتوب على المحموديات ١٢٢٣هـ (١٨٠٨ ـ ١٨٠٩م). والمحموديات يساوي الواحد منها أربعة دولارات، أما الغوازي فقيمة الواحد منها دولار واحد. (المؤلف).

ويستمر الحال كذلك إلى منتصف الليل، حيث تقدم لهؤلاء على فترات الشاي والقهوة والشيشة والشربات. وفي العادة تنصرف النساء المتزوجات أبكر من العذارى اللواتي يبقين إلى ساعة متأخرة من الليل.

الـريـكـة

وفي صباح اليوم التالي يأتي أقارب العروس لتجهيز (الريكة)[1]، والأريكة عبارة عن كرسي يشبه المنبر، ويصنع في العادة من الخشب ويغطى بالقماش. وهذه الأغطية بالإضافة إلى الستائر المعلقة به هي من الحرير والأطلس (الساتان) الكثير الزخارف. ومعلق بها الحلي والجواهر والقطع الذهبية والفضية على أشكال النجوم والورود المختلفة. وتجهز الريكة في إحدى غرف المنزل في العادة حيث تفرش بالسجاد، وتعلق فوق الباب نجمة فضية كبيرة مزينة بالجواهر، وبجانبها الكثير من السرج المضاءة، وتوضع الأريكة في صدر الغرفة من جهة الخلف، ويعلق بالريكة ذاتها السرج التي توقد بالشموع فقط. إن تجهيز الريكة معناه أن كثيراً من أمور حفلة الزواج قد انتهى إعدادها، وفي ساحة الحي (البرحة) توضع الأعمدة الخشبية التي توصل مع بعضها بعوارض خشبية أفقية، يتدلى منها الكثير من القناديل، ثم تجهز المقاعد الخشبية التي تغطى بالسجادة، وتسوى أرضية البرحة وترش بالماء، وفي العادة يعدُّ يوم الريكة يوم عمل للجميع، لإنهاء الاستعدادات اللازمة لحفلة الزواج. ولا بد من عمل غداء للمشتركين في التجهيزات (الفزيعة)، وفي الغالب يكون الغداء من الأرز واللحم، وترسل (معشرة)[2] من الطعام إلى أهل العريس وأقربائه، وتكون المعشرة في العادة مغطاة بغطاء من نسيج مصنوع من سعف النخل يقال له: (المكبّة). ويغادر الرجال البيت بعد العصر، وتبدأ المزيد من النساء بالقدوم، حيث يحيين الليل كله تقريباً بالغناء والطرب، وتدعى هذه الليلة بليلة (الغمرة). وطوال اليوم التالي يكون أهل العريس وأهل العروس مشغولين بالترتيبات النهائية لحفلة الزواج الختامية ألا وهي (ليلة الدخلة)،

---

(١) إنّ هذه الكلمة مشتقة من الأريكة وهي مكان جلوس المؤمنين في الجنة. والأريكة في اللغة: مقعد منجّد.

(٢) المعشرة: صينية تحوي طبقاً من الأرز وتوابعه من السمبوسة والسلطة والحلوى. (المؤلف).

حيث تقرع الطبول طوال النهار أمام البيتين، وتقوم الفتيات بالغناء والزغاريد، وقد تقدم للحضور حفلة غداء يوم الغمرة. ونظراً لضيق المكان يفتح الجيران أبوابهم لاستقبال الضيوف وقت تقديم الطعام.

إن الغناء الذي تقوم به المغنيات في مكة يطلق عليه اسم دانا ـ دانا، حيث إن جميع الأغنيات تبدأ بهذه المقاطع على صور وأشكال كثيرة. وبعضهم يؤكد أن لهذه الكلمات علاقة بكلمة دنا التي تعني اقترب، وربما ترمز لدنو الحبيب واقترابه أو الطلب منه بالاقتراب والدنو.

إن الأغاني في العادة تقوم بها مغنية واحدة، ومعها الكثير من الجواري اللواتي يضرب بعضهن على الطبلة، وبعضهن الآخر يقمن بدور المرددات (الكورس) في ترديد اللازمة، بينما يقوم الحضور من النساء بالتصفيق.

غناء الأفراح

والأغنيات التي تغنى في الأفراح هي تعبير عن المشاعر الوجدانية، لكن أجزاء الأغنية الواحدة غير مترابطة تماماً، حتى إنه في بعض الأحيان تجد المغنية من العسير عليها فهم جميع كلمات الأغنية. إن الغناء أمر غير مسموح به في الإسلام إلا أنه مرخص به للنساء. وسنتحدث عن المعاني العامة لأغنيتين من تلك الأغاني التي تغنى في الأفراح، ففي الأولى يشكو العاشق إلى ربه حبيبته التي تشبه الغزال وذات العيون السود. لقد جرحته ليلى ويود لو أن الحبيب يبادله الحب بدلاً من الألم الذي سببه له. وأن واجبها الديني يقتضي أن تداويه، وأنه سوف يموت إذا لم يعالج من قبلها، ولكن الطب والعلاج لا يجديان ولا يشفيان جرحه. وبعد ذلك يصف محبوبته ذات العنق الذي يشبه الغزال، وذات الأثداء التي تشبه السفرجل، وهو يشبهها بالزهور العطرة، والنباتات الفواحة، وأحياناً كالجوز واللوز والفستق. إن عطرها أخاذ وله تأثير كالخمر. وهي الآن تسعد بنومها بعد طول انتظار، ويتمنى لو أنه طير حتى يستطيع الاقتراب منها وهي نائمة. وأخيراً يدعو الحبيب على محبوبته أن تصاب بألم الحب الذي يعاني منه؛ لأنها حينئذ تقدر موقفه.

وفي الأغنية الثانية يشكو أحد العاشقين إلى محبوبته ليلى أميرة السيدات الجميلات اللواتي ينعم الله عليهن بالسعادة. إن عقله قد ذهب وإنه سيموت

دون أن يعرف سبب مرضه. وليلى هذه معطرة، وشذاها يحوي جميع أنواع العطور، ثم يقول الشاعر (آه) ثلاثاً، ثم يسأل أولئك الذين يعرفون الحب أين يجد الدواء، إن قلبه ميت بالجميلة التي تشبه القمر ليلة البدر في منتصف شعبان. آه يا من تعرفون الحب، من يعرف كيف يداوي جروحي؟.

إن مثل هذه الأغاني تكون مصحوبة بالدقاقين (الذين يضربون على الطار) والمرددين (الذين يقومون بغناء اللازمة وبعض الكلمات الأخيرة). كما أن الجمهور الهائم يقوم بالتصفيق ويردد يا الله يا ربي.

الغمرة

وفي يوم (الغمرة) ليس هناك متسع من الوقت لسماع الموسيقى، إن جميع الأفكار مشدودة إلى ليلة (الدخلة). غير أن النساء يبدين الكثير من الزينة ويرتدين الكثير من الحلي الذهبية والفضية والجواهر المحفوظة لديهن. وقد يستعرنها أو يستأجرنها من الأخريات. إن من يحضر احتفال (الدخلة) من النساء بعد منتصف الليل ينقسم إلى قسمين: الأول من يأتي دون دعوة من النساء (متفرجات)، وهؤلاء الأبواب أمامهن مفتوحة في تلك الليلة، لهذا نجد العديد من هؤلاء يحضرن دون زينة أو ملابس ثمينة. أما القسم الثاني فيشمل النساء المدعوات (الحاضرات المحضرات والمتحضرات)، وهؤلاء هن قريبات العروسين، وهؤلاء يلبسن الملابس الجميلة التي تساوي آلاف الدولارات. وكل زوجة تحاول إظهار مدى ثروتها أو مقدار ما يجلبه لها زوجها.

لباس النساء في الأعراس

إن الأقارب وصديقات العروس يضفرن شعورهن ثمان ضفائر، تتدلى من كل ضفيرة قطع المحموديات. أما الرأس فليس مغطى بالمحرمة المعتادة، أو بالمحرمة العليا التي تسمى (المدوّرة)، ولكن بغطاء رقيق يسمى (الياشمك)، يلف حول الرأس كالعمامة، وهذه تكون في العادة مطرزة بخيوط ذهبية. وبالإضافة إلى غطاء الرأس هناك الصديري والسروال المصنوع من (الرزة)، (وهو نوع من الحرير السميك مطرز بخيوط ذهبية كما يحوي بعض الصفائح الذهبية المدورة). وفوق هذا تلبس النسوة في العادة ما يعرف بثوب البنغالا، وهو من الحرير الرقيق الشفاف «درابزون

أو بمبازار» الموشى بالذهب، وهذا الثوب في العادة لشدة شفافيته، يظهر ما تحته من الثياب. والنساء اللواتي لسن قريبات للعروس لا يلبسن (البنغالا)، ولكنهن يلبسن لباساً أقل قيمة من البنغالا يدعى (السيف المسلول)، وهو من الحرير المحلى بالذهب على أطرافه السفلى وعلى ساعديه. أما النساء اللواتي لا تربطهن أي صلة بالعروس وهن بعيدات عنها، فيلبسن ثوباً خفيفاً له أزارير فضية. وبالإضافة إلى اللباس هناك الخلاخيل الجميلة، وهي من النوع الواسع المزين بالجواهر، والذي يسمى (مطرقة الماس). وهناك أيضاً مجموعة كبيرة من الحلي التي تعلق في الرقبة. إن ما يوضع في الرقبة يطلق عليه أسماء مختلفة مثل: (موريه، لبّه، عقد لؤلؤ). وهناك ما يطلق عليه في العادة اسم (عنبر شاه)، وهو عبارة عن قطعة حديدية أو ذهبية على شكل قلب، وتعلق على الصدر بخيط حريري عرضه حوالي ثلاثة سنتيمترات، وهذا القلب مرصع بالجواهر وحبات اللؤلؤ المثبتة بالذهب. وفي وسط القلب هناك زهرة محاطة بخمس أوراق مصنوعة من الجواهر ومثبتة بالذهب أيضاً. أما أطراف القلب فمطرزة بحبات اللؤلؤ.

إن قريبات العروسين يمكن تمييزهن في العادة حينما يلبسن القلادة. وهي مكونة من مائة حبة من التفاح، ويمكن أن تمتد من العنق إلى الركبة. ولما كان التفاح متوفراً في الطائف فيمكن الحصول عليه في موسم التفاح ببضعة دولارات، غير أنه قد يرتفع سعرها إلى عشرين أو أربعين دولاراً في الأوقات الأخرى. وقريبات العروسين حريصات على الحصول على هذا النوع من القلائد، وقد لا تحضر الزوجة المناسبة كاملة، إذا لم تتمكن من الحصول على قلادة من التفاح. وتعطر المرأة نفسها بأنوع كثيرة من العطور مثل الزهر أو الكادي أو مزيج مصنوع من زيت العود (يدعى عودة مقطوعة) والماء المحلى بالسكر والقرنفل والهيل وبذر الليمون وماء الورد. وفي مساء يوم (الغمرة) تأتي النسوة إلى بيت العروس، حيث يجلسن في العادة في مكان يعرف باسم مجلس (الستات)، حيث تقدم القهوة والعطور وبعض أنواع الحلوى. وفي العادة تحضر بعض النسوة مبالغ من النقود، تكون

ملفوفة بمناديل حريرية لتقديمها إلى المغنيات، وفي حوالي الساعة العاشرة يتجمع كافة أقارب العروس وصديقاتها في غرفة المجلس، أما أقرباء العريس فيبقون في بيت العريس ريثما يحضر الشباب العريس إلى البيت.

أما العروس فتكون في تلك الساعة موجودة في غرفة الريكة، وهي مثقلة بالعباءة التي ترتديها، والتي تحوي الكثير من الجواهر والحلي والزخارف، حتى إنه ليصعب على بعض هؤلاء النسوة أن تتحرك بدون مساعدة من إحدى الحاضرات.

وفي حوالي الساعة العاشرة يبدأ الرجال بالتوافد إلى بيت العريس، ويتجمع هؤلاء حول البيت؛ لأن المكان في الداخل لا يتسع، كما أن النساء في هذا الوقت يكن في الداخل. ويحضر المرء في العادة عدداً من السرج (الأتاريك) لإضاءتها أمام العريس في شوارع المدينة. ويقابل الرجال في العادة بقرع الطبول، وبينما تغني النساء في الداخل أغنية دانا ـ دانا، وكلما تقدم إلى البيت مجموعة من الشباب يحملون القناديل سمعت صوت الزغاريد من الداخل على أنها نوع من التحية. وبعد شرب الشاي والقهوة، ينزل العريس مصحوباً بالنساء إلى أسفل الدرج وإلى البوابة، وتسمى هذه بـ(الزفاف). وتغني المغنيات بعض الألحان الخاصة بهذه المناسبة، في حين يكون العريس يتصبب عرقاً من الخجل لوجوده بين هؤلاء النسوة. وعند الباب يترك العريس النساء ويصحبه الرجال. ويتكون الموكب من قارعي الطبول وحاملي السرج، ويتقدم العريس رجلان يحملان شمعتين كبيرتين[1] سمك كل واحدة منها قدر فخذ الرجل، وبجانب ذلك هناك الكثير من الشموع، وبعضها من الكريستال الضخم ويحملها رجلان. وأمام العريس يسير المنشد (الجسيس) الذي يتبعه ٣ ـ ٤ مساعدين أو مرددين. وبجانب العريس يمشي أصدقاؤه الصغار والصبيان غير الملتحين، ويأتي الموكب

الزفاف

---

(١) إن مثل هذه الشموع تستأجر في العادة في مثل هذه المناسبات. وتدفع الأجرة أو الثمن على كمية الشمع المحروقة من هذه الشموع. وهذا ليس شراء كشراء الحاجات المختلفة. فالسعر ليس محدوداً، كما أنه ليس استئجاراً؛ لأن بعض هذه الشموع يستهلك وبعضها الآخر يبقى. (المؤلف).

خلف هؤلاء. وقبل أن يبدأ الموكب بالمسير يستدير المنشد إلى الجمهور، ويقرأ الفاتحة وبعض الأشعار في مدح الزواج.

ومهما كانت مساكن العروسين متباعدة فإن الموكب يطوف كافة شوارع المدينة الرئيسة ببطء شديد. وبعد كل ٢٠ ـ ٣٠ خطوة أو أمام بيوت الوجهاء يقف الموكب ويستدير المنشد، ويرنم بعض القصائد الشعرية. وفي الغالب يكون شيوخ الحارات التي سيمر بها الموكب قد أعلموا بأن طريق الموكب سيجتاز عدداً من الشوارع، ويتلقى شيخ الحارة مبلغاً من المال نظير ذلك، يحتفظ ببعضه، ويوزع الباقي على شباب الحارة، الذين يحاولون فرض النظام في أثناء عبور الموكب. وإذا لم يعط شباب الحارة نصيبهم سيكون هؤلاء أول من يثير الشغب.

إن هدف الموكب هو المسجد الحرام. ويكون الدخول في العادة من باب السلام، حيث تترك قناديل الزيت والكيروسين في الخارج، وتدخل الشموع فقط. والهدف من ذلك هو أداء صلاة العشاء مع العريس، الذي يحمل معه في أثناء هذا الموكب سجادة الصلاة التي يلقيها على كتفه. والسجادة من النوع الكشميري الذي يطلق عليه (سليمي).

وإذا كان والد العريس رجلاً متعلماً، أو أن العريس نفسه قد درس العلوم الشرعية، ففي هذه الحالة يلبس العمامة على هيئة العلماء. وهي أن يلف فوق الكوفية قطعة من القماش الأبيض الكثير من اللفات تتراوح بين ٧ ـ ١٢ لفة، ويترك طرفها الخلفي متدلياً على ظهره. وبعد صلاة العشاء التي يؤم الموكب فيها أحد الحضور؛ لأن موعد الصلاة يكون قد انتهى، يتجمع الناس عند أحد أبواب الحرم الذي يكون في مواجهة بيت العروس، ويتقدم الموكب القناديل المضاءة، وعلى أنغام قرع الطبول يتوجه الموكب إلى البيت الذي تكون ساحته قد أضيئت بالشموع، وأرضيته قد فرشت بالسجاد، وصفت فيه المقاعد. وحينما يقترب الموكب يبدأ قرع الطبول من ساحة بيت العروس في حركة تنافس مع قارعي طبول الموكب المتقدم. كما تبدأ النساء في الداخل بالغناء بصوت مسموع، وتبدأ الزغاريد من كل جانب. ويتقدم أحد

أهل العروس من العريس ويطلب إليه الجلوس على كرسي خاص يوضع عادة في الوسط. وتوضع أمامه الشمعتان الكبيرتان، وبعد أن يتناول الجميع القهوة والشربات يدعو (المباشرون) جميع الحضور إلى طعام (الوليمة) الذي سيكون في ظهيرة اليوم التالي في بيت العريس.

وهذه الدعوة هي إشارة إعلان إلى إنهاء الحفل، ولا يبقى مع العريس إلا أقرباؤه وأصدقاؤه المقربون، وتكون الساعة حوالي الواحدة بعد منتصف الليل.

أما النساء فيجتمعن في غرفة العروس. ويكون موعد دخول العروس إلى (الريكة) قد اقترب. ويسمع المرء صوت النساء يغنين بغناء (الخريط)، الذي يصف في الغالب كيفية تسريح شعر العروس، وتجميله وتضفيره، وهذا في الواقع إشارة إلى انتقال العروس من غرفة السيدات إلى غرفة (الريكة). وعلى أنغام هذه الألحان تتقدم العروس محاطة بالمدعوات إلى الغرفة المجاورة. أما النساء غير المدعوات فينتظرن في الخارج أمام غرفة الريكة، وبعض هؤلاء النسوة يقمن ببعض الحركات التي يراد بها تعكير صفو الفرح، أو استغلال المناسبة لأخذ بعض المجوهرات والحلي. وأخيراً تجلس العروس على الريكة بصعوبة بالغة؛ لأنها مثقلة بكافة أنواع المجوهرات والحلي والزخارف، وهي تجد صعوبة في تحريك يديها ورجليها وحتى وجهها؛ لكثرة الزينة التي عليها، وفي الحقيقة هي معرض متنقل للجواهر والحلي الثمينة.

ويكون الغناء في العادة مما يشيد بالعروس وأهلها، وتحيط النسوة بالريكة، في حين تبقى النساء غير المدعوات خارج غرفة الريكة، ويوضع بجانب الريكة كرسي مغطى بقماش ثمين يعد لجلوس العريس.

وتنزل بعض نساء أسرة العريس إلى أسفل الدار مع المغنيات، ويقمن بإحضار العريس على أنغام الموسيقى والغناء. ويشعر العريس في العادة بالكثير من الحرج، حينما يرى نفسه وسط جمع غفير من النساء. وهناك بعض الرجال الكبار في السن من أقارب العروس يمكنهم الدخول أيضاً،

وتبدو النساء هنا من غير حجاب، الأمر الذي يزيد من حيرة العريس الذي لم يعتد إلا على رؤية قريباته وجواريه. وتطلب النسوة من العريس الجلوس بجانب عروسه، كما تأمره قريباته بعمل أشياء كثيرة منها: انظر إلى عروسك، ارفع يدها بدون خجل، ضع يدك اليمنى على جبينها واقرأ الفاتحة، وبعد إنهاء الفاتحة تعطيه العروس سبع (غوازٍ). وفي القديم كان العريس هو الذي يحضر هذا المبلغ ويعطيه إلى العروس، أما الآن فإن المرأة هي التي تقدم هذا المبلغ، وتأخذ نظيره من العريس سبع قطع من الذهب.

وتطلب النسوة أن يضع إحدى الغازيات على جبهة العروس أو على خدودها، أو على أرنبة أنفها، أو على أحد خديها. وفي العادة تضع النسوة بعض المواد اللاصقة على هذه الأماكن السابقة من العروس، بحيث تلتصق بها الغوازي ثم يطلب إلى العريس أن ينزع هذه الغوازي بالترتيب، وقد تعاد الكرة مرة ثانية وثالثة. إن هذا الاحتفال يسمى (نصة)، وهي تعني رفع العريس لعروسه على المنصة، وهي سرير نوم العروسين، وقد استبدلت الريكة (المذكورة آنفة) بها. أما هذا الاحتفال فيسمى بـ (الدخلة). وبعد ربع ساعة من التجارب المريرة ينسحب العريس ليجلس مع أصدقائه، وبعد برهة تكون (التعتيمة)، وهي عبارة عن وجبة خفيفة مكونة من الشريك أو السخانة والمربيات والجبن والزيتون. وبعد تناول الطعام يتفرق الجميع حيث يذهب العريس وأصحابه إلى بيوتهم.

وقبل أن تغير الفتاة ملابسها يكون أمام البيت المهد (التخت) المغطى بالسجاد محمولاً على زوج من البغال. والتخت يستأجره العريس لهذه المناسبة. ويرافق العروس بعض أقربائها في موكب صامت إلى بيت العريس. حيث يجلس العروسان سويّاً في غرفة خاصة ثم يتناولان الفطور معاً. والفطور في العادة مكون من (الزلابية والشيرة)، وفي هذه الأثناء تكون الشمس قد طلعت حيث ينتهزها العروسان فرصة للنوم والراحة كل في غرفة خاصة.

طعام الوليمة

وبعد صلاة الظهر يجتمع الناس في بيت العريس لتناول طعام الغداء (الوليمة) المكون من الزربيان والسمبوسك[١]، والزربيان لحم وأرز، يعد أمام البيت في قدور كبيرة. أما الحلوى فتشمل بالإضافة إلى الفواكه والمشبك[٢] والفالوذة[٣] والفني[٤].

وفي خلال الساعة التي تلي صلاة الظهر يتوافد المدعوون باستمرار، وكلما أتى نفر من هؤلاء أخذوا مكانهم في ردهات البيت أو في البيوت المجاورة لبيت العريس. وفي إحدى قاعات المنزل تقام حفلة المولد، وفي النهاية يعطر المدعوون بماء الورد أو البخور، ويودعهم أهل العريس وأقرباؤه على الباب، ليشكروهم على قدومهم بهذه المناسبة.

وفي مساء ليلة (الدخلة) يذهب الكثير من الحمالين يتجاوزون المائة في الغالب، يصحبهم ١٠ ـ ١٥ شخصاً من الرجال الموثوقين (الأمناء) إلى بيت العروس، لينقلوا الأمتعة والحاجات المختلفة كافة إلى بيت العريس. ويراعى أن يكون عدد الحمالين كثيراً، لإضفاء مزيد من الانطباع بكثرة الأغراض المحمولة. وعند وصول هؤلاء إلى بيت العريس يضعون الأمتعة، ويحتسي الأمناء القهوة وينصرفون.

الصبحة

إن غروب شمس يوم الدخلة يعني ليلة (الصبحة) حيث يجتمع العريس وعروسه سويّةً، ولكن هذه المرة في بيت العريس، حيث تقوم النسوة برفع العروس على كرسي عالٍ، وهي متزينة بلباس عادي، يظهر مفاتنها وسحرها. ويشاهد على رأس العروس إكليلٌ جميلٌ من الياسمين (تعميرة

---

(١) السمبوسك: ويطلق عليه أهل مكة اسم «السمبوسة» وتصنع في العادة من عجين رقيق مفرود يوضع فوقه قدر من اللحم المفروم الناضج مع مفروم البيض المسلوق وحبات من الصنوبر المحمر (سن العجوز عند أهل مكة) ثم تجمع أطراف العجين على شكل مثلث ويقلى بالسمن (محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص٥٣).

(٢) المشبك: هو عبارة عن حلوى مصنوعة من الدقيق والسكر على شكل أقراص مشبكة تقلى بالسمن ويضاف إليها الشيرة.

(٣) الفالوذة: نوع من الحلوى، تعمل من الدقيق والماء والعسل (كلمة معربة)..

(٤) الفنى: وهو عبارة عن مهلبية من دقيق الأرز المطبوخ بالسكر مضافاً إليه ماء الورد والهيل مع الحليب المحلى. (المؤلف).

الرأس) ويجلس العريس بجانب عروسه على كرسي صغير، وبعد استراحة ربع ساعة يغادر العروسان إلى مخدعهما، حيث يغيران ملابسهما، ويدخلان غرفة نومهما وسط أغاني المغنيات بلحنهن المعهود دانا ـ دانا. وتوضع تحت السرير قطعة من القماش تضعها أم العروس ليمسح بها بعض الدم، دليلاً على عذرية العروس.

ويقضي العروسان ليلتهما بدون إزعاج، وفي الصباح حينما يغادر العروسان مخدعهما إلى الحمّام تسرع أم العروس لتأخذ قطعة القماش وعليها الدم لتعرضها على النسوة المجتمعات من الليل، فتقابل النسوة ذلك بالزغاريد والبهجة.

ويجلس العروسان سويّةً لتناول طعام الإفطار. وبعد الانتهاء منه يقدم العريس هدية الصباح (صبحة أو تصبيحة) التي قد تكون خاتماً ثميناً مرصعاً بالجواهر، أو غير ذلك من الحاجات النفيسة والثمينة، وتعول المرأة على هذه الهدية كثيراً؛ لأنه يقاس بها مقدار حب العريس لعروسه.

وطبقاً للأعراف السائدة فإن الزوج يجب أن يمضي ثلاثة أيام مع زوجته، أما إذا كانت عذراء فيجب أن يمضي معها سبعة أيام. ويكون اليوم السابع يوم حفلة إضافية. وطوال هذه الأيام وابتداء من الساعة التاسعة صباحاً وحتى المساء تستقبل العروس صديقاتها ومعارفها وقريباتها اللواتي يحضرن بملابس عادية، ويتبادلن الأحاديث ويشربن الشاي والقهوة. وتسمع بين الفينة والأخرى بعض الأغاني يقوم بترديدها بعض الحاضرات لإضفاء جو من المرح على هذه اللقاءات.

إن العرض السابق هو مجرد وصف لحفلة زواج عادية، والأثرياء في العادة يقومون بإنفاق مبالغ طائلة بهذا الخصوص. ولهذا نجد أن الزواج في مكة يمكن أن يؤدي إلى إفلاس محقق في أغلب الأحوال. والمكي بطبيعته يحب الاستدانة والاقتراض من الناس، على أن يوفي ويكمل نفقات الزواج ومتطلباته. وإذا أراد الاقتصاد في النفقات فإنه يلقى معارضة شديدة من أقاربه وخاصة النسوة منهم.

ونأتي الآن إلى مناسبة الوفاة في مكة المكرمة. فبعد الوفاة يحضر الذي يقوم بتغسيل الجثمان، فالرجل يغسله رجل، والأنثى تغسلها الأنثى. والتغسيل يتم بموجب إجراءات معينة لا داعي لذكرها. ويعلم الجيران في العادة بحالة الوفاة من بكاء النساء بصوت عالٍ. ولا يوجد في مكة نساء محترفات من أجل النواح على الميت، غير أن نساء العائلة يبكين ويتنهدن على الميت، آه (يا زوجي) الذي أخذني للحج وللزيارة، والذي كان يحضر لي الثياب، يا روح حياتي، يا نور عيني، يا جمل المحامل.

ويسأل أحد الجيران أين هذا البكاء؟ إنه في بيت فلان. إذن أخوه المريض أو زوجته أو أبوه قد انتقل إلى رحمة الله.

وتنتشر الأخبار بسرعة ويجتمع الأصدقاء والمعارف لأن الدفن سيكون بعد قليل، وينتظر الجميع بجانب البيت حتى تخرج الجثة (النعش) أو يذهبون إلى المسجد حيث ينتظرون قدوم الميت من أجل الصلاة. وبعض الناس يرافقون الجثمان إلى المسجد. والصلاة على الميت يمكن أن تكون في البيت أو في المسجد. وفي الغالب تكون في المسجد، حيث توضع الجثة بجوار الكعبة. والصلاة لا تقتصر على صلاة الميت الحاضر، وإنما تقام على الميت الغائب أيضاً، سواء في البيت أو في المسجد وقد يصلى على الميت أكثر من مرة[١].

وعند انتهاء الصلاة يبادر الجميع إلى الجنازة، حيث يحمل النعش من قبل ١٠ ـ ١٦ شخصاً، ويكون ذلك بالتناوب من جميع الحضور. وفي الطريق تتلى بعض الأدعية غير أن المسموع منها هو قول (لا إله إلا الله). وعندما تمر الجنازة من أمام الحوانيت أو المقاهي تسمع كلمة (وحِّدوه)، فيرد الجميع: (لا إله إلا الله)، ويلتحق بعض هؤلاء بالجنازة، ويحملون النعش بعض الوقت بالتناوب، إلى أن تصل الجنازة إلى مقبرة المعلاة.

---

(١) يقول الأزرقي: لقد كانت عادة قديمة أن يؤتى بالجثمان إلى المسجد ولكن ذلك لم يكن موجوداً في زمنه غير أن قطب الدين الحنفي الذي كتب تاريخ مكة في نهاية القرن العاشر الهجري، يذكر أن دخول الجثمان إلى الحرم أمر مألوف في عصره، ويضيف أن الشافعية يرون ذلك مستحباً، في حين يمنعها الأحناف، ويشير قطب الدين إلى أنه وجد نصاً عند الأحناف يبيح هذا العمل. (المؤلف).

وعند وصول الجثمان إلى المقبرة، يوضع في اللحد دون أي إجراءات أخرى. ويقوم أقرباء الميت في العادة بتوزيع الخبز على الفقراء الموجودين في المقبرة. كما يقومون بقراءة بعض آيات القرآن على الميت. وبعد أن يغادر المعزون يبقى أحد الأشخاص ليقوم بالتلقين، الذي هو عبارة عن أجوبة للأسئلة التي سيسأل عنها في القبر من قبل الملكين الموكلين بذلك[١].

وبجانب مدخل المقبرة يقف الأقارب بانتظام لتقبل التعازي من جمهور المعزين. والمعزي في الغالب يقبل الكتف الأيمن لكل أقرباء الميت قائلاً: «عظم الله أجركم» والجواب: «شكر الله سعيكم». أو «جزاكم الله خيراً» ومن لم يستطع الحضور إلى المقبرة، فإنه يقوم بالتعزية في البيت، بعد عودة أهل الفقيد إلى بيتهم.

ويبقى العزاء بضعة أيام، حيث يتوافد الناس إلى بيت الفقيد، بدون دعوات مسبقة. وتقدم لهم القهوة فقط، ولا يقدم الطعام في هذه المناسبة طبقاً لفتوى تقدم بها مفتي الشافعية، ونشرت بواسطة السيد البكري في (إعانة الطالبين) حيث ذكر أن هذا العمل غير مرغوب، وبدل ذلك على جيران الميت وأصدقائه أن يحضروا الطعام لأهل الميت، حتى يتفرغ أهل الميت لواجب التعزية. وقد طالب المفتي السلطات بمنع هذه العادة السيئة. وبعد شرب القهوة يأخذ كل واحد من الحضور جزءًا من القرآن ويتلوه. في العادة يكون الحضور أكثر من ثلاثين، غير أن بعضهم لا يجيد القراءة، وتستمر التلاوة مدة ساعتين، تجمع بعدها المصاحف، ثم يتلى دعاء ختم القرآن، ويقرأ الجميع الفاتحة، ويرددون لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. وهذه التلاوة يوهب ثوابها إلى روح الميت بقصد المغفرة له والتخفيف من سيئاته، وتستمر القراءة على هذا النحو في الليلة الثانية والثالثة. وبعد انتهاء القراءة في مساء اليوم الثالث، تقدم للقارئين قطعة من البسكويت (حلاوة فلاسي)[٢]. وقد يستمر

---

(١) عادة تلقين الميت منتشرة في الكثير من بقاع العالم الإسلامي، وهي بدعة لا أساس لها في الشريعة. وقد زالت كل هذه المعالم الآن.

(٢) هي عبارة عن قطعة من السكر المعقود على شكل أقراص صغيرة ملبسة بالسمسم ملفوفة في

الحضور بالقراءة مدة ثلاثة أيام أخرى، غير أنها ليست إلزامية. وفي مساء اليوم السابع يكون هناك ختم للقرآن، يتلوه قراءة المولد، ويقوم بها في العادة عدد من الأشخاص المتخصصين في هذا الموضوع لقاء أجر معين. وبعد مرور ٢٠ و٤٠ و١٠٠ يوم من الوفاة، تقام حفلات ختم القرآن والموالد عن روح الميت. وفي نهاية العام الأول للوفاة تقام مناسبة أخرى مماثلة، حيث يقرأ القرآن ثم يتبع بقراءة المولد ثم يدعى الحضور إلى وليمة، ويستمر الحال كذلك عدة أجيال، حيث يحتفل بالذكرى السنوية للميت (الحول)[١].

وإذا علم المكي أن أحد أقاربه خارج مكة قد توفي، فإنه يفتح بيته للعزاء وتلاوة القرآن، حتى ولو حدثت الوفاة منذ زمن بعيد. والشيء المدهش حقاً أن العزاء لا يقترن بالبكاء أو الحداد، فالابن حال وفاة والده يبدأ بتحضير الحاجات اللازمة للمولد. ويبادر إلى إحضار بعض الشيوخ لقراءة القرآن، ويجب ألّا يقل عدد هؤلاء عن الأربعة في الغالب، وليس شرطاً أن تكون أصواتهم حسنة، بقدر ما تكون قراءتهم سليمة من الأخطاء.

لم نذكر شيئاً حتى الآن عن دور النساء في المآتم سوى البكاء عند حدوث الوفاة. والواقع أن النساء يقمن بكثير من الأعمال التي لا يجيزها الشرع.

إن الحداد على الميت هو من اختصاص النساء اللواتي تؤهلهن طبيعتهن العاطفية لهذا النوع من العمل. وبموجب الشرع على المرأة المتوفي عنها زوجها أن تعتد أربعة أشهر، وعشرة أيام لا يسمح لها خلالها بالزواج ولا تتزين، ولا تخرج من بيت الميت إلا لضرورة ملحة. وباستثناء الزوج فالحداد على القريب والصديق لا يجوز أن يكون أكثر من ثلاثة أيام.

إن النساء في مكة يقمن بالحداد على أقاربهن أكثر من ثلاثة أيام، وتختلف مدة الحداد تبعاً لدرجة القرابة، وتتراوح أحياناً بين شهرين وأربعة أشهر. وتلبس المرأة في العادة خلال هذه المدة الثياب البيضاء، كما تستعمل أحياناً

= قطعة من الشاش (محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص٩٨).

(١) لقد زالت والحمد لله جميع هذه المظاهر البدعية، وأصبح العزاء يقتصر على ثلاثة أيام من المغرب إلى العشاء فقط.

الثياب الخضراء أو السوداء، لكن الألوان التي لا تلبس في الحداد هي الأحمر والبرتقالي والأصفر، وجميع ذلك ليس شرعياً وإنما من اختراع النساء أنفسهن. وعند الوفاة تجهش النساء بالعويل والصراخ والنحيب، ولا يقتصر ذلك على ساعة الوفاة وإنما يستمر لعدة أيام. وفي العادة يساعد وجود النساء على استثارة كوامن البكاء حيث تشارك الصديقات والزائرات في ذلك، غير أن ذلك لا يمنع بين الفينة والأخرى من وجود أحاديث مختلفة حول شتى المواضيع. وكلما قدم عدد من الزائرات يسمع المرء في العادة أصوات البكاء والعويل. ويتخلل ذلك البكاء، ذكر بعض مآثر الميت التي تختلط مع النحيب والعويل.

إن البكاء الذي يعقب الوفاة مباشرة أو عند إخراج الجثمان من البيت يسمى (بالصياح). وفي خلال الأيام الأولى من الوفاة يكون التعديد. وعلى الرغم من وجود الأسى والحزن الحقيقيين، فإن فترة (التعديد) أصبحت فناً خاصاً تختص به بعض النسوة في المآتم، تشبه إلى حد كبير الزغاريد في أوقات الفرح. فهناك اختصاصات في هذا المجال. ففي أي تجمع نسائي، تجد من تجيد (الغطرفة). وكذلك من تجيد (التعديد)، وعند كلا النوعين أصبح الأمر لا يعدو عملاً تمارسه الواحدة بدون أي شعور داخلي بالفرحة أو الأسى.

وفي بعض المناسبات تتصرف النسوة تصرفات غير شرعية، ومخالفة لتعاليم الدين، فعندما يتوفى أحد العلماء أو السادة أو الفقهاء تحاول النسوة أخذ شيء من ماء الغسيل الذي يغسل به الميت ويضعنه على أيديهن ووجوههن أو يشربن منه بقصد البركة. ولو كان هذا الرجل حياً لقال لهن: أنتن من ذوات الأخلاق غير الحميدة.

الفصل الثّالث
التّعليم في مكّة المكرّمة

إن بعثة الرسول الكريم ﷺ لم تقتصر على نشر العقيدة الإسلامية، بل تعدتها إلى وضع الأسس الأولية للمعارف العلمية عند العرب. وقبل الإسلام كان الشعراء هم أهل المعرفة. وبجانب الإنجازات التجارية التي امتاز بها العرب، نجد بعض فروع المعرفة التي تناقلها بعض أفراد المجتمع، مثل السحر والكهانة والتطبيب. وفي رأي المؤمنين بهذه الرسالة، فإن النبي الأمي قد وضع حداً للجاهلية، كما وضع حداً للمعارف التي كانت سائدة، والتي كانت عبارة عن خدع وحيل شيطانية. وعن طريق الوحي الإلهي فقد تلقى النبي الأمي آيات القرآن الكريم التي أصبحت مصدر التشريع لأصحابه فيما بعد. لقد كانت هذه الكلمات الموحاة عن الله تعالى بوساطة رسوله هي مصدر المعرفة الحق للتشريع.

إن القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لم يكونا يحويان علوماً محددة بعينها، فإن مهمة الرسول ﷺ[1] لم تكن لهذا الغرض، وإنما هي أن يوصل إلى أمته الأمور التنظيمية[2] التي عرفت عند الأقوام السابقين، والتي كانت نمطاً من أنماط حياتهم السائدة. إن آيات القرآن الكريم حتى الهجرة كان طابعها التهديد والوعيد للمشركين، والترغيب والتشويق بصور الجنة، وكذلك

(١) مهمة الرسول ﷺ هي الدعوة إلى توحيد الله وتبليغ رسالة السماء وشريعة الله الخالدة، وليست مهمته إيصال الأمور التنظيمية إلخ... إلا بقدر ما ورد في الوحي لأهداف وحكم لا تخفى.

(٢) التشريع الإسلامي جاء بالقواعد الأساسية العامة لجميع متطلبات الحياة الضرورية وغيرها.. إما قرآناً يتلى أو سنة نبوية عن الرسول الكريم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم، الآية: ٤].

نقل قصص الأمم الأخرى للعبرة، وأما القوانين التفصيلية لأمور الحياة العامة فقد كان الاهتمام بها محدوداً في مجتمع المسلمين الصغير في مكة. أما بعد الهجرة فإن الرسول الكريم كان القائد والمشرع بين أصحابه، يرجعون إليه في كل صغيرة وكبيرة. وقد كان التشريع مقتصراً على الأمور الضرورية حتى لا يلزم الرسول أصحابه بقواعد ثابتة في أمور كثيرة التغير. إن معظم الأجزاء التشريعية في القرآن الكريم تنزلت على الرسول ﷺ خلال فترة طويلة وبحسب الظروف والمناسبات بوصفها وسيلة لفض النزاع الحاصل بين أفراد المسلمين.

لم يكن في القرآن نظريات وقوانين؛ لأنها لا تناسب طبيعة الرسالة السماوية، كما أنها تتنافى مع الحكمة في إرسال النبي، ولم يكن المؤمنون بهذه الرسالة واضعي نظريات، وبذلك استمرت ثورة الإسلام الهائلة لتكون قوية الجذور في الأرض العربية، ولم يقم المسلمون من جانبهم بمعارضة هذه القوانين الإلهية بدافع إيماني لكونها منزلة. إن كل مشكلة من مشكلات الحياة هي أمر ديني لا يمكن حله إلا بكلمة من الله ورسوله.

لقد كان الجيل[١] الثاني من الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ أشد تعصباً ضد الوثنية. ولقد طرأت مسائل جديدة نظرية وعملية في هذه الفترة. وقد كانت المدينة المنورة خلال ثلاثين سنة من وفاة الرسول هي مقر الحكومة الإسلامية، كما كانت المنتدى الذي نوقشت فيه الحلول العملية لهذه المسائل. ولم تكن هذه المشكلات بأقل أهمية للحياة العامة والعقيدة من تلك التي[٢] قررها الرسول الكريم وجاء بها الوحي الإلهي. وحينما انتقل

---

(١) ليس هذا الجيل أفضل من جيل الصحابة رضوان الله عليهم وأشد على الوثنية، وليس ذلك تعصباً بل هو تمسك بالحق ونبذ الشرك.

(٢) لقد كانت الأمور الجديدة تعرض على الكتاب والسنة أولاً. فإن لم يكن هناك مجال لحلها فكانت تحل عن طريق الإجماع أو القياس، وبذلك برز الإجماع والقياس مصادر جديدة للتشريع الإسلامي. وعلى العموم فإن الإجماع والقياس والمصالح المرسلة تعتمد في خطوطها العامة على ما ورد في الكتاب والسنة وهما مصدرا التشريع الأساسان.

الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى انقطع الوحي الذي كان يتنزل عليه. وقد رجع المسلمون إلى أحاديثه وسيرته يتلمسون الحلول للمشكلات التي لم ترد لها حلول في القرآن الكريم. وأصبحت السنة المصدر الثاني للتشريع توازي بأهميتها نصوص القرآن الكريم. لقد وجد في ثنايا الأحاديث بعض المنسوبات التي لم تثبت عنه ﷺ وقد استعملت للاستشهاد بها لدعم وجهة نظر معينة. وإن هذا الاتجاه يمكن معرفته عند مقارنة الأحاديث الواردة في موضوع معين، كما يمكن تلمسه من خلال مجريات الأحداث التاريخية في العالم الإسلامي في تلك الفترة. وكما هو الحال عند المذاهب المختلفة في المسيحية التي يدّعي أصحاب كل مذهب منها أنهم الوحيدون الذين يفسرون الإنجيل بالطريقة الصحيحة، وأن غيرهم غير مؤهل لهذا التفسير، نجد شبيه ذلك عند الفرق[1] الإسلامية التي يرى كل منها أنه على صواب وأن غيره على خطأ. إن كل فرقة من الفرق الإسلامية تنتسب إلى الرسول الكريم وإلى تعاليمه وأخلاقه، وإن هذه الانقسامات التي كان ينجم عنها خلافات كبيرة في الرأي تستمر قرونًا طويلة، سرعان ما تزول بحيث يمكن القول إن الغالبية العظمى من جمهور المسلمين لا تتأثر بها.

وخلال الثلاثين سنة الأولى بقيت المدينة المنورة قاعدة السلطة التشريعية والتنفيذية، وكانت القرارات التي اتخذت في هذه الحقبة على جانب عظيم من الأهمية. إن انتقال الخلافة الإسلامية إلى أيدي الأمويين كان يعني بداية فصل الدين عن الدولة[2]، حيث إن السلطة السياسية بدأت تتركز في دمشق، أما

---

(١) ليست الفرق الإسلامية في خلافاتها المذهبية كالمذاهب المسيحية. فاختلاف المذاهب المسيحية اختلاف جذري في أصول العقائد المتعلقة بالمعبود. أما اختلاف الفرق الإسلامية فهو اختلاف في الفروع الاجتهادية التي لا تمس العقيدة وأصولها المتفق عليها.

(٢) إن نظرية فصل الدين عن الدولة نظرية غربية أملتها الظروف التي أحاطت بالديانة النصرانية، أما في الإسلام فالدين والدولة شيئان متلازمان. والإسلام نظام شامل فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء ورحم الله القائل: «إذا قيل لكم إلام تدعون؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه فإن قيل =

النواحي الدينية فقد بقيت في المدينة المنورة. وقد كان هنالك صراع يظهر أحياناً ويختفي أحياناً أخرى بين أهل المدينة ورجالاتها وحكام المسلمين في دمشق، إلا أن خلفاء دمشق لم ينسوا أن يبقوا على سلطاتهم في المدينة، كما أن التابعين من أبناء الصحابة لم يروا في الجانب الدنيوي من الإسلام، والذي تبناه الأمويون أي خروج عن تعاليم الشريعة.

ولم تمض مدة حتى قصر رجالات المدينة المنورة اهتماماتهم على الجوانب الدينية مع اعترافهم بالسيطرة السياسية لخلفاء دمشق. وهكذا ظهر مذهب الإسلام الفكري الذي نما فيه العلم بعيداً عن التأثيرات السياسية، على الرغم من أن هذه التأثيرات السياسية والاجتماعية قد أخذت بعين الاعتبار. ولما كانت الأمور المهمة يبت فيها أحياناً دون رأي علماء الشريعة فلم يخف هؤلاء رفضهم للحكومة القائمة بوجه عام. ولقد نجم عن ذلك أن المدرسة الفكرية قد اهتمت كثيراً بالمسائل النظرية. ولقد ازداد الاهتمام بهذه المسائل من خلال النصارى واليهود الذين دخلوا في الدين الجديد، والذين أسهموا في سد بعض جوانب الثقافة التي لم تكن موجودة عند العرب من قبل.

علوم الحديث

إن مجموعات الأحاديث النبوية كانت المصدر الأساس للمعرفة في الموضوعات التي اشتغل بها رجال الشريعة في القرون الأولى للإسلام، وفي خلال هذه الفترة كانت جميع النتائج المهمة لهذه الدراسات منسوبة إلى النبي ﷺ.

إن المشكلات التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي كانت تجد إجابتها في الأحاديث النبوية، إذ لم تكن العلوم قد تفرعت بعد إلى علوم تخص العقيدة والتاريخ الديني والأخلاقيات. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الفقه والتشريعات المنظمة للحياة الاجتماعية، مثل النظافة الشخصية، والمظهر العام، وأنواع اللباس، وغير ذلك من الأمور، التي كانت تبحث جنباً إلى جنب مع موضوعات أخرى مثل اختيار الخليفة وقوانين الخراج والجزية.

= لكم هذه سياسة فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام».

ولم يهمل هؤلاء الباحثون الموضوعات الطبية التي حلت محل العلاج القديم المرتبط بالسحر والشعوذة، وكذلك موضوعات الأدوية وأنواع الغذاء وكذلك أسباب انتشار الأمراض، أهي بالوراثة أم بعدوى الملامسة؟ وبالاختصار فإن كل الموضوعات السابقة مهمة يتلمس لها الحلول بما ورد عن النبي ﷺ من نصوص وأحاديث. وعلى الرغم من الخلافات الجانبية فإن الإجماع الإسلامي كان منعقداً على كتاب الله الكريم وعلى سنة رسوله ﷺ، أما الاختلاف فقد كان ذا أهمية قليلة أمام الإجماع على الكتاب والسنة، ويعدُّ هذا الخلاف رحمة للمسلمين.

لقد استغرق جمع الحديث النبوي الشريف قرابة مائتي عام، وفي أثناء ذلك تطورت المعارف العربية تطوراً كبيراً إذ دخلت إليها التأثيرات الإغريقية من غرب آسيا وشمال شرق إفريقية، وشملت جميع المعارف الموجودة في ذلك العصر، وإذا تركنا جانباً النواحي الدينية فإن الطبقات العليا من المجتمع الإسلامي قد تأثرت تأثراً كبيراً بالحضارة الإغريقية. إن الحضارة اليونانية بمعارفها العلمية الواسعة لم تستطع أن تصمد أمام الغزو العربي في ظل الإسلام. ولقد تبع الانتصارات العظيمة للمسلمين دخول الكثير من الناس في الدين الجديد.. وقد أظهر سكان البلاد المفتوحة تفوقاً كبيراً في ميدان العلوم بمجرد أن تعلموا اللغة العربية.

ظهور المعارف العربية

لقد كان تعلم اللغة العربية بداية تمهيدية اقتضت مجهودات كبيرة قام بها غير العرب في إرساء قواعد البحث العلمي المنظم. ولقد اتبع هذا الأسلوب في دراسة الموضوعات الأولية كقواعد اللغة العربية والبلاغة والمنطق والعروض والشعر وتصنيف القواميس. وقد أبدى علماء الحديث تحفظات على الاهتمام الكبير الذي نالته مثل هذه العلوم بدرجة أكبر مما نالته العلوم الإسلامية، غير أنهم كانوا يرون ذلك ضرورياً تمهيداً لدراسة العلوم الشرعية. إلا أنّ الاهتمام تعدى ذلك إلى جعل هذه العلوم التي هي في الأصل وسائل لفهم العلوم الشرعية غاية تطلب لذاتها من قبل الكثير من أفراد الطبقة المثقفة في المجتمع الإسلامي. ولقد زاد الأمر سوءًا حينما طبقت أساليب المنطق اليوناني على العلوم الدينية في بلاد الشام والعراق.

ولقد انطلقت صيحات التحذير من المدينتين المقدستين مكة والمدينة لتجنب مثل هذه الأمور، غير أن تأثير هذه التحذيرات لم يكن ملموساً، وذلك لأن المدينتين المقدستين فقدتا سيطرتهما على بقاع العالم الإسلامي.

إن عدم رضا العلماء في المدينتين المقدستين مكة والمدينة لا ينفي الحقيقة الماثلة بأن علماء الشام والعراق يمثلون قطاعاً كبيراً من المجتمع الإسلامي. ولما كان الإسلام لا يعترف بفارق بين المسلمين القدامى والجدد، وبما أن هؤلاء العلماء يمثلون في الغالب وجهة نظر الشعوب التي يعيشون بينها، كل هذه الأمور أجبرت علماء المسلمين القدامى في مكة والمدينة على قبول التحديات الجديدة.

أما في ميدان تفسير العلوم الشرعية فقد كانت النتيجة لصالح علماء المسلمين التقليديين في مكة والمدينة؛ لأن الجهود التي بذلت في هذا المقام تمت في الجزيرة العربية ومن قبل العلماء العرب. وقد تلقى علماء البلدان المفتوحة ذات الحضارات القديمة أعمال هؤلاء بالرضا والقبول، إذا وافقت هذه الأحكام البيئة المحلية الجديدة. غير أنه كانت تعطى في بعض الأحيان تفسيرات مخالفة. كما كان لديهم الحق في حل المسائل الجديدة بطرق مستقلة عن الحلول المطروحة سابقاً. ولم يؤد ذلك على المدى البعيد إلى وجود خلاف كبير حول المبدأ الأساس المتبع. وعلى مر العصور كانت تنجم صعوبات جديدة في فهم نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان الناس في كل عصر يرجعون إلى ما كتبه علماء العصور السابقة لمعرفة الأحكام التي استنبطوها والحلول التي وضعوها. واختفت المعارضة التي كانت قائمة حول فصل الفقه (العلم بالأحكام الشرعية) عن مصادر التشريع. إذ إن الغالبية العظمى من العلماء كان هدفها معرفة الأحكام الصحيحة المستنبطة من مصادر الشريعة. أما مصادر الشريعة ذاتها فقد أصبحت بعد هذا الفصل علماً خاصاً يتولى البحث فيه علماء أكثر دراية، كما أن موضوعات البحث فيه كانت ترفا علمياً.

ظهور المدارس الفكرية

لقد انقسم الفقه إلى عدد من الموضوعات التي أصبحت تدرس من قبل أناس متخصصين في هذا المجال. فقد وجدت ثلاث معارف هي: تفسير القرآن الكريم، وتفسير الأحاديث النبوية، ونظرية استنباط الأحكام، أو ما يعرف باسم علم أصول الفقه. وأصبحت هذه الموضوعات تدرس للطلبة بعد أن يأخذ الطالب شيئاً من المعرفة في العلوم التمهيدية أو الأولية التي سبقت الإشارة إليها. وبالإضافة إلى ما سبق فإن للفقه مجالات أخرى، ويحتاج إلى زمن طويل لإتقانه. ولم يكن للمنطق دور كبير في تفسير الشريعة. وتحت وطأة التأثيرات غير العربية، دخلت إلى العلوم الشرعية بعض الأساليب التي تعتمد على المنطق. غير أن علم المنطق قد تضاءل كثيراً أمام علوم الحديث.

وعبر القرون المتتالية كان المسلمون يبتعدون عن أخذ الأحكام من القرآن والسنة مباشرة. وقد وجدت وجهات نظر متعددة حول الكثير من القضايا المطروحة، الأمر الذي نجم عند الكثير من المدارس الفكرية التي أخذت تتضاءل في عددها إلى أن انتهت إلى أربع مدارس فكرية هي المذاهب الأربعة. ومن الجدير بالذكر أن كل مذهب من هذه المذاهب يعترف بالمذاهب الأخرى. وإذا استثنينا المذهب الشيعي وبعض الفرق الصغيرة، فإن على المسلم أن يتبع أحد هذه المذاهب، وأن يلتزم بأحكامه وشروطه، وإذا أراد دراسة مصادر التشريع وجب عليه أن ينظر من خلال منظار مذهبه ومن خلال علماء المذهب القدامى.

إن دراسة القرآن الكريم لأغراض التعبد تلقى عناية كبيرة وتأخذ وقتاً وجهداً كبيرين من طلاب العلم، فقراءة القرآن في المدرسة لا تكفي بل يحتاج طالب العلم إلى تحصيل معرفة واسعة بأمور التجويد، ذلك الفن الصعب الذي يعالج الترتيل وطريقة النطق ومختلف أشكال القراءات.

المعتزلة

لم تكن العلاقة بين القديم والجديد في أمور العقيدة كتلك التي رأيناها في أمور التشريع والفقه، فالإسلام قد قرر ميلاد نظرية جديدة في العقيدة مخالفة لما كان عليه العرب في الجاهلية. ولقد أبدى المعتزلة مهارة فائقة في مناقشة أمور العقيدة، غير أن أهل السنة في دفاعهم عن العقيدة كانوا يلتزمون بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في الرد على هؤلاء المعتزلة. وإذا كانت أمور

التشريع قد تبنت المنطق الجديد في الأمور السطحية لا الجوهرية، فإن ميدان العقيدة قد شهد استخدام المنطق الجدلي في الرد على الخصوم، في المناقشات والصراعات التي كانت تدور حول العقيدة. والكتب التي خلفها هؤلاء كانت تناقش وتدحض الآراء الإلحادية بالسلاح الجديد وهو المنطق الجدلي. غير أن النتيجة لم تكن وجود نظام واضح يعتمد على المنطق في الرد على الخصوم، وإنما كانت النتيجة وجود صراع شديد بين السنة والمعتزلة ارتبط بهذا الموضوع.

لقد وضع دارسو العقيدة شروحاً مطولة في الدفاع عن العقيدة أمام الإلحاد مستخدمين المنطق التقليدي وبعض المصطلحات الفلسفية. غير أن النتيجة السيئة هي أن المسلمين من خلال معرفتهم بالفلسفة الإغريقية قد تسربت إليهم الكثير من الأمور التي كانوا يعتقدون أنها خاطئة. فلقد كان رجال الشريعة يؤكدون أن المنطق والفلسفة هي مجرد أدوات حالها في ذلك كحال اللغة العربية والأدب.

الإسلام والعلم

إن الإسلام كأي نظام ديني آخر ليس على وفاق تام مع العلوم الطبيعية والرياضية؟![1]، ومع هذا فإن الرجل المتدين لا يستبعد بالضرورة دراسة الفيزياء على الرغم من أنها لا تساعد في زيادة الوعي الديني لديه. ونجد علماء الشريعة في الغالب لا يحبذون الخوض في قوانين الخلق. فليس هناك قوانين في الطبيعة، وإنما هناك قدرة الخالق التي يمكن أن تغير طلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وعلى الرغم من كل ذلك فما زالت هذه العلوم الطبيعية تحتل مكاناً سامياً في الإسلام، ولم تكن في يوم من الأيام أداة تخريب لثقافة المسلم. إن العلوم التجريبية الخالصة لم تنسب مطلقاً إلى معارف الإسلام. أما الرياضيات فكانت الحاجة إليها لتطبيق قوانين

---

(١) إن الإسلام ليس كالأديان الأخرى التي تناهض العلم، فالدين والعلم لا تناقض بينهما في الشريعة الإسلامية؛ لأن الحقائق العلمية اليقينية لا تتنافى مع الحقائق الدينية، إذ كلاهما من مصدر واحد، أما ما يبدو من تناقض ظاهري في بعض الأحيان بين بعض الحقائق العلمية والدينية فمرده إلى أن بعض الأمور العلمية هي مجرد نظريات قد يثبت خطؤها بعد حين، أو أن بعض الحقائق الدينية من الأمور التي ليست قطعية الثبوت والدلالة.

الإرث، وكذلك تعيين مواعيد أوقات الصلاة، وتعيين اتجاه القبلة. غير أن هذه الموضوعات لم تكن لتدرس من خلال دوائر بحث تخصصية[1].

---

(١) علق الشيخ حمد الجاسر على الصفحات السابقة بقوله:
خصص «سنوك» الفصل الثالث من هذا الجزء للحديث عن «التعليم في مكة المكرمة» ويعد هذا الفصل من أوسع مباحث الكتاب وأغزرها معلومات، ففي الفصلين اللذين قبله يوشك أن يقتصر الحديث على مجرد وصف ما شاهد «سنوك» من مظاهر الحياة مع ملحوظات يسيرة عابرة، يضيفها إلى تلك المشاهدات.
أما في هذا الفصل فقد بدأه بتناول قضايا علمية يرتكز إدراكها على التفكير العقلي العميق، والمعرفة الواسعة بأصول المعارف والعلوم عند المسلمين، ويبدو أن هذا المستشرق مزجى البضاعة بهذه الناحية، ولهذا وقع في مقدمة ما كتب في هذا الفصل في بعض أمور دالة على قصور معرفته، وهذا مما لا داعي للتوسع في بحثه، وإنما أكتفي بالإشارة الموجزة إلى بعض ما عرض لي منه.
لقد تحدث عن علوم العرب في العهد الجاهلي فحصرها بقوله: «وقبل الإسلام كان الشعراء هم أهل المعرفة، وبجانب الإنجازات التجارية التي امتاز بها العرب نجد بعض فروع المعرفة التي تناقلها بعض أفراد المجتمع مثل السحر والكهانة والتطبيب».
كذا قال مع أنه فيما سبق من كلامه، عد التطبيب قائماً على أسس خرافية في الغالب، وكذا السحر والكهانة فهما من هذا القبيل، وما كانت المعرفة عند العرب تقتصر على ما يتصف به شعراؤها منها، بل كانت لهم معرفة واسعة في مختلف مظاهر الحياة المعروفة في بلادهم، ففي اليمن عرفت السدود لحصر مياه السيول، والاستفادة بها في الزراعة، وفي إقامة المحافد وهي القصور العظيمة المنشأة على قواعد هندسية بارعة، كما يتمثل هذا في آثارها وفيما استطاع علماء الآثار من كشفه مما يتعلق بجميع أحوال سكانها.
ولا تقتصر تلك الآثار الدالة على تقدم العرب في جوانب من هندسة العمران وإتقانه على ما عرف في جنوب الجزيرة، بل كشفت آثاراً أخرى في شمال الجزيرة ووسطها وشرقها، وليس المجال مجال توسع فيما للعرب من مختلف العلوم.
أما في العهد الإسلامي فقد أشار إلى أن بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام لم تقتصر على نشر العقيدة الإسلامية، بل تجاوزت ذلك إلى وضع الأسس الأولى للعلوم عند العرب.
وإنه بهذا يقرر ما سبق أن أشار إليه من ضحالة حظ العرب في العلوم، وكان الأولى أن يكون تعبيره أدق وأشمل، كأن يقول مثلاً: بأن تلك الرسالة المباركة قامت بوضع الأسس الأولى للعلوم الشرعية، مما وضع حداً لبعض ما كان متعارفاً في العهد الجاهلي من وسائل الخداع التي ينظر إليها بصفتها من العلوم كالكهانة والسحر وأمثالهما.
ولعل من هفواته، زعمه أن القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لم يكونا يحويان علوماً محددة بعينها.
وهذا جهل منه بحقيقة الشريعة الإسلامية التي تكفل القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه =

= الصلاة والسلام بإيضاح جميع أصولها وقواعدها، ولا يستغرب منه الجهل بمثل هذا، ففي عباراته يدل على أن نظرته إلى رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام نظرة يعتريها الشك، يتضح هذا من قوله: «وفي رأي المؤمنين بهذه الرسالة، فإن النبي الأمي قد وضع حداً للجاهلية، كما وضع حداً للمعارف التي كانت سائدة، والتي كانت عبارة عن خدع وحيل شيطانية». وقد قرر أن الأحاديث النبوية كانت المصدر الأساس للمعرفة لدى علماء الشريعة في القرون الأولى للإسلام، كما قرر أن المشكلات التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي تجد إجابتها في الأحاديث النبوية، إذ لم تكن العلوم قد تفرعت بعد، ويمكن أن يقال هذا عن الفقه والتشريعات المنظمة للحياة.

وأضاف إلى ذلك علوماً أخرى ذات صلة باختيار الخليفة وقوانين الخراج والطب وأنواع الغذاء قائلاً: «وبالاختصار فإن كل الموضوعات السابقة يتلمس لها حلول بما ورد عن النبي ﷺ من نصوص وأحاديث».

ثم أشار إلى موضوع الاختلاف بين المسلمين قائلاً: «وعلى الرغم من الخلافات الجانبية فإن الإجماع الإسلامي كان منعقداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الاختلاف فقد كان ذا أهمية قليلة أمام الإجماع على الكتاب والسنة، ويعد هذا الخلاف رحمة بالمسلمين».

ما دام الاجتماع منعقداً على كتاب الله وسنة رسوله، فلماذا الخروج عن هذا الإجماع، وقد أمر الله عباده بألا يختلفوا بعد أن أوضح لهم أن بالاختلاف أهلك الأمم السابقة، فقال جل ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة، الآية: ١٧٦]. وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ [آل عمران، الآية: ١٠٥]. وقال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة، الآية: ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات، وهذا المستشرق عاش في عصر جمود فكري سيطر على العالم الإسلامي فانتشرت الضلالات والبدع والخرافات وضعف العلم، فتصدى الجهال للقيام بما كان مختصاً بالعلماء المحققين من أمور التوجيه والإرشاد، فضلوا وأضلوا حتى شاعت هذه الفكرة التي تمجد الاختلاف، بل تنسب إلى المصطفى ﷺ ما لم يقل: «اختلاف أمتي رحمة» وكيف يكون الاختلاف رحمة وهو سبب الفرقة التي هي سبب كل شر.

ومع أن «سنوك» قرر فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية قامت على قاعدتين هما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلا أنه أضاف إلى هذا إضافات ينبغي الوقوف عندها فقد قال: «لقد استغرق جمع الحديث النبوي قرابة مائتي عام، وفي أثناء ذلك تطورت المعارف العربية تطوراً كبيراً، إذ دخلت إليها التأثيرات الغربية وشملت جميع المعارف الموجودة في ذلك العصر».

قد يصح القول بتأثر بعض العلوم العربية التي لا صلة لها بالعلوم الشرعية بالأفكار الإغريقية من حيث منهج التدوين، وتنظيم قواعده في العلوم اللغوية، وفي طرق التأليف.

ومع أنه استدرك في آخر الكلام قائلاً بعد الإشارة إلى تأثير المنطق اليوناني على العلوم الدينية في الشام والعراق: «ولقد انطلقت صيحات التحذير في المدينتين المقدستين مكة والمدينة =

المعارف العلمية

يتطلب الأمر منا في هذا الكتاب أن نذكر بعض فروع المعرفة الأخرى، التي تعهدها المسلمون وخاصة في المدينة المقدسة، قبل أن ندخل قاعة المحاضرات الضخمة في مكة (المتمثلة في الجامع الكبير ـ الحرم) لنسمع أساتذة العلوم الدينية المذكورة سابقاً، ولنعرض بعض الأمثلة خارج هذه الدائرة العلمية[1].

الطب، الفلك

الطب كما سبق وصفه مجرد حرفة وليس علماً، وقد يعمد بعض الهواة لكتاب طبي قديم إذا تطلب الموقف ذلك، أما في الفلك فالريس (رئيس

= لتجنب مثل هذه الأمور، غير أن تأثير هذه التحذيرات لم يكن ملموساً، وذلك لأن المدينتين المقدستين فقدتا سيطرتهما على بقاع العالم الإسلامي».
ولكنه أضاف بعد ذلك أن هذه الأمور أجبرت علماء المسلمين في مكة والمدينة على قبول التحديات الجديدة.
أراني قد استرسلت فيما طرقه المستشرق «سنوك» من البحث في موضوعات ذات صلة عميقة في نشأة العلوم والمعارف الإسلامية لألفت النظر لأن في آرائه ما هو جدير بالرفض، ومنها ما يستدعي التعمق في بحثه، ولن أطيل بذكره، وتكفي الإشارة إليه.
وتحدث بعد ذلك عن ظهور المدارس الفكرية الناشئة، عن تجدد آراء وأفكار حول تفسير القرآن الكريم، وتفسير الأحاديث النبوية وطريقة استنباط الأحكام أو ما يعرف بـ «علم أصول الفقه» مشيراً إلى أن تلك المدارس انتهت إلى أربع، هي المذاهب الأربعة المعروفة، وأشار إلى ظهور المعتزلة قائلاً: «فالإسلام قد قرر ميلاد نظرية جديدة في العقيدة مخالفة لما كان عليه العرب في الجاهلية، ثم أثنى على المعتزلة في مناقشة أمور العقيدة مع التزام أهل السنة في دفاعهم عنها بنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية في الرد عليهم»، وتوسع في الحديث في هذا المبحث.
ومن جهله بحقيقة الإسلام زعمه «أن الإسلام كأي نظام ديني آخر وليس على وفاق تام مع العلوم الطبيعية والرياضية أن المعرب الكريم أبطل هذه الفرية، فذكر أن الإسلام ليس كالأديان التي تناهض العلم، فالدين والعلم لا تناقض بينهما في الشريعة الإسلامية، لأن الحقائق العلمية اليقينية لا تتنافى مع الحقائق الدينية كلاهما من مصدر واحد، أما ما يبدو من تناقض ظاهري في بعض الأحيان فمرده إلى أن بعض الأمور العلمية هي مجرد نظريات قد يثبت خطؤها بعد حين، أو أن بعض الحقائق الدينية من الأمور التي ليست قطعية الثبوت والدلالة. «انتهى» (انظر المجلة العربية عدد شعبان، ١٤١٦ ص١٠٠ ـ ١٠١).

(١) لقد ظهرت ترجمة الصفحات العشر التالية في مجلة العرب تحت عنوان «التعليم في مكة مطلع هذا القرن» وقد استفدنا من نص الترجمة السابق مع بعض التعديلات الطفيفة التي اقتضتها ضرورات الصياغة. انظر العرب ج٧، ٨ س١٣ (١٣٩٩هـ) ص (٥٣١ ـ ٥٤٢).

المؤذنين وأيضاً فلكي المسجد) وبعض راغبي المعرفة هم الذين يعرفون التقويم، وتفسير بعض الظواهر السماوية.

الكيمياء

الكيمياء القديمة هي مادة الدراسة العقيمة لمختلف فئات أهل مكة. ولقد عرفت أشرافاً كانوا يأتون من وقت لآخر إلى الطبيب المذكور سابقاً، ومعهم مواد صفراء ناتجة عن محاولاتهم (الكيميائية) ليكشف لهم بواسطة وسيلة اختبار لديه أنه ليس كل ما يلمع ذهباً. وقد عرفت رجلاً مهتماً بالأدب أنفق كل أمواله على كيمياء تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة. وبعد ما فقد كل موارده وفقد رغبته في الدنيا كرس نفسه لدراسة العلوم الدينية. وأعرف شيخ السادة كان من الباحثين عن الذهب. ولذلك فإنه لا وجه للاستغراب في مطاردة هذا العمل العلمي الذي يتم في الخفاء. إن مسألة النفع من الكيمياء تجد استجابة ترضي معظم الناس. فالأتقياء يعرفون أن الله قادر على أن يغير من خلقه وأن يحول عنصراً إلى عنصر آخر، كما فعل في عصا موسى حينما تحولت إلى ثعبان، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه، الآيتان: ١٩، ٢٠]. ولكن الرجل من أهل مكة يرفض استخدام نتائج العلوم الحديثة قائلاً: لقد أتت هذه الاكتشافات بالشر أكثر من الخير. وبالنسبة للطب الحديث يقول الرجل من أهل مكة: إنه لم يحقق شيئاً ضد الموت.

الجغرافية

الجغرافيا موضع اهتمام من جوانب عملية متعددة، حيث يبحث أهل مكة في البلاد الأصلية للحجاج وتجارتها وحكوماتها واحتمالات الربح المأمول مع أهلها، ولم يعيروا بالاً لموقع لندن وباريس، فقد سمعت مرة رجلاً مرموقاً قرأ عن الأندلس في كتب التاريخ يسأل: إن كان هناك ثمة اتصال بري بين روسيا وأسبانيا، وكم تستغرق القافلة بين البلدين، وكان ذلك إبان نشوب الحرب التركية ـ الروسية. إن من يسافر من أهل مكة هو الذي يستفسر عن مثل هذه الأشياء.

التاريخ والسير

منذ الأزمنة القديمة، وقبل ارتباط التاريخ بالدعوة المقدسة كالسيرة النبوية وتراجم الصحابة، كان التاريخ مقبولاً وجذاباً لما فيه من عظة

وعبرة، مع أن كتّاب التاريخ تدفعهم عوامل أخرى مثل: كتابة تاريخ موطنهم لتسلية الناس، وكتابة تاريخ الأسر الحاكمة أملاً في مكافأة من الأمير الحاكم.

وفي مكة ومنذ القرن الثالث بعد الهجرة أصبحت الكعبة والبيئة المحيطة بها مركز اهتمام للباحثين في تاريخ البلدة، ومنذ القرن السادس أصبح مقر حكم الأشراف المركز الثاني لاهتمام المؤرخين. وحتى يومنا هذا يوجد رجال مثقفون يشغلون وقت الفراغ في كتابة الحوادث المهمة في حياة البلدة المقدسة. ويمكن أن يقال بصفة عامة: إن الرأي العام الإسلامي له تأثير قوي في المؤرخين مشابه لما له من تأثير في القضاء.

في كل عصر من العصور تدرس حوادث الماضي دراسة جيدة من خلال وجهة نظر العصر الحالي. وخلافات الماضي التي كانت تتشكل أساساً لوجود طراز من الفكر الموحد الجامع لم يعد لها وجود. وهكذا أصبح يطلق على معاوية وعلى عبدالله بن الزبير اللقب الواحد نفسه، وهو «سيدنا» على اعتبار أنهم آباء المسلمين. أما أجداد سيدنا محمد من الوثنيين فهم يعدّون في السيرة النبوية التي وضعها أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية في مكة (عام ١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٦م) من المسلمين المؤمنين وهم على ملة إبراهيم. ومما هو جدير بالذكر والشكر أن مؤرخي أحداث مكة مع عدم الإقبال على مؤلفاتهم، فإن تسجيلهم لأهم أحداث مكة لم يكن يعتريه نقص، مع قلة الرجال المثقفين المهتمين بهذه المؤلفات التي من الخطورة انتشارها لما تحويه من نقد شؤون الدولة وكبار الشخصيات.

المؤلفات المطبوعة والمتداولة

عندما كنت في مكة كان كتاب (تاريخ ابن الأثير) الشهير موجوداً في مكتبات بعض المثقفين، وأيضاً كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان، وبعض كتب التاريخ الأخرى التي تحوي حياة مشاهير الرجال تقرأ كثيراً وتستخدم في إظهار المعرفة في الأوقات المناسبة.

أما كتب التاريخ والسيرة المتعلقة بالعقيدة فإن الإقبال عليها أكثر، مثل سيرة الرسول محمد ﷺ وتراجم الصحابة، وكذلك مؤلفات مؤسسي الطرق

الصوفية والمذاهب المتميزة. وبصفة عامة كتب سير الأولياء. ومثل هذه الكتب تقرأ في مجالس الأصدقاء بغرض التثقيف والاستنارة أكثر مما هو لغرض التعليم.

ومن الأمثلة المميزة كتاب (السيرة النبوية) نقرأ في مقدمته عن وجود الكثير من المؤلفات المطولة في هذا الموضوع، غير أن هذا الكتاب قد نقل المسائل التي تهم هذا العصر. وقد كان الإقبال الفائق على هذا الكتاب، والذي هو عبارة عن سرد للأخبار على نطاق كبير، يبين كيف أن المؤلف قد فهم روح هذا العصر. وعلى الوتيرة نفسها أيضاً ظهر كتاب (تاريخ الفتوحات الإسلامية)[1] وهو مجموعة نصوص ووثائق حكومية، وقد تم طبعه في أثناء إقامتي في مكة في مطبعة الحكومة، التي كانت قد افتتحت حديثاً.

وقبل أن تبدأ المطبعة العمل في مكة كانت معظم المطبوعات العامة تأتي من القاهرة، وفي القاهرة أيضاً كانت تطبع مؤلفات كتّاب مكة، وبخاصة الكتب ذات الطابع الديني، على سبيل المثال كتاب (الأحاديث الستة) للكاتب المكي الشيخ حقي، والمطبوع في القاهرة في عام ١٨٨٢ ميلادية، والذي يبحث في موضوعات كثيرة، ولكنه يركز على التحذير من العادات غير الشرعية، والثقافة الملحدة الحديثة. وخاتمة الكتاب تظهر مضمون الكتاب كله حيث يقول: «من الأشياء التي تؤدي إلى عذاب النار والموجودة في عقول المسيحيين والملحدين، أنهم يضعون على السلع والبضائع التي يستخدمها الناس صوراً للكائنات الحية، حتى إنه أصبح لا يوجد منزل أو متجر أو سوق أو حمّام أو قلعة أو سفينة تخلو من هذه الصور، ربما يكون هذا إشارة إلى الصورة غير المحتشمة الموجودة على غلاف علب الثقاب (الكبريت) المصنوعة في بلاد النمسا، بينما لا يوجد مكان لملائكة الرحمة لينزلوا فيه عدا المساجد، وبعض أماكن قليلة أخرى. وحتى المساجد فإن الصور تدخلها مع المصلين

---

(١) تاريخ الفتوحات الإسلامية. هذا الكتاب يحتوي على تاريخ شامل من وجهة النظر الإسلامية من عهد محمد حتى عام ١٨٨٥ ميلادية. ومؤلفه أحمد زيني دحلان (المؤلف).

الذين يأتون وفي جيوبهم علب السجائر والدخان التي يوجد عليها مثل هذه الصور. لذلك فأنا أحذركم أيها الأخوة»[١].

وفي الكتاب نفسه يذكر طريقة معينة لقراءة السورة السادسة والخمسين من القرآن الكريم (أي سورة الواقعة) بصفتها وقاية مضمونة ضد الفقر أو عدم الإنجاب ويقول أيضاً: إنه إذا علقت امرأة محتشمة هذا الجزء حول رقبتها فسوف يسبب تحقيق رغبتها في عدم الإجهاض.

وهناك مجموعات صغيرة من الحكايات والنوادر مثل كتاب (ألف ليلة وليلة) أو سيرة (عنترة) مألوفة لدى الناس، تقرأ في الأمسيات وفي المقاهى مقابل بعض المال. أما الرجال المثقفون فهم يحتقرون مثل هذه التسلية.

أما أبناء مصر المتمدينون فهم يندهشون للذوق الأوربي في الإعجاب بالليالي العربية، والرجل المثقف قد يسمح لزوجته عند الضرورة القصوى أن تقص عليه مثل هذه القصص إذا كان مؤرقاً ولا يستطيع النوم. والنساء هن فعلاً المحافظات على هذه القصص القديمة، والتي يغيرنها باستمرار ولكن مع بقاء المضمون كما هو.

وبعض المهتمين باقتناء الكتب يحتفظون بمجموعات منها، حريصين عليها حرصاً شديداً، وقد اشتروها لندرتها. وقد عرفت أحد الأشخاص، وكنت قد أديت له خدمة خاصة وقد دعاني لمشاهدة جزء من مكتبته، وكان هذا الجزء من المكتبة يتكون من بعض كتب التراجم المطبوعة في مصر لبعض الكتيبات الأوروبية، وتعدّ من الغرائب نظراً لمحتوياتها الغربية. وقد شاهدت مخطوطاً قديماً ذا حواش قيمة عن القرآن ذلك هو كتاب «الفوائد

---

(١) إن التقاليد ضد صورة الكائنات الحية واسعة الانتشار وصانعو هذه الصور سوف يعذبون عذاباً شديداً يوم الحساب. وملائكة الرحمة لن تدخل بيتاً توجد به هذه الصور. ويقول المؤلف: لقد رأيت أحد الأشراف حضر من السفر وأحضر معه صوراً من شرق الهند. وقد أجاب الشريف على لوم وتأنيب أخيه المؤمن الذي لم يسبق له السفر خارج مكة بأن قال له: إنه لم يقم بنفسه بصنع هذه الصور ويمكن للملائكة أن تؤدي واجبها خارج الباب. وهذا الشريف مثل باقي الأشراف قد قام بجمع كثير من المال من أمراء شرق الهند المسلمين ولو لم يكن غنياً لطرده أقاربه من المنزل لهذا الكلام الذي يقوله. (المؤلف).

والعوايد والزوائد»، وهو فعلاً عمل أدبي يدل على القوة والبراعة، حيث يمكن قراءته بمعان مختلفة من اليسار إلى اليمين ومن اليمين لليسار ومن أعلى إلى أسفل. وإني لا أستطيع أن أحكم، هل هذا الرجل يعرف قيمة هذا المخطوط؟ وعلى الصفحات الأولى توجد بعض أبيات الشعر في مدح محتويات الكتاب وتصفه بأنه يساوي وزنه ذهباً وأن صاحبه الذي يعيره لأحد من المؤكد أنه مجنون. لقد كان هذا الرجل غنياً جداً، وكان يتفاخر بأنه استطاع أن يحصل من صديق له على أحسن ما عنده من الكتب، على الرغم من أنه أيضاً من هواة جمع الكتب. فبعد سنين من الاستعطاف أعاره هذا الصديق مخطوطاً نادراً جداً ليلة واحدة حتى يكون من الاستحالة عليه أن ينسخه في هذا الوقت القصير، ولكنه بعد أن أخذ المخطوط قام بفكه إلى أجزاء وأعطاها إلى عدد من الكتبة الذين قاموا بنسخها، وتم إكمال نسخ المخطوط في اليوم التالي وأعاد المخطوط الأصلي إلى صديقه بعد إعادة تجميعه بعناية كما كان قبل فكه، ولو لم يكن المخطوط يخص صديقه لكان قد ذهب به بعيداً ولم يعده قبل استنساخ نسخة منه. وهو الآن يبحث في الحصول على نسخة من (شرح الإحياء) للغزالي تقع في أربعين جزءًا، حيث يوجد عدد قليل من نسخ هذا الكتاب في بلاد المغرب.

الشعر

يقوم معظم المثقفين بدراسة مجموعات من الشعر العربي مع شرحها وتفسيرها، وأيضاً دراسة كتب الأدب مثل كتاب (العقد الفريد) وبصفة خاصة (مقامات الحريري) ومعظم هذه الكتب أصبحت الآن محفوظة في الذاكرة.

وهذه الدراسات لها أهمية كبيرة لكونها لها فائدة بطريق غير مباشر في دراسة العقيدة. كما أن من علامات الثقافة للرجل قيامه بتلاوة بعض الشعر في المجالس (القيلات). وليس هناك سن معين لبدء هذه الدراسة، حيث يتوقف ذلك على درجة المعرفة لرب الأسرة.

الخط

ويمكن أن يقال مثل هذا عن فن (الخط العربي). ودروس الكتابة التي يقوم بها معلمو القرآن تكفي الأغراض العادية، ولكن الذي يرغب في أن

يعلم ابنه تعليماً راقياً عليه أن يعهد به إلى خطاط ماهر. وهناك من الأطفال من يتعلم الخط مباشرة بعد أن ينتهي من مدرسة الأطفال، وهناك من يؤجل ذلك. وعندما ينتهي الطفل من الدراسة الكافية يقوم بكتابة لوحة اختبار جميلة طبقاً لأحد أشكال الخطوط، وهذه اللوحة توضع في إطار مزين ومحلى، يتكون عادة من بعض الآيات والأحاديث القدسية، وفي الإطار نفسه تتكرر أسماء الله والرسول والخلفاء الأربعة.

الترتيل والتجويد

وهناك أمر مهم يبدأ بعد الانتهاء من مدرسة تحفيظ القرآن، ألا وهو فن تلاوة القرآن (التجويد). والعرب أنفسهم يجدون صعوبة في تحقيق النطق السليم المتناغم الأصوات في الصلاة. وكذلك الحروف الأنفية. وبعض التفاوت اليسير في الأنغام المنصوص عليها في كتب التجويد. والشخص الأوروبي الدارس، والمدرب جيداً على أداء الأصوات سوف يأخذ في أحسن الأحوال أسبوعاً لكي يتعلم بدرجة معقولة قراءة السورة الأولى من القرآن (الفاتحة) والتي تتكون من سبع آيات فقط.

وإنني لن أنسى أول يوم جمعة لي عندما حضرت في المساء في منزل المفتي التلاوة الأسبوعية لأجزاء من القرآن لأشهر المقرئين. فقد سمعت قبل هذه الليلة تلاوات كثيرة على درجات متفاوتة من حسن الأداء. حتى إن التلاوة كانت مألوفة بالنسبة لي. لقد كان هناك الكثير من القراءات لهذه التلاوة. وفي العادة يقصر المقرئ نفسه على نوع واحد من هذه القراءات التي اعتادها منذ الصغر. إن ما سمعته تلك الليلة كان مزجاً لمخارج الكلمات الصعبة النطق مع أكثر الأنغام صعوبة وتعقيداً، بالإضافة إلى تغير نبرة الصوت مع مضمون النص القرآني، حيث تكون نبرة الصوت هادئة مع الأجزاء القصصية، ولكن عندما يدعو الله الكفار يكون الصوت هادراً أو باكياً، بحيث يؤثر بسرعة في المستمعين. ويكون الصوت هازئاً ضاحكاً في الجزء الذي يتوعد الله فيه الماكرين الأشرار يبشرهم بجهنم. ولكي يمكن تمييز هذه التلاوات يحتاج المرء إلى خبرة طويلة. والمستمع الذي لا خبرة له يندهش لتمايل جسم المقرئ، وللنبرات المرتفعة جداً، بحيث إن المقرئ

نفسه أحياناً يضرب على أذنيه من صوته الصارخ، وعندئذ تكون عروق رقبته قد انتفخت إلى حد الانفجار.

وإنني على قناعة تامة من أن أي شخص أوروبي حضر تلاوة، مثل التي سبق وصفها، سوف يعود بانطباع أن هذه الضجة الرهيبة ضجة عصبية. ولكن المقرئين أبعد ما يكونون عن العصبية، وهم كالمغنين ومطربي (الأوبرا) يظهرون انفعالات لا يشعرون بها أنفسهم، وهؤلاء المقرئون يتميزون بالخيلاء والغرور والغيرة والنزوات، مثلهم مثل الفنانين في أوروبا. وعندما لا يرضيهم الأجر المدفوع لهم، أو عند المساس بكبريائهم، فإن أداءهم يكون مشوباً بالإهمال، وقمة السعادة عندهم عندما يوصف أحد مشاهير القراءة من زملائهم بالخطأ في التلاوة. والناس عموماً لا تعزو التأثير الساحر للتلاوة في قلوب البشر إلى مهارة المقرئ، ولكن إلى أن القرآن هو المعجزة الكبرى، والذي عرّفه البدوي عندما سمعه أول مرة بأنه صوت السماء الذي تلين له القلوب المتحجرة بالأنين والبكاء عند سماعه، وتهتف الحناجر عند كل وقفة (يا رب) (الله أكبر) ومثل هذه الهتافات تصاحب كل التلاوات، ولو كان القارئ غير ماهر، وهذه الهتافات تعدّ تشجيعاً للقارئ، مثل التصفيق للمغني في أوروبا[١].

والرجل الذي يتمتع بموهبة الصوت الجميل، والذاكرة المناسبة، قد يصبح من مشاهير القراء، وما عليه إلا أن يقوم بحفظ بعض أجزاء من القرآن وترتيلها بطريقة صحيحة. أما بالنسبة لطلبة الدراسات الشرعية فإن دراسة تجويد القرآن مادة أساسية، كما أن حفظ القرآن كله هدف أسمى للجميع.

---

(١) ذكر الجاسر أن ما كان يحدث بمكة في ذلك العهد، كان يحدث في غيرها حتى عهدنا الحاضر من بعض المقرئين الذين يصرفون انتباه المستمع إلى أصوات المقرئين المنغمة. وكذلك ما يقاطع القراءة من الهتاف مما ليس مشروعاً عند تلاوة القرآن الكريم التي أمر الله عند سماعها بالإنصات ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف، الآية: ٢٠٤] (المجلة العربية، عدد شعبان ١٤١٦هـ ص١٠٢).

وفن التجويد يتم تعليمه بطريقة خاصة فردية في منازل المدرسين، ويتم تطبيقه بواسطة الطلبة كل بمفرده، وخاصة في الصباح في الأماكن الخالية من ساحة المسجد. وأحياناً تجد في المسجد بعض هؤلاء الطلبة يمارسون التلاوة تحت إشراف المعلم، ولكن هذا لا يتبع الدراسة الرسمية التي تتم في المسجد تحت إشراف شيخ العلماء، لذلك تجد أحياناً كثيرة معلماً رسمياً يقوم بإلقاء محاضرة عن نظرية التجويد ثم يقوم بقراءة نص قرآني بالطريقة الصحيحة، ليبين مخارج الحروف والنطق والترنيم وطول الحروف الأنفية مع تفسير للنص القرآني. وبصفة عامة فإن هذا النوع من التعليم يتم عادة في المنازل.

المصدر المعيشي لطالب العلم

إن ريشة الكتابة والحبر والورق ما زالت منذ القدم هي الوسائل المتبعة في التعلم للطالب المسلم، والمكتبة تعدّ ميزة ولكنها ليست ضرورية، وإملاء المدرس سواء كان من تأليفه أو من كتاب آخر يعدّ كافياً جداً للتعليم، بينما الكتاب يمكن شراؤه أو استعارته، والرجل الذي يختار طريق حياة الدراسة والعلم قد يضطر إلى إعانة نفسه على المعيشة ببعض أعمال التجارة أو الحرفة. وهذا ليس شيئاً صعباً؛ لأن احتياجات مثل هذا الطالب ليست كثيرة التكاليف. وغالباً ما يعاونه على إشباع هذه الرغبة ما يكون لديه من ميراث أو من هبات ومنح من الأقارب، الذين يمارسون مهناً أخرى أكثر ربحاً، أو من الأصدقاء الذين يعتقدون أنه من الواجب المشاركة في شرف التعليم الديني. وكثير من هؤلاء الطلبة يظهرون نبوغاً في الجمع بين الدراسة مع ممارسة العمل أو التجارة. والإسلام دائماً يقدّر ويعظم هؤلاء الذين يحافظون على إحياء العلوم والتعليم وخاصة دراسة الشريعة؛ لأن هذا يعدّ من وجهة نظر العقيدة دعامة الحياة والمجتمع. والأشخاص الذين يكرسون أنفسهم لهذه الدراسة يعفون من الاشتراك في الحروب، والذي يموت في أثناء تأدية رسالته يصبح في منزلة الشهداء. ومن هنا فإن طلاب العلم لهم ثواب كبير في الآخرة بالإضافة إلى المكانة الرفيعة في الدنيا[١].

---

(١) نهاية النص الذي نشر في مجلة العرب.

إن العلماء النزيهين والمخلصين لم يغيبوا عن الساحة الإسلامية في أي عصر من العصور. وفي خلال القرون الأربعة أو الخمسة الأولى تطورت العلوم الشرعية تطوراً وصل إلى القمة. وقد صاحب هذا التطور جدل مستمر. بيد أن هذا الجدل بين المدارس الفكرية المختلفة لم يكن له أهمية تطبيقية في الحياة الواقعية. وإنه لمن الخطأ الفادح الافتراض بأن الشرع الإسلامي كان مطبقاً بالكلية أو أنه بقي على اتصاله الوثيق بحاجات المجتمع منذ أن انفصل العلم عن شؤون الحكم، فمنذ هذا الانفصال تطور جزء كبير من المعارف الفقهية التي لم يكن لها سوى أهمية تشريعية ضئيلة.

لقد شارك جمهور كبير من عامة الناس في الجدل والمناظرات الدينية، مما أثر وشجع العلماء المتحمسين لمثل هذه المناظرات. ولقد كان من المفروض أن ترنو نفوس العلماء إلى مناصب عليا في مؤسسات الدولة الشرعية، غير أن الصفوة من هؤلاء العلماء قد ابتعدوا عن العمل في المناصب الحكومية، حتى لا تضطرهم الظروف إلى مجاراة الحكام وتحقيق رغباتهم، والابتعاد عن تطبيق أوامر الله. غير أنه منذ القرن الرابع الهجري أصبحت مثل هذه الوظائف تعطى لمن يدفع الثمن الأكثر، حتى ولو كان جاهلاً. إن المراكز النبيلة التي ترضي طموحات رجال العلم، قد فقدت أهميتها حينما انتهى عصر المناظرات والجدل، حيث أصبح عمل العلماء مقصوراً على حفظ المعارف الموجودة وإيصالها إلى الأجيال التالية.

إن النزعة الشمولية للإسلام، والتي ساعدت على إيجاد الاتفاق على الموضوعات التي كانت مثاراً للجدل السابق، لم تكن بذات فائدة للمعارف الإسلامية. وإنه ليس من قبيل الصدفة أن يتزامن اتفاق المذاهب الأربعة مع ضعف الإسلام السياسي.

لقد كان الكثير من الولايات الإسلامية يحكم بصورة سيئة، وكان هناك بعض الحكومات المستبدة، الأمر الذي لم يساعد على إيجاد التنافس العلمي الذي كان موجوداً بين المدارس الفكرية في السابق. لقد كان ينظر إلى كل حركة فكرية من وجهة نظر سياسية، ولهذا كان يقضى عليها في

مهدها. وحتى العلماء الذين لديهم مثل هذا الحماس يجبرون على أن يعملوا بصورة أكثر حذراً. فاضطراب الأوضاع العامة جعل تصرفهم الحذر هذا أكثر قبولاً من النزعة الحماسية الموجودة لديهم.

إن القضاة ورجال الإفتاء يجدون أنّ إعطاء «ما لقيصر لقيصر وما لله لله» أمر صعب جداً. والعالم الذي يريد الوصول إلى مرتبة رفيعة، لا بد له أن يتغاضى عن وخز الضمير، وأن يقنع نفسه بمجال نشاط متواضع وهادئ. إن بعض هؤلاء العلماء قد ماتت لديهم روح البحث والتقصي، وما بقي لديهم هو التعالي والكبر الذي يتيهون به على العالم أجمع.

المدارس في مكة

وإنه ليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يتواكب الضعف السياسي مع ظهور المدارس بصفتها مؤسسات تعليمية في عالم الإسلام.

إن تاريخ القطبي[1] يفيد «أن أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد (٤٥٧هـ ـ ١٠٦٥م)، فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتماً، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فسئلوا عن ذلك فقالوا: إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة، لجاذب الشرف الذاتي والمناسبة الطبيعية ولما حصل عليه أجرة، تتطلبه النفوس الرذيلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا، وتتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية، فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه، ألا ترى إلى علم الطب فإنه مع كونه علماً شريفاً تعاطته أراذل اليهود بشرف علم الطب، وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد، وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداولة الآن في هذا السوق الكاسد».

ويضيف قطب الدين الحنفي أن مخاوف هؤلاء العلماء لها ما يسوغها، لأن هذه المدارس إن لم تكن نتيجة انحطاط الحركة العلمية، فإنها على الأقل مؤشر لمثل هذا الانحطاط.

---

(١) لقد رجعنا إلى النص الذي اقتبسه المؤلف من القطبي فذكرناه (انظر تاريخ القطبي ص١٥٧ ـ ١٥٨).

إن هذه المدرسة التي تحوي الكثير من قاعات المحاضرات بالإضافة إلى مكتبة عامة، لم يكن الهدف من إنشائها زيادة وسائل المعرفة، بل كانت تهدف إلى تشجيع الناس على طلب العلم، وذلك عن طريق تأمين المأكل والمسكن لهم. إن طلب العلم هو فرض عين على مجموع الأمة. وعلى الحكام أن يجدوا الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك، إذا لم يوجد المتطوعون لطلب العلم.كما أن على الأغنياء الإسهام بأموالهم لتحقيق ذلك أيضاً.

لقد أقام نظام الملك هذه المدرسة الكبيرة التي تحوي الكثير من الحجرات الصغيرة لسكن الطلاب والمدرسين، وكذلك بعض قاعات التدريس. ولقد وضع بمساعدة الكثير من أصدقائه العلماء ومشورتهم الحلول لعدد من الموضوعات: مثل عدد المدرسين، وعدد الطلبة، ونوع الموضوعات التي يجب تدريسها، وعدد ساعات الدراسة، والشروط الواجب توافرها في المتقدمين، والأشخاص الذين سيتولون إدارة الوقف المخصص لهذه الدراسة، والدخل ومدى كفايته لصيانة المدرسة والإنفاق على متطلباتها.

في مكة لا توجد حاجة ماسة إلى قاعات للمحاضرات؛ لأن مكان المحاضرات هو صحن المسجد في ساعات النهار الباردة، وفي الأروقة عندما يشتد الحر، والمحاضرات من النادر أن تتوقف نتيجة هطول الأمطار.ومع هذا فإن لكل مدرسة من مدارس مكة قاعات للمحاضرات وجدت نتيجة للعادة أو لأغراض الاستعمال الإداري.

ويحدثنا قطب الدين عن مدرسة بنيت عام ١٢٣٣م (٦٤١هـ) وكانت تحوي مكتبة كبيرة بناها أحد خدم الخليفة المستنصر بجوار باب السلام[١]، كما يحدثنا عن مدرسة أخرى بجانب باب السلام أيضاً بناها السلطان المملوكي قايتباي عام ١٤٧٧م (٨٨٢هـ).وكانت تحوي قاعة محاضرات

---

(١) يذكر القطبي في تاريخه (ص١٦٠) أنه من جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين إقبال الشرابي المستنصري العباسي بنى بمكة مدرسة على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كتباً كثيرة في سنة إحدى وأربعين وستمائة.

جميلة واثنتين وسبعين خلوة (غرفة معيشة صغيرة) ومكتبة تحوي كتباً على المذاهب الأربعة[١].وهناك مدرسة ثالثة بناها السلطان العثماني سليمان القانوني[٢]. عام ١٥٦٥م (٩٧٢هـ) إلى الجنوب من المسجد الحرام[٣]. ولقد كان قطب الدين نفسه مدرساً بهذه المدرسة. وقد أعطى وصفاً مسهباً لها في تاريخه.

وبجانب هذه المؤسسات الكبيرة هناك الكثير من المدارس الصغيرة التي أنشأها أمراء من الهند أو من مصر أو بعض الحجاج الأثرياء. ولقد كان هؤلاء المتبرعون يرصدون أموالاً للإنفاق على هذه الدروس من طلبة ومدرسين بالإضافة إلى تخصيص بعض المبالغ التي ترصد لقراءة القرآن في أوقات معينة بهدف زيادة الثواب. وإن الإدارة السيئة وعدم استغلال الأموال في المناحي المخصصة لها ساعد على اضمحلال هذه المدارس، إذ لم تنقض

---

(١) ذكر القطبي (ص١٩٧ ـ ١٩٨) ما ملخصه: في سنة ٨٨٢هـ أمر السلطان قايتباي وكيله الأمير سنقر الجمالي أن يبني له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء فاشترى وكيله رباط الدرة ورباط المراغي وداراً لإحدى نساء بني الحسن وهدم ذلك جميعه وجعل فيها (٧٢) خلوة ومجمعاً كبيراً مشرفاً على الحرم والمسعى ومكتباً ومأذنة. وصير المجمع المذكور مدرسة قرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة. وأرسل خزانة كبيرة وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها المدرسة، سنة ٨٨٤هـ على يد الأمير سنقر الجمالي.

(٢) تسمى بالمدارس السلطانية أو المدارس السليمانية.ويذكر قطب الدين الحنفي أن سبب بناء هذه المدارس الأربع أن الأمير إبراهيم الذي تولى إصلاح عين عرفات عرض على السلطان سليمان أن يكون له بمكة أربع مدارس على المذاهب الأربعة يدرس فيها علماء مكة علم الفقه ليكون سبباً لإحياء علم الشريعة فأجابه السلطان إلى ذلك. وصدرت الأوامر السلطانية بالعمل وعين لذلك الأمير قاسم أمير جدة وطلب إليه أن يبادر بالعمل في أحسن الأماكن اللائقة لهذه المدارس بالجانب الشمالي من المسجد المتصل به من ركن المسجد إلى باب الزيادة.
وقد وضع قاضي مكة حجر الأساس وتبعه من حضر من العلماء والسادات وأعيان الناس ووضع كل منهم حجراً فيه وكان يوماً مشهوداً عام ٩٧٢هـ. (انظر القطبي: ص٢٩٣ ـ ٢٩٤) وكذلك: مدارس مكة لناجي معروف (ص٢٤ ـ ٢٨) المترجم.

(٣) لقد نقل المؤلف عبارة القطبي القائلة: إن البناء كان بالجانب الجنوبي ،وليس ذلك صحيحاً لأنها كانت بين باب الدريبة وزيادة المعتضد التي زيدت بإدخال دار الندوة إلى المسجد الحرام وهي تقع في الضلع الشمالي (انظر: مدارس مكة لناجي معروف ص٢٦).

سنوات قليلة على إنشائها حتى بدأ الخراب يتسرب إلى هذه المؤسسات، فسوء الإدارة ساعد على تقليص دخل هذه المؤسسات، لدرجة أصبحت معها عاجزة عن دفع مرتبات المدرسين ومجريات الطلبة، وحتى عن صيانة البناء نفسه. وحينذاك يعدّ المسؤولون هذه المؤسسات من الأماكن المهجورة، وربما يتخذها بعضهم سكناً له، أو يقوم بتأجيرها للحجاج الأثرياء، أو لأهل مكة الذين يفضلونها على غيرها لقربها من الحرم الشريف. ويقول قطب الدين بهذا الصدد: «لقد أصبحت هذه المؤسسات بأيدي هؤلاء الأشرار يديرونها ولم يبق إلا بعض الغرف القليلة التي يستوطنها بعض المدرسين والطلبة. أما باقي الغرف فيتصرف بها المالك الثري الذي آلت إليه، والذي يقوم بين الحين والآخر بترتيب إقامة بعض المحاضرات في القاعة تخليداً لذكرى المؤسس. لقد وصل الحال إلى أن كلمة مدرسة أصبحت تعني داراً جميلة بجوار الحرم، دون أن يتكون لدى الغالبية العظمى من السكان فكرة واضحة عن المعنى الأساس لهذا التعبير.

أقدم جامعات مكة

إن أقدم الجامعات في مدينة مكة هو الحرم الشريف، ويتلقى مدرسو الحرم الدعم المالي من مصادر مختلفة. أما رجال الإفتاء فباستثناء مفتي الحنفية الذي له صلاحية إصدار الفتاوى للسلطات الرسمية التركية، فكلهم مدرسون، وهم مشغولون دائماً بإعطاء المحاضرات. من المفروض أن تكون مرتباتهم أقل من مرتبات المفتي، إلا أنهم يتحصلون على مرتبات عالية، وبعضهم يقوم بالإضافة إلى التدريس بأعمال تجارية. ويتلقى بعضهم الآخر هدايا ثمينة وقيمة من تلاميذه الأثرياء، ومن المعجبين بعلمه وتدريسه.

ويمكننا القول: إن جميع المدرسين يحصلون على بعض العائدات المالية من المؤسسات الإسلامية الدينية. والاستثناء الوحيد هو الشيخ رحمة الله[١]

---

(١) ولد الشيخ رحمة الله بن خليل العثماني بالهند عام ١٢٢٦هـ. وقد تلقى علومه العقلية والنقلية عن أشهر علماء الهند في عصره، ثم شرع في نشر العلم ومقاومة المبشرين، وفي عام ١٢٧٠هـ ناظر الشيخ رحمة الله مع بعض رجال العلم في الهند رئيس البعثة التبشيرية بالهند واسمه (فندر) فأفحمه وهزمه شر هزيمة. وعندما احتل الإنكليز الهند ثار الشيخ رحمة الله ضد هذا العدوان، وأعلن الجهاد، لكن قوة الإنكليز ألجأته إلى الفرار، فوصل =

الذي عرف بمناهضته للنصرانية، وهو يعيش الآن في منفاه في مكة. وكان يقطن مستعمرة الهند الإنكليزية. وهذا الرجل يعدّ خدمة العلم في سبيل الله، ولذلك فهو يدرس الطلاب في بيوتهم دونما أجر يتقاضاه.

إن جيران البيت العتيق يعتمدون في حياتهم على مختلف بقاع العالم الإسلامي وخاصة بلاد مصر. فالمرتبات السنوية للأشراف وعمالهم، وكذلك الحبوب تأتي من مصر. ولقد حذا سلاطين بني عثمان حذو مصر في هذا الشأن، والسلطنة العثمانية قد تفقد منزلتها في العالم الإسلامي كله إذا توقفت هذه الأعطيات السنوية لمكة والمدينة. وعلى الرغم من الإرباكات المالية التي تمر بها الدولة العثمانية إلا أن هذه التكاليف ليست كبيرة. وفي الأحوال العادية تتقاضى كل أسرة مقيمة في مكة ما يعادل أردباً من القمح (٢٠٢ رطل) في كل عام. ويستثنى من ذلك في العادة التجار الأثرياء، والفقراء المعدمون الذين يحرمون من ذلك. وفي العادة لا تعطى كل الكميات المخصصة إذ يقتطع العاملون الموظفون شيئاً منها لأنفسهم.

لجميع موظفي مكة ـ ابتداء من المفتي، وانتهاء بخادم المسجد ـ مبالغ مقررة سنوياً تصرف من خزينة الدولة. إلا أنه في السنوات الأخيرة أصبح

= مكة عام ١٢٧٤هـ. وقد زار إسطنبول بدعوة من السلطان العثماني، وأنعم عليه السلطان بالخلعة السلطانية ووسام المجيدي ورتبة فايا الحرمين (ركن الحرمين).

أخذ الشيخ يعقد حلقات تدريسه خلف المقام الحنفي في المسجد الحرام، وكان من طلابه الشريف الحسين بن علي والشيخ أحمد أبو الخير مرداد شيخ الأئمة والخطباء بالمسجد الحرام والشيخ عبدالرحمن سراج مفتي الأحناف والشيخ سعيد بابصيل مفتي الشافعية وغيرهم من علماء المسجد الحرام.

لقد تولى الشيخ إنشاء المدرسة الصولتية التي نسبت إلى المحسنة (صولة النساء) التي اشترت أرضاً بالخندريسة وأوقفتها لبناء هذه المدرسة بواسطة الشيخ، فشرع في بنائها حتى أتمها عام ١٢٩٢هـ.

لقد ذكر صاحب كتاب سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر ثلاثة عشر مؤلفاً للشيخ رحمة الله من مخطوط ومطبوع وأهمها «إظهار الحق» الذي رد فيه على المستشرق فندر. وقد ترجم لمعظم لغات العالم، وقد توفي رحمه الله بمكة عام ١٣٠٨هـ وعمره ٧٢ سنة (انظر: عمر عبد الجبار، سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري ص١١١ ـ ١١٢).

من الصعب صرف هذه المبالغ كاملة، فهي تباع لوسيط بأقل من نصف القيمة. وبجانب جرايات القمح والمبالغ المالية المقررة سنوياً، يتقاضى مدرسو الحرم والأئمة والخطباء وأهل الفتوى مبالغ مالية من مصادر أخرى. فالأغنياء الذين يفدون إلى الحج، وخاصة من بلاد الهند، يقدمون الهدايا والأعطيات لهؤلاء العلماء، ولجميع موظفي الحرم عموماً. ومصادر الدخل هذه تستدعي وجود إدارة خاصة لهذا الموضوع يشرف عليها مدير وموزع يقوم بتوزيع هذه المبالغ من المال. غير أنه لا يوجد نقابة أو رابطة لهؤلاء العلماء كالحرف الأخرى. كما أنه لا يتوقع أن يكون هناك رئيس لمثل هذه الرابطة.

ليس هناك ما يمنع أي فرد من أن يجلس حيث يشاء في المسجد الحرام. فبعد صلاة الجماعة يتوزع الأفراد في صحن المسجد، بحيث يصلي بعضهم منفرداً، ويجلس بعضهم الآخر طلباً للراحة. ونجد بجانب هؤلاء المصلين عدداً من الأطفال الذين يتجمعون لقراءة القرآن بحركة إيقاعية تجمع بين الصوت وحركة أجسامهم. وبجانب هؤلاء يمكن للمرء أن يشاهد عصبة من مريدي إحدى الطرق الصوفية، ينشدون بعض الابتهالات بألحان رتيبة. وتتوزع في أرجاء المسجد حلقات الطلبة الذين يستمعون إلى المدرسين في أثناء محاضراتهم.

المدرسون في الحرم المكي

إن هذه الصور توحي بأن كل من يستطيع جذب أفراد يستمعون له يمكنه حينئذ إلقاء محاضرات في صحن المسجد أو قاعاته، إلا أن الأمر ليس بهذه السهولة. فالمحاضر غير المؤهل يعرض نفسه للسخرية. وكذلك فإن مساحة المسجد قد تستلزم ألا يقوم المدرسون البارزون أيضاً بإلقاء محاضراتهم في وقت واحد. ومن جهة أخرى قد يكون الحياء الذي يعتري بعض المدرسين مانعاً لهم من التدريس في المسجد. فبعضهم يعتقد بأنه صغير السن، وبعضهم الآخر يظن أنه غير مشهور ليستمع إليه الناس. وكذلك نجد آخرين كالجاوي مثلاً يعتقدون أن مستواهم أقل من مستوى العلماء العرب. ولهذا نجد فرقاً ملموساً بين أساتذة المسجد وزملائهم الآخرين الذين يعملون في أماكن أخرى. والذي يحدد الفرق بين هؤلاء وأولئك هو العرف التقليدي.غير أنه في بعض الأحيان يحدد بنظام خاص من شيخ

العلماء، الذي يجري تنصيبه من قبل الحكومة.ومن مهامه توزيع عوائد العلماء وتعيينهم طبقاً لوجهة نظره الشخصية. ويكون شيخ العلماء في الغالب من رجال الإفتاء، ويفضل على العموم مفتي الشافعية لهذا المنصب.

إجازة التدريس

إن كل مدرس يمكنه أن يتقدم بطلب الإذن من شيخ العلماء للتدريس في الحرم، وليس له الحق في أن يتقاضى أجراً في البداية. وبعد فترة وحسب المقاييس الموضوعة لنظام الإذن بالتدريس، ينال حصة من الأعطيات، أو يصرف له راتب سنوي مقرر. ويعتمد حجم هذا الراتب على قناعة شيخ العلماء ممثل الحكومة الرسمي في هذا المجال.

لقد عرفت عالماً تكرورياً (تكرونياً) بائساً. شكر مفتي الشافعية، الذي أجاز حصوله على الأستاذية العادية للتدريس. بينما أساتذة آخرون متعطشون لمثل هذا المنصب(هم أكثر علماً منه قد سعوا إليه دون جدوى). والامتحان بالنسبة للجامعة يشبه إلى حد بعيد (المعلمية) بالنسبة لطوائف الحرفيين.يقوم شيخ العلماء بتحديد موعد الامتحان. أما مكانه فهو في الغالب في الحرم قرب باب الزيارة. ويكون الامتحان في الغالب قبيل الظهر أو بعد صلاة العصر. والممتحن في العادة هو شيخ العلماء أو نائبه مع عدد من الأساتذة الذين يجلسون على هيئة حلقة دائرية يحضرها بعض الأصدقاء والمهتمين. ويجلس هؤلاء في الخلف عادة. وهناك أربعة أو خمسة من الأساتذة يعملون مراقبين لعملية الامتحان، الذي يقتصر أحياناً على البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)[١]. وبعد انتهاء الامتحان يدعو

---

(١) لقد كتب علماء المسلمين شروحاً وتعليقات مطولة في شرح البسملة، والتي لا يمكن فهمها بدون معرفة وثيقة بالقواعد والمنطق وعلوم الفقه والشريعة، ويمكن القول بشيء من الثقة: إن نصف العلوم الدينية على الأقل له ارتباط وثيق بالبسملة. وقد يبدو الامتحان سهلاً للوهلة الأولى، غير أن هناك أموراً صعبة جداً تثار من خلال هذا الاختبار.
والواقع أن الاختبار له أهمية رسمية بصورة أساسية إذ إن مادة الاختبار موجودة بين ثنايا كتب التفسير المختلفة. والمتقدم بدون شك يستطيع الإجابة على الأسئلة القليلة التي تقدم له بدون أدنى تردد. أما النتائج الحقيقية فتظهر عندما يبتدئ مهنته الجديدة بصفته مدرساً. تلك المهنة التي يبدأها في العادة بقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» تلك العبارة التي مدح الله بها نفسه ووصفها بما تستحق من أوصاف. (المؤلف).

الحاضرون بالتوفيق لزميلهم الجديد، ثم تدار القهوة بعد ذلك. وحينما يكون الشيخ ميسور الحال يدعو الجميع لتناول طعام العشاء في بيته.

واجبات شيخ العلماء

وإلى جانب ما ذكرناه آنفاً من واجبات شيخ العلماء، سواء بتعيين المدرسين الجدد، أو توزيع الموارد المالية، فإن على الشيخ أن ينظم جميع أمور هذه المؤسسة الدينية القائمة في المسجد الحرام، وأن يمثلها في علاقاتها مع العالم الخارجي، وخاصة مع السلطات الحكومية. وفي الأحوال العادية تلجأ الحكومة إلى مفتي الأحناف إذا أرادت استصدار أي حكم، حتى لا تقع في مخالفة مع النظام الإسلامي العام. أما حينما تريد الحكومة دعم وجهة نظرها، وأن تنال موافقة كافة المذاهب على ذلك، فإنها تلجأ إلى شيخ العلماء الذي يعرض القضية المطروحة، ثم يقوم بإصدار فتوى حول الموضوع، ثم يأخذ موافقة جميع العلماء على ذلك. إن موضوعات هذه الفتاوى الخاصة هي تقديم تنظيمات ولوائح جديدة لا يحبذها الجمهور في العادة!!. أو إزالة ظلم ورفع حيف معين أو زيادة عائدات الحكومة، وقد يلجأ إلى الفتوى عندما تتخذ إجراءات ضد شخص معين ذي مكانة عالية، وخاصة حينما تثار قضايا مهمّة ضد هذه الشخصية الكبرى.

كان الشيخ حسب الله[١] من أعظم الناس علماً في مكة، وهو ينحدر من أب قبطي قد اعتنق الإسلام. لقد وزع الشيخ المذكور رسالة خطية ذكر فيها أن شرب الدخان حرام[٢] فانتهز الفرصة أحمد دحلان، وقد كان يحقد على

---

(١) هو محمد بن سليمان حسب الله (١٢٤٤ ـ ١٣٣٥هـ) الشافعي المكي الإمام الشهير. ولد بمكة وأخذ العلم من معظم علمائها، ورحل إلى المدينة ومصر لطلب العلم، ثم تصدر للتدريس بالمسجد الحرام. ألف تآليف حسنة منها حاشية على منسك الخطيب الشربيني، والرياض البديعة في أصول وبعض فروع الشريعة، وقد شرحه تلميذه الشيخ نواوي الجاوي. وكتاب مسمى بفيض المنان شرح الرحمٰن كلاهما له. وعرض عليه والي مكة عثمان باشا منصب مفتي الشافعية بعد عزل أحمد دحلان فلم يقبله. وتوفي رحمه الله بمكة ودفن بالمعلاة (انظر: عبدالله مرداد أبو الخير، المختصر في كتاب نشر النور والزهور، الجزء الثاني ص٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٢) يروي الشيخ عبدالله غازي في كتابه (إفادة الأنام) أن شرب الدخان بدأ في مكة ١١١٢هـ =

حسب الله، فاصدر رسالة خطية أخرى مضمونها إذا كان التدخين معصية، فإن المدخنين الذين يشكلون غالبية سكان مكة هم عصاة، وبالتالي لا يصلحون أن يكونوا شهوداً على عقود الزواج، وهذا يعني فيما يعنيه بأن عقود الزواج غير صحيحة، وتلك نتيجة خاطئة. لذلك فإن فتوى الشيخ حسب الله غير شرعية، وهي بالتالي سخيفة[١].

ليس توقيع الجزاء من صلاحية هؤلاء العلماء الذين يتصدون لأمور الفتوى، لهذا لم يستطع شيخ العلماء توقيع عقوبة على الشيخ حسب الله، وقد وقف بجانبه بهذا الخصوص أحد رجالات بني شيبة سدنة الكعبة.

لقد كان من المقرر أن تقام قبة فوق ضريح أبي طالب عم الرسول الكريم الذي مات على غير دين الإسلام[٢]. فما كان من الشيخ حسب الله إلا أن أصدر منشوراً ضد هذا العمل متهماً فيه شيخ العلماء أحمد دحلان بالإهمال وبالسماح بذلك. وقد رد الشيخ أحمد دحلان على هذا المنشور بأن أجداد الرسول ﷺ بما فيهم عمه الطاهر كانوا من المسلمين. ولذا وضع الشيخ حسب الله في مأزق؛ لأن شيخ العلماء يمثل وجهة نظر السلطة، ومن ثم صدرت فتوى بحق الشيخ حسب الله أبعد بموجبها عن الجزيرة العربية مدة ستة أشهر، عاد بعدها إلى مكة. وحينما كنت في مكة كان الشيخ يقوم بالتدريس فيها

= وانتقل إليها من مصر، ثم تبعه شرب التنباك (انظر السباعي: ص٣٩٩).

(١) إذا صحت هذه الرواية فالفذلكة اللفظية واردة في فتوى أحمد دحلان. وهذه الاستنتاجات التي بناها على شرب الدخان لا تؤكد وجهة نظره في التحليل والتحريم. وكون جميع سكان مكة يدخنون لا يمنع النظر في كون التدخين حلالاً أم حراماً. الذي يلحظ أن معالجة موضوع التدخين من قبل المفتي ليست المعالجة الصحيحة سواء أكان التدخين حلالاً أم حراماً أم مكروهاً.

(٢) لقد كان القبر الموجود في المعلا لأحد أشراف مكة المسمى بهذا الاسم. وقد ولي شؤون مكة مدة عامين (١٠١٠ ـ ١٠١٢هـ) وليس قبر أبي طالب عم الرسول ﷺ. غير أن الناس بمرور الزمن نسبوا القبر إلى الأخير.

كما كان في سابق عهده. وهو يتمتع بالاحترام والتقدير الذي كان له في السابق. غير أنه قد خلد إلى السكينة قليلاً[1].

---

(١) ذكر الجاسر في تعليقه على هذه الحادثة ما يلي: لا بد من وقفة قصيرة حول أبي طالب، الذي كان ذا قبة في مقبرة المعلاة، اعتقاداً أنه عم المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد أوضحت بطلان هذا في محاضرة لي ألقيتها على طلبة (جامعة أم القرى) في ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢هـ بعنوان (الآثار الإسلامية في مكة المكرمة) فكان مما قلت حول القبور: (وفي عصرنا ـ بل قبله بنحو ستة قرون ـ عرف قبر أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ معرفة قائمة على أساس من الجهل، إن صح أن للجهل أساساً، فشيدت قبة عظيمة تحمل ذلك الاسم الطاهر، ثم أقيم بجوار تلك القبة في أول القرن الحادي عشر قبتان تحمل إحداهما اسم (عبدالمطلب) وتعرف الأخرى باسم قبة (أبي طالب) وارتباط هذه الأسماء الثلاثة بحياة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أضفى عليها هالة من الإجلال، حتى اعتقد كثير من الجهال صحة وجود قبر خديجة وقبر عبدالمطلب جد النبي ﷺ، وقبر أبي طالب عمه، وهو اعتقاد خاطئ. كما أشرت إلى ذلك في كلمة لي بعنوان: (خرافة قبة اليهودية) قلت فيها: من الأمور التي لا حقيقة لها ما يصبح بمرور الزمان ذات تاريخ تتناقله الأجيال، حتى يعد بطول الزمن وبتناقل ذكره بين الناس، من الأمور الثابتة التي لا يسوغ إنكارها.

فقبر أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ كان مجهولاً لدى مؤرخي مكة حتى القرن التاسع الهجري أي مدّة ثمانية قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفاً محدد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين في المنام ـ كأن نوراً ينبعث من شعبة النور، في (مقبرة المعلاة) ولما علم أمير مكة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قبة فوق المكان الذي زعم ذلك (العارف) أن النور ينبعث منه، جازماً ذلك الأمير أن ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة رضي الله عنها.

ويدور الزمان فيصبح المكان وما حوله مقبرة للعظماء من أهل مكة، فيقبر فيه في القرن الحادي عشر في سنة ١٠١٠هـ عبدالمطلب بن حسن بن أبي نمي، ثم في سنة ١٠١٢هـ يموت أحد أمراء مكة ـ ممن عرف بالظلم والجبروت ـ وهو أبو طالب بن حسن ابن نُمَيِّ، وتبنى فوقه قبة تعرف بقبة أبي طالب، بجوار قبة خديجة الخرافية، وقبة عبدالمطلب، ويدور الزمان، فيجهل أمر صاحبي القبة، فتنشأ خرافة قبة عبدالمطلب جدّ الرسول ﷺ، الذي مات في زمن الفترة، وقبة أبي طالب بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ، الذي مات مشركاً بنص القرآن الكريم.

ويدون التاريخ تلك الخرافات الثلاث على أنّها حقائق تاريخية، وتتناقلها الأجيال إلى يومنا هذا، بل تزداد رسوخاً وقوة حين تصدى عالم جليل من علماء العصر، بكتابة سفر نفيس دعاه «في منزل الوحي» إذ تطغى عاطفة التدين على ذلك العالم حين يشاهد مقبرة مكة (المعلاة) فتنتابه الذكريات عمن ضمت من أجساد عظماء الأمة خلال الثلاثة عشر قرناً وما =

لقد قام جدل عنيف بين شيخ ذي سلطة كبيرة يدعى سليمان أفندي[١] وكان شيخاً للطريقة النقشبندية، وبين منافس له يدعي خليل باشا[٢] وكان

= فوقها من السنين، وتنطلي عليه خرافة قبر عبدالمطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام، وقبر أبي طالب عمه وقبر أم المؤمنين خديجة زوجته، فيتقبل القول على علاته، ويريح نفسه من عناء البحث والتحقيق، فيجري يراعه السيّال بكتابة الصفحات التي يعدد فيها أمجاد السادة الذين ضمَ تراب تلك المقبرة رفاتهم، ويخص بالذكر منهم أولئك الثلاثة، وينحي باللائمة على من أزال تلك القباب الخرافية.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن الباحثين ممن جاؤوا بعد ذلك العالم اتخذوا كتابه مصدراً يعتمد عليه في آثار مكة وأخبارها، بحيث إن إحدى المجلات الدينية تقوم بنشر كتيب عن الحج في كل عام منذ بضع سنوات، وتعدد فيه من آثار قبور المعلاة، ثلاثة القبور الخرافية). انتهى.

لا أراني خرجت عن الموضوع بتطلبه مثل ذلك التفصيل، أما ما كتب السيد أحمد بن زيني دحلان عن إسلام أبي طالب، فهو في رسالة بعنوان «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب»، والرسالة مطبوعة متداولة، والحق الذي لا مرية فيه حول أبي طالب هو ما أورده شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في كتاب «التوحيد» وخلاصته أن أبا طالب مات على الشرك. وقد حضر المصطفى عليه الصلاة والسلام وفاته فلقنه الشهادة فلم يتلفظ بها وقال: إنه يموت على ملة عبدالمطلب، فلما مات قال ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة، الآية: ١١٣].

لقد قدم الشيخ دحلان على ما قدم ولا يعني المرء منه إلا أن يكون على بينة من بعض الآراء التي بينها في مؤلفاته مما يخالف الحق، ويحسن لمن أراد التوسع في معرفة هذا الرجوع إلى كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» الذي ألفه العالم الهندي المعروف أحمد بشير السهسواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(انظر المجلة العربية عدد رمضان ١٤١٦ ص١٠٢).

(١) هو سليمان بن حسن زهدي الخالدي النقشبندي الحنفي المجاور بيت الله الحرام. قدم مكة وهو صغير ونشأ بها واشتغل في قراءة العلوم على مشايخها. واشتهر بعلم الفلك وتسلك في الطريق النقشبندية. ألف رسالة في الفلك، وأخرى تتعلق بالزكاة، ورسالة في العصر الثاني (يقصد صلاة العصر)، وتقويماً دوريّاً. وقد توفي بمكة عام ١٣٠٨هـ ودفن بالمعلاة (انظر نشر النور والزهر ج١ ص١٦٧ ـ ١٦٨).

(٢) هو الشيخ خليل الجبرتي، نزيل مكة المكرمة ودفينها، قدم مكة مع والده صغيراً في نيف وسبعين ومائتين وألف، ونشأ بها وتوطنها وقرأ على أفاضلها، ولازم الشيخ جمال الحنفي، وقرأ عليه الحديث والتفسير والتصوف، ثم قرأ على الشيخ عبدالرحمن سراج الفقه والتوحيد، وكان يتلقى دروسه في الفقه في المسجد الحرام، وكان عالماً فاضلاً =

هذا الأخير يتمتع بشيء من النفوذ في الدوائر الرسمية العليا؛ لأنه كان يشغل منصباً حكومياً في السابق.

لقد عمل كلا الشيخين على زيادة عدد أتباعهما خصوصاً بين الأتراك وعناصر الجاوى، إلا أن صلات خليل باشا وارتباطاته لم تقف حجر عثرة لمنع سليمان من أن يكون الأكثر شعبية. إن نظام الطرق لا يجيز وجود شيخين في درجة واحدة بالطريقة نفسها في مدينة واحدة؛ لأن وجود الثاني يشكك في صحة عمل الأول. ولذلك تظهر المنافسة بين الطرفين بشكل ازدراء وعداوة واضحة وصريحة. وهذا ما حدث مع خليل وسليمان، فقد ادعى كل منهما أن الطريقة التي يتبعها الآخر لم تكن هي الطريقة النقشبندية السليمة. إن الأذكار ليست هي الأذكار الصحيحة، وبالتالي فهم ليسوا إلا ممثلين مزيفين للطريقة المذكورة آنفاً.

ولو حدثت مثل هذه المخاصمات بين هؤلاء في عهود سابقة، وقبل أن يطبع الغزالي تصوراته للتصوف لكانت النتيجة هي إدانة الطرفين سويّةً؛ لأن مثل هذا الموضوع لا مسوّغ لوجوده، ولا سيما أن العلوم الشرعية هي مناهضة لهذه الأمور الصوفية. وفي مثل هذه الحالة سيكون الحكم على هؤلاء من قبل لجنة من العلماء تفصل في مثل هذه الخصومات.

إذا حدث نزاع بين شيخين من شيوخ الطرق الصوفية تصبح سلطة كل منهما دونما قيمة. كما أن مستشاري الحكومة الرسمية في الشؤون الدينية مثل العلماء ورجال الفتوى ليست لديهم معايير خاصة لهذه الممارسات الدينية الاستثنائية. فهذه المعايير لا يعرفها إلا المتصوفة أنفسهم، وكل ما يستطيع عمله هؤلاء هو تطبيق المعايير التي أوصى بها الغزالي في هذا الشأن[1] دليلاً لطرق التصوف. ومن هذا المنطلق فإن العلماء ورجال

= مواظباً على الطاعة والجمع والجماعة وقد توفي بمكة ودفن بالمعلاة ولم يعقب (انظر نشر النور والزهر ج١ ص١٥٠).

(١) علّق الجاسر على صوفية الغزالي بقوله:
الإمام الغزالي رَحِمَهُ الله مع جلالة قدره له آراء من ناحية مزج الدين بالفلسفة، ويُعَدُّ كتاب «إحياء علوم الدين» من أشهر الكتب الدينية، إلا أن العلماء المحققين قد أوضحوا بأنه ـ فضلاً عن =

الفتوى يمكنهم الحكم على أي من هذه الطرق من خلال ما يظهر منها من عقائد وممارسات. فإذا كانت عقيدة هؤلاء وممارساتهم الشرعية مستقيمة فإنهم يتركونهم وشأنهم، لا بل يشكرونهم على ذلك. أما إذا كانت عقيدة هؤلاء وممارساتهم يبدو فيها الضلالة والزيف، فيسعى هؤلاء إلى حل مثل هذه الطريقة، أو يهاجمون الشيخ المضلل الذي يعمل على تغطية خطئه باسم التصوف والطرق الصوفية.

إن ما حدث بين خليل وسليمان من نزاع لم يستدع إيجاد مجلس علمي من رجال الفقه والشريعة لفض النزاع؛ لأن خليلاً كان صديقاً للوالي العثماني عثمان باشا، وكذلك لمفتي الشافعية. وقد جمعت فقرات غير مقبولة من بين النشرات الكثيرة التي كتبها سليمان لمريديه. ومن المعلوم أن الذي يتعرض لعقيدة المسلمين أو لعباداتهم يحكم عليه بالضلالة والكفر، كما أن من يلقي بالاتهام دون دليل على رجال العلم وأساتذة العقيدة يعدّ مفترياً تجب معاقبته. وقد حدث أن وصف سليمان خليل باشا ووالده يحيى بك بأنهما مغروران، وأن إدراكهما للصوفية أمر مشكوك فيه، لدرجة أن سليمان شعر بأنه ملزم بتحذير أتباعه في شرق الهند حيال ذلك كله. ومن الأمور التي اتخذها سليمان لدعم وجهة نظره في عدم صدق هؤلاء في طريقتهم الصوفية، هو الرقص والحركات العنيفة وغرابة التصرفات التي يتخذها هؤلاء وسائل للسمو الروحي من خلال التصوف. لقد وجد خصوم سليمان الدليل على أنه كان يتهجم على العلماء الأتقياء من جهة، كما أنه يهاجم أمراً يمارسه ويقره الكثير من المسلمين، وعلى هذا استطاع خليل أن يقنع الوالي بأن يتبنى وجهة نظره ضد سليمان، وأن يطلب من شيخ العلماء فتوى ضد أقوال سليمان المضللة. لقد قام مفتي الشافعية الذي كان له وظيفة شيخ العلماء بتدبيج الموضوع باسم الوالي، وصدرت فتوى بهذا

= احتوائه على أحاديث لا أصل لها ـ فيه أمور تحول دون الاستفادة منه، وخاصة من قاصري النظر بالأمور الشرعية.

وسبقت الإشارة إلى أن الطرق الصوفية المنتشرة في العهود الأخيرة جلها إن لم يكن كلها مبنية على أسس لا تتفق مع القواعد الشرعية.

الشأن تظهر بأن بيانات سليمان كانت مضللة وخطيرة، وطالبت الفتوى بإتلاف هذه البيانات وعقاب مؤلفها. وأيد هذه الفتوى ثمانية عشر أستاذاً من أساتذة الحرم، ووضعوا توقيعاتهم وأختامهم عليها. وكان من بين هؤلاء مفتي الحنابلة والمالكية. وكانت النتيجة هي إيداع سليمان السجن بأمر من الوالي عثمان باشا، وحتى يخرج سليمان من سجنه كان عليه أن يرضخ لمتطلبات منافسه، ويكتب لمريديه في جزر الهند الشرقية رسالة يستنكر فيها ما كتبه سابقاً عن خليل باشا. وأن العلاقة بينهما الآن أصبحت علاقة أخوة. وقد أرسل أربعة ممثلين لخليل باشا، رسائل مشابهة لحكام دلي ولانجكات Deli وLangkat في شرق سومطرة، يطلبون فيها منهم إعلان محتويات الفتوى السابقة بين شعوبهم. ولقد كان الهدف الرئيس من الصراع الذي قام بين الشيخين، هو رغبة خليل بأن تحظى طريقته بالأهمية نفسها التي يحظى بها سليمان أفندي في جزيرة سومطرة.

وحتى يكون انتصار خليل باشا معروفاً في العالم أجمع، فقد جمعت جميع الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع وطبعت في كراسة في المطبعة الحكومية بمكة (١٨٨٣م) تحت عنوان (رسالة لدحض رسالة سليمان أفندي) بقلم مفتي الشافعية وشيخ العلماء وموافقة رجال العلم وأهل الفتوى في مكة المكرمة. ولقد ألحق بهذه الفتوى التي تقع في ست صفحات جميع التقارير السابقة. ويأتي في الصفحة الأولى من هذا الكتيب إعلان من الوالي عثمان باشا مفاده: نما إلينا من مصادر معينة أن الشيخ سليمان أفندي قد نشر كتيباً يشوه فيه سمعة الطرق الصوفية ومشايخها. وقد امتلأ هذا الكتيب بالسخافات والتوافه، وأن هذا الكتيب واسع الانتشار؛ لذا فقد وضعنا هذا الكتيب بين يدي مفتي الشافعية وعدد آخر من علماء المدينة المقدسة. وقد نظر المفتي في محتويات الكتيب فقرأها وتفحصها وخلص منها إلى أن محتوياته تافهة وتتعارض مع الشرع الحنيف؛ ولذلك يجب إتلاف هذا الكتيب، ومحو كل ما يترتب عليه. وقد صدرت فتوى بهذا الموضوع تحمل اسم المفتي ووافق عليها علماء مكة المكرمة جميعهم. وقد تمت بالفعل مصادرة صور الكتيب المحفوظة في المخزن، كما تم

جمع النسخ التي في أيدي القراء وأحرق كل أثر لها. وبما أن الفتوى قد اشتملت على عقاب المؤلف الشيخ سليمان أفندي فقد قمنا بإيداعه السجن ليعلم الجميع هذه الوقائع.

في عام ١٨٨١م أقنع بعض أتباع المذهب الحنفي القاضي المعين من قبل الحكومة التركية، بأن يصدر قراراً بتأخير صلاة العصر إلى ما بعد موعدها المألوف، وقد استاء لهذا القرار معظم العلماء والكثير من عامة الناس. ولم يكن المعارضون من أتباع المذاهب الثلاثة الأخرى فحسب، بل كان معهم عدد كبير من أتباع المذهب الحنفي نفسه.. وقد طالب الجميع أن يعود موعد الصلاة إلى ما كان عليه في السابق؛ لأنه حتى في إسطنبول نفسها مركز المذهب الحنفي، كانت صلاة العصر تؤدى في وقت مبكر.. ولقد كانت الدوائر العليا في المذهب الحنفي تعتقد أن هذه الاعتراضات ستنتهي حينما يبدأ تنفيذ الحكم الذي أصدره القاضي.

لقد كتب مفتي الشافعية معترضاً على القاضي بقوله: إن القاضي الذي يصدر حكماً في قضية معينة عليه أن يلتزم بعدد من الشروط. ومثل هذه الشروط لم يلتزم بها قاضي الأحناف عند إصدار حكمه ذاك. ومن جهة أخرى فإن مهمة القاضي أن يصدر أحكاماً في قضايا تطرح عليه بصورة رسمية، والقضية المطروحة لم تعرض رسمياً على القاضي، وكل ما يستطيع القاضي عمله هو اقتراح بعض الوسائل والسبل لحل الموضوع، دون أن يصدر حكماً ملزماً بذلك. وقد أغرق المفتي القاضي بالكثير من المناقشات التي تدحض رأيه ذاك، الأمر الذي فرض سحب الفكرة الجديدة والتنازل عنها خلال بضعة أسابيع. وقد نشر هذه الفتوى عام ١٨٨٣م في القاهرة، في الوقت نفسه الذي نشر فيه كتابه عن أمراء مكة وأسماه «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام».

لقد كان عمل مفتي الشافعية الأساس هو إصدار الأجوبة للاستفسارات التي تعرض عليه. وقد كان أمناء الفتوى يردون عن الأسئلة ويستشيرون المفتي في الأحوال المهمّة فقط. ولما كان معظم أهالي مكة يتبعون

المذهب الشافعي، فلا يكاد يمر يوم دون أن تكون هناك استفسارات عن موضوعات الأسرة، وعن الشكل الشرعي لعقود معينة، وهلم جرا.. ولا يقتصر الأمر على أهالي مكة وحدهم، إذ يرد إلى المفتي عدد كبير من الاستفسارات من الشافعية في الهند وأرخبيل الملايو ومن داغستان. وعلى المفتي أن يبدي رأيه فيها خلال فترة وجيزة مثل التطعيم واستخدام مصابيح الكاز في المساجد والطلاء الصيني هل هو نجس أو طاهر. والقوانين الحديثة في الربا والأسلوب الجديد في الملابس.. إلخ.

لقد كانت إدارة التدريس في المسجد تسند إلى شيخ العلماء الذي يعمل عميداً للجامعة. وعليه أن يباشر كذلك إدارة إيرادات المسجد الحرام، والسماح بقبول المرشحين الجدد، وتمثيل رجالات العلم في المحافل الأخرى. وسلطة شيخ العلماء يحكمها العرف والعادات المرعية. وفي الأمور الإدارية يكون العرف أكثر قبولاً من الجميع.

ومن المعلوم أن رؤساء الطوائف الحرفية، وكذلك رؤساء الأحياء يستعينون بالسلطات الحكومية لممارسة صلاحياتهم، ولا يشذ عن ذلك تلك الصلاحيات المخولة لشيخ العلماء، إذ يقوم الأغوات حراس الحرم، أو شرطة الحكومة بإخراج أي متطفل بناء على طلب شيخ العلماء، ولا يسمح لأي متكلم بإلقاء الدروس في ساعات النهار، حيث توجد حلقات التعليم بعد كل صلاة. والاستثناء الوحيد يكون بعد صلاة العشاء؛ لأنه في مثل هذه الساعة لا يوجد إلا العدد القليل من محاضرات الأساتذة المدرسين.

طريقة التدريس في الحرم

إذا أراد المرء أن يكون صورة شاملة عن طريقة التعليم في مكة، فعليه أن يسير في الحرم خمس مرات يومياً خلال الشهور السبعة الأولى من السنة الهجرية؛ لأن الشهر الثامن وما بعده تحدث فيها تغييرات كثيرة. ويجب أن يكون السير في الحرم في جميع أيام الأسبوع عدا يومي الثلاثاء والجمعة؛ لأن المحاضرات في هذين اليومين لا تكون طبيعية ويحدث فيها بعض الانقطاع. وسبب الانقطاع في يوم الجمعة راجع إلى إقامة شعائر الجمعة. أما في يوم الثلاثاء فانقطاع المحاضرات فيه ليس له سبب معروف.

وبعضهم يذكر أن هذا اليوم يوافق يوم وفاة أبي حنيفة؟! وعلى أي حال فهناك بعض الأساتذة الذين يلقون محاضراتهم في هذين اليومين. ولكن هذه المحاضرات تكون في العادة في موضوعات صغيرة، أو لعلها تلقى في هذه اليومين لعدم وجود مكان لها في الأيام العادية.

مكان المدرس

إن الأساتذة الذين يلقون محاضراتهم بعد صلاة الصبح مباشرة يجلسون في صحن المسجد. وهذه الحال لا تستمر أكثر من ساعتين، حيث تبدأ الشمس بإرسال أشعتها فوق قباب الناحية الشرقية، فتنتقل المحاضرات إلى داخل الأروقة حيث يتجمع الدارسون. وقبل أن يبدأ الدرس بدقائق معدودة يضع خادم المدرس أو تلميذه سجادة في المكان الذي اعتاد المدرس الجلوس فيه، لتغطية الحصباء في صحن المسجد، أو الأرض الرخامية بين الأعمدة، وتواجه السجادة الكعبة، إذ ينبغي أن يواجه المدرس في أثناء تدريسه الكعبة، وكأنه في حالة صلاة. وفي العادة لا تكون هناك صعوبة في اختيار المكان. ويجد المدرس المكان المناسب له حسب رغبته. وقد يحتفظ بهذا المكان طوال العام وقد يكون مدى الحياة.

حلقة التدريس

يجلس الطلبة بشكل حلقة حول الأستاذ، وحينما لا يكون هناك تغيير بين صفوف الطلبة، يختار كل طالب مكاناً محدداً، إلا أن ذلك لا يلتزم به كثيراً. إن كل تلميذ يأتي ومعه سجادة صلاة، وقبل أن يجلس يوجهها ناحية مركز محيط الدائرة. وفي العادة يكون أولئك الذين يجلسون خلف المدرس، أقرب من الذين يقعون في المقدمة، وقد يسمعونه بشكل أفضل. ويترك في العادة شيء من الفراغ بجانب سجادة المدرس، لإعطائه مزيداً من السعة وحرية الحركة، وفي العادة يجلس الطالب على طرف السجادة ويضع أمامه حامل المحبرة النحاسي الذي يوضع فيه في العادة دواة الحبر وأقلام القصب وسكين خاصة لبري الأقلام. كما يضع التلميذ أمامه أيضاً بعض أوراق الكتابة وعدة صفحات من الموضوع الذي سيعالجه المدرس.

يطلب المدرس أحياناً في بداية محاضرته من أحد التلاميذ القدامى أن يجلس في مواجهته مباشرة، ويتلو ملخصاً للمحاضرة السابقة. وفي بعض

الأحيان يبدأ المدرس محاضرته بجمل نثرية مسجوعة تبين أهمية الدرس، ثم يطلب إلى تلميذه المذكور آنفاً تكرارها، ليسمعها التلاميذ مرتين زيادة في الأهمية.

المدرسون على المذاهب الأربعة

إن عشرات الحلقات التي تعقد بعد صلاة الفجر مباشرة، التي يكون قوامها من عشرة إلى ستين دارساً، تكون مخصصة لدراسة العلوم الشرعية. وإذا كانت المحاضرة عن التشريع يمكن للطالب أن يحضر لأي مدرس. أما عند دراسة الفقه فلا بد أن يختار الطالب المدرس الذي ينتمي إلى مذهبه، فالدروس الفقهية تقدم على المذاهب الأربعة.

الحنابلة والمالكية

إن أتباع المذهب الحنبلي قلة، وهناك مدرس أو اثنان من مدرسي الحرم يقومان بتدريس الفقه الحنبلي. ومعظم الطلبة الذين يتلقون الفقه الحنبلي، هم من وسط الجزيرة العربية. ويمثل المالكية عدد أكبر من الحنابلة. وعدد الحلقات التي تدرس الفقه المالكي أكثر عدداً. ويسود المذهب المالكي في شمال غرب إفريقية. وإذا استثنينا مصر فإن سكان السودان والتكارنة ومسلمي الحبشة وجميع العناصر الزنجية التي تحولت إلى الإسلام، وكذا القبائل التي انتشر الإسلام بين ربوعها من خلال الحركة السنوسية، هم جميعاً من أتباع المذهب المالكي. وهناك عدد قليل من المالكية في سورية والجزيرة العربية، ومعظم هؤلاء من أصول مغربية. ولما كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة العثمانية الرسمي فإن أتباعه كثيرو العدد. ولذلك كان في السابق يعين في كل منطقة من مناطق الدولة العثمانية قاضٍ للأحناف، بجانب القاضي الذي يمثل مذهب أهل المنطقة. إلا أن هذا القانون غير معمول به الآن. إن معظم أهل مكة هم أتباع المذهب الشافعي، غير أن الصفة العالمية التي للمدينة المقدسة لم تساعد على سيادة هذا المذهب.

لقد كانت الحكومة العثمانية في السابق تعين أربعة قضاة، كل واحد منهم يمثل أحد المذاهب الأربعة. أما الآن فلا يوجد إلا قاضي الأحناف، الذي أصبح يقوم بتصريف الشؤون الدينية وأمور الأحوال الشخصية فقط، بينما

الأمور الأخرى كافة يحكم بها بموجب قانون جديد يسمى (القانون المنيف) وقد حل محل (الشرع الشريف). ولم تكن مهمة القاضي تطبيق هذا القانون. فقد كان من اختصاصات رجال الإدارة الذين يقومون بتطبيقه طبقاً لرغباتهم وميولهم.

إن هذا التنظيم الجديد لم يهمل المذاهب الأخرى. فلكل مذهب مفتٍ خاص. ويلتزم القاضي الحنفي بما يصدره هؤلاء المفتون من أحكام، فيما يتعلق بأمور الزواج وغيرها. وهناك اتجاه لدى السلطة العثمانية بأن تقصر مجالات المذاهب الأخرى غير الأحناف على أمور العبادات فقط. أما الأمور الأخرى فيحكم بها بموجب المذهب الحنفي.

الأحناف

من الطبيعي أن يكون للمدرسين الأحناف النصيب الأوفر من المرتبات في مكة المكرمة. ففي تقويم الحجاز عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦م) قائمة بالمدرسين ومرتباتهم. غير أن هذه البيانات الرسمية ليست دقيقة؛ لأنها تحوي الكثير من أسماء الذين يتقاضون مرتبات ضخمة، لا تتناسب مع عملهم. وهؤلاء يعطون صفة الأساتذة؛ لأن الحكومة تريد أن تمنحهم مرتبات من الاعتمادات المخصصة للتدريس. وإذا استثنينا هؤلاء فإن عدد المدرسين يتراوح بين ٥٠ ـ ٦٠ مدرساً حوالي ثلثهم من الأحناف. وبالإضافة إلى علماء مكة نجد علماء هنوداً وآخرين من آسيا الروسية، بالإضافة إلى علماء من مختلف مناطق الدولة العثمانية.

ومن الجدير بالذكر أن هناك الكثير من المهاجرين من مناطق أجنبية غير عثمانية. وهؤلاء يرون خليفة إسطنبول ملجأ يلوذون إليه. ويجد هؤلاء ترحيباً ودياً من قبل الدولة العثمانية. ويقوم الأحناف كغيرهم من أتباع المذاهب الأخرى بتدريس الفقه الحنفي، وكذلك تدريس المصنفات الحديثة التي تبحث في المذهب، والمأخوذة من فقه المذهب نفسه.

الشافعية

أما المذهب الشافعي فعلى الرغم من أن الحكومة العثمانية قد حددت تطبيقه في الأحوال الشخصية فقط، إلا أن له سيادة كبيرة في مختلف مناطق الدولة العثمانية. ويحظى هذا المذهب بالكثير من حلقات التدريس، وله

أهمية كبرى. ويعود سبب الانتشار الكبير لهذا المذهب إلى حماية[1] الدولة العباسية له في القرون الأولى. ولم يكن لهذا المذهب من منافس سوى المذهب الشيعي، الذي كان له بعض الأتباع في غرب وجنوب الجزيرة العربية.

كان أشراف مكة لا يلتزمون بمذهب معين فقد أبدلوا اعترافهم بالمذهب الشيعي[2] لصالح المذهب الشافعي الذي هو مذهب السواد الأعظم من مواطنيهم. ولم ينتشر المذهب الحنفي، مذهب الحكام العثمانيين الجدد؛ فقد بقي سكان غرب الجزيرة يتبعون المذهب الشافعي. وبجوار مكة هناك بعض قبائل حرب التي تتبع الدعوة السلفية التي جاء بها الإمام محمد بن عبدالوهاب. وفي اليمن ساعد إضعاف نفوذ الأئمة الزيدية ـ حكام اليمن ـ على انتشار المذهب الشافعي، وتوسعته على حساب المذهب الزيدي. أما في حضرموت فالمذهب السائد هو المذهب الشافعي أيضاً، وفي البحرين ينتشر المذهب الشافعي بصورة جزئية. وفي الوجه البحري في مصر تغلب المذهب الشافعي على جميع المذاهب الأخرى. وهناك انتشار واسع وسيادة للمذهب الشافعي في سواحل الهند (مليبار وكورماندل)[3] وأرخبيل الملايو وداغستان[4]. ويميل الحجاج من أتباع الشافعية إلى البقاء في مكة بقصد الدراسة والتعلم مدة أطول بكثير من أصحاب المذاهب الأخرى.

---

(١) هذا خطأ تاريخي فالدولة العباسية تبنت المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لها بعد أن تولى أبو يوسف القضاء. ولم يكن المذهب الشافعي يحظى بتأييد العباسيين.

(٢) لقد كان استقلال الأشراف بمكة مشوباً بنفوذ دول الإسلام القوية، ويبدو ذلك في دعاء مكة للعباسيين مرة، وللفاطميين مرة أخرى، وفي الجمع بين دولتين في بعض الأحيان. ولقد بدأ مذهب الشيعة يمد ظله في مكة بتأثير الحكم الفاطمي، وبأمر الأشراف الذين كان بعضهم يميل إلى التشيع، وقد أضيفت عبارة «حي على خير العمل» إلى الأذان في منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعي كان يعمل به الفاطميون، وبعض حكام مكة، وقد أبطل هذا التقليد صلاح الدين الأيوبي (انظر السباعي: ص٢١٣، ٢١٦، ٢٢٤).

(٣) مليبار وكورماندل: تقع على ساحل الهند الجنوبي الغربي.

(٤) داغستان: تقع بين جبال القوقاز وبحر الخزر، وتعني داغستان بالتركية بلاد الجبال، إذ تؤلف الجبال ثلاثة أرباع أراضيها، وسكان داغستان كلهم مسلمون مع اختلاف قبائلهم من (قوموقه) و (أندي) (وداغستاني) عددهم يقرب من ١،٥ مليون، ومساحة البلاد تزيد على ٥٠ ألف =

ليس من قبيل المصادفة أن يتولى مفتي الشافعية، أو أي أستاذ بارز آخر من ذلك المذهب، منصب شيخ العلماء، وأن يصل عدد الأساتذة الشافعية إلى ما يتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠ مدرساً من مجموع الأساتذة في الحرم، والبالغ عددهم ٥٠ ـ ٦٠ مدرساً، وأن تكون الحلقات التعليمية لديهم هي المثل البارز للحياة الأكاديمية في المدينة المقدسة. يضاف إلى كل ذلك أن معظم علماء هذا المذهب هم مكيون مولداً ونشأة.

ومن أبرز العلماء المكيين: العالم الزاهد السيد عبدالله الزواوي ـ ابن العالم محمود صالح[1] المدرس الشهير، ذي السمعة الطيبة، والذكر الحسن، وقد قام الأب محمود بتعليم ابنه في بيته ليكون بعيداً بقدر الإمكان عن الغوايات الدنيوية. وما إن بلغ الابن عبدالله العشرين من عمره حتى حقق نجاحاً كبيراً في الدراسات الشرعية، الأمر الذي حدا بوالده لتعيينه مدرساً في الحرم. مما أثار عليه معارضة قوية مبعثها خرق العرف التقليدي، بتعيين مدرس تلقى تعليماً خاصاً لهذا المنصب الرفيع، لدرجة أنهم رموه بالحجارة من سطح المسجد. غير أن هذا العالم، حديث السن، استطاع أن يتغلب على هذه المعارضة بقدرته العلمية وبراعته وطبيعته

= كيلومتر مربع. وقد احتلتها روسيا وأعلنت فيها عن قيام جمهورية ذات استقلال ذاتي عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) وجعلتها مرتبطة بها، وعاصمتها مدينة (محج قلعة)، وهي مدينة ساحلية، من أشهر مدنها (دربنت)، وتعنى بالفارسية (باب الأبواب)، وهو اسم أطلقه عليها المسلمون (انظر محمود شاكر وآخرون. البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ص٧٤٤ ـ ٧٤٦).

(١) لم نجد في المراجع التي أرخت لهذه الفترة عالماً باسم محمود، وقد ذكرت كتب التراجم اسم أحمد الزواوي، عاش في الفترة نفسها التي وجد فيها المؤلف في مكة، وخلف ولداً باسم عبدالله. ولذا نرجح أن الاسم هو أحمد صالح الزواوي بدلاً من عبدالله محمود صالح الزواوي. وقد جاء في كتاب نشر النور والزهر (ص٥٧ ـ ٥٨) عند ترجمة أحمد الزواوي أنه ولد بمكة سنة ١٢٦٢، ودرس بالمسجد الحرام، وقرأ على جملة مشايخ، وتوظف بمجالس الحكومة بها، ثم قام بها أتم قيام وأثنى عليه الناس والحكام ولم يشغله ذلك على الإفادة والاجتهاد في العبادة، توفي بمكة سنة ١٣١٦هـ، وعقب ابنين هما السيد عبدالله والسيد محمد وهما طالبا علم، والأول تولى الإمامة التي كان يقوم بها أبوه بمقام المالكي.

الهادئة. وقد استطاع الوالد وابنه أن يجمعا بين العلم والتقوى والعمل التجاري المربح، لذا فمن غير المستغرب ألا يخلّفا لنا آثاراً أدبية.

ومن العلماء البارزين من أتباع المذهب الشافعي السيد أبو بكر شطا، وهو رجل في خريف العمر، يطلق عليه المكيون، اسم السيد بكري[1]. وقد هاجر والده إلى مكة من دمياط مصر. وقد كانت حلقة السيد بكري تغص بالتلاميذ الدارسين. ومن المعروف أنه مؤلف خصب الإنتاج.

لقد تمتع الكثير من العلماء الذين درسوا في الجامع الأزهر بالقاهرة بشهرة واسعة وكبيرة؛ لأن الجامع الأزهر يعدّ قبلة الدارسين للمذهب الشافعي. ومن هؤلاء محمد بسيوني[2]، وعمر شامي[3]، ومصطفى عفيفي[4]، ومحمد منشاوي[5]، وقد علم المنشاوي الكثير من أبناء الجاوى

---

(١) هو السيد أبو بكر المشهور ببكري شطا الشافعي المكي، ولد عام ١٢٦٦ هـ بمكة وعاش يتيماً، درس العلم على شيوخ مكة واشتغل بالتصنيف والتأليف، وذكر له صاحب كتاب نشر النور والزهر (ج١ ص١٠٧ ـ ١٠٨) الكثير من المؤلفات. توفي بمكة عام ١٣١٠ هـ ودفن بالمعلاة في اللحد الذي دفن فيه والده وشقيقه.

(٢) هو محمد بسيوني الشافعي المكي (١٢٥٣ ـ ١٣٠٢هـ) أحد علماء مكة المشاهير ولد بها، وتتلمذ على علمائها، وتصدر التدريس بالمسجد الحرام. (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٣) هو السيد عمر بركات الشامي البقاعي الأزهري المكي الشافعي، ولد في البقاع سنة ١٢٤٥هـ ثم ارتحل إلى دمشق، ودرس بها وانتقل بعدها إلى مصر، حيث مكث في الجامع الأزهر ما يزيد على ١٥ سنة، ثم هاجر إلى مكة سنة ١٢٧٦هـ، فاشتغل بالتدريس والإفادة والتأليف، إلى أن انتقل إلى جوار ربه عام ١٣١٣هـ (انظر نشر النور والزهر ج ٢ ص٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٤) هو الشيخ مصطفى بن محمد بن سليمان. ولد ببلدة عفيف ـ إحدى قرى مصر ـ وإليها ينسب. ثم قدم مصر ودرس في الأزهر. ولما مات والده قدم إلى مكة المشرفة في نيف وستين ومائتين وألف. ودرس على مشايخ الحرم وأجازوه بالتدريس. فدرس في المسجد الحرام، وانتفع به الكثير من الناس وخاصة أبناء الجالية الجاويّة. وكان فقير الحال يتعيش بالكتابة. وقد توفي عام ١٣٠٨هـ ودفن بالمعلاة. (انظر المرجع السابق ج٢ ص٤٤٤ ـ ٤٤٥).

(٥) محمد المنشاوي نزيل مكة، هاجر إليها من مصر، بعد أن درس في الجامع الأزهر، وبعد قدومه إلى مكة درس على مشايخها، وأذن له هؤلاء بالتدريس، فمكث يدرس بالمسجد الحرام في فنون كثيرة، وأغلب تلاميذه من الجاوات. وحين قدم مكة كان فقيراً ثم صار =

قراءة القرآن وتجويده. لقد كان المصريون في الماضي يتيهون فخراً بتفوقهم العلمي في مكة. غير أنه منذ الاحتلال الإنكليزي لمصر، ومحاولة إسماعيل باشا نشر الحضارة الأوربية في الوجه البحري، أصبح الناس ينظرون إلى مكة بصفتها الملاذ الحقيقي للإسلام.

المصريون في مكة

ففي مصر أصبح غير المسلمين هم الذين يتولون تعيين الأساتذة ورجال الفتوى. وفي الكثير من الحالات تصدر الفتاوى عن هؤلاء التي تخالف ما تكنه ضمائرهم. وعلى الرغم من أن بعض المعاملات في مكة يقوم بتصريفها بعض الأشخاص غير المتدينين، إلا أن هناك قدراً معيناً من حرية الحركة التي تمنح للعلماء في هذا المجال. وكأن لسان حال المكيين يقول: «من نعم الله علينا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا». إن رجل الشارع التركي يعرف واجبات المسلم أكثر بكثير من أي إنكليزي رفيع المستوى.

لقد حدث مرة أن مزارعاً مصرياً كان يشكو بمرارة من غلظة الضباط الإنجليز وتطرفهم وغرور الكثير منهم. فما كان مني إلا أن ذكرته بالخدمات الجليلة التي تقدمها الحكومة البريطانية لمصر، فضلاً عن الصفات السامية التي يتحلى بها بعض الإنجليز.. لقد كان جوابه لي بالمثل القائل: كلب أبيض هنا.. وكلب أسود هناك، لكن النتيجة كلهم كلاب أولاد كلاب.

إن لسان حاله يقول: لا يستطيع أي كافر أن يدخل مكة. أما في مصر فقد دنس الإنجليز ـ ذكوراً وإناثاً ـ الأزهر الشريف. ونجد في مكة سوقاً للعبيد، بينما في مصر لا يستطيع المرء شراء العبد إلا بطريقة سرية وكأنه خطيئة. والمجتمع الإسلامي في مكة لم يختلط بالكفرة، وهذا أمر غير ممكن في مصر. والنتيجة هي أن المصريين الموجودين في مكة يظهرون خوفاً شديداً على بلدهم.

= ذا ثروة، وملك داراً، وكتباً عظيمة. وقد توفي بمكة عام ١٣١٤هـ (انظر المرجع السابق ج٢ ص٤٣٠).

الحضارم

يفد من حضرموت الكثير من الأساتذة المتفوقين. وقد كان من بين هؤلاء أستاذ قصير القامة يدعىٰ: محمد سعيد بابصيل[1] وكان يشغل منصب أمين الفتوى لشيخ العلماء بوصفه مفتي الشافعية، كما كان يقوم بمساعدة شيخ العلماء في محاضراته. وسكان حضرموت مثل سكان وسط الجزيرة العربية يأتون من بيئة قاحلة جدباء، فيرون المدينة المقدسة وكأنها بابل الجديدة. والحياة العلمية في مكة لها جاذبية خاصة للذين يتذوقون طعم هذه الحياة. فالدراسة فيها تسمح بتبادل الأفكار والآراء، بالإضافة إلى ميزة التمتع بالماديات الغنية. ولذا فالحضارمة ينالون من بركات مكة وقدسيتها الكثير من الخير، الذي لا يتوفر لهم في حضرموت.. إن مهاجري حضرموت إلى مكة سرعان ما يتأقلمون مع العادات والتقاليد المكية. وهذا التأقلم يساعدهم على إحراز مزيد من التقدم والنجاح.

إن الحضارمة في أرخبيل الملايو لا يظهرون وداً للمكيين، ويقابلهم المكيون بالشعور نفسه. وهذا ناجم بالطبع عن التنافس الشديد بينهما، وخاصة في الأمور التجارية. وعدم الود هذا مرده لتضارب مصالح الطرفين. وهذه الأحكام المملوءة بالتحامل، مضللة للأجانب الأوربيين، الذين لا يعرفون الدوافع ورائها[2].

العلماء الأعاجم

لقد كان في مكة لفيف من العلماء الداغستانيين، والحفاظ القديرين، الذين أتوا مكة للدراسة. وكان أشهر هؤلاء: عبدالحميد الداغستاني[3] الذي

---

(١) ولد بمكة ونشأ بها، وتلقى العلم من علماء المسجد الحرام، وبعد أن نال إجازة التدريس، وعقد حلقته في المسجد الحرام، عين أميناً للفتوى فاكتسب خبرة واسعة، ثم أسند إليه منصب الإفتاء. قام برحلة إلى صنعاء للتوسط بين الترك وإمام اليمن في إزالة أسباب الخلاف لكن المهمة لم تنجح، فرجع إلى مكة ومارس منصب الإفتاء إلى أن توفي عام ١٣٣٠هـ. (انظر سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر: ص١٤٤).

(٢) يقول الجاسر: لا أدري لماذا فرق المؤلف بين الحضارمة في الملايو والحضارمة في مكة. فوصف الفريقين بالتنافر. وعلل هذا التنافر بالتنافس الشديد بينهما في الأمور التجارية. لا أدري من أين أتى بهذا؟ (المجلة العربية، عدد شوال ١٤١٦ ص١٠٠).

(٣) هو الشيخ عبدالحميد الداغستاني الشرواني المكي، العالم الفاضل والمحقق الكامل، أخذ العلوم عن عدد من كبار عصره. درس في المسجد الحرام، وانتفع به عدد كبير من الناس =

كان يعتقد الكثير من زملائه أنه أكثر علماً من مفتي الشافعية. لقد توفي عبدالحميد قبل وصولي إلى مكة، مخلفاً ابنه محمود، الذي كان يعدّ أحد الستة المشهورين بالقراءة في المدينة المقدسة.

إن المدرسين من مليبار ويدعونها هنا مينيبار هم قلة الآن عما كانوا عليه في السابق. وكذلك العلماء من بلاد الجاوى. فهؤلاء نادراً ما يقومون بالتدريس في الحرم. ولقد سألت في أثناء تجوالي في أروقة المسجد أحد المكيين عن سبب قلة المدرسين من أبناء الجاوى في الحرم. أشار لي بأصبعه على الشيخ زين الدين بن سومباوا، وأضاف أنه لا يوجد سوى هذا العالم في الحرم. إن السبب في قلة علماء الجاوى يعود إلى طبيعة هؤلاء وتواضعهم المتناهي من جهة، وإلى حاجات الطلبة الدارسين من بلاد الجاوى، والتي سنتناولها بالتفصيل لاحقاً من جهة أخرى.

دراسة كبار السن

وإذا نظرنا إلى حلقات الدروس ولتكن حلقات الدروس للطلبة الشافعية، فأول ما يصادفنا الفروق الكبيرة في الأعمار، إذ يجلس في حلقة واحدة الكهول، جنباً إلى جنب مع الشباب والمراهقين، وكبار السن من الرجال. وينقسم كبار السن إلى فئتين، جميع أفرادهما يحضرون الدروس من أجل البركة. والفئة الأولى يتكون أفرادها من أشخاص يعرفون سلفاً ما سوف يلقيه عليهم الأستاذ، إلا أنهم يجلسون أمام شيخهم باعتباره أستاذاً قديماً لهم، أو باعتباره زميلاً قديراً. والفئة الثانية جميع أفرادها ممن لم ينالوا حظاً من العلم في شبابهم، فيحاولون الآن تحصيل ما فاتهم. وجهود أمثال هؤلاء تكون ثمارها قليلة في العادة. وهم في الغالب يقنعون ببركة الحضور، حتى لو لم يفهموا إلا شيئاً يسيراً.

الأعاجم يتعلمون العربية أولاً

يتراوح سن الدارسين الحقيقيين بين ست عشرة سنة وأربعين سنة في الغالب. ويجلس هؤلاء سويّةً في حلقة تعليمية واحدة. إن الرغبة في التعليم ضعيفة بين صفوف المكيين. غير أن هذه الرغبة تنمو وتبرز مبكرة لدى

= توفي بمكة عام ١٣٠١هـ (انظر إفادة الأنام لعبدالله غازي ج١ (مخطوط).

أولاد العلماء، وتتأخر هذه الرغبة لطلب العلم في بعض الأحيان، بسبب بعض العوائق الأسرية التي لا يمكن التغلب عليها إلا في وقت متأخر.

يأتي السواد الأعظم من الدارسين من الخارج. فإذا كانوا من أصول غير عربية، كان عليهم أن يبدؤوا بدراسة اللغة العربية، حتى يتسنى لهم فهم المحاضرات التي تعطى في الحرم. بيد أن الكثير من هؤلاء الطلبة القادمين من مليبار والملايو وجزيرة جاوة يتعلمون العربية في بلادهم، الأمر الذي يمكنهم من متابعة دروس الحرم. أما أولئك الذين يفدون إلى مكة وهم صغار السن، أو الذين لم يتعلموا العربية في بلادهم، فعليهم قراءة القرآن أوّلاً، ثم يذهبون إلى إحدى المدارس التي يديرها أحد أبناء جاليتهم في مكة، حيث يتم تدريسهم اللغة العربية، بالاستعانة ببعض الكتب المكتوبة بلغتهم الأم. وفي هذه الحالة يشرح المعلم ويفسر لهم النصوص بلغتهم الأصلية. وبعد التغلب على المصاعب الأولى، يلتحق هؤلاء الطلبة بدراساتهم العلمية. وقد يبقى بعض هؤلاء مع مدرسين من أبناء جلدتهم؛ لأن الكثير من هؤلاء العلماء ليسوا بأدنى مرتبة من العلماء العرب في علومهم. إلا أن الرغبة الجامحة للطلبة بتلقي العلم في الحرم، بالإضافة إلى المسؤوليات الأخرى التي يقوم بها المدرسون من أبناء وطنهم، تفرض انتقال عدد من هؤلاء إلى الدراسة في الحرم المكي الشريف.

إن المحاضرات التي تعقد في الحرم تكون مفتوحة وحرة للجميع. ويمكن لأي شخص أن يحضر أي محاضرة ولو لمجرد حب الاستطلاع. وفي هذه الحالة يترتب عليه أن يجلس في آخر الحلقة، حتى يتسنى له الانصراف متى شاء، دون أن يراه أحد. وأما من يود الدراسة المنتظمة فإنه يختار مكاناً في الحلقة بين اثنين من معارفه أو ممن سيكونون معارفه في المستقبل ويجلس بينهما، وبعد عدد من المحاضرات يلحظ المدرس وجوده، فيكلمه في نهاية المحاضرة. وقد يقوم الطالب نفسه بزيارة الشيخ، ولو أن ذلك غير إلزامي، علماً بأنه ليس هناك تسجيل للدارسين.

إن نظام المحاضرات في العلوم الإسلامية قد تنوع كثيراً بمرور الزمن. ففي الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري،وهي الفترة التي شهدت نهاية الخلافات المذهبية، حيث حل الوئام بدل الخصام بين أنصار المذاهب المختلفة، ظهر بعض العلماء البارزين من أئمة الشافعية مثل أبو شجاع والرفاعي والنووي. وقد أثرى هؤلاء العلوم الشرعية بمعارفهم وعلومهم الغزيرة. وقد تطلع الخلف إلى مثل هذه الكتب بالاحترام والتقدير نفسها التي كان ينظر بها هؤلاء إلى كتب الشافعي وتلاميذه. وتحتوي هذه الكتب على مباحث ومقتطفات متنوعة، قام هؤلاء بشرحها وتوضيحها. وقد حفظها العلماء من بعدهم عن ظهر قلب، لتكون دليلاً لهم في أثناء إلقاء محاضراتهم.

وفي فترة لاحقة قام العلماء المتأخرون مثل ابن حجر والشربيني والرملي بوضع شروح وتعليمات على هذه الكتب. ومازالت هذه الشروح حتى وقتنا الحاضر هي الأساس الذي تبنى عليه المحاضرات في الفقه الشافعي. ثم خلف من بعدهم جيل من العلماء كانت مجالات علمهم أضيق من سابقيهم، إذ اقتصر هؤلاء على تفسير لغة الكتب السابقة، وشروح المادة التي تداولها سلفهم، وترجيح أحد الآراء الذي يجب اعتماده من بين الآراء المتعدّدة الموجودة في قضية ما. غير أن هذا لا يمنع من وجود بعض العلماء الذين يأتون بكل جديد.

طريقة إلقاء المحاضرات في الحرم

إن المدرس في الوقت الحالي ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) يختار في تدريسه إحدى ثلاث طرق هي:

١ ـ قراءة أحد الكتب على تلاميذه مع إحدى التعليقات والشروح التي وضعها أحد العلماء السابقين. وبذلك يقتصر عمل المدرس على ضبط قراءة النص إلى جانب التفسير العرضي للتعبيرات الصعبة.

٢ ـ أن يجعل قراءة أحد الكتب أكثر فائدة وذلك بقراءة النص وإيراد مختلف وجهات النظر التي كتبها العلماء حوله. وفي العادة يقوم المدرس بتحضيرها من مراجع مختلفة.

٣ ـ أن يقوم المدرس بتجميع الشروح المختلفة ويستخرج منها مصنفاً يقوم بتأليفه وطبعه.

إن الطريقة الأولى هي أسهل الطرق المتبعة في التدريس؛ ولذلك يكثر عدد العلماء الذين يتبعونها في إلقاء محاضراتهم؛ لأنها لا تلقي عبئاً كبيراً على المدرس. ونجد من بين المدرسين في الحرم من يتبع الطريقة الثانية. ونذكر من هؤلاء الشيخ عبدالله الزواوي، الذي اختار لمحاضراته كتاب الإقناع للشربيني. وكان يعطي شروحاً لمادة الكتاب بالاستعانة بعدد من الشروح يختارها ويحضرها من مراجع مختلفة. وهذا الأسلوب يحتاج في العادة إلى براعة واتقان في علوم اللغة العربية، خاصة إذا سمح المدرس لطلابه بأن يقاطعوه بالأسئلة أثناء إلقاء المحاضرة. ومن الجدير بالذكر أن معظم المدرسين من زملائه لا يسمحون للطلاب بإلقاء أسئلتهم واستفساراتهم إلا في نهاية المحاضرة، وذلك لعدم تمكن بعض هؤلاء العلماء من اللغة العربية بصورة جيدة. وفي بعض الحالات النادرة ينهي بعض الأساتذة الحديثي العهد بالتدريس المحاضرة قبل وقتها، فيطلب الشيخ السماح من طلابه والابتسامة ترتسم على شفتيه قائلاً: لنتوقف الآن عن الدرس؛ لأنني بحاجة إلى تجديد الوضوء، غير أن واقع الحال هو أنه غير مستعد للمحاضرة تمام الاستعداد.

لقد كان السيد بكري أحد المدرسين القلائل الذين يعطون محاضراتهم، من معلومات جمعوها وصاغوها بأنفسهم. ولقد طبعت محاضرات السيد بكري في القاهرة عام ١٨٨٣م باسم (إعانة الطالبين)[١] في أربعة مجلدات. لقد كان هذا العمل الضخم هو شروح وتعليقات على كتاب زين الدين

---

(١) ورد في كتاب نشر النور والزهر «ج١ ص١٠٧» وفي مؤلفات بكري شطا «في الفقه حاشية على فتح المعين للمليباري زين الدين سماها بإعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين» ويذكر صاحب كتاب سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة (ص٨١) أن هذا الكتاب أعيد طبعه ولا يزال يدرس في المسجد الحرام والمسجد النبوي والشرق الأقصى وحضرموت وغيرها.

المليباري (قرة العين)[1] ومع أن ما قدمه السيد بكري من معلومات أضافها لا يتعدى واحداً في الألف من حجم الكتاب، إلا أنه نال شهرة واسعة في الأوساط العلمية.ولقد ذكر المؤلف بافتخار في مقدمة كتابه أنه كان يهدف إلى عرض أمين لمختلف أقوال الفقهاء الشافعية. ورب سائل يسأل: ما الذي يحدو مثل هذا العالم إلى أن يضع مصنفاً جديداً على الرغم من وجود كثير من المصنفات الشبيهة به، والتي وضعت في أزمنة سابقة؟ إن الجواب عن ذلك هو الرغبة في تقريب المعلومات القديمة إلى أذهان الطلاب المعاصرين، ومراعاة أساليب التدريس الحديثة. غير أن هناك أمراً آخر هو الرغبة في وضع أسماء هؤلاء بصفتهم مؤلفين على هذه الكتب.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات لا يختلف عن غيره إلا في بعض التفصيلات، وفي بعض الإضافات اليسيرة، الأمر الذي لا يثير كبير اهتمام بها.

ما مدى انطباق الشريعة على حياة الناس الحقيقية؟ إن أمور العبادات بالإضافة إلى أمور الحياة العائلية هي التي تطبق فيها أحكام الشريعة.وما تبقى من مختلف شؤون الحياة يطبق فيها العرف وأهواء الطبقة الحاكمة، الأمر الذي يحدد فاعلية الأمور الشرعية الأخرى، ويجعلها موضوعات دراسية فقط، فإذا أخذنا الجانب السياسي من الشرع الإسلامي، نجد أنه نقد لاذع لا يقر الأوضاع القائمة في الأقطار الإسلامية. أما قانون الحرب فهو تصوير مثالي للفتوحات التي خاضها الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ. أما القوانين التي تبين علاقة المسلمين بغيرهم من اليهود والنصارى، والتي تضمن لهؤلاء الحماية في ظل الإسلام، فهي مستمدة من المعاهدات التي أبرمها الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل الشام. أما قوانين المعاملات

---

(١) يبدو من كلام المؤلف أن «قرة العين» هو الكتاب الذي وضعه المليباري أولاً ثم كتب شرحاً لهذا الكتاب سماه فتح المعين. وقد قام شطا بوضع شرح له سماه إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين. ومن الجدير بالذكر أن (هورخرونيه) لم يتعرض لذكر فتح المعين، وإنما ذكر كتاب قرة العين فقط، مشيراً إلى أن هناك شرحاً لكتاب قرة العين هو الذي تناوله شطا بالشرح تحت عنوان إعانة الطالبين.

التجارية الإسلامية فهي من المثالية بحيث لو طبقت لألغت الكثير من الأعمال التجارية القائمة. أما التشريعات الجنائية فتتصف بالتشدد في قبول الأدلة من جهة، وبالطريقة الخاصة التي تطبق فيها العقوبات من جهة أخرى، بحيث تجعل إمكانية تطبيق العقوبة في أضيق الحدود(١).

إن الأمور لا توزن بميزان الإسلام، لذا نجد صرخات العلماء دائماً في كل صفحة من صفحات كتبهم «هذا ما يجب أن يكون عليه الحال لا ما هو كائن، فليساعدنا الله على تحقيقه». ما زال هناك بعض الناس الأتقياء الذين يلتزمون بقدر الإمكان بالأمور الشرعية. كما أن هناك بعض الحكام الذين يوافقون علماء الشرع على تطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية. غير أنه من المؤكد أن القسم الأكبر من تعاليم الشريعة، لم توضع موضع التطبيق والتنفيذ. والعلماء مجمعون على ذلك، ومؤكدون أن التشريعات التي يتبنونها تناسب مجتمعاً أفضل من المجتمعات المعاصرة. وعلى رأي هؤلاء العلماء فقد شهد المجتمع الإسلامي خلال الثلاثين سنة الأولى من عهد الخلفاء الراشدين صورة هذا المجتمع. وسيشهد العالم مثل هذه الصورة فقط في آخر الزمن، حينما يظهر المهدي فيملأ الأرض عدلاً(٢).

لقد قصرت الحكومة التركية تطبيق الشريعة على أمور العبادات والأمور العائلية، وبخلاف ذلك فقد وضعت عدداً من القوانين تسير بموجبها كافة الأمور الأخرى، على الرغم من ادعاءاتها بأن للمسلمين الحرية بأن يطبقوا أحكام الشريعة على كافة أمورهم.

إن هذا الشرع المثالي له أهمية كبيرة في الحياة الإسلامية، وتطلعات العلماء وآمالهم العريضة موجودة أيضاً عند عامة الناس بهذا الخصوص.

---

(١) لقد حاول المؤلف أن يبرز ناحية هي جد خطيرة حينما قال: إن الشريعة الإسلامية هي مثالية جداً، وكونها مثالية، يعني أنه لا يمكن تطبيقها مع الواقع، كما أنه لا يمكن الأخذ بها في عصرنا الحاضر. وهذه السموم يجب الانتباه لها، لأنها تحمل السم في الدسم.

(٢) إن صورة المجتمع الإسلامي المثالي يمكن أن تكون في أي وقت من الأوقات، يلتزم الناس فيه بتطبيق أمور الشريعة في دينهم ودنياهم، ولا يقتصر وجودها فقط على فترة ظهور المهدي في المستقبل.

وتتضافر جهود العلماء في العادة مع كافة أفراد المسلمين في جعل الشريعة الإسلامية هي المحرك لكل الثورات السياسية، على أمل أن يكون هناك تطبيق لهذه الشريعة على الأرض في فترة من الفترات.

بداية المحاضرة ونهايتها

يجب ألا ننسى أننا ما زلنا في رحاب المسجد الحرام، حيث يقوم العلماء بإعطاء دروس الشريعة الإسلامية بصوت جهوري. ويبدأ الدرس في العادة كما يبدأ أي موضوع آخر مهم، بالاستعاذة والبسملة وشكر الله سبحانه وتعالى والصلاة على رسوله الكريم. ثم يقول معظم الأساتذة بدون تمهيد: «يقول مصنف الكتاب الذي بين أيدينا...» ويبدأ بقراءة الفقرة التي تلي النص الذي تحدث عنه في السابق. ثم يقوم بالشرح والتوضيح بإحدى الطرق التي تحدثنا عنها آنفاً.. وبعض المدرسين يقوم في بداية المحاضرة ببيان أهمية الدرس الذي سوف يتناوله. إن مدة المحاضرة الواحدة لمن عرف بالجلد والقوة من المدرسين لا تزيد على ساعتين. وفي نهاية المحاضرة يغلق المدرس الكتاب، ويقرأ بعض الأدعية، ويمسح على وجهه، معلناً انتهاء المحاضرة، يقف الدارسون بعدها ثم يقبلون على الشيخ وهو جالس فيجلس بعضهم عن يمينه ويقبل يده اليمنى والشيخ بدوره يقف للدارسين القدامى أو الكبار في السن، ولا يسمح لبعضهم بتقبيل يده بل يسحبها منهم. وبعضهم يقبّل الشيخ على جبينه. وأما الدارسون الجدد فإنه يدعو لهم قائلاً: بارك الله فيكم، فيجيب الطلبة شيخهم بعبارات تبجيلية مناسبة.

المحاضرات الاستثنائية في الظهيرة

ومنذ انتهاء محاضرات الصباح، حتى ما بعد صلاة الظهيرة، تتوقف المحاضرات في الأعم الأغلب، إلا من بعض المحاضرات التي يقوم بإلقائها بعض المدرسين غير الرسميين لبعض تلاميذهم، أو لبعض الطلبة الذين يتحدثون لمن هم دونهم في المرتبة العلمية، ممن يحضرون في المسجد في تلك الفترة. غير أن هناك محاضرات رسمية تعقد في هذه الفترة، لبعض الموضوعات التي لم تستكمل بشكل كاف في الوقت المحدد لها، أو التي لم يخصص لها ساعات معلومة، مثل دراسة الحديث وأصول الفقه. وفي دراسة الأصول ينقسم الطلبة الدارسون بحسب مذاهبهم، ولو أن مثل هذا التقسيم لا يكون ضرورياً إلا في الفقه؛ لأن دراسة منهج

الأصول ليس فيها تنوع كبير في الرأي مثل دراسة الفقه. إن دراسة الموضوعين السابقين لهما أهمية خاصة في معرفة استنباط الأحكام الشرعية.

الكتب المعتمدة في تدريس الحديث

ومثل هذه المحاضرات يجب أن يرتب لها مقدماً، حيث يقوم المدرس بالإعلان عنها لطلابه. وقد يقوم الطلاب أنفسهم بسؤال المدرس، بترتيب لقاء لهم في مثل هذه الموضوعات. وهناك بعض الكتب المؤلفة في موضوعات أصول الفقه. أما في الحديث فتدرس كتب مثل شرح القسطلاني لصحيح البخاري، وشرح النووي لصحيح مسلم. وهذه الأعمال كبيرة الحجم، لذا يستعيض عنها بعض المدرسين بكتب أخرى صغيرة الحجم، تحوي مختارات معينة من الأحاديث،مما له صلة بحياة الناس وواقعهم. وفي أثناء إقامتي بمكة أنهى أحد الأساتذة الأحناف،اسمه الشيخ عباس[١] الذي كان يعمل مساعداً لمفتي الأحناف قراءة كتاب القسطلاني في خلال ثلاث سنوات. ومن الجدير بالذكر أن ابن هذا الشيخ يحفظ صحيح البخاري غيباً عن ظهر قلب.

يصطحب الدارسون الآن معهم نسخاً مطبوعة من النصوص التي سوف يعالجها المدرس. لقد غيرت هذه الحالة طريقة التدريس. فقد كان المدرس فيما مضى يملي النص على الدارسين إملاء، ثم يقومون بكتابة تعليقات المدرس على هوامش النص. أما الآن فيقتصر الدارسون على ملحوظات المدرس. وبعض هؤلاء لا يحتاج إلى كتابة شيء مطلقاً.

الصرف والنحو والعلوم المساعدة الأخرى

بعد انتهاء صلاة الظهر يصبح صحن المسجد شديد الحرارة، فينتقل المدرسون مع طلابهم إلى الأروقة حيث الظل، لدراسة العلوم المساعدة على فهم العلوم الدينية، ألا وهي دراسة الصرف والنحو التي يجب أن تسبق

---

(١) هو الشيخ عباس بن جعفر بن عباس بن صديق، الحنفي المكي، المفسر الفقيه. ولد بمكة سنة ١٢٤١ هـ ودرس على مشايخها وأجيز في التدريس في الحرم سنة ١٢٩٩هـ. وحين غضب أمير مكة الشريف عون على مفتي الأحناف، عزله من منصب الإفتاء، وأقام بدله الشيخ عباس فمكث فيه نحو سنتين. توفي بمكة سنة ١٣٢٠هـ، ودفن بالمعلاة (انظر نشر النور والزهر ج١ ص١٨٦ ـ ١٨٧).

دراسة كافة العلوم الشرعية. وفي العادة يحضر دروس النحو والصرف الطلاب المبتدئون، حيث نجد الطلاب الدارسين من مناطق مختلفة من مكة وحضرموت واليمن، يدرسون جنباً إلى جنب مع الطلاب الآخرين، الذين قدموا من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي. وفي دراسة الصرف هناك جداول خاصة توضع فيها الكلمات حسب أشكال صرفها، ثم يقوم المدرس بشرحها وتحليلها. أما في النحو فتدرس الأجرومية، وألفية ابن مالك عن ظهر قلب. غير أن الواقع يظهر أن الطالب العربي بعد أن ينهي الأجرومية يكون أحسن بكثير من الطالب الملاوي أو الداغستاني، الذي يقرأ عدداً من كتب القواعد، وذلك بحكم أن العربية لغته الأولى.

وهناك بعض العلوم المساعدة الأخرى مثل العروض والشعر، وهي من العلوم التمهيدية.وكذلك المنطق فهو علم مساعد أيضاً. وقد كان شيخ العلماء يقرأ بعض فصول هذا العلم على تلاميذه المتقدمين بعد صلاة العصر، غير أنهم لم يكونوا ليستوعبوا الكثير منه. وقد تكون الحرارة الشديدة في تلك الفترة من النهار هي السبب في نعاسهم، الأمر الذي لا يساعد على متابعة المدرس وفهم كل ما يقول.

العقيدة

يذكر الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) أن دروس العقيدة، يجب أن تعطى لأولئك الذين استوعبوا وتفهموا جزءًا كبيراً من الأمور الشرعية التي هي خبز الحياة، وأن الأساس الأول للعقيدة الإسلامية هو التوحيد. ويجب إعطاؤه للتلاميذ قبل إكمالهم دراساتهم الشرعية. ولا تناقض بين الأمرين؛ لأن دراسة التوحيد تقتضي معرفة الأمور الفقهية. ودراسة العقيدة يجتمع فيها طلاب الدراسة من مختلف المذاهب، ليدرسوا على شيخ واحد، شأنها في ذلك شأن العلوم المساعدة التي لا تقتضي المذهبية.

وفي مجال العقيدة نجد أن الجميع يتبنون عقيدة الأشاعرة. تلك التي وضع أسسها أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٩٤٥م. وكثير من العلماء يعلنون صراحة أنهم أشاعرة في عقيدتهم، شافعية في مذهبهم، وقادرية في طريقتهم الصوفية. وطلاب الدراسات العليا يستعملون كتب العقيدة المؤلفة

في القرون الماضية. أما الدروس العادية فتعطى من أحد الكتب الحديثة، التي تبحث في أمور العقيدة لمؤلفين معاصرين. ومن استعراض نشرات المكتبات المصرية في القاهرة، نجد عدداً من هذه الكتب تحت عناوين كتب العقيدة. والمعلومات الموجودة في مثل هذه الكتب ليست موزعة توزيعاً منظماً، بحيث تعالج جميع الموضوعات المطروحة، مما يجعل التناسق بين موضوعاتها مفقوداً.

إن كل فصل من فصول كتب الفقه، يشكل مع غيره من الفصول الأخرى، مجموعة من المبادئ والقواعد، التي ترشد المرء في كل خطوة من خطواته. أما العقيدة، فهي سلاح لتحطيم كل الأخطاء. ومن هذا المنطلق نجد أن المشتغلين بأمور العقيدة قد ساعدوا على توضيح بعض الأمور التي لم يكن بالإمكان توضيحها، لو لم يبرز هؤلاء المشتغلون بهذه الأمور.

إن ما يعرفه الطالب المجد أن المعتزلة أغبياء جداً؛ لأنهم قالوا: إن العقل الإنساني هو مقياس الحقيقة، وإن هذا هو نوع من الخرافة المزعجة. ولقد رأيت بسمة ساخرة على وجوه جميع الدارسين في إحدى الحلقات، حينما قارن الأستاذ بين جهل الوثنيين الذين عادوا الرسول الكريم، وبين جهل الفلاسفة الذين يؤمنون بالعقل البشري. وقد شاركهم المدرس بهز كتفيه استهجاناً بذلك. لقد كان يدور في أذهان الطلبة الصفات العشرين لله سبحانه وتعالى الواردة في كتب الطريقة السنوسية. غير أن هؤلاء الطلبة بعد دراسة الشروح والتعليقات والتفسيرات الخاصة بذلك، يدركون أن ما يعرفونه هو القشور من بحر هذه الأسرار الغامضة.

إن دراسة موضوع القضاء والقدر من الأمور التي تترك انطباعاً مؤثراً. وهذا الموضوع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة سواد الشعب العام.

وفي موضوع الأنبياء والرسل، لا نجد اهتماماً كبيراً بين مسلمي الوقت الحاضر في الجدل القائم حول عصمتهم من الذنوب، كما كانت في السابق. والناشئة منذ نعومة أظفارهم توجه اهتماماتهم إلى أن الرسول هو أعظم

الأنبياء والرسل وآخرهم. ومن الطبيعي أن الأنبياء السابقين كانت لهم بعض مظاهر العظمة التي كانت للرسول محمد ﷺ.

من الأمور التي يتلقاها الدارسون أيضاً أن اليهودية والنصرانية من الأديان السماوية التي يعترف الإسلام بوجودها، غير أن هذه الديانات قد طرأ عليها التحريف من قبل أتباعها، الأمر الذي جعلها غير مقبولة في منظار العقيدة الإسلامية. وأتباع هذه الديانات لا يختلفون في شيء عن العرب في جاهليتهم الأولى.

لقد كنت مرة عند مفتي الشافعية، وكان بصحبته عدد من المثقفين، وقد تحول الحديث إلى الخمر، فقال أحدهم: إن الخمر لم يحرم في الشريعة النصرانية قبل تحريفها. وكان بعض المتدينين يشربونها. فأجاب الآخر: إذا كانت الخمر تشرب قبل تحريف الشريعة النصرانية، فإنها إذا ليست بطبيعتها من صنع الشيطان. غير أن الشيخ وضح القضية بقوله: إن جميع ما ذكر معروف من قبل العلماء، وإنما يكفينا أن نعرف أن الإسلام هو الحق وأن غيره هو الباطل.

لم تثر الكتب المقدسة التي كانت للأمم الأخرى اهتماماً كبيراً أيام عظمة الثقافة الإسلامية، وهي الآن أقل إثارة من ذي قبل. ولقد أثار هجوم الشيخ رحمةِ الله على المسيحية في بريطانيا انتباه محبي الاستطلاع في مكة، ولا سيما أن الشيخ يعيش فيها الآن. غير أن هؤلاء يدركون أن ما قام به الشيخ من إدانة علماء اللاهوت الإنجليز، وإظهار تناقضاتهم وأخطائهم إنما هو أمر سهل وميسور.

ويدرس الطلبة من خلال موضوعات العقيدة أمور البعث والحساب والحياة والبرزخ وظهور المهدي والدجال والمسيح المنتظر وغير ذلك من أمور كتب عنها الغزالي مفصلاً في كتابه (الدرة النفيسة). ومما يعتقده المسلمون، ويدرس للدارسين أيضاً، أن المسلم سيؤول في النهاية إلى الجنة، بعد أن ينال عقابه في النار فترة تطول أو تقصر، في حين لا يدخل الجنة غير المسلمين. ولقد سمعت أحد الأساتذة في الحرم يناقش ويرفض

الفكرة التي جاء بها بعض المتصوفة القدامى، من أن الأتقياء من غير المسلمين، يمكن أن يدخلوا الجنة بعد فترة من العقوبة يقضونها في النار. وقد استدل هؤلاء على ذلك ببعض نصوص القرآن التي تقول: إن جهنم هي مصير المذنبين من المسلمين، وإنّهم باقون فيها. وإذا علمنا أن جهنم ليست أبدية بالنسبة للمسلمين، يمكن أن تكون غير أبدية كذلك بالنسبة لغير المسلمين، وذلك بإرادة الله. وحينما قيل لهؤلاء: لقد ورد التأبيد للكافرين في جهنم. حينئذٍ أجابوا بأنه بمقدرة الله يمكن أن تذهب خاصية إحراق نار جهنم، ويصبح العيش فيها مقبولاً لهؤلاء. وقد اختتم الأستاذ حديثه قائلاً: سوف لا نضيع وقتنا في الإصغاء إلى المدافعين عن الكفر.

غياب المدرس

إن إلقاء الدرس في هاجرة الظهيرة يقل إلى الحد الأدنى. والمدرس في العادة يعطي محاضرة واحدة على الأقل يومياً. غير أن ذلك ليس أمراً ملزماً. فقد يتغيب المدرس إذا أنيط به عمل آخر. إن عدم الانتظام في إلقاء المحاضرات يجلب للمدرس اللوم من جمهور الدارسين. أما شيخ العلماء فلا يحاط علماً بالغياب إلا في حالات نادرة. فقد يمرض المدرس شهوراً طويلة، وقد يسافر مدة سنة، أو يوقف محاضراته فترة طويلة لأسباب خاصة، دون أن يكون لشيخ العلماء علم بذلك.

تبدأ المحاضرات ثانية بعد صلاة العصر بقليل، أي في حوالي الساعة الرابعة، وتكون معظم المحاضرات في العبادات بأنواعها، على عكس محاضرات الصباح التي يكون معظمها في مباحث العقيدة. ويقوم المدرسون الجدد، والذين يتلقون العلم في الصباح على مشايخهم، بتدريس أركان الإسلام الخمسة وبعض أمور العبادات الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك تدرس في هذه الفترة موضوعات العلوم المساعدة، وبعض العلوم الأخرى كالتفسير.

التفسير

إن الكتب المستخدمة في محاضرات التفسير هي تفسير البيضاوي وتفسير الجلالين (السيوطي والمحلي). ولقد سمعت مفتي الشافعية يدرس كتاب البيضاوي في التفسير عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م). ولم يكن المدرس ليضيف إلى ما في البيضاوي سوى تفسير بعض الكلمات والحواشي الخاصة.

ودارسو التفسير لا بد لهم من معرفة تامة بأمور التجويد. ويجب أن يكون الواحد منهم قد درس القرآن مرات متعدّدة، قبل أن يستمع إلى دروس التفسير، ومعظم هؤلاء يحفظون القرآن عن ظهر قلب.

ويمكن القول: إنه حتى بالنسبة لمن يحفظ القرآن عن ظهر قلب، فإنه لا يستطيع فهم معانيه، إلا إذا درس علم التفسير، أو سمع شرحه من أحد رجال العلم. والقرآن بالنسبة للمجتمع الإسلامي يشبه الترجمة اللاتينية[1] للكتاب المقدس بالنسبة للروم الكاثوليك، وخاصة في موضوع تلاوته وتجويده. إن اللغة العربية في القرآن غالباً ما تكون غريبة غرابة اللاتينية بالنسبة للإيطاليين، غير أن تلاوة القرآن الكريم قد حفظت الشعور الدقيق للغة، كما أسهمت في حفظ اللغة العربية القديمة.

وحتى عند الأوربيين نجد أن القرآن الكريم يساعدنا كثيراً في فهم اللغة العربية الدارجة. كما أن فهم العربية الدارجة يساعد أيضاً في فهم القرآن. ومن الملحوظ أن هذا الأمر غير موجود عند العرب. فالغربيون يقرؤون القرآن لفهم معانيه. ولكن المسلمين قد اعتادوا منذ الطفولة أن يعدّوا كلام الله ذا طبيعة خاصة للمرء. والطفل المسلم منذ نعومة أظفاره يلحظ أن المرء حينما يقرأ القرآن يقرأه بصوت خاص ونطق خاص. وحينما يذهب إلى المدرسة يبدأ بتقليد هذا الأسلوب في القراءة. والعلماء المسلمون يجب أن يتدبروا معاني القرآن في أثناء الصلاة أو التسبيح. بينما نجد العامة ينالون الثواب بمجرد قراءته دون فهمه. وحال هؤلاء العامة شبيه بما وضحه سبرنغر Sperngerمن أن إحدى النساء الإنجليزيات في أثناء محاكمتها، قد استشهدت ببعض فقرات من الإنجيل، تدينها في القضية المطروحة أمام المحكمة. والفرق الوحيد هنا هو أن العامية العربية، أو العربية الدارجة ليست موجودة في كلمات القرآن الكريم، على خلاف الحال في العامية

(١) هذا التشبيه بعيد عن الحقيقة، فالقرآن بلغته العربية، يفهمه القارئ العربي، ويدرك مقاصده العامة. وإذا كان هناك بعض الجهل بمعانيه، فهو راجع إلى عدم معرفة اللغة العربية، وأين هذا من اللاتينية المندرسة بالنسبة لمن يقرأها.

الإنجليزية الموجودة في كتاب الإنجيل، ولهذا يعتقد المسلم بأن القرآن لا يمكن فهمه بدون دراسة شاملة للتفسير. وما أوصى به الغزالي في السابق من قراءة قليلة وتدبر كثير لآيات القرآن، ليس موجوداً عند معظم المسلمين اليوم. وهناك أمر متعارف عليه بين العامة والخاصة، إن دراسة التفسير ودراسة التجويد أمران مختلفان، فقد يجيد المرء التفسير، ولا يجيد القراءة والتجويد، والعكس بالعكس.

إن دراسة التفسير تعدّ من الأمور المهمة والخطيرة. وحدث مرة أن قدم إلى مكة من المغرب رجل معتد بنفسه، وقد أثار غضب الناس عليه لكثرة تخطئته الناس في اللغة العربية وتصحيحه لهم. وقد وقف مرة ليفسر قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٣]. ففسرها تفسيراً غريباً أثار العلماء، الأمر الذي أدى إلى إبعاده إلى المدينة المنورة. وقد عاش هناك فترة من الزمن. وفي ذات يوم كان لفيف من أصحابه ينظرون إلى مشادة وقعت بين بعض البدو، وبعض الجنود الأتراك. واستشهد أحد الحضور بآية من القرآن. فما كان من صاحبنا إلا أن صحح له بعض الأخطاء التي أثارت حفيظته فقال له: إن تفسيرك وقراءتك صحيحة على مذهب أهل سدوم (قوم لوط) مذكراً له بما قاله في مكة في تفسير الآية السابقة، الأمر الذي رآه إهانة له، فما كان منه إلا أن ترك الحجاز نهائياً.

محاضرات المساء

هناك متسع من الوقت بين صلاتي المغرب والعشاء لإلقاء محاضرة واحدة، يحضرها الطلاب على ضوء القناديل التي يجلبونها معهم. وفي العادة يوضع أمام المدرس قنديل كبير؛ لأن إضاءة الحرم غير كافية. وهذه المحاضرات كالمحاضرات الأخرى التي تعقد في الصباح. وفي هذا الوقت نجد عدداً من الحضور من أبناء البادية. ومعظم هؤلاء من المكاريين من قبيلة حرب، يأتون مع أبنائهم لتعلم بعض المبادئ الأولى. ويقطن هؤلاء في القسم الجنوبي الغربي من المدينة. يحضرون في العادة لصلاة المغرب والعشاء، ويستمعون إلى بعض المواعظ في الحرم، بالإضافة إلى بعض الدروس التي يحضرونها في المساجد التي تقع بالقرب منهم.

ويتصف هؤلاء بذكائهم وفطنتهم وسلوكهم الحسن ومحبتهم للعلم، حتى ولو كان المدرس تلميذاً صغيراً. غير أن العيب الأساس في هؤلاء هو كثرة الجلبة والضوضاء، حيث يخيل إليك في حديثهم أنهم ينادون شخصاً من مكان بعيد.

تحين صلاة العشاء بعد ساعة ونصف الساعة من غروب الشمس، وعندها تنفض حلقات الدارسين، ثم تبدأ بعد الصلاة محاضرات أخرى في مواضيع العقيدة والعلوم المساعدة. ومعظم المدرسين من حديثي السن ممن يتلقون العلم في الصباح. ويخلو صحن المسجد تدريجياً من جموع المصلين والدارسين، إلا من بعض الأشخاص، حيث تجد رجلاً نائماً على حصيرته، وآخر يقوم ببعض الصلوات النافلة، وبعضهم يقوم بالطواف حول البيت. وعلى الرغم من أن المحاضرات الدراسية تعلق في يومي الجمعة والثلاثاء، إلا أن هناك بعض الاستثناءات للقاعدة، فنجد مثلاً العالم الحضرمي السيد بابصيل قد اعتاد في عام ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣هـ (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) أن يعطي بعض المحاضرات للنساء، ممن لهن رغبة في ذلك خلال هذين اليومين.

وقد كان الشيخ يلقي مقتطفات نافعة ومنتقاة من موضوعات كثيرة مثل: الفقه والعقيدة والأدب. وكان الشيخ نفسه يلقي محاضرات أخرى توجيهية في أمور العبادات في أيام أخرى من الأسبوع. وفيما عدا محاضرة الشيخ لا توجد محاضرات في يوم الجمعة صباحاً، حيث يذهب الناس إلى المسجد مبكرين لقراءة القرآن، أو لأداء الصلوات النوافل، أو للدعاء والتسبيح. وبعد انتهاء صلاة الجمعة تكون هناك بعض المحاضرات، غير أن الدارسين قلة والموضوعات غالباً ما تكون من المواضيع المساعدة مثل قواعد اللغة والشعر والمنطق وعلم البيان والحساب والتفسير والحديث وأخيراً التصوف.

التصوف والتأثيرات النصرانية والفارسية

يحوي القرآن الكريم والسنة النبوية بعض العناصر ذات المعاني الروحية، وقد تطورت هذه المعاني من خلال التأثيرات النصرانية والفارسية والهندية لتؤدي إلى ظهور علم جديد يقرب الأرواح البشرية من الاتصال بخالقها،

ذلكم هو علم التصوف. ولقد رأى معتنقو هذا المذهب أن العلوم الشرعية والفقهية إنما هي مقدمات أولية للوصول إلى مرحلة محبة الخالق. وفي الهند وجد الإسلام نظماً معقدة للتصوف، وقد تسربت إليه بعض صورها؛ لأنه لم يكن من الممكن القضاء عليها نهائياً.

إن جميع هذا التأثيرات الفكرية، كان ينظر إليها علماء الشريعة، على أنها ظواهر خطرة. ولم يكن مقبولاً لدى أهل العلم أن يؤلف هؤلاء المتصوفة جماعات تسعى إلى اكتساب التقوى والمعرفة الروحية الحقة، من خلال طرق بعيدة كل البعد عن العلوم الشرعية والمعتقدات الإسلامية. لقد وصل الحال ببعض هؤلاء المتصوفة إلى أنهم ينظرون بازدراء إلى الوسائل العادية المتبعة في التقرب من الله تعالى. ويرى هؤلاء التفسيرات المجازية المشتقة من طرقهم الغريبة وممارساتهم المتطرفة، أنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة.

إن علماء الإسلام التقليديين ينظرون إلى الحركة الصوفية على أنها حركة خطرة، ومع ذلك فقد وجدت لها طريقاً بين بعض العلماء المستنيرين، والأعداد الهائلة من المسلمين العاديين من أتباع هؤلاء. ومن هنا دخلت الصوفية ضمن المعارف الدينية، واحتلت بالتدريج مركز الصدارة في بعض الأوقات.

إن مؤلف الغزالي العظيم (إحياء علوم الدين) يعتبر موسوعة في كافة مباحث العقيدة المقدسة. ونطالع فيه رأي الغزالي القائل بوجوب دراسة كافة المباحث الأولية التي تساعد في فهم النصوص المقدسة مثل القواعد والشعر والبلاغة، بالإضافة إلى الحساب والمنطق والفلسفة. ولقد امتدح الغزالي وحث على قراءة القرآن. ومن خلال نزعته الصوفية طلب من القارئ أن يتمعّن في المعنى في أثناء القراءة، مشيراً إلى أن مثل هذا العمل الذي يسبق كافة الأعمال الأخرى مفيد للحياة الروحية. أما عن الفقه فقد صنف الغزالي المعلومات التي يحويها هذا العلم إلى جزء خاص يتعلق بالأمور التعبدية. وهذا الجزء مفهوم ولا يحتاج إلى الكثير من التعمق. وبجانب ذلك هناك فروع أخرى من الفقه تبحث في التشريع والقضاء. ونجد الغزالي يهاجم الاتجاه السائد في تلمس الفتاوى الشرعية. إن من

يشغل نفسه بأمور التفسير والتأويل للقرآن والسنة، يجب ألا يتعداها إلى غيرها؛ لأن مصادر التشريع يجب أن تكون من اختصاص علماء مدربين، لهم دراية واسعة بعلم أصول الفقه. أما جمهور الناس فالأسلم لهم اتباع تعاليم أحد المذاهب الفقهية من خلال مراجعتها من مصادرها. ويضيف الغزالي قائلاً: «وإذا كان الفقه بفروعه المختلفة هو عماد حياة المسلمين، فإن علوم العقيدة التي تشمل علم الكلام وعلم الأصول وعلم التوحيد هي دواء المريض الروحي. ولما كانت أمور الشرك والجاهلية موجودة في كل مكان، فإن المجتمع الإسلامي يعدّ مريضاً. وإن كل فرد من أفراده بحاجة إلى شيء من العلاج. ومثل هذا العلاج لم يكن معروفاً في السابق؛ لأن الناس لم تكن بحاجة إليه في عهد الصحابة وصدر الإسلام الأول، ويمكن القول: إن الإنسان العادي، وليكن صاحب حرفة مثلاً، ليس معرضاً إلى مرض الضلالة والشرك كالعالم مثلاً. وعلى هذا فيكفي للأول بعض أمور العقيدة التي تبعده عن هذا الشرك. أما من يعملون في دوائر أكثر خطورة، فعليهم أن يتسلحوا بأدوات الدفاع عن الدين. ومن مصلحة المجتمع على هذا الأساس أن يوجد بين صفوفه من يشتغل بالأمور المنطقية والفلسفية، ليقف في وجه من تسول له نفسه الهجوم على الدين».

إن الغذاء الروحي قليل يشبه في ذلك كمية الدواء التي تعطىٰ للمريض. وهذا القدر الضئيل من الغذاء الروحي هو الذي ينقذ هؤلاء الناس من الفساد الناجم عن الاشتغال بأمور الحياة الدنيا. إن الإخلاص الصحيح والمعرفة الحقّ لا يمكن الوصول إليها بغير طريق التصوف. علماً بأن معرفة الشريعة والالتزام بأصولها بالإضافة إلى أمور العقيدة هي أمور لا غنى عنها للمتصوف. والصوفي الذي لا يلتزم بأمور الشرع، أو الذي يعتقد بعقيدة أخرى غير العقيدة الإسلامية، إنما هو من الشياطين. إن التصوف الحق يقود الإنسان الذي أعد من خلال دراسة الشريعة بخطوات تدريجية إلى الطاعة التامة والمعرفة الحقّ لله تعالى[١].

---

(١) للإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من =

ويمكن الوصول إلى هذا الهدف عن طريق التدريبات الروحية المكثفة، والتي تتكون من أنواع متعدّدة من الأذكار بالإضافة إلى الصوم والمراقبة وغيرها.. يضاف إلى كل ذلك تركيز مستمر للشعور والقلب مع الله تعالى. والأسلوب المتبع يختلف باختلاف الخصائص الفردية والمؤهلات التي يحملها كل فرد، ولهذا لا يمكن وضع قاعدة عامة لهذا الأسلوب.

إن الهدف الأسمى للمتصوف لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال مرشد[1] قطع شوطاً بعيداً في طريق التصوف. وحينما وضع الغزالي هذه القاعدة كان يفكر في الطرق الصوفية المتشاحنة التي كانت منتشرة في عصره، والتي يدعي أهل كل منها أنهم هم أصحاب المرتبة الأولى. ومع أن الغزالي لم يكن راضياً عن حالة الاضطراب النفسي والفوضى المنتشرة بين صفوف الجماعات الصوفية، إلا أنه لم يجرؤ على القول بكفاية التدريب الفردي الذاتي للوصول إلى درجة الصوفية، ولذلك فهو مسؤول جزئياً عن مساوئ الطرق الصوفية الحالية. وكل ما عمله هو أنه كان يحذر المبتدئين بطريق التصوف من الشيوخ المشكوك بعقيدتهم. ويمكن القول: إن مقاييس التصوف ومعاييره قد وضعها الغزالي من خلال مؤلفه العظيم، دون أن يكون قد انتظم في سلك أي طريقة من هذه الطرق.

إن المحاضرات التي تلقى عن التصوف تكون أيام الجمع والثلاثاء وبعض الأيام الأخرى، ولا يكون الشرع هو البند الرئيس في برامجها، والدارسون هنا هم من كبار السن أو ممن وصلوا إلى مرتبة عالية من العلم. أما الكتب المستعملة فهي مقتطفات من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي. ومن قرأ كتاب الإحياء سوف لن يسمع جديداً في أي من هذه المحاضرات. ولقد كان الإحياء يقرأ بعد صلاة الجمعة، وفي بعض الأيام الأخرى عام ١٨٨٤ ـ

= عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

(١) لم يجعل الإسلام واسطة بين العبد وربه، ولذلك فإن وجود المرشد الذي يجب على المريد الالتزام بقوله بدعة لا أصل لها. وكل بدعة ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها.

١٨٨٥م. إن كلمات الغزالي التي تلقى على مسامع الناس في الحرم المكي تعدّ غامضة جداً. والموضوعات الغامضة فيها هي بعض العبارات المتداولة بين صفوف المتصوفة، والتي أعطاها الغزالي معاني أخلاقية خاصة.

إن التربية الأخلاقية العالية التي يجب أن تستمد من كافة فروع المعرفة، بهدف الوصول إلى رضا الخالق ومحبته، قد تقوقعت من خلال علم مستقل، أثار الكثير من الجدل كغيره من العلوم الأخرى، ذلك هو علم التصوف الذي يمثل صورة شكلية ميتة التصقت بالإسلام.وكلما حاول الناس إخراجها من الباب عادت مرة أخرى من خلال النافذة. فالغزالي لم يكن يفكر قط في فصل الشكل عن الجوهر. لقد فتح الغزالي الطريق التي من خلالها يستطيع المرء أن يصل إلى النجاة. وقد أضاف بعداً جديداً ألا وهو الصوفية المطبوعة بالطابع الأخلاقي. لقد كان التصوف في عهده قوة كبيرة طغت على الاتجاه الإسلامي القائل: إن الإنسان يمكنه أن يحيا حياة يرضاها الله تعالى دون أن يكون متصوفاً. لقد كانت تشيع في تلك الأوساط الفكرة القائلة: إن الرسول الكريم وخلفاءه الأربعة وصحابته الكرام وكل العلماء الصالحين كانوا من رجال التصوف (؟!).

والسؤال الذي يرد الآن هو هل يمكن الوصول إلى رضا الخالق من طرق أخرى غير طرق الصوفية؟ تلك الطرق تجعل من الشيخ هو الممهد لطريق الخالق. وهذا يعني بطبيعة الحال أن المرء لا يستطيع الوصول إلا من طريق رسمه الشيخ. وإذا افترضنا جدلاً أن الجواب عن السؤال السابق كان بالنفي. أي أن طريق الوصول إلى رضا الخالق لا تكون إلا من خلال التصوف، فإن النتيجة هي إعطاء قادة الصوفية دوراً خطيراً وتأثيراً بالغاً في المجتمع الإسلامي، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى خطورة بالغة على الشريعة وعلمائها؛ لأنه يلغي دور هؤلاء العلماء جميعاً.

ومن هذا المنطلق ينحصر دور العلماء بكونهم مفسرين وشارحين فقط لنصوص الأمور الدينية. ومن المعلوم أنه لا يجوز إضافة نصوص جديدة إلى النصوص الشرعية القائمة، بل يجوز الاستنباط والاجتهاد دونما إضافة

شيء جديد إلى ما هو موجود في نصوص الكتاب والسنة. بينما في الجانب الآخر نجد الطرق الصوفية تعطي للشيخ أو المرشد صلاحيات مطلقة في الإرشاد والتوجيه للمريدين. وأن الكلمات المكتوبة لهذه الطرق الصوفية هي عطاء قابل للتغيير والتبديل. ومن هنا نجد أن علماء الشريعة لا يقرون علماء التصوف في هذه الأمور جميعها.

لقد تجنب الغزالي إعطاء جواب صريح وواضح لهذه المسألة، فقد اعترف بأهمية الطرق الصوفية، غير أنه وافق علماء الشريعة على وجود الكثير من التوافه والقشور في بذرة التصوف. ونجده يحذر بشدة من أمثال هذه الطرق الزائفة والمضللة. غير أنه مع الأسف أوجد الأسس الأولى لمهام المرشد أو شيخ الطريقة.وهو يقول: إن وجود شيخ ضروري للطريقة الصوفية لا بد من الأخذ بتوجيهاته، غير أنه يؤكد كثيراً على أن يختار المريد شيخه بحرص وعناية فائقتين قبل أن يسلم أموره له. ومن مواصفات الشيخ عند الغزالي الالتزام بنصوص الشرع والقواعد الأخلاقية وفهم الأمور الدينية فهماً صحيحاً. أما الأساليب المتبعة عند الصوفية مثل التغني بالأشعار وعمل الحركات العنيفة التي تصاحب الرقص والإنشاد والتي تشبه الحركات التي يقوم بها من يتناولون المخدرات، أو من هم تحت تأثير الإيحاءات المغناطيسية، فإن الغزالي يقرها إذا كان الهدف منها تقوية العواطف الدينية والأخلاقية. أما أن تستعمل مثل هذه الأمور هدفاً لحد ذاتها، أو غطاءً يتستر به على الرذائل، فهذا مما لم يقره الغزالي ولم يجزه. ومن المعروف أن الغزالي من دعاة التصوف الذي لا يصاحبه أمثال هذا الصراخ والترنح[١].

---

(١) علق الجاسر على موضوع التصوف فقال:

«والواقع أن الشريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وبها صلاح المجتمع في أي عصر من عصوره، وما أصاب المسلمين الضعف إلّا حين انتشرت فيهم بعض الأفكار الغريبة عن الإسلام التي منها التواكل، والضعف، والاستسلام لليأس، تأثراً بكثير من مبادئ الطرق الصوفية الغريبة مما لا يتسع المقام لتفصيله.

ولم يفت (سنوك) إيضاح ما للحكومة التركية من أثر في حصر تطبيق الشريعة على أمور العبادات والأمور العائلية، وقيامها بوضع عدد من القوانين تُسيِّر بموجبها كافة الأمور =

= الأخرى، على الرغم من ادعاءاتها بأن للمسلمين الحرية بأن يطبقوا أحكام الشريعة على كافة أمورهم، ثم وصف الشريعة التي وصفها بالمثالية وأن لها أهمية كبيرة في الحياة الإسلامية، وأن العلماء وعامة الناس ذوو آمال عريضة في تطلعهم لتطبيقها، وجعلها هي المحرك لكل الثورات السياسية على أمل أن يتحقق ما يطمحون إليه.

وعندما تحدث بعد ذلك عما يلقى في الحرم الشريف من دروس انتقل فجأة للحديث عن التصوف، فوصف القرآن الكريم والسنة النبوية بأنهما تحويان عناصر ذات معانٍ روحية، ولكن هذه المعاني تأثرت بمؤثرات أخرى، النصرانية والفارسية والهندية، وعن هذا نشأ (علم التصوف) قائلاً: هذه المعاني من خلال التأثيرات النصرانية الفارسية والهندية أدَّت إلى ظهور علم جديد يقرب الأرواح البشرية من الاتصال بخالقها، ذلك هو علم (التصوف).

ثم وصف نظرة معتنقي التصوف إلى العلوم الشرعية والفقهية بأنها مقدمات أولية للوصول إلى مرحلة محبة الخالق، وفي الهند وجد الإسلام نظماً معقدة للتصوف، وقد تسربت إليه بعض صورها؛ لأنه لم يكن من الممكن القضاء عليها نهائياً.

قد يكون هناك نوع من التصوف لم يكن في أوله متأثراً بما هو بعيد عن المعاني الإسلامية، فقد وجد أناس من عبَّاد المسلمين رأوا تفرغهم للعبادة وركونهم إلى الزهد، والتخلي عن الدنيا، وبصرف النظر عن مدى ما يوصف به هذا الأمر، إلا أن أولئك أرادوا الخير، ومن هنا عرف عدد من الصوفية بملازمتهم لتعاليم الشريعة وإنكارهم على بعض غلاة الصوفية، ومثل هؤلاء لا يسوغ وصف أفعالهم ما دامت مطابقة للتعاليم الشرعية بأنها متأثرة بأفكار بعيدة عن الإسلام.

أما أولئك الغلاة من الصوفية الذين بلغ بهم الأمر إلى أن تجاوزوا الحدود الشرعية، في الاعتقاد والسلوك فلا شك من تأثرهم بأفكار هي أبعد ما تكون عن تعاليم القرآن الكريم، ومن مشاهير هؤلاء ابن عربي صاحب «فصوص الحكم» وابن الفارض والسهروردي والحلاج وأشباههم ممن هم أبعد الناس عن الإسلام.

ومع سوء نظرة (سنوك) إلى كثير من أحوال الشريعة الإسلامية، إلا أنه كان على حق حين قال: إن جميع هذه التأثيرات الفكرية كان ينظر إليها علماء الشريعة على أنها ظواهر خطرة وهم يرون أن أولئك المتصوفة الذين يسعون إلى اكتساب المعرفة الروحية من خلال طرق بعيدة كل البعد عن العلوم الشرعية ليست مقبولة في نظر المسلمين، بحيث بلغ الأمر ببعضهم إلى ازدراء وسائل العبادة في التقرب إلى الله تعالى، وهم يرون في طرقهم الغريبة وممارساتهم المتطرفة أنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة، ومع نظرة علماء الإسلام إلى خطورة تلك الحركة الصوفية، إلا أنها وجدت طريقاً بين بعض العلماء المستنيرين، وبين أعداد هائلة من عامة المسلمين من أتباع أولئك العلماء.

وخلص ليتحدث عن كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، الذي أشار إلى نزعته الصوفية، =

وبالإضافة إلى الغزالي هناك متصوفة آخرون، فضلوا العمل في الظلام، واجتهدوا كثيراً في إدخال كثير من الأشياء الباطنية، من خلال مفاهيم ولغات رمزية، نشروها بين صفوف العامة غير المثقفة والمستنيرة.ويتمتع هؤلاء بتقدير كبير في الأوساط الصوفية، ومن هؤلاء ابن عربي والشعراني. وعلى الرغم من أن كتب هؤلاء العلماء لها شهرة في مكة إلا أنها لا تداني شهرة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

لقد تعمقت المفاهيم الصوفية تعمقاً شديداً في بعض عصور الإسلام السابقة، لدرجة أنه لا الغزالي نفسه ولا أتباعه يستطيعون السيطرة عليها، أو ضبط انحرافاتها، إن أمر ضبط هذه الطرق والسيطرة عليها تقف أمامه الكثير من العقبات؛ لأن المرء لا يستطيع مراقبة الحياة الداخلية لأي من هذه

= وأنه حين حثَّ على قراءة القرآن طلب من القارئ التمعن في المعنى في أثناء القراءة، وأن هذا مما يفيد الحياة الروحية، واسترسل في وصف محتوى كتاب الغزالي.

ومن المعروف رأي العلماء المتقدمين في الإمام الغزالي رحمه الله وتأثره بالمباحث الفلسفية وأن كتابه «إحياء علوم الدين» لم يخل من ذلك، ولهذا كان محققو العلماء ينهون عن قراءة هذا الكتاب لمن لم يكن لديه من المعرفة ما يمتلكه من إدراك حقائق ما يحويه، وللشيخ عبداللطيف بن الشيخ عبدالرحمن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله رسالة في هذا الموضوع منشورة ضمن رسائل الشيخ المعروفة، جمع فيها أقوال العلماء المحققين عن ذلك الكتاب، وأكتفي بالإشارة إليها عن الاسترسال في عرض البحث الطويل الذي تحدث فيه (سنوك) عن الغزالي وعن كتابه، وخلص من ذلك عن نظرة الغزالي للتصوف، ووصفه بأنه اعترف بأهمية الطرق الصوفية، غير أنه وافق علماء الشريعة على وجود الكثير من التوافه والقشور في بذرة التصوف، وحذر بشدة من أمثال هذه الطرق الزائغة والمضللة، ثم أبدى (سنوك) أسفه حين وصف الغزالي بأنه أوجد الأسس الأولى لمهام المرشد، أو شيخ الطريقة بقوله: إن وجود شيخ ضروري للطريقة الصوفية لا بدّ من الأخذ بتوجيهاته، ثم وصف ما يجب أن يتحلى به هذا الشيخ، وأن من ذلك الالتزام بنصوص الشرع والقواعد الأخلاقية وفهم الأمور الدينية فهماً صحيحاً.

ولا أدري أصحيح ما نسب (سنوك) إلى الغزالي من قوله: أما الأساليب المتبعة عند الصوفية مثل التغني بالأشعار وعمل الحركات العنيفة التي تصاحب الرقص والإنشاد، فإن الغزالي يُقرّها إذا كان الهدف منها تقوية العواطف الدينية والأخلاقية، أما أن تستعمل غطاء يتستر به عن الرذائل، فالغزالي لا يقرّ هذا ولا يجيزه، وإن كان من دعاة التصوف الذي لا يصاحبه أمثال هذا الصراخ والترنح». (انظر المجلة العربية، عدد ذي القعدة، ١٤١٦هـ ص١٠١).

الطرق. وإذا ما أساء رجال إحدى الطرق إلى شعور المسلمين العام، فإن المقاومة تبدأ من صفوف العامة. وبالإضافة إلى ذلك فإن رجال العلم يعرفون أن كثيراً من الأقوال والأفعال التي يقوم بها رجال الصوفية تستحق اللوم والتقريع. غير أنه من الصعوبة بمكان إثبات مثل هذه الحقائق والملابسات. والأمر الوحيد هو تدخل الدولة لإيقافها.

إن العلماء والمستنيرين يبدون دائماً عدم رضاهم عن الحركات الصوفية الشائعة، وخاصة ما يبديه هؤلاء من شعوذة ومواكب تكتنفها الضوضاء، ودراويش همهم التسول، وشيوخ رغبتهم في جمع حشود كبيرة أمامهم. غير أن الكثير من هؤلاء العلماء لا يجازفون بمعارضة هؤلاء العميان، الذين يقودون عمياناً مثلهم، ممن يحيط بهم من الأتباع والمريدين. فالاحتلال الأجنبي الغربي لبلاد الإسلام، يجعل العلماء ميالين إلى مجاراة هؤلاء، لأنهم يجدون لهم تأثيراً كبيراً في مقاومة حركات الغزو الأجنبي، ويمكن كسبهم لقضية المسلمين الكبرى، ألا وهي الاحتلال الغربي لبلادهم.

إن من يدخلون الطريقة الصوفية أول مرة (المريدون) يندفعون بجاذبية بركات أهل السلسلة، التي تنتقل من شخص إلى آخر، حتى تصل إلى الشيخ. ولا يستطيع المريد الحصول على هذه البركات، إلا إذا كانت أعماله متسقة مع الشرع الحنيف. وبعد محادثة الشيخ للمريد الجديد يبدأ بتلاوة ورد خاص يعطيه إياه الشيخ.وعليه أن يردده عدداً من المرات عقب أوقات إحدى الصلوات. وعلى المريد أن يحضر حلقة الذكر التي تعقد يومياً تحت قيادة الشيخ أو أحد مساعديه، حيث يقوم هؤلاء في أثناء حلقة الذكر بعمل بعض الحركات الجسمية الخاصة. وفي كل أسبوع يلتقي الشيخ مع الأفراد فرادى في الخلوة، حيث يقوم بإعطائهم وظائف خاصة. وكثير من هؤلاء المريدين لا يتجاوزون ذلك، وحينما يغادر أحد المريدين إلى جهة، فإنه يلتحق بأفراد طريقته في المكان الذي يذهب إليه، حيث يكون للشيخ ممثلون في تلك المناطق (خلفاء) يقومون بالمهمة نفسها. ويمارس المريد مع زملائه الجدد الأعمال السابقة نفسها، ويقوم المريدون بإطاعة ممثل شيخهم، ويساعد بعضهم بعضاً إذا اقتضت الحاجة ذلك.

إن الذين يستمرون فترة طويلة في الطريقة الصوفية، تحت مراقبة الشيخ، تصبح مفاهيمهم الصوفية أكثر عمقاً، وتصبح علاقتهم وثيقة جداً بالشيخ، وفي النهاية يعطي هؤلاء (العهد). ولا يستطيع القيام بعمل من أعمال الطريقة إلا إذا سمح لهم الشيخ بذلك، وحينما يغادر هؤلاء إلى جهة ما، فإنهم يتلقون تعليمات واضحة لما سيفعلونه. وقد يحيلهم الشيخ إلى أحد ممثليه في المنطقة التي سيذهبون إليها. والمتصوفة عموماً لديهم قسم الطاعة. ذلك القسم الذي يجعل المريد بين يدي الشيخ كالجثة بين يدي المغسل.

وفي معظم المجتمعات الإسلامية، هناك حرية الحضور في حلقات الذكر لدى المتصوفة، دون الالتزام بأوامر الطريقة. وعلى هذا يمكن للمرء أن يحضر لأكثر من طريقة دون الالتزام بأي منها. والمتصوفة يقولون: إذا كان الحضور من أجل البركة فقط، فلا حرج في تعدد المشايخ، أما إذا قرر المرء أن يلتزم مع شيخ واحد فلا يجوز له أن يحضر في غير مجلسه، وعليه أن يربط مصيره بشيخه الجديد إلى الأبد. فالنكوث بالعهد يؤدي إلى سخط الشيخ، وكذلك سخط الملائكة والنبيين، وأخيراً سخط الخالق سبحانه وتعالى (؟!).

إن نظرة سريعة تظهر الأهمية القصوى للطرق الصوفية في الحياة الدينية في مكة، وفي كافة الأراضي الإسلامية، التي تتزود بالغذاء الروحي من المدينة المقدسة. فعلى سفوح جبل أبي قبيس تقع الزاوية السنوسية التي أشرنا إليها سابقاً. وكذلك زاوية الطريقة النقشبندية التي أسسها الشيخ سليمان، والتي يسكنها الشيخ ومريدوه[١]. وتكاليف الزاوية النقشبندية قد تحملها مريدو الطريقة أنفسهم. ومن خلال تبرعات هؤلاء المريدين، كان الشيخ يقدم الطعام واللباس لبعض المريدين المعوزين. الأمر الذي ساعد على زيادة نفوذ الشيخ واحترامه، وفي الأيام المخصصة للقاءات العامة لأفراد هذه الطريقة، وفي بعض المناسبات الأخرى، يستضيف الشيخ كافة المريدين، ويقدم لهم الكثير من صنوف الأطعمة.

---

(١) لقد زالت هذه الأماكن الآن، وانتهت إلى الأبد هذه الطرق من المدينة المقدسة، وأصبح أهلها الآن ينعمون بعقيدة التوحيد الصافية، بعيدين عن هذه الخرافات الباطلة والشرك البواح.

وبالإضافة إلى الزاويتين المذكورتين، هناك أماكن أخرى متعدّدة يستعملها أصحاب الطرق الصوفية الأخرى، أمثال الطريقة القادرية والشاذلية وغيرها، وفي العادة يوجد خلفاء الشيخ وممثلوه ببيت الشيخ دائماً، بالإضافة إلى بيوتهم الخاصة التي يصرف عليها من جيوب المريدين.

إن حلقات الذكر والاحتفالات الأسبوعية والشهرية وتوزيع النقود على المحتاجين يتم كله في بيت الشيخ. أما اللقاءات اليومية لأفراد الطريقة، الذين لا تتوافر لديهم الأبنية الكبيرة، فتعقد في المسجد الحرام في العادة. وفي الغالب يتردد على مسامع المرء السؤال التقليدي، الذي يسأله أفراد الطرق لمن غاب منهم: «لماذا لم تكن في حلقة الإخوة هذا الصباح؟».

وإذا استثنينا الملحوظات التي يبديها الشيخ على الجوانب العملية لأفراد الطريق، فليس هناك إلا بعض الأمور المحدودة التي يقدمها لتلاميذه؛ لأن دائرة علوم هؤلاء المشايخ محدودة، ولا يخجل مشايخهم من الاعتراف بأن ما لديهم من علم ضئيل جداً. ولا يعرفون إلا الأمور التي تتعلق بالطريقة. غير أنهم يدعون أنهم يعنون بالربط بين المعرفة والحياة بصورة أكثر من رجال العلم الآخرين.

إن مشايخ الحرم وعلماءه يستاؤون كثيراً حينما يلتحق الكثير من طلبتهم بالطرق الصوفية، ولا سيما أنهم لم ينالوا من المعرفة إلا الشيء اليسير. وهذا بطبيعة الحال يؤثر سلباً في دراسة هؤلاء الطلبة. وغالباً ما يقول العلماء لهؤلاء: الطرق الصوفية مفتوحة أمامكم في أي وقت، والمهم الآن هو أن تنهوا رحلة العلم الطويلة. إن ما تريدون الوصول إليه موجود في المسجد الذي تدرّس فيه كتب الغزالي عن الصوفية.وبعد التزود من العلم والمعرفة، يمكنكم أن تختاروا الطريق الذي تريدون، والشيخ الذي تريدون، دونما كبير خطر.

إن الطرق الصوفية في الأعم الأغلب تصرف طاقات الطلبة النافعة وجهودهم في أمور أبعد ما تكون عن تلقي العلم والثقافة والمعرفة.

إنه لمن السهولة بمكان أن نرى المساوئ التي وصلت إليها الطرق الصوفية. إن كل من له مركز في هذه الطرق يتلقى في كل مناسبة الكثير

من الهدايا والأعطيات التي يكون بعضها مخصصاً له، وبعضها الآخر لأفراد الطريق الصوفية. وهذا الأخير هو أيضاً تحت تصرف أصحاب النفوذ. ولهذا أصبح الاهتمام في هذه الطرق منصباً على الجوانب المادية. وهناك الكثير من الجهود التي يبذلها المتنفذون لتحقيق مآربهم الشخصية، تلك الجهود التي كان من الواجب بذلها لإرشاد المريدين لمعرفة الشريعة، وإلى إحياء المثل والقيم الإسلامية في قلوب هؤلاء الأتباع. إن جميع النتائج الشريرة، التي تنجم عن السيطرة العنيفة، التي يفرضها الإنسان القوي على الإنسان الضعيف تتجلى في الطرق الصوفية، تلك السيطرة التي ليس لها داع.

إن مصطلح (السلسلة) في علم التصوف، يعني أن الخصائص الروحية الغامضة، والمعتقدات الصوفية، تعطى من المؤسس الأول إلى أحد تلاميذه، الذي ينقلها بدوره إلى أحد تلاميذه، وهكذا بحيث يكتسب كل من هؤلاء الخصائص الروحانية التي كانت لدى المؤسس الأول. وهذه الحالة شبيهة بعلم الأنساب لدى النبلاء، والذي من خلاله يستطيع المرء أن يثبت أن ما يجري في عروقه، هو الدم النبيل الذي كان لأسلافه. ويغالي بعض علماء التصوف فيوصلون السلسلة إلى الصحابة وإلى الرسول الكريم، وأحياناً أخرى إلى الخالق عز وجل.

تعتمد الصوفية على الإيحاءات التي يجب أن تصاحب الأدوار، فترديد الشهادتين أكثر من ألف مرة، على زعم هؤلاء، تجعل القلب يعمر بذكر الله. ولما كانت مثل هذه المفاهيم غير ممكنة بالنسبة للمبتدئين، يلجأ هؤلاء إلى إيجاد الوسيط، ألا وهو الشيخ. وعلى المريد أن يتمثل صورة الشيخ، حتى إذا استقرت في قلب المريد، أسهم الشيخ من خلال روحانياته بإعمار قلب المريد بأنوار الله تعالى. وهناك في الطرق الصوفية اهتمام كبير بالشيخ الذي يعدّ بالنسبة للمريدين هو ممثل الخالق الكريم سبحانه وتعالى[1].

---

(١) إن الكثير من هذه المظاهر فيها الشرك والعياذ بالله. ففي الإسلام لا واسطة بين الخالق =

إن علوم الشرع والعقيدة والتصوف أسهمت إسهاماً قويّاً في إحياء القيم السياسية الإسلامية. كما أن البيئة المكية تساعد وتقوي الآراء والآمال الإسلامية، من خلال ما تطرحه من موضوعات دراسية مختلفة. ولا سيما أن معظم الدارسين يفدون من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي. وهؤلاء حينما يوجدون ويعيشون سوية، يزداد الوعي لديهم بسعة انتشار دينهم. وتتقوى لديهم الأفكار التي يطرحها الطلبة القادمون من البلاد التي يحتلها الأجانب الغربيون بأن المسلمين ملامون بخضوعهم فترات طويلة إلى هذه القوى الغازية.

إن ممثلي الدول العظمى لا يجرؤون على أن تطأ أقدامهم مدينة مكة، وينظر إليهم المكيون من بعد على أنهم مواطنون من جنس وضيع. وصحيح أن هؤلاء الأجانب قد ضربوا جدة بالمدافع، لكن هل باستطاعتهم مهاجمة مكة؟ إن لسان حال المكيين يقول: إن السلطان سيدافع عنها، وإن المولى ـ عز وجل ـ سيرميهم بصواعق من السماء. إن الأجانب لا يجرؤون على القيام بمثل هذا العمل. ولقد سبب لهم المهدي في السودان من الجانب الآخر من البحر الأحمر الكثير من المشكلات التي تكفيهم. نحن هنا في مكة من رعايا سلطان الإسلام. إن قراءة بعض الفصول عن الفتوحات الإسلامية، أو عن المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع أعدائهم، أو عن انتصارات المسلمين على الديانات اليهودية والنصرانية، ليثير عقول الكثيرين هنا في مكة، بالقدر نفسه الذي يثيره في أحد مساجد الهند. إن مكة حقاً مركز العالم، والانتصارات المستقبلية يجب أن تبدأ منها. إن أكثرية الطلبة الدارسين ومعظم المجتهدين هم من الأغراب الذين يستقرون في مكة بضع سنين. وعندما يعود هؤلاء إلى بلادهم يبدؤون بنشر المعرفة والآراء التي تعلموها في المدينة المقدسة. وبالإضافة إلى حركة الإنعاش التي تعطيها مكة للطبقة المتعلمة، نجد أن الطبقات الشعبية لديها شعور

= والمخلوق، والعبد مرتبط بخالقه، ولا يحتاج إلى دليل أو وسيط ليدله عليه.. وكثير من مظاهر التصوف تسربت من عقائد أخرى لا تمت إلى الإسلام بصلة.

قوي بالتضامن مع المجتمع الإسلامي الكبير، من خلال ما تتلقى من دروس تعطى لمثل هؤلاء في المسجد الحرام.

وفي النهاية علينا أن نعطي صورة عن بعض الأمور التي تسبب عدم الالتزام بمنهج الدراسة بالحرم. ذلك المنهج الذي يطبق بدقة خلال السبعة أشهر الأولى من السنة. فبعد حلول منتصف شهر رجب يخصص المدرسون ساعة من المحاضرات لتلاوة قصة الإسراء، التي تحل ذكراها في السابع والعشرين من هذا الشهر. وكذلك الحال في الأيام الأولى من شهر ربيع الأول، حيث تقرأ قصة المولد. وفي شهر شعبان يشرع جميع المدرسين في قراءة موضوعات الصيام، لإعداد التلاميذ لمراعاة متطلبات شهر الصوم الذي بات وشيكاً، وترتب موضوعات الصيام بحيث تنتهي مع حلول رمضان.

الــــدروس

إن نهاية العام الجامعي تكون بحلول «شهر رمضان»، غير أن العلماء لا يتوقفون عن إعطاء محاضرات إضافية خلال الإجازة، التي بدأت في رمضان، حيث يقومون بالتدريس أيام الجمع والثلاثاء وبعض المناسبات الأخرى، حينما تسمح لهم الظروف بذلك. وفي رمضان تعقد المحاضرات بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر. أما وقت الظهيرة فهو وقت النوم والقيلولة. وبعد المغرب هو وقت الإفطار، ثم يليه صلاة التراويح، والموضوعات التي تعطى في رمضان هي تقريباً الموضوعات السابقة نفسها، وهي العقيدة واللغة العربية والتفسير والحديث. لقد استمر مفتي الشافعية في إعطاء برنامجه في التفسير، وكذلك استمر الشيخ عباس بقراءاته في صحيح البخاري. ويقوم بعض المشايخ بالتدريس في حلقات صغيرة بعض الموضوعات الدينية التوجيهية.

وعند انتهاء أيام عيد الفطر، مع بداية شهر شوال، تتهيأ الأذهان تدريجياً إلى عيد الأضحى الذي سيأتي بعد شهرين، ونجد الأساتذة الذين ينجحون في إيجاد مكان لهم لإلقاء بعض الدروس في المسجد، يخصصون معظم وقتهم للحديث عن الحج. وذلك بقراءة باب الحج من كتب الفقه أو قراءة

بعض كتب المناسك. ويستمر ذلك حتى نهاية شهر ذي القعدة. وبحلول ذي القعدة يتزايد عدد الحجاج، بحيث لا يمكن معه قيام المحاضرات الأكاديمية، التي تتوقف تماماً حتى منتصف شهر محرم الحرام من السنة التالية.

لقد ذكرنا فيما مضى أن هناك محاضرات يلقيها مدرسون أجانب بلغتهم الخاصة في أماكن إقامتهم، وليس في الحرم، وذلك لتدريس أبناء جلدتهم العلوم الشرعية. ويسير تدريس هؤلاء موازياً للتدريس في الحرم، من حيث تقسيم الوقت والموضوعات. وهذا ليس مصادفة؛ لأن مواعيد التدريس محددة بأوقات الفرائض الخمسة. والاستعداد للصيام وأداء فريضة الحج مطلوب من الدارسين في الحرم، كذلك من الدارسين خارجه. لهذا نجد أن نسق الدراسة ووقتها واحد في كلا الحالين.

ويمكننا أن نستنتج من كتب تواريخ مكة أن الحياة الثقافية في المدينة المقدسة كانت أكثر نشاطاً وازدهاراً فيما مضى من القرون[١]. وإنه لمِمّا يؤسف له أن رجلاً عالماً مثل بوركهارت، لم يذكر شيئاً من ذلك، لا بل نراه يصور قصور أهل مكة في الحضارة والعلم بصورة مبالغ فيها[٢]. وهذا دليل جديد يؤكد حقيقة ما قررناه سابقاً من أن مكة تبدو للحجاج بصورة مختلفة تماماً عن أولئك الذين يستقرون فيها[٣]. وسوف أضيف تعليقاً آخر على بعض ما قاله بوركهارت. يقول بوركهارت: حيث قال إنه في يوم

---

(١) انظر بوركهارت Travels in Arabia ج١ ص٢٧٤، ٢٩٠ (المؤلف).

(٢) انظر المرجع السابق ج١ ص٣٩٦. إن رأي بوركهارت هذا غير صحيح، والدليل على ذلك ما وصفناه من عرض تاريخي لواقع العلم والحضارة، هذا الواقع أنكره بوركهارت (المؤلف).

(٣) من الأمور الأخرى التي تؤكد الحقيقة السابقة ما يرويه بوركهارت في صفحة ٤٠١ من الجزء الأول حيث يقول: لا أستطيع أن أصف حفلات الزواج في مكة؛ لأنني لم أحضر أياً منها، كما أن المعلومات الضئيلة التي أوردها عن المناسبات المحلية معظمها خاطئ. وإنني أستطيع أن أكتب صفحات مطولة عن الكثير من مواطن الزلل في كتاب بوركهارت، غير أنني من جهة أخرى آمل أن يصدقني القراء إذا قلت: إنني قرأت كتاب بوركهارت قراءة شاملة لولاها لما تمكنت من كتابة كتابي هذا. ولهذا فإنني أبدي تقديري واحترامي الشديدين إلى سلفي السابق، على الرغم من وجود بعض الأخطاء التي استطعت أن أكتشفها في عمله الممتاز (المؤلف).

الجمعة، وبعد صلاة الظهر، اعتاد بعض الأساتذة الأتراك، أن يتجمعوا في المسجد، ويحيط بكل منهم حلقة من مواطنيه، حيث يلقي عليهم محاضرة بلغتهم الأصلية، وقبل أن ينصرف هؤلاء من المحاضرة يقبلون يد الشيخ، ويقدمون له هدية مالية. إن هذا التقليد موجود حتى الآن (١٨٨٥م)، غير أنه يجب أن يضاف إليه المعلومات الآتية: وهي أن المسجد في أوقات الحج يزدحم بالحجاج الأتراك. فيقوم بعض الأتراك الذين يستوطنون مكة بإعطائهم مثل هذه المواعظ. وهؤلاء ليسوا بعلماء وليسوا من الأساتذة، ذوي الدرجات الرفيعة. الذين يخجلون من مثل هذه الأمور. وكل ما يمكن قوله: إن هؤلاء أساتذة موسميون لا يمكن لهم أن يعلموا في دائرة المسجد، حيث تنظم دراسة الفصول في أثناء العام الدراسي. ولقد شاهدت ظهور أمثال هؤلاء في شوال عام ١٣٠٢هـ (يوليو ١٨٨٥م) في رحاب المسجد الحرام. ولقد قال لي أحد المكيين، مشيراً إليهم بإصبع السبابة: (لقد ظهرت الضفادع). وحينما سألته عن ذلك أضاف أن الضفادع تبدأ في النقيق حينما تمطر السماء، مشيراً بالمطر إلى قدوم الحجاج إلى المدينة المقدسة. فهؤلاء يبحثون عن المنفعة المادية، وهم متطفلون على سوق العلم والمعرفة.

يظهر في مدينة مكة في كل قرن من القرون كثير من رجال العلم والثقافة. وقد امتازت مكة قرونًا طويلة بأنها مركز ممتاز للدراسات الشرعية والفقهية. ولقد تضافرت في الوقت الحاضر على المدينة المقدسة أسباب متعدّدة جعلت منها مركزاً فريداً للعلم والمعرفة لجميع بقاع العالم الإسلامي.

الفصل الرّابع
السكّان في مكّة المكرّمة

عناصر السكان في مكة

لقد نشر أحد الضباط المصريين وهو باحث ومهندس رافق بعثة الحج، والمحمل المصري سنوات متعدّدة تقارير عن تجاربه وخبراته مع البعثة المصرية[١]. وقد ذكر في أحد تقاريره المطبوع سنة ١٨٨٦م[٢] أن قطاع المهاجرين في مكة هم خليط من الجاوى والهنود والمصريين والأتراك والأفارقة (السود) واليمنيين والبدو يقومون ببيع مياه زمزم، ويتاجرون بالحناء وأعواد الأراك، وكان معظم العاملين بالتجارة من الأجانب المجاورين بمكة. وكان بعضهم يتعاطى الربا في تعامله، بحيث يسترد العشرة اثنتي عشرة أو أكثر، ويقوم باستغلال الحجاج، ولا سيما حجاج الجاوى؛ لأنهم كانوا غرباء وموسرين.

إن الباحث المصري السابق، ذا الثقافة نصف الأوروبية، قد لحظ بصورة سطحية الظروف السائدة في مكة، غير أنه من المهم أن نذكر أنه خص حجاج الجاوي بالاستغلال، دون أن يذكر أي مسوّغ أو سبب لذلك.

مناطق الجاوى

ويندرج تحت اسم الجاوى[٣] في الجزيرة العربية، كل الشعوب التي تنتمي إلى السلالة الملاوية في أوسع صورها، شاملة البلاد الممتدة من سيام

---

(١) محمد صادق باشا، دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج، المطبعة الأميرية بالقاهرة ـ ١٣٠٣هـ ص٦٠.

(٢) المرجع السابق ص٢٠.

(٣) إن المناطق التي يفد منها هؤلاء يطلق عليها اسم بلاد الجاوى، ويطلق المكيون على الفرد الواحد اسم جاوي، والجمع جاوات أو جاوى أو جاويين (المؤلف). وقد استعملنا في الترجمة لفظ «جاوي» (بفتح الجيم وكسر الواو والياء الساكنة في آخره) للمفرد كما استعملنا لفظ «جاوى» بفتح الجيم وفتح الواو والألف المقصورة لدلالة على الجمع، وقد =

(تايلند) إلى ملقا وغينيا الجديدة. وتشمل هذه التسمية في مكة المسلمين وغير المسلمين. وغير المسلمين يطلق عليهم في العادة اسم «عبيد». إن المسافرين والرحالة من أهل مكة لهم اتصالات في بعض الأحيان مع أفراد من الجاوى ممن يعتنقون الهندوكية أو ممن يدينون بالوثنية.

سكان رأس الرجاء الصالح

وهناك فئة من الجاويين تعيش خارج الحدود الإقليمية والجغرافية لمناطق الجاوى في جنوب شرقي آسيا، حيث يستوطن هؤلاء منطقة رأس الرجاء الصالح في جنوب إفريقية. إن هؤلاء في السنوات الأخيرة كانوا يقومون برحلات الحج إلى الديار المقدسة، وهؤلاء هم من السلالة الملاوية، وقد أحضروا إلى منطقة الكاب (رأس الرجاء الصالح) من قبل الهولنديين. ونجد بين صفوف هؤلاء بعض الاختلاط بالدماء الهولندية. ولقد تسربت بعض العبارات الملاوية إلى لغة البوير، وهي لغة محلية غريبة، مشتقة من إحدى اللهجات الهولندية يتكلم بها أهل المنطقة. كما أن هؤلاء قد تركوا لغتهم الأصلية إلى لغة الكاب الهولندية، محتفظين بعدد من الاصطلاحات الملاوية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأسماء الهولندية الأصلية التي يحملها هؤلاء، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن بعض الأجيال الهولندية المولدة، قد اعتنقت الدين الإسلامي من خلال هؤلاء الذين يطلق عليهم في مكة اسم (أهل الكيف)[1].

وإذا استبعدنا موضوع الاختلاط مع العناصر الهولندية، فإن هؤلاء لم تكن لديهم الإمكانية بتقوية الروابط الدينية فيما بينهم، لولا قدوم بعض العناصر المتدينة إلى بلادهم. ولست على يقين متى أو من أين قدم هؤلاء الذين أذكوا الحماس الديني في المنطقة. وعلى أي حال فإن بناء المساجد قد نشط خلال العشرين سنة الأخيرة أكثر من أي وقت مضى، كما أن الناس قد

= استعملت كلمة «الجاويين» للدلالة على الجمع أيضاً. كما استعملنا كلمة «جاوة» بالهاء للدلالة على الجزيرة الأندونيسية المعروفة بهذا الاسم.

(١) إن كلمة أهل الكيف هي تحريف لكلمة أهل الكاب Cape والتي تعني منطقة رأس الرجاء الصالح، في جنوب القارة الإفريقية.

بدؤوا يتجشمون المصاعب في سبيل تعلم أمور الدين، يضاف إلى ذلك أن بعض هؤلاء أصبح يسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج.

وباعتبار أن هؤلاء ينتمون إلى الأصول الجاوية، فقد أعد لهم المكيون مطوفاً خاصاً بهم من مطوفي الجاوى. ولما كان غالبية هؤلاء من موسري الحال، فقد نالوا اهتماماً أكثر من غيرهم من أفراد الجالية الجاوية. ولقد سافر بعض العلماء الأتراك والمكيين إلى مقاطعة الإسلام الحديثة. ونجحوا في تحويل هؤلاء عن المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي، كما أنهم أحيوا في تلك البلاد التقاليد الإسلامية التي كادت أن تنسى، ولهذا عُدَّت هذه العملية وكأنها ولادة ثانية للإسلام في تلك الربوع.

وفي القسطنطينية شجعت السلطات طباعة بعض كتب الشريعة الإسلامية باللغة الهولندية السائدة في منطقة الكاب (رأس الرجاء الصالح) بحروف عربية. وهذا يظهر تعلق المسلمين بالإخوة الجدد في الجزء الجنوبي من إفريقية، وجعل ذلك نجاحاً للحركة الإسلامية.

اهتمام أهل مكة بالجاوى

كان شيخ المؤذنين صديقاً لي، وقد سعد بأهل الكيف لدرجة أنه اهتم بلغتهم. ولقد حضر إليّ يوماً ومعه بعض الأوراق عليها عبارات عربية وترجمتها بلغة الرأس، وطلب مني أن أخبره عن أقرب اللغات الجاوية شبهاً بلغة الرأس. وقد ذكر لي عبارات مثل كيف حالك الآن؟ أتفضل شرب الشاي الأخضر أم الأسود؟ وغيرها، وقد كتبت جميعها بلغة الرأس الإفريقي. وعلى أي حال هناك ظاهرة ملموسة هي أن الحجاج القادمين من منطقة الرأس يغيرون أسماءهم الهولندية إلى أسماء عربية حال وصولهم إلى مكة. ومن المهم أن نذكر أنه ليس ثمة اختلاط بين سكان رأس الرجاء الصالح الذين يفدون إلى مكة وبين أبناء عمومتهم من الجاويين.

صفات العناصر الجاوية

إن الباحث المصري السابق قد أكد على أهمية الجاوى من بين الجاليات الأجنبية في المدينة المقدسة. وإن هذا التأكيد لا بد أن يكون وراءه سبب ما. على الرغم من أن المؤلف المصري لم يذكر لماذا كان ذلك. ولعل نسبة القادمين إلى مكة من أرخبيل الملايو، لا يدانيها نسبة أخرى في مختلف

بقاع العالم الإسلامي. فبينما نجد الكثير من المتسولين يفدون إلى مكة من المستعمرات الهندية البريطانية، لا نجد فقيراً قادماً من بلاد الجاوة، وإذا وجد أحد من هؤلاء فإنه يكون خادماً أو رفيقاً لأحد الأغنياء الذي يقوم بإعالته. ومعظم السكان الجاوى متواضعون بطبعهم. إن تقاليدهم الوطنية في مختلف دول جزر الملايو تتضاءل أمام وعيهم الإسلامي، فعلى الرغم من عظمة أصولهم الهندية والوطنية فإنهم يرون أن حضارتهم الحقيقية بدأت عند اعتناقهم الدين الإسلامي.

انتشار الإسلام في بلاد الجاوى

وفي الكثير من جزر الملايو هناك بعض الأساطير التي تقول: إن الإسلام دخل إلى هذه البلاد منذ عهد الرسول ﷺ، في حين يعتقد بعضهم الآخر أن الإسلام انتشر نتيجة اعتناق بعض الأمراء هذا الدين، على أيدي دعاة قادمين من الغرب. إن المؤرخين الوطنيين يمنحون اللقب السلطاني لأمراء الملايو الذين ينحدرون من أصول مكية. إن الشريف الأعظم أو (راجا مكة) قد منح هؤلاء قوة كبيرة على منافسيهم. إن كثيراً من أساطير الملايو القديمة فيها ذكر حميد لسلطان الروم (تركيا)، غير أن السكان الحاليين لديهم معرفة أشمل عن السلطان الأعظم في إسطنبول. ومع هذا فإن مكة لا تزال في نظرهم هي بؤرة الإسلام ومركزه. وعلى عكس الشعوب المصرية والتركية والفارسية والهندية التي أدّت دوراً بارزاً على مسرح الإسلام فإن الجاوى يعلنون بتواضع وتحفظ أنهم لم ينالوا حظاً كبيراً من نعم الإسلام.

إن الجاوى في السابق كانوا أحسن حالاً مما هم عليه الآن. والمرء يدرك بسهولة كيف أن المكيين قد يتنازعون فيما بينهم حول المكاسب التي يجنونها من شعب يسهل استغلاله كهؤلاء. وإنه لمن المؤسف حقاً أن المكيين والجاويين لم يعطونا تفصيلات عن تطور العلاقات بين مكة والشرق الأقصى. ويمكن أن نتصور بسهولة أن السفن التجارية التي انتشرت في العقود الأخيرة، قد ساعدت على الحركة بين المنطقتين. وكان أهل الملايو في السابق يعتمدون على ربابنة السفن العرب الذين كانوا يملؤون

السفن وسيلة الاتصال بين مكة وأرخبيل الملايو

سفنهم في آشيه (آكيين)[١] وسنغافورة[٢] بأعداد كبيرة من المسافرين. أما الآن فإن السفر يتم على قوارب بخارية هولندية أو إنجليزية من بتافيا[٣]، بادانج[٤] أو سنغافورة، إما إلى جدة مباشرة أو إلى جزر الكرنتينة (الحجر الصحي)[٥]. إن ترتيبات الحجر الصحي ليس لها من هدف سوى استغلال هؤلاء. وترتيبات الحجر الصحي قد نظمت من قبل السلطات العثمانية لإقناع السلطات الطبية العليا في الغرب، التي لا تعرف شيئاً عن الظروف الحقيقية في الشرق، بهذا النظام الذي ليس له من هدف سوى ابتزاز الأموال. إن كل من يشاهد ذلك عن قرب يصيبه اليأس والقنوط، وعلى أي حال فإن الحجاج بدؤوا يعتقدون تدريجياً أن هذا من ضمن ترتيبات الحج، وأن هذا معمول لصالحهم، حيث يجب عليهم قبل دخولهم جدة، أن يمضوا بعض الوقت في جزيرة غير صحية، يدفعون فيها سعر كل شيء مضاعفاً، بالإضافة إلى رسوم الحجر الصحي. وربما تنتابهم عدوى بعض الأمراض أيضاً. وبالرغم من كل ذلك فإن رحلة الحج في الوقت الحالي (١٣٠٢هـ) أكثر أماناً وراحة مما كانت عليه قبل ثلاثين سنة.

لقد انتُقدت الحكومة الهولندية بغير وجه حق لحمايتها مصالح شركات الملاحة الهولندية. فهي بطريقة لا مباشرة شجعت على زيادة الحجاج الذين يمكن أن يخشى جانبهم بصفتهم أناساً شديدي التعصب. وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل لاحقاً. وما يمكن قوله الآن ردّاً على هذا الاتهام هو أنه

---

(١) أتشيه: وينطقها أهل مكة أشيه والنسبة إليها آشي، وهي منطقة تقع شمال سومطرة، والآشيون أحد شعوب إندونيسية العريقة ويتكلم هؤلاء لغة خاصة بهم تدعى الأشية.

(٢) سنغافورة: مستعمرة إنجليزية في جنوب شبه جزيرة الملايو، وكانت تمثل نهاية الخط البحري الإمبراطوري الواصل بين بريطانيا وجنوب شرق آسيا.

(٣) بتافيا: ميناء جاكرتا الحالي.

(٤) بادانج: ميناء يقع في غرب جزيرة سومطرة.

(٥) في مكة يتحدث سكان الملايو عن «مرض قمران» نسبة إلى جزيرة قمران حيث كانت ترتيبات الحجر الصحي في تلك الجزيرة. انظر: VerhanlungenL: der gessell aschaft fyr erjubde «Berlin Vol. xiv P. 146, 147». (المؤلف).

إذا سحبت الحكومة دعمها لشركات الملاحة، فإن النتيجة لا تكون تقليل عدد الحجاج، وإنما ستكون انخفاض عدد ركاب شركات الملاحة الهولندية فقط.

إن المكيين لا يتركون أي فرصة لزيادة العائد الذي يجنونه من بلاد الجاوى. إن المطوفين يرسلون نوابهم إلى جميع الاتجاهات لزيادة عدد الحجاج القادمين في الموسم التالي، ويقوم هؤلاء في العادة بدفع مبالغ معينة لمن يترددون على مكة، عن كل حاج يرسلونه إليهم. كما يستأذن هؤلاء جميع الحجاج قبل مغادرتهم ليبعثوا لهم بأكبر عدد ممكن من مواطنيهم في العام القادم.

العرب في أرخبيل الملايو

إن أبواب جزر الهند الشرقية مفتوحة أمام الأشراف والسادة وبعض أفراد أسرة بني شيبة، وكذلك مشايخ الطرق الصوفية، ورجال العلم من أهل مكة. وهؤلاء في العادة يحلون ضيوفاً على الأمراء حيث ينالون الحفاوة البالغة ويعودون إلى أوطانهم بجوائز وهدايا ثمينة. ولما كان بعض هؤلاء من العلماء، أو من مشايخ الطرق الصوفية، فيمنحون عطايا كثيرة من طبقة العامة من شعب الملايو، الذي ينعم بتعليماتهم الدينية أو ببركات دعواتهم. ولولا أن الحكومة الهولندية تضع جميع أنواع العراقيل أمام هؤلاء، فإن جزر الملايو سوف تفيض بأعداد كبيرة منهم. وقد يكون ذلك خطيراً من وجهة نظر سياسية؛ لأنه على الرغم من أن غرض هؤلاء هو المال[1]، فإنهم سرعان ما يرون في الحكومة الأوربية والتأثير الإفرنجي قوة عدائية، يقاومونها سراً وعلانية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وحتى يتسنى لهم القدوم في الوقت الحالي، يجب أن يكون هؤلاء أو من يزورونهم على جانب عظيم من القوة والنفوذ؛ لأنهم يخضعون لرقابة شديدة من قبل السلطات الأجنبية، التي تشك بنيّاتهم دائماً. وعلى كل حال فإن حسن نية الجماعات الملاوية، يساعد المسلمين الأجانب، على إغراء هؤلاء بالقيام

(١) لم يكن غرض الكثير من هؤلاء هو المال، وإنما كان نشر الدعوة، وتثقيف أبناء البلاد، الأمر الذي كان يراه الهولنديون خطراً على وجودهم.

بحركات دينية وسياسية. وحينما يكون هؤلاء الأجانب من العرب، فإن نجاح مثل هذه الحركات يكاد يكون مؤكداً بدرجة كبيرة. إن المهاجرين الحضارمة أقل خطراً؛ لأن الأغراض الدينية لا تؤدي دوراً رئيساً في رحلاتهم إلى جزر الملايو، غير أنه يمكن القول: إن جميع الجاليات العربية في الملايو تشكل دائماً في طراز حياتها وعملها نمطاً خاصاً يجب ألا يترك بدون رقابة(١).

إن الظروف الحديثة جعلت حركة الحجاج إلى الديار المقدسة أكثر من ذي قبل. غير أن زيارات العلماء ومشايخ الطرق الصوفية والمغامرين قد قلت عما كانت عليه في السابق نتيجة انتقال السلطة إلى أيدي الأوربيين. إن وصول هؤلاء وأمثالهم إلى جزر الملايو غالباً ما يعني ثورات دينية ضد الوضع القائم الأمر الذي فرض تحديد عدد القادمين منهم. وقد أصبح هؤلاء يغطون هدفهم الحقيقي وهو إثارة الحماس الديني للسكان بهدف آخر بعيد هو ادعاء الأعمال التجارية خوفاً من السلطة القائمة.

إن الفترة التي زاد فيها عدد الحجاج الجاويين إلى بضعة آلاف هي فترة حديثة نسبياً، غير أن سيل رحلات الحج إلى الديار المقدسة لم ينقطع خلال القرنين الأخيرين. إن المكيين لم يحتاجوا إلى وقت طويل لمعرفة خصائص الجاوى أو لمعرفة الفروع والأجناس المختلفة التي تنتمي إليها هذه المجموعة من البشر. ومعارف المكيين وملحوظاتهم على سكان الجاوى شاملة ودقيقة في النواحي التي يجنون من ورائها الفوائد المادية،

---

(١) يظهر من خلال كلام المؤلف أنه يخاف كثيراً على الحكم الهولندي في جزر أرخبيل الملايو (إندونيسية) من خطر وجود الجاليات المسلمة القادمة من مكة والبلاد العربية الأخرى؛ لأنها تساعد على قيام الثورات ضد المستعمر. لقد برزت هذه المخاوف بوضوح في تقرير رفعه المؤلف ، بوصفه مستشاراً للشؤون الإسلامية في وزارة المستعمرات الهولندية إلى الحكومة يطالب فيها بتحديد هجرة الحضارمة إلى إندونيسية وتشديد الرقابة على القادمين من البلاد الإسلامية، ومنع السكان من تقديم الإعانات لخط سكة حديد الحجاز، وغير ذلك من الأمور التي تبعد الشعب الإندونيسي عن الأمة الإسلامية، لقد كانت أسوأ توصية رفعها هي القضاء على الثورة في إقليم اتشي التي كان يذكي أوارها العلماء المسلمون في تلك الديار.

غير أن ملحوظاتهم الأخرى العامة لها قيمتها أيضاً؛ لأنها تحدد خصائص المجتمع الجاوي في مكة.

التقوى والأمانة لدى عناصر الجاوى

إن لعناصر الجاوى صيتاً كبيراً في الورع والتقوى، على الرغم من أن الكثير منهم تنقصه المعرفة الدينية الكاملة. وهذا مما يتغاضى عنه في العادة، طالما ليست لديهم دوافع خفية من زيارة المدينة المقدسة. فهم لا يحملون معهم أي بضائع بقصد التجارة ينافسون بها غيرهم، بل على العكس فهم يفدون إلى المدينة المقدسة، ومعهم الأموال الوفيرة، بقصد إنفاقها في مكة. وإذا ما نووا الإقامة فترة أطول فإنهم يجلبون أموالاً أخرى من الوطن الأم، بصفتها دخلاً سنوياً ترسله لهم أسرهم.

إن كبار السن من أفراد الجاوى المقيمين في مكة إقامة دائمة، أو الذين رحلوا إليها منذ بضع سنوات، يرغبون في تكريس بقية حياتهم للعبادة في الديار المقدسة. أما حديثو السن فهم يكرسون أنفسهم لطلب العلوم الشرعية. إن ضيوف الرحمن المجاورين بمكة، وكذلك الحجاج الذين يؤدون فريضة الحج، ويقومون بزيارة المدينة المنورة حينما يعودون إلى بلادهم يتميزون عن غيرهم بالإخلاص والاستقامة في التعامل. وإن أمانة أفراد الجاوى في مكة هي مضرب الأمثال. فبينما نجد المكي حريصاً كل الحرص عند إعطاء بضائعه دون ضمان إلى غريب، ليأخذها ويجربها، فإنه لا يتردد في ذلك إذا كان ذلك الغريب هو أحد أفراد الجاوى «إذا كان جاوى معليش».

إذا اشتكى خادم جاوي مثلاً لرئيس شرطة السوق من أحد البائعين المخادعين أو الذين يرفعون الأسعار، فإن الحاكم غالباً ما يصدق كلمة الخادم ثم يجلد المتهم حتى يعترف بذنبه. ولهذه الأسباب نجد أن الطبقات الفقيرة من المجتمع الجاوي مطلوبة خدماً في البيوت، وخاصة من كان من جزيرة جاوة ذاتها، فهؤلاء قابلون للتعلم بشكل خارق للعادة إلى جانب أنهم مجتهدون في أعمالهم. إن رجالات الجاوى المشهورين يصحبون معهم في رحلتهم إلى مكة عدداً من الأشخاص الفقراء، يقومون

على خدمتهم مقابل الطعام والسكن. وأمثال هؤلاء يعملون في مكة خدماً في البيوت أو مساعدين في أعمال الحج.

إن التقوى والورع في السنوات الأخيرة أخذ في التضاؤل بين صفوف الجالية الجاوية، والسبب في ذلك زيادة حركة الهجرة إلى مكة. إن حديثي السن من أفراد الجاوى يسمعون من المواطنين العائدين من الديار المقدسة كيف أن الحياة مريحة في مكة، وكيف يمكن للإنسان هناك أن يشتري حبشية جميلة أو أن يتزوج مصرية. وكيف يمكن للإنسان في مكة أن يحيا حياة مواطن حر مستقل بمئات قليلة من الجيلدرات (وحدة النقد الهولندي)؛ لهذا زاد عدد القادمين إلى مكة من الشباب الطامحين بتحقيق مثل هذه الأمور. ولما لم تصل إليهم في مكة الحوالات النقدية التي وعدوا بها من الوطن الأم، أو أن هذه الحوالات لم تكف طريقة عيشهم الغالية التكاليف، فقد قدم لهم المرابون المال بغير تردد، فهؤلاء قد اعتادوا إقراض المال لقاء الربح الوفير. ولما كانت ثقة الدائنين بأفراد الجاوى عالية، فإن كمية الديون كانت تزداد باستمرار، على أمل الوفاء والسداد، ولما لم تصل الحوالات النقدية فقد كان الدائن يزج بالمدين في السجن، وفي مثل هذه الأحوال يرسل أصدقاء المسجون إلى أقربائه متوسلين لإنقاذه سريعاً. ونتيجة لتكرر مثل هذه الحوادث، فقد أدت إلى الأثر السيِّئ لسمعة بعض أفراد الجالية الجاوية، حيث أصبح بعض هؤلاء المدينين يلجؤون إلى الهروب إلى جدة ثم يسافرون سراً بالسفن إلى بلادهم. فهم على الأقل في بلادهم يجدون المأوى والطعام من قبل أقربائهم. أما الدائنون الذين يرسلون الخطابات التهديدية لمثل هؤلاء، لا تصلهم في العادة سوى رسائل رقيقة، تحمل عبارات دينية تعلمها المدينون في مكة.

لقد كان المكيون يغضون الطرف عن هؤلاء، حينما كانت لديهم الأموال الوفيرة، فشجعهم ذلك على التبذير والفخفخة وارتكاب الغواية، ولم يدرك المكيون هذا الجانب المظلم من حياة بعض أفراد الجالية الجاوية، إلا حينما نفد ما بأيديهم من أموال. إن الكثير من أفراد الجالية الجاوية قد أهملوا واجباتهم الدينية، وكان اختلاطهم بالنساء بشكل طليق جداً، وبدا

واضحاً أنهم مزهوون وأغبياء ويفتقدون الشعور بالكرامة، ولم يكونوا يلتزمون بوعودهم التي قطعوها لأصدقائهم، وكانوا يهربون من دائنيهم كاللصوص. وبعبارة أخرى لقد كان لدى هؤلاء خيبة أمل، وليس انحطاطاً خلقياً، فقد كان نصف سكان مكة مدينين. ولم يفكر أحد كثيراً برد ما عليه، فما هو المسوّغ الذي جعل بعض هؤلاء يقلدون مثل هذه النماذج السيئة؟

وثمة شكاوى أخرى أضيفت إلى ما تقدم. وهي أن الكثير من الجاويين الذين استقروا في مكة، قد أصابهم حب الاستغلال، متأثرين بالروح الاستغلالية الموجودة لدى بعض أفراد المجتمع المكي، بينما آخرون قد اضطرتهم ضرورات الحاجة إلى البحث عن وسيلة للعيش، غير أن معظم هؤلاء كان يعوزهم الدهاء والاحتمال الذي تستلزمه مثل هذه المشاريع في هذه البلاد. لقد كان الجاوي الوحيد الذي رأيته يعمل مساعداً في متجر، هو رجل من آتشي، وكان الجميع يشيرون إليه بتعجب.

بعض مصادر الدخل للجاوى

إن بعض الجاويين الذين عادوا إلى وطنهم، بعد أن نفذت أموالهم أصبحوا يقومون ببيع المسابح، والكتب العربية، والعطور وغيرها، بينما بعضهم الآخر كان يحاول الكسب مما تعلمه في مكة من حكمة وصوفية، أو حتى من مجرد كونه في تلك البلاد. وهناك نفر ثالث كان يقوم بتصنيع أشياء رخيصة بمساعدة أسرهم المكية، ويبيعونها لأقربائهم في وطنهم الأصلي بأثمان عالية؛ لأنها من مكة. فقد عرفت شيخاً كانت زوجاته وأولاده يقومون في أوقات فراغهم بتطريز الطواقي البيض التي تلبس تحت العمامة، وتلبس أحياناً في الدار بدون عمامة، لقد كانت الواحدة من هذه الطواقي لا تكلف سوى أربعة بنسات، غير أنهم يبيعونها بدولار أو دولارين.

إن أغلب مصادر الدخل للفرد الجاوي الذي يعيش في مكة هو بالطبع العائدات التي يقبضها من مواطنيه نظير أعمال الطوافة، فهو ينعم بمميزات كثيرة من حجاج منطقته. فهؤلاء يعطونه بعض المبالغ النقدية لإنفاقها على الدارسين، أو يدفعون إليه الأموال التي يرسلها بعض الورثة لتدفع أجراً لمن يقوم بأداء فريضة الحج عن موتاهم. إن أمثال هؤلاء قد جاؤوا إلى مكة

خدماً لأحد أبناء بلدهم، وبسبب الحاجة المادية، عملوا لدى أحد المطوفين بالأجرة. غير أنه بمرور الزمن قد اكتسبوا الخبرات بالتدريج، وتعلموا العادات المحلية، فأصبحوا مطوفين لأبناء جلدتهم ووطنهم. وعلى الرغم من أن أمثال هؤلاء تنقصهم الحنكة والخبرة التي لأهل مكة، إلا أن معرفتهم الدقيقة لشؤون أبناء وطنهم تساعدهم على ذلك. يضاف إلى ذلك أن لدى هؤلاء ارتباطات مختلفة تسهل لهم حشد أعداد كبيرة من الحجاج.

ويمكن القول: إنه قبل أن يطلب إلى مطوفي الجاوى أن يحصلوا على تصريح بالطوافة «تقرير» لمنطقة خاصة من وطنهم الأم، فقد كان هناك عدد من الجاويين يحملون مثل هذه التصاريح، التي تخولهم بأن يكونوا مطوفين لأبناء بلادهم. وقد عرف هؤلاء كيف يستفيدون تماماً من مواطنيهم بهذا الخصوص.

قد يختلف الوضع الاجتماعي لمرشد الحجاج (المطوف) في مكة اختلافاً كبيراً. فعند الأشراف مثلاً تعدّ هذه المهنة وضيعة، وعند الطبقة الدنيا من المجتمع هي مهنة راقية جداً، وبين هذا وذاك هناك الكثير من الطبقات التي يمكن أن يصنف على أساسها المطوفون. فإذا كان المواطن غنياً، ويمت إلى طبقة اجتماعية عالية، فإنه لا يعاني من صعوبات في الحصول على تصريح بأعمال الطوافة. وإن نجاحه في الحصول على لقب مطوف قد يجلب له النفوذ والاحترام. ولكن إذا لم يلق نجاحاً في مهنته الجديدة، فإن لقب المطوف أو شيخ الحجاج سوف لن يفيده بشيء. إن أبناء الأمراء أو الحكام من أفراد الجاوى، لا يقبلون العمل في منصب الطوافة، كما لا يتباهى رجال العلم بمثل هذه المهنة حتى إذا حصلوا عليها. غير أن الأمر مختلف بالنسبة لعامة الشعب، فالحصول على تصريح بالطوافة أمر مرغوب فيه ومحبب بالنسبة لهؤلاء القادمين من مناطق نائية، والذين لديهم الولع الواضح بالنعوت والألقاب. ونجد ذلك أيضاً لدى من نالوا حظاً وافراً من الثقافة العالية تماماً، كما هو الحال لدى مثقفي جنوب أوروبا، الذين ينظرون إلى مثل هذه الألقاب على أنها مؤشّر كمؤشر لجلب الرزق. فهم يعلمون حقيقة أنها أمور مالية، ومع ذلك ينظرون إليها بوصفها أمراً محبباً إلى النفوس.

لقد دخل أفراد الجالية الجاوية في منافسة مع أهل مكة، لذلك اكتسبوا كثيراً من العادات المكية ـ السيئ منها والحسن ـ ومع ذلك نجد نوعاً من الكراهية لهم من قبل بعض فئات المجتمع المكي، وهذا بالطبع له تأثير سلبي في حكم المكيين عليهم وتقييمهم لهم، ونجد حالياً الكثير من أنواع النقد والتهجم على الضيوف القادمين من الشرق الأقصى.

وعندما تصل إحدى قوافل الجاوى إلى مكة. فإن المرء يسمع في الغالب أطفال الشارع وسائقي البغال يصيحون ساخرين (مالاوي لص، توان سيد). وهذا بطبيعة الحال يسبب الضيق للقادمين الجدد، ويظهر الحقد عليهم، غير أن هؤلاء يتصرفون تجاه ذلك بطريقة سلبية غريبة.

وإذا وصلت القافلة الجاوية فإن المطوفين يحذرون من معهم من حجاج الجاوى، ألّا يغيب المرشد عن عيونهم في أثناء الطواف حول الكعبة، حتى لا يقعوا في أيدي المتطفلين والمتسكعين. وبالرغم من ذلك، فإن هؤلاء المتطفلين غالباً ما ينجحون في إخراج بعض الحجاج من جماعتهم، حيث يمسكون بالجاوي الجاهل، ويتمتمون وكأنهم يتلون الأدعية، فإذا ما رفض الجاوي ذلك فإنهم يقولون له باللغة الملاوية: إنهم خدم للكعبة، ويؤدون الخدمات بدون مقابل مرضاة لله. فإذا ما انتهت مناسك الطواف، فإنهم يوضحون لفريستهم دون تهديد أن مآله إلى النار إن لم يكافئ المرشد بسخاء. إن أمثال هؤلاء المتطفلين غالباً يدمجون في الدعاء عبارة قسم يتلوها الفريسة بخشوع، بأن يعطي هذا المرشد أربعة دولارات، ثم يهددون هذا المسكين بالوفاء بأول قسم أقسمه أمام الكعبة.

بساطة حجاج الجاوى

يقوم الحاج الجاوي بعد فترة قصيرة من وصوله إلى مكة بشراء حلة مكية، وهذه يرتديها الحاج بعد عودته من مكة دلالة على أداء فريضة الحج. ومن السهل جداً تمييز هؤلاء حتى لو ارتدوا الملابس المكية (العنتاري والجبة والعمامة المكية) ويعرفهم صبيان الحواري بسهولة، حيث يقومون بمتابعتهم، ويتحينون فرصة ينفردون بها بالحاج، وخاصة في إحدى الشوارع غير المأهولة، فينقضون عليه ويمزقون عمامته المكية الجديدة،

ويلوذون بالفرار. وحدث مرة أن اشترى أحد الحجاج الجاويين من سوق الحراج طربوشاً (عمامة) ممزقاً يلبسه أغوات المسجد الحرام في العادة، وهذا النوع من العمائم ملفت للنظر ويختص به هؤلاء دون غيرهم. وقد لبس الحاج هذا الطربوش وسار به في شوارع مكة، وسط سخرية المارة وضحكهم المتواصل. إن هؤلاء الحجاج القادمين من جزر الهند الشرقية والذين لم يروا في حياتهم سوى حقول الأرز والبن، يظهرون من التصرفات، وهم يتجولون خلال حشد المدينة العالمية، المتعدد الألوان والأجناس، ما يحمل المكيين على الاستخفاف بهم، فعلى سبيل المثال إذا تولى أحد المرشدين قيادة نفر منهم، فإنهم يتبعونه في جماعات كل منها اثنا عشر جاوياً. وأما الذين يخرجون للنزهة فقد يكونون في جماعات أيضاً وأحياناً يخرجون فرادى. وإن الناظر إلى هؤلاء بأفواههم الفاغرة، وخطواتهم غير الثابتة، يشعر أن هؤلاء قد فقدوا صوابهم، وسط زحمة المدينة المقدسة. فمثلاً يحدق أحدهم بعيونه المفتوحة في كومة من الحبحب (البطيخ) فينظر إليه البائع الذي يعرف في العادة بعض الكلمات الملاوية وخاصة الأرقام، ويقدم له بطيخة قائلاً له باللغة الملاوية ٥٠ ديواني يا سيدي، إنها جميلة وحلوة المذاق، غير أنه لا ينجح في استخلاص أي صوت من هذا المخلوق المندهش الصامت المحدق الذي لا ينبس ببنت شفة. يمكنك أن تذوق البطيخ قبل الشراء يا سيدي. إلا أن الجاوي يستمر في إخفاء مشاعره ويلوذ بصمته. فيأخذ البائع سكيناً قائلاً: سأقطعها، مؤملاً أن يحظى بكلمة نعم أو لا على الأقل؛ ولأن الجواب لم يصدر عن الجاوي، فقد يعزو البائع ذلك إلى حياء الرجل، الذي يديم التحديق والنظر في كومة البطيخ، فيشق البائع البطيخة ويضع قطعة منها في الفم الفاغر المحدق، فيمضغها الجاوي ويضحك ويمضي إلى حال سبيله دونما كلمة، وما أن يدير ظهره حتى تنطلق بعض التعابير خلفه: لعن الله الجاوي، عد إلى حقلك، الله يلعن أصلك. إن هؤلاء يسيرون ببطء وسط الشوارع المزدحمة دون التفات لكلمات التحذير من سائقي البغال والجمال الذين يرددون كلمات تحذيرية بقصد إبعاد المارة مثل احترس، ظهرك طريق

يا جاوة، طريق يا أمي (لتحذير المرأة) وبعد أن ينفذ صبر هؤلاء يضربونهم على ظهورهم بالعصي قائلين: ابعد يا جاوي يا ملعون.

إن العناصر التقليدية التي تمثل أخلاق الجاوي المعقولة قليلة العدد. لذلك يأخذ عامة الناس انطباعاتهم عن العنصر الملاوي، من خلال الفئات الفقيرة الريفية المقيمة في المدينة المقدسة. وما يعلق بأذهان الناس ليس هو الصورة الحقيقية، وإنما هي أعمال هؤلاء الجاويين وتصرفاتهم في الطرقات، بالإضافة إلى هروبهم وخيانتهم لدائنيهم على النحو الذي وصفناه سابقاً، فعلى الرغم من صلة المودة (العيش والملح) بين هؤلاء المدينين ودائنيهم، إلا أنهم يلوذون بالفرار، تاركين ديونهم دون تسوية، مما يضفي انطباعاً بأنهم لا يلتزمون بالقواعد المرعية، لدى أفراد المجتمع المكي. وعلى العموم فإن انطباع المكيين العام عن هؤلاء هو الشعور ببساطتهم وتواضعهم حينما يفدون حجّاجاً، أما عندما يستقر هؤلاء في مكة، فهناك شعور عام بأنهم سوف يلوذون بالفرار إذا أصبحوا مدينين، غير آبهين بأنواع السباب المختلفة، التي تلحق بهم بعد رحيلهم.

إن تعليقات الجمهور وأحكامهم، الموضوعية منها وغير الموضوعية تجمع على أن العناصر الجاوية كانت مستغلة. ومن بين جميع حجاج العالم، فقد قسم هؤلاء إلى فئات متعدّدة بحسب المناطق التي قدموا منها، ولقد كان للأموال الطائلة التي أخذتها الحكومة من مطوفي الجاوى، حتى قبل وصول هؤلاء الحجاج أثر في استغلال هؤلاء. فالإجراءات التي اتخذتها الحكومة كانت صارمة، وتقضي بتوزيع الحجاج حسب مناطق معينة دونما أخذ رغبات هؤلاء الحجاج، ثم سوق هؤلاء كالقطيع للمطوف الذي حصل على التصريح بالطوافة لمنطقة هؤلاء[1].

(١) لقد حدث في فترة حكم الشريف عون (١٢٩٩ ـ ١٣٢٣هـ) أن ألغي جميع ما لدى المطوفين من تقارير (تصاريح) من الأمراء السابقين، وأعاد تقسيم الممالك الإسلامية التي يرد منها الحجاج. وقدر لكل بلد ثمناً. فمن أراد من المطوفين ناحية أو بلداً دفع المبلغ الذي فرض ثمناً لها. وأصبح من يرد من ذلك الإقليم أو البلد أو الناحية ليس له حق الاختيار، بل =

إن الاستغلال الذي يتعرض له الحجاج يبدأ في جدة، لا بل في جزيرة الحجر الصحي. فالرقابة الجمركية تطلب منهم جميع أنواع الهدايا، وتفرض عليهم الكثير من الغرامات، إذ يجب عليهم أن يدفعوا بدل حمال جواز سفر تركي، وعلى كل فرد أن يدفع مبلغ دولار واحد تبرّعاً لخدمات محطة المياه للمدينة المقدسة ومينائها، بالإضافة إلى أجور الحمالين والنوتية التي يتسلمها وكيل المطوف، الذي يقوم في العادة باستقبال هؤلاء في جدة. وفي العادة يزداد الترحيب من قبل الوكيل بأولئك الذين لديهم المتاع الكثير والذي يدل على شرف المنزلة، وكذلك بأولئك الذين يتوقع منهم الهدايا والأعطيات. وأول ما يبدأ به في العادة هو زيارة قبر حواء، حيث يقوم الوكيل أو ممثل المطوف بقراءة دعاء خاص يردده الحجاج خلفه، وقبل الانصراف يرمي كل واحد بجوار القبر دراهم قليلة، ثم يطلب إلى الحجاج لبس ملابس الإحرام، وعمل النية لأداء فريضة الحج.

حج البدل

ويحضر الحجاج الجاويون معهم رزماً من الأموال، كل رزمة مفردة ومعروف مرسلها والجهة التي ينبغي أن ترسل إليها. فعلى سبيل المثال تجد رزمة نقود بـ ١٠٠ جلدر، يرسلها أحد الآباء الفقراء لابنه المدين في مكة. أو قد تكون هدية لعالم من أحد مريديه. وفي معظم الأحوال تكون بين ٥٠ ـ ١٥٠ جيلدراً. وقد يرسل أحد الورثة مبلغاً من المال خصصه قريبه لأداء حج البدل عنه بعد موته. إن جميع المبالغ السابقة تعرف بالأمانات، إلا أن المال المخصص لأداء الحج عن الغائب يطلق عليه (بدل الحج). وفي العادة يكلف الحاج أحد مواطنيه المعروفين في مكة أو أحد أصدقائه بأداء حج البدل. إن الكثير من المكيين يتطلعون إلى القيام بهذا العمل؛ لأنهم في العادة يحجون باستمرار؛ ولأن الشخص سوف يتقاضى أجراً على ذلك. وإذا ما أنيط ترتيب أمر حج البدل للمطوف، فإنه يطلب من أقربائه القيام بهذا

= يكون مطوفه القائم على شؤونه من اشترى الناحية التي هو منها. وقد انتهز رؤساء المطوفين، وحاشية الشريف من الكتاب وغيرهم، فرصة هذه العملية واختصوا بمبالغ يفرضونها على من يلتزم بالشراء، فأثروا من ذلك وبنوا الدور والقصور (محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص٢٤٠).

العمل، وفي المقام الثاني يأتي مساعدوه (صبيانه) وما يتبقى بعد ذلك فإنه يعطيه لأصدقائه. وفي جميع الأحوال لا بد للمطوف أن يقتطع بعض المال لنفسه، ويعطي ما تبقى للآخرين. ويجد بعض ضعفاء النفوس أن هذه وسيلة سهلة لأخذ المال، لدرجة أنهم يتقاضون عن الحجة الواحدة عدة بدلات، كما أن بعض المطوفين ينسون أو يتناسون أن يرتبوا أمر حج البدل لبعض من يأمنهم على ذلك من حجاجهم.

إن المطوف في العادة يضع جميع الاحتياطات لمنع اختلاط الحجاج بغيرهم، فهو يضع سياجاً حصيناً لمنع تسرب الأموال المخصصة للبدل إلى أشخاص آخرين، وكأن لسان حاله يقول: هذا جميل، أدفع ثمناً باهظا للتقرير. كما أدفع جميع المصاريف المتعلقة بمتطلبات الحجاج، وأحصل أخيراً على ما يتبقى بأيدي الحجاج من مال؟ في حين الآخرون (الذين يأخذون البدل من الحجاج) يحصلون على الغنيمة بسهولة! لذلك يبادر المطوف بسؤال الحجاج عن الأموال المخصصة لحج البدل، وما هي قيمتها، وما هو عدد من يراد الحج عنهم، ثم يحث الحجاج على إيداع أموالهم الخاصة بالبدل لديه، لحفظها في مكان أمين؛ لأن اللصوص قد يدهمون القافلة في الطريق، وقد يحدث السطو حتى في المدينة المقدسة، ومثل هذه الأمور تجعل المطوف يحظى بالثقة القلبية من قبل الحجاج. ويقوم المطوف في العادة بالرد على بعض الاستفسارات والاعتراضات التي قد يقوم بها بعض الحجاج. فقد يقول قائل: لقد أرسل البدل الذي بحوزتي إلى شخص معين. فيرد المطوف يمكن ترتيب ذلك بعد الوصول. وقد يسأل آخر أن من أرسل معي المال المخصص لحج البدل لا يعرف شخصاً موثوقاً يقوم بالمهمة، فيعده المطوف بأن يبذل قصارى جهده، لاختيار الشخص المناسب لهذه المهمة. ولا ينسى المطوف في النهاية أن يهدد صغيري العقول من حجاجه إذا ما خالفوا أوامره.

وفي العادة يحصل المطوف على معظم الأموال المخصصة للبدل. كما أنه يوالي جهوده للحصول على ما تبقى منها بعد ذلك. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى الحصول على ما لدى هؤلاء من أمانات (هدايا. مبالغ لتسديد

الديون... إلخ) لحفظها لديه، فإذا سارت الأمور على ما يرام فإن المرسل إليهم مثل هذه الأمور لا يأخذونها كاملة بل يقتطع المطوف لنفسه بعضاً منها. وعلى العموم هناك طرق مختلفة ومتنوعة يقوم بها بعض ضعفاء النفوس من المطوفين لاستغلال حجاجهم.

ختان حجاج الجاوى

إن عادات الختان معروفة عند سكان الملايو المسلمين وغيرهم، وفي بعض المناطق نجد أن من تحول من هؤلاء إلى الإسلام ما زال يجري عادات الختان وفق طقوس مختلطة من الإسلام والوثنية. وفي كثير من الحالات لا يكون الختان بحسب الأصول الإسلامية المرعية. لذا فإن الكثير من هؤلاء يحاولون عملية الختان ثانية في جدة، الأمر الذي يدر بعض المال على طائفة الحلاقين في المدينة.

سكن الحجاج الجاوى

وفي مكة يخصص المطوف لكل نفر من هؤلاء الحجاج مكاناً للسكن فيه، من حجراته الشاغرة أو من دور أصدقائه. وفيما يتعلق بالطعام والسكن، يعامل الحجاج الجاويون كغيرهم من أفراد الجاليات الأخرى، وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول. إن الفترة التي يقضيها الحجاج بين أداء العمرة، التي تكون في العادة أول ما يقوم به الزائر إلى مكة، وبين أداء فريضة الحج، يتراوح مداها بين بضعة أشهر وبضعة أيام، تبعاً للمدة التي يريد الحاج قضاءها في مكة. وفي خلال هذه الفترة ـ طالت أم قصرت ـ يقوم المكيون بتوعية هؤلاء الحجاج في مختلف مناحي عقيدتهم.

هناك أنماط متعدّدة من السلالات واللغات والعادات بين العشرين مليوناً[1] من المسلمين الذين يستوطنون جزر الهند الشرقية. ومن هذه الأنماط المتعددة نجد أعداداً كبيرة من الحجاج تفد إلى المدينة المقدسة. ولهذا لم يكن قرار تقسيم حجاج الجاوى إلى مناطق معينة اعتباطياً، فالبوغينيزيون

---

(١) يبلغ عدد سكان جزر الهند الشرقية (إندونيسية وماليزيا) الآن (١٤١٥هـ) قرابة ٢٢٠ مليون وتبلغ نسبة المسلمين في إندونيسية قرابة ٩١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٠٠ مليون نسمة أما في ماليزيا فإن نسبة المسلمين تصل إلى ٦٠٪ من مجموع السكان البالغ ٢٠ مليون نسمة.

المشهورون[١] بالأعمال التجارية، قد لا يتلاءمون مثلاً مع الحجاج القادمين من جزيرة جاوة. وما ينطبق على المطوفين يمكن أن ينطبق على أولئك الذين يكسبون عيشهم من عملهم مع الحجاج. فلكل معلوماته الخاصة، ومهاراته التي يمكن استعمالها بنجاح مع فريق خاص من الجاويين دون فريق آخر.

إن معظم الذين يتعاملون مع الجاويين يتكلمون بعض مفردات اللغة الملاوية. إن اللغة الملاوية هي لغة التجارة والعلم ولغة الثقافة بين الكثير من اللغات واللهجات المحلية. وبغض النظر عن جزيرة جاوة، فإن لغة الملايو تسود في مناطق أخرى، مثل بورنيو وملقا، تلك المناطق التي تسهم بنصيب وافر في حركة الحج إلى مكة المكرمة. وفي سومطرة ولا سيما في مقاطعة آشية في الشمال، أو مقاطعة لامبونج في الجنوب، تدرس العلوم الشرعية باللغة العربية، ولا يكون التدريس في الملاوية، إلا إذا كان المتعلمون لا يحسنون إلا اللغة الملاوية، ولم يصل مستواهم في اللغة العربية إلى المستوى المطلوب للدراسة. وفي بتافيا تسود الملاوية أيضاً. وعلى العموم نجد في كل قافلة تفد إلى الديار المقدسة بعض من يتقن اللغة الملاوية. وينطبق هذا القول على معظم حجاج الجاوى، سواء من كانت لغته الأم هي المكاسريشية[٢] Makasarish أو البوغينيزية Buginese أو المادوريسية[٣] Madurese أو من اللغات واللهجات الأخرى الأقل شهرة في القسم الشرقي من جزر الهند الشرقية. إن كثرة من يعرفون اللغة الملاوية بين صفوف المكيين، تظهر الأهمية الكبرى لهؤلاء، بوصفهم عنصراً مهماً من العناصر الوافدة إلى مكة في مواسم الحج المختلفة، ونجد في اللغة المكية بعض التعابير الملاوية مثل (تروس وبوروم).

---

(١) البوغينيزيون: إحدى فرق السكان الإندونيسيين، الذين يقطنون السواحل الغربية من جزيرة بورنيو وكذلك في بعض مناطق جزيرة سلبيس، ويتكلم هؤلاء لغة خاصة بهم تعرف باسم البوغينيزية.

(٢) المكاسريشية: هي إحدى اللغات التي يتكلم بها بعض القبائل الإندونيسية التي تعيش في جزيرة سلبيس ويعرفون باسم المكاسريشيون.

(٣) المادوريسية: وهي اللغة التي تسود في جزيرة مادورة، والمناطق الواقعة شرقي جزيرة جاوة، ويطلق على المتكلمين بها اسم المادوريسيون.

اللغات الجاوية في مكة

إن تعبير بابور تروس يعني في العامية المكية سفينة بخارية تسير رأساً من جدة إلى باتافيا. كما أن تعبير ريال بوروم تعني دولاراً مكسيكياً. إن الأعداد باللغة الملاوية وبعض التعبيرات القصيرة يتقنها أبناء الشارع المكي جميعاً. فعندما تنتهي صلاة المغرب في المسجد الحرام، ويخرج المصلون من الأبواب الرئيسة للحرم، يسمع الإنسان أصوات التجار يقومون بترجمة النداءات العربية إلى اللغة الملاوية. فبدلاً من كلمة حار يا عيش أو سكر يا بطيخ نجد هؤلاء يطلقون نداءاتهم بترجمة هذه التعابير إلى اللغة الملاوية، مما يدلل على أهمية العنصر الجاوي في المدينة المقدسة.

إن مثل هذه المعرفة السطحية بلغة الملايو، لا تساعد أكثر من التعامل مع هؤلاء في الأسواق. إلا أن تكوين علاقات قوية مع هؤلاء الحجاج، يحتاج إلى معرفة وثيقة بلغتهم الأم أو وجود وسيط يتقن الملاوية ليقوم بدور الترجمة، وعلى أي حال لا يستطيع المرء كسب ثقة هؤلاء، إلا إذا اتقن معرفة اللغة الملاوية الأصلية، لا اللغة الملاوية الشعبية، التي يتكلم بها من هم خارج الملايو. غير أن المكيين لا يقتصر إلمامهم على الملاوية، بل يتعداه إلى لهجات أخرى، فعلى سبيل المثال نجد المكيين يعرفون لغة سكان أواسط جزيرة سومطرة. الذين لهم لهجة خاصة غريبة. وباختصار نجد من النادر أن تكون هناك لهجة يتكلم بها سكان جزر الهند الشرقية لا يتقنها أهل مكة، وخاصة المطوفين ومساعديهم وأصحاب البيوت والزمازمة وغيرهم. إن المكيين لهم نفوذ كبير في جزر الهند الشرقية، فقد استقر بعضهم في تلك الربوع بقصد التجارة فترات طويلة، ورحل بعضهم الآخر إلى تلك البلاد بقصد الزيارة. وربما تجد من هؤلاء من تزوج من نساء هذه الديار. وإذا استثنينا ذلك كله نجد أن بعض المكيين يتعلم لغة هؤلاء من أجل أن يستفيد منها في التخاطب معهم. وذلك بالعمل دليلًا أو مترجماً. إن كثيراً من أفراد الجاوى المولودين في مكة يتقنون اللغة الآشية واللمبونجية[١]

---

(١) اللمبونجية: هي اللغة السائدة في إحدى مناطق جزر سومطرة وهي منطقة لامبونج.

والصندانيسية[١] والجاوية (السائدة في بعض مناطق جزيرة جاوة) والمادوريسية والبوغينزية كلغتهم الأم (العربية) ويستعملونها في تعاملهم التجاري على أنّها ناحية نفسية يتقربون بها إلى هؤلاء القادمين من جزر الهند الشرقية في مكان تشتد فيه المنافسة حول هؤلاء القادمين.

لقد أشرنا في فصل سابق إلى الطبيعة العلمية لدراسة الجغرافية في مكة. فالعالم بالنسبة إلى المكيين ينقسم إلى مناطق مختلفة، ترتبط بعائدات الحج ومتطلباته. فهناك من المكيين من يعرف الكثير من أسماء المقاطعات والمراكز الإدارية والمدن في أرخبيل الملايو، أكثر مما يعرفه تلاميذ المدارس في هولندا. غير أن هؤلاء لا يعرفون بالطبع أين تقع هذه المناطق على خريطة العالم. إن السكان في جدة يعرفون أن السفن التي تتجه إلى أرخبيل الملايو تسير باتجاه الجنوب، أما من سافر إلى تلك الديار فيعرف بالطبع أبعادها بعضها عن بعض، كما يعرف المسافة بينها وبين جدة. وفي الآونة الأخيرة زادت معارف المكيين وخبراتهم عن مناطق جديدة خاصة بعد تنظيم عملية الطوافة تبعاً للمقاطعات الرئيسة المختلفة. وخلال عمليات التحضير للوائح الجديدة كانت تدور مناقشات طريفة. فقد حدثت مشادة قوية بين مطوفين من مطوفي الجاوى حول مقاطعة كروى Kroe في سومطرة، أهي تابعة لمنطقة بنكولين Benkulen أم لمنطقة لامبونج Lampong؟ والخلاف بالطبع على الحجاج القادمين من تلك المقاطعة، ولمن سوف يتبعون. والواقع أن كلا الطرفين كانا على صواب، فالمقاطعة المذكورة آنفاً من الناحية الأثنوغرافية (العرقية) تتبع لامبونج، غير أن الإدارة الهولندية ضمتها إلى بنكولين. إن الفصل في مثل هذه الخلافات سيؤول إلى شيخ المطوفين، الذي ليست لديه المعرفة التامة بمثل هذه الموضوعات، والذي سوف يصدر حكماً عشوائياً بهذا الخصوص.

وفي مناسبة أخرى خصص شيخ مشايخ الجاوى منطقة إلى أحد المطوفين، وهذه المنطقة يفد منها إلى مكة الكثير من البوغنيز المهاجرين،

---

(١) الصندانيسية: هي اللغة التي يتكلم بها مجموعة من السكان يعيشون في غرب جزيرة جاوة.

على الرغم من أن هذه المنطقة ليست من أملاك البوغنيز، ثم خصص لمطوف آخر البوغنيز الأصليين ـ غير المهاجرين من أبناء هذه المنطقة، وحينما اشتكى المطوف الأول قائلاً: إنه سوف لن يبقى له سوى السكان الوثنيين، أجابه شيخ الطائفة: إذا أراد الله سوف يتحول هؤلاء إلى الإسلام ويفدون إليك. والواقع، لقد كان المطوف ليس له نفوذ وإلا لما تجاهله شيخ المطوفين الجاوى. وعلى أثر ذلك حصل اتفاق بين المطوفين وشيخ الطائفة أن تضاف في التصريح عبارة تتضمن اسم المنطقة، بالإضافة إلى المواطنين الآخرين الذين ينتمون للمنطقة، نفسها، ولو أنهم من أجناس أخرى، بمعنى أن التصريح يكون لعموم سكان المنطقة، أصليين ومهاجرين.

تحريف الأسماء الجاوية

إن العرب المحدثين ليسوا بأقل من العرب الأقدمين في تصحيف الأسماء الجغرافية الأجنبية، فآتشه تصبح آشي وبادانج تصبح فادن، ولمبونج تصبح لمفون ودلي تصبح دلّي ولانجكات تصبح لنكات وبالمبانج تصبح فلمبان.

إن معرفة أسماء المقاطعات في مكة يعتمد اعتماداً كبيراً على القادمين من هذه المقاطعات. فعلى سبيل المثال مقاطعة راو الواقعة في منتصف جزيرة سومطرة أكثر شهرة من أي منطقة أخرى ذات أهمية بالغة لكن لا يفد منها حجاج كثيرون.

الاسم الجاوي مرتبط بالمكان الذي قدم منه

إن الأفراد في مكة يعرفون بأسماء مقاطعاتهم حيث ينسبون إليها فيقال: فلمباني فادني. وقد يضيف كلمة جاوى إلى ذلك حيث يقول: جاوى فونتيانا (جماعة من بونتياناك)، وكذلك جاوى سامباس، أو جاوى مارتاقورا (مارتابورا). ومن جزيرة بورنيو جاوى ماندورا، جاوى باويان، جاوى سمباوا، جاوى ميكاسار. والبوغنيز في الغالب يطلق عليهم اسم بوقس.

إن الجاوى المستقرين في مكة يعرفون بأسمائهم الأولى مع أسماء بلادهم دونما نسبة، فمثلاً تجد أسماء مثل عبدالقادر كرنجي (من كرنتجي سومطرة) وحسن لمفون (من مقاطعة لامبونج) وأحمد بنتن وهلم جرا.

إن الولايات المتحضرة معروفة في مكة أكثر من غيرها؛ لأن الولايات الأخرى التي تبعث بعدد قليل من الحجاج غير المتعلمين لا يثيرون اهتمام

المكيين إلا في حدود ضيقة، ثم إن هؤلاء لا يستقر بعضهم في مكة. إن أجزاء جزيرة جاوة المختلفة معروفة جيداً لدى المكيين، وتسمع في غير موسم الحج الكثير من المناقشات عن كرم الحجاج وثرائهم الذين يفدون من هذه المنطقة أو تلك. أو تسمع تقديرات عن العدد المتوقع من الحجاج في موسم الحج المقبل. وفي العادة يقوم أهل مكة أو بعض ممثليهم في جزر الهند الشرقية بزيارات مختلفة لمناطق الجاوى، بهدف زيادة الأعداد التي تفد إلى الديار المقدسة، فإذا حالفهم الحظ فيرجعون بأعداد كبيرة من الحجاج.

إن الجاويين في مكة ينقسمون بحسب الولايات التي يفدون منها، وكذلك بحسب لهجاتهم الخاصة، فالقادمون من بتافيا والذين يتكلمون بعض اللهجات الملاوية يعرفون باسم (بتاويين)، أما سكان غرب جاوة الذين لم تختلط عقائدهم بالعادات الموروثة من حضاراتهم القديمة، يعرفون باسم (السوندا)؛ لأن لهجتهم تعرف باللهجة السندانية Sundanese. أما سكان جزيرة جاوة الأصليون الذين طبعت حياتهم بطابع وتقاليد إمبراطوريتهم القديمة (الإمبراطورية الماتارامية) وتقاليدها فيعرفون باسم غريب (مريكي Meriki). ومعنى مريكي بلغة جزيرة جاوة (تعال إلى هنا) في حين يطلق على هؤلاء باللغة الملاوية اسم ماري Mari وهي معروفة لكل مكي تقريباً.

وقبل الحج يقسم الجاويون إلى جماعات مختلفة بحسب مناطقهم، حيث يوزعون على المطوفين الخاصين بهم. وفي هذه الأثناء يقومون بزيارة بعض المناطق التاريخية مثل مقبرة المعلاة أو يدخلون الكعبة حينما تفتح أبوابها في إحدى المناسبات، أو غير ذلك من الأماكن التاريخية التي يتجمع بجوارها الكثير من المتسولين الذين يطمعون بأعطيات هؤلاء، غير أن مرشدي هؤلاء ومرافقيهم يحاولون ما أمكن إبعاد هؤلاء عن حجاجهم. إن معظم أفراد الجاوى وسط هذا الحشد الإسلامي الضخم في مكة، يبدون الكثير من التواضع الجم، الذي قد يؤدي إلى إساءة فهمهم وربما إلى إساءة معاملتهم، فهم يوزعون بين المطوفين دونما تبصر، ولا يؤخذ رأيهم في ذلك. إن هؤلاء الحجاج يسلمون أمرهم كلية إلى المطوفين. ولسان حالهم

يقول: أليس هؤلاء المطوفون هم مشايخ في هذا البلد المقدس الذي تهفو إليه الأسماع؟ ولا يتردد بعض الحكام الجاويين وأبناء الأمراء أن يقبلوا أيادي أي خادم عربي، وهم لا يفعلون ذلك لأن مثل هؤلاء الناس أرفع منهم مقاماً، ولكن احتراماً لتلك البلاد الطاهرة التي يوجدون على أرضها. غير أن هؤلاء حينما يستقرون في مكة فترة ما يقلعون عن مثل هذه العادات، التي قد تضر بسمعتهم الوطنية.

إن هؤلاء الوافدين ينظرون إلى وطنهم نظرة أقل سمواً من النظرة التي ينظرونها إلى البلد المقدس، فأنماط الحياة المكية تقوي في نفوسهم الروابط الإيمانية، في حين لا يجدون في بلدهم سوى مظاهر الوثنية، وتبدو أمام ناظريهم الجوانب المظلمة لظروف وطنهم مقارنة مع الجانب المضيء للحياة المكية. إن هؤلاء على استعداد للتضحية بشعورهم الوطني، والابتعاد عن عاداتهم المحلية، من أجل زيادة الوعي والتضامن مع الإمبراطورية الإسلامية العظيمة.

وإذ استقر هؤلاء في مكة يندمجون مع الحياة المكية، ويصبحون أعضاء في المجتمع المكي، غير أن ذلك لا يخفف من غلوائهم تجاه موطنهم الأصلي. إذ تستمر النظرة الدنيا للوطن الأم، أمام الحياة التي يحيونها، على الرغم من أنهم لا يكونون على قدم المساواة مع أفراد المجتمع المكي، إلا إذا تنصلوا كلية من الآثار التي تربطهم بأصولهم الأولى.

يقوم الحجاج الجاويون بالاغتسال من ماء زمزم، وكأنهم يتطهرون من رجس جو الملايو وأرضها. ويكون ذلك بصب الماء المبارك عليهم. إن الذي يقوم بالعملية هو أحد الزمازمة، الذي قد يأخذ نظير ذلك مبلغاً من المال. ولما كان الجاويون يغتسلون بماء زمزم ثلاث مرات: الأولى عند قدومهم، والثانية عند ذهابهم إلى المدينة، والثالثة عند مغادرتهم؛ لذا فإن الزمزمي يتقاضى أجره ثلاث مرات متتالية، ولا ينسى الزمزمي أن يحث الحاج بالتبرع لشراء بعض الدوارق، أو لشراء حصيرة يفرشها الزمزمي للقادمين إلى الحرم لأداء الصلوات.

خرافات في جبل أبي قبيس

وهناك جبل مقدس[1] يزوره معظم الحجاج هو جبل أبي قبيس، وترجع هذه القدسية إلى أيام الجاهلية. ويعدّ هذا الجبل أحد مظاهر القداسة التي لم يتمكن الإسلام من اقتلاعها ومحوها من بين صفوف المسلمين، فقد هيئ لهذا الجبل جميع أنواع الخرافات التي تفرض على الحجاج وجوب زيارة هذا المرتفع، علماً بأن هذه الخرافات الموروثة تزداد بشكل متواصل في هذه الأيام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، ففي الزاوية الشمالية من جبل أبي قبيس مسجد صغير يشاهد فيه تكوينات صخرية، لها لون شبيه بلون الحجر الأسود، وعلى هذا تقول الأسطورة: بأن الحجر الأسود قد اقتلع من هذا المكان، أو الحجر حفظ في هذا المكان، عند حدوث الفيضانات. لهذا يطلب إلى الحجاج تقبيل هذا الأثر والصلاة ركعتين بجواره. وفي زاوية أخرى بارزة من الجبل وقف سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد أن انتهى من بناء الكعبة، ليؤذن في الناس بالحج، وتوجد هنا بقعة مغطاة بالرمل الأبيض، حيث يقف الحجاج يتلون بعض الأدعية، ويصرخون بأسماء أصدقائهم وأقربائهم وكل عزيز عليهم في الوطن الأم.فإذا استجاب الله لهذه النداءات الصادرة عن هذه الأراضي الطاهرة، فإن الأشخاص المنادى عليهم سيحضرون لأداء فريضة الحج في يوم من الأيام.

وأخيراً هناك حفرة مستطيلة مبنية بمستوى سطح الأرض قال عنها الإمام قطب الدين[2] «وفي أعلى الجبل (أبي قبيس) يوجد صهريج يزوره الناس على اساس أنه قبر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ غير أن ذلك هو عبارة عن خزان حفر في العهود القديمة، لحفظ الماء حينما كانت هناك قلعة على قمة هذا الجبل. ويزعم بعض العامة أن أي إنسان يأكل رأس خروف في يوم السبت، على قمة

---

(١) لا يعترف الإسلام بالقدسية لمثل هذه المواضع فقد عدّ مظاهر التقديس هذه من الشرك. غير أن الناس قد استغلوا الكثير من الخرافات والأساطير التاريخية، وأوهموا الناس أنها من جملة الشعائر الدينية، والأماكن التي يجب زيارتها، والهدف هو استغلال السفهاء والجهلة من عامة المسلمين.

(٢) تاريخ القطبي المسمى «كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة» للعلامة قطب الدين الحنفي منشورات المكتبة العلمية بمكة ص٣٥٩.

جبل أبي قبيس، فإنه سوف لا يصاب بالصداع طوال حياته. لذلك يحتشد الناس على الجبل كل سبت صباحاً ليتناولوا هذه الوجبة».

وبعد أن كتب مؤرخ مكة هذه العبارة، أصبح الخزان هو المكان الذي استقرت عليه سفينة نوح، كما أصبح المكان المفضل لأكل رؤوس الخراف. ولقد عملت في الجبل بعض الدرجات المنحوتة بطريقة بدائية، لتوفر وسيلة سهلة لارتقاء الجبل. وتفرش كل جماعة لها حصيرة، ثم تقوم بتناول هذه الوجبات، التي لم تقتصر على أيام السبت بل تعدته إلى مختلف أيام الأسبوع. لقد كان الجاوى هم أكثر الناس إقبالاً على مثل هذه الأعمال، وكان من الطبيعي أن تفرض أثمان باهظة لرؤوس الخراف هذه[١].

خرافات على جبل النور

ومثال آخر عن بعض عادات الجاوى الجهلاء، في شمال شرقي مكة يقع جبل مخروطي يدعى بجبل حراء ويطلق عليه أيضاً اسم (جبل النور)، وقد حدثت أحداث على هذا الجبل منها:

١ ـ رأى محمد ﷺ طيف جبريل أول مرة على هذا الجبل حينما أوحي إليه القرآن.

٢ ـ كان هذا الجبل ملجأ للنبي ﷺ عندما كان أعداؤه يتعقبونه[٢].

٣ ـ إن هذا الجبل حذر الرسول ﷺ من عدوه القريب منه[٣].

وهناك أمور أخرى تلصق بهذا الجبل، منها أنه في هذا المكان أخذ ملكان قلب النبي ﷺ من جسده. وبعد غسله في طبق ذهبي أعاداه إلى مكانه مرة أخرى[٤]. ويقوم بعض الفضوليين بإقامة حفل سخيف يقصدون

---

(١) في تقويم الحكومة الحجازية لعام ١٣٠٣هـ نطالع صفحة ١٥٥ أن القزويني ذكر في كتابه عجائب المخلوقات أن من بين خصائص جبل أبي قبيس أن من يأكل عليه لحم رأس مشوي لا يصاب بالصداع. وقد انتشرت هذه العادة بين جماعات الحجاج، وبخاصة الحجاج الجاوى (المؤلف).

(٢) لقد جانب المؤلف الصواب، فالجبل الذي التجأ إليه الرسول وصاحبه كان جبل ثور لا حراء.

(٣) ليس هناك من دليل على صدق هذه الرواية، وهي من الخرافات التي لا أساس لها من الصحة.

(٤) إن حادثة شق صدر الرسول المروية في كتب السيرة كانت في بني سعد، حينما كان الرسول ﷺ برعاية السيدة حليمة السعدية.

من ورائه الحصول على بعض المال. ذلك هو عملية تطهير القلب على غرار ما حصل للرسول الكريم. ويكون ذلك بأن يضع الفرد الفضولي قليلاً من التمر على صدر المراد تطهيره ثم يغطيها برغيف رقيق مستدير. ثم يقوم هذا الفضولي بقطع الرغيف إلى نصفين بعد أن يتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم». والتمر في هذه الخرافة يشير إلى القلب، وهذا يعني محاكاة ما حدث للرسول الكريم، دون تمزيق لقلوبهم ولا لأجسادهم. ويتقاضى أمثال هؤلاء المحترفين في العادة الخبز والتمر بالإضافة إلى بعض النقود، نظير قيامهم بهذه المهمة. ومن المهم أن أعداداً كبيرة من الجاويين تنطلي عليهم مثل هذه الحيل الخادعة، في حين يتجنبها بعضهم الآخر.

عادة تغيير الأسماء

إن إبدال وتغيير الأسماء الأصلية وتغييرها إلى أسماء أخرى سمة بارزة بين أفراد الجالية الجاوية القادمة إلى مكة. ذلك أن الغرباء الذين يستقرون في مكة يجب أن يغيروا أسماءهم التي لا يتسنى للشفاه العربية نطقها. وعلى أي حال فإن جميع الجاويين يتخذون أسماء عربية في مكة، سواء من قدم للحج فقط أو من أراد البقاء نهائياً في المدينة المقدسة. وربما يعزىٰ ذلك إلى عادات وطنية، تقضي بتغيير الأسماء في فترات معينة من حياة المرء، كالزواج أو الالتحاق بوظيفة معينة. لقد استفاد المكيون من هذه العادة وشجعوا عليها، وخصصوا أشخاصاً معينين، يقومون بتغيير الأسماء لهؤلاء لقاء مبالغ مالية معينة.

إن مهمة تغيير أسماء الجاوى كانت منذ مدة طويلة بأيدي ثلاثة أشخاص: مفتي الشافعية، ومن يحمل هذه المنصب يعدّ في نظر أفراد الجاوى أعلى سلطة دينية. ثم إمام الحرم الذي يتعلم الجاويون على يديه قراءة الفاتحة وتجويدها، ثم الريس (رئيس المؤذنين، وفلكي المسجد) الذي يقوم بالأذان من فوق المبنى الذي يعلو بئر زمزم (مقام الشافعي). إن هؤلاء الثلاثة ومن يخلفهم من أبنائهم يدعون أن لهم الحق في دعوة أفراد الجالية الجاوية إلى منازلهم بدعوى تغيير أسمائهم. وهؤلاء يعطون الشخص الذي يغير اسمه وثيقة موقعة منهم مفادها أن الحاج فلان من مقاطعة كذا، قد غير اسمه إلى كذا، وسيحمل هذا الاسم في المستقبل. إن

مفتي الشافعية لديه أوراق مطبوعة بهذا الخصوص، ولا تحتاج إلا إلى وضع الاسم القديم والاسم الجديد. وإن اختيار الاسم الجديد يعتمد على ذوق الفرد، وغالباً ما يكون الاسم أحد الأسماء الإسلامية التقليدية مثل محمد، أحمد، علي، حسن، حسين، أبو بكر، عمر، عبدالله... إلخ. ولأفراد الجاوى ولع خاص بأسماء رجال العلم المسلمين مثل الشافعي، رفاعي، نووي، سنوسي، غزالي، شربيني وغيره.

إن تغيير الأسماء التي أعطيت عند الميلاد، والتي تعود إلى لغة الوطن الأم، أو تلك الأسماء التي إذا نطقت بألفاظها، كان لها معان قبيحة في اللغة العربية أمر مقبول. غير أن الأمر تعدى ذلك إلى أن الأشخاص الذين أعطاهم آباؤهم أسماء عربية كأحمد مثلاً، كانوا يغيرون أسماءهم إلى غزالي أو نحوه، لا بل وصل الأمر ببعضهم أن يقوم بتغيير اسمه الجديد الذي حصل عليه في مكة، حين يقوم بزيارة المدينة. ولما كان مثل هذا العمل قد تحول إلى تجارة، لذا طلبت الحكومة ممن يقومون بتغيير الأسماء، أن يحصلوا على تصريح بذلك، نظير مبلغ من المال. ويوجد إشاعة مفادها أن السلطات ستوزع على هؤلاء الثلاثة استمارات مطبوعة وتحاسبهم عن كل استمارة يستعملونها في تغيير الأسماء.

كنت مرة في زيارة لمفتي الشافعية[١] عندما قدم إليه جماعة من حجاج الجاوى، يريدون تغيير أسمائهم. لقد أتوا بصحبة مطوفهم، الذي يحدد في العادة الشخص الذي يتولى التسمية. ويتقاضى على ذلك بعض المال منه، إن لمفتي الشافعية مزايا كثيرة ونفوذاً واسعاً بين صفوف الجاوى، لا يتمتع به نظيراه في العمل الشيخ أحمد فقيه[٢] إمام الحرم، والشيخ علي الريس

---

(١) كان مفتي الشافعية في مكة في هذه الفترة هو السيد أحمد زيني دحلان.

(٢) هو أحمد بن عبدالله بن جعفر فقيه الشافعية المكي الخطيب الإمام بالمسجد الحرام، ولد بمكة سنة ١٢٧٣ هـ ونشأ بها وحفظ القرآن وأحسن تجويده وصلى به التراويح بالمسجد الحرام واشتغل بالعلم وكان ميالاً للأدب من نظم ونثر ولم تذكر سنة وفاته (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٧٦).

كبير المؤذنين[١]. ولهذا فإن المطوف في العادة يحصل على نصيب أكبر من أحمد فقيه وعلي الريس قد يصل إلى نصف المبلغ الذي يحصلون عليه نظير التسمية. لقد كان عدد الجاوى الذين قدموا إلى الشيخ: ثلاثة عشر رجلاً. وكانوا من مقاطعة كديري من جزيرة جاوة. وقد دخلوا على الغرفة الصغيرة، حيث كنت جالساً بجوار المفتي على كنبة (كرويتة) وقد وقف هؤلاء بالقرب من الباب، وجعل المطوف ينادي عليهم واحداً بعد الآخر، ليتقدموا إلى المفتي بتواضع واحترام، حيث لا يجسرون على رفع أعينهم إليه، ثم يقومون بتقبيل يد الرجل المسن. فيأخذ كلا منهم بيده ويلقنه الشهادتين ويسأله عن اسمه فيجيب. وعندما يكون الحاج لا يتقن العربية، يتولى المطوف الرد على ذلك. ولما كانت الأسماء جاوية في نطقها، فإن الشيخ قد لا يتقن كتابة بعضها. وقد صدف أن كان أحد الأسماء هو عبد مناف (التي تعني الإله مناف) تساءل المفتي فيما إذا كان الاسم عبدالمنان، لكن الجواب كان عبد مناف، وليس عبدالمنان فقال المفتي: لقد ارتكب الأب إثماً نتيجة لجهله.

وفي خلال عشر دقائق سمي هؤلاء بأسماء جديدة، ثم استأذن هؤلاء بالانصراف، وقام كل منهم بتوديع الشيخ، وتقبيل يده، وفي طريقه إلى الباب كان يضع دولاراً تحت المنديل أمام الشيخ. ولقد تظاهر المطوف بمغادرة المكان مع حجاجه، إلا أن المفتي ناداه وقال له: لقد علمت أن خمسة وعشرين حاجاً قد قدموا من كديري. والله يا شيخ يمكن أن يكون ذلك، فربما الاثنا عشر الآخرون، قد أعطوا لمطوفين آخرين. والله العظيم لم أستلم سوى هؤلاء الثلاثة عشر رجلاً! فأجاب الشيخ حسناً خذ هذا، ونقد المطوف دولارين من الثلاثة عشر دولاراً التي تحت المنديل، فما كان من المطوف إلا أن أخذ المبلغ قائلاً: الله يجزيك خيراً.

---

(١) علي بن عبدالسلام الزمزمي الريس، رئيس المؤذنين على قبة بئر زمزم، الشافعي المكي العالم الفاضل. ذكر صاحب نشر النور والزهر تاريخ وفاته خطأ إذ قال: إنها وقعت سنة ١١٥٢هـ. وهذا ليس بصحيح (المرجع السابق ج٢ ص٣٠٩).

لقد بقي من الأعمال التي يقوم بها أفراد الجاوى، والتي تستحق الذكر، عدا الأعمال التقليدية التي يقومون بها، وهي أداء مناسك الحج، والطواف حول الكعبة، والصلاة جماعة في الحرم، ثلاثة أمور تجدر الإشارة إليها. وهذه الأمور تنطبق على الحجاج الذين يفدون إلى مكة قبيل حلول شهر رمضان أو بعده بقليل. أو على الذين يبقون في مكة فترة طويلة بعد أداء مناسك الحج.

تعلم المناسك

إن الذين يصلون إلى مكة قبل موسم الحج، يطلب إليهم ـ المطوف أو المرشد الذي يرافقهم أن يتعرفوا على كيفية أداء المناسك، من خلال قراءتهم لإحدى كتب المناسك المكتوبة باللغة الملاوية، أو بأي لغة أخرى يفهمونها؛ لأن الغالبية العظمى من هؤلاء الحجاج لا يعرفون الخطوات العملية لمناسك الحج والعمرة. فكثير من الحجاج يعودون إلى بلادهم دون أن يعرفوا كافة التفصيلات المتعلقة بذلك. لذلك يحث المكيون هؤلاء على إعادة هذه الأمور واستظهارها، وخاصة الأمور المتعلقة بالصلاة، والتي لا يعرفها بعض هؤلاء. لكن من يستطيع أن يوضح معاني كافة الترتيبات ـ ولو بصورة عاجلة ـ في مثل هذه الأوقات الحرجة؟ متى يدرك هؤلاء أيضاً أن زيارة الأضرحة والبيوت التذكارية ودخول الكعبة والاستحمام بماء زمزم وغير ذلك من الأعمال ليست من شعائر الحج؟

إن كثيراً من الحجاج ينالهم من هذه المجهودات التي يبذلونها في مثل هذه الأمور الكثير من الجوع والعطش، وسط هذا الحشد الصاخب المزدحم الكثير الجلبة والضوضاء.

قراءة القرآن

إن الفائدة الثانية التي يجنيها أولئك الذين يصلون إلى مكة قبل موسم الحج بوقت كاف، هي تحسين مستوى هؤلاء في قراءة القرآن وتجويدها. إن قراءة القرآن حسب أحكام التجويد من الأمور الصعبة على الشفاه الملاوية. يضاف إلى ذلك أنه لا يوجد في الوطن الأم المدرسون الأكفاء لهذه المهمة. غير أنه من الصعب إنجاز هذه المهمة في بضعة أسابيع. إلا أن هذا الوقت القصير قد يكون كافياً لتعلم قراءة الفاتحة حسب أصول التجويد.

إن المدرسين يتقاضون أجوراً على ما يبذلونه من جهد في عملية التعليم. إن المتخصصين في أحكام الشريعة الإسلامية لا يرون بأساً في أن يتقاضى المدرس أجراً على تعليم القرآن، أو على قراءته، وأمثال هؤلاء في مكة يقومون بالتدريس باستمرار. وهناك الكثير من المدرسين الذين تخصصوا في تعليم أبناء الجالية الجاوية، الذين تأخروا عن العودة إلى بلادهم، بعد موسم الحج. إن من يحالفهم الحظ قد يكملون جزءًا من القرآن، أو على الأقل مجموعة من السور القصيرة. أما الآخرون فيتقنون سورة الفاتحة حيث يأخذ هؤلاء كل صباح درساً مدة تقارب الساعة. إن من بين المدرسين ذائعي الصيت السيد أحمد فقيه المذكور آنفاً. وفي العادة يترك التلاميذ الدراسة بعد انتهاء سورة الفاتحة، حيث تكون الفرصة مناسبة لالتحاق أعداد آخرين. وفي العادة يتقاضى الشيخ بعض الهدايا نظير ذلك العمل.

أما الأمر الأخير الذي يقوم به حجاج الجاوى فيما تبقى لهم من وقت، هو الالتحاق بإحدى الطرق الصوفية. إن الالتحاق بهذه الطرق يقتضي شيئاً من الأوراد والذكر وبعض الأعمال الجماعية، وبعض اللقاءات مع الشيخ (التوجه). والمعلومات التي يحصل عليها المتعلم في المراحل السابقة ضرورية من أجل مبايعة الشيخ على الطاعة. إن الشيخ خليل باشا (القادم من داغستان) وكذلك سليمان أفندي، لهم الكثير من المريدين من أرخبيل الملايو. إن من لم يأخذ الطريقة على أيدي أحد هؤلاء، قد يأخذها من ممثليهم في جزر الهند الشرقية. إن الطريقة النقشبندية تنقسم في كل من غرب جاوة وسومطرة وجنوب بورنيو إلى ثلاثة فروع تبعاً لمشايخها في مكة. وبالإضافة إلى ذلك هناك في الشرق والجنوب بعض أنصار هذه الطرق، وقد قيل: إن هذه الطرق تنتشر أيضاً في منطقة المضائق الإنكليزية (مضيق ملقا وعبر شبه جزيرة الملايو) حيث يتجمع عدد من الأشخاص الذين طردوا من المستعمرات الهولندية، أو الذين لا يستطيعون الدخول نتيجة لقوانين الهجرة الصارمة المطبقة على القادمين من المشرق العربي، أو أولئك الذين يتوقفون في هذه المناطق في طريقهم من مكة إلى جزر الهند الشرقية. إن هذه المناطق لها أهمية كبرى في إذكاء الحركات الدينية في

جزر الهند الشرقية. وهذه ليست تعليمات دينية بقدر ما هي حروب ضدنا (نحن الهولنديين)، ويجب أن نأخذ من الحرب الآشية درساً نعيه جيداً.

إن الكثير من أفراد الجاوى المنتمين للحركات الصوفية، وخاصة أولئك القادمين من جزيرة جاوة، أو القاطنين في مكة، يفضلون العودة إلى حياتهم في الريف، حيث يعملون رؤساء روحيين لهذه الطرق في بلادهم. إن سليمان وخليل كان لهم عدد من المساعدين من أفراد الجاوى، الذين يقومون بنشر هذه الطريقة. وكانت لهؤلاء المساعدين سلطات واسعة في إصدار الأوامر التي تخص هذه الطريقة. ويشعر الجاويون بالارتياح التام لهؤلاء المساعدين الذين يتكلمون لغتهم الأصلية. وقد كانت مكة على نحو ما سنذكر لاحقاً هي الممول الرئيس لهؤلاء.

إن موسم الحج الأكبر يدوم حوالي ستة أيام. فالرحلة من مكة إلى منى تحتاج ما يقرب من ساعتين، ومن هناك إلى عرفات، يحتاج حوالي أربع ساعات. بشرط أن تكون شروط السفر مواتية، وفي الغالب هناك الكثير من الارتباكات، التي تحدث نتيجة فوضى الذهاب والإياب غير المنتظم، يضاف إلى ذلك أن الحجاج لم يكونوا قد اعتادوا على ملابس الإحرام. وفي العادة يدفع الحجاج الجاوى أجوراً مرتفعة عن الجمال التي تحملهم وأمتعتهم إلى وادي منى وسهل عرفات المقدسين. وكذلك يدفعون ثمن الطعام والشراب، بالإضافة إلى جزء من إيجار الخيم، التي تقام في هذين الموضعين. وفي العادة يطلب من الحجاج أن يقوموا بذبح هديهم وأضحياتهم في منى، كما يطالبون بالذبح أيضاً إذا حصلت منهم بعض الأخطاء في أثناء الحج. وقد يطلب إلى هؤلاء ذبح بعض الحيوانات عن أقربائهم وأصدقائهم كالعقائق التي لم تؤد في حينها. وقد يقوم الحجاج بدفع أثمان الأضاحي إلى المطوف الذي يقوم بشرائها لهم، غير أن بعض ضعفاء النفوس يقتطع بعض المال منها أو يقوم بذبح عدد أقل من عدد الحجاج. إن جلود الأضاحي في منى كثيرة جداً، ولا يجوز بيعها بموجب الشرع الحنيف. غير أن هذه الجلود تشكل مادة للتصدير إلى أوروبا.

إن ما سبق ذكره يكفي ليتمكن القارئ المتدبر من تكوين فكرة عن أهمية الحج للحياة الدينية في أراضي الهند الشرقية. وهذا ينطبق بصورة خاصة على القادمين لفترة وجيزة لأعمال الحج فقط. غير أنه لا يجوز أن نطلق أحكاماً عامة في هذا المجال. إن هذه الأمور التي تحدث للحجاج معروفة لدى خبرائنا (الهولنديين) بشؤون جزر الهند الشرقية، كما أنها معروفة للجميع.

الحجاج يشجعون الثورة ضد الهولنديين

إن المرء ليسمع في العادة قول بعض المقيمين من الهولنديين، والذين قد احتك بعضهم بالحجاج، ولم يجدوا منهم ما يسرهم: إن هؤلاء (الحجاج) هم طاعون المجتمع الوطني. فهم يشجعون السكان على الثورة والمقاومة، وهم شديدو التعصب والكره للأوربيين. وقد تسنح الفرصة لبعضهم الآخر بالاحتكاك بحجاج بسطاء سهلي العريكة، قدموا لهم خدمات جليلة بإخلاص، فما يكون من هؤلاء إلا القول: إن هذا هو ادعاء، وصورة غير حقيقية لهؤلاء الحجاج، إن كل من يعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الحجاج، يدرك أنهم عاديون ومعتدلون.وسبب الخلط يكمن في أن المرء يبدأ بافتراضات خاطئة عن هؤلاء الحجاج، وأن لهم سمات خاصة دون غيرهم. إن القراء الذين يجهلون الظروف في جزر الهند الهولندية يدهشون كثيراً للأخطاء التي يرتكبها موظفو الحكومة الرسميون. غير أن ذلك من السهل معرفته هناك.

الحج له أهمية خاصة في بلاد الجاوى

هناك أسباب كثيرة تجعل لتسمية الإنسان بالحاج رنيناً خاصاً، لا يوجد في أي مكان آخر من العالم. لقد كانت المسافة الكبيرة بين شبه الجزيرة العربية، وبين جزر الهند الشرقية، قبل وجود السفن البخارية، تشكل عائقاً أمام حركة الحج. يضاف إلى ذلك أن دخول البلاد الجاوية في الإسلام جاء متأخراً، الأمر الذي فرض أن تكون الأجزاء الداخلية من البلاد ذات ثقافة دينية سطحية، نتيجة لجهل الناس بأصول تطبيق الشريعة. لذلك كان من يمضي فترة في بلاد الحضارة الإسلامية، يعامل على أنه مرجع ديني مهم. فإذا ما أضفنا إلى ذلك عادة معظم الحجاج ارتداء الزي العربي بعد عودتهم، ثم التزامهم وإخلاصهم في تطبيق مبادئ دينهم، أدركنا رفعة شأن الحاج وارتقاءه إلى مرتبة مرموقة عن باقي السكان، وخاصة في جزيرة جاوة والجزر المجاورة الأخرى. غير أن بعض هؤلاء يستغل هذه المرتبة الرفيعة

لتكون وسيلة للعيش ولو جزئياً على نفقة مواطنيهم، ممن لم تطأ أقدامهم الأراضي المقدسة. وإن الكثير من السكان الذين يؤمنون بالخرافات، يعتقدون بالتمائم والحجب التي يعدها هؤلاء، معتقدين أن هؤلاء قد حصلوا على هذه العلوم الغيبية من البلاد المقدسة.

هناك فرق بين أولئك الذين أدوا مناسك الحج فقط، وبين أولئك الذين عاشوا في مكة فترات طويلة، واشتركوا في الحضارة الإسلامية بصورة واضحة. غير أن هذا الفرق لا يدركه سكان الولايات الداخلية من بلاد الجاوى، وحتى موظفو الحكومة الرسميون (الهولنديون)، وهؤلاء في الغالب لديهم معلومات سطحية عن الحياة الدينية للسكان المحليين. فهم يرون أن كل من أدى فريضة الحج أصبح رجل دين (عالم)، ولهذا السبب اتهم الكثير من السكان الجاويين اتهامات باطلة، لا مسوّغ لها سوى أن هؤلاء يحملون لقب (حاج). إن مثل هذا الجهل قد قاد المسؤولين إلى ارتكاب أخطاء سخيفة مثل تفتيش الحجاج، والتضييق عليهم وإيذائهم.

من الواضح أن النمو الضخم في عدد الحجاج خلال القرن الماضي، يجب أن يؤثر في المدى الطويل على الهالة الكبيرة المرسومة للحاج. وهذه النتيجة أصبحت واضحة للمسؤولين الرسميين، الذين يتوقعون أن زيادة وفود الحجيج يمكن أن تؤثر بالتالي في إبعاد النفوذ الذي يتمتع به هؤلاء الحجاج، الذين يكرههم هؤلاء المسؤولون كراهية شديدة لنفوذهم القوي.

فإذا كانت الحكومة تنوي منع الزي العربي[١] فإن الإجراءات الأخرى يجب أن تكون تدريجية وبمرور الزمن. إن النتائج الخاطئة يمكن إرجاعها إلى الافتراضات الخاطئة التي وضعت بادئ ذي بدء.وهي أن الآثار التي تسببها مكة باعتبارها بؤرة الإسلام، والتي تؤثر بطريقة كلية أو جزئية في

---

(١) إن مثل هذا الإجراء يمكن تعميمه على كافة المواطنين في جزر الهند الشرقية، وذلك بارتداء الزي الوطني. غير أن العباءة المنتشرة في غرب الجزيرة العربية هي الآن رسمياً علامة مميزة للباس الحجاج الجاويين. ولذلك فإن مثل هذا القرار بتغيير اللباس قد لا يؤدي الغرض المطلوب (المؤلف).

إندونيسية، ينعكس صداها على الحجاج فقط. وإذا أردنا أن نتفهم أهمية الحياة الإسلامية في جزر الهند الشرقية، فإن ذلك يتطلب دراسة عملية أعمق مما يتيحه موظفو الحكومة من فرص، وعلى سبيل الخصوص يجب الأخذ بعين الاعتبار أوضاع الجالية في مكة، والتي لا نعرف الكثير عن ظروفها وأوضاعها الحالية.

إن إنكار أهمية آلاف الحجاج وسط جموع مواطنيهم في جزر الهند الشرقية الهولندية هو من قبيل المبالغة والذهاب من الطرف البعيد إلى الطرف البعيد الآخر. فعلى الرغم من بضع مئات من الحجاج يعودون ولديهم أفكار غامضة عن شعائر الحج، غير أن كل الحجاج ـ وحتى الأغبياء منهم ـ يعودون ولديهم أفكار وانطباعات عميقة عن ذلك العالم المجهول لهم. إن القوة الدينية والسياسية للإسلام التي كان يسمع بها هؤلاء من خلال التراث الشعبي عن أيام الإسلام الأولى، وكذلك من خلال الأساطير عن أيامه المقبلة، تتجلى بوضوح في حقيقة واقعة أمام أنظار هؤلاء.

ارتباط الحجاج بالعالم الإسلامي

لقد سمع هؤلاء الحجاج في أوطانهم عن سلطان الروم العظيم في القسطنطينية (الخليفة العثماني) وعن السلاطين الستة غير المسلمين الذين يدفعون له الجزية. غير أن هؤلاء لم يشاهدوا خلال حياتهم أي أثر لمثل هذه القوة (القوة العثمانية). إن المواطنين في مكة من أبناء الجالية الجاوية، حتى بعد أن تتسع مداركهم، يروجون مثل هذه الأمور السخيفة عن الأوضاع الأوروبية[1]. لقد أدرك هؤلاء الآن أنه يوجد أكثر من ست دول كافرة. ولا يعرف هؤلاء فيما إذا كانت هذه الدول الكافرة تخضع للسلطان العثماني أو لا. غير أنهم لا يزالون يحملون انطباعاً بأن قوى الكفر قد حصلت على القوة والمنعة حينما أصبح لها تمثيل في القسطنطينية[2].

---

(١) إن قصة سلطان الروم تشير إلى الدولة العثمانية. أما السلاطين الستة الذين يدفعون الجزية فتشير إلى ست دول أوربية لا نعرف ما هي، ويبدو أنها أسطورة شعبية في جزر الهند الشرقية.

(٢) المقصود بالتمثيل هو التمثيل الدبلوماسي، بمعنى أن لهؤلاء سفارات وقنصليات في عاصمة الإسلام القسطنطينية.

إن أبناء الجالية الجاوية في مكة يظهرون للحجاج من أبناء وطنهم عظمة الإسلام الحقيقية. إن عدد الجنود هنا كعدد الجنود في الوطن الأم. غير أن هؤلاء يقومون بأداء الصلوات المفروضة. إن إطاعة الحكام في المقاطعات الداخلية أمر يخالف رغبات السكان[1]. غير أن الحكام هنا مسلمون ويخافون الله. إن كل من حولهم هنا سواء في الشوارع أو في المساجد تسيره مشيئة الله وإرادته. إن قوة الحكومة تظهر بوضوح في إسطنبول أكثر من مكة. وإن من سافر لتلك البلاد يتحدث عن هذه الأشياء الظاهرية ولسان حاله يقول: إن مكة هي المركز الروحي، لكن إسطنبول هي مركز القوة المادية في العالم. إن جميع أفراد الجاوى ينظرون باحترام إلى هذين المكانين من العالم.

تبادل الأخبار بين الحجاج الجاوى

وعلى طريق الرحلة البحرية الطويلة أو في مكة يتجمع حجاج الجاوى، وقد أتوا من مختلف مناطق أرخبيل الملايو ـ القاصية منها والدانية ـ يتبادل الجميع الأفكار فيما بينهم.تلك الأفكار التي تستدعي اهتماماً خاصاً.إن الجالية الجاوية في مكة قد أخذت زمام المبادرة، وقد أعطت لهؤلاء قيادة محددة واضحة. وفي هذا المجتمع المكي المختلط الذي يمثل مختلف مناطق الجاوى، نجد على سبيل المثال أحد الأفراد المقيمين يسأل أحد المواطنين القادمين من آتشي عن أوضاع بلاده.

والجواب يكون بالطبع قد أخرجنا جميع الهولنديين الملاعين، وسيأتي اليوم الذي ننهي فيه وجودهم.

إن أحد أفراد الجاوى الذي خدم فترة طويلة في إحدى الدوائر الحكومية، وقد خرج الآن على المعاش، قد رأى أن تصرفات الآشيين تجاه الحكومة غير حكيمة.

إن الأوربيين يجب أن يحكموا البلاد. إنها إرادة الله! لماذا تطردون الهولنديين؟ وتهدرون الدماء والأموال؟ والنتيجة هي خروج الهولنديين،

---

(١) يشير المؤلف إلى نقطة مهمّة وهي أن الحكام المحليين كانوا من الهولنديين، ولذلك فهم أجانب لا تجب طاعتهم.

ليحل محلهم الإنكليز. إن جواب الآشي على ذلك هو بالطبع: إن هؤلاء الجبناء المقيمين على الأراضي الجاوية، يزيدون من كبرياء الكفار وغطرستهم. إن الآشي يحارب لله، وعلى الرغم من الآلات الحربية الجهنمية، التي يمتلكها هؤلاء الكفار، فإن مصير آلاف منهم إلى جهنم بأيدي الآشيين. وربما يجيب أحد المقيمين في مكة إن هذا العمل يشبه ما فعله السودانيون بالإنكليز[١].

لقد قال الآشي متعجباً: إن مما لا يمكن إنكاره المعجزات التي يؤيدنا بها الله سبحانه وتعالى. ففي كيمالا Kemala هناك غلام له وجه ثان على صدره، شبيه بما على رأسه.فإذا كان هناك إجراء يجب اتخاذه ضد الهولنديين، يسأل الإنسان الوجه الثاني، فإذا فتح عينيه وقال: «منصور» يكون النصر مؤكداً، ولهذا تتم العملية. ولكن إذا أغلق عينيه، فلا يخرج أحد من بيته؛ لأنه سوف لا يصادف نجاحاً في مهمته تلك.

وكما هو معلوم فهناك بعض الهولنديين الذين يلبون دعوة الخير ويأتون إلينا مسلمين[٢]. فإذا أمسك بهم العدو فإنه يشنقهم، ويدير ظهورهم إلى القبلة. ولقد صدف أن أحد هؤلاء الهولنديين الذي اعتنق الإسلام قد قبض عليه وحكم عليه بالإعدام. ولم يكن يعرف أحدنا موعد تنفيذ الحكم، ولكن شيخنا سامان دي تيرو وجد نفسه يبكي باستمرار دون أن يعرف سبباً لذلك، فحدثته نفسه بأن السبب هو هذا الرجل الهولندي المسلم الذي يواجه الموت. ثم اتضح بعد ذلك أن هذا كان حقيقة. ولذا أنجز الله سبحانه وتعالى المعجزة الآتية وهي: ما إن دفن الجنود الشهيد على غير القبلة، حتى هبت فجأة ريح عاصفة، أدارت الرفات وجعلته يواجه الكعبة، فصاح الجنود الكفرة وقد أصابهم الرعب «سبحان الله»..؟!.

---

(١) يشير المؤلف إلى الحرب الضروس والخسائر الكبيرة التي كبدها السودانيون للإنكليز بزعامة الحركة المهدية.

(٢) معظم هؤلاء الذين يعتنقون الإسلام هم من الأفراد الهاربين من القوات المسلحة الهولندية (المؤلف).

ويمضي الآشي في حديثه: وفي بلدنا أيضاً قال رجل من باليمبانج Palembang لقد أصبح أحد رجال الحكومة الرسميين يشك في تصرفات المواطنين. لقد نما إلى علم هذا المستوطن (الهولندي) أن الشرع الإسلامي يدرس في المسجد من كتاب (السبيل) وهو كتاب (سبيل المهتدين) ولما كان الهولنديون يعرفون أن كلمة برانج سبيل Prang Sabil تعني الحرب المقدسة، فقد اعتقد هذا الهولندي أن هناك حرباً مقدسة ضد الهولنديين قد أعلنت من خلال هذا الكتاب، الأمر الذي أوجب مصادرة الكتاب، ومنذ ذلك التاريخ عمل الموظفون الرسميون كل ما في وسعهم لمقاومة الوعظ والإرشاد في المساجد، ولكننا كرسنا أنفسنا للدين والعقيدة بشكل فعال. وإذا أراد الله فإن مخاوف هذا المقيم السياسي سوف يثبت خطؤها يوماً ما.

ورداً على حديث الآشي الذي قال مفتخراً: إن مواطنيه قد قتلوا في معركة واحدة ١٧٠٠٠ هولندي، قال الموظف الرسمي الجاوي المذكور آنفاً: إنه بحسب علمه المؤكد لا يوجد مثل هذا العدد أو ما يقاربه من الهولنديين في آشي. فما كان من الآشي إلا أن قال: هل كنت يوماً في آشية؟ لقد اصفرت وجوه جميع الجاويين الحاضرين بما فيهم وجوه مواطني هذا الموظف الرسمي، وقد وجهوا إليه تحذيراً قائلين: إن ملحوظاته القيمة ليس مجالها هنا.

وأستطيع أن أمضي وقتا أطول في سرد مثل هذه الأحاديث، التي كنت أستمع إليها في مكة من أولئك الحجاج، الذين قدموا إلى الديار المقدسة من جزر الهند الشرقية، وهم يتبادلون الرأي والحديث فيما بينهم. ومعظم هذه الأحاديث لم تكن ممتعة بالنسبة لي، غير أنني استفدت منها كثيراً.

وإذا لم يكن لدى الفرد (الأوروبي) الفرصة بالاختلاط بالسكان المحليين باعتباره منهم، ودونما أي شك في أنه أوروبي فإنه يقع في الكثير من المغالطات، معتقداً أن هناك جوانب معينة من المدنية الأوروبية، مقبولة لدى هؤلاء الشعوب، أو على الأقل تثير إعجابهم واهتمامهم. والواقع أن كل ذلك هو زيف وخداع. إن الفرد الجاوي حينما يحادث مسؤولاً

حكومياً أو تاجراً أو جندياً فإنه يظهر بغير مظهره الحقيقي الذي هو عليه، بحيث لا يدرك الأوروبي ذلك. فهو يظهر وبدون تحفظ أسوأ جوانب شخصيته وأغباها.

غموض الفرد الجاوي بالنسبة للمستعمرين

ويمكن القول بسهولة: إن معرفة الطبيعة البشرية للإنسان الجاوي، هي أمر لا يمكن إدراكه بالنسبة للرجل الأوروبي. إن الفرد الجاوي الذي يتعامل مع الأوروبي فترة من الزمن، يحاول من خلال تعامله معه، معرفة الجوانب المختلفة لشخصيته، ويقوم بالتصرف معه بناء على الخبرات التي اكتسبها من خلال تعامله معه. وإذا وصل مثل هذا الفرد الجاوي إلى هدفه، فإنه يستغل بمهارة نقاط الضعف عند صديقه الأوروبي. غير أنه يبقى دائماً مدركاً أنه لا يستطيع سبر غور الأوروبي؛ لأن الجاوي تنقصه الكثير من الخبرات في هذا الصدد من جهة، ومن جهة أخرى فإن صديقه الأوروبي، يظهر له الكثير من الأمور السلوكية المتناقضة. وإنني لم أسمع قط أن جاوياً ادعى أنه يعرف الأوروبيين معرفة تامة. إن هؤلاء يحجبون ويخفون أفكارهم ومشاعرهم عن الصديق الأوروبي بمهارة فائقة، ويضفون على أنفسهم صفة الرصانة، لدرجة يعتقد معها الأوروبي أنه وصل تدريجياً إلى قلوب هؤلاء الوطنيين، بينما هو في الواقع لا يحتل من قلوبهم أي مكانة. إن الفرد الجاوي تراه شديد التكتم في المعلومات التي تتعلق بالدين؛ لأنه حينما يصارح الرجل الأبيض بهذه المعلومات لا يجد منه سوى التجاهل والاحتقار، وعدم الإيمان والتصديق. فإذا سأله أحد عن هذا الموضوع سواء أكان سؤاله من قبيل حب الاستطلاع، أو من باب حب المعرفة والاهتمام، فإن طبيعة مثل هذا السؤال تنبئ بجهالة السائل في أوليات هذه المواضيع، وتجبر المسؤول المجامل بطبعه أن يراوغ في إعطاء الجواب. وبعض هؤلاء السائلين قد تلقوا أجوبة شديدة اللهجة لأسئلتهم التي أسيء فهمها، مما حدا بالسائل إلى أن يغلق فمه، لأنه رأى أن المناقشة قد وصلت إلى حد لا يمكن التفاهم حوله.

وأخيراً ولسوء الحظ هناك الأغبياء من الأوروبيين، الذين لا يبخلون على الوطنيين بآخر ما تجود به قرائحهم، حيث يوضحون لهؤلاء أن آخر

مكتشفات العلم الحديث أنه لا يوجد إله. ولقد أخبرني إمام متواضع من ملقا أن المندوب الرسمي في بلاده (هولندي) قد أخبره بهذا الأمر وهو في حالة وعي كامل؛ بمعنى أنه لم يكن في حالة فقدان وعي نتيجة للشرب، وإنه ليستغرب كيف أن أمثال هؤلاء الملاحدة يعيشون، وهم يغلقون عيونهم عن حقيقة وجود الله، وكيف أن مثل هذا الرجل تعهد إليه الحكومة بمثل هذه المناصب المهمّة. وقد يكون هذا الإمام قد جارى ذلك النصراني المتعصب؛ لأنه يعلم حقيقة أن هناك عقائد أخرى بجانب عقيدته. ولكن على أي حال فإن ذلك المندوب قد أضفى على نفسه بعمله هذا صفة الجنون.

إن السمات التي أسجلها لوصف الجاويين المقيمين في مكة للعناصر الأوروبية، قد تضفي بعض الحقائق عن الهولنديين الذي يعيشون في جزر الهند الشرقية بصورة مبالغة بعض الشيء. وسأغض الطرف عن بعض التفصيلات لأنها ستأخذ حيزاً كبيراً. إن سرد الحقائق والتفصيلات عن الآراء والانطباعات التي ينظر بها هؤلاء (الجاويون) إلينا تجعلنا نتلون خجلاً من هذه الحقائق المبعثرة هنا وهناك. غير أن عزاءنا ـ نحن الهولنديين ـ أن الصورة المطبوعة لنا في أذهان الجاويين، ليست بأسوأ من الصورة التي تحملها الشعوب الأخرى عن الفرنسيين والإنكليز والروس الذين يتولون السيطرة على هذه الشعوب.

النظرة إلى الدول الأوروبية المستعمرة

إن المشاهدة السليمة تختلط هنا بسوء الفهم. وفي كل مكان نرى أن الأوروبيين أنفسهم مسؤولون عن سوء الفهم هذا أولاً وأخيراً. ففي إنكلترا مثلاً توضع أدق تفصيلات البرامج الاستعمارية للمناطق المستعمرة. إن الإنكليز يدّعون أن حكمهم في الهند يحظى بموافقة السكان المحليين، غير أن المرء لبدهش بالحقائق التي تظهر أن المرء في مكة لا يسمع من شفاه هؤلاء الهنود، سوى الكلمات التي تظهر الكراهية المطلقة لهؤلاء الإنكليز. إن هناك ثغرة واسعة بين الجانب النظري والحقيقة. ومثل هذا موجود لدينا أيضاً. ويمكنني أن أقول على رغم ذلك، هناك بعض الجاويين القليلين، وخاصة من أولئك الموظفين، يظهرون لنا من خلال حديثهم أنهم يقبلون

بوجودنا. وقد سمعت مرة أحد أفراد الجاوى من بونتياناك (بورنيو) يدافع بشدة عن الوجود الهولندي في بلاده، على الرغم من امتعاض معظم المكيين من حديثه. لقد قال: لولا الوجود الهولندي الذي حمانا، لطردنا الصينيون بعيداً عن بلادنا. إن هؤلاء الحكام الكفار (الهولنديين) هم أكثر عدالة من الأتراك. إن ما يدمر الممالك هو الظلم، وليس ضعف العقيدة والإيمان. لقد كانت هذه الشهادة هي الوحيدة التي سمعتها من هذا الطراز. وفي الجانب الآخر نجد أن الهنود يكيلون اللعنات لأسيادهم الإنكليز. ومن خلال أحاديثي مع هؤلاء الهنود وجدت أنه لا النفور العرقي ولا التعصب الديني، هما المسؤولان فقط عن هذه الكراهية، وإنما الازدراء والاحتقار اللذان كان يبديهما الإنكليز لهؤلاء، لهي السبب الرئيس في هذه الكراهية. وفي المقابل فإن السوط الروسي كان أكثر فتكاً في ظهور الناس. لقد أعجب بعض شعوب وسط آسيا بالروس، وعدّوا ما يفعله هؤلاء رحمةً من الإرادة الإلهية لهم، فلقد كان المسلمون ينظرون إلى نصوص الدستور الروسي النظرية نظرة مقبولة، ويعدُّون الاعتراف الكلي بحقوقهم الدينية مكسباً كبيراً. على الرغم من الكراهية والتعصب ضد المسكوف خلال الحرب الأخيرة[١]. إن هذه الحرب كان يعبر عنها في مكة بحقد شديد. غير أنه حينما يتحول الأمر إلى تفاصيل الحكم الإداري لهؤلاء الروس، لا نجد أمة أوروبية تنال مدحاً وثناء أكثر من هؤلاء. وحينما يتحدث

---

(١) توالى زحف القياصرة على المناطق الإسلامية في آسيا الوسطى خلال القرن التاسع عشر وما قبله. وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت لروسيا أطماع في أراضي الدولة العثمانية. وكانت مخططاتها ترمي إلى ضم بعض أراضي هذه الدولة إلى روسيا، ودخلت في حرب القرم، بهدف إنهاء الوجود العثماني، وفي هذه الأثناء خففت الضغط على مسلمي آسيا الوسطى وأعطتهم مزيداً من الحريات؛ لأنها لا تريد فتح جبهة أخرى في أثناء انشغالها بحرب الترك. لكن بعد أن تحقق لروسيا أنها لا تستطيع القضاء نهائياً على الدولة العثمانية، نتيجة لدعم الدول الغربية لها، بادرت إلى احتلال ما تبقى من مناطق آسيا الوسطى الإسلامية، بالإضافة إلى مناطق القوقاز، وأخضعت هؤلاء لصنوف التشريد والإبادة. وما كان يتردد على ألسن بعض المكيين من أن المسكوف كانت معاملتهم حسنة، فقد كان في الفترة السابقة لاحتلال آسيا الوسطى.

الجزائريون عن فرنسا يسمع المرء من خلال كل كلمة الازدراء الشديد للدستور الجمهوري. فالإمبراطورية الفرنسية هي مكان للمعتوهين. إن بعض الأشخاص كانوا يتحدثون عن البرلمان الفرنسي الذي يدير دفة الحكم بصورة نظرية. كما يتحدثون عن مقره في باريس جنة الكفر. ويشيرون إلى الألفاظ الفظة التي كانت تدور في مناقشات البرلمان، وكيف أن القرارات تؤخذ تحت تهديد السلاح، وعلى العموم فإن المكيين أكثر الناس دراية برغبة الشعب الفرنسي بالعودة ثانية إلى النظام الملكي.

التأثيرات الدينية على الحجاج الجاوى

لنعد ثانية إلى الجاوى والجاويين. إننا ندرك الآن التأثيرات الدينية والسياسية فيهم خلال الحج. إن مثل هذه التأثيرات لا تؤثر في جميع عناصر الجاوى بدرجة واحدة. فبعضهم أشد تأثراً من بعضهم الآخر. كما أن بعضهم أقل تعصباً أو أقل تديناً من بعضهم الآخر. إن أولئك الذين درسوا في مدارس دينية في الوطن الأم، أو الذين درسوا في المساجد، أكثر انفتاحاً للتأثيرات والتيارات الإسلامية. وهناك نفر قليل من جمهور الحجاج غير المتعلمين، ممن تتطرق إلى نفوسهم بذور التعصب الديني الصرف. وعلى العموم فإن الأمور ذات الأهمية البالغة تنحصر في انخراط الحجاج في الطرق الصوفية التي تتزايد بمعدل كبير، ولو أنها أمر سطحي في الوقت الحاضر، ثم الاختلاط النشيط لهؤلاء الحجاج القادمين من مختلف جزر الهند الشرقية، بالإضافة إلى أفراد الجاوى المقيمين في مكة، الأمر الذي ينجم عنه تبادل الآراء والأفكار، التي تؤدي إلى إيجاد قوى وطنية، تتحدى جموع غير المؤمنين (الهولنديين). تلك القوى التي يبدو أن الإسلام ينشرها من مركزه الروحي في مكة. وأخيراً هناك حقيقة مهمّة هي أن الكثير من هؤلاء الحجاج، يتعلمون ويعتادون على أداء الواجبات الدينية في مكة، فإذا ما رحلوا إلى بلدهم عادوا شديدي التمسك بعقيدتهم.

اللباس العربي في جزر الهند الشرقية

يتحدث الناس في جزر الهند الشرقية في العادة عن أمرين هما: اللباس العربي الذي يرتديه الحاج بعد عودته، والاحترام والتقدير الذي يناله هؤلاء الحجاج في نظر مواطنيهم، ولو أن هذا التقدير بدأ يقل الآن. إن اللباس العربي واحترام الحاج ليسا هما السبب المباشر لدخول التيارات القادمة من

مكة بواسطة هؤلاء الحجاج. وإنما السبب ما ذكرناه سابقاً من اتصال هؤلاء بغيرهم في أثناء العيد الأكبر للمسلمين. لهذا نجد أنه لا مسوغ لتحذير الحجاج من لبس الزي العربي، إذ سوف لا يكون له أي مردود، سوى زيادة حدة التعصب. كما أن تقليل عدد الحجاج سوف لن يكون له من فائدة، سوى أنه يقلل من عدد المستغلين من هؤلاء الحجاج لمواطنيهم. وما دام الجهل متفشياً بين صفوف المواطنين، فلا يمكن لهم وقاية أنفسهم من محاولات الاستغلال التي يقوم بها بعض هؤلاء الحجاج. فحينما ينعدم الدافع الإنساني لفعل الخير، تظهر حينئذ جماعات جديدة غير هؤلاء تقوم بالمهمة نفسها.

إن الأهم من الحجاج الذين يعودون إلى أوطانهم بعد تأدية فريضة الحج، أولئك الذين يبقون في مكة، بعد موسم الحج، حيث يعيش هؤلاء في المستوطنة الجاوية في مكة، وربما يرزقون بأطفال ينتمون إلى المجتمع المكي فيما بعد. لقد رأينا آراء المكيين حول الجالية الجاوية في المدينة المقدسة، وخلصنا إلى الرأي القائل: إنه ليس كل من بقي من هؤلاء في مكة، كان دافعه التدين الخالص. فالكثير من الشباب يستغلون فرصة الدراسة للتلكؤ والتسكع، اعتماداً على أن ذويهم يمدونهم بالمال، أو أن دائنيهم يصبرون عليهم. وهناك الوافدون من الخدم مع الحجاج، والذين يقنعهم أفراد الجاوى المقيمين في مكة بالبقاء، والقيام بأعمال الخدمة، وإننا نرى مختلف الأعمار بين هؤلاء الخدم بدءاً من السنة الثامنة وحتى الثلاثين. إن أمثال هؤلاء الخدم لا يمكنهم أن يكرسوا أكثر من ساعات قليلة يومياً لدراسة الشريعة. وبعض هؤلاء يشعر أن هذه الساعات القليلة، هي مقدار من الزمن أكثر من المطلوب لهذا الغرض، حيث يخصص هؤلاء معظم وقتهم للمتع الدنيوية. وبين أولئك الراغبين في الدراسة، والذين لا يجدون الوقت الكافي، وبين أولئك العازفين عن الدراسة يقتصر تعلم العلوم الشرعية على تجويد القرآن وترتيله. ونادراً ما يدرس هؤلاء مثل هذا العلم مع أشخاص من مواطنيهم؛ لأن هذا النوع من الدراسة يتعلق بتطبيق قواعد النطق العربي بدقة بالغة.

إن المدرسين الذين ذكرناهم سابقاً، كانوا يتولون تدريس حجاج الجاوى. وهناك كثيرون غيرهم ممن يحضر دروسهم بعض أفراد الجاوى. ومن بين هؤلاء المدرسين للقرآن الكريم الشيخ محمد المنشاوي، الذي كان مشهوراً في هذا المجال (عام ١٨٨٥م) وقد كان أستاذاً في الحرم المكي الشريف. وكان معظم شباب الجاوى يحضرون درسه، إذا كانت ظروفهم تسمح بذلك. فالحضور إلى الدرس ليس إلزامياً، وإنما يعتمد على فراغ الطالب، كما أن عدم الحضور لا يستدعي الاعتذار من الشيخ.ويتقاضى الشيخ نظير هذه الخدمة مقدار جلدرين شهرياً، بالإضافة إلى بعض الهدايا في الأعياد. وكثير من أفراد الجاوى الذين يكرسون أنفسهم لطلب العلم، يبقون مع شيوخهم مدة تتراوح بين ١٠ ـ ١٢ عاماً، حيث يقرؤون القرآن بين أيديهم في الأوقات التي تسمح لهم ظروفهم بذلك.

إن الدين ليس له تأثير كبير في صنفين من أفراد الجاوى، هما الخدم والكسالى، فهؤلاء يتبعون المكيين في ممارسة الأمور السهلة. بل إن بعضهم ينقطع عن الصلاة جماعة في الحرم، بدعوى أنه شبع من ذلك. وغالباً ما ينتمي هؤلاء إلى إحدى الطرق الصوفية، حيث يقتنعون بالبقاء في مكان بعيد عن حلقة المريدين، ولا يقومون بالواجبات الصعبة التي تتطلبها الطريقة. إن مثل هذا الجهد المتواضع يصور لهم أنهم عملوا شيئاً جليلاً، كما أن حمل المسبحة وترديد الأوراد يرفع مقامهم بين أبناء جلدتهم.

وبالنسبة لفريق من هؤلاء، يبدو أن مثل هذا الأمر ثقيل، لا تحتمله نفوسهم. فلقد سمعت عن أحد هؤلاء أنه ترك الطريقة الصوفية؛ لأنه يشعر أنه لا يقوم بأداء واجباته الدينية. وإذا استمر ارتباطه مع شيخ الطريقة، فإن ذلك سيفرض عليه مزيداً من الواجبات الدينية، ولما كان لا يقوم بأدائها فإن ذنوبه ستزداد أكثر مما هي عليه الآن.

حب الجاوى للمناسبات الاجتماعية

إن ما يجذب هؤلاء الناس أساساً هو الحياة المرحة التي يقوم بها المكيون، خلال الأوقات الهادئة من السنة (البصارة). إن أفراد الجاوى لا يتعبون مطلقاً من الاشتراك في الأعياد الرسمية، وأعياد الزواج أو أي

مناسبات أسرية أخرى. وخاصة أن الطبقة المتوسطة من المكيين مولعة بالمهرجانات التي غالباً ما تكون يومية. إن المتدينين من مثقفي الجاوى مولعون أيضاً بذلك. يضاف إلى كل هذا كرم المكيين الغني عن البيان في مثل هذه الأمور. فعلى سبيل المثال كنت أعطي بعض أشخاص من الجاوى مبلغاً يتراوح بين ١٠ ـ ٢٠ دولاراً نظير خدمات يقدمونها لي، وأفاجأ في اليوم التالي أن الشخص قد عمل دعوة لي ولعدد من أفراد الجاوى تزيد تكاليفها كثيراً على ما دفعته له.

إن دعوة هؤلاء إلى الإنفاق بحكمة، وفي الوجوه المخصصة للإنفاق الصحيح، أمر خارج عن حدود إدراك معظم أفراد الجاوى. إنهم لا يشعرون بوطأة الدين إلا حينما يهددهم الدائنون، وإلا فهم يبتسمون دائماً حتى لو لم يجدوا ما يأكلونه، ولسان حالهم يقول: (إن اتكالنا على الله، وهو الذي يرزقنا بما يقيم أودنا).

الزواج غير المتكافئ لدى أفراد الجاوى

يجب أن توجد النساء في مثل هذه الحياة المرحة. فهناك بعض النساء اللواتي يضعن مفاتنهن تحت تصرف الجاويين. وتدور القصة التالية على ألسنة أفراد الجالية الجاوية في مكة: جاء إلى مكة جاوي أعور، قبيح الشكل ومعه ٢٠٠٠ دولار. فاستأجر داراً صغيرة لإقامة طويلة. وسرعان ما أتاه صديق وفاجأه بأن امرأة مصرية تسكن إلى جواره، وقد وقعت في حبه، وترغب في أن تكون زوجة له بأي ثمن. وهي تريد أن تمنحه فرصة للتعارف قبل سواه. فرأى الجاوي في ذلك نعمة هبطت عليه من السماء. فذهب إلى صديقه الذي أنجز له المهمة، وحقق له كل طموحاته. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان الجاوي زوجاً سعيداً. وكانت المرأة الفاتنة الأنيقة تستقبله، كلما عاد من المسجد مبتسمة مقبلة عمامته، مرحبة بسيدها، ومعانقة له. ويكفي أن نقول: إن الزوج ظن أنه في الجنة، ولم يكن الزوج ليتمنى شيئاً إلا حبها العميق، وأبسط أنواع الطعام والشراب. وهي لم تخف شيئاً عن زوجها سوى حزنها لوضع والدتها المؤسف، التي ينقصها أشياء كثيرة، حتى الملابس الضرورية، وبسرعة سد الزوج هذا النقص، وبذلك جفف دموع الابنة التي كرست حياتها لإسعاده.

ولا تمضي إلا أسابيع قليلة حتى يكون هناك مصدر لحزن جديد للزوجة، بسبب حال شقيقاتها، وخالاتها وبنات شقيقاتها مما جعلها ترى إدخال زوجها الطيب في الصورة، وهو لا يسمح لنفسه أن تعاني قريباته مثل هذه الحالة التعسة. وبذلك احتوت جاذبية المرأة قلب الجاوي، الذي ما برح يوافق على جميع رغباتها، دون أن يلتفت إلى أن كيس نقوده يفرغ تدريجياً. وأخيراً لم يبق من المبلغ الذي بحوزته سوى دراهم قليلة. ولما عاد ذات يوم إلى البيت، فوجئ بعدم استقبالها له بالطريقة المعهودة، وتصرفت بطريقة أهملت فيها وجوده، وحدثته نفسه بأنها مريضة، فذهب إليها لملاطفتها ومعانقتها. فما كان منها إلا أن أبعدت نفسها عن الرجل المغفل قائلة: ما هذا؟ آه، إنك أعور، وما هذه الندوب في حاجبك؟ وفي الحال لمع ضوء الحقيقة المرة أمام الجاوي المخدوع، فقال لها: «أنت بنت كلب.. أنت طالق بالثلاث». ولقد عجب الرجل من البشر والسرور الذي علا وجه المرأة بعد طلاقها. ومن العجيب أن هذه المرأة قد لعبت الدور نفسه مع جاوي آخر بعد ثلاثة أشهر.

إن هذا المثال التحذيري يطرق مسامع الكثيرين من أبناء الجاوى. غير أنه لا يمنع الوافدين الجدد من الوقوع في المصيدة. إن الشباب الواعي غالباً ما يبحثون عن الزوجة الوسيمة، ذات الطموح المعتدل، غير أن مثل هؤلاء النسوة يجدن في مستهل حياتهن من هم أفضل من هؤلاء الجاويين. وعلى هؤلاء الرضا والزواج بما يتبقى من هؤلاء النسوة، وخاصة من فاته القطار منهن، وهؤلاء في العادة يتزوجن من يستطيع القيام بتوفير وسائل العيش لهن.

ومن هنا نجد حدوث بعض الزيجات غير المتكافئة. إذ يتزوج الشاب الجاوي ذو الستة عشر ربيعاً من امرأة تزيد على الثلاثين، وقد تكون من أمثال أمه في العمر. وقد يكون لها بعض الأبناء. وفي أحيان كثيرة ينفق الزوجان كل ما لديهما من مال، ثم يرتميان في الديون، الأمر الذي قد يحمل الزوج إلى العودة إلى وطنه، تاركاً زوجته وربما أبناءه الذين يعدُّون مكيين مولداً أو ثقافة. وفي بعض الأحيان يتعهد هؤلاء الأبناء بعض الجاويين الأغنياء من المقيمين في مكة. إن تأثير مثل هؤلاء الجاوى في

المجتمع المكي أو في الوطن الأم لا يمكن تقدير أبعاده بدقة إلا أن هؤلاء يشكلون نسبة عالية.

مطوفو الجاوى

إن كثيراً من مطوفي الجاوى ينتمون إلى هذه الدوائر، حيث يقوم بعض هؤلاء بشراء رخص الطوافة بأموال يقترضونها، على أمل استعادة رأس المال، بالإضافة إلى بعض الأرباح، من خلال خدمة مواطنيه في مواسم الحج. كما أن بعضهم الآخر يغريه لقب الشيخ «مطوف» الأمر الذي يدفعه إلى احتراف هذه المهنة. إن من يبدأ بعمل الطوافة دون أن يكون مديناً لأحد، وتكون له اتصالات حسنة مع أبناء بلده، تجلب له مزيداً من الحجاج، يجني ربحاً وفيراً. غير أن سوء الإدارة، واقتراض الأموال بالدين تسبب اضطرابات مالية كثيرة لهؤلاء المطوفين.

المجاورة في مكة

إن هؤلاء المطوفين ومساعديهم الذين ينتمون إلى العناصر الجاوية، يسافرون مرة كل بضع سنين إلى الوطن الأم، ثم يعودون إلى مكة. ويكون هذا السفر في الغالب لإنجاز بعض المهمّات المرتبطة بالعمل. وأحياناً يكون من أجل حمل بعض الأقارب على التبرع وبذل المال. وأحياناً أخرى تكون الرحلة من أجل نشر بعض تعاليم الطرق الصوفية في تلك الربوع.

إن الموظفين المحالين على التقاعد، بالإضافة إلى بعض الموسرين، وملاكي الأراضي، يفضلون البقاء في مكة في أخريات أيامهم، من أجل العبادة. فهؤلاء يؤدون صلواتهم في الحرم المكي الشريف. ويقومون بأداء عدد من شعائر الحج والعمرة. ويستمعون إلى الدروس والمواعظ التي تلقى في المسجد، على الرغم من عدم فهم الكثير من محتواها. وقد ينتمي بعض هؤلاء إلى الطرق الصوفية، ويعتمد نفوذ هؤلاء على ما لديهم من ثروة يسخرون معظمها من أجل خدمة أبناء جاليتهم في مكة. إن تأثير هؤلاء في الحياة الروحية للآخرين يكون بطريقة غير مباشرة.

الجاوى مشهورون بطلب العلم

إن الفئة المميزة لدى الجالية الجاوية في مكة، هم المدرسون وطلاب العلم، فهؤلاء أكثر الناس تقديراً بين مواطنيهم، وهم يتمتعون بسمعة حسنة بين الفئات القادمة للحج. وهؤلاء هم الذين يراقبون نمو الحركة الدينية في

بلادهم. ولقد ارتفع عدد العلماء من الأصول الجاوية الذين يقومون بالتدريس في المسجد الحرام، وينال هؤلاء شهرة بالغة بين أفراد المجتمع المكي ذاته. وتوجد في الحقيقة في أرخبيل الملايو الهولندي فرص عظيمة للدراسات الإسلامية، إلا أن الفرد الجاوي لا يجسر أن يأتي إلى مكة إلا بصفته طالب علم. إن المناصب التي يتقلدها هؤلاء العلماء تشكل جزءًا مهمّاً من تاريخ المستوطنة الجاوية في مكة، وتكسبهم صفات عظيمة متميزة بين مواطنيهم، الذين يجلسون بين أيديهم في حلقات العلم، يحملقون في وميض المركز العالمي الذي وصلوا إليه.

إن الظروف التي يبدأ بها أفراد الجاوى حياتهم العلمية في مكة تتنوع تنوعاً كبيراً. فقد يرسل أحد الحكام أو مساعده أو الأمراء الآخرون أحد أبنائهم الكثيرين إلى مكة، ليكرس حياته للعلوم الدينية باسم الأسرة كلها. وفي العادة يتعهده أحد أبناء الجاوىٰ المتدينين المقيمين في مكة. وترسل العائلة لهذا الطالب جميع المستلزمات الضرورية لحياته. وبالإضافة إلى هؤلاء، هناك عدد من طلاب العلم، من صفوف أبناء الموظفين الصغار، الذين يفدون أيضاً بهدف طلب العلم. ولا يقتصر الأمر على هؤلاء فهناك الشباب الذين قدموا بصفتهم خدماً إلى العاصمة المقدسة. إذ يبدي بعضهم قدرة خاصة وكفاءة عالية في التعليم، فيتعهدهم بعض الأصدقاء الطيبين بالمساعدة المادية لمواجهة متطلبات الحياة. إن هناك الكثير من الشباب من الأصول الجاوية يفدون إلى مكة وليس لديهم من شيء سوى الاعتماد على الله سبحانه وتعالى. وليس لديهم من هدف سوى تجشم المصاعب لاقتحام العلم العربي. إن عدداً من هؤلاء يسيطر عليهم بادئ ذي بدء الحماس الشديد لنيل السمو الروحي، إلا أن ذلك لا يحرزه إلا القليل من هؤلاء. إن بعض من يفد إلى مكة من أفراد الجاوى يكون قد قطع شوطاً بعيداً في الدراسة في الوطن الأم، ممن تولدت لديهم الرغبة في السفر إلى مكة، حينما شعروا بعدم كفاية وسائل التعليم في بلادهم، كما أنهم سمعوا قصص الدارسين العائدين من مكة، بأن الثروة الروحية والتعليم ميسر لجميع الناس بدون استثناء.

إن أمثال هؤلاء الطلبة لا يجدون صعوبة في الحصول على متطلبات الحياة من الطعام والشراب. فهم يتلقون المساعدة لتغطية احتياجاتهم بوسائل وطرق متعدّدة. فهؤلاء يعدّون أنفسهم في غاية السعادة، إذا طلب منهم أحد العلماء العرب، أن يلتحقوا بخدمته. حيث تكون لديهم الفرصة المواتية للتعلم.

الأربطة

إلى جانب ذلك، هناك الكثير من البيوت الموقوفة لمجاوري الحرم. وهي مخصصة لمناطق معينة في الوطن الأم. ومن بين هذه الأوقاف (الأربطة) ما قد أحسن تأثيثه وخصص لسكن فريق من الآشيين. كما أن بعضه الآخر للقادمين من بانتن. وهناك أربطة أخرى مخصصة للقادمين من بونتياناك (بورنيو). إن هذه الأربطة يقوم بتأسيسها في العادة رجال أثرياء أدوا فريضة الحج. وهؤلاء يتولون أيضاً الإنفاق عليها، ويعينون الوكلاء عنهم لهذه الغاية، فعلى سبيل المثال هناك الرباط الذي أقامه سلطان بونتياناك لمواطنيه، قبل بضع سنوات، حينما قدم إلى مكة لأداء فريضة الحج. وهناك رباط آخر أقامه أحد المطوفين من تبرعات قدمها له حجاج منطقته. ويعمل هذا المطوف ناظراً لهذا الرباط، ويخصص جزءًا كبيراً منه لسكنه ولسكن أصدقائه. وبمثل هذه الطريقة أقيم رباط جميل للأفراد الآشيين، وهذا الرباط ليس بعيداً عن داري القريبة من سوق الليل. فلقد جمع أحد المطوفين في سنوات متعدّدة، تبرعات من أبناء وطنه القادمين إلى الحج، كما أنه قد سافر إلى هناك عدة مرات لهذا الغرض. وقد تجمع معه المال اللازم فأقام هذا الرباط. ويقوم الآن على إدارته والإشراف عليه. وهو يسكن الآن في الطابق الأسفل من الرباط، ويشغل زوج ابنته جزءًا من الطابق الثاني. وما تبقى من الغرف الأخرى في الرباط، يسكنها فقراء آشية، الذين يتعهدهم بما تبقى لديه من أموال هذا الرباط، غير أنه يستغل بعضهم في أداء بعض الخدمات له. ولا يتردد أحياناً في إسكان بعض الأشخاص من غير مواطني آشية، نظير بعض الهدايا التي يقدمونها له. على أي حال فإن هذه المؤسسة الخيرية تعود بالنفع على أبناء منطقة آشية، على الرغم من استغلال هذا المطوف لها. إن المؤسسات الخيرية التي يقيمها أبناء جزر الهند الشرقية تساعد في راحة السكان، خلال المدة القصيرة التي

يقضونها في مكة. والخلاصة أن الدارسين في مكة من هذه الديار، لا يجدون مشقة في الحصول على السكن، وشيء من الطعام، في أي وقت من الأوقات.

علماء الجاوى يعودون مدرسين إلى بلادهم

إن أفراد الجاوى الذين حصلوا على مراتب علمية عالية، تنهال عليهم الأعطيات من مواطنيهم. أما الذين لا يصلون إلى مثل هذه المراتب فيعملون بصفتهم مرشدين وأدلاء للحجاج. وفي غالب الأحيان يعود هؤلاء إلى بلادهم، حيث ينالون أجراً عالياً؛ لأن المدرسين أمثالهم قليلون في الوطن الأم. وبعض هؤلاء يعملون أئمة مساجد ومدرسين في المدارس الكثيرة التي تقوم بتعليم مبادئ الشريعة الإسلامية. وفي العادة يقوم هؤلاء بالإشراف على الأوقاف التابعة لهذه المساجد أو المدارس، فينالهم شيء من الزكاة. كما يقوم هؤلاء بعمل إجراءات عقود النكاح، مما يعود عليهم ببعض الفائدة. ناهيك عن الهدايا التي يقدمها التلاميذ لهؤلاء، وكذلك بعض الخدمات التي يقدمها لهم بعض أفراد المجتمع، عند حرث حقول الأوقاف وزراعتها. ومن الجدير بالذكر أن المدرس القادم من مكة يأتيه التلاميذ وطلاب العلم من المناطق القاصية والدانية ليأخذوا العلم على يديه.

يتجمع في المدينة المقدسة آلاف من أفراد الجاوى، قدموا من مختلف مناطق إندونيسية. وقد ارتبط هؤلاء بشعور وروابط مشتركة زادتها الأيام رسوخاً، الأمر الذي نجم عنه شعور قوي بوحدة هؤلاء الدينية. ولا شك أن ذلك لا يمكن رؤيته بين صفوف الحجاج القادمين لفترة وجيزة، بل يتجلى بوضوح في المستوطنة الجاوية في المدينة المقدسة. إن قوة الإسلام في أي منطقة من مناطق جزر الهند الشرقية يمكن قياسها عن طريق عدد المقيمين من هذه المنطقة في مكة، بالإضافة إلى القوة التي يتمتع بها هؤلاء. وإن المرء من خلال وجوده في مكة يستطيع أن يرسم خريطة لانتشار الإسلام ومدى نفوذه في مختلف مناطق أرخبيل جزر الهند الشرقية. وعلى أي حال فقد تكون هذه الخريطة دقيقة نسبياً بالنسبة لطلاب العلم، الذين يشكلون جانباً واحداً من جوانب الحضارة الروحية في أرخبيل الملايو. هذا وإن كنا نجد في الملايو بعض الوطنيين المتميزين، الذين يعدُّون أنفسهم منخرطين في الحياة الدينية، إلا أننا لا نجد أثراً

للعناصر الوثنية سواء من الوطنيين أو الذين ينتمون إلى الأصول الهندية. فمثل هذه الأواصر قد انقطعت صلة السكان بها.

إن بعض مظاهر الوثنية لا تزال موجودة في الكثير من بقاع العالم الإسلامي، على الرغم من أن الإسلام قد وضع الأسس الثابتة، لتغيير شروط الحياة، بموجب المعايير التي وضعها. إن أقطاراً إسلامية قد دخلها الإسلام قبل جاوة بثمانية أو تسعة قرون، ولا تزال فيها بعض الخرافات المنتشرة، بصورة ليست بأقل مما هي عليه في أرخبيل الملايو. فكثير من الأعياد الوثنية يحتفل بها تحت أسماء جديدة، وعندما يستعرض الإنسان كيفية دخول الإسلام إلى هذه المناطق، وأنه دخل تدريجياً وبدون قوة السلاح، من خلال إصلاحات داخلية محلية، يشعر المرء بالنجاح العظيم لهذا الدين، الذي غطى بدخوله هذه البلاد على أعظم الانتصارات الحربية في هذا الشأن.

إن انتشار التعاليم الإسلامية بين صفوف الجاوى القدماء، لم ينجم عنه ردود فعل مضادة، إذ لم تتكون فرق دينية من المعتقدات السابقة لوجود الإسلام، على الرغم من أن الحضارة التي كانت سائدة قبل وجود الإسلام، لا يمكن التقليل من شأنها. وأن الفرقة الدينية التي وجدت في هذه الديار كانت نتيجة لوجود بعض دعاة الشيعة، وقد زالت نهائياً بانتشار المذهب السني وسيادته فيما بعد.

ويمكننا القول: إن هناك بعض شواهد الماضي من الحضارات التي سبقت الإسلام، تؤكد حقيقة تاريخية، هي أن الناس لا يمكن أن يتحولوا جميعاً بين يوم وليلة إلى فكرة جديدة، مهما كانت قوية. إن الأعراف والعادات التي حرّمها الإسلام تستهجنها الطبقات المتعلمة، التي ارتبطت بالحضارة الأوروبية. إن هذه الطبقات المثقفة بالثقافة الغربية لم تقطع صلاتها نهائياً مع شعوبها، فما زال لها بعض الارتباط. غير أن أولئك الأشخاص الذين استطاعوا أن ينهوا الاعتقادات الوثنية السابقة من هذه الديار ينظر إليهم على أنهم هم السادة والقادة لشعوبهم. وفي بلاد الجاوى لا بدّ أن تكون كل

حركة روحية هي حركة إسلامية. وأن كل عداء يظهره الناس للأوروبيين أو كل عصيان مسلح ضدهم، لا بدّ أن يرفع راية الدين الإسلامي. وأن كل برنامج شعبي في المستقبل يستقى من منابع الإيمان بالغيب ويتخذ شعاراته وتوجيهاته من العلماء ورجال الدين.

لقد أفضت في ذكر بعض الحقائق والتفصيلات لإظهار أهمية المستوطنة الجاوية في مكة، ومدى تأثيرها في البلاد الجاوية نفسها. وإذا أردنا معرفة حياة الناس عن قرب لا يكفي لنا دراسة الماضي التاريخي. هذا الماضي التاريخي الذي ينكر على أولئك الذين ارتفعوا من الحضيض إلى القمة، وهم غارقون في أوحال الرذيلة. غير أن الحقيقة تشهد بارتفاع هؤلاء إلى تلك المراتب العليا على الرغم مما هم فيه. وسوف لا نعير بالاً لتفصيلات الحوادث بقدر ما نوجه اهتمامنا إلى الهدف الذي يسير التطور باتجاهه. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: ماذا يريد أهل الجاوى أن يكونوا؟ وليس ماذا كانوا. إن ثبات انتشار الإسلام فوق كافة ربوع جزر الهند الشرقية، يجب أن يكون درساً حتى لأكثر الناس جهالة. وفي البلاد التي اعتنق أهلها الإسلام أصبح العلماء ومشايخ الطرق الصوفية على سبيل المثال هم القدوة، وأصبحت الحياة الروحية هي الغالبة لدى سكان الجاوى[١].

إن هذا الانتعاش الروحي الذي تلقاه سكان الجاوى بطرق طويلة أو قصيرة مصدره مكة. وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على وصول هذه المؤثرات إلى بلاد الجاوى. ففي مكة يعيش بعض هؤلاء، ممن ألقوا بأنفسهم في منبع الحياة الإسلامية، ليتطهروا ويكتسبوا قوة في ربوعها. وإذا عرفنا أن الاتصالات قوية ونشطة بين مكة والوطن الأم، فهناك الاتصال المستمر بين الأساتذة الواعين في مكة، وتلاميذهم الجدد القادمين من الوطن الأم. ذلك الاتصال الذي يزيد من مشاركة السكان الوطنيين، الذين

---

(١) يعزو المؤلف من خلال جملة اعتراضية سبب كون العلماء هم القدوة إلى جهل الناس من ناحية وإلى أساليب التضليل التي يستخدمها هؤلاء العلماء مع الشعب من ناحية أخرى. وهذا حقد بارز على الإسلام. إذ ليس لدى المؤلف الجرأة على القول: إن عظمة الإسلام هي التي فرضت نفسها على معتنقيه.

يأتمرون بأوامر قادتهم الموجودين في مكة. يمكننا أن ندرك مدى هذا التأثير من خلال الكتيبات اليدوية المستعملة في المدارس الإسلامية في جاوة وسومطرة وبورنيو. وفي الغالب تحل المؤلفات الأدبية الجديدة التي ألفت في مكة محل المؤلفات المكية القديمة في المدارس الإسلامية في جزر الهند الشرقية عند صدورها. وتأتي الكتب القادمة من مكة في مقدمة الحاجات المستوردة، الواردة إلى بلاد الجاوى، وهذه الكتب يقوم على تأليفها إما علماء جاويون استقروا في مكة، أو علماء مكيون يحظون بتقدير سكان الهند الشرقية واهتمامهم. وهناك الكثير من الأمور الفقهية التي يستفتي فيها السكان المحليون مفتي الشافعية في مكة. غير أن بعضهم الآخر قد يطلبون الفتوى من علماء آخرين غير المفتي، لاعتقادهم أن الفتوى تعتمد على سعة العلم والمعرفة وليس على المركز الرسمي[١].

أبناء لامبونج في مكة

إن المستوطنة الجاوية في مكة تمثل مستقبل الشعوب المختلفة التي قدم منها هؤلاء. وهذه المستوطنة هي في نماء وزيادة. ونجد أن مختلف فئاتها كل يعمل بطريقته الخاصة للإسراع في عملية التطور والنماء الذي ينتظر السكان في المستقبل.

فعلى سبيل المثال لقد أخبرني شيخ من لامبونج (جنوب سومطرة) عاش خمساً وعشرين سنة في مكة القصة التالية، التي تبدو حقيقية في سماتها الأساسية، على الرغم من أن بعض تفصيلاتها الخاصة بالوطن الأم بحاجة إلى تصحيح؛ نظراً لأنها حدثت منذ فترة طويلة في بلاده، التي لم يزرها منذ أمد ليس باليسير، فقد دخل الإسلام بلاده منذ فترة طويلة، غير أنه لم تكن

---

(١) لقد انتشرت الأخبار في جزيرة جاوة عن منع استعمال القناديل الكاز في المسجد الحرام. وقد أدى ذلك إلى عدة استفسارات رفعت إلى مفتي الشافعية للسؤال عن مدى إمكانية استعمال هذه القناديل في مساجد جزيرة جاوه. ولقد كان الجواب بعدم منعها في المساجد في الجزيرة المذكورة. وسبب المنع في مكة، كان نتيجة لكثرة هذه القناديل التي يحضرها الطلاب في أثناء قدومهم للمسجد، الأمر الذي يسبب روائح كريهة منتنة في المسجد، مما دعا إلى منعها. ولم يكن سبب المنع هو الخوف من الحرائق، وإنما مبعثه هذه الروائح الفاسدة (المؤلف).

هناك مظاهر قوية للحياة الدينية. وكانت أسرته تمثل إحدى الأسر ذات الشأن الكبير في المنطقة. فهي تنحدر من سلاطين بانتن Banten القدماء. وعلى الرغم من الأسباب الأخرى المتعددة، إلا أنه يعزو استعادة أسرته لمقاليد الحكم خلال الخمسين سنة الأخيرة إلى وقوف أبناء هذه الأسرة مع الحكومة الهولندية في حروبها مع البالمبانج Palembang وتشكيلها لحكومتهم في مقاطعة لامبونج Lampong.

لقد كان الحج أيام شباب هذا الرجل أمراً نادراً جداً. وقد كان أخوه الأكبر من أوائل من أدى فريضة الحج. ولقد أثار الطموح وشهوة التجوال الرغبة لدى شيخنا بأداء فريضة الحج. وذكر أن السلطات التي في الغالب ما تؤخر مثل هذه الأعمال قد أخرت الموافقة على إجراءات سفره سنة على الأقل، ولكنه حصل على مراده ووصل إلى مكة، واستقر بها ولم يغادرها ثانية. فقد أكمل دراسته المألوفة ثم ساعده خطيب سامباس[١] Sambas المبجل في الالتحاق بالطريقة القادرية. وقد حصل أخيراً على تقرير بممارسة أعمال الطوافة. ويعيش في بيته بعض الأشخاص من أبناء بلده. ومنهم امرأته الأولى التي قضت معه أحسن أيامها. وقد تزوج الشيخ من امرأة أخرى هي ابنة الشيخ المنشاوي الذي تقدم ذكره.

لقد كان شيخنا أول مطوفي بني قومه، الذين كانوا في السابق يشتركون مع البنقول في مطوف واحد. وهو يعمل بنشاط في المراسلات والاتصالات والوسائل الأخرى ليزيد من أعداد الوافدين إلى الحج من منطقته لامبونج. غير أنه الآن فقد السيطرة الكاملة على أبناء جلدته، إذ يشاركه الآن ثلاثة مطوفين بأسرهم ومساعديهم في الإشراف على شؤون حجاج لامبونج. فمطوفو هذه المنطقة هم أربعة: هو وشخص آخر من لامبونج واثنان آخران من مكة. وإن معظم من يساعده في إدارة أمور

(١) هو الشيخ أحمد خطيب سامباس، ويعرفه المكيون باسم أحمد خطيب الجاوه سنبس.وهو شيخ الجاوة الشافعي، نزيل مكة المكرمة، قدم إليها صغيراً، وقرأ على مشايخ عصره، ودرس في المسجد الحرام. وما زال مشتغلاً بالتدريس والاستفادة إلى أن مات. وكانت وفاته بمكة في نيف وثمانين ومائتين وألف (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٥٣).

الطوافة هم من أبناء لامبونج، أو من جزر الملايو عموماً. ويعيش في مكة الآن الكثير من أبناء لامبونج وقد درس عدد من هؤلاء الشرع الإسلامي بنجاح كبير. ونظراً لما تحظى به مقاطعة لامبونج من زعامة دينية، ونظراً لوجود طلاب العلم منها بكثرة، فقد ازداد عدد أبناء هذه المنطقة في مكة زيادة كبيرة خلال الثلاثين عاماً الأخيرة.

لقد كانت الحركات الإسلامية التي تجتاح العالم الإسلامي ذات تأثير كبير في شيخنا وأبناء قومه من لامبونج المقيمين في مكة؛ فقد كان يغمر هؤلاء الأمل في نجاحها. وقد أقيمت الصلوات إبان الحرب التركية ـ الروسية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) في منزل شيخنا لنصرة الإسلام، كما أنه كان أكثر المسهمين بالتبرعات لهذه الحرب. وفي بلده الأصلي لامبونج لم تكن الحركة الإسلامية تسير بقوة وحماس. وعلى الرغم من وجود المعارضين للحكم الأجنبي الأوروبي في بلاده لكن أسرته لم تكن على وفاق مع هؤلاء المعارضين. وكثيراً ما كان شيخنا يفكر ملياً كيف كانت الأمور ستسير لو لم يرحب السكان بالوجود الهولندي على أرضهم. وكيف لو أن السكان المحليين تخلصوا من النزاعات الصغيرة، واستجابوا لنداء الحرب المقدسة لنصرة الإسلام. وكيف لو اتحد سكان الجاوي تحت إمرة سلطان بانتن أو بالمبانج أو حتى سلطان آتشي، وتعاونوا لإخراج الغازي، لتكونت إمبراطورية كبيرة للمسلمين، يمكن أن تنضم إليها مناطق أخرى كثيرة.

غير أن هذه المشاعر تتغير حينما تصله بعض الرسائل من الوطن الأم، وخاصة من قريب له كان يعمل حاكماً إدارياً في إحدى المناطق. فقد كان الأخير يخبره عن التغيرات الإدارية المستمرة، كما يخبره عن الصلات الطيبة التي تربطه بالحاكم المفوض. وقد أرسل له مرة صورة وسام حصل عليه من الحكومة الهولندية نظير خدمات عظيمة استحق عليها المكافأة. لقد كانت هذه الرسائل مما يثير حفيظة الشيخ، غير أنها لا تجعل منه شديد الكره لقريبه هذا، على النحو الذي يكن فيه الكره لأحد أقربائه الآخرين، الذين سقطوا في حربهم مع الهولنديين ضد البالمبانج، فقد كان يصف القتيل بأنه (شهيد الشيطان)!!

وفي إحدى المرات تفجر الموقف بين شيخنا وقريبه الحاكم الإداري، فقد ذكر الحاكم الإداري في إحدى رسائله أن الهولنديين يسيرون من هزيمة إلى هزيمة في آتشي، بسبب صعوبات المناخ من ناحية، وبسبب خداع الآتشيين ومكرهم من ناحية أخرى. إن شعوره بالعزة فرض عليه التحرك في مثل هذا الظرف القاسي، فاقترح على الحاكم العام الهولندي (اللورد الأعظم) بواسطة رئيسه المباشر أن يخوض المعركة مع ٣٠٠ نفر من اللامبونجيين المدربين، ولهذا طلب ٣٠٠ بندقية لهذا الغرض من الحكومة الهولندية. غير أنه طلب من شيخنا المقيم في مكة أن يشتري له سيفاً إستنبولياً، ويغمسه بماء زمزم، وأن يدعو له بعض الأدعية في الحرم، لعل الله يجعله سيف نصر مؤزر. إن جواب الشيخ على رسالة الحاكم الإداري كان كالقنبلة الملقاة على بيته، فبدلاً من أن يبدأ رسالته بصيغة السلام المعروفة (السلام عليكم) بدأها بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه، الآية: ٤٧]. وهذه الآية تقال في المواضع التي يشك فيها مرسل الرسالة بصحة عقيدة المرسل إليه وإيمانه، ثم أتبع ذلك بشرح عن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وكيف أن غير المسلمين يجب أن يكونوا خاضعين لسلطان المسلمين، وبيَّن كيف أن المسلم إذا ترك أرضه للعدو دون أن يحاربه يكون مخالفاً لتعاليم الله سبحانه وتعالى، كما بين الأوضاع السيئة التي حلت بأراضي الجاوى، وأن سبب ذلك هو البعد عن تعاليم الدين الحنيف. وأنه كلما كان إيمان هؤلاء قوياً كانت لهم القوة والمنعة والوحدة، الأمر الذي يوصلهم إلى بناء إمبراطورية جاوية مسلمة، بدلاً من هذه الدولة الكافرة القائمة حالياً. ومنذ أن سمع شيخنا من قريبه الجاوي هذه الأنباء، نذر نفسه أن يدعو كل يوم أمام الكعبة، بأن يخذل هؤلاء الخونة، ويترك جثثهم عارية على تراب آتشي. هذا ما سمعته من الشيخ، بيد أنني قرأت الرسالة التي بعث بها الحاكم الإداري لقريبه الشيخ، وفيها يعترف بخطئه ويعتذر عن ذلك، بعدم معرفته بالأمور الدينية. ولقد وجد الوسيلة التي اعتذر بها للسلطات عن عدم قيامه بالمهمة المذكورة،

وأنه سوف يدعو الله لنصره المسلمين دائماً، ومن هنا نرى أن الحج عبارة عن قناة تجري فيها تيارات الحياة الإسلامية إلى أراضي الجاوى.

من خلال اختلاطي بعدد من أهالي لامبونج الذين قدموا إلى مكة، بقصد أداء فريضة الحج، أستطيع أن أقول: إن الفرد من هؤلاء يتلقى تدريبات كاملة في الفروع الثلاثة للطرق الصوفية، على الرغم من أن هذه المراكز العلمية، لا توجد كما هي موجودة في مرتفعات بادانج في بالمبانج وآتشة. وعلى العموم فإن العناصر المثقفة في المستوطنة الجاوية في مكة تؤدي دوراً كبيراً، أكثر من الأفراد الذين هم على شاكلة المطوف اللامبونجي المذكور آنفاً. وإذا أردت بسط هذا الموضوع بالشرح والتفصيل سأجدني مضطراً لأن أعيد ما سبق وذكرته بكلمات مختلفة لها المعنى نفسه. إن وظيفة أفراد الطبقة المثقفة ونشاطهم لا تختلف كثيراً بين عالم وآخر، إلا في بعض التفصيلات غير المهمة. ولهذا فسنقصر حديثنا على بعض العلماء البارزين، ونتعرف على آرائهم وآراء أصدقائهم وتلاميذهم حول ماضيهم وأنماط حياتهم.

علماء الجاوى من بتافيا

إن أكبر علماء الجاوى وأكبرهم سناً هو العالم (جنيد)[١] وقد قدم من بتافيا قبل خمسين سنة، لم يعد بعدها إلى الوطن الأم، وفي خلال هذه السنين الحافلة اشتغل بالعلوم والدراسات المتعمقة. ولقد كان من أساتذته المفتي (جمال)[٢] الذي لا يعرفه أبناء هذا الجيل إلا باسمه الأول. ومن الأشخاص المشهورين الذين ينتمون إلى الأصول الجاوية (الخطيب سامباس) من بورنيو، الذي يقدره الناس كثيراً لدرجة أنهم يضيفون كلمة المبجل قبل التفوه بذكر اسمه. وهو ضليع بمختلف العلوم، كما أنه شيخ طريقة. ولقد أسهم في إدخال عدد من أبناء الجاوى في الطريقة القادرية

---

(١) لم نجد فيما لدينا من مراجع ترجمة لحياته (المترجم).

(٢) هو جمال بن عبدالله بن شيخ عمر الحنفي المكي، مفتي بلد الله الحرام. كان شيخ العلماء ومرجع الفقهاء، ثم أضيف إليه أعمال الفتوى. وكانت وفاته سنة ١٢٨٤هـ، وقد خلفه في الفتوى الشيخ عبد الرحمن سراج كما خلفه في مشيخة العلماء.

التي ينتمي إليها. ومن هؤلاء أيضاً عبدالغني بيما[١] من سمباوا والذي كان أحد الأتقياء جداً. وكذلك إسماعيل مينانج كابو (منيكابو)[٢] من سومطرة، الذي كان شديد التعصب عاطفياً ومتعلماً إلى حد ما، وكان شديد الاهتمام بآراء مواطنيه المتنوعة، وهناك غيرهم كثير ممن هم أقل شهرة ممن قدموا إلى مكة منذ وقت قديم. إن الجنيد ما يزال على قيد الحياة، كما أنه يشارك في المناسبات العائلية والدينية، حيث يعهد إليه في الغالب بتسمية الأطفال الذين ينتمون إلى الأصول الجاوية، كما أنه يتولى أمر الدعاء في نهاية قراءة القرآن، أو يتولى القيام بالذكر، على الرغم من أن صوته أصبح غير واضح، نظراً لكبر سنه، وسقوط معظم أسنانه. وفي الأيام الأولى كان يدرس القواعد العربية والفقه في بيته للطلاب القادمين من بتافيا ومن مناطق الجاوى الأخرى، ولا سيما القادمين من بالي وسمباوا الذين يستعملون لغة الملايو في التدريس، ولقد كان الجنيد حريصاً على تعليم طلابه قراءة الكتب العربية بأسرع وقت ممكن؛ لأن اللغة البتافية كانت أداة ثقيلة في التعليم. وكان يلقي دروسه في كافة المعارف، إما في بيته أو في الحرم الشريف. وقد كان من بين طلابه شبان الجاوى، الذين كانوا يستخدمون لهجات أخرى غير الملاوية والذين قطعوا شوطاً أكبر في دراستهم وتعلمهم. إن الشهرة العظيمة التي كان يتمتع بها هذا العالم، دعت السلطة إلى أن يدرج اسمه في قائمة المنتفعين من جراية القمح السنوية، التي تمنح لمدرسي الحرم المكي. وقد أجبر على اعتزال التدريس منذ عدة سنوات، وقد حل في منصبه من هم أقل منه كفاءة.

---

(١) عبدالغني بيما الجاوي: نزيل البلد الحرام، قدم مكة صغيراً، وقرأ على مشايخها، وانتفع بهم، ودرس بالمسجد الحرام، وتخرج عليه أكثر علماء الجاوى، توفي بمكة عام ١٢٧٠هـ ودفن بالمعلاة (نشر النور والزهر ج١ ص٢١٧ ـ ٢١٨).

(٢) هو إسماعيل منكابو، الخالدي الشافعي، ولد ببلده، وقدم مع والده مكة، ونشأ بها، وقرأ على مشايخ الحرم، وكان مواظباً على التدريس والإفادة، صالحاً ناسكاً، ملازماً للعبادة، وتلاوة القرآن، توفي بمكة في نيف وثمانين ومائتين وألف (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٩٥).

لقد أنجب الجنيد ولدين من زوجة مصرية، هما سعيد وأسعد، وقد غنما قسطاً وافر من الدراسات العربية. فدرسا عناصر العلوم إلى جانب والدهما. كما أخذا العلم عمن عاصر والدهما من عناصر الجاوى، مثل السيد عبدالغني بيما. وقد درسا أيضاً في وقت لاحق على أيدي أساتذة من المذهب الشافعي، مثل مصطفى عفيفي وأحمد دحلان والمرحوم مداح[1] والنحراوي[2]. وهؤلاء جميعاً كانت محاضراتهم تلقى عناية من الطلبة الجاويين. لقد خلف سعيد وأسعد أباهما في التدريس حينما خلد إلى الراحة. وقد توفي سعيد منذ بضع سنوات عن عمر يقارب الخامسة والأربعين، بينما لا يزال أسعد، الذي جاوز الأربعين عاماً، يدرس أبناء قومه من بتافيا ومن المناطق الأخرى. ولا يزال أكثر علماء الجاوى وأعلاهم مرتبة يقبلون يد شيخهم الأكبر الجنيد ويعدُّونه أستاذهم الأعظم.

لقد تزوجت ابنة الجنيد من أحد علماء بتافيا المدعو مجتبى، والذي قضى ما يزيد على نصف عمره في مكة. لقد بدأ مجتبى دراساته الشرعية قبل قدومه إلى الحج أول مرة. ويتكلم لهجة ملاوية أفضل وألطف وينقطها بمهارة تفوق حماه. وبعد أن تبحر في دراساته على يد الجنيد والأساتذة العرب من أمثال النحراوي، ومداح وحسب الله بدأ التدريس في مكة، غير أنه لا يزال يتحين الفرص لسماع أساتذته القدامى. ولقد كان لديه الكثير من طلاب العلم. وكان أصدقاؤه وأقرباؤه يرسلون إليه عائدات أملاكه في الوطن الأم، الأمر الذي وفر له دخلاً كبيراً. ولم تكن هذه الحياة الهادئة لترضيه بشكل دائم فكان كثير الهجرة والترحال كغيره من أبناء الجالية الجاوية. فقد كان يترك الجنيد ليقوم بشأن ابنته، ليزور زوجتيه الأخريين في بتافيا، حيث يمضي

---

(١) هو علي بن محمد المداح المصري الشافعي نزيل مكة المشرفة، قرأ العلوم بالجامع الأزهر، ثم قدم مكة وجاور بها، ومكث يدرس بالمسجد الحرام، كان كثير العبادة ملازماً على القيام والطواف والصيام. توفي عام ١٢٧٧هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٣٢٤).

(٢) هو السيد أحمد عبدالرحمن بن أحمد الشافعي المكي الشهير بالنحراوي، طلب العلم بمصر وأجازوه في التدريس، ثم جاء للحج وجاور بمكة، وقد تخرج على يديه الكثير من العلماء، توفي بمكة سنة ١٢٩١ هـ ودفن بالمعلاة (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٨٥).

سنة أو نحوها يشرف على تصريف أموره هناك، ويبيع بعض الكتب التي أحضرها من مكة، ويكرس ما تبقى من وقته في تعليم أبناء قومه الراغبين في طلب العلم.

لقد كان مسلكه في علاقاته الاجتماعية متواضعاً ورفيع المستوى. فقد كان يتردد لحظة قبل إجابته عن أي سؤال ثم يتقدم بجوابه، إما بلهجة ملاوية لطيفة، أو لغة عربية جميلة، آخذاً بعين الاعتبار اللغة التي يعرضها السائل. ولم يكن ليرفض طلباً قط، ولم يصحح رأياً لأحد.

لذا كانت أخلاقه الرفيعة تبهر أبناء جلدته، الذين كانوا شديدي التأثر به. غير أن رحلاته المتكررة وبعده عن مكة لم تسمح له بأن يحتل مركز الصدارة بين رجال العلم من أبناء الجاوي، ومع ذلك فقد كان شخصية شعبية مألوفة ومحبوبة من أبناء وطنه.

المناطق اللغوية في جزر الهند الشرقية

لنترك منطقة بتافيا، ونوجه أنظارنا إلى الجزء الغربي من جزيرة جاوة (منطقة الصوند اللغوية (Sundenes Linguistic Area) فهذه المنطقة لا نظير لها بين سكان جزر الهند الشرقية. في عدد الوافدين من الحجاج أو طلاب العلم إلى مكة. لقد وجد الإسلام عند بدء انتشاره في غرب جزيرة جاوة ظروفاً أكثر سهولة مما هو الحال في الأجزاء الوسطى والشرقية، فلم يصطدم هنا بالتقاليد، عميقة التأثير في نفوس الناس. لذا نجد أن أعظم رجالات العلوم الشرعية قد برزوا من سلطنة بانتن Banten غير أن بريانجان (Priangan (Vulgo: Preanger تعد أكثر المناطق تزويداً لمكة بالحجاج أو طلاب العلم.

إن لغة الصوندا لم ترتق إلى مستوى رفيع، تكون معه لغة الحضارة الإسلامية. ويمكن القول: إن اللغة الملاوية واللغة الجاوية هما الممثلتان للغة هذه الحضارة، يأتي بعدهما وعلى نطاق أضيق اللغة المادروسية Madurese واللغة المكاسارية Makasarish والبوغينيزية Buginese. وفي اللغتين الأوليين نجد الكثير من التعابير العربية المترجمة، وكذلك الكثير من المصنفات والتفسيرات والمؤلفات الدينية، مكتوبة بلهجة محلية مستقلة عن

العربية، بأسلوب طلي وناجح. أما اللغات الثلاث الأخرى فقد اكتست بحلة الإسلام بدرجة أقل من اللغتين الأوليين. لهذا كان يتوجب على أبناء هذه اللغات، إذا أرادوا طلب العلم، ولم يستطيعوا تعلم اللغة العربية، أن يتعلموا إحدى اللغتين السابقتين، وهما الجاوية والملاوية. إن لغة الصوندا ليس لها قيمة علمية كبيرة، وكذلك اللغة الأتشية واللامبونجية. وإن طلاب العلم في هذه المناطق لا يتعلمون بلغتهم الوطنية وإنما بلغة أجنبية. غير أنه يتوفر للمبتدئين منهم مذكرات قصيرة أو ترجمات صغيرة بلغتهم الأم، يقوم بإملائها مدرسون محليون من المنطقة نفسها.

إن الكثير ممن يتكلمون لغة صوندا لا بدّ لهم من تعلم لغة جاوة، إذا أرادوا طلب العلم. أما الآخرون من الأتشين واللامبونجيين والسمباوا فيتعلمون الملاوية، وهذا الخيار لا يقتصر على الوطن الأم، بل هو موجود في مكة أيضاً.

والاختلاف الرئيس بين طريقة المكيين والوطنيين في أساليب التدريس، هو أنهم في مكة يستخدمون اللغة الجاوية أو الملاوية، بشكل دائم على أنها وسيلة لإطلاع الدارسين على اللغة العربية، ولا سيما مبادئ القواعد، وبذلك يمكن لهم عبور هذا الجسر إلى الدراسة الفعلية لكتب اللغة العربية في موضوعات الفقه والعقيدة وغيرها. وتستعمل اللغة الوطنية لتفسير هذه الكتب وتوضيحها، حتى إذا ما اتقنت العربية بدا أن هذه اللغات ضحلة ولا تفي بالغرض.

أما في بلاد الجاوى فتستخدم الكتب المكتوبة باللغة الجاوية أو الملاوية، وفي بعض الأحيان يبدأ التحضير للدراسة باللغة العربية منذ وقت مبكر، من خلال تهيئة قصيرة للطالب في هذا المجال. وهناك مناطق محدودة مثل سامارانج Samarang وسورابايا Surabaya والمناطق الداخلية الأخرى، يقوم فيها المدرسون المتخرجون من مدارس عربية في مكة بتطبيق النمط المكي في التدريس. وينتشر هذا النمط في المناطق العليا من جزيرة جاوة الغربية، ويحل بالتدريج محل النمط الجاوي القديم.

قد يبدو غريباً أول وهلة تدريس اللغة العربية قبل أن تكون لدى الطلاب فكرة مسبقة عنها. غير أن هذا النمط من التدريس عملي جداً في ضوء متطلبات الدراسة المفروضة على الطلاب في مدارس جزيرة جاوة. فالطلبة في مكة يعانون مشكلات لا حصر لها في فهم تصريف الأفعال واستيعاب قواعد اللغة العربية؛ لأنه بدون ذلك لا يمكن فهم كتب الفقه وتحليلها. فعند تصريف فعل من الأفعال في اللغة العربية لا بدّ أن يكتب الطالب ترجمة هذا التصريف باللغة الجاوية أو الملاوية ليتمكن من فهمه، وبعد أن يستظهر الطالب صيغ الأفعال المختلفة، يقوم بتطبيق ذلك، حيث يبدأ بتعلم إعراب الكلمات المختلفة والجمل، من خلال كتاب في القواعد، ولا بد من الاستعانة هنا أيضاً بالترجمة إلى اللغة الأم، لفهم محتوى هذه الجمل، وإذا كان الطالب لا يجيد لغة الملايو أو اللغة الجاوية فعليه أن يترجم أيضاً هذه المصطلحات إلى لغته الخاصة ليفهم الملاوية أو الجاوية أولاً، ومن ثم يفهم اللغة العربية. وبعد أن ينهي الطالب مبادئ اللغة العربية، يتناول كتاباً في الفقه بالطريقة نفسها. وحينما لا يفهم الطالب بعض الموضوعات لا بد له من ترجمتها إلى إحدى لغتي الإسلام في بلاد الجاوى وهما اللغة الملاوية أو اللغة الجاوية.

إن مفردات اللغة العربية تكتسب تدريجياً من خلال القراءة بإرشاد المدرس وتوجيهها. وهناك ميزة يمتاز بها الدارسون في مكة عن زملائهم الدارسين في الوطن الأم، هي أن لغة الحياة اليومية، التي يكتسبها المقيمون في مكة، لا يمكن أن يعوضها شيء آخر، حتى لو كان الدارس في الوطن الأم يتعلم العربية من خلال مدرس عربي، أو من خلال مدرس يعرف العربية.

لو افترضنا أن الدراسة في المدارس الموجودة في الأراضي الجاوية بدأت كما تبدأ الدراسة بمكة من خلال كتب القواعد وتصريف الأفعال، فإن حماس الكثيرين من طلاب العلم سيخف، وسيغادر الطلبة المدارس، دون أن يتعلموا شيئاً من العلوم الشرعية. والأسلوب المتبع مع هؤلاء المبتدئين هو إعطاؤهم مع مبادئ اللغة العربية شيئاً من مبادئ الفقه والعقيدة، ويقوم المدرس بتفسير هذه النصوص، فيكتب الدارسون التفسير بين سطور النص، علماً بأن كثيراً من

العبارات المستعملة معروفة لدى جمهور الناس. والحقيقة أن ضبط الكتابة والقراءة السليمة أمر متعذر في كثير من الأحيان. وعلى الرغم من أن هذه الطريقة مرهقة في التعليم، إلا أن المرء ليصاب بالذهول أحياناً من النجاح الذي يحرزه بعض الطلبة في هذا المجال. لقد شاهدت في مكة طلاباً من بونوروقو Ponorogo وباشيتان Patjitan درسوا كتب الفقه بالطريقة المذكورة سابقاً، يترجمون بطلاقة تامة ودقة، وبصورة تشابه زملاءهم من سامارانج وسوارابايا الذين درسوا بالطريقة العربية. والفرق الوحيد هو أن هؤلاء لا يجيدون القراءة بالعربية، ولا يعرفون مواضع الكلمات وصيغتها في الجملة، غير أنهم يعطون المعنى العام بصورة دقيقة.

إن جميع مدرسي الجاوى في مكة يدرسون بالطريقة العربية، غير أنهم يأخذون بعين الاعتبار طرق التدريس السائدة في الوطن الأم. فيبدؤون مع بعض الطلبة منذ البدايات الأولى، ومع آخرين يضطرون إلى مراجعة ما لديهم من معلومات سابقة، ثم بعد ذلك يقومون بتدريسهم أساليب اللغة المختلفة المذكورة سابقاً، ويقوم بعض المدرسين بفصل الطلبة المتقدمين، وهؤلاء في الغالب هم الطلبة الذين بدؤوا دراساتهم في مكة المكرمة، والواقع أنه لا ضير من سماع المحاضرات من قبل طلبة ذوي مستويات متباينة، لأن الطلبة يساعد بعضهم بعضاً، فالقوي يساعد الضعيف، وما ينقص عند بعضهم يكمله بعضهم الآخر. وفي بعض الأحيان فإن مدة الدراسة التي يقضيها المتعلمون بهذه الطريقة تختلف بين شخص وآخر، فبعضهم قد يستغرق في مرحلة دراسية مدة أطول من زملائه، غير أنه في المرحلة التالية ربما يتفوق على أقرانه بشكل كبير. والطلبة في الغالب يتعلمون من اجتماعهم ووجدوهم مع بعضهم علوماً توازي ما تلقوه من المحاضرات.

علماء صوندا في مكة

بعد هذا الاستطراد سنتوقف هنيهة مع أهل العلم من جزيرة صوندا. لقد جلب انتباهنا إليهم عالمان بسبب العدد الكبير من التلاميذ الذين يحيطون بهم. ومعظم الطلاب هم من شباب البريانجاني Pringan. إن كلاً من محمد وحسن مصطفى معروفان باسم منطقتهما قاروت Garout في

بريانجان. إن محمد قاروت رجل كبير في السن، ولم يأت إلى مكة طالب علم، وإنما جاء عالماً متعطشاً لمزيد من العلوم، ولقد وجد ضالته في حلقات تدريس عدد من العلماء المصريين والداغستانيين. فنهل منها كما نهل أقرانه من قبل. ولقد كان النشاط الصاخب في مكة خلال أيام الأعياد والمواسم وانقطاع حلقات التدريس دافعاً له لزيارة موطنه الأصلي جاوة، وبذلك وجدت حلقة الاتصال بين مكة وموطنه الأصلي. ولقد كان يلقي محاضراته في مكة كما يلقيها في الوطن الأم في كل مجالات العلوم الشرعية، وكان يلقىٰ ثناء وشكر الجميع على ذلك. وفي خلال السنوات العشر الأخيرة استقر في مكة ولم يغادرها. ولقد جمع ثروة لا بأس بها، أسهم بها أقرباؤه وتلاميذه، مكنته من أن يقيم داراً له في سفح الجبل المطل على حي القشاشية. وفي خلال الأعوام الستة الأخيرة كان يلقي لطلابه محاضرتين يومياً في الفقه وقواعد اللغة العربية، غير أن اهتماماته الأولى كانت في التصوف. لقد كان مجلسه يحوي قرابة ستين أو سبعين مريداً من الجاويين والصونداني‌ين يطيعونه إطاعة لا نظير لها. أو على حد تعبير المتصوفة كالجثة بين يدي المغسل. كما يفد إلى مجلسه الكثير من الحجاج كل عام، ليحضروا مجلسه في أثناء وجودهم بمكة.

أما حسن مصطفى فهو تلميذ محمد في جزيرة جاوة، ولقد قدم إلى مكة منذ أربعة عشر عاماً بهدف طلب العلم والأخذ من شيوخ الجاوى في مكة، أمثال حسب الله ومصطفى وعبدالله الزواوي وغيرهم. وفي خلال السنوات العشر الماضية كان يقوم بالتدريس. كما أنه قد ألف بعض الكتب التي طبعت له في مصر، منها كتاب في علم العروض. لقد كان منزل الشيخ يعج بعد صلاة الفجر وبعد الظهيرة بعدد كبير من الجاويين والصوانديين الذين يفدون لسماع محاضراته. أما في الأوقات الأخرى فقد كان شيخنا يستمع ويدرس على أيدي شيوخ آخرين. وقد عاد منذ سنين قليلة إلى الوطن الأم لا ليستقر فيه، وإنما لينظم أعماله وممتلكاته هناك.

علماء بانتن في مكة

ننتقل الآن إلى مقاطعة أخرى هي بانتن Banten التي يمثل سكانها جميع فئات المستوطنة الجاوية في مكة. إن الرواد العظام في الحركة العلمية والفكرية

في مكة ينتمون إلى بانتن، ويأتي على رأس هؤلاء جميعاً أستاذ الشريعة الشيخ محمد نواوي المعروف باسم الشيخ نواوي بانتن. والاسم نواوي مأخوذ من اسم أحد أئمة الفقه الشافعي (وهو الإمام النووي). لقد كان أبوه عمر بن عربي إمام مسجد في تنارا Tanara في بانتن. وقد علم الأب بادئ ذي بدء أبناءه الثلاثة العلوم الشرعية وهم نواوي وتميم وأحمد. ثم أخذ هؤلاء العلم من عالم شهير في بانتن هو الحاج سهل، ثم أرسلهم أبوهم إلى بورواكارتا Purwakarta في كراونج Krawang حيث درسوا على يد الشيخ رادين حاج يوسف، الذي كان يستقطب التلاميذ من مختلف مناطق جزيرة جاوة، وخاصة المناطق الغربية منها. ولقد أدى الأبناء الثلاثة فريضة الحج في وقت مبكر. مكث نواوي بعدها ثلاث سنوات في المدينة المقدسة، ثم غادرها إلى موطنه بالكثير من المعارف والعلوم الشرعية. ولقد اختمرت في ذهنه فكرة العودة إلى المدينة المقدسة، والإقامة الدائمة فيها، بجوار بيت الله الحرام، وقد سارع بتنفيذ الفكرة. وفي خلال الثلاثين عاماً الماضية كان شيخنا دائم التزود بالمعارف الشرعية في مختلف فروعها. وقد حاول في أثناء وجوده في مكة أن يمهد السبيل للطلبة الدارسين من أبناء جلدته في مكة المكرمة. لقد أخذ شيخنا العلم عن عدد من علماء الجاوى المشهورين القدماء مثل الخطيب سامباس وعبدالغني بيما وغيرهم، غير أن شيوخه الفعليين هم يوسف والسمبولاويني والنحراوي من مصر وعبدالحميد الداغستاني ـ توفي منذ فترة وجيزة ـ الذي لم ينقطع عن دروسه حتى نهاية حياته. لقد كرس النواوي كل وقته لطلب العلم في بداية حياته، غير أنه في الخمسة عشر عاماً الماضية، كان يدرس العلم في الصباح، حيث يقوم بالتدريس وإلقاء المحاضرات منذ السابعة والنصف وحتى الثانية عشرة، بمعدل ثلاث محاضرات يومياً، يعطي خلالها قواعد اللغة العربية للمبتدئين، ثم يقوم بتدريس بعض الطلاب المتقدمين ممن تلقوا بعض المعارف العلمية في الوطن الأم. ولقد كان هؤلاء بما فيهم أخوه الأصغر عبدالله الذي يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، يخففون من العبء الثقيل الملقى على عاتقه، حيث يقومون بالتدريس لهؤلاء المبتدئين.

لقد كان نواوي مثالاً فريداً في تغلبه على الصعاب التي تعترض الفرد الجاوي، عند تعلمه اللغة العربية. ففي خلال الثلاثين عاماً المنصرمة، ومن خلال التعلم المتواصل استطاع أن يحفظ القرآن الكريم، وأن يرتله ترتيلاً دقيقاً. وكان عند قراءته لنصوص من اللغة العربية، يخرج الحروف الساكنة من مخارجها الصحيحة، لا يختلف في ذلك عن أي عربي. غير أنه حينما يتكلم باللهجة المحلية اليومية يخلط في حديثه بين لغته الجاوية واللغة العربية وعندها يصعب عنده التمييز بين حروف الحاء والخاء والعين والقاف. وهذه الحروف الأربعة يصعب نطقها والتمييز بينها من قبل أبناء الجاوى، الأمر الذي يثير ضحك المكيين في بعض الأحيان. وربما تعود عدم طلاقة لسان النواوي، على الرغم من صلاته القوية بالعلماء العرب، إلى أن زوجته جاوية من بنات الوطن الأم. ولقد كان لها نفوذ كبير عليه خاصة وأنها كانت تعارض زواجه من امرأة أخرى. وعلى العموم فإن مواهب شيخنا الوقادة لتبدو بالقلم أكثر من اللسان. لقد كان لدى شيخنا عيب بارز هو عدم اعتنائه بمظهره الخارجي. ولو لم يكن الإسلام قد جعل النظافة واجباً، لوجدنا أن هذا الرجل سيهملها تماماً. لقد كانت ملابسه غير نظيفة، وكذلك كانت عمامته في أثناء إلقائه دروسه في الطابق الأرضي من بيته، وحتى ثياب خروجه، حسب آراء المكيين، لا تتناسب مع كرامة مركزه الاجتماعي. وكان جسمه المحني يجعل شكله أصغر من الحقيقة، فيسير في الطريق كما لو كانت الأرض كلها كتاباً ضخماً يقرأ بين سطوره. وعندما سألته مرة لماذا لا يحاضر في الحرم؟ أجابني بأن ملابسه المتواضعة ومظهره الخارجي لا تتناسب والمظهر اللائق للأساتذة العرب. وعندما قلت له: إن مواطنين من أبناء جلدتك أقل علماً يلقون مثل هذه المحاضرات أجابني: إذا كانوا قد نالوا هذا الشرف الرفيع فقد فازوا بها بالتأكيد.

وهذا قد لا يحملنا على الاعتقاد بأنه متواضع حقاً، على الرغم من أنه قد عبر عن نفسه بقوله: إنه لا يساوي الغبار العالق على أقدام طلاب العلم. فقد كان يعدّ نفسه من هؤلاء العلماء. لقد كان مواطنوه يلثمون يده لكونه عالماً، كما أنه لم يرفض النظر في فتوى شرعية طلبت منه، أما في العلاقات

الاجتماعية، فهو يشترك في الحديث مشاركة لطيفة دون أن يستأثر هو وحده بذلك. ولم يكن ليبدأ نقاشاً علمياً دون أن تكون البداية من الآخرين. والعربي الذي لم يعرفه من قبل، قد تمر به أمسية في الاجتماع معه، دون أن يعرف أنه مؤلف لحوالي عشرين كتاباً من الأعمال العلمية في اللغة العربية.

وعلى الرغم من أن شخصيته ليست بالقوية، إلا أن تأثيره الخلقي كان ذائع الصيت والشهرة. لقد كان لوجوده الأثر الأكبر في اهتمام الكثير من أبناء صوندا وجاوة والملايو بدراسة الإسلام دراسة شاملة، بالقيم الدينية والمفاهيم السياسية بأرقى صورها. تلك المفاهيم التي يزداد انتشارها بين أبناء الإسلام. غير أن النواوي لا يظهر اعترافه بأنه وراء مثل هذه الحركات. وإنه لمن المؤكد حقاً أن الرجل قد أسهم في إيجاد المشكلات التي تواجه الحكومة (الهولندية) من قبل المواطنين الآتشيين. وعلى مستوى الحديث الشفوي تجده يخالف أولئك الموظفين الوطنيين الذين يرون ضرورة ارتباط أراضي الجاوى بالحكومات الغربية. ولقد كان يقابل بالترحاب فكرة إحياء سلطنة بانتن، أو قيام حكومة إسلامية مستقلة في جزر الهند الشرقية، سواء أكانت تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية أم أي نوع من الروابط الأخرى التقليدية غير النظامية. ولم يكن لدى شيخنا أي مطامع بأي دور سياسي ولم يرو أحد عنه ذلك. إن أمر خدمة الحكومة الكافرة مستحيل بالنسبة له، ولو أن أباه وأخاه الحاج أحمد كانا يعملان أئمة مساجد في تلك البلاد.

إن الطموح الشخصي لدى الشيخ النواوي ينصرف إلى الأعمال العلمية والأدبية. فقد قام في السابق بدفع عدد من كتبه للمطابع المصرية. أما في الآونة الأخيرة فقد قام بتفسير للقرآن الكريم طبعه في المطبعة الحديثة التي أقيمت في مكة. أما أعماله العلمية التي نشرت في القاهرة، فنجد منها شرحاً للآجرومية التي تعنى بحقل القواعد العربية عام ١٨٨١م. وكذلك رسالة في الأدب بعنوان لباب البيان عام ١٨٨٤م. وفي مجال العقيدة له كتاب دراية اليقين عام ١٨٨٦م وهو شرح لكتاب السنوسي المشهور. وكذلك كتاب فتح المجيب على الدر الفريد، وهو شرح لكتاب أستاذه

النحراوي عام ١٨٨١م. يضاف إلى ذلك ثلاثة كتب أخرى في العقيدة تبحث في أركان الإسلام الخمسة. وهناك شرحان لأشعار المولد للبرزنجي أحدهما في موضوع الإسراء والمعراج، والثاني في شرح أسماء الله الحسنى. كما كتب النواوي شرحين كبيرين في الفقه، وكذلك شرح مناسك الشربيني، وهو يتعلق بأمور الحج وطبع عام ١٨٨٠م، بالإضافة إلى رسالتين صغيرتين عن أعمال العلماء الحضرميين، وهما سلوك الجادة عام ١٨٨٣م، وسلم المناجاة عام ١٨٨٤م، وتبحثان في بعض القضايا المتعلقة بالشعائر الدينية.

وفي مجال التصوف كان شيخنا يتبع خط الإمام الغزالي، وكذلك كان علماء الحرم المكي كافة كما أوضحنا سابقاً. ولقد كان النواوي يقدم لتلاميذه أعمال المتصوفة، الذين تغلب العناصر الأخلاقية لديهم على أمور التصوف السرية. ولم يكن لينصح تلاميذه بالالتحاق بطريقة ما، ولكنه لم يحاول منعهم إذا صمموا على الانتساب لإحدى هذه الطرق. ومن المحادثات الكثيرة التي كانت بيني وبين النواوي، اتضح لي أنه وجد لدى مواطنيه الجهلة ولعاً كبيراً بالتصوف. ولعل هذه الظروف السائدة دعته إلى أن يكون أكثر تساهلاً في أخطاء الطرق الصوفية، مما هو عليه الحال لدى العلماء العرب من أقرانه وزملائه. وعندما أرسل له السيد عثمان بن يحيى أحد العلماء العرب خطاباً يتضمن هجوماً عنيفاً على الطرق الصوفية، التي تنتشر انتشاراً واسعاً في مختلف بلاد الجاوى، لم يكن من النواوي إلا أن وافق على مضمون ذلك الكتاب، كما دعم خطوات السيد بكلمات المدح والإطراء، وقد رأى ذلك نوعاً من التقارب في وجهات النظر بين الرجلين. لقد أخذ عثمان بن يحيى على عاتقه مناصبة العداء للطرق الصوفية، ولم يكن ليذكر ذلك صراحة، وإنما كان يتناول مثل هذه الأمور بالتلميح، من خلال خطب مملوءة بالحقد على هذه الطرق. ولم يكن ليسع النواوي سوى الموافقة على ما يقوله السيد عثمان بن يحيى، على الرغم من اختلاف وجهتي نظريهما حول المعايير المختلفة، فيما يتعلق بأمور الطرق الصوفية.

ومهما يكن من أمر فإن الصوفية التي مارسها النواوي نفسه كانت صوفية معتدلة. وهي صوفية الغزالي الأخلاقية بما فيها من تمسك بالقيم

الدينية. وهذا الخط من الصوفية هو الذي انتهجه النواوي في أيامه الأخيرة. ومما يدلل على ذلك قيام النواوي نفسه بشرح لكتاب الغزالي بداية النهاية طبع عام ١٨٨١م وشرح آخر لقصيدة صوفية نظمها زين الدين المليباري[١] طبع عام ١٨٨٤م.

إن تميم الأخ الثاني للشيخ النواوي لم ينل شهرة واسعة في العلم كأخيه، غير أنه كان ذا أسلوب عربي جميل، ويتكلم اللغة العربية بطلاقة تامة. ولقد كان فيما مضى يمتهن أعمال الطوافة، وقد سبق له العمل في سنغافورة بصفته وكيلاً قدوم الحجيج إلى مكة، قبل استخدام القوارب البخارية. فجمع ثروة كبيرة من المال. ولست أدري لماذا تمنعه السلطات من الإقامة في موطنه بانتن. وفي الآونة الأخيرة تضاءلت ثروة تميم، وهو يعيش الآن في بينانج.

لقد عمل النواوي نفسه مطوفاً عدة سنوات، غير أن تلاميذه يعدُّون ذلك أمراً لا يتناسب ومرتبة الشيخ العلمية الرفيعة. ولقد روي أن أقرباء الشيخ قد حاولوا الحصول على تصريح (تقرير) بأعمال الطوافة بموجب قوانين صدرت مؤخراً لتنظيم أعمال الطوافة، مستفيدين من اسمه وشهرته، في الوقت الذي كان فيه الشيخ في زيارة للمدينة المنورة. ومن الجدير بالذكر أن الشيخ كان على علم بالدوافع الاستغلالية للتنظيم الجديد للطوافة. غير أنه لم يكن ليفكر قط في استغلال الحجاج القادمين، إذ ليس لديه الرغبة أو الوقت الكافي لذلك، كما لم تكن لديه الموهبة لاكتساب المال، ولم يكن يرنو لحياة رغيدة هادئة. وعلى الرغم من الهدايا والهبات الجزيلة التي تنهال عليه كالغيث المدرار، فقد كان يعيش ببساطة مطلقة، إذ كان يكتب كتبه ليلاً على ضوء مصباح زيتي صغير (مسرجة) لا يستعمله غيره إلا لإنارة الطريق للضيوف المغادرين من المنزل.

إن زوجة الشيخ النواوي كانت أكثر واقعية منه. إذ كانت تدير وتباشر بعض الأعمال المهمة. ويعود إليها الفضل في إعداد وجبات الطعام

---

(١) هو جد المؤلف زين الدين المليباري الحفيد الذي ورد اسمه سابقاً (المؤلف).

للضيوف الذين كان الشيخ يدعوهم أيام العطلات، وهي بهذا تستحق الشكر لعنايتها بهؤلاء الضيوف، بالرغم من أن الأستاذ نفسه كان يتصرف كما لو كان غريباً عن الدار.

لقد كان للشيخ النواوي قريب يدعى الشيخ المرزوقي[1]. وقد كان ذا مظهر متميز، ويجيد العربية أكثر من الشيخ النواوي. وكان يجلس في مكة إلى الأساتذة الذين كان النواوي يجلس إليهم، على الرغم من فارق السن القريب بينهما. وكان يحضر دروساً للنواوي. لقد كان المرزوقي كثير الترحال، وفي أثناء وجودي في مكة عاد المرزوقي من رحلته الخامسة، ويعيش الشيخ الآن في مكة منذ تسع سنين، ليس له من عمل سوى تدريس طلابه الكثيرين في بيته بعد كل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة. ومن الجدير بالذكر أن المرزوقي يجيد اللغة الملاوية بصورة أفضل من الشيخ النواوي، وهو مدرس ناجح، على الرغم من أنه لم يطلع على نصف المصنفات التي اطلع عليها النواوي.

لقد كان المرزوقي أحد أتباع الطريقة القادرية، وقد سهل له هذا أمر التجوال والحركة. ولقد كان صديقاً حميماً للشيخ عبدالكريم الذي سيأتي ذكره فيما بعد. وبعد أن تركت مكة غادرها هو أيضاً. وقد قيل: إنه يقوم بزيارة أصدقائه كما يقوم ببعض الأعمال في وطنه. وأظن أن الرحلة الأخيرة كانت بغرض تهدئة الشائعات التي دارت حوله في الوطن الأم، من قبل موظفي الحكومة. ومن الجدير بالذكر أنه زار في السابق ـ بالإضافة إلى بانتن ـ كلاً من سيام وبالي حيث توجد أقلية من المسلمين هناك. ويشاع الآن أنه زار بينانج ودلي Penang And Deli حيث سلطان دلي الثري، يرحب بزيارات علماء الجاوى الأتقياء بالإضافة إلى أشراف مكة.

---

(١) هو مرزوقي الجاوي الشافعي، المجاور بمكة المكرمة نحواً من خمسين سنة. قرأ على السيد عمر الشامي والشيخ حسب الله وأجازاه في التدريس، فدرس بالمسجد الحرام، وانتفع به كثير من الجاويين، وكان عالماً فاضلاً تقياً مواظباً على العبادات، توفي بمكة سنة ١٣٣٢هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٤٤١).

لقد اكتسب الشيخ إسماعيل في بانتن مركزاً مرموقاً نتيجة لنسبه. فهو أحد أحفاد سلاطين بانتن، الذين يعدّون أنفسهم من السادة. وكان أهل وطنه يطلقون عليه رجل كل شيء Tubagus. لقد كانت أخته زوجاً لنائب السلطان. وقد عين والد زوجه نائباً للسلطان في عهد الإنكليز. تلقى العلم في صغره على يد والده ساديلي، الذي اصطحبه معه إلى الحج منذ نعومة أظفاره. وبعد عودته من مكة تابع البرنامج نفسه الذي اتبعه الشيخ النواوي، حيث درس على الحاج سهل في بانتن ثم سافر إلى بورواكارتا Purwakarta في كراونج Krawang حيث تعلم على يد الحاج يوسف[1]. ومن المعلوم أن معظم من نالوا شهرة في العلم من أهل بانتن قد درسوا في هذا المعهد.

لقد كان إسماعيل صغيراً عندما قدم إلى مكة في المرة الثانية. وقد تتلمذ على شيوخ النواوي، غير أنه درس العقيدة والتصوف على شيخ من الأحناف يدعى السيد الكتبي[2]. ولقد عاد بعد سنوات قليلة إلى الوطن الأم، ليقوم بتدريس الموضوعات المساعدة (النحو والصرف وخلافه..) والتي تعد ضرورية لفهم الفقه والعقيدة والتصوف. وحسب التعبير العربي لقد سار بخطى سريعة جداً نحو تحقيق هدفه. فقد اندفع بطبعه الجاوي نحو التصوف على الرغم من ضحالة علمه باللغة العربية. ولقد أخبرني بعض الطلبة

---

(١) لقد كان هناك الكثير من رجال العلم ممن تتلمذوا على يد الشيخ يوسف منهم الشيخ أبو بكر، الذي درس في مكة قبل عشرين سنة، وهو يدير الآن مدرسة كبيرة في بونتانج Pontang (بانتن). والحاج حميم محمد أشعري في بوغور Bogor وكذلك الحاج عثمان في أندار أنديرAndar-andir الذي عاش في مكة ما يقرب من ثمان سنوات. والذي كانت محاضراته تتوقف بين الحين والآخر نتيجة لانشغاله ببعض الوظائف الحكومية منذ تعيينه مرشداً Penghulu. ومن هؤلاء أيضاً محمد ساديلي في سيرانج Serang الذي كان يعول على مشورته كثيراً نائب السلطان. وقد روي عنه أنه كان يدرب تلاميذه تدريبات عسكرية، وكذلك محمود في تيرات Terate والحاج محمود قاصد بيدجي Bedji (Tjilegon). ويطلق عليه أحياناً اسم واصد، وقد كان المحرك الأول للاضطرابات الأخيرة في (Tjitegon) (المؤلف).

(٢) هو السيد محمد حسين كتبي الحنفي، نزيل مكة المكرمة وفقيهها، قدم مكة سنة ١٢٥٥هـ تولى منصب الفتوى بمكة. وله عدد من المصنفات. توفي بمكة عام ١٢٨١هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٤٢٢).

القادمين من صوندا، والذين درسوا مع الشيخ إسماعيل في بانتن عن جهله بأصول العربية، لدرجة أنه كان في شرحه للفرق بين اسمي الإشارة للمذكر والمؤنث هذا وهذه يقول: إن الأولى تعني الشيء القريب، أما الثانية فتعني الشيء البعيد.

لقد ترك الشيخ إسماعيل التدريس في موطنه ثم رحل إلى مكة واستقر بها منذ ثلاثة عشر عاماً. ولقد كان لمزارعه في الوطن الأم، وكذلك لأقربائه الأثرياء، أثر بالغ في زيادة دخله في مكة. فلقد أهداه أقرباؤه ثلاثة مساكن في مكة، كان يعيش في إحداها. وقبل أن يعتل جسمه ويصاب بالمرض كان يحضر باستمرار دروس شيخين من مشايخ الحرم، كما كان يلقي محاضرتين في بيته يومياً لطلابه الذين هم أيضاً طلاب الشيخ النواوي. لقد أكسبته أخلاقه المتواضعة وتقواه وحبه لمساعدة المحتاجين شهرة توازي ما وصل إليه الشيخ النواوي من شهرة اكتسبها بالهيبة والوقار. غير أنه في السنوات الأخيرة أقعده المرض، ولم يكن يستطيع مقابلة أحد سوى أصدقائه المخلصين. ولقد كان بيته في شهر ربيع الأول حيث يقع مولد الرسول الكريم ﷺ يغصّ بالكثير من رجالات الجاوى، على الرغم من أن المولد يحتفى به في مكة بصورة أقل بهجة من الاحتفال به في جزيرة جاوة. وإنه لمن العسير على المرء هناك أن يستجيب للدعوات كافة، التي تقدم له بهذه المناسبة. إن سكان جاوة الذين يسافرون إلى الوطن الأم، ويحضرون احتفالات المولد، يتحدثون عن البهجة في هذا الاحتفال في بلادهم. ولقد نقل هؤلاء هذه المظاهر إلى مكة. وقلما يمر يوم في هذا الشهر إلا وهناك ٥ ـ ١٠ بيوت من بيوت الجاوى يقرأ فيها المولد، ويجتمع فيها الأصدقاء سواء من الجاوى أو من أصدقائهم المكيين من العرب. ولقد كان شيخنا إسماعيل نشيطاً في هذا المجال. فعلى الرغم من مرضه إلا أن شهر ربيع الأول لا يمر دون أن يقام في بيته عدد من الموالد على الرغم من عدم تمكنه من الإسهام فيها.

هناك الكثير من شباب غرب جزيرة جاوة ممن درس العلم وتتلمذ على يد الشيخ النواوي، هم مهيؤون لإعطاء الدروس في الحرم لعدد من أبناء جلدتهم

بالطريقة نفسها التي تلقى بها هؤلاء العلم من الشيخ النواوي، وأمثاله. فعلى سبيل المثال هناك أرشد بن علوان من تنارا Tanara الذي درس في مدرسة والد الشيخ النواوي، ثم تعلم على يد النواوي نفسه، وكذلك على يد أخيه تميم والشيخ المرزوقي. وفي بانتن حضر مجلس الحاج سمعون في باندج لانج Pandeg Lang، كما درس في مكة على عدد من الأساتذة العرب منهم المدرس حسب الله. ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الشيخ أرشد قد درس الطب على يد رجل من حضرموت. ولقد كان خلال السنوات الأربع التي وجد فيها في بانتن يقوم بكتابة بعض الوصفات الطبية لمرضاه. كما عمل عضواً في هيئة المحكمة الإسلامية في سيرانج Serang. وحتى ١٨٨٥م كان قد أدى فريضة الحج ثلاث مرات، كان خلالها يعلّم ويتعلم، وقد علمت أخيراً أنه رجع إلى موطنه الأول.

وهناك شخص آخر يدعى أرشد بن أسعد من بانتن كان قد غادر مكة في الوقت نفسه الذي غادر به أرشد الأول. ولما كان والده قد استوطن بتافيا، فقد درس فيها أولاً، ثم رحل إلى مكة، حيث درس على يد الشيخ عبدالغني، ثم على يد الشيخ النواوي، وعدد من المدرسين العرب. وهو يتكلم الملاوية بطلاقة، غير أن لغته العربية غير سليمة. ولقد كان يحضر دروسه الكثير من سكان الملايو وصوندا وجاوة.

لقد كان من بين علماء الجاوى أحمد جاها البالغ من العمر ثلاثين عاماً. وكان شديد التواضع وغزير العلم والمعرفة وهو من أنيار Anyar في بانتن. وقد قضى ما يزيد على نصف عمره في مكة، وقد حاول جهده في أن يقضي فترة من الزمن في الأزهر الشريف في القاهرة، ولقد كان يختلط كثيراً بأقرانه ممن لم ينالوا حظاً كبيراً من العلم. وكان الطلبة الجاويون يجدون متعة في الدراسة معه. وكانوا ينعتونه بشيء من المبالغة التي تعتري الشباب أحياناً قائلين: إنه أكثر علماً من الشيخ النواوي.

لقد قادتني ذكرياتي في علاقاتي الشخصية إلى الإطالة في سرد الأسماء الكثيرة على القارئ، غير أنني أرى أن هناك شخصاً جديراً بالإشارة، ذلك

لأن له نفوذاً كبيراً يفوق من سبق ذكرهم، سواء بين صفوف الجالية الجاوية أو بين صفوف العرب الآخرين، ذلكم هو شيخ الطريقة القادرية عبدالكريم بانتن. الذي نال حظوة في صغره حينما أخذ بيده أحمد خطيب سامباس، ثم ارتفع مقامه عندما أصبح يخدم في بيت الشيخ ذاته. والخطيب سامباس يعد في نظر معاصريه عالماً متبحراً في كافة فروع المعرفة كافة، ويتفوق على أقرانه بأنه وصل إلى أعلى الدرجات في الطريقة القادرية. وقد أسهم في إدخال آلاف الحجاج والمقيمين في مكة في سلك هذه الطريقة. ولو لم يكن الحسد في نظر هؤلاء بغيضاً وخطيئة كبيرة لوجد الكثير من المريدين أنفسهم يحسدون عبدالكريم، الذي كان يمضي ليله ونهاره بجانب الشيخ الكبير سامباس، ويرافقه في كل خطوة يخطوها سواء إلى المسجد أو إلى أي مكان آخر في المدينة. ويعرف الكثير من أسراره الخاصة. وفي غضون بضع سنين أجاز الشيخ تلميذه ليعلم الطريقة الصوفية. وكان هذا كسباً ثميناً حصل عليه التلميذ، أسهم في رفع منزلته، وزاد من التقدير الكبير له على أوسع نطاق. وقد ارتحل الشيخ عبدالكريم إلى سنغافورة حيث أسهم في نشر الصوفية مدة ثلاث سنوات، غادرها إلى موطنه مدة ثلاث سنوات أخرى. ويقال: إن الشيخ سامباس قد أعطاه بعض التعليمات والنصائح في أثناء سفره من مكة مرشداً له ودليلاً في كل أعماله المقبلة. وقد علمت من طلبة عبدالكريم ومريديه بعض هذه النصائح دون أن أتحقق منه شخصياً حول حقيقة هذه النصائح، على الرغم من أني كنت أجلس معه، وندخن سويّاً الكثير من السجائر الجاوية، لاعتقادي أن مثل هذه الأسئلة عن حياته الخاصة قد يراها أموراً غير لائقة.

لقد كان من بين التحذيرات والنصائح التي وجهها إليه شيخه الابتعاد عن النساء والملوك. لقد كان المطلب الأول واضحاً، أما الثاني فلم يدرك الشيخ أبعاده. وربما كان المقيم الهولندي ورجال الحكومة الرسميون في جزر الهند الشرقية هم المقصودون بذلك. لقد كانت نصيحة الخطيب سامباس تعبيراً عن مدى إدراكه هذا البعد المهم، فقد كانت خطب الشيخ عبدالكريم ومواعظه مؤثرة في كافة أرجاء بانتن، الأمر الذي فرض عليه الرقابة من قبل

الحاكم الهولندي، مما قيد حريته وعاق تحركاته، وهذا ما أخبرني به هو نفسه، ثم استطرد قائلاً: إن المئات من أبناء وطنه كانوا يفدون عليه يومياً ليتعلموا أصول الذكر، ويسألونه عن مدى استمرار أو بقاء هذه الحكومة الكافرة في السلطة.

إن أفراد الجاوى يحبون العلماء بطبعهم، وخاصة أولئك الأتقياء الذين يقومون بتذكيرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية، ولا شك في أن طبيعة حياة الجاوى وطراز تفكيرهم الذي تأثر فيما مضى بالهندوسية، يزيد من خضوعهم وخاصة الطبقة العامة إلى رجال العلم والمعرفة. ففي القرى النائية مثلاً يتقاضى من يكتب التعاويذ والتمائم، ويطلقون عليه اسم حجي، أكثر مما يتقاضى مدرس القرآن الكريم. أما في طبقات المجتمع العليا ذات الثقافة الجيدة فهناك تقدير عال رفيع للعلماء ولمناحي الحياة الروحية المختلفة. إن الفرد الجاوي لا يطرح سؤالاً مثل: متى تقوم الساعة؟ على أحد من رجال العلم؛ لأن هذا جوابه غير موجود في الكتب، وإنما أجوبة مثل هذه الأسئلة في الغالب تكون في دفاتر عراف القرية، أو من خلال شيخ واصل من أهل السلسلة[(١)]؟؟!!

إن عامة الشعب الجاوي متعطشون إلى المعجزات. وهم يرنون بأبصارهم إلى المرتبة الرفيعة التي وصل إليها الشيخ عبدالكريم مثلاً، ولسان حالهم يقول: أليس هو وليّاً؟ أو مقرّباً إلى الله؟ أو رجلاً صالحاً؟ ألم تذكر الكرامة في كتب التشريع بصفتها مظهراً من مظاهر الورع والتقوى؟ لقد ظهرت الكثير من الكرامات لكثير من مريدي الشيخ عبدالكريم في أثناء رحلته الأخيرة.

وهناك مثال واحد سمعته من عدد من مريدي الشيخ نستطيع الحكم من خلاله على مقدار انتشار الكثير من الأساطير الموجودة في مناقب الصالحين.

---

(١) ليس ثمة من يعلم متى تقوم الساعة إلا الله سبحانه وتعالى. وعليه فجواب هذا السؤال لا يقدر عليه عراف القرية ولا غيره من أدعياء المعرفة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف، الآية: ١٨٧].

كان عبدالكريم على وشك أن يبرح سنغافورة إلى بتافيا، فاشترى تذكرة على باخرة. وفي اليوم المقرر لسفر الباخرة حضر مريدوه بينما هو تأخر في وداع بعض أصحابه. وانطلقت آخر إشارة لتحرك السفينة دون أن يحضر الشيخ إلى الباخرة. وعلى الرغم من أن هؤلاء المريدين لا يعرفون عبارات الربان والبحارة إلا أنهم يرون أن القبطان كرر الأوامر بقرع أجراس الرحيل، إلا أن البحار المنوط به هذه المهمة لم يتمكن من قرع الجرس أو رفع يده أو إبداء أي إشارة للتحرك. وقد استمر هذا الاضطراب مدة نصف ساعة وصل خلالها الشيخ إلى السفينة. وبكل هدوء وتؤدة اقترب من السفينة وصعد إليها. وما هي إلا دقائق قليلة حتى قرع الجرس وبدأت السفينة رحلتها. وسرعان ما ارتفعت أصوات الدعاء بالشكر إلى الله من مريدي الطريقة القادرية لما حدث لشيخهم.

عاد الشيخ بعد رحلته تلك إلى مكة المكرمة، وقد مضى على وجوده فيها حتى الآن أحد عشر عاماً. وهو يسكن داراً فخمة مؤثثة جيداً، ويشاركه في المسكن فيها بعض أقربائه وأصدقائه، وبعض الطلبة المعوزين من أبناء جلدته. ويتلقى الشيخ الكثير من الهدايا والأعطيات والأموال، غير أنه يستعملها جميعاً في أغراض الطريقة القادرية. لقد كان أسلوب حياته متواضعاً دون تقشف. ولقد كان الشيخ لا يمنع مريديه من التدخين على عكس الكثير من شيوخ مكة، وكانت داره مفتوحة للجميع. كما كان يقدم الطعام الجيد لزائريه دون مغالاة في الترف.

وعندما عاد الشيخ عبدالكريم إلى مكة، كان الشيخ سامباس قد فارق الحياة، غير أنه أوصى وهو على فراش موته أن يخلفه في رئاسة الطريقة الشيخ عبدالكريم. وهكذا ارتفعت منزلة عبدالكريم ارتفاعاً ملموساً. ولم يكن أهل أرخبيل الملايو هم الذين يحتشدون عند بابه، بل كان هناك الحجاج المستقرون والمتعلمون وغير المتعلمين، وكذلك سكان مكة يطلبون بركة الشيخ ودعواته.

لم يكن الشيخ ليعلم من العلوم بأكثر مما يمهد له الطريق إلى الحياة التي يرضى عنها الله سبحانه وتعالى. ولا من قواعد اللغة العربية بأكثر من الضروري

اللازم لفهم العقيدة، ولا من الإفتاء بأكثر مما يصون ويمنع من الخطأ في الشعائر الدينية. وما كان عنده من علوم الفقه كان يمثل الحد الأدنى لمعرفة أي عالم. على أن المتعلمين كانوا يضعون منزلته بالدرجة الأولى. إن ما عند عبدالكريم قليل إلا أن العناية الإلهية حبته محبة الجميع. ولقد كان بدوره يوقر العلماء ويحترمهم، وكان يعدّ من هم أدنى منه مرتبة من العلماء نظائر له. وكان يقول إن اشتغاله بتعليم نفسه ومريديه، لم يترك له فرصة لتعلم العلوم الأخرى. وكان تلاميذه يدركون معنى ذلك، وهو أن على الإنسان أن يكرس حياته لنوال التقرب من الله أكثر من قضاء فترة الحياة القصيرة في تعلم موضوعات لا تحيي القلوب أو تطهرها. لقد كان الشيخ يشير على مريديه المتقدمين أن يتعلموا حقائق التصوف الدقيقة، من خلال التبصر والتروي في الكتب الصوفية. غير أن الجميع عليهم أن ينالوا علم الحقيقة من خلال الوظائف المختلفة الروحية منها والجسدية.

إن الحجاج في العادة تكون إقامتهم محدودة في مكة. وهؤلاء يأخذون الإذن بدخول الطريقة من الشيخ. وفي غضون الأسابيع القليلة تكون هناك بعض اللقاءات مع هؤلاء المريدين، حيث يقومون بتلاوة بعض الأوراد عقب كل صلاة. وبعد عودة هؤلاء الحجاج يتولى رعايتهم عدد من طلبة الشيخ ومريديه في الوطن الأم، الذين يساعدونهم في السير في هذا الطريق، حيث يحافظون على البذرة التي غرسها الشيخ فيهم في أثناء وجودهم في مكة.

وفي مكة يفد المريدون يومياً إلى منزل الشيخ بعد صلاة العصر، حيث يتلون الأوراد مدة تتراوح بين نصف ساعة وساعة. وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر من كل شهر هناك اجتماع كبير يدعى إليه أهل الطريقة وأناس من الخارج.

رأينا في الفصل الأول أن كلمة (الحول) يقصد بها الذكرى السنوية لوفاة نبي أو رجل صالح. غير أن مواعيد ذلك تحدد اعتباطاً، وربما تكون احتفالات جاهلية أعطيت صبغة إسلامية، من خلال أشخاص أتقياء نذروا أنفسهم

للعبادة .ومن الجدير بالذكر أن معظم احتفالات الحول في مكة ـ وكذلك الاحتفالات العالمية ـ تقام حينما يكون القمر بدراً. وإن هذه الاحتفالات تكون دورية، وفي كل شهر، لبعض الأشخاص البارزين، وفي هذه الحالة هناك أحد عشر احتفالاً في العام، يعرف كل منها بالحول الصغير. أما تاريخ الوفاة المحدد فيكون عادة الحول الكبير. فعلى سبيل المثال إن حول السيدة خديجة الكبير يكون في ١١ رمضان من كل عام؛ لأن هذا هو يوم وفاتها المتعارف عليه. أما الحول الصغير فيكون في الحادي عشر من كل شهر من أشهر السنة. إن وفاة الشيخ عبدالقادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية تصادف يوم ١١ ربيع الثاني، كما أن وفاة الرسول ﷺ تصادف يوم ١٢ ربيع الأول، لذلك فإن أتباع الشيخ عبدالكريم يحتفلون شهرياً بهاتين المناسبتين في اليوم الحادي عشر والثاني عشر من كل شهر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مظاهر الاحتفالات الحولية للأولياء الصالحين، هي تعبير عن الإعجاب بالميت، ولقد أصبحت هذه من الأمور المتعارف عليها بين المسلمين. ونجد أيضاً انتشار عادة تقديم النذور والصدقات عن الموتى إلى مزارات هؤلاء الأموات وقبورهم[١]، لا لأن هؤلاء بحاجة إلى مثل هذه الهدايا، وإنما لاعتقاد الجهلة أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى. إن ما يقوم به عبدالكريم وأتباعه في أمسيات هذه الأعياد يهدف إلى تكريم الرسول ﷺ، ثم تكريم الشيخ الجيلاني، وهي دعوة أيضاً لتوثيق الروابط بين أفراد الجماعة القادرية. ففي الحادي عشر من كل شهرٍ تقرأ بعد صلاة العشاء مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلاني، ويكون ذكر المناقب في العادة متناوباً مع الذكر، وينتهي في الغالب بقصيدة في مدح الرسول ﷺ، وغالباً ما تكون البردة، ثم يتناول جميع الحضور من عرب

---

(١) لا أدري كيف دخلت مثل هذه العادات إلى المجتمع الإسلامي. فرأي الدين واضح وصريح، والميت لا يضر ولا ينفع، وهو بحاجة إلى من يدعو له ويطلب من الله الرحمة والمغفرة له، فهو عاجز أن يدعو لنفسه، فكيف يطلب منه أن يكون واسطة بين العبد وربه. إن مثل هذه الأمور هي من الشرك والعياذ بالله، وإنه لمما يثلج الصدر أن تكون هذه المظاهر الوثنية قد زالت نهائياً وإلى الأبد من أقدس بقاع الأرض مكة المكرمة وحل محلها الوحدانية المطلقة لله رب العالمين.

وملايو وغيرهم الطعام في بيت الشيخ والبيوت المجاورة. وفي اليوم الثاني عشر تعاد الكرة بالطريقة نفسها، غير أن قراءة قصة المولد النبوي تستبدل بمناقب الجيلاني.

إن الوظائف اليومية للمريدين تكون في العادة تلاوة الكثير من الأذكار والأوراد التي يعينها الشيخ عبدالكريم. وتتم قراءة هذه الأوراد في حلقات صغيرة. ويشاهد المرء بعض النوبات التي تحصل لبعض الأشخاص، من جراء الهوس الذي يعتري بعض المبتدئين. وكذلك يكون (الحال) عند بعض الأصفياء الخلص. غير أن هذا يكون في حلقات خاصة تحوي صفوة الصفوة من أتباع الطريقة. إن مثل هذه الأوراد التي يتلوها المريدون وعيونهم نصف مغلقة بالإضافة إلى أنها تقوي الروابط الأخوية بين المريدين فهي تجعل المرء يعيش وكأنه في النقطة الفاصلة بين الدنيا والآخرة.

إن أرقى درجات المثالية هي أن تمارس الحياة الأرضية بمشاعر وعواطف روحية، لا يمكن وصفها باللسان، وإنما يعيشها الإنسان، غير قادر على وصفها. وإنه لمن المهم جداً لكي نحكم على طريقة ما، أن نعرف ما هي الاتجاهات التي توجه إليها الطاقات البشرية، بهدف الوصول إلى النتيجة المطلوبة. ففي الطريقة القادرية التي يديرها الشيخ عبدالكريم هناك تركيز كبير على الالتزام الشديد بمبادئ الشرع الحنيف، عن طريق محاربة الآثام الخفية، أكثر من التركيز على الحركات الجسمية، وتدريب النفس تدريباً خاصاً يولد شفافية قلبية خاصة[1].

---

(١) وعندما ترجم المؤلف لأحد علماء الصوفية من الجاويين، وهو من أتباع الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ توسع في الكلام عما يقيمه أتباع هذه الطريقة من احتفالات، وعما يقدم من نذور وصدقات عن الموتى إلى مزاراتِ وقبورِ مَن يُعتقد فيه الصلاح من الأموات؛ لاعتقاد الجهلة أن هؤلاء هم الواسطة بينهم وبين الله تعالى، فهو يدرك أن هذه الأفعال مما لا يجيزه الدين الإسلامي؛ وإنما هي من أفعال الجهلة، ولكنه فيما عرض من أحوال المتصوفة بدا وكأنه يقررها، ولا يدرك وجه الحق فيها، وأن الدين الإسلامي لا يقرُّ تلك الطرق؛ لما يحدث فيها من أمور تتنافى مع الأحكام الشرعية، ومنها مبالغة المريدين في تعظيم شيخهم بدرجة لا تليق بمخلوق. ومع محاولة (سنوك) =

إن الطرق الصوفية تهيئ للفرد نزعة روحية، فبدلاً من التدريس العادي، الذي من خلاله يتعلم المرء ماذا يجب عمله أو اعتقاده، فإن هذه الجماعات تعمل بقوة كبيرة في إبراز القيم السياسية المثلى، أكثر من التدريس العادي. ناهيك عن الأعداد الكبيرة من مريديها. فالمدرسون العاديون يقومون بتعليم المرء في العادة العلاقة بين الإسلام والكفر من خلال كتب الشريعة، والنتائج التي تترتب على ذلك، وكيف أن هذه العلاقة قد انقلبت الآن رأساً على عقب، وذلك بسبب الابتعاد عن الدين. إن النتائج العملية لموضوع هذه العلاقة تؤخذ من مصادر التشريع المذكورة آنفاً، غير أن النظرة المستقبلية لمثل هذه العلاقة يقوم بتوضيحها شيخ الطريقة نفسه، الأمر الذي يوجد نوعاً من التعصب والبغضاء بين صفوف المريدين.

لقد كان من بين الشخصيات الغربية صديق حميم للشيخ عبدالكريم، ذلك هو عيدروس أحد أبناء تجرنجن Tjeringin في بانتن. وقد حج إلى بيت الله الحرام منذ نعومة أظفاره ثم رجع إلى بلاده حيث تعلم العلوم الشرعية. وحين عاد عبدالكريم إلى بانتن التحق بالعيدروس بصفته مريداً في الطريقة

= تسويغ ما يفعله هؤلاء، إلَّا أنه يبدو مدركاً لحقائق ما تنطوي عليه تلك الطرق من أمور محرمة، فهو يقول: (وإنه لمن المهم جداً لكي نحكم على طريقة ما، أن نعرف ما هي الاتجاهات التي توجه إليها الطاقات البشرية، بهدف الوصول إلى النتيجة المطلوبة، ففي الطريقة القادرية التي يديرها الشيخ عبدالكريم هناك تركيز كبير على الالتزام الشديد بمبادئ الشرع الحنيف عن طريق محاربة الآثام الخفية أكثر من التركيز على الحركات الجسمية، وتدريب النفس تدريباً خاصاً يُوَلِّد شفافية قلبية خاصة. إن الطرق الصوفية تهيئ للفرد نزعة روحية، فبدلاً من التدريس العادي الذي من خلاله يتعلم المرء ماذا يجب عمله أو اعتقاده فإن هذه الجماعات تعمل بقوة كبيرة في إبراز القيم السياسية المثلى أكثر من التدريس العادي أهـ.

كذلك قال، مع أنه سبق أن ذكر أن الجهلة من أتباع الصوفية يعتقدون أن الصالحين هم الواسطة بينهم وبين الله تعالى، ولم يدرك أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد أهل الجاهلية القائلين ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر، الآية: ٣] فكيف توصف الطرق التي تفضي ببعض متبعيها إلى ذلك الاعتقاد بأنها تهيئ للفرد نزعة روحية، يراها أبلغ من تلقي التعاليم الدينية الصحيحة عن العلماء؟!، فإن التوجيه القويم بالعلم النافع والأعمال الصالحة المشروعة هي أعمق تأثيراً في النفوس من تلك الطقوس التي اعتاد شيوخ الطرق أن يُكلِّفوا مريديهم بتعاطيها والأخذ بها، مما لا يتفق مع القواعد الشرعية الثابتة عن السلف الصالح.

القادرية. وعندما عاد شيخه عبدالكريم إلى مكة رافقه عيدروس وعاش بجواره منذ سنة ١٨٧٨م، وقد تلقى العيدروس العلم من مشايخ عدة من أمثال النواوي وإسماعيل، وتتلمذ على أيدي آخرين أمثال أحمد دحلان وحسب الله ومصطفى عفيفي وعبدالله الزواوي وغيرهم. غير أن الشيخ عبدالكريم كان أباه الروحي بلا منازع، ويمكن أن نقارن تحصيله العلمي بتحصيل أستاذه. ولقد كان في أوقات فراغه يقوم بتدريس الأطفال الصغار، وكذلك كبار السن الذين لم يلحقوا بقطار العلم في الصغر. ولقد كان في دروسه وأحاديثه يمثل الرجل المتصوف بكل أبعاده. وقد أعانه على ذلك ذاكرته الحافظة لمئات الأحاديث النبوية التي كان يلقيها كلما سنحت له الفرصة بصوت متواضع داعياً إلى الترفع والسمو وهجر الأمور الدنيوية، فإذا جلس معه بعض الأصدقاء وحاول بعضهم أن يغتاب أحداً أو أن يذكر أحداً بسوء بادر إلى تلاوة بعض الأحاديث التي تحرم الغيبة، وتظهر سوء فعلها وأضرارها. وإذا عرج الحديث على بعض الدعابات الساخرة ذكرك ببعض أقوال الرسول ﷺ التي توقف ذلك.

لقد سمعت مرة ـ والقوم جلوس معه ـ حديث غيبة عن أحد السادة ممن يعيشون في مكة، فحاول تغيير مجرى الحديث بأن ذكر حديثاً نبوياً معناه أن الكريم حبيب الله والبخيل عدو الله، وبذلك عطف النقاش في الموضوع السابق، وحوله إلى مجرى آخر بعيد. وقد كان يباغت بعض أصدقائه، وهم يزورونه في منزله، بأن يذكر بعض الأحاديث التي تذكر هؤلاء الضيوف ببعض جوانب النقص لديهم، طالباً منهم أن يحفظوا هذه العبارات الطيبة في قلوبهم، ويتصرفوا وفقاً لما تتضمنه من توجيهات. وإذا ما وجد رغبة لدى بعض الناس أو استعداداً روحياً لدخول الطرق الصوفية، بدأ بتنمية هذه الرغبة وتقوية هذا الميل، مؤكداً أن على المرء أن يبحث عن مرشد روحي يأخذ بيده نحو التصوف. ولا تلمس لديه تمييزاً بين شيوخ الطرق الصوفية المختلفة من أمثال خليل باشا أو سليمان أفندي أو أي شخص آخر. ففي كل منهم الخير والبركة. غير أنه من خلال تجربته الشخصية فإنه يوصي بالشيخ عبدالكريم ـ حفظه الله ـ بصفته مربِّياً روحِيّاً كبيراً. لقد كان

العيدروس متطوعاً لخدمة الصوفية، يحاول جهده أن يجند ما أمكن تجنيده من المريدين لشيخه القديم في بانتن.

إن الرؤساء الآخرين للطرق الصوفية في مكة ليسوا من عناصر الجاوى، بيد أنهم عناصر مهمة بالنسبة للجاويين. إن خليل باشا وسليمان أفندي لهم في المدينة المقدسة المترجمون والمساعدون من الجاويين والملاويين والصونديين، إلى جانب نوابهما في الشرق الأقصى وأرخبيل الملايو. وكانت المراسلات بين هؤلاء الشيوخ ونوابهم نشطة. وغالباً ما تتضمن تقارير النواب في أرخبيل الملايو استفسارات ينبثق عنها أن المشايخ يقومون بإصدار فتاوى شرعية في الأمور التي يثيرها سكان الشرق الأقصى. وقد سبق أن ألمحنا إلى أن قبول الفتوى يعتمد بصورة أساسية على من يطلبها. إن المذهب الذي يختاره السائل طالب الفتوى، هو الذي يحدد الجواب حول هذه الفتاوى.

لما كان هدفنا أن نبحث في الأمور المهمة المتعلقة بمختلف مناطق جزيرة جاوة فلم يبق من الأمور الأخرى التي يمكن إضافتها إلى ما سبق ذكره، سوى بعض الأمور الوجيزة. فهناك شيخ قدم حاجاً من شيربون Sheribon يقوم بتدريس أبناء منطقته مبادئ العقيدة والتشريع. أما منطقة سيمرانج Semarang فيبرز دورها العلمي من خلال شرح محمد المعصوم، الذي ينتمي إلى هذه المنطقة، للآجرومية، والذي طبع عام ١٨٨٦م. أما منطقة كندال فيبرز دورها العلمي أيضاً من خلال كتاب أبو حامد محمد في علوم الصرف والنحو، والذي طبع في عام ١٨٨٥م.

إن الشخصية الأخيرة التي تستحق الشرح والتفصيل من جزيرة جاوة هي الشيخ عبدالشكور من سورابايا Surabaya (إن أبناء قومه يعرفونه باسم عبد سكور على الطريقة الجاوية في نطق الحروف العربية).

لقد قدم هذا الرجل إلى مكة قبل أربعين عاماً، وهو صغير حدث السن، يحدوه الأمل في أن يأخذه أحد رجالات العلم العرب في خدمته ويعلمه لقاء ذلك، وقد كان أساتذة الحرم يقدرون ويحترمون ذكاء ودماثة خلق الخدم من

أبناء الجاوى. لقد دخل عبدالشكور في خدمة السيد محمد شطا، والد مؤلف كتاب إعانة الطالبين. وقد كان لدى الشيخ الذي توفي عام ١٨٨٦م جاويان في داره، أحدهما عبدالشكور الذي كان ملازماً لسيده، يعمل على تلبية جميع رغباته، عند أقل إشارة. ولقد بقي عبدالشكور يعتز بخدمته لأستاذه. وكان يكرس وقت فراغه كله في الدراسة. وقد تتلمذ عبدالشكور على عدد من الأساتذة العرب والجاويين من بينهم الشيخ النواوي وغيره.

إن كل جاوي في مكة يعرف قصة عبدالشكور مع سيده. لقد كان من عادة الشيخ أن يستيقظ ليلاً لأداء صلاة التهجد، وهو بذلك يحتاج إلى الوضوء. ولما كان عبدالشكور حريصاً على خدمة سيده، فقد آثر أن ينام بجوار الحمّام لئلا تفوته خدمة الشيخ. وما أن يسمع التلميذ خطوات أستاذه حتى ينهض ويحضر الماء لوضوء سيده، ثم يصلي معه، وقد تأخر مرة في نومه بجوار الحمّام، فكان أن تعثر به سيده لعدم رؤيته في الظلام، وهو في طريقه إلى الحمّام. فما كان من التلميذ إلا أن قبل قدميه ونهض وأحضر الماء لسيده. ولما اعتذر الشيخ عن ذلك، تقدم إليه التلميذ برجاء أن يوقظه كل ليلة إذا ما دعت الضرورة لذلك. فسر الشيخ من إيثار تلميذه وإخلاصه.

اكتسب عبدالشكور من سيده وغيره من علماء مكة مستوىً رفيعاً في العلوم الإسلامية، ولم يكن من بين صفوف الجاويين من يتكلم العربية خيراً منه، لعدم ممارسته اللغة الملاوية، وهو لا يستطيع الترجمة من العربية إلى الملاوية، كعادة مدرسي الجاوى بهذا الخصوص. وعند وفاة الشيخ محمد شطا[١] أوصى أن تتزوج إحدى بناته الشيخ عبدالشكور، ومن المعروف أن زواج ابنه أحد السادة من أحد أبناء العامة العرب الآخرين أمر غير مألوف، فكيف إذا كان هذا غير عربي. وعلى العموم فقد تزوج الشيخ عبدالشكور

---

(١) هو السيد محمد شطا زين الدين بن محمود بن علي الشافعي، ولد ببلدة دمياط، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم وأخذ العلوم عن أفاضلها ثم رحل إلى مصر، وقرأ بالجامع الأزهر، ثم قدم مكة وتوطن بها وتصدر للتدريس بالمسجد الحرام. توفي بمكة سنة ١٢٦٦هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٣٩٦).

بنات السيد محمد شطا الثلاثة. فعندما توفيت الكبرى تزوج من أختها، وحين لحقت الثانية بأختها، تزوج من الابنة الصغرى، وقد أنجبت اثنتين من البنات.

إن البيئة التي عاشها عبدالشكور قد منحته ريادة عربية طيبة، غير أنه لم يفقد اتجاهات أبناء قومه في ميولهم إلى التصوف. لقد كان يجيد القواعد العربية والمنطق والشعر، وقد درس جميع هذه الموضوعات بنجاح منقطع النظير. وكانت عنقه تشرئب إلى دراسة الفقه والعقيدة وكان في ذلك طالباً وتلميذاً مجتهداً.

إن نظرة الشيخ إلى هذه الموضوعات العلمية تتناسب والتصوف، لذلك كان يهيئ تلاميذه لقراءة كتب الغزالي أو كتب ابن عطاء الله. ونظراً لوجود عدد كبير من أبناء جاوة ممن رغبوا في أخذ العلم عنه، فقد عقد العزم على تدريسهم أسس الشريعة وعناصر العقيدة مع شيء من التصوف بصورة أكثر سهولة من الطريقة العربية المتبعة في التدريس.

لقد كان بيته الذي بجوار الحرم هدفاً لكثير من الناس من مختلف الطبقات، وكان له اختلاط كبير ونشاط واسع مع المثقفين والأساتذة العرب. وفي غضون بضع سنين كان تلاميذه لا يقلون عدداً عن تلاميذ النواوي، وكان الحجاج الجاويون يتعطشون لزيارته. وكان الشيخ المسن النحيل الجسم يحدث مستمعيه بوقار وأدب. فقد كان يتحدث إلى الحجاج ذوي الثقافة القليلة بلغتهم الأصلية بهدف إصلاح مناحي حياتهم. أما للمثقفين فقد كان حديثه باللغة العربية الفصحى يتناول موضوعات الأخلاق والتصوف، مستعيناً بذاكرة فذة، تحفظ الأحاديث الكثيرة في مختلف النواحي الدينية. وقد كان يدعو المتعلمين من أبناء جلدته لتناول الطعام في بيته. وكانوا جميعاً يلبون دعوة الشيخ، ومعهم هداياهم التي تتفق ومنازلهم.

لقد نال أقرباء الشيخ تصريحاً بأعمال الطوافة مستغلين اسمه وسمعته في هذا المجال. ولئن كان أقرباء النواوي يستغلون الحجاج القادمين من منطقتهم، فإن أقرباء الشيخ عبدالشكور يستغلون عدداً أكبر من مختلف المناطق، ممن

قدموا لنوال بركة الشيخ. إن الشيخ نفسه لا يعلم شيئاً من ذلك. ويروي أصدقاؤه أنه لو عرف هذا الاستغلال لامتنع عن ذلك والله أعلم.

علماء جزيرة سومباوا

لم تقدم جزيرة سومباوا شيئاً كثيراً للمستوطنة الجاوية في مكة، منذ شهدت مكة في الجيل السابق أحد رجال العلم من سومباوا هو الشيخ عبدالغني بيما، الذي سبقت الإشارة إليه. وكان الكثيرون لا يعرفون أن بيما تقع في تلك الجزيرة، أما في هذا الجيل فهناك مدرسان حديثا السن ينتميان إلى هذه الجزيرة، وبالذات إلى القسم الجنوبي منها، حيث مسقط رأسيهما، هما زين الدين سومباوا وعمر سومباوا.

إن زين الدين كان في ريعان شبابه، وقد عاش أكثر من ٢٥ عاماً في مكة. لقد تتلمذ في البداية على شيوخ النواوي، ثم أخذ العلم عن آخرين أمثال عبدالحميد الداغستاني وغيره. وكان يتكلم العربية بطلاقة، وكان يعطي كل صباح محاضرة في الشريعة الإسلامية، يحضرها عدد من أبناء الجاوى، من مختلف المناطق، مثل مناطق دلي (Deli) ولامبونج في سومطرا، ومناطق بنجارماسين Banjarmassin وسمباس في بورنيو. أما المحاضرة باللغة العربية فيحضرها الطلبة المتقدمون في العلم. غير أن الشيخ كان يتلقى بعض الأسئلة من بعض الطلبة يحتاج معها إلى الحديث باللغة الملاوية وسيلة الاتصال بالطلبة الجدد غير الملمين بالعربية. أما محاضراته في بيته التي كان يعقدها للمبتدئين فكانت كلها باللغة الملاوية.

أما عمر سومباوا فقد كان أصغر سناً من مواطنه الأول، ولم يكن على درجة كبيرة من العلم، غير أنه كان يتكلم العربية بطلاقة وبشكل نادر بين صفوف قومه. ولم يكن هذا سعيداً في حياته العاطفية. فقد كان قلبه مشغولاً بحب فتاة تنحدر من أب جاوي وأم عربية. وكان يطرق جميع الوسائل ليفوز بفتاته. غير أن خيبة أمله كانت قوية عندما علم أن زين الدين قد تزوجها. لقد كانت محاضرات عمر في بيته فقط ولأبناء بلده.

المؤلفات التي ألفها علماء الجاوى

في مستهل عام ١٨٧٦م وقبل أن تظهر فكرة إقامة مطبعة في مكة، ظهر مؤلف لزين الدين يحوي موضوعات تتعلق بأمور العبادة والشعائر الدينية طبع

في الملايو. أما الآن (١٨٨٥م ـ ١٨٨٦م) فهناك مؤلفان جديدان وجدا طريقيهما إلى المطبعة الجديدة في مكة هما سراج الهدى وهو شرح لمؤلف السنوسي في العقيدة المسمى أم البراهين. وكذلك منهاج السلام في العلاقة بين الإسلام والإيمان. والموضوع الأخير كتب فيه كثير من الكتب في جاوة ويدرس في المدارس الابتدائية هناك. إن العدد الكبير من الكتب التي طبعت في مكة لمؤلفين من الجاوى تظهر أهمية هذا الشعب في المدينة المقدسة. ولقد عينت الحكومة التركية السيد أحمد بن محمد زين من بتاني Batani مالاقا للإشراف على المطبوعات الجاوية. ومن المحتمل أن تكون أعمال العلماء الجاويين من بتاني هي أكبر نسبة من المؤلفات المطبوعة في مكة. ولقد استحق أحمد التقدير التام على عمله هذا. وفي عام ١٨٨٣م قام أحمد المذكور بطبع كتاب له في اللغة العربية بمدينة القاهرة. ويحوي المجلد الرابع من كتاب إعانة الطالبين للسيد بكري قصيدة شعرية قالها أحمد في مدح السيد بكري. ومن المحتمل أن تكون وظيفة أحمد قد حدت به إلى تأليف كتب مدرسية لتلاميذ بتاني، حيث قام بطبعها لهم، ومن هذه الكتب المطبوعة: (مقتطفات من الأحاديث النبوية المتعلقة باليوم الآخر) للمؤلف زين الدين بتاني، ومجموعة الأعمال الكاملة لداود ابن عبدالله بتاني، الذي ألف معظم كتبه بين عام ١٨١٥م ـ ١٨٤٠م والذي يتردد اسمه كثيراً في المخطوطات الملاوية في بتاني. ونجد في مكتبات مكة مجموعة من مؤلفاته منذ عام ١٨٨٠م منها كتاب عن الصلاة مطبوع في بومباي، وآخر بعنوان (كفاية المحتاج عن قصة الإسراء والمعراج)، وإنني أميل إلى الاعتقاد بأن هناك كتاباً آخر من تأليفه عن قوانين الزواج طبع في إسطنبول. ومن نتاج مطبعة الحكومة بمكة، نجد في مكتبات المدينة المقدسة عدداً من كتب داود بن عبدالله، منها كتابه الجليل في الأعمال الفقهية المسمى (فروع المسائل) والذي يستخدم بصفته مرجعاً مهمّاً في جزر الهند الشرقية، وكذلك كتابه (الدر الثمين) الذي يبحث في الفقه أيضاً. وكذلك كتابه (كشف الغمة) الذي يبحث في أمور الحياة الأخرى. وكذلك كتابه (جامع الفوائد) الذي يتضمن مجموعة من القصص المتعلقة

بالمتصوفة. ومن الكتب المطبوعة في مكة شرح من أحد علماء الجاوى على كتاب (جوهرة التوحيد) لصاحبه إبراهيم اللقاني[1] طبع من مخطوط كتب في سامباس، وكذلك شرح لمؤلف آتشي مجهول لحكم بن عطاء الله.

أما الكتب التي طبعت لعلماء من أصل جاوي خارج مطبعة مكة، فكان منها كتاب (بداية الهداية) لمؤلف آتشي، يدعى محمد زين، وهو شرح لمؤلف السنوسي المسمى (أم البراهين) وقد طبع في إسطنبول عام ١٨٨٥م. وكذلك كتاب (الدر النفيس) في الفقه، لمؤلفه محمد نفيس من بنجرماسين Bangermassin في بورنيو، وقد طبع في القاهرة عام ١٧٨٦[2]. والناظر في الكتب المطبوعة لعلماء الجاوى خارج مكة، يدرك أن عبارة أحمد دحلان الواردة في كتابه عن أمراء مكة، والتي تشير إلى أن المطبعة التي أمر السلطان العثماني بإنشائها تتفوق على المطابع الحكومية الأخرى، بأنها تطبع الكتب العربية والتركية والملاوية فيها شيء من المبالغة؛ لأن كثيراً من كتب الجاوى تطبع خارج مطبعة مكة. ومع هذا فإن ما يطبع من كتب لعلماء من أصل جاوي يشكل نسبة كبيرة من إنتاج هذه المطبعة، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار قصر حياة هذه المطبعة.

سكان بونتياناك

إن علماء الجاوى البارزين في مكة لا يمثلون مختلف مناطق أرخبيل الملايو. فعلى سبيل المثال مناطق سامباس وبنجرماسين بورنيو ليس بها علماء كبار، بل هناك عدد كبير من الشباب اليافعين، الذين ما زالوا طلبة علم أكثر منهم أساتذة. وهؤلاء يدرسون على مشايخ الحرم، وهم من مختلف مناطق سومباوا وبتافيا وبانتن، لأن هؤلاء يتكلمون لغتهم، في حين لا يستفيد هؤلاء كثيراً من المحاضرات التي تلقى باللغة العربية، ومن أساتذة عرب، لجهل هؤلاء بهذه اللغة.

---

(١) هو أحد علماء الهنود. وقد عدّه العامة وليّاً بعد وفاته، وبعد ذيوع مؤلفه جوهرة التوحيد، دعي بالجوهري ثم حرفه المكيون إلى الولي جوهر (المؤلف).
وجاء في الأعلام للزركلي ط٣ ص٢١ أن صاحب كتاب (جوهرة التوحيد) إبراهيم اللقاني عالم فاضل من مصر توفي عام ١٠٤١ هـ بالقرب من العقبة.

(٢) هكذا ورد في الأصل ويعتقد أن التاريخ الحقيقي هو ١٨٨٧م.

ويمثل السكان القادمون من بونتياناك Pontinak بورنيو وصفاً فريداً بين عناصر الجاوى في مكة. فمعظم هؤلاء هم أقارب وأصدقاء السلطان في تلك المنطقة. ولقد حج هذا السلطان إلى مكة منذ بضع سنين، حيث أوقف عدداً من البيوت في المدينة المقدسة. وهو يرسل سنوياً المبالغ اللازمة لصيانتها والأموال التي يحتاجها القاطنون فيها من أفراد الجاوى. ويبدو على هؤلاء بعض الملامح العربية؛ لأنهم ينحدرون من أصول عربية، غير أن لغتهم ليست العربية، وهؤلاء ينطبق عليهم المثل العربي القائل (إن الإنسان يرث ثلث ملامحه من خاله). وهؤلاء معروفون بصراحتهم وتواضعهم، وبسلوكهم الذي ينم عن احترامهم لأنفسهم. فهم لا يسمحون لأي عربي أن يهينهم. وقد شاهدت بنفسي كيف أن أحدهم انحاز بشجاعة إلى جانب أحد أفراد الجاوى ضد عربي سليط اللسان. ولقد ذكرنا سابقاً كيف أن أحد مواطني بونتياناك أعلن بكل شجاعة في وسط المجتمع المكي، أنه يفضل حكم الأوروبيين لبلاده. إن هؤلاء ينظرون إلى مثل هذه القضية (قضية حكم الأجانب لهم) من باب الضرورات التي يجيزها الشرع، لذا فليس لديهم التعصب الشديد ضد الحكام الأجانب[1] على الرغم من أنهم مسلمون متحمسون وأتقياء، ويتأثرون بعمق بالحركات السياسية في المجتمع الإسلامي، غير أنهم يدركون أن مثل هذه الحركات هي غير عملية ولا يمكن تطبيقها.

إن سكان بونتياناك في مكة يخضعون لنفوذ عائلة الزواوي. وقد ذكرنا فيما سبق عالمين كريمين من هذه العائلة. وهؤلاء تلقى عليهم مسؤولية تعليم القادمين من موطنهم، حيث يقوم هؤلاء بتدريسهم باللغة الملاوية إلى أن

---

(١) إن تصريح أحد مواطني بونتياناك بأنه يفضل الحكم الهولندي لبلاده لا يعني أن جميع السكان في تلك المنطقة يشاركون هذا المواطن مثل هذا الرأي.
وأظن أن المؤلف قد عمم هذا الرأي الفردي على جميع مواطني بونتياناك ثم حاول أن يفسّر ذلك بأن الحكم الأجنبي هو من باب الضرورة التي يجيزها الشرع، ومعروف أن الشرع لا يجيز احتلال أراضي المسلمين. والرسول الكريم ﷺ يقول: «إذا وطئت أرض المسلمين بات الجهاد فريضة على كل مسلم».

يتقنوا اللغة العربية. والزواوي الأكبر لا يسمح لأبناء جلدته بالدخول في الطريقة النقشبندية، إلا إذا أحرز هؤلاء بعض المهارات في العلوم الشرعية والعربية. ويتلقى بعض أهالي بونتياناك بعض العلم من الشيخ مظهر في المدينة، الذي كان يطلع بعض زواره الأتقياء على بعض الشعرات التي يقال إنها من شعر الرسول الكريم ﷺ محفوظة بالشمع[١].

ولا يقتصر الأمر على بونتياناك فهناك أحد العلماء من مكاساريس Makasaresa من جزر سلبيس الجنوبية. وهو يحاضر باللغة المكاساريسية واللغة الملاوية سويّةً. ويحضر طلابه المحاضرات المسائية في الحرم الشريف.

إن جزيرة سومطرة ترسل عدداً من التلاميذ إلى المدينة المقدسة، غير أن الأساتذة من هذه الجزيرة يحتلون المرتبة الثانية بين أساتذة الجاوى في مكة. وهذه الحالة لن تدوم طويلاً، ويمكن أن يتغير الوضع بالنسبة لهم في العقود القليلة القادمة.

إن الآتشيين الذين استقروا في مكة لم يكونوا مبجلين في وسطهم الجديد. فهم يعتزون كثيراً وبدرجة تثير الحقد من الأوساط العربية، بأن بلادهم هي إحدى مراكز الحضارة الإسلامية الكبيرة. يوجد في مكة عدد قليل من العلماء من بالمبانج. وقد ذكرنا فيما مضى المطوف اللامبونجي الذي كان يقوم بإرشاد أبناء قومه القادمين إلى الحج.

ومن الجدير بالذكر أن جميع مواطني سومطرة تقريباً ينتمون إلى الطرق الصوفية، إذ ينتمون إلى الطريقة القادرية أو النقشبندية، وشيوخهم إما الشيخ سليمان أفندي أو خليل باشا أفندي، وهؤلاء هم من الأتراك أو الشيخ عبدالكريم من بانتن.

لقد كان هناك مطوف من (راوة) في غرب سومطرة، يطلق عليه اسم المطوف زين. لقد كان عمله مطوفاً يبدو قليل الأهمية أمام ذكائه وفطنته.

---

(١) إن الشيخ أمين المدني قد حضر مؤتمر المستشرقين الذي عقد في ليدن عام ١٨٨٣م قد كتب فتوى ضد تقديس هذا الشعر، وعدّ ذلك من مظاهر الكفر. إلا أن أصدقاء مظهر يرون أن ما كتب في هذه الفتوى كان نتيجة الحسد الذي يلاقيه مظهر من جانب أمين (المؤلف).

بيد أن أعمال الطوافة كانت تدار من قبل زوجته لدرجة أنها عرفت بالراويّة. وحينما كنت في مكة كان لديه قرابة ستين ملاوياً يقوم بإعطائهم المحاضرات اليومية.

إن الحياة العلمية لم تكن نشطة في مرتفعات بادانج وفي بالمبانج ونواحيها، الأمر الذي ساعد على رحيل عدد من هؤلاء لطلب العلم في مكة. فمنذ قرابة قرن عاش في مكة الشيخ عبدالصمد بالمبانج (فلمبان). ولقد كانت كتب هذا العالم من أحسن الكتابات الدينية، التي ظهرت في الملايو باللغة الآتشية. وهذه المنطقة زارها الكثير من العلماء العرب، ومن بينهم أحد أبناء ابن حجر. ويقود الحركة الفكرية اليوم في جزر الهند الهولندية عدد من علماء بانتن. وإذا عرفنا مقومات هذه المنطقة وحماس أبنائها إلى العلم ندرك أسباب وجود العدد الكبير من العلماء من بين صفوف هؤلاء. غير أنه في الآونة الأخيرة نجد انصراف عدد من أبناء هذه المنطقة إلى مهن أخرى غير العلوم الشرعية. وعلى كل حال نستطيع القول: إنه منذ ثلاثين سنة كانت مناطق بيما، وسومباس، وبتافيا هي المتفوقة في الأمور العلمية في مكة. أما الآن فنجد بانتن وسورابابا، أما قبل ذلك فكانت الشهرة لمناطق بنجرماسين وبالمبانج وآتشية.

وفي نهاية حديثي عن المستوطنة الجاوية في مكة أسمح لنفسي بأن أقول بضع كلمات عن الأهمية السياسية في الأمور المرتبطة بالحج من جزر الهند الهولندية.

الأهمية السياسية للحج

إن القارئ لما سبق لا يمكنه أن يقبل بآراء عدد من موظفي الحكومة الرسميين، الذين يرون أن الحجاج هم أعداء ألداء للحكم القائم. فالكثير من الحجاج الجاويين يعودون كما ذهبوا دون أدنى تأثر. أما مظاهر الاحترام والتبجيل التي يحظى بها القادمون من الحج، وخاصة حينما يرتدون الملابس العربية، فإنها تقل تدريجياً لسببين هما: زيادة عدد الحجاج من جهة، وظهور الوعي عند السكان المحليين من جهة أخرى. غير أنه في الوقت الحاضر ما تزال توجد بين صفوف الحجاج المنتشرين في طول

البلاد وعرضها المقومات المادية لإشعال الثورة، والتي يجب ألا نقلل من أهمية خطورتها، وخاصة إذا وجد أحد المتحمسين، الذين يرمون بالشرارة الأولى. إن قابلية إشعال الثورة بين صفوف الحجاج تعود إلى أن مصالح الحجاج مناقضة لمصالح الحكومة واهتماماتها. فالكثير من الحجاج يعودون من الديار المقدسة، وقد جلبوا معهم الإخلاص للرابطة الإسلامية التي تثير لدى السكان التعصب الديني بسهولة.

أثر المستوطنة الجاوية في الأمور السياسية في جزر الهند الشرقية

أما أولئك الذين طال بهم المقام في مكة فقد أصبحوا مدرسين للشريعة، ويقدرهم المجتمع تقديراً عالياً، أو أصبحوا أعضاء ناشطين في الطرق الصوفية. وهؤلاء وأولئك يقدمون القيم والمفاهيم الإسلامية لأرخبيل الملايو على خلاف الحجاج، الذين يثيرون صفوف العامة بالحركات المناوئة للدولة. وتأثير الحجاج محدود لا يتعدى تكدير صفو الأمن، في حين تأثير أولئك تأثير بطيء ثابت ومستمر على مشاعر الناس وعواطفهم السائدة، وهذه النتائج غير المباشرة للحج، هي في الواقع ذات الأهمية الكبرى. وإنه من المؤسف حقاً أنه لم تتخذ إجراءات لمجابهة مثل هذه الأمور في الماضي، وخاصة في المناطق التي لم يكن يخرج منها عدد من الحجاج. ويشعر المرء أن وضع الإجراءات لتغيير المسار قد انتهى الآن. إن تقييد السماح بالحج لمن يثبت أن لديه الإمكانات الخاصة بذلك، أمر له قيمته. غير أنه لا يمكن الذهاب بهذا التقييد بعيداً؛ لأنه سيؤدي في النهاية إلى وجود نوع من الاضطهاد الديني للسكان. وقد يستغل المكيون هذا الأمر بين صفوف الجاوى.

إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة. إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق الإسلامية في إندونيسية. فهنا في مكة تبدأ خيوط الطرق الصوفية المنتشرة في بلاد الجاوى. ومن هنا تؤخذ الكتب التي تستعمل في المدارس الدينية هناك. ومن خلال أقرباء الجاويين وأصدقائهم في مكة ينضم عدد من أبناء الجاوى ويسهمون في سلك الحياة الإسلامية. ولما

كان من غير المستطاع الآن وضع الحواجز أمام تيار الحج، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع قدوم البذور العربية التي تترعرع وتنمو في مكة، وتعود إلى جزر الهند الشرقية، وقد أصبحت نباتات كبيرة تتكاثر وتزدهر وتنمو من جديد. لهذا فإن من الأهمية بمكان أن تعرف الحكومة (الهولندية) ماذا يجري في مكة وما هي الأمور التي تصدر عنها كل عام. وكيف يمكن الاستفادة من ذلك بطريقة ذكية تتضمن دعم الحكومة، أو على الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر. ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو، وذلك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه، كما توجه الريح الشراع، أو على الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلاً، وذلك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي. وإذا تجنبنا المقاييس الخاطئة المبنية على سوء الفهم لمثل هذه الأمور، والتي تعتمد على الكراهية المطلقة أحياناً وعلى التساهل الشديد أحياناً أخرى، فإننا سننجح في هذه المهمة. إن تصنيف السكان إلى حجاج وأتباع طرق صوفية ومتعلمين درسوا في مكة، ونعتهم بأوصاف مثل جماعات خطرة ومتعصبة وغير ذلك من الكنى أمور لا تجدي نفعاً. إن الفرق الثلاثة السابقة تمثل العلاقات الثقافية التي تربط أرخبيل الملايو بعالم الإسلام. ويجب أن ينظر إليها بصورة أكثر عمقاً من قبل السلطات الإدارية الأوروبية، حتى لا تكون النتيجة هي تنفير العناصر المعتدلة من السكان، وذلك إما بالتعالي عليهم أو بضيق الأفق الناجم عن الجهل بأحوالهم، وبجانب ذلك يجب أن تعرف العناصر التي لا يمكن استمالتها، وأن يؤخذ بالاعتبار كل حركة جديدة، وأن تتخذ كافة السبل لتقدير أهميتها.

احتقار الهولنديين للحجاج

لقد قابلت في جدة قبطان سفينة هولندية ستقل بضع مئات من الحجاج في طريق عودتهم إلى أرخبيل الملايو. وقبل أن تبدأ رحلة العودة بيوم، سمعته يتحدث عن البدائيين والمتوحشين، الذين سيقلهم على ظهر باخرته، وقد أخبرته أنني أعرف عدداً كبيراً من هؤلاء، ممن ليس لديهم الثقافة، لكنني أعرف أيضاً أن عدداً آخر قد درس عدداً كبيراً من السنوات، الأمر الذي يؤهله لقيادة شعبه. وقد حذرته من أن يعدّ جميع الحجاج على باخرته كلهم

من نوع واحد؛ لأنهم يلبسون لباساً موحداً. ولقد ضحك ربان السفينة مبدياً شكوكه حينما قلت له: إن من بين هؤلاء من يجيد قراءة الكتب العلمية بلغتين أو أكثر. إن الربان ربما يجهل أن المواطن الجاوي العادي أكثر تفوقاً من الضابط الإداري الحديث في مختلف أشكال العلاقات الاجتماعية الدقيقة. وعلى الرغم من كل ذلك لقد كان جواب الربان، إن الحجي هو الحجي، ذلك الشخص البدائي على الرغم من علمه وثقافته.

لقد كان على هؤلاء الحجاج أن يبقوا تحت رحمة هذا الربان أسابيع قليلة على ظهر سفينة كبيرة. وعلى الرغم من حسن دعابة هذا الملاح، فقد كان يعاملهم جميعاً معاملة متساوية باعتبارهم بدائيين وهمجاً. إن معاملة الحكام لهؤلاء الناس الذين يلبسون لباساً موحداً، ويتسمون بأسماء متشابهة، يجب أن تكون مختلفة عن معاملة هذا الربان في ذلك الجزء من العالم، الذي أطلق عليه المؤلفون الموهوبون، في إحدى الفترات الحرجة، اسم (إمبراطورية الجزر الضخمة) (إنسولند Insulinde). إن الأخطاء التي يرتكبها هؤلاء الموظفون الرسميون مع الأسف يمكن أن تكون ذات نتائج أكثر خطورة من رحلة سريعة بين جدة وبتافيا.

وآمل أن تؤدي المعرفة المتزايدة بأمور الحياة الدينية لشعوب الجاوى «الهولنديين» إلى الإقلال من هذه الأخطاء الجسيمة بدرجة كبيرة[١].

---

(١) علق الشيخ حمد الجاسر ـ يحفظه الله ـ على هذا الفصل بقوله: ومن أمتع فصول هذا الكتاب وأوفاها ما تحدث عنه بتفصيل عما يتعلق بسكان الملايو، وعن نظرتهم إلى الدولة التي استعمرت بلادهم، وهو لا يقتصر على هذا؛ بل يتناول بإيجاز أحوال سكان الهند، وسكان بلاد الجزائر وغيرها من مستعمراتهم.

ولقد أفاض الكلام عن أمرين مهمين هما: إقبال بعض الحجاج الجاويين على طلب العلم إقبالاً مكن عدداً منهم بلوغ مرتبة تؤهله للقيام بالأعمال الدينية، ونشر تعاليم الدين الإسلامي في بلادهم حين يعودون إليها.

والأمر الثاني: عن انتشار الإسلام في تلك البلاد، والقضاء على معالم الوثنية فيها.

إن (سنوك) هنا ـ وهو من أرسخ علماء الاستشراق في الشؤون الدينية، ومن دعاة الاستعمار أيضاً الذين هم في ألفة مع أعداء الإسلام ـ يقرر بصراحة أن الدين الإسلامي انتشر في أرخبيل الملايو، ودخل بصورة تدريجية، وبدون قوة السلاح، وبتأثير ما يتصف به من عدالة ومن دعوة =

= إلى الإصلاح،مما تتقبله النفوس تقبلاً منبعثاً عن رغبة، بينما يتخذ كثير من أبناء جلدته وأشباهه من أعداء الإسلام الحكم عليه بأنه إنما انتشر بقوة السلاح لا بطريقة الحجة والإقناع والرغبة القوية من ذوي الفطر السليمة بالإقبال عليه.

ولقد تطرق بذكر قوة الصلة بين العلماء في مكة والعلماء في بلاد جاوة، وتأثير هذه الصلة تأثيراً عميقاً بين عموم سكان البلاد الجاوية من الناحية الروحية.

مشيراً إلى انتشار المؤلفات الدينية التي تأتي من مكة إلى هذه البلاد، مما ألفه علماء جاويون أو علماء مكيون، ممن لهم منزلة مؤثرة لدى سكان الهند الشرقية.

وأبرز أهمية من استوطن من بقايا الحجاج الجاويين، وتأثير هؤلاء في البلد الأم من الناحية الروحية.

وقد وصف الحج بأنه: (عبارة عن قناة تجري فيها تيارات الحياة الإسلامية إلى أراضي جاوة).

ولم يفته التحدث بتفصيل عن أشهر العماء الجاويين من حيث ماضيهم ومختلف أحوالهم، وقد أطال الكلام على أفراد منهم، من أشهرهم في عهده الشيخ محمد نواوي، فقد فصَّل الكلام عنه، وذكر مؤلفاته، ووصف كثيراً من أحواله، وحينما انتهى من التحدث عن شيوخ الطرق الصوفية ـ الذين أفاض في حديثه عنهم ـ عاد ليفصل الكلام عن العلماء الجاويين بالنسبة لمواطنهم، مع ذكر المؤلفات التي أَلَّفها أولئك العلماء، وأن من أوائلها ما طبع في مكة، حيث أنشئت مطبعة في هذه المدينة سنة (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦م) فطبع فيها عدد كبير من تلك المؤلفات، وصفها بقوله: (إن العدد الكبير من الكتب التي طبعت في مكة لمؤلفين من جاوة تظهر أهمية هذا الشعب في المدينة المقدسة).

وقد ذكر أن الحكومة التركية عينت السيد أحمد بن محمد زين من (بتاني) مشرفاً على المطبوعات الجاوية، وأن من المحتمل أن تكون أعمال الجاويين من (بتاني) هي أكبر نسبة من المؤلفات المطبوعة في مكة، وأورد أسماء مؤلفات جاوية أخرى طبعت في مطبعة الحكومة التي أنشئت في مكة إضافة إلى كتب أخرى طبعت خارج مطبعة مكة.

لقد كان مما كتبه (سنوك) عن هذا الشعب الكريم في جميع أحواله من أمتع وأوفى ما قرأت وخاصة ما يتعلق بالجانب الثقافي العلمي من ذكر العلماء بتفصيل في تلك البلاد.

وعن تأثر ذلك الشعب الكريم بصلة كثير منهم بعلماء مكة تأثراً كان له الأثر الطيب بانتشار الإسلام في بلاد جاوة، وإقبال السكان على اعتناق ذلك الدين الحنيف والتخلق بأخلاقه الكريمة.

ويختتم (سنوك) هذا الفصل ـ الذي هو خاتمة الكتاب ـ بالإفصاح عما أحجم عنه في مواضع أخرى، من تأثر الحجاج الجاويين في أثناء حجهم واختلاطهم بغيرهم في مكة المكرمة بالاتجاهات الفكرية المعادية للاستعمار، مما يصح القول معه بأن ما ختم به كتابه من ذلك هو الغاية من تأليف هذا الكتاب، فيقول ما خلاصته: (أثر المستوطنة الجاوية في =

= الأمور السياسية في جزر الهند الشرقية. أما أولئك الذين طال بهم المقام في مكة فقد أصبحوا مدرِّسين للشريعة، ويقدِّرهم المجتمع تقديراً عالياً، أو أصبحوا أعضاء ناشطين في الطرق الصوفية، وهؤلاء وأولئك يقدمون القيم والمفاهيم الإسلامية لأرخبيل الملايو، على خلاف الحجاج الذين يثيرون صفوف العامة بالحركات المناوئة للدولة (هولندة) وتأثير الحجاج محدود لا يتعدى تكدير صفو الأمن، في حين تأثير أولئك تأثير بطيء ثابت مستمر على مشاعر الناس وعواطفهم السائدة، وهذه النتائج غير المباشرة للحج هي في الواقع ذات الأهمية الكبرى. وإنه من المؤسف حقاً أنه لم تتخذ إجراءات لمجابهة مثل هذه الأمور في الماضي، وخاصة في المناطق التي لم يكن يخرج منها عدد من الحجاج) اهـ.

ثم يستخلص مما تقدم قوله: (إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة، إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية، الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق الإسلامية في إندونسية، ثم يندفع في إبداء ما يراه من آراء يوجهها لحكومته، فيقول: (ولما كان من غير المستطاع الآن وضع الحواجز أمام تيار الحج، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع قدوم البذور العربية، التي تترعرع وتنمو في مكة، وتعود إلى جزر الهند الشرقية، وقد أصبحت نباتات كبيرة تتكاثر وتزدهر وتنمو من جديد، لهذا فإن من الأهمية بمكان أن تعرف الحكومة الهولندية ماذا يجري في مكة، وما هي الأمور التي تصدر عنها كل عام، وكيف يمكن الاستفادة من ذلك بطريقة ذكية تتضمن دعم الحكومة، أو على الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر، ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو، وذلك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه كما توجه الريح الشراع، أوعلى الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلاً، وذلك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي اهـ.

هذا هو كلام (سنوك) فكيف يصح إحسان الظن به من حيث نظرته إلى الإسلام. (المجلة العربية عدد ربيع الأول ١٤١٧هـ ص١٠١ ـ ١٠٣).

الملاحق

- ملحق رقم (١)
- ملحق رقم (٢)
- ملحق رقم (٣)
- ملحق رقم (٤)
- ملحق رقم (٥)
- ملحق رقم (٦) أشجار النسب
  - ١ ـ شجرة النسب الأولى
  - ٢ ـ شجرة النسب الثانية
  - ٣ ـ شجرة النسب الثالثة
- ملحق رقم (٧) أشكال وصور مختارة
- ملحق رقم (٨) الصناعات التقليدية

نبذة عن الملاحق

إن الوثائق الآتية المرفقة بصفتها ملاحق سوف تهم المستشرقين أولاً، ثم أولئك القراء الذين يريدون أن يسمعوا، لا من زائر أجنبي إلى مكة، بل من المكيين أنفسهم وهم يصفون ظروف مدينتهم، **فالملحقان رقم (١) ورقم (٢)** يعطيان صورة عن سوء الإدارة المرعب للشريف عبدالمطلب في أثناء حكمه للمرة الثالثة (١٨٨٠ ـ ١٨٨٢م)، حيث نجد في **الملحق رقم (١)** تقريراً حول المعاملة القاسية التي عانى منها رجلان من عتيبة من قبل رجال الشريف، وكذلك عدم الاتفاق الناتج عن ذلك بين الشريف والوالي.

أما **الملحق رقم (٢)** فيعطي صورة طبق الأصل للنسخة الموجودة لدي عن الاستدعاء (المعروض) المقدم في آب (أغسطس) ١٨٨١م، من المكيين إلى السلطان لإقالة عبدالمطلب والتي تمت فعلياً في العام التالي، وقد قمت بتصحيح بعض الأخطاء اللغوية لكنها لم تف بالمتطلبات المطلوبة.

الملحق رقم (٣) والملحق رقم (٤) يعودان بنا إلى أيام الحاكم العام القوي عثمان نوري باشا ١٨٨٢ ـ ١٨٨٦م (١٣٠٠ ـ ١٣٠٤هـ) الذي عزل الكهل عبدالمطلب، ووضع مكانه الشريف الجديد عون، وكلا الوثيقتين يعود تاريخهما إلى فترة النزاع بين السلطتين. **الملحق رقم (٣)** يمثل رسالة وصلت إلى عثمان باشا من ضابط أرسله إلى ينبع للقضاء على البدو المعادين. إن ظهور هؤلاء البدو له علاقة بعمليات السطو على الطريق بين مكة والمدينة، ومنها نرى كيف أراد كل من الوالي والشريف عون أن يبيّنا لبعضهما كيف أنه عاجز عن المحافظة على النظام وحده، وتحت هذه الظروف فإن الشبهة تدور على أن أعداء عثمان قد تصرفوا بالاتفاق مع الشريف. رسالة الضابط (باللغة التركية) هذه، والتي يكتب فيها عن القضاء على البدو، أمر عثمان باشا بترجمتها إلى العربية وطبعها مع تحرير كتبه بنفسه بواسطة المطبعة التي فتحها في مكة، وذلك من أجل تخويف الحزب المعادي لشريف مكة.

الملحق رقم (٤) هو إعلان للثورة وقتل عثمان باشا، وقد علق على جدران المسجد عدة نسخ من قبل أيادٍ غير معروفة في عام ١٨٨٥م.

وقد تم صياغتها على ما يبدو من قبل أضعف أعداء عثمان، الذين يعود غضبهم بالدرجة الأولى إلى حرمانهم من حصتهم من القمح المصري.

أما **الملحق (٥)** فيضم قصيدة الرثاء التي قيلت عند موت الشريف عبدالله والتي كتبت من قبل الشاعر بديوي وذلك في الطائف بصفتها عينة لأفضل إنتاجٍ أدبي في الحجاز في الوقت الحاضر (١٨٨٥م/١٣٠٣هـ).

الملحق رقم (١)

ونعرفكم بالشريف والوالي، فالعلاقة بينهما متكدرة إلى أقصى درجاتها. وأسبابه من مادة الغزوة كان في السابق بينهم في الأنفس كما هو معلوم لكم والآن بهذه الواسطة انكسرت زيادة. وكان أسباب الغزوة هذا هو أن عيال الشريف لما توجهوا من مكة ومعهم الشريف دخيل الله العواجي ومحمد جابر اليماني، ولما وصلوا إلى السيل مرحلة قبل الطائف نزلوا هناك على بير، وكانوا نازلين بقرب البير عرب قبيلتين من عتيبة يقال لهم: القثمة والثبتة وفي أثناء النهار وردوا البير بأغنامهم لأجل السقية، ومنعوهم أتباع الشريف وصار بينهم مخاصمة فلما سمعوا الغارة ولد العواجي ومحمد جابر أمروا في الحال أتباعهم بالقبض عليهم وحوز الأغنام والذي كانوا مع الأغنام حريم وأولاد صغار ورجل واحد شيبة فقبضوا على الرجل وكتفوه بالحبال وأخذوا ما على الحريم من البراقع وحازوا الأغنام عندهم ففروا الأولاد والحريم هاربين إلى جماعتهم صايحين بما صار فبوقته تحزبوا الرجال بالسلاح وحضروا وكان ذلك الوقت بعد العصر وهم قد شدوا من السيل ودرجوا بالجمال وحصلت الملاقاة وصارت المحاربة بينهم بالبنادق وقتل من العربان واحد ومن جماعة الشريف واحد من بيته وواحد من العبيد البواردية وجملة مصاويب من الطرفين وكانت القوة للعربان فلما رأوا ذلك جماعة الشريف طلبوا الأمان من العربان وفكو لهم الرجل المكتوف وأعطوهم الأغنام وبراقع الحريم فأخذوها ومضوا إلى حال سبيلهم ولما وصلوا جماعة الشريف إلى الطائف وأخبروا الشريف بما صار غضب وأعلن في الطائف بمنادي على غزو هذه القبيلتين وكتب إلى قبائل العربان من ثقيف وهذيل وخلافهم بغزو هذه القبيلتين وأمر على أهل الطايف بثمانين نفر وعلى حضارم مكة بمائة نفر وفي حال تجمعهم وصلوا ثمانية أنفار من كبار العربان العاصيين منهم من المشاهير أسماهم اثنين واحد يسما ابن حريشم والثاني يسما ابن حامد ونزلوا في السلامة عند الوالي صايحين عليه أن يطلب لهم الأمان من الشريف وأن لا يغزوهم وأبدوا للباشا أن لم حصل منهم

عصيان ولا اعتدوا على القافلة بل جماعة الشريف المعتدين بالقبض على رحلهم ونهب أغنامهم فدافعوا عن مالهم وأنفسهم ونحن الآن تحت تصرف الدولة إن أردتم الآن نحضركم نفر رهاين توضعوهم في الحبس لأجل تأمين الطريق أو نحضر جميعاً بأهلنا ونخيم في السلامة بقرب الباشا فنحن تحت الأمر فأمنهم الوالي تلك الليلة وضيفهم عنده وأوعدهم بأخذ الأمان من الشريف وتوجه الوالي إلى الشريف في المتنا مع العربان وطلب من الشريف الأمان لهم وعدم غزوهم ينقعدوا (إن قعدوا) بجميع مطاليب الشريف فوافق الشريف على ذلك وخرج من عنده الوالي بالعربان ومن بعد مضي كم ساعة أرسل الشريف إلى الوالي عدم الرضا بالصلح وليس لهم عند الشريف إلا السيف فزعل الوالي كثير على اختلاف الكلام الذي صار وكيف ناس يطلبوا أمان الدولة يحاربوهم فأولاً أرسل بالشيخ المفتي يراجع الشريف فلم كان يقبل وثانياً أرسل الدفتر دار واللوا باشة العسكر يراجعوه فلم كان يقبل وهم هاولاي المذكورين الدفتر دار واللوا أسباب الفساد ما بين الوالي والشريف وهم ما يلين في جهة الشريف ومساعدينه في جميع أموره فلما رأى الوالي عدم قبول الصلح من الشريف زعل كثير ومنع عن إعطاء الشريف عساكر ومهمات للغزوة فراجعه باشة العسكر وأراد أن يجهز العسكر مع الغزوة فلم كان يوافق الوالي وصارت منافسة كبيرة مع باشة العسكر والوالي وتوقف الوالي على مساعدة الشريف ورجع الوالي الثمانية الأنفار العربان في الأمان مع الخيالة إلى محلهم وجهز الشريف الغزوة بغير عسكر وتوجهوا قبايل ثقيف وأهل الطايف وعليهم رايس ولد العواجي والشريف عبدالمجيد أمير الطايف ومن مكة توجه الشريف حمزة ومعه قبايل هذيل وجحادلة نحو ستماية نفر من طريق الثنية والشريف علي بن سعد قائم مقام مكة نوجه من طريق السيل ومعه أهل مكة من حضارم وأهل المعابدة وجرول وخلافهم نحو خمسماية نفر وبلغنا الآن علي بن سعد وصل السيل وحمزة وصل ريحه محل فيه جماعة من العربان حرق ثلاثة بيوت لهم وقبض على خمسة عشر نفر من الثبتة ونفر عدد (١٠) من القثمة وجماعة الطائف لم صار منهم شيء وهذا الخبر الذي صار من حمزة وصل اليوم وبعده لم جاء خبر من جهتهم لزم إعلامكم وغالباً علماً (= على ما) بلغنا أن يصير الصلح بينهم علموجب (= على موجب) إشاعات الناس والله أعلم وحرر هذا بخصوص ما ذكر ١٨ رجب سنة ١٣٩٨.

الملحق رقم (٢)

وقايع حال ونصيحة إسلامية إلى عزتلو سليمان بيك ياور الدولة العلية ونعرض إلى المراحم السلطانية ونسأله أن يوفقه بجاه خير البرية سبحان من تفرد بالبقا وأجرا على عباده القضا وسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون وهو القاهر فوق عباده سبحانه من حكيم أعطا وأرضا فمنهم من طغى وتجبر ومنهم من أقام العل ورفع المنكر ومن حكمه الربانية يمهل من طغى في البلاد ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ألهم احمنا بعين حمايتك الربانية ووفقنا إلى طاعتك المرضية وشيد أمر ديننا وحقن دمائنا وتامننا على أموالنا بعبدك الذي تختاره وترضاه ولا نولي علينا من لا يخافك ولا يرحمنا يا رباه دعونا لك ربنا فاستجب لنا كما وعدتنا أنك قلت وقولك الحق ادعوني استجب لكم وبعد ننهي إلى مراحم دولتنا العلية ما هو واقع علينا بعدم حصول الأمنية وذلك أننا من عام السابع والتسعين شرفت ركاب الأمارة إلى مكة المكرمة إلى هذا التاريخ ونحن في أشد الكرب من جهة المظالم الحالة علينا بوجوه متعددة فأول وجه أن مقدمين أهل مكة القاطنين بها وقعت علينا أمور عظيمة ومظالم جسيمة لم نعهد مثلها قط ولا أسلافنا من حين تناولتنا أيدي الدولة العلية وحفتنا بمراحمها العثمانية من جملة ما وقع علينا وظهر أمره عند كل أحد أن منا من انفرش بغير جناية ومات ومنا من أخذت أمواله ويجعلوا لها طريقة أما أنهم يشترو مشتروات ولم يدفعوا أثمانها وإلا يطلبوا فلوس نقدية من العالم جبراً وإن طلب منهم سند بما هو له ما يعطوه فحكم فلوسه راحت بوجه إن ما بيده سند وخزينة الإمارة تدخل ما تخرج وأيضاً منا من أخذت أماكنه بدون إقامة دعوى ومع ذلك لو ادعى فمن السامع ولو أراد أحد المظلومين أن يسترحم من الأمارة ما يجد عليها طريقاً ويمنعوه الخدم عن المواجهة ويجد من يعهد الخدمة يرد كل من له مادة متعلقة بدائرة الأمارة وهما أعوان الشريف هاروت وماروت أعني بذلك الشامي واليماني ومنا من أخذت معاوشهم الذي كانوا مستترين بها ووجهتها الأمارة لحيث شاءت

ومنما وقع علينا معوشة رزق ألف نفر من المسلمين حرموهم منها وحكروها لرجل واحد من أتباع الأمارة فانظر بالله عليك هذه العدالة الذي ما قط سمع بمثلها وليت شعري إن الذي وقع عليهم هذا الفرش وأخذت أموالهم واستولى على ما هو لهم بوجه من وجوه الحقانية أما شرعاً أو قانوناً الحاصل أن صفة الأحوال الواقعة علينا أن أخذ حقنا ما وجدنا من يخلصنا أو يمنع عنا الضرر وإن صحنا ما أحد مستمع لندانا فهو كما قال:

لقد ناديت إذا أسمعت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

والضرر الخارج عنا ولحقنا أذاه ما هو واقع على العربان الجالبين إلى مكة أصناف الحب والسمن والغنم وما أشبه ذلك وهو أن جميع ما يقدم إلى مكة من العربان من ابتداء الأمر ومعه الأصناف المذكورة وهو قادمن وبعد أن يصل مكة ويبيع ما هو جالبه في سوق مكة ويستلم الثمن لم يشعر إلا وتكانفوه مراسيل الشريف ويستحضروه عند أحد الأعوان فمن حين يحضر يتهدد عليه ويظهر للحاضرين أنه من الفسدة ويأخذ منه الدارهم المتحصلة عنده أعني البدوي ثمن الأصناف الذي سبق ذكرها ثم بعد أخذ الدراهم يضعوه في الحبس يوم وبعده يفكوه بواسطة رجا أحد والحاصل أن كل ذلك تحصيل حاصل على فلوسهم ولو أن هؤلاء العربان معلنين بالعصيان أو مظهرين فساد ما جو إلى مكة بهذه الأرزاق كان قعدوا في ديارهم ووجه الضرر الذي يلحقنا أذاه إذا انفك هذا البدوي من أيديهم ووصل إلى جماعته وخبرهم بما وقع عليه من الأمارة أو من أتباعها تعصبوا وشرعوا في الفساد ولحقنا منهم ضررين يمنعوا المجلوبات من الأصناف الذي يجلبوها فإذا منعوا ذلك تزايدت أثمان الأصناف المذكورة وخلافها وثاني وجه أنهم يشرعوا في قطع طرق المسلمين والحاصل أن ما هو واقع على العربان لاحقنا أذاه يا أهل مكة وما هو واقع علينا فهو علينا ونحن صابرين ومتحملين لا لنا معرفة بالبدو حتى أننا نهيج من مكة ونسكن معهم ولا لنا مقدرة على مدافعة الأمر الواقع علينا ولا لنا ملجأ غير الله ثم دولتنا العلية ومؤتمنيها بهذا الطرف ومع ذلك أننا عمال نرفع كل ما يقع علينا من ابتدأ الأمر في مدة دولة أفندينا ناشد باشا كل ما وقع علينا من المظالم ولا رأينا نتيجة بأمر ما لا رفع عنا الضرر ولا خلصنا بما أخذوه علينا وناظرنا من دولته أنه يفعل أحد الحالتين أو أنه يرفع ما قدم له وما رآه علينا لحضرة مراحم دولتنا أنكان ما له مقدرة برفع ذلك ودولتنا أولا بنا فما رأينا إلا ظاهر الأمر الضرر ما ارتفع عنا وما ندري هل أن دولتنا سمعت

بذلك أم لا رفعنا لحضرة أفندينا صفوت باشا ما وقع علينا في مدة دولته ولم نر إلا كل ما نرفع شكية تتزايد علينا البلية ودولة أفندينا مشاهد جميع الأمور وما نرى من حضرة أفندينا ربنا يديم وجوده غير أخذ خواطر المظلومين وجلب خواطر المأخوذين فما ندري هل أن الأمارة مرخصة في هلاكنا وحضرة أفندينا ما له تعرض في رفع ذلك أو أن أفندينا أعرض لدولتنا بما هو واقع وأمرته الدولة أن لا يتعرض الأمارة فيما تجربه أو أن حضرة أفندينا ما رفع لدولتنا أمرنا فتحير أمرنا وحار فكرنا وما ندري هل أن دولتنا أطلعت على عرايضنا المقدمة إلى مؤتمنيها بهذا الطرف أم لا فإن كان ما اطلعت علينا فدولتنا في سعة من اللهو ولا تعاقب بذنوبنا وإن كان رفع لدولتنا بما هو واقع علينا من الضرر وصفحت عن رفعه فنقول حسبنا الله ونعم الوكيل ونصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ويهيء لنا بالفرج القريب أنه سميع مجيب وإنما بلغ دولتنا أمرنا فها نحن قد رفعنا هذه العريضة وننتظر عاقبة أمرها ونحن بذمة الله ثم بذمة الدولة العلية وهي المسئولة عنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وكل راع مسئول عن رعيته ونحن بذمة الدولة ما نحن بذمة أتباعها وترانا في أشد الكرب ووصلت الروح الحلقوم وضاقت علينا الأرض بما رحبت حتى أن بعضنا ألجئهم هذا الأمر الواقع أنهم يدخلوا في حمايات الدول الأجنبية لأجل حقن دماءهم وحفظ أموالهم فنترجا على دولتنا أن تنظر لنا بعين الرأفة والرحمة وترفع عنا الضرر كي لا يعاقبها المولا بذنوبنا ويكون سبب اضمحلالها وزوال دولتها هذا الأمر ونحن جيران البيت وحمدنا الله يا حضرة البيك الذي من علينا بمجيئك ونترجاك أن تحقق عن هذه المواد وترفع لدولتنا ما تراه علينا من خلاف وما رفع منا لك وأنت لسان حال عنا عند رجوعك بالسلامة إلى الدولة وتخبرهم بما رأيت من خلاف وما يبلغك وما يرفع لك وفوضنا أمرنا إلى أحكم الحاكمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الملحق رقم (٣)

التقرير الرسمي حول تأديب البدو بالقرب من ينبع (مارس عام ١٨٨٦م) جمادى الآخرة ١٣٠٣هـ. هذه ترجمة للرسالة من قائد قوات المليشيا التي أرسلت إلى ينبع لبناء سور وحصن المدعو محمد لطفي بيه بتاريخ ١٣ مارس عام ١٨٨٦م الموافق ١٣٠٣هـ.

علمنا في ١٢ من الشهر الجاري بأن بدو بني إبراهيم وسكان ينبع النخل[١] وكذلك بعض البدو الذين يرتبطون مع قبائل الشيخ الأكبر إبراهيم بن مطلق وقبيلة الصراصرة من جهينة[٢] قد اتحدوا واتفقوا على محاربة قواتنا السلطانية وتحطيم باب ينبع البحر ومهاجمة المدينة ونهبها، وفي اليوم الثاني لوصول المحافظ المدينة وعندما نزل إلى البر ودخل إلى مبنى الحكومة، رأينا الأشرار المذكورين أعلاه مقابل الجهة اليمنى لمعسكر القوات السلطانية يتقدمون على بعد مسيرة نصف ساعة، وقد دخلوا في التحصينات التي عملتها سابقاً القوات المصرية، وبدؤوا يقومون بالإزعاج والتحديات، ثم بدؤوا يبنون سوراً وبعد أن رأيت ذلك بنفسي وتحققت بأن مكان إقامتهم يمكن إصابته بواسطة المدافع الموجودة على السفن في البحر أخبرت قائد القوات البحرية عن طريق الإشارات بأن يضرب القنابل عليهم وعندما يرى قواتنا تنقض على إمداداتهم عليه أن يوقف إطلاق النار، وقد كلفت البنباشي بكر أفندي مع ١٥٠ رجلاً، أي سريتين بالقيام بالهجوم، وأخذت تحت إمرتي سرية ومدفع لحماية ظهر القوات المرسلة في المعسكر، وللدفاع عن المدينة

---

(١) ينبع النخل تقع على مسافة ست ساعات إلى الشمال من ميناء ينبع البحر وتحتوي على عدة قرى وفيها مزروعات مثمرة (المؤلف) وهي تقع شرق ينبع البحر حيث ترتبط مع ينبع البحر بطريق معبد، وهي بلدة قديمة أما ينبع البحر فقد أسست أوائل القرن الرابع الهجري في عهد الدولة الأيوبية، وعرفت بهذا الاسم تمييزاً لها عن ينبع النخل. وهي مدينة ساحلية تبعد عن المدينة المنورة قرابة ٢٥٠ كم، وهي ميناء المدينة المنورة. وإلى الجنوب منها قامت مدينة ينبع الصناعية التي تنتهي إليها أنابيب النفط القادمة من المنطقة الشرقية وتضم العديد من المؤسسات الصناعية الخاصة بالبتروكيماويات.

(٢) حول هذا الشيخ انظر إلى الملاحظة في نهاية هذا الملحق (المؤلف).

تركت ثلاث سرايا وأمرتها بتقديم المساعدة عند الضرورة، وأخبرت نائب القائم مقام بكل ذلك، وعندما قمنا بإطلاق نيران المدافع والمهاجمة، تسللت بقواتي خلف القوات المهاجمة أنتظر الأوغاد، إلى أن أصبح المهاجمون على بعد ٣٠٠ خطوة من التحصينات، ثم هربوا مثل الجراد إلى المنشآت الواقعة على بعد ١٠٠٠ خطوة، وعندما رأيت البمباشي بكر أفندي قد اتخذ من التحصينات الأولية قاعدة لعملياته ووضع فيها سرية ونصف سرية أرسلت له تعزيزات مكونة من مدفع وسرية لمهاجمة الأبنية المحصنة التي هرب إليها الأوغاد، وعندما نفذت الخطة وتأكدوا من السقوط تركوا أيضاً الصف الثاني من التحصينات وهربوا دون أن يطلقوا أي رصاصة إلى السهل، وهناك كونوا صفوفاً مغلقة وانضم إليهم المشاة وراكبو الجمال، وكانوا على ما يبدو ينوون مهاجمة المدينة من تلك الأماكن حيث لا يوجد جنود لمقاومتهم، وعندئذ أرسلنا لهم سرية ونصف سرية من الجنود المختبئين وبعض قوات الشرطة تحت قيادة اليوزباشي عثمان أفندي لإعطائهم الانطباع بأننا نريد تطويقهم، وعندما رأوا ذلك اعتقدوا أن قوات هائلة تزحف نحوهم هربوا بأقصى سرعة، أما نحن فقد تتبعناهم حوالي ساعتين حيث وجد الكثير منهم الموت، ثم عدنا وصلينا للنصر المستمر للقوات السلطانية المجيدة، ولكن عندما رأيت جنودنا يسرعون إلى الجثث لضرب الرؤوس منعتهم من ذلك لأسباب واضحة، وقد عدنا بعد ذلك إلى معسكرنا دون أن يلحق أي أذى بقواتنا. وفي اليوم التالي علمت أن البدو قد عادوا إلى ميدان المعركة ليأخذوا القتلى على حمير، شهود العيان يقدرون عددهم بحوالي ١٥٠ رجلاً كما يقدرون عدد الجرحى أيضاً بحوالي ١٥٠ رجلاً.

آمر القوات

ميرالاي محمد لطفي

انتبهوا أيها الناس ماذا يكتب آمر القوات المذكور واعتبروا من ذلك! احذروا كيف أن أولئك البدو تعدوا الحدود، وكيف أن الحكومة العالية تهتم براحة مواطنيها وأمن أرواحهم وممتلكاتهم، وتطمح إلى تحقيق ذلك بكل الوسائل، والتي منها بناء الحصون والأسوار، وإن مسببي الضرر أولئك عملوا عكس ذلك، وأرادوا إفناء الجنود الذين أرسلناهم لحماية ينبع البحر عن طريق بناء جدار وإقامة أحد الحصون، وبعد أن عمل الجنود في هذه الأعمال ليل نهار، قام أولئك بما قاموا به (أي أنهم حاولوا تحطيم المنشآت التي من المفروض أن تستعمل بنجاح أفضل ضدهم). وهكذا حل بهم ما يستحقونه بواسطة

التحول بطرق سيئة السير في الضلال يؤدي إلى البؤس والزوال! وأن القتال كان بالنسبة لنا مؤلماً لأن الطرفين كانا مسلمين لكن البدو قد أجبروا آمر القوات المذكور على هذا التصرف وحصلوا بذلك على ما حصلوا.

ولا يشك أحد بأن كل من يعارض أمير المؤمنين (السلطان العثماني) سيلاقي نفس المصير وأن الواعين سيأخذون العبر من ذلك، أما الذين يقودهم الآخرون إلى الضلال فإن أسوأ النتائج تنتظر أفعالهم.

٢٤ جمادى الآخرة من عام ١٣٠٣هـ
(نهاية مارس من عام ١٨٨٦م)
الوالي وقائد الحامية في الحجاز
عثمان

ملحوظة بالنسبة للقبائل المذكورة في الرسالة أعلاه نلاحظ أن جهينة وحسب ما وصلت إلينا من معلومات قد تجزؤوا إلى ٢١ جزءًا وقبيلة، من أهمهم بنو إبراهيم بشيوخهم الستة: حامد بن محسن، أحمد المشدق، الشريف حمد العياشي، أحمد أبو رقيبة، عيد حلتيت، أحمد الشتيري أما العشرون الباقون فهم:

١ ـ صيادلة (صيدلاني)
٢ ـ مساوا (مساوي)
٣ ـ هبد (هبيدي)
٤ ـ رفاعة (رفاعي)
٥ ـ عقب (عقيبي)
٦ ـ محيا (محياوي)
٧ ـ نتافين (نتافي)
٨ ـ بديد (بديدي)
٩ ـ مراوين (مرواني)
١٠ ـ فوايدة (فادي)
١١ ـ حمادة (حمادي)
١٢ ـ حشاكلة (حشاكلي)
١٣ ـ قدهات (قدهي)
١٤ ـ نيزا (نزاوي)
١٥ ـ علاوين (علاوني)
١٦ ـ صياديدة (صيادي)
١٧ ـ حصينات (حصيناتي)
١٨ ـ دبيان أو ذبيان (دبياني)
١٩ ـ بني كلب (كلبي)
٢٠ ـ ثقيفة (ثقيفي)

ولكل واحدة منها شيخ باستثناء رقم (٤) لها شيخان.

وأن أسماء الشيوخ لها أهمية طالما أنه ينتج من بعضها أسماء بعض القبائل حيث إن بعض القبائل مسماة حسب اسم شيخها، ويعدّ الأمير شرف بن عبدالمنعم أميراً لقبائل جهينة. وجهينة كونوا كما بينا أعلاه أقدم دعامة لقوة الحسنيين في غرب الجزيرة العربية وخاصة في مقر إقامتهم بين المدينة والبحر.

الشيخ إبراهيم بن مطلق والذي يذكر حلفاءه في الرسالة ينتمي إلى وحدة من قبائل حرب الكثيرة التي منذ ٩٠٠ عام قد زادت من المصاعب أمام كل الذين سادوا في غرب الجزيرة العربية، الأقسام الرئيسة التي انقسمت إليها كل قبائل حرب هي:

أولاً: بنو سليم وثانياً مصروح؟؟

بنو سليم يقطنون بالقرب من الطريق الرئيس أو طريق السلطان بين المدينة وينبع وبين المدينة وبدر، وهم ينقسمون قسمين:

١ ـ المراوحة (مراوحي) ومجموعات أصغر ينضمون إليهم تحت الشيخ الأكبر نصار ابن عباس أما المجموعات الصغيرة فهم بنو محمود، وأولاد أبي الحيا مع بعضهم يدعون (حوازم) ومع المراوحة يكونون ٢٦ قبيلة بزعامة ٣٦ شيخاً.

٢ ـ التسع مجموعات للقبائل (أحامدة، بني عمر، رحالة، محاميد، صراحه، بني يحيى، سعادين، تمام، صبح) والتي تدعى بعضها مع بعض قبائل ميمون، وهي ٢٣ قبيلة ولها ٤٠ شيخاً تحت زعامة حذيفة بن سعد، ومن بين أصحاب السمعة السيئة المحبين للسلب الأحامدة نجد الصخارنة (صخاري) الذين شيخهم إبراهيم بن مطلق المذكور أعلاه.

المصروح يكونون ثلاث مجموعات (زبيد، عوف وبني عمر) وهم ٢٢ قبيلة ولهم العدد نفسه من الشيوخ تحت زعامة الشيخ الأكبر عبدالله بن عسم. القبيلة التي تحكم مباشرة من قبل الشيخ الأكبر اسمها عسم (عسمي) ومقرها الرئيس خليص وهذه القبائل تقطن بالقرب من طريق الفرع بين مكة والمدينة إلى جانب الطرق الغربية وأيضاً بين بدر ورابغ وبين رابغ ووادي فاطمة. وقد ذكرنا سابقاً أن الشيخ ابن عسم قد أغلق في عام ١٨٨٦م مع البدو التابعين له طريق الحج بين مكة والمدينة أمام قوافل الحجاج وبذلك أفشل الزيارة إلى المسجد النبوي من قبل الحجاج.

الملحق رقم (٤)

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة، الآية: ٤٤].

لا يخفاكم ـ يا أهل مكة ـ أن هذا الوالي الملعون قصده إجراء التنظيمات في بلاد الله الحرام فأنتم انتبهوا من غفلتكم واصحوا من رقودكم ولا ترضون بتسريح القوانين لأنها هيا المبتداء كما لا يخفا على كل من له أدنا تأمل والدليل على ذلك أنه أعرض على أهل مجلس الإدارة بأن قصده في كل حارة ثلاثة أنفار اثنين مشايخ وواحد مختار المحلة وإمامها فقالوا أهل المجلس ما يسير (يصير) مثل هذا الأمر في مكة فقال الملعون مكة هل هي أحسن من إسطنبول نحن نجري لأمر (الأمر) هذا بالجبر فحينئذ قد تشكلت جمعية وسميت بالجمعية الإسلامية. فمن أراد الدخول فليبحث عنها. ومقصودها إتلاف هذا الوالي الملعون والقيصر لي. ومن لم يقدر على الدخول فليبتهل إلى الله عند بيته الحرام بتدمير السلامة في كون أبقا هذا الوالي الملعون إلى الآن أما حبلجرايه (حب الجراية) فما قصد هذا الملعون إلا التداعي فلا تسمعوا له دعوة مطلقاً، ولا تستلموا حقكم إلا وافياً، وانظروا يا أهل مكة في قتل الشريف وعبده، وقطع رؤوسهم وإحضارها إلى عند الوالي الملعون وهدامر (وهذا أمر) بتدوير الرؤوس في جميع أسواق مكة فداروا بها العساكر فما هذا الفعال التي هيا أشنع منما فعله الزير فحينئذ من قتل هذا الرجل يدخل الجنة بغير حساب والمقصود من مشايخ المحلة والمختار والإمام في محلة مراده يحصر الأنفار في كل حارة أخذ الوبركو والقرعة النظامية كما صرح به القرار في مجلس الإدارة.

من طرف الجمعية الإسلامية

الملحق رقم (٥)

صورة ما رثى به الأديب الفائق الندى الشيخ بديوي الوقداني السعدي دولتلو سيادتلو سيدنا السيد الشريف عبدالله باشا أمير مكة المكرمة وذلك سنة ألف وأربع وتسعين ومائتين رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة الأبرار وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار.

الملك للَّه والدنيا مداولة ... وما لحيّ على الأيام تخليدُ

الناس زرع الفنا والموت حاصده ... وكل زرع إذا ما تم محصودُ

وما يدوم سرور لا ولا كدر ... وهكذا الدهر تصدير وتوريدُ

والناس ذا فاقد يبكي أحبته ... وذاك يُبكى عليه وهو مفقودُ

وذاك أبدت له الأيام زينتها ... وذاك أيامه همّ وتنكيدُ

تبًّا على الدهر والأيام لو ضحكت ... تصفوا زماناً ويتلوا بيضها سودُ

إن سالمت غدرت أو أوهبت رجعت ... ظل يزول وما تعطيه مردودُ

للدهر وجه عبوس في تقلبه ... وللمنايا سهام صَيْدها الصيدُ

تصطاد من لا تكاد الأسد تنظره ... وحبلها لاصطياد الكل ممدودُ

ما يمنع الموتَ أبراجٌ مشيّدةٌ ... ولا دروع ولا بيض ولا خُودُ

لو يدفع الموتَ سلطانٌ بقوته ... لكان حيّاً سليمان وداودُ

عزوا المعالي وعزوا الملك في ملك ... عن جملة من ملوك الأرض معدودُ

وما يلدن الليالي مثله ملكاً ... حتى يكون من الأموات مولودُ

دارت عليه المنايا كاسها سحراً ... في محفل ليس فيه الناي والعودُ

فشدّ من دار دنيا دار آخرة ... عند ابن عباس في الأحداث ملحودُ

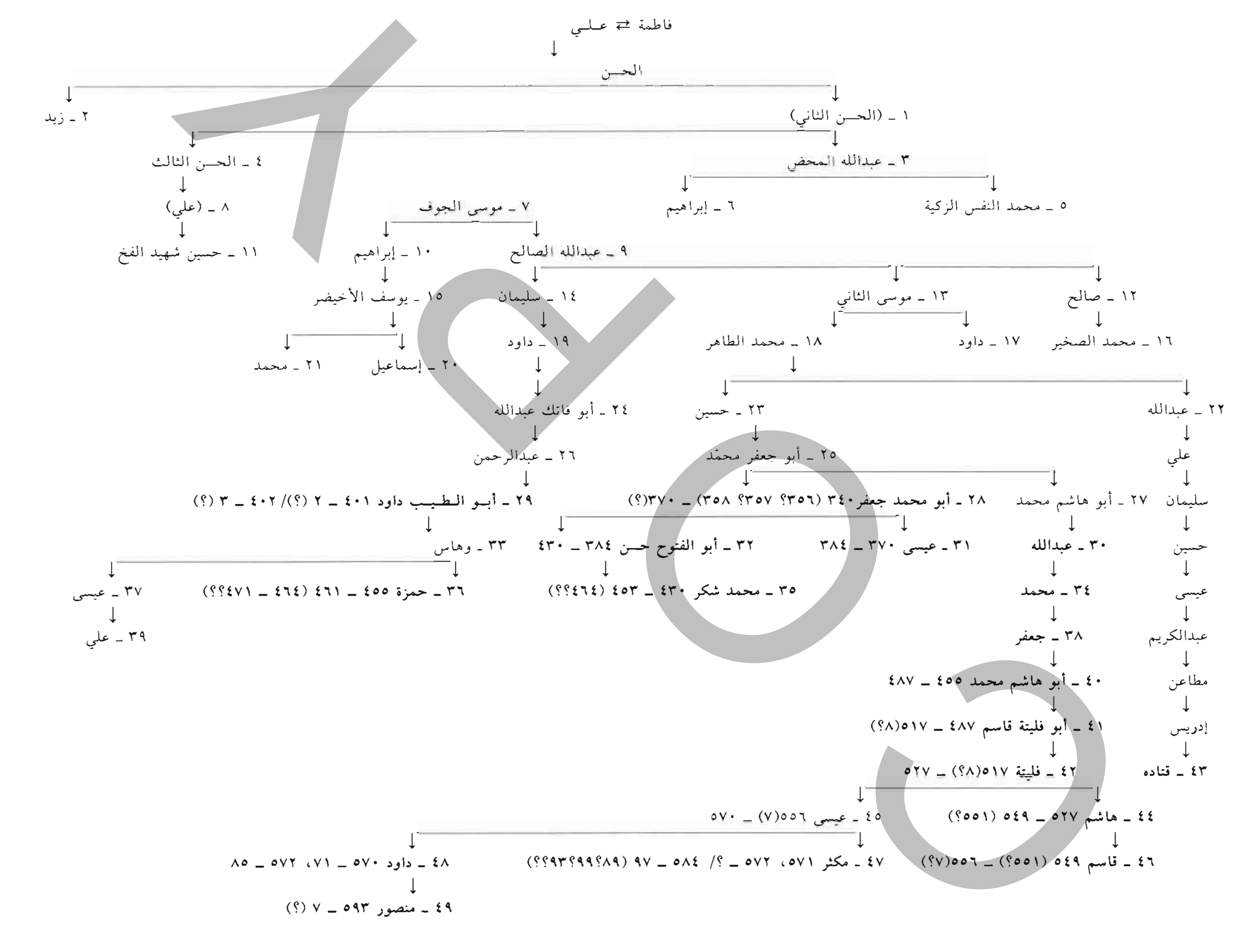
أمسى وحيداً بقبر لا أنيس له ... أنيسه فيه إحسان وتوحيدُ

تبكي عليه المعالي وهي لابسة ... ثوب الحداد وما لم يلبس الغيدُ

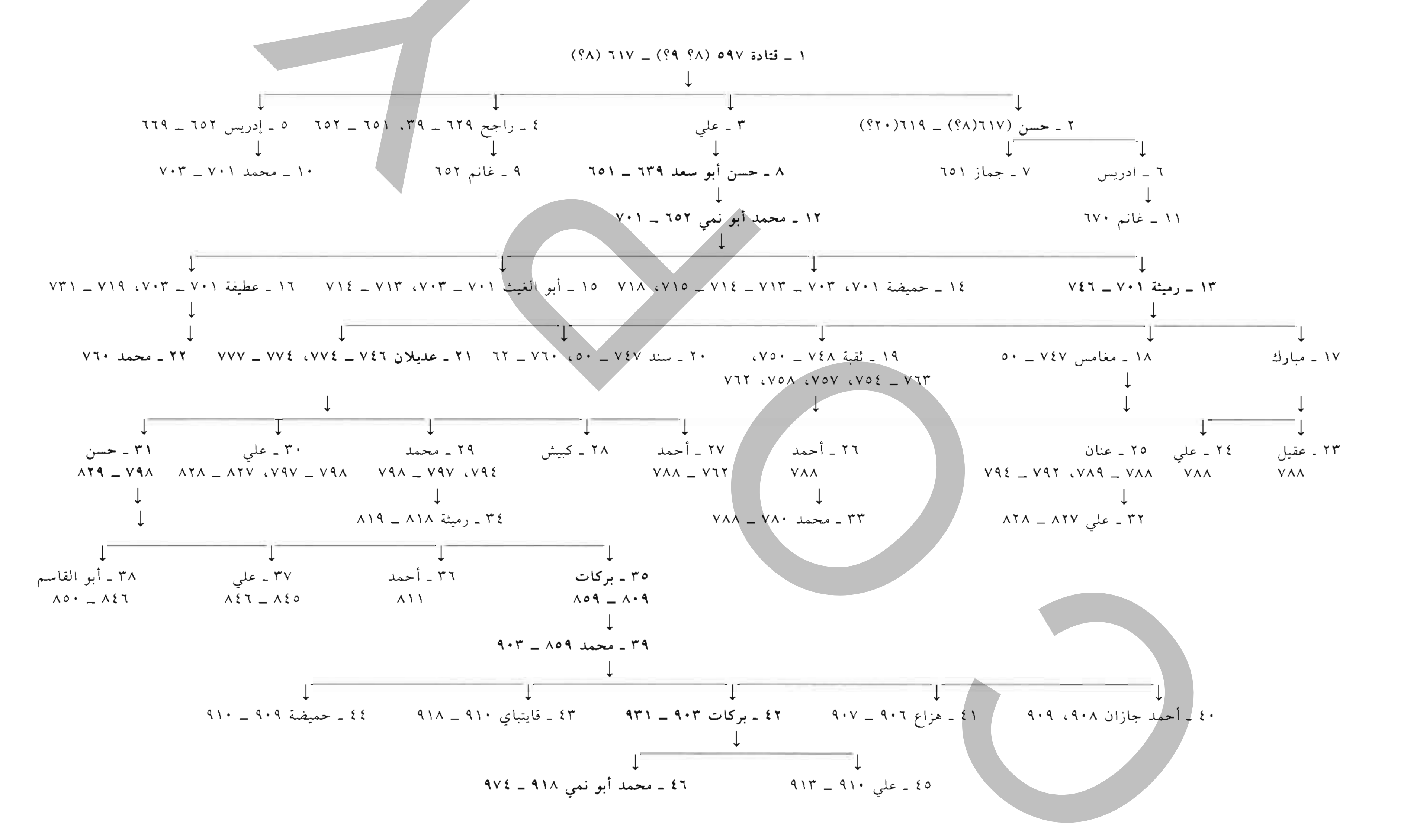
وكم عيونٍ له تبكي وأدمعها　　سيل ومنها على الخدين أخدودُ
لموته مات خلق قبل موتهم　　موت الحياة وبعض الموت مزهودُ
والشعر من بعده بارت تجارته　　وكان في مدحه تعلى الأناشيدُ
قد كنت من بحره الفياض مغترفاً　　وإنني من كثير الناس محسودُ
فأين ألقى الذي منه به خلف　　وأين من مثله في الناس مقصودُ
أين ابن عون الذي كانت تذل له　　أسد العرين وتخشاه الصناديدُ
والبحر سكّنه والأرض مهدها　　حتى تساوت أسود الغاب والسيدُ
والوحش آمنة والورق ساجعة　　لها على مايس الأغصان تغريدُ
والناس تقصده من كل ناحية　　وليس عن بابه في الناس مطرودُ
سهل الخليفة تغرينا بشاشته　　قبل السؤال ومنها يعرف الجودُ
حسب المقلّين من جدواه ما وجدوا　　وجاره دايما أيامه عيدُ
غيث إذا جاد تغنينا مواهبه　　صعب المراس حكيم الراي صنديدُ
في السلم تلقاه ثوب الحلم ملتبساً　　طبعاً وفي أمره حزم وتشديدُ
ولبسه في الوغى من كل مانعة　　لا يعمل السيف فيها وهو محدودُ
بيض سوابغ قد شُكّت لها حلق　　كأنه حلق القفقاء منضودُ
مظفر أينما سارت كتائبه　　إلا عليها لواء النصر معقودُ
وألبس الملك عزاً لا يكون له　　ما دام حياً على الأيام تجريدُ
كانت به بهجة الأيام ضاحكة　　لها على خدها الوضاح توريدُ
تزهو على الأعصر الأولى بزينتها　　وكل يوم لها في الحسن تجديدُ
وعاش فيها سعيداً وهي تخدمه　　كذاك من تخدم الأيام مسعودُ
وراح منها عزيزاً في سعادته　　إن غاب شخصاً فإن العز موجودُ
وخلف الملك إرث الخالفين كما　　أبقاه أسلافه الغر الأماجيدُ
ما زال فيهم ويبقى في خلائفهم　　منهم إليهم له حلّ وتقييدُ
وكلهم إذ أشار الملك نحوهم　　كلٌّ يقول إنا واله معمودُ
عقيد نظيم يحير المستخير به　　بهم يزين لسان الملك والجيدُ
هم الذين بهم يحلو المديح فقل　　ما شئت مدحاً فما للمدح تحديد

الملحق رقم (٦)
أشجار النّسب

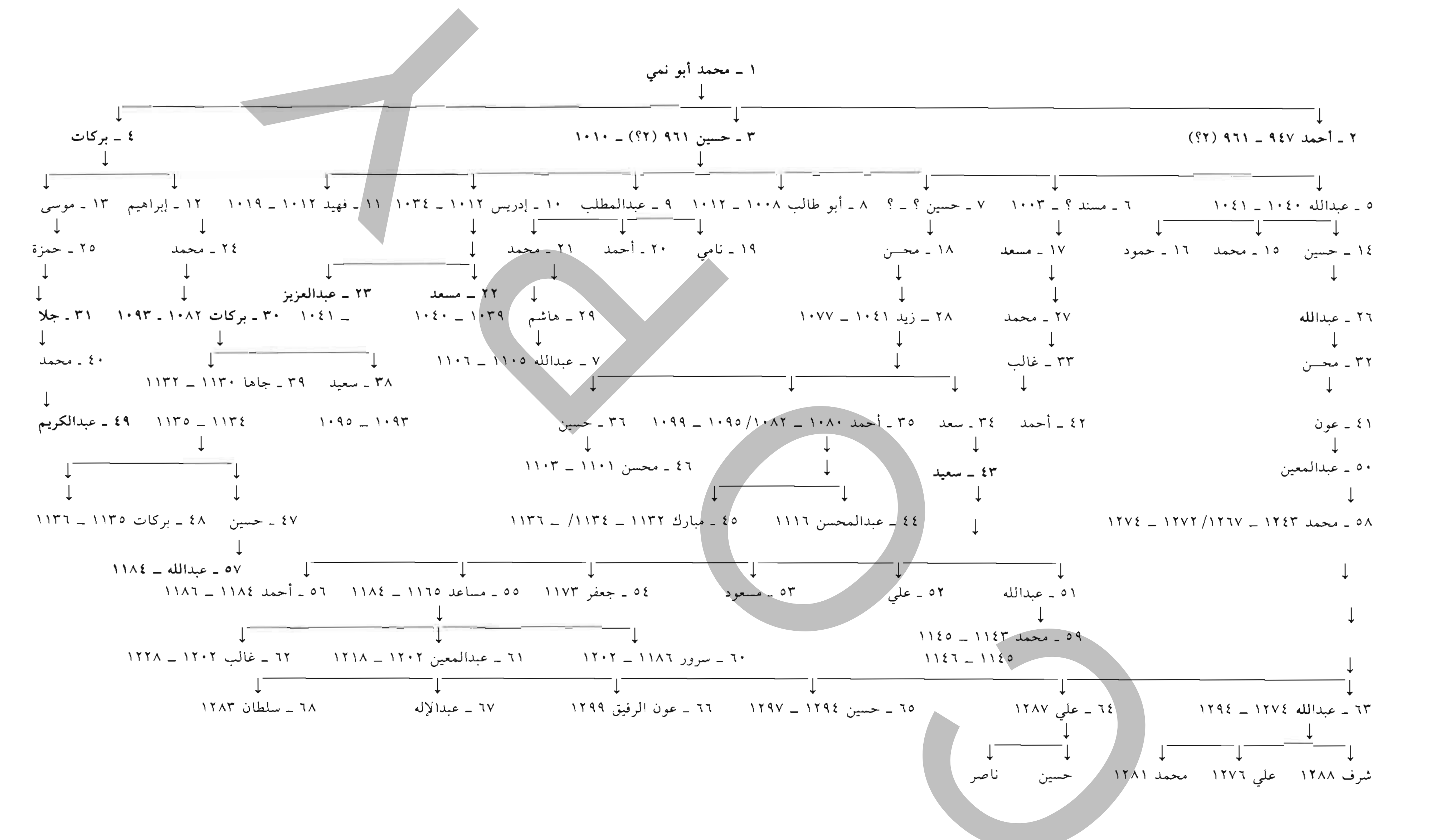
شجرة النسب الأولى



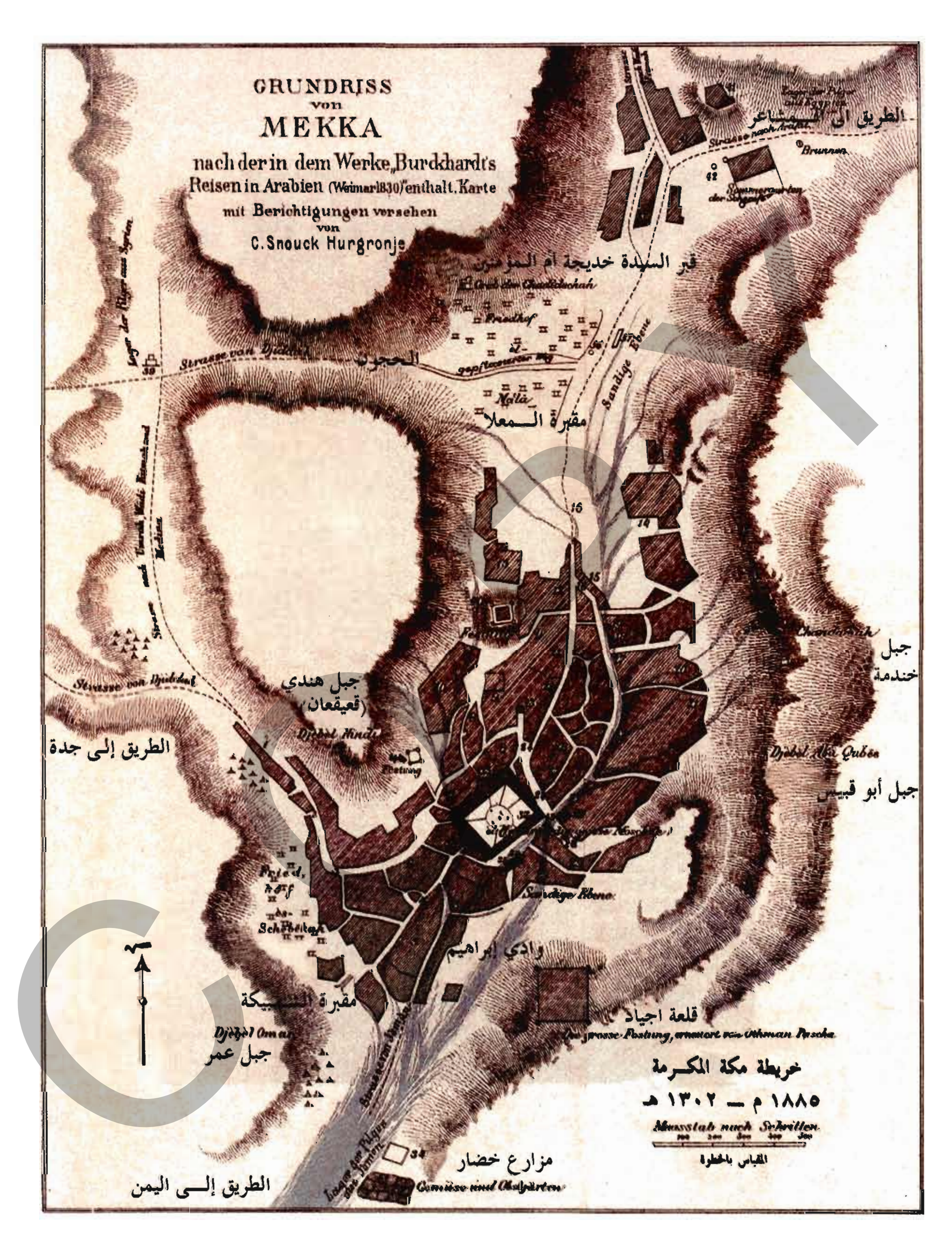
شجرة النسب الثانية



شجرة النسب الثالثة



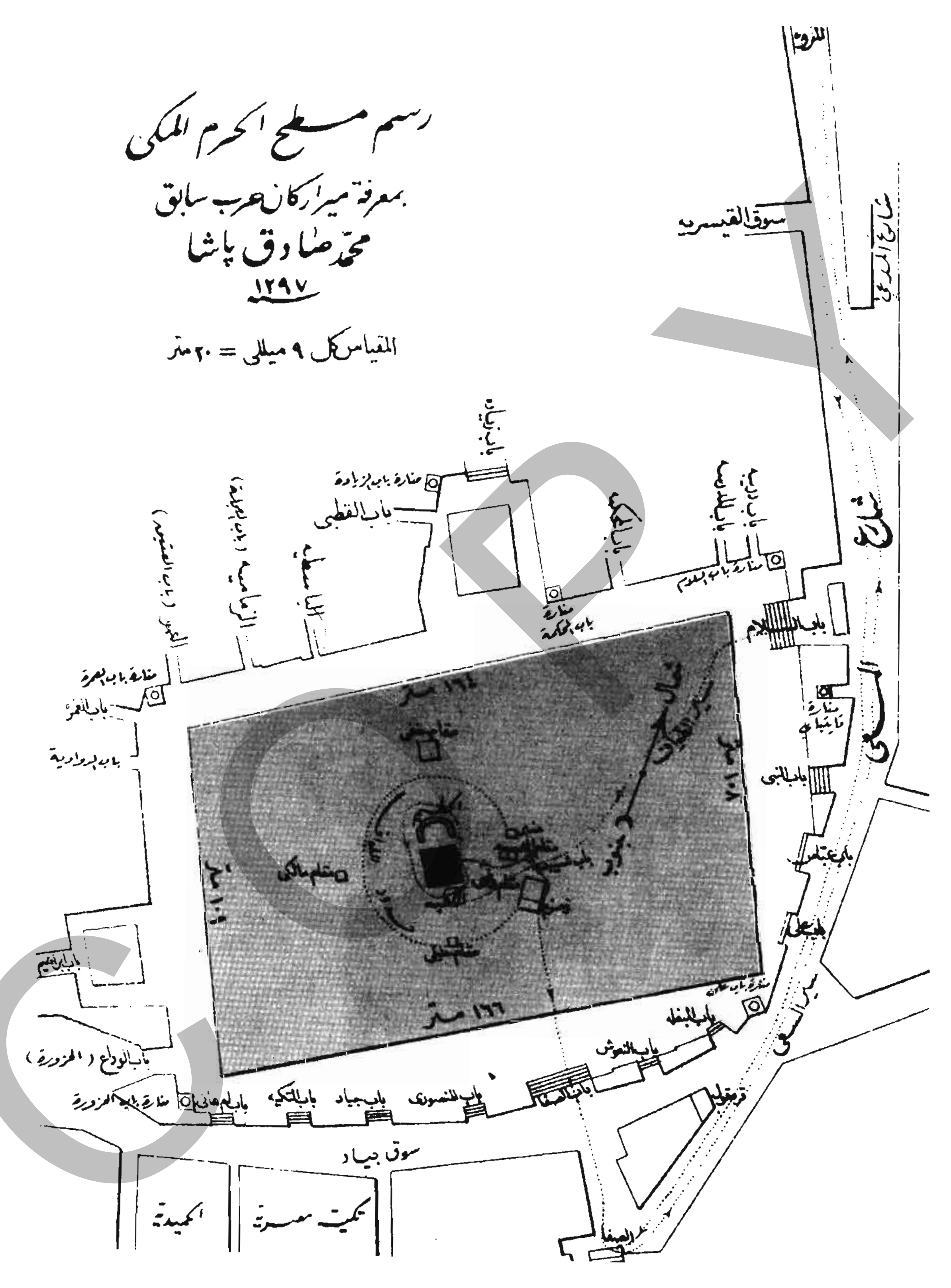
الملحق رقم (٧)
الأشكال والخرائط والصُّور المختارة



شكل رقم (١): خريطة مكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ ـ (١٨٨٥م) ←

مفتاح خريطة مكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م

١ ـ حارة جرول.
٢ ـ حارة الباب.
٣ ـ حارة الشبيكة.
٤ ـ حارة سوق الصغير.
٥ ـ حارة المسفلة.
٦ ـ حارة باب العمرة.
٧ ـ حارة الشامية.
٨ ـ حارة سويقه.
٩ ـ حارة القرارة.
١٠ ـ الأكواخ.
١١ ـ حارة الراقوبة.
١٢ ـ حارة النقا.
١٣ ـ حارة السليمانية.
١٤ ـ حارة شعب عامر.
١٥ ـ شارع الحدادين.
١٦ ـ شارع المعلا.
١٧ ـ حارة الغزَّه.
١٨ ـ قصر الشريف عون الرفيق «١٨٨٢م ـ ١٩٠٥م» بني على يد والده الشريف محمد بن عون.
١٩ ـ قصر الشريف عبدالله «١٨٧٧م» الأخ الأكبر للشريف عون الرفيق.
٢٠ ـ حارة شعب علي.
٢١ ـ حارة سوق الليل.
٢٢ ـ حارة المدعي.
٢٣ ـ المروة.
٢٤ ـ المسعى.
٢٥ ـ زقاق الحجر.
٢٦ ـ مولد ستنا فاطمة.
٢٧ ـ حارة القشاشية.
٢٨ ـ الصفا.
٢٩ ـ حارة الحميدية (أجياد) حيث توجد مباني التكية المصرية والمبني الحكومي الجديد (الحميدية).
٣٠ ـ التكيه المصرية.
٣١ ـ الحميدية (مقر الحكومة).
٣٢ ـ بيت والي الحجاز ومركز الشرطة.
٣٣ ـ مدرسة وتستخدم حالياً (١٨٨٥م) مقر الإدارة عين زبيدة ومكتب (الريس) رئيس المؤذنين في الحرم.
٣٤ ـ بركة ماجل (وتنطق لدى العامة بركة ماجد) وهي حوض ضخم يتصل بالمجرى (الدبل) المائي العام لعين زبيدة الذي يغذي مكة المكرمة بالماء.
٣٥ ـ المحكمة ودار القاضي.
٣٦ ـ المعلا (مقبرة مكة المكرمة).
٣٧ ـ مجمع للسقيا متصل بالمجرى المائي العام لعين زبيدة.
٣٨ ـ قبر السيد عقيل.
٣٩ ـ قبر السيد محمود بن إبراهيم الأدهم.
٤٠ ـ قلعة فلفل.
٤١ ـ حارة المعابدة.
٤٢ ـ خرزات لمياه الشرب متصلة بالمجرى العام لعين زبيدة. وقد أقيمت حالياً ١٨٨٥م عدة خرزات من هذا النوع على جميع الطرق الرئيسية لتزويد الحجاج والمسافرين بمياه الشرب.
٤٣ ـ مخفر شرطة (كركون الصفا).
٤٤ ـ قلعة جبل هندي.



شكل رقم (٢)
رسم مسطح للحرم المكي


مكّة المكرّمة (مناظر عامّة)

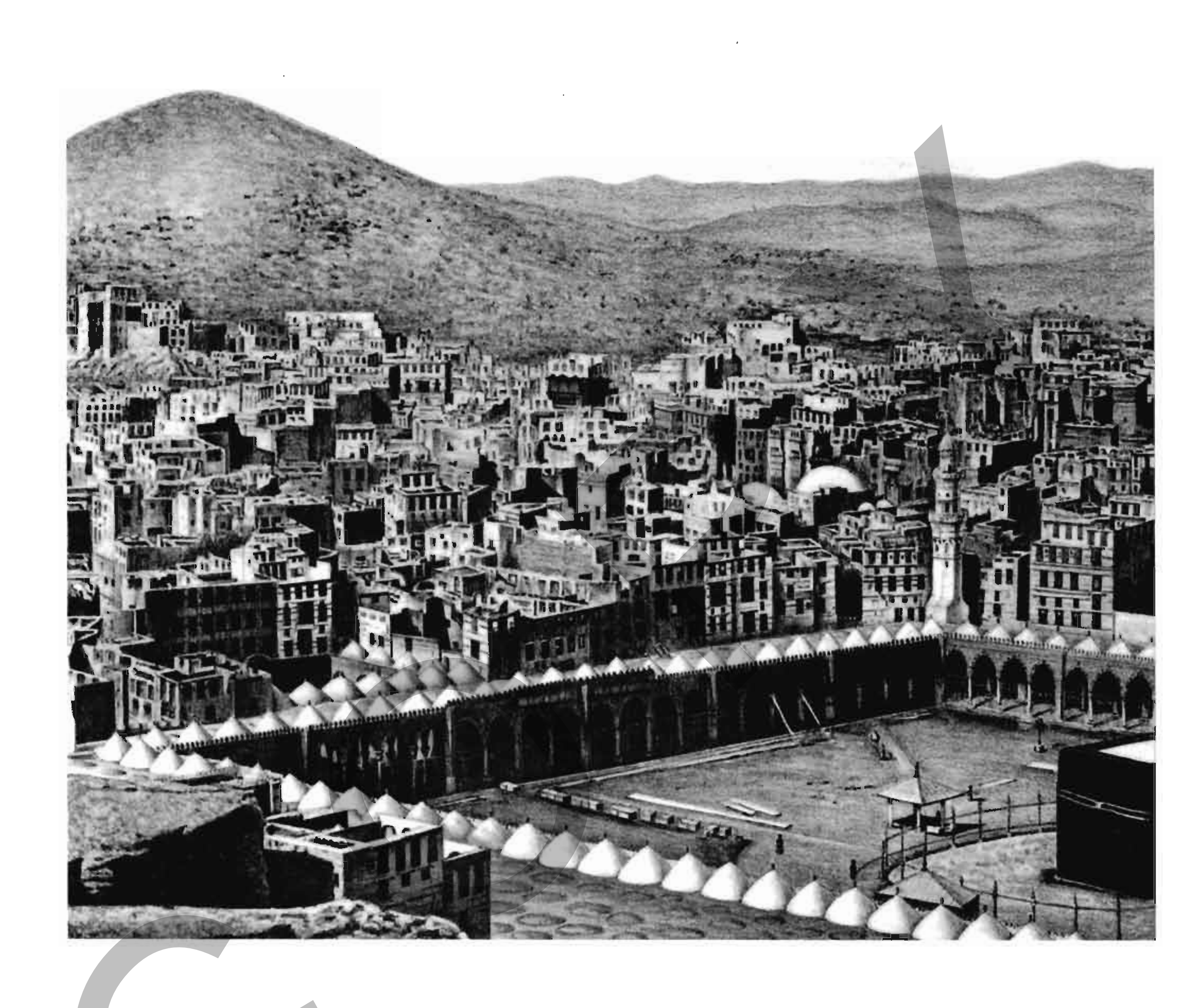


(١): صورة عامة لشِعْب علي وللأحياء الشمالية لمكة المكرّمة
من ألبوم سنوك الثاني برقم ٤ و٥ بعد كشط اسم المصور



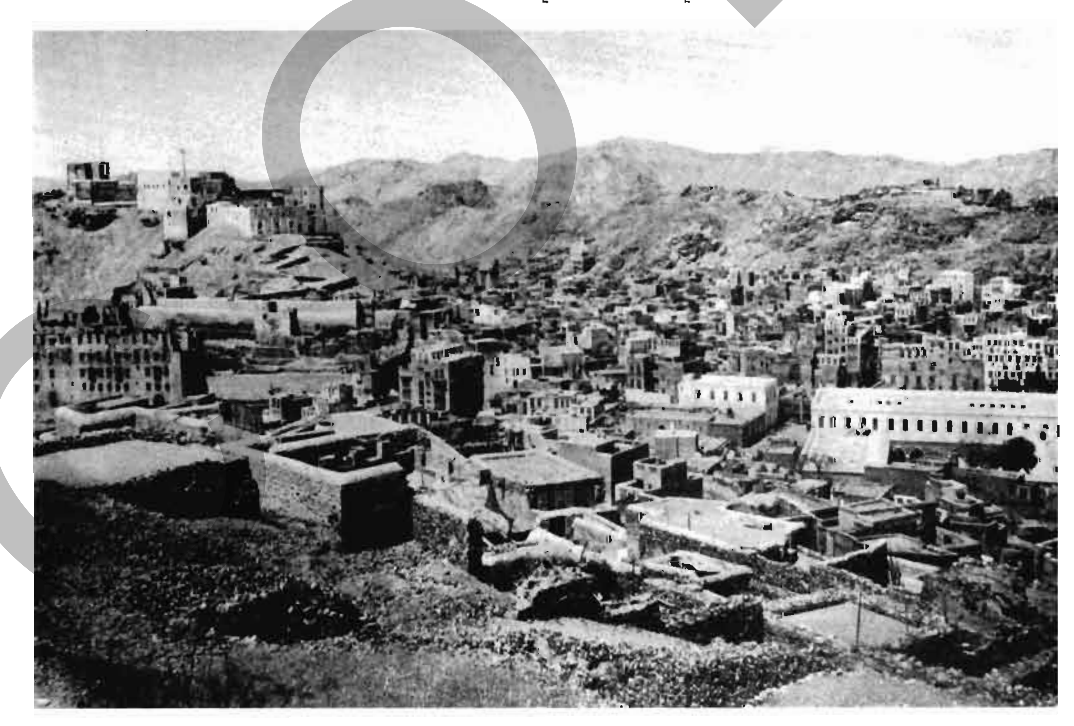


(٢): صورة محفورة عن صورة فوتوغرافية التقطها محمد صادق بك ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ) ونشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ١ وأشار في مقدمته أنها من تصوير محمد صادق

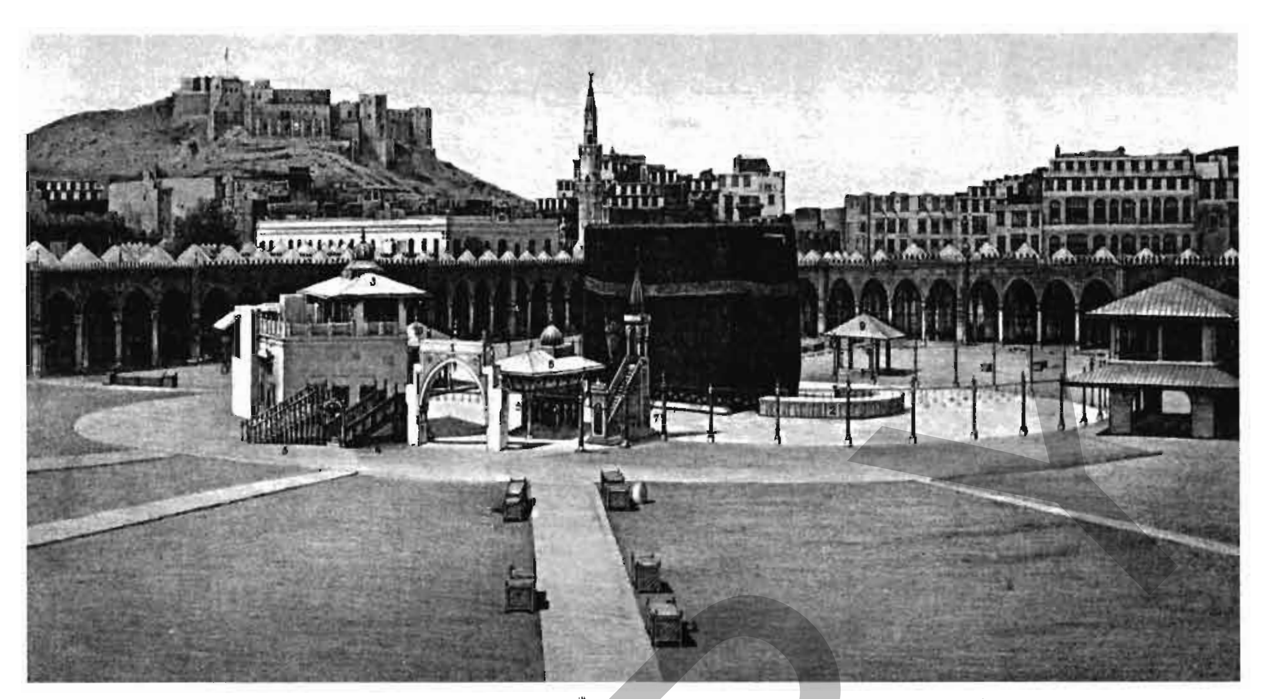




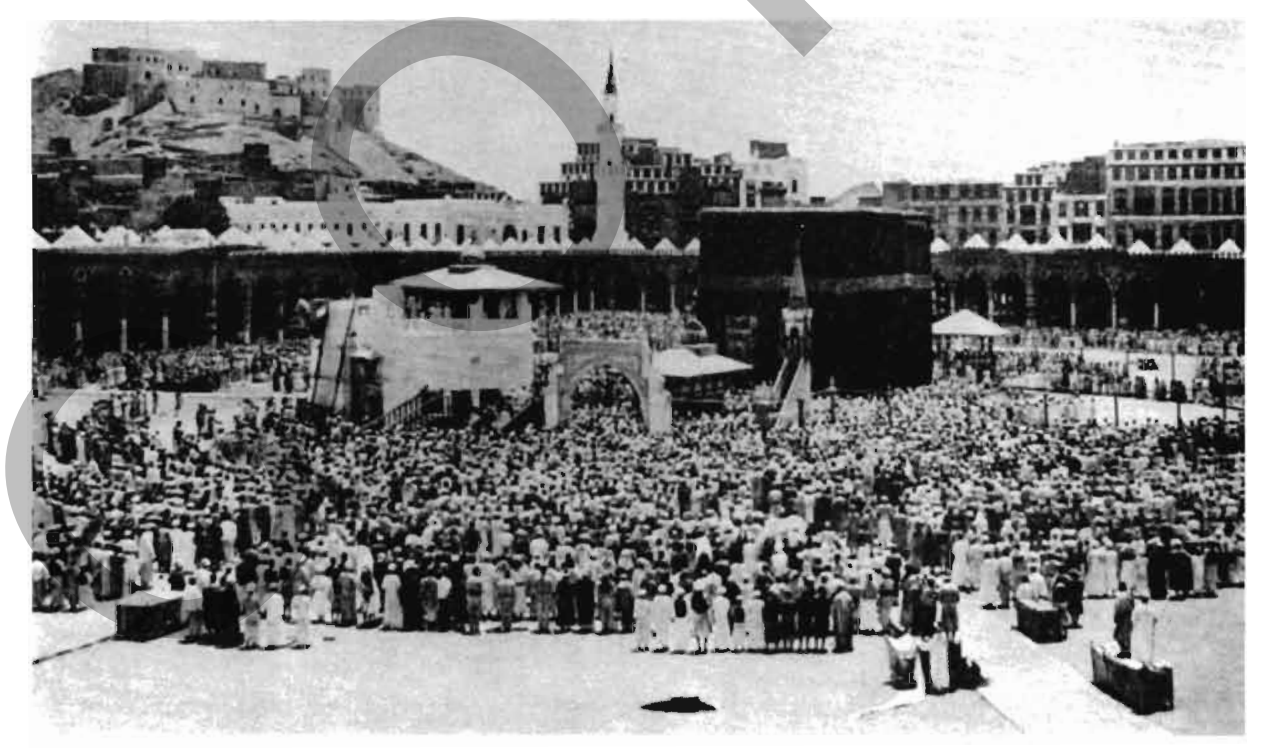
(٣): صورة المسجد الحرام والجزء الشمالي والشمالي الغربي من مكة المكرمة
وقد نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ٣ بعد كشط اسم المصور



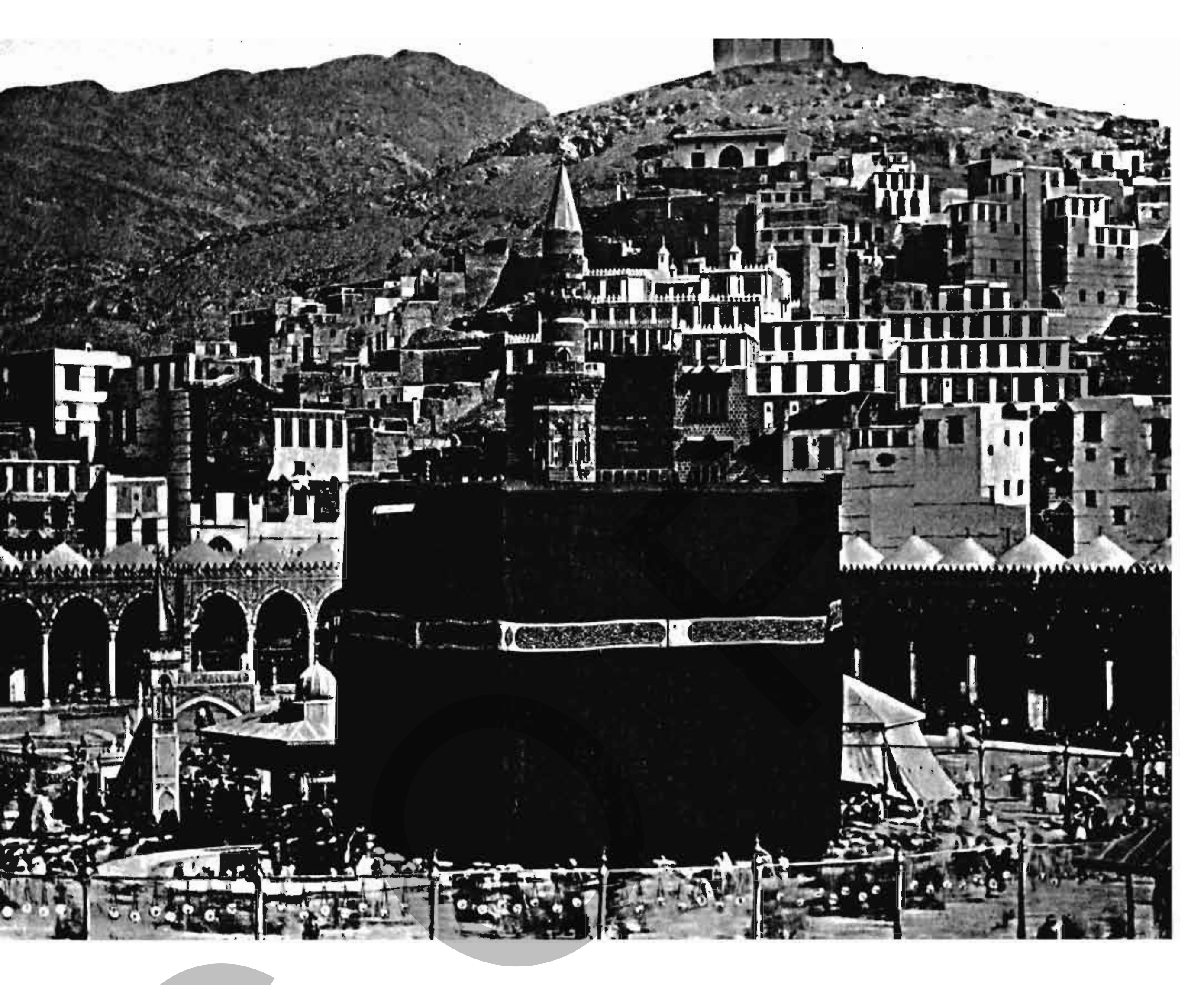
(٤): صورة لحيّ أجياد من الحميدية يمينًا إلى قلعة أجياد على اليسار
نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ٢



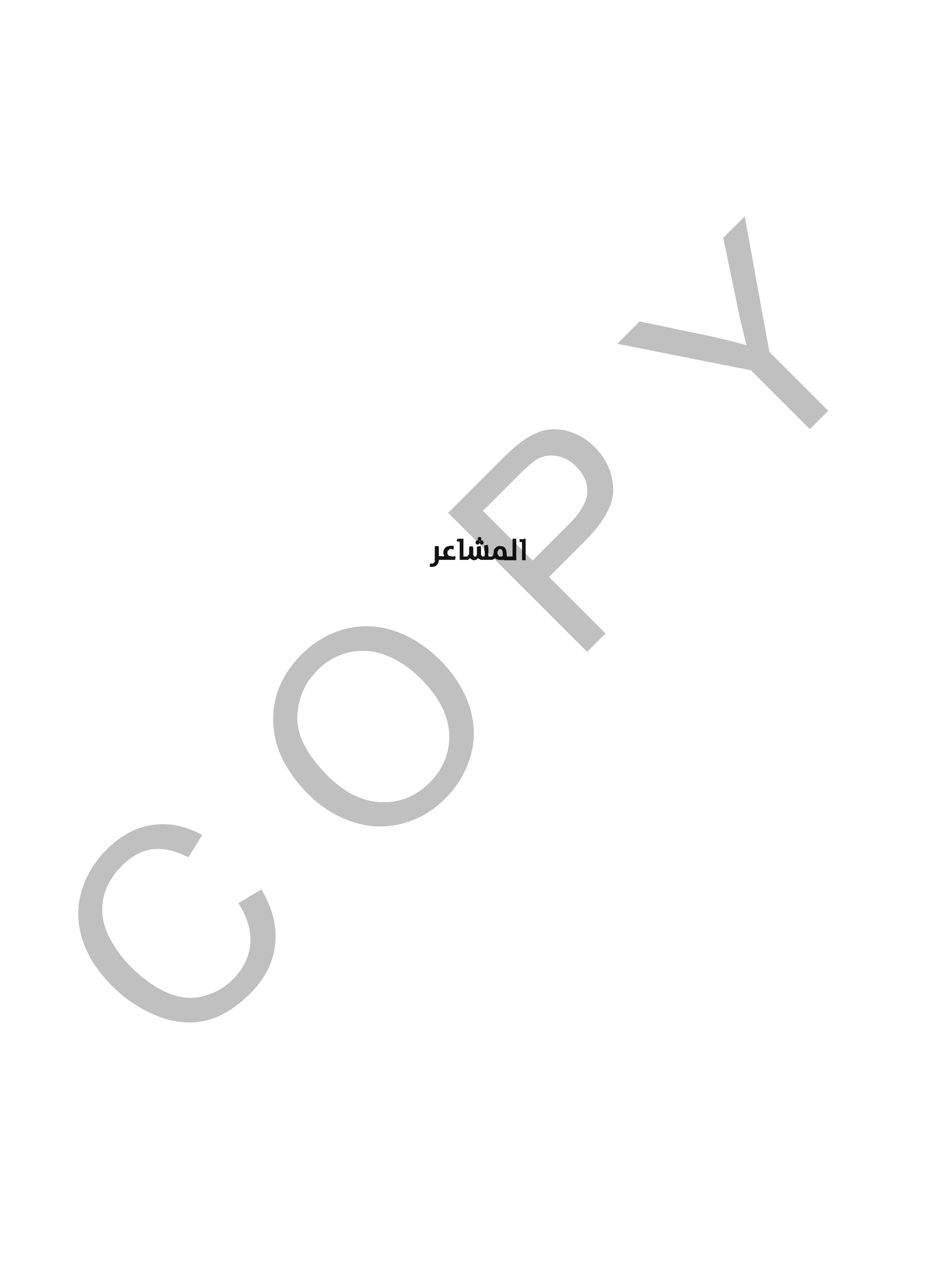
(٥): صورة محفورة عن أصل فوتوغرافي التقطه السيد عبدالغفّار عام ١٣٠٣/١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) وتبيّن الجزء الجنوبي من المسجد الحرام وقد نشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ٢ دون الإشارة إلى المصوّر وقام بكشط اسم السيّد عبدالغفّار. والغريب أن الدكتور ويتيكام في كتابه عن سنوك ومؤلفاته نشره عام ٢٠٠٧م.. وقد نسبها لمحمد صادق وأنها التقطت عام ١٨٨٠، ولم يدرك أن مبنى الحميدية الظاهر في الصورة قد بُني عام ١٨٨٣م (انظر صورة رقم ١١٣).



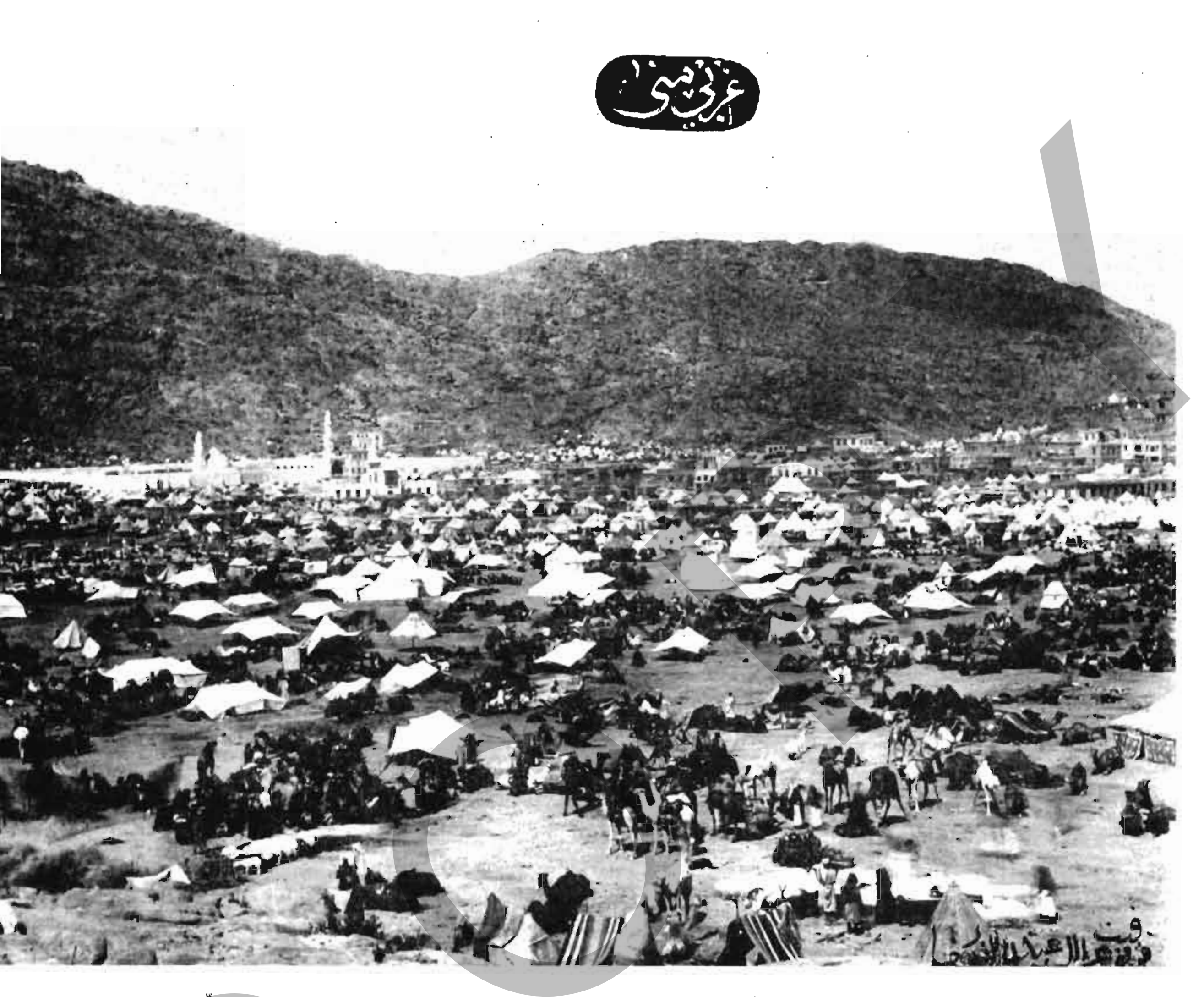
(٦): صورة فوتوغرافية للمسجد الحرام باتجاه الجنوب نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ١ بعد كشط اسم المصور السيد عبدالغفار.



(٧)؛ صورة فوتوغرافية للجانب الشرقي من المسجد الحرام من تصوير محمد صادق بك ١٨٨٠م ونشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ٣ وأشار في مقدمته أنها من تصوير محمد صادق.. لكنه قشط توقيع المصوّر من أسفل الصورة.

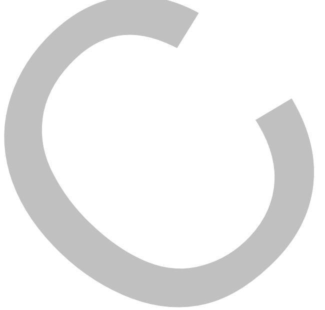


المشاعر

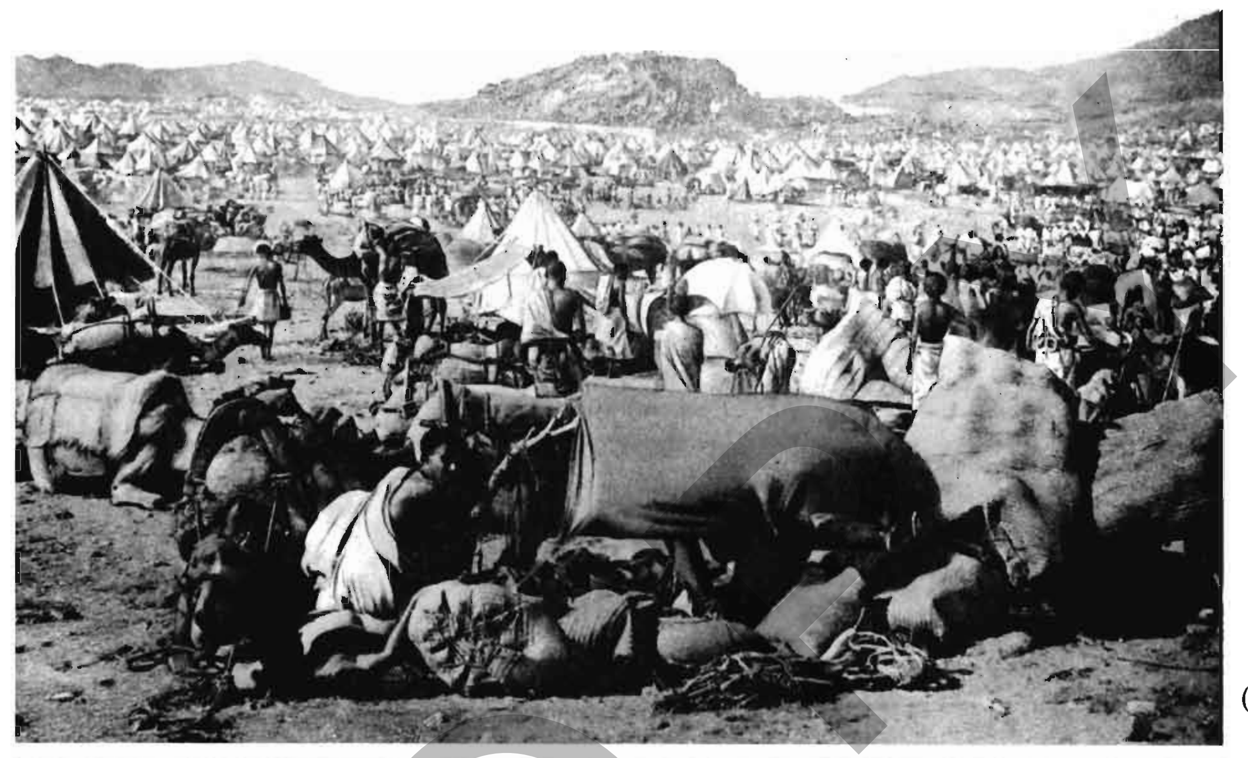


(٨)؛ صورتان لمُنى نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ١٠ و١١ وهي من تصوير السيّد عبدالغفّار ١٨٨٦م

شرقي منى



صورة لصعيد عرفات ويبدو في المنتصف للصورة جبل الرحمة وقد نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ١٣ يتبعها ٣ صور أخرى بالأرقام ١٤ و١٥ و١٦، وهي إذا جُمعت مع بعضها تشكّل صورة بانورامية شاملة.



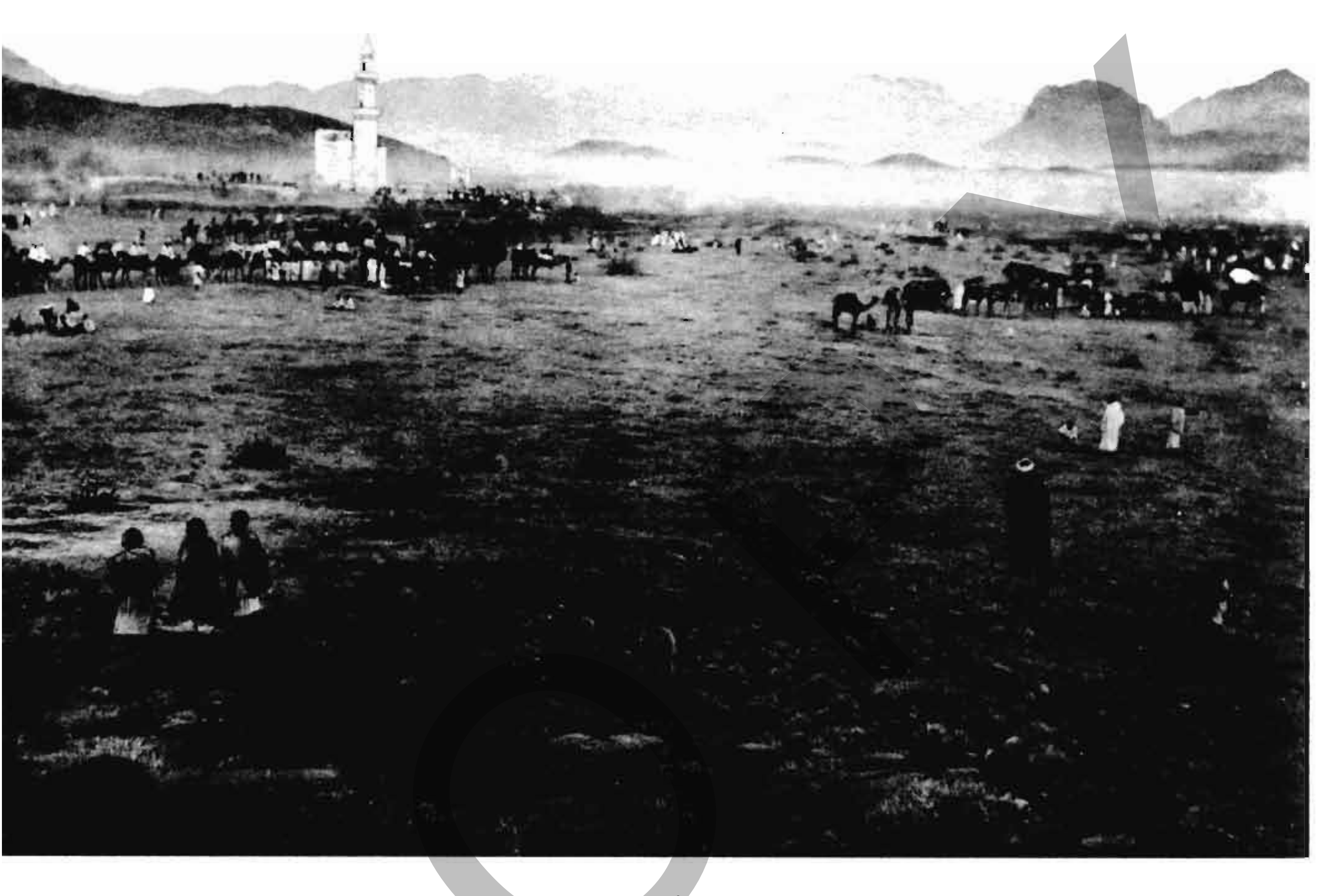
(٩)



(١٠)

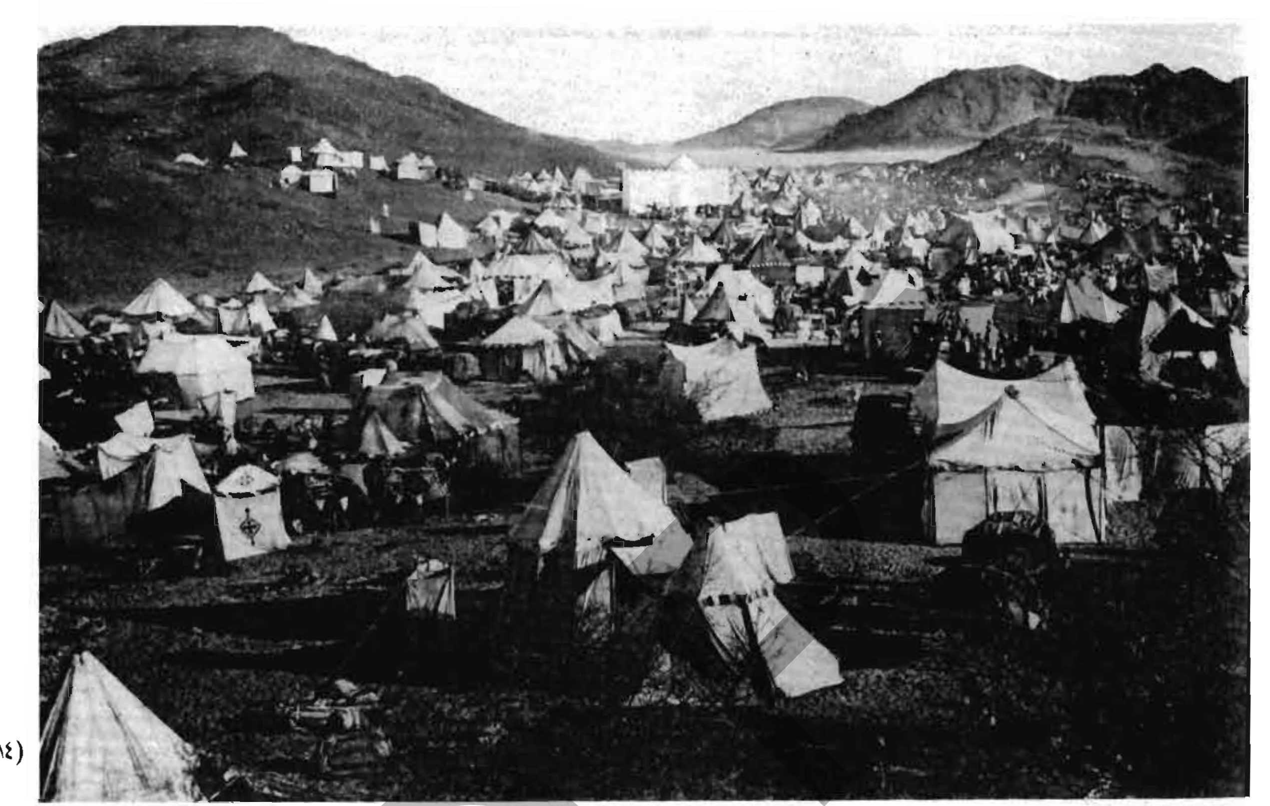
(١١)

(١٢)

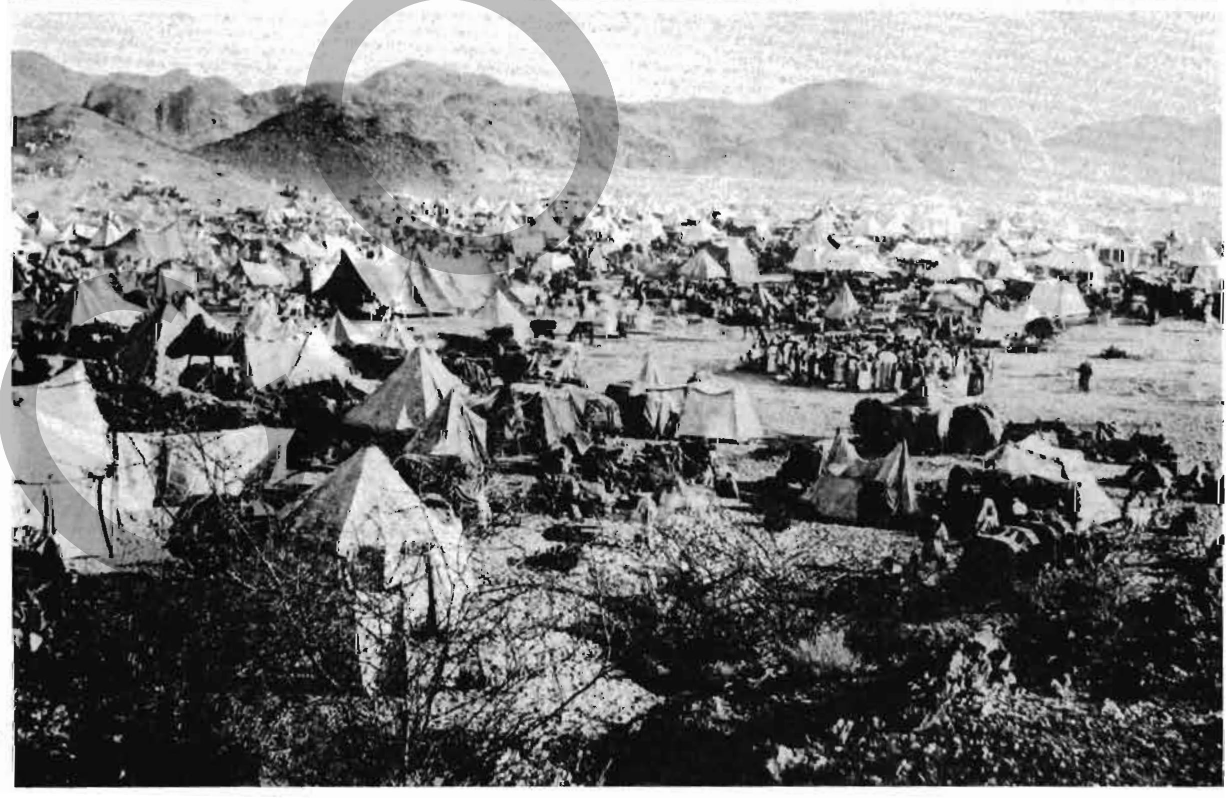


(١٣)؛ صورة لمزدلفة يبدو أنها التُقطت قبل مغيب شمس يوم عرفة.
نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ١٣

أربعة صور نشرها سنوك لموقع مقبرة أم المؤمنين السيدة ميمونة في وادي سرف شمال مكة. نشرها في ألبومه الثاني برقم ٧ و٨ و٩أ و٩ب.



(١٤)

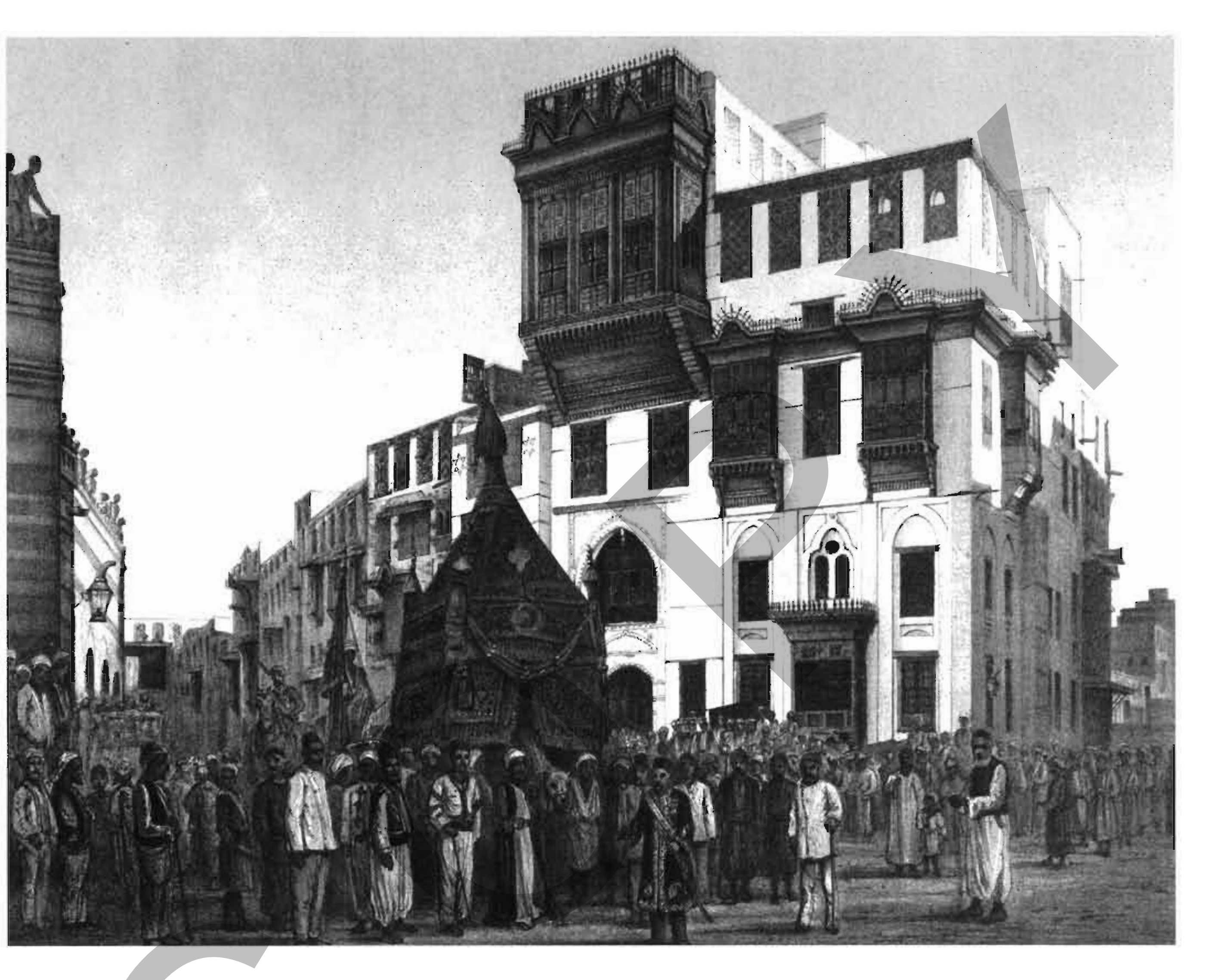


(١٥)

(١٦)

(١٧)


مباني حكوميَّة في مكّة المكرّمة



(١٨): صورة محفورة لحفل استقبال المحمل المصري أمام الباب المطل على شارع المسعى ويظهر إلى اليمين بيت باناجه الشهير وفي الصورة الوالي التركي عثمان نوري باشا وقد نشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ٥ ولم يشر إلى المصور. وقد ذكر الدكتور ويتيكام في كتابه عن سنوك الصادر عام ٢٠٠٧م أن الصورة قد التقطها السيد عبدالغفّار ١٨٨٦م.



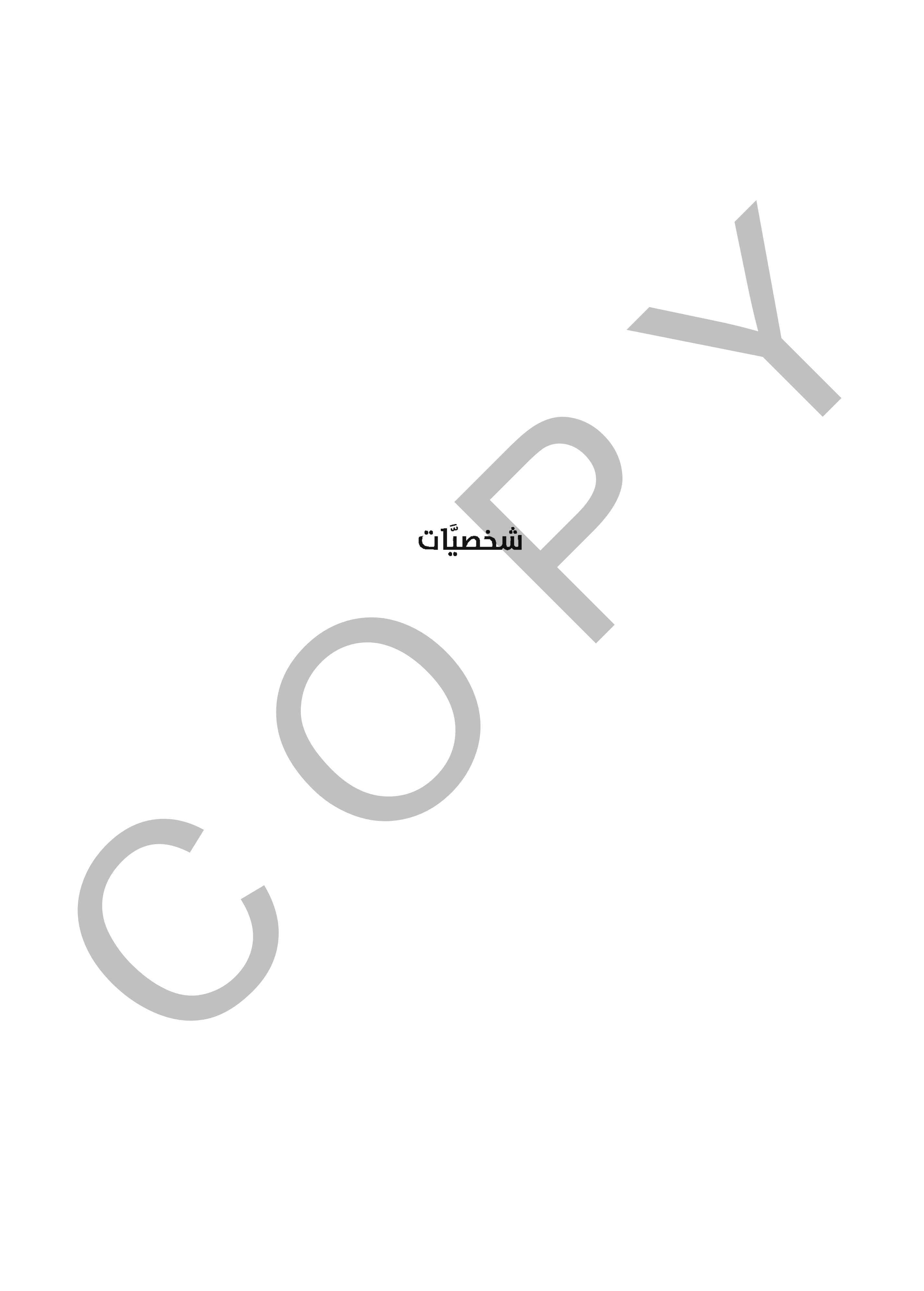
(١٩): صورة محفورة لمخفر الصفا وإلى يساره يظهر طرف عقود الصفا والمنازل المجاورة المطلة على المسعى وإلى أقصى اليمين يظهر الشارع العام المؤدي إلى أسفل مكة. نشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ٦.
وقد ذكر الدكتور ويتيكام أن الصورة التقطها السيد عبدالغفّار بن عبدالرحمن البغدادي عام ١٨٨٦م.



(٢٠): صورة لمبنى المطبعة بحي أجياد وقد نشرها سنوك في ألبومه الثاني برقم ٦



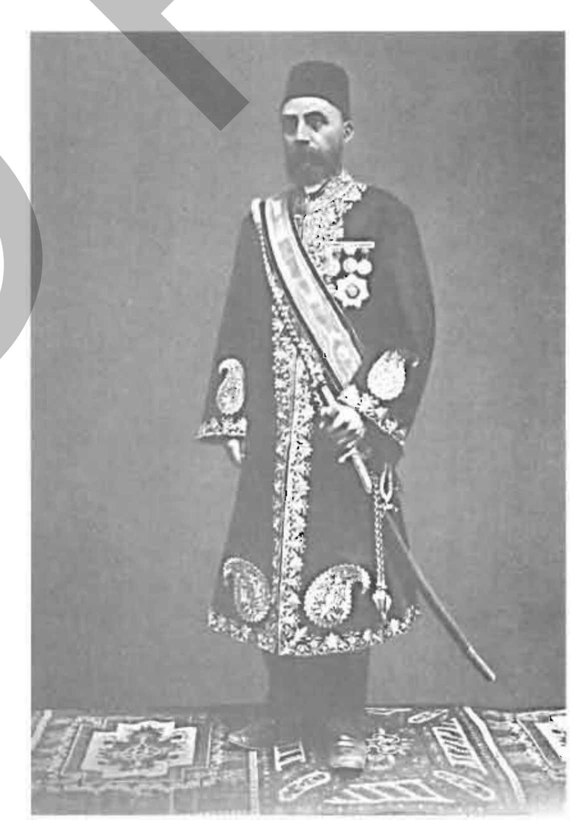
(٣١): صورة لمبنى الحميدية (مقر الحكومة) نشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ٤
وهي من تصوير السيد عبدالغفّار



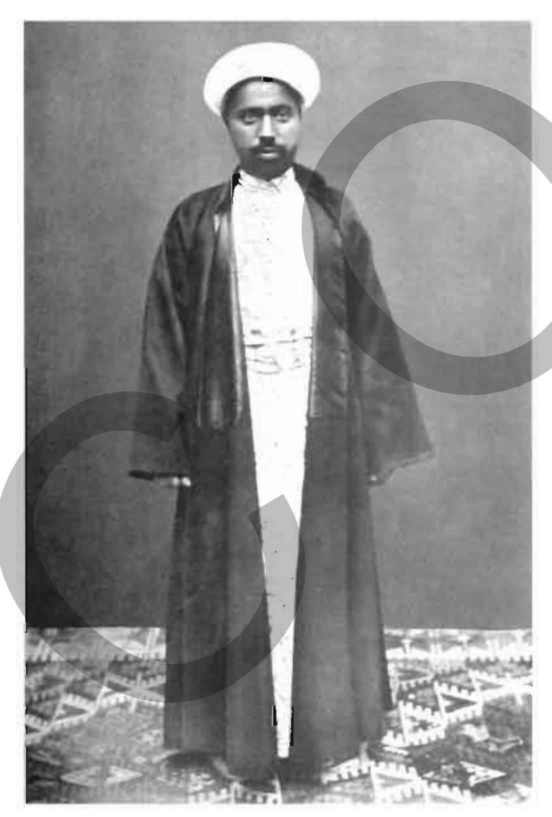
شخصيَّات



(٢٢): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول برقم ٧ لعون الرفيق، شريف مكة.
لقد رجحنا أنها من تصوير محمد صادق في حجة عام ١٣٠٢هـ حيث نص في كتابه كوكب الحج ص ٢٧ ‹وكان سعادة الشريف قد دعاني إلى الغداء ولم يكن معنا ثالث... وسمح لي برسم صورته بالفوتوغرافيا بملابس التشريف› وذلك يوم الاثنين ١٣٠٢/١٢/١٩هـ الموافق ١٨٨٥/٩/٢٨م. وليس هناك ما يشير إلى قيام سنوك بتصوير الشريف



(٢٣): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول برقم ٨ لعثمان نوري باشا الوالي العثماني على الحجاز ١٨٨٢ ـ ١٨٨٦م. من تصوير سنوك ـ جدة.



(٢٤): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول برقم ٩ لسادة الكعبة المشرفة من أسرة الشيبي



(٢٥): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول برقم ١٠ ويظهر فيها أحد كبار التجار الهنود مع بعض المسؤولين الأتراك في مكة المكرّمة



(٣٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول برقم ١١ لأحد كبار التجار (إلى اليمين) وممثل شريف مكة، مع عبده الشركسي، وهذه الصورة من تصوير عبدالغفّار حسب كتاب البعثة الهولندية ص ٧٨.



(٢٧): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول برقم ١٢/أ وهي لمحمد عبدالعزيز نجل شريف مكة عون الرفيق

ثلاث صور نشرها سنوك في الألبوم الأول
برقم ١٢/ب، جـ، د
وذكر أنها لأبناء أخوة الشريف ـ يقصد عون الرفيق
والواقع أنها لأحفاد أخوة الشريف عون أي أبناء الشريف
الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين بن عون
وهم عبدالله، وفيصل وعلي.



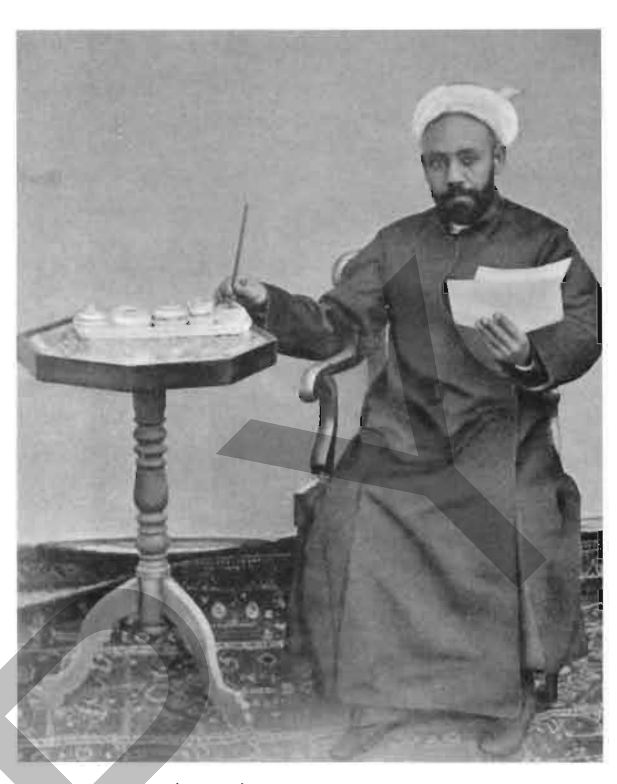
(٢٨): ١٢/ب، عبدالله بن الحسين



(٢٩): ١٢/جـ، فيصل بن الحسين



(٣٠): ١٢/د، علي بن الحسين



(٣١): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٣/أ
كاتب عند شريف مكة



(٣٢): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٣/ب
لأحد المؤذنين من المسجد الحرام



(٣٣): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٣/جـ
لأحد أعيان مكة المكرمة



(٣٤): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٣/د
لأحد أعيان مكة المكرمة



(٣٥): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٤/أ
لطبيب من مكة وهو السيد عبدالغفار



(٣٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٤/ب
لابن الطبيب (السيد عبدالغفّار) حسين



(٣٧): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٤/جـ
لأطفال من أسرة بني شيبة



(٣٨): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٤/د
لأحد أعيان مكة المكرمة



(٣٩): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٥/أ وهي لعلي الريس، أحد أفراد أسرة كبير المؤذنين بالمسجد الحرام.



(٤٠): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٥/ب لتاجرين من مكة وجدة. ومن المؤكد أنها التقطت في جدة.

(٤١): صورة نشرها سنوك في الألبوم رقم ١٥/جـ لأحد المؤذنين بالمسجد الحرام



(٤٢): صورة نشرها سنوك في الألبوم رقم ١٦/أ
لأفراد من الأشراف في مكة المكرمة



(٤٣): الألبوم الأول ١٦/ب



(٤٤): الألبوم الأول ١٦/جـ



(٤٥): الألبوم الأول ١٦/د



(٤٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٥/د، لمواطن من مكة المكرمة



(٤٧): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٣/أ
لشيخ مطوفي الحجاج الملايو

(٤٨): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٣/ب
لأحد مطوفي حجاج الملايو

(٤٩): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٤/أ
لشيخ الصيادين في جدة مع ثلاثة من رجاله، تصوير سنوك بجدة عام ١٨٨٤م



(٥٠): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٥/أ
تصوير سنوك والطفل هو الشيخ محمد نصيف
وقد أكد لنا ذلك حفيده الشيخ عبدالرحمن نصيف
أثناء زيارتنا له عام ١٤٢٢هـ في مكتبه بجدة

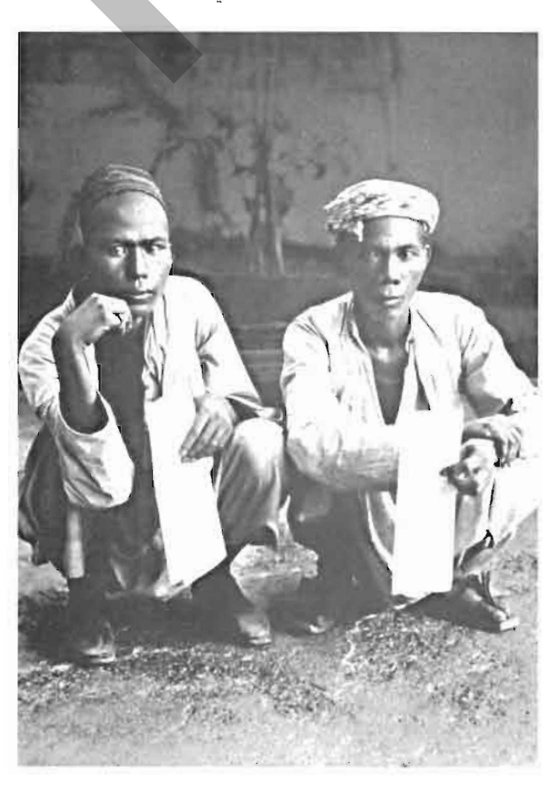

حجّـــاج



(٥١): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٩/أ
لحاجة من بنتن في جاوة



(٥٢): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٩/ب
حاجان من كابورا



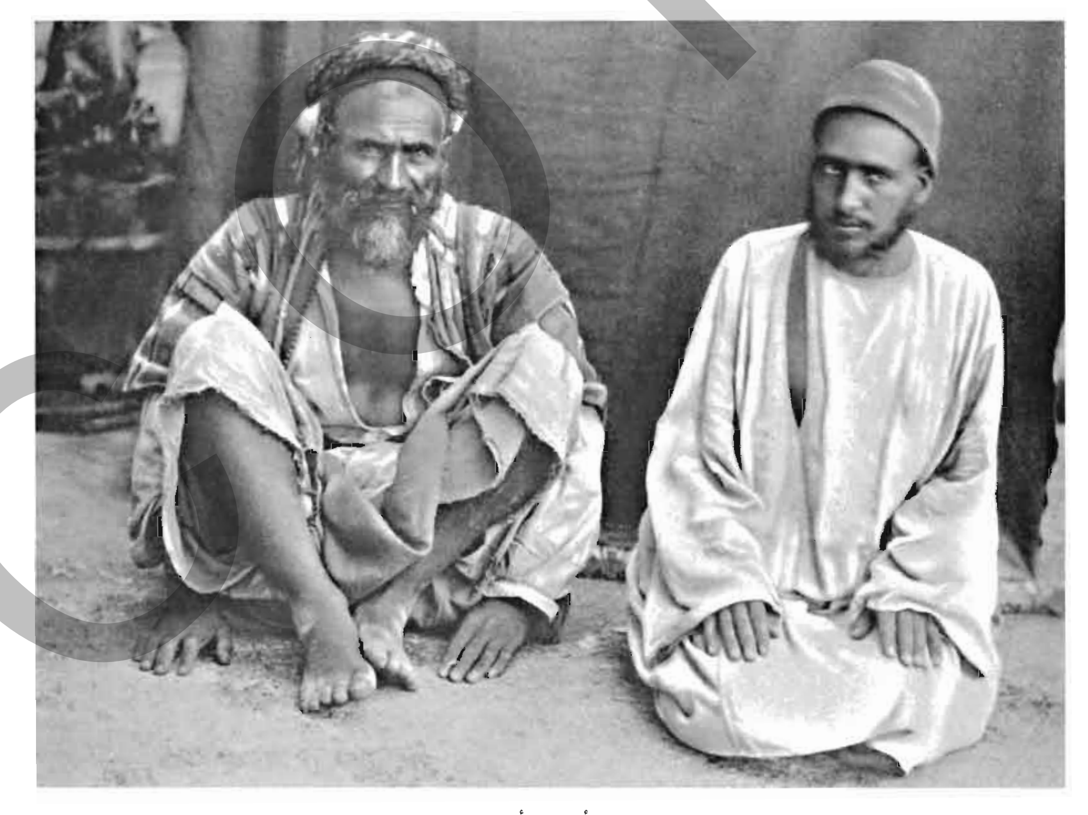
(٥٣): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٩/جـ
حاجان من سولوك (سومطرة)



(٥٤): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ١٩/د
حاجان من سليبس



(٥٥): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٠/أ، حاجان من البحرين يتوسطهم شيخ من كابل



(٥٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٠/ب، حاجان من بغداد



(٥٧): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٠/جـ، حاجان من زنجبار



(٥٨): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٠/د، حجاج من البصرة



(٥٩): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢١/أ، حجاج من مالانج وباسروان (جاوة)



(٦٠): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢١/ب، حجاج من ديابارا (جاوة)



(٦١): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢١/جـ، حجاج من مندر (سيبس)



(٦٢): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢١/د، حجاج من سمباوا



(٦٣): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٢/أ
حاج من المغرب



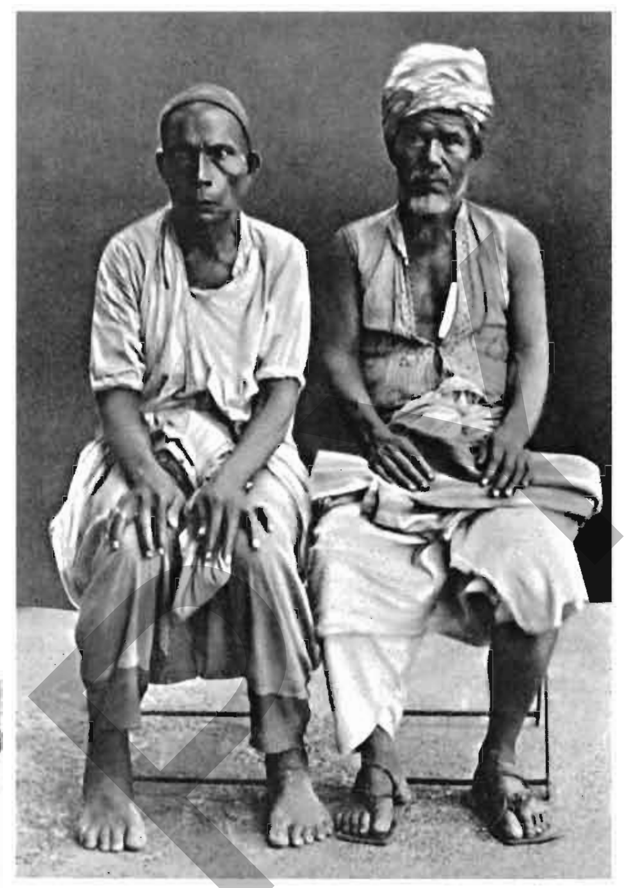
(٦٤): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٢/ب
حاجان من اليمن



(٦٥): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٢/جـ
درويشان من بخارى



(٦٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٢/د
حاجان من موكو ـ موكو واندرا بورا (غرب سومطرة)



(٦٧): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٣/عـ
حاجان من أيدي (شمال سومطرة)



(٦٨): أحد الحجاج العائدين إلى إندونيسية
باللباس المكي



(٦٩): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٤،
حجاج من كرونجى (سومطرة) وينتمي المرشد (المطوف) الذي يجلس في الخلف إلى المنطقة نفسها



(٧٠): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٦، حجاج من سلاجار (جنوب جزر سيبس)



(٧١): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٧، حجاج من بونتياناك (غرب بورنيو)
وفي أقصى اليسار حضرمي من جزيرة العرب يقطن هناك



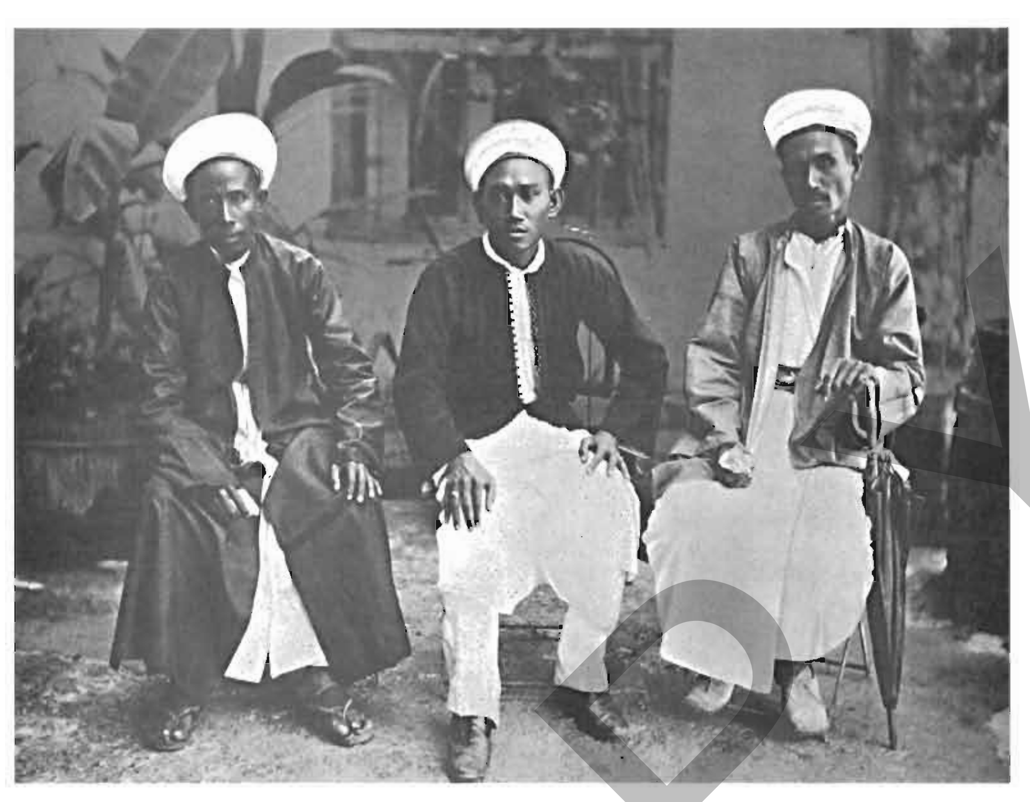
(٧٢): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٨، حجاج من سامباس (بورنيو)
ويقف خلفهم مندوب المطوف أو (الوكيل) من جدة



(٧٣): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٩، حجاج من مارتايورا (جنوب بورنيو)



(٧٤): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٠، حجاج من أمبون وكاي وبندا وإلى اليسار ابن أحد الأمبونيين من امرأة مكية



(٧٥): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣١، حجاج من باتجان (ملوكين)
ومن الوسط ابن السلطان وعن يساره عم الأمير وعن يمينه أحد الأئمة



(٧٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٢، حجاج من بالمانج

(٧٧): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٣، حجاج من تارنات

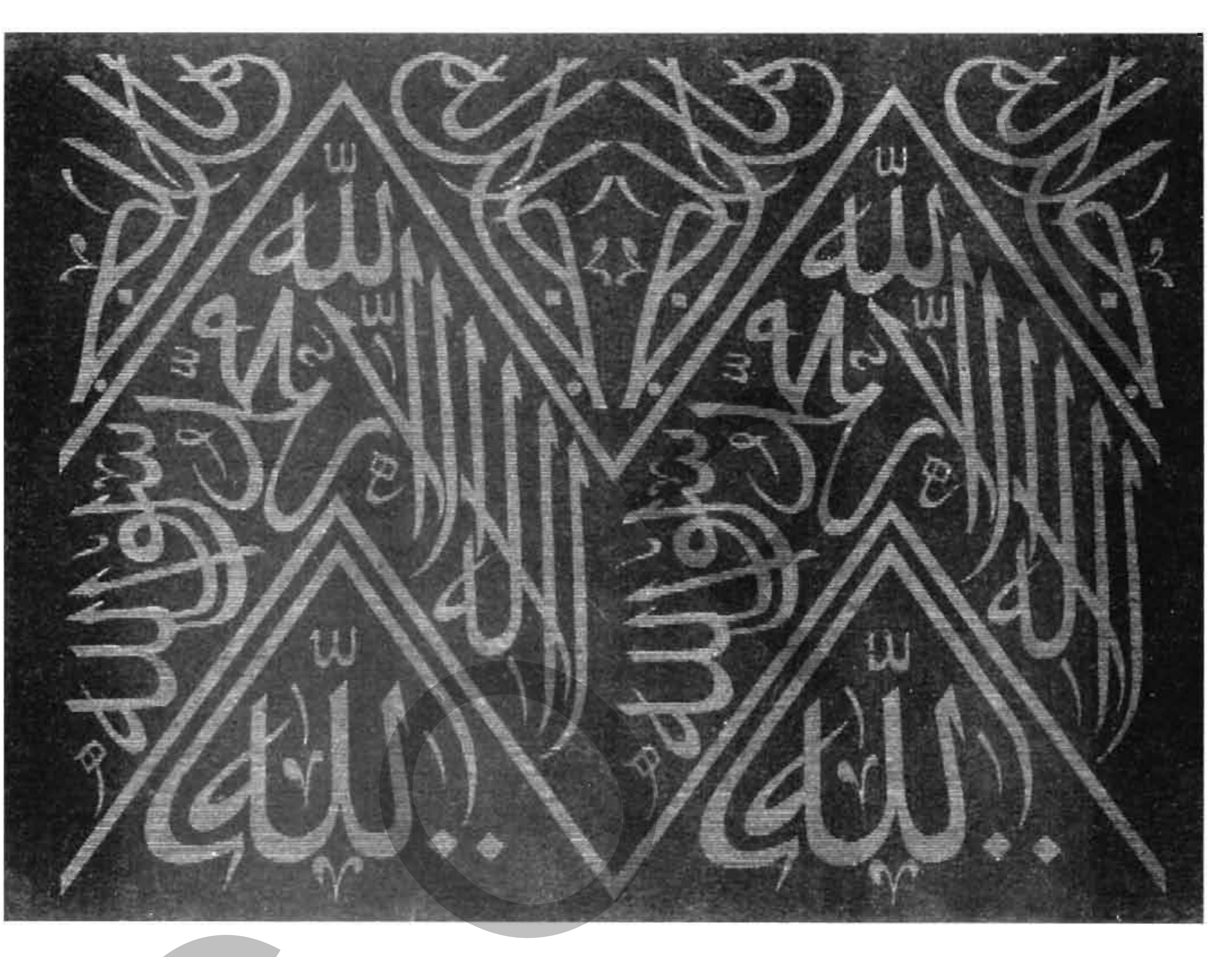


(٧٨): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٥، حجاج من منديالنج (سومطرة)



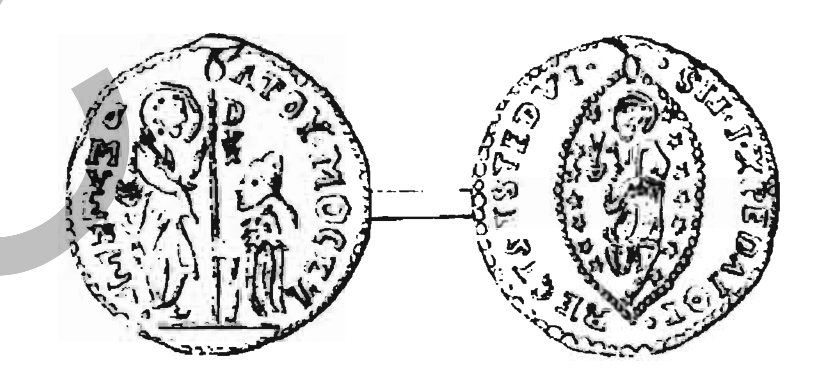
(٧٩): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٦
حجاج من آتشي وخلفهم اثنان من وكلاء المطوفين بجدة


تراثيّات وثوب الكعبة
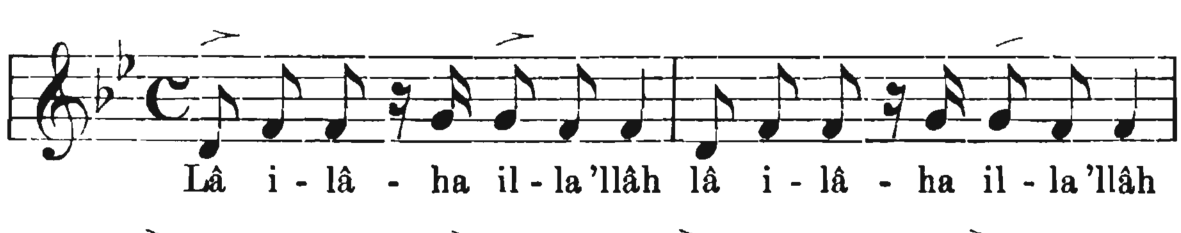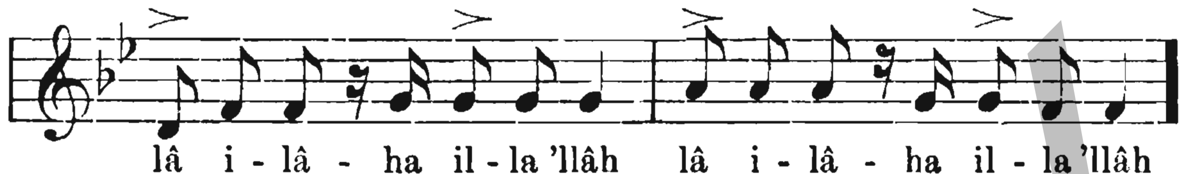


(٨٠): صورة التقطها سنوك لقطعة من ثوب الكعبة المشرفة
نشرها في ألبومه الأول برقم ١٧، وهي موجودة في متحف جامعة ليدن

(٨١): صورة نشرها ويتيكام في كتابه لمبنى سكن القنصل الهولندي والقنصل السويدي بجدة
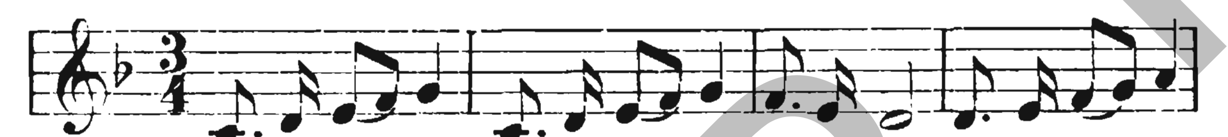


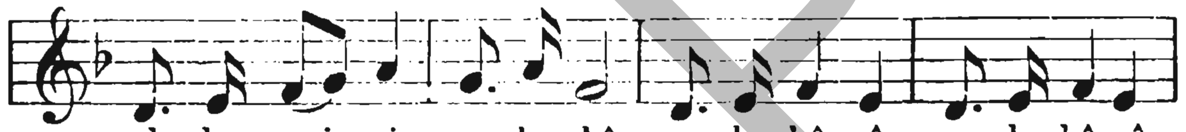
(٨٢): ‹مشخص› من عملة جنوب إيطاليا حوالى ١٤٠٠م/ ٨٠٣هـ
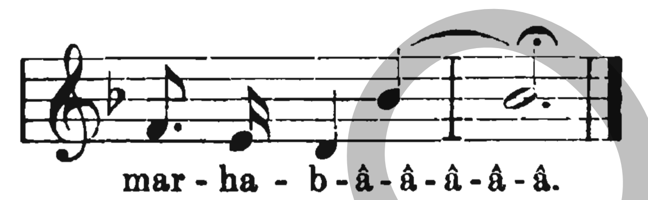




(٨٣): نوته لذكر الله [لا إله إلا الله (مكررة أربع مرات)
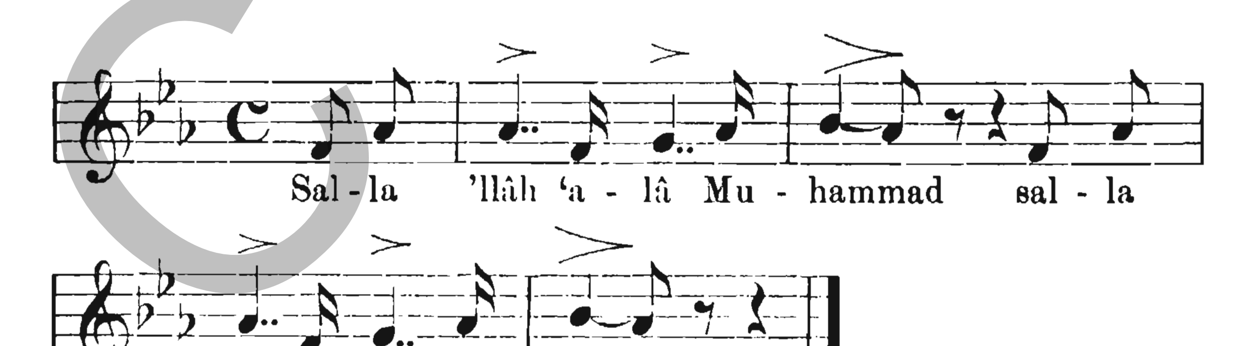




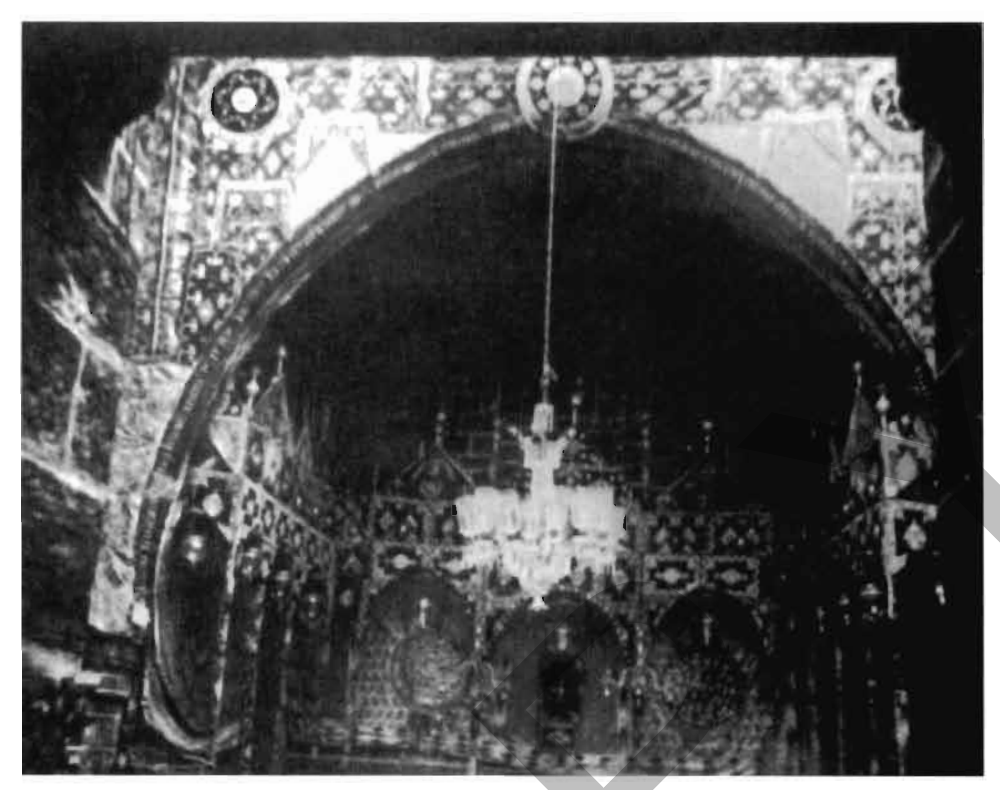


(٨٤): نوته للصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

مرحبًا نور العيذ مرحبا مرحبا جد الحسيذ مرحبا مرحبا يا مرحبا يل مرحبا



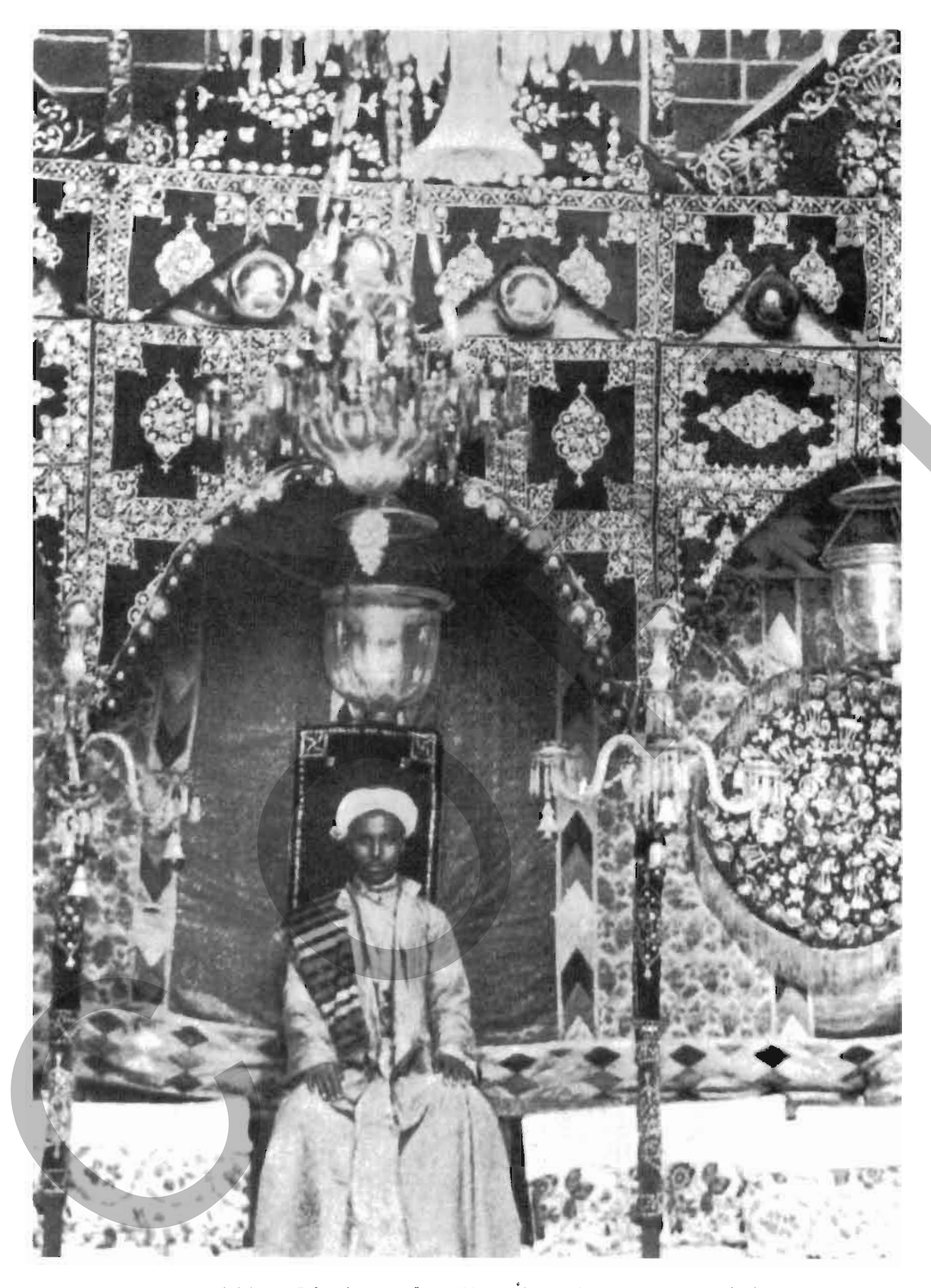
(٨٥): نوتة (صلى الله على محمد صلى الله عليه وسلم)



(٨٦): صورة نشرها سنوك في الألبوم الثاني رقم ١٨/أ، الريكة أو منصة الاحتفال بالزواج ليلة الدخلة



(٨٧): صورة محفورة نشرها سنوك في ألبومه الأول برقم ١٨ وتظهر فرقة من الزنوج يؤدون رقصتهم في جدة عام ١٨٨٤م (١٣٠١/١٣٠٢هـ)



(٨٨): صورة نشرها سنوك في الألبوم الثاني رقم ١٨ب، الريكة وداخلها العريس



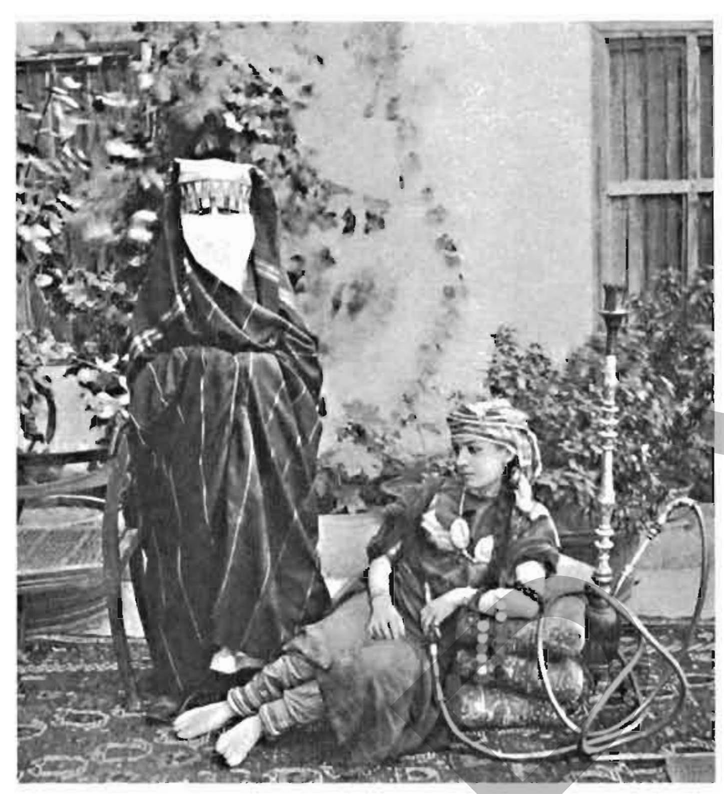
(٨٩): صورة التقطها سنوك للاعب بهلواني يدعى شاكر أفندي
نشرها ويتيكام في كتابه
‹كريستيان سنوك وكتابه عن مكة›



(٩٠): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٤/أ، تصوير سنوك عام ١٨٨٤م، جدة



(٩١): صورة نشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٢٤/ب، تصوير سنوك عام ١٨٨٤م، جدة



(٩٣): ثلاث صور التقطها السيد عبدالغفّار للنساء في مناسبات مختلفة، ونشرها سنوك في الألبوم الأول رقم ٣٥/أ



(٩٢): الألبوم الأول رقم ٣٥/ب



(٩٤): الألبوم الأول رقم ٣٥/جـ



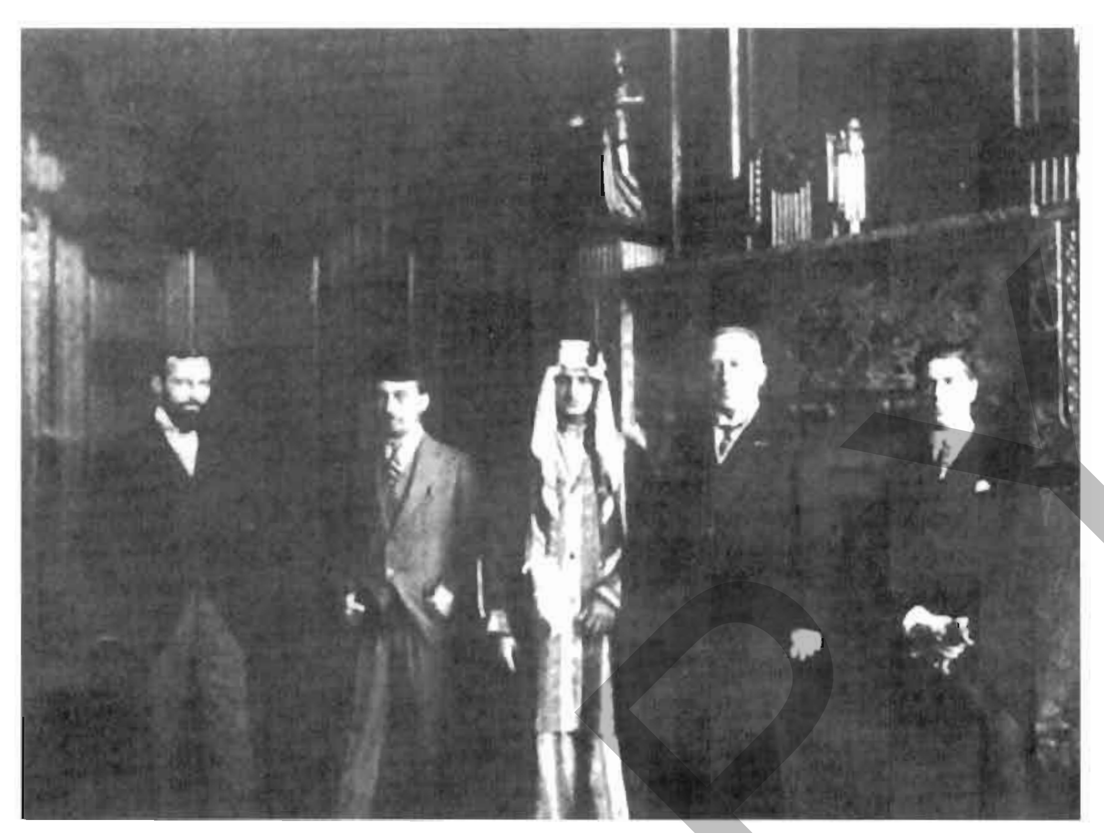
سنوك: مقابلاته ومراسلاته وعائلته



(٩٥): الأمير سعود بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في صورة تذكارية مع سنوك هورخرونيه
الواقف إلى يمينه أمام مدخل مكتبة جامعة ليدن ـ هولندا



(٩٦): سمو الأمير سعود بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ يزور مكتبة جامعة ليدن وبجانبه إلى اليسار سنوك هورخرونيه



(٩٧): سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز في هولندا في أكتوبر ١٩٢٦م



(٩٨): سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز مستقلًا العربة الملكية في هولندا في مايو ١٩٣٢م

مديرية الشؤون الخارجية

المكتب الخاص

مكة المكرمة في ٢١ رجب ١٣٤٨

٢٢ ديسمبر ١٩٢٩

سيدي

عهد الي حضرة صاحب السمو الملكي الامير فيصل نائب حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ان اقدم لكم بواسطة صديق الجهتين المستر فاندر مولن ، قنصل حكومة هولنده ، بجده ، خمسة مجلدات تحتوي اعداد جريدة ام القرى منذ صدورها حتى السنة الحالية . ومع ان سموه يعترف بان هذه الهدية هي هدية صغيرة في نظره ولا تستحق ان تقدم لاستاذ جليل مثلكم الا ان معرفته لفضلكم ورغبته في ان يوجد لديكم مجموعة كاملة من الجريدة التي رافقت تقدم مملكة حضرة صاحب الجلالة منذ نشأتها الى الآن ، جعلته يقدم على ذلك وهو قانع من انكم ستقبلونها بقبول حسن .

ارجو ان تكونوا دائما بخير واقدم لكم في الختام فائق التحية واجل الاحترام .

المخلص

فؤاد حمزة

الى حضرة الاستاذ الكبير سنوك هرنجرونيه الاعظم

ليدن - هولنده

(٩٩): صورة زنكوغرافية للرسالة التي بعث بها فؤاد حمزة إلى هورخورنيه



(١٠٠): صورة لسمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز في أكتوبر عام ١٩٢٦م في مدينة لاهاي مع مسؤولين هولنديين ويظهر ك. سنوك هورخرونيه واقفاً (١٣)

الطائف : ٢١ يوليو ١٩٣٦

حضرة السيدة والآنسة المحترمتين

تناولت في هذا البريد بمزيد الأسف الاخبارية المؤلمة التي والمتضمنة خبر وفاة صديقنا الجليل المسيو كريستيان سنوك هرخرونيه في أواخر يونيو المنصرم .

ان هذا النبأ كان له أعمق اثار الحزن في نفسي لما كنت أشعره نحو الفقيد من الاعجاب والاكبار بعد تعرفي الى شخصه المحترم واني أتوجه بأخلص عبارات التعزية اليكما بهذه الخسارة البالغة .

وفي الواقع ان وفاة المسيو كريستيان لا تفقده شيئا من اسمه الذكر وخالد الاثر الذي تحلى به في حياته ولكننا نفقد اصدقاء عالما جليلا وعضدا قويا بأن العرب الذين يعتبرونه من اكبر اصدقائهم لجديرون بهم ان يشعروا مع الالم بفقدانه .

وتفضلي أيتها السيدة والآنسة بقبول شعوري الطيب واحترامي الخالص.



حضرة السيدة والآنسة سنوك هرخرونيه المحترمتين.

(١٠١): رسالة تعزية من الأمير فيصل بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ إلى زوجة سنوك هورخرونيه وابنته



(١٠٢): كريستيان سنوك هورخرونية
بالملابس المكية



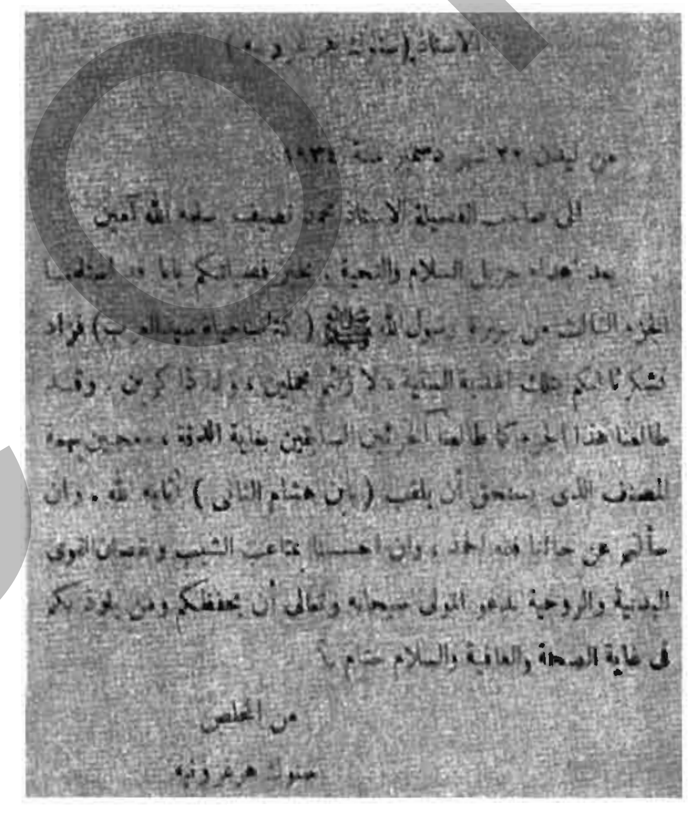
(١٠٣): صورة كريستيان سنوك هورخرونية الرسمية
من جاكرتا أيام إقامته هناك
وقد استلم د. معراج مرزا الأصل وعليه توقيع سنوك
من حفيده هاري بن يوسف



(١٠٤): صورة زوجة سنوك (ستى سجيدة)
وإبنه يوسف



(١٠٥): صورة لشاهد قبر زوجة سنوك الإندونيسية
(ستى سجيدة) في جاكرتا



من ليدن ٢٠ شهر دسمبر سنة ١٩٣٤

الى صاحب الفضيلة الاستاذ محمد نصيف سلمه الله آمين

بعد اهداء جزيل السلام والتحية ، نخبر فضيلتكم بانا قد استلمنا
الجزء الثالث من سيرة رسول الله ﷺ (كتاب حياة سيد العرب) فنزداد
شكرنا لكم على تلك الهدية الثمينة ولا زلنا [illegible] . وقد
طالعنا هذا الجزء كما طالعنا الجزئين السابقين بغاية الدقة ، معجبين بهمة
المصنف الذى يستحق أن يلقب (بابن هشام الثانى) أثابه الله . وان
سألتم عن حالنا فهو الحمد ، وان احسسنا بمتاعب الشيب ونقصان القوى
البدنية والروحية ندعو المولى سبحانه وتعالى أن يحفظكم ومن يلوذ بكم
فى غاية الصحة والعافية والسلام ختام .

من المخلص
سنوك هرغرونيه

(١٠٦): صورة زنكوغرافية من الرسالة التي بعث بها هورخرونية إلى الشيخ محمد نصيف

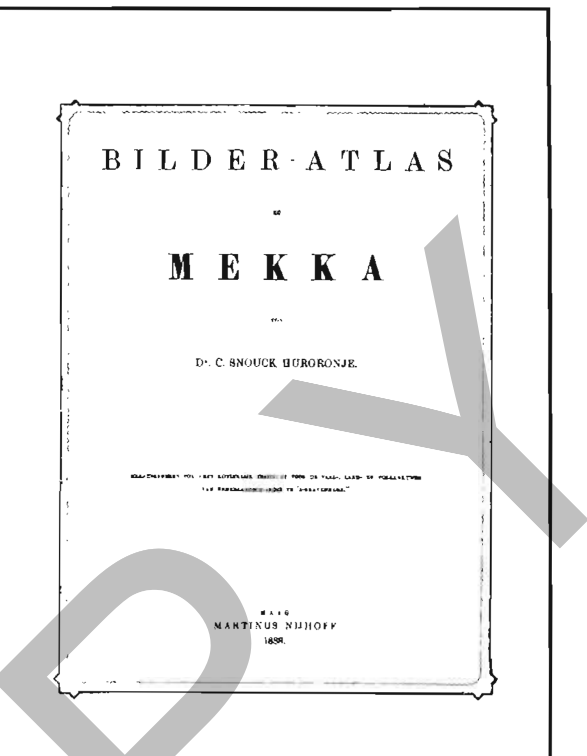
BILDER AUS MEKKA.

MIT KURZEM ERLAUTERNDEM TEXTE

VON

C. SNOUCK HURGRONJE.

LEIDEN, E. J. BRILL.
1889.



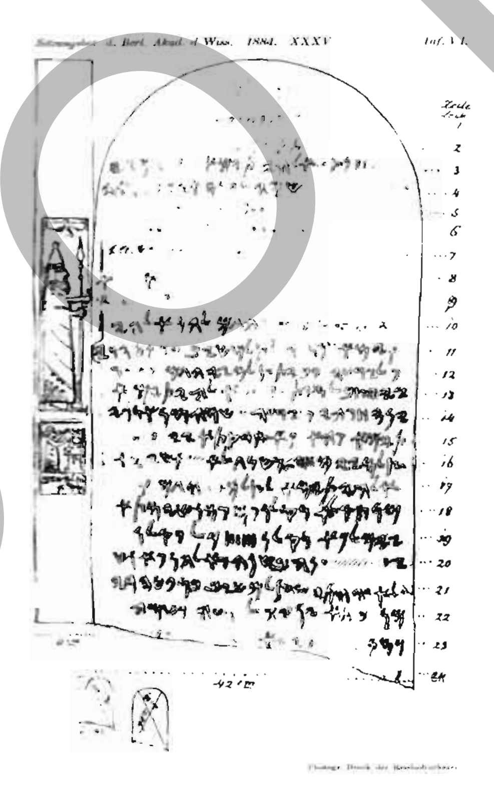
BILDER-ATLAS

MEKKA

Dr. C. SNOUCK HURGRONJE.

HAAG
MARTINUS NIJHOFF
1889.

(١٠٧): غلاف ألبوم الصور الأول والثاني



(١٠٨): اسكتش لحجر (نقش) تيماء

Amsterdam 22.12.1997

Assalammualaikum.

Dear Mr. Meraj.

Please find enclosed a copy of my letters sent to you and to Mr. Yamani.

Perhaps you both did not receive it.

Hope to hear from you soon.

Yours sincerely

Thanks again for your wonderful book.

Harry

(١٠٩): رسالة استلمها د. معراج مرزا من حفيد سنوك هورخرونية

Mr Meraj N. Mirza
P.O.Box 6247
Makkah
Saudi Arabia

Amsterdam, November 19, 1997

Dear Mr Mirza,

It was a pleasure to meet you at the Symposium in Leiden on November 14, 1997, and I thank you again for the book you gave me about my grandfather Snouck.

As promised, I will give you some information about my grandmother:

Siti Sadijah was born in 1885 in Bandung (West Java, Indonesia) and she died in 1974, as you can read on her tomb-stone, of which a photo is enclosed. She is buried on the family-cemetery in Bandung.

Siti S. was the daughter of the acting "Panghulu", Raden Hadji Muhammad Soe'êb (better known as "Kalipah Apo") and Siti Khadidja.

Siti S.'s only child, my father Raden Joesoef, was born on February 3, 1905. The enclosed photo of mother and child was taken somewhere in 1906, I assume not long before grandfather Snouck left Indonesia for good.

As you will know, grandfather Snouck was in Indonesia from May 11, 1889, till somewhere in 1906.

I hope that the above information will be helpful to you and if you need more information, please do not hesitate to let me know.

I would be very pleased if you could send me the photos you made of me in Leiden.

With kind regards
and sincerely yours,

Harry Joesoef
E. de Roodestraat 27
1056 AL Amsterdam
The Netherlands

(١١٠): رسالة من حفيد سنوك هاري بن يوسف

Mr Ahmed Zaki Yamani
17, Knightsbridge
London SW 1X 7LY
England

Amsterdam, November 19, 1997

Assalamualaikum W.W.

Dear Bapak Yamani,

It was an honour and pleasure to meet you and Mrs Yamani at the Symposium in Leiden on November 14, 1997.

Enclosed please find an original photo from my own collection of grandfather Snouck, taken in Batavia (Jakarta) somewhere in 1906.

On request of Mr Meraj N. Mirza, I have sent him some more information, as well as photos of my grandmother Siti Sadijah.

Salam Saudara

Sincerely yours,

Harry Joesoef
E. de Roodestraat 27 II
1056 AL Amsterdam
The Netherlands

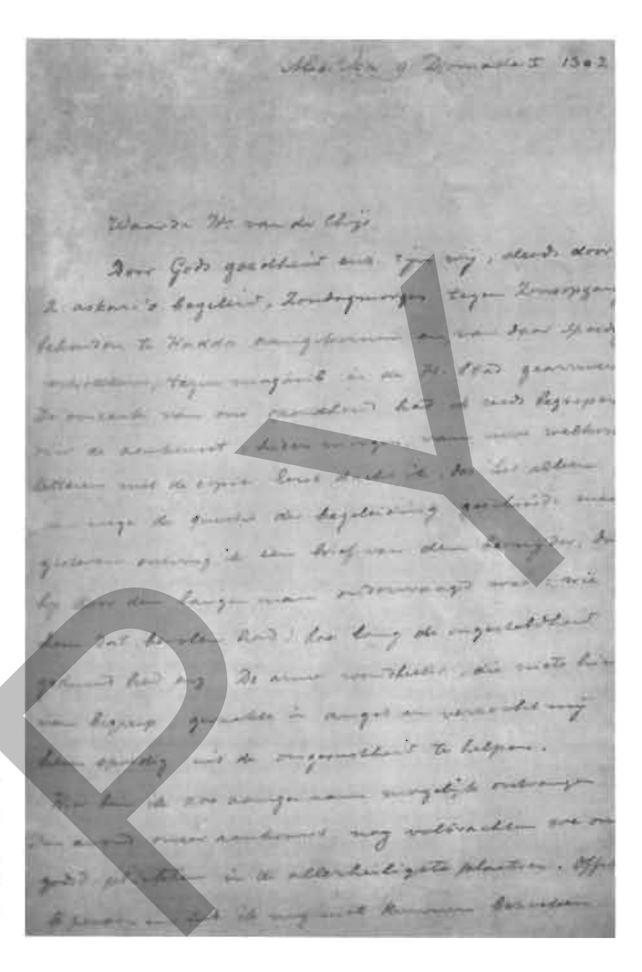
(١١١): رسالة من حفيد سنوك هاري بن يوسف

(١١٢): رسالة من السيّد عبدالغفّار الطبيب بمكة إلى سنوك هورخرونيه (عبدالغفّار) في ليدن بهولندا وفي الأربعة السطور الأخيرة منها يظهر بوضوح ما يزيل اللبس كيف أن السيّد عبدالغفّار كان يزوّد سنوك بالصّور لفترة طويلة بعد خروجه من مكة ويرسل له بعض الهدايا.

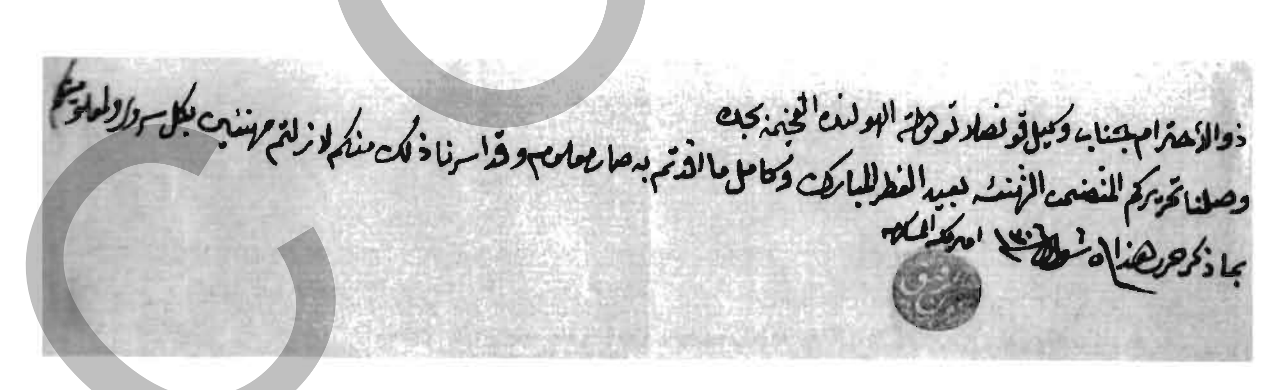
vooral van 't nog al erg. Nu gelukkig we [illegible]. Een ander [illegible] ms. Dan be-
sluit Engelb. maar voor te verlaten
en onze tenten op te slaan in Brunnen
maken wij morgen vertrekken, om er
indien 't ons bevalt eene week
te blijven.
En nu iets over 't destilleer toestel
'k Weet niet welke eischen ge stelt en
zal daarom maar een paar in 't oog
houden beschrijven.
Voor grootere hoeveelheden is een me-
talen ketel gemaakt van koper of
van sterk blik, z. Koper is beter omdat
't niet zoals blik gauw roestig is. Onderstaande vorm is dan
het meest gebruikelijke.

A is een koperen ketel waar
een helm B, die er juist op
past, geplaatst wordt en ver-
bonden is met een slang r.
[illegible] van boven een [illegible]

(١١٤): صورة من مذكرات سنوك
المعروفة بيوميات جدة بخط يده



(١١٣): صورة من مذكرات سنوك بخط يده

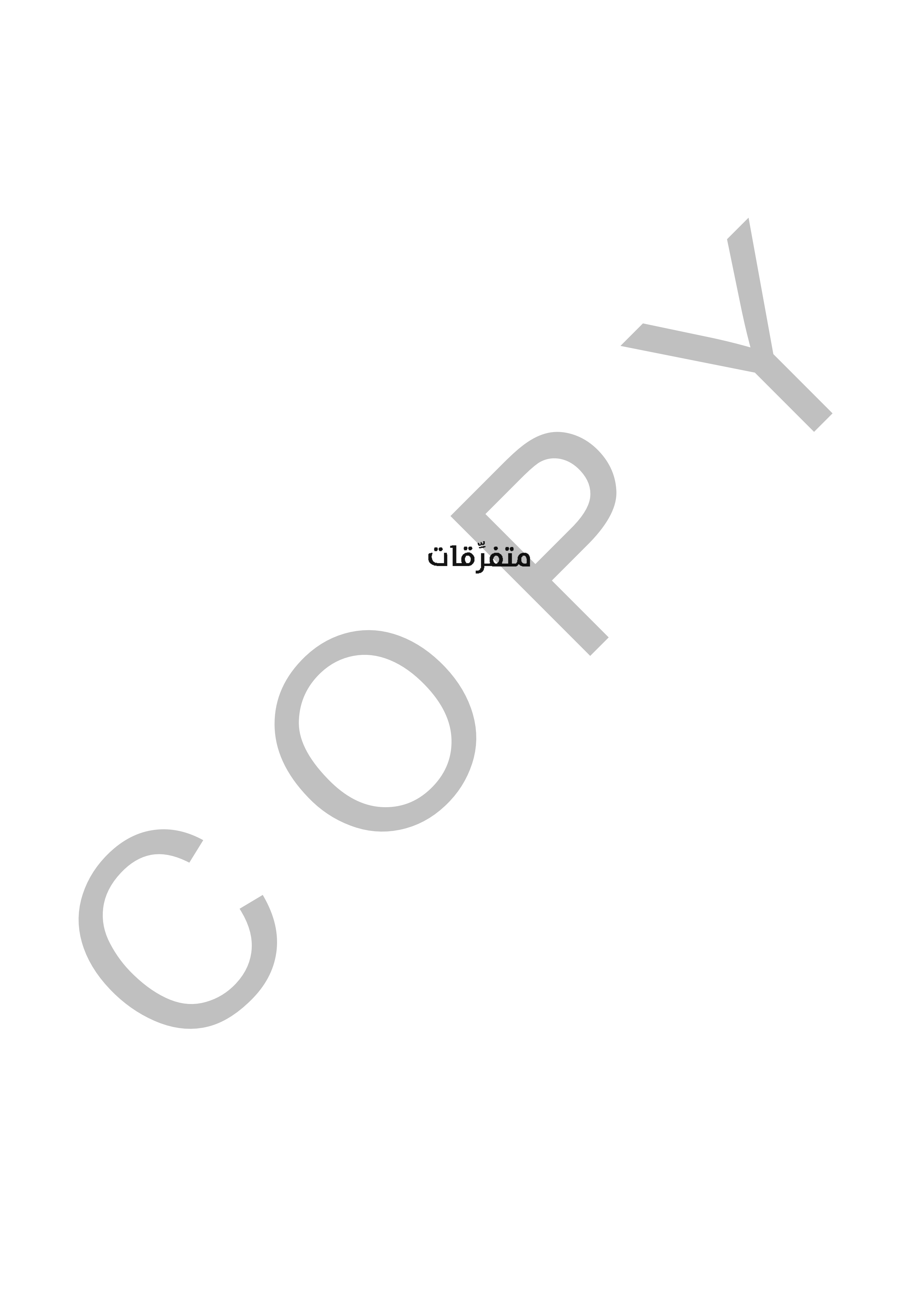


ذو الاحترام جناب وكيل قونصلاتو دولة الهولند الفخيمة بجدة
وصلنا تحريركم المتضمن [illegible]

(١١٥): رسالة من الشريف عون الرفيق إلى قنصل هولندا بجدة



(١١٦): الشيخ محمد نصيف من منزله بجدة



متفرِّقات



(١١٧): رادن أبو بكر نبيل جاوي من بنتن



(١١٨): السيد أمين المدني



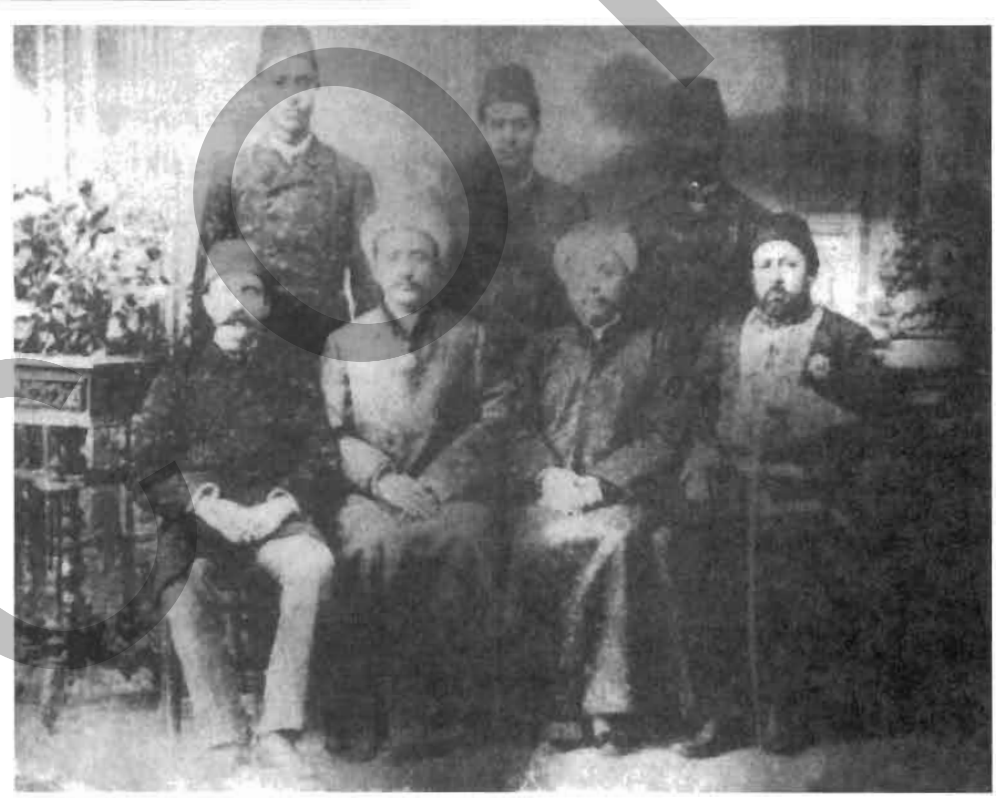
(١١٩): الشيخ حبيب عبدالرحمن الزاهر



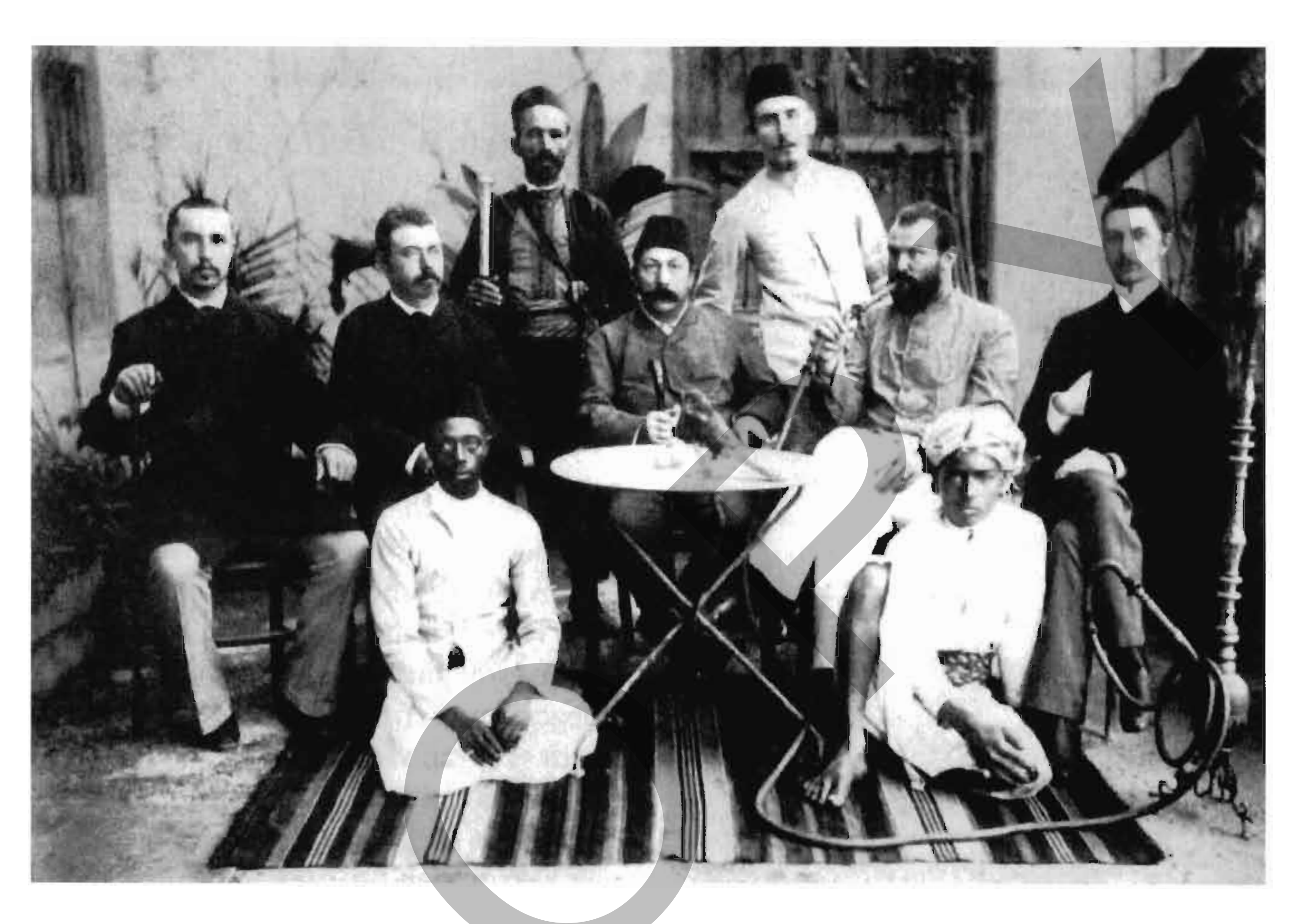
(١٢٠): سي عزيز بن الشيخ الحداد ويقف بجواره خادمه



(١٣١): عبدالله الزواوي



(١٣٢): مجموعة من الأعيان الأتراك



(١٢٣): سنوك هورخرونيه مع مجموعة العاملين في القنصلية الهولندية بجده

الملحق رقم (٨)
الصّناعات التقليديَّة



(١٢٤): صناعات تقليدية من مكة المكرمة (الألبوم الأول رقم ٣٧) ←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ، ٣، ٥، ٧ ـ أنواع من الشراب الفخارية (أواني لتبريد المياه).

٢ ـ دورق لتبريد ماء زمزم.

٤ ـ إبريق فخاري (للوضوء).

٨ ـ رُبعي (إناء فخاري صغير الحجم لتبريد الماء).

٩ ـ كانون.

١٠ ـ مبخرة فخارية.

١٧ ـ مبخرة نحاسية بغطاء.

١١ ـ ١٢ ـ دلة فخارية للقهوة.

١٤ ـ ١٥ ـ أمشاط خشبية.

١٦ ـ مِدك.

١٨ ـ مِرش (يرش به ماء الورد).

١٩ ـ قدح خشبي للسوائل.



(١٢٥): صناعات تقليدية من مكة المكرمة (الألبوم الأول رقم ٣٩) ←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ـ زمبيل (سلة مصنوعة من السعف).

٢ ـ مكنسة من السعف.

٣ ـ مكبة (غطاء لأطباق الأكل).

٤ ـ قفة من السعف.

٥ ـ مروحة من السعف.

٦ ـ قبقاب خشبي نسائي.

٧ ـ مداس مكاوي (من الجلد المدبوغ).

٨ ـ مداس مدني (من الجلد المدبوغ).

٩ ـ ١٠ ـ طاولة خشبية مُلَكّكة.

١١ ـ كرسي من الخشب يوضع عليه المصحف أو الكتاب.

١٢ ـ كرسي من جريد النخل.

١٣ ـ خرج من الجلد لحمل الأشياء



(١٣٦): صناعات تقليدية من مكة المكرمة (الألبوم الأول رقم ٣٩) ←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ـ ٢ ـ شربة مصنوعة من الخشب.

٣ ـ ٤ ـ أوعية خشبية لحفظ السوائل.

٥ ـ ٧ ـ علبة للحلي.

٦ ـ كأس.

٨ ـ مرفع خشبي تحفظ فيه الأطعمة.

٨ ـ حامل خشبي للأوعية المائية (المرفع).



(١٣٧): صناعات تقليدية من مكة المكرمة (الألبوم الأول رقم ٤٠) ←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ـ ٢ ـ شراب خشبية.

٣ ـ ٤ ـ وعاء خشبي بغطاء لحفظ الأشياء.

٥ ـ قدح خشبي.

٦ ـ ٧ ـ فنجان قهوة.

٨ ـ علبة بغطاء لحفظ التوابل.

٩ ـ طاسة رعشة.

١٠ ـ شيشة.

١١ ـ عقد فضي.

١٢ ـ مسبحة.



(١٢٨): المستشرق ك. سنوك هورخرونيه (عبدالغفار) ١٨٥٧م ـ ١٩٣٦م

الكشاف العام

ب

ت ـ ث

ج

ح - خ

د ـ ذ

ر ـ ز

س ـ ش

ص ـ ض

ط ـ ظ

ع ـ غ

ف ـ ق

ك

ل

م

ن ـ هـ

و ـ ي



مركز تاريخ مكة المكرمة

The Center of Makkah History

ص.ب.: ٦٥٣٥ ـ مكة المكرمة (العزيزية)
٢١٩٥٥ المملكة العربية السعودية
هاتف ٠٢٥٥٨٨٨٨٩ ـ فاكس ٠٢٥٢٨٦٣٤١

P.O.Box: 6535 - Makka (Al-Aziziya)
21955 Kingdom of Saudi Arabia
Tel: 025588889 - Fax 025286341



ص.ب: ٢٩٤٥ ـ الرياض ١١٤٦١
المملكة العربية السعودية ـ هاتف ٤٠١١٩٩٩
فاكس ٤٠١٣٥٩٧

P.O.Box: 2945 - Riyadh 11461
K.S.A - Tel: 4011999 Fax: 4013597

البريد الإلكتروني: info@darah.org.sa
موقع الإنترنت: www.darah.org.sa